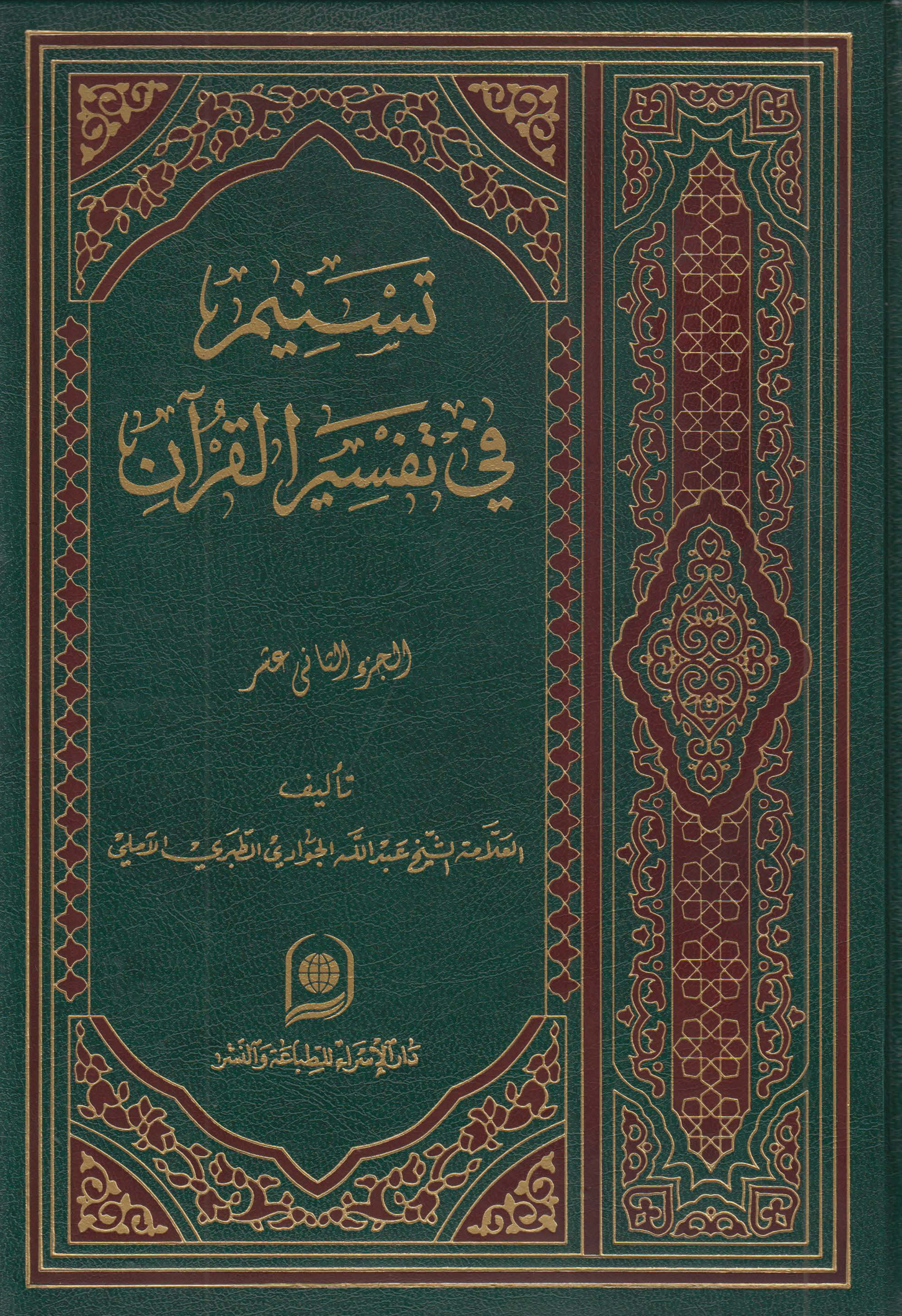

تسنيم
في تفسير القرآن
الجزء الثاني عشر
تأليف
العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي
دار الإسراء للطباعة والنشر


بسم الله الرحمن الرحيم

تسنيم

في تفسير القرآن الكريم

الجزء الثاني عشر

تأليف

آية الله الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي

تعريب

عباس صافي

الهويّة: جوادى آملى ، عبدالله ، ۱۹۳۳ م .
العنوان الأصلى: تسنيم تفسير قرآن كريم .
العنوان: تسنيم فى تفسيرالقرآن الكريم /المؤلف: الشيخ عبدالله الجوادي الطبري الآملي؛ تعريب: مركز الترجمان الديني (عبّاس صافي) .
مواصفات النشر : قم : دار الإسراء ، ۲۰۱۵ م .
اللغة : العربية .
الموضوع : تفسير القرآن الكريم .
التصنيف المكتبى : ۱۳۸۹ ۵۰۴۳ ت ۹ج/۹۸ BP
ديوى العشرى تصنيف : ۲۹۷/۱۷۹
التسلسل فى المكتبة الوطنية : ۲۰۵۲۱۹۳

● عنوان الكتاب : .... تسنيم فى تفسير القرآن الكريم ، الجزء الثّاني عشر
● تأليف : .... الشيخ عبدالله الجوادي الطبري الآملي (دام ظله العالي)
● تعريب : .... مركز الترجمان الديني (عبّاس صافي)
● الناشر : .... مركز الإسراء للنشر
● المطبعة : .... مركز الإسراء للطباعة
● الطبعة : .... الأولى
● سنة النشر : .... ربيع ۲۰۱۵ م_ ۱٤۳٦ هـ.ق
● شابك (الدوره) : ٩٧٨- ٩٦٤-٨٧٣٩-٤٠-٤
● شابك (الجزء الثّاني عشر): ٩٧٨- ٦٠٠-٧٨٣٥-٠٨-١

آلعنوان: قم، شارع عمار ياسر،أول شارع الشهيد قدوسي،مؤسسة الإسراء الدوليّة لعلوم الوحي
هاتف : ۷۷۶۵۳۵۶ ۹۸۲۵۱+ – ۷۷۶۵۳۵۷ ۹۸۲۵۱+
البريد الإلكتروني : Publish_center@esraco.net
الموقع الإلكتروني : www.esra.ir

محتويات الكتاب

الآية ٢٥٣

خلاصة التفسير ٣٣
التفسير ٣٤
المفردات ٣٤
تناسب الآيات ٣٦
تكريم الأنبياء ٣٦
الفضيلة باعتبارها كمال الوجود الحقيقيّ ٣٧
وَجه تفضيل الأنبياء ٣٩
التفضيل على أساس التكليم ٤٠
حقيقة تكليم الله ﷻ ٤٢
بيان درجات التفضيل الإلهيّ ٤٧
الدرجة كحقيقة وجوديّة ٤٩
التفضيل بالبيّنات والتأييد بروح القُدُس ٥١
المقصود بروح القُدُس ٥٢
المشيئة الإلهية واختيار الإنسان ٥٣
أنواع الحروب ٥٦
المشيئة التكوينية للحرب والاقتتال ٥٧
سرّ مشيئة الله في الحرب ٥٨
إشارات ولطائف ٥٩

١ . مسألتان حول النبوّة ٥٩
٢ . تفضيل الأنبياء بعضهم على بعضهم ٦١
٣ . تفضيل الأنبياء على الملائكة ٦٢
٤ . فضيلة سيّدنا نوح عليه السلام ٦٣
٥ . الأدلّة على أفضليّة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله ٦٤
أ. هيمنة القرآن الكريم: ٦٤
ب. بشارة سيّدنا عيسى عليه السلام ٦٦
ج. الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله شاهد على الأنبياء ٦٦
د. شمولية الرّسالة واستمرارها ٦٨
٦ . محو الاختلاف في الدّين ٦٩
٧ . التّشبيه بالشّرك ٧١
٨ . العذاب الشديد ٧٣
٩ . دور الفرد في الفتنة ٧٦
١٠ . إرادة الله عزّ وجلّ ٧٧
إرادة الله التشريعية هي الغالبة ٨٥
بحث روائيّ ٨٧
١ . تفضيل الأنبياء عليهم السلام بعضهم على بعض ٨٧
٢ . محوريّة أُولي العزم من الرّسل ٨٩
٣ . السرّ في أفضلية النبيّ صلى الله عليه وآله المطلقة ٨٩
٤ . مراتب أرواح الأنبياء وشؤونها ٩٠
٥ . معيار التفاضل بين الأنبياء عليهم السلام ٩١
٦ . الاختلاف المؤدّي إلى الكُفر ٩٢

الآية ٢٥٤

خلاصة التفسير ٩٤
التفسير ٩٤
المفردات ٩٤



تناسب الآيات ٩٥
دعوات القرآن الكريم إلى الإنفاق........................ ٩٦
الاختلاف بين نظامَيْ الدّنيا والآخرة.................... ٩٧
ترك الإنفاق كُفر عمليّ.................................. ١٠١
بحث روائيّ.. ١٠٢
١ . الأخوّة في الله ١٠٢
٢ . مانِع الزّكاة وكُفره العمليّ ١٠٣

الآية ٢٥٥

خلاصة التفسير.. ١٠٤
التفسير.. ١٠٥
المفردات ١٠٥
تناسب الآيات ١٠٨
الهيكل الداخلي للآية ١٠٨
مرتبة آية الكرسيّ ١١١
الوحدانية المطلقة ١١٢
الفطرة ١١٣
الحياة الأبديّة ١١٣
حياة الله ﷻ الذاتية ١١٥
القيّوميّة الإلهيّة ١١٧
الله ﷻ مُنزّه عن النّوم.. ١١٩
المالِك الوحيد للوجود.. ١٢١
مالِك المُلك والمَلكوت.. ١٢٤
نَفي شفاعة الأصنام ١٢٦
إمكانية الشفاعة ١٢٨
علم الله المُحيط ١٣١
كيفية عِلم الله ﷻ.. ١٣٣

المعلّم الوحيد للوجود ١٣٤
العلم القابل للتبعيض ١٣٦
الفضاء الفَوطبيعيّ ١٣٧
حقيقة الكُرسيّ ١٣٨
حفظ السموات والأرض ١٤٣
أقسام العلوّ ١٤٥
مراتب العلوّ المكانيّ ودرجاته ١٤٧
«الواو» في الآية الشريفة ١٤٨
إشارات ولطائف ١٤٩
١ . الأسماء الحسنى ١٤٩
٢ . ثبوتية صفات الله ﷻ ١٥١
٣ . عينيّة الصّفات والذّات ١٥٣
٤ . الله ﷻ حيّ ١٥٥
٥ . التوكّل على (الحَيّ الذي لا يَموت) ١٥٧
٦ . الحياة والفطرة الثابتة ١٥٩
٧ . القَيّم الظاهريّ والقَيّم الباطنيّ ١٦١
٨ . «تَوَفّى» و«بَعَثَ» ١٦٣
٩ . قدرة الله اللامتناهية ١٦٥
بحث روائيّ ١٦٨
١ . شأن النّزول ١٦٨
٢ . آية الكُرسيّ في الرّوايات ١٦٩
٣ . ثواب قراءة آية الكرسيّ ١٧٢
٤ . آل البيت عليهم السلام مأذونون في الشّفاعة ١٧٤
٥ . الكُرسيّ ومرتبته ١٧٥
٦ . أُولى الأسماء الحُسنى ١٧٧
٧ . نَفي زيادة الصّفات على الذات ١٧٧

الآية ٢٥٦

خلاصة التفسير ١٧٩
التفسير ١٨٠
المفردات ١٨٠
تناسب الآيات ١٨٤
معنى (الدّين) ١٨٤
نوع الحُكم في الآية ١٨٧
بحث في الحكم التشريعيّ ١٩٠
بحث في الحكم التكوينيّ ١٩٢
الآراء الأربعة في الحكم التشريعيّ ١٩٤
الردّ على إشكاليّة النّسخ ١٩٥
لا إكراه في العقيدة ١٩٩
الآية لا تنفي الجَبر ولا تثبت التفويض ٢٠٠
تطهير الفطرة وتقوية الإيمان ٢٠٢
الدّين كحافظ للإنسان ٢٠٣
الله السّميع العَليم ٢٠٥
إشارات ولطائف ٢٠٥
١ . أصالة الاستقلال والحريّة والفقر والعبودية ٢٠٥
٢ . الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والحرية ٢٠٦
٣ . حكم المرتدّ في الإسلام ٢٠٧
٤ . كمال الإنسان في التفكير والاختيار ٢٠٩
٥ . السرّ في تقدّم الإسلام ٢١١
٦ . صفات الرّاشدين ٢١٣
٧ . الحقيقة الواحدة للقرآن والعترة الطاهرة ٢١٤
بحث روائي ٢١٦
١ . شأن النّزول ٢١٦

٢ . معنى «الطّاغوت» ٢١٧
٣ . مصاديق ﴿الْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ ٢١٨

الآية ٢٥٧

خلاصة التفسير ٢٢١
المُفردات ٢٢٢
تناسب الآيات ٢٢٢
الوليّ الأوحد للمؤمنين ٢٢٣
معنى «الإخراج» ٢٢٤
مبدأ الإخراج من الظّلمات ٢٢٩
مراتب الإخراج من الظلمات إلى النور ٢٣٣
الشروط المكمّلة للإخراج من الظُلمات ٢٣٦
معنى ولاية الطاغوت ٢٣٧
الطاغوت يُحاسب أولياءه ٢٣٩
لا جَبر ولا تفويض في الآية ٢٤١
إشارات ولطائف ٢٤٣
١ . الإمامية والولاية الإلهية ٢٤٣
٢ . الشّمس والعَيْن الباطنيّتان ٢٥٠
٣ . منشأ النّور والظلمة في الإنسان ٢٥٢
٤ . استخدام مُصطلحَي «الظلمة» و«النّور» ٢٥٤
بحث روائيّ ٢٥٨
١ . ولاية الإمام الجائر ٢٥٨
٢ . التفسير التطبيقيّ للآية ٢٦٠

الآية ٢٥٨

خلاصة التّفسير ٢٦١
التفسير ٢٦٢

المُفردات ٢٦٢
تناسب الآيات ٢٦٤
محور المحاجّة ٢٦٧
سلطان آل إبراهيم عليهم السلام ونمرود ٢٧٠
إحتجاج سيّدنا إبراهيم عليه السلام ٢٧٤
التحليل المنطقي للبرهان الأوّل ٢٧٦
خداع نمرود ومغالطته ٢٧٨
البرهان الثاني لسيّدنا إبراهيم عليه السلام ٢٨٠
كُفر نمرود وضلاله ٢٨٤
إشارات ولطائف ٢٨٥
١ . منهج الأنبياء عليهم السلام في الإرشاد والتبليغ ٢٨٥
٢ . دوافع الكفّار في مواجهة دعوة الأنبياء عليهم السلام ٢٨٩
٣ . نتيجة المحاجّة مع الأنبياء عليهم السلام ٢٩١
٤ . استدلال الأنبياء عليهم السلام ببعض الشؤون الربوبية ٢٩٣
٥ . ضرورة البرهان لإثبات ربوبيّة الله عزّ وجلّ ٢٩٤
٦ . مفهوم «المَشرق» و«المَغرب» ٢٩٦
بحث روائيّ ٢٩٨
١ . المحاجّة مع إبراهيم عليه السلام ٢٩٨
٢ . وقت محاجّة النّمرود ٢٩٩
٣ . الأدلّة المحسوسة والمعجزات الملموسة ٣٠٠

الآية ٢٥٩

خلاصة التفسير ٣٠١
التفسير ٣٠٣
المُفردات ٣٠٣
تناسب الآيات ٣٠٦
محور السؤال في الآية ٣٠٨

فرضيّات خاطئة ٣١٠
السائل الموحِّد يطلب الشهود ٣١٤
شهود البَعث ٣١٩
الاحتمالات بشأن المتحدّث ٣٢٠
الجواب العمليّ والقدرة الإلهية ٣٢١
إشارات ولطائف ٣٢٥
١ . العلم بالقَدَر ٣٢٥
٢ . إثبات المعاد عن طريق الخلق الابتدائيّ ٣٢٦
بحث روائيّ ٣٢٦
تعريف بطل القصّة ٣٢٦

الآية ٢٦٠

خلاصة التفسير ٣٢٨
التفسير ٣٢٩
المُفردات ٣٢٩
تناسب الآيات ٣٣١
الفرق بين هذه الآية والآية السابقة ٣٣٢
غاية سيّدنا إبراهيم عليه السلام من طَلَبْته ٣٣٤
الغاية من سؤال سيّدنا إبراهيم عليه السلام ٣٤٢
نَقد الاحتمالات السابقة ٣٤٣
التناسب بين السؤال والجواب ٣٤٧
تمثيل أم حقيقة؟ ٣٥٠
نَقد نظرية التمثيل ٣٥٣
إشارات ولطائف ٣٦٠
١ . إبراهيم عليه السلام ورؤية الملكوت ٣٦٠
٢ . شُبهة (الآكِل والمأكول) والجواب عليها ٣٦١
٣ . شُبهة أخرى والجواب عليها ٣٦٤

بحث روائيّ ٣٦٥
١ . معنى «كَيْفَ» في سؤال إبراهيم عليه السلام ٣٦٥
٢ . الهدف من سؤال إبراهيم عليه السلام ٣٦٦
٣ . نَقد شُبهة تغيّر الأجزاء ٣٧٠

الآية ٢٦١

خلاصة التفسير ٣٧٢
التفسير ٣٧٢
المُفردات ٣٧٢
تناسب الآيات ٣٧٤
تشبيه المعقول بالمَحسوس ٣٧٧
السرّ في تشبيه المُنفِق بالحبّة ٣٨١
الأجر المُضاعَف ٣٨٢
الهدف من الإنفاق ٣٨٤
سِعة الفضل الإلهيّ ٣٨٩
إشارات ولطائف ٣٩٠
١ . طبيعة البخيل وفطرة السّخي ٣٩٠
٢ . الإنفاق ومعالجة داء الجشع ٣٩٢
٣ . وسائل الاختبار وأدوات الابتلاء ٣٩٤
٤ . مُغالطة صريحة ٣٩٥
٥ . الإنفاق بلا مَنّ ولا أذى ٣٩٦
٦ . أهمية الإنفاق ٣٩٨
٧ . الأسبقية في المرتبة لا في الزّمان ٣٩٨
٨ . بركات الإنفاق ٣٩٩
أ. تطهير الحال وتزكية المال ٣٩٩
ب. تربية الروح ٤٠٠
ج. الحظوة بدعاء النبيّ صلى الله عليه وآله ٤٠٠

بحث روائيّ ٤٠١
١ . مصاديق عبارة «في سبيل الله» ٤٠١
٢ . المشمولون بالأجر المضاعَف ٤٠٢

الآية ٢٦٢

خلاصة التفسير ٤٠٥
التفسير ٤٠٥
المُفردات ٤٠٥
تناسب الآيات ٤٠٨
شرط الإنفاق ٤٠٩
السّبب في ضياع الإنفاق وهَدره ٤١٠
تناقض آثار «المَنّ» و«الأذى» مع آثار «الإنفاق» ٤١٣
ما يُبْطَل به الإحسان الفرديّ والجماعيّ ٤١٤
الإنفاق على غير هُدى ٤١٥
المُنفقون بالمَنّ يدّعون الرّبوبية ٤١٥
الأجر العظيم والثواب الكبير ٤١٦
لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ٤١٧
بحث روائيّ ٤٢٢
١ . الله ﷻ لا يكلّم المُنفق المَنّان ٤٢٢
٢ . تَرك المَنّ والأذى تكليف عموميّ ٤٢٣

الآية ٢٦٣

خلاصة التفسير ٤٢٤
التفسير ٤٢٤
المُفردات ٤٢٤
تناسب الآيات ٤٢٧
القول المعروف والمغفرة ٤٢٨



التأثير البالغ للأسماء الحُسنى ٤٢٩
إشارات ولطائف ٤٣٠
١ . الدستور العالمي للإسلام ٤٣٠
٢ . المغفرة، شأن دينيّ باطنيّ ٤٣١
بحث روائيّ ٤٣٢
١ . كيفية التعامل مع السائل ٤٣٢
٢ . القول المعروف صَدقة ٤٣٣

الآية ٢٦٤

خلاصة التفسير ٤٣٥
التفسير ٤٣٦
المُفردات ٤٣٦
تناسب الآيات ٤٣٨
معنى (إبطال الصّدقة) ٤٣٨
الأذى والرّياء توأمان ٤٤١
معنى الرّياء ٤٤٢
ذِكر الرّياء بشكل مستقلّ ٤٤٢
وجه التشبيه في الآية ٤٤٣
تشبيه قلب المرائي بالصّفوان ٤٤٤
حَبْط العمل ٤٤٥
الهداية التكوينية الخاصّة ٤٤٧
إشارات ولطائف ٤٤٨
١ . الأحكام الفقهية الخاصّة بـ(المَنّ) و(الأذى) و(الرّياء) ٤٤٨
٢ . المُرائي مُختال وفخور ٤٥١
٣ . عدم حُرمة مُطلق التّظاهر ٤٥٢
٤ . تحقّق المَنّ والأذى والرّياء ٤٥٢
بحث روائيّ ٤٥٣

١ . إبطال الصّدقة بالمَنّ والأذى والرّياء ٤٥٣
٢ . العمل المَشوب ٤٥٤

الآية ٢٦٥

خلاصة التفسير ٤٥٥
التفسير ٤٥٦
المُفردات ٤٥٦
تناسب الآيات ٤٥٨
بيان المُمثّل في الآية ٤٥٨
المبدأ الفاعليّ لتثبيت النفس ٤٦١
الفرق بين «مِن أنفسهم» و«لأنفسهم» ٤٦١
كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ٤٦٤
تشبيه المؤمنين بالوابل والطلّ ٤٦٧
ترغيب وترهيب ٤٦٧
بحث روائي ٤٦٨
١ . صفوة المُنفقين المخلصين ٤٦٨
٢ . أجر مُضاعف للمنفقين المخلصين ٤٦٨
٣ . ثمرة الإنفاق المستمرّ ٤٦٩

الآية ٢٦٦

خلاصة التفسير ٤٧٠
التفسير ٤٧١
المُفردات ٤٧١
تناسب الآيات ٤٧٤
حال المُبطِل لصَدقته يوم القيامة ٤٧٤
حدوث مضمون الآية في الدنيا ٤٧٧
استخدام عبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ٤٧٨



بحث روائيّ ٤٧٨
الآثار السيئة للإنفاق بالمَنّ ٤٧٨

الآية ٢٦٧

خلاصة التفسير ٤٨٠
التفسير ٤٨٠
المُفردات ٤٨٠
تناسب الآيات ٤٨١
أوصاف المال الحقيقية والاعتباريّة ٤٨٢
الإنفاق من المال الطيّب ٤٨٣
تجنّب الإنفاق من المال الخبيث ٤٨٥
تمييز المال الخبيث ٤٨٧
الصفتان «الغَنيّ» و«الحَميد» ٤٨٨
إشارات ولطائف ٤٩٠
١ . الإسلام يربّي جيلاً طيّباً ٤٩٠
٢ . العاقبة السيّئة ٤٩٢
٣ . الإنفاق والإيديولوجية الماديّة ٤٩٥
٤ . القرآن يشفي أمراض الإنسان ٤٩٦
بحث روائيّ ٤٩٨
شأن النّزول ٤٩٨

الآية ٢٦٨

خلاصة التفسير ٥٠١
التفسير ٥٠٢
المُفردات ٥٠٢
تناسب الآيات ٥٠٤
وعود الشيطان وإغراءاته ٥٠٥

الوعود الشيطانية الكاذبة ٥٠٦
البُخل مصداق الفَحشاء ٥٠٧
بيان الوعد الإلهيّ ٥٠٧
«الفَقْر» في مقابل «المغفرة» ٥٠٩
ختم الآية بالاسميْن الأحسَنَين «واسِع» و«عَليم» ٥١١
بحث روائي ٥١٣
١ . إلهام الرّحمن ووسوسة الشيطان ٥١٣
٢ . المتاجرة بالصّدقة ٥١٤

الآية ٢٦٩

خلاصة التفسير ٥١٦
التفسير ٥١٧
المُفردات ٥١٧
تناسب الآيات ٥١٧
الإنفاق والأجر الإلهيّ ٥١٧
«الإيتاء» الإلهيّ ٥١٨
تقييد الحكمة بمشيئة الله ﷻ ٥١٩
كلام حول الحكمة ٥٢١
المبدأ الفاعليّ للحكمة ٥٢٥
الخير الكثير والكوثر النفسيّ ٥٢٧
شُبهة عدم إيتاء الخير الكثير ٥٢٨
إشارات ولطائف ٥٢٩
١ . القرآن الكريم، سَمِح وحكيم ٥٢٩
٢ . أسلوب القرآن في تعليم المعارف ٥٣٠
٣ . العَقلان، العمليّ والنظريّ ٥٣٢
٤ . شخصيات تمتلك العقل النظري والعملي ٥٣٣
٥ . الحكمة والمنافق ٥٣٥

٦ . الفطرة إناء الحكمة ٥٣٦

٧ . ضالّة المؤمن ٥٣٧

٨ . تشبيه الحياة بالحكمة ٥٣٨

بحث روائي **٥٣٩**

١ . مصاديق الحكمة ٥٣٩

٢ . الحكمة أفضل النّعم ٥٤٠

٣ . تعريف أولوا الألباب ٥٤١

الآية ٢٧٠

خلاصة التفسير **٥٤٣**

التفسير **٥٤٣**

المُفردات ٥٤٣

تناسب الآيات ٥٤٤

الله ﷻ عالم بالإنفاق ٥٤٥

الإنفاق النذريّ ٥٤٦

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَار ٥٤٧

سرّ تشبيه المُمسك بالظالم ٥٤٩

مصاديق «النّصير» في القرآن الكريم ٥٤٩

إشارات ولطائف **٥٥٠**

١ . معيار صحّة الإنفاق وقبوله ٥٥٠

٢ . في لائحة الكُفر ٥٥١

٣ . نقد كلام الفخر الرازي ٥٥١

الآية ٢٧١

خلاصة التفسير **٥٥٣**

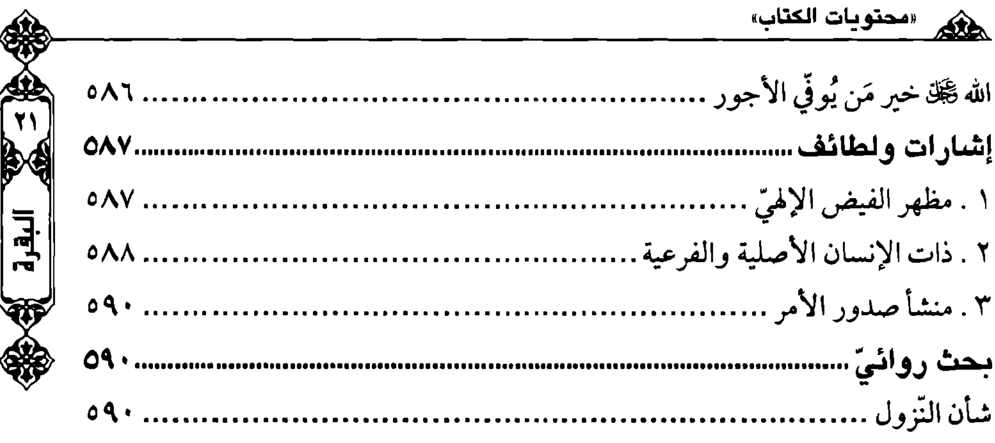
التفسير **٥٥٤**

المُفردات ٥٥٤

تناسب الآيات ٥٥٥
قيمة الإنفاق العَلَنيّ ٥٥٦
التصدّق على الفقير الكافر ٥٦٠
غفران بعض المعاصي ٥٦٢
الإخلاص في العمل ٥٦٣
إشارات ولطائف ٥٦٤
١ . مواصفات التصدّق في السرّ والعلانية ٥٦٤
٢ . معيار أفضلية التصدّق في السرّ ٥٦٥
٣ . تفضيل الفقير المحترم ٥٦٦
٤ . أفضلية التصدّق في السرّ ٥٦٦
بحث روائيّ ٥٦٨
١ . إظهار الصّدقات الواجبة والمستحبّة وإخفاؤها ٥٦٨
خلاصة البحث ٥٧٠
٢ . ثواب الصّدقة العَلنية والخفية ٥٧١

الآية ٢٧٢

خلاصة التفسير ٥٧٣
التفسير ٥٧٤
المُفردات ٥٧٤
تناسب الآيات ٥٧٥
دور النبيّ ﷺ في الهداية ٥٧٦
تطييب خاطر النبيّ ﷺ ٥٧٨
احتمالان آخران ٥٨٠
فعل الخير يعود على الفاعِل ٥٨١
ضرورة الإخلاص في الإنفاق ٥٨٣
استمرار الإنفاق إلى يوم القيامة ٥٨٤
الحصول على مرضاة الله ﷻ ٥٨٥



الله ﷻ خير مَن يُوفّي الأجور ٥٨٦
إشارات ولطائف **٥٨٧**
١ . مظهر الفيض الإلهيّ ٥٨٧
٢ . ذات الإنسان الأصلية والفرعية ٥٨٨
٣ . منشأ صدور الأمر ٥٩٠
بحث روائيّ **٥٩٠**
شأن النّزول ٥٩٠

الآية ٢٧٣

خلاصة التفسير **٥٩٣**
التفسير **٥٩٤**
المُفردات ٥٩٤
تناسب الآيات ٥٩٥
موارد صرف الصّدقة ٥٩٥
عامل الحصر ٦٠٠
تكريم الفقراء ٦٠١
الفَقر والتعفّف ٦٠٢
علم النبيّ ﷺ بعلامات الفقر ٦٠٣
الفقير المحترم لا يُلحف ٦٠٤
العامل التربويّ والتعليمي في الآية ٦٠٥
إشارات ولطائف **٦٠٦**
علم النبيّ ﷺ بعلامات المنافقين ٦٠٦
بحث روائيّ **٦٠٨**
١ . ضرورة قبول المحتاج للصّدقة ٦٠٨
٢ . سؤال غير المحتاج ٦٠٨
٣ . النّهي عن الإلحاف ٦٠٩
٤ . المسكين الحقيقيّ ٦١٠

الآية ٢٧٤

خلاصة التفسير ٦١١
التفسير ٦١١
تناسب الآيات ٦١١
الإنفاق المتواصل ٦١٢
الإنفاق غير مُقيّد بالمكان أو الزمان ٦١٤
الوعد المشروط في الإنفاق المستمر ٦١٦
الوَعد بالأمن والسّرور ٦١٦
العيش بين الخوف والرّجاء ٦١٨
إشارات ولطائف ٦٢٠
١ . القبض والبسط في الإنفاق ٦٢٠
٢ . تقديم «السرّ» على «العَلَن» ٦٢٠
بحث روائيّ ٦٢١
شأن النّزول ومصداق الإنفاق في الآية ٦٢١

الآية ٢٧٥

خلاصة التفسير ٦٢٣
التفسير ٦٢٤
المُفردات ٦٢٤
تناسب الآيات ٦٢٨
مقارنة بين الإنفاق والرّبا ٦٢٩
المرابي يتصرّف كالمجنون ٦٣١
إطلاق صفة الجنون على المُرابي ٦٣٢
تأثير الجنّ في الجنون ٦٣٣
مقارنة الرّبا بالبيع ٦٣٥
الرّبا مشكلة والبَيع هو الحلّ ٦٣٦



مثال حول تضارب الآراء ٦٣٧
حُرمة العقد الرّبويّ وبطلانه ٦٤٠
الأحكام الإلهيّة موعظة ٦٤٣
النّهي عن المنكر في المواعظ الإلهية ٦٤٤
الحكم الوضعي والتكليفيّ للمال الربويّ ٦٤٥
الإصرار على الرّبا والعَود إليه ٦٤٧
التهديد بالخلود في جهنّم ٦٤٨
إشارات ولطائف ٦٥٠
١ . أنواع الرّبا ٦٥٠
٢ . التنزيل من مصاديق الرّبا ٦٥٢
٣ . العُقلاء المجانين يوم القيامة ٦٥٢
٤ . ميزان العقل والسّفه ٦٥٣
٥ . الوَحي يُعلّم مَحق الرّبا ٦٥٤
بحث روائيّ ٦٥٥
١ . الزيادة المحرّمة والمحلّلة ٦٥٥
٢ . حقيقة المُرابي ٦٥٦
٣ . الحكمة في تحريم الرّبا ٦٥٧
٤ . المقصود بالموعظة ٦٥٨
٥ . حكم الجهل بحرمة الرّبا ٦٥٩
٦ . حرمة الرّبا مقارنة بسائر المحرّمات الأخرى ٦٦٠

الآية ٢٧٦

خلاصة التفسير ٦٦١
التفسير ٦٦١
المُفردات ٦٦١
تناسب الآيات ٦٦٢
سنّة الله في الرّبا والصّدقات ٦٦٣

الزّوال المؤكّد للرّبا ٦٦٥
المُرابي «كَفّار» و«أثيم» ٦٦٨
إشارات ولطائف ٦٦٩
الآثار الاجتماعية للرّبا ٦٦٩
بحث روائيّ ٦٧١
١ . الرّبا يمحق الدّين ٦٧١
٢ . رُبوّ الصّدقات ٦٧١

الآية ٢٧٧

خلاصة التفسير ٦٧٥
التفسير ٦٧٥
تناسب الآيات ٦٧٥
تكاثر المُتصدّقين ٦٧٦
الوعد والوعيد ٦٧٧
ثبوت أجر المُنفقين ٦٧٨

الآيتان ٢٧٨ و ٢٧٩

خلاصة التفسير ٦٧٩
التفسير ٦٨٠
المُفردات ٦٨٠
تناسب الآيات ٦٨١
التقوى الاقتصادية ٦٨١
علامة الإيمان تَرْك الرّبا ٦٨٣
الرّبا حرب مع الله ورسوله ﷺ ٦٨٤
البادئ بالحرب ٦٨٦
توبة المُرابي ٦٨٧
التأكيد على المِلكية الفردية ٦٨٨

الرّبا وظُلمه ٦٨٨
إشارات ولطائف ٦٨٩
١ . الأحكام الخاصّة بالمُرابي ٦٨٩
٢ . مبدأ «لا تَظلِمون ولا تُظلَمون» ٦٩٠
بحث روائيّ ٦٩١
١ . شأن النّزول ٦٩١
٢ . الحكم بقَتل المُرابي ٦٩٢
٣ . توبة المُرابي الجاهل بالحكم ٦٩٣

الآية ٢٨٠

خلاصة التفسير ٦٩٤
التفسير ٦٩٤
المُفردات ٦٩٤
تناسب الآيات ٦٩٦
مسؤولية الدّائِن والمَدين ٦٩٦
إطلاق وجوب الإمهال ٦٩٨
وجوب الإمهال واستحباب التصدّق ٦٩٩
التأكيد على الصّدقة ٧٠٠
العلم بإعسار المَدين وحكم التصدّق والإمهال ٧٠١
إشارات ولطائف ٧٠٢
١ . أنواع الملكية الاعتبارية ٧٠٢
٢ . أصالة الاعتقاد لا الاقتصاد ٧٠٣
٣ . اختلاف الرّبا عن الإجارة والمضاربة ٧٠٧
٤ . كلام الغزالي في «الرّبا» ٧٠٨
بحث روائيّ ٧١١
١ . حدّ الإعسار ٧١١
٢ . وجوب إمهال المُعسر ٧١٢

٣ . وليّ أمر المسلمين وتسديد ديون المُعسرين ٧١٢
٤ . كراهة الاقتراض دون حاجة ٧١٤
٥ . ضرورة الحرص على تسديد الدَّيْن ٧١٤
٦ . ثواب إمهال المُعسر والتصدّق بالدّيْن ٧١٦

الآية ٢٨١

خلاصة التفسير ٧١٨
التفسير ٧١٨
المُفردات ٧١٨
تناسب الآيات ٧١٩
الإنذار بالعذاب ٧١٩
سرّ الرّجوع يوم القيامة ٧٢٠
بقاء العمل وخلوده ٧٢١
توفية الحَسنات والسيّئات ٧٢٢
إشارات ولطائف ٧٢٤
تقدّم اقتصادي أم فتنة ورُطمة؟ ٧٢٤
بحث روائيّ ٧٢٨
نزول آخر آية وسورة ٧٢٨

الآية

خلاصة التفسير ٧٣١
التفسير ٧٣٣
المُفردات ٧٣٣
تناسب الآيات ٧٣٥
أقسام التّداين ٧٣٦
طُرُق تسديد الدّيون ٧٣٨



حجيّة إمضاء المَدين وتحريره ٧٣٩
الأمر بكتابة عقد الدّيْن ٧٤٠
كتابة عقد الدّيْن وتثبيته ٧٤١
شروط كاتب العقد ٧٤٢
العمل وفقاً للتعليم الإلهيّ ٧٤٤
تقديم العدل على العلم ٧٤٥
تفاصيل كتابة عقد الدّيْن ٧٤٦
اختلاف الأمر بين المَدين والمالي والكاتب ٧٤٧
شروط إملاء الوليّ ٧٤٨
شهادة الشّهود ٧٥٠
الجديّة في كتابة عقد الدّيْن ٧٥٣
حكم المعاملات النّقدية ٧٥٤
حماية الكاتب والشّاهد ٧٥٥
حكم الإضرار بالآخرين ٧٥٦
ارتباط التّقوى بالتعليم الإلهيّ ٧٥٧
العِلم الوَهبيّ والعلم الكَسبيّ ٧٦٣
ثلاث مسائل مهمّة في الآية ٧٦٥
إشارات ولطائف ٧٦٧
١ . السّلامة الاقتصادية ٧٦٧
٢ . حصول العلم بالعقل والنّقل والشهود ٧٦٩
٣ . عناية النبيّ ﷺ بكتابة أهمّ سند دينيّ ٧٧٠
بحث روائيّ ٧٧١
١ . عدد الأحكام في سورة البقرة والآية (٢٨٢) منها ٧٧١
٢ . مُخالفة وصيّة الله ٧٧٢
٣ . شهادة امرأتيْن تعادل شهادة رجل واحد ٧٧٣
٤ . النّهي عن الامتناع عن الشهادة ٧٧٤

الآية ٢٨٢

خلاصة التفسير ٧٧٦
التفسير ٧٧٧
المُفردات ٧٧٧
تناسب الآيات ٧٧٨
موارد الرّهان ٧٧٨
الرّهن، أمر إرشاديّ أم مولويّ؟ ٧٧٩
الحكمة في تشريع الرّهان ٧٨٠
دور الأخلاق في المجتمع ٧٨١
عدم كتمان الشهادة ٧٨٤
القلب الآثِم ٧٨٥
الوعد والوعيد ٧٨٧
إشارات ولطائف ٧٨٨
١ . عدم اختصاص الرّهان بالقَرض ٧٨٨
٢ . لزوم عقد الرّهان وجوازه ٧٨٨
بحث روائيّ ٧٨٩
١ . تطبيق الرّهن في موارد الدّيْن ٧٨٩
٢ . قبض الرّهان ٧٩٠
٣ . العيْن المرهونة أمانة ٧٩٠
٤ . حَقّ الرّاهن في العين المرهونة ٧٩١
٥ . دور الأخلاق الإسلامية في الاقتصاد ٧٩١
٦ . معنى قوله ﷻ ﴿آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ ٧٩٢
٧ . جزاء كتمان الشهادة والشهادة بغير حقّ ٧٩٣

الآية ٢٨٣

خلاصة التفسير ٧٩٤



التفسير ٧٩٤
تناسب الآيات ٧٩٤
السماء الظاهرية والسّماء الغيبية ٧٩٥
علم الله بنيّات الإنسان وأعماله ٧٩٦
الغاية من حساب الله ﷻ ٧٩٨
التهديد بالحساب الشّديد ٧٩٩
محاسبة الصفات الثابتة في النفس ٨٠٠
الإفراط والتفريط في تفسير الآية ٨٠١
إشارات ولطائف ٨٠٥
١ . يوم القيامة هو يوم الحساب ٨٠٥
٢ . «لا يُحصى» بدلاً من «بلا حِساب» ٨٠٧
٣ . أنواع الحساب يوم القيامة ٨٠٨
٤ . سبيل الخلاص من الحساب العسير ٨١٠
بحث روائيّ ٨١١
١ . عدم نسخ الآية ٨١١
٢ . فضل الله الواسع ٨١٧

الآية ٢٨٥

خلاصة التفسير ٨١٨
التفسير ٨١٩
المُفردات ٨١٩
تناسب الآيات ٨٢٠
القرآن الكريم كتاب جامع ٨٢٠
تعظيم مقام النبيّ ﷺ ٨٢١
قراءتان للآية ٨٢٣
علم النبيّ ﷺ بالوحي ٨٢٥
الترتيب في مُتعلَّق الإيمان ٨٢٧

المقصود من كلمة «الكُتب» ٨٢٨
المقصود من كلمة «الرُّسل» ٨٣٠
الإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام ٨٣١
عنصريّة أهل الكتاب إزاء الأنبياء عليهم السلام ٨٣٣
السّمع والطّاعة ٨٣٤
المشتاقون إلى المغفرة الإلهيّة ٨٣٥
التكامل والسّير إلى الله عزّ وجلّ ٨٣٦
إشارات ولطائف ٨٣٧
١ . الشهود الغيبيّ للأنبياء عليهم السلام ٨٣٧
٢ . السرّ في نجاح مهمّة الأنبياء والعلماء ٨٣٨
٣ . التفريق بين الله ورُسُله ٨٣٩
٤ . منشأ التبعيض في أحكام الله ٨٤١
٥ . ضرورة الإيمان الكامل برسول الله صلى الله عليه وآله ٨٤٣
٦ . الالتزام بشؤون الرّسالة ٨٤٧
بحث روائيّ ٨٤٨
١ . سؤال الرّسول صلى الله عليه وآله لأمّته ٨٤٨
٢ . الآيات العرشيّة ٨٤٩
٣ . الإيمان بالولاية ٨٥٠

الآية ٢٨٦

خلاصة التفسير ٨٥٢
التفسير ٨٥٣
المُفردات ٨٥٣
تناسب الآيات ٨٥٥
نَفي التكليف المُفرط ٨٥٦
أقسام التكليف الابتدائيّ ٨٥٨
مصدر الاستطاعة في التكليف ٨٦٠

تأويل الأشاعرة والمعتزلة للآية ٨٦١
عاقبة الخَير والشرّ ٨٦١
علاقة الخير والشرّ بالفطرة ٨٦٣
عدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان ٨٦٥
التكاليف الشاقّة على الأُمم السابقة ٨٧٠
التكليف الجزائيّ ٨٧٢
استحالة التكليف بما لا يُطاق ٨٧٣
مراحل سؤال العبد ٨٧٤
هيمنة الاسم «العَفُوّ» ٨٧٧
إجابة الأدعية ٨٧٧
وليّ المؤمنين الوحيد ٨٧٨
استخدام كلمة ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ بصيغة الجمع ٨٨٠
إشارات ولطائف ٨٨١
١ . تأويل الأشاعرة للآية ٨٨١
٢ . تأويل المعتزلة للآية ٨٨٩
٣ . نَقد مَن قال بالمؤاخذة على الخطأ والنسيان ٨٩١
٤ . ارتباط الدّعاء بالجلال والجمال الإلهيّيْن ٨٩٣
بحث روائيّ ٨٩٤
١ . حديث الرّفع ٨٩٤
٢ . تكليف الناس بأقلّ من الوُسع ٨٩٥
٣ . نَفي الجَبر والتفويض ٨٩٦
٤ . شمولية سورة (البقرة) ٨٩٦
نظرة على بعض المعارف في سورة البقرة ٨٩٧

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

خلاصة التفسير

يتمتّع جميع رُسل الله سبحانه وأنبيائه بالمواصفات المطلوبة التي تؤهّلهم للوصول إلى مقام الرّسالة، ورغم ذلك فقد فضّل الله ﷻ بعضهم على البعض الآخر حيث كلّم تعالى بعض أنبيائه بأسلوب خاصّ ورفع قسماً منهم إلى درجات أعلى ومراتب أسمى فيما أيّد القسم الآخر منهم بروح القُدُس عليه السلام ووهبهم البيّنات على اختلافها.

وإذ كان جميع أنبياء الله سبحانه ورُسُله صادقين في دعوتهم مخلصين في أداء رسالاتهم كان المفروض أن يعيش أفراد أُممهم مع الأنبياء والرسل جنباً إلى جنب



في سلام وصفاء في ظلّ إيمانهم بالله ﷻ، لكنّ تلك الأُمم آثرت الاختلاف وقدّموا العداوة والبغضاء على الحبّ والائتلاف فانقسموا إلى فئتيْن: فئة مؤمنة وأخرى كافرة، فكثر بينهما التناحر وتعاظم فيما بين أبنائها التظاهر والتفاخر.

لقد شاءَ الله سبحانه أن يسير أفراد البشر في طريق الكمال باختيارهم وإرادتهم، ولهذا منحهم الحريّة ولم يشأ إكراههم على الإيمان ولم يقف أمام اقتتالهم وتناحرهم حتى لا يُسَدّ طريق الكمال بوجه الرّاغبين بالسّير فيه، ولو شاءَ الله تعالى لمنعهم من الاقتتال وحالَ بينهم وبين حَملهم للأوزار والأثقال، وليس لإرادة الله سوى التنفيذ وما وعده إلّا الحقّ، لكنّه ﷻ لم يشأ أن يكون ذلك تكويناً وإن كان تعالى قد نهى المؤمنين تشريعاً عن الاختلاف وسفك الدّماء وأمرهم بالبراءة من ذلك.

التفسير

المفردات[1]

كلَّمَ: الأصل الواحد في المادّة هو إبراز ما في الباطن من الأفكار والمنويّات بأيّ وسيلة كان... والتكليم بمعنى إبراز الكلام في قِبال المخاطب والتكليم تعليق الكلام بالمُخاطب فهو أخصّ من الكلام وذلك أنّ كلّ كلام ليس خطاباً للغَير والتكلُّم لا يُلاحَظ فيه التعليق بالمخاطب[2]. وأصل الكَلْم هو الجَرْح[3]، لكنّ

---

١ . راجع تفسير (تسنيم)، ج٧، ص٢٧ لمعرفة المزيد عن معنى كلمة (رفعَ) وكلمة (البيّنات) في الجزء الخامس، ص٥٣٧ وكلمة (اختلفوا) في الجزء الثامن، ص٥٧٢ و(اقتتلوا) في الجزء السابع، ص٦٠٤.

٢ . العلّامة حسن المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١٠، ص١٠٧ ـ ١٠٨، مادّة (ك ل م).

٣ . ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج٤، ص١٩٩، مادّة (ك ل م).

هذا المعنى لَم يَرد في القرآن الكريم حيث يعتقد البعض أنّ ذلك مُقتَبس عن اللغة العبرية[١].

مَرْيَم: هي ابنة عمران وأمّ سيّدنا عيسى عليه السلام وقد ذُكِر اسم هذه السيّدة الطاهرة (٣٠) مرّة في القرآن الكريم؛ وتعني كلمة (مَريم) بالعبريّة «المرأة العابدة» أو «المتعبّدة»[٢].

أَيَّدْناه: الأصل الواحد فيها هو القوّة الواصلة من الخارج ومن آثاره الحفظ والمصونيّة، و«التأييد بروح القُدُس» هو التوجّه المخصوص ونَفخ روح قدسيّ منه يتقوّى به الإنسان وتتنوّر النّفس وتطمئنّ وتَستقيم فيما أُمِر[٣].

ويُقال: أَيَّدَهُ اللهُ، أي: قوّاه الله ومنحه التأييد؛ وما لِيَ به يَد، أي ليس لي عَليه من سَبيل.

رُوحِ الْقُدُسِ: الأصل الواحد في المادّة هو القداسة والمباركة، أي الطهارة المعنويّة، والطُّهْر أعمُّ من الظاهريّ والمعنويّ[٤]، وحول المعنى المراد من (*رُوحُ الْقُدُس*) يمكن مراجعة البحث التفسيريّ للآية (٨٧) من سورة البقرة[٥].

شاءَ: الأصل الواحد في هذه المادة هو تمايل يَصل إلى حدّ الطّلب[٦]، والمشيئة عند أكثر المتكلمين كالإرادة سواء وعند بعضهم المشيئة في الأصل إيجاد الشيء وإصابته وإن كان قد يُستعمل في التعارف موضع الإرادة فالمشيئة من الله تعالى هي الإيجاد، ومن الناس هي الإصابة[٧].

---

١ . العلّامة حسن المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١٠، ص١٠٧ ـ ١٠٨، مادّة (ك ل م).
٢ . أنظر: **نثر طوبى**، ج٢، ص٣٩٧؛ **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١١، ص٨٦ ـ ٨٧، مادّة (مريم).
٣ . العلّامة حسن المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١، ص١٧٩، (أ ي د).
٤ . العلّامة حسن المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٩، ص٢١٠، مادّة (ق د س).
٥ . **تفسير تسنيم**، ج٥، ص٤٥٢ ـ ٤٥٥.
٦ . العلّامة حسن المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٦، ص١٧٧ ـ ١٧٨، مادّة (ش ي ء).
٧ . **مفردات غريب القرآن**، ص٤٧١، مادّة (ش ي ء).

تناسب الآيات

يشير مضمون الآيات السابقة والآيتيْن (٢٥٣) و(٢٥٤) وسياقها إلى أنّ موضوعها هو استمرار للمسائل والموضوعات المذكورة قبل هذا وأنّها قد نزلت جميعها في وقت واحد. فالموضوعات التي أشارت إليها الآيات السابقة تتمثّل في الأمر بالجهاد والدّعوة إلى الإنفاق والتذكير بالحرب التي وقعت بين طالوت وجالوت بعد وفاة سيّدنا موسى عليه السلام[1].

وقد حاولت هذه الآيات الشريفة في بداية الأمر إزالة ما توهّم به البعض من وجود تساوٍ بين درجات الرُّسُل وتماثل في مراتبهم وخصوصاً من الجملة الأخيرة في الآية السابقة (٢٥٢): ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ والتأكيد على وجود التفاضل حتى بين الأنبياء عليهم السلام أنفسهم وأفضلية مقام النبيّيْن الكريميْن موسى وعيسى عليهما السلام[2]. ويستمرّ البحث ليطال ظاهرة الحروب والاقتتال الدمويّ بين أُمَّتَيْهما ثمّ مشيئة الله سبحانه وتعالى وإرادته التكوينية في هذا المجال[3]، وفي الختام دَعت الآية الشريفة (٢٥٤) المؤمنين مرّة أخرى إلى الإنفاق والبَذْل قبل انتهاء حياتهم في هذه الدنيا وعدم التخاذل في هذا الأمر الخطير والمهمّ.

* * *

تكريم الأنبياء

إنّ الأفضلية بين الرّسل عليهم السلام وترجيح بعضهم على البعض الآخر لا تعني التقليل من مكانة أيّ واحدٍ منهم على الإطلاق وقد ذكر الله رُسُله بكلّ تقدير

---

١. **تفسير الميزان**، ج٢، ص٣٠٩.
٢. أنظر: أبي حيّان الأندلسيّ، **تفسير البحر المحيط**، ج٢، ص٢٨٢؛ نظم الدرر، ج١، ص٤٨٥.
٣. **تفسير الميزان**، ج٢، ص٣٠٩.

واحترام قبل أن يبدأ الحديث حول بيان تفضيل البعض أو ترجيح البعض الآخر دفعاً للشكّ ورداً على الشبهة بقوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾. وأمّا استخدام اسم الإشارة بصيغة المفرد ﴿تِلْكَ﴾ بدلاً من صيغة الجمع (هؤلاء) حيث يُستَخدَم اسم الإشارة (تلك) لجمع التكسير والمفرد المؤنّث (أي: الجماعة) فهي لغرض بيان حقيقة مفادها أنّ الرّسل هم عبارة عن حقيقة بعيدة المنال يظهرون بشكل رُسُل وأفراد متكثّرة، بالإضافة إلى أنّ استخدام اسم الإشارة للبعيد يشير إلى المقام السامي الذي يحظى به أولئك الرّسل وهذا يشبه تعظيم الله سبحانه للقرآن الكريم عندما قال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾[1] بدلاً من قوله تعالى (هذا الكتاب) بهدف بيان مكانة القرآن العظيمة وتذكير الإنسان بأنّه لن يتمكّن من بلوغ معارف الملكوت العالية ما لَم يمتلك همّة عالية كذلك والصعود من حضيض المُلك.

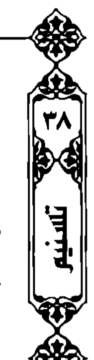
الفضيلة باعتبارها كمال الوجود الحقيقيّ

ليس المراد بـ(الفضيلة) هي المقامات الاعتباريّة كترأُّس دائرة حكوميّة أو غيرها فرغم عدم وجود مقام أو منزلة في الإسلام أرقى وأعظم من الخلافة وقيادة المجتمع الإسلاميّ بعد مقام النبوّة والرسالة بالطّبع، وإنّ خلافة المسلمين وإدارة شؤونهم هي مقام عظيم ومنزلة ما بعدها من منزلة، لكن رغم ذلك فإنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام لم يأبه حتى لهذا المقام ولم يحرص على الحصول عليه بل صرّح مراراً وتكراراً قائلاً عنها: «**والله لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقّاً أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا**»[2] وذلك أنّ تلك النّعل التي أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام تمتلك

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢.

٢ . قَالَ عَبْدُ الله بْنُ عَبَّاسٍ: دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِذِي قَارٍ وهُوَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ فَقَالَ لِي: «مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ؟» فَقُلْتُ لَا قِيمَةَ لَهَا، فَقَالَ عليه السلام: «والله لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقّاً أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا ثُمَّ خَرَجَ فَخَطَبَ النَّاسَ...». (نهج البلاغة، الخطبة ٣٣).



وجوداً تكوينياً حقيقياً وواقعياً ويمكن لكلّ فرد أن يستفيد منها، بينما تعجز التسميات الاعتبارية والألقاب غير الحقيقية التي لا تخرج من إطار الإنشاء والكلمات ولا تنهض على القيام بما تقوم به تلك النّعل وتقديم خدمة كالتي تقدّمها النّعل.

و(الاعتبار) غير (الذّهن) و(الوجود الاعتباريّ) يختلف عن (الوجود الذهنيّ) الذي يُسمّى وجوداً حقيقياً والذي يُقابل الوجود العينيّ، فالوجود الاعتباريّ الذي يتمّ بحثه في علم الفقه والحقوق هو نوع من العقد الذي يظهر مع اعتبار المعتبر ويذهب ويتلاشى معه أيضاً وهو بذلك لا يمتلك أيّ واقع يُذكَر، وعليه فإنّ ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام مطابق تماماً للبرهان العقليّ.

بالإضافة إلى ذلك فإنّ المقصود بـ(الفضيلة) لا يعني التفضيل الماديّ لأنّ الله سبحانه أشار في العبارات التالية في الآية الشريفة المذكورة إلى التكليم الإلهيّ والترفيع في الدّرجات، ثمّ إنّ قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[1] حول منزلة سيّدنا إدريس عليه السلام ومكانته العالية يشير إلى أنّ محاور التفضيل والترجيح تكمن في أمور غير ماديّة؛ إذاً فالمراد بالفضيلة في هذه الآية الكريمة هو الدرجة أو المنزلة الوجودية والذي جاء ذكرها كذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2] حيث يُعتبر مقام الولاية بشكل عامّ سنداً لذلك. وعلى هذا الأساس فإنّ أيّ موجود يتمتّع بدرجة وجوديّة أعلى فهو بلا شكٍّ أفضل من الآخرين، وبعبارة أخرى، أنّ المقصود بكلمة (أفضل) هو المعنى المذكور في الحكمة النظرية والإيديولوجية وليس المعنى المذكور في الحكمة العملية والبحوث القيَميّة التي لا تقبل أيّ برهان.

---

١ . سورة مريم، الآية ٥٧.

٢ . سورة الحجرات، الآية ١٣.



إنّ الأمر الوجوديّ والكمالات الحقيقية هي معيار الفضيلة فعندما تتكامل روح الإنسان يرتقي صاحبها إلى المقام الأعلى ويكون ظهوره يوم القيامة أوضح وأكثر جلاءً لأنّ الفضائل في ذلك اليوم ليست سوى فضائل حقيقية ووجودها ليس سوى وجود محض وعارٍ من أيّ صفة اعتبارية وذلك خلافاً لِما نراه في الحياة الدنيا ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[1] وإن كانت الفضائل الدنيوية تنضوي تحت لواء احترام وتقدير الاعتباريّات المعقولة فهي بذلك مقبولة ومشروعة.

وَجه تفضيل الأنبياء

من الواضح أنّ تفضيل أنبياء الله ورُسله يكون بواسطة الله سبحانه نفسه ولا يحقّ للناس مثلاً تفضيل هذا النبيّ على ذاك كما يحبّون أو ترجيح أحد على آخر كما يرغبون.

والترجيح الإلهيّ على نوعيْن:

١. ترجيح متقابل الطرفيْن ونسبيّ: لقد وهب الله ﷻ لسيّدنا موسى عليه السلام بعض المعجزات ومنحة جملة من الكمالات الخاصّة التي لم يهبها لسيّدنا عيسى عليه السلام مثلاً، ومن ناحية أخرى فقد أعطى الله سبحانه لسيّدنا عيسى عليه السلام معجزات وكمالات لم يُعطها من قَبل لسيّدنا موسى عليه السلام، وهذا ما يُسمّى بالتفاضل المتقابل.

٢. الترجيح الأُحاديّ المطلق: إنّ ما وهبه الله سبحانه لخاتم الأنبياء والمرسلين سيّدنا محمّد ﷺ مقارنة بالأنبياء السابقين، مُطلق على نحو الخصوص والعموم، بمعنى، أنّ كلّ ما كان الأنبياء والرّسل السابقون يحظون

---

١ . سورة الاسراء، الآية ٢١.

به من منزلة رفيعة ومقام عظيم حظي بها جميعاً خاتم النبيّين المصطفى ﷺ ولا يصدق أيّ معنى آخر غير هذا.

وقد أدّى تفضيل الرسول الأعظم ﷺ وترجيحه المطلق إلى اعتقاد بعض المفسّرين وغيرهم[1] أنّ المقصود بقوله تعالى ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ هو نبيّنا الكريم ﷺ إلّا أنّ هذا التعبير المطلق ليس دليلاً على ذلك بل الدليل هو قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[2] حيث وصفه القرآن بكونه مُهيمناً وصاحب الهيمنة والمُسَيطر وبالتالي المعيار الأبرز لكلّ ذلك، وثمّة شواهد أخرى أيضاً على كونه ﷺ المعيار الأساسيّ.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الآية الّتي هي موضوع البحث والآيات الأخرى التي تتحدّث عن الأنبياء عليهم السلام ومنها ما ذُكِر حول تكليم الله سبحانه لسيّدنا موسى عليه السلام وتأييده لسيّدنا عيسى عليه السلام بروح القُدُس أو رفع سيّدنا إدريس عليه السلام مكاناً عليّاً وغير ذلك لا تخرج عن إطار التفاضل المتقابل والنسبيّ بين أولئك الرّسل عليهم السلام.

التفضيل على أساس التكليم

تشير الآية الشريفة التي نقوم بتفسيرها إلى المفاضلة التي يتحدّث الله سبحانه عنها بين رُسُله وأنبيائه والتعبير الأدبيّ الرائع المُستَخدَم بقوله تعالى ﴿فَضَّلْنَا﴾ والانتقال إلى الجملة الأخرى في قوله ﷻ: ﴿كَلَّمَ اللهُ﴾، لكنّ أصل حديث الله تعالى عن رُسله عليهم السلام ليس مختصّاً بسيّدنا موسى عليه السلام وحده إذ يشير

١ . الكشاف، ج١، ص٢٩٧؛ الكشف والبيان، ج٢، ص٢٢٥.

٢ . سورة المائدة، الآية ٤٨.

قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ﴾[1] إلى أنّه ﷻ تحدّث إلى أنبيائه بطُرُق ثلاثةٍ إلّا أنّ أفضل تلك الطُّرُق هي الكلام أو التحدّث إليهم دون واسطة، وعليه فإنّ كلامه الله ﷻ مع نبيّه الكريم ﷺ ليلة المعراج أفضل وأعلى مقاماً من تكليمه لسيّدنا موسى عليه السلام لأنّ الحديث الذي جرى في تلك الليلة هو حديث من غير واسطة بالاستناد إلى الآية الشريفة ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[2] فيما كان تكليمه سبحانه لسيّدنا موسى عليه السلام من وراء حجاب وهي الشجرة وهذا النوع من الكلام يختلف عن نظيره الذي لم يكن بواسطة أو حجاب.

واستناداً إلى الروايات كذلك فقد تلقّى النبيّ الأعظم ﷺ الآيتيْن الأخيرتيْن في سورة البقرة ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾[3] بالمشافهة من دون واسطة الملاك[4]، في حين أنّ الآية الشريفة ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[5] تُبيّن أنّ الله ﷻ كلّم سيّدنا موسى عليه السلام من وراء حجاب وعَبر الشجرة المباركة.

والحاصل أنّ تكليم الله سبحانه لأحد أنبيائه ليس دليلاً على الأفضلية المطلقة لذلك النبيّ رغم أنّه لا يخلو بالطّبع من فضيلة تتناسب مع مقام النبيّ المذكور، فلا شكّ في أنّ الأنبياء أولي العزم يتمتّعون بأفضلية مطلقة مقارنة

---

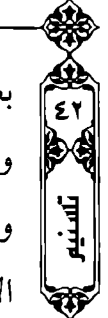
١ . سورة الشورى، الآية ٥١.

٢ . سورة النجم، الآيات من ٨ إلى ١٠.

٣ . سورة البقرة، الآيتان ٢٨٥ و ٢٨٦.

٤ . تفسير القمي، ج١، ص٩٥؛ تفسير نور الثقلين، ج١، ص٣٠٣ ـ ٣٠٤.

٥ . سورة القصص، الآية ٣٠.



بغيرهم من الأنبياء الآخرين لأنّ هؤلاء كانوا يطبّقون شريعة الأنبياء أولي العزم ويعملون بتعاليمهم، لكنّ منزلة ومكانة رسولنا الأعظم ﷺ هما أعظم شأناً وأرفع مقاماً بين الأنبياء أولي العزم فإنّ أكبر المواهب الإلهية يتمثّل في الكلام الإلهيّ الخاصّ والمميّز الذي لا يكون بواسطة، وأمّا بقيّة أنبياء الله تعالى ورُسله عليهم السلام فلم يحظ أيّ واحدٍ منهم بهذا التكليم العالي ولا بشيء ممّا حَظي به الرّسول الكريم ﷺ، وهكذا فإنّ أفضلية النبيّ ﷺ وترجيحه على سائر الأنبياء والرّسل هو مطلق ونفسيّ وليس مضافاً أو نسبيّاً، وهو من النوع الثاني من التفضيل (أي: *الترجيح الأُحاديّ المطلق*) وليس مِنَ النوع الأوّل (الترجيح المتقابل والنسبيّ).

تذكير: بما أنّ تكليم الله سبحانه يُعدّ العنصر المحوريّ للرسالة، يمكننا نسبة السبب في التفاضل والاختلاف في درجات الأنبياء عليهم السلام إلى أسلوب ذلك التكليم وكيفيّته ومن هنا يبدأ بحث التفضيل بين الأنبياء بالاستناد إلى التكليم الإلهيّ لهم. وكما ذكرنا فإنّ كلّ أنواع التفضيل الخاصّة بأنبياء الله سبحانه باستثناء الرسول الكريم ﷺ تنضوي تحت لواء (الترجيح المُطلق والنفسيّ) لا (المُضاف والنسبيّ) لأنّ التكليم من دون واسطة يتضمّن كلّ درجات التكليم بالواسطة في حين أنّ هذا الأخير يفتقد للمواصفات والكمالات الوجودية التي يتمتّع بها التكليم بلا واسطة.

حقيقة تكليم الله عزّ وجلّ

نُسِبَ في القرآن الكريم بعض الأفعال إلى الله سبحانه وتعالى مثل (الكلام) و(القول) و(الأمر) وهي معانٍ يعرفها كلّ واحدٍ منّا واعتاد على استخدامها وسماعها، وألفاظ وُضِعت لمفاهيم مُعيّنة وبإمكان الأشخاص القيام بكلّ فعل

من تلك الأفعال بواسطة الفَم واللّسان والأوتار الصّوتية في الحنجرة ثـمّ وضـع الألفاظ وتنسيقها جنباً إلى جنب ليتكوّن لدينا ما يُسمّى بالكلام أو النُّطْق؛ لكـنّ الله ﷻ مُنزّه عن مثل هذا النوع من الكلام مثـل مـا هـو معلـوم، كـما أنّ أفعالـه التكوينية لا تتّفـق مـع أيّ عقـد أو اعتبـار مطلقـاً: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[١]، فالكُتُب السماوية التي أنزلها الله ﷻ لهداية البشر إنّما نزلت بعَقـد في بدايـة الأمـر وهي تُلفَظ وتُقال بالحنجرة والفم سواء من قِبـل الأنبيـاء ﷺ أم أُممهـم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[٢] إلّا أنّ ما يُنسَب إلى الله سبحانه وتعـالى مُنـزّه مـن الناحيـة المادّيّة.

ومن المعروف أنّ الله ﷻ كان يُكلّم نبيّه الكريم ﷺ وكذلك سيّدنا موسى وبقيّة أنبيائه ﷺ بالإضافة إلى تكليمه للملائكة: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[٣]؛ ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾[٤]؛ ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[٥]؛ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٦]؛ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٧]. ولتوضـيح حقيقة التكليم الإلهيّ ينبغي علينـا أوّلاً بيـان معنـى كلمـة (**الكَلِمَـة**) في القـرآن الكريم لأنّ (*التكليم*) مُشتقّ من (الكلمة).

---

١ . سورة الشورى، الآية ١١ .
٢ . سورة الزخرف، الآية ٣.
٣ . سورة النساء، الآية ١٦٤ .
٤ . سورة الأعراف، الآية ١٤٤ .
٥ . سورة النساء، الآية ١٦٤ .
٦ . سورة الشورى، الآية ٥١ .
٧ . سورة البقرة، الآية ٣٠.



ذكر القرآن الكريم كلًّا من سيّدنا عيسى وسيّدنا يحيى عليهما السلام باسم (كَلمة الله): ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾[1]؛ ﴿أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ﴾[2]، وبعيداً عن هذا وذاك فإنّه [أي القرآن الكريم] يُسمّي نظام الخلقة برمّته بالكلمات الإلهيّة كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾[3]؛ وإذا ضممنا تلك الآيات وجمعناها فإنّنا سنحصل على نتيجة مفادها أنّ (كَلمة الله) تَعني فَيْضاً وجودياً، أمّا سبيل الإفاضة فيتمثّل في التكليم الإلهيّ، فيما تُعتبر السيّدةُ مريمُ عليها السلام وسيّدُنا زكريا عليه السلام ـ المستفيضيْن من الفيض المذكور ـ المستمِعين للكلام الإلهيّ والمُخاطَبينِ به.

واستناداً إلى ذلك فإنّ الإحساس بالنورانية الباطنية يدلّ على التكليم الإلهيّ مع الفرد إذا كان ذلك دون واسطة أو من وراء حجاب كسماع صوت الحقّ بواسطة الشجرة فإنّ ذلك السّماع يكون بواسطة جبريل عليه السلام أو أيّ ملكٍ من الملائكة، لكن يمكن أن يكون اعتبارُ النّوايا الحَسنة التي تنبثق من قلب الإنسان هي كلام الله سبحانه كما أنّ ظهور الشّر في القلب إنّما هو من وساوس الشيطان الرّجيم: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[4]؛ ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[5].

وينبغي الإشارة هنا إلى أنّ الضرورة لا تقضي أن تكون نتيجة التكليم هي الاستماع بالفعل بل يمكن أن يكون التكلّم والكلمة موجودينِ بالفعل بينما

١ . سورة النساء، الآية ١٧١.

٢ . سورة آل عمران، الآية ٣٩.

٣ . سورة الكهف، الآية ١٠٩.

٤ . سورة الأنعام، الآية ١٢١.

٥ . سورة الأنعام، الآية ١١٢.

يكون الشخص المُخاطَب أصَمّ فلا يسمع ذلك الكلام: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1]، فالعالَم كُلّه وما يحتويه من موجودات يُمثّل صوت الله سبحانه، لكن ما أقلّ الآذان الصّاغية.

ووفقاً للآية الشريفة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] فإنّ أدنى مراتب الكلام الإلهيّ هو القرآن المكتوب والمصحف الذي يتمّ تداوله بيننا، وبهذه الآيات المكتوبة التي يلفظها الإنسان يتحدّث الله سبحانه إلى البشر وليس إلى قارئ القرآن الكريم وحده إذ لا وجود لأيّ قرينة عقلية أو نقلية قاطعة تدلّ على العدول عن الظاهر ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ لكي يُقال إنّ المقصود هو قراءة القارئ وإنّ إطلاق اسم (كلام الله) على ذلك إنّما هو لكون القرآن الكريم مُنزَل من قِبَله ﷻ.

فالقارئ هو مَجرى فيض الحقّ سبحانه والعالَم برمّته يُمثّل نغمة الله ﷻ وما قارئ القرآن إلّا كلمة الله الحقيقية التي تتلو كلمات الله الاعتبارية، ولهذا فإنّ من آداب تلاوة القرآن الكريم أنْ يقول السّامع أو القارئ (لَبّيك) كلّما قرأ أو سَمِع جملة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كدليل فعليّ على الخطاب الإلهيّ.

تذكير: ١. إنّ الكلمات (قَول) و(أمر) و(كُن) وما شابهها من الكلمات الواردة في القرآن الكريم مستخدَمة بشأن الكثير من الموجودات إلّا أنّ كلمتي (التكليم) و(التكلّم) استُخدِمتا في الغالب بين الله سبحانه والإنسان، وأمّا ما يُقال عن تكليم أعضاء الجسد يوم القيامة فلأنّ تلك الأعضاء هي أعضاء

---

١. سورة البقرة، الآية ١٧١.

٢. سورة التوبة، الآية ٦.



الإنسان وليست أعضاء مخلوق آخر؛ إلّا أنّ الآية الشريفة ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾[1] تُسند الكلام إلى الحيوان دون الإنسان، لكن ورد في بعض الروايات أنّ اسم (دابّة الأرض) قد يُطلَق على بعض أولياء الله كذلك[2]، كما أنّنا نلاحظ أنّ الآية الشريفة ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾[3] قد أسند الكلام أيضاً إلى غير الإنسان.

٢. كما أنّ التكليم الإلهيّ يمتاز بظهوره في القلب مثلما تصرّح بذلك الآية الشريفة ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾[4] وقول أمير المؤمنين عليه السلام: «... وكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ»[5]، فقد يكون ذلك من خلال إحداث صوت في شيء خارجيّ فيستطيع إنسان كامل ومعصوم مثل سيّدنا موسى عليه السلام فهم ذلك وإدراكه.

٣. إنّ استخدام المُفردة *(الكلمة)* في مسألة الفيض الوجوديّ هو استخدام حقيقيّ إذ إنّ واضع مُفردة *(كلمة)* إنّما أراد بها روح المعنى (أي الشيء الذي يُخبر عن الغيب) وحتى لو أراد استخدامها لمعنى بسيط فقد استُخدِمت بمرور الوقت مجازاً لبيان معنى أعمق وهكذا أضحت حقيقة ثانوية بسبب تكرار استخدامها. وعليه، فإنّ إطلاق المُفردة (الكلمة) على موجود عينيّ خارجيّ يُعدّ استخداماً حقيقياً وفقاً لأيّ شيءٍ من العلل والأسباب المذكورة.

٤. ليس لوضع المفردات واستخدامها لمفاهيم عامّة تُسمّى بروح المعنى، أيّ برهان عقليّ أو نقليّ بل هو قائم على الحَدس، أمّا مصدر هذا المبدأ الحدسيّ فهو

---

١. سورة النّمل، الآية ٨٢.

٢. راجع: **بحار الأنوار**، ج٣٩، ص٢٤٣ ـ ٢٤٤.

٣. سورة الروم، الآية ٣٥.

٤. سورة الشعراء، الآيتان ١٩٣ و ١٩٤.

٥. **نهج البلاغة**، الخطبة ٢٢٢.



بحث وضع مفردات جديدة للمسائل التِقَنيّة والإنجازات الصناعية إذ إنّ الأساس الذي يرتكز عليه المُبدعون في تسمية صناعاتهم وقطعاتها هو استمرار استخدام وإطلاق تلك التسمية أو التسميات على نَفس المصنوعات والقطعات حتى وإن اكتملت يوماً معالم تلك المصنوعات أو تمّت صناعتها من موادّ أصلية وقطعات ثانوية تختلف عن تلك التي استُخدِمَت في إنتاجها في بادئ الأمر، وسندرك فيما بعد أنّ المفردات المُستخدَمة هي مجرّد مفاهيم عامّة وفقاً للتشابه في الأزمنة والحالات والأفراد والتقاليد.

٥. إنّ تطوّر النماذج الماديّة كأنموذج المصباح والميزان والقلم لا يتنافى مع حقيقة الاستخدام والحدس المُشار إليه يؤيّد هذا المعنى، وأمّا التطوّر الماديّ والمعنويّ، أي المُفردة التي وُضِعت بالنظر إلى النماذج المادية لمفهومها الجامع، فيصعب تطبيقه على مصداق معنويّ مجرّد في بداية الأمر دون تدقيق وتوسّع وإن كان التطوّر المذكور سيبلغ الحقيقة في مرحلة البقاء.

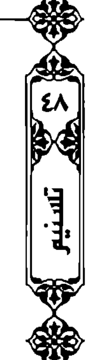
بيان درجات التفضيل الإلهيّ

تتباين درجات أنبياء الله سبحانه ومراتب تفضيلهم تماماً كالمؤمنين الذين تختلف درجاتهم: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[1] فالمؤمن الجاهل غير العالم له درجة وللمؤمن العالِم عدّة درجات، فكلمة ﴿دَرَجَاتٍ﴾ محذوفة من الجزء الأوّل من الآية وذلك بقرينة وجود نفس الكلمة في القسم الثاني من الآية.

كذلك الحال بالنسبة إلى آيات القرآن الكريم فهي ليست متساوية من حيث

١. سورة المجادلة، الآية ١١.



الفصاحة والبلاغة والمضمون الأدبيّ الذي تتضمّنه كلّ واحدة منها:

فـافْتَكِـر فيـما تَـرى في مِـنـزِلِ أعْيـى الـوَرى

هَل تَرى (تَبَّتْ) تُحاذي (قِيلَ يا أرْضُ ابْلَعي)؟[١]

وآي القرآن الكريم ليست متماثلة أيضاً من حيث المعارف والعلوم فبعضها متشابه وبعضها الآخر مُحكَم، ولفَهم الآيات المتشابهات بالشكل الصحيح لا بدّ من تفسيرها وبيانها على ضوء الآيات المُحكمات: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[٢] ومن بين الآيات المحكمات كذلك ثمّة آيات هنّ أمّ الآيات المحكمات كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٣] كما أنّ المبادئ البديهية تتضمّن مبدأ المبادئ المُسمّى (*امتناع التناقض*).

وتشير الآية الشريفة ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ بوضوح إلى الاختلاف في درجات ومناصب أنبياء الله سبحانه وتفاوت مراتبهم، إلّا أنّ المراد ههنا هو التفاوت النسبيّ وعليه فإنّه لا صحّة لقول مَن قال باقتصار ترفيع الدرجة لسيّدنا إدريس عليه السلام بالاستناد إلى الآية الشريفة ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[٤] أو لأيّ نبيٍّ من الأنبياء الآخرين وهو ما اختلف المُفسّرون بشأنه.

إشارة: كما ذكرنا فإنّ استخدام القرآن الكريم لصيغة الغائب في الآية الشريفة ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾ إنّما هو من باب البلاغة والإبداع الأدبيّ.

---

١ . أصل هذا البيت القديم باللغة الفارسية وقائله مجهول:

[در كلام ايزد بيچون كه وحى مُنزلست

كى بود (تبت يدا) مانند (يا أرض ابلعى)]   [المترجم]

٢ . سورة آل عمران، الآية ٧.

٣ . سورة الشورى، الآية ١١.

٤ . سورة مريم، الآية ٥٧.



الدرجة كحقيقة وجوديّة

وردت كلمة «دَرجات» في القرآن الكريم بثلاث صِيَغ هي:

١. الدرجة الاعتبارية وتشمل كلّ الأفراد.

٢. الدرجة الحقيقية وهي درجة خاصّة بالأنبياء وأولياء الله عليهم السلام سواء في الدّنيا أم في الآخرة، وستشمل المؤمنين كذلك يوم القيامة الذين ستظهر درجاتهم الدنيوية وتتجلّى في الآخرة.

٣. الدرجة الاعتبارية والحقيقية معاً: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1]. أجاب الله سبحانه على اعتراض البعض حول عدم نزول القرآن الكريم على الأثرياء والملأ من قوم الرّسول صلى الله عليه وآله في مكّة أو الطائف قائلاً: إنّ الأرزاق الظاهرية والماديّة للناس هي بيَده عزّ وجلّ لا بيَد الآخرين وهي تُقَسَّم وفقاً للمصالح التي يرتئيها هو سبحانه، وكذلك الحال مع الأرزاق الأخرى كالنبوّة والرسالة والولاية التي تُعدّ مقامات ومناصب معنويّة فهي ليست بأيدي الناس لكي يقترحوا أو يعترضوا أو يُنصّبوا هذا ويعزلوا ذاك. وتستمرّ الآية الشريفة مشيرة إلى سُنّة الله تعالى التي قضت بإيجاد الاختلاف بين الأفراد والفروق في قدراتهم للمحافظة على المجتمع الإنسانيّ ومنعه من الانهيار. فتقسيم المجتمع إلى طبقات مختلفة إنّما هو لإدارة النظام الاجتماعية وتسييره وهذا أمر لا ينبغي لأحد فيه أن يفخر أو يتكبّر على الآخر لأنّ الفخر الحقيقيّ إنّما يكون في التقوى والزّهد، والنّزاهة بعيدة كلّ البُعد عن الفخر والتفاخر: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2].

---

١. سورة الزخرف، الآية ٣٢.

٢. سورة الحجرات، الآية ١٣.



وبالنّظر إلى طرح مسألة النبوّة في الآية الّتي هي موضوع البحث والتي تستند إلى ضرورة امتلاك الدرجة المعنوية، فإنّ كلمة «دَرجات» المذكورة في الآية تشتمل كذلك على الدرجات الواقعية.

وفيما يتعلّق باستخدام كلمة «درجات» في المسائل المعنوية، يمكننا الإشارة إلى هاتين الآيتيْن:

١. ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾[١].

٢. ﴿**هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ**﴾[٢].

لاحظ أنّ الآية الثانية تحاول بيان الموضوع بشكل أعمق؛ ويرى بعض المفسّرين أنّ (اللام) في الآية مُقدّرة للضمير ﴿**هُمْ**﴾ لكن يمكن اعتبار الظاهر حجّة كذلك ولا حاجة عندئذ إلى تقدير حرف (اللام) إذ باستطاعة الإنسان أن يصل إلى مقام يصبح فيه عين الدرجة لا أن تكون الدرجة مُعيّنة له، تماماً كالوحدة الموجودة مثلاً بين العِلم والعالِم والعَمل والعامِل والبحث والباحِث[٣]، وقد قال الرسول الأكرم ﷺ لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**يَا عَلِيُّ أَنَا مَدِينَةُ الْحِكْمَةِ ـ وَهِيَ الجَنّة ـ وَأَنْتَ بَابُهَا**»[٤]. إذاً، فروح الإنسان ذي المعارف واللذائذ المعنوية متّحدة مع الجنّة فضلاً عن أنّه سيحظى ببستان يوم القيامة باسم الجنّة.

وهكذا نرى أنّه ما من فرق بين الآيتيْن المذكورتيْن إطلاقاً لتكون إحداها مُقيّدة أو مُخصّصة لشخص مُعيّن. نعم، قد يصدق معنى ﴿**لَهُمْ دَرَجَاتٌ**﴾ على

---

١. سورة الأنفال، الآية ٤.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٦٣.

٣. أنظر: التفسير الكبير، ج٩، ج٧، ص٧٧؛ تفسير غرائب القرآن، ج٢، ص٣٠١ ـ ٣٠٢.

٤. الأمالي، الصدوق، ص٣١٧؛ بحار الأنوار، ج٤٠، ص٢٠١.

المُبتدئين وذوي المراتب المتوسّطة، وأمّا المخلصون وأصحابُ المراتب النهائية كالأنبياء الذين يتمتّعون بمَلكات أخلاقية وعلمية استثنائية وكونهم أفراداً كاملين فتصدق عليهم الآية الشريفة ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ﴾ وذلك لأنّ الأنبياء عليهم السلام أنفسهم يمثّلون الدرجة الحقيقية ولكلّ نبيٍّ منهم درجة تختلف عن درجة الآخر في ميزان الدرجات ونوع كلّ درجة، أمّا المظهر الأكمل للدرجات الرفيعة فهو الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسنذكر في بحث الإشارات واللطائف الأدلّة الخاصّة بأفضليّته وعلوّ درجته على بقيّة الأنبياء عليهم السلام.

التفضيل بالبيّنات والتأييد بروح القُدُس

حَظِيَ جميع الأنبياء والرّسل عليهم السلام بنعمة البيّنات والتأييد بروح القُدُس إلّا أنّه تمّ تفضيل بعضهم على البعض الآخر حتى في هذه المسألة وتبقى الأفضلية المطلقة لخاتم الرّسل والأنبياء صلى الله عليه وآله.

وفي هذا السياق لم يذكر الله سبحانه وتعالى اسم الرّسل الآخرين بل اقتصر الأمر على ذكر اسم سيّدنا عيسى عليه السلام وحده ويعود السبب في ذلك إلى أنّ الكثيرين اعتقدوا خطأً أنّ عيسى عليه السلام هو ابن الله وأنّ الله سبحانه قد حلّ في جسد عيسى عليه السلام فيما اعتبره البعض الآخر إلهاً، وما ذلك إلّا لجهل بعض أتباع عيسى عليه السلام، ولهذا نرى أنّ القرآن الكريم يحاول في أكثر من مناسبة تعريف سيّدنا عيسى عليه السلام على أنّه عبد الله ورسول مؤيّد وأنّه ابن السيدة مريم عليها السلام وهو ما نلاحظه في تكرار اسم عيسى عليه السلام باسم (عيسى بن مريم)[1].

وقد ذكر القرآن الكريم كلمة «البيّنات» عند الإشارة إلى أنبياء آخرين كذلك كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾[2] و﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى

---

١. أنظر مثلاً: الآية ٣٠ من سورة مريم عليها السلام؛ والآية ١٧١ من سورة النساء.

٢. سورة الحديد، الآية ٢٥.



بِالْبَيِّنَاتِ﴾[١] مع اختلاف بسيط بالطّبع وهو أنّ البيّنات كلّها الخاصّة بجميع الأنبياء عليهم السلام لا تعود إلى نوع واحد بل يكون الحديث عن بيّنات بعض الرّسل أحياناً متعلقاً بإحياء الموتى أو إماتة الأحياء والإبادة وما شابه ذلك كما في قوله سبحانه: ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾[٢] و﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾[٣] و﴿وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ﴾[٤]، لكنّ المعجزات والكرامات التي أتى بها سيّدنا عيسى عليه السلام كانت جميعها من نوع واحد حيث امتاز مُعظمها بمَنح الحياة وإرجاع الرّوح وإحياء الموتى.

تذكير: ١. إنّ المعجزة الواضحة التي لا لَبس فيها ولا غموض تُسمّى (البيّنة) وعادة ما تتمّ الإشارة إليها باسم (البيّنة) أو (البيّنات) وقد تتكرّر نفس المعجزة المحسوسة في بعض الأحيان فتُسمّى أيضاً بالبيّنة مثل خسف دار قارون أو أنواع العذاب الذي حلّ بفرعون وملَئِه.

٢. تمتاز بيّنة سيّدنا عيسى عليه السلام بظهور روح الله في مُعظم الحالات: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾[٥] بل حتى عند إخباره عليه السلام بما يدّخر قومه من الطعام وما شابه ذلك لارتباط ذلك كلّه بالحياة والرّوح.

المقصود بروح القُدُس

حدثت مُعجزات سيّدنا عيسى عليه السلام وكراماته بتأييد من روح القُدُس،

---

١. سورة البقرة، الآية ٩٢.
٢. سورة القصص، الآية ٤٠.
٣. سورة القصص، الآية ٨١.
٤. سورة الأعراف، الآية ١٣٣.
٥. سورة آل عمران، الآية ٤٩.



ورغم أنّ جميع المعجزات التي أتى بها الأنبياء عليهم السلام كانت بتأييد روح القُدُس، إلّا أنّ تلك المعجزات لم تكن متشابهة.

فاسم «روح القُدُس» يحمل معانِيَ جامعة، أي إنّ (**روح القُدُس**) هو وجود نورانيّ وحقيقة قُدسيّة، فبالإضافة إلى كونه هو نفسه مُنزّه من كلّ نقص، فإنّ نزوله ومهبطه كذلك مُنزّهان ومُقَدّسان[1]؛ ومن بين الأمثلة على هذا المعنى الجامع وكلّها أمثلة تعود إلى كونه مصدر نورانيّ واحد، هي:

١. أنّه [أي روح القُدُس] ملاك أفضل درجة وأرفع مرتبة من جبريل وميكال عليهما السلام.

٢. هو جبريل الأمين عليه السلام.

٣. الكُتُب السماوية.

٤. مرتبة أسمى من روح الإنسان الكامل.

وقد مرّ بنا تفصيل هذا الموضوع عند تفسير الآية (٨٧) من سورة البقرة[2].

المشيئة الإلهية واختيار الإنسان

بعد أن أُعطيت الأوامر في الآيات السالفة بشنّ الحرب والإشارة إلى المعركة التي وقعت بين طالوت وجالوت واستبسال سيّدنا داود عليه السلام في تلك المعركة وإيراد البرهان حول ضرورة الدّفاع عن البلاد من المفسدين فيها والحفاظ عليها، يشير الله سبحانه إلى أنّه ما كان ذلك كلّه ليحدث وتقع الحرب بين الفريقَيْن لولا مشيئة الله إذ باستطاعته جلّ أن يُجبر الناس أو يُريَهم أحلاماً مخيفة

---

١. راجع: العلّامة المصطفوي، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٤، ص٢٥٧ ـ ٢٦٤.

٢. أنظر: **تفسير تسنيم**، ج٥، ص٤٥٢ ـ ٤٥٥.

وكوابيس مهولة أو يوقعهم في أحداث رهيبة مثل رفع الطّور ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾[١] فيخيفهم أو يشجّعهم على الإيمان وبذلك يبطل الاقتتال بينهم.

وقد ورد هذا المضمون بعبارات مختلفة في آيات أخرى كذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢] و﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[٣] و﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾[٤] و﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾[٥]؛ كلّ هذه الآيات تشير إلى عدم وجود أيّ نوع من الإكراه في الاهتداء من جانب الله سبحانه لأنّ ذلك يعني سدّ جميع السّبُل بوَجه التكامل الإنساني فضلاً عن أنّ مثل هذا الإيمان لا قيمة له إطلاقاً فهو يشبه إيمان فرعون عندما رأى نفسه تَغرق في اليمّ[٦].

وما إرسال الرّسل وبَعث الأنبياء عليهم السلام وإنزال الكُتب السماوية إلّا لإرساء قواعد الهداية التشريعية ونَفي الهداية الإجبارية: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾[٧]؛ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[٨].

ووفقاً للهداية التشريعية فإنّ الإنسان مُخيّرٌ والطريقين مفتوحانِ أمامه ولا

---

١ . سورة النساء، الآية ١٥٤.

٢ . سورة الأنعام، الآية ١٤٩.

٣ . سورة يونس عليه السلام، الآية ٩٩.

٤ . سورة الأنعام، الآية ١٠٧.

٥ . سورة الأنعام، الآية ٣٥.

٦ . في إشارة إلى الآيتين (٩٠) و(٩١) من سورة يونس: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾. [المترجم]

٧ . سورة البقرة، الآية ١٨٥.

٨ . سورة الفرقان، الآية ١.

أحد مُجبَرٌ على الإيمان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[١] و﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[٢]. فالله ﷻ خلق الإنسان مُفكّراً ومُختاراً وجعل بقاءه في حُسن اختياره وفناءه وهلاكه في سوء ذلك الاختيار، ولو شاء إجباره على الإيمان لسدّ أمامه طريق التكامل، بل قضت مشيئته ولطفه وحكمته أن يُريه الصراط المستقيم واعتبر ذلك وعداً منه ومنّة على الإنسان، ورغم ذلك فإنّ البعض يأبى إلّا أن يحيد عن الطريق، ويبغونها عِوَجاً: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٣].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ ما يؤدّيه الإنسان من دعاء ورجاء نحو الله سبحانه إنّما هو فعل اختياريّ وبإمكان الإنسان أن يقوم بهذا الفعل أو يمتنع عن القيام به، وأمّا الشخص الذي يطلب التوفيق ويرغب في الهداية فإنّ ذلك لا يعني أنّ الله تعالى قد أجبره على اختيار سبيل الفضيلة بل معناه أنّه ﷻ زاد في تطلّعاته القلبية وأمانيّه الروحية وهيّأ أمامه كلّ العوامل الكفيلة بتقدّمه وتكامله.

إلماعة: إنّ تركيز التكلّم في العبارة السابقة على الغائب في الآية الّتي هي موضوع البحث يأتي من باب إظهار الإرادة التكوينية لله سبحانه المهيمن على كلّ شيء وإنّ مسألة إيجاد الأحداث وعدمها لا تخرجانِ عن إطار سلطانه وقدرته ولهذا أشارت الآية إلى وصف الإلوهية النافية لقيود القدرة الإلهية والسبب في إطلاق تعلّق قدرته ﷻ بالإيجاد والعدم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾[٤]، وسوف نتحدّث عن المسائل الخاصّة بالإرادة التكوينية لله سبحانه في بحث الإشارات واللطائف.

---

١ . سورة الإنسان، الآية ٣.

٢ . سورة الأنفال، الآية ٤٢.

٣ . سورة النحل، الآية ٩.

٤ . سورة البقرة، الآية ٢٥٣.



أنواع الحروب

الحروب نوعان:

أ) حروب سبقت بعثة الأنبياء والرّسل عليهم السلام وهي حروب وحشية ضارية لكن دوافعها لم تكن دينية بل كان الغرض منها هو الاستعمار والاستغلال والاستعباد وما شابه ذلك. وتشير البراهين العقلية للنبوّة والرسالة إلى أنّ وجود قائد أو مُرشد إلهيّ كان أمراً ضرورياً للسيطرة على الفوضى العارمة التي سادت المجتمعات الإنسانية ومنع الاقتتال الوحشي بين الناس.

ب) الحروبُ التي نشبت بعد إرسال الرّسل وبَعث الأنبياء عليهم السلام كانَ السببُ في حدوث بعضها هو عدم إيمان البعض وتعرّضهم للمؤمنين: ﴿**قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ**﴾[1]، بينما كان سبب نشوب الحروب الأخرى هو المؤمنين أنفسهم وذلك لاختلاف وجهات النّظر بينهم حول بعض المسائل الدينية رغم أنّ الأحكام الإلهية واضحة لا غموض فيها أبداً: ﴿**قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾[2]؛ ومن الجهة الأخرى فإنّ البيّنات التي أتى بها أنبياء الله عليهم السلام وكذلك دعوتهم للناس إلى عبادة الله جل جلاله وادّعائهم النبوّة من قِبَله، كلّها كانت صادقة. وهكذا نرى أنّ أساس الدّين قائم على النور والرّحمة وليس فيه ما يُحيّر أو يوجِد الخلاف والحرب إطلاقاً، بل إنّ السبب يعود إلى المُعتنقين للدّين فربّما أصابوا في تصوّراتهم حول الدين ولم يزلّوا أو يخطئوا وربّما أزلّهم الشيطان وغرّهم لارتكاب الباطل والتفكير المُنحرف فظنّوا أنّهم أكثر تقوى من الآخرين وأقوى رأياً منهم، الأمر الذي أدّى في النهاية إلى وقوع الاختلاف بين الفريقيْن المؤمنيْن في الظاهر والدخول في حرب واقتتال.

---

١ . سورة الشعراء، الآية ١٣٦.

٢ . سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

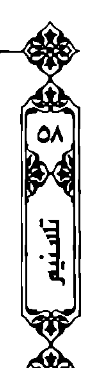
المشيئة التكوينية للحرب والاقتتال

تُعتبر الآية الشريفة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا﴾ قياساً استثنائياً، بمعنى، أنّه لو كان الله سبحانه يريد لَمَا اقتتلت أمّة أيّ نَبيّ من أنبيائه، لكنّهم مع ذلك اقتتلوا، وهذا يشير إلى أنّ مشيئة الله ﷻ التكوينية شاءت أن يقتتل هؤلاء فيما بينهم إذ عند وجود الملازمة بين التالي والمُقدّم (السابق) فإنّ إثبات التالي يؤدّي إلى إثبات المقدّم وإن كان الأصل في هذا القياس الاستثنائيّ هو سلبية المقدّم؛ أي يمكننا صياغة معنى الآية بالشكل الآتي: «لَو شاءَ الله ألّا يَقْتَتلوا ما اقْتَتلوا، لكن اقتتلوا»، إذاً فإنّ الله سبحانه شاء تكويناً أن يقع القتال بين أولئك رغم نَهيِيه التشريعي عن ذلك.

إلماعة: ١. تحدّثت الآية الشريفة في بدايتها عن موضوع القتال وذلك مراعاة لسياق الآيات التي تناولت نفس الموضوع: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ثمّ أشارت بعد ذلك إلى مسألة الخلاف والحال كان الحرب والقتال متفرّعينِ في الحقيقة عن الخلاف نفسه وحالة المؤمنين والكفّار.

٢. يشير استخدام الفعل «اختَلفوا» بدلاً من «اقتَتَلوا» إلى أسباب نشوب الحرب والاقتتال.

٣. المقصود بالاختلاف الحاصل بين الناس في الآية الّتي هي موضوع البحث هو الاختلاف قبل العِلم وهو حالة صحيّة ومدعاة للتطوّر العلميّ وليس الاختلاف بعد العِلم الذي يُعدّ أمراً مذموماً وسبباً للانهيار والتداعي، وذلك لأنّ الآية الشريفة كانت قد ذكرت مسألة «البيّنات»: ﴿جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ قبل الإشارة إلى الاختلاف بقولها: ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا﴾ ثمّ جاء موضوع الإيمان والكفر وليس العلم والجهل: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ وقد فصّلنا



القول في ذلك في الآية الشريفة (٢١٣) من سورة البقرة[1] وسيأتي ذكر ذلك أيضاً في قسم الإشارات واللطائف.

سرّ مشيئة الله في الحرب

تُعتبر الآية الشريفة: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ كذلك قياساً استثنائياً وبياناً لطيفاً يفوق القياس الاستثنائيّ السابق: لو شاء الله ما اقتتلت أمّة نبيّ من أنبيائه فيما بينها بعد وفاة ذلك النبي لكنّ سنّة الله تعالى قضت بمَنح الإنسان الحرية والاختيار ليتبيّن مقدار إيمان المؤمن وإخلاصه وكذلك مقدار كُفر الكافر ووحشيّته: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[2]. ولتقديم مزيد من التوضيح حول هذا القياس الاستثنائيّ نقول: يمكن أن ينجم عن القياس الاستثنائيّ استثناء عين المقدّم أو استثناء نقيض التالي لكن لا يمكن أن تكون النتيجة هي استثناء عين التالي بأيّ حال من الأحوال إذ قد يكون التالي أشمل وأعمّ من المقدّم.

ففيما يتعلق بالقياس الاستثنائي في قولنا مثلاً: «لو كانَ هذا إنساناً لكان حيواناً، لكنّه إنسان» فإنّ نتيجة هذا القياس هو القول: «فهو حيوان!»، وفي حال تمّ استثناء النقيض التالي «لكنّه ليس بحيوان» فإنّ نتيجة القياس تكون: «فليس بإنسان» وهذا نقيض المقدّم، وأمّا في حالة استثناء عين التالي «لكنّه حيوان» فقد تكون نتيجة القياس: «فهو إنسان» لأنّ «الحيوان» يشمل معنى كلّ واحدٍ من «الإنسان» وغير الإنسان من بقيّة الحيوانات كالغنم والبقر، أمّا إثبات حيوانية شيء ما فليس دليلاً على كون ذلك الشيء إنساناً.

---

١. أنظر: تفسير تسنيم، ج١٠، ص٤٠٩ ـ ٤١٩.

٢. سورة الأنفال، الآية ٣٧.

وفي الآية الّتي هي موضوع البحث ووفقاً لِما قلنا سابقاً، تمّ استثناء «عين المقدّم» الذي أدّى إلى استنتاج «عين التالي» لأنّ جملة ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تعود إلى قولنا: «لكنّ الله شاء أن يقتتلوا» وهو «عين المقدّم»، إذاً فنتيجة القياس المذكور هي: «فاقْتَتَلوا!».

وتكمن العلّة في تعلّق مشيئة الله ﷻ بالاقتتال والحرب في اختبار المؤمنين: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾[1] ولذلك ترك الله سبحانه وتعالى الناس أحراراً في القيام بأعمال الخير أو الشرّ رغم أنّه ﷻ نَهى عن ارتكاب الظلم والشرّ في النظام التشريعيّ فضلاً عن أنّه سبحانه قد يمنع حدوث بعض الأفعال بقدرته العظيمة إذا اقتضت المصلحة ذلك كانتقامه ﷻ من إبرهة وإهلاك جنوده الذين أتوا من هَدم الكعبة المشرّفة[2]؛ والحاصلُ إنّ الله سبحانه قادر على فعل ما يريد ومشيئته هي الغالبة وهو القاهر فوق عباده.

إشارات ولطائف

١. مسألتان حول النبوّة

أ. إيمان المؤمنين واعترافهم بجميع الأنبياء والرّسل: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[3] إنّ رسول الله ﷺ والمؤمنين من أمّته يؤمنون بالله تعالى وبجميع ملائكته وكُتبه المُنزَلة ولا يُفرّقون بين أيّ نبيٍّ ورسولٍ من أنبيائه ورُسله في مبدأ النبوّة بشكل عامّ وصِدق دعوتهم

---

١. سورة محمّد ﷺ، الآية ٤.

٢. سورة الفيل.

٣. سورة البقرة، الآية ٢٨٥.



وأحقيّتها ويؤمنون كذلك بعصمة ما تلّقوْه من الوحي وصِدق ذلك. ومن المعلوم أنّ كلّ نبيّ أو رسول يُمثّل حجّة إلهية في زمان نبوّته وعصره هو فقط، والنبيّ الأكرم ﷺ هو النبيّ الوحيد الذي ستبقى حجّته قائمة ونافذة إلى يوم القيامة لاستمرار رسالته إلى اليوم الآخر، ولهذا نرى أنّ المؤمنين المخلصين يقدّسون رجال الله وأوليائه جميعهم عند زيارتهم لقبورهم بدءاً من أبينا آدم عليه السلام حتى خاتم النبيّين والمرسلين ﷺ وذلك على العكس ممّا يقوم به اليهود مثلاً أو بعض المسيحيين إذ لا يؤمن هؤلاء بأحدٍ سوى بنبيّهم وحده.

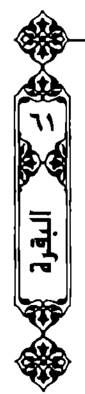
إنّ عدم التفريق والتمييز بين أيّ واحدٍ من أنبياء الله ورُسله عليهم السلام معناه الاعتراف بهم جميعاً كمبدأ من مبادئ النبوّة العامّة وذلك لأنّ جميع الأنبياء عليهم السلام يمتلكون الحدّ اللازم من نصاب الأحكام وشؤون النبوّة العامّة، أمّا اختلاف درجاتهم وتباين مراتبهم فهو ما سنتطرّق إليه في الموضوع التالي، وسنوضّح حينها أنّ التفاضل في الدرجات نابع من الاشتراك والمماثلة في مبدأ النبوّة ذاتها.

ب. تشابه كلّ الأنبياء في النبوّة والرسالة بشكل عامّ واختلافهم في الدرجات والمراتب: ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا**﴾[1]، لاحظ أنّ الآية الّتي هي موضوع البحث تتحدّث عن الفَرق بين الرّسل وآية الاستشهاد تتكلّم عن الفرق بين الأنبياء؛ لكنّ الحقيقة هي أنّ كلتا الآيتيْن تتضمّنان عاملاً مشتركاً حقيقياً حيث يمكن استنباط النّتيجتيْن التاليتيْن منهما:

نقول **أوّلاً**: إنّ رُسل الله تعالى متساوون من حيث النصاب اللازم لرسالتهم بشكل عامّ لكنّهم مختلفون في درجات تلك الرسالة أو النبوّة.

---

١ . سورة الإسراء، الآية ٥٥.



وثانياً: يتساوى أنبياء الله سبحانه كلّهم من حيث الحدّ اللازم للنصاب ولا يختلفون في ذلك، إلّا أنّهم ليسوا متساوين في درجات النبوّة، ومثل هذا الفرق في الدرجات موجود كذلك بين الملائكة المعصومين فبعضهم يأمر فيُطاع وبعضهم الآخر يُؤمَر فيطيع: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[1].

الماعة: يُعتبر الإنسان الكامل نبيّاً ويتمتّع بمقام النبوّة بسبب تلقّيه للوحي الإلهيّ ويُسمّى رسولاً يحظى بمقام الرسالة ـ القائم على أساس مقام النبوّة ـ من حيث تلقّيه لذلك الوحي وإبلاغه للناس، وكلا المقامَيْن مُنبثقيان عن مقام *الولاية* إذ ينبغي أن يكون النبيّ أو الرّسول وليّاً من أولياء الله وإن لم يكن أولياء الله جميعهم من الأنبياء والرّسل كما هي الحال مع الزهراء البتول عليها السلام والأئمّة الإثني عشر عليهم السلام الذين يحظون بنعمة الولاية لكنّهم ليسوا أنبياءَ ولا رُسلاً.

إنّ مقام النبوّة والرسالة نِعمة من الله عزّ وجلّ يَهبها لِمَن يشاء من عباده: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[2].

تذكير: يمكن استخدام كلمة (النبوّة) بمعناها الشامل والجامع بحيث تشمل الحالتيْن المذكورتيْن كما أنّه يمكن تطبيق ذلك كذلك على معنى (الرّسالة).

٢ . تفضيل الأنبياء بعضهم على بعضهم

إنّ مقام الأنبياء أفضل من مقام أُممهم بل ومن جميع الناس على الإطلاق لأنّ قائد الأُمّة أفضل من أمّته وفقاً للبرهان العقليّ، ويؤيّد هذا الكلام قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[3]

١ . سورة التكوير، الآية ٢١.

٢ . سورة الأنعام، الآية ١٢٤.

٣ . سورة آل عمران، الآية ٣٣.

و ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1] لأنّ ظاهر كلمة ﴿الْعَالَمِينَ﴾ ـ وهي اسم ملحق بجمع المذكّر العاقل دخلت عليه الألف واللام ـ يدلّ على عمومية الاصطفاء والتفضيل.

وتشير كلمة ﴿كُلًّا﴾ كذلك إلى أنّ الله سبحانه وتعالى قد فضّل جميع أنبيائه على جميع الناس (العالَمين) وما مِن قرينة تدلّ على أنّ المقصود بالمُفَضَّل عليه هم أبناء زمانه وعصره.

تذكير: ينبغي الإشارة هنا إلى: أن نقول أوّلاً، إنّ الأنبياء عليهم السلام جميعهم معصومون، وثانياً، لا مزيّة لغير المعصوم على المعصوم إطلاقاً، وثالثاً، حتى في حال وجود نوع من التشبيه أو المقارنة فإنّ ذلك يعود إلى بعض آثار التبليغ الخاصّة بالأنبياء عليهم السلام، فما ورد مثلاً في بعض الروايات والأحاديث من إشادة ببعض العلماء المسلمين وتشبيههم بأنبياء بَني إسرائيل[2]، ينبغي حَمله على ما قيل آنفاً وليس ذلك من باب تفضيل غير المعصوم على المعصوم.

٣. تفضيل الأنبياء على الملائكة

يتميّز أنبياء الله عليهم السلام على الملائكة بميزتيْن اثنتيْن، هما: (أ) أنّ عِلمهم مأخوذ من لَدن الله سبحانه دون واسطة، فتلك الذوات القدسيّة هي أنوار وكلّهم مشتركون في مقام الإنسان الكامل وهو مقام يُمثّل منصب المُعلِّم للملائكة لأنّ هؤلاء الأخيرين ليسوا قادرين على تعلّم الأسماء الحسنى من الله سبحانه بغير واسطة بل لا بدّ لهم من تلقّي العلم من تقارير الأنبياء عليهم السلام وسيرتهم: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾[3]. (ب) تفضيل (العلم) على (النّبأ) فالله تعالى لم يَقُل لأبينا

---

١. سورة الأنعام، الآية ٨٦.

٢. أنظر: بحار الأنوار، ج٢، ص٢٢؛ عوالي اللئالي، ج٤، ص٧٧.

٣. سورة البقرة، الآية ٣٣.

آدم عليه السلام: «أخبر الملائكة بما تعلّمته» بل يدور الكلام حول التقرير والإخبار، وهذا يعني أنّ الملائكة حظيت بالعلم من خلال ما أنبأها به الإنسان الكامل (آدم عليه السلام) وليس من تعليمه لهم ولذلك أذعن جميع الملائكة للإنسان الكامل فاستحقّ بذلك سجودهم له: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[1]. والظاهر من عبارة ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ودخول (الألف واللام) على صيغة الجمع ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ هو خضوع جميع الملائكة على الإطلاق، وأمّا ما تردّد على لسان بعض أهل العلم والمعرفة من احتمال عدم سجود بعض الملائكة (الذين يُسمَّوْن بالكروبيّين[2] مثلاً)[3] فيتعذّر إثباته رغم عدم سقوط احتماله وربّما أشار بعض الروايات كذلك إلى هذا الأمر وقد يؤيّد ذلك أيضاً ما مرّ بنا من قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾[4] إلى جانب ما ورد في ذيل آية (الكرامة) قوله سبحانه: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[5].

٤. فضيلة سيّدنا نوح عليه السلام

إنّ أسبقية نبوّة سيّدنا نوح عليه السلام وقِدَمها في التاريخ البشريّ أمر لا يمكن أن يتجاهله الله عزّ وجلّ أو يغضّ النظر عنه وقد وهب الله تعالى سيّدنا نوحاً عليه السلام من الكرامة والثواب الجزيل ما يُعوّضه عن مُعاناته ومظلوميّته التي استمرّت قرابة

---

١. سورة الحجر، الآية ٣٠.

٢. (الكروبيّون) و(الكَروبيّة)، الواحد (كَرُوب) وقد تُبدَل الكاف شيناً: هم سادة الملائكة أو المُقَرّبون منهم، عبرانيّتها (كَروبيم) جمع (كَرُوب) وربّما استُعمِلَت بلفظها العبرانيّ. (المنجد في اللغة، ص٦٧٩، مادة «كرب»). [المترجم]

٣. تفسير رحمة من الرحمن، ج٣، ص٥٢٧.

٤. سورة ص، الآية ٧٥.

٥. سورة الإسراء، الآية ٧٠.



عشرة قرون قضاها مع قومه الجاحدين لفضل الله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[1] وخصّه سبحانه بالسّلام من بين جميع أنبيائه قائلاً: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[2] وسبب ذلك أنّ كلّ ما نشهده من البركات المعنوية في العالَم أجمع هو ثمرة الجهود التي بذلها سيّدنا نوح عليه السلام خلال تسعمائة عام من حياته الشريفة ولم يَلقَ فيها من أمّته الكافرة سوى الأذى والألم باليَد واللسان والقلب.

٥. الأدلّة على أفضليّة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله

أ. هيمنة القرآن الكريم:

إنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله هو المُرسَل بأمّ الكتاب المُصدّق لجميع الكُتب السماوية والمُهيمن عليها جميعاً: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[3]، ولم تُطلَق صفة المهيمن في كلّ القرآن الكريم إلّا على القرآن الكريم نفسه ولم تتمّ المقارنة بين الأنبياء السابقين إلّا بصفة المصدّق: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾[4] أو مقارنة بعضهم مع بعض من خلال الحديث عن التصديق أو التبشير أحياناً.

ومن المعلوم أنّ مهمّة كلّ نَبيّ وكلّ كتاب سماويّ هي تصديق النبيّ والكتاب السماويّ الذي سَبقه، إلّا أنّ النبيّ والرّسول الوحيد الذي اعتُبِر وكتابه مهيمناً ومسيطراً على جميع الأنبياء والرّسل وجميع كُتبهم السماويّة هو رسولنا

١. سورة العنكبوت، الآية ١٤.
٢. سورة الصّافات، الآية ٧٩.
٣. سورة المائدة، الآية ٤٨.
٤. سورة الصفّ، الآية ٦.



الأكرم محمّد ﷺ بالإضافة إلى كونه المُصدّق لِما قبله من الأنبياء والكُتب: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

ولا ريب في أنّ هيمنة القرآن الكريم وسيطرته على بقيّة الكُتب السماوية إنّما هي لمقامه العلميّ العظيم وحفظه من كلّ تحريف وتشويه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[1] و﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2]، بينما لم تَسلَم الكُتُب السماوية الأخرى من جريمة التحريف وأيدي التزييف. وقد أكّدت الأحاديث والروايات الموثوقة على ضرورة تطبيق أيّة رواية على القرآن الكريم الذي يُعتبر المُهيمن والمسيطر للتأكّد من صحّتها وسلامة حجّتها[3]، وكذلك الحال مع كُتُب الأنبياء السابقين حيث ينبغي تطبيقها مع آي القرآن الكريم والاعتماد على ما وافقها وردّ ما تعارض معها سواء ما جاء في التوراة والإنجيل الحاليّين أم ما ورد في كُتُب الطائفة الزرادشتية وغيرهم.

وبالإضافة إلى كون القرآن الكريم هو المهيمن والمُسيطر على سائر الكُتب السماوية المُنزَلة حتى مع افتراض عدم تعرّضها للتحريف والتشويه والتزييف، فقد جاء القرآن الكريم بما لَم تأتِ به الرُّسُل والكُتُب السماوية السابقة من قَبل، فكلّ نَبيّ أو رسول يُعادل ما جاء به من كتاب، أي إنّ الكتاب الذي يحمله كلّ نَبيّ أو رسول يُبيّن مقام ذلك النبيّ أو الرّسول ومكانته بين الأنبياء والرّسل الآخرين، وهو [أي النبيّ أو الرّسول] عالم بكلّ ما هو موجود في كتابه ومُطّلع عليه، وهذا الانسجام بين الثّقَلَيْن هو المبدأ العامّ لكلّ الأنبياء والرّسل وكُتُبهم،

---

١. سورة فصّلت، الآية ٤٢.

٢. سورة الحجر، الآية ٩.

٣. راجع: الكافي، ج١، ص٦٧ ـ ٦٨؛ تهذيب الأحكام، ج٦، ص٣٠١ ـ ٣٠٢؛ وسائل الشيعة، ج٢٧، ص١٠٦.



ولمّا كان ختام الرّسالة المحمّدية مستنداً إلى الولاية الإلهية للأئمّة المعصومين عليهم السلام وكذلك مقام السيّدة الصّديقة الكبرى عليها السلام، كانَ كلمة ثَقَل الّتي هي مفردة (الثّقَلَيْن) تُطلَق في الإسلام على كلٍّ مِن القرآن الكريم وجميع المعصومين عليهم السلام.

ب. بشارة سيّدنا عيسى عليه السلام

وفقاً للآية الشريفة ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[1] فإنّ سيّدنا عيسى عليه السلام جاء مُصدّقاً للتوراة ولنبوّة سيّدنا موسى عليه السلام ثمّ بَشّر بمجيء رسولنا الأعظم محمّد صلى الله عليه وآله. ولا يكون التبشير إلّا إذا كان النبيّ التالي سيأتي بشريعة جديدة لم يأتِ بها مَن سبقه من الأنبياء، ولولا ذلك لاكتفى سيّدنا عيسى عليه السلام بتصديق النبيّ (أحمد) دون التبشير به ممّا يعني أنّه لا فَرق بينه وبين الرّسول (أحمد) إلّا في كون هذا الأخير هو مجرّد نبيّ آخر سيواصل المسيرة من بعد النبيّ عيسى عليه السلام، لكنّنا نلاحظ أنّ مكانة الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله أسمى من مكانة سائر الأنبياء الذين سبقوه وذلك لأنّه أتى بمعارف وعلوم أفضل من تلك التي أتى بها الأنبياء والرّسل السابقون.

ج. الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله شاهد على الأنبياء

بالاستناد إلى الآية الكريمة ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[2] فإنّ جميع الأنبياء يوم القيامة سيُدلون بشهاداتهم فيما يخصّ

---

١. سورة الصفّ، الآية ٦.

٢. سورة النساء، الآية ٤١.

أممهم وأقوامهم وسيقوم الرسول الأكرم ﷺ بإدلاء شهادته إزاء جميع الأنبياء مع أممهم[١]، إذاً فالرسول الأعظم ﷺ هو شاهد على الشّهداء. والأصل العامّ هو أنّ كلّ نَبيّ من الأنبياء عليهم السلام شاهد على عقائد أمّته وأخلاقها وأعمالها، وأنّ أداء الشهادة مسبوق بتحمّلها وقبولها والشاهد في المحكمة لا يكون شاهداً إلّا إذا كان حاضراً في مكان (أو أماكن) وقوع الحادثة (أو الأحداث) وإلّا فلن تُقبَل منه شهادته.

ووفقاً للعبارة الشاملة ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ وهي قضية كليّة موجبة فإنّ الرّسول الأعظم ﷺ هو الشاهد على أعمال الأمّة الإسلامية وأخلاقيّتها وعقائدها إلى يوم القيامة كما أنّه ﷺ شاهد كذلك على أعمال الأُمم السابقة وعلى شهادة الأنبياء السابقين عليهم السلام على أُممهم وأعمالها، ولا جَرم أنّ ذلك هو مقام ما بعده مقام أبداً وهو أن يحظى الشخص بمنزلة رفيعة ومكانة سامية فيكون مُطّلعاً وعالماً بأفعال جميع أفراد البشر من الماضين والآتين؛ فرسول الله ﷺ شاهد على الشهداء والأنبياء والأولياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام فضلاً عن كونه شاهداً كذلك على جميع الأُمم، وهو أفضل الأنبياء والرّسل قاطبة، وسيكون جميع الرّسل والأنبياء يوم القيامة تحت مظلّة مقاماته الرفيعة، وهو القائل ﷺ: **«آدَمُ وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[٢].

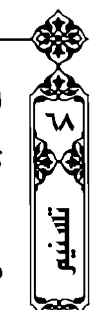
تذكير: يقول بعض الروايات إنّ اسم الإشارة ﴿هَـٰؤُلَاءِ﴾ الوارد في الآية الشريفة يتعلّق بأمّة الرسول الأعظم ﷺ[٣] واستناداً إلى هذا الاحتمال فإنّ

---

١. رُوِيَ أَنَّ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ لِابْنِ مَسْعُودٍ: «اقْرَأْ عَلَيَّ» قَالَ فَفَتَحْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ فَلَمَّا بَلَغْتُ (فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً) رَأَيْتُ عَيْنَيه ﷺ تَذْرِفَانِ مِنَ الدَّمْعِ، فَقَالَ لِي: «حَسْبُكَ الْآن». (**بحار الأنوار**، ج١٦، ص٢٩٣؛ ج٨٩، ص٢١٦؛ **مستدرك الوسائل**، ج٤، ص٢٣٨).

٢. **عوالي اللئالي**، ج٤، ص١٢١؛ **بحار الأنوار**، ج١٦، ص٤٠٢.

٣. **أصول الكافي**، ج١، ص١٩٠.



النبيّ ﷺ سيكون شاهداً فقط على أعمال أمّته مثل بقية الأنبياء، وسنقوم عند تفسيرنا لسورة النّحل ببحث الاحتمال المذكور ونَقده ومناقشته.

د. شمولية الرّسالة واستمرارها

إنّ عبارة (شمولية الرّسالة واستمرارها) تعني عموميّة الرّسالة ودوامها وبقائها وهي وصف لا يليق سوى برسالة النبيّ الأعظم ﷺ حيث يشير إلى أفضليّته المطلقة. ويُعتبر القرآن الكريم الكتاب السماويّ الوحيد الذي أُنزل إلى جميع الأُمم دون استثناء: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾[1] وهو مُصان من أيّ تحريف ومحفوظ من كلّ تزييف إلى يوم القيامة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2]؛ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾[3]. وكما أنّ القرآن الكريم هو أفضل الكُتب السماوية المُنزلة من حيث شموليّته واستمراريّته فمن باب أولى أن يكون الرّسول الذي أتى بهذا الكتاب هو أفضل الرّسل باعتباره عِدْلاً للقرآن الحكيم.

إنّ القرآن الكريم الذي أُريد به هداية الناس جميعاً مُنزّه عن أيّ اعوجاج أو انحراف بل ويتضمّن برنامجاً للهداية أكثر عُمقاً وأقوم تفصيلاً من أيّ برنامج آخر أتى به أيّ كتاب سماويّ غيره: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾[4]، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[5] وهو إلى جانب ذلك كلّه قد جاء بأحسن الحديث وأفضل الكلام: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾[6] وسردَ لنا قصص الأنبياء عليهم السلام وأحوال أُممهم أفضل من الكُتب

---

١. سورة البقرة، الآية ١٨٥.
٢. سورة الحجر، الآية ٩.
٣. سورة فصّلت، الآية ٤٢.
٤. سورة الكهف، الآية ١.
٥. سورة الإسراء، الآية ٩.
٦. سورة الزّمر، الآية ٢٣.



السماوية الأخرى فأجادَ في ذلك: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[1]؛ وعليه فإنّ القرآن الكريم هو أفضل الكُتب السماوية والنبيّ الذي أتى به [من عند الله سبحانه] هو أفضل الأنبياء على الإطلاق.

٦. محو الاختلاف في الدّين

الاختلاف نوعان: اختلاف ممدوح وإختلاف مذموم، فالاختلاف المذموم غير موجود لا في كلام الله سبحانه ولا في ما يُوحى إلى الأنبياء المعصومين ﷺ، ويُستفاد من الآية الشريفة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[2] أنّ كلام الله ﷻ لا يأتيه الاختلاف ولا الباطل من بين يَديه ولا من خلفه إطلاقاً، لكنّ هذه الضرورة في الانسجام وذلك اللزوم في الترابط الموجود في كلام الله سبحانه لا يختصّان بموضوعات القرآن الكريم وحسب بل ينبغي أن يكون الموضوع والكلام في أيّ كتاب سماويّ آخر مُصَمّماً وفقاً لأدقّ المواصفات الدينية المطلوبة لخَلق التطابق والانسجام بين كلّ عبارة من عبارات الكتاب المذكور، بل وأن تكون موضوعات ذلك الكتاب السماويّ منسجمة ومتطابقة مع الموضوعات المذكورة في كلّ الكُتب السماوية الأخرى التي سبقته أو تلك التي ستأتي من بعده؛ وهذا يعني أنّ جميع الكُتب التي أنزلها الله ﷻ على أنبيائه ورُسله، من أوّلهم إلى آخر نبيّ منهم، منسجمة ومتطابقة بعضها مع

---

١. **سورة يوسف** ؈، الآية ٣. لاحظ أنّ كلمة (القَصص) ههنا هي اسم مُفرد وليست جمعاً حيث صيغت الآية الشريفة على نحو المفعول المطلق النوعيّ.[انتهى] «قوله تعالى: نحن نَقُصُّ عليك أَحسنَ القصص؛ أي نُبَيّن لك أَحسن البيان... والقِصّة: الخبر وهو القَصَصُ. وقصّ عليّ خبَرَه يقُصُّه قَصّاً وقَصَصاً: أَوْرَدَه. والقَصَصُ: الخبرُ المَقْصوص، بالفتح، وضع موضع المصدر حتى صار أَغْلَبَ عليه. والقِصَص، بكسر القاف: جمع القِصّة التي تكتب.» (**لسان العرب**، مادة «قصص»). [المترجم]

٢. **سورة النساء**، الآية ٨٢.



البعض من جميع النواحي ولا يوجد فيما بينها أيّ اختلاف أو فرق البتة. يُضاف إلى ذلك أنّ الأنبياء عليهم السلام معصومون من الاختلاف والتناقض في فهم كلّ واحدٍ منهم للوحي وتلقّيه له إذ لا سبيل إلى السّهو والنسيان ولا مجال للجهل والوهم والخيال في ساحة الوحي والنبوّة والرّسالة.

هذا، ولا تقتصر عصمة الوحي على نزاهته من الاختلاف فقط بل هو دعوة مفتوحة للمجتمع إلى الاعتصام بحبل الله المتين لصيانة الأمّة الإسلامية من خطر الفُرقة والمحافظة عليه من شِراك النّزاع والاستفادة من نعمة الاتّحاد، ويعني ذلك أنّ الدّين هو عامل لإزالة الاختلاف وليس لإيجاد الاختلاف.

ولا شكّ في أنّ اختلاف الناس في الآراء ووجهات النّظر قد يكون أمراً محموداً وقد لا يكون كذلك في بعض الأحيان، فالاختلاف المحمود ما كان قبل وضوح الحقّ وتهيئة الأرضية لتجلّي الحقائق، بل إذا غاب الاختلاف في بعض المسائل والأمور فلا يمكن توقّع حصول النتيجة المطلوبة كما هي الحال في الشكل الثاني من القياس المنطقيّ عندما تكون الصغرى والكبرى متشابهتين في السّلب والإيجاب فلن نحصل على أيّة نتيجة تُذكَر، وكذلك الاختلاف والفرق بين كَفّتَيْ الميزان إذ المراد منه هو التوازن والاعتدال. فإذا كان الموزون أثقل أو أخفّ من الوزن أو بالعكس ولم يَتعادلا على كفّتَيْ الميزان فإنّهما لن يتساويا أبداً، وإذا كان أيّ واحدٍ من الوزن أو الموزون أثقل من الآخر فإنّ كَفّتَيْ الميزان لن تَصعدا معاً إلى الأعلى، وعليه، يكون مثل هذا الاختلاف معياراً لإقامة العدل ومقياساً لإقرار المساواة.

وأمّا الاختلاف المذموم فيكون بعد تجلّي الحقّ ووضوحه، ومثال ذلك ما نراه في الميزان عندما يحاول شخص ما الخيانة من خلال إظهار الزيادة نقصاناً أو النّقصان زيادة بعد تساوي كَفّتَيْ الميزان: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾[1].

---

١ . سورة المطفّفين، الآية ١.



ومن أمثلة الاختلاف المذموم أيضاً ما نراه في بعض المسائل الاجتماعية والشؤون السياسية من اختلاف وتناحر ورفض للرّأي الآخر والابتعاد عن الحقّ وعدم الإذعان للواقع بعد وضوحهما.

٧. التّشبيه بالشّرك

إنّ الاختلاف المحمود يُمثّل حسنة (من عِند الله) و(مِن الله) على السّواء، لكنّ الاختلاف المذموم قد يكون (من عِند الله) إلّا أنّه ليس (مِن الله) ولهذا نرى أنّ الله سبحانه وتعالى يفصل بين نبيّه الكريم ﷺ ويميّز بينه وبين الّذين اختاروا الاختلاف المذموم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾[1] وما أشبه هذه الآية بالآية الشريفة التي تشير إلى موضوع البراءة من المشركين في قوله تعالى: ﴿**وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ**﴾[2]، وبنفس المقدار الذي كان فيه الله ﷻ ورسوله ﷺ بريئَيْن من المشركين، فهما بريئان كذلك من المخالفين والمُعترضين بغير حقّ.

وهكذا فإنّ القرآن الكريم يشبّه أولئك الذين يثيرون الفُرقة ويتسبّبون في إحداث الاختلاف رغم امتلاكهم للفطرة الإلهية، يشبّههم بالمشركين: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾[3].

---

١. سورة الأنعام، الآية ١٥٩.

٢. سورة التوبة، الآية ٣.

٣. سورة الرّوم، الآيات من ٣٠ إلى ٣٢.

وثمّة آثام ومعاصٍ أخرى لا تقلّ قُبحاً عن الاختلاف المذموم قد أُدرجت في لائحة الشّرك والكُفر والارتداد العمليّ مثل إحجام الشخص المستطيع عن أداء فريضة الحجّ: ﴿وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[١] وعدم دفعه للزّكاة: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[٢] وخروجه على حكم وليّ أمر المسلمين وهو بمثابة ارتداد عمليّ لا ريب فيه: «**فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ عَلَيْكُمْ حَاكِماً فَإِذَا حَكَمَ بِحُكْمٍ وَلَمْ يَقْبَلْهُ مِنْهُ فَإِنَّمَا بِحُكْمِ اللهِ اسْتَخَفَّ وَعَلَيْنَا رَدَّ وَالرَّادُّ عَلَيْنَا كَالرَّادِّ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى حَدِّ الشِّرْكِ بِاللهِ**»[٣].

فإذا تمّ إحراز الحكم الشرعيّ ثمّ أُنكِر مع العلم بأنّ إنكاره يعني تكذيب واضعه فيلزم عندئذ تكذيب الرّسول الأعظم ﷺ ـ والعياذ بالله ـ فإنّ هذا الإنكار معناه الارتداد في العقيدة، ولكن، في حال عدم إدراك ضرورة ذلك فإنّ مجرّد رفض الحكم الشرعيّ أو ردّه يُمثّل ارتداداً عملياً وليس ارتداداً عَقَدِياً، وفي حال عدم إحراز شرعيّة الحكم الصّادر من خلال نَقد الدليل أو غياب الحاكم أو عدم توفّر الشروط اللازمة لحجيّة الحُكم أو الفتوى فلا محذور في ذلك أبداً، أي

---

١. سورة آل عمران، الآية ٩٧.

٢. سورة فصّلت، الآيتان ٦ و ٧.

٣. الاحتجاج، ج٢، ص٢٦١؛ بحار الأنوار، ج١٠١، ص٢٦٢. «عَنْ عُمَرَ بْنِ حَنْظَلَةَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِنَا بَيْنَهُمَا مُنَازَعَةٌ فِي دَيْنٍ أَوْ مِيرَاثٍ فَتَحَاكَمَا إِلَى السُّلْطَانِ وَإِلَى الْقُضَاةِ أَيَحِلُّ ذَلِكَ؟ قَالَ عليه السلام: مَنْ تَحَاكَمَ إِلَيْهِمْ فِي حَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ فَإِنَّمَا تَحَاكَمَ إِلَى الْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ وَمَا حُكِمَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا يَأْخُذُ سُحْتاً وَإِنْ كَانَ حَقُّهُ ثَابِتاً لَهُ لِأَنَّهُ أَخَذَهُ بِحُكْمِ الطَّاغُوتِ وَقَدْ أَمَرَ اللهُ عز وجل أَنْ يَكْفُرَ بِهِ، قَالَ اللهُ عز وجل: يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ. قُلْتُ: فَكَيْفَ يَصْنَعَانِ وَقَدِ اخْتَلَفَا؟ قَالَ: يَنْظُرَانِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مِمَّنْ قَدْ رَوَى حَدِيثَنَا وَعَرَفَ حَلَالَنَا وَحَرَامَنَا وَعَرَفَ أَحْكَامَنَا فَلْيَرْضَوْا بِهِ حَكَماً فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ عَلَيْكُمْ حَاكِماً... الحديث». [المترجم]



إنّ هذا العمل لا يدخل لا في إطار الارتداد العَقَديّ ولا في إطار الارتداد العمليّ.

٨. العذاب الشديد

من المعلوم أنّ الاختلاف المذموم يُعدّ بلاءً عظيماً وسبباً لاستحقاق أنواع العذاب الأخروِيّ، فإذا لم يكن الشخص جديراً بفضل الله لسلوكه الطريق الأعوج وتركه الصراط المستقيم، فإنّ الله سبحانه وتعالى سيُبليه بالوقوع في الاختلاف المذموم وهو ما حدث لقَومَيْ سيّدنا موسى وعيسى عليهما السلام عندما سقطوا في مهاوي الاختلاف وشِراك الفُرقة. ففيما يتعلّق باليهود، يحدّثنا القرآن الكريم عن إلقاء الله سبحانه العداوة والبغضاء فيما بينهم إلى يوم الدّين: **﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾**[1]، وأوضاع النّصارى لا تقلّ ثبوراً وسوءاً عن أوضاع رفاقهم اليهود حيث أغرى الله تعالى فيما بينهم العداوة والبغضاء: **﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾**[2].

إنّ التعذيب من خلال الوقوع في مصيدة الاختلاف الدّاخليّ لَيسَ حالة خاصّة ببَني إسرائيل دون غيرهم من الناس، بل إنّ كلّ فئة لا تعترف بأنعُم الله ﷻ ولا تُقرّ بآلائه تستحقّ أن تُؤتى العذاب من فوقها (كالصاعقة) أو من تحتها (كالزّلازل وخَسف الأرض أو انشقاقها وابتلاع مَن على ظهرها) أو بزرع الخلافات الداخلية بين أفرادها: **﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾**[3].

---

١ . سورة المائدة، الآية ٦٤.

٢ . سورة المائدة، الآية ١٤.

٣ . سورة الأنعام، الآية ٦٥.

ويبدو من خلال الترتيب أو التسلسل الذي تُقدّمه الآية الشريفة المذكورة في أعلى الصفحة أنّ هناك سيراً طولياً بين الأنواع الثلاثة للعذاب بدءاً من العذاب البسيط وصولاً إلى العذاب الأشدّ، وعليه، فممّا لا شكّ فيه أنّ الابتلاء بالخلافات الداخلية يُمثّل أشدّ أنواع العذاب المذكورة، فالأشخاص الذين يُحاط بهم من الأعلى ومن الأسفل وفي داخلهم كذلك ويشهدون العذاب بأنواعه هم أشخاص أحاطت بهم ذنوبهم وطوّقتهم معاصيهم كما صوّر الله تعالى ذلك بقوله: ﴿**بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[1] وأمّا عاقبة ما ارتكبوه في هذه الدّنيا فَهِيَ العذاب الشديد الذي سيحيط بهم يوم القيامة: ﴿**لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ**﴾[2] و﴿**وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ**﴾[3]. وفي مقابل أولئك يقف المؤمنون الذين اتّبعوا دين الله تعالى وطبّقوا تعاليمه، وهؤلاء يأتيهم رزقُهم من السّماء والأرض: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ**﴾[4] حيث تشير عبارة: ﴿**لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ**﴾ إلى نعمة المَطر بشكل مناسب وانتظام فصول السنة وشروق الشّمس في الوقت المُحدّد، أمّا جملة: ﴿**وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ**﴾ فيُقصَد بها خصوبة التّربة وتفجّر العيون والقنوات والآبار وانبجاسها من باطن الأرض، ناهيك عن حيويّة وأهميّة الاستفادة من تلك الأمواه.

وتَصدق عملية الأكل ﴿**لَأَكَلُوا**﴾ على اكتشاف العلوم والمعارف

---

١ . سورة البقرة، الآية ٨١.
٢ . سورة الأعراف، الآية ٤١.
٣ . سورة إبراهيم عليه السلام، الآية ١٧.
٤ . سورة المائدة، الآية ٦٦.

والاستفادة منها[1] وهو ما ورد في كلام الإمام الصّادق عليه السلام[2] حول الآية الشريفة: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾[3]. فكما أنّ الطعام الظاهريّ المعروف قد يأتي أحياناً من الأعلى أو من الأرض، وفي أحيان أخرى يكون ذلك بسبب نزول المطر أو من خلال الاستفادة من مياه العيون والآبار (عِلماً أنّ مصدر الرّزق الأرضيّ هو البركات النازلة من السّماء)، كذلك الحال مع العلوم التي تنقسم بدورها إلى قسميْن: فتارة تكون العلوم أرضية تُكتَسَب من خلال تعلّمها في المدارس وارتياد المراكز الثقافية كأن يصبح الشخص فقيهاً أو عالماً أصوليّاً أو حكيماً أو متكلّماً أو أديباً أو مُفَسّراً خلال السّنوات التي يقضيها في الدراسة وتحصيل العلوم، وقد تكون العلوم سماوية رفيعة المستوى فيصير الشخصُ أُوَيْساً القَرنيّ أو سَلمان المُحمّدي أو أبا ذَر الغِفاريّ من دون أن يدخل مدرسة أو يتخرّج من جامعة.

والجَمع بين القسميْن وارد كذلك وممكن، والعلوم التي توصِل الإنسان إلى مثل تلك الدرجة وترفعه إليها هي بلا شَكّ علوم ربّانية ومعارف إلهيّة قادرة على اجتياز كلّ مشكلة وليست عاجزة عن حلّ أيّة مُعضلة.

هذا، ولا تقلّ مرتبة العالِم الرّبانيّ عن مرتبة المَلاك وهو ليس مرائياً ولا مُداهناً، ويبدو أنّ أهل المعرفة لا يميلون في العادة إلى الوقوف عند هذا الحدّ بل

---

١ . قد مرّ بنا قبل هذا أنّ الألفاظ موضوعة لمفاهيم عامّة ولهذا فربّما استُخدِمت كلمة ما للتعبير عن روح المعنى أو استعمالها بشكل موسّع ومجازيّ مع مرور الزّمن بحيث يتساوى معنى كلمة (الرّزق) المعنويّ مع (الرّزق) الماديّ لتشمل معنى أعمّ وأشمل كالأكل وما شابهه.

٢ . **أصول الكافي**، ج١، ص٥٠؛ تفسير البرهان، ج٨، ص٢١٤. (عِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ أَبِيهِ عَمَّنْ ذَكَرَهُ عَن أَبِيهِ عَمَّنْ ذَكَرَهُ عَن زَيْدٍ الشَّحَّام عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي قَوْلِ الله عزّ وجلّ: فَلْيَنْظُرِ الْإِنسانُ إِلى طَعامِهِ؛ قَالَ: قُلْتُ مَا طَعَامُهُ؟ قَالَ: «عِلْمُهُ الَّذِي يَأْخُذُهُ عَمَّنْ يَأْخُذُهُ»). [المترجم]

٣ . **سورة عبس**، الآية ٢٤.



يقدّرون ويثمّنون كلّ عِلم يتعلّمونه من غير تَعب أو لُغوب ولا يكتفون فقط بما يمكن تعلّمه ببذل السّعي والجُهد.

نعم، إنّ مَن رامَ امتلاك روح مثل روح (أُويس القَرنيّ) أو رغب في أن يصبح كحارثة بن مالك فقد استهدف أمراً خطيراً لأنّ مثل هؤلاء هم الذين يتلقّون رزقهم من فوقهم ومن تحتهم، وهؤلاء هم الذين يرتدّون حللاً من نور الله سبحانه وهو «**الدَّانِي فِي عُلُوِّهِ، وَالْعَالِي فِي دُنُوِّهِ**»[1]، ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾[2]؛ ﴿**نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ**﴾[3] ومثل هؤلاء لا يفترون عن المطالبة بزيادة نورهم وتتميم كمالاتهم: ﴿**يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا**﴾[4].

٩. دور الفرد في الفتنة

لا ينبغي للمرء دَعم المتسبّبين في الفتنة أو إسنادهم أو التهاون معهم بعد حصول العلم في الاختلاف المذموم الذي لا يحمل في طيّاته سوى البَغي وإراقة الدّماء، وعليه أن يمتثل لقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ لَا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ وَلَا ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ**»[5].

إنّ تمكين أصحاب الفتنة وإذكاء نار الدهَيْماء[6] لَيْسَا بفعل عاقل أبداً، بل العاقل مَن سارع إلى إخماد نيران الفِتَن والحفاظ على تماسك المجتمع والحرص على وحدته.

---

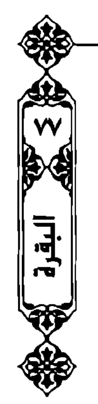
١. **الصحيفة السجّادية**، الدّعاء رقم (٤٧) ـ مِنْ دُعَائِهِ عليه السلام فِي يَوْمِ عَرَفَةَ.

٢. **سورة الأنعام**، الآية ١٢٢.

٣و٤. **سورة التّحريم**، الآية ٨.

٥. **نهج البلاغة**، الحكمة رقم ١.

٦. «مُصَغّر (الدّهماء)، الفتنة السوداء المظلمة والتصغير فيها للتعظيم». (**لسان العرب**، مادّة «دهم»). [المترجم]



وممّا قاله أمير المؤمنين علي عليه السلام لأبي موسى الأشعريّ جواباً في أمر الحكمَيْن: «ولَيْسَ رَجُلٌ ـ فَاعْلَمْ ـ أَحْرَصَ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وأُلْفَتِهَا مِنِّي»[1].

تذكير: ١. ينبغي التدخّل بشكل سِلميّ لحلّ الاختلافات التي تقع والتي يمكن إصلاحها وإرضاء أطرافها بحيث لا يؤدّي ذلك إلى حصول أيّ فتنة.

٢. إنّ ما يقوله الإمام المعصوم عليه السلام وخصوصاً أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إنّما يسطع من نَفس النّور الذي سطع منه كلام الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله من قَبل سواء في مكّة أم المدينة ولا يختلف عنه قَيد أنمُلة لكون الظروف التي كانت سائدة قبل الهجرة تتفاوت مع تلك التي حصلت بعد الهجرة فكان الحال تقتضي وضع برامج جديدة أكثر تناسباً.

١٠. إرادة الله عزّ وجلّ

يُستفاد من الآيات الشريفة التي تشير تارة إلى (قول) الله سبحانه وإلى (أمره) تارة أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2] وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[3] أنّ الله سبحانه قادر على فعل كلّ ما يريد وتنفيذ كلّ ما يشاء وليس أمام ما يريده ويرغب فيه سوى الامتثال لأوامره والانصياع لقدرته فيصبح موجوداً بلا رويّة ولا حاجة إلى أمر لفظيّ، بل إنّ إرادته عزّ وجلّ تُعادل تحقّق الشيء المراد إيجاده، وهو

---

١. **نهج البلاغة**، الكتاب رقم (٧٨): من كتاب له عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري جواباً في أمر الحكمين، ذكره سعيد بن يحيى الأموي في كتاب (المغازي).

٢. سورة يس، الآية ٨٢.

٣. سورة النّحل، الآية ٤٠.



ما نلاحظه في كلام الإمام الباقر عليه السلام: «فَهِيَ بِمَشِيَّتِكَ دُونَ قَوْلِكَ مُؤْتَمِرَةٌ وَبِإِرَادَتِكَ دُونَ وَحْيِكَ مُنْزَجِرَةٌ»[1].

وَلعلّ أفضل شاهد على هذه المسألة هي النّفس وشؤونها إلى جانب الحديث النّبوي الشريف: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّه»[2] الذي يُعتبر مفتاحاً لفهم الكثير من الآيات التوحيدية، فالنّفس هي أفضل مثال وأكثر آيات الله سبحانه تجلّياً، وباستطاعة هذه النّفس إذا صمّمت بالفعل رؤية شيء ما أو حمله أن تجعل روحها ويَدها مهيّأتيْن للقيام بذلك.

وليس بإمكان الرّوح والإرادة أن تُعطيا الأوامر إلى حاسّة البصر أو حاسّة اللّمس بشكل مستقلّ بل تُعتبر القوى الإدراكية والتحريكية في الإنسان وسائل لدَعم الرّوح وإسنادها فلا تتحقّق الأفعال إلّا بإرادة الإنسان وحده. وإليك مثال أفضل وهو إرادة الروح الإنسانية في المجالات الروحانية حيث تعمل الرّوح من دون مساعدة الوسائل والأدوات، فإذا أرادت روح الإنسان مثلاً إيجاد الشجرة وخَلقها فإنّ إرادته لوحدها تكفي لإيجاد صورة الشجرة وطبعها على صفحة من صفحات الروح ولا حاجة في مثل هذه الحالات إلى استخدام الحركة أو الاعتماد على الوسيلة أو الأداة. والله ﷻ كذلك هو الفاعل من غير وسائل ولا أدوات، إذاً فلا سبيل أمام إرادته سبحانه سوى التحقّق والفعلية، أمّا القول أو الأمر فهو للإيجاد ومَنح الوجود للمُراد وليس لمجرّد إطلاق اللفظ، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: (كُنْ فَيَكُونُ) لَا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ ولَا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ»[3].

---

١ . إقبال الأعمال، ص٤٠٠؛ بحار الأنوار، ج٩٢، ص٢٢٩.

٢ . بحار الأنوار، ج٢، ص٣٢ (الباب التاسع: استعمال العلم والإخلاص في طلبه وتشديد الأمر على العالم).

٣ . نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦.

ومن بين الآيات الأخرى الدالّة على ضرورة تحقّق الإرادة الإلهية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1] ما يشير إلى عدم وجود ما يمكنه الوقوف بوَجه إرادة الله أو الحيلولة دون تحقّقها فضلاً عن أنّ حكم الله السّريع الحساب يحدث بسرعة كذلك، وهكذا فإنّ كلا السبيلَيْن مفتوحان أمام تحقّق الإرادة بشكل قاطع، إنّ حكم الله ﷻ لا محالة مُتحقّق.

هذا، وتتضمّن الآية الشريفة: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾[2] مسألة التشريع والتكوين كذلك، أمّا الشّطر الثاني من نفس الآية وهو قوله تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فليس مخصّصاً للإطلاق، وعليه ينبغي أن تُستَوحى القوانين التشريعية من الوحي الإلهيّ، أمّا فيما يتعلّق بالقوانين التكوينية فإنّ الحكم مَنوط بالله تعالى وحده.

وهُوَذا شاهد آخر على بحثنا وهو أنّ العالَم برمّته يُمثل فيلقاً من فيالق الله وجنوده: ﴿وَللهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[3] فالإضافة الموجودة في عبارة ﴿جُنُودُ السَّمَاوَاتِ﴾ هي إضافة الصّفة إلى الموصوف يطو لا تُشبه قولنا مثلاً: «جيش *الإيراني*» حيث يختلف المُضاف إليه عن المُضاف وظرف المكان الخاصّ به، بل إنّ السّموات كلّها والأرضين كلّها هي جنود لله ﷻ وما من شيء يمكنه أن يحدث إلّا بمشيئة الله تعالى وإرادته؛ فبأمر من الله سبحانه فَتحت الأرض فَمها وابتلعت قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾[4] وبأمره كذلك أضحت

---

١ . سورة الرّعد، الآية ٤١.

٢ . سورة يوسف ﷺ، الآية ٤٠.

٣ . سورة الفتح، الآية ٤.

٤ . سورة القصص، الآية ٨١.

النار بَرداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام وتحوّلت إلى جنّة خضراء: ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾[1] واستجابة لأمره تعالى لم تُصِب المياه بَني إسرائيل بأيّ أذى بينما أغرقت فرعون ومَلأَه: ﴿**فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ**﴾[2].

يُضاف إلى ذلك فإنّ أعضاء جسم الإنسان وجوارحه كلّها هي جنود الله سبحانه بشهادة أمير المؤمنين عليه السلام عندما قال: «**أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ وجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ وضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ وخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ**»[3]، فإذا أراد الله عزّ وجلّ مَنع الطغيان والوقوف بوَجه العدوان فلا حاجة به إلى تسخير الجنود من أماكن أخرى وإرسالهم إلى المكان الذي يُريد، بل سيُرغم الطاغية على الإقرار بلسانه والاعتراف بجوارحه ليفضحه على رؤوس الأشهاد.

وهناك مَن سُخِّر بأمر الله سبحانه ليحسب أنفاس الإنسان ويَعدّها ويَرصدها إلى جانب تسخير أعضاءه وجوارحه، فكما أنّ المسؤولين في أيّ مَرصد فلكيّ يقومون بتسجيل أوقات طلوع الشّمس وغروبها وحساب الأهلّة ومراقبة النجوم والكواكب، فكذلك سخّر الله عزّ وجلّ جماعة من الملائكة وأوعز إليهم مهمّة حساب ظهور الخواطر والهواجس الإنسانية وأُفولها وخسوفها وكسوفها، فإذا أطفأت شهوته نور الخير لديه علم أولئك الملائكة وسجّلوا له تلك الحالة: «**إعْلَمُوا عِبَادَ الله أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ وعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ وحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ وعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ لَا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ ولَا يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابٌ ذُو رِتَاجٍ**»[4].

---

١ . سورة الأنبياء عليهم السلام، الآية ٦٩.
٢ . سورة طه صلى الله عليه وآله، الآية ٧٨.
٣ . نهج البلاغة، الخطبة ١٩٩.
٤ . نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.



وليس بمقدور أيّ شخص القيام بأيّ فعل أو عمل ما لَم يشأ الله تعالى ذلك: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1]، وقد تكون مشيئة الإنسان في بعض الأحيان موافقة لمشيئة الله سبحانه وإرادته، لكن ما لَم تتحقّق مشيئة الله وتصدر إرادته فلن يكون بإمكان الإنسان أن يرغب في شيء أو يحجم عنه لأنّ التفويض مُحال كالجَبر، بل هو أكثر امتناعاً منه.

ومعنى *التفويض* هو أنّ الله سبحانه ترك الإنسان يقوم بأفعاله في هذه الدنيا حُرّاً مستقلّاً لا يتدخّل في أيّ شأن من شؤونه سوى مَن يُريد الله أن يسلب حياته ويتوفّاه، بينما يترك ذلك الشخص يفعل ما يريد حتى وروده يوم القيامة ومحاسبته على ما فعل.

ولقد جمع القرآن الكريم فيما بين الأحداث الطبيعية والأفعال التي يقوم بها الإنسان وأشار إلى أنّ وقوعها جميعاً مَنوط بإذن الله تعالى وأمره، مثل قوله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2] و﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾[3]. ويُستَشفّ من الآيات المذكورة أنّه ما مِن حَدث يحدث في الأرض سواء تعلّق بالنباتات أم المعادن أم الحيوانات، أو حَدث يخصّ المجتمعات البشرية إلّا وكان بأمر من الله ﷻ وإذنه.

وتُطلَق كلمة (*المصيبة*) في الاصطلاح على كلّ حَدث مؤلِم أو خطير، أمّا في اللغة فهي تعني أيّ حَدث يُصيب صاحبه أو يَصل إليه[4]؛ إذاً، فهذه الكلمة

---

١. سورة **التكوير**، الآية ٢٩.

٢. سورة **التغابن**، الآية ١١.

٣. سورة **الحديد**، الآية ٢٢.

٤. «أصابَ السّهمَ إصابةً: وصلَ الغَرض... ورمَى فأصابَ، وأصابَ بُغيَته نالها... وأصابه الشيء: إذا أدركه... وإذا لوحِظَ جهة الوقوع والتعلّق فيقال: صَوّب يصوّب تصويباً». (العلّامة المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٦، ص٣٤١، «ص و ب»). [المترجم]



تشمل الأحداث بأنواعها، حُلوها ومُرّها.

وأمّا معنى إبراء المصيبة الوارد في الكتاب فهو تنظيم ووضع البرنامج، أي إنّ الله سبحانه هو المُبَرمِج (أو الكاتب) قبل أن يكون المُنفّذ، ثمّ يقوم بتنفيذ وتطبيق ما أقرّه من البرامج من خلال تعيين الحدود وغير ذلك كقولنا مثلاً: «بَرَأ النّسمةَ»؛ إذاً ما مِن حادثة تحدث في الأرض أو تقع في السموات إلّا كان الله تعالى هو الواضع لبرنامجها الخاصّ بها.

وبعبارة أدقّ، نقول نقول إنّ جميع الأحداث وكلّ الوقائع هي «من عِند الله»: **﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ الله وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾**[1] وأمّا اختلاف (الحَسنة) عن (السّيئة) فهو أنّ الحسنة «من الله» و«من عِند الله»، أمّا السيئة فهي «من عند الله» فقط وليست «من الله»: **﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِالله شَهِيدًا﴾**[2] فالله سبحانه وتعالى مُنزّه عن كلّ ما هو سيّئ وناقص: **﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾**[3] وقوله تعالى: **﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾** يَنفي عنه بصراحة كلّ سَيِّئَةٍ.

تذكير: سنأتي على ذكر معنى كلمتَيْ *(الحسنة)* و*(السيئة)* والفرق بين عبارَتَيْ «مِن الله» و«مِن عِند الله» بالتفصيل عند تفسيرنا لسورة النّساء.

هذا، ويمكننا الاستنتاج من مجموع الآيات الشريفة المتعلقة بالإذن التكوينيّ لله ﷻ إزاء الأشياء أنّ كلّ ما يحدث مرتبط بإذن الله التكوينيّ وما لَم يأذن الله

---

١. سورة النساء، الآية ٧٨.

٢. سورة النساء، الآية ٧٩.

٣. سورة الإسراء، الآية ٣٨.

بوقوع شيء أو حدوثه فإنّ أيّاً من ذلك لن يتحقّق إطلاقاً: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾[١]؛ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾[٢]، إلّا أنّ استباق الأحداث بالإذن الإلهيّ لا يعني تجاهل مبادئ الاختيار الخاصّة بالفعل مثل التصوّر والتصديق والإرادة والعزم والجزم.

إنّ إيذان الله سبحانه للنبات بالنموّ يتناسب مع القوانين الطبيعية المعروفة لنموّ ذلك النبات وهو ليس سبباً لإقصاء العلل أو تجاهل القوانين الطبيعية المعهودة، ولذلك نلاحظ أنّه في الوقت الذي يُنسب فيه اللهُ ﷻ وقوع ذلك الفعل إلى ذاته المقدّسة فإنّه يُنسبه كذلك إلى العلل والأسباب الطبيعية. على سبيل المثال، فقد نسبَ الله تعالى تارة هطول المطر في بعض آياته إلى ذاته المقدّسة بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[٣] ثمّ في آية أخرى ينسب ذلك إلى السُّحُب والغيوم حيث يقول: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾[٤].

والإذن الإلهيّ ليس متشابهاً في كلّ الحالات فالنبات الذي ينبت ويخرج بإذن الله سبحانه لا يمتلك أيّ خيار أو إرادة كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾[٥]، إلّا أنّ كلّ ما يتعلّق بإيمان الأفراد فهو مرتبط بالمبادئ الاختيارية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾[٦]. فبالنسبة إلى خروج النبات ونموّه لم يُنسَب إلى البلد الذي يخرج فيه والذي لا يلعب أيّ

---

١. سورة الأعراف، الآية ٥٨.

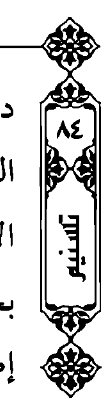
٢. سورة يونس عليه السلام، الآية ١٠٠.

٣. سورة البقرة، الآية ٢٢.

٤. سورة الأعراف، الآية ٥٧.

٥. سورة الأعراف، الآية ٥٨.

٦. سورة يونس عليه السلام، الآية ١٠٠.



دور في هذه العملية سوى كونه مكاناً مناسباً لنموّ النبات، وأمّا ما يتعلّق بإيمان الناس فقد استُخدِم التعبير مع فعل الاختيار. ومن خلال إسناد الفعل الاختياريّ إلى الفاعل يتّضح لنا أنّ فعله يعود إلى الحقّ تعالى مع احتفاظه بالطّبع بجميع مبادئ الخيار المعهودة، بالإضافة إلى كون ذلك يدخل لا محالة ضمن إطار القضاء والقدر من جهة واختيار الإنسان وحريّته من جهة أخرى على حدّ سواء.

وقد أشار القرآن الكريم إلى مراحل معرفية أعلى فيما يخصّ الأفعال الاختياريّة للإنسان ففي الوقت الذي تكون فيه أفعاله منسوبة إليه فإنّها تُنسَب إلى الله تعالى كذلك كما هي الحال في قوله تعالى: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى**﴾[1] حيث نُسِبت رَمية النبيّ ﷺ إلى الله سبحانه فتبيّن بذلك أنّ الرّمي كان فعلاً من أفعال الله وليس من أفعال الرّسول ﷺ. وفي بعض الأحيان يتمّ سَلب الفعل بأكمله من الفاعل ونسبته إلى الله مباشرة مثل قوله سبحانه في الشطر الأوّل من الآية الشريفة (١٧) من سورة الأنفال: ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ**﴾، وهكذا نرى أنّ التعبير الأوّل أقوى من التعبير الثاني لأنّ قوله ﷻ: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى**﴾ قد جمع بين النّفي والإثبات في مكان واحد في حين أنّ جملة: ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ**﴾ قد سلبت عمليّة القَتل من المؤمنين ولم تُثبت لهم ذلك الفعل أو تُنسبه إليهم بالمرّة.

تشير المسائل المذكورة جميعها إلى درجات ومراتب نظرة التوحيد الأفعاليّ، فيُقال أحياناً: «إنّ ما تريد القيام به لن يكون إلّا بإذن من الله» أو «إنّك لن تستطيع فعل شيء ما لَم يأذن الله بذلك» أو «إنّ ما قُمتَ به كان من فعل الله [أو

---

١ . سورة الأنفال، الآية ١٧.

بإذن الله]» وفي المرتبة العُليا لا يُقال سوى: «إنّ هذا الفعل هو من الله» فتكون المراحل أو المراتب السابقة على طول بعضها البعض.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الموضوعات التي أشرنا إليها تدخل في إطار الإرادة التكوينية لله سبحانه وليست الإرادة التشريعية، فإسناد شرك الكافرين إلى الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[1] معناه أنّ الله سبحانه هو المُسبّب لكلّ شيء وإلّا فإنّه ﷻ قد نهى ـ كما نعلم ـ في نظامه التشريعيّ عن الشّرك وحرّم الكُفر، وعليه فلا يمكن نسبة الشّرك ـ وهو فعل لا تُنكَر قباحته ـ إلى الله سبحانه من الناحية التشريعية وهو ﷻ الذي يدعو الناس إلى الطهارة والتخلّص من أدران الشّرك.

إنّ ما تعنيه الآية الشريفة إذاً هو أنّ الله سبحانه قادر بإرادته التكوينية أن يُرغم المشركين على الإيمان وترك عبادة الأوثان: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾[2] إلّا أنّه ﷻ لَم يشأ على ما يبدو من الناحية التكوينية تطهير المشركين أو إجبارهم على ذلك: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[3] لأنّ هؤلاء المشركين قد تعمّدوا غَلق جميع أبواب الطهارة الباطنية وسدّ كلّ معابر استلهام الفيض الإلهيّ أمامهم رغم أنّ الله تعالى أمر من الناحية التشريعية جميع الناس برفض الشّرك وردّ الكُفر وعدم تدنيس أنفسهم بأنفسهم طوعاً واختياراً.

إرادة الله التشريعية هي الغالبة

يتمثّل المبدأ القرآني العامّ بانتصار إرادة الله تعالى ومشيئته المطلقة في كلّ الأمور: ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4]؛ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ

---

١ و٢ . سورة الأنعام، الآية ١٠٧.

٣ . سورة المائدة، الآية ٤١.

٤ . سورة يوسف عليه السلام، الآية ٢١.

﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[1] كما أنّ رأي الحاكم في المسائل التشريعية وما يتعلّق بالمجال الأخلاقيّ والفقهيّ والحقوقيّ يدخل ضمن إرادة الله سبحانه، أمّا الآراء والأحكام الأخرى التي تتنافى مع حكم الله ولا تتوافق معه فباطلة وزائلة.

وقد وعد القرآن الكريم بسيادة الدين الإسلامي على الأديان كلّها وغلبته على المذاهب غير الإلهيّة برمّتها وانتصاره عليها جميعاً: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[2] فالدّين الذي اختاره الله ﷻ ليس سوى دينٍ واحدٍ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الْإِسْلَامُ﴾[3] وما تسمية الأديان أو المذاهب المزيّفة بهذا الاسم سوى بدعة ابتدعها أمثال الطاغية فرعون ومَلَئه ومَن هم على هذه الشاكلة: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[4]، وإذا صحّت تسمية تلك المُعتقدات بالأديان رغم زَيفها، فالأحرى أن يكون الدين الإسلاميّ أفضلها وأكملها وهو الدّين الإلهيّ الحقّ.

ولقد اقتضت إرادة الله تعالى أن تُحكَم الأرض بحكومته ودينه اللذيْن ارتضاهما لعباده وها نحن نرى نزوع المجتمعات البشرية وميولها نحو دين الحقّ، دين الإسلام، رغم كلّ ما يقوم به الطغاة ويحيكونه من الدّسائس والمؤامرات هنا وهناك: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[5]؛ ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[6]؛ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[7].

---

١ . سورة الأنعام، الآية ١٨.
٢ . سورة التوبة، الآية ٣٣.
٣ . سورة آل عمران، الآية ١٩.
٤ . سورة غافر، الآية ٢٦.
٥ . سورة التوبة، الآية ٣٢.
٦ . سورة الصفّ، الآية ٨.
٧ . سورة التوبة، الآية ٣٣.

وعندما يسود الدّين الإسلامي كلّ الأديان سيرث الصالحون والمتّقون الوارثونَ الحقيقيّونَ الأرض وما عليها: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]؛ ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2] وعندها سيكون الإسلام هو الدّين السائد في الأرض والحاكم فيها من الناحية التشريعية: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[3] مثلما كانت إرادة الحقّ تعالى هي الغالبة من الناحية التكوينية.

بحث روائيّ

١ . تفضيل الأنبياء عليهم السلام بعضهم على بعض

قال أبو عبد الله عليه السلام: «**الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ عَلَى أَرْبَعِ طَبَقَاتٍ: فَنَبِيٌّ مُنَبَّأٌ فِي نَفْسِهِ لَا يَعْدُو غَيْرَهَا وَنَبِيٌّ يَرَى فِي النَّوْمِ وَيَسْمَعُ الصَّوْتَ وَلَا يُعَايِنُهُ فِي الْيَقَظَةِ وَلَمْ يُبْعَثْ إِلَى أَحَدٍ وَعَلَيْهِ إِمَامٌ مِثْلُ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى لُوطٍ عليهما السلام وَنَبِيٌّ يَرَى فِي مَنَامِهِ وَيَسْمَعُ الصَّوْتَ وَيُعَايِنُ الْمَلَكَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَى طَائِفَةٍ قَلُّوا أَوْ كَثُرُوا كَيُونُسَ عليه السلام؛ قَالَ اللهُ لِيُونُسَ: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[4] قَالَ يَزِيدُونَ ثَلَاثِينَ أَلْفاً وَعَلَيْهِ إِمَامٌ وَالَّذِي يَرَى فِي نَوْمِهِ وَيَسْمَعُ الصَّوْتَ وَيُعَايِنُ فِي الْيَقَظَةِ وَهُوَ إِمَامٌ مِثْلُ أُولِي الْعَزْمِ عليهم السلام وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام نَبِيّاً وَلَيْسَ بِإِمَامٍ حَتَّى قَالَ اللهُ: ﴿إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾[5] فَقَالَ اللهُ ﴿لا ينالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ مَنْ عَبَدَ صَنَماً أَوْ وَثَناً لَا يَكُونُ إِمَاماً**»[6].

---

١ . سورة الأعراف، الآية ١٢٨.
٢ . سورة الأنبياء عليهم السلام، الآية ١٠٥.
٣ . سورة المجادلة، الآية ٢١.
٤ . سورة الصافّات، الآية ١٤٧.
٥ . سورة البقرة، الآية ١٢٤.
٦ . أصول الكافي، ج١، ص١٧٤ ـ ١٧٥.



إشـارة: بصرف النّظر عن ضعف سَند هذه الرواية من جهـةٍ، وعَـن ركاكـة أسلوبها بسبب اشتمالها على بعض المسائل التي تتناقض مع ظاهر القرآن الكـريم من جهة أخرى، تتضمّن هـذه الروايـة بعـض النقـاط التـي سـنذكرها في هـذه الإشارة، منها، أنّ *الإمام* هو الشخص الذي يأتي بشريعة جديدة، أي مجموعة من القوانين الخاصّة بالعبادات وبعض الأقسام الأخرى المتعلّقة بالفقـه الاجتماعـيّ والسياسيّ، وعليه فإنّ العبارة الواردة في الرواية من كون إبـراهيم عليه السلام لم يَكُـن إماماً قبـل ذلـك: «**قَـدْ كَـانَ إِبْـرَاهِيمُ عليه السلام نَبِيّـاً وَلَـيْسَ بِإِمَـامٍ**» لا تعنـي أنّ إبراهيم عليه السلام لم يَكن إماماً ولا قائـداً إذ بالاسـتناد إلى البرهـان العقـليّ الخـاصّ بضرورة النبوّة يكون الناس بحاجة إلى مَن يـنظّم أمـورهم العباديـة والـسياسية فمن جهة قد تحدث داخل المجتمع الإنسانيّ بعض الأعمال مثل هتك الأعـراض وسَفك الدّماء والقتـل والـسّرقة، ومـن جهـة أخـرى لا يجـوز تَـرك المُفـسدين والفاسدين على هواهم بانتظار أن يأتي يوم القيامة فيُحاسبهم الله عـلى مـا فعلـوا فضلاً عن ضرورة إدارة المجتمع بالقوانين الإلهية: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**﴾[1]. ورغم ذلك فقد يكون المقصود بالإمامة الباطنية قبل ابتلاء النبـيّ إبـراهيم عليه السلام هي الإمامة الملكوتية والهداية الباطنية، وقد قدّمنا خلاصة لكلّ هذه المسائل عند تفسيرنا للآية (١٢٤) من سورة البقرة[2].

وفي بعض الأحيان يُنَزَّل القانون الإلهيّ تدريجيّاً أو يُطَبَّق شيئاً فشيئاً كما هـي الحال مع النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله عندما كان يتمتّع بالإمامـة الملكوتيـة إبّـان وجـوده المبارك في مكّة مدّة ثلاث عشرة سنة: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**﴾[3] دون أن

---

١ . سورة المائدة، الآية ٥٠.

٢ . راجع: تفسير تسنيم، ج٦، ص٤٦١ ـ ٤٦٦.

٣ . سورة الأنبياء عليهم السلام، الآية ٧٣.



يمتلك منصب القيادة الظاهرية (على الجيش)، بل ولم يُؤذَن المسلمون حتى بالدّفاع عن أنفسهم وبدلاً من ذلك كانوا يُوصَوْنَ بالتحلّي بالصّبر وتحمّل الأذى والتعذيب. وفي المدينة المنوّرة حيث تمّ إيجاد حكومة إسلامية ونظام إسلاميّ واضح المعالِم، تغيّر الوضع وأُذِنَ للمسلمين بالجهاد والقتال ضدّ المشركين: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[1].

٢. محوريّة أولي العزم من الرّسل

عن ابنِ أبي يَعفُور قال: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ: **سَادَةُ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ خَمْسَةٌ وَهُمْ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَعَلَيْهِمْ دَارَتِ الرَّحَى: نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَعَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ)**»[2].

إشارة: إنّ السرّ في دوران رحى الوحي والنبوّة حول محور رسالة أولي العزم من الرّسل عليهم السلام هو أنّ هؤلاء الرّسل بُعِثوا إلى الناس كافّة أمّا الأنبياء من غير هؤلاء فكانوا بمثابة الحافظين على شرائعهم والعاملين وفقاً لكُتُبهم، إلّا أنّ خاتم الرّسل والأنبياء صلى الله عليه وآله ـ وهو أحد أولي العزم ـ يتمتّع بمكانة خاصة ومرتبة متميّزة، فبالإضافة إلى كون رسالته جاءت إلى كلّ الناس دون استثناء تُعتبر رسالته أيضاً رسالة أبديّة لا تتغيّر ولا تتبدّل إلى يوم القيامة.

٣. السرّ في أفضلية النبيّ صلى الله عليه وآله المطلقة

عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **ما خَلَقَ اللهُ خَلْقاً أَفْضَلَ مِنّي وَلا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنّي**». قال عليّ عليه السلام: «**فقلت: يا رسول الله! أفأنت**

---

١. سورة الحجّ، الآية ٣٩.

٢. أصول الكافي، ج١، ص١٧٥.



أفضلُ أمْ جَبْرَئيل؟ فقال ﷺ: يا عَلِي! إنّ اللهَ تَعالى فَضّلَ أنْبِياءَهُ المُرْسَلين على مَلائِكَتِهِ المُقَرّبينَ وَفَضّلَني على جَميع النّبيّينَ وَالمُرْسَلينَ، وَالفَضْلُ بَعْدي لَكَ يا عَليّ وَلِلأئمّةِ مِنْ بَعْدِكَ، وَإنّ المَلائِكَةَ لَخُدّامنا وَخدّام مُحِبّينا»[١].

إشارة: التقوى هي معيار الفضيلة في الحكمة العملية (الأوامر والنّواهي) وأمّا أساس الفضيلة في الحكمة النظريّة[٢] فهي المعرفة، فالصّادر أو الظاهر الأوّل هو مظهر جميع الأسماء (العلمية والعملية) وبالتالي مظهر الاسم الأعظم.

وفي عالَم الإمكان فإنّ المعلّم الأوّل هو خاتم الأنبياء محمّد ﷺ حيث يتمّ إنباء البشر والملائكة بواسطته ﷺ وأمّا المعلّم الثاني في ذلك العالَم فهو سيّد الأوصياء والأولياء علي بن أبي طالب عليه السلام؛ وعليه، فإنّ رَحى الولاية تدور حول محور آل البيت المعصومين عليهم السلام الذين يُمثّلون بمجموعهم نوراً واحداً.

٤. مراتب أرواح الأنبياء وشؤونها

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «... فَأَمّا مَا ذَكَرَ مِنْ أَمْرِ السَّابِقِينَ فَإِنَّهُمْ أَنْبِيَاءُ مُرْسَلُونَ وَغَيْرُ مُرْسَلِينَ جَعَلَ اللهُ فِيهِمْ خَمْسَةَ أَرْوَاحٍ رُوحَ الْقُدُسِ وَرُوحَ الْإِيمَانِ وَرُوحَ الْقُوَّةِ وَرُوحَ الشَّهْوَةِ وَرُوحَ الْبَدَنِ فَبِرُوحِ الْقُدُسِ بُعِثُوا أَنْبِيَاءَ مُرْسَلِينَ وَغَيْرَ مُرْسَلِينَ وَبِهَا عَلِمُوا الْأَشْيَاءَ وَبِرُوحِ الْإِيمَانِ عَبَدُوا اللهَ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِرُوحِ الْقُوَّةِ جَاهَدُوا عَدُوَّهُمْ وَعَالَجُوا مَعَاشَهُمْ وَبِرُوحِ الشَّهْوَةِ أَصَابُوا لَذِيذَ الطَّعَامِ وَنَكَحُوا الْحَلَالَ مِنْ شَبَابِ النِّسَاءِ وَبِرُوحِ الْبَدَنِ دَبُّوا وَدَرَجُوا

١. عيون أخبار الرّضا عليه السلام، ج١، ص٢٣٧؛ تفسير نور الثقلين، ج١، ص٢٥٤.

٢. «الحكمة النظرية هي البحث في مسائل التوحيد والنبوة والمعاد وسائر المسائل النظرية التي لا تأثير لوجود الإنسان في وجودها موجوداً أم لم يكن، فإنّ وجودها محفوظ في محلّه، ولا يبلغ الإنسان الكمال إلّا بمعرفته لها والتدقيق فيها، فهي إذن لا تنتفي بانتفاء الإنسان». (الحكمة عند الإمام علي عليه السلام، آية الله جوادي آملي، ج١، ص١). [المترجم]



فَهؤُلَاءِ مَغْفُورٌ لَهُمْ مَصْفُوحٌ عَنْ ذُنُوبِهِمْ ثُمَّ قَالَ: قَالَ اللهُ ﷻ ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ثُمَّ قَالَ فِي جَمَاعَتِهِمْ: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[1] يَقُولُ أَكْرَمَهُمْ بِهَا فَفَضَّلَهُمْ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ فَهؤُلَاءِ مَغْفُورٌ لَهُمْ مَصْفُوحٌ عَنْ ذُنُوبِهِمْ»[2].

إشارة: يُمثّل الإنسان حقيقة واحدة متكاملة تتألّف من الأصل وهي النّفس الناطقة والفرع الذي هو الجسد، فنَفس الإنسان المجرّدة ذات مراتب وشؤون علمية وعملية متعدّدة، وتعدّد الأرواح يكون بقَدر تعدّد درجات حقيقة الفرد، فلا سبيل إلى الكثرة العددية والانفصال في الفرد ذي الحقيقة الواحدة.

إنّ الرواية المذكورة بما تتضمّنه من مسائل، تتّفق مع كون التفاضل بين الأنبياء عليهم السلام يكمن في اختلاف درجاتهم وتفاوت مراتبهم.

٥. معيار التفاضل بين الأنبياء عليهم السلام

عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**بالزّيادَةِ بِالإيمانِ يَتَفاضَلُ المؤمِنونَ بالدّرَجات عِندَ الله**»، قلت: وإنّ للإيمان درجات ومنازل يتفاضل بها المؤمنون عند الله؟ قال: «**نعم**». قلت: صِف لي ذلك رحمك الله حتى أفهمه، قال: «**ما فَضّلَ الله به أولياءَه بَعضهم على بَعض، فقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ﴾... فَهذا ذِكر الله دَرجات الإيمانِ وَمَنازله عِندَ الله**»[3].

---

١ . سورة المجادلة، الآية ٢٢.

٢ . أصول الكافي، ج٢، ص٢٨١ ـ ٢٨٢.

٣ . تفسير العياشي، ج١، ص١٣٥ ـ ١٣٦.

إشارة: يُستفاد من الرواية المذكورة أنّ المُفاضلة بين الأنبياء عليهم السلام كانت على أساس إيمان كلّ واحدٍ منهم وهذا المعيار للتفاضل لا يقتصر على الأنبياء عليهم السلام فقط بل يشمل كذلك جميع المؤمنين، ومن هنا يتّضح لنا السرّ في تقديم عنوان العبودية على النبوّة والرسالة والمعراج وما إلى ذلك إذ لا تُحصّل درجات القُرب والتقرّب إلّا في ضوء العبودية لله سبحانه؛ وأمّا المقامات الموهوبة كالنبوّة والرسالة والإمامة والقيادة فتُمنَح وفقاً للإرادة الإلهيّة وصلاحية كلّ مخلوق: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1] وهي لا تؤخَذ بالاكتساب إطلاقاً.

٦. الاختلاف المؤدّي إلى الكُفر

عن الأصبغ بن نباتة رحمه الله قال: جاءَ رجلٌ إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالبصرة فقال: يا أمير المؤمنين! هؤلاء القوم الذين نُقاتلهم الدّعوة واحدة والرّسول واحد والصّلاة واحدة والحجّ واحد، فَبِمَ نُسمّيهم؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «**سَمِّهم بِما سَمّاهم الله عزّ وجلّ به في كتابه، أما سَمِعته تعالى يقول: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ... فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾، فلمّا وقع الاختلاف كنّا أولى بالله وبِدينهِ وبالنّبيّ صلى الله عليه وآله وبالكتاب وبالحقّ، فنحن الذين آمنوا وهم الذين كفروا وشاءَ الله مِنّا قِتالَهم فَقاتلناهم بِمشيئته وأمره وإرادته**»[2].

ـ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي الْمِقْدَامِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: إِنَّ الْعَامَّةَ يَزْعُمُونَ أَنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ حَيْثُ اجْتَمَعَ النَّاسُ كَانَتْ رِضًا للهِ جَلَّ ذِكْرُهُ وَمَا كَانَ

---

١. سورة **الأنعام**، الآية ١٢٤.

٢. الشيخ المفيد، **الأمالي**، ص١١٣ ـ ١١٤؛ تفسير البرهان، ج١، ص٥٢٧ ـ ٥٢٨. وما يشبه هذا الكلام مع اختلاف بسيط راجع: تفسير العياشي، ج١، ص١٣٦؛ تفسير البرهان، ج١، ص٥٢٨.

اللهُ لِيَفْتِنَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ بَعْدِهِ. فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: «أَوَ مَا يَقْرَءُونَ كِتَابَ اللهِ أَوَ لَيْسَ اللهُ يَقُولُ: ﴿وما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1]. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُمْ يُفَسِّرُونَ عَلَى وَجْهٍ آخَرَ. فَقَالَ: أَوَ لَيْسَ قَدْ أَخْبَرَ اللهُ عزّ وجلّ عَنِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ أَنَّهُمْ قَدِ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ وَلكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ﴾، وَفِي هَذَا مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَدِ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ»[2].

إشارة: أ) لا شكّ في أنّ مثل هذه الروايات هو من باب الجَري والتطبيق.

ب) إنّ كُفر المحاربين لأمير المؤمنين عليه السلام يختلف عن كُفر مُعارضيه، فقد يكون كُفر مُحاربيه قائماً على أساس عَقَديّ لقول النبيّ ﷺ [مُخاطباً الإمام عليّاً عليه السلام]: «سِلْمُكَ سِلْمِي وحَرْبُكَ حَرْبِي»[3]، ومَن يحارب النبيّ ﷺ فهو كافر لا محالة، وقد يكون ذلك من باب النّفاق والتّظاهر بالإسلام، لكنّ كُفر المُعارضين لأمير المؤمنين عليه السلام يمكن أن يمثّل كُفراً عمليّاً لا عَقَديّاً ولذلك فقد أُقيمت صلاة الميّت على قَتلى معركة الجمل من المُعارضين للإمام علي عليه السلام.

* * *

---

١ . سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

٢ . أصول الكافي، ج٨، ص٢٧٠.

٣ . الدرّ المنثور، ج٦، ص٦٠٦؛ ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٢٩٧، وج٢٠، ص٢٢١.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾

خلاصة التفسير

ينبغي على المؤمنين الإنفاق في سبيل الله ممّا رزقهم ووهبهم لكي ينفعهم ذلك يوم القيامة حيث لا مكان للأفعال الدنيويّة.

ويُعدّ ترك الإنفاق الواجب نوعاً من الكُفر العمليّ ومَثله في ذلك مَثل الحجّ للشخص المستطيع.

التفسير

المفردات

بَيْعٌ: (البَيْع) مَعناه التّعاقد والتعامل بين البائع والمشتري[1] وهو مصداق بارز للعقود والمعاهدات الاجتماعية. وفي هذه الآية الشريفة يبيّن الله سبحانه وتعالى عدم وجود أيّ نوع من العقود الاجتماعية يوم القيامة وذلك من خلال عبارة ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ المبتدئة بـ(لا) النافية للجنس، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾ في

١ . العلّامة المصطفويّ، التحقيق في كلمات القرآن، ج١، ص٣٤٥، مادة (ب ي ع).

الآية الشريفة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[1] باعتبار أنّ *الأكل* هو أبرز مصداق للسلوك والتصرّف. وكلمة «لا» في ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾ ناهية لا نافية.

خُلَّةٌ: (الخُلّة) مصدر، والأصل الواحد في هذه المادّة: هو الانفراج، والأصل في (الخليل) كون الشخص ذا انفراج وهو كناية عن كونه صاحب أسرار، ومن لوازم هذا المعنى المصادقة والمؤاخاة والاختصاص والمودّة. وقوله تعالى: ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ يوم القيامة إشارة إلى عدم وجود الخليل الذي يشفع للكافر وينجّيه من عذاب يومئذ، أو التوسّل إليه للتوسّط والتوصية وإظهار السرّ[2].

تناسب الآيات

واظبَ القرآن الكريم على ذكر الجهاد المادّيّ (إنفاق الأموال) إلى جانب الجهاد بالنّفس ما يدلّ على وجود آصرة قويّة بين هذيْن العامليْن المهمّيْن كما في قوله تعالى في الآية الشريفة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3] حيث دعا الله تعالى المؤمنين أوّلاً إلى الجهاد بالنّفس ثمّ أمرهم في الآية التالية إلى الجهاد بأموالهم فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[4] وإن كان الجهاد بالنّفس يُعدّ نوعاً من أنواع القروض الحَسنة. وفي الآية الشريفة (٢٠) من سورة التوبة ذكر الله سبحانه الجهاد بالنّفس والجهاد بالأموال جنباً إلى جَنب حيث قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ﴾.

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٨٨.

٢ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٣، ص١٢٠، مادة (خ ل).

٣ . سورة البقرة، الآية ٢٤٤.

٤ . سورة البقرة، الآية ٢٤٥.

وتُعتبر الآية الّتي هي موضوع البحث والتي تأتي بعد الآيات المتعلقة بالجهاد بالنّفس والجود بها، تُعتبر نموذجاً آخر لتزامن مجيء موضوع الجهاد بالنّفس والمال ما يشير إلى الترابط العميق بين كلّ واحدٍ منهما.

* * *

دعوات القرآن الكريم إلى الإنفاق

دَعا القرآن الكريمُ المسلمين كافّة وفي الكثير من آياته، دعاهم إلى ضرورة إنفاق جزء من أموالهم في سبيل الله ﷻ، إلّا أنّ تلك الدعوات لم تأتِ بمستوى أدبيّ واحد في جميع حالات الإنفاق:

١. فتارة يدعو القرآن الكريم المؤمنين بأسلوب عاديّ دارج فيطلب منهم الإنفاق من أموالهم الطيّبة التي حصلوا عليها بالطّرق المشروعة والمُحلّلة كقوله تعالى: ﴿**أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ**﴾[1].

٢. وتارة يُكلّمهم بأسلوب أرقّ وألطف كما في الآية الّتي هي موضوع البحث حيث قال: ﴿**أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ**﴾.

٣. وفي مكان آخر يزداد الأسلوب رقّة ودماثة فيُخبرهم سبحانه أنّ كلّ ما تملكون ليس مِلكاً لكم بل هو مِلك لله ﷻ، لذا فأنتم مدعوّون إلى إنفاق جزء منه على المحتاجين والبؤساء: ﴿**وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ**﴾[2].

٤. ثمّ تَتصاعد الرقّة في البيان والدقّة في التعبير فيخاطب القرآن الكريم الإنسانَ باعتباره خليفة الله سبحانه وأنّه يَحتلّ منصب النائِب عن الله تعالى في الأرض، ولذلك لا يحقّ لمثل هذا الخليفة والنائب أن يَبخل بما آتاه الله:

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٦٧.

٢. سورة النور، الآية ٣٣.

﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1] ولا سيّما وأنّ معنى (المُستَخلَف) مُشتقّ من (الخليفة) وليس الاستخلاف في النّسل والذريّة.

٥. وأمّا الكلام الأرقّ من كلّ ما مرّ والأسلوب الألطف ممّا أُشير إليه فوصية القرآن الكريم للإنسان بالإيثار والإنفاق بكلّ ما يُحبّ ويفضّل في سبيل الله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2] وألّا يكون ما يُنفقه خبيثاً بحيث لو أُعطي له لَم يقَبله إلّا على مَضض: ﴿تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾[3].

تذكير: لّما كان كلُّ ما يمتلكه البشر من النِّعَم رزقاً من الله سبحانه وتعالى وأنّ كلمة (رزق) لا تقتصر على نعمة مُعيّنة دون أخرى، وكانت ﴿مِمَّا﴾ ـ المؤلّفة من الجار والمجرور والتي تفيد من الجارّةِ التبعيض ـ أشارت الآية إلى ضرورة إنفاق مقدار مُعيّن من أيّة نِعمة وأنّ إنفاق أيّ شيء كذلك يتناسب مع طبيعة الإنفاق ونوعه، إذاً فأنواع الإنفاق من النِّعَم على اختلافها وأنواعها داخلة ضمن الأمر المُستفاد من الآية المذكورة.

الاختلاف بين نظامَيْ الدّنيا والآخرة

يتوهّم جمعٌ مِن المغرورين بأموالهم والمفتونين بمناصبهم بأنّ الحال في الآخرة ـ إن كانوا يؤمنون بها أصلاً ـ تشبه الحال الموجودة في هذه الدّنيا؛ أي إنّهم يتصوّرون ويتخيّلون أنّه حتى في حال وجود آخرة وقيامة فإنّ حالهم هناك ستكون مشابهةً تماماً لحالهم في هذه الدّنيا وأنّهم سيحظون في الآخرة بنَفس النِّعَم

---

١ . سورة الحديد، الآية ٧.

٢ . سورة آل عمران، الآية ٩٢.

٣ . سورة البقرة، الآية ٢٦٧.



والأموال التي كانت لديهم في الدّنيا: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾[1]. ولإيقاظ هؤلاء السُذَّج من أحلام نومهم ومِن الوهم والخيال فقد قيل لهم إنّه لا مكان للأسباب والوسائل الدّنيوية في الآخرة بما في ذلك الشفاعة بمعناها الماديّ المعروف: ﴿يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ وفي غياب مثل تلك العلل الاعتبارية والعوامل العَقديّة فيما عدا العامل المؤثّر الوحيد وهو السبب التكوينيّ الذي لا يكون سوى يدِ الله سبحانه، يتّضح لنا معنى الآية الشريفة من قوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[2].

إنّ الإنسان في هذه الدّنيا إمّا أن يكون مالكاً لأسباب القدرة (كالمهنة أو العمل الذي يمارسه ويجني منه الأموال المطلوبة) التي تلبّي حاجاته، أو لا يكون مالكاً القدرة على العمل فيقوم أقاربه ومحارمه ومَن يُهمّهم أمره من أبنائه وغيرهم بتلبية حاجاته والإنفاق عليه، أو ربّما بادر أحد أصدقائه إلى حلّ بعض مشاكله ومُعضلاته وإن لم تربطه به أيّة قرابة. وقد يعمد الشخص نفسه أحياناً إلى حلّ مشكلة من مشاكله من خلال التماس العذر وطلب السّماح من شخص آخر أرفع منه منزلة؛ فإذا كانت بينه وبين شخص آخر علاقة خاصّة من غير واسطة فتسمّى (خُلّة) وإذا لم تكن تربطه بذلك الشخص أيّة علاقة خاصّة أو قرابة مُعيّنة فإنّه يُوسّط أشخاصاً آخرين ليشفعوا له عند ذلك الشخص. لكن، في يوم القيامة، كلّ هذه الأمور ستُمحى وتُزال ولن يبقى لها أيّ أثر يُذكَر، فليس باستطاعة أحد أن يحلّ مشاكله هناك أو يلبّي حاجة من حاجاته بمجهوده أو عمله أو تصرّفاته، ولا هو قادر على إقامة العلاقات أو العقود الاجتماعية أو

---

١ . سورة الكهف، الآية ٣٦.

٢ . سورة غافر، الآية ١٦.

الأمور الاعتبارية الأخرى لتتصدّى لِما سيواجهه في ذلك اليوم، ولن يكون للنّسب والقرابة أيّ نصيب في اليوم المذكور ولا الصداقة والخلّة والصّحبة ستكون له مدداً فتنقذه ممّا هو فيه، كما أنّه ليس مطمئنّاً من أن يقوم بعض ذوي السلطة والنفوذ بالشفاعة له ومَنحه العفو والمغفرة اللازمين. وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذه الحالات من خلال تنبيهه أحياناً بتقطّع الأسباب[١]: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[٢] وأحياناً أخرى بعدم فاعليّة الأنساب وأسباب القرابة: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾[٣] ثمّ في بعض الحالات بنَفي الجنس برمّته كما في قوله تعالى: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ ممّا يعني عدم جدوى أيّ معاملة أو بيع أو شراء في يوم القيامة. ولا ريب في أنّ نَفي كلّ أنواع البيع يُمثّل مصداقاً بارزاً لانقطاع العلاقات الاجتماعية بشكل عامّ وليس معناه وجود بعض أشكال المعاملات الاجتماعية مثل الصّلح أو المضاربة أو العقود الأخرى دون وجود عملية البيع وحدها.

والحاصل، أنّ المعنى هو غياب أيّ ضابط دنيويّ أو علاقة اجتماعية في الآخرة، فليس بإمكان أحد حلّ مشاكله هناك من خلال استخدام الضوابط التي اعتاد على استخدامها في الدّنيا كالضوابط الخاصّة بالعمل والتعامل، أو تلبية حاجاته في ذلك اليوم عَبر علاقات الصداقة والأخوّة وفقاً لقوله تعالى: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾؛ وهكذا يكون معنى الآية الّتي هي موضوع البحث هو التالي: [يا أيّها الناس] إذا قمتم اليوم ـ في هذه الدنيا ـ بالإنفاق كما يجب فإنّ ذلك سيكون لكم شفيعاً ومُخلّصاً يوم القيامة، وإذا لم تفعلوا ذلك اليوم فإنّ غداً

---

١ . السَّبَب: المودّة وعلاقة القرابة، جمعه (أسباب) أي الوُصَل والمودّات. (المنجد في اللغة، مادة «سبب»). [المترجم]

٢ . سورة البقرة، الآية ١٦٦.

٣ . سورة المؤمنون، الآية ١٠١.

ستتقطّع بكم السُبل ولن تنفعكم في ذلك اليوم أيّة وسيلة: ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾.

إنّنا في هذه الدنيا نقوم بالتعويض عمّا فاتنا من أمور الدين والدّنيا والحقوق والواجبات وذلك من خلال ما يُسمّى بقضاء تلك الأمور في أوقات أخرى أو بدَفع أنواع الكفّارات وقد يكون الحلّ في ذلك هو الشفاعة، أمّا في الآخرة فلن يَجد بعض الفاسدين أيّ وسيلةٍ وسببٍ من تلك الوسائل والأسباب فضلاً عن غياب أيّ أثر للبيع بأنواعه والخلّة بجميع صورها: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الشفاعة بحدّ ذاتها موجودة يوم القيامة إلّا أنّها ستكون مفيدة للبعض دون البعض الآخر: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[١] و﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾[٢].

تذكير: لقد مرّ بنا بحث موضوع الشفاعة في ذيل تفسير الآية الشريفة (٤٨) من سورة البقرة[٣]، وسوف يتبيّن لنا عند تفسير الآية التالية من نَفس السورة تأكيد آيات القرآن الكريم على وجود الشفاعة يوم القيامة إلّا أنّ استخداماتها تكون محدودة ومُقتصرة على البعض فقط.

وأفضل طريقة للجمع بين الآيات التي تؤيّد مسألة الشفاعة وبين تلك التي تنفي وجودها هي الجمع بين النّفي والإثبات من حيث الاستقلالية والإذن، وعليه، فإنّ الشفاعة السلبية هي شفاعة استقلالية لكنّ الشفاعة الإيجابية هي شفاعة مأذونة ومسموحة[٤].

---

١ . سورة المدثّر، الآية ٤٨.
٢ . سورة مريم عليها السلام، الآية ٨٧.
٣ . راجع: تفسير تسنيم، ج٤، ص٢٣٨ ـ ٣٢١.
٤ . أنظر المصدر السابق، ص٢٤٢.



ترك الإنفاق كُفر عمليّ

لا شكّ في أنّ إنفاق الفرد في هذه الدّنيا يُعدّ نوعاً من المعاملة مع الله سبحانه ووسيلة لتهيئة الأرضية المناسبة لإقامة عُرى المحبّة وبناء قاعدة الشفاعة في اليوم الآخر، ولا شكّ كذلك في أنّ مثل هذه العلاقة سيكون لها أثرها الكبير والنافع في يوم لا وجود فيه لأيّ نوع من أنواع المعاملات أو العلاقات الحميمة وغيرها. فباستطاعة الإنسان الذي يقوم بالإنفاق في هذه الدّنيا أن يخلق لنفسه عملاً صالحاً يكون أنيسه وخليله الوحيد في ذلك اليوم الموعود: «**فَخَليلٌ يَقوُلُ لَه: أنا مَعَكَ حَيّاً وَمَيِّتاً وَهُوَ عَمَلُه**»[1].

فالإنفاق الذي يكون جامعاً للحُسن الفعليّ والفاعليّ، أي الذي يتمّ بالمال الحلال والنيّة الخالصة الطاهرة المؤمنة بالله ووحدانيّته، هو الإنفاق الذي يرتضيه الله سبحانه ويتقبّله بقَبول حَسن: ﴿**يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ**﴾[2]، ولا ريب في أنّ ما ارتضاه الله تعالى وشمله بقبوله لا تكون نتيجته سوى الخير وأفضل صور الخير فيه هو تثبيت الإيمان ودَعمه في وجه الكُفر فضلاً عن استقرار العدل في مقابل الظّلم.

والإنفاق مهمّ للغاية بحيث إذا حَرم أيّ واحدٍ منّا نفسه من هذه الفضيلة فقد يؤدّي به ذلك إلى وقوعه في حبائل الكُفر العمليّ ولذلك شبّهت الآية الشريفة الاستنكاف عن الإنفاق اللازم بالكُفر العمليّ والظلم معاً؛ إذاً فالمقصود

---

١ . الشيخ الصّدوق، **معاني الأخبار**، ص٢٣٢؛ «إنّ للمَرءِ المسلم ثلاثة أخلاّء: فخليلٌ يَقول له: أنا مَعكَ حَيّاً ومَيّتاً وهو عَمله، وخَليلٌ يَقول له: أنا مَعكَ حَتى تَموت وهو مالُه فإذا ماتَ صارَ للوارِث، وخليلٌ يَقول له: أنا مَعكَ إلى بابِ قَبركَ ثمّ أُخلّيك وهو ولده». [المترجم]. **وسائل الشيعة**، ج١٦، ص١٠٦.

٢ . **سورة التوبة**، الآية ١٠٤.



بالكُفر في ذيل الآية الشريفة: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ هو الكُفر العمليّ وليس الكُفر العقديّ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[1]، ومعنى ذلك هو أنّ إطلاق كلمة «الكُفر» في حال كُفران النّعمة يشير إلى الكُفر الفقهيّ والعمليّ وليس الكلاميّ العقديّ سواء أكان مصحوباً بالكُفر الكلاميّ أم لم يكن، وأمّا المُخاطبون في الآية فهم المؤمنون، وأمّا مضمون ذلك فهو بيان الحكم الفقهيّ الفرعيّ، والآية تبيّن بوضوح موضوع ترك الإنفاق اللازم وليس إنكار وجوبه.

بحث روائيّ

١. الأخوّة في الله

قال رسول الله ﷺ: **«إذا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ انْقَطَعَتِ الأرْحامُ وَقَلّتِ الأنْسابُ وَذَهَبَتِ الأخُوّةُ إلّا الأخُوّة في الله وَذلِكَ قَوْلُه: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[2]»**[3].

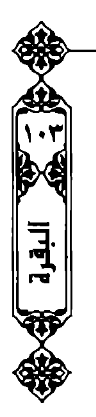
إشارة: إنّ كلّ ما هو دنيويّ سواء أكان عينياً كالذهب والفضّة والأشجار والبساتين أم اعتباريّاً كالبيع والإجارة وما شابه ذلك، آئِلٌ إلى الزوال ومصيره الانقراض مع زوال هذه الدنيا وانقراضها ومجيء الآخرة وأحداثها، إذ تتحوّل الدنيا بكلّ ما تحتويه من شؤون ومسائل وتتبدّل إلى دنيا أخرى مختلفة تماماً عن الدنيا الأولى وهي (*الآخرة*)، فما كان مصطبغاً بالصبغة الأُخروية فسيبقى لأنّ جميع الموجودات والمخلوقات الماديّة والدنيويّة محكومة بالزوال والنّفاد لأنّها

---

١. سورة آل عمران، الآية ٩٧.

٢. سورة الزّخرف، الآية ٦٧.

٣. السيوطيّ، تفسير الدر المنثور، ج٧، ص٣٨٨.



جميعاً مصداق قوله تعالى ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ بينما تكون الموجودات المعنوية والأُخرويّة بأكملها باقية غير نافدة بموجب الآية الشريفة: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ﴾[1] باعتبار ذلك هو مصداق ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ﴾.

فرابطة الصداقة والخلّة الدنيوية هي مصداق قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ﴾ وهي لا محالة زائلة وفانية وأمّا الصداقة والخلّة الأُخروية فهي المصداق البارز لقوله سبحانه: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ﴾ وهي خالدة لا تزول ولا تَفنى.

٢. مانِع الزّكاة وكُفره العمليّ

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ مَنَعَ قِيرَاطاً مِنَ الزَّكَاةِ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيّاً أَوْ نَصْرَانِيّاً»[2].

إشارة: وُصِفَ الشخص الذي لا يؤدّي الزكاة الواجبة في الكثير من الروايات بالمُرابي وشارب الخَمر ومَن لا تُقبَل له صلاة، بالمُرتدّ والكافر في بعض الحالات، وأنّه سيُعاقَب على ذلك أشدّ العقوبة[3].

إنّ المقصود بالإنفاق الواجب هو زكاة المال والفطرة، فأحياناً يكون إنفاق المال واجباً عندما يُراد به ضمان حياة الشخص الذي تُعتبر حمايته واجبةً عينيّةً أو كفائيّة. ومهما يكن من أمر فإنّ مَن يكفر بهذه الفريضة الدينية بشكل عمليّ يكونُ مَثَله كمَثَل مَن ارتضى الظّلمَ لنفسه وللأمّة الإسلامية جمعاء لاجتماع أصل الكُفر مع أصل الظّلم وربّما أدّى الظّلم إلى الوقوع في شِراك الكُفر.

* * *

---

١. **سورة النّحل**، الآية ٩٦.

٢. **أصول الكافي**، ج٣، ص٥٠٥؛ **وسائل الشيعة**، ج٩، ص٣٣.

٣. أنظر مثلاً: **أصول الكافي**، ج٣، ص٥٠٣؛ **وسائل الشيعة**، ج٩، ص٣١ـ٣٥.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

خلاصة التفسير

تُمثّل الجملة الشريفة ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قضية سلبية مضمونها نَفي الشّرك ونَبذه، وهي ـ كما هو واضح ـ لا تتألّف من قضيّتَيْن يُراد بإحداهما نَفي الآلهة المزيّفة وبالأخرى إثبات وجود الله سبحانه وتعالى.

إنّ الحياة الأزليّة والأبدية التي هي عين ذات الله ﷻ وهي حياة لامتناهية تقتصر عليه وحده سبحانه، منزّهة عن كلّ نقص أو ضعف أو زوال، ولا يُصيبها العجز ولا يَعتريها التعب أو اللغوب أو فترة من النّوم أو حبّة منه، فكلّ ما هو موجود في السموات والأرض مُلك لله سبحانه، وليس لأحد أن يشفع عنده أو يطلب الشفاعة لغيره إلّا بإذنه، وهو ﷻ عالمٌ بما في السموات وما في



الأرض ولا يغيب عنه شيء مهما كان وأينما كان، وما مِن أحدٍ يعلم عنه شيئاً إلّا بالمقدار الذي يريده هو. وقد وَسِعَ كُرسيّه سبحانه السموات والأرض كلّها وهو مُنَزّه تعالى عن التّعب في إدارة شؤونهما أو تنظيم ما ينبغي من أمورهما، وهو العليّ الأعلى والعظيم الأعظم.

التفسير

المفردات

الحَيّ: الحياة، وهو ما يُقابل الممات، ومن آثارها التحرّك والتحسّس[1]؛ و﴿الحَيّ﴾: صِفة مشبّهه[2] نعتٌ، أمّا لام التعريف الداخلة عليها فهي للجنس وتُفيد حصر الحياة واقتصارها على الله سبحانه وحده[3].

«وحَقّ الحياة التي لا يشوبها هلاك ولا يعتريها الموت، وهي الحياة الأصيلة والذاتية الثابتة والأزليّة الأبديّة: هو لله العزيز المتعالي، وباقي المراتب النازلة والأصناف المتأخّرة إنّما هو منه وبه وإليه، وهذا معنى الحياة القيّوميّة له تعالى وعنَت الوجوه له»[4].

القَيُّومُ: صيغة مشبهة على وزن (فَيعول) مُشتقّة من الجذر (قوام)؛ والأصل الواحد في هذه المادّة هو ما يُقابل (القُعود) أي (الانتصاب) وفعليّة العمل.

فذِكْر ﴿القَيُّومُ﴾ بعد ﴿الحَيّ﴾ إشارة إلى أنّ القيّومية مرتبة ثانوية من الحياة وهي مقام تحقّق الفعليّة والانتصاب ومقام القيام للعمل والتكوين والإفاضة

١ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٢، ص٣٦٩، مادّة (ح ي ي).
٢ . الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج٢، ص٤٩٣.
٣ . أنظر: سعد الدّين التفتازاني، **مختصر المعاني**، ص٩٩.
٤ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٢، ص٣٦٩، مادّة (ح ي ي).



مُستغنياً عمّا سواه، فهو قيّوم مُطلق بذاته وفي ذاته ولِذاته، قائِمٌ بنفسه على كلّ شَيء وبكلّ أمر، وأنّ ما سواه قائِمٌ به سبحانه في كلّ شؤونه[١].

سِنَةٌ: من (وَسَن)، قُلِبت واوه هاءً مثل: (وَصْل) و(صِلَة) و(وَعْد) و(عِدَة) و(وَجه) و(جِهَة). و(الوَسَن) و(السِنَة): الغفلة والغفوة[٢]، والأصل الواحد في هذه المادّة هو حصول الثِّقْلَة في البدن وقواه، وهذه الحالة إنّما تحصل في مقدّمة النّوم بعد النُّعاس وهو حصول حالة الرّخوة والفتور، وتُسمّى هذه الحالة بـ(السِّنَة)[٣]، وقال بعضهم: «والوَسْنَةُ والسِّنَةُ، كعِدَةٍ: شِدَّةُ النَّوْمِ أو أوَّلُهُ أو النُّعَاسُ»[٤].

وقال المرحوم العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ ﷺ: «وقد أورد على قوله: سِنَة ولا نَوْم أنّه على خلاف الترتيب الذي تقتضيه البلاغة فإنّ المقام مقام الترقي، والترقي في الإثبات إنّما هو من الأضعف إلى الأقوى... وفي النّفي بالعكس... فكان ينبغي القول: لا يأخذه نوم ولا سِنَة. والجواب: أنّ الترتيب المذكور لا يدور مدار الإثبات والنّفي دائماً، كما يُقال: فلان يجهده حمل عشرين بل عشرة ولا يصحّ العكس، بل المراد هو صحّة الترقي وهي مختلفة بحسب الموارد. ولمّا كان أخذ النوم أقوى تأثيراً وأضرّ على القيوميّة من السِنَة كان مُقتضى ذلك أن يُنفى تأثير السِنَة وأخذها أوّلاً ثمّ يترقّى إلى نَفي تأثير ما هو أقوى منه تأثيراً. ويعود معنى ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ إلى مثل قولنا: لا يؤثر فيه هذا العامل الضعيف بالفتور في أمره ولا ما هو أقوى منه»[٥]؛ وعليه فلا حاجة بنا هنا إلى بيان الإشكال الذي طرحه العلّامة الطباطبائي ﷺ.

---

١. المصدر السابق، ج٩، ص٣٤١ و ٣٤٢، مادّة (ق و م).
٢. الأصفهانيّ، **مفردات غريب القرآن**، ص٨٧٢، مادّة (و س ن).
٣. **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١٢، ص١٧١، مادّة (ن ع س)؛ وج١٣، ص١١٢، مادّة (وس ن).
٤. الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، ج٤، ص٣٩٠، مادّة (و س ن).
٥. أنظر: **تفسير الميزان**، ج٢، ص٣٣١ ـ ٣٣٢ ـ بتصرّف.



كُرْسِيُّهُ: الأصل الواحد في الكلمة هو السّرير الذي يُجلَس عليه ويُستَقَرّ بـه[1] وأصله (كرس). قال ابن فارس: «الكاف والرّاء والسّين أصلٌ صحيح يدلُّ على تلبُّدِ شيءٍ فوقَ شيء وتجمُّعه»[2]، ومنه أُخِذَ معنى (السّرير) حيث تُكَرَّس عليه المواد المتلبّدة والمتجمّعة ليرتفع عن الأرض ويجلس عليه صاحبه أو ينام.

قال العلّامة المصطفويّ: «فالكرسيّ حقيقته ما يَستقرّ عليه الشخص وأمّا خصوصيّات مادّته وشكله وسائر جزئيّاته فَغَيْر مأخوذة في مفهومه وتختلف باختلاف الموارد والأشخاص والاقتضاءات العُرفيّة، فقد يعتمل من فضّة أو ذهب أو ممّا يُقَوَّم بأضعاف قيمتها، وقد يُصنَع صغيراً يختصّ برجل واحد وكبيراً لجماعة، وهكذا سائر الجهات. والمعمول في سرير الملوك أن يكون مرتفعاً له طبقات حتى يُشرف الملك على الجلساء ويعلو عليهم ويحيط بهم. وقد استُعمِلت الكلمة في القرآن الكريم بناءً على هذا المعنى المُتعارَف المعلوم المعروف، فالكرسيّ المناسب لله المتعالي لا بدّ وأن يكون من جهة العظمة والسّعة والارتفاع بمقدار يحيط جميع السماوات والأرض وما بينهما من خَلقه حتى يشرف عليهم ويحيط بهم ويكون الخَلق جميعاً تحت سلطته وقيّوميّته وحكمه وأمره ونفوذه»[3]، ولذا قال الباحثون في شؤون تفسير القرآن إنّ المُراد بقوله تعالى ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ هو مقام السلطة والحكم والتدبير فضلاً عن كونه يشير إلى مقام تدبير الله سبحانه وتعالى[4].

---

١ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١٠، ص٤٣، مادّة (ك ر س).

٢ . **معجم مقاييس اللّغة**، ج٥، ص١٦٩، مادّة (ك ر س).

٣ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١٠، ص٤٤، مادّة (ك ر س) ـ بتصرّف.

٤ . راجع مثلاً: الطبرسيّ، **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٢٩؛ العلّامة الطباطبائيّ، **تفسير الميزان**، ج٢، ص٣٣٦.

لَا يَئُودُهُ: «وأصلُه من الأوْد، آدَ يَئُودُ أَوْداً وإياداً، إذا أثْقَلَه»[1]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ هو أنّ حفظ السموات والأرض وما بينهما لا يُسبّب له ﷻ التّعب أو اللّغوب أو الثّقل لكي يكون ذلك مَدعاة لضعفه أو عجزه سبحانه وتعالى[2].

تناسب الآيات

بعد أن بيّنت الآيات الشريفة السابقة ضرورة الجهاد وبذل وإنفاق المال والنّفس في سبيل الله، ثمّ الإشارة إلى انتصار جُند الحقّ بقيادة طالوت على عناصر الباطل بزعامة جالوت لكي يكون ذلك درساً للمؤمنين وعبرة لهم، وتوضيح الفرق في التفاضل بين الأنبياء والمرسلين والاختلافات في عقائد الناس، نقولُ بعد ذلك كلّه حان الوقت لبحث موضوع الدّعوة المشتركة لجميع الأنبياء وأساس عبودية الناس جميعاً (أي التوحيد) والتعريف باسميْن مهمّيْن من أسماء الله الحسنى الذاتية والفعليّة (وهما: الحَيّ والقيّوم) ـ [وكلّ أسماء الله تعالى مهمّة] ـ لكي يتجلّى للجميع التوحيد الخالص والمعرفة الحقّة بصفات الله سبحانه وأسمائه[3].

* * *

الهيكل الداخلي للآية

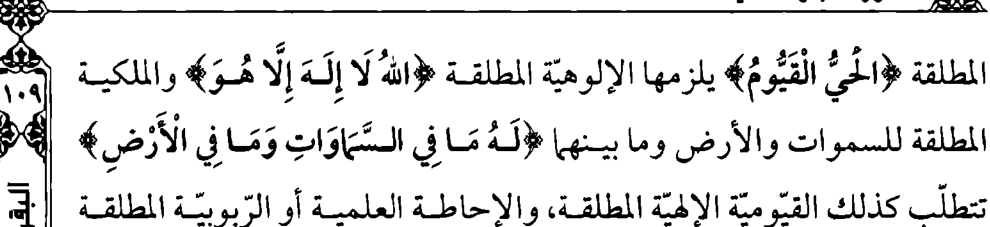
إنّ كلّ جزء من آية الكُرسيّ يُعدّ مُبيّناً ضروريّاً للجزء الذي يَسبقه، فالقيّوميّة

---

١. الأصفهانيّ، **مفردات غريب القرآن**، ص٩٧، مادّة (أ و د).

٢. **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١، ص١٦٠، (أ و د).

٣. أنظر: الدكتور وهبة الزحيليّ، **تفسير المنير في العقيدة والشريعة والنّهج**، ج٣، ص١٥؛ أبي حيّان الأندلسيّ، **تفسير البحر المحيط**، ج٢، ص٢٨٦.





المطلقة ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ يلزمها الإلوهيّة المطلقة ﴿اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ والملكية المطلقة للسموات والأرض وما بينهما ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تتطلّب كذلك القيّوميّة الإلهيّة المطلقة، والإحاطة العلمية أو الرّبوبيّة المطلقة ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ تَستوجب الملكية الإلهيّة المطلقة، فيما تُعتبر الفقرة الأخيرة من آية الكُرسيّ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ جزءاً حيويّاً مكمّلاً وضروريّاً لكلّ أجزاء الآية الشريفة السابقة.

نلاحظ أنّ الآية الشريفة وفي بداية حديثها عن القيوميّة المطلقة لله سبحانه وتعالى التي تؤدّي بدورها إلى ملكيّته للسموات والأرض، تَنفي حالة السّنَة والنّوم عن الله ﷻ بينما تؤكّد في نهاية الكلام أنّ الله سبحانه قادر على حفظ السموات والأرض وتنزّهه عن كلّ نوع من أنواع التّعب واللّغوب.

والجدير بالذّكر أنّ سياق آية الكرسيّ وارد بصيغتَيْ النّفي والإثبات وهو سياق يُفيد الحصر والتأكيد، فلفظ الجلالة ﴿الله﴾ في بداية الآية يشير إلى البُعد الإثباتيّ لألوهيّة البارئ ﷻ المطلقة ولكن عبارة ﴿لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تبيّنُ النّفي والتأكيد معاً. والاسمانِ الحَسَنانِ ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ يتميّزان بالبُعد الإثباتيّ لقيّوميّة الله تعالى المطلقة وجملة ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ تتضمّن النّفي والتأكيد، وجملة ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تشتمل على معنى الملكيّة المُطلقة لله سبحانه في البُعد الإثباتيّ، وجملة ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ التي تحتوي المعنى السّلبيّ من الاستفهام الإنكاريّ الإبطالي تُفيد النّفي والتأكيد. ثمّ يأتي دور الجملة ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ التي تشير إلى البُعد الإثباتيّ الخاصّ بإحاطة عِلمه ﷻ، وبعدها عبارة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ حيث تبيّن البُعديْن، النّفي والتأكيد معاً. وفي القسم الخامس حيث يدور الحديث حول الربوبيّة الإلهيّة المطلقة تتضمّن جملة ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

معنى البُعد الإثباتيّ ثمّ يأتي عبارة ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ التي تشمل البُعدَيْن النّفي والتأكيد في آن واحد.

وأمّا أخيراً، فتأتي جملة ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ التي تتضمّن اسميْن من الأسماء الحسنى التي عادة تَرد في نهاية الكثير من الآيات القرآنية، وهي، أي هذه العبارة الأخيرة، بالمناسبة تُفيد تعليل مَفاد كلّ جزء من أجزاء آية الكرسيّ الشريفة؛ فيكون المعنى العامّ للآية الكريمة هكذا: إنّ العِلّة في كون الله ﷻ مُنزّهاً عن السِنَة والنّوم وأنّه ما مِن شفيع يحقّ له الشفاعة لأيّ كان إلّا بإذنه سبحانه فضلاً عن أنّه لا يوجد مَن هو قادر على الحصول على العلم أو يصبح عالماً بأيّ شيء من دون إرادته تعالى، وأنّ حفظه لشؤون كلّ من السموات والأرض وتدبير حالها وإدارة أحوالها لن يجعله ﷻ يشعر بالأود أو الثّقل، أقول: إنّ العِلّة في كلّ تلك الأمور هو أنّ الله سبحانه مُنزّه عن النّقص وتعالى عن (السِّنَة) و(النّوم) و(التّعب) و(الأود) و(اللّغوب) إلى جانب كونه ﷻ المالك الحقيقيّ للسموات والأرض وما بينهما، والخلاصة فإنّه تعالى هو ﴿الْعَلِيُّ﴾ و﴿الْعَظِيمُ﴾.

إنّ لورود التعليل في آخر الآية الشريفة (أي، إرادة الله تعالى في أن يكون ذيل الآية دليلاً على مضمونها) شواهد كثيرة وأمثلة عديدة، مثل مجيء كلمتَيْ (الغفور) و(الرّحيم) في نهاية قوله سبحانه. ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1] الدّالتَيْن على مَنح العاصين والمُذنبين التوفيق إلى التوبة، وكذلك الآيات الشريفة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[2] و قوله تعالى ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾[3]

---

١. سورة التوبة، الآية ١٠٢.

٢. سورة الفجر، الآية ١٤.

٣. سورة السّجدة، الآية ٢٢.



اللذين يبيّنان السّبب في إنزال العذاب على الأُمم السابقة، ثمّ على سبيل المثال أيضاً مجيء الاسميْن الحَسنيْن (العزيز) و(الحكيم) في نهاية الآية الشريفة ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

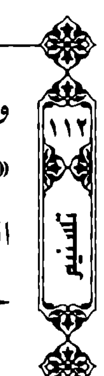
مرتبة آية الكرسيّ

تتفاوت درجات سُوَر القرآن الكريم وتختلف مراتب آياته كذلك كما هي الحال مع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام حيث تختلف مرتبة هذا الرّسول عن مكانة ذلك النبيّ بشكل واضح، فترى عُلوّ مرتبة آية أو سورة قرآنية على أُختها وتقدّمها عليها من حيث المنزلة. ويكمن سرّ ذلك في تدرّج معاني السّوَر والآيات والسبيل إلى كشف التفاضل الموجود في محتوى تلك السّور والآيات هي الصيغة التي تتألّف منها مفردات الآية أو السّورة وعباراتها وجُمَلِها وترتيب تلك المفردات وطريقة تنظيمها ثمّ كيفية استخدام كلّ منها للظاهر من الأسماء أو الضمائر المستترة والمكشوفة. على سبيل المثال اشتُهِرَت آية الكُرسيّ بهذا الاسم لأنّها تتضمّن كلمة الكرسيّ ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ فضلاً عن أنها سُميت في الروايات الإسلامية العديدة باسم (**سيّدة آي القرآن**) لاشتمالها على مضامين سامية حول وحدانية الله سبحانه المطلقة، ويحتمل أيضاً أنّها تتضمّن الاسم الأعظم. وتجدر الإشارة إلى أنّ آية الكُرسيّ قد ذكرت شأن الله سبحانه ستّ عشر مرّة ولا توجد آية في القرآن الكريم كلّه تتطرّق إلى شأن الجلالة بهذا العدد، فقد تضمّنت آية الكرسيّ خَمسة أسماءٍ حسنى ظاهرة وتسعةَ ضمائر ظاهرة وضميريْن مُستَترَيْن[2]؛ فأمّا الأسماءُ الحسنى الخمسة فهي: لفظ الجلالة «الله» و«الحَيّ» و«القَيّوم»

---

١ . سورة المائدة، الآية ٣٨.

٢ . محيي الدين بن عربي، **تفسير رحمة من الرحمن**، ج١، ص٣٧٩ ـ ٣٨٤.



و«العَليّ» و«العَظيم»، وأمّا الضمائرُ التسعة الظاهرة فهي: «هُو» والهاء في «لا تأخُذُهُ» و«لَهُ» و«عنده» و«بإذنه» و«عِلمِه» و«كُرسيُّه» و«يَئودُهُ» و«هُو»؛ وأمّا الضميران المستتران في الآية الشريفة فهما في الفِعلَيْن «يَعْلَمُ» و«شاءَ»، وهكذا حقّ تسمية آية الكُرسيّ بسيّدة آي القرآن الكريم.

هذا، وقد وردت روايات كثيرة في فضيلة هذه الآية سنشير إليها في قسم البحث الروائيّ.

الوحدانية المطلقة

تُمثّل العبارة الشريفة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الواردة بعد لفظ الجلالة ﴿الله﴾ قضيّة سلبية وهي تُبيّن بكلّ وضوح وحدانية الله سبحانه المطلقة إذ كما مرّ في تفسيرنا للآية الشريفة ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[١] إنّ حرف الاستثناء «إلّا» في قوله تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني «غَيْرَ» وبالتالي فإنّ هذه الكلمة الطيبة لا تنقسم إلى قضيّتَيْن فتكون إحداهما مثلاً قضيّة سلبية «لا إله» وقضية إثباتية هي «إلّا هو» لنَفي وجود آلهة مزيّفة وإثبات الذات المقدّسة لله سبحانه، بل إنّ مضمون تلك الآية هي قضية واحدة وهي القضية السّلبية التي تشير إلى عدم وجود إله آخر غير الله تعالى المعقول والمقبول من قِبَل فطرة الناس جميعاً لأنّ معرفة الله الواحد سبحانه والتسليم له هو أمر راسخ في فطرة كلّ الناس.

ولم يُرسَل الأنبياء ولم يُبعَث المرسلون إلّا من أجل إزالة الغبار والتراكمات عن الفطرة الإنسانية وليس تلقين فطرتهم على معرفة الله تعالى وتدريبها على

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٦٣.



ذلك؛ إذاً فمفهوم «**لا إله إلّا الله**» يقتصر فقط على نَفي الشّرك والإشارة إلى أنّ التوحيد هي مسألة مفروغ منها.

الفطرة

نلاحظ في القرآن الكريم أحياناً مجيء الضمير «هو» مسبوقاً بلفظ الجلالة «الله» كالآية الّتي هي موضوع البحث وآيات أخرى كذلك مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ**﴾[1] و﴿**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[2]، وفي أحيان أخرى يأتي الضمير «هو» دون ذِكر صاحبه للإشارة إلى الله سبحانه، وفي مواضع أخرى ورد ضمير الغائب «هو» في بداية الآية ويُقصَد به الله ﷻ، مثل قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾[3] و﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾[4] و﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ**﴾[5] باعتبار الله ﷻ هو المُشار إليه بالفطرة وهو المشهود لدى جميع مخلوقاته، بل إنّ كلّ فطرة تسعى إليه وتتّجه نحوه، ولأنّه تعالى معروف ومشهور لدى الجميع فلا حاجة إذاً إلى ذكر صاحب الضمير «هو».

الحياة الأبديّة

إنّ شأن الحياة شأن مبدأ الوجود نفسه فهي تنقسم إلى قسميْن: حياة محدودة وأخرى غير محدودة (أو لامتناهية)؛ فالأُولى يُقابلها *(الموت)* وهو مخلوق الله

---

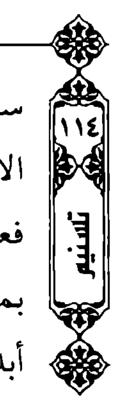
١ . سورة الطّارق، الآية ٨.

٢ . سورة يس، الآية ٢٢.

٣ . سورة الحشر، الآية ٢.

٤ . سورة الإخلاص، الآية ١.

٥ . سورة الجمعة، الآية ٢.



سبحانه وصفة فعله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾[1] وأمّا الثانية وهي الحياة الأبدية اللامتناهية وغير المحدودة فتُمثّل الصفة الذاتية لله ﷻ التي هي عينُه، فعندما تصبح الحياة الصفة الذاتية غير المحدودة لله تعالى فإنّها ستكون كذلك بمثابة ذاته المطلقة غير المتناهية ومثل هذه الحياة لا تعرف النهاية ولا الانتهاء أبداً لتصل بعدها إلى حافة *الموت* أو *النّوم* أو *السِّنة* أو أيّ شيء آخر يتناقض معها.

إنّ (الحياة) التي يُقابلها (الموت) و(النّوم) الذي هو ضدّ (الصّحو) هي من خَلق الله سبحانه وفعله، وفعل الله تعالى مقهور لذاته ﷻ والمقهور لا يسود القاهر إطلاقاً، إذاً فحياة الله حياة لامتناهية وهي عين ذاته.

وبعد انتهاء الآية الشريفة من بيان الوحدة المطلقة لله ﷻ أشارت إلى وصفيْن من أوصافه الكريمة وهما: ﴿الْحَيُّ﴾ و﴿الْقَيُّومُ﴾. وتُعتبر جملة ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ـ كما هو واضح ـ نعتانِ للفظ الجلالة ﴿الله﴾، فالحياة، كما ذكرنا، صفة من الصفات الذاتية لله تعالى وهي كذاته، مُطلقة لا تنتهي، ومن هنا فلا مكان لحياة الآخرين على نحو الاستقلال، فالموجودات الأخرى مسبوقة بالعدم وهي ميّتة لا محالة في آخر المطاف: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[2].

وبالنّظر إلى كون الحياة الإلهيّة ذاتية وغير متناهية، وبالنظر إلى أنّ اللامتناهي لا يقبل غيره، فإنّه إلى جانب كون الآية الشريفة ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[3] تشمل المفهوم المعهود لها وأنّها مشابهة للآية الشريفة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، فهي تقدّم لنا معنى آخر مفاده: أنّكم جميعاً لستم على شيءٍ سوى ميّتين لفقركم

---

١ . سورة المُلك، الآية ٢.

٢ . سورة آل عمران، الآية ١٨٥ .

٣ . سورة الزّمر، الآية ٣٠.

الذاتيّ أمّا الحياة [الأبدية غير المتناهية] فهي لله وحده، وما سواه فهو مظهر للحيّ القيّوم وانعكاس في المرآة. فالله هو الحيّ المطلق والحياة كلّها ملك له وحده وما من أحد حيّ غيره، وأمّا الحيوات الأخرى المفروضة فهي مجرّد عناوين لآية حياته المستقلّة ومظهرها. فالممكن يفتقر بذاته إلى أيّ نوع من أنواع الحقيقة ومنها الحياة، ولهذا نطالع في (*دعاء عَرفة*) العبارات المشهورة التالية الدالّة على المعنى المذكور: «*إلهي! ومن كانت حقائقه دعاوي فكيف لا تكون دعاويه دعاوي*»[1].

حياة الله ﷻ الذاتية

الحياة هي سبب الإدراك والفعل، فالموجود الذي لا يُدرك ولا يفعل ليس موجوداً حيّاً، وإذا كان يُدرك ويفعل لكنّ عمله مُنفصل عن إدراكه ولا يستعين به أو لم يكن عقله هو القائد لأفعاله ومُرشدها، فإنّه من المتعذّر القول بأنّ هذا الموجود هو موجود حَيّ. والحياة وفقاً للمفهوم تُمثّل حقيقة خاصّة تعمل على التوفيق بين كلّ واحدٍ من الإدراك والفعل؛ أي إنّ الموجود الحيّ قادر على التفكير وهو يؤدّي أفعاله بالاستناد إلى ذلك التفكير، وعليه، فالحياة هي غير العلم بالتناهي، والقدرة على التناهي كذلك تختلف عن مجموع العلم والقدرة معاً، وحياة الله ﷻ منزّهة عن أيّ نقص أو ضعف أو زوال، وقد نَفى القرآن الكريم عن الله سبحانه كلّ ما يُسبّب الضعف والوهن أو زوال الحياة، وهو يَنفي عن البارئ تعالى كلّ عامل مُسبّب لضعف الحياة كالعجز والعَياء كما في الآية الشريفة: ﴿**أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ**﴾[2] وكلّ لُغوب وتَعَب: ﴿**وَمَا مَسَّنَا مِنْ**

---

١ . بحار الأنوار، ج٥٩، ص٢٢٥.

٢ . سورة ق، الآية ١٥.



لُغُوبٍ﴾[1] وكلّ أنواع التراخي والفتور والنّوم: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فضلاً عن تنزيهه ﷻ عن عوارض الموت والزوال والفناء: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[2]. فالله تعالى يملك الحياة الأزليّة والأبديّة على حدّ سواء لفقدان السُّبُل أمام عوامل الضعف والزوال من الدخول على ذاته المقدّسة، وهو سبحانه ليس حيّاً وحسب بل هو مانح الحياة للموجودات الحيّة كافّة: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[3]، فإذا كانت حَيوات المخلوقات الأخرى بيَده تعالى وتحت مظلّة قُدرته سبحانه، وإذا كان هو المُحيي لجميع الأموات والمُميت لجميع الأحياء: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[4]، وإذا كان إحياء الآخرين وإماتتهم لا يكون إلّا بقدرته وهيمنته: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾[5]، فعندئذٍ يتبيّن لنا أنّ حياته ﷻ هي حياة بالذات لأنّ ما يملكه لا يعترضه الضّعف أو الزوال وأنّ ما بحوزة المخلوقات الأخرى إنّما هو من عطايا الله ومواهبه هو لا غيره. ولو لم تكن حياة الله سبحانه حياة بالذات لتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي: «إذاً، مَن الذي وَهب الله سبحانه هذه الحياة؟».

تذكير: من الممكن أن تكون هناك موجودات أو مخلوقات أخرى لا يعتريها النّوم ولا تأخذها السِّنَة كالملائكة مثلاً، إلّا أنّه لا يخفى أنّ حياتهم هذه ليست من عندهم أنفسهم بل من عند الله الواحد القهّار.

---

١ . سورة ق، الآية ٣٨.

٢ . سورة الفرقان، الآية ٥٨.

٣ . سورة البقرة، الآية ٢٥٨.

٤ . سورة النّجم، الآية ٤٤.

٥ . سورة المُلك، الآية ٢.



القيّوميّة الإلهيّة

لا شكّ في أنّ قيّوميّة أيّ موجود نابعة من أزليّة حياته، وقد تحدّثنا عن أزليّة حياة الله ﷻ وقلنا إنّها كذلك لعدم تعرّضها إلى أيّ نوع من أنواع السِّنَة أو النّوم وأنّها مُنزّهة عن العَجز والتّعب واللغوب والزّوال. ولو كان أيّ موجود حَيّ آخر مصاناً عن العوارض المذكورة والأعراض المُشار إليها بشكل مطلق لصحّت تسميته بالقيّوم المطلق وذلك لأنّ قدرته هي قدرة مطلقة ليس لها نظير، ولَمَا استغنى أيّ مخلوق عنه ولكان هو غنيّاً عن الجميع. فالله سبحانه قائم بذاته وقيّوم بالآخرين في آن واحد: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1]، فإذا سلّمنا بأنّ الله تعالى هو الخالق المُطلق للحَيوات يتّضح لنا أنّه سبحانه حَيّ بالذات والحيّ بالذات يَجدر به أن يكون قيّوماً بالآخرين الذين هم بالتأكيد أحياء بالعَرَض؛ وهكذا، فإنّ حياة الله ﷻ من حيث المفهوم تُمثّل أساس قيّوميّته، ولذلك قال كبار أهل العلم والمعرفة: إنّ تركيبة ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ تشبه تركيبة كلمة (بَعلبك)، أي إنّ كلتا الكلمتيْن يُراد بهما الإشارة إلى مقام واحد.

وأمّا السرّ في ورود الاسم الشريف ﴿الْقَيُّومُ﴾ في القرآن الكريم دائماً بمعيّة الاسم الشريف الثاني ﴿الْحَيُّ﴾ فيكمن في أنّ الأخير هو مصدر جميع الصفات الثبوتية (الذاتيّة) العائدة إلى الله تعالى ومنشئها من حيث المفهوم والقيّوميّة هي أثر من آثار الحياة وتأتي في المرتبة التالية[2]. وبعبارة أوضح، أنّ صفة الحياة واسم ﴿الْحَيُّ﴾ عنوان جامع وشامل وهو مصدر جميع الصفات والأسماء الذاتية لله ﷻ أمّا صفة القيّومية واسم ﴿الْقَيُّومُ﴾ فهو عنوان جامع لكلّ الأسماء والصّفات الفعليّة له تعالى وهو مأخوذ من حياته تبارك وتعالى.

---

١ . سورة الرّعد، الآية ٣٣.

٢ . التحقيق في كلمات القرآن، ج٩، ص٣٤١ و ٣٤٣، مادّة (ق و م).

إلماعة: ١. لمّا كان الله سبحانه هو الحيّ القيّوم فلا جَرَم أن تخشع لعظمته وتخضع لجلاله كلّ الوجوه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾[1].

وفي الآية الشريفة (٥٨) من سورة الفرقان ورد (البرهان) كمسألة صاحبت الأمر بالتوكّل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾، ولكن، لماذا ينبغي اتّخاذ الله سبحانه وكيلاً؟ الجواب: لأنّ الإنسان ورغم كونه مخلوقاً حيّاً مخلوقٌ مُعرّض للوَهن والنّعاس والنّوم والتّعب والموت، ولذا وَجبَ على الإنسان أن يتّخذ الله ﷻ وكيلاً لأنّه سبحانه لا يعتريه الموت أو أسبابه أو عوامله، وأمّا ما سواه أيّاً كان فهو ميّت وزائل[2]، وعليه فمن المنطقيّ أن يستند الإنسان إلى جهة أو طرف موصوف بأنّه ﴿لَا يَمُوتُ﴾.

٢. إنّ قيّوميّة الله ﷻ هي بنَحو القسط والعدل وليست بهيئة مقهورة، وتؤيّد هذه المسألة الآيتان الشريفتان: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[4]. ولمّا كان الله العزيز القدير قائماً بالقسط فإنّه هو الهادي إلى الصّراط المستقيم لكلّ مَن كانت ناصيته وزمامه بيَده سبحانه، وهذه الهداية والقيادة هما مصداق قيّوميّة الله ﷻ.

٣. إنّ ورود الاسميْن الشريفيْن ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ بعد الجملة المباركة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يدلّ على أنّ الذات الجديرة بالعبادة والمُستحقّة للعبودية ينبغي أن تكون

---

١. سورة طه ﷺ، الآية ١١١. ولمّا كان الله سبحانه وتعالى هو القاصي والدّاني من حيث الظهور فإنّه يُظلّلنا من فوقنا ويقوم بأمرنا: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وإذا نظرنا إلى أسفلنا فهو مصداق قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾.

٢. بل إنّ الموت نفسه سيموت ويزول يوماً ما بإذن الله.

٣. سورة آل عمران، الآية ١٨.

٤. سورة هود عليه السلام، الآية ٥٦.



ذاتاً حيّة وقيّومة ولهذا نرى تأنيب الله سبحانه لعَبدة الأصنام وتوبيخهم على عبادتهم مخلوقات مثلهم والمخلوق عاجز عن أن يكون قيّماً أو ماسكاً للأمور المتعلّقة بالموت والحياة أو متصرّفاً في ما ينفع العباد أو يضرّهم، في حين أنّ المعبود الحقيقيّ لا بدّ مِن أن يكون خالقاً للوجود ومِن أن يكون قيّوماً مُطلقاً ومالكاً للحياة والممات والنّفع والضّرر: **﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾**[١].

ويشير دخول الألف واللام في بعض الحالات إلى اقتصار القيّوميّة في ذات الله سبحانه، ولأنّه ﷻ هو القيّوم المطلق والأوحد، إذاً فالجميع محتاجون إليه وهو غنيّ عن العالمين.

الله ﷻ مُنَزّه عن النّوم

إنّ من بين الصفات المُنَزّه عنها الله تعالى صفتَيْ النّوم والسِّنَة، وهاتان الصّفتان هما اللتان تؤكّدان على قيّوميّة الله المطلقة، وبيان عظمة الله ﷻ، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومٌ لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ**»[٢].

ولا شَكّ في أنّ ظاهرة النّوم في الليل أو النّهار هي واحدة من آيات الله المُتعالي: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾**[٣] كما أنّ الليل والنهار نَفسَيهما مخلوقان من مخلوقات الله المحدودة: **﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾**[٤] ولا يمكن

---

١ . سورة الفرقان، الآية ٣.
٢ . نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٦٠.
٣ . سورة الرّوم، الآية ٢٣.
٤ . سورة الإسراء، الآية ١٢.



لمخلوق محدود القُدرات أن يسود على خالِق حَيّ لامتناه، ولهذا فإنّ الله سبحانه مُنزّه عن الموت وأعراضه.

وفي كلامه الشّريف وبعد نَفي الحركة والسّكون عن الله ﷻ يشير أمير المؤمنين ﷺ إلى المبدأ العامّ ويستدلّ قائلاً: «وكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ ويَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ»[1].

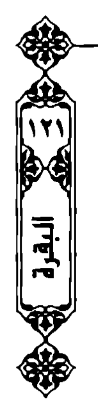
وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ التعبير الذي يصف من خلاله القرآن الكريم الصّحو والسِّنَة والنوم كمخلوقات أوجدها الله تعالى بقدرته لا يشبه تعبيره بشأن الموت والحياة المذكورين في الآية الشريفة: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾[2] إلّا أنّه يمكننا الاستنباط من العبارات الواردة في ذكر (النّوم) بأنّه مخلوق آخر من مخلوقات الله سبحانه كما في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾[3]. لاحظ أنّ القرآن الكريم استخدم الفعل (توفّى) للإشارة إلى النوم واستخدم نفس الفعل كذلك للدلالة على (الموت)، إذاً فأنسب فعل يمكن استخدامه للتعبير عن (النّوم) ـ الذي يُمثّل موتاً موقّتاً ـ و(الموت) هو الفعل (توفّى) وفي الوقت نفسه بالإمكان استخدام الفعل (يَبعث) للإشارة إلى كلتا الحالتيْن: ﴿يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ وكلاهما ـ أي النّوم والموت ـ مخلوقان من مخلوقات الله. وباستطاعتنا استنباط مفهوم (المخلوق) من كلمة (آية) وهو هنا (النّوم): ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾. ثمّ يتطرّق القرآن الكريم إلى كون النّوم عاملاً للسّبات والسكينة والاسترخاء مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٨٦.

٢ . سورة الملك، الآية ٢.

٣ . سورة الأنعام، الآية ٦٠.



جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾[١] و﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[٢] وهي إشارة إلى موجوديّة النّوم وليس عَدمه، وإن كان وجوداً ضعيفاً مصحوباً بالكثير من النّقص.

والحاصل أنّ الله سبحانه هو الذي يُميت وهو الذي يُنزل النّوم واليقظة على مخلوقاته ولا يعترضه ﷻ أيّ حالةٍ من تلك الحالات.

هذا، ويتمّ بحث عنوان (الموت) أو (النّوم) في مقابل الحياة والصّحو عند الموجود الحيّ بصورة العَدم والمَلكة في مقابل الحياة واليقظة، وفي الحالات التي تغيب عنها الحياة فإنّه ما من سبيل إلى الحديث عن الموت والنّوم كصورتَيْن للعَدَم في مقابل المَلَكة. ولمّا كانت الحياة غير الذاتية مُعرّضة للموت أو النّوم وكانت حياة الله سبحانه حياة ذاتية، فقد نُزّه الله تعالى عن الموت في الآية الشريفة ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[٣] وعن النّوم وحالاته ومقدّماته كالسِّنَة وغير ذلك كما في الآية الّتي هي موضوع البحث في محاولة لبيان وتوضيح ذاتية الحياة الإلهيّة وأزليّتها.

والجدير بالذّكر أنّ (السِّنَة) هي مقدّمة النّوم كالنّسيم الذي يُمثّل مقدّمة لهبوب الرّياح.

المالِك الوحيد للوجود

إنّ القيّوميّة الإلهيّة ـ كما قلنا ـ مطلقة وغير متناهية لأنّها منزّهة من السِّنَة والنوم والعجز والضّعف والموت فضلاً عن كونها قادرة على إدارة نظام الوجود

---

١ . سورة الفرقان، الآية ٤٧.

٢ . سورة النّبأ، الآية ٩.

٣ . سورة الفرقان، الآية ٥٨.



بأكمله إذ إنّ كلّ ما في هذا الوجود من سماوات وأرضين بالإضافة إلى الملائكة المُكَلّفين بإدارة شؤون الموجودات في ذلك الوجود، كلّ هذا مُلك لله سبحانه وحده: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي إنّ مُلك كلّ شيء وملكوته بيد الله تعالى. وتشير هذه الجملة الشريفة إلى الناحية الإيجابية للقيّوميّة الإلهيّة غير المحدودة فيما تبيّن الجملة الشريفة الأخرى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾ الناحية السلبية؛ ومعنى ذلك أنّ أحداً غير الله سبحانه لا نصيب له من القيّوميّة إطلاقاً.

وقد ترد عبارة ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في القرآن أحياناً بعد حرف (مَا) وفي هذه الحالة يكون المقصود بهذا الحرف هو جميع المخلوقات والموجودات والكائنات التي تعيش في السموات والأرض، وقد تَرد كلمة (ما فيهنّ) أو (ما بَيْنَهُما) بعد عبارة ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وفي مثل هذه الحالة يكونُ التفصيل يبيّن قطع الشركة ومَنعها[1]. والمراد بـ(السماوات) و(الأرض) هي السموات والأرض المعروفتان، وأمّا المقصود بـ(ما بَيْنَهُما) و(ما فيهِنّ) فهو كلّ الموجودات سواء منها ما كان في السماء أم في الأرض. وقد تَرد عبارة ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لوحدها دون اصطحاب (ما) أو (ما بَيْنَهُما) أو (ما فيهِنّ) حيث يكون المُراد من العبارة المذكورة عندئذ مجموعة نظام الوجود بأكمله بما فيها الأرواح والملائكة والعقول والنفوس والسماوات والأرض وغير ذلك.

وبالنّظر إلى ما ذُكِر وأنّ تقديم الخبر في جملة: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يُفيد الحصر، فإنّ معنى ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هو أنّ السماوات والأرض وكلّ ما فيهنّ هو مِلك لله تعالى وحده وما مِن أحد غير الله سبحانه يملك ولو ذرّة من كلّ ذلك سواء أكان بشكل مستقلّ أم بصورة

---

١ . أي، عدم اشتراك ما سوى الله سبحانه في امتلاك ذلك الملكوت (السموات والأرض) وما يحويه من مخلوقات. [المترجم]



مشتركة، كما أنّه ما مِن أحد يمكنه أن يُشارك الله ﷻ في عملية تدبير شؤون المخلوقات أو إدارة أمورها أو يُعينه على ذلك أو يسنده ويَدعمه في ما يفعل، وما مِن أحد يملك إدارة هذا العالم وتنظيمه وتوجيهه أو التصرّف فيه أو التدخّل في شيء من أموره سوى الله الواحد القهّار.

وكان المشركون يعتقدون أنّ الأصنام التي يعبدونها شريكة في إدارة شؤون العالم، وفي جوابه على هذا الكلام السخيف بيّن الله سبحانه أنّ التدخّل أو المشاركة في تدبير أمور العالم يكون على أربعة أوجه وهي:

١. أن تمتلك الأصنام شيئاً ما بشكل مستقلّ وتستطيع التصرّف فيه بكلّ حريّة.

٢. أن تكون الأصنام شريكة مع آخرين في امتلاك شيء ما وتستطيع التصرّف والتدخّل في الجزء الذي تملكه أو يعنيها.

٣. أن نفترض أنّ الأصنام هي شريكة الله سبحانه فيما يملك ومساعدة له وأنّها مستقلّة في معاونتها وقادرة على التصرّف في العالم بشكل أو بآخر.

٤. أن نعتبر الأصنام حلقة وَصل أو شفعاء وأنّها لا تحتاج إلى إذن من الله تعالى في شفاعة أحد.

لكنّ الله ﷻ نفى أن تمتلك الأصنام أيّاً من الخيارات الأربع المذكورة بقوله تعالى: **﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾**[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الخياراتِ الثلاثَ الأولى هي خيارات ممتنعة ذاتياً، أي

---

١. سوره سبأ، الآيتان ٢٢ و ٢٣.

إنّه من المُحال نسبة تلك الخيارات إلى غير الله سبحانه، وأمّا الخيار الرابع فقد يكون ممكناً لكن بإذن من الله وحده وهو محال بدون إذنه تعالى، بمعنى أنّ زمام الأمور كلّها بيَد الله ﷻ وهو لا يأذن ولن يأذن للأصنام بالتدخّل في ذلك إطلاقاً.

فإذا كان أيّ موجود عاجزاً عن أن يمتلك بيَده ولو ذرّة من الأمور بشكل مستقلّ أو بصورة مشتركة أو أنّه ممنوع من الإعانة أو غير مسموح له بالشفاعة لأيّ كان، فكيف تجوز عبادته أو يكون مُستحقّاً لها؟

هذا، وقد ورد إثبات الملكية المطلقة لله تعالى ونَفي الشفاعة المستقلّة لغيره سبحانه، بما فيها شفاعة الأصنام، ورد في الآيات التالية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾[1] و﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[2].

مالِك المُلك والمَلكوت

إنّ المِلك (أي ذات الأشياء وأعيانها) والمُلك (وهو النفوذ والسّلطان) وعالَم المَلكوت (الذي يعني صورة العلاقة بين الأشياء وكيفيّتها مع الله سبحانه ويتضمّن الجانب الغيبيّ في العالم) كلّه لله مالِك المِلك والمُلك والمَلكوت: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لأنّ الحرف (ما) يُفيد العُموم والشموليّة. وكما أنّ الله ﷻ هو عالِم الغَيب والشهادة فهو كذلك مَلِك الغيب والشهادة، فالمِلك

١ . سورة يونس ﷺ، الآية ٣.
٢ . سورة السّجدة، الآية ٤.

والمُلك يتعلّقان بمنشأ الشهادة، أمّا المَلكوت فيتميّز بالجانب الغيبيّ للعالَم[1]. فعندما يُذكَر مَلكوت الأشياء يُذكَر الله تعالى بأسمائه التنزيهية والجلالية مثل «سُبحان» كما في قوله ﷻ: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2] وعند الحديث حول مُلك الأشياء يُذكَر الله تعالى بأسمائه الجمالية والتشبيهية مثل «تَبارَكَ» كما في الآية الشريفة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[3].

وسنتحدّث عن الشاهد التفصيليّ على تجرّد الملكوت في مقابل نشأة المُلك في موضع آخر من هذا التفسير.

إلماعة: أشارَ القرآن الكريم إلى الموجودات بحرف (ما) حيث يدلّ ذلك على سَلب الاستقلاليّة منها وهذا التعبير يناسب مملوكيّة المخلوقات وعبوديّتها.

تذكير: إنّ البَشر هو مِلك لله سبحانه وأفعاله هي مظاهر لأفعال الله تعالى وهي [أي أفعال الإنسان] ليست مستقلّة بذاتها، وعليه، فلا غَرو أن نلاحظ مثلاً تمليك الله ﷻ الإنسانَ بعض الأشياء أو استخدام كلمة (المُلك) في حالات أخرى مثل قوله سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾[4] أو يمنح أحدهم العزّة والقدرة، إلّا أنّ معنى العطيّة أو الهِبَة الإلهيّة ليس تفويضاً لاكتساب المِلك والمُلك أو العزّة والقدرة أو الحياة بحيث تخرج الأمور عن سيطرته سبحانه وتُسلَب من يَده ﷻ؛ لا ليس الأمر كذلك ولو بمقدار قطرة،

---

١ . ومن المعروف أنّ شهود الملكوت ورؤيته يختصّ بأفراد مُعيّنين مثل سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام حيث قال عنه القرآن الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (سورة الأنعام: الآية ٧٥) وإن كان القرآن الكريم قد دعا الآخرين إلى النّظر والتفكير في الملكوت (وليس رؤيته بالطّبع) مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (سورة الأعراف: الآية ١٨٥).

٢ . سورة يس، الآية ٨٣.

٣ . سورة المُلك، الآية ١.

٤ . سورة آل عمران، الآية ٢٦.



وليس لأحد أن يقول: إنّي أملك ذرّة من مِلك الله أو مُلكه أو عزّته أو قدرته أو حيانه، إذ لو نقص البحر قطرة واحدة فقط فإنّ ذلك يعني نقصاناً حقيقياً للبحر وفقاً للتحليل العقليّ.

نَفي شفاعة الأصنام

إنّ كلّ ما هو موجود في السموات والأرض يعود إلى الله سبحانه وحده، وعليه، فلا يحقّ لأحد أن يشفع لآخر إلّا بإذن منه وحده: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وهذه الجملة الشريفة تبيّن بوضوح عظمة الله وجبروته وجَلاله وقد صيغت على شكل سؤال: «مَن هذا الذي يحقّ له الشفاعة؟» ما لَم يأذن الله تعالى لأحد فإنّه لا يستطيع تقديم الشفاعة لأيّ شخصٍ كان، والله سبحانه لم ولن يسمح للأصنام أن تشفع لأحد، إذاً فما يردّده المشركون لتبرير عبادتهم للأصنام: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ الله﴾[1] هو كلام باطل وسخيف. ولا يخفى أنّ ما يعنيه المشركون بالشفاعة في الآية الشريفة هي الشفاعة الدنيويّة والتكوينيّة لا الشفاعة المتعلّقة بشؤون الآخرة.

ويتمحور الجدال القائم بين الموحّدين والمشركين حول الشفاعة التكوينية وليست الشفاعة التشريعية الأُخرويّة وذلك لعدم إيمان المشركين باليوم الآخر أو المَعاد أو أنّهم كانوا يستبعدون وجود قيامة أو آخرة أو مَعاد كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[2] وكان كلّ شخصٍ منهم يتحدّث إلى الآخر بتعجّب قائلاً: أتعلم ما هي آخر أخبار مكّة؟ لقد خرج فيها رجل يقول: إذا ماتَ الإنسان وبُلِيَ جَسده واندثرت

---

١ . سورة يونس عليه السلام، الآية ١٨.

٢ . سورة ق، الآيتان ٢ و٣.

أعضاؤه فإنّه سيُبعَث من جديد ويَحيى في عالم آخر؛ فهل يصدّق أيّ شخصٍ منكم حدوث ذلك؟ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1].

هذا، وتعني الشفاعة التكوينية أو الدنيويّة توفّر الأسباب وتأثيرها وهو ما نَفَته الآية الّتي هي موضوع البحث أيضاً إلّا إذا أذِنَ الله بذلك، أي إنّ العلل والعوامل الطبيعية هي الأخرى لا تمتلك استقلاليّة تامّة سواء أكان ذلك في وجودها أم في آثارها أم تأثيراتها.

واستناداً إلى الآية الشريفة: ﴿يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾[2] فإنّه لا أثر للعلل والأسباب العاديّة والماديّة إطلاقاً يوم القيامة، بل إنّ المشركين والكافرين محرومون حتى من الشفاعة المأذونة التي هي فيض من رحمة الله سبحانه: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[3] إذ لا وجود لِمَن يُريد شفاعة مثل هؤلاء.

وقد أشارَ الله ﷻ إلى عجز الأصنام عن الشفاعة لأحد تارة بشكل سؤال استنكاري إبطاليّ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وتارة أخرى يَنفي سبحانه وجود مثل هذه الشفاعة دون إذن أو عِلم منه قائلاً: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4].

وأمّا ما يتعلّق بعلم المخلوقات ووجدانها المحدوديْن فإنّ فقدان العِلم لا يُمثّل دليلاً قاطعاً على العدم، فعندما يجهل الإنسان أو المَلاك شيئاً ما فإنّ ذلك لا

---

١ . سورة سبأ، الآية ٧.

٢ . سورة البقرة، الآية ٢٥٤.

٣ . سورة المدّثر، الآية ٤٨.

٤ . سورة يونس عليه السلام، الآية ١٨.



يعني عدم وجوده، ولكن، إذا لم يكن ذلك العِلم موجوداً عند الله العالِم غير المحدود بكلّ شيء فإنّ هذا سيعني بالتأكيد عدم وجوده إطلاقاً إذ إنّ كلّ ما هو موجود يحمل مصداق (الشيء) وكلّ (شيء) هو مخلوق من مخلوقات الله تعالى: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] والله سبحانه عالِم بكلّ مخلوقاته وهو محيط بها جميعاً: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾[2]؛ إذاً، فالاستفهام والسؤال الاستنكاريّ الإبطاليّ الذي طرحه الله سبحانه: «لو كان ثمّة شفيع في السموات أو في الأرض لكان الله به عليماً»؛ هو دليل على عدم وجود ذلك الشفيع.

تذكير: يمكن اعتبار الآية التي تَنفي وجود أيّة شفاعة بشكل مطلق إلّا بإذن الله، آية شاملة وجامعة لكلّ تفاصيل الشفاعة رغم أنّ موضوع الخلاف بين كلّ جماعةٍ من الموحّدين والمشركين هي الشفاعة الخاصّة. والخلاصة هي أنّ تلك الخصوصية التي يختلف بشأنها هؤلاء لا تحول دون نَفي إطلاق الشفاعة أو عموميّتها دون إذن من الله سبحانه، وعليه، فإنّ الشفاعة الأُخرويّة ليست ممكنة كذلك إلّا بإذن الله وحده.

إمكانية الشفاعة

يؤكّد القرآن الكريم على أنّ الشفاعة هي أمر حتميّ وقاطع لا لَبس فيه[3]، إلّا أنّ صاحب تفسير *(المنار)* الذي يستند في كلامه إلى العقيدة الوهّابية اعتبر الشفاعة أمراً مستحيلاً بالمرّة، وصرّح أنّ جملة ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ تدلّ على استحالة وجود الشفاعة مطلقاً وأمّا الاستثناء ـ بزعمه ـ الوارد

---

١ . سورة الرّعد، الآية ١٦.

٢ . سورة فصّلت، الآية ٥٤.

٣ . أنظر: تفسير تسنيم، ج٤، ص٢٤٢ ـ ٢٧٨.

فيها ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فهو تأكيد على انعدام حقّ الشفاعة لأنّ الحكم والتنفيذ لله وحده، إلّا إذا سمح لأحدهم بالشفاعة لآخر وهو لن يسمح لأحد بذلك أبداً[1].

وحول استحالة شفاعة الله، قال صاحب التفسير المذكور: «وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى نَفْيِ الشَّفَاعَةِ بِالْمَعْنَى الْمَعْرُوفِ، وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ عَالِمًا بِكُلِّ شَيْءٍ فَعَلَهُ الْعِبَادُ فِي الْمَاضِي وَمَا هُوَ حَاضِرٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا يَسْتَقْبِلُهُمْ وَكَانَ مَا يُجَازِيهِمْ بِهِ مَبْنِيًّا عَلَى هَذَا الْعِلْمِ كَانَتِ الشَّفَاعَةُ الْمَعْهُودَةُ مِمَّا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَعَالَى لِأَنَّهَا لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِإِعْلَامِ الشَّفِيعِ الْمَشْفُوعَ عِنْدَهُ مِنْ أَمْرِ الْمَشْفُوعِ لَهُ، وَمَا يَسْتَحِقُّهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، وَإِنَّمَا يُعْرَفُ إِذْنُهُ تَعَالَى بِمَا حَدَّدَهُ مِنَ الْأَحْكَامِ فِي كِتَابِهِ، أَيْ فَمَنْ بُيِّنَ أَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِعِقَابِهِ فَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لَهُ لَا يَجْرُؤُ أَحَدٌ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ بِالنَّجَاةِ»[2].

---

١ . «فَمَنْ بُيِّنَ أَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِعِقَابِهِ فَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لَهُ لَا يَجْرُؤُ أَحَدٌ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ بُيِّنَ أَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِرِضْوَانِهِ عَلَى هَفَوَاتٍ أَلَمَّ بِهَا لَمْ تُحَوِّلْ وَجْهَهُ عَنِ اللهِ تَعَالَى إِلَى الْبَاطِلِ وَالْفَسَادِ الَّذِي يَطْبَعُ عَلَى الرُّوحِ فَتَسْتَرْسِلُ فِي الْخَطَايَا حَتَّى تُحِيطَ بِهَا وَتَمْلِكَ عَلَيْهَا أَمْرَهَا، فَذَلِكَ مُسْتَحِقٌّ لَهُ، مُنْتَهٍ إِلَيْهِ بِوَعْدِ اللهِ فِي كِتَابِهِ وَفَضْلِهِ عَلَى عِبَادِهِ... قَالُوا إِنَّ الِاسْتِثْنَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: إِلَّا بِإِذْنِهِ وَاقِعٌ وَهُوَ أَنَّ نَبِيَّنَا ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ يَشْفَعُ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ فَيُفْتَحُ بَابُ الشَّفَاعَةِ فَيَدْخُلُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنَ الشُّفَعَاءِ كَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَصْفِيَاءِ كَمَا ثَبَتَ فِي الْأَحَادِيثِ. وَهِيَ مَسْأَلَةٌ أَنْكَرَهَا الْمُعْتَزِلَةُ وَأَثْبَتَهَا أَهْلُ السُّنَّةِ، وَاللهُ تَعَالَى يَأْذَنُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُطْلِعُ عَلَى عِلْمِهِ بِاسْتِحْقَاقِ الشَّفَاعَةِ مَنْ يَشَاءُ، كَمَا عُلِمَ مِنَ الِاسْتِثْنَاءِ، وَنَقُولُ: أَجْمَعَ كُلٌّ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَسَائِرِ فِرَقِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى كَمَالِ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى وَإِحَاطَتِهِ، وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ اسْتِحَالَةَ الشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ بِالْمَعْنَى الْمَعْهُودِ ـ كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ ـ وَقُلْنَا هُنَاكَ: إِنَّ مِثْلَ هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ، وَبِذَلِكَ نَجْمَعُ بَيْنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَنْفِي الشَّفَاعَةَ بِدُونِ الِاسْتِثْنَاءِ وَبَيْنَ هَذِهِ، وَقُلْنَا: إِنَّ مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ يَأْتِي فِيهِ الْخِلَافُ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ فِي الْمُتَشَابِهَاتِ، فَنُفَوِّضُ مَعْنَى ذَلِكَ إِلَيْهِ ـ تَعَالَى ـ أَوْ نَحْمِلُهُ عَلَى الدُّعَاءِ الَّذِي يَفْعَلُ اللهُ تَعَالَى عَقِبَهُ مَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ الْأَزَلِيِّ أَنْ سَيَفْعَلُهُ مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ الشَّافِعَ لَمْ يُغَيِّرْ شَيْئًا مِنْ عِلْمِهِ وَلَمْ يُحْدِثْ تَأْثِيرًا مَا فِي إِرَادَتِهِ تَعَالَى؛ وَبِذَلِكَ تَظْهَرُ كَرَامَةُ اللهِ لِعَبْدِهِ بِمَا أَوْقَعَ الْفِعْلَ عَقِبَ دُعَائِهِ». (راجع: محمد رشيد بن علي رضا، تفسير المنار، ج٣، ص٢٠ و٢١). [المترجم]

٢ . راجع: تفسير المنار، ج٣، ص٣١ و ٣٢.



وفي الجواب على التصوّر الباطل الذي صرّح به صاحب تفسير *(المنار)* نقول: *أوّلاً*، فيما يتعلّق بالشفاعة، إنّ الشّفيع يرجو الحاكم العادل بألّا يحكم في قضيّة المتّهم بعدله فقط بل أن ينظر إليها بعَين الرّحمة والرّأفة والعَفو والمسامحة؛ إذاً فالمقصود بالشفاعة ليست تبرئة المتّهم ممّا اتُّهِمَ به لأنّ المتّهم سيُحاكم قطعاً بالعدل أمام الحاكم العادل، لكن إذا رافق المتّهمَ شخص وجيه عند الحاكم وعزيز لديه فقد تزداد نسبة تحقيق العفو لذلك المتّهم.

ونقول *ثانياً*: إنّ ثمّة فرقاً واضحاً بين كلّ من (الشّفيع) وبين (البيّنة)، فالأوّل يرجو ويسأل العَفو وأمّا (البيّنة) ـ أي الشّهود ـ فمن شأنها أن تُضيف إلى عِلم القاضي تفاصيل أخرى حول القضيّة قد تساهم في تبرئة المتّهم، وعليه، يبدو أنّ بعض المُنكرين للشفاعة عجز عن التفريق بين الشّفيع والشّاهد.

إنّ ما قاله صاحب *(المنار)* حول الشفاعة بالضّبط هو أن يقوم الشّفيع بإيصال معلومة ما إلى المشفوع عنده لم يكن هذا الأخير يعلم بها من قَبل؛ ثمّ إنّه ما مِن دليل على استحالة الشفاعة عند الله الذي يحيط عِلمه بكلّ شيء وهذا هو ما يُعرَف بقياس الغائب بالشاهد وقياس الشفاعة لدى المشفوع عنده في محكمة العدل الإلهيّة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ بعض الأمور يكون مُعتبراً فيما يتعلّق بخصوصيّات المصداق لا أن يُؤخَذ بها في معنى الشفاعة. ويُضاف إلى ذلك أنّه ليس بمقدور أحد أو شيء أن يصبح شفيعاً أو يضع بصماته في قضيّة ما دون حصوله قبل كلّ شيء على إذنٍ من الله سبحانه، بل لا بدّ لأيّ شخصٍ كان أن يستأذن الله القيّوم أوّلاً حتى إذا أراد طلب المعونة والمَدد من غير الله ممّا ليس بالقيّوم، ولهذا فإنّ التوسّل غير جائز إطلاقاً إلّا بالذوات المقدسة والعترة الطاهرة عليهم السلام واللجوء إلى العبادة والكتاب والسنّة التي تُمثّل جميعها الدستور الأساسيّ للإنسان، كما أنّ اعتماد هذا الأخير على تصوّراته وعلومه واختراعاته باطل لا محالة.

علم الله المُحيط

لمّا كانت قيّوميّة الله سبحانه وقدرته غير متناهيتيْن فإنّ تقتضي أن يكون عِلمه كذلك غير متناهٍ، وكان المشركون يتصوّرون أنّ الله ﷻ لا يعلم شيئاً عن أمورهم الجزئية وشؤونهم الثانوية، وأنّ إدارة مثل تلك المسائل مُناطة بشكل مستقلّ إلى تدبير الملائكة وعِلمها وقدرتها ولهذا اعتبروا الملائكة بمثابة شُفعاء مُستقلّين لهم حتى أدّى بهم الأمر إلى عبادة الملائكة لدفع الأضرار وجلب المنفعة ـ بزعمهم. ولتفنيد تلك التصوّرات الخاطئة والأوهام الزائفة يقول القرآن الكريم: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ أي إنّ الله سبحانه وتعالى لا يَعزب عنه شيء من العلم أو القدرة، بل إنّ كلّ العلل والعوامل التي كانت موجودة قبل خَلق الملائكة وبعد خَلقهم إنّما هي معلومة عنده وهو بها محيط.

وقد نقل لنا القرآن الكريم هذا الموضوع على لسان الملائكة في آيات شريفة أخرى مثل قوله تعالى: ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿**لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**﴾[2]، وتُثبت هاتان الآيتان وغيرهما من الآيات أنّ كلًّا من الماضي والحال والمُستقبل معلوم عند الله ﷻ.

وثمّة قسماً آخر من الآيات يُفيد السّلب الكليّ ويدلّ على أنّه ما من ذرّة في السموات ولا في الأرض، مهما صَغُرَت أو كَبُرت، تغيب عن عِلم الله سبحانه أو تكون خارجة عن حدود حكومته، بل إنّ كلّ ما يفعله الإنسان أو يمارسه من

---

١ . سورة مريم عليها السلام، الآية ٦٤.

٢ . سورة الأنبياء عليهم السلام، الآيتان ٢٧ و ٢٨.

عمل يَعلمه الله بقدرته وعِلمه الشهوديّ وكلّ شيء قد أحصاه ﷻ في كتاب مُبين وهذا معنى الآية الشريفة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[١] وهو سبحانه عالمٌ حتى بالذرات التي نلاحظها في شعاع الشّمس والتي لا يمكننا رؤيتها بالعين المجرّدة رغم صِغرها ودقّتها. وأمّا كلمة ﴿مِثْقَالِ﴾ الواردة في الآية الشريفة فتعني الثّقل والمقصود به وزن الذرّة وليس (المثقال) المُتعارَف عليه عند الباعة وأصحاب المحال التجاريّة[٢].

ومن إطلاق قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ...﴾ أو عموميّته يتبيّن لنا حكم الأوثان والأصنام مع عابديها ولا حاجة بنا إلى معرفة ما إذا كانت ضمائر الجمع مُستخدَمة للأصنام أو غيرها فالمقصود هو بيان الإحاطة العِلمية لله سبحانه بجميع شؤون الموجودات وأمور المخلوقات، السّماوية والأرضية، سواء في الماضي أم الحاضر أم المستقبل، فالزمن الحاضر كان زمناً مُستقبلاً بالنسبة إلى الماضي وهو [أي ذلك الحاضر] يُعتبر ماضياً بالنسبة إلى المستقبل، ولمّا كانت الضرورة تقتضي أن يكون الشافِع عالِماً بأحوال المَشفوع له ومُطّلعاً على سرائره وضمائره وما يدور في خلده من المشهورات والمشهودات، ولا جَرَم أنّ مثل هذه الإحاطة العلمية ليست ممكنة إلّا لله وحده؛ إذاً فلا يحقّ للآخرين الشفاعة؛ وأمّا الإنسان الكامل كالمعصوم عليه السلام الذي يُمثّل عِلمه مظهر العلم الإلهيّ وقلبه عرش الرّحمن، فيحقّ له الشفاعة، وهو كذلك مأذون بالشفاعة بنَحو خاصّ في بعض الحالات.

---

١. سورة يونس عليه السلام، الآية ٦١.

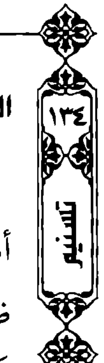
٢. أنظر مثلاً: تفسير مجمع البيان، ج٦ و ٥، ص١٨٠؛ تفسير المنار، ج١١، ص٤١٤.

كيفية عِلم الله ﷻ

من المعروف أنّ صفة (العالِم) تُطلَق على الله سبحانه وعلى غيره كذلك لكنّ هذا الإطلاق ليس بنَحو الاشتراك اللفظيّ ليُفَسَّر علم الله تعالى بشكل ويُفسّر علم الآخرين سواه بشكل آخر بل هي صفة تشير إلى الاشتراك المعنويّ وليس لها سوى معنى واحد فقط؛ إلّا أنّ ثمّة فرقاً بين نوعَيْ العلم المذكورَيْن، فعلم الله ﷻ هو علم أصيل مستقلّ ذاتيّ وغير محدود أمّا علم مَن سواه فليس إلّا مظهر من مظاهر علم الله سبحانه.

وعلم الله تعالى ليس علماً من نوع المفهوم والصورة الذهنية لكي يمكن بيان الفرق بين علمه وعلم مَن سواه من حيث الإطلاق والاتّساع، بل إنّ علم الله ﷻ هو علم حضوريّ وشهوديّ غير متناهٍ، ذو سَعَة وشِدّة، إذ لو كان علمه سبحانه حصوليّاً أو حضورياً محدوداً لجاز افتراض علم آخر في مقابله في حين أنّ علم الله اللانهائيّ لا يضع مجالاً أمام أيّ علم آخر لا يكون من شؤون علمه هو بل يسير في عرض العلم الإلهيّ، كما أنّه لا يجوز لأحد أن يقول مثلاً *إنّ الله تعالى عالم بالعالَم كعِلمي أنا بعِلمِيّ الحضوريّ بذاتي*، وذلك لأنّ عِلمنا الحضوريّ محدود وعلم الله الحضوريّ لامتناهٍ وغير محدود أبداً.

تذكير: العلم بشكل مطلق هو علم حضوريّ وأمّا وَصف بعض أنواع العلم بالعلم الحصوليّ فهو لمقارنته بالمعلوم بالعرض وإلّا فإنّ العلم بحدّ ذاته ـ أي الصورة الحاصلة في الذّهن ـ هو علم حضوريّ وليس حصوليّ بالنسبة إلى النفس؛ وهكذا، فإنّ جميع العلوم هي علوم حضوريّة بالدرجة الأولى وهي مظاهر لعلم الله الحضوريّ بالدرجة الثانية.



المعلّم الوحيد للوجود

إنّ كلّ عِلم يكتسبه المخلوق أو يتعلّمه، سواء أكان ذلك العلم حضورياً أم حصوليّاً، فهو من عند الله سبحانه وفضله وما علوم الآخرين سوى ظهورات لعِلمه تعالى وهذا معنى قوله ﷻ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾[١].

فالجميع مضطرون إلى اكتساب العلم وتعلّمه من مصدره ومنشأه، وهو المعلِّم الحقيقيّ، أي الذات الإلهيّة المقدّسة، سواء منها ما كان مشهوداً أم غيبيّاً، فكما أنّ معرفة الغيب والعلم به محال إلّا بإذن الله سبحانه وتعليمه فإنّ معرفة الشهادة كذلك ليست ممكنة ولا يسيرة دون تعليمه ﷻ وإذنه، وذلك لأنّ الموجودات في العالَم لا تعدو أن تكون أموراً غيبية مجرّدة وغير محسوسة كالوَحي والنبوّة والملائكة والتي تدخل ضمن إطار معنى (الغَيْب)، أو أموراً ماديّة ومحسوسة تُسمّى «الشهادة»، والله سبحانه عالم بالغيب والشهادة على حدّ سواء: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾[٢] وأمّا مَن سواه فلا يعلمون شيئاً لا عن الغَيب ولا عن الشهادة إلّا بإذنه ومشيئته: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣].

وأمّا مَن قال إنّ العلم بالمشهودات هو أمر عاديّ ومُتاح وإنّه لا حاجة إلى الإذن الإلهيّ إلّا فيما يتعلّق بعلم الغيب، فقوله باطل ولا أساس له من الصحّة بتاتاً، بل إنّ العلم بالمشهودات هو الآخر مرهون بإذن من الله سبحانه وإجازة

---

١ . إنّ استخدام التنوين في ﴿بِشَيْءٍ﴾ يشير إلى التصغير والتحقير وحرف الجرّ ﴿مِن﴾ يُراد به التبعيض.

٢ . سورة الرّعد، الآية ٩.

٣ . سورة التوبة، الآية ١٠٥.

منه والدّليل على هذا الكلام أنّ الإنسان في بداية حياته لا يعلم شيئاً وفقاً لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾[1] والله ﷻ هو الذي يقوم بتعليمه وتَلمَذَته على مَرّ الأيام: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2]؛ إذاً، فالإنسان بحاجة إلى مَن يُعَلّمه، بحاجة إلى مُعلّم حقيقيّ ومُعلّم بالذات، مُعلّم لكلّ عِلم، وليس ذلك المُعلّم سوى الله سبحانه وما مِن أحد يمكنه أن يكتسب عِلماً أو يتعلّمه إلّا بإذنه وإرادته. فعندما يكتسب الإنسان عِلماً أو معرفة بشيء ما لا يجوز له أن يعتبر عِلمه ذاك صادراً من عنده، بل ينبغي عليه أن يشكر الله تعالى على نعمة التعلّم والمعرفة التي اكتسبها وعلى جَعله مظهراً لاسمه الكريم (**العَليم**) وأن يعلم أنّ عِلمه إنّما هو ظهور لعِلم الله ﷻ وأنّه مجرّد مرآة لعلم الحقّ تعالى. فإذا اعترف بأنّ الله سبحانه هو مصدر عِلمه وأذعن أنّه تعالى هو مُعلّمه الوحيد ثمّ استخدم عِلمه في مكانه الصحيح وغرضه المنشود له ـ فسيكون آنذاك علماً نافعاً ـ وسيصبح بحقّ مظهر جمال الله تعالى ورحمته لأنّ علم الله ﷻ ممزوج بالرّحمة، وإلّا فإنّ ذلك سيكون بداية لجهله.

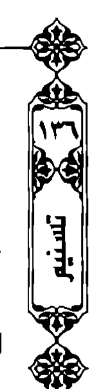
واستناداً إلى ما ذكرناه آنفاً فلا حاجة بنا إلى تفسير كلمة (العِلم) الواردة في قوله تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ بـ(المَعلوم) بل الأصحّ اعتبارها مصدراً أو اسماً للمصدر إذ إنّ علم الله سبحانه هو العلم الوحيد الذي يمكنه أن يحيط بكلّ شيء وما علم الآخرين إلّا مظهراً لعِلمه تعالى.

إلماعة: لا شكّ في أنّ التعبير عن العلم بالإحاطة هو تعبير لطيف فضلاً عن أنّ المُراد به إفهام المخاطَب بأنّ العلم في الحقيقة يعني الإحاطة، وأنّ عِلم الله سبحانه لا ينقص منه شيء إطلاقاً؛ أي كما أنّ مَنح المِلك والمُلك والقدرة من قِبَل

---

١. **سورة النّحل**، الآية ٧٨.

٢. **سورة العلق**، الآية ٥.



الله لا تكون على هيأة التفويض أو التجافي، فكذلك التعليم؛ وعليه، فإنّ الله ﷻ لا يُفوّض علمه إلى أحد أيّاً كان، بل لا يمكن لأيّ أحد أن يتعلّم شيئاً أو يكتسب علماً إلّا بمشيئة الله تعالى وحده.

العلم القابل للتبعيض

يُستفاد من قوله تعالى: ﴿بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ «التبعيض» فالعلم القابل للتبعيض هو علم فعليّ وليس ذاتيّاً، ومعنى ذلك هو أنّ العلم الذاتيّ عبارة عن حقيقة بسيطة ولامتناهية مثل ذات الله الأحد تماماً لأنّه عين ذاته سبحانه وهو منزّه عن التناهي والتركيب، وهذا بدوره يعني أنّ أوّل تلك الحقيقة اللامتناهية هو عين آخرها وظاهرها هو عين باطنها، وعليه فإنّ الحقيقة المذكورة غير قابلة للتقسيم أو التبعيض أو التفكيك، ولهذا لا يصحّ تَفنيد قول مَن قال إنّ كلّ شخص يعلم من الله بقَدر طاقته أو إنّه يعرف من العلم الذاتي لله سبحانه وفقاً لنصيبه وإمكانيّته وتشبيه هذا الأمر بالبحر لأنّ للبحر سطحاً غير العُمق وهذا لا يشبه ذاك؛ وكما قال الشاعر:

إذا عجزتَ عن شُرب ماء البحر فلا مانع من أن تشرب منه بقَدر[١]

وهكذا نرى أنّ ذات الله سبحانه لا تقبل التقسيم وكذلك هي أوصافه الذاتية التي تُعتبر عين ذاته، إذاً فالمقصود بالعِلم في الآية الشريفة هو العلم الفعليّ لله ﷻ الخارج عن الذات الواجبة والممكنة والقابلة للتقسيم.

---

١ . أصل البيت بالفارسية:

[آب دريـا را اگر نتـوان كشيد هم به قدر تشنگى بايد چشيد]

وهو للشاعر المعروف جلال الدين محمّد البلخي الرومي المشهور بمولانا (أنظر: **ديوان مثنوي معنوي**، مقدمة المجلد الخامس، البيت رقم ١٩). [المترجم]



إنّ أيّ عِلم يكتسبه الإنسان هو جزء من العِلم المذكور، لكن بهيأة التجلّي لا التجافي، وبشكل ظهور وليس على نَحو التفويض. ويتبـيّن لنـا مـن خـلال هـذا التحليل أنّه لا يحقّ لأحد أن يدّعي ملكيّته لعلمه المحدود أو اعتبار ذلـك العلـم علماً بشريّاً أو الادّعاء بأنّه صادر عنه ونابع من ذاته، وهو ما أشار إليه بعض أهل المعرفة بقولهم: «فبيّنَ الحقُّ في هذه الآية أنّ العقل وغيره ما أعطاه مـن العلـم إلّا ما شاء»[1].

الفضاء الفَوطبيعيّ

يشير القرآن الكريم أحياناً إلى الفضاء الطبيعيّ وأحيـان أخـرى إلى الفـضاء الفَوطبيعيّ[2]، فالفضاء الطبيعـيّ مثـل قولـه تعـالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[3] وأمّا الفضاء أو الأفضِيَة الفوطبيعيّة فكقوله سبحانه: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾[4] وقوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾[5]، إلّا أنّ موضوع فضاء الكرسيّ مقارناً بالسموات والأرض: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يندرج تحت عنـوان الأفـضية الفَوطبيعيـة لأنّ المقـصود بالـسموات والأرض هو مجموع النظام الإمكانيّ سواء أكان المراد به الـسماء المعروفـة المليئـة بالنجوم والكواكب أم السماء المذكورة في الآية الشريفة ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾[6] وذلك لوجود المدّبرين الملكوتيّين في تلك السموات وهم الذين يتلقّون

---

١ . ابن عربي، **تفسير رحمة من الرحمن**، ج١، ص٣٨٠.

٢ . أو الفَـوق طَبيعـيّ: الخـارق للطبيعـة؛ قـوّة أو نفـوذ أو مجَـال فـوطبيعيّ (supernatural). [المترجم]

٣ . **سورة النساء**، الآية ٩٧.

٤ . **سورة الأنعام**، الآية ١٤٧.

٥ . **سورة غافر**، الآية ٧.

٦ . **سورة فصّلت**، الآية ١٢.



الوَحي التدبيريّ، والسّماء التي يُقال إنّ دعاء الدّاعين إذا وصل إليها استُجيب، هي سماء فوطبيعيّة.

وكما أنّ كلمة (الفضاء) قد وردت في القرآن الكريم إمّا بالمعنى الطبيعيّ أو الفوطبيعيّ، أي بشكل مفهوم جامع ذي معنيَيْن: ماديّ ومجرّد، فإنّ كلمة (الكرسيّ) كذلك جاءت في القرآن الكريم كمفهوم جامع ذي مصداق طبيعيّ وفوطبيعيّ، فالكرسي بمعناه المعروف والظاهريّ هو ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[1] وأمّا الكرسيّ الفَوطبيعيّ فهو المذكور في الآية الشريفة: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾. وكذلك هي كلمة (العَرش) حيث تشتمل على مفهوم جامع أيضاً فهي تشير أحياناً إلى المعنى الطبيعيّ للعَرش كقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[2] وفي أحيان أخرى يُراد بتلك الكلمة المعنى الفَوطبيعيّ وهو المعنى الذي ورد في العديد من الآيات القرآنية مثل قوله سبحانه: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[3].

حقيقة الكُرسيّ

المقصود بكلمة (الكُرسيّ) في الآية الّتي هي موضوع البحث هو مقام الله ﷻ من حيث الحُكم والتدبير والرّبوبيّة والذي يوازي [مقام] عِلمه الفِعليّ لأنّ عِلم الله سبحانه بالخير والصّلاح والفلاح يُعدّ عاملاً لتدبير شؤون العالَم وهذا العِلم غنيّ عن الرّويّة وهَمامَة النّفس «خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ»[4].

---

١ . سورة ص، الآية ٣٤.

٢ . سورة النّمل، الآية ٢٣.

٣ . سورة التوبة، الآية ١٢٩.

٤ . نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٠٨.

والدّليل على كَون المُراد بالكُرسيّ في الآية المذكورة ليس الكُرسيّ الجسمانيّ المعروف هي الآيات المُحكمَة التي بيّنت مثل هذه المتشابهات، ومن الآيات المُحكمَة ـ أو أمّ المُحكمات باعتبار أنّ المُحكمات هي نفسها أمّ المتشابهات كذلك ـ هي الآية الشريفة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1] فالذات الإلهيّة المقدّسة لا شبيه لها ولا نظير وهي أسمى وأعظم من أن يشبهها أيّ شيء وكلّ شيء هو أحقر من أن يشبهها؛ إذاً فالله ﷻ لا يشبه الحاكمين الآخرين فيكون له عرش جسمانيّ شبيه بما لدى الحكّام العاديين ويجلس عليه.

ولم تُسْنَد كلمة (الكرسيّ) إلى الله سبحانه إلّا في الآية الّتي هي موضوع البحث ولهذا فإنّ تفسيرها على أساس الآية بالآية أو القرآن بالقرآن يُعتبر أمراً صعباً للغاية، إلّا أنّه يمكننا الاستنباط من الآية الشريفة ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾[2] المنقولة عن لسان الملائكة والآية ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3] وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾[4] أنّ هناك انسجاماً ومواءمةً بين اتّساع رحمة الله سبحانه وبين عِلمه تعالى فيكون المقصود إذاً بقوله ﷻ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ هو اتّساع رَحمته وعِلمه ومَلئهما للسموات والأرض قاطبة، والمُراد بالعلم هو علم التدبير والربوبيّة. وقد تمّ تفسير معنى (الكرسيّ) و(العَرش) في الروايات وآراء علماء الإماميّة كذلك بالعِلم الإلهيّ[5] وإن كان عرش الله سبحانه محيطاً بالكرسيّ وهو أوسع وأعظم منه.

---

١ . سورة الشورى، الآية ١١.

٢ . سورة غافر، الآية ٧.

٣ . سورة البقرة، الآية ١١٥.

٤ . سورة الأنعام، الآية ١٤٧.

٥ . «وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ معناه من علومه، كقول القائل: أللهمّ اغفر لنا عِلمك فينا، فإذا ظهرت آية يقولون: قدرة الله؛ أي مقدور الله وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال ابن عباس: ←

تذكير: ١. تمّ تفسير (العَرش) و(الكُرسيّ) بالعِلم الفعليّ والتدبير الإلهيّيْن وأنّ درجات العلم الفعليّ ومراتب التدبير هي درجات ومراتب طوليّة، لكنّ مرتبة العِلم الفعليّ هي أفضل المراتب ويُسمّى مقام التدبير بالعَرش وأمّا ما دونه فيُسمّى بالكُرسيّ. وكما أنّ العرش له مَن يَحمله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[1] فإنّ للكُرسيّ كذلك مَن يحمله وفقاً لبعض الروايات[2].

٢. إنّ كلّ ما كان له مصداقٌ في هذا العالَم هو مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وهو مسبوق بالعدم: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[3] ـ بصورة «كان» التامّة ـ وكلّ مخلوق بحاجة إلى التدبير والتربية بعد خَلقه حتى يبلغ الكمال الذي يليق به. وخلال هذه المرحلة يُدعى الله سبحانه بـ(الربّ) كما في الآية الشريفة: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[4]؛ إذاً، فكلّ ما كان مصداقاً للشيء داخل في تدبير الله ﷻ وقد صرّح القرآن الكريم في غير آية بأنّ الله سبحانه هو المدبّر لشؤون السموات

←

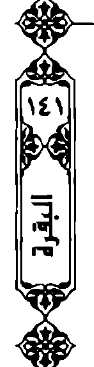
كرسيّه عِلمه؛ وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام... أمّا العلم فلأنّه يُقال للعلماء الكراسي لأنّهم المُعْتَمَدون كما يُقال: هم أوتاد الأرض وهم الأصل الذي يُعْتَمَد عليه.» (الشيخ الطوسي، تفسير التبيان، ج٢، ص٣٠٩). «عن حفص بن غياث قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله ﷻ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال: عِلْمه. وعن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله ﷻ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ فقال: السماوات والأرض وما بينهما في الكرسي والعرش هو العلم الذي لا يقدّر أحد قَدره.» (الشيخ الصّدوق، كتاب التوحيد، ص٣٢٧).

١. سورة الحاقّة، الآية ١٧.

٢. «عن الأصبغ بن نباتة قال: سُئِل أمير المؤمنين عليه السلام عن قول الله ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ فقال: إنّ السّماء والأرضَ وما فيهما من خلق مخلوق في جوف الكرسي وله أربعة أملاك [ملائكة] يحملونه بإذن الله». (تفسير العياشي، ج١، ص١٣٨).

٣. سورة الزّمر، الآية ٦٢.

٤. سورة الأنعام، الآية ١٦٤.



السّبع والعَـرش العظيم: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لله﴾[1]. فالموجودات جميعها إذاً هـي مخلوقـات الله تعـالى وتحـت مظلّـة تدبيره سبحانه لا أن يكون العَرش أو الكُرسيّ مَقرّاً أو مسكناً له ﷻ ويكون هـو محمولاً عليهما، بل هو محيط بكلّ شيء وحامل كلّ شيء والحافظ لكلّ شيء.

إنّ الله سبحانه هو الخـالق بالأصـالة والمُـدبّر والحامـل والحـافظ للعـرش، والملائكة هي الحاملة للعرش والكُرسيّ، والكُرسيّ هو الـذي يحفـظ الـسموات والأرض، فالعَرش والكُرسيّ إذاً موجوديان غَيبيّان مجرّدان ومخلوقان، وكلاهمـا محاطـانِ بتـدبير الله ﷻ. وسـنأتي عـلى تفـصيل البحـث حـول العَـرش وحَمَلَتِـه واختلافه عن الكُرسيّ في تفسير سورة (الأعراف) بإذن الله.

٣. أشرنا آنفاً إلى أنّ العَرش والكُرسيّ ليسا أمريْن مادّيَيْن بل هما موجـودان غَيبيّان معنويّان وبينهما وبين العِلم الإلهيّ الفعليّ اتّحاد مـن حيـث المـصداق مـع اختلاف بسيط وهو أنّ الكُرسيّ يُمثّل العِلم المقدّر والمحدود ولكن يُعتبر العَرش عِلم الله سبحانه الفعليّ اللامَحدود وغير المُقدّر. وهنا بالنّظر إلى كون الألفاظ إنّـما هي موضوعة لأرواح المعاني أو أنّها أصبحت مع مرور الوقت تُستَخدَم كمعنـى عامّ، تجدر الإشارة إلى أنّه قد تمّ استخدام كلمتَيْ (العَرش) و(الكُـرسيّ) كـذلك لبيان مفهوم كليّ (وهو مقام التدبير والإدارة والرّبوبية) ولكلّ واحدةٍ مـن تلكـما الكلمتيْن أكثر من مصداق عَرضيّ واحد (ماديّ وطبيعيّ) وأكثـر مـن مـصداق طوليّ (غَيبيّ) أيضاً وفي الوقـت نفسه يتطـابق كـلّ ذلـك مـع المـصداق المثـاليّ والعقليّ، فضلاً عن أنّ تطبيق كلّ واحدٍ من مفهوم (العرش) ومفهوم (الكُرسيّ) على أيّ مصداقٍ من المصاديق المذكورة هو تطبيق على نحو الحقيقة وليس المَجاز،

---

١ . سورة المؤمنون، الآيتان ٨٦ و ٨٧.



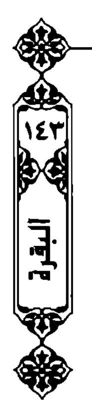
مثل كلمة (الميزان) الموضوعة لغاية عامّة ومفهوم كليّ وهو (الآلة التي يوزَن بها الشيءُ ويُعرَف مِقداره)[١]، وأنّ استخدام وتطبيق مفهومها على المصاديق السابقة والحالية هو تطبيق حقيقيّ إذ إنّ المُراد من وَضع الألفاظ ليس المصداق أو خصوصيّاته ولهذا فإنّ مفهوم (الميزان) يتضمّن مصاديق معنوية وغيبية بالإضافة إلى مصاديقه الماديّة المتعدّدة، كما يُشار مثلاً إلى القرآن وعترة النبيّ ﷺ بالميزان فإنّ استخدام هذه الكلمة في المصاديق الغيبيّة والطوليّة له يكون بنحو حقيقيّ لا مجازيّ. وهذا ينطبق كذلك على كلمة (**القَلَم**) الذي يُمثّل امتداداً للفيض الإلهيّ وبه يُكتَب ما يُكتَب على اللّوح المحفوظ، حيث تُستَخدَم هذه الكلمة أيضاً على المصاديق العَرضيّة والطوليّة، فاليَراع وأنواع القَلم الأخرى هي مصاديق طبيعية للقلم نفسه حيث يكون بعضها ضعيفاً فيما يكون البعض الآخر قويّاً ومتيناً، ولمصاديق القلم الطوليّة مراتب عديدة. ومَثَلُ كلّ موجود مجرّد يكون سبباً للفيض على موجود مجرّد آخر هو مَثل القلم ومَثل الموجود الآخر الذي يتلقّى الفيض كمَثل اللّوح الذي يُكتَب عليه. وقد أطلِقَت كلمة (القلم) في بعض الروايات (**أوّلَ ما خلقَ اللهُ القَلمَ**)[٢] على (العقل الأوّل) أو على (روح رسول الله ﷺ المباركة) وما شابه ذلك باعتباره سبب الفيض، فهذا الاستخدام ـ كما ترى ـ ليس استخداماً مجازياً أبداً.

ومن مصاديق (العرش) و(الكُرسيّ) في عالم الطبيعة هي الأسِرّة المرتفعة والمنخفضة، ومصداق ذلك في عالَم المثال هو السرير المثاليّ، ثمّ السرير العقليّ في

---

١ . **المنجد في اللغة**، مادة (وزن). [المترجم]

٢ . «عن ابن أبي عُمير عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أوّلَ ما خلقَ اللهُ القَلمَ فقالَ لـه: أُكتُبْ! فكتبَ ما كانَ وَمَا هُو كائِنٌ إلى يَومِ القِيامَة». (**تفسير القمي**، ج٢، ص١٩٨؛ **بحار الأنوار**، ج٥٤، ص٣٦٦).



عالَم العقل، كما أنّ الأشياء في كلّ نشأة تمتلك وجوداً يتناسب مع تلك النشأة، وليس الأمر كما يدّعي البعض من أنّه إذا لم يكن العرش يمتلك جُرماً وجسماً وحجماً وقاعدة وظلًّا فإنّه لا يُسمّى عرشاً، وذلك لأنّ المصداق الماديّ والطبيعيّ للعرش والكُرسيّ له طبيعة خاصّة كما أنّ لمصداقَيْهما المثاليّيْن والعقليّيْن طبيعة أخرى تختلف عن الأولى، وإذا شمل أيّ واحدٍ منهما جميع المصاديق فإنّ المفهوم الكليّ له هو «مقام التدبير والرّبوبية».

حفظ السموات والأرض

تقع مسؤولية حفظ السموات والأرض على (**الكُرسيّ**) الذي يمثّل مظهر حفظ الله سبحانه، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ومجيء يوم القيامة الكُبرى، وبعد أن تصبح الأرض في قبضة الله ﷻ وتُطوى السموات جميعها: **﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾**[1]، عندها تنتهي مهمّة (الكُرسيّ) ويُعفى من المسؤولية التي أُنيطت به، وما من حديث يشير إلى خَلق الكُرسيّ من جديد في يوم القيامة بل يدور الحديث حول (**العَرش**) كما في قوله تعالى: **﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾**[2]. وهكذا يتّضح لنا أنّ كلًّا من (العَرش) و(الكُرسيّ) هما في الحقيقة موجودان رغم أنّ الأوّل محيط بالثاني وتأثيره أكبر من التأثير الذي يمتلكه الكُرسي، وهذا يعني أنّ (العَرش) مُسيطر على الدنيا والآخرة وعالم المادّة وعالَم الغيب على حدّ سواء وهو المتنفّذ على ذلك كلّه فيما يقتصر تدبير (الكُرسيّ) ونفوذه على النشأة الحالية فقط.

ومن المحتمل أن يكون ضميرُ المفعول في كلمة **﴿وَلَا يَئُودُهُ﴾** عائداً إلى (الكُرسيّ) لكنّ الاحتمال الأقوى هو أنّ الضمير المذكور مُتعلّق بالله ﷻ بدليل

---

١ . سورة الزّمر، الآية ٦٧.

٢ . سورة الحاقّة، الآية ١٧.

نسبة الضمائر المفردة التي سبقته إلى الله سبحانه كذلك فضلاً عن وجود ضرورة تحتّم الإبقاء على وحدة السّياق على ما هي عليه. بالإضافة إلى هذا فإنّ مسؤولية الحفاظ والمحافظة على السموات والأرض تقع بيَد الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾[1] وأمّا إسناد تلك المسؤولية إلى (الكُرسيّ) فهو لكونه مظهر الله في المحافظة.

إنّ الحفاظ على نظام السموات والأرض وإدارة شؤون كلّ واحدةٍ منهما ليسا أمرين صعبين أو عسيرين على الله سبحانه وتعالى بالمرّة لأنّ كلّ ذلك المذكور من الحفاظ والإدارة إنّما يكون بعِلمه ووفقاً لتدبيره وهذا يدخل ضمن إطار مقولة المجرّدات، والمحافظة العلمية تختلف عن العمل أو الفعل الماديّ وهي [أي المحافظة العلمية] ليست مسألة مُتعبة كما هي الحال مع العمل الماديّ. والعمل بشكل عامّ ينقسم إلى ثلاثة أنواع: ١) إمّا أن يكون العملُ بتحريك الأعضاء والاستعانة بها وهو عمل مُرهِق؛ ٢) أو يكون العمل بواسطة أعضاء أو وسائل التفكير وتشغيل الدّماغ وهو كذلك عمل مُتعِب كسابقه؛ ٣) أو أن يكون العمل من غير حركة ومن دون الاستعانة بالوسائل الخاصّة للقيام به، وهذا ما يُدعى بالفعل أو النشاط العِلميّ وهو يختلف تماماً عن النشاط الماديّ أو الفكريّ، وبالتالي فهو عمل ليس فيه أيّ عناء أو تَعب، كأن تقوم روح الشخص بحفظ كلّ ما تتقنه أو تعرفه من المعلومات دون أن تشعر بالتّعب لكون العِلم هو شيئاً مجرّداً والموجود المُجرّد ليس له ثِقل أو وزن؛ وأمّا ما يُوصَف به القرآن الكريم أحياناً أو يُعَبَّر عنه بأنّه (ثَقيل) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[2] فإنّ المقصود بذلك هو ثقله من حيث المضمون والمادّة العِلمية وليس ثقله من الناحية الماديّة أو الوزن.

---

١ . سورة فاطر، الآية ٤١.

٢ . سورة المزمّل، الآية ٥.

إنّ حالات مثل التفكير والدراسة والمطالعة وما شابه ذلك من شأنها أن تُرهق الإنسان لاستعانتها بأعضاء الجسم واستخدامها لتلك الأعضاء للقيام بالعمليّات أو النشاطات الفكرية، إلّا أنّ حفظ النتاج الفكريّ أو خزن المعلومات في الذاكرة حتى وإن امتدّ ذلك لسنوات عديدة، لا يمكنه أن يُتعب الرّوح، تماماً مثل تعليم الله سبحانه سيّدنا آدم عليه السلام الأسماء كلّها ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[1] دون أن يشعر أبونا آدم عليه السلام بأيّ شيء من التّعب أو المَلل.

ولا شكّ في أنّ نوع المحافظة التي يقوم بها الله عزّ وجلّ بشأن السموات والأرض وأفعاله تعالى الأخرى هو النوع الثالث من العمل وهو ما يوضّحه مولانا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بقوله: «**فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ والْآلَةِ**»[2].

والشاهد الآخر على كون الله سبحانه مُنزّه عن مثل هذا النّقص هو آخر الآية موضوع الّتي هي البحث حيث يقول عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ الذي يشير إلى أنّ الله سبحانه أعظم من أن يشعر بالتّعب أو يحسّ باللّغوب، وما علوّ الله تعالى وعظمته إلّا لكونه حَيّاً وقيّوماً كما ورد في صدر الآية نفسها.

أقسام العلوّ

إنّ دخول (أل) التعريف على الخَبر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ يُفيد الحَصر، بمعنى أنّه تعالى هو العليّ المَحض والعظيم البَحت وأنّ كلّ ما سواه من الموجودات داخل تحت مظلّة عُلوّه ورازح تحت خيمة عظمته، لأنّ العلوّ قد يكون نسبياً في بعض الأحيان كأفضلية السّماء مقارنة بالأرض ورجحان مقام الملائكة المدبّرين للأمر بالقياس إلى الملائكة الآخرين ممّن يعملون تحت إمرتهم،

---

١ . سورة البقرة، الآية ٣١.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة رقم ١.



وقد يكون [العلوّ] نفسياً في أحيان أخرى وهذا محصور بالله سبحانه وحده كقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

ووفقاً لنوع آخر من التقسيم، فقد يكون العلوّ علوّاً مكانيّاً، فالله تعالى منزّه عن العلوّ المكاني لوجوده سبحانه قبل وجود المكان بل هو خالق المكان: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ إذاً، فهو ﷻ ليس بحاجة إلى المكان إطلاقاً وهو منزّه عن الفوقيّة والعلوية المكانيّتين، وهو كذلك ليس بحادث أو قديم من الناحية الزمانية لأنّه هو الذي خَلق الزّمان: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[1]، ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾[2]، ﴿وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[3]، وهكذا فإنّ ما لا يُقيّده الزمان ليس حادثاً زمانياً ولا قديماً زمانياً.

واستناداً إلى هذا التنزيه للذات الإلهيّة المقدّسة من الفوقيّة المكانيّة يمكننا تفسير نظر الإنسان إلى الأعلى في حال دعائه بأنّه أمر تعبّدي وتمثيل لمعنى حقيقيّ بالصورة الحسيّة والدليل على هذا أنّنا قد نرفع أيدينا إلى الأعلى عندما ندعو الله سبحانه وفي أحيان أخرى نمارس الدّعاء ونحن في حال التشهّد والسجود ووجوهنا إلى الأرض. وتشير تلك الحالات كلّها أثناء الدّعاء والتضرّع إلى الله ﷻ إلى عدم اختصاص جهة من الجهات بالله سبحانه دون أخرى، بل الحقيقة هي أنّنا أمام وجه الله تعالى أينما اتّجهنا أو ولّينا وجوهنا: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[4].

---

١ . سورة الأنبياء عليهم السلام، الآية ٣٣.

٢ . سورة الحجّ، الآية ٦١.

٣ . سورة المزمّل، الآية ٢٠.

٤ . سورة البقرة، الآية ١١٥.

مراتب العلوّ المكانيّ ودرجاته

١. *التصوّر الابتدائي (أو الأوّلي)*: وفي هذا التصوّر من معرفة الله سبحانه تكون الذات الإلهيّة متّصفة بالعلوّ والعظمة النسبيّتيْن مقارنة مع جميع الموجودات والمخلوقات لاشتراك الآخرين كذلك في هذه الصّفة أو النسبة رغم أنّه ما من شكّ في أنّ العلوّ والعظمة هما من حقّ الله تعالى وحده: **﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾**.

٢. *التصوّر الوسطيّ (أو المتوسّط)*: وتشترك الموجودات في هذه المرتبة كذلك إلّا أنّها جميعاً منضوية تحت لواء علوّه وعظمته سبحانه بشكل لا يمكن معه تصوّره، كالنجوم والكواكب التي تكون موجودة لكنّها تختفي وتأفل مع تلألؤ ضياء الشمس، كما في قوله تعالى: **﴿قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾**[1]. فعندما تظهر علامات السّاعة وتتجلّى أشراطها وتَتابع مُقدّماتها يتجلّى الله سبحانه بوصفه الواحد القهّار، ومع ظهور وحدته القهّارة تنبهر العقول وتدهش الوجوه بما تشهده: **﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾**[2].

٣. *التصوّر النهائيّ (أو الأخير)*: في هذه المرتبة يكون كلّ شيء عبارة عن ظهور الله تعالى ذاته وما سواه ليس إلّا آية من آياته حيث تشير الآية الشريفة التالية إلى هذه المرتبة: **﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾**[3].

فالسالك إلى الله سبحانه يرى في بداية طريقه الكمالَ في شيء ما ثمّ في وسط الطريق يراه في شيء آخر حتى إذا أصبح في آخر الطريق رأى الكمال في شيء

---

١ . سورة الرّعد، الآية ١٦.

٢ . سورة الزّمر، الآية ٦٨.

٣ . سورة القصص، الآية ٨٨.

مُختلف عمّا رآه من قبل تماماً. وإذا تمعّنّا في أدعية المعصومين عليهم السلام نرى أنّها تنقسم كذلك إلى ثلاثة أقسام أو مراتب، فبعضها يكون مناسباً للمؤمنين المبتدئين في أوّل الطريق وبعضها الآخر يتناسب مع الأشخاص من ذوي العقليّة المتوسطة وبعضها ثالثاً لا يُناسب إلّا الذين وصلوا إلى نهاية خط السّير والسلوك إلى الله؛ ومن أمثلة القسم الأخير من الأدعية ما قاله أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْحَيُّ وَأَنَا الْمَيِّتُ وَهَلْ يَرْحَمُ الْمَيِّتَ إِلَّا الْحَيُّ مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْبَاقِي وَأَنَا الْفَانِي وَهَلْ يَرْحَمُ الْفَانِيَ إِلَّا الْبَاقِي**»[1].

لاحظ أنّ قوله عليه السلام: «**أَنَا الْمَيِّتُ**» لا يعني أنّه سيموت ويَفنى في المستقبل فيكون المقصود هو الزّمان القادم، بل يريد عليه السلام أن يقول: إنّني مَيّت الآن وفانٍ كذلك أمّا أنتَ (جلّ جلالك) فحيّ وباقٍ.

نعم، فالموحّد الكامل لا يرى في وجوده نصيباً من الحياة والوجود المستقلّيْن إطلاقاً.

وبالعَود إلى الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث، نرى أنّ قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ يدلّ على اقتصار المُدّعى فضلاً عن دلالته على الاقتصار الحقيقيّ، أي الاقتصار الحقيقيّ لعظمة الكمال على الله تعالى وحده، وهذا يعني أنّ علوّ السماوات والأرض واتّساعها لا يساويان شيئاً مقابل عظمة الله عزّ وجلّ، وهكذا نلاحظ أنّ العبارة الشريفة المذكورة التي هي في مقام بيان تعليل مضمون الآية تحصر العلوّ والعظمة في الله تعالى دون غيره.

«الواو» في الآية الشريفة

يكمن السرّ في دخول «*الواو*» على الجزء الأخير من الآية الشريفة في قوله

---

١ . بحار الأنوار، ج٩٧، ص٤١٩، «مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام في مسجد الكوفة».

تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ دون الأجزاء الأخرى في الآية، يكمن في أنّ أجزاء الآية السابقة تقوم مقام الشّرح وعطف البيان[1] لهويّة الله المطلقة بينما دخلت (الواو) على القسم الأخير من الآية بهدف مُراعاة بعض النواحي الأدبية والبلاغية في مُجمل الكلام حيث جَرت العادة على إدخال حرف العطف (الواو) على آخر وَصف في الكلام المشتمل على العديد من الأوصاف المتابعة كإشارة إلى انتهاء الأوصاف في الكلام المذكور، كورود (الواو) مثلاً في الآيات الشريفة التالية: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[2] و﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3]، وهكذا فإنّ الواو في العبارة الشريفة ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ دخلت لبيان انتهاء الأسماء الحسنى فيها لكي لا يضطرّ المُخاطَب إلى الانتظار أو توقّع سماع وقراءة أسماء حُسنى أخرى.

إشارات ولطائف

١ . الأسماء الحسنى

الحقيقة هي أنّ الكلمات والعبارات التي وردت في الكتاب والسنّة لبيان الأسماء الإلهيّة لا تُمثّل الأسماء الحسنى بل أسماء الأسماء، وقد ذُكرت الكثير من

---

١ . تعريفه: هو التَّابعُ الجَامِدُ المُشبِه للصِّفَة في إيضَاحِ مَتْبُوعِهِ إن كان مَعْرِفَةً وتَخْصِيصِه إن كانَ نَكِرَةً بنَفْسِه، لا بمَعنىً في مَتبُوعه ولا في سَبَبِه، وبهَذا خَرَجَ النَّعتُ ولا يجبُ فيه أن يَكونَ أوضحَ مِن مَتْبُوعِهِ، بل يجوزُ أن يَكُونَ مَسَاوِياً أو أقلَّ والتَّوضِيحُ حِينَئِذٍ باجْتِمَاعِهِما. (**معجم القواعد العربية**، عبد الغني الدّقر، حرف العين). [المترجم]

٢ . **سورة الكهف**، الآية ٢٢.

٣ . **سورة الحشر**، الآية ٢٤.



الآثار الخاصّة بالأسماء الإلهية والمقصود منها هو الحقائق العينية من جهة ومظهر تلك الحقائق من جهة أخرى؛ بمعنى، أنّ المفهوم أو الكلمة بحدّ ذاتها ليس لها أيّ تأثير يمكن لأيّ شخص أن يحلّ مشكلة ما من خلال تلفّظ تلك الكلمة أو تصوّر ذلك المفهوم، كأن يُحيي به ميّتاً مثلاً أو يشفي مريضاً، وما يُقال حول تأثير أسماء الله أو اسمه الأعظم أو دعوة الله سبحانه بتلك الأسماء: ﴿وَلله الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[1] لا يُقصَد به دعوته بالعبادة اللفظية فقط، رغم وجود عنصر الثواب في ذلك أيضاً، لكنّ العبادة اللفظية لا توصِل الإنسان إلى الغاية أو الهدف المنشودَيْن.

وقد ورد في بعض الأحاديث كذلك أنّه مَن أحصى أسماء الله سبحانه فإنّه سيدخل الجنة: عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام قَالَ: «قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: إنّ لله عزّ وجلّ تِسْعَةً وَتسعينَ اسْماً مَنْ دَعَا اللهَ بِهَا اسْتُجِيبَ لَهُ وَمَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»[2].

وكما هو مُلاحَظ فإنّ المقصود في الحديث الشريف ليس إحصاء الأسماء على النّحو الرياضي أو الحسابيّ للأسماء في الأدعية التي تحتوي على أسماء الله سبحانه أو الكلمات أو الألفاظ الدالّة على ذات الله عزّ وجلّ، بل المقصود هو التخلّق بمضامين تلك الأسماء أو الأدعية، فإذا استطاع أحدنا أن يصبح مظهر اسم (العَليم) أو (القَدير) أو (الحَيّ) أو (البارئ) وما إلى ذلك فلا شكّ في أنّ دعاءه سيكون مؤثّراً وسيدخل الجنّة لا محالة.

وأمّا المُراد بـ(الأسماء) أو (النّظرة) في بعض الأدعية مثل: «وبأسمائِكَ التي مَلأت أركانَ كُلّ شَيء»[3]، أو «وَبِالنَّظْرَةِ الَّتِي نَظَرْتَ بِهَا إِلَى الْجِبَالِ فَتَشَامَخَتْ وَإِلَى

---

١ . سورة الأعراف، الآية ١٨٠.

٢ . الشيخ الصّدوق، كتاب التوحيد، ص١٩٥؛ بحار الأنوار، ج٤، ص١٨٧.

٣ . «دعاء كميل»، مصباح المتهجّد، ص٧٧٥.

الْأَرَضِينَ فَتَسَطَّحَتْ...»[١]، أو «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي يُمْشَى بِهِ عَلَى طَلَلِ الْمَاءِ كَمَا يُمْشَى بِهِ عَلَى جَدَدِ الْأَرْضِ»[٢] فهو ذات الله سبحانه بتعيّن خاصّ، أي ربّما كان الاسم هو اسم الذات مثل (العَليم) أو اسماً للفعل مثل (الشّافي)، فالعليم إسمٌ يشير إلى الذات بتعيّن خاصّ في مقام الذات و(الشافي) اسم يشير إلى الذات بتعيّن خاصّ في مقام الفعل وهو خارج عن الذات.

إلماعة: يعتقد البعض أنّ الفرق بين الاسم الأعظم وبين بقيّة الأسماء الحسنى هو أنّه إذا دُعِيَ الله سبحانه باسمه الأعظم فإنّ الدّاعي سينال مُراده ويُستَجاب له مهما كانت طِلبَتُه، وسواء أكانت تلك الطِّلبة في مصلحته أم لم تكن، وإذا دُعي سبحانه بسائر أسمائه الحسنى فإنّ الدّاعي سينال مُراده إذا كانت مصلحته فيه، وإلّا فإنّه سيُعَوَّض برفع درجته أو تكفير سيّئاته، ولذلك نرى أنّ الأنبياء عليهم السلام وهم المتأدّبون بآداب الله الخاصّة لم يدعوا الله ولم يطلبوا منه شيئاً باسمه الأعظم بل بأسمائه الحسنى؛ لكن، ينبغي أن يكون مثل هذا الكلام مشفوعاً بالشواهد الخالصة والاستدلالات الدّامغة أو البراهين العقلية أو الأدلّة النقلية الموثوقة.

٢. ثبوتية صفات الله عزّ وجلّ

اعتقد كلّ واحدٍ من العلّامة الحليّ في كتاب *(التجريد)* والشيخ الصّدوق في كتاب *(التوحيد)*[٣] أنّ الصفات الثبوتية هي صفات سلبية، أي إنّنا إذا استطعنا

---

١. بحار الأنوار، ج٩٩، ص٥٥؛ مفاتيح الجنان، الدعاء بعد زيارة الإمام الرّضا عليه السلام.

٢. «دعاء الطّواف»، تهذيب الأحكام، ج٥، ص١٠٤.

٣. «قال محمد بن علي مؤلف هذا الكتاب رحمه الله: إذا وصفنا الله تبارك وتعالى بصفات الذات فإنّما ننفي عنه بكلّ صفة منها ضدّها فمتى قُلنا إنّه (حَيّ) نَفينا عنه ضدّ الحياة وهو الموت ومتى قلنا إنّه (عَليم) نفينا عنه ضدّ العلم وهو الجهل ومتى قلنا إنّه (سَميع) نفينا عنه ضدّ السّمع وهو الصّمَم ومتى قلنا (بَصير) نفينا عنه ضدّ البَصر وهو العَمى ومتى قلنا (عَزيز) نفينا عنه ضدّ العزّة وهو ←



إثبات شيء ما لله سبحانه فإنّ معنى ذلك هو أنّنا قُمنا بسلب الضدّ والنقيض من الله تعالى في ذلك الشيء[1]. فعندما يُقال إنّ الله سبحانه (حَيّ) فهذا يعني أنّه ﷻ ليس بميّت وعندما يُقال إنّه (قادر) فهذا يعني أنّه ليس بعاجز وعندما يُقال إنّه (عالِم) فذلك يعني أنّه ليس بجاهل، وهكذا.

ونَسبت مجموعة أخرى من كبار العلماء الصفات السلبية إلى الصفات الثبوتية مدّعين أنّ ما يُسلَب من الله سبحانه إنّما هو العجز والنّقص، ومعنى سَلب النّقص هو سَلب العدم وسَلب السّلب وبالتالي ثبوت الكمال؛ وأنّه لمّا كان الله تعالى يُمثّل الوجود المحض والكمال الصّرف فإنّه مُنزّه من كلّ نَقص أو عجز.

وقد وردت مسألة إثبات الصفات في الروايات كأصل بينما اعتُبِر سَلب النّقص فرعاً، كما نُقِلَ عن الإمام الصّادق عليه السلام قوله: «**إِنَّ اللهَ عِلْمٌ لَا جَهْلَ فِيهِ حَيَاةٌ لَا مَوْتَ فِيهِ نُورٌ لَا ظُلْمَةَ فِيهِ**»[2] إذ لا وجود للموت في الحياة المحضة ولا وجود للظُلمة في النّور الصّرف الخالص[3].

الذلّة ومتى قلنا (حَكيم) نفينا عنه ضدّ الحكمة وهو الخطأ ومتى قلنا (غَنيّ) نفينا عنه ضدّ الغنى وهو الفَقر ومتى قلنا (عَدْل) نفينا عنه الجور والظلم ومتى قلنا (حَليم) نفينا عنه العَجلة ومتى قلنا (قادِر) نفينا عنه العجز، ولو لم نفعل ذلك أثبتنا معه أشياء لم تَزَل معه ومتى قلنا لم يَزل حيّاً عَليماً سَميعاً بَصيراً عَزيزاً حَكيماً غَنيّاً مَلِكاً حَليماً عَدْلاً كَريماً فلمّا جعلنا معنى كلّ صفة من هذه الصفات التي هي صفات ذاته نفي ضدّها أثبتنا أنّ الله لم يَزل واحداً لا شيء معه وليست الإرادة والمشية والرّضا والغضب وما يشبه ذلك من صفات الأفعال بمثابة صفات الذات لأنّه لا يجوز أن يُقال: لم يَزل الله مريداً شائياً كما يجوز أن يُقال لم يَزل الله قادراً عالماً». (الشيخ الصّدوق، كتاب **التوحيد**، ص١٤٨).

١ . حسن زاده آملي، **كشف المراد**، ص٢٨٧.

٢ . الشيخ الصّدوق، **التوحيد**، ص١٣٧.

٣ . لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع، راجع كتاب: **توحيد در قرآن**، ص٢٥٣.

٣. عينيّة الصّفات والذّات

اختلف الآراء حول الصفات الإلهية وما إذا كان الله سبحانه موصوفاً في مقام الذات أم لا، وإذا كان موصوفاً أتكون صفاته هي عين ذاته أم إنّها خارجة عن ذاته؟

فالأشاعرة مثلاً يعتبرون أنّ صفات الله سبحانه زائدة على ذاته المقدّسة[١] فيما رأى المعتزلة (وفقاً لبعض المؤرّخين)[٢] أنّ الله سبحانه منزّه عن كلّ صفة وأنّ

---

١. «(ذهبت الأشاعرة) ومن تأسى بهم (إلى أنّ له) تعالى (صفات) موجودة قديمة (زائدة على ذاته) فهو عالم بعلم قادر بقدرة مريد بإرادة وعلى هذا (القياس فهو سميع بسمع بصير ببصر حيّ بحياة) وذهبت الفلاسفة والشيعة إلى نَفيها (أي نفي الصفات الزائدة على الذات فقالوا هو عالم بالذات وقادر بالذات وكذا سائر الصفات) مع خلاف للشيعة في إطلاق الأسماء الحسنى عليه فمنهم من لم يطلق شيئاً منها عليه ومنهم من لم يجوّز خلوّه عنها». (القاضي الجرجاني، شرح المواقف، ج٨، ص٤٤ و ٤٥)؛ أنظر كذلك: شرح المقاصد، ج٤، ص٦٩ ـ ٧٠.

٢. قال الدكتور أحمد محمود صبحي: «إنّه مع جهلنا بحقيقة الذات الإلهية فإنّه يمكن أن نصفها بصفات دون أن يفيد ذلك التشبيه، ولفهم الموقف المعتزليّ في هذا الصّدد لا بدّ أن نضع في الاعتبار أنّ المعتزلة قد أرادوا الردّ على فكرة الأقانيم لدى النصارى، أنّ القول بأنّ الذات الإلهية جوهر يتقوّم بأقانيم، أي صفات هي الوجود والعلم والحياة، قد أدّى إلى الاعتقاد باستقلال الأقانيم عن الجوهر وإلى اعتبار الصفات أشخاصاً وإلى تجسّد الأقنوم الثاني ـ أقنوم العلم ـ في الابن. فلمواجهة هذا الاعتقاد نَفى المعتزلة وصف الله بأنّه جوهر واعتبروا الصفات هي الذات غير مغايرة لها، فصفات الله ليست حقائق مستقلّة وإنّما هي اعتبارات ذهنية، ويمكن أن تختلف وجوه الاعتبارات في النّظر إلى الشيء الواحد دون أن يلزم عن ذلك التعدّد في ذاته، فيمكن أن نصف الجوهر مثلاً بأنّه متميّز وقائم بذاته وقابل للعرض، كذلك الذات الإلهية واحدة وتتعدّد الصفات بتعدّد وجوه الاعتبارات، فيُقال (عالم) ونعني إثبات عِلم هو ذاته ونَفي الجهل عن ذاته، ويُقال (قادِر) ونعني إثبات ذاته ونَفي العجز (الشهرستاني، نهاية الأقدام في علم الكلام، نشرة جيوم، ص١٩٢ ـ ١٩٤). فالله حَيّ عالِم قادر بذاته لا بحياة وعلم وقدرة زائدة على ذاته، وهذا هو مقصود قولهم (صفات الله عين ذاته)». (علم الكلام، ج١، ص١٢٣ ـ ١٢٤).

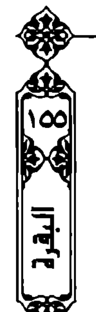
الأوصاف والأسماء المذكورة له تقوم مقام الموصوف؛ أي إنّه لا وجود للعلم والقدرة في الله سبحانه لكنّ أفعاله تصدر عن علم وقدرة.

ويعتقد متكلّمو الإمامية أنّ صفات الذات الإلهية المقدّسة هي عين ذاته وأنّ جميع تلك الصفات تكون في مصداق عين كلّ واحدة منها لكنّ اختلافها يكمن في المفهوم. يقول أبو الصّلاح الحلبيّ[1] ـ أحد أكبر المتكلّمين الإماميين ـ إنّ هذا النوع من الصّفات المنسوبة لله تعالى هي صفات نفسيّة وذاتية وإنّ الصفات الثبوتية هي عين الذات من حيث المصداق وهي غير الذات من حيث المفهوم[2].

---

١ . قال الشيخ عباس القمّي رحمه الله: الحلبيّ في عُرف الحديث يُطلقَ على جماعةٍ من آل أبي شُعبة الحلبيّ، وفي اصطلاح الفقهاء: الحلبيّ، هو الشيخ تقي بن النجم الحلبي، الشيخ الأقدم، الفاضل الفقيه، المحدّث الثقة الجليل، من كبار علمائنا الإماميّة. كان معاصراً للشيخ أبي جعفر الطوسيّ وقرأ عليه وعلى السيّد المرتضى علم الهدى، ويروي عنه ابنُ البرّاج. له: تقريب المعارف، والبداية، وشرح الذخيرة، وله: الكافي في الفقه، والبرهان على ثبوت الإيمان، وهذا الكتاب أورده الديلميّ بتمامه في (إعلام الدين بصفات المؤمنين). وعن إجازة الشهيد الثاني قال في حقّه: "الشيخ الفقيه السعيد، خليفة المرتضى في البلاد الحلبيّة". وُلِد أبو الصلاح الحلبيّ سنة (٣٧٤هـ/ ٩٨٤م) في حلب وتُوفّي بها سنة (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) في المحرّم بعد عودته من الحجّ في الرملة. [المترجم]

٢ . تقريب المعارف، ص٨٣. «مسألة: (في كون صفاته تعالى نفسية) وهذه الصفات نفسية لوجوبها له تعالى، وكون الصفة الواجبة نفسية بدليل استغناء ما وجب من الصفات للموصوف عن مؤثر، ووقوف الجائز منها على مقتض. وأيضا فقد علمنا أن من حق الصفة النفسية ألّا يعلم الموصوف إلا عليها، لكونها مقتضاة عن الذات، وصفات المعاني والفاعل بخلاف ذلك، لاستنادها إلى مؤثر مغاير للموصوف يصح أن يحصل وألّا يحصل، وإذا وجبت هذه القضية في صفات النفس، وكانت حاصلة فيما هو عليه سبحانه من الصفات التي أثبتناها ثبت أنها نفسية وليس لأحد أن يقول: ما أنكرتم ـ وإن كانت هذه الصفات واجبة له تعالى ولا يعلم إلا عليها ـ أن تكون لمعان قديمة، لأنّ ذلك يقتضي نقض صفات النفس ويمنع من تميزها من صفات المعاني والفاعل، وذلك محال، ولأنّ القول بقِدَم الصّفة أو حدوثها فرع لثبوتها، وقد بيّنا انسداد طريق إثبات صفاته تعالى لمعان جملة، فسقط الاعتراض». [المترجم]



ورُوي عن الإمام الجَواد عليه السلام قوله: «لَمْ يَزَلْ [الله سبحانه] عَالِماً وَسَامِعاً وَبَصِيراً»[1]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ ولَا نَعْتٌ مَوْجُودٌ ولَا وَقْتٌ مَعْدُودٌ ولَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ»[2].

٤. الله عزّ وجلّ حَيّ

قال صاحب تفسير (*المنار*) نقلاً عن بعض المتكلّمين إنّه توجد طريقتان لإثبات حياة الله سبحانه:

أ. أنّ الله سبحانه عَليم وقَدير، والعَليم والقَدير (حَيّ)، إذاً فإنّ الله تعالى حَيّ.

وفي معرض نَقده لهذا الكلام قال صاحب التفسير: «وَفِيهِ أَنَّهُ مِنْ قِيَاسِ الْغَائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ كَمَا يَقُولُونَ، أَوْ مِنْ قِيَاسِ الْوَاجِبِ عَلَى الْمُمْكِنِ».

لكنّ ما قاله صاحب (*المنار*) ليس صحيحاً لأنّ الكلام المستدلّ ليس قياساً للمصطلح الأصوليّ والتمثيل المنطقيّ حتى يُشكَل عليه بل هو قياس برهانيّ إذ لا يمكن للموجود ـ سواء أكان واجباً أم ممكناً وسواء أكان شاهداً أم غائباً ـ أن يمتلك العلم والقدرة بينما يكون محروماً من الحياة، إذاً، فأينما وُجِدت القدرة والعلم فإنّه لا بدّ من وجود الحياة كذلك وهذه كبرى كليّة.

ب. أنّ الحياة هي كمال وجوديّ يمكن ملاحظة وجوده في المخلوقات الممكنة، وبما أنّ الله سبحانه هو واجب الوجود ومصدر الممكنات فإنّه تعالى يتمتّع بحياة أرقى وأسمى[3].

---

١. «سُئِلَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام عَنِ الَّذِي لَا يُجْتَزَأُ بِدُونِ ذَلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ الْخَالِقِ فَقَالَ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَلَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ، لَمْ يَزَلْ عَالِماً سَمِيعاً بَصِيراً». (أصول الكافي، ج١، ص٨٦).

٢. نهج البلاغة، الخطبة رقم ١.

٣. محمد رشيد بن علي رضا، تفسير المنار، ج٣، ص٢٤.



إنّ اتّصاف البارئ الواجب الوجود ﷻ بالحياة لا يصاحبه أيّ نقص لأنّ معنى الحياة ليس مرهوناً بالمادّة أو الماهية لتكون منشأ النّقص والمحدوديّة، إذاً، فإنّ الله سبحانه هو الكمال المطلق وهو أرقى وأعلى درجات الحياة من حيث البساطة المحضة.

ومن خلال استعراضه للطريقة الثانية، قدّم الشيخ محمّد رشيد رضا (صاحب تفسير *المنار*) نبذة ممّا قاله أستاذه حول صفات واجب الوجود مُعتبراً تفسير أستاذه تحقيقاً دقيقاً ليس له مثيل[1]، في حين أنّ فلاسفة الحكمة المتعالية

---

١ . قال الشيخ محمد رشيد رضا: «وَهَذَا مَا قَدَّمَهُ الْأُسْتَاذُ الإِمَامُ فِي (رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ)، وَقَدْ قَدَّمَ لَهُ بِمُقَدِّمَةٍ نَفِيسَةٍ فِي صِفَاتِ الْوَاجِبِ. قَالَ ﵀: "مَعْنَى الْوُجُودِ وَإِنْ كَانَ بَدِيهِيًّا عِنْدَ الْعَقْلِ وَلَكِنَّهُ يُتَمَثَّلُ لَهُ بِالظُّهُورِ ثُمَّ الثَّبَاتِ وَالِاسْتِقْرَارِ، وَكَمَالُ الْوُجُودِ وَقُوَّتُهُ بِكَمَالِ هَذَا الْمَعْنَى وَقُوَّتِهِ بِالْبَدَاهَةِ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ الْوُجُودِ تَسْتَتْبِعُ بِالضَّرُورَةِ مِنَ الصِّفَاتِ الْوُجُودِيَّةِ مَا هُوَ كَمَالٌ لِتِلْكَ الْمَرْتَبَةِ فِي الْمَعْنَى السَّابِقِ ذِكْرُهُ. وَإِلَّا كَانَ الْوُجُودُ لِمَرْتَبَةٍ سِوَاهَا، وَقَدْ فُرِضَ لَهَا مَا يَتَجَلَّى لِلنَّفْسِ مِنْ مِثْلِ الْوُجُودِ مَا لَا يَنْحَصِرُ، وَأَكْمَلُ مِثَالٍ فِي أَيَّةِ مَرْتَبَةٍ مَا كَانَ مَقْرُونًا بِالنِّظَامِ وَالْكَوْنِ عَلَى وَجْهٍ لَيْسَ فِيهِ خَلَلٌ وَلَا تَشْوِيشٌ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ النِّظَامُ بِحَيْثُ يَسْتَتْبِعُ وُجُودًا مُسْتَمِرًّا وَإِنْ كَانَ فِي النَّوْعِ كَانَ أَدَلَّ عَلَى كَمَالِ الْمَعْنَى الْوُجُودِيِّ فِي صَاحِبِ الْمِثَالِ. فَإِنْ تَجَلَّتْ لِلنَّفْسِ مَرْتَبَةٌ مِنْ مَرَاتِبِ الْوُجُودِ عَلَى أَنْ تَكُونَ مَصْدَرًا لِكُلِّ نِظَامٍ كَانَ ذَلِكَ عُنْوَانًا عَلَى أَنَّهَا أَكْمَلُ الْمَرَاتِبِ وَأَعْلَاهَا وَأَرْفَعُهَا وَأَقْوَاهَا. وُجُودُ الْوَاجِبِ هُوَ مَصْدَرُ كُلِّ وُجُودٍ مُمْكِنٍ ـ كَمَا قُلْنَا وَظَهَرَ بِالْبُرْهَانِ الْقَاطِعِ ـ فَهُوَ بِحُكْمِ ذَلِكَ أَقْوَى الْوُجُودَاتِ وَأَعْلَاهَا، فَهُوَ يَسْتَتْبِعُ مِنَ الصِّفَاتِ الْوُجُودِيَّةِ مَا يُلَائِمُ تِلْكَ الْمَرْتَبَةَ الْعَلِيَّةَ، وَكُلُّ مَا تَصَوَّرَهُ الْعَقْلُ كَمَالًا فِي الْوُجُودِ مِنْ حَيْثُ مَا يُحِيطُ بِهِ مِنْ مَعْنَى الثَّبَاتِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالظُّهُورِ وَأَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَجَبَ أَنْ يَثْبُتَ لَهُ، وَكَوْنُهُ مَصْدَرًا لِلنِّظَامِ وَتَصْرِيفِ الْأَعْمَالِ عَلَى وَجْهٍ لَا اضْطِرَابَ فِيهِ ـ يُعَدُّ مِنْ كَمَالِ الْوُجُودِ كَمَا ذَكَرْنَا، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ ثَابِتًا لَهُ؛ فَالْوُجُودُ الْوَاجِبُ يَسْتَتْبِعُ مِنَ الصِّفَاتِ الْوُجُودِيَّةِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ. فَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ صِفَةُ الْحَيَاةِ وَهِيَ صِفَةٌ تَسْتَتْبِعُ الْعِلْمَ وَالْإِرَادَةَ وَذَلِكَ أَنَّ الْحَيَاةَ مِمَّا يُعْتَبَرُ كَمَالًا لِلْوُجُودِ بَدَاهَةً؛ فَإِنَّ الْحَيَاةَ مَعَ مَا يَتْبَعُهَا مَصْدَرُ النِّظَامِ وَنَامُوسُ الْحِكْمَةِ، وَهِيَ فِي أَيِّ مَرَاتِبِهَا مَبْدَأُ الظُّهُورِ وَالِاسْتِقْرَارِ فِي تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ، فَهِيَ كَمَالٌ وَجُودِيٌّ وَيُمْكِنُ أَنْ يَتَّصِفَ بِهَا الْوَاجِبُ، وَكُلُّ كَمَالٍ ←

كانوا قد تعرّضوا للبرهان المذكور وشرحوه بتفاصيل أدقّ وذلك قبل قرون من تأليف تفسير *(المنار)*.

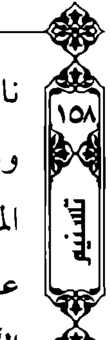
تذكير: نستنبط ممّا ذكرنا أنّ عنوان أو صفة الحياة ثابتة لله تعالى الواجب الوجود وثابتة كذلك لمخلوقاته الممكنة، وكلّ كمال يثبت للواجب والممكن على حدّ سواء فإنّ ذلك الكمال يكون منزّهاً عن كلّ نقص ومطهّراً من كلّ عيب. إذاً، فعنوان (الحياة) وصفة (الحَيّ) مصونان من أيّ نقص في إطار التحليل المفهوميّ مثلهما في ذلك مَثل عنوان (العِلم). قد يكون بعض تلك الأوصاف الكمالية المشتركة مصحوباً بالنّقص أو ممزوجاً بالعيب في جملة من المصاديق أو الحالات كحالة الإمكان، إلّا أنّ تلك المصاحبة نابعة عن خصوصيّات المصداق وليست ناجمة عن المفهوم مثل مفهوم الوجود، ولذلك فإنّ وصف (الحَيّ) المنسوب إلى الله سبحانه ليس مسبوقاً بالموت ولا هو ملحوق به في إطاره المفهوميّ، وهو كذلك ليس مسبوقاً بالسِّنَة التي تُعتبر مقدّمة للنوم ولا ملحوقاً بأيّ أثرٍ من آثارها، كما أنّه لا يؤخَذ بأيّ خصوصيّةٍ من خصوصيّات تناهيه أو عَدمه ضمن إطار المفهوم، وعليه، فإنّه يمكن حَمله على الحَيّ غير المحدود وعلى الحيّ المتناهي سواء بسواء.

٥. التوكّل على (الحَيّ الذي لا يَموت)

من المعلوم أنّ الإنسان مُعَرَّض من ناحية إلى حالات كالنّعاس والنّوم ومن

←

وَجُودِيٌّ يُمْكِنُ أَنْ يَتَّصِفَ بِهِ وَجَبَ أَنْ يَثْبُتَ لَهُ، فَوَاجِبُ الْوُجُودِ حَيٌّ وَإِنْ بَايَنَتْ حَيَاتُهُ الْمُمْكِنَاتِ، فَإِنَّ مَا هُوَ كَمَالٌ لِلْوُجُودِ إِنَّمَا هُوَ مَبْدَأُ الْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ، وَلَوْ لَمْ تَثْبُتْ لَهُ هَذِهِ الصِّفَةُ لَكَانَ فِي الْمُمْكِنَاتِ مَا هُوَ أَكْمَلُ مِنْهُ وُجُودًا. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ أَعْلَى الْوُجُودَاتِ وَأَكْمَلُهَا فِيهِ. وَالْوَاجِبُ: هُوَ وَاهِبُ الْوُجُودِ وَمَا يَتْبَعُهُ، فَكَيْفَ لَوْ كَانَ فَاقِدًا لِلْحَيَاةِ يُعْطِيهَا؟ فَالْحَيَاةُ لَهُ، كَمَا أَنَّهُ مَصْدَرُهَا". انتهى.» (المصدر السابق، ص٢٥ ـ ٢٦).

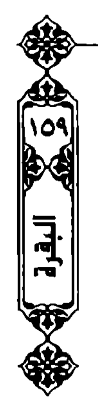


ناحية أخرى فهو موجود قابل للتهالك والفساد والانحلال ثـمّ الفنـاء، ولهـذا، ومن أجل الحفاظ على حياتـه فإنّـه بحاجـة ماسّـة إلى وكيـل وقَـيّم يعمـل عـلى المحافظة عليه وحمايته خلال الليل والنّهار وأثناء نعاسه ونومه حيث يكون بعيداً عن عالَم الواقع وفي سبات لا تُعلَم عُقباه: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَـارِ مِـنَ الرَّحْمَنِ﴾[1]؛ لكن تلك ليست كلّ المسألة، فالإنـسان لا يـستغني عـن مثـل ذلـك الوكيل والقيّم حتى وهو صاحٍ، إلّا أنّ أكثر الناس يظنّـون أنّهـم هـم الحـافظون لأنفسهم خلال النّهار وأنّهم قادرون على حماية أرواحهم وممتلكاتهم بشكل أكبر ممّا لو كانوا في الليل، لكنّ هؤلاء غافلون عن أنّ الله سبحانه قد وضـع عـلى كـلّ واحدٍ منهم رقيباً وحارساً ومحافظاً: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[2].

إنّ الله ﷻ يحفظ الإنسان في صَحوه كما يحفظه ويحميه خلال نومـه وسـباته، وهو الذي يُقلّبه ذات اليمين وذات الشّمال وهو الذي يدفع عنه الحشرات المؤذية ويُنقذه من براثن الأحلام المزعجة والكوابيس المخيفة، لكن مـا مِـن أحـد قـادر على إنقاذه ممّا يريده الله له إلّا الله وحده لا شريك له. إذاً، من أجـل الإبقـاء عـلى حياته سالمة محفوظة، لا مفرّ أمام الإنسان سوى اتّخاذ إله يكـون وكيلـه وحافظـه ليلاً ونهاراً، إله لا تأخذه سِنَة ولا نَوم، ولا يعتريه النّعاس ولا التّعب ولا الموت: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[3]، وأن يقوم بتلاوة وتكرار هذا الدّعاء قبل الذّهاب إلى النوم: «أُعِيذُ نَفْسِي وَدِينِي وَأَهْلِي وَمَالِي وَوُلْدِي وَخَوَاتِيمَ عَمَـلِي وَمَـا رَزَقَنِي رَبِّي وَخَوَّلَنِي بِعِزَّةِ الله»[4].

---

١. سورة الأنبياء ﷺ، الآية ٤٢.
٢. سورة الطّارق، الآية ٤.
٣. سورة الفرقان، الآية ٥٨.
٤. الشيخ الصّدوق، كتاب الخصال، ص٦٣١؛ بحار الأنوار، ج٧٣، ص١٩١.



٦. الحياة والفطرة الثابتة

كلّ عاقل ومُنصف يعلم أنّ مسألة توحيد الله ﷻ ليست منفصلة إطلاقاً عن فطرة الإنسان كما أنّه لا يمكن عزل الفطرة عن التوحيد بأيّ شكل من الأشكال؛ إذاً، فحتى المُشرك المتعصّب هو في الحقيقة مُوَحِّد بالفطرة وليس ما نشهده عليه أو نراه منه من شِرك أو تعصّب إلّا غباراً غطّى فطرته الأولى وسببه سوء ظنّه ومعاصيه وذنوبه. إنّ للسيّئات والأفعال القبيحة تأثيراً على القلوب لا يقلّ عن تأثير الرَّيْن[1] وصدأ الحديد، لكنّ ذلك لا يُبدّل الفطرة بل يُغطيها فقط: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2]، فالله سبحانه لا يُغيّر فطرة أحد من الناس أبداً وما مِن أحد كذلك قادر على تغييرها بالمرّة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾[3] ولم تُوصَف خلقة الإنسان بأنّها (أحسن تقويم): ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[4] إلّا بسبب ثبات الفطرة الإلهيّة فيه، فالمُراد من كلمة (التقويم) هو امتلاك الناس جميعاً للفطرة الإلهيّة وأنّهم في أحسن تقويم بسببها وليس لقُبح هذا الشخص أو جمال صورة ذلك الشخص، فالقبيح والوسيم سواء في الأمر.

ومهما بلغ تعصّب المشركين وتعنّتهم وعنادهم من مبلغ فإنّ نور فطرتهم لا ينطفئ إطلاقاً رغم أنّ الفطرة قد تتحوّل إلى موجود ضعيف وواهن إذا تغلّبت عليها طبيعة الفَرد لا سيّما إذا تعرّض صاحب الفطرة إلى حادث خطير وأزمات

---

١. «الرَّيْن: الطّبع والدّنَس... ورجلٌ مَرين عليه: أُحيطَ به». (**المنجد في اللغة**، مادّة «ران»). [المترجم]

٢. سورة المطفّفين، الآية ١٤.

٣. سورة الرّوم، الآية ٣٠.

٤. سورة التّين، الآية ٤.

متتابعة وشعرَ معها بضعف الآلهة التي كان يعبدها، فما أسرع نسيانه لها وهَجره إيّاها ولجوئه إلى مَن لا يُجيب المُضطرّ غيره: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾[1]، وهناك تتفتّح فطرته كالزّهرة اليانعة فتهمس في أُذنيه ليدعو الله مُخلصاً له الدّين لا رئاء النّاس: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[2]؛ لكن، يا أسفاً على الإيمان الخالص لهؤلاء المشركين الذي ذاب مع شروق أوّل شعاع لشمس الحقيقة، فعند وصولهم إلى بَرّ الأمان وشاطئ الخلاص، وعندما يُرفَع عنهم الخطر وتزول عنهم المصائب إذا هم يُسارعون إلى طَمْر فطرتهم بأدران الشّرك وغبار الكُفر من جديد.

ولا شكّ في أنّ وجود الفطرة يلعب دوراً رئيسيّاً في تفسير خلود الإنسان في جهنّم وبقائه وأبديّته، إلى جانب كونها دليلاً مهمّاً في إثبات التوحيد.

حتى في الآخرة إنّ فطرة المُفسدين والمجرمين تبقى ثابتة لا تتغيّر رغم أنّها قد تتلبّس بصور جديدة وهيئات مختلفة، جميلة أو قبيحة، بسبب القوى النّفسانية والخِصال الاكتسابية، لانتماء الإنسان إلى النّوع المتوسّط وليس النّوع الأخير، وهو قادر على تغطية الأنواع الأخرى كذلك. فالشخص الذي تحوّل إلى عقرب جَرّارَة[3] بسبب تسميم أفكاره بالعقائد الخلقية والاجتماعية الفاسدة ما زال يختلف عن العقارب والحيّات في كونه عَظاءة ناطقة في حين أنّ العِظائيات الأخرى تفتقد إلى القدرة على النّطق أو الكلام، ولا رَيب في أنّ هذا الإنسان العَقرب هو أشدّ وأفتك من العقارب الحقيقية. وعندما تحافظ الفطرة والحقيقة على إنسانيّتها ولكنّها تتّخذان صورة الحيوان فلا شكّ في أنّ هذا الأمر غريب

---

١ . سورة الإسراء، الآية ٦٧.

٢ . سورة العنكبوت، الآية ٦٥.

٣ . «عقرب صَفْرَاءُ على شكل التِّبْنَةِ، سميت جَرَّارَةً لِجَرّها ذَنَبَها، وهي من أَخبث العقارب وأَقتلها لمن تَلْدَغُه». (لسان العرب). [المترجم]

ورهيب جدّاً، ولمّا كان مقدار العذاب متناسباً مع المُكتسبات النفسانية فإنّ الفطرة الإنسانية تعاني هي الأخرى من العذاب والحرمان، ولو كان بالإمكان تغيير فطرة المجرمين لَما عانوا بسبب حشرهم بالأوصاف والأشكال الحيوانية.

تذكير: كنّا قد أشرنا في بحوثنا السابقة ضمن تفسير الآيات الخاصّة بالعذاب الجسمانيّ والروحانيّ، الظاهريّ والباطنيّ، أشرنا إلى بعض أقسام العذاب وأنواعه، وأمّا ما ورد في السطور القليلة الماضية فيتعلّق بالعذاب النفسيّ الذي يُعانيه المُفسدون الذين يُحشرون بصور الحيوانات، وقلنا إنّه لو حُشر هؤلاء بالفعل كحيوانات لا كمخلوقات بَشرية فإنّهم سيصبحون كالحيوانات الحقيقية التي لا تشعر بأيّ ألم أو عذاب لأنّهم حينئذ لم يعودوا يحتفظون بفطرتهم الإنسانية ولا بمَسخهم المَلكوتيّ؛ مع احتفاظ عملية احتراق الجسد وتبديل الجلود بالعذاب الخاصّ بها.

٧. القَيّم الظاهريّ والقَيّم الباطنيّ

إنّ الله سبحانه وتعالى هو القيّم المُطلق وهو الذي يمتلك القيّوميّة التكوينية والتشريعية الخاصّة بالإنسان ولهذا قد عيّن ﷻ عليه قيّماً ظاهريّاً وباطنياً. فالفطرة الإلهية تُمثّل القيّم الباطنيّ (الداخليّ) فيما يُعتبر الدّين ـ الذي يُعدّ بمثابة شرح لتلك الفطرة ـ قيّماً ظاهرياً، وقد أشارت الآية الشريفة: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾**[1] إلى كلا القيّمَيْن معاً.

هذا، ولا يعتري (فطرة القيّم) أيّ اعوجاج أو انحراف لأنّ الموجود الأعوج لا يستحقّ تقويماً آخر تماماً كما نتصرّف مع النبات الذي اعوجّ ساقه عندما نعمد

---

١ . سورة الرّوم، الآيات من ٣٠ إلى ٣٢.



إلى ربطه بعصا أو ما شابه ذلك لإبقائه في حالة مستقيمة غير معوجّة. إذاً، يمكن للإنسان في أيّة لحظة أن يتحوّل إلى شخص عديم الذّوق وغير محترم وأخرق، لكن رغم كلّ ذلك ستبقى فطرته سليمة غير ملوّثة: **﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾**[1] ولن تتغيّر أبداً: **﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾**[2].

وهكذا هو دين الله سبحانه فهو قيّم ومستقيم: **﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا﴾**[3]؛ **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ﴾**[4].

وتذكّرنا هذه الآيات الكريمة بالحديث الشريف الوارد في كتاب (*أصول الكافي*) عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «**يَا هِشَامُ! إِنَّ للهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ حُجَّةً ظَاهِرَةً وَحُجَّةً بَاطِنَةً**»[5].

تذكير: قال الرّاغب الأصفهانيّ في كتابه (*مفردات ألفاظ القرآن*): «وقوله: دِيناً قِيَماً، أي ثابتاً مُقَوِّماً لأمورِ مَعاشِهم ومَعادِهم»[6] وورد في قاموس (*لسان العرب*) قوله: «قَيِّمُ المرأةِ: زوجها»[7].

وأمّا الطّريحيّ وبعد إشارته إلى أنّ القيّمَ على الشيء هو المستوليّ عليه، قال: «ومنه (أنت قَيِّم السّماوات والأرضِ وَمَن فيهنّ) أي الذي تقوم بحفظها

---

١ . سورة السّجدة، الآية ٧.

٢ . سورة الرّوم، الآيات من ٣٠ إلى ٣٢.

٣ . سورة الكهف، الآيتان ١ و ٢.

٤ . سورة الرّوم، الآية ٤٣.

٥ . الكُلينيّ، **أصول الكافي**، ج١، ص١٦. وتتمّة الحديث المذكور هي: «فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَئِمَّةُ عليهم السلام وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ».

٦ . الرّاغب الأصفهانيّ، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٦٩١، مادّة (ق و م).

٧ . ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٢، ص٥٠٢، مادّة (ق و م).



ومراعاتها وحفظ من أحاطت به واشتملت عليه، تؤتى كلّ شيء ما به قوامه وتقوم على كلّ شيء بما تَراه من تدبيره من خلقك»[١]، وهكذا نلاحظ أنّ المعنى اللغويّ لكلمة (قيّم) ينسجم تماماً مع معناه التفسيريّ.

٨. «تَوَفّى» و«بَعَثَ»

تتحوّل الرّوح عند الإنسان أثناء نومه إلى ما يُشبه حياة النّبات ولذلك نرى تواصل واستمرار العمليات النباتية داخل الإنسان مثل هضم الطعام والتنفّس وهما من ضمن العمليات التي يؤدّيها الجسد والتي تمثّل المراتب السطحية للروح؛ وأمّا المراتب الروحية العُليا فهي مشغولة في مكانها بالسياحة والسّفر فإمّا أن يكون ما تراه الرّوح هو (أضغاث أحلام) أو أنّها (رؤيا صالحة وصادقة).

ويَصف القرآن الكريم حالة النّوم بالوفاة أو الفعل (توفّى) مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾[٢]، وكما أنّ الله سبحانه قادر على أن يتوفّى روح الإنسان أثناء نومه فإنّه ﷻ يقبض روحه كلّ ليلة وهو نائم ثمّ يُعيدها إليه عند استيقاظه خلال النّهار، ولهذا فإنّ هناك دعاءَيْن أحدهما خاصّ بفترة ما قبل النّوم وهو أن يُقال: «اللَّهُمَّ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فِي مَنَامِي فَاغْفِرْ لَهَا»[٣] وثانيهما

---

١ . **مجمع البحرين**، ج٣، ص٥٧١، مادّة (ق و م).

٢ . **سورة الأنعام**، الآية ٦٠.

٣ . الشيخ الصّدوق، **علل الشرايع**، المجلد ١ ـ ٢، ج٢، ص٣١٤؛ **بحار الأنوار**، ج٧٣، ص١٩٤. «مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ فِي (الْعِلَلِ) عَنْ أَبِيهِ عَنْ سَعْدٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَاشِمٍ عَنِ النَّوْفَلِيِّ عَنِ السَّكُونِيِّ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ: "إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَمْسَحْهُ بِطَرَفِ إِزَارِهِ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا حَدَثَ عَلَيْهِ ثُمَّ لْيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فِي مَنَامِي فَاغْفِرْ لَهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ"». (**وسائل الشيعة**، ج٥، ص٣٤١). [المترجم]



عند الاستيقاظ وهو القول: «الْحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيَانِي بَعْدَ مَا أَمَاتَنِي وَإِلَيْهِ النُّشُور»[1].

وبالاستناد إلى الآية الشريفة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2] يتّضح لنا أنّ الإنسان النّائم هو شخص مُتَوَفّى موقّتاً أو في حالة وفاة موقّتة والله ﷻ يعلم ما جرحه كلّ شخص وما اكتسبه خلال النّهار وما إذا كانت روحه التي يقبضها سبحانه في الليل عَطِرة أم نَتِنة. وما استيقاظ ذلك الشخص في الغد سوى صورة حيّة للبَعث والمعاد، وعليه، فما مِن نائم أو راقد يصحو ويقوم ثانية من تلقاء نفسه بل إنّ الصّحو هو هيأة وشكل خاصّ من الوجود الذي يلزمه المبدأ، والموجود الذي يكون وجوده عين ذاته لا يمكنه أن يكون منقطعاً عن الله سبحانه.

وهكذا نرى تعاقب النّوم والصّحو والرّقاد والاستيقاظ على المرء حتى يحين موعد أجله ووقت وفاته، وبعد موته فإنّ الله قادر على إحيائه كرّة أخرى ومساءلته عمّا فعل وارتكب بعد أن يُقدّم إليه كتابه الذي سُطّر فيه كلّ شيء فعله أو قاله في دنياه.

---

١ . **أصول الكافي**، ج٢، ص٥٣٩؛ **بحار الأنوار**، ج٧٣، ص٢٠٤. «عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ: اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَحْيَا وَبِاسْمِكَ أَمُوتُ. فَإِذَا قَامَ مِنْ نَوْمِهِ قَالَ: الْحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيَانِي بَعْدَ مَا أَمَاتَنِي وَإِلَيْهِ النُّشُورُ. وَقَالَ: قَالَ: أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: مَنْ قَرَأَ عِنْدَ مَنَامِهِ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَالْآيَةَ الَّتِي فِي آلِ عِمْرَانَ (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ) وَآيَةَ السُّخْرَةِ وَآيَةَ السَّجْدَةِ وُكِّلَ بِهِ شَيْطَانَانِ يَحْفَظَانِهِ مِنْ مَرَدَةِ الشَّيَاطِينِ شَاءُوا أَوْ أَبَوْا وَمَعَهُمَا مِنَ الله ثَلَاثُونَ مَلَكاً يَحْمَدُونَ اللهَ ﷻ وَيُسَبِّحُونَهُ وَيُهَلِّلُونَهُ وَيُكَبِّرُونَهُ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَبِهَ ذَلِكَ الْعَبْدُ مِنْ نَوْمِهِ وَثَوَابُ ذَلِكَ لَهُ». [المترجم]

٢ . **سورة الأنعام**، الآية ٦٠.

ومن خلال الإشارة إلى حالتَيْ النّوم واليقظة المحدودتيْن، يبيّن لنا القرآن الكريم أنّ الله ﷻ عالمٌ بما كنّا نقترفه في النّهار ولا يعزب عنه أيّ شيء أبداً: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ وحول مسألتَيْ البَعث والمعاد يقول تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إلماعة: إذا افترضنا وجود النّوم والرّقاد يوم القيامة فإنّ ذلك يعني عدم شعور أهل العذاب بالألم وعدم حصول أهل الثواب والمغفرة على ما وُعِدوا من مكافأة وثواب، ولهذا فلا وجود للنّوم يومئذ كما أنّه لا وجود كذلك للموت [الذي يُريح الكافر من العذاب ويحرم المؤمن من الجائزة والثواب][1].

ولا ريب في أنّ القيامة هي حالة من الصّحو مقارنة بالبرزخ: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾[2] ومن خلال مقارنة البرزخ بالدّنيا فإنّ الأوّل يُمثّل حالة الصّحو أيضاً: «النّاسُ نِيّامٌ فإذا مَاتوا انْتَبهوا»[3].

٩. قدرة الله اللامتناهية

إنّ النسبة بين الله ﷻ وبين أيّ شيء هي نسبة متساوية لأنّ وجوده سبحانه غير متناهٍ ولا معنى لافتراض الاختلاف في النسبة من حيث القُرب والبُعد في الشيء اللامتناهي. هذا من ناحية، أمّا من الناحية الأخرى فإنّ قدرة الله تعالى التي تُمثّل عين ذاته، لا متناهية كذلك وعليه فإنّ باستطاعته ﷻ أن يخلق ويدبّر أمور أيّ شيء بنَفس القدرة سواء أكان ثقيلاً أم خفيفاً، كبيراً أم صغيراً، وسواء أكان مخلوقه هو نظام الوجود بأكمله أم قشّة لا تَزِنُ شيئاً. وقد أشار القرآن

---

١. الزيادة بين المعقوفيْن من المترجم.

٢. **سورة يس**، الآية ٥٢.

٣. **مجموعة ورّام**، ج١، ص١٥٠؛ **بحار الأنوار**، ج٤، ص٤٣.



الكريم إلى سهولة أمر السّاعة والقيامة بالنسبة إلى الله سبحانه حيث يهتزّ ويرتجف لها المُلك والملكوت على حدّ سواء وعندها يُطوى بساط النظام الكونيّ بأكمله ليُعاد خَلقه وترتيبه من جديد: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[1]. ويؤكّد القرآن الكريم على أنّ سهولة ذلك كلّه على الله ﷻ لا تقلّ عن سهولة تغييره للظلّ وقبضه إليه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾[2].

وإذا كانت قدرة الله ﷻ اللامتناهية متساوية إزاء كلّ شيء وكان خَلقه وإيجاده لكلّ الأشياء يحدث بسهولة وبشكل متعادل ومتساوٍ، فإنّ تحقّق أيّ شيء يريده سبحانه أو تتعلّق إرادته بإيجاده سيكون نافذاً دون إبطاء، وأمّا الاختلاف القائم بين الأشياء فليس ذلك بسبب الفاعل (وهو الله تعالى) بل من جهة اختلاف القابليّات والأشياء نفسها، فمنها ما يتلقّى الفيض دون واسطة مثل أرواح الأنبياء والأولياء عليهم السلام ومنها ما يحصل على الفيض سريعاً كالمجرّدات العالية المقرّبة والسّابقة مقارنة بالموجودات المادّيّة العادية وغير العادية التي تقبع خلف الحُجُب المظلمة والتي لا تحظى بتلقّي الفيض إلّا في وقت متأخّر وعَبر الوسائط المفروضة.

إنّ جميع العلل الخاصّة والعادية التي تُعدّ وسائط تلقّي الموجودات المادية والعادية للفيض وكذلك الأسباب الخفيّة التي تلعب دوراً هامّاً في خلق الموجودات غير المادية أو الموجودات المادّيّة غير العادية (كالمعجزات)، كلّ تلك تُعتبر مظاهر على قدرة الله ﷻ. وكذلك الحال مع التأثير والتأثّر الحاصليْن في عالَم الوجود، فهما لا يحدثان إلّا بأمر الله سبحانه وإذنه؛ ومعنى هذا أنّ إزالة الماء

١ . سورة ق، الآية ٤٤.

٢ . سورة الفرقان، الآيتان ٤٥ و ٤٦.



للعطش مثلاً أو مَنح النّار للحرارة والدّفء وإضاءة النور للمكان، كلّ ذلك لا يحدث إلّا بإذن إلهيّ وهذا بالضّبط ما ندعوه بالشفاعة التكوينية حيث يُمثّل كلّ سبب واسطة فيض لتحقّق مُسبّبه، وما مِن موجود يقدر على القيام بفعل ما إلّا إذا أذِنَ الله له بذلك، لكنّ ذلك لا يعني بالطّبع تدخّل الله سبحانه بشكل مباشر أو نَفيه لنظام العلّية والمعلوليّة ـ كما يظنّ الأشاعرة[١].

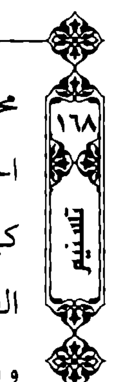
فإذن الله سبحانه لا يسلبه زمام الأمور بل هو من باب «مَن عَرَفَ نَفسَهُ فقَد عَرَف رَبّه»[٢]، ومَثل ذلك كمَثل الرّوح التي إن لم تأذن وتسمح لصاحبها فلن يكون باستطاعته أن يرى بعَينَيْه أو يسمع بأُذنَيْه، فإذا سمحت له بذلك لم تُسلَب هي ذلك الفعل بتاتاً ولن يخرج الأمر عن سيطرتها إطلاقاً بل ستبقى العينان والأُذنان تحت إمرة الرّوح وقيادتها، وهكذا هي الحال مع الإذن الإلهيّ إزاء الأمور.

تذكير: ينصّ نظام العليّة والمعلوليّة على أنّه إذا لم تكن عِليّة الشيء عين الذات الجامعة للماهية والهويّة بما فيها العليّة المفهوميّة والماهويّة والوجوديّة، فإنّها

---

١ . «البحث الثالث: اختلف القائلون في التعصّب أنّ الاسم بالمعتزلة أحقّ أم بالأشاعرة؟ فقالت المعتزلة: الاسم بكم أحقّ لأنّ النسبة تكون للإثبات لا للنفي، يُقال للدهريّ دهريّ لقوله بالدهر وإثباته، وللمباحيّ إباحيّ لإثباته الإباحة وللثنوية ثنوية لإثباتهم الإثنين وهما النور والظلمة، وأنتم تثبتون القدر. وقالت الأشاعرة: النصوص تدلّ على أنّ القدري من يَنفي قدرة الله تعالى ومشركو قريش ما كانوا قدرية إلّا لإثباتهم القدرة لغير الله. قالت المعتزلة: إنّما سُمِيَ المشركون قدرية لأنهم قالوا: إن كان الله قادراً على الحوادث كما تقول يا محمّد فلو شاء الله لهدانا ولو شاء لأطعم الفقير؛ فاعتقدوا أنّ من لوازم قدرة الله تعالى على الحوادث خلقه الهداية فيهم إن شاء وهذا مذهبكم أيها الأشاعرة». (راجع: فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، مج٤، ج٧، ص٦).

٢ . **بحار الأنوار**، ج٢، ص٣٢.



محتاجة في كيانها إلى الإفاضة الإلهيّة وفي هذه الحالة لن يكون هناك فرق بين الحدوث والبقاء، أي إنّ الممكن سيكون بحاجة إلى الفيض الإلهيّ في حالة البقاء كما في حالة الحدوث، وعليه، فإنّ تأثير أيّ موجود إمكانيّ وعليّته بحاجة إلى بقاء الفيض ودوامه فيما يتعلّق بلوازمه الذاتية، وإذ كان استمرار الفيض مانعاً للتعدّد والتجدّد فإنّه يمكننا القول بأنّه لن يكون محتاجاً إلى إذن جديد.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه عندما يُقال أحياناً إنّ ذاتيّات الأشياء غير محتاجة إلى العلّة فإنّ ما يقصده الحكماء بذلك هو أنّها ليست محتاجة إلى علّة أخرى ولولا ذلك لكان يلزم الذات ما يلزم ملزومها، أي إنّ أصل الذات سيكون محتاجاً إلى العلّة لكونه ممكناً.

بحث روائيّ

١. شأن النّزول

عن حمّاد عنه عليه السلام[1] قال: رأيته جالساً متورّكاً برِجْله على فَخِذِه، فقال [له رجل عنده: جُعِلتُ فِداك] هذه جِلْسة مَكروه؟ فقال: «**لا؛ إنّ اليَهودَ قالت إنّ الربّ لمّا فَرِغ من خَلق السّماواتِ والأرضِ جَلَس على الكُرسيّ هذه الجِلسة ليستَريح فأنزَلَ اللهُ: ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾...**»[2].

إشارة: تبيّن الآية الشريفة أرفع الأسماء الحسنى مثل: (**الحَيّ**) و(**القَيّوم**) و(**العَليّ**) و(**العَظيم**) وهي لم تنزل لمجرّد الردّ على عقيدة اليهود الباطلة فكلّ مَن يعرف الله سبحانه بهذه الأوصاف العالية والأسماء السامية لن يتوهّم جسمانيّته

---

١. أي عن الإمام الصّادق عليه السلام.

٢. تفسير العياشي، ج١، ص١٣٧.



أو جلوسه أو قعوده وما شابه ذلك إطلاقاً.

والظاهر أنّ معنى ذيل الرواية (لَمْ يَكُن مُتورّكاً كَما كان) بقرينة رواية أخرى عن الإمام نفسه عليه السلام هو: (بَقيَ مُتورّكاً كَما هو)، و(التورّك) هو الجلوس على الوَرْك الأيسر بحيث يقع ظاهر الرّجل اليُمنى على كَفّ الرّجل اليُسرى[1].

٢. آية الكُرسيّ في الرّوايات

أ. أفضل الآيات

عن مُحسن بن المثنى [الميثمي] عمّن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«قال أبو ذر: يا رسولَ الله [صلى الله عليه وآله] ما أفضلَ ما أُنْزِل عَليكَ؟ قال صلى الله عليه وآله: آية الكرسيّ...»**[2].

ب. سيّدة آي القرآن

عن عليّ عليه السلام قال: **«سَمعتُ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول: يا عليّ... وسَيّد الكلام القرآن وسيّد القرآن [سورة] البَقَرة وسيّد البَقرة آيَة الكُرسِيّ. يا عليّ! إنّ فِيها لَخَمْسينَ كَلِمَةً فِي كُلّ كَلِمَةٍ خَمْسونَ بَرَكَة»**[3].

---

١. «تورّكَ الرّجلُ تورُّكاً: اعتمدَ على وَركه، يُقال: نامَ متورّكاً، أي: متكئاً على أحد جَنبَيْه، وتورّكَ الصّبيَّ: جَعَلَهُ على وَركه معتمداً عليها،... وتورّكَ في الصّلاة: وضعَ الوَركَ على الرّجل اليمنى أو وضع أليتَيْه أو إحداهما على الأرض، وتَوَرّكَ الرّاكب على الدّابة، ثنى رجله لينزل أو ليستريح،... وتورّك بالمكان: أقامَ به، وتورّكَ على الأمر: قَدِرَ عليه». (**معجم النّفائس الكبير**، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد أبو حاقّة، مادّة «و ر ك»). [المترجم]

٢. **تفسير العياشي**، ج١، ص١٣٧.

٣. «عن عليّ عليه السلام قال: سَمعتُ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول: يا عليّ! سَيّد البشر آدم عليه السلام وسيّد العَرب محمّد صلى الله عليه وآله ولا فخر وسيّد الفُرْس سَلمان وسيّد الروم صُهَيْب وسيّد الحَبَشة بلال وسيّد الجبال الطور وسيّد الشّجر السّدر وسيّد الشّهور الأشهر الحُرُم وسيّد الأيّام يوم الجمعة وسَيّد الكلام القرآن وسيّد القرآن [سورة] البَقَرة وسيّد البَقرة آيَة الكُرسِيّ. يا عليّ! إنّ فِيها لَخَمْسينَ كَلِمَةً فِي كُلّ كَلِمَةٍ خَمْسونَ بَرَكَة». (**مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٢٦).



ج. أعظم الآيات

عن أبي أُمامة قال: قلتُ: يا رَسول الله! أَيَّما أُنْزِلَ عَليكَ أعْظَم؟ قال ﷺ: «﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ آيَة الكُرسِيّ»[1].

د. ذُروة القرآن

عن [الإمام] جعفر بن محمّد عليه السلام قال: «قالَت الجِنّ: إنّ لِكُلّ شيء ذُرْوة وَذُرْوة القُرآن آيَة الكُرسِيّ»[2].

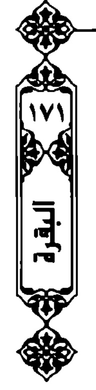
هـ. آية الكُرسيّ تَخِصّة الرّسول الأعظم ﷺ

عن صُدَيّ أبي أُمامة الباهليّ، أنّه سمع علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «... إنّ رَسولَ الله ﷺ أخبَرَني قال: أُعْطيتُ آيَةَ الكُرْسيّ مِن كَنْزِ تَحْتَ العَرْشِ وَلَمْ يُؤْتِها نَبيٌّ كانَ قَبْلي»[3].

إشارة: ١. إنّ كلّ موجود في عالَم الطبيعة مسبوق بنسخة طبق الأصل لوجوده غير الطبيعيّ في خزائن الغيب، أي إنّ عالَمَ الغيب كائن قبل عالَم الشّهادة، إلّا أنّ الغيب ذو مراتب طوليّة متعدّدة حيث يُستفاد من الآية الشريفة: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾[4] أنّ كلّ شيء يمتلك خزائن متعدّدة أقلّها خزائن إلهية متعدّدة؛ إذاً، فبعض تلك الخزائن الطوليّة يكون سابقاً بينما يُعتبر بعضه الآخر مسبوقاً. ويُلاحَظ في الحديث الشريف «أُعْطيتُ آيَةَ الكُرْسيّ مِن كَنْزِ تَحْتَ العَرْشِ»[5] إنّ الآيات القرآنية الأخرى نازلة من خزانة غير الخزانة التي نزلت منها آية الكُرسيّ حيث ورد في روايات أخرى أنّ رسول الله ﷺ قال:

---

١. السيوطيّ، تفسير الدر المنثور، ج٢، ص١٢.
٢. تفسير العياشي، ج١، ص١٣٦.
٣. الأمالي للطّوسي، ص٥٠٨ ـ ٥٠٩؛ تفسير البرهان، ج١، ص٥٤١.
٤. سورة الحجر، الآية ٢١.
٥. السيوطيّ، تفسير الدر المنثور، ج٢، ص١٤.



«أفْضَل القُرآن سُورة البَقَرَة وَأعظَم آيَة فِيه آيَة الكُرسِيّ»[١]، ولو كانت أُنزِلت آية غيرها من تحت العَرش لكانت تُعادل آية الكُرسيّ فضلاً ومنزلة. ولا يشير الحديث الشريف المذكور إلى وقوع الكُرسيّ تحت العَرش أو محاطاً به[٢]، ورغم ذلك يمكننا استنباط أفضلية العَرش على الكُرسيّ من شواهد أخرى غير تلك التي أشرنا إليها آنفاً.

٢. إنّ نزول آية الكُرسيّ إلى الرّسول الأعظم ﷺ خاصّة (كما يُفهَم من الرواية الخامسة) يشير إلى عظمة مضمونها وشمولية موضوعاتها واختصاص إفاضة مثل تلك المضامين الشريفة على أشرف الكائنات والكون الجامع والإنسان الكامل. وقد ورد في كُتب الأنبياء السابقين بيان الملكية والقدرة المطلقتَيْن والعلم الإلهيّ ولهذا فإنّ الهدف من نزول هذه الآية الشريفة ـ كما هو واضح ـ هو الاسم الأعظم وجملة: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

٣. وبالنّظر إلى مضمون هذه الرواية والحديث المعروف المرويّ عن النبيّ ﷺ حول العبارة الشريفة «لا إلهَ إلّا الله» يتأكّد لنا قولُه ﷺ: «مَا قُلْتُ

---

١ . المصدر السابق، ص٦.

٢ . «أقول: ورُوي هذا المعنى في الدرّ المنثور عن عبيد وابن أبي شيبة والدّارمي ومحمد بن نصر وابن الضريس عنه عليه السلام، ورواه أيضاً عن الدّيلمي عنه عليه السلام، والروايات من طرق الشيعة وأهل السنّة في فضلها كثيرة، وقوله عليه السلام: (إنّ رسول الله ﷺ قال: أعطيت آية الكرسي من كَنزِ تَحتَ العَرش)، رُوي في هذا المعنى أيضاً في الدرّ المنثور عن البخاري في تاريخه وابن الضريس عن أنس أنّ النبي ﷺ قال: "أعطيتُ آية الكُرسيّ من تَحت العرش"، فيه إشارة إلى كون الكرسي تحت العرش ومحاطاً له، وسيأتي الكلام في بيانه. وفي الكافي عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾، السماوات والأرض وَسعنَ الكرسيّ أو الكُرسي وَسِعَ السماوات والأرض؟ فقال عليه السلام: "إنّ كلّ شيء في الكُرسيّ"». (أنظر: العلّامة الطباطبائيّ، تفسير الميزان، ج٢، ص٣٣٨). [المترجم]

وَلَا قَالَ الْقَائِلُونَ قَبْلِي مِثْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[١] لاشتمال آية الكُرسيّ أيضاً على هذه العبارة الشريفة.

٣. ثواب قراءة آية الكرسيّ

رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ عَلَى أَعْوَادِ الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَقُولُ: مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا الْمَوْتُ، وَلَا يُوَاظِبُ عَلَيْهَا إِلَّا صِدِّيقٌ أَوْ عَابِدٌ، وَمَنْ قَرَأَهَا إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ آمَنَهُ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ وَجَارِهِ وَجَارِ جَارِهِ»[٢].

ـ عن عبد الله بن عمر قال: قال النّبي صلى الله عليه وآله: «مَن قَرَأَ آيَةَ الكُرسِيّ دُبُر كُلّ صَلاةٍ مَكتوبَة كانَ الّذي يَتَوَلّى قَبْض نَفْسه ذُو الجَلالِ والإكرام، وَكانَ كَمَن قاتَلَ مَعَ أَنْبياءِ الله حَتّى اسْتُشْهِد»[٣].

ـ رُوِيَ عَنْ أَبِي جَعفرٍ الباقِر عليه السلام أنّه قَالَ: «... مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مَرَّةً صَرَفَ اللهُ عَنْهُ أَلْفَ مَكْرُوهٍ مِنْ مَكَارِهِ الدُّنْيَا وَأَلْفَ مَكْرُوهٍ مِنْ مَكَارِهِ الْآخِرَةِ أَيْسَرُ مَكْرُوهِ الدُّنْيَا الْفَقْرُ وَأَيْسَرُ مَكْرُوهِ الْآخِرَةِ عَذَابُ الْقَبْرِ»[٤].

ـ عَنْ صُدَيّ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيّاً عليه السلام يَقُولُ: «مَا أَرَى رَجُلًا أَدْرَكَ عَقْلُهُ الْإِسْلَامَ وَوُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ يَبِيتُ لَيْلَةً سَوَادَهَا»، قُلْتُ: مَا سَوَادُهَا يَا أَبَا أُمَامَةَ؟ قَالَ: جَمِيعُهَا ـ حَتَّى يَقْرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ثُمَّ قَالَ: «فَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا هِيَ؟» أَوْ قَالَ: «مَا فِيهَا لَمَا تَرَكْتُمُوهَا عَلَى حَالٍ؛ إِنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله أَخْبَرَنِي قَالَ: أُعْطِيتُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ

---

١. الشيخ الصّدوق، كتاب التوحيد، ص١٨.

٢. تفسير مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٦٢٦.

٣. المصدر السابق، ص٦٢٥ ـ ٦٢٦.

٤. المصدر السابق، ص٦٢٦.

كَنْزِ تَحْتِ الْعَرْشِ وَلَمْ يُؤْتَهَا نَبِيٌّ كَانَ قَبْلِي». قَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: «فَمَا بِتُّ لَيْلَةً قَطُّ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله حَتَّى أَقْرَأَهُ»[1].

إشارة: ١. وفقاً للروايات المذكورة نقول إنّ مَن يُواظب على قراءة آية الكرسيّ فإنّ الله ذو الجلال والإكرام هو الذي سيقبض روحه وهو كمَن جاهد مع الأنبياء عليهم السلام واستُشهِد بين أيديهم.

من الطبيعيّ أنّ مَن ينال مثل الفضائل والكرامات هو الشخص الذي يكسب معرفة ما من خلال تلاوته للآية الشريفة المذكورة والتي ستقوده إلى الكمال المعنويّ فضلاً عن المحافظة عليه من السقوط في مستنقع الانحراف والفساد.

٢. وكما جاءَ مراراً وتكراراً في هذا الجزء من تفسير (تسنيم) إنّ القرآن الكريم هو حبل الله المَمدود وليس حبله المُلقى ولا شكّ في أنّ الفرق بين إنزال المطر وإنزال القرآن الكريم يكمن في كون الأوّل هو مصداق التّجافي بينما يُمثّل الثاني أنموذجاً للتجلّي؛ وهكذا يكون معنى الجملة: «إقرَأ وارقِ»[2] أنّه كلّما ارتقى قارئ القرآن بحبل الله المتين فإنّ درجته ورُتبته في الجنة صعوداً ستكون بمقدار تلك القراءة. إنّ جَلال آية الكُرسيّ يُمثّل الحَبل المتين الممدود من الله عزّ وجلّ وهو ما تبيّنه الآية الشريفة بشكل رائع وصادق: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[3].

---

١. **الأمالي للشيخ الطّوسي**، ص٥٠٨ ـ ٥٠٩؛ **تفسير البرهان**، ج١، ص٥٤١.

٢. **بحار الأنوار**، ج٨٩، ص١٨٨؛ **الأمالي** للشيخ الصّدوق، ص٢٩٤. «عَنْ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ لِرَجُلٍ: أَتُحِبُّ الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ: لِقِرَاءَةِ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ. فَسَكَتَ عَنْهُ ثُمَّ قَالَ لِي بَعْدَ سَاعَةٍ: يَا حَفْصُ! مَنْ مَاتَ مِنْ أَوْلِيَائِنَا وَشِيعَتِنَا وَلَمْ يُحْسِنِ الْقُرْآنَ عُلِّمَ فِي قَبْرِهِ لِيَرْفَعَ اللهُ فِيهِ دَرَجَتَهُ فَإِنَّ دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ عَلَى قَدْرِ عَدَدِ آيَاتِ الْقُرْآنِ فَيُقَالُ لِقَارِئِ الْقُرْآنِ: إِقْرَأْ وَارْقَ».

٣. سورة الزّخرف، الآية ٤.



٣. وفقاً للرواية الرابعة نقول إنّ آية الكُرسيّ هي آية واحدة وأمّا ضمّ الآيتيْن اللتيْن تأتيان بعدها إليها كما ورد في بعض الأحكام الشرعية مثل صلاة ليلة دَفن الميّت فبسبب فضيلة تلكما الآيتيْن لكنّهما ليستا جزئين من آية الكُرسيّ. وعليه، فإنّ الفضائل المذكورة لآية الكُرسيّ في العديد من الروايات هي هذه الآية الّتي هي موضوع البحث لا غيرها.

٤. آل البيت عليهم السلام مأذونون في الشّفاعة

عَن مُعاوية بن عَمّار عَن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلتُ: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ قال عليه السلام: «**نَحنُ أُولئِكَ الشّافِعُون**»[1].

إشارة: من الواضح أنّ الرواية المذكورة هي من باب الجَري والتطبيق وذكر المصداق والشاهد والدّليل على تفسير الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث، ومعنى الحديث هو أنّ آل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله مأذونون بالشّفاعة، لكن بإذن الله.

وجدير بالذّكر أنّ آل البيت المعصومين الأطهار عليهم السلام مشمولون بالقاعدة القرآنية الجامعة: ﴿**لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾[2] مَثلهم في ذلك مَثل الملائكة عليهم السلام، فتلك الذّوات القدسيّة التي كانت تتبع أوامر الله سبحانه في هذه الدّنيا فيما يتعلّق بالأعمال الفقهية والحقوقية والأخلاقيّة مأذونة كذلك وبأمر من الله تعالى في الشّفاعة يوم القيامة لِمَن ارتُضِيَ دينه: ﴿**وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾[3] حيث لا يكون بمقدور أحد الشفاعة دون إذنٍ تكوينيّ من الله عزّ وجلّ، ولا ريب في أنّ شفاعتهم عليهم السلام مقبولة ودعوتهم غير مردودة.

---

١. **تفسير العياشي**، ج١، ص١٣٦؛ **بحار الأنوار**، ج٨، ص٤١.

٢. **سورة الأنبياء** عليهم السلام، الآية ٢٧؛ أنظر كذلك: الزيارة الجامعة الكبيرة التي أوّلها: «اَلسَّلامُ عَلَيْكُمْ يا اَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَمَوْضِعَ الرِّسالَةِ».

٣. **سورة المائدة**، الآية ٣.

٥. الكُرسيّ ومرتبته

عَنْ حَفْصٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عزّ وجلّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قَالَ: «عِلْمُهُ»[1].

ـ عن حَنّان بن سَدير قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن العَرش والكرسيّ فقال عليه السلام: «... ثُمّ العَرشُ في الوَصل مُتفرّد مِن الكُرسيّ لأنّهما بابان مِن أكبرِ أبوابِ الغُيوبِ وهُما جَميعاً غَيْبان وهُما في الغَيْب مَقرونانِ لأنّ الكُرسيّ هُو البابُ الظّاهِرُ مِنَ الغَيْبِ الّذي مِنهُ مَطلع البِدع ومِنهُ الأشياءُ كُلّها»[2].

ـ عن المفضل بن عمر قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن العَرش والكرسيّ، ما هُما؟ فقال عليه السلام: «العَرشُ في وَجْه هُو جُملَة الخَلق والكُرسيّ وِعاؤُه، وفي وَجه آخِر العَرش هُو العِلمُ الذي اطلعَ اللهُ عَليه أنْبياءَهُ ورُسُلَه وحُججه، والكرسيّ هُو العِلم الذي لَم يُطلع اللهُ عَليه أحَداً مِن أنْبيائِه وَرَسوله وحُججه عليهم السلام»[3].

ـ عَن الصّادق عليه السلام: «كُلّ شَيءٍ خَلَقَهُ اللهُ تعالى في جَوْف الكُرسيّ ما خَلا عَرشه فَإنّهُ أعْظمُ مِن أن يُحيطَ بِه الكرسيّ»[4].

ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قالَ أبو ذَر: يا رسول الله! ...: ... قال (رسول الله صلى الله عليه وآله): ...! مَا السّموات السّبع والأرَضون السّبع في الكُرسيّ إلّا كَحَلَقَة مُلْقاة (في فَلاةٍ) بِأرض بَلاقع[5]»[6].

---

١. الشيخ الصّدوق، معاني الأخبار، ص٣٠؛ بحار الأنوار، ج٤، ص٨٩.

٢. الشيخ الصّدوق، كتاب التوحيد، ص٣٢١ ـ ٣٢٢؛ بحار الأنوار، ج٥٥، ص٣٠.

٣. الشيخ الصّدوق، معاني الأخبار، ص٢٩؛ بحار الأنوار، ج٥٥، ص٢٨ ـ ٢٩.

٤. الطبرسيّ، الاحتجاج، ج٢، ص٣٥٢؛ بحار الأنوار، ج١٠، ص١٨٨.

٥. «البَلْقَعُ والبَلْقَعة: الأرض القَفْر التي لا شَيءَ بِها والأرضُ التي لا شَجَر بِها تكونُ في الرّمل وفي القِيعان. يُقال: مَنزلٌ بَلْقع ودارٌ بَلْقع... وأرضٌ بَلاقِعُ: جَمعوا لِأنّهم جَعلوا كُلّ جُزءٍ مِنها بَلْقَعاً». (لسان العرب، مادّة «بلقع»). [المترجم]

٦. تفسير العياشي، ج١، ص١٣٧.

إشارة: إنّ كلّاً من الكُرسيّ والعَرش ـ الذي يحيط به ـ واللـذين يـشيران إلى العلم الفعليّ والتدبير الإلهيّيْن هما حادثـان ذاتيّـان ومخلوقـان إمكانيّـان يحملهـما الملائكة، والله سبحانه غنيّ عنهما وهو ربّهـما وخـالقهما وقـد كـان ﷻ موجـوداً بالذات قبل خلقهما وإيجادهما وهو باقٍ كذلك بعـد زوالهـما. ولـسنا نقـصد مـن قولنا (قبل) و(بَعد) من حيث المكان والزّمان بل لا بدّ من انتهاء سلسلة المبـادئ الفاعليّة إلى الفاعل بالذات المتمثّل بـ(**هو الأوّل**) ولا بدّ أيضاً من انتهاء سلـسلة المبادئ الغائية إلى الغاية بالذات الموصوف بـ(**هو الآخِر**)، ويمكننا على أيّة حـال فَهم بعض جوانب هـذا الموضـوع مـن كـلام أمـير المـؤمنين عليه السلام حيـث قـال: «**وَالْحَمْدُ للهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أَوْ عَـرْشٌ أَوْ سَـمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ أَوْ جَـانٌّ أَوْ إِنْسٌ**»[١].

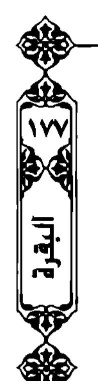
ويتّضح لنا ممّا مضى أنّ حَمل عنـوان (الكـرسيّ) مـن قِبـل الـبعض عـلى أنّـه (*الفَلـك المحـيط بـالأفلاك*) بحجّـة الروايـة المـذكورة «**مَـا الـسّموات الـسّبع والأَرضون السّبع في الكُرسيّ إلّا كَحَلَقَة مُلْقاة (في فَلاةٍ) بِأرض بَلاقع**»[٢] هو حَمـل خاطئ وهذا يُعادل تشبيه المدارات الرياضية للنجوم بالأجرام الطبيعية أو القول بجسمانية الفلك وإخراج الموضوع من إطاره الرياضيّ إلى الإطار الطبيعيّ وإلّا لَما تمّ تصوير الأوضاع الرياضـية للأفـلاك التـي لا تمثّـل سـوى مـدارات بـصورة أجسام طبيعية ولَما طُرحت حولها خاصيّة الامتناع عن الخَرق والالتيام.

تذكير: لا ينبغي لنا تصوّر إحاطة الكُـرسيّ بالـسّموات الـسّبع والأرضـين السّبع على أنّها إحاطة طبيعية أو ماديّة حتى لا يؤدّي بنا ذلك إلى اعتبار الكُـرسيّ جسماً ماديّاً أو الاعتقاد بوجود كُرسيّ معنويّ وآخر ماديّ.

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٨٢.

٢ . معاني الأخبار، ص٣٣٣؛ مفردات غريب القرآن، ص٧٠٦، مادّة (ك ر س).



٦. أولى الأسماء الحُسنى

عن محمّد بن سنان، قال: سألتُ أبا الحسن الرّضا عليه السلام: هل كانَ الله عارفاً بنفسه قبل أن يَخلق الخَلق؟ قال: «نعم». قلتُ: يريها ويَسمعها؟ قال: **«ما كانَ مُحتاجاً إلى ذلك لأنّه لَم يَكن يَسألها وَلا يَطلب مِنها؛ هُوَ نَفسه، ونَفسه هُو، قُدرَتهُ نافذة، فَليسَ يَحتاج إلى أن يُسمّي نَفسه، ولكنّه اختارَ لِنَفسهِ أسماءً لِغَيرِهِ يَدعُوه بها، لأنّه إذا لم يُدعَ باسمه لَم يُعرَف، فأوّلُ ما اختارَه لِنَفسه ﴿العَلِي العَظيم﴾ لأنّه أعلى الأشياءَ كلّها، فَمَعناه اللهُ، واسمُه العليّ العَظيم هُو أوّل أسمائه لأنّه عَليٌّ عَلى كُلِّ شيء»**[1].

إشارة: لم يكن الله سبحانه يحتاج إلى أنْ يُسمّي نَفسه ومع ذلك فقد اختار لنَفسه بعض الأسماء ليدعوه بها خَلقه لأنّه ـ كما قال الإمام عليه السلام ـ لو لَم يكن له اسم لَمَا عرفته مخلوقاته.

٧. نَفي زيادة الصّفات على الذات

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: **«وكَمالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ وشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ»**[2].

إشارة: معنى كلام أمير المؤمنين عليه السلام هو عدم إضافة أو زيادة الصفات على الذات لأنّ من شأن الصّفة أن تجعل لله سبحانه قريناً.

ونستنتج من كلام أمير المؤمنين عليه السلام وجود شاهديْن عَدلَيْن يشهدان على تميّز الصّفة عن الذات: أوّلهما، شهادة الموصوف على أنّه مُغاير للصّفة، وثانيهما

---

١. **عيون أخبار الرّضا** عليه السلام، ج١، ص١٢٩.

٢. **نهج البلاغة**، الخطبة رقم ١.



هو شهادة الصّفة نفسها بأنّها غير الموصوف، إذاً، ولتجنّب حالة الاقتران بين الذات والصّفات أو تعدّد أيّ واحدٍ منهما، ينبغي أن تكون الصّفة عين الذات في المصداق رغم اختلافهما عن بعضهما في المفهوم. وفي هذه الحالة، نلاحظ أنّ الموصوف يشهد من جهته على عدم وجود أيّ مغايرة، وكذلك الصّفة، أي عندما تُضاف الصفة إلى الموصوف يظهر لنا شاهدان يؤكّدان على وجود المغايرة، وفي حالة العينيّة يبرز لنا شاهدان كذلك ولكن هذه المرّة يشهدان على عدم وجود أيّة مغايرة.

* * *

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾

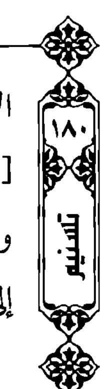
خلاصة التفسير

يجب على كلّ مُكلّف شرعاً أن يعتنق دين الله تعالى، لكنّ النظام التشريعيّ في الإسلام لم يضع قانوناً يُجبَر بموجبه الفرد على اعتناق الدّين تماماً كبطلان مسألة التفويض في النظام التكوينيّ للعالَم.

ويكمن السرّ في حريّة اختيار الدين الذي يريده أيّ شخص وعدم إجباره على ذلك في وضوح الحقّ وشفّافيّته وتميّزه عن الباطل بشكل جَليّ، ولا شكّ في أنّ إجبار شخص ما على قبول مسألة واضحة لا لَبس فيها ولا غموض إنّما هو أمر غير منطقيّ ولا ضرورة له إطلاقاً، ناهيك عن أنّ إجبار الشخص على قبول أمر من أعماق قلبه والرّضا به قد لا يؤثّر في ذلك الشخص بتاتاً.

إنّ الكُفر بالطّاغوت والإيمان بالله الواحد هو بالضّبط ما نسمّيه الالتزام العمليّ في مسألة التوحيد، ويُراد بتقديم عبارة الكُفر بالطاغوت على الإيمان بالله إزالة الغبار والصّدأ عن الفطرة الإنسانية ليتلألأ بعدها الإيمان كالجوهرة الثمينة؛ إذاً فالكُفر بالطاغوت ليس أصلاً ـ كما هو واضح ـ ليكون الإيمان بالله فرعاً له.

ويُعتبر الكُفر بالطاغوت مسؤولية تقع على عاتق كلّ مسلم ينتمي إلى الأمّة



الإسلامية تجب مراعاتها في الشؤون الاجتماعية والفردية على حدّ سواء، وهو [أي الكُفر بالطاغوت والإيمان بالله] كذلك يُشبه الإمساك بعُروة الدّين الثابتة والقويّة لمنع ماسِكها من الانزلاق في وادي المشاكل المادية والمعنوية والوصول به إلى مرافئ السعادة الدنيويّة والأُخروية؛ إذاً فالدّين هو درع للإنسان والله سميع عليم.

التفسير

المفردات

تَبَيَّنَ: من (البَيان)، والمعنى الحقيقيّ فيها هو الانكشاف والوضوح بعد الإبهام والإجمال، بواسطة التفريق والفَصل[1]، وكلّ كلام فُصِلَ فيه بين المبادئ التصوّرية والتصديقية وبين الهدف وبين النتيجة، وبالتالي بين الحقّ والباطل والمقصود وغير المقصود، فإنّ الكلام المذكور يُعتبر مصداقاً للبيان. ومن المفسّرين من قال بأنّ الفعل (تبيّنَ) الوارد في الآية الشريفة في أعلى الصفحة يتضمّن معنى الفصل والتميز ولهذا أصبح متعدّياً بحرف الجَرّ ﴿مِن﴾[2].

لرُّشْدُ: الأصل الواحد في هذه المادّة هو الاهتداء إلى الخير والصّلاح، فالهداية ضدّ الضّلالة كما أنّ الرُّشد ضدّ الغَيّ وهو الانهماك في الفساد [والمبالغة فيه][3].

وأمّا الرّاغب الأصفهانيّ فقال: «رشد: الرَّشد والرُّشد خلاف الغَيّ، يُستعمل استعمال الهداية، يُقال: رَشد يرشُد، ورَشد يرشَد، قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ وقال: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ

---

١ . العلّامة المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١، ص٣٤٧ـ٣٤٨، مادّة (ب ي ن).

٢ . أنظر مثلاً: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج٢، ص٥٠٢.

٣ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٤، ص١٤٠، مادّة (ر ش د).

رُشْدًا﴾[١] و﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[٢] وبين الرُّشْدَيْن، أعني الرُّشد المؤنِس من اليَتيم والرُّشد الذي أُوتيَ إبراهيم عليه السلام بَوْنٌ بَعيد»[٣].

الْغَيِّ: هو الهداية إلى شَرّ وفَساد[٤]، وفي تفسير الموسوم بـ(*الميزان*) قال العلّامة الطباطبائيّ إنّ (الغَيّ) يختلف عن (الضلالة) وإنّ الأوّل معناه الانحراف عن الطريق مع نسيان الهدف فيما تعني الضلالة الانحراف عن الطريق مع وضع المقصد بعين الاعتبار، ولهذا فإنّ الضلالة هي نسيان الطريق والغَيّ هو نسيان الطريق والهدف معاً[٥]. وعلى الرّغم من وضوح البحث النهائيّ بشأن الفرق بين الغواية والضلالة في الآية الشريفة ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾[٦] حيث تمّ الجمع بين العنوانيْن المذكوريْن، إلّا أنّه لا بأس من الإشارة ولو بإيجاز إلى ما قاله اللّغويّ المعروف الرّاغب الأصفهانيّ فهو يُعرّف (الغَيّ) بالجهل مع العقيدة الفاسدة و(الضلالة) بالانحراف عن جادّة الصواب وأنّها ضدّ الهداية،

---

١ . **سورة النساء**، الآية ٦.

٢ . **سورة الأنبياء** عليهم السلام، الآية ٥١.

٣ . **مفردات غريب القرآن**، ص٣٥٤ ـ ٣٥٥، مادّة (ر ش د).

٤ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٧، ص٢٨٧، مادّة (غ و ى).

٥ . «الغَي الإكراه وهو الإجبار والحَمل على الفعل من غير رضى، والرُّشد بالضمّ والضّمتيْن: إصابة وجه الأمر ومحجّة الطريق ويقابله الغيّ، فهما أعمّ من الهدى والضلال، فإنّهما إصابة الطريق الموصل وعدمها على ما قيل. والظاهر أنّ استعمال الرّشد في إصابة محجّة الطريق من باب الانطباق على المصداق، فإنّ إصابة وجه الأمر من سالِك الطريق أن يركب المحجّة وسواء السبيل، فلزومه الطريق من مصاديق إصابة وجه الأمر، فالحقّ أنّ معنى الرّشد والهدى مَعنيان مختلفان ينطبق أحدهما بعناية خاصة على مصاديق الآخر وهو ظاهر، وكذلك القول في الغَيّ والضّلال، ولذلك ذكرنا سابقاً: أنّ الضّلال هو العُدول عن الطريق مع ذكر الغاية والمقصد، والغَيّ هو العدول مع نسيان الغاية فلا يدري الإنسان الغويّ ماذا يريد وماذا يقصد». (**تفسير الميزان**، ج٢، ص٣٤٢).

٦ . **سورة النّجم**، الآية ٢.

وبالاستناد إلى كلام الرّاغب فإنّ الغَيّ لا يعني الجهل المحض[١].

الطَّاغُوتِ: طغوت وطغيت طغواناً وطغياناً وأطغاه كذا حمله على الطغيان، وذلك تجاوز الحدّ في العصيان[٢]، و(الطّاغوت) هو المبالغة في الطغيان إلّا أنّ معناه الجامع والشامل هو التمرّد وتجاوز حدود العبوديّة الذي يكون مصدره الاعتقاد بالغنى وعدم الحاجة: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى**﴾[٣].

إذاً، فكلّ ما هو في مقابل الله ﷻ ليس سوى الطاغوت، وأمّا إطلاق كلمة (الطاغوت) كوصف على الشيطان [الرّجيم]: ﴿**الَّذِينَ آَمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾[٤] أو على فرعون بشكل عمليّ: ﴿**إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**﴾[٥] فذاك بمثابة تطبيق المفهوم الكليّ على المصداق وليس تفسيراً لكلمة (طاغوت).

إسْتَمْسَكَ: «المَسْك» هو حَبْسٌ مع حِفظ[٦]، والاستمساك هو الأخذ والإمساك بشدّة[٧]، ودخول (قَدْ) على الفعل الماضي في عبارة ﴿**فَقَدِ اسْتَمْسَكَ**﴾ إنّما هو للدلالة على تحقّق الاستمساك وحدوثه[٨].

---

١ . **مفردات غريب القرآن**، ص٦٢٠، مادّة (غ و ي).

٢ . المصدر السابق، ص٥٢٠ ـ ٥٢١، مادّة (ط غ ى).

٣ . **سورة العلق**، الآيتان ٦ و ٧. أنظر كذلك: **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٧، ص٨٣ ـ ٨٤، مادّة (ط غ ي).

٤ . **سورة النساء**، الآية ٧٦.

٥ . **سورة طه** ﷺ، الآية ٢٤.

٦ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١١، ص١١١، مادّة (م س ك).

٧ . **تفسير الميزان**، ج٢، ص٣٤٤.

٨ . «ولم يكتف بالجملة الأولى لأنّها لا تستلزم الجملة الثانية، إذ قد يرفض عبادتها ولا يؤمن بالله، لكنّ الإيمان يستلزم الكفر بالطاغوت، ولكنه نبّه بذكر الكفر بالطاغوت على الانسلاخ بالكلية ←



بِالْعُرْوَةِ: الأصل الواحد في المادّة هو الوصول النافذ، و«العُروة» ما يُعرى ويُوصل به لأيّ مقصود كعُروة الكوز وعُروة القميص وعُروة الاهتداء الروحانيّ، فتسليم الوَجه إلى الله سبحانه وهكذا الإيمان به أوثق عُروة معنوية يُتوصّل بها إلى الحقّ متوسّلاً بها إلى الحقيقة[1].

الْوُثْقَى: الأصل الواحد في المادّة هو الائتمان في إحكام ومن مصاديقها تثبّت شيء مع إحكام، وأمّا كلمة (الوُثْقى) فهي مؤنّث (الأوثَق) كالأفضل والفُضلى وتدلّ على [معنى] أشدّ في الوثاقة[2].

لَا انْفِصَامَ لَهَا: أصلٌ صحيح يدلُّ على انصداعِ شيءٍ من غير بَيْنُونة، [و]مِن ذلك الفَصْم وهو أن ينصَدِع الشَّيءُ من غير أن يَبين[3]، والأصل الواحد في المادّة هو انكسار في حدّ يُوجِب انقطاع الاتّصال وإن لم يحصل[4] الإبانة[5]. وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**ثُمَّ جَعَلَهُ لَا انْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ**» أي إنّ الله سبحانه قضى ألّا تنفصم عُرى الإسلام أبداً إلى يوم القيامة[6].

ممّا كان مشتبهاً به سابقاً له قبل الإيمان لأنّ في النصية عليه مزيد تأكيد على تركه. وجواب الشرط: ﴿**فَقَدِ اسْتَمْسَكَ**﴾، وأُبرِز في صورة الفعل الماضي المقرون بـ(قد) الدالّة في الماضي على تحقيقه وإن كان مستقبلاً في المعنى لأنّه جواب الشرط إشعاراً بأنّه ممّا وقع استمساكه وثبتَ وذلك للمبالغة في ترتيب الجزاء على الشرط، وأنّه كائن لا محالة لا يمكن أن يتخلف عنه». (أبي حيّان الأندلسيّ، **تفسير البحر المحيط**، ج٢، ص٢٩٣).

١ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٨، ص١٠٢ ـ ١٠٣، مادّة (ع ر و)؛ وج٩، ص١٠٠، مادّة (ف ص م).

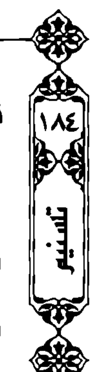
٢ . المصدر السابق، ج١٣، ص٢٦ و ٢٨، مادّة (و ث ق).

٣ . **معجم مقاييس اللغة**، ج٤، ص٥٠٦، مادّة (ف ص م).

٤ . كذا في الأصل والأصحّ (تَحصل) لكون كلمة (الإبانة) مؤنّثة. [المترجم]

٥ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٩، ص٩٩، مادّة (ف ص م).

٦ . **نهج البلاغة**، الخطبة رقم ١٩٨.



تناسب الآيات

بالنّظر إلى التّعريف الذي قدّمته آية الكُرسيّ عن الله ﷻ والأوصاف التي اختصّ بها سبحانه فإنّه لَم تَعُد هناك حاجة إلى إجبار الناس على اعتناق الدين الإسلاميّ لأنّ من شأن الفطرة السليمة والمشاهدات الوجودية أن تحثّ الإنسان على الإيمان بالله تعالى والاعتراف بوحدانيّته واعتناق الإسلام عن طيب خاطر واطمئنان بال باعتباره أفضل منهج للحياة الإنسانية[1]، ناهيك عن أنّ مبدأ الإجبار والإكراه لا ينسجم مع التكامل الذي يدعو إليه الدّين الإسلاميّ.

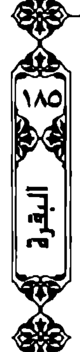
* * *

معنى (الدّين)

تُشير كلمة (الدّين) في الآية الشريفة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ إلى الخطوط والمبادئ العامّة والكليّة للدين وكذلك أصوله وليس المنهاج والشريعة مثل الفروع الفقهية والحقّية والولائية لأنّ أصل الإكراه موجود بالفعل في فروع الدّين بعد قبول الأصل ومنه مثلاً ما يتعلّق بمسألة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والتي تبدأ بالكُره القلبيّ حتى قتل المتخلّف، وقد وُضِعَ مبدأ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ـ كما هو معلوم ـ للوقاية من الوقوع في المعصية ودرئها. وأمّا الشكل الآخر من الإكراه الموجود في الدّين فيتمثّل في الحدود

---

١ . «حدّدت آية الكرسي ما يتّصف به الله ﷻ من تفرّد بالإلوهية والملك والسلطان في السموات والأرض، والحياة، والقيام بأمر الخلائق دون عناء ولا مشقة، وإحاطة العلم بكلّ شيء، فلا يصحّ بعدئذ أن يكون هناك إكراه على الدخول في الدّين لأنّ الفطرة والمشاهدات الكونية والفكر السليم تهدي إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته والاقتناع بالإسلام ديناً ومنهج حياة.» (الدكتور وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج٣ ـ ٤، ص٢١).



والتعزيرات التي يُراد بها رفع المعاصي وإزالة الذنوب، أي الحفاظ على الحياة المعنوية للفرد والمجتمع على حدّ سواء، فدفع المعصية ينبغي أن يبدأ بقانون الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وأمّا رَفع المعصية واستئصالها ومعالجة الأوضاع الشاذّة فلا يكون إلّا بتطبيق الحدّ والتعزير بحقّ البعض من الأفراد، تماماً كما يعمد الإنسان في بعض الأحيان إلى اتّخاذ التدابير الوقائية للمحافظة على سلامته وصحّته الجسمية لكنّه يُضطرّ في حالات أخرى أكثر صعوبة وعُسراً إلى اللجوء نحو الدّواء والعلاج الصّعب بل وإلى قطع بعض أعضائه إذا لـزِمَ الأمر؛ وأمّا الدليل الآخر لوجود الإكراه والإجبار فهو ما يتعلّق بفروع الدّين حيث يُفرَض على النّفس القيام بالفرائض والواجبات وترك المحرّمات.

وليس المقصود بالدّين في قوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ هو الولاية رغم أنّ كمال الدّين مرهون بالولاية كما في الآية الشريفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[1] إذ لم يُجبَر أيّ واحدٍ من المسلمين إبّان نزول هذه الآية على قبول الولاية لتقوم الآية بالنّهي عن ذلك.

ويقول بعض أهل العلم إنّه ووفقاً للآية الشريفة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فإنّه ما مِن حُكم في الإسلام يمكن اعتباره حكماً إجبارياً غير مرغوب فيه، وخلافاً للبعض ممّن يرون أنّ الأحكام هي عبارة عن تكليف وأنّها سبب التكلّف، فإنّ جميع أحكام الإسلام تُعتبر سبباً لشرف الإنسان وكرامته[2]. وأمّا إطلاق (الكُره)

---

١ . **سورة المائدة**، الآية ٣.

٢ . صدر المتألّهين، **تفسير القرآن الكريم**، ج٤، ص١٩٢ ـ ١٩٣. «وأجلّ مراتب العارفين الصدّيقين في هذه الحيوة الدنيا حين بقايا الوجود فيهم بعد، وعدم اندكاك جبل هويّتهم في ملاحظة الهويّة الأولى، فقال ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فإنّ مَن كان بعد متكلّفاً في الدين ثقيلاً عليه حَمل أعبائه، متأذّياً بالعبادة، غير مُنخشع القلب ولا سهل الانقياد سَلس الإجابة للطاعة، ولا طوّاعاً للشريعة من غير كُره وانقباض، فهو بعد أسير الهوى والرغبات، عابد أصنام الشهوات، وإنما ←



في الآيات التي تتضمّن الأحكام مثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[1] فهو من باب اعتبار ظاهر الأمر لا غير، إذ المعروف أنّ الظاهر في مثل هذه الأحكام هو الكُره وعدم رضى النّفس، كأن يشعر شخص ظمآن أنّ تقديم الماء إليه ليشرب ويروي عَطشه هو بمثابة نوع من الإجبار أو الإكراه خصوصاً وأنّه لم يطلب ذلك بنفسه[2]، فظاهر هذا الفعل مُزعج ومُربِك لذلك العطشان وفيه إجبار وإكراه غير مرغوب فيهما ـ كما يظنّ هو بالطّبع ـ لكنّ باطن ذلك الفعل يتضمّن إحياءً لنفسه وإبقاءً لها.

وأمّا ما يتعلّق برأي هؤلاء من أنّ الدّين الإسلامي لا يحوي أيّة أحكام غير مرغوب فيها، فينبغي القول إنّ أصل الموضوع صحيح ولا غبار عليه، بل ويتضمّن في ثناياه نظرة دقيقة وكاملة إزاء الأحكام، إلّا أنّه لا يخفى أنّ هذا

يعبد الله ويدعوه تقرّباً به إلى نيل مراده، وجاعلاً إيّاه وسيلة إلى راحة ذاته، فهو بالحقيقة مستخدَم ربّه ومستعبَد مَعبوده تعالى الله عنه. ومثل هذا الإنسان لا محالة غير عارف بالمبدإ الأعلى، بل حاله شاهد على أنّ إلهه هواه ومعبوده نفسه، فما دام على هذه الحالة فهو غير واصل إلى مرتبة العبادة والمعرفة، فتارة يعتريه الخوف وتارة تسلّيه الرجاء، وفي بعض أوقاته من الجفاء يلجأ إلى باب الصبر وفي بعضها يستزيد النعم بالشكر».

١. سورة البقرة، الآية ٢١٦.

٢. في المثال المذكور وفي العديد من الأمثلة المشابهة له يبدو أنّ هناك الكثير من العوامل التي تجعل ذلك الشخص يرفض أو يمتنع عن شُرب الماء رغم أنّه عطشان بالفعل، ومن تلك العوامل مثلاً العناد واللجاجة والجهل والإصرار عليه. وأبرز مثال على ذلك ما قاله سبحانه في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ففيها يبيّن الله تعالى أنّ هناك حالات قد ترفض فيها نفس الإنسان فعل شيء ما ولا ترغب القيام به في الوقت الذي يكون فيه خلاصه ونجاة حياته مرهوناً بأداء العمل المذكور ولا يمكن تفسير هذا الرّفض أو الإحجام إلّا بالجهل أحياناً أو العناد واللجاجة وغير ذلك أحياناً أخرى رغم أنّ الله سبحانه يعلم مصلحة كلّ مخلوقاته ويعلم ما ينفعهم وما يضرّهم، لكنّ أكثر الناس لا يعلمون ولا يشكرون. [المترجم]



الكلام لا يتناسب مع الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث، إذ كما قلنا فإنّ المقصود بكلمة (الدّين) في هذه الآية هو الخطوط العريضة للدّين إلى جانب الأصول العَقَديّة وليس المقصود بها هي فروع الدّين، ويؤيّد كلامنا هذا سياق العبارات الموجود في الآية المذكورة والآيات التي تَلتها. بالإضافة إلى ذلك، نقول إنّ الإكراه والإجبار يُمثّلان أمراً لازماً وضرورياً للنّفس الأمّارة في بعض أحكام الدّين وفروعه كالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والحدود والتعزيرات وفي بعض أقسام العبادات، ولذلك فإنّ الحالة الوحيدة التي لا يجب استخدام عنصرَيْ الإجبار أو الإكراه فيها هي المُعتقدات القلبية.

تذكير: إنّ قولنا (فلانٌ مُكرَهٌ على شيء) يختلف عن جملة (الإكراه في الدين) لأنّ معنى كلمة (الدين) ليس واحداً في كلتا العبارتيْن، أي إنّ المُكرِهَ هو مَن يعمل على إجبار الآخرين على قبول شيء ما كالدّين مثلاً، ففي هذه الحالة يكون أولئك مُكرَهين أو مجبورين [على قبول الشيء] ويكون الدّينُ وقبوله (أو التديّن والإيمان) [شيئاً أو أمراً] مُكَراً عَليه، والإكراه بهذا المعنى ليس موجوداً في الدّين، أي إنّنا لا نَجد مثل هذا الحُكم في المبادئ العَقَدية والخلقيّة والفقهية والحقّيّة، إذاً، فالدين (بمعنى مُكرَهٌ عَليه) يعني التديّن بينما تعني كلمة (الدّين) في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ مجموع المبادئ أو الأصول العَقَدية والخلقيّة والفقهية والحقّيّة وما شابهها.

نوع الحُكم في الآية

يعتقد البعض أنّ الحُكم الذي تتضمّنه الآية الشريفة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ هو حُكم تكوينيّ فيما رأى البعض أنّه حكم تشريعيّ بامتياز، وحتى أولئك الذين قالوا بأنّ حكم الآية هو حكم تشريعيّ ينقسمون إلى أربعة أقسام:

١. منهم مَن يرى عدم جواز الإكراه مطلقاً.

٢. ومنهم مَن يرى عكس ذلك تماماً.

٣. ومنهم مَن يعتقد بضرورة أن يكون تفصيل مسألة عدم جواز الإكراه قبل بيان الخطوط العريضة للدين وليس بَعده.

٤. ومنهم مَن يظنّ بأنّ جواز الإكراه يكون قبل بيان الرُّشد من الغَيّ لا بَعده.

وسيأتي بحث هذه الأقوال في الصفحات القادمة.

تذكير: لَمّا كان نَفي الإكراه يتضمّن دليله النّقليّ كذلك والمتمثّل ببيان الرّشد من الغَيّ فضلاً عن اشتماله على البرهان العقليّ لامتناع تحقّق المقصد القلبيّ بالإجبار الخارجيّ، إتّضح لنا أنّ أمام الإنسان حَقّاً وباطلاً، رُشداً وغَيّاً وهيهات للحقّ الذي هو بمثابة الحياة أن يشبه الباطل الذي يعني الممات بكلّ صُوَره. وهكذا فإنّ مَهَمّة الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث بالتأكيد ليست تجويز الإباحية وفَسح المجال أمام الفسوق والتهتّك وإلّا فما بال القرآن الكريم يُهدّد ويتوعّد المُفسدين والفاسقين بأشدّ ألوان العذاب يوم القيامة؟ ولو كان البشر يمتلك الخيار التشريعيّ كامتلاكه للخيار التكوينيّ لَما قال الله سبحانه وتعالى في مُحكم كتابه: ﴿**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ**﴾[1] مُهدّداً كلّ مَن لا يملك الخيار التشريعيّ؛ إذاً، ينبغي لنا التفريق بين الحكم الكلامي وبين الحكم الفقهيّ والحقّي.

وبعبارة أخرى، إذا كان لسان حال النّفي في قوله تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ يشبه قولنا: «*لا جَبر ولا تَفويض*»[2] فإنّ ذلك يعني أنّ قوله تعالى يُمثّل

---

١. سورة الحاقة، الآيات ٣٠ ـ ٣٢.

٢. «مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الله عَنْ حُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: لَا جَبْرَ وَلَا تَفْوِيضَ وَلَكِنْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ. قَالَ: قُلْتُ وَمَا أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ؟ قَالَ عليه السلام: مَثَلُ ذَلِكَ رَجُلٌ رَأَيْتَهُ عَلَى مَعْصِيَةٍ فَنَهَيْتَهُ فَلَمْ يَنْتَهِ فَتَرَكْتَهُ فَفَعَلَ تِلْكَ الْمَعْصِيَةَ فَلَيْسَ حَيْثُ لَمْ يَقْبَلْ مِنْكَ فَتَرَكْتَهُ كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي أَمَرْتَهُ بِالْمَعْصِيَةِ». (**أصول الكافي**، ج١، ص١٦٠).

مسألة كلامية وفي الوقت نفسه يشير إلى أمر تكوينيّ والحكم المتفرّع عنه هو حُكم إرشاديّ، وإذا كان قوله سبحانه يشبه قولنا: *«لا ضَرَر ولا ضِرارَ في الإسلام»*[١] أو *«لا رُهبانيّة في الإسلام»*[٢] فإنّ معنى ذلك هو أنّ قوله ﷻ يتضمّن مسألة فقهية وما الجملة الخَبريّة إلّا لغرض الإنشاء لا غير وبذلك يكون الحُكم المتفرّع عنه هو حكم تكليفيّ. واستناداً إلى ما قلناه، فإذا أراد أحدهم اعتبار ذلك الجزء من الآية الشريفة جُملة خَبريّة وأنّها إنّما أتَت بهدف الإنشاء ثمّ أضاف في نهاية ذلك أنّ الإكراه هو أمر مستحيل، فإنّ ما ادّعاه هو كلام خلط بين المسألة الفقهية وأختها الكلامية.

وأحياناً يُقال إنّ معنى حرف الجرّ (في) الفاصل بين الكلمتيْن في قوله تعالى **﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾** هو (عَلى)[٣] فيكون المعنى هو (لا إكراه على قبول الدّين) وهذا المعنى هو ما ورد في قوله تعالى: **﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾**[٤]؛ لكنّ

---

١ . «فالإسلام يزيد المسلمَ خيراً ولا يزيده شرّاً». (الشيخ الصّدوق، **من لا يحضره الفقيه**، ج٤، ص٣٣٤)؛ أنظر كذلك: العلّامة الحليّ، **نهج الحق وكشف الصدق**، ص٤٩٥.

٢ . قال العلّامة المجلسي: «وفي النهاية فيه لا رهبانية في الإسلام وهي من رهبنة النصارى وأصله من الرّهبة، الخوف؛ كانوا يترهبون بالتخلي من أشغال الدنيا وترك ملاذها والزّهد فيها والعزلة عن أهلها وتعمّد مشاقّها حتى أنّ منهم من كان يخصي نفسه ويضع السلسلة في عنقه وغير ذلك من أنواع التعذيب، فنفاها النبي ﷺ عن الإسلام ونهى المسلمين عنها انتهى. وقال الطبرسي ﵀ في قوله تعالى **﴿وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها﴾** هي الخصلة من العبادة يظهر فيها معنى الرهبة إمّا في لبسه أو انفراده عن الجماعة أو غير ذلك من الأمور التي يظهر فيها نسك صاحبه، والمعنى: ابتدعوا رهبانية لم نكتبها عليهم. وقيل إنّ الرهبانية التي ابتدعوها هي رفض النساء واتّخاذ الصوامع». (**بحار الأنوار**، ج٦٥، ص٣١٩)؛ أنظر أيضاً: النعمان بن محمّد التميمي المغربي، **دعائم الإسلام**، ج٢، ص١٩٣.

٣ . سعيد حوى، **الأساس في التفسير**، ج١، ص٦٠٠؛ **تفسير البحر المحيط**، ج٢، ص٢٩٢.

٤ . **سورة طه** ﷺ، الآية ٧١.



هذا الكلام غير صحيح أيضاً لأنّ قوله تعالى يُشبه بالأحرى قولنا (*لا حَرَج في الإسلام*) وهو بمثابة الحكم الفقهيّ ومعناه أنّه لا إكراه في *منظومة القوانين الإلهيّة* وأنّ مَن يحاول إجبار الآخرين على اعتناق الإسلام فإنّ عمله هذا (وهو الإكراه بغير وَجه حقّ) يقابله حكم فقهيّ خاصّ به. ولمّا كان المقصود بمنظومة القوانين الإلهيّة وما أنزل الله تعالى ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ**﴾[1] ليس كلّ ما يقبل به الشخص أو يرضى عنه (وهذا هو التديّن وليس الدّين نفسه) فلا يصحّ عندئذ تفسير حرف الجرّ (في) بحرف الجرّ (عَلى) لأنّ هذا الدّين يُمثّل منظومة ذلك الشيء الذي أنزله الله تعالى، وكما أنّ هذا الدين ليس فيه رهبانية ولا ضَرر ولا ضرار ولا حَرج، فإنّه كذلك لا يتضمّن أيّ إكراه أبداً، كما أنّ حرف الجرّ (إلى) في الآية اللاحقة يحمل معنى حرف الجرّ (في) ـ وهو الدخول في الدين الإسلامي واعتناقه ـ في قوله تعالى: ﴿**اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ مع وجود بعض الاختلاف في مَعنَيَيْ حرف الجرّ (في) في كلا الموضعيْن فولاية الله سبحانه على المؤمنين ﴿**اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا**﴾ هي ولاية وإشراف من نوع خاصّ وليست مجرّدةَ هداية إلى الإسلام لأنّ هذه الهداية هي هداية عامّة للجميع، والمؤمنون يُهدَون إلى النور بصرف النّظر عن كلّ ذلك وقد قَبلوا بذلك وارتضَوه. وهكذا، فإنّ حرف الجرّ (إلى) يُعطي معنى (في) التي تفيد الاستقرار والتثبيت.

بحث في الحكم التشريعيّ

تُعتبر جملة: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ جملة خَبريّة لغرض الإنشاء تفيد حُكماً تشريعياً مولويّاً يتمثّل في عدم جواز الإكراه في الدّين كقوله تعالى: ﴿**وَلَنْ يَجْعَلَ**

---

١ . سورة آل عمران، الآية ١٩.



اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[١] والذي يتضمّن حكماً تشريعياً يُحرّم بموجبه تسلّط الكافرين على المؤمنين، وكذلك كالقاعدتَيْن المعروفتَيْن «*لا ضَرَر ولا ضِرارَ في الإسلام*»[٢] و«*لا رُهبانيّة في الإسلام*»[٣] حيث يُعتبر ظاهرهما خبراً لكنّهما موضوعتان لغرض الإنشاء.

ولبيان السّبب في تصوّر مثل هذا التفسير نقول: إنّ جملة **﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾** هي علّة عدم جواز الإكراه في الدّين؛ أي، بما أنّه قد تمّ الفصل والتمييز بين طريق الرّشد وطريق الغَيّ بحيث يمكن لأيّ شخصٍ كان أن يختار واحداً منهما بسهولة فإنّه لا يحقّ لأحد أن يُجبر الآخرين على الدخول في دين الإسلام واعتناقه قسراً. وهذا يعني، أنّه إذا لم يستطع أحد رؤية الطريق رغم وضوحها ـ ولو بشكل تمثيليّ أو تقريبيّ من خلال الذهن وليس بشكل بحث وتحقيق نهائيّيْن ـ فلا ريب في أنّ ذلك الشخص يشبه في وضعه هذا الطفل الذي يجهل مصلحته، وفي هذه الحالة فإنّه لا مانع من توجيهه وتربيته إلى الوقت الذي تتّضح له فيه معالم الدّين ومبادئه العامّة والبراهين الحقّة؛ لكن، بعد كلّ ذلك لا يجوز إكراهه على قبول الدين مطلقاً، تماماً كالطفل الذي يجب إرشاده وتعليمه وتولّي أمره حتى يبلغ أشدّه، وبعد ذلك لا يصحّ إجباره أو إكراهه على شيء.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه بعد بيان الرّشد من الغَيّ يحقّ للإنسان من الناحية التكوينية في أن يختار الحقّ أو الباطل، لكن ما من شكّ في أنّ اختيار الحقّ هو أمر ضروريّ وحيويّ بالنسبة إلى الإنسان سواء من الناحية العقلية أم النقلية، كما أنّه يحقّ للإنسان من الناحية التكوينية مثلاً أن يتنفّس أو يتوقّف عن التنفّس، لكن

---

١ . سورة النساء، الآية ١٤١.

٢ . الشيخ الصّدوق، **معاني الأخبار**، ص٢٨١؛ **وسائل الشيعة**، ج٢٦، ص١٤.

٣ . **بحار الأنوار**، ج٦٥، ص٣١٩؛ **مستدرك الوسائل**، ج١٤، ص١٥٥.



من الناحية العقلية والنقلية يجب عليه المحافظة على روحه وعدم التوقّف عن التنفّس.

ويمكننا تلخيص ذلك بالشكل التالي:

١. يجب على الإنسان شرعاً ووفقاً للدليل النقليّ والعقليّ أن يختار الحقّ له طريقاً وسبيلاً إلى الخلاص.

٢. لا يجوز شرعاً إجبار أيّ شخص على قبول الحقّ أو فرضه عليه.

٣. خُلق الإنسان حُرّاً من الناحية التكوينية ومُنِح القدرة على قبول الحقّ أو رفضه.

بحث في الحكم التكوينيّ

شبّه البعض قوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ بالقاعدة الشهيرة «لا جبر ولا تَفويض»[1] وأنّه موضوع لغرض الإخبار عن حقيقة خارجيّة وتكوينية فضلاً عن أنّه يشير إلى حكم كلاميّ وليس حكماً فقهياً، بمعنى أنّ المسائل العَقَدية والقلبية وموضوع الحقّ والباطل لا تكون بالإكراه، فبعد تحقّق المقدّمات العلميّة وقيام البراهين فإنّ التّصديق العلميّ سيتكوّن من ذاته، وعندها سنلاحظ التزام العالِم بالتصديق المذكور بقلبه وبطيب خاطر منه فيتولّد لديه التصديق القلبيّ والإيمان[2]. وعليه، فلا يمكن للظنّ كذلك أن يكون سبباً لحصول الإيمان فما

---

١. أصول الكافي، ج١، ص١٦٠.

٢. «وفي قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ نفي الدين الإجباري لما أنّ الدين وهو سلسلة من المعارف العلمية التي تتبعها أخرى عملية يجمعها أنها اعتقادات، والاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإنّ الإكراه إنّما يؤثّر في الأعمال الظاهرية والأفعال والحركات البدنية المادية، وأمّا الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب أخرى قلبية من سنخ الاعتقاد والإدراك، ومن المحال أن ينتج الجهل علماً، أو تولّد المقدمات غير العلمية تصديقاً علمياً.

←



بالك بمجرّد التصوّر والخيال، كما أنّه لا أثر للظنّ في الحقّ وفقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[1].

وهكذا فإنّ بعض التصرّفات مثل الفَرض والتهديد والترغيب والتطميع لا يؤثّر إلّا على قوّة الخيال وهي تلعب دوراً مهمّاً في الإكراه والتحريك والتهييج والتسكين من الناحية النفسية وكذلك بهدف التعويض عن النّقص النفسيّ أو الحدّ من الطغيان النفسيّ أو الدفاع عن الغرور، رغم أنّ التصرّفات المذكورة قد تكون أساسية في حياة بعض الأفراد؛ إذاً، لا يمكن أن يكون الإكراه أرضية لنموّ اليقين العلميّ فكيف يمكن أن يكون سبباً أو وسيلة إلى الإيمان القلبيّ؟

←

فقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، إن كان قضية إخبارية حاكية عن حال التكوين أنتج حكماً دينياً بنَفي الإكراه على الدين والاعتقاد، وإن كان حكماً إنشائياً تشريعياً كما يشهد به ما عقبه تعالى من قوله: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، كان نهياً عن الحمل على الاعتقاد والإيمان كرهاً، وهو نَهي مُتّك على حقيقة تكوينية، وهي التي مرّ بيانها أنّ الإكراه إنّما يعمل ويؤثّر في مرحلة الأنعال البدنية دون الاعتقادات القلبية. وقد بيّنَ تعالى هذا الحكم بقوله: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، وهو في مقام التعليل فإنّ الإكراه والإجبار إنّما يركن إليه الآمر الحكيم والمربّي العاقل في الأمور المهمة التي لا سبيل إلى بيان وجه الحقّ فيها لبساطة فهم المأمور ورداءة ذهن المحكوم، أو لأسباب وجهات أخرى، فيتسبّب الحاكم في حكمه بالإكراه أو الأمر بالتقليد ونحوه. وأمّا الأمور المهمة التي تبيّن وجه الخير والشرّ فيها، وقرر وجه الجزاء الذي يلحق فعلها وتركها فلا حاجة فيها إلى الإكراه، بل للإنسان أن يختار لنفسه ما شاء من طرفي الفعل وعاقبتَيْ الثواب والعقاب، والدين لما انكشفت حقائقه واتضح طريقه بالبيانات الإلهية الموضحة بالسنّة النبوية فقد تبيّن أنّ الدين رشد والرّشد في اتباعه، والغَيّ في تركه والرغبة عنه، وعلى هذا لا موجب لأن يكره أحد أحداً على الدين. وهذه إحدى الآيات الدالّة على أنّ الإسلام لم يبتن على السيف والدّم، ولم يُفتِ بالإكراه والعنوة على خلاف ما زعمه عدّة من الباحثين من المنتحلين وغيرهم أنّ الإسلام دين السيف واستدلوا عليه بالجهاد الذي هو أحد أركان هذا الدين». تفسير **الميزان**، ج٢، ص٣٤٢ ـ ٣٤٣؛ أنظر أيضاً: عبد الأعلى السبزواريّ، **مواهب الرحمن**، ج٤، ص٢٤٩.

١ . سورة **النّجم**، الآية ٢٨.



وأمّا القول بإخبار الآية عن حقيقة خارجية وتكوينية فليس قولاً صحيحاً كذلك لأنّ قوله تعالى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ هو بمثابة علّة لقوله سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ في حين أنّ القول المذكور يبيّن أنّه لا إكراه في الدين لأنّ الإيمان لا يتأتّى إلّا بطريق خاصّة لا بطريق الإكراه والإجبار.

يُضاف إلى ذلك أنّ القرآن الكريم ـ وهو كتاب الهداية ـ لا يتضمّن ما يمكن تسميته بالتكوين المحض بعيداً عن الهداية، وعليه، فحتى لو استندنا إلى الاحتمال المذكور فسنلاحظ أنّ الحكم التكوينيّ (وهو استحالة تأثير الإكراه على العقيدة والإيمان) يتبعه كذلك حكم تشريعيّ إرشاديّ فقهيّ مفاده عدم جواز الإكراه في الدين.

ونستنتج من ذلك كلّه أنّ قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ لا يشير إلى أيّ حكم تكوينيّ بل يحمل في طيّاته حكماً تشريعياً مولوياً وهو عدم جواز الإكراه.

الآراء الأربعة في الحكم التشريعيّ

١. *عدم جواز الإكراه مطلقاً*: تدلّ جملة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ على عدم جواز الإكراه بشكل مطلق بالنّظر إلى علّتها (أي قوله تعالى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾)، وعليه، لا ينبغي إجبار الكافر أو المشرك على قبول مبدأ التوحيد ولا إكراه أهل الكتاب على قبول (نبوّة خاصّة).

٢. *جواز الإكراه قبل بيان الحقّ وعدمه بعد بيانه*: وهذا الكلام صحيح، لكنّ الآية الشريفة لا تشير إلى ذلك إذ إنّ موضوع نَفي الإكراه الوارد في الآية قائم على أساس بيان الرّشد من الغَيّ، وأمّا ما يتعلّق بغير ذلك فقد سكتت الآية عن بيانه أو توضيحه.

٣. *عدم جواز الإكراه قبل بيان الرّشد وجواز ذلك بعد بيانه*: بحجّة أنّ الآيات المتعلّقة بالجهاد قد نسخت الآية الشريفة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، وهذا



كلام غير صحيح لأنّ ظاهر الآية يَنفي الإكراه بعد بيان الرّشد، أمّا ادّعاء النّسخ فهو الآخر لا يخلو من بعض الإشكالات التي سنشير إليها في العنوان التالي من البحث.

٤. *جواز الإكراه بشكل مطلق*: استشهد مَن قال بذلك بالآية الشريفة **﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ... فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ...﴾**[1]، وهذا الاستشهاد غير صحيح أيضاً لأنّ الآية المذكورة تأمر بقَتل الرّجال من المشركين وإخلاء سبيل النساء المؤمنات لا الإجبار على الإيمان.

الردّ على إشكاليّة النّسخ

بالاستناد إلى قول القائلين بعدم جواز الإكراه بعد بيان الرّشد وجواز الإكراه بعده وكذلك القائلين بجواز الإكراه بنحو مطلق فإنّ هذا يعني وجود تناقض بين الآية الشريفة **﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾** من جهة وبين الآيات الخاصّة بالجهاد من جهة أخرى مثل قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾**[2] و**﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾**[3] و**﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾** وغيرها.

وبالنّظر إلى هذا التناقض الوهميّ فإنّ أصحابه يرون أنّ آيات الجهاد قد نسخت الآية الشريفة **﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾**[4] ولكن رأى جماعة عكس ذلك

---

١. سورة التوبة، الآية ٥.

٢. سورة التوبة، الآية ٧٣.

٣. سورة البقرة، الآية ١٩٣.

٤. أنظر: تفسير الميزان، ج٢، ص٣٤٣ـ ٣٤٤؛ تفسير البحر المحيط، ج٢، ص٢٩٢.

فقالوا إنّ مبدأ الجهاد كان مختصّاً بزمن الرّسول الأعظم ﷺ وإمام الزّمان عجّل الله فرجه مستندين في ذلك إلى الآية ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾؛ لكن، وفقاً *للدليلَيْن التاليَيْن* لا وجود لأيّ تناقض بين الآيات المذكورة، بل هي متناسبة كذلك مع بعضها البعض إلى حدّ كبير:

١ . إمّا أن يكون الجهاد دفاعياً أو ابتدائياً، فالجهاد الأوّل مثل حرمة الخيانة ووجوب احترام الوالديْن حيث يُعدّ أحد الأحكام الإسلامية العامّة ويجب على جميع المسلمين دون استثناء الدّفاع عن ترابهم وأموالهم وأرواحهم ضدّ الظلم. وعندما يصبح الدفاع عن هذه الأمور واجباً، فالأحرى أن يكون الدّفاع عن حرمة الدين الحقّ أولى وأحقّ لأنّ الدين الحقّ يهب الحياة ويمنح البقاء والاستمرار لروح الفرد وجسد المجتمع ككلّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[1] وعندما يصبح الحفاظ على الحياة المادية أمراً واجباً فما من شكّ في أنّ الحفاظ على الحياة المعنوية أولى وأوجب.

إنّ الحكم الشريف الخاصّ بالجهاد الدفاعيّ يشبه إلى حدّ كبير حكم القصاص الذي يعني الدّفاع عن حقّ المقتول ظلماً، وهو حكم الهدف منه إحياء الفرد والمجتمع على حدّ سواء. وللعلّامة الشيخ جعفر كاشف الغطاء قدس سره كلام دقيق حول هذه المسألة حيث قال: «*فإنّ الجنود والعساكر ـ وإن كانت ذات عدد متكاثر ـ بمنزلة الفسطاط إذا سقطَ عمودُها هُدِمت*»[2].

وهكذا فعندما يتعلّق الأمر بجهاد المسلمين ضدّ المُعتدين فإنّ مسألة الإكراه على قبول الدين لا تُعتبر الهدف المنشود بل هدفهم في ذلك هو الدّفاع عن أرواحهم ولن يعود ذلك أمراً مفروضاً عليهم أو هم مضطرّون إلى قبوله وهذا

---

١ . سورة الأنفال، الآية ٢٤.

٢ . الشيخ جعفر كاشف الغطاء، كشف الغطاء، ج٤، ص٣٣٦.

لا يشبه إجبارهم على اعتناق الدين بل وليست هناك أيّة علاقة بين هذا وذاك إطلاقاً.

وأمّا في الجهاد الابتدائيّ فإنّ المسلمين يبادرون إلى دعوة الكفّار إلى اعتناق الإسلام وذلك بأمر من وليّ أمر المسلمين، وهم في ذلك مُطالَبون باستخدام الكلام البليغ والمناقشة البيّنة والمجادلة الحَسنة ليتمكّنوا من الفصل بين الحقّ والباطل وبالتالي مقاتلة المُعاندين للحقّ والمصرّين على موالاة الباطل لأنّ منهج هؤلاء يقوم على وضع الأغلال في أعناق المحرومين وتكبيل الطبقة الفقيرة من الناس وهم كما قال عنهم الله سبحانه **﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾**[1] وبهذا فهم سدّ منيع في طريق إبلاغ الوحي الإلهيّ للمُستعدّين لتقبّله وفي ذلك يقول القرآن الكريم إنّه لا بدّ من مقاتلة هؤلاء لرفع الفتنة واستئصال جذور الفساد: **﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ﴾**[2]، وعليه، فمن الواضح أنّ رفع الفتنة وإخمادها لا يتعارضان مع نَفي الإكراه على اعتناق الدين.

ومن خلال بيان الحكمة في الجهاد الابتدائيّ يتّضح لنا عدم وجود أيّ تناقض بين آيات الجهاد الابتدائيّ من جهة وبين قوله تعالى: **﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾** ما ينفي وجود أيّ نسخ للآية.

ولتوضيح هذه المسألة نقول: إنّ الإنسان يمتلك فطرة تحثّه على قبول الحقّ ودفع الباطل **﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾**[3] وعندما يُعرَض عليه الحقّ بجلاء بعيداً عن الشبهات وبمنأى عن كلّ المُغالطات الشيطانية فإنّه لا ريب

---

١ . سورة الأعراف، الآية ٤٥.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٩٣.

٣ . سورة الرّوم، الآية ٣٠.



سيقبله عن طيب خاطر ويؤمن به من أعماق قلبه، وإذا كنّا نرى البعض لا يـؤمن بما شاهد من الحقّ عياناً فإنّما ذلك لطغيان الأهواء النفسية والقيود الشيطانية غير المرئية للظالمين والطغاة الذين يستغلّون الخَلْق ويستعبدون البَريّـة ولهـذا نـزل الحكم بالجهاد الابتدائيّ لتحرير الفطرة الإنسانية كـما في قولـه تعـالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1]. وبعـد تحريـر الفطـرة يـأتي دور الإنسان في حقّه في الاختيار: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2] ولـمّا كـان الحقّ لا يعلوه شيء ولا تشوبه شائبة أو غموض وكانت فطـرة الإنـسان مجبولـة على قبول الحقّ والاعتراف بـه، فـلا ريـب في أنّ هـذا الـشخص سيختار الحـقّ ويفضّله على غيره.

واستناداً إلى ما ذُكر فإنّ آيات الجهاد الابتدائيّ تنضوي تحـت لـواء [آيـات] الجهاد الدفاعيّ، أي إنّ الجهاد الابتدائيّ هو دفاع عن الفطرة الإنـسانية وأرضـية صلبة لحرية اختيار الدين، وهي بـذلك متناسـبة مـع قولـه تعـالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ بل وتُمثّل قاعدته المتينة. ومن المعروف أنّ كمال الإنسان في الثقافة الدينية مرهون باختياره وحريّته على الانتخـاب، كـما أنّ الكـمال الروحـيّ لا يمكنـه أن يزدهر في ظلّ الإكراه وخيمة القَسر، بل ربّما ساهم ذلك في إطفاء شـمعة البـصر والبصيرة داخل الإنسان.

٢. بيّنا أنّ السّبب في عدم وجود الإكراه في قوله ﷻ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ يكمن في ملحق الآية حيث قال تعالى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، فـإذا أراد أحدهم اعتبارها منسوخة توجّب عليه إزالة علّة المعلول قبـل كـلّ شيء ليرتفـع بذلك هذا الأخير أيضاً لا أن يـستأصل المعلـول أوّلاً؛ ورغـم ذلـك فـإنّ الحـقّ

١. سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

٢. سورة الكهف، الآية ٢٩.



سيبقى واضحاً وسيظلّ متميّزاً عن الباطل إلى يوم القيامة بالوجود المبارك للقرآن الكريم، وسيبقى معه حكم عدم جواز الإكراه ثابت القدميْن وصامداً لا يهتزّ.

لا إكراه في العقيدة

لمّا كانت العقيدة أو الإيمان أمراً قلبياً وحدوثهما لا يكون إلّا بمبادئ باطنية ـ معرفية أو نفسية ـ ولا تظهر العقيدة إلّا بها ولا تزول إلّا بزوالها، فإنّ ذلك يعني أنّه [أي الإيمان] لا يحصل إطلاقاً بالأمور الخارجة عن إطار المبادئ النفسية كالتهديد والوعيد أو التطميع والترغيب، وكذلك هي حال الجَبر فهو ممتنع كالتفويض.

فالإكراه في الإيمان مرفوض وليس مُحالاً، فقد يقوم شخص ما على سبيل المثال بعمل غير ذي جدوى وذلك بإجبار شخص آخر على اعتناق أمر عَقَديّ، لكنّ حصول أمر قلبيّ بالإكراه معناه إيجاد معلول يفتقد العلّة، وهذا مستحيل، فكما قلنا إنّ علّة أيّ أمر قلبيّ هو الأمر القلبيّ نفسه لا غير وليس الإكراه، وإذا افترضنا ظهور العقيدة التي تُمثّل أمراً قلبيّاً من دون مبدأ نفسيّ وإن تحقّق الإكراه فإنّ المحذور هو الآخر سيظهر لا محالة وذلك لعدم حصول العلّة وما حدث لا يُعتبر علّة كما هو واضح، إذاً، فالقيام بأيّ عمل لا تنجم عنه أيّة آثار هو مجرّد عمل غير منطقيّ بل وسخيف أيضاً.

وبناءً على ذلك فإنّ الإيمان والعقيدة لا يزدهران إلّا في إطار الحريّة أمّا الجَبر فممتنع والإجبار مرفوض، ولا شيء في الشريعة اسمه الإكراه أو الإجبار وإن كنّا نعلم أنّه يجب على كلّ مُكلَّف فَهم الدّين وإدراك مبادئه وأصوله ثمّ قبوله والعمل بموجب تلك المبادئ والأصول.



وأخيراً ينبغي القول إنّه ما لَمْ تؤدّ حريّة القول أو الفعل إلى زرع الفِتَن أو إضلال الآخرين بالإعلام الفاسد والمشبوه فإنّه ما من محذور يمنع وجودها أبداً.

الآية لا تنفي الجَبر ولا تثبت التفويض

تأكّد للمعتزلة بطلان/الجبر من خلال استنادهم إلى قوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ لكنّهم لم يروا بأساً في *التفويض*[1]؛ لكنّ هذا الكلام ليس صحيحاً على ما يبدو إذ إنّ مفاد الآية الشريفة المذكورة لا يَنفي نظريّة الجَبر بشكل صريح، سواء أكان مفادها حكماً تكوينياً أم تشريعياً، وفي ذلك يقول الجَبريّة[2] أيّ عقيدة يحملها الإنسان فهي قائمة على الجَبر سواء أكانت عقيدة حقّة أم باطلة، أي إنّ مَن قَبِلَ بالحقّ إنّما فعل ذلك مُجبَراً وإنّ مَن ولّى دُبره للحقّ فإنّه لم يفعل ذلك باختياره بل أُجبِرَ عليه كذلك. والواقع أنّ ما يُبطل قول الجَبريّة هذا هو أنّه (*لا إكراه في الدّين ولا في الكُفر*) في حين أنّ العبارة القرآنية لا تشير إلّا إلى موضوع عدم وجود الإكراه في الدّين ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

---

١. «أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ فَقَدِ اسْتَدَلَّتِ الْمُعْتَزِلَةُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ لَيْسَ مِنَ الله تَعَالَى، قَالُوا: لِأَنَّهُ تَعَالَى أَضَافَهُ إِلَى الطَّاغُوتِ مَجَازًا بِاتِّفَاقٍ، لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الطَّاغُوتِ عَلَى أَظْهَرِ الْأَقْوَالِ هُوَ الصَّنَمُ وَيَتَأَكَّدُ هَذَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٣٦] فَأَضَافَ الْإِضْلَالَ إِلَى الصَّنَمِ، وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْإِضَافَةُ بِالاتِّفَاقِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ مَجَازًا، خَرَجَتْ عَنْ أَنْ تَكُونَ حُجَّةً لَكُمْ». (الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، مج٤، ج٧، ص١٥).

٢. «الجبرية، بإسكان الباء، خلاف القدرية؛ وفي عرف أهل الكلام يُسَمَّوْن المجبرة والمرجئة لأنّهم يؤخّرون أمر الله ويرتكبون الكبائر. والمفهوم من كلام الأئمة عليهم السلام أنّ المراد من الجبرية الأشاعرة ومن القدرية المعتزلة لأنّهم شهروا أنفسهم بإنكار ركن عظيم من الدين وهو كون الحوادث بقدرة الله تعالى وقضائه، وزعموا أنّ العبد قبل أن يقع منه الفعل مُستطيع تامّ، يعني لا يتوقّف فعله على تجدّد فعل من أفعاله تعالى، وهذا معنى التفويض، يعني أنّ الله تعالى فوّض إليهم أفعالهم». (**مجمع البحرين**، ج١، ص٣٩٩). [المترجم]

ومن الواضح أنّ منشأ الخطأ الذي وقع فيه الجبرية هو خلطهم بين الجبر في النظام العِلّي والجبر في مقابل التفويض والخاصّ بأفعال البشر الاختيارية فيما لا تتعارض الآية الشريفة ـ كما مرّ ـ مع الجبر، حتى لو افترضنا تعارضها مع آراء المُجبرة فإنّه لا يمكن اعتبار ذلك دليلاً على إثبات التفويض لأنّ الجبر والتفويض ليسا نقيضيْن لكي يَثبت أحدهما بنَفي الآخر.

قال مولانا الإمام الصّادق عليه السلام: «**لَا جَبْرَ وَلَا تَفْوِيضَ وَلَكِنْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ**»[1]، وعليه، فإنّ أفعال البشر كلّها تخلو من الجبر والتفويض بل هي تصدر عنهم باختيارهم وإرادتهم[2].

---

١ . «عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام: قَالَ لَا جَبْرَ وَلَا تَفْوِيضَ وَلَكِنْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ. قَالَ: قُلْتُ وَمَا أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ؟ قَالَ عليه السلام: مَثَلُ ذَلِكَ رَجُلٌ رَأَيْتَهُ عَلَى مَعْصِيَةٍ فَنَهَيْتَهُ فَلَمْ يَنْتَهِ فَتَرَكْتَهُ فَفَعَلَ تِلْكَ الْمَعْصِيَةَ فَلَيْسَ حَيْثُ لَمْ يَقْبَلْ مِنْكَ فَتَرَكْتَهُ كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي أَمَرْتَهُ بِالْمَعْصِيَةِ». (**أصول الكافي**، ج١، ص١٦٠).

٢ . «عَنْ يَزِيدَ بْنِ عُمَيْرِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الشَّامِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا عليه السلام بِمَرْوَ فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله! رُوِيَ لَنَا عَنِ الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: لَا جَبْرَ وَلَا تَفْوِيضَ بَلْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ؛ فَمَا مَعْنَاهُ؟ فَقَالَ عليه السلام: مَنْ زَعَمَ أَنَّ الله يَفْعَلُ أَفْعَالَنَا ثُمَّ يُعَذِّبُنَا عَلَيْهَا فَقَدْ قَالَ بِالْجَبْرِ وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ فَوَّضَ أَمْرَ الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ إِلَى حُجَجِهِ عليهم السلام فَقَدْ قَالَ بِالتَّفْوِيضِ، فَالْقَائِلُ بِالْجَبْرِ كَافِرٌ وَالْقَائِلُ بِالتَّفْوِيضِ مُشْرِكٌ. فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله! فَمَا أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ؟ فَقَالَ عليه السلام: وُجُودُ السَّبِيلِ إِلَى إِتْيَانِ مَا أُمِرُوا بِهِ وَتَرْكِ مَا نُهُوا عَنْهُ. فَقُلْتُ لَهُ: فَهَلْ لله عزّ وجلّ مَشِيَّةٌ وَإِرَادَةٌ فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ عليه السلام: أَمَّا الطَّاعَاتُ فَإِرَادَةُ الله وَمَشِيَّتُهُ فِيهَا الْأَمْرُ بِهَا وَالرِّضَا لَهَا وَالْمُعَاوَنَةُ عَلَيْهَا وَإِرَادَتُهُ وَمَشِيَّتُهُ فِي الْمَعَاصِي النَّهْيُ عَنْهَا وَالسَّخَطُ لَهَا وَالْخِذْلَانُ عَلَيْهَا. قُلْتُ: فَلِلَّهِ عزّ وجلّ فِيهَا الْقَضَاءُ؟ قَالَ عليه السلام: نَعَمْ مَا مِنْ فِعْلٍ يَفْعَلُهُ الْعِبَادُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ إِلَّا وَلله فِيهِ قَضَاءٌ. قُلْتُ: فَمَا مَعْنَى هَذَا الْقَضَاءِ؟ قَالَ عليه السلام: الْحُكْمُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَهُ عَلَى أَفْعَالِهِمْ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ». (بحار الأنوار، ج٥، ص١١، باب نفي الظلم والجور عنه تعالى وإبطال الجبر والتفويض وإثبات الأمر بين الأمرين وإثبات الاختيار والاستطاعة). [المترجم]



تطهير الفطرة وتقوية الإيمان

يدلّ سياق الآية الشريفة في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ على لزوم ارتداء الإنسان لباس الإيمان والتوحيد وتحقيق ذلك في وجوده وكيانه والمجتمع بشكل عامّ. ولتزيين الإيمان ينبغي أوّلاً تطهير القلب من دَنس الكُفر ولَوث الشّرك وخبائث الرذائل الخُلُقية لاستحالة الجمع بين الإيمان والكُفر في مكان واحد.

ورغم ذلك فإنّ البعض لا يَسعه إدراك السياق المذكور فظنّ أنّه لمّا كان صدر الآية الشريفة يتناول الرّأي والعقيدة فَلابدّ من الأخذ بعين الاعتبار النقطتين التاليتيْن: ١) نَفي الطاغوت و٢) إثبات وجود الله سبحانه؛ لكن، كما بيّنا سابقاً أنّ قوله تعالى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾ يشير إلى مقام العمل وليس الرّأي، وحتى في مقام العمل فعندما يتخلّى الشخص عن الأشياء الزائلة ويبتعد عن الأهواء الدنيوية ويطهّر فطرته النورانية من غبار الشّرك فإنّه سيصل إلى المبدأ الأساسيّ للإيمان بالله تعالى والتمسّك بحبله المتين. وهكذا نلاحظ أنّ تقدّم الكُفر بالطاغوت على الإيمان بالله تعالى في قوله سبحانه ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾ لا يعني كون أحدهما أصلاً والثاني فرعاً فقد أشار القرآن الكريم في عدد آخر من آياته إلى هذه الحقيقة الواحدة مثل قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[1] فهذه الآية الشريفة لا تذكر سوى مبدأ الإيمان بالله تعالى ولا كلام حول الكُفر بالطاغوت بينما قدّمت الآية الشريفة التالية موضوع الإيمان بالله على الكُفر بالطاغوت: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2].

---

١ . سورة لقمان عليه السلام، الآية ٢٢.

٢ . سورة النّحل، الآية ٣٦.

إذاً، فتقديم الكُفر بالطاغوت على الإيمان بالله لا يعني أصالة الأوّل بل إشارة إلى ضرورة تطهير الفطرة ممّا علاها من الغبار والصّدأ وتحضير تربتها لنموّ الإيمان وازدهاره، وكلّ ذلك مكنون في فطرة الإنسان ومحفوظ فيها.

تذكير: إنّ الكُفر بالطاغوت هو أمر مشهود في كلّ الشؤون الإنسانية الفردية والاجتماعية وينبغي أن يتجلّى في جميع مراحل العقيدة والأوصاف والأفعال وهذه المهمّة تقع على عاتق كلّ فرد في الأمّة الإسلامية: **﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾**[1]، فإذا كان شخص ما يحارب الطاغوت تارة ثمّ يتودّد إليه ويواليه تارة أخرى فإنّ مَثَله كمَثَل قول الله سبحانه: **﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾**[2].

الدّين كحافظ للإنسان

المقصود بـ**﴿الْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾** هو دين الله القيّم الذي يُشار إليه أحياناً بحَبل الله: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾**[3]. ويمكن تشبيه الدين بالعُروة أو الحَبل المتين الذي يكون أحَد طَرفيْه بيَد الله ﷻ بينما يجب على الإنسان الإمساك بطَرفه الآخر بقوّة وإصرار لدوام اتّصاله بدين الله الحنيف وتجنّب الأخطار واتّقاء الأهوال، وعليه، فإنّ الدّين يعمل على المحافظة على الفرد والمجتمع من الأخطار بأنواعها من خلال إبقائهما على اتّصال دائم ومستمرّ مع الله سبحانه. ولا يخفى أنّ هناك تعاملاً متبادلاً بين كلّ واحدٍ من الدّين من جهة وبين الفرد والمجتمع من جهة أخرى، فإذا أدرك أفراد المجتمع معنى الدين وفهموا مقاصده وآمنوا به وعملوا بأوامره وتعاليمه وطبّقوا مبادئه الفقهية والحقوقية فإنّ ذلك

---

١. سورة النساء، الآية ٦٠.

٢. سورة النساء، الآية ١٥٠.

٣. سورة آل عمران، الآية ١٠٣.



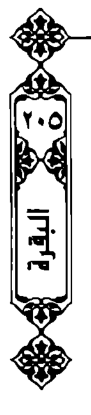
يعني أنّهم حافظوا على دينهم حقّاً عَبر تمسّكهم به وتديّنهم بأصوله وسيكون كلّ شخصٍ منهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾[1] وفي هذه الحالة سيقوم الدّين المحفوظ من جهته بالمحافظة على المتديّن به مِن السقوط والزّلل والبَوار والأفول والاندحار في الدّنيا والآخرة.

ويمكننا إدراك استحكام الدّين من كلّ واحدٍ من التعبير الإيجابيّ في قوله تعالى ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ لأنّ صفة (الوثقى) تشير إلى الاستحكام والآصرة القويّة، ومن التعبير السلبيّ في جملة ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ التي تؤكّد على شدّة تلك العُروة وقوّتها ووثاقتها، وهذا يشبه قوله سبحانه ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ حيث تمّ فيه التأكيد على صفتيْن ثبوتيّتَيْن هما ﴿الْحَيُّ﴾ و﴿الْقَيُّومُ﴾[2].

إلماعة: ثمّة آية كريمة يُمكن اعتبارها عكس الآية الّتي هي موضوع البحث وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[3] فمَن يكفر بالله سبحانه ويلوذ بالطاغوت فمَثله كمَثل مَن بقيَ مُعلّقاً بين السّماء والأرض لا يُمسك بشيء، ومثل هذا الشخص إمّا أن يصبح فريسة للكواسر وطعاماً للعِقبان أو تسوقه العواصف وتهوي به الريح إلى أماكن بعيدة وقاصية ليُسحَق ويتحوّل إلى ذَرور يتناثر هنا وهناك ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[4]، وهكذا فإنّ المشرك الذي يسقط في مجاهيل الأودية ولا يملك حصناً أو مستمسكاً يستند إليه فلن يبقى منه شيء يُذكَر.

---

١ . سورة التوبة، الآية ١١٢.
٢ . سورة البقرة، الآية ٢٥٥.
٣ . سورة الحجّ، الآية ٣١.
٤ . «سَحَقَ الشيءَ يَسْحَقُه سَحْقاً: دقَّه أشد الدقّ... وقيل: هو الدقّ بعد الدقّ... وسَحَقَت الريحُ الأَرضَ تَسْحَقُها سَحْقاً إذا عَفَّت الآثار وانْتَسَفَت الدِّقاقَ... والسُّحُق: البُعْد... وقد سَحُق الشيء، بالضمّ، فهو سَحِيق أي بعيد... وسَحَقَه اللهُ وأسْحَقه الله أي أبعده... ومكان سَحِيق: بَعِيد... أسْحَقَهم الله سُحْقاً أي باعَدَهم من رحمته مُباعَدة». (**لسان العرب**، مادّة «سحق»). [المترجم]



الله السّميع العَليم

يُمثّل ذيل الآية الشريفة التي تتضمّن اسميْن من أسماء الله الحسنى وهما ﴿سَمِيعٌ﴾ و﴿عَلِيمٌ﴾، يمثّل تأكيداً على مضمون الآية والضّامن لتطبيقه في الوقت نفسه، أي إنّ الله تعالى سميع وعالِم بحال المُكرِه والمُكرَه وأهل الرّشد والغَيّ والمؤمنين بالله والكافرين بالطاغوت و سميع وعالِم كذلك بحال المتمسّكين بالعروة الوثقى ومُطّلع على ما ظهر منهم وما بطن.

إشارات ولطائف

١ . أصالة الاستقلال والحريّة والفقر والعبودية

تُعتبر استقلالية الإنسان وحريّته مبدأيْن مهمّيْن من المبادئ الحقّية والسياسية والاجتماعية حيث يقوم العقل مؤيّداً بالنّقل بإدراكها بشكل مستقلّ. ويعني (الاستقلال) أن يتّخذ الفرد أو المجتمع قراراً لا يحتاج فيه إلى إذن من الآخرين، ولا تلعب إرادة الطرف أو الأطراف الأخرى في هذه الحالة أيّ دور في أفعال الفرد أو المجتمع المستقلّيْن، سواء أكان تأثير ذلك الدور كاملاً أم جزئياً أم مشروطاً، وأمّا (الحريّة) فتعني عدم امتلاك الآخرين في الأصل أيّ حقّ في التدخّل في شؤون الفرد أو المجتمع الحُرَّيْن ولزوم حصولهم على الإذن والرّضى من الفرد أو المجتمع الحرّ في كلّ ما يريدون القيام به.

ويُمثّل المبدءان المذكوران حكمين من الأحكام والمُدركات العقلية، أي إنّ العقل التامّ يمكنه الكشف بأنّ الله سبحانه قد خلق الفرد والمجتمع مستقلّيْن وحُرّيْن حيث يُعدّ هذا الحكم والإدراك العقليّان اللذان يُسمّيان في بعض الأحيان بمبدأ الاستقلال ومبدأ الحريّة من الأمارات الشرعية وليسا من قبيل الأصول العملية، فضلاً عن كونهما مقدَّمَيْن على الأصول العملية كما هو حال سائر الأمارات الشرعية الأخرى.

هـذا، وتظهـر فاعليـة المبـدأين المكـشوفيْن للعقـل والأمـارتيْن الـشرعيّتيْن الموثوقتيْن، ونعني بهما (الاستقلال) و(الحريّة)، تظهر عند المقارنة بين فـرد وفـردٍ آخر أو مجتمع ومجتمع آخـر أو بـين الفـرد والمجتمـع، ولكـن عنـد المقارنـة بـين الإنسان وبين البـارئ الخـالق ﷻ فـإنّ الحكـم الحقيـقيّ الـذي يكـشفه العقـل الخالص يتمثّل في الفقر والعبودية، ومعنى هذا أنّ مبدأ الاستقلال سـيتحوّل إلى مبدأ الفقر والحاجـة وسـيتبدّل مبـدأ الحريـة إلى مبـدأ آخـر باسـم مبـدأ العبـادة والعبودية، ويُعتبر ذانك المبدأان المقبولان كذلك إمارتيْن من الإمارات المـذكورة ولا شأن لهما بالمبدأ العمليّ، وهما يكشفان عن الواقع ولا يحـاولان إزالـة الحـيرة والغموض إبّان العمل. وبالاستناد إلى هذين المبـدأيْن المعقـوليْن وكـذلك بقيّـة المبادئ العقلية المنسجمة معها فإنّ قبول الدّين يعنـي التـديّن بمنظومـة العقائـد والأحكام الأصلية والفرعيـة كالعدل والحُسن، ويُعـدّ التمـرّد عـن ذلـك ظلـماً وقبيحاً.

وسيتمّ توضيح مسألة الاستقلال والحريّة بشكل أكثر تفصيلاً عند تفـسيرنا الآيات القرآنية التي تتضمّن تلك المعاني والمفردات.

٢ . الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والحرية

إنّ موضوع الأمر بالمعروف والنّهي عـن المنكـر لا يتعلّقـان بمـسألة ظهـور العقيدة الحقّة ولا بمَحو العقائد الباطلة لأنّ الأمـور القلبيـة والنفـسية لا تظهـر بالأمر ولا تختفي بالنّهي ولا يمكن تقييدها بالقوانين أو اللوائح أو المُقرّرات، إلّا أنّ مسألة التبليغ والتعليم والبحث التـي تـشكّل بمجموعهـا المراحـل الـثلاث الخاصّة بالتربية والتعليـم وظهـور الآراء تختلـف عـن مـسألة الأمـر بـالمعروف والنّهي عن المنكر، بل إنّ هناك بوناً شاسعاً بين حـدود المـسألة الأولى والأوامـر



المذكورة، وعليه، فإنّ موضوع الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ليست لهما أيّة علاقة بحرية العقيدة لا سلباً ولا إيجاباً، لكن عندما يتعلّق الأمر بأفعال الآخرين العَلنية والمكشوفة وتكون سبباً لانتهاك الحُرمات عندئذ تصبح مسألة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر واجبتين وتصبح حرية الطرف الآخر محدودة ضمن إطار العدالة التي تقوم الشريعة بتعيينها وتحديد معالمها. ويعود السّبب في إناطة العدالة وجزئيّاتها إلى الشريعة وحدها إلى كون الله سبحانه وتعالى هو الوحيد الذي يحقّ له تعريف العدالة وتفسيرها وهو وضع كلّ شيء في مكانه المناسب، باعتباره ﷻ مهندس العالَم ومعماريّ خلقة الإنسان والمؤسّس للعلاقة بين العالَم والإنسان، أي إنّه سبحانه الواضع لأضلاع المثلث المذكور، وقد أعلن تعالى ذلك وأبلغه للناس عَبر شريعته.

وهكذا نلاحظ أنّ عملية الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر تنسجمان مع حريّة القول والفعل الآمِرة من جهةٍ والناهية من جهة فضلاً عن عدم تناقضها مع الحريّة المأمورة المَنهيّة من جهة أخرى، فالشخص الذي يرتضي العيش في ظلّ نظام حكوميّ لا شكّ في أنّه ينبغي عليه الالتزام بقوانين ذلك النظام وشريعته، شأنه في ذلك شأن الآخرين المُقيمين معه تحت راية النظام المذكور. ومن الطبيعيّ أن يترتّب على ذلك الالتزام المتبادل وهذا العقد السياسيّ والاجتماعيّ المتبادل أيضاً، بعض الالتزامات الحقّية ويجب أن يكون الجميع متساوين في مراعاة قوانين ذلك النظام ومُشاركين في الرقابة الوطنية عليها، ولا يمكن لهذا الأمر والنّهي أن يكونا في الضدّ من حريّة أيّ شخصٍ من المواطنين.

٣. حكم المرتدّ في الإسلام

لمّا كان الحقّ منفصلاً عن الباطل تماماً ومستقلّاً عنه بالكامل، ولمّا كانت مسألة التوحيد والإلحاد قد أصبحتا واضحتين لا لَبس فيهما ولا مساومة، فإنّ

مَن لا يتعمّد السّير في السبيل المعوج ولا يختار طريق المغالطة فَلا محالة سيتفهّم الإسلام ويُدرك تعاليمه بالشكل الصحيح.

فإذا ارتدّ شخص ما عن إسلامه بعد اعتناقه إيّاه ودخوله فيه برضاه، وأصبح مرتدّاً ـ والعياذ بالله ـ فإنّه لا يعدو أن يكون مشمولاً بإحدى الحالات التالية:

أ. لن يُظهر ارتداده ولن يُعلِم أحداً بارتداده وفي هذه الحالة لن يشمله أيّ حكم فقهيّ سوى عذاب يوم القيامة وهذه مسألة خاصّة بعلم الكلام.

ب. إذا علم الآخرون بارتداد هذا الشخص وتبيّن لهم أنّ ارتداده جاء بعد قيامه بعدد من البحوث والتحقيقات والدراسات فإنّه يُعتبر وللأسف شخصاً قد اختار طريق الضلال عن عِلم ودراية وهو مصداق الشاكّ المتفحِّص، وفي مثل هذه الحالة كذلك لن يكون مشمولاً بأيّ حكم فقهيّ أو ما يُسمّى بالحدود المعهودة والمعروفة إذ لا سبيل إلى تطبيق الحدود الشرعية في موضع الشُّبهة. وقد نقل الصّدوق رحمه الله هذا المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وآله إذ قال: «**إِدْرَءُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ وَلَا شَفَاعَةَ وَلَا كَفَالَةَ وَلَا يَمِينَ فِي حَدٍّ**»[1].

ج. وإذا لم يكن ارتداد الشخص عن شُبهة علمية بل على أساس شهوة عمليّة فإنّه يخضع للحدّ المعروف، شريطة ألّا يكون ارتداده مليّاً بل فطريّاً[2]، إذ

---

١ . الشيخ الصّدوق، **مَن لا يحضره الفقيه**، ج٤، ص٧٤؛ **وسائل الشيعة**، ج٢٨، ص٤٧.

٢ . «الارتداد هو الرّجوع وإنما يقع اسم المرتدّ على مَن خرجَ من شيء ثمّ رجع إليه، فيُقال: ارتدّ، أي رجع إلى ما خرج منه، وهذا كالمشرك يكون على دينه ثمّ يُسلم ثمّ يرتدّ إلى الدين الذي كان عليه وهو الذي يُستَتاب». (القاضي أبو حنيفة النّعمان، **دعائم الإسلام**، ج٢، ص١٣٠١). «وأمّا حكمه فالمشهور بين الأصحاب أنّ الارتداد على قسمين: فطريّ ومِليّ؛ فالأوّل ارتداد مَن وُلِد على الإسلام بأن انعقدت [نطفته] حال إسلام أحد أبَوَيه، وهذا لا يُقبَل إسلامه لو رجع عليه، ويتحتّم قتله وتَبين منه امرأته وتعتدّ منه عدّة الوفاة وتُقَسّم أموالَه بين ورثته، وهذا الحكم ←



يتمّ هنا تقييد معنى الحريّة بمبدأ العدالة، أمّا المرجع الوحيد الذي يمكنه تعيين الحدود في مثل هذه الحالات فهو الله سبحانه وتعالى الذي تقوم ربوبيّته المطلقة على قواعد القسط وهو ما يشهد بصحّته العرفاء ويعترف بعقلانيّته الحكماء ونقله جميع المحدّثين والفقهاء.

٤. كمال الإنسان في التفكير والاختيار

ليس باستطاعة القدرات أو القوى الماديّة مهما تعاظمت امتلاك روح الإنسان المجرّدة أو السيطرة عليها كما أنّها عاجزة تماماً عن إجباره على اعتناق دين ما أو الالتزام بعقيدة مُعيّنة سواء أكانت حقّة أم باطلة، بتطميع قلبه وروحه أو تهديدهما أو ترغيبهما كما فعل مشركو مكّة عندما حاولوا إكراه الصحابيّ الجليل عمّار بن ياسر قلباً وباطناً على الارتداد عن دينه والعودة إلى الشّرك ثانية رغم كلّ أنواع العذاب وألوان الاضطهاد التي مارسوها معه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[1].

← بحسب الظاهر لا إشكال فيه بمعنى تعيّن قتله، وأما فيما بينه وبين الله فاختلفوا في قبول توبته فأكثر المحقّقين ذهبوا إلى القبول حذراً من تكليف ما لا يُطاق لو كان مكلّفاً بالإسلام، أو خروجه عن التكليف مادام حيّاً كامل العقل وهو باطل بالإجماع، فلو لم يطّلع عليه أحد أو لم يَقدر على قَتله فتابَ قَبِلت توبته فيما بينه وبين الله تعالى وصحّت عباداته ومعاملاته، ولكن لا يعود ماله وزوجته إليه بذلك، ويجوز له تجديد العقد عليها بعد العدّة أو فيها على احتمال، كما يجوز للزّوج العقد على المعتدّة بائناً حيث لا تكون محرّمة أبداً، ولا تُقتَل المرأة بل تُحبس دائماً وإن كانت مولودة على الفطرة، وتُضرب أوقات الصلوات. والثاني أن يكون مولوداً على الكُفر فأسلم ثمّ ارتدّ فهذا يُستَتاب على المشهور فإن امتنعَ قُتِل». (**بحار الأنوار**، ج٦٥، ص٢٥٩ ـ ٢٦٠). [المترجم]

١. **سورة النّحل**، الآية ١٠٦.



وأمّا الله ﷻ الذي يملك القدرة المطلقة والمحيط بجميع الأشياء وهو خالق الرّوح ومالكها فقادر بكلّ تأكيد على أن يروّض روح الإنسان بطرق عجيبة ووسائل غريبة ليَهديه إلى طريق الخير والسعادة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[1]. فعندما يواجه الجهلاء من الناس والغافلون منهم والضّالّون حالات اضطرارية في حياتهم وتحدق بهم الأخطار من كلّ جانب لا يجدون مفرّاً من الإيمان بصدق وإخلاص بالله سبحانه بعد أن تتكشّف لهم الحقائق وتُزال السُّتُر عن الوقائع، ولكن إن يصل هؤلاء إلى بَرّ الأمان ويطمئنّوا من زوال المخاطر عنهم حتى يُعلنوا عن سرائرهم ويتحوّلوا إلى الشّرك ثانية وإلى أهوائهم وشهواتهم بسبب جهلهم العلميّ أو جهالتهم العمليّة فلم يَرعَووا عن حَجب الحقيقة ولم يخجلوا من إخفائها: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[2].

إنّ كمال الإنسان لا يتجلّى إلّا في ضوء قدرته على التفكير والمعرفة والاختيار والانتقاء، ولا يمكن له أن يكون مبدأ الفعل بالإكراه بل مورداً له، أي إنّه يصبح قابلاً لا فاعلاً، وهذا يتناقض تماماً مع كمال الاختيار، ولذلك فإنّ الله ﷻ لم يؤسّس شريعته على أنقاض إكراه العباد وأطلال إجبار الناس، ولم تهدف رسالات الأنبياء ﷺ إلّا إلى بيان الحقّ وتوضيح الحقيقة ثمّ وضع ذلك كلّه في متناول أيدي الناس الذين إليهم يعود التصميم واتّخاذ القرار النهائيّ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[3]؛ لكن، وكما بيّنا فإنّ كلّا من الدليل العقليّ والنقليّ يحتّمان عليهم قبول الحقّ والاعتراف بالصّدق.

---

١ . سورة يونس ﷺ، الآية ٩٩.

٢ . سورة العنكبوت، الآية ٦٥.

٣ . سورة الكهف، الآية ٢٩.

٥. السرّ في تقدّم الإسلام

إنّ تاريخ صدر الإسلام شاهد حيّ على أنّ هذا الدّين الجديد لم يبدأ أعماله ونشاطاته إلّا بالاستناد إلى البراهين والأدلّة والاستدلالات العديدة، ويخبرنا التاريخ أنّ النبيّ الأعظم ﷺ وأصحابه لاقوا أشدّ أنواع العذاب والضغوط والتنكيل من المشركين لكنّ ذلك لم يمنعهم من إيصال كلمة الحقّ إلى آذان الآخرين من خلال سلاحهم الوحيد وهو التبليغ البليغ حتى تسنّى للكثيرين من أهل مكّة وقسم من المقيمين في المدينة الدخول في الإسلام إبّان تلك الفترة.

وفي المدينة المنوّرة حيث كان المسلمون يتلقّون الضّربات والدّسائس من كلّ جانب، فقد أذن الله سبحانه لهم بالدّفاع عن أنفسهم والجهاد ضدّ مَن لا يريد الخير والصّلاح: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[1] وقد كان دفاعاً من أجل الحفاظ على الحكومة الدينية وتخليص المسلمين وإنقاذ المحرومين من شرّ الكفّار وأصحاب الفِتَن والمشاغبين والمُخلّين بأمن الإسلام ودولته الحديثة الولادة.

ولم يُشهر المسلمون سيوفهم في وجه أعدائهم إلّا من أجل المحافظة على الإسلام والمسلمين وصدّ هجمات الأعداء والمُبغضين، وأمّا مَن يدّعي أنّ السّيف كان العامل الرئيسيّ لتقدّم الإسلام وانتشاره فادّعاؤه مُجحف وقوله غير مُنصف رغم أنّ الجهاد يُعدّ فريضة واجبة على كلّ مسلم لمواجهة الطغاة لأنّ القاعدة الإسلامية تنصّ على أنّ المؤمن بالطاغوت يُلزم محاربته، ولأنّ الطغاة وأذنابهم كانوا البادئين في إشعال نيران العداء ومحاربة استقلال الأمّة الإسلامية في جميع شؤونها وأمورها. ورَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ عَنِ النبيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا بَلَغَ بَنُو أَبِي الْعَاصِ ثَلَاثِينَ رَجُلًا اتَّخَذُوا دِينَ اللهِ دَغَلًا وَعِبَادَ اللهِ خَوَلًا وَمَالَ اللهِ دُوَلًا**»[2] ولم

١. سورة الحجّ، الآية ٣٩.

٢. بحار الأنوار، ج١٨، ص١٢٦.



يفكّروا بشيء سوى التسلّط والتّعالي على المسلمين وكان شعارهم الدّال على طغيانهم كما هي حال الطغاة عَبر التاريخ هو: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾[1]. وهكذا نرى أنّ من واجب المسلمين على الدّوام صدّ هجمات الطواغيت بسيوفهم والردّ عليهم برماحهم وبكلّ ما أُوتوا من قوّة وبأس ومَحو فكرة الاعتداء عليهم التي ما برحت تدور في أذهان أعدائهم منذ اللحظة الأولى التي ظهر فيها الإسلام: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[2].

وتجدر الإشارة هنا ـ وكما ذكرنا في البحث التفسيريّ كذلك ـ إلى أنّ الجهاد الابتدائيّ يتعلّق بالدّفاع والدّفاع معناه دَرء الخطر ورفع الضّرر وفقاً للتحليل النهائيّ لكلمة (الدّفاع).

والحقيقة أنّ الوسائل الدّعويّة إلى الإسلام والسلاح الذي استخدمه في سبيل شقّ طريقه نحو التقدّم لم يكن سوى الكلام البيّن والمنطق الواضح المدعوميْن بالبراهين الساطعة والمجادلة بالتي هي أحسن والحكمة والموعظة الحَسنة وتمييز الحقّ عن الباطل بالتمثيل والتشبيه الرّائعيْن.

وللبلاغ المبين والحديث البيّن رُكنان أساسيّان هما: أن يكون بسيطاً ومفهوماً من قِبَل الجميع، وأن يكون قائماً على أساس البحث والعلم ليفهم عامّة الناس وطبقة المُفكّرين والعلماء ذلك الكلام ويدركوه ويقبلوه من دون أن يعترضوا أو يُشكلوا عليه. ولهذا اعتبر القرآن الكريم أنّ الواجب الرئيسيّ والمهمّة الوحيدة التي أُلقيَت على عاتق الرسول الأعظم ﷺ هما (البلاغ المُبين) كما في قوله تعالى:

---

١. سورة طه عليه السلام، الآية ٦٤.

٢. سورة الأنفال، الآية ٦٠.

﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[١] وقوله سبحانه على لسان رُسله: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٢].

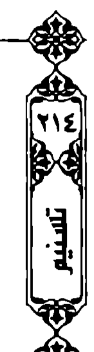
ولغَرض الفصل بين الحقّ والباطل وتعيين حدود كلّ واحدٍ منهما التي تميّزه عن الآخر نحن بحاجة إلى المُبَيِّن الذي يتمتّع بالصلاحية العلمية والجدارة الفكرية لكي يوضّح لنا الحقّ ويُعرّف لنا الباطل، وهذه مسؤوليّة وواجبة لا يتحمّلها سوى أمثال هؤلاء الأفراد: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٣] لكي تتمّ الحجّة على الجميع دون استثناء: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[٤].

٦. صفات الرّاشدين

تُطلَق صفة (الرّاشدين) في القرآن الكريم على الذين يتّصفون بالثبوتية وبحبّهم للإيمان وتبلوره وتزيينه في قلوبهم: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[٥] والذين تجنّبوا الصفات السلبية الثلاث وهي: الكُفر والفسوق والعصيان: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[٦] وهؤلاء هم مَن سَلِمَت فطرتهم ورشدت عقولهم: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[٧][٨].

---

١. سورة الشورى، الآية ٤٨.
٢. سورة يس ﷺ، الآية ١٧.
٣. سورة النّحل، الآية ٤٤.
٤. سورة الأنفال، الآية ٤٢.
٥و٦و٧. سورة الحجرات، الآية ٧.
٨. «قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ بيان أنّ حُبّ الإيمان والانجذاب إليه وكراهة الكفر والفسوق والعصيان هو سبب الرّشد الذي يطلبه الإنسان بفطرته ويتنفّر عن الغَيّ الذي يقابله، فعلى المؤمنين أن يلزموا الإيمان ويتجنّبوا الكفر والفسوق والعصيان حتى يَرشدوا ويتّبعوا ←



وهكذا فإنّ (الغَيّ) يقابله (الرُّشْد) وفي مقابل صفة (الغاوين) تكون صفة (الرّاشدين).

٧. الحقيقة الواحدة للقرآن والعترة الطاهرة

قلنا بأنّ المقصود بـ(العُروة الوُثقى) هو الدّين، واستناداً إلى حديث (الثّقلَيْن) المتواتر فإنّ الدّين يعني القرآن الكريم والعترة الطاهرة عليهم السلام معاً، ولهذا استُخدِمت صيغة المُفرد وهي كلمة (العُروة). والحقيقة هي أنّ كُلَّ واحدٍ من القرآن الكريم وعترة الرّسول صلى الله عليه وآله يُمَثّلُ ألياف الحبل الإلهيّ الواحد الملتفّة بعضها حول البعض، وهو ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث الثّقلَيْن المشهور بقوله: «[و]أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»[1].

إنّ الآصرة التي تربط بين كلّ أمرٍ من الكتاب العزيز والعترة النبويّة الشريفة عليهم السلام هي آصرة قويّة ومتينة لا يمكن من خلالها تعيين الحدود بينهما أو

←

الرّسول [صلى الله عليه وآله] ولا يتبعوا أهواءهم. ولمّا كان حُبّ الإيمان والانجذاب إليه وكراهة الكُفر ونحوه صفة بعض من كان الرّسول [صلى الله عليه وآله] فيهم دون الجميع كما تصرّح به الآية السابقة، وقد وصف بذلك جماعتهم تحفّظاً على وحدتهم وتشويقاً لِمَن لم يتّصف بذلك منهم غيّر السّياق والتفتَ عن خطابهم إلى خطاب النبي صلى الله عليه وآله فقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ والإشارة إلى من اتّصف بحُبّ الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان ليكون مدحاً للمتّصفين بذلك وتشويقاً لغيرهم». (تفسير الميزان، ج١٨، ص٣١٣ ـ ٣١٤). [المترجم]

١. صحيح مسلم، ج٥، ص٢٢ ـ ٦٦؛ الدرّ المنثور، ج٧، ص٣٤٩؛ «عَنْ سُلَيْمِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ سَمِعْتُ عَلِيّاً (ع) يَقُولُ:... قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جَعَلَنِيَ اللهُ فِدَاكَ أَوْضِحْ لِي. فَقَالَ: الَّذِينَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله فِي آخِرِ خُطْبَتِهِ يَوْمَ قَبَضَهُ اللهُ عزّ وجلّ إِلَيْهِ: إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، فَإِنَّ اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ قَدْ عَهِدَ إِلَيَّ أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ كَهَاتَيْنِ وَجَمَعَ بَيْنَ مُسَبِّحَتَيْهِ وَلَا أَقُولُ كَهَاتَيْنِ وَجَمَعَ بَيْنَ الْمُسَبِّحَةِ وَالْوُسْطَى فَتَسْبِقَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى فَتَمَسَّكُوا بِهِمَا لَا تَزِلُّوا وَلَا تَضِلُّوا وَلَا تَقَدَّمُوهُمْ فَتَضِلُّوا». (أنظر: أصول الكافي، ج٢، ص٤١٤؛ بحار الأنوار، ج٢، ص٩٩).

فصل أحدهما عن الآخر فكلاهما يمثّلانِ حقيقة واحدة تُسمّى (الدّين) أو (العُروة الوثقى) أو (حَبل الله).

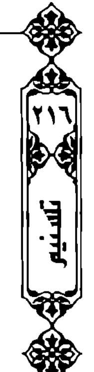
وبواسطة هذا الاتّحاد بين (القرآن الكريم) و(العترة) يمكننا استنباط أوصاف القرآن وصفات الرّسول ﷺ والأئمّة الأطهار عليهم السلام، وبواسطة أوصاف العترة الزكيّة كذلك نستطيع إدراك خصائص القرآن الكريم ومميّزاته. فالقرآن لفظ ومعنى لكنّ العترة الطاهرة عليهم السلام هم القرآن العَينيّ والمُمثّل، وكلّ واحدٍ منهما بحاجة إلى الآخر، إذاً، فليس المقصود بالشعار المعروف «*حَسبُنا كتِابَ الله*»[1] في الواقع سوى رَفض القرآن لأنّ القرآن من دون العترة هو كتاب من دون سطور.

وفي الآية الشريفة: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾[2] اعتُبِرَت (الولاية) بمثابة إكمال للدّين وإتمام للنّعمة، لكن لم تُطلَق على (القرآن الكريم) و(الولاية) سوى كلمة ﴿**الْإِسْلَامَ**﴾ بصيغتها المُفردة دون تَثنية ما يدلّ على أنّ العترة والقرآن الكريم يُمثّلان حقيقة واحدة لا غير.

---

١ . «عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: لمّا حَضرت النبيَّ ﷺ الوفاةَ وفي البيت رجالٌ فيهم عمر بن الخطّاب، فقال رسول الله ﷺ: هلمّوا أكتبُ لكم كتاباً لَن تَضِلّوا بعدَه أبداً. فقال [عمر بن الخطّاب]: لا تأتوه بشيء فإنّه قَد غَلبه الوَجَع، وعندكم القرآن؛ حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا فمنهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم رسول الله [ﷺ] ومنهم من يقول ما قال عمر. فلمّا كَثر اللّغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ: قوموا عنّي! قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: وكان ابن عباس رحمه الله يقول: الرّزية كلّ الرّزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لنا ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم». (**بحار الأنوار**، ج٢٢، ص٤٧٤). (أنظر أيضاً: **صحيح البخاري**، ص٣٧، الحديث رقم١؛ الشهرستانيّ، **الملل والنحل**، ج١، ص٢٣؛ نهج الحقّ، ص٢٧٣).

٢ . **سورة المائدة، الآية ٣**.

بحث روائيّ

١. شأن النّزول

قالَ الطبرسيّ رحمه الله: «... وقيلَ في رجلٍ من الأنصار يُدعى أبا الحصين وكان له ابنان فقَدِمَ تُجّار الشّام إلى المدينة يحملون الزيتَ، فلما أرادوا الرّجوع من المَدينة أتاهم ابنا أبي الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتَنَصّرا ومَضيا إلى الشام. فأخبرَ أبو الحصين رسولَ الله صلى الله عليه وآله فأنزلَ الله سبحانه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **أبْعَدَهُما اللهُ، هُما أوّلُ مَن كَفَر**»[1].

ـ عن ابن عباس [رضي الله عنه] قال: كانت المرأةُ من الأنصار تكون مِقلاةً لا يكاد يَعيش لها وَلَد، فتجعل على نفسها إن عاشَ لها ولد أن تُهوّدَه، فلـمّا أُجليَت بَنو النّضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا نَدعُ أبناءَنا [يظلّون على الديانة اليهودية]. فأنزلَ الله ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[2].

إشارة: بالاستناد إلى الشأن الأوّل لنزول الآية الشريفة فإنّها نزلت ـ كما ذُكِر ـ في رجل من الأنصار وابنَيْه، ووفقاً للشأن الثاني لنزولها فقيل إنّها نزلت في العادة التي كانت سائدة بين أهل المدينة قبل الإسلام وهي أن تنذر المرأة التي لا يكاد يعيش لها وَلد وتجعل على نفسها إن عاش لها وَلد أن تهوّده (أي تجعله على ملّة اليهود ودينهم).

وحول ذيل الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث رُويَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحبّ إسلام أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا حول المدينة، وكان يسأل اللهَ تعالى ذلك سرّاً وعلانية، فمعنى قوله ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يُريد لدعائك يا محمّد بحِرصِك عليه واجتهادِك[3].

---

١. تفسير **مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٣٠.
٢. السيوطيّ، **الدرّ المنثور**، ج٢، ص٢٠.
٣. الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، مج٤، ج٧، ص١٨.



وجدير بالذّكر أنّ ثمّة روايات أخرى أشارت إلى مناسبات أخرى في شأن نزول الآية الشريفة لكنّ تعدّد الروايات لا يعني تناقض بعضها مع البعض الآخر حول شأن النزول فربّما نزلت آية مُعيّنة أشارت إلى عدد من الأحداث بدلاً من حدث واحد.

تذكير: بالاستناد إلى كلمة (الأنصار) الواردة في الرواية المُشار إليها في أعلا الصفحة والتي تُقابل كلمة (المهاجرين) ـ كما هو معروف ـ فإنّه من غير المحتمَل أن يكون النّذر المذكور في الرواية الثانية قد وقع بعد ظهور الإسلام، وعليه، فمن المُستَبعد أن تنذر امرأة أنصاريّة بتهويد ابنها إذا عاش لها، ووفقاً لهذه القرينة يمكننا القول بأنّ العادة المذكورة كانت موجودة قبل الإسلام، وأمّا العلّة في نسبة تلك المرأة إلى الأنصار فهي العنوان فقط، أي إنّها كانت من جماعة أو قبيلة اشتهرت باسم (الأنصار) بعد ظهور الإسلام.

٢ . معنى «الطّاغوت»

فيه [الطاغوت] أقوال: أحدها أنّه الشيطان... [عن مجاهد وقتادة] وهو المَرويّ عن أبي عبد الله عليه السلام[1].

ـ عن داود بن كثير قال: قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: أنتُم الصّلاة في كتاب الله عزّ وجلّ...، فقال: «**يا داوُد! نَحنُ الصّلاةَ في كِتابِ الله عزّ وجلّ وَنَحنُ الزّكاةَ... وَنَحنُ الآيات وَنحنُ البيّنات وَعَدوّنا في كِتابِ الله عزّ وجلّ الفَحْشاءَ وَالمُنكَر... والجبْتَ وَالطّاغوت...**»[2].

---

١ . «(وثانيها) أنّه الكاهن ـ عن سعيد بن جبير ـ (وثالثها) أنّه السّاحر ـ عن أبي العالية ـ (ورابعها) أنّه مَرَدة الجنّ والإنس وكلّما يَطغى (وخامسها) أنّه الأصنام وما عُبِدَ من دون الله؛ وعلى الجملة فالمراد مَن كفَرَ بها خالفَ أمر الله». أنظر: الطبرسيّ، **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٣١.

٢ . **تفسير كنز الدقائق**، ج١، ص٦١٢.



إشارة: فُسّرت كلمة (الطّاغوت) في الروايات المذكورة بالشيطان وأعداء آل البيت عليهم السلام، لكن من الواضح أنّ هذا هو من باب تطبيق بعض المصاديق وبيانها وليس من باب التفسير المفهوميّ.

٣. مصاديق ﴿الْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «عُرْوَةُ اللهِ الْوُثْقَى التَّوْحِيدُ...»[١].

ـ عَن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَقَدِ استَمسَكَ بِالعُروةِ الوُثقى﴾ قال: «هِيَ الإيمانُ بِاللهِ وَحْدَه لا شَريكَ لَه»[٢].

ـ عَن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَقَدِ استَمسَكَ بِالعُروةِ الوُثقى﴾ قال: «مَوَدّتنا أهْلَ البَيْت»[٣].

ـ عَن أبي الحسن الرّضا عن أبيه عن آبائه عن علي عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَن أحَبّ أن يَركَبَ سَفينَةَ النّجاةِ ويَسْتَمسِك بِالعُروَة الوثقى ويَعتَصم بِحَبلِ الله المَتينِ فَليُوالِ عَليّاً بَعدي وَليُعادِ عَدوّه وَليَأتَمّ بالأئِمّةِ الهُداةِ مِن وُلدِه»[٤].

ـ عَن الرّضا عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رَسول الله صلى الله عليه وآله: سَتكون بَعدي فِتنة مُظلمة، النّاجي مِنها مَن استمسَكَ بالعُروَةِ الوثقى. فقيل: يا رسول الله! وَما العُروة الوثقى؟ قال: ولاية سيّد الوَصيّين. قيل: يا رسول الله! ومَن سيّد الوَصيّين؟ قال: أمِير المؤمِنين. قيل: يا رسول الله! ومَن أمير المؤمنين؟ قال: مَولى المُسلمينَ وإمامهم بَعدي. قيل: يا رسول الله! مَن مَولى المُسلمين وإمامهم بَعدك؟ قال: أخِي علي بن أبي طالب عليه السلام»[٥].

١ و٢ و٣ و٤. بحار الأنوار، ج٣، ص٢٧٩؛ تفسير نور الثقلين، ج١، ص٢٦٣.

٥. بحار الأنوار، ج٣٦، ص٢٠؛ تفسير البرهان، ج١، ص٥٣٧ ـ ٥٣٨.

ـ عَن الرّضا عليه السلام ... قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **الأئِمّةُ مِن وُلد الحُسين [عليه السلام]... هُم العُروَة الوثقى وهُم الوَسيلَة إلى الله تعالى**»[1].

إشارة: ١. تفيد الروايات المذكورة أنّ القرآن الكريم يُنادي إلى التوحيد وأنّ العترة الطاهرة عليهم السلام تُبيّن التوحيد والقرآن الكريم معاً لتربط بين المودّة القلبية للمسلم وبين الولاية؛ إذاً فالإيمان بالتوحيد الخالص معناه التمسّك بالعُروة الوثقى، كما أنّ الإيمان والعمل بالقرآن الكريم وتعاليمه هو التمسّك بالعُروة الوثقى، وحقيقة القرآن الكريم ليست مُنفصلة عن حقيقة آل البيت عليهم السلام، وعليه فإنّ التمسّك بأيّ واحدٍ منهما يعني التمسّك بالآخر، والتمسّك بآل البيت عليهم السلام من دون مودّتهم يُعدّ أمراً مستحيلاً فمودّتهم تُمثّل السّير باتّجاه العُروة الوثقى.

ورغم أنّ الروايات المذكورة هي روايات تطبيقية إلّا أنّها تبيّن المصاديق التامّة والحقيقية للآية الشريفة، بل هي في الواقع تُمثّل التفسير الباطنيّ للآية.

٢. إنّ للتوحيد مظاهر عديدة وليس بمقدور أحد الوصول إلى التوحيد الخالص ما لَم يكن يؤمن بمظاهر التوحيد المتمثّلة بأولياء الله الصالحين وخُلفائه الحقيقيّين الذين هم مظاهر لأسمائه الحسنى والعالِمين بحقائق الدّين وفروعه، فمظاهر الله سبحانه هي مَرايا لا تُرى فيها سوى أسماء الله الحسنى، وما تمّ نَقله عن الإمام الرّضا عليه السلام من شرط الولاية بالنسبة إلى حصن التوحيد: «**كَلمةُ لا إلهَ إلّا الله حِصني... بِشروطِها وأنا مِن شُروطها**»[2] يفيد هذا المعنى أيضاً، وما وَصلنا كذلك عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام من أنّ: «**ولاية عليّ بن أبي طالب**

١. **عيون أخبار الرّضا** عليه السلام، ج٢، ص٥٨؛ **تفسير نور الثقلين**، ج١، ص٢٦٣.
٢. **الأمالي للصدوق**، ص٢٣٥؛ **بحار الأنوار**، ج٣، ص٧.

حِصني»[1] يصبّ في هذا الغدير بعينه، فإذا شُبّه التوحيد بالمدينة فما من شكّ في أنّ الولاية تُعتبر بابها، ونعني بذلك ولاية المعصوم الكامل عليه السلام، كأن نعتبر الرسالة المحمّدية مدينة للعلم والإمامة بابها[2].

* * *

١ . الأمالي للصدوق، ص١٩٥؛ المناقب، ج٣، ص١٠١.
٢ . وسائل الشيعة، ج٢٧، ص٣٤ و ٧٦؛ بحار الأنوار، ج١٠، ص١١٩.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾

خلاصة التفسير

إنّ ثَمرة التمسّك بالعُروة الوثقى هي الإيمان القويّ والنور الأزليّ، لكنّ نتيجة عبادة الطاغوت لا يمكن أن تكون إلّا تعاظم الكُفر في قلوب أولياء الطاغوت وبقائهم وتخبّطهم في الظلمات يعمهون.

والله سبحانه وتعالى هو وليّ المؤمنين وقائدهم الذي يردّ عنهم كلّ ظُلمة وحُلْكة[1] لكنّ الطاغوت وهو العدوّ للجميع، المؤمنين والكافرين على السّواء، لا يُعلّم سوى الطغيان الذي يؤدّي إلى إطفاء نور الفطرة الإنسانية ويدفع الكافرين إلى الضياع في متاهات الظلمة والغَرق في لُجَج الكُفر وغَياهِب الشّرك.

ولا ريب في أنّ الله ﷻ هو المبدأ الفاعلي لإخراج مَن يريد مِن الظلمات إلى النور وأمّا الوَحي وإيمان الفرد فليسا سوى وسيلة لتهيئة الوسائل الخاصّة بعملية الخروج. فالمؤمنون لا يملكون إلّا وليّاً واحداً مُتفرّداً ولا يحملون من أهداف

---

١ . شِدّة السّواد. [المترجم]



سوى التنوّر والتزوّد بأكبر قَدر من النّور، وأمّا الكافرون فأولياؤهم كثيرون وساداتهم لا يُحصون وأهدافهم عديدة شتّى.

وليس للطاغوت صلاحية الولاية من الناحية الذاتية ـ كما هو معلوم ـ وإنّما تولّي الكافرين له هو ما يمنحه لقب الوليّ، وفيما عدا ذلك فهو لهم العدو المبين.

المُفردات

وَلِيُّ: الأصل الواحد في هذه المادّة هو وقوع شيء وراء شيء مع رابطة بينهما... والرابطة أيضاً أعمّ من أن تكون حَسنة أو سيّئة، فمن مصاديقه: الولاية بمعنى تدبير أمور الغير والقيام بكفاية جريان حياته ومعاشه فإنّ الوليّ والمُتولّي واقعانِ وراء المُتَوَلّى عليه والرابطة بينهما تدبير الأمور والقيام به[1].[2]

تناسب الآيات

تبيّنَ لنا أنّ معنى الكُفر بالطاغوت والإيمان بالله تعالى التمسّك ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ وتصرّح الآية الشريفة (٢٥٧) من سورة البقرة أنّ الله ﷻ لن يتخلّى عن المؤمن الذي يتمسّك بحبل دينه بقوّة بل سيُخرجه من قَعر الطبيعة وتَيه الكُفر والظلمة إلى أرض النور الشاسعة.

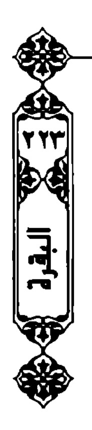
فمعنى التمسّك بحبل الله سبحانه هو إيمان القابِل وعمله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[3] وأمّا إخراج المؤمن من قعر الطبيعة وهدايته إلى النور الإلهي فذلك من فعل الله ﷻ لأنّه وليّ المؤمنين

---

١ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١٣، ص٢٠٤، مادّة (و ل ي).

٢ . لمزيد من التوضيح حول كلمتَيْ (وَلِيّ) أو (ولاية)، راجع: **تفسير تسنيم**، ج٧، ص٢٨٥.

٣ . **سورة البقرة**، الآية ٢٥٦.



جميعاً وهو معهم وقريب منهم دائماً: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ولا ريب في أنّ المؤمن ـ وهو المُولّى عليه ـ لا يستغني أبداً عن الفيض الذي يتلقّاه من مولاه ووليّه وهو الله سبحانه.

* * *

الوليّ الأوحد للمؤمنين

تتحدّث بداية الآية الشريفة عن الولاية بالذات وبالأصالة الخاصّة بالله ﷻ: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. ووفقاً للتوحيد الحقّ فإنّ الله سبحانه واحد لا شريك له وهو الوليّ الوحيد والسيّد السّديد، وأمّا ما يُنسَب إلى المؤمنين من أولياء آخرين أو ما جاء في القرآن الكريم على لسان الملائكة وهم يخاطبون المؤمنين قائلين: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[1] فإنّ ولاية هؤلاء لا تتعارض مع ولاية الله ﷻ بل يفعلون ذلك بأمر من الله تعالى وهم قنوات رَحمته وسُبُل فيضه، ولذلك نلاحظ ورود كلمة (الوليّ) بصيغة المفرد لأنّ الصراط المستقيم واحد والهدف واحد وكلّ ذلك بَيّن لا غموض فيه وكذلك كلمة (النّور) التي جاءت بصيغة المفرد: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾[2]، ولمّا كانت *الظلمات* طُرقها كثيرة وأزقّتها متشعّبة وعديدة فقد وردت بصيغة الجمع: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[3].

وجدير بالذّكر إضافة إلى الاستناد إلى التناسب الموجود بين كلّ من الحُكم والموضوع أنّ ولاية الله تعالى على المؤمنين هي ولاية إيمان وهذه الولاية هي السبب في تعاظم إيمان المؤمنين في حين أنّ ولاية الطاغوت على الكافرين هي

---

١ . سورة فصّلت، الآية ٣١.

٢و٣ . سورة الأنعام، الآية ١٥٣.



العلّة في تضخّم حجم الطغيان على الكافرين وازدياد عبء الكُفر الذي يحملونه.

معنى «الإخراج»

قلنا بأنّ الله سبحانه هو وليّ المؤمنين الذي تكفّل بإخراجهم من الظلمات (المتمثّلة بالمُعتقدات الباطلة والعادات الرذيلة والأخلاق السيّئة) إلى النّور (الذي يمثّل العقائد الحقّة والأخلاق الحَسنة والأعمال الصّالحة): **﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾**.

ولكلمة (الإخراج) مصداقان رئيسيّان، هما:

١) **الرّفع والإزالة:** فالرّفع هو إخراج أدران الظُلمة وأوساخ النّفس من الأفراد الذين تشبّعوا بهذه الرذائل وكانت لهم سوابق في العصيان وذلك لانغماس جزء من فطرتهم الخالصة في وَحل الظلمة ولمّا ينطفئ نور إيمانهم وفطرتهم بَعد.

تذكير: أ. إنّ من المؤمنين نُخبة ممّن **«عَظُمَ الخالِقُ في أنْفُسهِم فَصَغُر ما دُونَه في أعْيُنِهِم»**[1] يؤمنون بأنّ أداء المُباحات لا يكون إلّا في إطار أوامر الله تعالى وفي سبيل المحافظة على الحياة، وكلّ ذلك مصطبغ بالصّبغة العبادية، فالاشتغال بها لا يندرج في لائحة الظلمة ـ كما هو واضح.

ب. والطبقة الوسطى من المؤمنين الغارقين في اللذّات الطبيعية ولذيذ الحلال هي الأخرى تعيش في ظلّ الولاية الإلهية والله سبحانه يزيدهم إيماناً ولذّة: **﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾**[2].

---

١. نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٩٣.

٢. سورة الأنفال، الآية ٢.

ج. لا ريب في أنّ مثل هذه المسائل والأمور هي أنسب لترفيع الدرجات من الإخراج من الظلمة إلّا إذا بالغنا في توسيع معنى الظلمة من جهة وبحث مسألة الظلمة النسبية (لا النفسية) من جهة أخرى، وفي هذه الحالة ليس من الصّعب تفسير ذلك بالرّفع النسبيّ.

د. تجدر الإشارة إلى أنّ القرآن الكريم لا يعتبر الاهتمام باللذات الطبيعية والاشتغال بالمُباحات الحقيقية جزءاً من الظلمات إطلاقاً بل إنّ ما يقصده القرآن الكريم بالظلمات هو التَّتايُع[1] والهُلوع[2] على ذلك، والمؤمنون مصونون من هذه العادات بكلّ تأكيد كما أنّ المُصلّين الواقعيّين محفوظون من الهُلوع والجَزَع والمَنْع وهم ليسوا هَلوعين أو مَنوعين[3].

٢) الدّفع والوقاية: و*الإخراج* المتعلّق بالمؤمنين الباقين على فطرتهم النورانية والمحافظين عليها والذين صانوا أنفسهم من لَوث الظلمات الطبيعية وكدورتها، كالمعصومين أو الشّباب الصّالحين في المجتمع السليم، هذا الإخراج معناه دفع الأدران والظلمات عن أنفس هؤلاء النورانية ووقايتهم من وصولها إليهم. ولو قمنا بمقارنة عملية (الإخراج) في الفطرة والطبيعة معاً فسنرى أنّ المؤمن

---

١ . «التَّتايُع في الشيء وعلى الشيء: التَّهافُت فيه والمُتايَعةُ عليه والإسْراعُ إليه. يقال: تَتايَعُوا في الشرّ، إذا تَهافَتُوا وسارَعُوا إليه. والسكْرانُ يَتَتايَعُ أي يَرْمِي بنفسه وفي حديث النبيّ ﷺ: «ما يحمِلُكم على أن تَتايَعُوا». (**لسان العرب**، مادة «تيع» ـ بتصرّف). [المترجم]

٢ . «الهَلَعُ: الحِرْصُ، وقيل: الجَزَعُ وقِلّةُ الصبرِ، وقيل: هو أَسْوأُ الجَزَعِ وأَفْحَشُه... ورجلٌ هَلِعٌ وهالِعٌ وهَلُوعٌ وهِلْواعٌ وهِلْواعةٌ: جَزُوعٌ حرِيصٌ... وفي التنزيل: ﴿**إنّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً**﴾ ... هو الشَّرِهُ، وقال الفراء: الهَلُوعُ الضَّجُورُ، وصفته كما قال تعالى: ﴿**إذا مَسَّهُ الشَّرُ جَزُوعاً وإذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً**﴾... قال المبرّد: رجلٌ هَلُوعٌ، إذا كان لا يَصبر على خير ولا شرّ حتى يفعل في كلّ واحد منهما غير الحقّ». (**لسان العرب**، مادة «هلع» ـ بتصرّف). [المترجم]

٣ . «رجلٌ مَنُوعٌ ومانِعٌ ومَنّاعٌ: ضَنِينٌ مُمْسِكٌ، وفي التنزيل: ﴿**مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ**﴾ و ﴿**وإذا مَسَّهُ الخيرُ مَنُوعاً**﴾». (**لسان العرب**، مادة «منع» ـ بتصرّف). [المترجم]



والكافر لا يتشابهان في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ في إطار الطبيعة ويكون ذلك الإخراج من نوع (الدّفع) وحسب، لكنّهما سيتشابهان في قوله سبحانه: ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ من حيث الفطرة وهنا سيكون معنى الإخراج هو (الرّفع) وذلك لأنّ الطّاغوت يقوم بإزالة نور الفطرة من ناحية، ومن الناحية الأخرى الله ﷻ يدفع طبيعة الظلمة؛ وأمّا الفائدة المتوخّاة من المقارنة المذكورة فتكمن في استخدامات عنوان (الإخراج) في موضعيْن مُنفصليْن هما: (الدّفع) و(الرّفع)، خلافاً للوجه السّابق الذي تمّ فيه استخدام (الإخراج) في موضع واحد وهو (الدّفع) و(الرّفع) معاً.

تذكير: تُطلَق كلمة (الإخراج) ـ كما قال أمين الإسلام الطبرسيّ رحمه الله[1] ـ على حالة المَنع من الدّخول، فلو أشارَ أحدهم على آخر بالذهاب إلى بَلدة مُعيّنة لكان بإمكان الأوّل (المُشير) أن يقول: قد أخرجته من البلدة الفلانية؛ وإن كان الشخص الثاني لم يَزُر في حياته تلك البَلدة.

ومن الأمثلة والشّواهد التي تناسب هذا المقام في تأييد استخدام (الإخراج) بمعنى (الدّفع) ما يلي:

١. لاحظ أنّ الفعل (تركَ) في الآية الشريفة ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[2] يعني للوهلة الأُولى (دَفَعَ)، لكن إذا أخذنا بعَين الاعتبار فسَيّدنا يوسفَ عليه السلام لم يكن كافراً ـ والعياذ بالله ـ من قَبل ليقول بأنّه قد دفع ملّته وترك

---

١. «ووجه إخراج الله تعالى المؤمنين من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والطاعة هو أنّه هداهم إليه ونَصب الأدلّة لهم عليه ورغّبهم فيه وفعلَ بهم من الألطاف ما يقوّي به دواعيهم إلى فعله لأنّا قد علمنا أنّه لولا هذه الأمور لم يخرجوا من الكُفر إلى الإيمان، فصحّ إضافة (الإخراج) إليه تعالى لِكَوْن هذه الأمور التي عدّدناها من جهة الله تعالى، كما يصحّ من أحدنا إذا أشارَ إلى غيره بدخول بَلد من البلدان ورغّبه فيه وعرّفه ما له فيه من الصّلاح أن يقول: أنا أدخلتُ فُلاناً البلدَ الفلاني وأنا أخرجته من كذا وكذا». (**تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٣٢). [المترجم]

٢. **سورة يوسف** عليه السلام، الآية ٣٧.

كُفرهم وهاجر، إذاً، فإنّه عليه السلام يقصد بقوله: ﴿تَرَكْتُ﴾ أنّه لم يَرضَ بذلك، أي لَم يَقبل ولم يَرض بالحال التي كانت عليها ملّته (أي قومه).

٢. وفي الآية الشريفة من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[1] يشير الفعل (رَدّ) إلى معنى الدّفع، وبما أنّ الإنسان الذي أصبح شيخاً وكبيراً في السنّ لم يَسبق له أنّه كان شيخاً أو كبيراً في السنّ من قَبل حتى يُقال إنّه رُدّ إلى أرذل العُمر، إذاً، فإنّ معنى الفعل (رَدّ) هنا هو الردّ الابتدائيّ والمُستمرّ (المتواصل).

وفي معرض تأييده وإثباته لاستخدام كلمة (الإخراج) بمعنى (الدّفع) استدلّ الفخر الرازي بالآية الشريفة: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾[2] وقال: «ومعلوم أنّهم ما كانوا قطّ في النار... وقال: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وما كانوا فيه قطّ... فهذا الطريق يجوز استعمال (الإخراج) و(الإبعاد) في معنى (الدّفع) و(الرّفع) والله أعلم»[3].

---

١. سورة النّحل، الآية ٧٠.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

٣. «أمّا القرآن فقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ ومعلوم أنّهم ما كانوا قطّ في النار، وقال: ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ ولم يَكن نزلَ بهم عذاب ألبتّة، وقال في قصّة يوسف عليه السلام: ﴿تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ ولم يكن فيها قطّ، وقال: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وما كانوا فيه قطّ، وأمّا الخبر فرُويَ أنّه صلى الله عليه وآله سمَع إنساناً قال: أشهدُ أن لا إله إلّا الله؛ فقال [صلى الله عليه وآله]: على الفِطرة؛ فلما قال: أشهد أنّ محمداً رسول الله؛ فقال [صلى الله عليه وآله]: خرجَ مِنَ النّار؛ ومعلوم أنّه ما كان فيها. ورُوي أيضاً أنّه صلى الله عليه وآله أقبلَ على أصحابه فقال [صلى الله عليه وآله]: تَتَهافتون في النّار تَهافُتَ الجَراد وها أنا آخذُ بِحجزُكم؛ ومعلوم أنّهم ما كانوا مُتهافتين في النّار. وأمّا العُرف فهو أنّ الأب إذا أنفَق كلّ ماله فالابنُ قد يقول له: أخرجتني من مالِكَ؛ أي لم تجعل لي فيه شيئاً، لا أنّه كان فيه ثمّ أُخرِجَ منه، وتحقيقه أنّ العبدَ لو خَلا عن توفيق الله تعالى لوَقَعَ في الظّلمات، فصار توفيقه تعالى سَبباً لدَفع تلك الظّلمات عنه، وبين الدّفع والرّفع مشابهة، فهذا الطريق يجوز استعمال الإخراج والإبعاد في معنى الدّفع والرّفع والله أعلم». (التفسير الكبير، مج٤، ج٧، ص٢١).



لكنّ استدلال الرّازي ليس صحيحاً إذ إنّ مفاد الآية لا يعني أنّهم كانوا في النّار بل يشير إلى أنّهم كانوا على مَشارف السقوط في الهاوية فالضمير في حرف الجرّ ﴿مِنها﴾ يعود إلى (الحُفرة) ولذلك استخدمت الآية الشريفة حرف الجرّ ﴿عَلَى﴾ بدلاً من (في)[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّه من غير المنطقيّ أن يُقال: ربّما كان أولئك في النّار حقّاً بحيث لو اطّلعَ أحد عليهم بعين برزخيّة لرآها بالفعل؛ إذ لا يمكن إدخال أحد في النار قبل إتمام الحجّة عليه. وهكذا فإنّ القول بإنقاذ الجاهليّين من النار هو من باب (الدّفع) لا (الرّفع) ـ يعني الوقاية لا العلاج[2] ـ وإذا اعتبرنا الضمير في حرف الجرّ ﴿مِنها﴾ يعود إلى ﴿النّارِ﴾ عندئذ يكون معنى (الرّفع) أنسب.

وأمّا الفخر الرازي فقد أوّلَ «كَشف العذاب» في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[3] بمعنى (الدّفع) كذلك مشيراً إلى أنّه كان من المُقرّر إنزال العذاب بقوم سيّدنا يونس عليه السلام لكنّ الله سبحانه سلّم ودفعَ عنهم ذلك[4].

واستشهاد الفخر الرّازي المذكور ليس صواباً كذلك لأنّ العذاب الذي تُخبرنا به الآية الشريفة يتمثّل في الذلّ والهوان في الدّنيا، فضلاً عن ذلك يمكننا

---

١ . «الشَّفا: حرْفُ الشيءِ وحَدُّه، قال الله تعالى: على شَفى جُرُفٍ هارٍ... وشَفى كلِّ شيء: حَرْفُه... وأَشْفى على الشيء: أَشرفَ عليه، وهو من ذلك. ويقال: أَشفى على الهلاك إذا أَشرفَ عليه... وأشافَ على الشيء وأَشفى أي أَشرَفَ عليه. وشَفَت الشمس تَشفُوا: قارَبَت الغُروب، والكلمة واوِيَّة ويائيَّة». (**لسان العرب**، مادّة «شفي» ـ بتصرّف). [المترجم]

٢ . العبارة بين الشّرطتيْن من المترجم.

٣ . **سورة يونس** عليه السلام، الآية ٩٨.

٤ . **التفسير الكبير**، مج٤، ج٧، ص٢١.



القول بأنّ العذاب المذكور كان وشيكاً بالفعل وأنّ قوم يونس عليه السلام كانوا قد شعروا به وأحسّوا بنزوله لكنّما رُفِعَ عنهم لإيمانهم الحقيقيّ برسولهم وصِدق دعوته في النهاية.

مبدأ الإخراج من الظّلمات

لا شكّ في أنّ كلّا من الوَحي والعِلم والفطرة الإنسانية يُمثّل نوراً لكنّ كلّ واحد منهنّ أيضاً يُعتبر علّة مُعدّة للإخراج من الظلمات إلى النور، أمّا المبدأ الفاعليّ وبالذات لتلك العلّة فهو الله سبحانه وتعالى، فالله عزّ وجلّ يضع آثاره وتأثيراته على أنفس المؤمنين المتمسّكين بالعروة الوثقى فيخرجهم من غيابة جُبّ الظلمات الطبيعية إلى أرض الفطرة الواسعة المليئة بالنور، وهنا يلعب نور الفطرة دوره في داخل الإنسان بينما يقوم نور الوَحي بإعداده من الخارج ليهيّئا بذلك الأرضية اللازمة والمقدّمات الفاعلية الإلهيّة ويُحوّلا شَمعة وجوده الإنسانيّ إلى شمس مضيئة ومشرقة: ﴿**اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾.

فالتمسّك بالحبل الإلهيّ هو مسؤولية القابِل، أمّا سَحب ذلك القابِل إلى الأعلى فهو من فعل الفاعِل (وهو الله سبحانه)، وهذا يشبه تماماً ما يقوم به الفلّاح حيث يحرث الأرض وينثر البذور ويسقي الزّرع، لكنّ نموّ الزّرع وخروج النّبات حتى يستغلظ ويستوي على سُوقِه أمران لا يستطيع عليهما أحد سوى الله الواحد القهّار: ﴿**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**﴾[1] ففاعليّة الله تعالى التامّة جارية وسارية في كلّ جزء من أجزاء النظام الكونيّ.

---

١ . **سورة الواقعة**، الآيتان ٦٣ و ٦٤.



وجدير بالذّكر أنّ الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث تؤكّد على أنّ عملية الإخراج من الظلمات إلى النور لا تجري إلّا على يَد الله تعالى وحده ولكن نُسبت تلك العملية في آيات أُخَر إلى النبيّ ﷺ أو الملائكة بمُفردهم أو بمعونة الفيض الإلهيّ مثل قوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[1] و﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[2] و﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾[3] و﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[4] وذلك لأنّ مسؤولية الرّسول الأعظم ﷺ وبعض الملائكة ـ وفقاً لبعض المبادئ ـ تقع على طول فعل الله تعالى لا في عرضه، ولكن تُمثّل مسؤوليّاتهم بالاستناد إلى مبادئ أخرى مظهراً حقيقياً لأفعال الله ﷻ؛ المهمّ أنّ تعدّد الإسناد لا يتناقض مع اقتصار الفاعليّة على الله سبحانه وحده.

تذكير: إنّ عنوان (الطول) و(العرض) المذكورَيْن ليس لهما أيّة حقيقة شرعية أو تشريعية بل هو مصطلح وضعه واستخدمه أصحاب الفنون الخاصّة، فأمّا المعنى الذي يشير إليه الوجود أو الصّفة أو الفعل العَرضيّ فمفهوم إلى حدّ ما ولهذا يمكننا القول بصراحة وبشكل حاسم إنّه لا توجد ذات أو صفة أو فعل على عَرض ذات الله سبحانه أو صفته أو فعله؛ وأمّا ما يتعلّق بالمعنى الطوليّ فينبغي التدقيق جيّداً في حالات استخدام العنوان المذكور رغم أنّه لم يَقُم أيّ دليل عقليّ بَعد على اقتصار موارد استخدامه ولم يَجْرِ أيّ استقراء يُذكَر حوله بشكل تامّ، ومع ذلك يمكننا القول بما يلي:

---

١ . سورة إبراهيم عليه السلام، الآية ٥.
٢ . سورة إبراهيم عليه السلام، الآية ١.
٣ . سورة المائدة، الآية ١٦.
٤ . سورة الأحزاب، الآية ٤٣.



١. وجود الفاعلية الطولية في إدارة شؤون المجتمع وفقاً لسلسلة المراتب حيث يقوم المدير العامّ في مثل ذلك الكيان بإصدار الأوامر وتنفيذ بعض الأعمال الرئيسيّة ثمّ يُبادر المدراء الثانويّون والأصغر مرتبة من المدير العامّ وأعضاء الهيئة التنفيذيّة في المراتب الدنيا إلى تحمّل مسؤولية تطبيق البرنامج المذكور الذي وضعه المدير العامّ. وبناءً على هذه الفرضية يكون المدراء في المؤسسة المذكورة يعملون ويمارسون نشاطاتهم على طول عمل ونشاط كلّ واحد منهم وتقع مسؤولية كلّ عَمل يُنَفَّذ على المدير الخاصّ لتنتهي بذلك مسؤولية المدير الأعلى منه ويحين موعد قيام المدير الأدنى بتسلّم مَهامّه.

إنّ فعل الله ﷻ في تدبير هذا العالَم ومَن فيه من مخلوقات بشرية وغيرها والرّبط بين تلك الأعمال والتنسيق فيما بينها يتركّز على وضع وتنظيم الأضلاع الثلاثة للمثلث، وهو ليس تنظيماً اعتبارياً ولا ينتهي فيه عمله أو يتوقّف عن ممارسة نشاطاته لتبدأ مسؤولية المخلوق أو الموجود بدلاً من ذلك، فمَرَدّ هذه الفاعلية الطولية إلى الفاعلية العَرضية في نفس الوقت الذي تكون فيه الفاعلية الأُولى اعتبارية.

٢. تكون الحالة الطولية في المسائل التكوينية مثل سلسلة العِلل الخارجية سواء أكانت في الآفاق أمْ في الأنفس حيث يتلقّى كلّ موجود ضعيف أصلَ الوجود وجهة الفاعلية التكوينية خاصّته من موجود أقوى منه والذي يتلقّى هذا الأخير بدوره أصل ذاته وكماله ممّن هو أقوى منه، وهكذا وصولاً إلى رأس أو قمّة سلسلة العِلل.

وقد تناول المتكلّمون والفلاسفة موضوع الحالة الطولية بالمعنى الذي أشرنا إليه في الكثير من كُتبهم ومؤلّفاتهم، لكن، وللحيلولة دون نسبة الطولية بالمعنى المذكور إلى [الحالة] العرضية، ينبغي أن نعرف ما إذا كان من الواجب على كلّ



موجود من الموجودات الإمكانية التي تتلقّى هويّتها الرّبطية (لا الرابطية) أن يُشكّل حلقة في سلسلة حلقات الوجود بحيث يتحقّق في نظام التكوين واحدة من الهويّات الحقيقية والأوصاف الحقيقية والأفعال الحقيقية؛ لكن مهما يكن من أمر فلا شكّ في أنّها جميعاً تُمثّل المراتب التشكيكية لحقيقة واحدة وهذا الموضوع ـ كما هو واضح ـ يتعلّق بمسألة إلهية عامّة حيث تُطرح عملية التشكيك في الوجود وتعدّد مراتبه، أمّا من الناحية الإلهية الخاصّة، فبعد بيان المنع في المجالَيْن (مَجال الذات والاكتناه الصفاتيّ الذي هو عين الذات حيث لا يمكن لأيّ كان بلوغ ذلك المقام) يأتي دور المجال الثالث المتمثّل بالفيض المُنبسط وأفعال الله سبحانه وتعالى.

وفي المجال المذكور (المجال الثالث) يتمّ إثبات عدم محدودية الفعل الإلهيّ ليُطرَح بعد ذلك السؤال التالي: «ما معنى قولنا: إنّ فعل المَلائكة أو القرآن الكريم أو النبيّ أو الإمام المُمَثَّل بإخراج المؤمن من الظلمات إلى النور يكون على طول الإفاضة الإلهيّة؟ هل يعني ذلك أنّ الإفاضة الإلهيّة تحتلّ المرتبة الأولى ثمّ تأتي بعد ذلك إفاضة الملائكة وغيرهم بالدرجة الثانية وتكون إفاضتهم مرتبطة بإفاضة الله تعالى بحيث تكون الملائكة هي الفاعلةَ الرئيسيّة دون منازع ويبقى الله ﷻ بعيداً عن تلك الفاعلية؟ وفي هذه الحالة تعود الفاعلية الطولية هنا إلى الفاعلية العَرضية؛ أم إنّ ذلك يعني أنّ الله تعالى ـ في مقام الفعل ـ والملائكة وغيرهم ـ في مقام الفاعل ـ يعملون بشكل مستقلّ عن الآخر؟ ولا شكّ هنا في أنّ مثل هذا الفعل يتطلّب الحالة العرضية لا الطولية بصرف النّظر عن الامتناع الذاتيّ إذ إنّ دخول عِلّتيْن مُستقلّتيْن على معلول واحد يعني حاجة هذا الأخير إلى كلّ واحدة من العلّتيْن المذكورتيْن وفي الوقت نفسه يكون غنيّاً عن كلتيهما، وهو أمر قد يؤدّي إلى اجتماع النّقيضيْن».

هل يكون الجواب على السؤال المذكور هو: أنّ الله سبحانه والملائكة وغيرهم يُمثّلون جزءاً من العلّة الفاعلية وأنّهم شُركاء في ذلك لينجم عن اجتماعهم معاً إيجاد العلّة التامّة؟ إنّ هذا الافتراض يستلزم دخول النّقص إلى فاعليّة الله والحاجة إلى إتمام النصاب الفاعليّ فضلاً عن أنّ مردّ الافتراض المذكور إلى الحالة العَرضية؛ ثمّ إذا كان الله ﷻ يتحمّل مسؤولية فاعليّة الإخراج من الظلمات إلى النور ويقتصر دَور الملائكة والآخرين على كونهم ظُهَراء ومُعاونين له تعالى، فعندئذ ستصبح استقلالية الموجود الإمكانيّ ومشاركته في العمل ومظاهرته لله أمراً ممتنعاً. ورغم ذلك فإنّ أيّاً من الأوجه المذكورة لم يستطع تكوين صورة واضحة عن الفاعلية الطولية، وأمّا موضوع مظهرية الممكن بالنسبة إلى الواجب بالشكل الذي تكون فيه الصورة المرآتية مظهراً لصاحب الصورة (كما نقل ذلك الشيخ الصّدوق رحمه الله في كتابه الشريف الموسوم *التوحيد*)[1] فيتعلّق بالتصوير التمثيليّ للحالة الطولية، فلو أصبح الموجود الممكن أداة لفعل الواجب فعندئذ سيكون الموجود الإمكانيّ مبدأً قابليّاً لا فاعليّاً لأنّه لا يمكن لآلة الفعل أن تصبح فاعلةً على الإطلاق، لا على طول الفاعل السابق ولا في عَرضه، وهذا ما يُستفاد من الحديث النورانيّ الخاصّ بقُرب النوافل[2]؛ إذاً فلا غرابة إذا أسمينا مثل هذا الفاعل الظاهر والمُظهر (الآية وذي الآية) بالفاعلية الطولية.

مراتب الإخراج من الظلمات إلى النور

إنّ لعملية الإخراج من الظلمات إلى النور مراتب ودرجات كما أنّ للنّور

---

١ . أنظر: **التوحيد**، ص٤١٧ ـ ٤٥٤ (باب ذكر مجلس الرّضا عليه السلام).

٢ . **علل الشرائع**، ج١، ص١٢؛ **وسائل الشيعة**، ج٤، ص٧٢.



وللظلمات أيضاً درجات ومراتب مشابهة، فالنور له مراتب وكلّ مراتبه ظاهرة ومُظهرة، وللظلمات أدراك وكلّ أدراكها مظلمة ومانِعة، فقد يمتلك شخص ما مرتبة من مراتب نور العلم والإيمان فيرفعه الله سبحانه إلى درجة أرفع باعتباره تعالى وليّ المؤمنين، كأن يرتقي من العلم الحصوليّ إلى العلم الحضوريّ أو من علم اليقين إلى عَين اليقين أو من عين اليقين إلى حقّ اليقين، إلّا أنّ هذه الإفاضة هي مصداق قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[1] ولا تندرج تحت عنوان الإخراج من الظلمة إلى النور إلّا إذا أراد أحد ما اعتبار النور الضعيف ظلمة والنور الشديد ظلمة كذلك بالمقارنة مع النور الأشدّ منه.

وعلى أيّة حال فإنّ ارتفاع درجة العلم والإيمان: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[2] ليس من سنخ الإخراج من الظلمات إلى النور لكنّ الطريق المُجاز مفتوح أمامهم خاصّة على أساس التشكيك أو ما هو أفضل منه، ويصبح كلّ موجود غائب مشهوداً وتتحوّل مرتبة الغيب الخاصّة بالفرد إلى الشهادة وكأنّه خرج من الظلمات إلى النور؛ وأمّا ما رُويَ عن خاتم النبيّين ﷺ قوله: «**إنّهُ لَيُغانُ عَلى قَلبي وَإنّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ في كُلِّ يَوْمٍ سَبْعينَ مَرّةً**»[3] فيُحمَل كذلك على الدّفع لا الرّفع، ومعنى قوله ﷺ هو أنّه يستغفر رَبّه حتى لا يأتيه الغَيْن لا كَونه ﷺ في الغَيْن بالفعل[4].

---

١ . **سورة المجادلة**، الآية ١١.

٢ . **سورة الأنفال**، الآية ٢.

٣ . **جامع الأخبار**، ص٥٧؛ **بحار الأنوار**، ج٢٥، ص٢٠٤.

٤ . «غِينَ على قلبه غَيْناً: تغشّته الشَّهْوةُ، وقيل: غِينَ على قلبه غُطِّيَ عليه وأُلْبِسَ؛ وغِينَ على الرجل كذا أي غُطِّيَ عليه». (**لسان العرب**، مادة «غين»). [المترجم]

وإذا صحّ استخدام (الظلمة) على الاشتغال بالمُباح فإنّ ذلك إنّما هو من باب المَجاز لا سنخ الحقيقة إذ إمّا أن يكون أصل استخدام هذه الكلمة صحيحاً أو خطأً، فإذا كان صحيحاً فإمّا أن يكون حقيقة أو مَجازاً.

فالإخراج بصيغة الدّفع أو الرّفع فيما يخصّ عامّة الناس والذين هم في أوّل السّلم هو أن يقوم الله سبحانه بإنقاذهم من الظلمات وإيصالهم إلى النور، وأمّا أولئك الذين بلغوا مُنتصَف الطريق فإنّه يُزيدهم إيماناً وهداية وبَركة، مثل أصحاب الكهف الذين قال عنهم القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[1].

وأمّا عمليّة *الإخراج* من الظلمات إلى النور بالنسبة إلى السالكين العارفين والعالِمين فمعناها يفوق مجرّد الإخراج من الظُّلمة والوصول إلى النّور، وهي كذلك أكبر من مجرّد الأمن من الخوف والحزن والحصول على الطمأنينة اللازمة، فمثل هؤلاء يقوم الله ﷻ بإخراجهم من ظلمة الطبيعة وإيصالهم إلى مقام الطمأنينة والثقة به سبحانه والرّضا بقضائه ويكونون مَرضيّين عنده: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾[2] فالأمر بالرّجوع ﴿ارْجِعِي﴾ في الآية الأخيرة ليس لفظاً بل هو فعلٌ من أفعال الله تعالى يشير إلى الإخراج من الظلمات إلى النور والإذن بدخول هؤلاء المؤمنين إلى جنّة اللقاء: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[3] وعندما يُقارن بين أصحاب النّفوس المطمئنّة ـ وهم في ذلك المقام ـ وبين المقرّبين فإنّهم يَرون أنفسهم وكأنّها في ظُلمة ولكي يَصلوا إلى مقام المقرّبين ينبغي إخراجهم من الظلمات إلى النور.

---

١ . سورة الكهف، الآيتان ١٣ و ١٤.

٢ . سورة الفجر، الآيتان ٢٧ و ٢٨.

٣ . سورة الفجر، الآيتان ٢٩ و ٣٠.



الشروط المكمّلة للإخراج من الظُلمات

لا شكّ في أنّ الإيمان والعمل الصالح هما شرطان مُكمّلان للإخراج من الظلمات إلى النور والقاعدة الأساسيّة التي ينطلق منها العاملون: ﴿**رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾[1]. ورغم أنّ الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث لَم تُشِر إلّا إلى الإيمان دون أن تتحدّث عن العمل الصّالح، لكن، وبالنّظر إلى كلتا الآيتيْن والتركيز على وحدة الموضوع والحُكم يمكننا الاستنتاج بأنّ المقصود بالفعل ﴿ **آمَنُوا**﴾ في الآية الّتي هي موضوع البحث هم المؤمنون من ذوي العمل الصّالح، أي إنّ الإيمان بمُفرده لا يُفيد إلّا إذا كان مصحوباً بالعمل الصالح ونعني هنا بالفائدة *كمال الإخراج* من الظلمات إلى النور وإلّا فإنّ أصل الإخراج ممكن بواسطة الإيمان (حتى في غياب العمل الصالح)، أي إنّه ليس ثمّة سبب لامتناعه.

واستناداً إلى المسألة المذكورة وحول هدف القرآن الكريم ـ المتمثّل بإخراج الناس من الظلمات إلى النور: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾[2] ـ ينبغي القول بأنّ الأفراد الذين يؤمنون بالله سبحانه والمتمسّكين بالعُروة الوثقى هم الذين سيُخرَجون من الظلمات إلى النور، والمقصود هنا كذلك هو الاستفادة التامّة على الرّغم من أنّ أصل الاستفادة أو الانتفاع موجود وممكن بالفعل مع وجود الإيمان وحده كما أنّ الهدف من نزول القرآن الكريم هو هداية الناس: ﴿**هُدًى لِلنَّاسِ**﴾[3] لكنّ المتّقين هم وحدهم المُستفيدون من هداية

---

١ . سورة الطلاق، الآية ١١.

٢ . سورة إبراهيم عليه السلام، الآية ١ .

٣ . سورة البقرة، الآية ١٨٥.



القرآن الكريم: ﴿هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] وأمّا الآخرون فيبقون في الظلمات، بل قد أكّد القرآن الكريم على أنّه مع نزول كلّ آية يزداد جحودهم وإنكارهم ليشملهم حكم الله سبحانه بقوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[2].

تذكير: أشرنا سابقاً إلى أنّ حصول النور باعتباره حقيقة العلم يتطلّب وجود علّة فاعلية إلى جانب العلل الموجودة مثل إرسال الوَحي وإنزال القرآن الكريم في الخارج وحثّ العقل في الباطن، وما تلك العلّة الفاعلية سوى الله تعالى الذي يُهيّئ العلل الأعدادية وهو نفسه سبحانه العلّة الحقيقية التي تُلقي النور في قلب الإنسان: «**إنّما هو [العلم] نُورٌ يَقَعُ في قَلْبِ مَن يُرِيدُ اللهُ تبارك وتعالى أن يَهْدِيه**»[3].

معنى ولاية الطاغوت

لا ريب في أنّ (ولاية الطاغوت) لا تعني سوى تدريس الطغيان وتعليم العصيان، ومن أماراته وعلاماته الاعتداء على حقوق الآخرين وإنكار الحقّ رغم وضوحه وتلألُؤه، فلا عامل ولا مُسبّب إذاً للطغيان سوى الطاغوت، وقد سمّى الله ﷻ الكافرين بالمُعتدين في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ﴾[4] و(العَدوّ) هو مَن يعتدي على حقوق الآخرين، فإذا كان وليّ الشخص هو عدَوّه فلا ريب في أنّه سيُعلّمه كيفية الاعتداء على الآخرين.

إنّ الشيطان [الرّجيم] الذي يُمثّل رأس الطواغيت جميعاً لا يكتفي بجرّ الإنسان إلى طريق الضلال والعمل على وسوسته لارتكاب الباطل، بل يعمد

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢.

٢ . سورة الإسراء، الآية ٨٢.

٣ . **بحار الأنوار**، ج١، ص٢٢٤؛ **مُنية المريد**، ص١٤٩.

٤ . سورة البقرة، الآية ٢٢٩.

كذلك إلى إضعاف نور الفطرة عند مَن تولّاه، فيغرز برائنه في قلب ذلك الشخص فيصير هذا الأخير مظهراً لإرادة الشيطان ولسانه الذي ينطق به: «فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ ونَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ»[1].

ووفقاً للصناعة الأدبية كان لا بدّ من القول مثلاً: «والطّاغوت وَلِيُّ الّذينَ كَفَروا» لكنّ القرآن الكريم أحجم عن ذِكر هذه العبارة إذ بصرف النّظر عن مُراعاة الأدب في عدم التّصريح بالمقابلة بين الله ﷻ وبين الطاغوت، ينبغي الإشارة هنا إلى أنّ الطاغوت في الحقيقة ليس وليّاً لا للكافر ولا لأيّ واحدٍ من الناس بل هو عدوّهم ولا يمكن للعدوّ أن يكون وليّاً لعدوّه لا سيّما إذا علمنا أنّ كلمة (الوَليّ) تتضمّن معنى القُرب والمحبّة بين (الوليّ) و(المولّى عليه) بالإضافة إلى معنى (الولاية) أو (الوصاية) ومن المعروف أنّ الولاية الحقّة يُصاحبها حُبّ (المولّى عليه) والعطف عليه كولاية الله سبحانه على عباده: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[2].

إنّ ما يريده الطاغوت من المؤمن والكافر على السّواء لا يمتّ للمحبّة أو العطف بأيّة صِلة بل هو عدوّهما اللّدود، ولن يرتاح له بال أو يَغمض له جَفن إلّا بعد أن يقودهما إلى مستنقع الضلال وطريق الهلاك، وهكذا فإنّه [أي الطاغوت] لا يمكن أن يكون وليّهما الحقيقيّ المخلص، ولكن، بسبب سوء اختيار البعض ممّن أخضع نفسه وسلّم رقبته للطاغوت شاع استخدام عنوان (الوليّ) عليه: ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾. وما لَم يقُم أحد باتّخاذ الطاغوت وليّاً له

١ . «اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مِلَاكاً واتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً فَبَاضَ وفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ ودَبَّ ودَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ ونَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ وزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ ونَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَى لِسَانِهِ». (نهج البلاغة، الخطبة رقم ٧).

٢ . سورة المائدة، الآية ٥٤.



فلا يصحّ إطلاق كلمة (الوليّ) على الطاغوت ولهذا يصف القرآن الكريم حالة هؤلاء الكفّار وولايتهم للطاغوت في بعض الآيات بالفعل «تَولّى» كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[1] وعن وضع بعض من أهل الكتاب ممّن اتّخذوا الأحبار والرّهبان أرباباً لهم يقول القرآن الكريم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾[2]، ومن المعلوم أنّه من غير المنطقيّ إطلاق كلمة (الطعام) على (السُمّ) لأنّ هذا الأخير لا يشمل أيّ فائدة غذائية، ومع ذلك نرى البعض يستخدمه كعنصر غذائيّ وعامل دوائيّ فيعتاد على تناوله رغم ما يُعرَف عن السمّ من إبادته للجهاز الهضميّ وأنّه لا يمكن أن يكون مصدراً للغذاء على الإطلاق[3].

الطاغوت يُحاسب أولياءه

قد يستنتج البعض من المقابلة اللفظية بين (الله سبحانه) وبين (الطاغوت)

---

١. سورة الحجّ، الآية ٤.

٢. سورة التوبة، الآية ٣١.

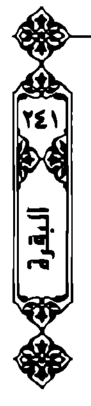
٣. قال الفخر الرازي: «(الوليّ): فَعيل، بمعنى فاعل من قولهم: وُلِيَ فلانٌ الشيءَ يَليه ولاية فهو (والٍ) و(وَليّ)، وأصله من الوَليّ الذي هو القُرب... ومنه يُقال: داري تلي دارها، أي تقرُب منها، ومنه يُقال للمُحِبّ المعاون (وَليّ) لأنّه يقرب منك بالمحبة والنصرة ولا يُفارقك، ومنه (الوالي) لأنّه يَلي القومَ بالتدبير والأمر والنهي، ومنه (المولى) ومن ثَمّ قالوا في خلاف الولاية: العداوة... فلأجل هذا كانت الولاية خلاف العداوة... احتجّ أصحابنا بهذه الآية على أنّ ألطاف الله تعالى في حقّ المؤمن فيما يتعلّق بالدّين أكثر من ألطافه في حقّ الكافر بأن قالوا: الآية دلّت على أنّه تعالى وَليّ الذين آمنوا على التّعيين، ومعلوم أنّ الوَليّ للشيء هو المُتولّي لِما يكون سبباً لصَلاح الإنسان واستقامة أمره في الغرض المطلوب... فلمّا كان معنى (الوليّ) هو المتكفل بالمصالح، ثم إنّه تعالى جعل نفسه وليّاً للمؤمنين على التّخصيص، عَلمنا أنّه تعالى تكفّل بمصالحهم فوق ما تكفّل بمصالح الكفّار». (التفسير الكبير، مج٤، ج٧، ص١٦). [المترجم]

في الآية الشريفة: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا... وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ أنّ للطاغوت قدرة وتأثيراً في مقابل الله ﷻ، لكنّنا إذا تأمّلنا قليلاً فسيتبيّن لنا بطلان هذا الاستنتاج، فالذات الإلهيّة المقدّسة متمثّلة بربّ العالَمين وكلّ شيء في هذا العالَم تتمّ إدارته وتمشية أموره في ضوء إرادته هو سبحانه وتعالى، أمّا تصوّر الثنوية وثبوت مصدرَيْن للخير والشرّ في العالَم (الله تعالى والشيطان) فهو تصوّر باطل لا أساس له من الصحّة.

واستناداً إلى الربوبية المطلقة لله ﷻ في نظام التكوين فإنّ جميع الطواغيت وكلّ رموزهم من أمثال الشيطان وغيره إنّما هم مأمورون من قِبل الله سبحانه والمُنفّذون لأحكامه، والله تعالى هو الذي مَنحهم الولاية على الكافرين: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] ليكونوا كالكلاب المُعلَّمة فيغرّروا بالضالّين ويزيّنوا للكافرين أعمالهم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[2].

إذاً، فعندما يقوم الإنسان بنَبذ الحقّ وراء ظهره: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾[3] رغم اتّساع الوقت ووجود المهلة للتوبة والإنابة ويصرّ على العصيان والكُفر مع امتلاكه للفطرة السليمة في داخله وتلقّيه للوحي الذي نزل لإحيائه وإرسال الكُتُب السماوية التي تنظّم حياته، عندما يقوم الإنسان بكلّ تلك الأمور فحينئذ يرسل الله ﷻ الشياطين والطواغيت والمَردة كعقاب لهم وجزاء على ما يفعلونه، وما إرسال الشياطين والطواغيت إلّا أمر تكوينيّ، فيتولّونهم ويستولون على كلّ

١ . سورة الأعراف، الآية ٢٧.
٢ . سورة مريم عليها السلام، الآية ٨٣.
٣ . سورة آل عمران، الآية ١٨٧.



شؤونهم ويسيطرون على أفعالهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1] و﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[2].

والحقيقة أنّه يمكننا تصوّر الطاغوت كالسّوط الذي يستخدمه الله سبحانه لجَلد الكافرين ومُعاقبتهم على ما يكتسبون[3]، وما ولاية الطاغوت إلّا بمثابة عقوبة لهم وللذين يتولّونه لأنّ الطاغوت هو آخر شخصية متمرّدة في النظام التشريعيّ، وهو يزيد في عذابه من خلال تولّيه للكافرين وولايته عليهم.

لا جَبر ولا تفويض في الآية

حاول الفخر الرازي ـ وهو أشعريّ المذهب ـ إثبات مسألة الجَبر مستشهداً بصدر الآية الشريفة من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾ فقال إنّ الخيار لله وحده أمّا الآخرون فمجبورون ومضطرّون[4]، فيما استند المعتزلة إلى عَجز الآية: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ لإثبات مسألة التفويض فيها، فقال الفخر الرازي عن لسانهم: «أمّا قوله تعالى ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ فقد استدلّت المعتزلة بهذه الآية على أنّ الكُفر ليس من الله تعالى؛ قالوا: لأنّه تعالى أضافه إلى الطاغوت مجازاً باتّفاق، لأنّ المراد من الطاغوت على أظهر الأقوال هو الصّنم»[5].

---

١ . **سورة الأنعام**، الآية ١٢٩.

٢ . **سورة النّحل**، الآية ١٠٠.

٣ . ورد في الحديث القدسيّ الشريف: «الظّالِمُ سَيْفي، أنتَقِمُ به وأنتَقِمُ مِنه». (أنظر: **شرح نهج البلاغة** للحائري، ج٢، ص١١٧؛ بيان المعاني، الشيخ العلّامة عبد القادر ملاحويش آل غازى الفراتي الديرزوري، **تفسير سورة الإسراء**، ج٢، ص٤٤٠). [المترجم]

٤ . **التفسير الكبير**، مج٤، ج٧، ص٢٠.

٥ . المصدر السابق، ص٢٢.



والجواب عن كلا الرّأيَيْن هو هذا: لا صَدر الآية الشريفة يشير إلى الجَبر ولا عَجزها يؤيّد ما قاله المُعتزلة من أنّ المقصود بذلك هو التفويض، بل إنّ في كلا شَطرَيْ الآية حُكماً وموضوعاً، ولا يمكن للحُكم أن يُثبت موضوعه لأنّ مَفاد الآية لا يعني أنّ الله سبحانه هو وليّ بعض الناس وأنّه يحوّلهم إلى أشخاص مؤمنين، بل المعنى هو أنّ الله ﷻ وليّ المؤمنين، وعليه، فإنّ الإيمان الذي اكتسبه أولئك المؤمنون باختيارهم وإرادتهم يُمثّل موضوع الحُكم، وهو أمر مفروغ منه. وبعد ظهور الإيمان في المؤمنين فهُم يُدخَلون تحت ولاية الله سبحانه، ثمّ يُفاض عليهم من رحمته بمزيد من الإيمان وكثير من الهداية: **﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾**[1] وليس كما ظنّ البعض من أنّ الله سبحانه يُجبر الناس ابتداءً على الإيمان لا أن يجتهد الفرد ليكون مؤمناً ويُنير قلبه بالإيمان بشكل مستقلّ؛ فإيمان المؤمن باختياره هو الشّرط لذلك وهو الذي يختار الأرضية المناسبة لاستقبال الفيض النورانيّ وتَلقّيه.

يُضاف إلى ذلك أنّ ذيل الآية لا يشير أبداً إلى التفويض الذي قالت به المعتزلة، فالله تعالى لم يَذكر أنّ بعض الناس يرزحون تحت ولاية الطاغوت ليتوهّم هؤلاء بأنّ الطاغوت هو الذي حوّل أولئك إلى أشخاص كافرين، بل إنّ معنى قوله ﷻ هو: أنّ الله سبحانه سيسلّط الطاغوت على الكافرين ليتولّاهم بنفسه؛ أي إذا كَفر أحدهم وخرج من ساحة الإيمان بالله فإنّ معنى ذلك أنّه سلّم زمام أموره بيَد الطاغوت.

---

١ . سورة محمّد ﷺ، الآية ١٧.

إشارات ولطائف

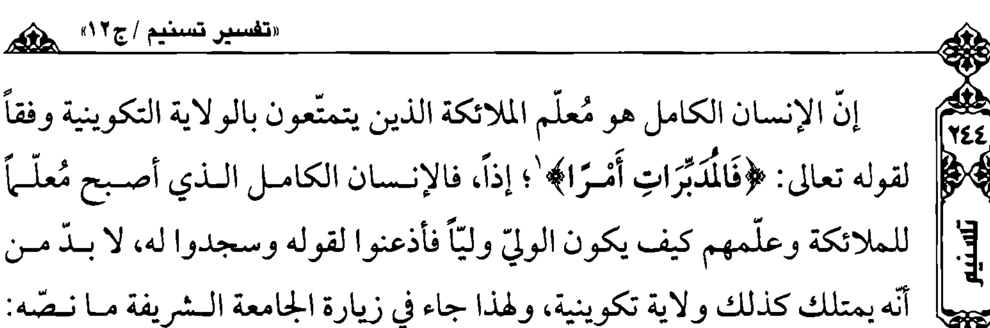
١ . الإمامية والولاية الإلهية

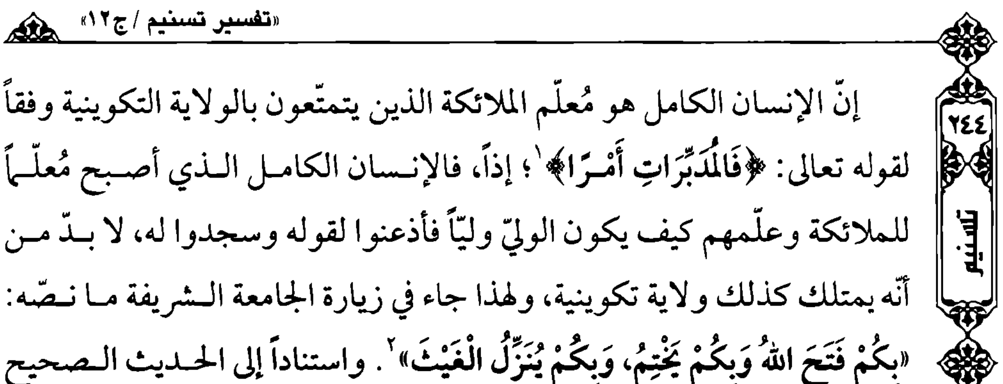
إنّ ولاية (الله ﷻ) تُعدّ من الصفات الفعلية لله سبحانه وفي الوقت نفسه فإنّها تتطلّب مظهراً من المظاهر، ولهذا قرّر الله تعالى أن يُنصّب الإنسان الكامل الذي يتمتّع بمقام العصمة ويُمثّل المظهر التامّ لأسمائه الحسنى إماماً للأمّة الإسلامية ووليّاً لها، إمّا لِلُطْفٍ منه أو حكمة اقتضتها إرادته، وبالفعل فقد تمّت هذه المهمّة في يوم غدير (خُمّ) حيث قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[1]. واستناداً إلى ذلك فإنّ الإمامية تعتقد أنّ الولاية والإمامة هما بحثان كلاميّان لأنّ الضابطة الكلامية لهذه المسألة تتمثّل في كون موضوعها هو الله ﷻ وأسمائه الحسنى وصفاته العُليا وأفعاله الخاصّة به، وعليه فإنّ مسألَتَيْ الولاية والإمامة تندرجان ضمن لائحة أصول المذهب الإماميّ، خلافاً لاعتقاد أهل السنّة من أنّ الخلافة هي اختيار من اختيارات الشعب وليست منصباً يُعيّنه الله سبحانه ولذلك فهي تُعتبر فرعاً من فروع الدّين ولا يُشترط في الخليفة أن يكون معصوماً[2].

---

١ . سورة المائدة، الآية ٣.

٢ . «وقد يُحتج بجواز تقديم المفضول بوجوه: الأول إجماع العلماء بعد الخلفاء الراشدين على انعقاد الإمامة لبعض القريشيين مع أنّ فيهم من هو أفضل منه. الثاني أنّ عمر جعل الإمامة شورى بين ستة من غير نكير عليه مع أنّ فيهم عثمان وعلياً [عليهما السلام] وهما أفضل من غيرهم إجماعاً ولو وجب تعيين الأفضل لعينهما. الثالث أنّ الأفضلية أمر خفيّ قلّما يطّلع عليه أهل الحلّ والعقد وربما يقع فيه النزاع ويتشوّش الأمر وإذا أنصفت فتعيين الأفضل متعسّر في أقلّ فرقة من فرق الفاضلين فكيف في قريش مع كثرتهم وتفرّقهم في الأطراف وأنت خبير بأنّ هذا وأمثاله على تقدير تمامه إنّما يصلح للاحتجاج على أهل الحقّ دون الرّوافض فإنّ الإمام عندهم منصوب من قِبَل الحقّ لا من قبل الخلق. قال: وإن يكون معصوماً من معظم الخلافيات مع الشيعة اشتراطهم أن يكون الإمام معصوماً وقد عرفت معنى العصمة وأنّها لا تنافي القدرة على المعصية بل ربما
←





إنّ الإنسان الكامل هو مُعلّم الملائكة الذين يتمتّعون بالولاية التكوينية وفقاً لقوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾[1]؛ إذاً، فالإنسان الكامل الذي أصبح مُعلّماً للملائكة وعلّمهم كيف يكون الوليّ وليّاً فأذعنوا لقوله وسجدوا له، لا بدّ من أنّه يمتلك كذلك ولاية تكوينية، ولهذا جاء في زيارة الجامعة الشريفة ما نصّه: «بِكُمْ فَتَحَ اللهُ وَبِكُمْ يَخْتِمُ، وَبِكُمْ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ»[2]. واستناداً إلى الحديث الصحيح (حديث قُرب النوافل) الذي نقله الخاصّة والعامّة في كُتبهم المعتبرة، فإنّ الله ←

يستلزمها. واحتجّ أصحابنا على عدم وجوب العصمة بالإجماع على إمامة أبي بكر وعمر وعثمان مع الإجماع على أنّهم لم تجب عصمتهم وإن كانوا معصومين بمعنى أنهم منذ آمنوا كان لهم مَلَكة اجتناب المعاصي مع التمكّن منها وحاصل هذا دعوى الإجماع على عدم اشتراط العصمة في الإمام وإلّا فليس للإجماع على عدم وجوب عصمة الشخص كثير معنى. وقد يحتجّ كثير بأنّ العصمة ممّا لا سبيل للعباد إلى الاطلاع عليه فإيجاب نصب إمام معصوم يعود إلى تكليف ما ليس في الوسع وفي انتهاض الوجهين على الشيعة نظر والظاهر أنّه لا حاجة إلى الدليل على عدم اشتراط وإنما يحتاج إليه في الاشتراط. وقد احتجوا بوجوه: الأوّل القياس على النبوّة بجامع إقامة الشريعة وتنفيذ الأحكام وحماية حوزة الإسلام ورد بأنّ النبي مبعوث من الله مقرون دعواه بالمعجزات الباهرة الدالّة على عصمته من الكذب وسائر الأمور المحلّة [كذا في الأصل، والأصحّ (مُخِلّة) بالخاء المعجمة] بمرتبة النبوة ومنصب الرسالة ولا كذلك الإمام فإنّ نصبه مفوّض إلى العباد الذين لا سبيل لهم إلى معرفة عصمته واستقامة سريرته فلا وَجه لاشتراطها. وأيضا النبيّ [ﷺ] يأتي بالشريعة التي لا علم للعباد بها إلّا من جهته فلو لم يكن معصوماً عن الكذب في تبليغها والفسق في تعاطيها وقد لرما امتثاله فيما أمر ونهى واعتقاد إباحة ما جرى عليه ومضى لكانت المعجزة التي أقامها الله تعالى لصحّة الرسالة والهدى وانتظام أمر الدين والدنيا مُفضية إلى الضلالة والرّدى واختلال حال العاجلة والعقبى». (**شرح المقاصد**، ج٥، ص٢٣٣ ـ ٢٣٢).

١ . **سورة النّازعات، الآية ٥**.

٢ . «مَوالِيَّ لا أُحْصي ثَناءَكُمْ، وَلا أَبْلُغُ مِنَ الْمَدْحِ كُنْهَكُمْ وَمِنَ الْوَصْفِ قَدْرَكُمْ، وَأَنْتُمْ نُورُ الْأَخْيارِ، وَهُداةُ الْأَبْرارِ وَحُجَجُ الْجَبّارِ، بِكُمْ فَتَحَ اللهُ وَبِكُمْ يَخْتِمُ، وَبِكُمْ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَبِكُمْ يُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلّا بِإِذْنِهِ وَبِكُمْ يُنَفِّسُ الْهَمَّ، وَيَكْشِفُ الضُّرَّ». (**مَن لا يحضره الفقيه**، ج٢، ص٦١٥). [المترجم]

سبحانه يصبح بمثابة القنوات الإدراكية والتحريكية للشخص الذي يتمكّن من الوصول إلى نهاية رحلته عن طريق قُرب النوافل، إذاً فإنّ العَبد يفعل بيَد الله سبحانه: «**وإنّه ليتحبّب إليّ بالنافلة حتّى أُحبّه، فإذا أحْبَبْتُه كُنتُ سَمْعه الّذي يَسمع به وبَصَره الّذي يُبصر به ولِسانه الّذي يَنطق به ويَده الّتي يبطش بها**»[١].
وعندما يصبح الإنسان قادراً على النّظر بعين التوحيد فسيكون بمقدوره كذلك أن يرى ويبصر ظهور الذات الإلهية المقدّسة في مقام الفعل الذي هو أدنى من مقام الصفات وفي مقام الصفات الذي هو أدنى من الذات ولن تكون به حاجة إلى برهان الحدوث الذي قال عنه المتكلّمون ولا برهان الحركة الذي تشدّق به علماء الطبيعة ولا برهان الإمكان الذي نادى به الحكماء.

وظنّ البعض ـ ومنهم صاحب تفسير (المنار) ـ أنّ الولاية التكوينية لعالم الوجود وإدارته وتدبير شؤونه هي بيَد الله سبحانه وحده وأنّ ولاية المؤمنين فيما بينهم تعني المحبّة والصّحبة والإعانة كما في الآية الشريفة: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ**﴾[٢] حيث يُفيد الضمير المنفصل ﴿**هُوَ**﴾ الحصر مع دخول (أل) التعريف على الخبر، أي إنّ الله ﷻ وحده هو الوليّ ولا وليّ سواه. والشاهد الأوضح كذلك هو قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[٣] الذي يشير إلى أنّ الولاية لله سبحانه وحده دون غيره.

ثمّ يُضيف [صاحب تفسير المنار] قائلاً إنّ الذين اتّخذوا السيد المسيح عليه السلام أو أيّاً من عباد الله الصالحين أولياء لهم وكانوا يطلبون منهم الشفاء من أمراضهم إنّما خلطوا الشرك بالتوحيد، ويسمّى هذا لدى عامّة الناس بالشّرك الخفيّ ولدى

---

١ . أنظر: **بحار الأنوار**، ج٨٤، ص٣١؛ **كنز العمّال**، ج٧، ص٧٧٠.
٢ . **سورة الشورى**، الآية ٩.
٣ . **سورة الشورى**، الآية ٢٨.



أهل المعرفة بالشّرك الجليّ[١].

---

١. قال مؤلّف تفسير (المنار): «أَقُولُ: وَمِمَّا يَجِبُ بَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا الْفَرْقُ بَيْنَ وِلَايَةِ الله لِلْمُؤْمِنِينَ وَوِلَايَتِهِمْ لَهُ وَوِلَايَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، فَإِنَّ الْجَاهِلِينَ لَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الْوِلَايَتَيْنِ، فَيَجْعَلُونَ لِبَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْوِلَايَةِ مَا هُوَ لله تَعَالَى وَحْدَهُ، وَذَلِكَ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ خَفِيٌّ عِنْدَ الْجَاهِلِ، جَلِيٌّ عِنْدَ الْعَارِفِ وَلَا بُدَّ مِنْ تَفْصِيلٍ فِيهِ. هَذِهِ الْآيَاتُ تُثْبِتُ وِلَايَةَ الله وَحْدَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَفِي مَعْنَاهَا آيَاتٌ تُفِيدُ الْحَصْرَ... وَثَمَّةَ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تَنْفِي وِلَايَةَ غَيْرِهِ تَعَالَى كَالْآيَاتِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي الْكَلَامِ عَلَى الشَّفَاعَةِ... يُقَابِلُ وِلَايَةَ الله تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ وَوِلَايَتَهُمْ لَهُ، وِلَايَةُ الشَّيْطَانِ وَالطَّاغُوتِ لِلْكَافِرِينَ وَوِلَايَتُهُمْ لَهُمَا كَمَا تَرَى فِي الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا... وَيُقَابِلُ وِلَايَةَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ وِلَايَةُ الْكَافِرِينَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ... وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْآيَاتِ رَأَى مَعَانِيَهَا ظَاهِرَةً جَلِيَّةً، أَمَّا كَوْنُهُ تَعَالَى هُوَ الْوَلِيُّ وَحْدَهُ لَا وَلِيَّ سِوَاهُ، فَالْمُرَادُ بِهِ أَنَّهُ هُوَ الْمُتَوَلِّي لِأُمُورِ الْعِبَادِ فِي الْوَاقِعِ وَنَفْسِ الْأَمْرِ ـ كَمَا تَقَدَّمَ ـ وَذَلِكَ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْمَنَافِعِ وَمِنَ الْأَعْضَاءِ وَالْقُوَى الَّتِي تُمَكِّنُهُمْ مِنَ الِانْتِفَاعِ بِهَا، بِمَا بَيَّنَ لَهُمْ مِنَ السُّنَنِ وَمَهَّدَ لَهُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَهَذِهِ هِيَ الْوِلَايَاتُ الْعَامَّةُ الْمُطْلَقَةُ، وَأَمَّا وِلَايَتُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً فَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ عِنَايَتِهِ بِهِمْ وَإِلْهَامِهِ وَتَوْفِيقِهِ إِيَّاهُمْ لِمَا فِيهِ الْخَيْرُ وَالصَّلَاحُ الرُّوحَانِيُّ وَالْجُسْمَانِيُّ، بِمَا اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ، وَأَمَّا وِلَايَتُهُمْ لَهُ تَعَالَى فَقَدْ عَبَّرَ عَنْهَا بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، فَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِوِلَايَتِهِ لَهُمْ يَتَوَلَّوْنَهُ، أَيْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ هُوَ الْمُتَوَلِّي لِأُمُورِهِمْ وَحْدَهُ ـ كَمَا تَقَدَّمَ ـ وَهُمْ فِي اسْتِفَادَتِهِمْ بِقُوَاهُمْ مِنْ نَافِعِ الْكَوْنِ وَاتِّقَائِهِمْ لِضَارِّهِ يُلَاحِظُونَ أَنَّ هَذَا مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَتَوَلِّيهِ لِأُمُورِهِمْ، إِذْ مَكَّنَهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَهَيَّأَ أَسْبَابَهُ لَهُمْ، وَإِذَا ضَعُفَتْ قُوَاهُمْ دُونَ مَطْلَبٍ مِنْ مَطَالِبِهِمْ أَوْ جَهِلُوا طَرِيقَهُ وَسَبَبَهُ تَوَجَّهُوا إِلَيْهِ وَحْدَهُ مَعَ تَعَاوُنِهِمْ وَتَنَاصُرِهِمْ لَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى غَيْرِهِ فِي اسْتِمْدَادِ الْعِنَايَةِ وَطَلَبِ التَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ... ثُمَّ إِنَّهُمْ مَعَ هَذَا الْإِيمَانِ يَتَّقُونَهُ تَعَالَى بِتَرْكِ الْمَعَاصِي وَالْإِثْمِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ فِي الْأَرْضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا جَعَلَهُ اللهُ سَبَبَ الْبَلَاءِ وَالشَّقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَبِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَالْخَيْرَاتِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ السَّعَادَةِ فِي الدَّارَيْنِ، فَهَذَا مَعْنَى تَفْسِيرِ أَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. وَأَمَّا وِلَايَةُ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ: فَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ تَعَاوُنِهِمْ وَتَنَاصُرِهِمْ فِي الْأُمُورِ الْمُشْتَرَكَةِ مَعَ اسْتِقَامَتِهِمْ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، لِأَنَّ الْفَسَادَ الشَّخْصِيَّ لَا يَتَّفِقُ مَعَ الْقِيَامِ بِالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَذَلِكَ ظَاهِرٌ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ (٩: ٧١) بَعْدَ ذِكْرِهِ هَذِهِ الْوِلَايَةِ: **﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾** إِلَخْ، وَمِنْ وَصْفِهِمْ بِالْمُجَاهَدَةِ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ كَمَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى (٨: ٧٢) فَكُلُّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَقَدْ وَجَبَتْ وِلَايَتُهُ عَلَى جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا مَعْنَى لِكَوْنِ الْمُؤْمِنِ وَلِيًّا
←

وتجدر الإشارة إلى أنّ صاحب تفسير *(المنار)* غفل عن نقطة مهمّة وهي أنّ الإمامية لا تعتبر الولاية العامّة لأولياء الله سبحانه وولاية العترة الطاهرة عليهم السلام في عرض ولاية الله تعالى بل يعتبرونهم مظاهر للولاية الإلهية لأنّ الإيمان بالولاية العَرْضية بمعنى وجود وليّيْن ومديريْن متشابهيْن في العالَم يتناقض مع التوحيد وهذا ما لا يقبل به أحد، وكذلك الإيمان بالولاية الطولية بمعنى أنّ الله سبحانه الذي يتحمّل مسؤولية تدبير شؤون العالَم يُوكِل تلك المسؤولية إلى أوليائه وإن كانوا يتلقّون ذواتهم ووجودهم ومناصبهم وقدرتهم من الله عزّ وجلّ، فهي ولاية غير صحيحة تماماً لأنّ الله سبحانه في مثل هذه الولاية أصيل بينما تُعتبر ولاية أوليائه تابعة، وبشيء من الدقّة والتأمّل يتبيّن لنا أنّ هذا النوع من الولاية يندرج في لائحة الولاية العَرْضية وهي ولاية باطلة وإن كان عنوانها (ولاية طولية).

لِلْمُؤْمِنِ إِلَّا هَذَا، أَيْ إِنَّهُ عَوْنٌ لَهُ وَنَصِيرٌ فِي الْحَقِّ الَّذِي يَعْلُو بِهِ شَأْنُ الإِيـمَانِ وَأَهْلُهُ، فَمَنْ تَجَاوَزَ ذَلِكَ فَاتَّخَذَ لَهُ وَلِيًّا أَوْ أَوْلِيَاءَ يُعْتَقَدُ أَنَّهُمْ يَتَوَلَّوْنَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِهِ فِيمَا وَرَاءَ هَذَا التَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ بَيْنَ النَّاسِ فَقَدْ أَشْرَكَ، إِذِ اعْتَدَى عَلَى وِلَايَةِ الله الْخَاصَّةِ بِهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ لَا بِالتَّوَسُّطِ عِنْدَهُ وَلَا الِاسْتِقْلَالِ دُونَهُ. هَذَا الْمَعْنَى هُوَ عَيْنُ وِلَايَةِ الْكَافِرِينَ لِلشَّيْطَانِ أَوْ لِلطَّاغُوتِ كَمَا قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى﴾ [٣٩: ٣] وَلَا يُقَالُ: إِنَّ هَذَا يَقْتَضِي أَنْ يُسَمَّى بِالطَّاغُوتِ بَعْضُ مَنِ اتَّخَذَ وَلِيًّا بِهَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ كَعِيسَى عليه السلام فَإِنَّ الَّذِينَ اعْتَقَدُوا هَذِهِ الْوِلَايَةَ لِعِيسَى وَغَيْرِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ لَمْ يَتَّبِعُوهُمْ فِي ذَلِكَ، وَإِنَّمَا اتَّبَعُوا وَحْيَ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَوَسَاوِسِهِمْ، فَهُمْ طَاغُوتُهُمْ وَمِنْ هَذَا التَّقْدِيرِ تَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ حُجَّةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ أَسْنَدَ وِلَايَةَ الله الْخَاصَّةِ إِلَى غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَ يُنْسَبُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَقَدْ أَوْغَلَ بَعْضُ مُتَّخِذِي الْأَوْلِيَاءِ فِي دُعَاءِ أَوْلِيَائِهِمْ وَمُطَالَبَتِهِمْ بِمَا لَا يُطْلَبُ إِلَّا مِنَ الله تَعَالَى حَتَّى صَارَ فِي الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْعِلْمِ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ وَيَكْتُبُ أَنَّ فُلَانًا الْوَلِيَّ يُمِيتُ وَيُحْيِي وَيُسْعِدُ وَيُشْقِي وَيُفْقِرُ وَيُغْنِي، فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ بِهَدْيِ الْقُرْآنِ وَلَا يَغُرَّنَّكَ تَأْوِيلُ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ». [المترجم].

تفسير المنار، ج٣، ص٤٢ ـ ٤٥.

وتعتقد الإمامية أنّ الأولياء والصالحين الذين يصلون إلى مقام قرب النوافل هم مظاهر للحقّ تعالى، لكنّ تلك المظاهر ليست في عَرْض الظاهر أو طوله بمعنى عَودتها إلى العَرْض، تماماً كالصورة التي تظهر في المرآة ولا تكون في عَرْض صاحبها أو طوله إذ لا شيء يُمكن رؤيته في المرآة سوى الآية؛ وأمّا الفرق بين المرآة والسّراب فيكمن في أنّ الأخير يُظهر شيئاً غير حقيقيّ بينما لا تُظهر المرآة سوى ما هو موجود بالفعل؛ أي إنّ المرآة تُرينا ما هو صادق وليس في داخلها سوى صاحب الصورة.

وأمّا معنى أن يصبح الإنسان مظهراً فهو أن يكون مرآة الحقّ وآيته في ظلّ العبودية الخالصة وفي ذلك يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**ما لله آية أكبَرَ مِنّي**»[1]؛ إذاً، فعندما يُرى في العبد الصالح كلّ أوصاف الله سبحانه فإنّ ذلك لا يعني انقطاع ولاية الله عزّ وجلّ وبداية ولاية ذلك العبد لأنّ التدبير اللامحدود لله تعالى لا يَدَع أيّ مجال لتدبير العبد، بل إنّ العبد الصالح هو مظهر الحقّ وآيته، وبذلك يُصبح فعله وعمله مظهراً لفعل الله سبحانه سواء أكان ذلك في الغضب والجلال أم في العشق والجمال، مثلما أنّ الله عزّ وجلّ يعتبر جهادَ العبدِ الصالحِ في مجالِ الغضبِ من عَملِهِ عَمَلَ الله سبحانه: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى**﴾[2] وفي مجال الحبّ والصّفاء تكون بَيعة العَبد بَيعة مع الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ**﴾[3]. وهكذا نرى أنّ فيض الله سبحانه يمكن أن يُوهَب إلى الآخرين من خلال مرآة الإنسان الكامل كأهل بيت النبوّة عليهم السلام، وفي الحقيقة فإنّ الله عزّ وجلّ هو الفاعل والمُفيض الحقيقيّ بالأصالة.

---

١. **تفسير القمي**، ج٢، ص٤٠١؛ **بحار الأنوار**، ج٣٦، ص١.

٢. سورة **الأنفال**، الآية ١٧.

٣. سورة **الفتح**، الآية ١٠.



وجدير بالذّكر أنّ الذين يُنكرون الشفاعة والولاية لأولياء الله يُقرّون بهما للكثير من المخلوقات والموجودات الأخرى مثل لجوء الظمآن إلى الماء لرفع عطشه والجوعان إلى الخُبز والطعام ليسدّ بهما رَمقه والمريض إلى الدّواء ليشفي علّته ومَرضه. واستناداً إلى عقائد الإمامية فإنّ هذه الوسائل تُعدّ مظاهر لفعل الله ﷻ، وأمّا الإنسان الموحِّد ـ مثل سيّدنا إبراهيم عليه السلام ـ فإنّه يرى بأمّ عينيه يَد الله وهي تروي عطشه وتسدّ جوعه وتشفي مَرضه: **﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾**[1].

فالموحّد لا يقول بأنّ الله سبحانه خلق العالم وأوجده ثمّ تَركه لحاله، بأنّ كُلّ واحدٍ من الماء والخبز والدواء كفيل بإرواء عطش الإنسان وسدّ جوعه وشفاء مَرضه، بل يوقن أنّ الساقي والمُطعِم والشافي هو الله تعالى وحده، ويؤمن أنّ هذه الموجودات المؤثّرة إنّما هي مظاهر لذلك المؤثِّر الحقيقيّ، أي إنّ الله ﷻ هو الذي يروي عطش الإنسان بالماء ويُشبعه بالخُبز ويُداويه ويشفيه بالدّواء. وعلى أساس هذه المظهريّة كذلك أشار القرآن الكريم في بعض آياته إلى أنّ وفاة الأرواح هي من فعل الله سبحانه أحياناً: **﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾**[2] وفي أحيان أخرى تكون فعلاً موكلاً إلى الملائكة: **﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾**[3].

نستنتج من ذلك أنّه ما من موجود، سواء أكان ماديّاً أم مجرّداً، يحتلّ مكانة في عَرْض الله تعالى أو طوله بحيث تنتهي عندها ربوبيّته ﷻ ويحين دَور ذلك

---

١ . سورة الشعراء، الآيات من ٧٧ إلى ٨٠.

٢ . سورة الزمر، الآية ٤٢.

٣ . سورة السّجدة، الآية ١١.

الموجود في الربوبيّة، وليس ثبوت الولاية التكوينية بمعنى إناطة الإدارة والتدبير إلى ما سوى الله سبحانه في مقابل ولاية الله، بل إنّ جميع الموجودات والمخلوقات تمثّل مظهراً من مظاهر الحقّ تعالى وآية من آياته.

إلماعة: إنّ الشفاعة والولاية هما بحثان عقليّان سَلباً وثبوتاً ولا علاقة لهما بالدّنيا أو عالَم البَرزخ أو يوم القيامة إذ لا شريك لله سبحانه أبداً في كلّ تلك النّشآت كما أنّ الولاية التكوينية لأولياء الله تعالى وملائكته هي مسألة حقيقية في جميع النشآت المذكورة.

٢. الشّمس والعَيْن الباطنيّتان

إنّ القرآن الحكيم الذي يتحدّث إلينا بلسانه الخاصّ (لسان الفطرة والخلقة) يعترف بوجود الباطن المعقول والخارج المحسوس والباطن المستور والخارج المشهور في الإنسان الذي يمثّل بحدّ ذاته عالَماً صغيراً تماماً كاعترافه بوجود الغَيب والشهادة والظاهر والباطن في أصل العالَم الحقيقيّ الذي نراه، فكما أنّ هناك موجودات محسوسة خارج حدود الإنسان وشمساً تنير تلك الموجودات ليكون بمقدورنا رؤيتها ورؤية كلّ الأشياء في ضوئها، فإنّه توجد أيضاً في باطن كلّ من الإنسان والعالَم الذي نعرفه حقائق لا يمكننا رؤيتها إلّا بالشمس الباطنية والغَيبية وهكذا نستطيع العين الداخلية أن ترى وتشاهد الحقائق المستورة بفضل ضوء تلك الشمس الباطنية. ورغم أنّ الشخص الأعمى لا يمكنه الاستفادة أو الانتفاع من ضوء الشمس وبالتالي فإنّه لا يرى أيّ شيء على الإطلاق، إلّا أنّ عدم قدرته على رؤية شيء ليس دليلاً على عدم وجود الشمس ـ كما هو واضح ـ ولا شاهداً على عدم وجود الأشياء في الخارج، فالشخص الذي أعماه الكُفر وخطف بَصره الإلحاد وأعنتَه الجحود والعصيان يتعمّد في إغلاق عينه الباطنية أو أنّه قد حال دون بروزها وظهورها وهو بذلك محروم من نعمة



الشمس والوَحي والعترة الطاهرة عليهم السلام على السّواء ونتيجة لهذا فإنّه لم يَعُد يُدرك الحقائق الغَيبية والمعارف السّماوية ولم يَعُد يراها ما يعني أنّه قد تحوّل إلى شخص لا يؤمن إلّا بالماديّات ولا يَثِق إلّا بالتجارب، فغرق في بَحر الجهل وغاص في مستنقع الجهالة حاملاً شعار: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾[1] و﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾[2].

وقد عَبّر القرآن الكريم عن الأشخاص الذين عَميت بصيرتهم بقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[3] فمَن لَم يتمكّن من العثور على تلك العين المَلكوتية في هذه الدّنيا فسيُحشر أعمى كذلك في يوم القيامة حيث تكون الحقائق الغيبية هي ظرف الشهود: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[4]، وهكذا نستنتج من هذه الآيات الشريفة وجود عين في باطن الإنسان لا تختلف كثيراً عن عينه الخارجية الظاهرة.

ومن المعلوم أنّ العين الباطنية إنّما هي موضوعة لرؤية الأشياء الباطنية ولا ريب في أنّ شهود أيّ شيء يتطلّب وجود النور والضياء سواء أكان هذا النور أو الضياء صادراً عن ذات المشهود كرؤية الشمس أم من شيء آخر يُضيء المشهود كرؤية شجرة في ضوء النّهار. ومهما يكن من أمر فإنّ أضلاع المثلث المتمثّلة بالعين والنور والشيء المَرئيّ ضرورة ولازمة في كلا نَوعَيْ الرؤية؛ وكما أنّنا لا نستطيع رؤية الحقيقة الغيبية بالعين الظاهرة فإنّ الشمس الظاهرية لا تلعبُ أيّ دور في إنارة الأمور الباطنية أو إضاءتها.

---

١ . سورة البقرة، الآية ٥٥.

٢ . سورة النساء، الآية ١٥٣.

٣ . سورة الحجّ، الآية ٤٦.

٤ . سورة الإسراء، الآية ٧٢.

وخلاصة القول:

١. يمتلك الإنسان ـ وفقاً لبيان القرآن الكريم ـ باطناً يمكن تحسّسه من خلال الأعضاء والجوارح الإدراكية والتحريكية.

٢. إنّ الإنسان قادر على إيجاد علاقة بينه وبين الحقائق الغيبية بواسطة تلك الأعضاء العملية والعلمية.

٣. مع فقدان أيّ حسّ من الحواسّ الباطنية يُحرَم الشخص من شهود الحقيقة الغيبية المرتبطة بذلك الحسّ.

٤. يمكن أن يشمل المبدأ المعروف «**مَن فَقَدَ حسّاً فَقَدَ علماً**» كلتا النّشأتيْن المذكورتيْن معاً.

٥. يمكن إثبات شمولية المبدأ الّذي قرِءَ في رقم أربعة من خلال تأييد بعض الأدلّة النقليّة مثل قوله تعالى: ﴿**إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا**﴾[1] أو ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ**﴾[2] ثمّ صياغة المبدأ المذكور بالشكل التالي: «**مَن فَقَدَ تَقوَى فَقَدَ عِلماً**».

٣. منشأ النّور والظلمة في الإنسان

يُوصَف الإنسان من حيث طبيعته النفسانية ببعض الأوصاف المذمومة مثل (هَلوع) أو (مُجادِل) أو (كَفور) أو (بخيل) وما شابه ذلك: ﴿**إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا**﴾[3]؛ ﴿**وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**﴾[4]؛ ﴿**وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا**﴾[5]،

١. سورة الأنفال، الآية ٢٩.
٢. سورة البقرة، الآية ٢٨٢.
٣. سورة المعارج، الآية ١٩.
٤. سورة الكهف، الآية ٥٤.
٥. سورة الإسراء، الآية ١٠٠.

ولا ريب في أنّ مصدر اتّصافه بهذه الصفات المذمومة وسببه هما طبيعته الماديّة والترابية: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾[1].

ومن الناحية العلمية والتعليمية يُخبرنا القرآن الكريم أنّ الإنسان كان غارقاً في بحر الجهل والظلمة والنسيان قبل ولادته: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾[2] وفي المجال العمليّ فإنّ همّه الوحيد هو الالتصاق بعالَم المادّة ولذّاته والغوص في ضلالات المادّة والرّزوح تحت نَير السّبات الحيوانيّ: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾[3]؛ من الواضح أنّ هذه الصفات والخصائص الطبيعية النفسانية في الإنسان هي أنموذج حيّ لظلمة الطبيعة.

هذا من جهة، أمّا من الجهة الثانية فإنّ فطرة الإنسان هي فطرة إلهية تعرف ربّها وتعشق خالقها، فضلاً عن أنّها فطرة حقّانية تحبّ العدل والصّدق والإنصاف وهي مُحاطة بالنّفحات الرّحمانية لله سبحانه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾[4]، بل إنّ طمأنينة هذه الفطرة وسكينتها لا تكونان إلّا بالعلاقة الوثيقة التي تربطها بالله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[5].

ومن الإنصاف القول إنّ تلك الفطرة الربّانية لا تَنفر من الوحي بل تَعشقه كلّ العشق وتحبّه من أعماقها فهي تعلم جيّداً أنّ الوحي وحده قادر على مساعدتها لإيصال طبيعتها النفسانية إلى درجة الاعتدال والوسطيّة وإنارة النقاط الطبيعية المظلمة في أعماقها، ولهذا كلّه فقد أبلغ الله سبحانه وتعالى الإنسان من

---

١ . سورة ص، الآية ٧١.

٢ . سورة النّحل، الآية ٧٨.

٣ . سورة يونس ﷺ، الآية ٧.

٤ . سورة الحجر، الآية ٢٩.

٥ . سورة الرّعد، الآية ٢٨.



خلال رسائل الوحي قائلاً: ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[١] ليكون قادراً على كَسر السلاسل الحديديّة الطبيعية وتعلّم جميع القنوات الإدراكية والحسيّة والوهمية والخيالية ويتمكّن في المقابل من تعديل القنوات التحريكية لكلّ أمرٍ من الشهوة والغضب وذلك بواسطة التزكية والتربية الإلهيّتيْن، ثمّ يقود كلّ تلك القنوات إلى الهداية وبالتالي حمايتها دون تعطيل أيّ قوّة من القوى التي وهبها الله ﷻ له.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الفطرة الإنسانية حيّة ويقظة وقد خلقها الله سبحانه وتعالى بحيث لا ينطفئ نورها أبداً وأبعد عنها كلّ ظلمة: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾[٢].

٤. استخدام مُصطلحَي «الظلمة» و«النّور»

ثمّة آراء ثلاثة حول استخدام مُصطلحَيْ (النور) و(الظلمة) للإشارة إلى الأفعال الظاهرية والعقائد، وتلك الآراء هي:

١. استخدام كلمة (النّور) للتعبير عن العقيدة الحقّة والعمل الحقّ فيما تُستخدَم كلمة (الظلمة) مجازاً للإشارة إلى (الجهل) و(المعصية).

٢. لمّا كانَ (النورُ) ضروريّاً لتفسير العقائد والأعمال الدينية الظاهرية، و(الظلمة) للتعبير عن الكُفر والمعصية، وكان استخدام الألفاظ بالمعنى الالتزاميّ يُمثّل الكناية والاستعارة كان إطلاق كلمة (النور) على المُعتقدات الحقّة والأعمال الصالحة وإطلاق كلمة (الظلمة) على العقائد الباطلة والأعمال القبيحة هما من باب المجاز أيضاً.

---

١. سورة البقرة، الآية ١٥١.

٢. سورة الرّوم، الآية ٣٠.



٣. تختلف مفاهيم (النور) و(الظلمة) عن بعض المفاهيم الأخرى مثل (الإيمان) و(الكُفر) لكنّ العقائد الحقّة والأعمال الحقّة هي مصاديق معنويّة وغيبيّة للنور بينما تكون العقائد الباطلة والأفعال الباطلة مصاديق غيبيّةً للظلمة، وهكذا فإنّ استخدام اللفظة في مصداقها الغيبيّ كاستعمالها في مصداق المشهود والحسّ هو استعمال حقيقيّ وليس استعمالاً مجازياً أو استعارة.

وبعبارة أوضح نقول: إنّ بعضَ المصطلحات مثل (الإيمان) أو (الكُفر) والمفاهيم التي تتضمّنها يشير إلى عناوين اعتبارية تستند في الأساس إلى الحقائق والوقائع التكوينية الباطنية للإنسان، فإذا كان الشخص بصيراً فإنّ باستطاعته رؤية الحقائق التكوينية المذكورة في هذه الدنيا، وأمّا الذين يفتقدون العين الملكوتية فيمكنهم رؤيتها يوم القيامة، وأمّا التأثير الذي يخلّفه الإيمان على روح الإنسان فيتمثّل في تنويرها بينما يعمل إنكار الحقّ والإصرار على الكُفر بالمعارف الإلهية على إحاطة روحه بالظلمة والدُّجى.

ولبيان هذه الحقيقة يمكننا الإشارة إلى كيفية إيجاد مَلَكة الاجتهاد عند الشخص؛ فالدروس هي عبارة عن سلسلة من الألفاظ والكلمات والعناوين المُصطَلَح عليها وفقاً لعَقد واعتبار مُعيّنيْن، لكنّ تعلّمها وتكرارها حيناً بعد آخر من شأنه أن يخلق مَلكة الاجتهاد لدى المُتعلِّم، والاجتهاد هو علم حصوليّ وليس من جنس التصوّر ولا التصديق بل هو مَلَكة نورانية ناجمة عن العلم الحصوليّ مثلما أنّ المَلَكة العملية للسخاء والعدالة ناجمة عن تَكرار أداء العمل. واستناداً إلى هذا فإنّه في حالة تعلّم المعارف والأخلاق والأحكام الدينية التي تمثّل أموراً اعتبارية والعمل والالتزام بها يُحصِّلُ أثراً تكوينياً على روح الإنسان وتنشئتها بعين البصيرة النورانية؛ وفي مقابل ذلك يقود الكُفر والعصيان روح الإنسان إلى الظلام، وعليه فإنّ استخدام كلمة (النور) بدلاً من الإيمان وكلمة

(الظلام) أو (الظلمة) بدلاً من الكُفر هو استخدام حقيقيّ لا مجازيّ ولا استعارة، لأنّ النور هو باطن الإيمان والظلمة هي حقيقة الكُفر.

وكذلك النور هي حقيقة القرآن الكريم، فهي نور إلهيّ ساطع: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾[١] و﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾[٢] والعلم بالقرآن الكريم والإيمان به والعمل بتعاليمه هو ما يُنير قلب الإنسان، إذاً، ينبغي على هذا الأخير أن يجتهد في الحصول على أكبر قدر ممكن من النور من القرآن الكريم في هذه الدنيا طالما كانت الفرصة مواتية والوقت متوفّراً ليحصد ذلك كلّه ويقدّمه لآخرته حتى لا يكون مصيره كمصير المنافقين الذين سيستوحشون من الظلمة التي ستحيط بهم يوم القيامة ويتوسّلون إلى المؤمنين لكي يفيضوا عليهم قليلاً من نورهم ولكنّهم لن يحصلوا على النور مطلقاً: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾[٣].

لقد بيّن لنا القرآن الكريم ظاهر الأشياء وبواطنها وحقيقتها كما أنّه حذّر الناس من أكل أموال بَني جنسهم ظلماً وباطلاً: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[٤] مشيراً إلى عاقبة أكل مال الحرام وأموال الآخرين بالباطل وأنّهم إنّما يأكلون في الواقع ناراً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٥]. وفي موضع آخر يدعونا القرآن الكريم إلى الجهاد قائلاً: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[٦] ثمّ يشير في مكان آخر إلى

---

١ . سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

٢ . سورة التغابن، الآية ٨.

٣ . سورة الحديد، الآية ١٣.

٤ . سورة البقرة، الآية ١٨٨.

٥ . سورة النساء، الآية ١٠.

٦ . سورة التوبة، الآية ٧٣.

كون الجهاد يمنح المسلمين الحياة والسّؤدد: ﴿اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[١] وفي آيات شريفة أخرى يُطالبنا القرآن الكريم بطاعة الله ورسوله ﷺ والالتزام بأوامرهما والعمل بمُقتضاها: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[٢] بينما يُبيّن لنا في مواضع أخرى حقيقة الأوامر الإلهية التي تُمثّل البَصر والبصيرة معاً فيقول: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾[٣].

وهكذا يتّضح لنا من الأمثلة والشواهد التي ذكرناها آنفاً أنّ إطلاق كلمة (النور) للتعبير عن الإيمان والدّين والعروة الوثقى وكتاب الله وما شابهها وإطلاق كلمة (الظلمة) أو (الظلمات) على الكُفر والنّفاق وما شابههما هو في الحقيقة بيان للمصداق الباطنيّ لمفهومَيْ النور والظلمة وأنّه في الواقع استخدام حقيقيّ وليس مجازاً أو استعارة.

والخلاصة هي كما أنّ إطلاق كلمة (النور) على ظهور الله سبحانه هو إطلاق حقيقيّ: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٤] وكما أنّ إطلاق نفس الكلمة على كلّ كتاب سماويّ بما في ذلك التوراة والإنجيل[٥] والقرآن الكريم[٦] هو إطلاق

---

١ . **سورة الأنفال**، الآية ٢٤. (وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الآية الشريفة كانت قد نزلت في سياق الجهاد رغم أنّها مطلقة وتشمل سائر الأحكام الإلهيّة كذلك).

٢ . **سورة المائدة**، الآية ٩٢.

٣ . **سورة الأنعام**، الآية ١٠٤.

٤ . **سورة النور**، الآية ٣٥.

٥ . ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ الله وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * ... وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾. (سورة المائدة، الآيتان ٤٤ و ٤٦).

٦ . ﴿فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. (سورة التغابن، الآية ٨).



حقيقيّ كذلك، فإنّ إطلاقها على العقائد والأخلاق والأعمال الصالحة يُعتبر حقيقياً أيضاً، وهذا يعني أنّ هذه المعارف والفضائل حقيقية، فالعين الملكوتية للإنسان العاقل ترى كلّ ذلك بشكل شفّاف ونورانيّ كالكوكب الدريّ، أي إنّ كون العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة نورانية هو أمر حقيقيّ، وإنّ تلك الحقائق مشهودة بشكل كامل بالنسبة إلى أهل المعنى، وعليه، فإنّ إطلاق كلمة (النور) على العقيدة الحقّة وكلمة (الظلمة) على الباطل وما شابه ذلك لا يُعدّ إسناداً إلى غير ما هو له ولا مجازاً ولا استعارة، كما أنّ أصل الإطلاق ليس إسناداً إلى ما هو له إلّا أنّ ما هو له خارج عن العقيدة والخُلق والعمل الصالح وغير معلوم عندنا؛ فكلّ هذه التصوّرات والآراء تتنافى مع ظاهر الإسناد وتتناقض مع البحث والتحقيق تماماً.

بحث روائيّ

١. ولاية الإمام الجائر

عن عبد الله بن أبي يعفور قال: قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: إني أخالط الناس فيكثر عَجَبي من أقوام لا يتولّونكم ويتولّون فلاناً وفلاناً لهم أمانة وصدق ووفاء، وأقوام يتولّونكم ليس لهم تلك الأمانة ولا الوفاء ولا الصّدق؟ قال: فاسوى أبو عبد الله عليه السلام جالساً وأقبلَ عليَّ كالغضبان ثم قال: «**لا دِينَ لِمَن دانَ بولاية إمام جائرٍ ليسَ مِن الله، وَلا عَتَبَ على مَن دانَ بولايةِ إمامٍ عَدلٍ مِن الله**». قال: قلتُ: لا دينَ لأولئكَ ولا عَتَبَ على هؤلاء؟ فقال عليه السلام: «**نَعَم، لا دينَ لأولئكَ ولا عَتَبَ على هؤلاءِ**». ثمّ قال عليه السلام: «**أما تسمع لِقَولِ الله: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يُخرجهم مِن ظُلمات الذّنوبِ إلى نُورِ التّوبةِ والمغفرةِ لِولايتِهم كُلّ إمامٍ عادلٍ من الله. [و] قال الله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾**». قال: قلتُ: أليسَ الله

عَنى بها الكُفّار حين قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾؟ قال: فقال عليه السلام: «وأيُّ نورٍ لِلكافرِ وهو كافِر فأُخْرِجَ منه إلى الظّلماتِ؟ إنّما عَنى الله بهذا أنّهم كانوا على نورِ الإسلامِ فَلَمّا أن تَوَلّوا كُلّ إمامٍ جائرٍ ليسَ مِن الله خَرجوا بِولايتهم إيّاهم مِن نُورِ الإسلامِ إلى ظُلماتِ الكُفرِ فأَوْجَبَ لَهم النّارَ مَع الكُفّار، فقال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾»[1].

ـ عن مهزم الأسدي قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «قالَ اللهُ تَبارك وَتعالى: لأُعَذّبنّ كُلّ رَعيّةٍ دانَت بإمامٍ لَيس من الله وإن كانت الرّعيّةُ في أعمالها بَرّة تقيّة، ولأغْفِرَنّ عَن كُلّ رَعيّةٍ دانَت بِكُلّ إمامٍ من الله وإن كانت الرّعيّة في أعمالها سَيِّئة». قلتُ: فَيعفو عن هؤُلاء ويعذّب هؤُلاء؟ قال: «نعم، إنّ الله يقول: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾»[2].

إشارة: ١. لاحظ أنّ عبارة «يُخرجهم مِن ظُلمات الذّنوبِ إلى نُورِ التّوبةِ والمغفرةِ» في الرواية الأولى تشير إلى التفسير الباطني للآية وتأويلها إذ أن يُرحَم الخائن ويُدخَل الجنّة دون مُعاتبة أو حساب لا يتناسب مع الظاهر، والعبارات المشابهة الأخرى الواردة في الروايات التالية خَير شاهدة ودليل على ذلك التطبيق بشأن تفسير الآية الشريفة.

٢. يَبقى حُسن الفعل مشوّهاً وغامضاً ما دام غير متّصل بحُسن الفاعل وسيتحوّل إلى سواد وظلمة كاملين. ولا ينبغي لنا تفضيل حُسن الفعل المليء بالغرور والتكبّر على أصل الإيمان، فما يُرى من الأعداء في أمورهم الداخلية يختلف تماماً عمّا يقومون به تجاه المحرومين في العالَم من استغلال واستعمار وما شابه ذلك.

---

١ . **تفسير العياشي**، ج١، ص١٣٨.

٢ . المصدر السابق، ص١٣٩.



٢. التفسير التطبيقيّ للآية

وقال [أبو عبد الله عليه السلام]: «... وَذلِكَ أنَّ اللهَ قالَ في كِتابِه ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ﴾ فالنّورُ هُم آلُ مُحَمَّدٍ عليهم السلام وَالظُّلُماتُ عَدُوّهم»[١].

- عَن عَليٍّ عليه السلام، عَن النبيِّ صلى الله عليه وآله: «أنَّهُ تَلا هذِهِ الآيَةَ ﴿فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾؛ قِيلَ يا رَسولَ الله! مَن أصْحابُ النّارِ؟ قالَ [صلى الله عليه وآله]: مَن قاتَلَ عَلِيّاً بَعْدي، أُولئِكَ هُم أصْحابُ النّارِ مَعَ الكُفّارِ فَقَد كَفَرُوا بِالحَقِّ لَمّا جاءَهُم»[٢].

إشارة: لا شكّ في أنّ ولاية آل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام هو النّور الذي يُخرِج الناس من ظلمات معاصيهم وذنوبهم أمّا ولاية أعدائهم فهي الظلمات بعَينها وهي التي تُخرِج الظالمين والكفّار من نور الإسلام والفطرة.

* * *

١. تفسير العيّاشي، ج١، ص١٣٨ ـ ١٣٩.

٢. الأمالي للطوسي، ص٣٦٤؛ تفسير كنز الدقائق، ج١، ص٦١٩ ـ ٦٢٠.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

خلاصة التّفسير

بدل أن يشكر نمرودُ[١] اللهَ ﷻ على مَنحه نعمة السلطان والمُلك، راح يُجادل سيّدنا إبراهيم ﷷ ويحتجّ على ما يقوله له من الحقّ، ولم يتوان عن الإصرار على

---

١ . «هو نمرود، وقيل: نمروذ بن كنعان بن حام ابن نبيّ الله نوح ﷷ، وقيل: هو نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح ﷷ، وقيل: هو نمرود بن كوش، وقيل: هو نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ابن نبيّ الله نوح ﷷ، أحد ملوك الكلدان في بابل وجبّار من جبابرة العالم، كان كافراً مُشركاً بالله، مُعانداً لئيماً، ادّعى الأُلوهيّة وأرغم الناس على عبادته. مَلَك الدنيا وعاصر النبيّ إبراهيم خليل الرحمن ﷷ. والمعروف أنّه أوّل مَن تجبّر وقهر وغصب وسنّ سنن السّوء، وكان أوّل مَن لَبِس التّاج ووضع أمر النجوم وجلب المنجّمين من آفاق الأرض إلى عاصمته بابل في العراق وكانت تدعى بأرض نمرود». (عبد الحسين الشبستري، أعلام القرآن، حرف النون). [المترجم]



ادّعاء الربوبيّة لنَفسه. والواضح أنّ الرّبوبيّة الإلهيّة المطلقة كانت محور البحث والجدال وذلك لأنّ المشركين لم يعترضوا على مبدأ وجود الله سبحانه وربوبيّته التكوينية العامّة في نظام الوجود، إلّا أنّهم كانوا يُنكرون عناصر ربوبيّته الجزئية والتشريعية بشكل كامل ـ كما سنبيّن ذلك فيما بَعد.

فاستهلّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام حديثه بموضوع إماتة الأحياء وإحياء الموتى فلم يَرَ من النّمرود سوى التعنّت والمُغالطة؛ ثمّ عَمد عليه السلام إلى الإشارة إلى ربوبيّة الله تعالى من خلال آية طلوع الشمس، وهنا تحيّر النّمرود ـ الذي كفر بالبرهان الأوّل وأنكره ـ في الإجابة واحتار في الردّ على سيّدنا إبراهيم عليه السلام.

لقد كان النّمرود من ثلّة الظالمين وجماعة الطغاة والجبّارين، وقد اقتضت حكمة الله عزّ وجلّ حرمان أمثال هؤلاء من نعمة الهداية التكوينية الممنوحة لغيرهم وذلك لظلمهم وعدم اعترافهم بالهداية التشريعية لله سبحانه.

التفسير

المُفردات

حَاجَّ: «الحُجّة» هي الدليل والبرهان[1]، ومن الباب «المحَجَّة»، وهي جَادَّة الطريق وممكن أن يكون الحُجَّة مشتقّةً من هذا لأنّها تُقْصَد أو بها يُقْصَد الحقُّ المطلوب، يُقال: حاجَجْتُ فلاناً فحجَجْته أي غلبتُه بالحجّة، وذلك الظّفرُ يكون عند الخصومة[2]. وبعبارة أخرى، أنّ (المَحاجّة) هي الحُجّة في مقابل حُجّةٍ أخرى سواء أكانت لغرض إثبات الادّعاء أم لإبطال دليل الخصم وحجّته[3].

---

١. **النهاية**، ج١، ص٣٤١، مادّة (ح ج ج).

٢. **معجم مقاييس اللّغة**، ج٢، ص٣٠، مادّة (ح ج ج).

٣. «يُقال: حاجَجْتُه أُحاجُه حِجاجاً ومُحاجَّةً حتى حَجَجْتُه أي غَلَبْتُه بالحُجَجِ التي أَدْلَيْتُ بها... والمَحَجَّةُ: الطريق؛ وقيل: جادَّةُ الطريق؛ وقيل: مَحَجَّة الطريق سَنَنُه... والحُجَّة: البُرْهان؛ وقيل: ←

والجدير بالذّكر أنّ أصل (الحُجّة) هو القَصْد وقد غلب استعماله فيما يُقصَد به إثبات دعوى من الدّعاوى[1]؛ و(حاجَّ) فعل ماضٍ من باب (المفاعلة) القريب من باب (التفاعل) ويدلّ على حدوث أمر أو فعل بين طرفيْن مع تغلّب طرف منهما على الآخر، فالمحاجّة إذاً هي الاستقواء بحجّة الطرف المقابل للتغلّب عليه.

إلماعة: قال بعض علماء اللغة إنّ المقصود بالمحاجّة في الآية الشريفة هي الّتي موضوع البحث هي المجادلة[2] لأنّ ما كان يروم إليه النّمرود ليس المحاجّة بل هي المجادلة بالباطل التي دُحِضت فيها بَعد ودُمِغَت بالحقّ: ﴿**وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ**﴾[3]؛ ولكن، باعتبار أنّ النّمرود كان يعتبر مجادلته احتجاجاً فقد تحدّث القرآن الكريم بلسانه ولم يُخالف السياق مثلما استخدم القرآن الكريم ضمير ذوي العقول للإشارة إلى الأصنام المصنوعة من الحجر والخشب وذلك لأنّ المُشركين وعَبَدة الأصنام كانوا يعتبرونها مخلوقات عاقلة ذات جاه ومنزلة وقُدرة: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ**﴾[4].

وأمّا الغرض من استخدام باب المفاعلة فهو أنّ النّمرود كان يرجو من مجادلته لسيّدنا إبراهيم عليه السلام الانتصار عليه ودَحض الحقّ، إلّا أنّه بعد

الحُجَّة ما دُوفِعَ به الخصم... والحُجَّة الوجه الذي يكون به الظَّفَرُ عند الخصومة... والتَّحاجُّ: التَّخاصُم؛ وجمع الحُجَّةِ: حُجَجٌ وحِجاجٌ. وحاجَّه مُحاجَّةً وحِجاجاً: نازعه الحُجَّةَ». (لسان العرب، مادّة «حجج» ـ بتصرّف). [المترجم]

١ . العلّامة الطباطبائي، تفسير الميزان، ج٢، ص٣٤٨.

٢ . المعجم الوسيط، ص١٥٦، مادّة (ح ج ج).

٣ . سورة الكهف، الآية ٥٦.

٤ . سورة الإسراء، الآية ٥٧.

الاستدلال القويّ الذي قدّمه النبيّ إبراهيم عليه السلام شعر النّمرود بخيبة الأمل والخسران وبُهت من برهان خليل الله عليه السلام وتعجّب منه وضلّ ضلالاً بعيداً، ولهذا قال الله تعالى في آخر الآية الشريفة: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

فَبُهِتَ: «البَهْتَةُ» الدَّهَشُ والحَيْرَة[1]، وقد يكون السبب في الحَيْرة أحياناً هو القول وأحياناً الفعل، فمثال الأوّل هو الكَذب والتّهمة وذلك لأنّهما لا يمتلكان أساساً للصحّة ولا ينطبقان مع الواقع وكذلك لأنّهما يُسبّبان الدَّهَش والحَيرة، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾[2] ولهذا تقول العرب: يا لَلبَهيتة، أي يا لَلكذِب[3]. وأمّا مثال الثاني ـ وهو الحَيرة من الفعل ـ فهو العمل الذي ليس هناك دليل صحيح على ارتكابه ويؤدّي إلى دهشة العقل وحَيرته: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾[4].

قال أمين الإسلام الطّبرسيّ رحمه الله: «قوله: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي تحيّر لانقطاع حُجَّته»[5]، وهذا المعنى من هذا الجَذر هو الذي شاع استخدامه وهو ما ورد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «**فَلَمَّا قَرَّعْتُهُ بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلَإِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لَا يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ**»[6]. إلّا أنّ معناه أعمّ وأشمل من ذلك لأنّ المَبهوت هو مَن ضلّ طريق النجاة واحتار في أمره.

تناسب الآيات

كان الحديث في الآيات الشريفة السابقة حول توحيد الذات والتوحيد في

---

١ . معجم مقاييس اللغة، ج١، ص٣٠٧، مادّة (ب ه ت).
٢ . سورة النور، الآية ١٦.
٣ . معجم مقاييس اللغة، ج١، ص٣٠٧، مادّة (ب ه ت).
٤ . سورة النساء، الآية ٢٠؛ التحقيق في كلمات القرآن، ج١، ص٣٢٨، مادّة (ب ه ت).
٥ . مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٦٣٤.
٦ . نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٧٢.

الصّفات وفي أسماء الله الحسنى، وقلنا إنّ أحد أبعاد التوحيد هو اقتصار منصب (الوليّ) ومسؤولية (الولاية) على الله سبحانه وحده وأطلقنا على ذلك اسم (توحيد الولاية).

وفي الآيات الثلاث السابقة أيضاً عرضنا ثلاثة نماذج لتوحيد الولاية وأوردنا الاستدلال والشهود والمظهريّة في كلّ نموذج من تلك النماذج، وقد أدّت الآصرة القويّة والعلاقة الواضحة بين الآيات المذكورة إلى اعتقاد الأستاذ العلّامة الطباطبائيّ رحمه الله بنزول تلك الآيات معاً[1].

وفيما يتعلّق بالآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث نقول إنّها ترتبط كذلك بالآيات السابقة من ثلاث جهات، هي:

١. أشارت الآيات السابقة إلى أنّ الله هو (الحَيّ) و(القَيّوم) وأنّ حياته سبحانه ذاتية وأزلية وغير محدودة، ومن هنا صحّ القول بأنّ الذات الإلهية المقدّسة قيّومة على الحياة والموت إذ إنّ أيّ حياة محدودة لا يمكن أن تُوجَد إلّا بالاستناد إلى حياة أزلية غير محدودة، ومن هنا فقد استندت الآيات إلى برهان الإحياء والإماتة لإثبات الرّبوبيّة المطلقة لله عزّ وجلّ.

٢. ذكرت الآيات السابقة أنّ الله هو المالِك والمَلِك والقادر والمدير والمُدبِّر لنظام الوجود بأكمله، وفي هذه الآية تمّ الاستدلال بطلوع الشمس ومَغيبها وهما جزان من التدبير الإلهيّ الخاصّ بخَلق العالم ومصداقاً حيّ للتدبير العامّ.

٣. بيّنت الآيات السابقة أنّ الله تعالى هو وليّ المؤمنين ومدبّر شؤونهم وهو الذي يُخرجهم من الظلمات إلى النور وأنّ الطاغوت هو وليّ الذين كفروا يُخرجهم من النور إلى الظلمات، وفي الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث

---

١ . «الآيات مشتملة على معنى التوحيد ولذلك كانت غير خالية عن الارتباط بما قبلها من الآيات فمن المحتمل أن تكون نازلة معها». تفسير الميزان، ج٢، ص٣٤٨.



يُمثّل سيّدنا إبراهيم عليه السلام أنموذجاً لولاية الله سبحانه بينما يُعتبر النّمرود مثالاً للذين تولّوا الشيطان؛ أي إنّ الآيات السابقة أشارت إلى ولاية الله عزّ وجلّ على المؤمنين وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وكما أنّ للظلماتِ مراتبَ وأدراكاً فإنّ النّور أيضاً يمتلك مراتب ودرجات، فجميع المؤمنين هم تحت مظلّة الولاية الإلهية، وهم: الأشخاص المُبتدئون في إيمانهم والمؤمنون الذين وصلوا إلى منتصف طريق الإيمان والأنبياء والأولياء الذين يتمتّعون بأعلى درجات الولاية الإلهية وأسماها.

وجدير بالذّكر أنّ تلك الآيات تشير إلى ثلاثة أنواع من الولاية الإلهية التي تؤدّي إلى تنوير قلوب المؤمنين، وهذه الأنواع هي:

١. الاستدلال العقليّ؛ حيث يقوم الله سبحانه بتعريف الإنسان بأحد المبادئ الإلهية بواسطة البرهان العقليّ، وبالبرهان العقليّ يستطيع الإنسان الخروج من الظلمات والشكّ والجهل والحَيرة والكُفر إلى شاطئ النور والنجّاة بنفسه، ليصل بعدها إلى نور العلم واليقين والتخلّص من الظلمات والعيش في النور، وإلى هذا تشير قصّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام ومحاجّته مع نمرود. نعم، عندما يصبح الإنسان موحّداً بقوّة البراهين العقلية فإنّه سيدخل في خيمة الولاية الإلهية وينجو من ظلمة الجهل والشكّ ليبلغ مشارف النور واليقين والإيمان، وهذه المرحلة هي أضعف مراحل قبول الإنسان لولاية الله تعالى.

٢. أن يجتاز الإنسان مرحلة العلم الحصوليّ والبرهان ويدخل في مرحلة جديدة وهي مرحلة العلم الشهوديّ حيث يستطيع إدراك الأمور بالعلم الجديد لا أن يكتفي بإدراك المفهوم، وأن تصبح تلك الأمور أجزاءاً من شخصيّته لا أن يكتفي بالعلم بها وحسب، ويضحى كالشخص الذي أدرك الإحياء والإماتة في محور وجوده، أي أن يموت ويحيى ويُميت ويُحيي إذ كان يعلم ذلك من قَبل

لكنّه لم يُدركه، والمقصود بقوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١] هو العلم الشهوديّ المُراد للفعل «أَجِدُ» بمعنى «أدركتُ».

٣. أن يُدرك الإنسان سرّ إحياء الموتى بالعلم الحصوليّ والاستدلال بقدرة الله غير المتناهية ويعترف قائلاً: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ثمّ يُدرك ذلك بالعلم الشهوديّ في محور وجوده، بل والأسمى من ذلك كلّه هو أن يصبح نفسه مظهراً للمُحيي والمُميت، أي أن يصل إلى مرحلة يستطيع خلالها إحياء الموتى بإذن الله سبحانه، وهذه هي أعلى مراحل النورانية ودرجاتها.

* * *

محور المحاجّة

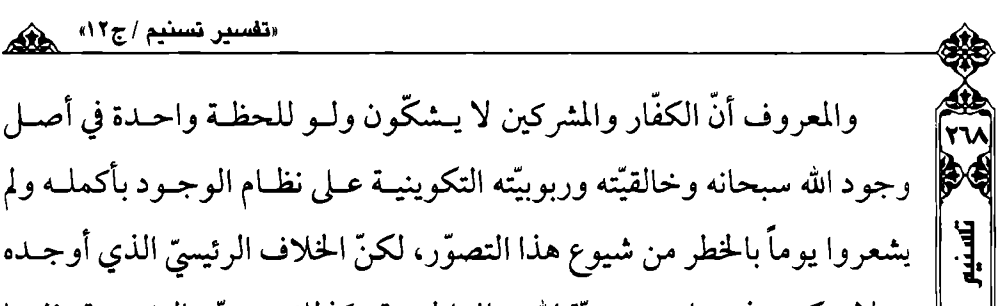
حاجّ نمرود سيّدنا إبراهيم عليه السلام في ربّه ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾[٢] فاستهلّ نَبيّ الله كلامه بكلمة ﴿رَبِّيَ﴾ ثمّ بيّن صفات الله تعالى وشرحها لهذا الكافر بقوله إنّ ربّه هو في الحقيقة رَبّ العالمين جميعاً إذ أشار سيّدنا إبراهيم عليه السلام في كلامه إلى صفتَيْ الإحياء والإماتة وهما صفتان كان إبراهيم عليه السلام قد ذكرهما لربّ العالمين في مكان آخر من القرآن الكريم: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[٣]. إذاً، فقد بيّن سيّدنا إبراهيم عليه السلام كما قلنا لِنَمرود أنّ الربوبيّة التشريعية وتدبير الأمور الاجتماعية هما مسألتان تخصّان مَن يمتلك الربوبيّة التكوينية.

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٥٩.

٢ . الضمير في ﴿رَبِّهِ﴾ يعود دون شكّ إلى سيّدنا إبراهيم عليه السلام لأنّ النّمرود كان يعتبر نفسه هو الإله والربّ، وإبراهيم عليه السلام هو القائل كذلك: ﴿رَبِّيَ الّذي...﴾.

٣ . سورة الشّعراء، الآيات من ٧٧ إلى ٨١.



والمعروف أنّ الكفّار والمشركين لا يشكّون ولو للحظة واحدة في أصل وجود الله سبحانه وخالقيّته وربوبيّته التكوينية على نظام الوجود بأكمله ولم يشعروا يوماً بالخطر من شيوع هذا التصوّر، لكنّ الخلاف الرئيسيّ الذي أوجده هؤلاء يكمن في عناصر ربوبيّة الله تعالى الجزئية وكذلك ربوبيّته التشريعية. ففيما يتعلّق بعناصر الربوبيّة الجزئية كان المشركون يؤمنون بآلهة عديدة كإله الرياح وإله المطر وإله الشمس وغير ذلك، إلّا أنّهم كانوا يعتقدون أنّ العالَم بمجموعه ـ وليس كلّ جزء منه على حِدة ـ يدخل ضمن نطاق ربوبيّة الله وتدبيره، لكنّهم ـ لتعذّر وصولهم واتّصالهم بتلك الآلهة ـ كانوا يصنعون تماثيل ـ وأصناماً تشبه تلك الآلهة ـ بزعمهم ـ فيعبدونها وكان الهدف من تلك العبادة هو التقرّب إلى الله سبحانه ـ حسب تصوّرهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[1].

وفي مجال الربوبيّة التشريعية كان المشركون يدّعون أحقيّتهم في امتلاك هذه الصفة في قيادة الناس والتسلّط عليهم وإدارة الشؤون الاجتماعية، فضلاً عن أنّهم كانوا يرون وجوب تدبير أمور المجتمع والناس وفقاً للقوانين التي يخترعونها ويضعونها هم لتمشية تلك الأمور. وفرعون الذي كان يدّعي تارة بأنّه هو الإله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[2] أو يقول تارة أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[3] لم يكن يقصد بكلامه هذا أنّه هو الخالق لشعب مصر ولم يعنِ بما قاله أنّه يمتلك الربوبيّة على نظام الوجود، كلّ ما أراده فرعون هو القول بأنّ زمام تدبير الشؤون الاجتماعية للناس ينبغي أن يكون بيَده لا بيَد غيره باعتباره هو الشخص الوحيد الذي يستطيع إيصالهم إلى الكمال المطلوب ـ بزعمه ـ وفي

---

١. سورة الزّمر، الآية ٣.

٢. سورة النّازعات، الآية ٢٤.

٣. سورة القصص، الآية ٣٨.



مقابل ذلك يجب على الجميع طاعته والامتثال لأوامره دون قَيد أو شرط؛ فلقد كان فرعون نفسه يمتلك صنماً يعبده ويسجد له بانتظام والدليل على ذلك أنّ ملأه وبطانته كانت تحذّره باستمرار من ترك موسى عليه السلام وأصحابه أحراراً خوفاً من أن ينشروا الفساد في أرضه ويتسبّبوا في أن يخرج شعبه عن طاعته وعبادة آلهته: **﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾**[1].

وما كان جواب الأنبياء عليهم السلام على ادّعاءات المشركين وأقوالهم سوى أنّ مِقوَد الربوبيّة التشريعية وإدارة النظام الفرديّ والاجتماعيّ ينبغي أن يكون بيَد مَن يمتلك الربوبيّة التكوينية، العامّة والجزئية، وذلك بالاستناد إلى التنسيق والانسجام الموجودَين بين نظامَيْ التكوين والتشريع، وأنّ عكس ذلك يعني أنّ النظام التكوينيّ سيقود الإنسان إلى جهة بينما سيتولّى النظام التشريعيّ قيادته إلى جهة أخرى مخالفة تماماً؛ يُضاف إلى ذلك أنّ معرفة المُقَنِّن وعلمه بقُدرات الإنسان وإمكانيّاته تُعدّ من الشروط الواجب توفّرها في عملية التّقنين، وهذه المعرفة الكاملة بقُدرات الإنسان لا يمكن أن تكون إلّا بحوزة مَن خَلق الإنسان وكان مُدبّراً لشؤونه التكوينية.

إلماعة: لاحِظ أنّ الادّعاء بالنبوّة والرسالة والدّعوة إلى أصول الدين وفروعه إنّما يكون من قِبل الأنبياء والرّسل عليهم السلام بينما لا يخرج الجدال ولا تظهر الخصومة والعناد إلّا من عَبدة الأوثان والأصنام. ولاحِظ كذلك أنّ الجدال الذي دار بين سيّدنا إبراهيم عليه السلام ونمرود قد يصطبغ أحياناً بالصبغة الكلامية وأحياناً أخرى نراه أقرب ما يكون إلى الجانب الحقّي والسياسيّ والاجتماعيّ.

---

١ . **سورة الأعراف**، الآية ١٢٧.



من الواضح أنّ محاجّة خليل الله عليه السلام لم تخرج عن إطار أحد المحورين المذكورين، فأمّا ما حاجّه به قومه فهو كما قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[1] فيدخل ضمن محور المعارف الكلامية وكان احتجاج سيّدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر من هذا النوع، وهو نفسه ما دار من حديث بين بعض الأشخاص من جهة وبين الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾[2]، وأمّا ما جرى من كلام بين خليل الله عليه السلام ونمرود فتركّز في الأساس على المحور السياسيّ المتعلّق بتدبير شؤون المجتمع والهداية التشريعية وعملية التقنين للأمّة جمعاء، مع الإشارة في الوقت نفسه إلى الناحية الكلامية أيضاً، وهذا بالضّبط ما جرى كذلك بين كليم الله موسى عليه السلام وبين فرعون إذ رغم ادّعاء هذا الأخير بالربوبيّة فقد كان هو نفسه يعبد الأصنام، وفي مجال الكلام كان مشركاً شأنه في ذلك شأن المصريين جميعاً، لكنّه كان يدّعي الربوبيّة في المجال السياسيّ والاجتماعيّ على حدّ سواء. وهكذا، فإنّنا لا نجد أيّ فرق يُذكَر بين نمرود السابق وبين فرعون الحاليّ، كما أنّه لا فَرق كذلك بين المهمّة التي تولّاها سيّدنا إبراهيم عليه السلام وبين المسؤولية التي وُضِعَت على عاتق سيّدنا موسى عليه السلام.

سلطان آل إبراهيم عليهم السلام ونمرود

من الواضح أنّ قوله تعالى: ﴿أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ هو لبيان السبب في محاجّة

---

١. سورة الأنعام، الآية ٨٠.

٢. سورة آل عمران، الآية ٢٠.



نمرود وقد حُذِفت (لام التعليل) فيها[١] وذلك لأنّ العادة جَرت على حذف اللام قبل (إنّ) و(أنّ) دائماً[٢].

ويعود ضمير المفعول في ﴿آتَاهُ﴾ إلى الاسم الموصول (الّذي) والمقصود به هو شخص نمرود، وأمّا الهدف من ذِكره بالاسم الموصول الذي يتضمّن نوعاً من الغموض والإبهام فهو لتحقيره، والمُرادُ من ﴿الْمُلْكَ﴾ في هذه الآية الشريفة هو السلطانُ والحُكمُ اللّذان وهبهما الله تعالى إلى نمرود لابتلائه واختباره.

وقد احتمل بعض المفسّرين عود الضمير المذكور ـ في الفعل ﴿آتَاهُ﴾ ـ إلى سيّدنا إبراهيم عليه السلام نفسه وذلك بالاستناد إلى ما يلي:

١. الأوّل أنّ آل إبراهيم عليه السلام كانوا يتمتّعون أيضاً بنعمة السلطان الظاهريّ كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾[٣].

---

١. «﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب من محاجّة نمروذ في الله وكفره به، ﴿أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ متعلّق بحاجّ على وجهين: أحدهما حاجّ لأن آتاه الله الملك، على معنى أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتوّ فحاجّ لذلك، أو على أنّه وضع المحاجّة في ربّه موضع ما وجب عليه من الشكر على أن آتاه الله الملك، فكأن المحاجّة كانت لذلك، كما تقول: عاداني فلان لأني أحسنتُ إليه، تريد أنّه عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾». (الزّمخشريّ، **تفسير الكشاف**، ج١، ص٣٠٥).

٢. «﴿أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ أي لأن آتاه الله تعالى دلك، فالكلام على حذف اللام وهو مطّرد في (أن) و(إن) وليس هناك مفعول لأجله منصوب لعدم إتّحاد الفاعل والتعليل فيه على وجهين: إمّا أنّ إيتاء الملك حمله على ذلك لأنّه أورثه الكبر والبطر فنشأت المحاجّة عنهما، وإمّا أنّه من باب العكس في الكلام بمعنى: أنّه وضع المحاجّة وضع الشكر إذ كان من حقّه أن يشكر [الله] على ذلك. فعلى الأوّل العلة تحقيقية وعلى الثاني تهكمية، كما تقول: عاداني فلانٌ لأنّي أحسنتُ إليه؛ وجوّز أن يكون ﴿آتَاهُ﴾ إلخ... واقعاً موقع الظرف بدون تقدير أو بتقدير مضاف، أي حاجّ وقت أن آتاه الله، وأورد عليه أنّ المحاجّة لم تقع وقت إيتاء الملك بل الإيتاء سابق عليها». (**تفسير روح المعاني**، مج٣، ج٣، ص٢٥)؛ أنظر أيضاً: **إعراب القرآن**، ج١، ص٣٩٢.

٣. سورة النساء، الآية ٥٤.



٢. الثاني أنّه من غير المنطقيّ أن يُؤتيَ الله سبحانه المُلك والحُكم والسّلطان لشخص جائر وظالم وطاغية كنمرود ليدّعي هذا الأخير بالرّبوبية فيما بعد بدلاً من شكره.

٣. الثالثُ أنّ نسبة الضمير وإرجاعه إلى الأقرب أفضل، وفي الآية الشريفة يكون اسم النبيّ إبراهيم عليه السلام أقرب إلى الضمير منه إلى الاسم الموصول (الّذي)[١].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ أيَّ قولٍ من الأقوال المذكورة ليس صحيحاً للأسف وذلك للأسباب التالية:

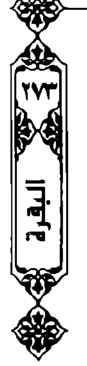
١. إذا كان إعطاء المُلك لآل إبراهيم يشمل سيّدنا إبراهيم عليه السلام أيضاً فإنّ هذه المسألة تعود إلى أواخر عُمُره الشّريف في حين أنّ المحاجّة التي حصلت بينه عليه السلام وبين نمرود كانت من المعروف في بداية بعثته حيث كان المُلك والسلطان آنذاك بيَد نمرود.

٢. لا شكّ في أنّ كلّ نوعٍ من أنواع المُلك والمناصب الدنيوية هو مجرّد وسائل للاختبار والابتلاء حتى وإن اعتبرناها ثواباً وجزاءً لصاحبها، كما أنّ أيّاً من النِّعَم والآلاء المادية لا يُعتبر دليلاً نهائياً على كرامة الموهوب له، والعكس صحيح كذلك، فسلب تلك النّعَم من أيّ شخصٍ كان لا يعني تحقيره أو إهانته أبداً: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا...﴾[٢]. إذاً، فإنّ مَنح القدرة أو السلطة إلى شخص ما يعني اختباره وابتلاءه بها ولا يدلّ ذلك على تكريم صاحبها [أو تحقيره أو إهانته] بأيّ شكل من الأشكال إلّا إذا كان ذلك مصحوباً

---

١. «الضمير يعود إلى أقرب المذكورات». راجع: **التفسير الكبير**، مج٤، ج٧، ص٢٣.

٢. **سورة الفجر**، الآيات من ١٥ إلى ١٧.



بالاصطفاء الإلهيّ كما ورد بشأن طالوت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[1]. من المُلاحَظ أنّ الله سبحانه قد وبّخ نمرود وآخذه في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث أن أعطاه المُلك ووهبه السلطة وفي مقابل ذلك كفر هذا الطاغية بالله تعالى واستعبد الناس وحاجّ إبراهيم عليه السلام وخاصمه بسبب ذلك، فضلاً عن أنّه لم يشكر نِعَم الله عزّ وجلّ عليه ولم يسخّرها بالشكل الصحيح في خدمة عباد الله أو الإسراع إلى تحقيق الأهداف السامية المنشودة. وقد ورد مثل هذا التوبيخ كذلك في القرآن الكريم بحقّ بعض الأشخاص أو الأُمم التي لم تَرعَ حقوق الله فيما مُلِّكَت من الأموال والبنين ولم تشكر الله على ما أولاها، كقوله سبحانه: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾[2] و﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[3].

ويكمن سبب توبيخ نمرود على تعامله المغلوط مع نِعمة الحُكم والسلطة في أنّ أصل المُلك والملكوت يعود لله سبحانه وهو الذي يَهب شيئاً منه للآخرين لابتلائهم واختبارهم في هذه الدنيا [وهو كذلك الذي يأخذه منهم ثانية متى شاء]: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾[4]؛ إذاً، فالآلاء الإلهية مثل السلطة والمُلك وإيتائهما إلى الناس من قِبل الله عزّ وجلّ إنّما هي اختبار لهم وليست دليلاً على أفضليّتهم أو تكريمهم أو ترجيحهم على الآخرين، مَثلها في ذلك مَثل سائر النِّعَم والآلاء الربّانية الأخرى، كما قال

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٤٧.

٢ . سورة القلم، الآيات من ١١ إلى ١٤.

٣ . سورة إبراهيم عليه السلام، الآية ٢٨.

٤ . سورة آل عمران، الآية ٢٦.

سبحانه لرسوله الكريم ﷺ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[1] وقد كان الكافرون يرون أنّ طول أعمارهم هو بمثابة خير لهم ونعمة لم تُؤتَ غيرهم من الناس فردّ عليهم القرآن الكريم قائلاً: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾[2].

إنّ النِّعَم المادية كامتلاك البنين والأولاد والمال والحُكم والسلطان والمكانة الرفيعة في المجتمع والسلامة والعافية وطول العُمر وبعض المزايا الجسمية والبدنية، كلّها وسائل لاختبار أصحابها وابتلائهم فإذا لم يسخّرها الشخص للأغراض الصحيحة والنافعة من الناحية العملية وكفر بها ولم يشكر مَن وهبها له فقد يزيد الله سبحانه فيها أو يُديمها عليه كوسيلة لتعذيبه وحجّة دامغة على تصرّفه الخاطئ؛ وعليه فلا فرق إطلاقاً بين النِّعَم الخارجية والنِّعَم الداخلية.

٣. إرجاع الضمير إلى أقرب المذكورات إذا تطلّب ذلك للمحافظة على تناسق المعنى وانسجامه، لكنّ ذلك سيشتّت معنى الآية هنا ويجعله غامضاً كما هو واضح.

إحتجاج سيّدنا إبراهيم عليه السلام

تشير الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث إلى أنّ نمرود هو البادئ بالمحاجّة إلّا أنّ القرآن الكريم لم يذكر نصّ السؤال الذي طرحه نمرود ورغم ذلك فإنّ السؤال واضح بقرينة الجواب الذي أعطاه سيّدنا إبراهيم عليه السلام، ومن خلال ملاحظة الجواب يبدو لنا أنّ سؤال نمرود هو: «مَن هو ربّكَ الذي تدعونا

---

١. سورة التوبة، الآية ٥٥.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٧٨.



إلى عبادته رغم أنّك ترى أنّ أزِمّة الحُكم والسلطة كلّها بيَدي؟». فأجابه سيّدنا إبراهيم عليه السلام قائلاً: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي إنّ المبدأ الذي يمتلك مُعجزة الإحياء والإماتة هو المسؤول عن التدبير والإدارة كذلك. فقال نمرود: ما مِن أحد غيري يملك حقّ الإحياء وقدرة الإماتة: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ فقال له إبراهيم عليه السلام: «كيف تحيي و تميت؟»، قال نمرود: «إليّ برجليْن ممّن قد وَجَبَ عليهما القتل». فأطلق عن واحد وقتل واحداً، ثمّ قال: قد أحييتُ وأمَتّ؛ وَجَبَتْ عليك عبادتي! فقال إبراهيم عليه السلام: «إن كنتَ صادقاً فأَحْي الذي قتلته». ثمّ قال عليه السلام: «دَع هذا ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾». فكان كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

ويُستَشفّ من محاجّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام أنّ المعبود هو مَن يملك أمر الإحياء وقدرة الإماتة، ولكي لا يضطرّ نمرود إلى دخول طريق مسدود والوقوع في المحذور، كان بإمكانه أن يقول مثلاً إنّ أمر الإحياء والإماتة هو بيَد الأوثان، وهذا كَذب وبُهتان ـ كما هو معلوم ـ إذ لم يشهد أحد قطّ على أنّ الأصنام قد فعلت ذلك يوماً ما، ولذلك لم تكن المغالطة في هذا أيضاً ممكنة بالنسبة إلى نمرود؛ أو أن يقول على سبيل المثال إنّه هو المُحيي والمُميت ويقيم برهاناً باطلاً على ادّعائه، فكان أفضل خيار له ـ على ما يبدو ـ هو ما قام به من قَتل أحد الرّجليْن والإبقاء على حياة الآخر، ورغم ذلك كلّه فقد بُهِتَ في نهاية المجادلة كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك.

---

١ . **أصول الكافي**، ج٨، ص٣٦٨؛ **تفسير القمّي**، ج١، ص٨٦؛ **الدرّ المنثور**، ج٢، ص٢٥. سننقل ما ورد في تفسير القمّي في البحث الروائي إن شاء الله.



التحليل المنطقي للبرهان الأوّل

في الحقيقة أنّ هذا الاستدلال بالصيغة الأولى منظّم تنظيماً منطقيّاً إذ إنّ كبرى الاستدلال وهي: «*إنّ كلّ مَن يملك قدرة الإحياء والإماتة فهو ربّ*» مقبولة من قِبل طَرَفَيْ الحوار [أو المحاجّة] وكان الاختلاف في صغرى الاستدلال فقط، فقد قال سيّدنا إبراهيم عليه السلام إنّ الموت والحياة بيَد الله سبحانه بينما كان نمرود يظنّ أنّ ذلك بيَده هو؛ وهنا، يمكن أن يكون موضوع الإحياء والإماتة حدّاً وسطاً في البرهان المذكور لاحتياجهما معاً إلى مبدأ فاعليّ، وكان احتجاج سيّدنا إبراهيم عليه السلام تامّاً وكاملاً، وهو برهان كان قد صدر على لسان جميع أنبياء الله عليهم السلام.

وتحتلّ مسألةُ إحياءِ الموتى وإماتةِ الأحياء المتعلّقتان بالله سبحانه والمذكورتان في العديد من الآيات القرآنية، تحتلّ الحدّ الوسط من برهان الرّبوبيّة كقوله تعالى: ﴿**رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**﴾[1] ففي هاتيْن الآيتيْن الشريفتيْن تمّ إثبات الربوبية المطلقة لله عزّ وجلّ من خلال الإحياء والإماتة، وكذلك الآية الشريفة على لسان سيّدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿**إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ... وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ**﴾[2] وهنا لم يقتصر الأمر على اعتبار مسألة الإحياء والإماتة المطلقتين من ضمن الصفات التي يتمتّع بها ربّ العالمين، بل أشارت الآيات إلى أنّ ربّ العالمين يملك كذلك قدرة الإماتة والإحياء، وهذا يشبه ما ورد في قوله تعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ**﴾[3].

---

١ . سورة الدّخان، الآيتان ٧ و ٨.

٢ . سورة الشّعراء، الآيات من ٧٧ إلى ٨١.

٣ . سورة الملك، الآيتان ١ و ٢.

إنّ جميع المراحل الحياتية، بدءاً من أدنى مرحلة ووصولاً إلى أعلى مراحلها وأرقاها، هي بيَد الله سبحانه، وقد أشار القرآن الكريم في الكثير من آياته إلى أنّ الله ﷻ هو فالق الحبّ والنّوى وهو الذي يُنبت الزّرع حتى يصبح شجرة أو نباتاً متكاملاً: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحُبِّ وَالنَّوَى﴾[1] وأنّه هو تعالى يملك زمام الحياة المعنويّة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]؛ ولا ريب في أنّ مِقوَد الحياة والموت بيَد الله سبحانه وحده، وليس باستطاعة التقدّم العلمي والتكنولوجيّ في الطبّ أن يدفع الموت عن أحد إطلاقاً وإن كان بإمكانه تأخير ذلك إلى أجل مُعيّن (أي أجل مَقضيّ لا مُسمّى) باستخدام بعض الأدوية أو العقاقير لمعالجة أنواع محدّدة من الأمراض والعاهات، فكلّ حالات التقدّم العلميّ المذكورة متحقّقة في النظام الرّبوبيّ، والإرادة التكوينية لله سبحانه هي التي سمحت بحصول مثل تلك الحالات الاستثنائية تحت مظلّة التكنولوجيا والتقدّم العلميّ، لكن ما مِن شيء أو أمر يمكنه أن يحدث خارج نطاق قدرته أو إرادته؛ إذاً، فعندما يحين موعد خروج الرّوح من البَدن ومُفارقتها له لن يكون بمقدور أحد عندها تأخير ذلك الأمر أو إعاقته: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[3]. واستناداً إلى هذا أيضاً فقد أجاب الله سبحانه على اعتراض بعض المنافقين على ذهاب المؤمنين إلى جبهات القتال واستشهادهم دون هدف ـ حسب ادّعائهم ـ بقولهم: لو لَم يذهبوا إلى القتال ما

---

١ . **سورة الأنعام**، الآية ٩٥.

٢ . **سورة النّحل**، الآية ٩٧.

٣ . **سورة الواقعة**، الآيات من ٨٣ إلى ٨٧.



قُتِلوا ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾؛ قائلاً عَجَلَ: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[١]، وبشأن المحاولات التي يبذلها بعض الناس للهروب من قبضة الموت يقول الله سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[٢].

وهكذا نرى أنّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام قد نسبَ جميع أنواع الإحياء والإماتة إلى الله تعالى وحده بينما كان الطاغية نمرود يصرّ على أنّه هو الآخر يملك مثل تلك القدرة. والجدير بالذّكر أنّ نمرود لم يذكر ادّعاءه ذاك بمعيّة واو العطف، فهو لَم يَقُل: وأنا أيضاً أُحيي وأُميت! لأنّ المُشرك لا يعتبر الله تعالى شريكاً له ولا يعتبر نفسه شريكَةً لله سبحانه، ولا يؤمن بأنّ عبادة الأصنام هي لله وللأصنام معاً، بل يعتقد بأنّ تلك العبادة هي خالصة للأصنام دون غيرها رغم اعتبارها في بعض الأحيان شُفعاء بين الله وبين أبناء البشر.

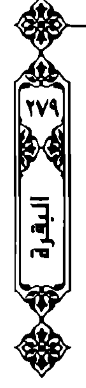
فلمّا رأى نمرود أنّ برهان سيّدنا إبراهيم عليه السلام هو برهان كامل غير منقوص عمد إلى خداع الرّأي العامّ والتغرير بالناس، الأمر الذي أجبر سيّدنا إبراهيم عليه السلام على اتّخاذ منحى آخر في الجدال الدائر بينه وبين نمرود، وهو الإتيان بآية طلوع الشمس وغروبها ليغلق أبواب الخداع والمراوغة أمام نمرود.

خداع نمرود ومغالطته

قلنا بأنّ مسألة الإحياء والإماتة تمثّلان كُبرى البرهان حيث قَبِلَ بهما كلّ شخصٍ من نمرود والحاضرين لتلك المجادلة ولذلك عجز عن إيجاد أيّة ثغرة في البرهان المذكور، لكنّه بدأ بالمماطلة والمغالطة في صغرى الاستدلال هكذا:

١ . سورة آل عمران، الآية ١٦٨ .

٢ . سورة النساء، الآية ٧٨.



١) **الخلط بين الحقيقة والمجاز**: كان نمرود يرى أنّ الإحياء معناه تحرير شخص ما من السجن أو إزالة عقوبة الموت عنه، وأنّ الإماتة تتمثّل في إعدام آخر أو قتله، في حين أنّ استخدام الألفاظ المجازية في أيّ برهان يعني المغالطة، فقد كان ما يقصده سيّدنا إبراهيم عليه السلام من الإحياء هو بَعث الميّت إلى الحياة ثانية، وما يعنيه من الإماتة هو استيفاء الرّوح ووفاتها.

٢) **تطبيق البرهان على حالات عديدة**: قام نمرود بتطبيق الإحياء على شخص والإماتة على شخص آخر غيره في حين أنّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام كان يقصد تطبيق الحالتيْن على شخص واحد، وعندما رأى أنّ نمرود بدأ يُغالط في كلامه ويخرج عن المعروف والمألوف، قال له: «حسن! إذا كان الموت والحياة بيَدك فأحي مَن قَتَلْته!»[1].

٣) كان سيّدنا إبراهيم عليه السلام يقصد بكلامه الرّبوبية التكوينية والتشريعية بينما حمل نمرود ذلك على التدبير الفرديّ والاجتماعيّ.

٤) كان النبيّ إبراهيم عليه السلام يعني بحديثه مع نمرود استمرار حالة الإحياء والإماتة بدليل استخدامه للفعل المضارع ﴿يُحْيِي﴾ و﴿يُمِيتُ﴾، أي إنّ الله عزّ وجلّ يُفيض الرّوح على مَن يشاء ويقبضها ممّن يشاء في أيّة لحظة ومتى شاء، وأمّا ما قام به نمرود فلم يكن فعلاً مستمرّاً بل مُنتهياً، بمعنى أنّ قَتله لأحد الشخصيْن وإبقائه على حياة الآخر هما أمران مرحليّان وموقّتان وإن افترضنا شمولهما بالحدّ الأوسط للبرهان.

إلماعة: رغم الازدهار والرّقي اللذيْن تمتّعت بهما الحضارة البابليّة في زمن نمرود إلّا أنّ ذلك لا يعني وجود أيّ علاقة بين تطوّر العقل التجريبيّ وبين العقل التجريديّ، فقد حاول نمرود متعمّداً من خلال التمويه والتلبيس، استصغار

---

١ . **تفسير القمي**، ج١، ص٨٦؛ **بحار الأنوار**، ج١٢، ص٣٤.



البرهان النورانيّ الذي قدّمه إليه سيّدنا إبراهيم عليه السلام والاستهانة به أمام جموع شعبه البابليّ المتمدّن لكنّ الماديّ والوَثنيّ، وهذا بالضّبط ما هو شائع في الوقت الحاضر في بعض الدّول المتقدّمة، فمن الناحية العقلية التجريبيّة قد وصلت تلك الدّول إلى أبعد نقطة ممكنة في هذا الكون الفسيح، وهذا أمر لا يمكن غضّ النظر عنه أو تجاهله، ولكنّها من حيث العقل التجريبيّ والعرفان الشهوديّ فما زالت تجهل الحقائق المتعلّقة بأقرب موجود إليها ألا وهي هويّتها الذاتية: ﴿**نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ**﴾[1].

البرهان الثاني لسيّدنا إبراهيم عليه السلام

كان سيّدنا إبراهيم عليه السلام قد قال في بداية حديثه مع نمرود: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ لكنّ نمرود بعد قبوله بوجود الملازمة بين الرّبوبية والقدرة على الإحياء والإماتة على مَضض، شرع بالمغالطة في تعيين المصداق فنسب إلى نفسه مسألة الإحياء والإماتة في محاولة أخرى يائسة لإثبات نسبة الربوبية المزعومة إليه؛ وهنا، رأى سيّدنا إبراهيم عليه السلام أنّ الحاضرين من ملئه وأعوانه والناس السذّج بدأوا بتصديق ما تفوّه به نمرود من هراء وتبجّح وأنّ ما قدّمه عليه السلام من برهان صادق جواباً على مُغالطة نمرود لم يؤثّر في نفوس مَن عَميت بصيرتهم، لكنّ ذلك لم يُدخل اليأس في نَفس إبراهيم عليه السلام ولم يُثنه عن إنهاء المجادلة مع نمرود فبادر إلى إقامة البرهان الثاني مخاطباً الطاغية قائلاً: ﴿**فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾، وكان هدف سيّدنا إبراهيم عليه السلام من عرض البرهان الثاني تقديم المصداق الحقيقيّ للربّ وفضح المصداق الكاذب والزائف له في آن واحد، ولذلك استخدم لفظ الجلالة «الله ـ سبحانه» بدلاً من كلمة

---

١. سورة الحشر، الآية ١٩.

﴿رَبِّيَ﴾ التي أتى بها في البرهان السابق؛ ولّما كان البرهان الثاني يتفرّع عن البرهان الأوّل المتعلّق بالإحياء والإماتة، أدخَلَ سيّدنا إبراهيم حرف (الفاء) على «إنَّ» قائلاً: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمُشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمُغْرِبِ﴾ وذلك لكي يؤكّد خليل الله عليه السلام على أنّ الجزء الثاني من كلامه لا يمثّل برهاناً آخر غير البرهان الأوّل بل هو مصداق آخر لنفس البرهان (البرهان الأوّل) إذ إنّ مسألة الإحياء والإماتة لا تختلفان عن مسألة طلوع الشمس وغروبها، إنّما المسألة الرئيسية تكمن في الموت النسبيّ، أمّا الموت الحقيقيّ بمعنى فناء الشخص من الأساس فغير موجود.

وعلى أيّة حال، فقد طرح سيّدنا إبراهيم عليه السلام موضوع شروق الشمس وغروبها ليصيب هدفيْن بسَهم واحد: أوّلهما إثبات مُدّعاه في كون ربّ العالَمين هو الذي يُدير نظام الوجود والعالم بأكمله، وثانيهما إفهام الحاضرين في وقتها ممّن كانوا يعبدون النجوم والقمر والشّمس أنّ النجوم والقمر والشمس وسائر الكواكب والسيارات الأخرى إنّما هي مملوكة لربّ العالمين وخاضعة له، لأنّ عبادة النجوم والكواكب والشمس كانت ظاهرة شائعة في تلك الفترة، ولهذا قال لنمرود بوجود الحاضرين: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمُشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمُغْرِبِ﴾.

ويمكننا الإشارة إلى ثلاث نقاط رئيسيّة في البرهان الثاني الذي قدّمه سيّدنا إبراهيم عليه السلام وهي:

١. كان البرهان الثاني منطقياً تماماً كالبرهان الأوّل لأنّ كبرى الاستدلال فيه عبارة عن: «إنّ مَن كان أمر الشّمس بيَده فهو الربّ الحقيقيّ» وهي كبرى وافقت كلّ الأطراف على صحّتها. وبالاستناد إلى هذه الكبرى قال سيّدنا إبراهيم عليه السلام بجرأة: «إنّ أمر الشّمس، شروقها وغروبها، بيَد ربّي الذي يأتي بها من المشرق، فإذا كنتَ تظنّ أنّ أمرها بيَدك أنت، فأتِ بها أنتَ إذاً من المغرب!».



فدُهش نمرود عندها ولم يَجد ما يُجيب به على اقتراح سيّدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ليخدع به الناس كما فعل في القسم الأوّل من الحديث الذي دار بينهما وتهرّب نمرود ببضع كلمات سخيفة لا معنى لها، فلم يكن بمقدوره أن يعتبر طلوع الشمس وغروبها صدفتين من الصِّدَف دون سبب أو دليل منطقيّ ولا أن يُسند ذلك إلى الشّمس نفسها لأنّه نفسه لم يكن يؤمن بذلك، فضلاً عن أنّه لم يجرؤ على القول بأنّه هو الذي يأتي بالشمس من المشرق لأنّه كان سيُطالَب عندها حتماً بالإتيان بها من المغرب.

٢. يمكن تطبيق برهان سيّدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الثاني على كلّ واحدٍ من برهان النّظام وبرهان الحركة على حدّ سواء، إلّا أنّ القرآن الكريم لم يستخدَم كلمة (الحركة) بل استخدم كلمة (السّير) بدلاً منها كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[1]. و(التّسيير) هو (التّحريك) و(المُسَيِّر) هو (بالمُحَرِّك) دون شكّ، إذاً فإنّ الله سبحانه هو الذي يسيّر وينظّم حركة ضوء الشمس وضوء القمر وفق نظام دقيق.

٣. ربّما دلّ ظاهر الآية الشريفة: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمُشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ على حدوث تغيير في البرهان، لكنّنا إذا أنعمنا النّظر في الآية وجدنا أنّ تغيير المصداق يمثّل مبدأ جامعاً وشاملاً وليس تغييراً في البرهان إذ إنّ تعدّد هذا الأخير يلزمه تعدد الحدود الوسطى بينما لا يؤدّي تعدّد المثال إلى تعدد الحدود الوسطى ليتعدّد بموجبه البرهان كذلك. على سبيل المثال قد يُذكَر برهان الحدوث بالصيغة التالية: «العالم حادث، وكلّ حادثٍ يحتاج إلى المُحْدِث؛ فالعالم يحتاج إلى المُحْدِث»، لكن، قد يعجز أحدهم عن إدراك الصغرى، أي حدوث العالم، فيقول: «لا أعلمُ ما إذا كان العالمُ حادثاً أم قديماً»

---

١ . سورة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، الآية ٢٢.

عندئذ ينبغي تقديم مثال آخر له يكون أكثر وضوحاً وسهولة، مثلاً هكذا: «الشّجرة حادثة، وكلّ حادثٍ يحتاج إلى المُحْدِث؛ فالشّجرة تحتاج إلى المُحْدِث» لأنّ باستطاعته أن يرى بأمّ عينيه أنّ الشّجرة التي لم تَكن موجودة من قَبل قد وُجِدت فيما بَعد.

وقد يُصاغ برهان الإمكان كذلك بالشكل التالي: «الرّوح موجودةٌ ممكنةٌ، وكلّ ممكنةٍ تحتاج إلى الواجب؛ فالرّوح تحتاج إلى الواجب»، لكن ربّما لم يكن بمقدور أحدنا أن يدرك معنى الروح المجرّدة أو حتى كونها ممكنة، بل قد لا يعرف ماهية الروح أصلاً فكيف به أن يعرف أنّها حادثة أو قديمة؟ عندئذ سنُضطرّ إلى الاستعانة بمثال أبسط لشرح البرهان وتفسيره فنقول: «الجسم ممكن، وكلّ ممكنٍ يحتاج إلى الواجب؛ فالجسم يحتاج إلى الواجب» لأنّ إمكان الجسم هو أمر واضح وسهل الإدراك للجميع تقريباً.

وربّما فسّرنا في بعض الأحيان برهان الحركة بقولنا: «العالَم مُتحرّك، وكلّ مُتحرّك يحتاج إلى المحرِّك، فالعالم يحتاج إلى المحرِّك» بينما قد لا يفهم شخص ما معنى تحرّك العالم وحينئذ نأتي له بمثال أسهل من الأوّل فنقول: «الإنسان مُتحرّك، وكلّ مُتحرّك يحتاج إلى المحرِّك، فالإنسان يحتاج إلى المحرِّك».

لاحظ أنّ البرهان لم يتعدّد أبداً في أيّ حالةٍ من الحالات المذكورة بل الحقيقة هي أنّنا ضربنا مثالَيْن لكلّ برهان من تلك البراهين وكان المثال الثاني ـ على ما يبدو ـ أسهل للمُخاطَب.

وهذا ما حصل في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث حيث أتى سيّدنا إبراهيم عليه السلام بمثالَيْن على نفس البرهان فكان المثال الثاني أبسط من الأوّل وأكثر وضوحاً منه حيث كان المثال الأوّل قابلاً للتمويه والخداع من قِبل نمرود أو أتباعه، وهو ما فعله نمرود بالفعل، فسارع سيّدنا إبراهيم عليه السلام إلى الإتيان بمثال آخر أبسط وأوضح لكي يغلق باب المراوغة والتكذيب أمام نمرود وملئه.

تذكير: ١. إنّ السبب في اتّحاد برهان الإحياء والإماتة من جهةٍ وبرهان طلوع الشمس من المشرق من جهة أخرى هو أنّ البرهان المذكور الذي قدّم سيّدنا إبراهيم عليه السلام مثالَيْن على صحّته قد استعان بالحدّ الأوسط من النّظام أو الحركة أو الحدوث أو الإمكان الماهويّ أو الإمكان الفقريّ، ولولا ذلك لَمَا كان لمسألة الإحياء والإماتة أو مسألة طلوع الشمس من المشرق أيّ دور في بِنية البرهان المذكور، ولكان بالإمكان أن يصبح كلّ حدّ من الحدود الوسطى المُشار إليها دليلاً لمصداقيْن أو مثاليْن معاً؛ وعليه، فإنّ التغيير الذي أجراه سيّدنا إبراهيم عليه السلام كان في المصداق فقط دون الحدّ الوسط.

٢. إذا اعتبرنا أنّ التغيّر المذكور هو تغيّر في البرهان وليس في المصداق، ففي هذه الحالة لن يحدث ما تُخشى عُقباه على الإطلاق لأنّ هذا التغيير الذي كان سيحدث بسبب سوء فهم الخصم أو تعمّده في ذلك أو محاولة منه للمغالطة لن يكون مُلزماً لقبول النّقد على الدليل السابق أو بطلانه بل سيكون ذلك بمثابة أسلوب لإفهام الخصم بشكل أيسر وتجنّب مُغالطته.

كُفر نمرود وضلاله

كانت المرحلة الأولى من البرهان، أي الجزء المتعلّق بالإحياء والإماتة، مرحلة تامّة وأمّا إنكار نمرود لها فبسبب كُفره وتعنّته إلّا أنّ طريق المُغالطة في المرحلة المذكورة كان ما زال مفتوحاً أمامه، لكنّ المرحلة التالية من البرهان كانت دقيقة ومتماسكة وعلى درجة كبيرة من الإتقان بحيث لم تترك أمام نمرود أيّ خيار للمُغالطة أو الإنكار، بل وحيّرته عناصر البرهان بشكل واضح: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾.



«بَهُتَ»[1] بمعنى دَهش وتحيّر، و«المَبهوت» المُتحيّر الذي ضلّ طريق النجاة والخلاص، ويُقال: بُهِتَ الكافرون لقيام الساعة بَغتَةً، قال تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾[2]. فنمرود الذي كفر بالمثال الأوّل للبرهان وأنكره ألقى سلاحه أمام المثال الثاني له لكنّه أصرّ على العناد والمُكابرة بسبب إنكاره للمثال الأوّل: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾.

وأمّا السّبب في بَهتة نمرود ودهشته وتحيّره فيكمن في قول الله ﷻ: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، والمقصود بالهداية هنا الهداية التكوينية والهداية التي توجِب الثواب والجزاء والتوفيق ويقظة الفطرة والعقل وصحوتها لأنّ الهداية التشريعية الابتدائية وبيان الأحكام والمعارف من قِبَل الأنبياء عليهم السلام قائمة ومستمرّة إلى آخر لحظة في حياة الموجود وهي لا تترك الإنسان وحده أبداً.

إشارات ولطائف

١. منهج الأنبياء عليهم السلام في الإرشاد والتبليغ

لا ريب في أنّ الله سبحانه هو صاحب الحجّة التامّة: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[3] ولذلك لم تَخلُ دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام من البرهان القاطع والحجّة الدامغة. وقد عمد الأنبياء عليهم السلام تاره إلى نَقد عبادة الأصنام وتقريع عَبَدَتها لتقليدهم الأعمى لِما ألفوا عليه آباءهم وأجدادهم: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ

---

١. «بَهَتَ الرجلَ يَبْهَتُه بَهْتاً وبَهَتاً وبُهْتاناً، فهو بَهّات، أي قال عليه ما لم يفعله، فهو مَبْهُوتٌ، وبَهَتَه بَهْتاً: أخذه بَغْتَةً». (لسان العرب، مادّة «بهت»). [المترجم]

٢. سورة الأنبياء عليهم السلام، الآية ٤٠.

٣. سورة الأنعام، الآية ١٤٩.

مُبِينٍ﴾[١] وتارة أخرى كانوا يقيمون الاستدلالات لقومهم قائلين: ألا ترون أنّ عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يدفع الضرّ ولا يجلب الخير هي أمر قبيح؟ وهو ما نبّه عليه إبراهيم عليه السلام أباه قائلاً: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾[٢] أو قوله عليه السلام في موضع آخر: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٣].

وفي أحيان أخرى كان الأنبياء عليهم السلام يُعرّفون الناس أنّ الأصنام التي يعبدونها إنّما هي إفك وكَذب صنعوها بأيديهم ويقولون لهم: إذا كنتم تعبدون هذه الأوثان رغبة في الخير والرّزق فاعلموا أنّ الحقّ يدعوكم إلى طلب الرّزق والخير من الله سبحانه وحده فاعبدوه واشكروا له وأنيبوا إليه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٤]. وهكذا فإنّ الأنبياء عليهم السلام لَم يكتفوا بتنبيه الناس بالبراهين الواضحة والأدلّة الثابتة إلى عدم جدوى عبادتهم للأصنام بل وكذلك كانوا يُبيّنون لهم خصال المعبود الحقيقيّ والإله الواحد: ﴿قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[٥].

ولم يكلّ الأنبياء عليهم السلام عن الإجابة على الأسئلة التي كان المشركون وعَبَدة

---

١. سورة الأنبياء عليهم السلام، الآيات من ٥٢ إلى ٥٤.

٢. سورة مريم عليها السلام، الآية ٤٢.

٣. سورة الأنبياء عليهم السلام، الآيتان ٦٦ و ٦٧.

٤. سورة العنكبوت، الآيتان ١٦ و ١٧.

٥. سورة الأنبياء عليهم السلام، الآية ٥٦.



الأوثان يطرحونها عليهم وعندما كانوا يلاحظون تغلّب شهوة هؤلاء العملية عليهم وإصرارهم على عبادة الأصنام لم يتوانَ الأنبياء عليهم السلام من تقديم الموعظة إليهم وتعريفهم بالعِبَر والدّروس حول الأقوام الماضية، ثمّ يوضّحون لهم أسباب الضلال وجذور الانحراف وتغلغله إلى الفكر الإنسانيّ في محاولة منهم لتحذيرهم من اتّباع خطوات الشيطان أو الجَري وراء وساوسه وإغراءاته: ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾[1]، وفي المقابل كانوا يحذّرونهم من مغبّة الانحراف عن طريق التوحيد وينذرونهم بالعواقب السيئة التي قد تصيبهم بسبب تولّيهم للشيطان: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾[2].

وإلى جانب الأدلّة العقلية التي قدّمها الأنبياء عليهم السلام إلى قومهم في مواعظهم وإرشاداتهم، فقد بيّنوا لهم أيضاً الصراط المستقيم بالأدلّة النّقلية وبالاستناد إلى الوحي الإلهيّ الذي لا يمكن تكذيبه: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾[3] وعرّفوا أنفسهم للناس على أنّهم الرّسل الأمناء لهم والحريصون على مصالحهم وهو ما أشار إليه الوحي كذلك بقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[4].

وفي بعض الحالات كان الأنبياء عليهم السلام مضطرّين إلى تقديم الدّليل العقليّ والنّقلي معاً لإفهام الناس حقيقة ما يفعلون وكُنه ما يعبدون فيقولون لهم مثلاً: هل تظنّون أنّ هذه الأصنام والأوثان التي تعكفون عليها وتعبدونها وتقدّسونها من دون الله سبحانه تستطيع خَلق شيء في الأرض أو أنّها قد فعلت ذلك من

١ . سورة مريم عليها السلام، الآية ٤٤.
٢ . سورة مريم عليها السلام، الآية ٤٥.
٣ . سورة مريم عليها السلام، الآية ٤٣.
٤ . سورة الشّعراء، الآية ١٢٥.



قَبل؟ هل يملكون نصيباً في خلق السموات؟ إذاً، قدّموا إلينا كتاباً جاء قبل كتابنا هذا أو أيّ دليل منطقيّ يؤيّد ما تدّعون: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

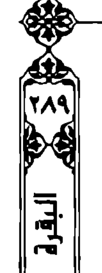
وعندما كان الأنبياء عليهم السلام يشعرون أنّ نُذُرهم وتحذيراتهم والبراهين العقلية والنقلية التي قدّموها إلى الناس لم تؤثّر فيهم ولم تدفعهم إلى تغيير موقفهم، كانوا يسارعون إلى بيان بطلان عبادة الأصنام بمنهج محسوس وطُرُق أسهل يمكنهم فهمها وإدراكها، وهو الأسلوب الذي انتهجه سيّدنا إبراهيم عليه السلام عندما لم ينفع نُصحه وإرشاده في قومه حيث عمد إلى كَسر الأصنام ليُفهمهم أنّ تلك التماثيل الخشبية والحجرية لا تستطيع فعل شيء إزاء كَسره لها، فدُهشوا لِما قال وبُهتوا بجوابه الذي أفحمهم[2].

فإذا أحسّ الأنبياء عليهم السلام بإصرار القوم على الكُفر ومواصلة السّير في طريق الباطل، بادروا إلى اتّباع المنهج العمليّ والسّعي إلى استئصال جذور الفساد وقطع دابر الشيطان وأتباعه، وهذا ما قام به سيّدنا موسى عليه السلام عندما أحرق تمثال العجل الذهبيّ الذي صنعه السّامريّ لبَني إسرائيل وهشّمه وحطّمه وألقاه في

---

١. سورة الأحقاف، الآية ٤.

٢. ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. [المترجم]. (سورة الأنبياء عليهم السلام، الآيات من ٥٧ إلى ٦٧).



البحر أمام أعين قومه ليسدّ عليهم كلّ المنافذ التي فتحها الشيطان لهم، وقال مخاطباً السّامريّ: ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾[1].

٢. دوافع الكفّار في مواجهة دعوة الأنبياء عليهم السلام

لم تَخلُ جُعبة بعض الفئات الكافرة من سهام العناد والمُكابرة لمواجهة دعوات الأنبياء عليهم السلام وتكذيب البراهين الواضحة التي أقاموها وذلك للعديد من الدّوافع والأسباب الظاهرة والخفيّة التي كانوا يضمرونها، فمنهم مَن أغرته شهوة المُلك والسلطة وخدعته وسوسة وإغراءات الشيطان من خلال الادّعاء بالرّبوبية ومحاجّة نَبيّه والإدلاء بأوهن الاستدلالات وأضعف الأدلّة، وهو ما فعله الطاغية نمرود مع سيّدنا إبراهيم عليه السلام كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ...﴾، ومنهم مَن كان يصرّ على التقليد الأعمى واتّباع العادات الخاطئة والسيّئة التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم فأخبرنا عنهم القرآن الكريم قائلاً على لسان سيّدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[2].

وفي بداية بعثة الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله واجه نبيّنا نفس الموقف من قومه الذين حاجّوه وغالطوه ناسين مُعجزة خلقهم ومتجاهلين ضعفهم أمام قدرة الله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ

---

١. سورة طه عليه السلام، الآية ٩٧.

٢. سورة الأنعام، الآية ٨٠.

يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[١]. وهكذا، فإنّ مَن يتجاهل أو ينسى ضعفه الذاتيّ فسيكون من السّهل على الشيطان أن يُغريه على ادّعاء الربوبيّة وهذا هو دَيدن الإنسان العاصي ذليل الشهوات وعَبْدِ الأهواء والرّغبات: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[٢].

وما كانت محاجّة أهل الكتاب مع رسول الله ﷺ إلّا لعنصريتهم وتفاخرهم ببعض الفضائل المزيّفة والخيالية فأجابهم القرآن الكريم قائلاً: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾[٣] وكذلك كانت محاجّة نصارى (نجران) مع النبيّ ﷺ حيث أصرّ هؤلاء على العناد والبقاء على دينهم القديم وديانتهم البائدة وأكثروا الجدال في ذلك مع الرّسول ﷺ، فردّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٤].

هذا، وقد اعتبر القرآن الكريم كلّ تلك المحاجّات والاحتجاجات في مقابل الحقّ المبين باطلة ولا أساس لها من الصحّة ووعد المحتجّين والمُعاندين بغضب من الله ﷻ وبعذاب شديد منه: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[٥] وذلك لأنّ تلك الاحتجاجات لم تصدر عن أصحابها رغبة منهم في معرفة الحقّ أو التماس الخير أو طلب الهداية، بل كانت قائمة على أساس العناد واللجاجة بعد وضوح الحقّ

١. سوره يس ﷺ، الآيتان ٧٨ و ٧٩. تجدر الإشارة إلى أنّ مجادلة نمرود كانت تدور حول المبدأ بينما يدور الجدال في الآيتيْن المذكورتيْن حول محور المعاد.

٢. سورة الجاثية، الآية ٢٣.

٣. سورة البقرة، الآية ١٣٩.

٤. سورة آل عمران، الآية ٦١.

٥. سورة الشّورى، الآية ١٦.

وبيان الحقيقة وبطلان الباطل، ولهذا أشارَ القرآن الكريم إلى أنّ أمثال هؤلاء لن يؤمنوا أبداً وإن أراهم الله سبحانه الكثير من المعجزات الحسيّة كرؤية الملائكة وجهاً لوَجه أو إحياء الموتى أمام ناظرَيهم وكلّموهم بلسانهم فعرفوهم أو أيّة آية ممّا يختارونه، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[1].

٣. نتيجة المحاجّة مع الأنبياء عليهم السلام

بعد أن يقدّم الأنبياء عليهم السلام براهينهم ويعرضوا أدلّتهم، عادة ما تصحو ضمائر البعض ممّن أغراهم الشيطان وأنسَتهم الأهواء حقيقة ذواتهم فيرجعون إلى فطرتهم السليمة ويعاودون التفكير والتأمّل في ما قاله أنبياؤهم، وهو ما حدث مع جماعة من قوم سيّدنا إبراهيم عليه السلام الذين استيقظوا من سباتهم الطويل وانتبهوا إلى ما اقترفوه من قَبل فاعترفوا بظلمهم وأقرّوا أنّهم كانوا خاطئين: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2].

والشيء نفسُه حدث للسّحرة في عصر سيّدنا موسى عليه السلام بعد مشاهدتهم لمُعجزات الله الواضحة على يَد نبيّه وتبيّنوا بفطرتهم السليمة الفرق الشاسع بين ما جاء به موسى عليه السلام وبين السّحر الذي عرفوه لسنوات طويلة، فلم يجدوا بُدّاً من الإيمان به والتصديق بدعوته عن طيب خاطر وإيمان عميق، وفشلت معهم كلّ المحاولات التي بذلها الملأ من آل فرعون ممّن أحسّوا بتزلزل الأرض تحت أقدامهم وقُرب ضياع مُلكهم وسلطانهم وشعروا بالخطر الذي أحاط بهم فعاودوا دعوة السّحرة إلى الاستمرار في طريق الباطل وأغروهم بشتّى الوسائل

---

١ . سورة الأنعام، الآية ١١١.

٢ . سورة الأنبياء عليهم السلام، الآية ٦٤.

للإصرار على انتهاج طريقتهم وخداع الناس كما كانوا يفعلون قبل هذا، وقد ذكر القرآن الكريم لنا حكايتهم بأسلوب رائع قائلاً: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[1].

ولنَعُد إلى قصّة خليل الله عليه السلام حيث قال له المشركون من قومه: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾[2] وهم لا يعلمون أنّ النار التي يريدون حرق إبراهيم عليه السلام بها هي واحدة من جُند الله عز وجل وهي بذلك لا تأتمر سوى بأمره هو وحده، وأنّه إذا شاء الله سبحانه جعل تلك النار برداً وسلاماً على نبيّه وبستاناً من البساتين الجميلة: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[3] فلم يَجنِ الكافرون سوى الخسران المُبين ولم يحصدوا سوى الخزي والعار: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾[4]، وأمّا سيّدنا إبراهيم عليه السلام، عبد الله الصّالح، فقد خرج من هذا الامتحان كذلك مرفوع الرّأس ناصع الجبين كما نجح من قبل في كلّ الاختبارات والابتلاءات فاستحقّ بجدارة منصب إمامة الأُمم اللاحقة الذي مَنحه ربّه إيّاه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ...﴾[5].

---

١. سورة طه عليه السلام، الآيات من ٧٠ إلى ٧٢.
٢. سورة الأنبياء عليهم السلام، الآية ٦٨.
٣. سورة الأنبياء عليهم السلام، الآية ٦٩.
٤. سورة الأنبياء عليهم السلام، الآية ٧٠.
٥. سورة الممتحنة، الآية ٤.

٤. استدلال الأنبياء عليهم السلام ببعض الشؤون الربوبية

لا شكّ في أنّ الوصولية واتّباع الشهوات والجَري وراء النزوات هي عوامل رئيسية لنسيان الفرد ذاته وتجاهل شخصيّته، ولا شكّ أيضاً في أنّ الإنسان الذي ينسى ذاته ويتجاهل شخصيّته سيصبح طاغية وينزع عنه لباس العبودية لله سبحانه، بل وسيؤدّي به الحال في آخر المطاف إلى ادّعاء الربوبية لنفسه باطلاً وبهتاناً وسيكون شعاره الأوّل والأخير: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[1] و﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾.

أمّا أنبياء الله سبحانه ورُسُله عليهم السلام فقد بذلوا كلّ ما استطاعوا واتّبعوا كلّ سبيل ممكن لإحياء كَنز الإنسان الدّفين المتمثّل بفطرته الإنسانية النقيّة، وهو ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ»[2] ويفكّوا عنه قيوده الثقيلة والأغلال التي كانت عليه، المصنوعة من الجهل العلميّ والجهالة العملية، ويفتحوا له أبواب عقله التي خُتِمَت بشمع الجهل الأحمر والجهالة الحَمراء وبالتالي إيصاله إلى شاطئ التوحيد المقدّس متمتّعاً بحريّته الكاملة غير المنقوصة: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[3]، واستطاع الأنبياء عليهم السلام بذلك إثبات ربوبية الله تعالى الحقّة والمطلقة وإبطال دعوات الطغاة بالربوبية الزائفة وذلك من خلال تعريف مواصفات الربّ الحقيقيّ وهو ربّ العالمين: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ و﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[4].

---

١. سورة النازعات، الآية ٢٤.

٢. نهج البلاغة، الخطبة رقم ١.

٣. سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

٤. سورة طه عليه السلام، الآية ٥٠.

إنّ لربوبيّة نظام الوجود مستلزمات خاصّة ومواصفات مُعيّنة ومؤهّلات لا يمكن إيجادها إلّا في الإله الحقيقيّ ولا تتوفّر إلّا لدى ربّ العالمين، وقد أشار سيّدنا إبراهيم عليه‌السلام في استدلاله مع نمرود إلى قسم منها كقدرة الربّ على الإحياء والإماتة. ومن الشؤون الأخرى للربوبية أيضاً مسؤولية هداية المخلوق وهو ما بيّنه سيّدنا إبراهيم عليه‌السلام واستدلّ به كذلك في موضع آخر قائلاً: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ**﴾[1]. وقد ذكر سيّدنا موسى عليه‌السلام أيضاً الهداية والخلقة صفتَيْن من صفات ربّه عزّوجلّ بقوله: ﴿**رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ**﴾[2] وذلك خلال المناظرة التي جَرت بينه عليه‌السلام وبين الطاغية فرعون عندما سأله عن ماهيّة ربّه وصفاته قائلاً: ﴿**فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ**﴾[3]. وجدير بالذّكر أنّ فرعون كان قد قَبِلَ بهذه الكُبرى ولم يستطع الاعتراض عليها، لكنّه ارتكب مُغالطتيْن خلال احتجاجه مع الرّجل المعروف بمؤمن آل فرعون وقوله: ﴿**مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾[4]، وتلكما المُغالطتان هما:

أ) أنّه اقتبس جزءاً من الكبرى التي أشار إليها سيّدنا موسى عليه‌السلام ـ فيما يخصّ موضوع الهداية ـ بينما تجاهل القسم المُتعلّق بالخلقة.

ب) إنّ ما أراده سيّدنا موسى عليه‌السلام بالهداية في قوله: ﴿**ثُمَّ هَدَىٰ**﴾ هي الهداية التكوينية إلّا أنّ فرعون فسّر ذلك على أنّه التدبير الاجتماعيّ.

٥. ضرورة البرهان لإثبات ربوبيّة الله عزّوجلّ

باستناده إلى الآية الّتي هي موضوع البحث قال الشيخ الطوسيّ قدس‌سره: «١.

١. سورة الشّعراء، الآية ٧٨.

٢. سورة طه عليه‌السلام، الآية ٤٩.

٣. سورة طه عليه‌السلام، الآية ٥٠.

٤. سورة غافر، الآية ٢٩.

في الآية دلالة على فساد قول مَن يقول: المعارف ضرورة، لأنّها لو كانت ضرورة لَمَا حاجّ إبراهيم [عليه السلام] الكافرَ ولا ذَكرَ له الدّلالة على إثبات الصانع؛ ٢. وفيها دلالة على فساد التّقليد وحسن المحاجّة والجدال، لأنّه لو كان ذلك غير جائز لَما فعلَ إبراهيم عليه السلام ذلك»[1].

ولتوضيح ذلك نقول: إنّ أصل وجود الخالق والصانع لنظام الوجود بيّنٌ لا غُبار عليه لكنّ قبول أصل الصّانِع لوحده لا يحلّ أيّ عقدة من المشكلة لأنّ المشركين جميعهم كانوا يؤمنون بأنّ هذا العالَم هو مخلوق وموجود من قِبَل واجب الوجود. والحقيقة أنّ الجميع كانوا يعتقدون بهذا المبدأ ويعترفون بأصل الخالق فيما عدا الملحدين وأولئك الذين ملأت الشّبهات والأفكار الغريبة أذهانهم ممّن كانوا يُردّدون مقولتهم السخيفة: **﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾**[2].

وإذا استَجلَينا غوامض المحاجّة التي حصلت بين سيّدنا إبراهيم عليه السلام ونمرود فإنّنا لا نرى فيها أيّة إشارة إلى موضوع إثبات الصّانع، وأمّا إثبات ربوبية الله سبحانه وإدارته وتدبيره ـ والذي يُعدّ الجانب الآخر للمعارف وبحوث التوحيد والمحور الرئيسيّ لتلك المحاجّة ـ فهو ليس أمراً بديهيّاً ولا يمكن تقليده بل لا بدّ من الاستدلال لإثباته.

وعلى هذا الأساس حرص أنبياء الله عليهم السلام على الإتيان بالبراهين الدقيقة والأدلّة القاطعة في تعاملهم مع دعاة الربوبية الكَذَبة ومواجهة الطغاة الظالمين من أمثال نمرود، لكنّ تعاملهم مع الأشخاص والناس العاديين الذين اعتادوا على السلوك التقليديّ كان مختلفاً بعض الشيء، إذ نراهم يُبادرون في البداية إلى

١ . راجع: **تفسير التبيان**، ج٢، ص٣١٩.

٢ . **سورة الجاثية**، الآية ٢٤.



إبطال تقليدهم الأعمى واستنكارهم لهذا التصرّف الأخرق الجاهل، ثمّ يشرعون بالتحدّث إليهم بمنطق وسطيّ غير مُعقّد ويأتون لهم بالأمثلة والمواعظ لبيان ما هم عليه من الضلال، وأخيراً يُبيّنون لهم الصراط المستقيم وسبيل الهداية القويم والطريق إلى السعادة الأبديّة.

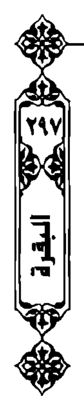
٦ . مفهوم «المَشرق» و«المَغرب»

يمكننا الإشارة للوهلة الأولى إلى جهة مُعيّنة والقول بأنّها تمثّل المشرق وإلى ناحية أخرى فنقول إنّها تشير إلى جهة المغرب، ولكنّنا إذا نظرنا بدقّة سندرك أنّ جميع النقاط والجهات في العالَم تُمثّل المشرق والمغرب، لأنّنا إذا أخذنا نقطة مُعيّنة على الأرض فإنّ الشمس في تلك النقطة ستكون ظاهرة بالنسبة إلى الساكنين في تلك البقعة بينما لن تكون مرئية بالنسبة إلى الآخرين الذين يسكنون في جهة المشرق من أولئك. وعلى هذا يخبرنا القرآن الكريم أنّ الله سبحانه هو ربّ المشارق والمغارب: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾[1]، لكنّ القرآن الكريم لم يُشِر في الآية الشريفة: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾[2] إلى (المغارب) حيث قدّم المفسّرون العديد من التأويلات والأسباب، منها:

١ . حُذفت كلمة (المغارب) لوضوح المعنى وعدم الحاجة إلى ذكرها وهذا يشبه قولنا في اللباس أنّه يحمي الإنسان ويَقيه من الحرّ والبرد على حدّ سواء بينما اكتفى القرآن الكريم بذكر وقايته للإنسان من الحرّ فقط كما في قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[3] [4].

---

١ . سورة المعارج، الآية ٤٠.
٢ . سورة الصافّات، الآية ٥.
٣ . سورة النّحل، الآية ٨١.
٤ . «السِّرْبالُ: القَميص والدِّرْع، وقيل: كُلُّ ما لُبِسَ فهو سِرْبالٌ». (لسان العرب، مادّة «سربل»). [المترجم]



٢. أنّ الطلوع (أو الشّروق) أنفع للناس من الغروب ـ كما هو معروف ـ ولهذا ذُكر المشرق للإشارة إلى كثرة إحسان الله سبحانه على عباده، ومثال ذلك أنّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام تحدّى نمرود في محاجّته معه حول قدرة الله سبحانه وعظمته المتمثّلة بطلوع الشمس من المشرق قائلاً: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾[1].

٣. أنّ المشرق يتناسب مع مسألة طلوع الوحي وظهور الملائكة في الآيات القرآنية وذلك واضح من قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ ولم يَقُل سبحانه (رَبُّ المَغارِب)، وهو رأي العلّامة الطباطبائيّ قدس سره[2].

وبعبارة أدقّ نقول: إنّ كلمة (المشارق) هي جمع «مَشرِق» وهو اسم مكان يعني محلّ أو مكان شروق الشّمس وطلوع الضوء وليس الطلوع في مقابل الغروب فالشّمس ساطعة ومُشرقة باستمرار ولم تنطفئ يوماً أو ينحسر ضوءها ولو للحظة مُذ خلقها الله سبحانه، وكلّ منطقة من مناطق الأرض التي تطلع فيها الشمس تُعتبر مكاناً لطلوع الشمس وسطوع ضوئها، وعلى هذا الأساس فإنّ ما هو موجود في الحقيقة هو المشرق وليس هناك أيّ مَغرب مطلقاً لأنّ ضوء الشمس موجود ومضيء على الدّوام؛ بمعنى آخر، أنّ شروق الشمس هو أمر

---

١ . وأما قوله تعالى. ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ فيحتمل أن يكون المراد مشارق الشمس؛ قال السدي: المشارق ثلاثمائة وستون مشرقاً وكذلك المغارب فإنّه تطلع الشمس كلّ يوم من مَشرق وتغرب كلّ يوم في مَغرب، ويحتمل أن يكون المراد مشارق الكواكب لأنّ لكلّ كوكب مشرقاً ومغرباً، فإن قيل لِمَ أكتُفِيَ بذكر المشارق؟ قلنا لوجهين، الأوّل: أنّه اكتفى بذكر المشارق كقوله: ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] والثاني أنّ الشرق أوقى حالاً من الغروب وأكثر نفعاً من الغروب فذكر الشرق تنبيهاً على كثرة إحسان الله تعالى على عباده، ولهذه الدقيقة استدلّ إبراهيم عليه السلام بالمشرق فقال: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾». (أنظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير، مج١٣، ج٢٦، ص١١٨).

٢ . تفسير الميزان، ج١٧، ص١٢٤.



نفسيّ أمّا غروبها فهو نسبيّ، وعليه فإنّه لا حاجة أصلاً إلى ذكر كلمة (المغارب)، وأمّا ما ورد في بعض آي القرآن الكريم ومنها الآية الّتي هي موضوع البحث من ذِكر المغرب في مقابل المشرق فهو يكون بالنّظر إلى المعنى التقليديّ المُتعارَف لدى الناس ويكون جزءاً من ثقافة الحوار.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ حياة الإنسان وموته يشبهان حالة الشروق والغروب من ناحية، ومن الناحية الأخرى فإنّ شروقه وغروبه هما شيء واحد لكنّه يمتلك شخصيّتيْن، إذ يمكن اعتبار ولادته غروباً مِنْ رَحم أمّه وشروقاً أو طلوعاً إلى الدّنيا، كما أنّ موته هو غروب من الدّنيا وشروق أو طلوع في عالَم البرزخ، وحضوره في ساحة القيامة الكُبرى يُمثّل غروبه في عالَم البرزخ وطلوعه في الحشر الأعظم. ومن خلال نظرة ثاقبة ثالثة لا نجد في الحقيقة موتاً أو غروباً حقيقيّاً بل الواقع هو وجود الحياة والشروق (أو الطلوع) إلّا أنّ الناس اعتادوا على تسمية الانتقال من نشأة إلى أخرى بالموت؛ إذاً فكلّ ما هو موجود يسمّى الحياة ولا معنى للموت أبداً.

بحث روائيّ

١ . المحاجّة مع إبراهيم عليه السلام

عَن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: ﴿**الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ**﴾ **هو نِمْرُود بن كنعان**[١].

إشارة: عُرِف سيّدنا إبراهيم عليه السلام بأنّه مؤسّس مدرسة التوحيد ورائدها بينما اشتهر نمرود بأنّه حامل لواء الكُفر والإلحاد. وقد بدأت المحاجّة والجدال بين كلا التيّاريْن منذ أقدم العصور حتى عصر خليل الرّحمن عليه السلام وما زال ذلك

١ . السيوطيّ، **تفسير الدر المنثور**، ج٢، ص٢٤.

الجدال والخصام قائمين إلى يومنا هذا، ولذلك ترى أنّ بيان البراهين التي ذكرها سيّدنا إبراهيم عليه السلام والاستناد إليها مفيدان وفعّالان في كلّ زمان ومكان.

٢ . وقت محاجّة النّمرود

قال أبو عليّ الطبرسيّ: «اختُلِفَ في وقت هذه المحاجّة، فقيلَ عندَ كَسر الأصنام قَبل إلقائِه في النّار؛ عن مُقاتل؛ وقيلَ «**بَعد إلقائِه في النّار وجَعلها عليه بَرْداً وَسَلاماً**»؛ عن الصّادق عليه السلام»[1].

إشارة: كان سيّدنا إبراهيم عليه السلام شابّاً غير معروف عندما قامَ بكَسر الأصنام وقرّر نمرود إلقائه في النّار وحرقه وهو ما ذكره لنا القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ**﴾[2]، ولكن عندما حاجّه نمرود أشارَ القرآن الكريم إليه عليه السلام باسم العلم وهو (إبراهيم): ﴿**حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ**﴾ ما يدلّ على أنّ شخصيّة إبراهيم عليه السلام كانت قد أصبحت معروفة ومشهورة في وقت المحاجّة خاصّة إذا علمنا أنّ نمرود ما كان يرضى لنفسه بمحاججة إبراهيم عليه السلام وهو فتى مغمور لأنّ ذلك لا يتناسب مع سلطانه وكبريائه وسطوته، وعليه ينبغي القول بأنّ المحاجّة حصلت بين سيّدنا إبراهيم عليه السلام ونمرود في وقت أصبح فيه خليل الله عليه السلام معروفاً ومشهوراً بين قومه وأنّ ذلك إنّما حدث بعد كَسره للأصنام وإلقائه في النار بأمر نمرود. ومهما يكن من أمر فإنّه ما من سَند يدعم هذه الأقوال سوى الظنّ والتأويل فما أكثر الشخصيّات النادرة والمؤثّرة في التاريخ ممّن تحاوروا مع طغاة معروفين وحدثت بينهم المجادلات والمحاجّات وقد أيّدت ذلك أيضاً بعض القضايا التاريخية المشهورة.

---

١ . **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٣٥؛ أنظر كذلك: **تفسير البرهان**، ج١، ص٥٤٣.

٢ . **سورة الأنبياء** عليهم السلام، الآية ٦٠.



٣. الأدلّة المحسوسة والمعجزات الملموسة

«وقوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ فإنّه لمّا ألقىٰ نمرودُ إبراهيم عليه السلام في النّار وجَعلها الله عليه بَرداً وسلاماً، قال نمرود: يا إبراهيم مَنْ ربّك؟ قال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، قال نمرود: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ فقال له إبراهيم: **كيف تُحيي وتُميت؟** قال: إليَّ برَجُلَيْن ممّن قد وَجَبَ عليهما القتل، فأُطلقُ عن واحدٍ وأقتلُ واحداً فأكونُ قد أحييتُ وأمَتُّ. فقال إبراهيم عليه السلام: **إنْ كنتَ صادقاً فأحْي الّذي قَتَلْتَه.** ثمّ قال [عليه السلام]: دَع هذا، **فإنّ ربّي يأتيني بالشّمس من المشرق فأْتِ بها من المغرب.** فكان كَما قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي انقطعَ، وذلك أنّه علم أنّ الشمس أقدم منه»[١].

إشارة: كان تاريخ المحاجّة ووقتها بين سيّدنا إبراهيم عليه السلام وبين نمرود بعد حادثة تحريقه عليه السلام بالنّار وجعلها عليه بَرداً وسلاماً، فلتبرئة ساحته عليه السلام من اعتباره مُجرماً في قضية كَسر الأصنام كان من الضروريّ أن يُقدَّم برهاناً قاطعاً ومُعجزة ملموسة حسيّة وعَلنية لتتمّ تَهدئة مشاعر الملأ الذين لم يعرفوا سوى المذهب الماديّ والعمل على طمأنة خواطرهم تجاه إبراهيم عليه السلام، فكان لا بدّ من عرض دليل واضح غير قابل للنّقض من أجل إثبات ربوبيّة الله عزّ وجلّ وإبطال ربوبيّة ما سواه، فما كان من سيّدنا إبراهيم عليه السلام إلّا أن قدّم البرهان المذكور بشكل رائع أقنع كلّ الحاضرين.

وأمّا السبب الذي جعل الإتيان بالدليل الملموس والمُعجزة الحسيّة ضرورة مُلحّة فهو ابتلاء قوم إبراهيم عليه السلام ـ بل ومُعظم الأقوام في كلّ عصر ومكان ـ بالاعتقاد بكلّ ما هو محسوس وملموس.

* * *

---

١. تفسير القمي، ج١، ص٨٦.

أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

خلاصة التفسير

يُحكى أنّ عَبداً صالحاً أو نبيّاً من الأنبياء كان يُدعى (إرميا) أو (عُزَيْر)[1] مَرّ

---

١ . «وهو عُزَيْر (عن قتادة وعكرمة والسدي وهو المروي عن أبي عبد الله [عليه السلام]) وقيلَ هو أرْميا (عن وهب وهو المروي عن أبي جعفر [عليه السلام]) وقيل هو الخِضْر (عن ابن إسحاق). أنظر: تفسير **مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٣٩.

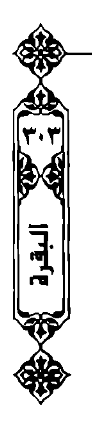


خلال سَفره بقرية[1] خَربة ومهجورة وقد هلك سُكّانها، فسأل الله سبحانه وتعالى في نفسه عن كيفية إحياء هؤلاء الموتى بعد أن أصبحوا تراباً وعظاماً نَخِرة، فأماته الله ﷻ ثمّ أحياه بعد قَرن من الزّمان. ويبدو أنّ أحداً ما سأله عن مدّة مَكثه في ذلك المكان، وربّما وقع هذا السؤال في نفسه هو، وهو الذي أجاب على سؤاله قائلاً: ربّما مَكثتُ هنا يوماً أو بَعض يوم. وعندها هتف به هاتف من عالَم الغيب أو كلّمه الله سبحانه عن طريق الوَحي وقال له: إنّما مَكثتَ هنا ميّتاً مائة عام. وقد يكون هذا الشخص أو النبيّ عرف ذلك بعد رجوعه إلى أهله وعشيرته وقومه ورأى علامات وآيات تشير إلى رقوده وموته كلّ تلك الفترة مثل رؤيته لأحفاده وأقرانه الذين أصبحوا شيوخاً عاجزين بل ومنهم من مات خلال القرن المُنصرم، فصدّق أنّه كان ميّتاً لمدة مائة سنة.

ثمّ يبدو أنّ طرفاً ما قد قال له: إذا كنتَ تريد معرفة القدرة اللامتناهية لله ﷻ وما حلّ بك فانظر إلى طعامكَ وشرابك الذي كان معك في سفرك آنذاك ولاحظ كيف أنّهما لم يتغيّرا ولم يتبدّل طعمهما، والمعروف أنّ مثل هذه الموادّ تفسد وتتعفّن خلال فترة قصيرة؛ لكن انظر إلى حمارك الذي أقلّك في رحلتك قبل مائة عام كيف فَنيَ وهلك ولم يَبقَ منه سوى كومة من العظام النّخِرة وراقب كيف أنّ الله ﷻ سيُحيي لك حمارك بقدرته بالتدريج بدءاً من عقد العظام وربط بعضها إلى بعض ثمّ لاحِظ كيف ستُكسى تلك العظام باللّحم لتتمّ خلقة ذلك الحيوان بشكل كامل أمام عينيك.

---

١ . «القرية التي مَرّ عليها هي بيت المقدس لمّا خرّبه بختنصر (عن وهب وقتادة والرّبيع وعكرمة) وقيل هي الأرض المقدسة (عن الضحّاك) وقيل هي القرية التي خرج منها الألوف حذر الموت (عن ابن زيد)». (المصدر نفسه). [المترجم]



فلمّا شاهد العبد الصالح بناظرَيْه قدرة الله سبحانه في إحياء ما كان ميّتاً وهالكاً وإرجاعه إلى حالته الأولى اعترف مؤمناً صادقاً بأنّ الله ﷻ على كلّ شيء قدير.

التفسير

المُفردات

خَاوِيَةٌ: الأصل الواحد في هذه المادّة هو السقوط ووقوع ما كان قائماً بنفسه أو ظاهراً[١]؛ و﴿**خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**﴾ يعني أنّ سقوفها سقطت أوّلاً ثمّ تَلتها الجدران وهو تعبير يشير إلى شدّة الخراب الشامل ومقداراه الكبير[٢]، وقال الراغب الأصفهانيّ: «أصل الخواء الخلاء، يُقال خَوى بَطنه من الطعام»[٣].

عُرُوشِهَا: العُروش جَمع «عَرش»، والعَرش في الأصل شيءٌ مُسقّف[٤]، وقال صاحب تفسير (*الميزان*): «ومن هنا أُطلِقَ على سَقف البيتِ العرش، لكنّ بينهما فرقاً، فإنّ السّقف هو ما يقوم من السّطح على الجدران والعرش وهو السّقف مع الأركان التي يعتمد عليها كهيئة عرش الكَرْم، ولذا صحّ أن يُقال في الدّيار إنّها (خالية على عروشها) ولا يَصحّ أن يُقال: خالية على سقفها»[٥].

---

١ . العلّامة المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٣، ص١٥٥، مادّة «خ و ي».

٢ . قال الطبرسيّ ؒ: «قال قوم: معناه وهي قائمة على أساسها وقد وقع سقفها، وأصل الخَواء الخلاء والفرجة بين الشيئين يخلو ما بينهما. وخَوَتِ الدارُ فهي خاوية، تخوي خواءً: إذا بادَ أهلها بخلوّها منهم». (**تفسير التبيان**، ج٢، ص٣٢١). [المترجم]

٣ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٣٠٥، مادّة (خ و ي).

٤ . المصدر السابق، ص٥٥٨، مادّة (ع ر ش).

٥ . العلّامة الطباطبائيّ، **تفسير الميزان**، ج٢، ص٣٥٨.

وإذا أخذنا معنى (العُروش) والمَعنَيَيْن المذكورَيْن لكلمة (خاوية) واعتبرنا أنّ معنى هذه الأخيرة هو السّقوط والانهيار، يكون المقصود بقوله تعالى: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ هو انهدام وسقوط السّقوف ثمّ انهيار الجدران عليها بعد ذلك ما يدلّ على عدم بقاء أيّ أثر للعُمران أو المدنية[1]. وإذا اعتبرنا أنّ كلمة (خاوية) تعني الخلاء والفراغ فسيكون المُراد من قوله تعالى هو خلوّ تلك القرية من سكّانها مع بقاء سقوف بيوتها وجدرانها قائمة لم تسقط[2].

لَبِثْتَ: «لَبِثَ» بمعنى استقرّ مضطرّاً على حالة مُعيّنة خلافاً لِمَكَثَ وهو الاستقرار الإراديّ والاختياريّ[3]. وفيما يأتي ورود الفعل (لَبِثَ) بصيغه ومعانيه المختلفة في القرآن الكريم:

أ) «لَبِثَ» في حالة اليقظة، مثل قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[4].

ب) «لَبِثَ» في حالة النّوم، كما جاء في الآية الشريفة: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾[5].

ج) «لَبِثَ» في حال الموت، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾[6]. وفي الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث حيث يدور محورها حول مسألة إحياء الموتى فإنّ المقصود بالفعل (لَبِثَ)

---

١. راجع: **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٨، ص٨٦ ـ ٩٠، و٨٥، مادّة (ع ر ش).

٢. «قيل: المعنى خاوية من أهلها ثابتة على عروشها، فالبيوت قائمة». (أبي حيّان الأندلسيّ، **تفسير البحر المحيط**، ج٢، ص٣٠٢). [المترجم]

٣. **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١٠، ص١٥٦ ـ ١٥٧، مادّة (ل ب ث).

٤. **سورة يونس** عليه السلام، الآية ١٦.

٥. **سورة الكهف**، الآية ٢٥.

٦. **سورة طه** صلى الله عليه وآله، الآية ١٠٣.

في المواضع الثلاثة، أي ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ و﴿قَالَ لَبِثْتُ﴾ و﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتَ﴾، هو المكوث في حالة الموت وممّا يؤيّد هذا المعنى العبارات: ﴿أَنَّى يُحْيِي﴾ و﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ و﴿فَأَمَاتَهُ﴾؛ وهكذا فإنّ تفسير الفِعلَيْن (لَبِثَ) و(بَعَثَ) في هذه الآية الشريفة بمعنى المكوث في حالة اليقظة أو النّوم هو تفسير خاطئ.

لَمْ يَتَسَنَّهْ: هناك أربعة احتمالات حول معنى الفعل (يَتَسَنَّهْ)، وهي:

أ) أن يكون جذر الفعل (يَتَسَنَّهْ) هو (سَنَهَ) بمعنى الشيء أتى عليه العام[1]، ومعلوم أنّ الطعام إذا تُرِكَ لسنوات طويلة تغيّر طعمه وتبدّل لونه وتعفّن وفسدَ، فالطعام أو الماء الذي يبقى مدّة من الزمن مُعرّضاً لأشعّة الشمس فإنّ رائحته ستتغيّر ولن يبقى طعمه على حاله الأُولى؛ إذاً فمعنى ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ هو لم يتغيّر بمرّ السنين عليه ولم تذهب طراوته[2]؛ وقيل إنّ الهاء في (يَتَسَنَّهْ) أصلية.

ب) أن يكون أصله من (سَنَن) بمعنى التغيّر وهو ما أشارَ إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[3]، وعليه تكون (الهاء) في (يَتَسَنَّهْ) للوقف نحو ﴿كِتَابِيَهْ﴾[4] و﴿حِسَابِيَهْ﴾[5].[6]

فإذا كان الفعل ﴿يَتَسَنَّهْ﴾ من (سَنَن) ـ ومنه اشتُقّت كلمة ﴿مَسْنُونٍ﴾ ـ فإنّه يعني (يَتَسَنّن) فقُلِبَت إحدى نونَيْه هاءً[7]؛ وأمّا استخدام صيغة الضمير المُفرد في

---

١ . ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج٣، ص١٠٣، مادّة (س ن ه).

٢ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٤٢٩، مادّة (س ن ه).

٣ . **سورة الحجر**، الآية ٢٦.

٤ . **سورة الحاقّة**، الآية ١٩.

٥ . **سورة الحاقّة**، الآية ٢٠.

٦ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٤٢٩ ـ ٤٣٠، مادّة (س ن ه).

٧ . «من قرأ ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ بالهاء في الوصل فيحتمل أمرين: (أحدهما) أن يكون الهاء لاماً من السّنة فيمن قال: شجرة سنهاء، فيكون سكون الهاء للجزم والآخر أن يكون من السّنة أيضاً فيمن قال:
←



﴿يَتَسَنَّهْ﴾ للطعام والشّراب فهو لاشتراكهما في الجِنس[1].

نُنْشِزُهَا: «النَّشْزُ» المُرتَفع من الأرض، ويُعَبَّر عن الإحياء بالنّشز والإنشاز لكونه ارتفاعاً بعد اتّضاع[2].

تناسب الآيات

بعد بيانه لموضوع الولاية الإلهيّة وقيّوميّة الله سبحانه وتعالى على المؤمنين وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ثمّ ولاية الطاغوت والشيطان على الكافرين

استوا وسنوات، أو يكون من المسنون الذي يُراد به المتغير، كأنّه لم يتسن ثمّ قلب على حدّ القلب في لم يتظن... فالهاء في ﴿يَتَسَنَّهْ﴾ على هذيْن القوليْن يكون للوقف، فينبغي أن يلحق في الوقف ويسقط في الدرج. وأمّا قوله ﴿اقْتَدِهِ﴾ فيجوز أن يكون الهاء كناية عن المصدر ولا يكون التي للوقف، ولكن لمّا ذكر الفعل دلّ على مصدره فأضمره كما أضمر في قوله ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾... وكذلك قوله ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ يكون اقتد الاقتداء فيضمر لدلالة الفعل عليه. ومن قرأ (كيف ننشرها) فمعناه (كيف نحييها)، يُقال: أنشر الله الميتَ فنُشر؛ وقد وصفت العظام بالإحياء، قال تعالى: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وكذلك في قوله (ننشرها)، ومن قرأ «ننشزها» بالزاء فالنّشز الارتفاع». (الطبرسيّ، **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٣٧ ـ ٦٣٨).

١. قال العلّامة السيد محمّد حسين الطباطبائي ﷺ: «سياق هذه الجمل في أمره عجيب فقد كرّر فيها قوله: ﴿انْظُرْ﴾ ثلاث مرّات وكان الظاهر أن يكتفي بواحد منها، وذكر فيها أمر الطعام والشراب والحمار والظاهر السّابق إلى الذهن أنّه لم يكن إلى ذكرها حاجة، وجيء بقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾ متخللاً في الكلام وكان الظاهر أن يتأخّر عن جملة: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾، على أنّ بيان ما استعظمه هذا المارّ بالقرية ـ وهو إحياء الموتى بعد طول المدة وعروض كلّ تغيّر عليها ـ قد حصل بإحيائه نفسه بعد الموت فما الموجب لأن يُؤْمَر ثانية بالنظر إلى العظام؟ لكنّ التدبّر في أطراف الآية الشريفة يوضّح خصوصيات القصّة إيضاحاً تنحلّ به العقدة وتنجلي به الشبهة المذكورة». (**تفسير الميزان**، ج٢، ص٢٠٨ ـ بتصرّف). [المترجم]

٢. **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٨٠٦، مادّة (ن ش ز).



وإخراجهم من النور إلى الظلمات، أشار القرآن الكريم إلى المحاجّة التي وقعت بين سيّدنا إبراهيم عليه السلام والطاغية نمرود كمثال حيّ على ولاية الله عزّ وجلّ على المؤمن وولاية الطاغوت على الكافر، وجاءت الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث كنموذج آخر على ولاية الله سبحانه.

وقد كان الغرض من الآية السابقة إثبات ربوبيّة الله تعالى بينما نلاحظ أنّ الهدف من الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث والآيات اللاحقة هو إثبات مسألة المعاد والبَعث وقدرة الله عزّ وجلّ على إحياء الموتى[1].

ونستنتج ممّا قاله العلّامة الطباطبائيّ قدس سره في تفسيره الشريف (*الميزان*) حول العلاقة بين هذه الآية والآيات السابقة لها أنّ الآية السابقة كانت بشأن الهداية بالحقّ بواسطة البرهان والاستدلال وهذه الآية تدور حول الهداية بشهود آيات الله سبحانه في إحياء بعض الموتى ومشاهدة ذلك في الذات، لأنّ مسألة الإحياء التي كانت صعبة الفهم بالنسبة إلى هذا العبد الصالح أصبحت فيما بَعد مفهومة وواضحة عنده وذلك بإماتته وإحيائه كرّة أخرى وليس من خلال رؤيته للحيوان الميّت وهو يُبعَث ثانية[2].

---

١ . وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج٣ ـ ٤، ص٣٣.

٢ . «وأظن ـ والله أعلم ـ أنّ العطف على المعنى كما مرّ في الوجه الثالث إلّا أنّ التقدير غير التقدير، [و] توضيحه: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ تحصل من ذلك أنّه يهدي المؤمنين إلى الحقّ ولا يهدي الكافر في كفره بل يضلّه أولياؤه الذين اتخذته من دون الله أولياء. ثمّ ذكر لذلك شواهد ثلاث يبيّن بها أقسام هدايته تعالى وهي مراتب ثلاث مترتبة: أوليها: الهداية إلى الحقّ بالبرهان والاستدلال كما في قصة الذي حاجّ إبراهيم [عليه السلام] في ربّه حيث هدى إبراهيم إلى حقّ القول ولم يَهد الذي حاجّه بل أبهته وأضلّه كفره، وإنّما لم يصرّح بهداية إبراهيم بل وضع عُمدة الكلام في أمر خصمه ليدلّ على فائدة جديدة يدلّ عليها قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. والثانية: الهداية إلى الحقّ بالإراءة والإشهاد كما في قصة الذي ﴿مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ ←

وتجدر الإشارة إلى أنّه إذا كانت إضافة العلم وإعطاء العلم الشهوديّ في مقابل العلم الحصوليّ يُمثّلانِ مصداقاً للإخراج من الظلمات إلى النور فإنّ ذلك يعني وجود تناسب من نوع خاصّ بين مضمون هذه الآية وبين ما قَبلها من الآيات؛ إلّا أنّنا كنّا قد بيّنا آنفاً أنّ زيادة العلم هو ترفيع في الدرجة وليس إخراجاً من الظلمة إلى النور وذلك لأنّ النبيّ الذي ينشد العِلم ويطلب الاستزادة مصانٌ من الجهل بحكم الواجب بل هو عالمٌ بجميع الأحكام فيكون مزيد العلم سبباً في رفع درجة كماله.

* * *

محور السؤال في الآية

لاحِظ أنّ محور السؤال في الآية الّتي هي موضوع البحث والآية التي ستليها هو كيفية إحياء الموتى وتوضيح ذلك بالصوت والصّورة، وكلا السائليْن هما من المُوحّدين، أحدهما سيّدنا إبراهيم عليه السلام وهو قائد لواء التوحيد عَبر التاريخ، كما أنّ كلام صاحب التجربة ـ المجهول الهوية ـ واستخدامه للفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولم يَقُل مثلاً: «الآن علمتُ أنّ الله قادر على كلّ شيء...» يدلّ على إيمانه وتوحيده وأنّه من الصالحين رغم عدم التصريح باسمه.

خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ فإنّه بيّن له ما أشكل عليه من أمر الإحياء بإماتته وإحيائه وسائر ما ذكره في الآية، كلّ ذلك بالإراءة والإشهاد. الثالثة: الهداية إلى الحقّ وبيان الواقعة بإشهاد الحقيقة والعلة التي تترشح منه الحادثة؛ وبعبارة أخرى بإراءة السبب والمُسَبِّب معاً، وهذا أقوى مراتب الهداية والبيان وأعلاها وأسناها كما أنّ مَن كان لَم يَرَ الجبن مثلاً وارتاب في أمره تزاح شبهته تارة بالاستشهاد بمن شاهده وأكل منه وذاق طعمه، وتارة بإراءته قطعة من الجبن وإذاقته طعمه وتارة بإحضار الحليب وعصارة الأنفحة وخلط مقدار منها به حتى يجمد ثمّ إذاقته شيئاً منه وهي أنفى المراتب للشبهة». (تفسير الميزان، ج٢، ص٣٥٩).

لكنّ القرآن الكريم يذكر لنا كذلك سؤالاً آخر طرحه شخص من غير الموحّدين وهو المَعنيّ في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[1] إلّا أنّ الحالة هنا تختلف عن الحالتيْن المذكورتيْن، والغاية التي من أجلها طُرح السؤال في هذه الآية لا تشبه غاية السائليْن المُشار إليهما إذ إنّ السائل هنا لم يكن مؤمناً بمبدأ إحياء الموتى أصلاً بل اعتبر ذلك أمراً عجيباً وقضية مستحيلة.

والمعلوم أنّ قوله تعالى على لسان الذي مرّ بالقرية: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَـٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ في الآية الّتي هي موضوع البحث ليس استنكاراً كما قيل على لسان المُنكرين للمعاد في بعض الآيات مثل قوله سبحانه: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾[2]، وذلك بدليل ذَيل الآية نَفسها حيث كانت نيّة هذا الموحّد الربّاني إقامة الدليل والبرهان لكي يتمكّن عن كَثب من مشاهدة هذا الفعل الخارق للعادة المتمثّل بإعادة الله سبحانه الموتى إلى الحياة.

تذكير: رغم أنّ الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث لم تقُل: «أنّى يُحيي الله أهل هذه القرية» إلّا أنّ السياق يُبيّن بوضوح أنّ المقصود بالسؤال هو أهل القرية بالفعل وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾[3] حيث قال المفسرون المعروفون إنّ المقصود بها هو أهل القرية، ولولا ذلك لأشارت الآية إلى مسألة إعمار القرية، علماً أنّه ما من ضرورة تدعو ذلك النبيّ إلى طرح سؤال حول مسألة إعمار القرية الخَربة أو إسكانها من جَديد.

---

١ . سورة يس ﷺ، الآية ٧٨.

٢ . سورة المؤمنون، الآية ٣٦.

٣ . سورة يوسف عليه السلام، الآية ٨٢.



فرضيّات خاطئة

الآيات الإلهية إمّا أن تكون آفاقية أو أنفسيّة أو كلتاهما معاً، وتشتمل الآية الّتي هي موضوع البحث على مصداق واضح يجمع بين الآية الأنفسية والآية الآفاقية وبالتالي فإنّ تفسيرها يضمّ كلا المَعنيَيْن (المعنى الأنفسيّ والمعنى الآفاقيّ) في آن واحد. ويُستفاد من ظاهر هذه الآية الشريفة وجود حادث حقيقيّ لا تمثيليّ ـ كما ظنّ البعض[1] ـ ولمّا كان دَيدَن القرآن الكريم هو تعليم الكتاب والحكمة وتزكية النّفس دون أن يكون للأزمنة أو الأمكنة أو الألسنة أيّ تأثير يُذكَر في هذا التعليم فإنّ الله سبحانه لم يذكر الجانب التاريخيّ لهذه القصة ولم يُشِر لا من قريب ولا من بعيد إلى زمن هذه الحادثة أو مكانها أو العصر الذي وقعت فيه، كما أنّه لَم يُصرّح بشخصية السائل في القصّة، ولعلّ ذلك يُعدّ أعظم دليل على كون القرآن الكريم لا يأتي إلّا بأحسن القَصص فهو يفتتح حديثه عن أيّة قصّة بمنأى عن البُعد التاريخيّ تماماً.

على سبيل المثال قال بعضهم: إنّ هذه القصّة وقصّة أصحاب الكهف هي واحدة تشير كلتاهما إلى أنّ الشخص المذكور فيهما قد غلبه النّوم مائة عام لكنّه لم يَمُت خلال تلك المدّة، وهكذا فقد تمّ بهذه القصة الواحدة حلّ الإشكال المتعلّق بحقيقة الموت والحياة في هذه الدنيا، وعليه فإنّ المقصود بقوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ هو نوم ذلك الشخص مدّة مائة عام وهذا يشبه قوله سبحانه بشأن أصحاب الكهف: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾[2] و﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾[3]؛ إذاً فما مِن شيء هنا يدعونا إلى القول

١ . راجع: تفسير المنار، ج٣، ص٥٢.

٢ . سورة الكهف، الآية ١١.

٣ . سورة الكهف، الآية ٢٥. «قال الزّجاج: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾: مَنَعْناهم السَّمْعَ أَن يَسْمَعُوا، والمعنى: أَنَمْناهم ومَنَعْناهم أَن يَسْمَعُوا، لِأَنّ النائِمَ إِذا سَمِع انْتَبه، والأَصل في ذلك أَنَّ النائم لا ←



بأنّ شيئاً خارقاً للعادة قد حدث أو مُعجزة ما قد حصلت في هذه الدنيا في ذلك الوقت بل إنّ النّوم لمدّة مائة عام هو أمر ممكن، وقد نقلت مجلة (المُقتطف) خبراً ذكرت فيه أنّ أحد الأشخاص كان نائماً لمدّة (٥٥٠٠) يوماً ـ أي ما يُقارب ١٥ سنة[١].

قبل الإجابة على هذا الموضوع نودّ أن نشير إلى أنّ مُعتقدات الفرقة الوهابية تقوم على أساس إنكار مُعجزات الأنبياء عليهم السلام وكرامات أولياء الله الصّالحين، وعند تفسيرهم لآيات القرآن الكريم تراهم مُضطرين إلى التفسير بالرّأي والعمل على تحريف الحقائق، ويحاولون التغاضي عن أكثر من عشرين مُعجزة مذكورة في سورة البقرة فقط وتمريرها بشكل عابر.

ولا ريب في أنّ الجَنَف والانحراف عن طريق الولاية والتّعمد إلى اختيار منهج تفسيريّ مُغاير للمُفسّرين المعروفين للقرآن الكريم يجعل مُقترفها فريسة سهلة لمثل تلك المصائد، ولهذا قبل الخوض في المصادر التفسيرية ينبغي علينا تعزيز أُسسنا العَقَدية لكي لا نخضع بالقول ببساطة ونقع ضحية الانحراف والشّبهات.

يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «وإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ»[٢]، وبالاستناد إلى الحديث النبويّ الشّريف: «مَن أَحْيَا أَرْضاً

يسمع إذا نام، وفي الحديث: فَضَرَبَ الله على أَصْمِخَتهم، أي ناموا فلم يَنْتَبِهُوا، والصِّمَاخُ: ثَقْبُ الأُذُن، فَضُرِبَ على آذانهم هو كناية عن النوم، ومعناه: حُجِبَ الصَّوتُ والحِسُّ أَنْ يَلِجَا آذانَهم فَيَنْتَبهوا، فكأَنها قد ضُرِبَ عليها حِجابٌ». (**لسان العرب**، مادّة «ضرب» ـ بتصرف). [المترجم]

١ . أنظر: **تفسير المنار**، ج٣، ص٤٩ ـ ٥٠.

٢ . **نهج البلاغة**، الكتاب رقم ٣١، من وصية له عليه السلام للحسن بن علي عليهما السلام كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفّين. «قال ابن أبي الحديد: كان يُقال: العِلمُ في الصِّغَر كالنَّقْش في الحَجَر، وفي الكِبَر كالخطّ على الماء. وفي المثل: الغُلام كالطّين يَقبلُ الخَتْم ما دام رطباً». (**بهج الصّباغة في شرح نهج البلاغة**، ص٤٧). [المترجم]



مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ»[1] فإنّ إيجاد الأرضية المناسبة يشبه إعمار الأرض وفلاحتها والشخص الذي يغرز آراءه وأفكاره في قلب الآخرين يصبح مالكاً لتلك القلوب، ولذلك يجب على أصحاب القلوب توخّي الحذر وتجنّب الوقوع في الفخّ.

والآن نُجيب على الكلام الذي نقله صاحب تفسير (*المنار*) فنقول: رغم أنّ القرآن الكريم استخدم الفعل (توفّى) للدلالة على النوم وهذا الأخير ـ كما هو معروف ـ يُمثّل حالة من حالات الموت أو الوفاة، إلّا أنّه لا يسعنا أن نقبل بذلك الكلام أو القبول بالاحتمال المذكور أو اتّخاذه مقياساً لحديثنا، أي تشبيه موضوع بموضوع آخر أو حادثة ما بأخرى، حيث تجاهل صاحب التفسير كون التشبيه يلزمه وجه من وجوه الاشتراك بينما لا يوجد أيّ وجه مشترك بين الحالتيْن المذكورتيْن، فمحور قصّة أهل الكهف وما حدث لهم يدور حول موضوع (الرّقود) كما في قوله تعالى: ﴿**وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ**﴾[2]، أي إنّهم كانوا نِياماً ولكن كان كلّ مَن ينظر إليهم يظنّ أنّهم مستيقظون.

إذاً، فالقرآن الكريم يقول بصراحة إنّ أصحاب الكهف في الحقيقة كانوا نائمين، لكنّ المسألة مُختلفة في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث فالحديث فيها يدور حول موت الشخص الذي مرّ بالقرية المذكورة فقال ﷻ: ﴿**فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ**﴾ ولذلك لا يبقى لدينا أيّ دليل أو تبرير لتغيير المعنى عمّا هو عليه في الظاهر أو تأويله.

وبعد أن صرّح القرآن الكريم بوقوع الوفاة وعودة الحياة ثانية في النشأة الطبيعية فلا شكّ في أنّ إنكار كلّ ذلك يُشير إلى انحراف واضح في الفكر والعقيدة.

---

١. معاني الأخبار، ص٢٩٢؛ بحار الأنوار، ج١٠١، ص٢٥٥.

٢. سورة الكهف، الآية ١٨.

ولإثبات الموضوع المذكور (وهو وقوع الموت والوفاة وعودة الحياة من جديد في عالم المادّة) نقول إنّ الآية الشريفة نفسها تحمل دليلاً على ذلك وهو السؤال الذي طرحه السائل عن كيفية إحياء الموتى ومسألة المعاد: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وعليه كان ينبغي أن يكون جواب الله سبحانه على هذا السؤال جواباً عملياً يتناسب مع السؤال نفسه وتقديم توضيح لتلكما العمليّتيْن أمام عينَي السائل من خلال إماتته وإحيائه هو، وبالتالي إيصاله إلى مرحلة عين اليقين والعلم الشهوديّ وليس إنزال النّوم عليه ليرقد كلّ تلك الفترة ثمّ يستيقظ بعدها.

إلماعة: ١. إنّ الفرق بين (الإماتة) و(التنويم) هو كون الحالة الأولى دفعية الحدوث وهي حالة غير دائمة بينما تتميّز الحالة الثانية بالبقاء والاستمرارية؛ بمعنى أنّ التنويم المتواصل أمر ممكن ولا عَجب في ذلك إلّا أنّ الموت هو دفعيّ الحدوث تقريباً وبقاؤه هو بقاء تدريجيّ، وعلى هذا الأساس فإنّ الإماتة المذكورة في الآية الشريفة لم تكن لمدّة مائة عام بل كانت إماتة فجائية حدثت دفعة واحدة ومضى على الميّت قرن كامل من الزّمان.

٢. يعتقد مُعظم الناس أنّ الموت يعني الهلاك والفناء ولهذا نسمع البعض يقول: «فلانٌ غادر الدنيا»؛ لكنّ ثقافة الوحي تُعرّف الموت على أنّه انتقال من مكان إلى آخر، والحقيقة هي أنّ الإنسان الميّت ينتقل بعد موته من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ ولا وجود لمعنى الهلاك والفناء إطلاقاً، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾.

٣. اقتضت حكمة الله سبحانه وثقافة القرآن الكريم توضيح حالة الإماتة الحاصلة لكلّ من الراكِب والمركوب معاً (وهو في الآية الكريمة السائل وحماره) فبُدِئ أوّلاً بإماتة الراكب وإحيائه من بعد ليرى بأمّ عينه عمليّة إماتة حماره وإحيائه.



السائل الموحِّد يطلب الشهود

لم يكن النبيّ المذكور في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث يشكّ أو ينكر قدرة الله سبحانه في إحياء الأموات أو إماتة الأحياء إطلاقاً فهذه المسألة كانت واضحة بالنسبة إليه من ناحية العلم الحصوليّ؛ لكنّ المعروف أنّ العلم الحصوليّ لا يروي سوى جزء ضئيل من عطش الإنسان العالِم ولهذا رأينا أنّ هذا النبيّ كان يسعى إلى الحصول على العلم الحضوريّ وعين اليقين ليزيل ظمأه كلّه ويصل إلى مراده الذي يتمنّاه بالشهود وليس بالإدراك فقط. وهذا ما حدث بالفعل حيث طلب من ربّه أن يُريَه كيفية إحياء الموتى بشكل شهوديّ إذ لا ريب في أنّ مَن آمن بوجود خالق قادر مُطلق لن يشكّ أبداً في وجود المعاد أو يُنكره؛ وأمّا الشخص الذي يُنكر المبدأ والخالق ويشكّ في المعاد فسيكون جوابه: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾[1] وقد أمر الله سبحانه نَبيّه الكريم ﷺ بأن يُجيب على هؤلاء المُنكرين بالقول: إنّ مَن خَلقكم من المادّة الأولى هو الذي سيُعيدكم بعد موتكم وهو القادر على جَمع أشلائكم بعد تناثرها وفسادها في هذا العالم فستُصبحون كهيأتكم الأولى ثانية. وهنا سينكّس الكافرون رؤوسهم خجلاً من هذا الجواب لكنّهم يتساءلون قائلين: ﴿مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

وتجدر الإشارة إلى أنّه في بعض الأحيان قد يحتاج التعليم الشهوديّ إلى الصّبر مائة عام حيث تحمّل جسد النبيّ (عُزَير) كلّ آلام الموت وتحدّياته خلال قرن من الزمان لكنّ روحه ظلّت حيّة وصابرة تنتظر الاتّصال بالبدن مرّة أخرى لكي تُدرك أسرار المعاد الجسمانيّ. ولهذا يمكننا القول إنّ المصلحة قد تقتضي أحياناً أن يكون التعليم عَبر موت السائل وهلاك جسده مدّة مائة عام، ونظير

١. سورة الإسراء، الآية ٥١.

هذا ما قاله سيّدنا موسى كليم الله عليه السلام: ﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾[1] عندما أمره الله عزّ وجلّ بالسّفر إلى جهة ما لتلقّي بعض العلوم والمعارف عند عبد من عباده الصالحين، وهذه إشارة على ما يبدو إلى فترة طويلة قد تتجاوز ثمانين سنة[2].

وقد أخطأ بعضهم عندما قال إنّ السائل في الآية الشريفة لم يكن مؤمناً ولا موحّداً وجاءوا بالعديد من الأمثلة والشواهد على مدّعاهم[3]. وفيما يأتي سنلقي نظرة عابرة على تلك الشواهد ونَقدها ما أمكننا ذلك:

١. قالوا: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ...﴾ عطف على الجملة السابقة ﴿الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ...﴾[4] فكما أنّ نمرود لم يكن مؤمناً ولا موحّداً كذلك كان الشخص المذكور في آية القرية.

---

١. سورة الكهف، الآية ٦٠.

٢. «قال علي بن إبراهيم حدثني محمد بن علي بن بلال قال: اختلف يونس وهشام بن إبراهيم في العالِم الذي أتاه موسى عليه السلام أيّهما كان أعلم؟ وهل يجوز أن يكون على موسى عليه السلام حجة في وقته وهو حجة الله على خلقه؟ فكتبوا إلى أبي الحسن الرّضا عليه السلام يسألونه عن ذلك، فكتب في الجواب: أتى موسى العالِمَ فأصابه في جزيرة من جزائر البحر فسلّم عليه موسى فأنكر السّلام إذ كان بأرض ليس بها سلام. قال: من أنتَ؟ قال: أنا موسى بن عمران. قال: أنت موسى بن عمران الذي كلّمه الله تكليماً؟ قال: نعم. قال: فما حاجتك؟ قال: جئتُ لتُعلّمَني ممّا عُلِّمْتَ رشداً. قال: إني وُكّلتُ بأمر لا تُطيقه ووكّلتَ بأمر لا أُطيقه. الخبر بطوله: ﴿قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ معناه: لا أزال أمضي وأمشي ولا أسلك طريقاً آخر حتى أبلغ مُلتقى البحرين (بحر فارس وبحر الروم ومما يلي المغرب بحر الروم ومما يلي المشرق بحر فارس)، عن قتادة. وقال محمد بن كعب: هو طنجة ورُوي عنه إفريقية، وكان وُعِدَ أن يَلقى عنده الخِضر. ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي دهراً، عن ابن عباس، وقيل سبعين سنة، عن مجاهد، وقيل ثمانين سنة». [المترجم]. (تفسير مجمع البيان، ج٥ ـ ٦، ص٧٤١).

٣. أنظر مثلاً: الزّمخشريّ، تفسير الكشّاف، ج١، ص٣٠٦؛ أنوار التنزيل، ج١، ص١٣٦.

٤. سورة البقرة، الآية ٢٥٨.



وجوابنا على هذا الكلام هو: أنّ الآية الشريفة السابقة ذكرت اسميْن هما نمرود (أوّلاً) ثمّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام (ثانياً)، وعليه فقد يكون المقصود بالذيّ مرّ بالقرية هو مؤمن وموحّد عطفاً على الاسم الثاني في الآية السابقة (وهو سيّدنا إبراهيم عليه السلام) وهذا أقرب إلى الصواب من القول إنّه عطف على الاسم الأوّل الأبعد عنه [وهذا نظير ما ذكروه هم من أنّ نسبة الضمير وإرجاعه إلى الأقرب أفضل][1]. وبناءً على ذلك فإنّ محور الحديث في الآية التالية هو سيّدنا إبراهيم عليه السلام ـ الموحّد المخلص ـ فتكون الآيات الثلاث بمجموعها مرتبطة بعضها مع البعض الآخر.

٢. وقالوا: إنّ مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر لا يجرؤ على السؤال حول كيفية إحياء الموتى فسؤال الشخص المذكور في آية القرية يدلّ على عدم إيمانه.

والجواب عن هذا القول هو: لقد كان سؤال السائل متعلّقاً بكيفية إحياء الموتى وليس أصل الإحياء بشكل عامّ، وقد بيّنا قبل هذا الفرق بين هذه الآية وبين السؤال المطروح في الآيات الأخيرة من سورة (يس) فراجعه في محلّه[2].

٣. وقالوا: عندما اتّضحت صورة كيفية إحياء الموتى بالنسبة للسائل بادر إلى القول بأنّه يعلم بقدرة الله سبحانه على فعل أيّ شيء: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا دليل قاطع على أنّ هذا الشخص لم يكن قبل هذه الحادثة مؤمناً بقدرة الله تعالى على فعل ما يريد وأنّ إيمانه هذا بقدرة الله سبحانه قد حصل بعد أن ﴿تَبَيَّنَ لَهُ﴾.

ونجيب عن كلامهم هذا قائلين: إنّ العلم نوعان: أ) علم حصوليّ واكتسابيّ أو علم اليقين؛ ب) وعلم حضوريّ وشهوديّ أو عين اليقين الموهوب. وكما

---

١ . الزيادة بين المعقوفيْن من المترجم.

٢ . أنظر ذلك تحت عنوان: محور المحاجّة.

أوضحنا سابقاً فإنّ الشخص المذكور كان يمتلك النوع الأوّل من العلم وكان يحاول الحصول على النوع الثاني من العلم وقد حصل عليه بالفعل بفضل الله؛ أي إنّه لم يَكتف بالمعرفة التي كانت لديه بل أراد إدراك ذلك أيضاً، ولا شكّ في أنّ هناك فرقاً كبيراً بين الامتلاك والإدراك.

وجدير بالذكر أنّ الآية الشريفة نفسها تتضمّن العديد من الشواهد والأدلّة على كون السائل فيها كان مؤمناً وموحّداً بالإضافة إلى أنّها تشتمل كذلك على بعض الشواهد الخارجية وهي:

أ) صيغة السؤال المطروح (حيث قال: أنّى يُحيي الله الموتى؟) وهذا دليل على أنّه كان يؤمن بإله قادر على إحياء الموتى وهو الله سبحانه وتعالى وعلى أنّه كان يجهل فقط كيفية الإحياء فلم يكن سؤاله إلّا لكي يرى ذلك بعينيه على ما يبدو.

ب) لم تذكر الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث اسماً لإله آخر غير اسم الله ﷻ وعليه فإنّ جميع الضمائر الموجودة فيها تعود إلى الله تعالى، والمعروف أنّه ما مِن أحد يمتلك مثل هذه المنزلة للتحدّث إلى الله سبحانه أو أن يُكلّمه الله تعالى بشكل مباشر قائلاً: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ سوى المؤمن الموحّد (وإن كان ذلك الكلام هو من نوع حديث النّفس إلى النّفس)، وعندما تلقّى السائل جواب الحقّ من المتكلِّم الحقّ سبحانه بشكل مباشر وشهوديّ اعترف بأنّه كان ميّتاً مدّة مائة عام رغم أنّه كان بإمكانه إنكار ذلك الموت مُستنداً إلى طعامه وشرابه الذي لم يَتَسنّه والقول بأنّه لم يرقد سوى يومٍ أو بعضِ يوم.

ومن الناحية الأخرى نقول إنّ صيغة حديث السائل مع الله سبحانه تدلّ على قِدَم الحديث فالقرآن الكريم لم يَقل: «فَلَمّا بَعَثَه قال كَم لَبِثتَ» وهذا نظير

الحديث الذي جرى بين الله ﷻ وبين كليمه عليه السلام حيث قال: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا... فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى﴾[١].

٣. إنّ ممّا لا شكّ فيه هو أنّ إماتة أيّ شخص ثمّ إحيائه يمثّلان تكريماً لذلك الشخص والله سبحانه لا يؤدّي مثل هذا العمل إلّا مع المؤمن الموحّد إذ لا فائدة من إحياء الكافر المشرك أو إماتته، فكلا الأمرين عنده سواء[٢].

٤. قال الله ﷻ لذلك السائل: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ وقد قال سبحانه ما يشبه ذلك لسيّدنا عيسى وأمّه مريم عليهما السلام: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٣] وحول سفينة سيّدنا نوح عليه السلام قال تعالى كذلك: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٤]، كلّ ذلك يدلّ بما لا يتخلّله الشكّ أو الارتياب على أنّ السائل في الآية المذكورة كان آية تشريفية للحقّ تعالى وهذا بدوره يشير إلى أنّه كان مؤمناً وموحّداً ولم تكن آية تعذيبية كما جاء في قصّة فرعون حيث قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾[٥].

٥. توجد الكثير من الروايات في المصادر الشيعية والسنّيّة تؤيّد أنّ الشخص المذكور في قصة القرية الخاوية على عروشها لا يعدو أن يكون إرميا النبيّ أو الخِضر أو عُزَير عليهم السلام[٦]، واستناداً إلى ما ذُكِر لن يَبقَى أيّ شكّ في كون تلك الشخصيّة كانت مؤمنة وموحّدة.

---

١. سورة طه عليه السلام، الآيتان ١٠ و ١١.

٢. ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. (سورة يس/ ١٠). [المترجم]

٣. سورة الأنبياء عليهم السلام، الآية ٩١.

٤. سورة العنكبوت، الآية ١٥.

٥. سورة يونس عليه السلام، الآية ٩٢.

٦. تفسير نور الثقلين، ج١، ص٢٦٧ ـ ٢٧٥؛ الدرّ المنثور، ج٢، ص٢٤ ـ ٣٢.



شهود البَعث

تكشّفت تفاصيل عملية الإحياء والإماتة للسائل الكريم في الآيـة الـشريفة عن طريق الشهود وتأكّد له في داخله أنّه كان ميّتاً بالفعـل وأنّ الله سـبحانه قـد أحياه ثانية، وإلّا فإنّ سؤال الله سبحانه له قائلاً: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ لا يدلّ في الظـاهر على أنّه كان ميّتاً لأنّ الفعل (لَبِثَ) يشير إلى النوم كذلك، كما أسلفنا.

وتوضيح ذلك هو أنّ كلمة (البَعث)[1] تُطلَق على حـالات مُختلفـة للإنـسان مثل:

١ . الوصول إلى مقام أو منزلـة مُعيّنـة كقولـه تعـالى: ﴿هُـوَ الَّـذِي بَعَـثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾[2].

٢ . البَعث والإحياء بعد الموت مثـل قولـه سـبحانه: ﴿وَيَـوْمَ تَقُـومُ الـسَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُـونَ * وَقَـالَ الَّـذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَـذَا يَـوْمُ الْبَعْـثِ وَلَكِـنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

٣ . الاستيقاظ من النّوم كما في الآية الشريفة: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَـاهُمْ لِيَتَـسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾[4].

إلماعة: يدلّ استخدام كلمة (البَعث) على كلّ واحدٍ من الاستيقاظ من النّوم والإحياء بعد الموت على أنّ النّـوم هـو شـقيق المـوت، فكـما أنّ الإنـسان الـذي يصحو من نومه تبقى جميع قنواته التحريكية والإدراكية سـالمة فكـذلك قنـوات

---

١ . حول معنى (البَعث) راجع تفسير تسنيم، ج٧، ص٨١.

٢ . سورة الجمعة، الآية ٢.

٣ . سورة الرّوم، الآيتان ٥٥ و ٥٦.

٤ . سورة الكهف، الآية ١٩.



الموتى التحريكية والإدراكية تبقى سالمة بعد إحيائهم في يوم القيامة، ولهذا يقول بعضهم عند الحشر: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾[1].

نعم، إنّ هذه الدنيا مقارنة بالبرزخ وهذا الأخير مقارنٌ بيوم القيامة أقرب ما يكون إلى النّوم: «النّاسُ نِيامٌ فإذا ماتُوا انْتَبَهُوا»[2]، وعندما يُبعَث مَن في البرزخ فسيعلمون ذلك علم اليقين وسيُدركونه بعد حين.

الاحتمالات بشأن المتحدّث

ثمّة احتمالات ثلاث حول شخصيّة المُتحدِّث في الشطر الأوّل من الآية الشريفة والقائل: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ هي:

١. أن يكون المُتحدّث إلى السائل مَلكاً من الملائكة.

٢. أن يكون الخطاب صادراً عن الله سبحانه ويشير إلى وجود علاقة أو ارتباطٍ مباشر بين ذلك العبد الصالح وبين الله ﷻ.

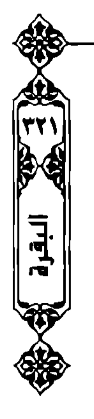
٣. قد لا يكون السؤال والجواب بصيغة ملفوظة إذ يمكن التعبير عن حديث النّفس مثلاً والخواطر النفسانية بالقول كذلك وإن لم يُلفَظ منها شيء باللسان. ففي قصّة سيّدنا يوسف ﷺ مع إخوته ذكر لنا القرآن الكريم أنّه تمكّن من احتجاز أخيه بنيامين وإبقائه لديه بعد اتّهامه بسرقة صواع الملك أيّام القحط الذي أصاب البلاد، وحينها قال إخوته: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[3] لكنّ سيّدنا يوسف ﷺ أسرّ ذلك في نَفسه ولم يُبده لهم واكتفى بالقول مخاطباً إيّاهم: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

---

١. سورة يس ﷺ، الآية ٥٢.

٢. عوالي اللئالي، ج٤، ص٧٣؛ بحار الأنوار، ج٥٠، ص١٣٤.

٣. سورة يوسف ﷺ، الآية ٧٧.



فالآية الشريفة المتعلّقة بسيّدنا يوسف عليه السلام تشير بوضوح إلى أنّه عليه السلام لم يصرّح بما في نفسه إزاء الاتّهام الذي وجّهه إخوته ضدّ أخيه بنيامين وضدّه لكنّ الله سبحانه عالم بحديث نفسه وما جرى في قلبه فنقل لنا تعالى ذلك على لسانه: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

الجواب العمليّ والقدرة الإلهية

إنّ الإماتة لمدّة قرن كامل ثمّ الإحياء من جديد لهو دليل واضح وآية بيّنة على حقيقة المعاد وإحياء الموتى يومئذ، إذ من الصعوبة بمكان إقناع الناس بأنّ إحياء الميّت الذي بقي جَسده سالماً هو آية على قدرة الله سبحانه في إحياء الموتى الذين مرّ عليهم دهر طويل وسنون عديدة ففَنيت أجسادهم وهلكت أعضاؤهم وخَويت عظامهم وتحوّلت إلى تراب انتشر في كلّ أنحاء الأرض رغم أنّها يمكن أن تكون كذلك آية على قدرته تعالى على فعل ما يشبه هذه الآية، ولذلك قام الله عز وجل بإماتة ذلك النبيّ مائة عام فكان من الطبيعي أن يفسد جسده ويتلاشى بَدنه الذي تعرّض للهواء كلّ تلك الفترة وهو ما تعوّد البشر على رؤيته، بل قد يكون الجسد تعرّض للكثير من الحيوانات المُفترسة والضواري المتوحّشة فلم تُبق منه شيئاً. وهكذا فإنّ جمع أشلاء هذا الجسد بعضها إلى بعض ثمّ بَعث الرَوح فيه ليعود صاحب الجسد إلى حالته الأولى التي كان عليها قبل موته، لا شكّ في أنّهما يدلّانِ على عظمة الله سبحانه وقدرته: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ لا سيّما وأنّ أبناء عصره كانوا يعرفونه جيّداً ويتذكّرون مواصفاته الشخصية بدقّة وهذا يدعوهم إلى تصديق ما حصل له عند رؤيته ثانية حيّاً سالماً بعد ذلك الغياب الطويل.

ثمّ بيّن له الله تعالى كيفية إحيائه له بعد أن كان ميّتاً كلّ هذه المدّة وقال مخاطباً إيّاه: لاحِظ كيف أنّك كنت ميّتاً لمدّة مائة عام ثمّ أحييناك ثانية لكنّ طعامك وشرابك ظلّا سالمَيْن غير فاسدين رغم مرور تلك الفترة عليهما. نعم، لقد أماتَ الله سبحانه عبده الصالح هذا قرناً كاملاً لكنّه حافظ على طعامه وشرابه فلم يُصبهما أيّ فساد ولم يعترْهما أيّ تغيير لتكون له آية تدلّ على عظمة الله ﷻ وقدرته الخارقة رغم أنّ المعروف عن الماء والطعام فسادهما خلال فترة قصيرة.

ولفتَ الله ﷻ نظر نبيّه بعد إحيائه إلى حماره الذي كان قد فسدت جثّته قائلاً له: ﴿**فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ**﴾. وإذا دقّقنا في الآية الشريفة فسنجد أنّها تتضمّن ثلاث مُعجزات في آن واحد ولهذا استخدم الله سبحانه كلمة ﴿**أُنْظُرْ**﴾ ثلاث مرّات:

ـ **أُنْظُرْ** إلى طعامك وشرابك كيف حُفظا دون فساد أو تغيير مع أنّهما من الموادّ السريعة الفساد والتغيير: ﴿**فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ...**﴾.

ـ **وانظر** إلى حمارك كيف تهرّأ جسده وفسد بَدنه رغم أنّه كان يمكن أن يبقى سليماً ولو لفترة قصيرة: ﴿**وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ...**﴾.

ـ **وأنظر** إلى عظام حمارك كيف سنجمعها ونركّبها بعضها مع البعض ثمّ نكسوها باللحم الذي كان عليه من قَبل: ﴿**وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا**﴾.

قال بعضهم إنّ المقصود بالعظام في قوله تعالى: ﴿**وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا**﴾ هو عظام الشخص السائل في الآية (النبيّ) لأنّ إعادة خلقه وإحيائه ثانياً بدأت بعينيه فأمر الله روحه التي في بدنه أن تنظر بقيّة عمليّة الإحياء وكيفية إعادته من جديد[1]؛ لكنّ هذا الكلام ليس دقيقاً إذ إنّ كلّ مَن يشهد تلاشي

---

١ . الفخر الرازي، التفسير الكبير، مج٤، ج٧، ص٣٩.

أعضاء جسده وتفتّتها لا يمكن له أن يقول بأنّه توفّي ليوم أو بعض يوم، وعليه فإنّه يقصد بكلامه ذاك حيوانه الميّت وعظامه.

واستند بعض المُفسّرين إلى قوله تعالى: ﴿**وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ**﴾ وقالوا ربّما كان الحمار حيّاً وقتئذ ولو كان ميّتاً وكان جسده قد تلاشى وتفرّقت عظامه لَما صحّ أن يُقال: أنظر[1]؛ إلّا أنّه تجدر الإشارة هنا إلى أنّ ظاهر تعدّد دعوة السائل إلى النّظر يشير إلى أنّ ثمّة فَرقاً بين حالة الحمار وحالة الطعام والشّراب، فلو بقي الحمار سالماً مثل الطعام والشراب لكان حكم الثلاثة واحداً، ناهيك عن أنّ ظاهر الكلام حول نَشز العظام وإكسائها باللحم مُتعلّق بالحمار ـ كما هو واضح.

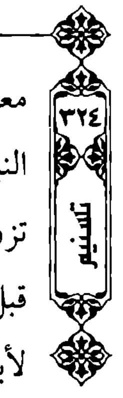
ولقد بيّن الله سبحانه وتعالى الحكمة في ما جرى بإدخال حرف العطف (الواو) على بقيّة الآية الشريفة مُضيفاً المستقبل إلى الماضي المحذوف، وكأنّه ﷻ أراد أن يقول إنّ أفعالنا تتضمّن الكثير من الأسرار ومنها: ﴿**وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ**﴾ لأنّ المعطوف عليه محذوف هنا وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾[2].

وأمّا قوله تعالى: ﴿**وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ**﴾ فيشير إلى السائل النبيّ وليس المقصود بذلك هو طعامه أو شرابه أو حماره لأنّ أبناء عصره لم يكونوا ليَعوا

---

١ . «قال وهب بن منبه وغيره: وانظر إلى اتّصال عظامه وإحيائه جزءاً جزءاً. ويُروى أنّه أحياه الله كذلك حتى صار عظاماً ملتئمة، ثمّ كَساه لحماً حتى كمل حماراً، ثمّ جاءه مَلَك فنفخ فيه الرّوح فقام الحمار ينهق؛ على هذا أكثر المفسرين. ورُوي عن الضحّاك ووهب بن منبه أيضاً أنّهما قالا: بل قيل له: وانظر إلى حمارك قائماً في مربطه لم يُصبه شيء مائة عام؛ وإنّما العظام التي نظر إليها عظام نفسه بعد أن أحيا الله منه عينيه ورأسه وسائر جسده ميت؛ قالا: وأعمى الله العيونَ عن إرمياء وحماره طول هذه المدة». القرطبيّ، **الجامع لأحكام القرآن**، مج٢، ج٣، ص٢٦٨؛ راجع أيضاً: **تفسير المنار**، ج٣، ص٤٩.

٢ . **سورة الأنعام**، الآية ٧٥.



معنى انقضاء قرن كامل على الطعام والشراب والحمار ولم يكن بمقدور ذلك النبيّ أن يُقنع قومه بأنّ هذا الطعام والشراب هو نفس الطعام والشراب الذي تزوّد بهما قبل مائة عام أو أنّ هذا الحمار هو نفس الحمار الذي خرج راكباً عليه قبل قرن من الزّمان، أمّا هو فكان شخصيّة معروفة في زمانه وفرداً يمكن لأبناء عصره أن يتعرّفوا عليه بسهولة لأنّه كان يقيم في بلدتهم ويعيش بين ظهرانيهم.

والحاصل أنّ هذا العبد الصالح بعد أن شاهد بأُمّ عينيه كيفية إحياء الموتى في وجوده ووجود دابّته (حماره) وأدرك هذه المُعجزة العظيمة التي حصلت له ولحماره، أيقن بقدرة الله تعالى الواسعة واعترف من أعماق عقله وقَلبه قائلاً: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ورغم أنّ سؤاله اقتصر على مشاهدة بعض الأمور ورغم أنّ مشاهدته اقتصرت على رؤية جانب من الإحياء والإماتة ـ وهو ما تعلّق به وبحماره مع الإبقاء على طعامه وشرابه دون فساد أو تغيير ـ لكنّه بمجرّد رؤيته لتلك الحادثة، اعترف بقدرة الله تعالى على فعل أيّ شيء وراء هاتيْن الواقعتيْن. ومن الواضح أنّ الممتنع بالذات لا يمثّل مصداق الشّيء لكي يكون واقعاً ضمن إطار القدرة الإلهية بل هو اللاشيء في الحقيقة.

لقد بيّن الله ﷻ في هذه الحادثة التاريخية جانباً ضيّقاً ونموذجاً بسيطاً من الحشر الأكبر يوم القيامة بالنسبة إلى الجماد المتمثّل بالماء والطعام وبالنسبة إلى الحيوان المتمثّل بالحمار فضلاً عن الإنسان المتمثّل بذلك العبد الصالح إذ منح سبحانه الحياة لكلّ تلك الأشياء ثانية. وهكذا أرى الله تعالى قدرته اللامتناهية في هذا العالَم إلى أبناء ذلك العصر الذين كانوا يقطنون بالقرب من تلك القرية لتكون لهم آية بيّنة لا تُنكَر.



إشارات ولطائف

١. العلم بالقَدَر

يعتقد بعض المُفسّرين والمؤرّخين أنّ السائل في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث كان سيّدنا (عُزير) وأنّه كان مشهوراً بطَرح الأسئلة المتعلّقة بالقَدَر الإلهيّ وما شابه ذلك. وللعلم بالقَدر علاقة وثيقة بذات الله سبحانه من جهة وكذلك بخصوصيّات المقدور من جهة أخرى، وليس باستطاعة أحد معرفة القَدَر فالعلم به والتعرّف على تفاصيله يستوجبان وجود لوازم غير قابلة للقبول، ولو كان بإمكان أيّ أحد العلم بالله ﷻ لكان بإمكانه كذلك العلم بالقَدَر، لكن بما أنّ ذات الله سبحانه غير معلومة ولا معروفة لأيّ مخلوق فإنّ القدر أيضاً يبقى مجهول المعالم وغير معروف[1].

وجدير بالذّكر أنّ الدرجة الوجودية للقدر تأتي بعد القضاء، ويعود التشكيك في العرفان إلى درجات الظهور وليس إلى الوجود، فمَن كان هو نفسه مَظهراً للقضاء الذي يُمثّل اسماً من أسماء الله الحُسنى أو مظهراً من مظاهره كان عالماً بالقَدَر لا محالة، كما أنّ الصادر الأوّل أو الظاهر الأوّل محيط بالقَدَر أيضاً.

---

١. قال ابن عربي في نفسيره: «وكان العُزير رسول الله عليه السلام كثير السؤال عن القَدَر إلى أن قال له الحقّ تعالى: يا عُزَير! لئن سألتَ عنه لأمحونّ اسمك من ديوان النبوّة. وذلك لأنّ علم القَدَر له نسبة إلى ذات الحقّ ونسبة إلى المقادير، والنّسب معقولة غير موجودة ولا معلومة لذلك امتنع العلم به أو تصوّره، فلا يُنال أبداً وكان ممّا انفرد الله بعلمه، فمن علم الله علم القدر ومَن جهل الله جهل القدر، والله سبحانه مجهول فالقدر مجهول. فمن المحال أن يعرف المألوه اللهَ وما من وجه من المعلومات إلّا وللقدر فيه حكم لا يعلمه إلّا الله لأنّ القَدَر لو عُلِمَ عُلِمَت أحكامه ولو عُلِمَت أحكامه لاستقلّ العبد في العلم بكلّ شيء وما احتاج إلى الحقّ في شيء، وكان الغنى له على الإطلاق. فلمّا كان الأمر بعلم القَدَر يؤدّي إلى هذا طواه الله عن عباده فلا يُعلَم». (ابن عربي، **تفسير رحمة من الرحمن**، ج١، ص٣٨٧).

إنّ كلّ ما يمكننا قوله بشأن القَدَر هو أوّلاً أنّ المصلحة تكمن في كتمانه ولا تقع المفسدة إلّا في إفشائه والكشف عن أسراره؛ وثانياً قد لا يكون باستطاعة أحد كشف رموز القَدر أو معرفتها في قوس النّزول وفي نشأة الكُثرة بسبب بعض المراحل الدّنيا، أي المراحل التي تكون أدنى من مرحلة القدر أو منزلته.

٢. إثبات المعاد عن طريق الخلق الابتدائيّ

يستدلّ القرآن الكريم على وجود المعاد بالاستناد إلى وجود المبدأ والإشارة إلى قدرة الله سبحانه على ذلك إذ إنّ الله ﷻ الذي أوجد جميع الموجودات وابتدعها من العَدَم ومن غير مادّة أوليّة لقادر بكلّ تأكيد على إحياء تلك الموجودات ثانية بعد موتها وجرّها إلى ساحة الحساب والجزاء؛ قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[1] وقال ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].

بحث روائيّ

تعريف بطل القصّة

عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل، يقول عليه السلام فيه: **«وأماتَ اللهُ «أرمياء» النّبي عليه السلام الّذي نظرَ إلى خراب بيت المقدّس وما حَوله حين غزاهم بخت نصر، وقال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ ثُمّ أحياهُ ونظرَ إلى أعضائِه كيف تَلتئم وكيف تُلبس اللّحم، وإلى مَفاصله وعروقه كيف تُوصل. فلمّا استوى قاعداً، قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾»**[3].

---

١. سورة الأعراف، الآية ٢٩.

٢. سورة الرّوم، الآية ٢٧.

٣. الطبرسيّ، كتاب الاحتجاج، ج٢، ص٢٣١.

عن عليّ عليه السلام: «أنّ عُزَيْراً خَرَجَ مِن أهلِهِ وامْرأتُهُ حامِل ولَه خمسون سَنة، فأماتَه الله مائة سَنة ثمّ بَعَثه، فرَجع إلى أهلِهِ ابن خمسين سَنة ولَه ابنٌ لَه مائة سَنة فكانَ ابنُه أكبرَ مِنه، فَذلِكَ مِن آياتِ الله»[١].

إشارة: أ) مع وجود هذه الروايات إلى جانب بعض الشواهد الداخلية للآية الشريفة نفسها لن يبقى هناك أيّ مجال للاحتمالات التي طرحها بعض المفسّرين حول التشابه والتطابق بين هذه القصّة وقصّة أصحاب الكهف أو تفسيرهم الإماتة لمدّة مائة عام بالنّوم أو شكّهم في كون السائل في الآية ليس مؤمناً ولا موحّداً.

ب) أشارت مجموعة من الروايات في مصادر العامّة والخاصّة إلى أنّ الشخص المذكور في الآية الّتي هي موضوع البحث هو سيّدنا إرميا النبيّ عليه السلام بينما صرّحت مجموعة أخرى من الروايات بأنّه عُزَير النبيّ عليه السلام، لكنّها جميعاً تمثّل أخباراً واحدة ما يعني أنّ قبولها لا يُعدّ واجباً خصوصاً إذا علمنا أنّ أسانيدها ضعيفة وفيها الكثير من الاختلاف فضلاً عن عدم وجود أيّ شاهد عليها في القرآن الكريم. نعم، يُستفاد من القرآن الكريم أنّ السائل كان أحد عباد الله الصالحين وقد يكون نبيّاً بدليل حديث الله تعالى معه وإجابته إلى ما طلب.

* * *

---

١. **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٤١.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

خلاصة التفسير

تُخبرنا الآية الشريفة في أعلى الصفحة أنّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام سأل الله عزّ وجلّ أن يُريَه كيفية حدوث الحَشر الأكبر وكيفية إحياء الموتى، فسأله الله تعالى عن السبب وراء طلبه هذا، لأنّ الإنسان الموحّد المؤمن بأنّ الله سبحانه هو خالق هذا العالَم لا يمكنه أن يشكّ في أمر المعاد ويوم القيامة ولا تنتابه شبهة حول تفاصيل ذلك أبداً حتى يدفعه ذلك إلى طرح مثل هذا السؤال.

فأجاب سيّدنا إبراهيم عليه السلام أنّه باقٍ على إيمانه السابق بالمبدأ والمعاد (أي إنّه ما زال مؤمناً بعلم اليقين وعين اليقين بواسطة العلم الحصوليّ وبالمرتبة الدنيا من العلم الحضوريّ والشهوديّ) وأنّه يَتُوق بسؤاله ذاك إلى الوصول إلى حقّ اليقين الذي يُعدّ مرتبة أعلى من مراتب العلم الحضوريّ لكي يتمكّن عندها من القول بأنّ معرفته بقدرة الله سبحانه على إحياء الموتى لم تَعُد تقتصر على إدراكه لتلك

القدرة وفهمه لها بالعلم الحصوليّ فقط بل شاهد تلك القدرة بعينيه وهي تُحيي وتُميت، بالإضافة إلى رغبته واشتياقه إلى أن يكون مظهراً للمُحيي والمُميت وبلوغ مرحلة أعلى من الاطمئنان القلبيّ.

وبالفعل، فقد استجاب الله لمسألة نبيّه عليه السلام وأراه قُدرته اللامتناهية، فأمره أن يأتي بأربعة من الطيور فيقطع رؤوسهنّ ويهرس[1] لحومهنّ ويمزج كلّ ذلك معاً بحيث يَصعب التعرّف على أيّ طيرٍ منهنّ، ثمّ أمره بتقسيم الخليط إلى أربعة أقسام ويضع كلّ قسم منه على قمّة جَبل من الجبال المحيطة به، ثمّ طلب منه أن يدعوهنّ إليه.

ففعل خليل الله عليه السلام كلّ ما أمره به ربّه فشاهد بعينيه عمليّة إحياء تلك الطيور ثانية وإعادتها إلى أشكالها السابقة فأصبح مظهر إرادة الحقّ في الإحياء والإماتة وبلغ بذلك مرحلة حقّ اليقين؛ أي إنّ الله سبحانه أحيا له تلك الطيور ووصل سيّدنا إبراهيم عليه السلام إلى أفضل مقام من مقامات طمأنينة القلب بعد أن رأى حكمة الله وعزّته وهو ما ذكّره الله سبحانه به في آخر الآية قائلاً: ﴿**وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾.

التفسير

المُفردات

لِيَطْمَئِنَّ: الطمأنينة والاطمئنان السّكون بعد الانزعاج، وهو سكون بعد اضطراب، أي رفع الاضطراب واستقرار حالة السكون، ماديّاً أو معنوياً[2].

---

١ . «هَرَسَ هَرْساً الشيءَ: دَقّه دَقّاً عنيفاً، وهَرَس الطعامَ: أكَلَه أكلاً شديداً، والهَريس: المَدقوق عنيفاً». (**المنجد في اللغة**، مادّة «هرس» ـ بتصرّف). [المترجم]

٢ . الراغب الأصفهانيّ، **مفردات غريب القرآن**، ص٥٢٤، مادّة (طمن)؛ العلّامة المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٧، ص١٢٣، مادّة (ط م ن).

فالاطمينان في القلب إنّما يتحصّل بنور اليقين والشّهود بحيث يرتفع الاضطراب والتزلزل والتردّد[1].

فَصُرْهُنَّ: «صُرْ» هو فعل الأمر من «يَصُوْرُ» من الجذر (صَوْر) ـ كقُل من القَوْل ـ بمعنى أمالَهُ إلى نَفسه وآنسهُ إليه. ﴿**فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ**﴾، أي أمِلهنّ إليك واضممهنّ واجمعهنّ إليك حتى إذا أحييناها لك عُدنَ إليك إذا طلبتهنّ ودَعَوتهنّ[2].

وقال الرّاغب الأصفهانيّ: «قوله تعالى ﴿**فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ**﴾ أي أمِلهنّ إليك، وقيلَ قطّعهنّ صورة صورة[3]»؛ أمّا صاحب تفسير (المنار) فقال: «وَمَعْنَاهُ: أَمِلْهُنَّ وَضُمَّهُنَّ إِلَيْكَ، وَقِيلَ مَعْنَى قِرَاءَةِ ـ الْكَسْرِ ـ فَقَطِّعْهُنَّ، وَلَكِنَّهُ إِذَا كَانَ بِهَذَا الْمَعْنَى لَا يَتَعَدَّى بِـ(إِلَى) كَمَا تَقَدَّمَ»[4]؛ لكن كما قال الأستاذ العلّامة الطباطبائيّ رحمه الله[5] وآخرون فإنّ وجه التعدية لصُرهُنّ بحرف الجرّ (إلى) هو من باب تضمين معنى (الإمالة)[6].

وتجدر الإشارة إلى أنّ كلمة (صُرْهُنّ) لم تُذكَر في القرآن الكريم سوى مرّة واحدة (في الآية الّتي هي موضوع البحث)، ولا ريب في أنّ مثل هذه الكلمات لا تخلو من بعض الصعوبات في تفسيرها فهي ليست لا في مقام الشاهد ولا في

---

١ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٧، ص١٢٤، مادّة (ط م ن).

٢ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٦، ص٣٤٧، مادّة (ص و ر)؛ **إعراب القرآن**، ج١، ص٤٠١.

٣ . **مفردات غريب القرآن**، ص٤٩٨، مادّة (ص و ر).

٤ . **تفسير المنار**، ج٣، ص٥٥ ـ ٥٨.

٥ . **تفسير الميزان**، ج٢، ص٣٧٤.

٦ . «التضمين» أو «الإشراب»: قَد يُشْرِبون لَفظاً مَعْنَى لَفْظٍ فيعطونه حُكْمَه ويُسمَّى ذلك تَضْمِيناً وفَائِدتُه أنْ تُؤدِّي كَلِمَةٌ مُؤَدَّى كَلِمَتَين، قال تعالى: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ**﴾ (**سورة النساء/ ٢**) أي ولا تَضمُّوها إليها آكِلِين، والذي أَفادَ التَّضْمِين هو (إلى). ومثلُه: ﴿**الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ**﴾ (**سورة البقرة/ ١٨٧**). أصلُ الرَّفَثِ أن يَتَعَدَّى بالباء فلمّا ضُمِّنَ معنى الإِفْضاء عُدِّيَ بـ(إلى) مثل: ﴿**وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ**﴾ (**سورة النساء/ ٢١**).



مقام المشهود ما يضطرّنا إلى اعتماد أسلوب الأسبقية والسياق كمعيارين وشاهدين لتفسير هذه الكلمات. ويُستفاد من مجموع الشواهد الداخلية (الأسبقية) وشواهد السّياق أنّ فعل الأمر (صُرْ) له مَعنيان: أحدهما المَيل والضمّ والآخر القَطع، فإذا افترضنا المعنى الأوّل (وهو المَيل والضمّ) فإنّ الأمر بالقطع محذوف في الآية الشريفة مثل قوله تعالى: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾[1] ـ أي ضرَبَه فانفلَق ـ حيث تمّ حذف جملة ضَرَبَ (الفعل والفاعل) في هذه الآية وفقاً للقرينة؛ وإذا افترضنا معنى (صُرْ) هو (القطع) فإنّ حرف الجرّ والضمير ﴿إِلَيْكَ﴾ مع التضمين والإمالة (المَيْل) يعودان إلى الفعل (صُر) الذي يعني القَطع، ومن دون التضمين فإنّهما سيعودان إلى الفعل (خُذْ)[2].

تناسب الآيات

تشير هذه الآية الشريفة ـ كسابقتها ـ إلى بيان مسألة أخرى من المسائل المتعلّقة بولاية الله سبحانه على المؤمنين.

* * *

١ . سورة الشّعراء، الآية ٦٣.

٢ . «فمَن جعل ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بمعنى أمِلْهُنّ إليكَ حُذف من الكلام والمعنى أمِلهن إليك فقطّعهنّ ثمّ اجعل على كلّ جَبل منهنّ جزءاً، فحَذف الجملة لدلالة الكلام عليها كما حُذف من قوله ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ أي فضرب فانفلق؛ ومَن قدّر ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ على معنى فقطّعهنّ لم يَحتج إلى إضمار ويحتمل كلا الوجهين كلّ واحد من القراءتين على ما ذكرناه وقوله ﴿إِلَيْكَ﴾ إن جعلت صُرهنّ بمعنى فقطّعهنّ كان ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلقاً بخُذْ، أي خُذْ إليكَ أربعة من الطير فقطعهنّ ثمّ اجعل، وإن جعلته بمعنى أمِلْهُنّ احتمل ﴿إِلَيْكَ﴾ أن يكون متعلقاً بخُذْ وأن يكون متعلقاً بصُرهنّ، وقياس قول سيبويه أن يكون متعلقاً بقوله ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ لأنّه أقرب إليه. ومَن قرأ فصِرهنّ (بكسر الصاد وتشديد الرّاء) فإنّه يكون من (صره يصره) أي قطّعَهُ والمتعدي من هذا الباب قليل». (الطبرسيّ، تفسير مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٦٤٢).



الفرق بين هذه الآية والآية السابقة

يختلف المطلب الذي طلبه سيّدنا إبراهيم عليه السلام عن موت النبيّ المذكور في الآية الشريفة السابقة مدّة مائة عام وذلك في وجوه عديدة، منها:

١. ذكرت الآية الّتي هي موضوع البحث اسم سيّدنا إبراهيم عليه السلام صراحة لكنّ الآية السابقة لم تُشِر إلى اسم الشخصيّة التي أماتها الله مائة عام، فمنهم مَن قال إنّه (عُزَير) ومنهم مَن قال إنّه (إرميا) وقال غيرهم إنّه (الخِضر «سلام الله عليهم أجمعين»)[١]، وقد يكون ذلك بسبب اختلاف السؤالَيْن حيث ابتدأ السؤال الأوّل في الآية السابقة بحرف الاستفهام ﴿أَنَّى﴾ الذي يشير بشكل أو بآخر إلى حالة التعجّب أو الاستغراب في حين كان السؤال الثاني في الآية الّتي هي موضوع البحث أقلّ استغراباً حيث بدأ بحرف الاستفهام ﴿كَيْفَ﴾ والذي

---

١ . «عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فِي خَبَرٍ طَوِيلٍ يَذْكُرُ فِيهِ قِصَّةَ بُخْتَ نَصَّرَ أَنَّهُ لَمَّا قُتِلَ مَا قُتِلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَرَجَ إِرْمِيَا عَلَى حِمَارٍ وَمَعَهُ تِينٌ قَدْ تَزَوَّدَهُ وَشَيْءٌ مِنْ عَصِيرٍ، فَنَظَرَ إِلَى سِبَاعِ الْبَرِّ وَسِبَاعِ الْبَحْرِ وَسِبَاعِ الْجَوِّ تَأْكُلُ تِلْكَ الْجِيَفَ فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: أَنَّى يُحْيِي اللهُ هَؤُلَاءِ وَقَدْ أَكَلَتْهُمُ السِّبَاعُ؟ فَأَمَاتَهُ اللهُ مَكَانَهُ، وَهُوَ قَوْلُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أَيْ أَحْيَاهُ. فَلَمَّا رَحِمَ اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَهْلَكَ بُخْتَ نَصَّرَ رَدَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الدُّنْيَا؛ وَكَانَ عُزَيْرٌ لَمَّا سَلَّطَ اللهُ بُخْتَ نَصَّرَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ هَرَبَ وَدَخَلَ فِي عَيْنٍ وَغَابَ فِيهَا وَبَقِيَ إِرْمِيَا مَيِّتاً مِائَةَ سَنَةٍ ثُمَّ أَحْيَاهُ اللهُ فَأَوَّلُ مَا أَحْيَا مِنْهُ عَيْنَيْهِ فِي مِثْلِ غِرْقِئِ الْبَيْضِ، فَنَظَرَ فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الشَّمْسِ قَدِ ارْتَفَعَتْ فَقَالَ: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أَيْ لَمْ يَتَغَيَّرْ ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى الْعِظَامِ الْبَالِيَةِ الْمُنْفَطِرَةِ تَجْتَمِعُ إِلَيْهِ وَإِلَى اللَّحْمِ الَّذِي قَدْ أَكَلَتْهُ السِّبَاعُ يَتَأَلَّفُ إِلَى الْعِظَامِ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا وَيَلْتَزِقُ بِهَا حَتَّى قَامَ وَقَامَ حِمَارُهُ، فَقَالَ: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾». (بحار الأنوار، ج٧، ص٣٤).



يشير إلى الكيفية ولا يدلّ لا مِن قريب ولا من بعيد على تعجّب السائل أو استغرابه. من الواضح أنّ (التعجّب) هو غير (الاستبعاد) فلم يَرد في الآيتيْن الشريفتيْن إطلاقاً ما يشير إلى حالة الاستبعاد أو الاستنكار أو الشكّ أو الشبهة في مسألة المعاد كإسم الاستفهام ﴿أنّى﴾ الوارد في قصّة سيّدنا زكريا عليه السلام والسيّدة مريم عليها السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾[1].

٢. لم يطلب السائل في الآية السابقة أيّ مطلب من الله سبحانه بل اقتصر الأمر على تعجّبه، لكنّ الآية التالية تضمّنت طلباً قدّمه سيّدنا إبراهيم عليه السلام يسأل الله تعالى فيه أن يُريَه عياناً كيفية إحيائه للموتى.

٣. ورد في آداب الأدعية أنّه إذا أراد الدّاعي أن يدعو ربّه ناداه بكلمة «يا رَبِّ» كدليل على عبوديّة السائل وربوبيّة الله عزّ وجلّ، ولكن بعد أن يستأنس السائل مع ربّه ويُكثر من الدّعاء وتبلغ الأُلفة بينه وبين ربّه مبلغاً كبيراً يجتاز مرحلة النّداء ليصل إلى مرحلة النّجوى فيستغني حينها عن ذكر حرف النّداء «يا» وهو للبعيد ويبدأ مناجاته بعبارة: «رَبّ رَبّ رَبّ» ما يشير إلى وصوله، بل ودخوله ساحة قُرب الحقّ تعالى[2].

وقد بدأ سيّدنا إبراهيم عليه السلام طَلبه كذلك بكلمة ﴿رَبِّ﴾ ما يدلّ على وصوله مرحلة القُرب والنّجوى من الله سبحانه، لكن يبدو أنّ الشخص المذكور

---

١ . سورة آل عمران، الآية ٣٧.

٢ . قال المفضل بن عمر: «رأيتُ الصادق عليه السلام صلّى صلاة جعفر [الطيّار] بن أبي طالب عليه السلام ورفع يديه ودعا بهذا الدعاء: يا رَبّ يا رَبّ، حتى انقطع النفس، [و] يا ربّاه يا ربّاه، حتى انقطع النفس، [و] رَبّ رَبّ، حتى انقطع النفس، [و] يا الله يا الله، حتى انقطع النفس، [و] يا حَيّ يا حَيّ، حتى انقطع النفس، [و] يا رَحيم يا رَحيم، حتى انقطع النفس، [و] يا رَحمان يا رَحمان، حتى انقطع النفس، [و] يا أرحم الرّاحمين، سبع مرات، ثمّ قال: أللهمّ إنّي أفتَتِحُ القَوْلَ بحَمدِكَ...». (العامليّ الكفعميّ، **البلد الأمين**، ص١٥٠؛ **بحار الأنوار**، ج٤٧، ص١٤٢).



في الآية السابقة لم يكن قد وصل بَعد إلى هذه المرتبة من الدّعاء والسؤال، ولهذا لم يبدأ سؤالاً بكلمة ﴿رَبِّ﴾.

غاية سيّدنا إبراهيم عليه السلام من طَلْبَته[1]

إنّ العلوم التي يتلقّاها الأنبياء عليهم السلام عن طريق الوحي هي علوم منزّهة عن التقليد كما هو معلوم فضلاً عن أنّها مُستغنية عن أيّ استدلال حصوليّ ولا تكون إلّا مع الشهود، فهم قبل كلّ شيء مطّلعون على المعارف الإلهية، وثانياً فإنّ اطّلاعهم عن الغيب لا يُعتبر تقليداً أبداً، وثالثاً فإنّ تلك المعارف الحاصلة لهم لا تعود إلى البحث الحصوليّ أو التعليل الذهنيّ الخالص، ورابعاً فإنّ تلك العلوم والمعارف كلّها حضورية وشهودية وهم مكلّفون ببيان تلك المُدرَكات إلى أُممهم وتوضيحها لهم وغالباً ما تكون استفادة المُستفيضين استفادة تقليدية بينما يبلغ ذلك عند الخواصّ من الناس مرتبة البرهان والتحقيق، وقد تكون شهوديّة لأشخاص مُعيّنين منهم أو بمنزلة الشهود، نظير ما حدث مثلاً لحارثة بن مالك[2].

---

١ . الطَّلْبَة: الدّعاء المخصوص. (المنجد في اللغة). [المترجم]

٢ . «عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: اسْتَقْبَلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله حَارِثَةَ بْنَ مَالِكِ بْنِ النُّعْمَانِ الْأَنْصَارِيَّ فَقَالَ: لَهُ كَيْفَ أَنْتَ يَا حَارِثَةَ بْنَ مَالِكٍ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله مُؤْمِنٌ حَقّاً! فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ فَمَا حَقِيقَةُ قَوْلِكَ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا فَأَسْهَرَتْ لَيْلِي وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرِي وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي [وَ] قَدْ وُضِعَ لِلْحِسَابِ وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِي الْجَنَّةِ وَكَأَنِّي أَسْمَعُ عُوَاءَ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ أَبْصَرْتَ فَاثْبُتْ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! ادْعُ اللهَ لِي أَنْ يَرْزُقَنِي الشَّهَادَةَ مَعَكَ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْ حَارِثَةَ الشَّهَادَةَ. فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا أَيَّاماً حَتَّى بَعَثَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله سَرِيَّةً فَبَعَثَهُ فِيهَا فَقَاتَلَ فَقَتَلَ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً ثُمَّ قُتِلَ». (أصول الكافي، ج٢، ص٥٤). [المترجم]

لقد كان جوهر السؤال الذي طرحه سيّدنا إبراهيم عليه السلام في كيفية إفاضة الحياة لا في كيفية استفاضتها، أي إنّ محور سؤاله كان يدور حول كيفية أو طريقة الإحياء وليس حالة الإحياء نفسها؛ إذاً فمحور السؤال هو توضيح الصبغة الفاعليّة لا القابليّة.

إنّ سؤال سيّدنا إبراهيم عليه السلام عندما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ لم يكن حول مبدأ إحياء الموتى لأنّ مسألة الإحياء والإماتة كانتا واضحتين بالنسبة إليه بشكل كامل وقد استدلّ بذلك خلال محاوراته العديدة مع الآخرين مراراً وتكراراً، بل كان محور سؤاله يدور حول رغبته في رؤية عمليّة الإحياء، وكأنّه يقول: ربّ أرني كيفية إحيائك للموتى بحيث أُدرك هذه العملية وأصبحُ مظهر المُحيي. فقد كان سؤال خليل الله عليه السلام استعطائيّاً لا استفهاميّاً؛ أي إنّ الغرض من سؤاله لم يكن مجرّد فهم حصوليٍّ أو شهوديٍّ حضوريٍّ صرفٍ، بل كان يهدف من وراء سؤاله الوصول إلى مقام إحياء الموتى لا أن يكون عالماً بذلك بشكل حضوريّ؛ وعليه، فإنّ طَلَبه كان القدرة على إحياء الموتى وليس معرفة حالتهم وإن كان ذلك سيكون بشكل شهوديّ.

ولا شكّ في أنّ محور سؤال إبراهيم عليه السلام لم يكن: «عَلّمني وأخبرني» بل كان مراده الوصول إلى مقام إحياء الموتى، وهكذا فإنّ الأمر لم يكن يتعلّق ببحث شبهة الآكِل والمأكول أو إعادة المعدوم لأنّ أيّاً منهما لا يُعتبر شبهة علمية عميقة حتى لدى أهل النّظر فما بالك بوليّ من أولياء الله كسيّدنا إبراهيم عليه السلام؟ والدّليل على ما قلناه هو السؤالُ الآخر وجوابهُ المذكوران في ذيل الآية الشريفة نفسها عندما سأله الله سبحانه قائلاً: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ ـ أي، لقد كنتَ تؤمن بذلك من قَبل يا إبراهيم فما بالك تسأل؟ ألستَ القائل: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]. ومن الواضح أنّ ورود النّفي

---

١ . سورة الأنعام، الآية ٧٩.



على النّفي ودخول الاستفهام الإنكاريّ (أَ) يُفيد الإثبات مع حرف الجزم (لَمْ) بالعرض، فيكون المعنى في الحقيقة هكذا: «إنّكَ آمنتَ فلِمَ تسأل؟»[١]، فبادر سيّدنا إبراهيم عليه السلام قائلاً على الفور: ﴿بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي، نعم، أعرف ذلك ولكنّني أرغب في حصولي على الاطمئنان والوصول إلى مرتبة حقّ اليقين؛ تماماً كالطالب الذي يدرس مهنة الطبّ والجراحة الذي ينبغي عليه اجتياز ثلاث مراحل حتى يتمكّن من الحصول على الشهادة النهائية:

١ . مرحلة يتعلّم فيها أنّه بالإمكان زرع قلب سليم للمريض الذي يعاني قلبه مع العجز، وهذه هي مرحلة علم اليقين التي يمكنه الوصول إليها بمساعدة أستاذه الحاذق في علم الطبّ.

٢ . مرحلة يقوم فيها أستاذه بإجراء عملية جراحية له (أي للطالب) أو لأحد أقربائه الذين يُعانون من مشكلة في القلب ويكون الطالب شاهد عيان على إجراء العملية وتفاصيلها، حيث تسمّى هذه المرحلة بعين اليقين وفيها يدرك الطالب إدراكاً كاملاً كيفية زرع قلب سليم مكان قلب مريض.

٣. مرحلة ثالثة يقوم فيها الطالب شخصيّاً بإجراء العَمَليّة الجراحية الخاصة بزرع القلب لكن بإشراف أستاذه الحاذق، وهذه هي مرحلة حقّ اليقين التي تمثّل أعلى مراتب الإدراك والشهود الباطنيّ.

وكذلك هي عملية إحياء الموتى، فهي تمرّ بثلاث مراحل أيضاً:

١ . يُدرك الشخص أحياناً وفقاً للبراهين العقلية أنّ الحياة والممات أمران ممكنان ويمكن حدوثهما، وأنّ كلّ ممكن ينبغي أن يستند إلى الواجب ولا قِوام

---

١ . قال صاحب تفسير (**مجمع البيان**): «هذه الألف استفهام ويُراد به التقرير... وهذه الألف إذا دخلت على الإثبات فالمراد النفي كقوله ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ أي لم تَقُل، [وقوله:] ﴿بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي بَلى أنا مُؤمن ولكن سألتُ ذاك لأزداد يَقيناً إلى يقيني». (**تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٤٤). [المترجم]

لذلك الممكن إلّا بهذا الواجب، إذاً فإنّ الله تعالى هو المُحيي وهو المُميت عقلاً ونقلاً.

٢. وأحياناً أخرى يموت فيها ذلك الشخص ثمّ يُبعث إلى الحياة ثانية وهو ما حدث في قصّة عُزَيْر عليه السلام الذي أُميتَ ثمّ تمّ إحياؤه بعد مائة سنة فأدرك عملية الإحياء والإماتة التي قام بها الله سبحانه معه هو شخصيّاً.

٣. وفي بعض الأحيان يكون الشخص مظهراً من مظاهر الحقّ ومرآة جامعة لله عزّ وجلّ فيكون بمقدور هذا الشخص إحياء الموتى بإذن الله سبحانه وقصّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام تندرج تحت هذا العنوان حيث أراد الانطلاق إلى مرحلة حقّ اليقين بعد أن اجتاز مرحلتَيْ علم اليقين وعين اليقين[1] فوصل إلى غايته المنشودة بفضل الله تعالى.

وقال بعض أهل المعرفة: ينبغي تنزيه الأنبياء عليهم السلام من البهتان الذي نسبه إليهم اليهود ودنّسوا به ساحتهم المقدّسة وصدّقهم في ذلك جماعة من المُفسّرين كذلك وراحوا ينسبون إلى أنبياء الله تعالى الأكاذيب والافتراءات ومنهم سيّدنا إبراهيم عليه السلام الذي لم يشكّ لحظة واحدة في قدرة الله سبحانه على إحياء الموتى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**نَحْنُ أَوْلَى بِالشَّك مِن إبْراهيم**»[2]. فخليل الرّحمن عليه السلام لم يرتَب رمشة عين في قدرة الله على الإحياء وكلّ ما في الأمر أنّ عملية إحياء الموتى تتضمّن تفاصيل كثيرة قد لا يعلم بها جُلّ الأنبياء، ولذلك كان سؤاله عليه السلام عن كيفية ذلك ـ مع عِلمه كما قلنا بقدرة الله عزّ وجلّ على

١ . ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾. (سورة الأنعام، الآية ٧٥).

٢ . راجع: العلّامة الحليّ، نهج الحق، ص١٥٣. (وتجدر الإشارة إلى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال ذلك على لسان عامّة الناس).



فعل أيّ شيء[١]. وأمّا التفاصيل المتعلّقة بالإحياء فتارة تكون بسبب أصل الخلقة

---

١. قال العلّامة الحليّ في كتابه (نهج الحقّ وكشف الصّدق، ص١٥٣ فما بعد): «[جاء في] (**صحيح البخاري**، ج٨، ص٣٧، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس، و**صحيح مسلم**، ج٢، ص١٢٠، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة، وفي **مصابيح البغوي**، ج٢، ص٢٧، في باب عشرة النساء، من كتاب النكاح) عن عائشة: قالت: قَدِمَ رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو حنين وفي بهوتها ستر، فهبّت ريح فكشفت ناحية السّتر عن بناتٍ لعائشة تلعب بها. فقال ﷺ: ما هذه يا عائشة؟ قالت: بناتي. ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع، فقال: وما هذا الذي وسطهن؟ قالت: فرس. قال: وما هذا الذي عليه؟ قالت جناحان. قال: الفرس يكون له جناحان؟ قالت: أما سمعتَ أنّ لسليمان خيلاً لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه. (و«البنات» كما في أقرب الموارد والقاموس: التماثيل الصغار). وحديث الحميدي أيضاً (**صحيح مسلم**، ج٢، ص١٢٠، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة، والجمع بين الصحيحين): كنتُ ألعب بالبنات في بيته وهنّ اللعب). مع أنّهم رووا في صحاح الأحاديث: أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صور مجسمة، أو تماثيل (**صحيح البخاري**، ج٧، ص٢١٦، باب من كره القعود على الصورة وباب لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة، وص٢١٧ باب من لم يدخل بيتاً فيه صورة، و**الجامع الصحيح للترمذي**، ج٤، ص٢٠٠، باب ما جاء أنّ الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة أو كلب، و**صحيح مسلم**، ج٢، ص٣٢٩، باب لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة)، وتواتر النقل عنه بإنكار عمل الصور والتماثيل (**صحيح مسلم**، ج٢، ص٣٣١ و٣٣٢ و٣٣٣ و٣٣٤، و**صحيح البخاري**، ج٧، ص٢١٥، باب عذاب المصوّرين يوم القيامة وباب نقض الصّور وباب ما وُطي من التصاوير، ص٢١٦، باب من كره القعود على الصورة، وباب كراهية الصلاة في التصاوير، ص٢١٧، باب من لم يدخل بيتاً فيه صورة، وباب من لَعنَ المصوّرين، وباب من صَوّرَ صورة)، فكيف يجوز لهم نسبة هذا إلى النبي ﷺ وإلى زوجته من عمل الصّور في بيته الذي أُسّسَ للعبادة (قال الله تعالى: **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾** [النور: ٣٦ ـ ٣٧]. قال السيوطي (في **الدر المنثور**، ج٥، ص٥٠، وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك وبريدة)، قال: قرأ رسول الله هذه الآية فقام إليه رجل فقال: أيّ بيوت هذه يا رسول الله؟ قال: بيوت الأنبياء. [الحديث]؛ وهو محلّ هبوط الملائكة والروح الأمين في كل وقت؟ ولّما رأى النبي ﷺ الصور في الكعبة لم يدخلها حتى مُحيَت (**السيرة الحلبية**، ج٣، ص٨٦ و ٨٧، في

←



هامشها سيرة زيني دحلان، ج٢، ص٢٨٦). مع أنّ الكعبة بيت الله تعالى، فإذا امتنع من دخوله مع شرفه وعلوّ مرتبته، فكيف يَتّخذ في بيته، وهو أدون من الكعبة، صوراً ويجعله محلًّا له؟ وروى الحميدي في الجمع بين الصحيحين: قالت عائشة: رأيتُ النبيّ ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد، فزجرهم عمر؛ (رواه ابن الأثير، في **جامع الأصول**، ج١١، ص٣٢٢، عن البخاري ومسلم والنسائي والغزالي في **إحياء العلوم**، ج٢، ص٢٧٧، وفي ذيله الزين العراقي في كتابه: المغني في تخريج ما في الأحياء من الأخبار، وقال: فرواه مسلم من حديث أبي هريرة). وروى الحميدي، عن عائشة قالت: دخل عَليَّ رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تُغنّيان بغناءِ بعاث، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه. ودخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ. فأقبل عليه رسول الله ﷺ، وقال: دَعهما. فلما غفل غمزتهما فخرجنا؛ (رواه **مسلم في الصحيح**، ج١، ص٣٤٥، كتاب صلاة العيدين، باب الرّخصة في اللعب الذي لا معصية فيه، و**البخاري في الصحيح**، ج٢، ص١٩، كتاب العيدين، باب اللعب في العيدين والتجمل فيه). وكيف يجوز للنبي ﷺ الصّبر على هذا مع أنّه نَصّ على تحريم اللعب واللهو، والقرآن مملوء به؟ وبالخصوص مع زوجته، وهلّا دخلته الحميّة والغيرة مع أنّه ﷺ أغير الناس؟ وكيف أنكر أبو بكر وعمر ومنعهما؟ فهل كانا أفضل منه؟ وقد رووا عنه ﷺ: أنّه لمّا قَدِمَ المدينة من سفر خرجت إليه نساء المدينة يلعبن بالدفّ فرحاً بقدومه وهو يرقص بأكمامه (وقريب منه ما رواه عن بريد: خرج رسول الله ﷺ في بعض مغازيه، فلما انصرف جاءت جارية سوداء، فقالت: يا رسول الله، إني نذرتُ إن ردّك الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدفّ وأتغنى؟ فقال رسول الله ﷺ: إن كنتِ نذرتِ فاضربي، وإلّا فلا. فجعلت تضرب فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثمّ دخل علي عليه السلام وهي تضرب، ثمّ دخل عثمان وهي تضرب، ثمّ دخل عمر فألقت الدفّ تحت إستها ثمّ قعدت عليها. فقال رسول الله ﷺ: إنّ الشيطان لَيَخاف منكَ يا عمر؛ إني كنتُ جالساً وهي تضرب، فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثمّ دخل علي عليه السلام وهي تضرب، ثمّ دخل عثمان وهي تضرب، ثمّ دخلتَ أنتَ يا عمر، فألقت الدفّ. (رواه الترمذي في الجامع، ج٥، ص٣٨٤، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث بريد). وفي هذا الباب عن عمر وعائشة (في **أسد الغابة**، ج٤، ص٦٤، و**مسند أحمد**، ج٥، ص٣٥٣، عن جابر) قال: دخل أبو بكر على رسول الله ﷺ وكان يُضْرَب بالدفّ عنده فقعد ولم يزجر لِما رأى من رسول الله ﷺ. فجاء عمر، فلمّا سمع رسول الله صوته كفّ عن ذلك، فلما خرج قالت عائشة: يا رسول الله كان حلالاً فلمّا دخل عمر صار حراماً؟ فقال ﷺ:



التي تحدث أحياناً بكلمة «كُن» وأحياناً باليَد وأخرى باليَدَيْن وأحياناً أخرى تحصل عملية الخلقة بدون سَبْق بينها قد تحدث كذلك بوجود مسبوق للشيء المخلوق.

يا عائشة ليس كلّ الناس مرخى عليه (**الغدير**، ج٨، ص٦٤، ونوادر **الأصول للترمذي**، ج٢، ص١٣٨). وروى ابن الأثير (في **جامع الأصول**، ج١١، ص٣٢٢، طبعة مصر عن أنس بن مالك) قال: لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة لعبت الحبشة لقدومه فرحاً بذلك، لعبوا بحرابهم. [إنتهى]. أقول: إذا أردنا أن نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، فلا بدّ وأن نعرف سرّ اختلاف هذه الأحاديث والداعي إلى افتعالها؟ فهل الدافع لقولهم: (يجوز أن يبعث اللهُ الكافرَ نبياً) هو كون عدّة من الخلفاء كانوا قبل الإسلام من عَبدة الأصنام على ما تواتر في التاريخ وأشرنا إليه في الحديث السابق: (لو كان بَعدي نبيّ لكان عمر بن الخطاب) أو غير ذلك؟ وهل سرّ ذلك والدافع إليه وإلى نسبة السّهو وعدم العصمة إلى الأنبياء عليهم السلام هو كون الخلفاء غير مأمونين من الخطأ والسهو وعدم علمهم بالمعارف الدينية والأحكام الشرعية، كما صُرّح في الكتب المعتبرة، مع أنّه أساس الخلافة عندهم، أو غير ذلك؟ وهل سرّ جَعْل أحاديث اللّعب بالبنات، وشهوده ﷺ المعازف والراقصات والاستماع لأهازيجهن هو إثبات فضيلة للخليفة الأول والثاني كما يظهر من عدّة منها؟ أو هو إظهار منزلة حليلته عائشة عنده، كما يظهر من أخرى؟ ثمّ لا يقنعه ذلك كلّه حتى يُطلع زوجته عليها في ملأ من الناس وهو يقول لها: أما شبعتِ؟ أما شبعتِ؟ وهي تقول: لا؛ لأنظر منزلتي عنده. (راجع **سنن الترمذي**، ج٥، ص٢٨٤، و**التاج الجامع للأصول**، ج٣، ص٣١٤، و**مصابيح السنة**، ج٢، ص١٩٦). مع أنّ الغناء والملاهي من عمل الشيطان وممّا حُرِّم في الشريعة المقدسة بنصّ الكتاب والسنة، أفمِن العقل أن تُعزى إليه ﷺ تلك المسامحة المسقطة له عن محلّه إلى هوة الجهل؟ وينتهرها الخليفة الأول ويدحضها الثاني فحسب دون رسول الله ﷺ؟ وما هذا الشيطان الذي لا يخاف من الرّسول ويَفرق من عمر؟ وأيّ نبيّ هذا الذي يَسمع الملاهي وترقص بين يديه الراقصة الأجنبية وتضرب بالدفّ وتُغني، أو ينظر هو وزوجته إلى تلك المواقف المُخزية ثم يقول: لستُ مِن دَد، ولا الدّد منّي. أو يقول: لستُ مِن دَد، ولا دَد منّي. أو يقول: لستُ من الباطل، ولا الباطلُ مني؟ (أخرجه البخاري في الأدب، وابن عساكر، راجع **كنز العمال**، ج٧، ص٣٢٣، و**فيض القدير**، ج٥، ص٢٦٥، كما في **الغدير**، ج٨، ص٧٤)». [المترجم]



ولقد أمرَ الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ أن يتزوّد بالعلم وخاطبه قائلاً: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[١]، ولم يكن سؤال سيّدنا إبراهيم عليه السلام بطمأنة قلبه إلّا من قبيل استزادة العلم من الله سبحانه وهو طَلَبٌ منطقيّ ومعقول[٢].

تذكير: ١. تحصل الطمأنينة للشخص بعد علم اليقين بواسطة عين اليقين، وأمّا الطمأنينة التي تكون قبل علم اليقين فهي موضوع البحث في علم الأخلاق والفقه والحقوق المتمثّلة بالظنّ القريب من العلم.

٢. تُحذَف خصوصيّات السؤال وتفاصيله في بعض الأحيان ويُترَك للعنصر المحوريّ للجواب توضيح تلك التفاصيل والخصوصيّات وشرحها على أكمل وَجه، ولم يتميّز السؤال الذي طرحه سيّدنا إبراهيم عليه السلام بطَلَب العلم بمبدأ المعاد أو إحياء الموتى أو ما شابه ذلك لأنّه عليه السلام كان قد ناقش هذه المسائل وتطرّق إليها من قَبل خلال مجادلة نمرود له، كما أنّ طَلَبه لم يتضمّن العلم بكيفية قيام الله سبحانه بذلك وإلّا لَما كان لقصّته أيّ اختلاف مقارنة بقصّة سيّدنا (عُزَيْر)، بل تميّز سؤال خليل الله عليه السلام بطَلَبه العلم بكيفية إحياء الموتى على يَده هو شخصيّاً باعتباره كان خليفة الله آنذاك، ورغم هذا فإنّ سؤاله لم يتضمّن الإشارة إلى تلك الميزة بصراحة لكنّ ذلك ورد في جواب الله سبحانه بكلّ شفافيّة ودقّة، وعليه فإنّ محور سؤال سيّدنا إبراهيم عليه السلام والجواب الذي حصل عليه حول كيفية إحياء الموتى يختلفان بشكل كامل عن القصّة التي سبق وإن ذكرها القرآن الكريم عن عُزَيْر النبيّ عليه السلام.

---

١ . سورة طه ﷺ، الآية ١١٤.

٢ . قال ابن عربي في تفسيره (رحمة من الرّحمن، ج١، ص٣٨٨): «فإنّ إبراهيم عليه السلام ما شكّ في إحياء الموتى، ولكن لما علم أنّ لإحياء الموتى وجوهاً متعدّدة مختلفة، لم يَدر بأيّ وجه منها يكون يحيي الله به الموتى. وهو مجبول على طلب العلم فكان طلب رؤية الإحياء مع ثبوت الإيمان ليجمع بين العلم والعيان فعيّن الله له وجهاً من تلك الوجوه حتى سكن إليه قلبه فعلم كيف يُحيي الله الموتى». [المترجم]



الغاية من سؤال سيّدنا إبراهيم عليه السلام

ذكر المُفسّرون احتمالات عديدة بشأن الغاية من السؤال الذي طرحه سيّدنا إبراهيم عليه السلام، منها:

١) ما ذكره أبو الحسن علي بن إبراهيم القمّي في تفسيره قائلاً: « وأمّا قوله [تعالى]: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى...﴾ فإنّه حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي أيوب عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ إبراهيم عليه السلام نظرَ إلى جيفة على ساحل البحر تأكله سِباع البَرّ وسِباع البَحر ثمّ تحمل السّباع بعضها على بعض فيأكل بعضها بعضاً، فتعجّب إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ فأخذَ إبراهيم عليه السلام الطاووس والدّيك والحَمام والغُراب، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾، أي قطّعهنّ ثمّ اخلط لَحمَهنّ وفرقهنّ على عشرة جبال، ثمّ خُذ مناقيرهنّ و﴿ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾. ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وفرقهنّ على عشرة جبال ثمّ دعاهنّ، فقال: أجبنَني بإذن الله تعالى، فكانت تُجمَع ويتألّف لحم كلّ واحد وعظمه إلى رأسه، وطارت إلى إبراهيم عليه السلام، فعند ذلك قال عليه السلام: إنّ الله عَزيز حَكيم»[1].

٢) وقال آخرون إنّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام كان قد استدلّ في مناظرته مع نمرود على قدرة الله سبحانه في الإحياء والإماتة وذلك عندما قال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[2] وكان نمرود قد طلبَ من إبراهيم عليه السلام أن يُريَه مثالاً يبيّن حقيقة ما يقول ويُثبت ما ادّعاه لربّه. فهذا الذي دفع إبراهيم عليه السلام إلى سؤال الله تعالى كيفية إحياء الموتى ليرى نمرود وأتباعه ذلك بأعينهم.

---

١ . تفسير القمي، ج١، ص٩١.
٢ . سورة البقرة، الآية ٢٥٨.



٣) قال العلّامة السيد محمد حسين الطباطبائيّ في تفسير *(الميزان)* نقلاً عن كتاب *(عيون أخبار الرّضا عليه السلام)*[1] للصّدوق: «وفي العيون مُسنداً عن علي بن محمد بن الجهم، قال: حضرتُ مجلس المأمون وعنده الرّضا علي بن موسى [عليه السلام] فقال له المأمون: يابن رسول الله أليس من قولك: إنّ الأنبياء [عليهم السلام] معصومون؟ قال: بَلى. فسأله عن آيات من القرآن، فكان فيما سَأله أن قال له: فأخبرني عن قول الله: **﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾**؛ قال الرّضا [عليه السلام]: **إنّ الله تَبارك وتَعالى كان أوحى إلى إبراهيم [عليه السلام]: أنّي مُتَّخِذٌ مِن عِبادي خَليلاً إن سَألني إحياء الموتى أجَبتهُ. فوقع في قَلب إبراهيم [عليه السلام] أنّه ذلك الخليل، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بالخلة،** الحديث»[2].

٤) ومنهم مَن قال إنّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام كان يؤمن بالمعاد على أساس علم اليقين لديه فأراد بسؤاله هذا أن يحصل على منزلة عين اليقين[3].

نَقد الاحتمالات السابقة

لا شكّ في ضرورة إرجاع الغرض من السؤال الذي طرحه سيّدنا إبراهيم عليه السلام إلى مسألة المبدء والمعاد، وأمّا ما وردَ في بعض التفاسير حول الأغراض التي تكمن في سؤال خليل الرّحمن عليه السلام والمؤيَّدَة أحياناً بمجموعة من الروايات، فلا ينطبق أساساً مع الآية الشريفة نفسها، بل إنّ هناك الكثير من الروايات التي تتعارض مع الروايات الأولى وتنطبق على هذه الآية.

---

١ . الجزء الأوّل، ص١٧٦.

٢ . **تفسير الميزان**، ج٢، ص٣٨٠.

٣ . الطبرسيّ، **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٤٤.



وفيما يتعلّق بالاحتمال الثالث المذكور في أعلا الصفحة حيث أشار إلى أنّ هدف سيّدنا إبراهيم عليه السلام من السؤال هو الوصول إلى مقام خليل الله، نقول: قد تكون مثل هذه الفكرة أو الرّغبة موجودة بالفعل في نَفس سيّدنا إبراهيم عليه السلام إلّا أنّ هذا الاحتمال يتناقض مع محور السؤال والجواب الواردين في الآية الشريفة إذ يبدو أنّ مُتعلّق قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ هو مسألة المعاد وعملية إحياء الموتى وليس الخُلّة التي بَنى عليها صاحب التفسير احتماله.

وأمّا الاحتمال الرّابع فينبغي أن نقول بشأنه إنّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام كان يحظى بمقام عين اليقين منذ البداية وإنّ هدفه من السؤال كان بلوغه مرحلة حقّ اليقين. نعم، ربّما لم يُصرّح خليل الله عليه السلام في سؤاله عن رغبته في الوصول إلى مرحلة حقّ اليقين لكنّ جواب الله عزّ وجلّ بيّن مضمون السؤال وشرح تفاصيله والغرض منه، فقد لا تَرد تفاصيل السؤال في صُلب الآية القرآنية أو الرواية إلّا أنّه يمكننا استنباط تلك التفاصيل من خلال التدقيق في الجواب، وهذا ما حصل بالنسبة إلى الآية الّتي هي موضوع البحث إذ إنّ إبراهيم عليه السلام كان قد اجتاز من قَبل مرحلة تعلّم العلم الحصوليّ وكيفية الاستدلال والبرهان وكذلك حصوله على العلم الشهودي وعين اليقين، وعليه فإنّ سؤاله يشير إلى رغبة في نفسه من أجل بلوغ مرحلة حقّ اليقين، والشاهد على هذا الكلام، بصرف النّظر عن الشاهد الداخليّ للآية وصيغة الجواب الإلهيّ، هي الآيات السابقة واللاحقة التي تتضمّن الاستدلالات التي قام بها سيّدنا إبراهيم عليه السلام، فاستناداً إلى تلك الآيات طرح خليل الرّحمن عليه السلام مسألة المبدأ والمعاد في بداية مناظراته وحديثه مع المشركين من قومه ووصف الله سبحانه بأوصاف وأسماء يتعلّق بعضها بأصل الخلقة وموضوع الهداية بعدها، وبعضها يخصّ مسألة ربوبيّة الله سبحانه وتعالى



والقسم الثالث منها يتناول موضوع المعاد والمسائل المتعلّقة به[١]؛ فمثل هذا الشخص الذي يستدلّ في مناظراته مع المشركين بحالات المعاد ومسائله وقدرة الله ﷻ على الإحياء والإماتة لا شكّ أنّه قد اجتاز مرحلة العلم الحصوليّ والبرهان العقليّ حيث تضمّنت الآية الشريفة على أثر ذلك موضوع العلم الشهوديّ وعين اليقين اللذيْن يرغب سيّدنا إبراهيم عليه السلام في الحصول عليهما: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[٢].

وخلاصة القول هي أنّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام كان قد اجتاز في وقت سابق مرحلة **علم اليقين** وبلغ مرحلة جديدة هي مرحلة **عين اليقين**، وبسؤاله الذي طرحه في الآية الشريفة التّي هي موضوع البحث إنّما كان يرغب في الوصول إلى مرحلة **حقّ اليقين**، وعليه فإنّ ما ذكره المرحوم أمين الإسلام الطبرسيّ في تأييده للاحتمال الرابع ليس كاملاً[٣].

خمس إشارات:

١. المقصود بكلمة ﴿الْمَوْتَى﴾ هو كلّ ميّت من الحيوان أو الإنسان وإلّا لَما كان الجواب متطابقاً مع السؤال، ولمّا كانت عملية إحياء مجموعة من الموتى هي أعقد من عملية إحياء ميّت واحد فقد ظلّت هذه المسألة وصعوبة تصديقها تراود أذهان المُنكرين للمعاد ولهذا فإنّ أوّل سؤال طرحه فرعون على سيّدنا موسى عليه السلام هو قوله: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾[٤] فأجابه كليم الله عليه السلام عن الوحي قائلاً: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾[٥].

---

١. سورة الشّعراء، الآيات من ٧٢ إلى ٨٢.
٢. سورة الأنعام، الآية ٧٥.
٣. تفسير **مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٤٤.
٤. سورة طه ﷺ، الآية ٥١.
٥. سورة طه ﷺ، الآية ٥٢.



٢. كلمة ﴿الْمَوْتَى﴾ هي جمع (الميّت) ودخول الألف واللام عليها يُفيد العموم ويُشير في طيّاته إلى موضوع الحَشر الأكبر يوم القيامة فقد كان باستطاعة سيّدنا إبراهيم عليه السلام مثلاً أن يطرح السؤال بالشكل التالي: «رَبّ أرِني كيف تُحيي الميّتَ؟» أو «رَبّ أرِني كيف تُحيي ميّتاً؟».

٣. تدلّ العبارة الشريفة من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ على أنّ المنطقة التي كان فيها سيّدنا إبراهيم عليه السلام هي منطقة جَبلية وعلى أنّ تلك الفترة كانت بعد انقضاء سنوات طويلة من عُمره الشريف وهجرته من بابل إلى إقليم الشام لأنّ المنطقة التي تقع فيها مدينة بابل ليست جبلية بينما منطقة الشام هي كذلك.

٤. لا نستبعد كون السؤال الذي طرحه سيّدنا إبراهيم عليه السلام كان يتضمّن جميع الخصوصيّات المتعلّقة بتشبيه ساحة الحَشر الأكبر له عليه السلام، لكن بما أنّه باستطاعتنا استنباط تلك الخصوصيّات من جواب الله سبحانه على سؤال خليله عليه السلام فإنها لَم تَرد في سؤاله، أو أنّه عليه السلام كان يقصد من سؤاله بيان كيفية إحياء الموتى فقط ولذلك اختُزِل السؤال بصيغته المذكورة في الآية الشريفة، فألهمه الله عزّ وجلّ إلى جانب الجواب التقليديّ الكثير من علوم الوحي الأخرى، وهذا يشبه ما ذُكِر بشأن حاجات سيّدنا إبراهيم عليه السلام الظاهرية عندما سأل الله تعالى ـ وهو في مُقتَبل عُمره الشريف ـ أن يَهب له ولداً فاستجاب له الله عزّ وجلّ ولم يَكتف بمَنحه الولد بل والحَفيد أيضاً قائلاً: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾[1] و«النّافلة» هي الزّيادة حيث وهب الله تعالى إبراهيمَ عليه السلام سيّدنا يعقوب زيادة على طلبه.

---

١. سورة الأنبياء عليهم السلام، الآية ٧٢.

٥. إنّ السرّ في أمر الله سبحانه لخليله عليه السلام باتّخاذ أربعة من الطّير وأن يصرهنّ إليه (أي يؤنسهنّ ويعوّدهنّ عليه) ويتعرّف على كلّ واحد من تلك الطيور بشكل دقيق، ثمّ تقطيعها ليُريَه الله سبحانه إحيائها بعد موتها، قد يكون السرّ في ذلك كلّه هو أنّ الخالق عزّ وجلّ أراد بيان نقطة مهمّة في عملية الإحياء تلك وهي أنّه سيَبعث الإنسان بعد موته ويحشره وهو يحمل جميع الصفات والمواصفات التي عُرِفَ بها خلال حياته على الأرض بما في ذلك الخطوط والبصمات الموجودة على رؤوس أصابعه والتي تختلف من شخص إلى آخر كما هو معلوم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[1]. وخلال إحيائه للطيور الأربعة التي قطّعها سيّدنا إبراهيم عليه السلام ووزّعها على رؤوس الجبال، شاء الله عزّ وجلّ أن يُري نَبيّه كيف أنّه أحيا له تلك الطيور بكلّ ما كانت تتّصف به تماماً دون أيّ اختلاف إطلاقاً.

ومهما يكن من أمر فقد رأى سيّدنا إبراهيم عليه السلام كيفية إحياء الموتى بأمّ عَينه وعودة الحياة ثانية إلى الطيور المذبوحة واستطاع خليل الرّحمن الوصول إلى هدفه السّامي ومُبتغاه الشريف، مع احتفاظ كلمة ﴿صُرْهُنَّ﴾ بالطّبع بمعانيها التي حمّلها إيّاها المفسّرون كالمَيْل والمؤانسة وحصول التقطيع بالفعل في الخارج.

التناسب بين السؤال والجواب

ربّما ارتاب البعض في التناسب الموجود بين كلّ واحدٍ من سؤال سيّدنا إبراهيم عليه السلام والسؤال المطروح من لدن الله عزّ وجلّ فيُقال: إذا كان محور طلب خليل الله عليه السلام هو أصل إحياء الله تعالى للموتى ففي هذه الحالة فإنّ التناسب موجود وقائم، ولكن إذا كان محور سؤال سيّدنا إبراهيم عليه السلام هو كيفية إحياء

---

١. سورة القيامة، الآية ٤.

الموتى، فإنّ ذلك يعني أنّ تساؤل الله ﷻ في قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ لا يتناسب مع الطلب الذي قدّمه إبراهيم عليه السلام إذ إنّ معنى ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ بالنّظر إلى حذف المعطوف عليه بالواو هو: «ألَمْ تعلم؟»؛ و«أولَستَ تُؤمن بذلك؟».

من الواضح أنّ أهمّ ما يجب على أيّ مؤمن الإيمان به هو أصل المعاد وإحياء الموتى لا كيفية ذلك فما مِن أحد يعلم كيفية إحياء جميع الموتى يوم القيامة أو رأى ذلك بعينيه ليكون ذلك حجّة عليه فيؤمن به، إذاً فتيقّن المؤمن بذلك واعترافه بأصله قلباً وعقلاً يَفي بالغرض.

وقبل الإجابة على الشبهة المذكورة ينبغي لنا أن نعلم بأنّ لكلّ واحدٍ من العلم والإيمان مراتب ودرجات ولذلك نرى أنّ كلّ شخص يتحرّق اشتياقاً إلى بلوغ المرتبة التي يفتقدها، ومن ناحية أخرى فإنّ كلًّا من العلم والإيمان يمثّلان اللازم والملزوم وليسا متلازمَيْن، أي إنّه ليس بالضرورة أن يؤمن كلّ عالِمٍ بما يَعلمه فما أكثر العلماء الذين يتصرّفون خلافاً لِما يَعلمون، بينما يلزم الإيمان أن يكون هناك علمٌ وألّا يتحوّل هذا العلم إلى شكّ وريبة، وإلّا فإنّ الإيمان سيرحل كذلك مع رحيل العلم وزواله أو تحوّله إلى مجرّد شكوك.

وفي الحقيقة فإنّ الإيمان يُمثّل العلاقة والرابطة بين كلّ واحدٍ من العالِم والمعلوم، وهو [أي الإيمان] يشير إلى استقرار الطمأنينة في أعماق قلب الإنسان، ولذلك فمن الطبيعيّ أن يغيب التناسب والانسجام في هذه الحالة مع ظهور الشكّ وبروز الارتياب، ولا جَرَم في أنّ الإنسان الشاكّ لا إيمان له وإن ادّعى ذلك.

إذاً فالإيمان يتطلّب العلم بالحدوث والبقاء وعليه فإنّ مَن يقول: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1] فهو راغب إلى الاستزادة من العلم الذي يُقوّي إيمانه بالمعلوم ليبلغ

---

١ . سورة طه ﷺ، الآية ١١٤.



بذلك أعلى مراتب العلم الشهوديّ وعين اليقين وحقّ اليقين وليس مجرّد العلم بالمعلوم.

وجدير بالذّكر أنّ مرحلة العمل مُستثناة من هذا الأمر لأنّ الإنسان حتى في حالة الشكّ لا يفقد عمله كما هي الحال في بعض موارد الشكّ في أداء الرّكعات في الصلوات الواجبة ذات الأربع ركعات فيُقال: إذا شكّ المُصلّي بين الثلاث والأربع فيُبنى على الأربع ويُتمّ صلاته.

والآن وبالنّظر إلى المقدّمة التي أسلفناها فإنّ الجواب على الشبهة المذكورة هكذا: كان سيّدنا إبراهيم عليه السلام مؤمناً بمبدأ إحياء الموتى وقد ناظر المشركين مُستنداً إلى هذا المبدأ، بل إنّ أنبياء الله عليهم السلام معصومون ومنزّهون عن كلّ خطأ أو تأثير لوساوس الشيطان الرّجيم، وقد اعترف الشيطان نفسه بقصوره عن إغوائهم أو وسوستهم كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1]. ورغم ذلك فإنّ رؤية الحشر الأكبر كان سيزيد من علم سيّدنا إبراهيم عليه السلام وبالتالي سيمنحه مزيداً من الطمأنينة القلبية، ولهذا سأل الله سبحانه بأن يُريَه ذلك المشهد العظيم من خلال إحياء الموتى ليبلغ بذلك أعلى مراتب العلم وأسمى درجات الإيمان إذ مهما كان مستوى الإنسان في العلم والإيمان فإنّه لم يبلغ بَعد قمّة ذلك العلم أو الإيمان: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[2].

هذا من ناحية، أمّا من الناحية الأخرى فإنّ التساؤل أو الاستفسار الذي طرحه الباريء عزّ وجلّ على إبراهيم عليه السلام ينفي كلّ شُبهة ويدفع كلّ شكّ إذ لولا هذا التساؤل لسعى كلّ مَن هبّ ودبّ إلى إثارة الشكوك والشبهات حول ما طلبه

---

١ . سورة الحجر، الآيتان ٣٩ و ٤٠.

٢ . سورة يوسف عليه السلام، الآية ٧٦.



سيّدنا إبراهيم عليه السلام وما إذا كان مؤمناً بالفعل أم لا! وعليه يتبيّن لنا من التساؤل الذي طرحه الله سبحانه وتعالى بالبيان الاستفهاميّ التقريريّ الذي أنكر فيه عدم إيمان خليله أنّ الله تعالى قد برّأ ساحة نبيّه من الشكّ وعزّز إيمانه، لكن، من أجل غايته في الوصول إلى المراتب العُليا، بادر إبراهيم عليه السلام إلى طرح السؤال المذكور.

إلماعة: لاحظ أنّ مُتعلّق الفعل في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ محذوف يدلّ على العموم، أي إنّ المؤمن بشكل عامّ هو مَن آمَنَ بالأصول الأساسيّة الثلاثة: المبدأ والمعاد والرسالة والتفاصيل المتعلّقة بتلك الأصول، وبغياب هذا الإيمان فإنّ الشخص لا يُعتبر كاملاً إذ إنّ فقدان أحد أجزاء المركّب يعني زوال المركّب بأكمله، ولذلك لم يَقُل سبحانه لسيّدنا إبراهيم عليه السلام: «أولَمْ تُؤمِن بالقيامَة؟».

تمثيل أم حقيقة؟

ذكر أبو مسلم في تفسيره كلاماً غير صائب وقد ردّ عليه الفخر الرازي في تفسيره المسمّى *(التفسير الكبير)*[1] وهُرع بعض المُفسّرين إلى البسط في شرح ذلك الكلام المُبتَذَل في كُتبهم متأثّرين بالفكر الوهّابي الذي يستند إلى إنكار المعجزات.

---

١. قال الفخر الرازي في ردّه على بعض الشبهات: «الثاني عشر: ما قاله قوم من الجهال، وهو أنّ إبراهيم عليه السلام كان شاكّاً في معرفة المبدأ وفي معرفة المعاد، أمّا شكّه في معرفة المبدأ فقوله ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام/ ٧٦] وقوله ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧] وأمّا شكّه في المعاد فهو في هذه الآية، وهذا القول سخيف، بل كفر وذلك لأنّ الجاهل بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى كافر، فمن نسبَ النبي المعصوم إلى ذلك فقد كفّر النبيّ المعصوم، فكان هذا بالكفر أولى. وممّا يدلّ على فساد ذلك وجوه أحدها: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ولو كان شاكاً لم يصحّ ذلك، وثانيها: قوله ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وذلك كلام عارف طالب لمزيد اليقين، ومنها أن الشكّ في قدرة الله تعالى يوجب الشكّ في النبوّة فكيف يعرف نبوة نفسه». (التفسير الكبير، مج٤، ج٧، ص٤٥ ـ ٤٦). [المترجم]

فقد ادّعى أبو مسلم أنّ الحادثة المذكورة في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث تتميّز بالتمثيل وأنّه لا حقيقة خارجية لها إطلاقاً، ويبدو أنّ ما دفع أبا مسلم إلى التفوّة بمثل هذا الكلام هو مجرّد رواية غير صحيحة، وإليك موجز للأدلّة التي أوردها أبو مسلم لدَعم ما قاله:

١. أنّ ظاهر الآية موصوف بالأمر والإنشاء لكنّ الحقيقة هي أنّ الظاهر إخباريّ، أي إنّ قوله تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ معناه في الواقع: «فتأخذ أربعة من الطّير...». يمكن بيان الموضوع الخَبريّ بصيغة الإنشاء كأن يُجاب السائل حول حكم الشكّ بين الواحدة والاثنتيْن بالإعادة، وأحياناً يكون العكس كالآية الّتي هي موضوع البحث: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ ومعناه «تأخذ أربعة من الطير» وليس معناه «خُذ أربعة من الطير»، وكذلك عند جواب شخص ما إذا سأل عن كيفية تركيب عجينة ما فيُقال له: «العجينة مؤلّفة من موادّ متعدّدة وعليك خلط مقدار مُعيّن من كلّ مادّة من تلك المواد ثمّ أخلطها جميعاً» ومعنى هذا أنّك يا فُلان إذا قمتَ بكلّ ذلك فإنّك ستحصل على العجينة التي تريد.

٢. إنّ جملة ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ لا تعني التقطيع والفصل بل معناها الاستمالة والاستئناس وتعويد الطيور لتتعرّف عليه وتأنس به ودليل ذلك هو التعدية بحرف الجرّ (إلى) فلو كان معناها التقطيع لَما كانت هناك حاجة إلى استخدام حرف الجرّ. والشّاهد الآخر على ما قيل هو حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الذي يُفيد التّراخي والذي يشير كذلك إلى الفاصل الزّمنيّ بين تدجين الطيور وبين وضعها على الجبال، فإذا كان المقصود هو ذبح تلك الطيور وتقطيع لحومها ومزجها معاً ثمّ تقسيمها إلى أجزاء ووضع كلّ جزء منها على قمّة جَبل ما كان الأمر محتاجاً إلى وقت طويل في العادة بينما يحتاج تدجين الطيور البريّة وتعويدها على صاحبها



ومؤانستها إلى زمن أطول نسبياً ولذلك استُخدِم حرف العطف ﴿ثُـمَّ﴾ للدلالـة على التراخي وتطاول المدّة.

٣. التناسب الموجود بين الـضمائر الأربعـة المـذكورة في الآيـة في الكلـمات: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ و﴿مِنْهُنَّ﴾ و﴿ادْعُهُنَّ﴾ ﴿يَأْتِينَكَ﴾ وكلّ تلك الـضمائر تـدلّ عـلى عدم وجود أيّة إشارة إلى القتل أو الذّبح أو التقطيع وما شابه ذلك حيـث تعـود تلك الضمائر جميعها إلى الطيور الأربعة نفسها، ولـو كـان الأمـر متعلّقـاً بالـذّبح والقطع لاختلف الضميران الأوّلان عن الضّميريْن الأخيريْن إذ كان الضميران الأخيران سيعودان إلى أجزاء الطيور المذبوحة وليس الطيور نفسها.

٤. إنّ المعنى الحقيقيّ للإحياء يتمثّل في أمر الله سبحانه وحقيقة أمـره تعـالى هي إرادته: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١]، ومـن هنـا يتّـضح أنّه لـيس باسـتطاعة أحـد أن يـرى كُنـه الإرادة الإلهيـة ولم يكـن هـدف سـيّدنا إبراهيم عليه السلام الوصول إلى ذلك إطلاقاً.

٥. إذا كانت قصّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام تدور حول ذبح الطيور الأربعة فإنّـه ما كان ليتمكّن من رؤية عملية إحياء الموتى (وهي الطيور المذبوحة) بعينيه عـن كَثب نظراً لبُعد المسافة التي كانت تفصل بينـه وبـين الجبـال الأربعـة التـي كـان سيضع عليها أجزاء الطيور المذبوحة بل كان سيرى مجيء الطيور إليه وهي حيّة.

٦. يدلّ قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ على أنّ المقصود من ذلـك لم يكن حادثة خارجية خلافـاً للآيـة الـسابقة التـي تـشير إلى وقـوع الحـدث في الخارج: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

---

١. سورة يس عليه السلام، الآية ٨٢.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٥٩.



بالاستناد إلى نظرية التمثيل حيث لا وجود للذّبح أو التقطيع فإنّ المقصود بقوله تعالى: ﴿جُزْءًا﴾ في الآية الّتي هي موضوع البحث هو «واحداً»، أي: بعد أن تأنس الطيور بك [يا إبراهيم] وتألفك، ضع كلّ واحد منها على قمّة جَبل ثمّ نادها فإنّها ستأتيك بأمر الله[1].

نَقد نظرية التمثيل

قبل الخوض في نَقد الآراء السابقة، لا بدّ من الإشارة إلى نقطتيْن مهمّتيْن:

١) إنّ إلقاء نظرة سريعة على السيرة العطرة لسيّدنا إبراهيم خليل الله عليه السلام سيُثبت لنا ضحالة الأقوال المذكورة وخروجها عن إطار المنطق، فقد أشار القرآن الكريم في بداية نبوّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام إلى أنّ الله عزّ وجلّ قد أراه ملكوت السموات والأرض في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾[2] ويدلّ الفعل المضارع ﴿**نُرِي**﴾ على استمرار رؤية إبراهيم عليه السلام لذلك الملكوت.

لقد كان سيّدنا إبراهيم عليه السلام ينظر إلى السموات والأرض بعينيْن ملكوتيّتيْن، أي إنّه كان يلاحظ ارتباط السموات والأرض بمسألتَيْ المبدأ والمعاد، وكان سَيره عليه السلام في مشاهداته كلّها عموديّاً وأفقيّاً في آن واحد، فلم تقتصر نظرته على رؤية جسم عالم الوجود وهيكله فقط؛ إذاً فرؤية كيفية إحياء الموتى من قِبَل هذا الشخص تُعد عمليّة بسيطة.

٢) إنّ طبيعة الإنسان تخلق داخله الشّوق على الدّوام إلى رؤية المجهول وتُقَدّر نسبة سكونه وارتياحه وطمأنينته بمقدار ما يحصل عليه من العلم

---

١. أنظر: تفسير المنار، ج٣، ص٥٥ ـ ٥٨.

٢. سورة الأنعام، الآية ٧٥.



ويكتسبه من المعلومات، فترى الشخص الواعي والعالِم يجتهد دوماً في البحث عن المجهولات والكشف عنها والوصول إلى أعلى مراتب العلم والشهود، ولهذا طلب سيّدنا إبراهيم عليه السلام من ربّه أن يُريَه كيفية إحيائه للموتى: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

وقد ذكرنا قبل هذا أنّ الآية الشريفة لا تتناول موضوع مبدأ المُحيي (الفاعِل) أو إحياء الموتى (القابِل) بل يدور محور سؤال خليل الله عليه السلام حول رؤيته لكيفية إحياء الله الموتى ليبلغ بذلك مرحلة مظهرية اسم «المُحيي» ولهذا كان جوابه على تساؤل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ هو: ﴿بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾؛ إذاً فالهدف هو الوصول إلى الطمأنينة وإطفاء لهيب الشّوق والتخلّص من القَلق وبلوغ درجة المظهرية المذكورة.

والقَلق نوعان:

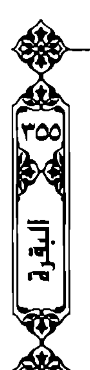
أ) قلق مذموم ناجم عن الخوف والحالات النفسانية الحيوانية.

ب) قَلق محمود أو ممدوح وهو قلق صادر بسبب الاهتمام والتركيز على الساحة الإلهية المقدّسة.

وقد مدح القرآن الكريم المؤمنين الذين يحملون النوع الأخير من القلق بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[1]، فالطمأنينة العلمية وسكون عقل الشاهد وهدوءه تختلف عن الاضطراب العلميّ والجسدي عند امتثال صاحبهما للأوامر الإلهية وذلك لوجود حدود وفواصل بين قلب الشاهد والعقل العمليّ العامِل وجسد العابِد وبَدنه. وورد في سيرة الأئمّة الطاهرين عليهم السلام أنّ ألوان وجوههم كانت تتغيّر خلال وقوفهم إلى الصلاة وأجسادهم الزكيّة كانت

---

١ . سورة الحجّ، الآية ٣٥.



ترتجف وتضطرب[1].

نعم، فالذين اعتادوا على التلاعب بالكلمات ولم يتعلّموا سوى الخلط بين العبارات يصعب عليهم تصوّر مثل تلك الحالات، فهؤلاء يرقدون في حالة الجمود والسّكون، أمّا الصالحون من عباد الله تعالى فهم وحدهم الذين يعبرون مرحلة الكلام ويجتازون مستوى الألفاظ والمعاني ليصلوا إلى مرحلة الكشف والشهود فَيَحْظوا بالسكينة الباطنية وتحلّ الطمأنينة محلّ القلق فيهم.

والآن سنقوم بنَقد الآراء الستة المذكورة آنفاً بشأن الآية الّتي هي موضوع البحث:

نَقد الرّأي الأوّل: إنّ من بين القوانين والمعايير الخاصّة بثقافة الحوار إبقاء أيّ حديث على حاله كما هو، ومعنى هذا أنّه إذا استخدم المتكلّم صيغة فعل الأمر في

---

١. «إِبَانَةُ الْعُكْبَرِيِّ سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ عَنْ أُمِّهِ قَالَتْ: سَأَلْتُ أُمَّ سَعِيدٍ سُرِّيَّةَ عَلِيٍّ عليه السلام عَنْ صَلَاةِ عَلِيٍّ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ. فَقَالَتْ: رَمَضَانُ وَشَوَّالٌ سَوَاءٌ يُحْيِي اللَّيْلَ كُلَّهُ. وَفِي تَفْسِيرِ الْقُشَيْرِيِّ أَنَّهُ كَانَ عليه السلام إِذَا حَضَرَ وَقْتُ الصَّلَاةِ تَلَوَّنَ وَتَزَلْزَلَ، فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَيَقُولُ: جَاءَ وَقْتُ أَمَانَةٍ عَرَضَهَا اللهُ تَعَالَى **﴿عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾** فِي ضَعْفِي فَلَا أَدْرِي أُحْسِنُ إِذَا [أَدَاءَ] مَا حَمَلْتُ أَمْ لَا؟ [عن] أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَاتُ الْخَمْسُ فِي (طس) **﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً﴾** انْتَفَضَ عَلِيٌّ [عليه السلام] انْتِفَاضَ الْعُصْفُورِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: مَا لَكَ يَا عَلِيُّ؟ قَالَ: عَجِبْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مِنْ كُفْرِهِمْ وَحِلْمِ اللهِ تَعَالَى عَنْهُمْ. فَمَسَحَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: أَبْشِرْ فَإِنَّهُ لَا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ وَلَا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ وَلَوْلَا أَنْتَ لَمْ يُعْرَفْ حِزْبُ اللهِ. وَرُوِيَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام كَانَ يُسْمَعُ تَأَوُّهُهُ عَلَى حَدِّ مِيلٍ حَتَّى مَدَحَهُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾**، وَكَانَ فِي صَلَاةٍ يُسْمَعُ لَهُ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ، وَكَذَلِكَ كَانَ يُسْمَعُ مِنْ صَدْرِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله مِثْلُ ذَلِكَ، وَكَانَتْ فَاطِمَةُ عليها السلام تَنْهَجُ فِي الصَّلَاةِ مِنْ خِيفَةِ اللهِ تَعَالَى. عَنِ الصَّادِقِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عليهم السلام أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام كَانَ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ تَرْتَعِدُ فَرَائِصُهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ عزّ وجلّ وَكَانَ إِذَا ذَكَرَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ اضْطَرَبَ اضْطِرَابَ السَّلِيمِ، وَسَأَلَ اللهَ الْجَنَّةَ وَتَعَوَّذَ بِاللهِ مِنَ النَّارِ. وَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يُحَدِّثُنَا وَنُحَدِّثُهُ فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْنَا وَلَمْ نَعْرِفْهُ». [المترجم]. أنظر: **بحار الأنوار**، ج٤١، ص١٧؛ ج٧٧، ص٣٤٦؛ ج٨١، ص٢٥٨.



حديثه فإنّ أصالة الظهور تقتضي حَمل ذلك الحديث على الإنشاء إلّا في حال وجود قرينة تشير إلى غير ذلك؛ وفي مثل هذه الحالة يُقال: ربّما قام المفهوم الخبريّ ببيان الموضوع أحياناً بشكل جملة إنشائية، ولكن، في حال عدم وجود أيّة قرينة تدعم ذلك لا يجوز إطلاقاً الحمل على خلاف الظاهر.

نَقد الرّأي الثاني: فسّر الكثير من اللغويين الفعل (**صَوِرَ يَصْوَرُ صَوَراً فهو أَصْوَر**) بمعنى المَيْل والتَّوْق والنّزوع والعَطْف[1] فيما فسّره آخرون من علماء اللغة القُدامى بمعنى القَطْع والفَصْل، وسبب تعدية الفعل ﴿**فَصُرْهُنَّ**﴾ بحرف الجرّ (إلى) هو أنّ الفعل المذكور يتضمّن معنى المَيْل[2].

وأمّا السبب في أمر الله تعالى نَبيّه عليه السلام بذَبح الطيور وتقطيعها وسحق لحومها ثمّ تقسيمها إلى أجزاء ووضع كلّ جزء منها على قمّة جَبل فهو سؤال إبراهيم عليه السلام رؤية جانب من الحَشر الأكبر في الدّنيا وملاحظة كيفية جَمع أشلاء الموتى وضمّ بعضها إلى البعض ثمّ بَعثهم من بطن الأرض ومن أجداثهم ليُهرَعوا إلى ربّهم عزّ وجلّ رغم ما كان عليه أولئك الموتى من أجسام مختلفة وهيئات متعدّدة.

وجدير بالذّكر أنّه لو كان الهدف من سؤال سيّدنا إبراهيم عليه السلام هو معرفة كيفية إحياء الميّت لطلب مثلاً إحياء شخص ميّت أو حيوان نافِق ولَمَا قال كلمة

---

١ . أنظر: **المَكنَز العربيّ المُعاصر**، إعداد الدكتور محمود إسماعيل صيني وناصف مصطفى عبد العزيز ومصطفى أحمد سُليمان، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م. [المترجم]

٢ . «(صُرهن) بضمّ الصّاد على إحدى القراءتين من صار يصور إذا قطع أو أمال، أو بكسر الصّاد على القراءة الأخرى من صار يصير بأحد المعنيَيْن، وقرائن الكلام تدلّ على إرادة معنى القطع، وتعديته بإلى تدلّ على تضمين معنى الإمالة. فالمعنى: إقطعهنّ مُميلا إليك أو أمِلْهنّ إليك قاطعاً إيّاهنّ، على الخلاف في التّضمين من حيث التقدير». [المترجم]. (العلّامة الطباطبائي، **تفسير الميزان**، ج٢، ص٣٧٤).



﴿الْمَوْتَى﴾ وهي جمع (المَيِّت) ومعروف أنّ الألف واللام إذا دخلت على الجمع أفادت معنى الاستغراق.

نَقد الرّأي الثالث: إنّ أيّاً من الضمائر الأربعة المُشار إليها لا يدلّ على التقطيع لتكون هناك حاجة إلى وجود القرينة فالخطاب الموجّه إلى الجزء مُوَجّه إلى الكلّ كذلك، ونسبة الضمير إلى أجزاء الطّير يُمثّل نسبته إلى الطّير نفسه.

وثمّة العديد من الأمثلة والشواهد في القرآن الكريم تشير إلى أنّ نسبة الضمير إلى الجزء يعني نسبته إلى الشيء صاحب الجزء نفسه، مثل قوله تعالى: **﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾**[1] حيث يعود الضمير في ﴿لَهَا﴾ إلى السماء التي لم تكن آنذاك سوى كتلة غازية تضمّ مجموعة من الغازات المختلفة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ دعوة سيّدنا إبراهيم عليه السلام الطيورَ [الميّتة] إنّما هي في الحقيقة دَعوة أرواحهم لا أبدانهم، وهذا يشبه دعوة الله سبحانه أرواح البَشر جميعاً يوم القيامة فتجتمع أجزاء أبدانهم من كلّ صَوب لتستوي كما كانت وتستجيب لنداء ربّها.

وبعبارة أوضح، نقول أوّلاً: بلحاظ أنّ الأصالة هي لروح الإنسان وليس لجَسده فإنّ أصالة هويّة الحيوان كذلك تُنسَب إلى روحه لا إلى بَدنه، ففي عملية ذَبح الطيور وتقطيع لحمها وخلط أجزائها تكون الروح الأصيلة لذلك الحيوان لَم تُصَب بأيّ أذى، وأمّا ما يتعلّق بالضمائر الأربعة فإنّ جميعها يعود إلى أرواح الطيور المذكورة وليس إلى أبدانها باستثناء الضمير الموجود في ﴿مِنْهُنَّ﴾ المُصاحب للقرينة، فيكون المُخاطَب في مثل هذه الحالات هي الأرواح والنّفوس

---

١ . **سورة فصّلت**، الآية ١١.



المُنزّهة عن التقطيع والذّبح وما شابهها، التي كانت قريبة من سيّدنا إبراهيم عليه السلام بينما كانت أبدانها بعيدة عنه وموضوعة على قمم الجبال. ثانياً: حتى لو افترضنا انعدام الوجود العينيّ للطيور المذكورة فمن المعروف أنّ الخطاب التكوينيّ مُقدَّم على الوجود العينيّ للمخاطب، ولكن بلحاظ أنّ الخطاب إلى المعدوم هو أمر مُحال فإنّ الوجود العلميّ للمُخاطب يكون هو المقصود بالخطاب ليشمل الوجود العينيّ بالأمر التكوينيّ، فضلاً عن أنّ دعوة الإنسان الكامل في هذه الحالة هي بمنزلة الأمر «كُنْ» لله سبحانه وتعالى.

نَقد الرّأي الرابع والخامس: تنقسم الإرادة الإلهية إلى نوعيْن: ذاتية وفعليّة، إلّا أنّ النّوع الثاني من الإرادة هو الوارد في أغلب مواضع الكتاب أو السنّة، أي الإرادة الفعلية المُستوحاة من فعل الله سبحانه، ومن ناحية أخرى فإنّ فعل الله تعالى هو بمثابة موجود ممكن خارج عن الذات الإلهية وهو بالمناسبة مفهوم من قِبل عباده رغم أنّ إدراك ذات الحقّ جلّ وعلا والوصول إلى كُنهها مُحال بالمرّة.

وبالنظر إلى المقدّمة يتّضح لنا أنّ طلب سيّدنا إبراهيم عليه السلام يدخل في إطار فعل الحقّ تعالى وهو الإحياء الذي يُعدّ من الشؤون الملكوتية.

بعد تناوله لمسألة المعاد وإحياء الموتى يوم القيامة يقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] وقد كان سيّدنا إبراهيم عليه السلام جديراً لنَيل مقام رؤية الملكوت[2]، إذاً فلم يكن ثمة ما يمنع رؤيته للملكوت وقد استحقّ ذلك عن جدارة. فالأمر بوضع أجزاء الطيور على الجبال

١ . سورة يس ﷺ، الآية ٨٣.

٢ . ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾. (سورة الأنعام، الآية ٧٥).



ووجود خليل الله عليه السلام أسفل تلك الجبال لا يمثّل حائلاً لأنّ عنصر الزمان والمكان والبُعد والقُرب موجوداتٌ في عالَم المُلك فقط ولا مكان لأيّ عنصر من تلك العناصر في عالَم الملكوت، وكما أنّ نَفَس سيّدنا المسيح عليه السلام كان سبباً للإحياء ومَنح حياة ثانية بإذن الله سبحانه فقد كان لدعوة إبراهيم عليه السلام للطيور نفس التأثير والفعل وبإذن الله عزّ وجلّ كذلك.

نَقد الرّأي السادس: إنّ محور الحديث في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث هو (العِزّة) و(الحِكمة)، فكان هذان الاسمان الحَسنان من أسماء الله تعالى الحُسنى دليل مضمون الآية وإشارة إلى أنّ خليل الحقّ عليه السلام قد استحقّ لَقب مظهر العزيز والحكيم. و«**العَزيز**» في اللغة هو الذي يَقهَر ولا يُقْهَر[1]، أمّا «**الحَكيم**» فهو صاحب الحِكمة والعالِم والحاذِق الذي يؤدّي أفعاله على أساس البرهان.

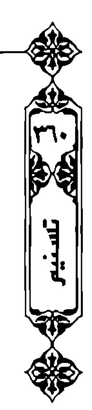
كان سيّدنا إبراهيم عليه السلام قد شهد من قَبل أسماء الله الحُسنى كالعزيز والحكيم بعين اليقين ولم يكن مجرّد عالم بها بعلم اليقين، أمّا الآن فقد تحقّق له ذلك بحقّ اليقين، أي إنّه أصبح مظهر عزّة الله تعالى وحكمته ولهذا لم يَحُل بينه وبين الإحياء والإماتة أيّ عائق أو مانع، وبذلك تذلّلت الصعوبات التي كانت تكتنف عملية إحياء الموتى المختلطة لحومهم وعظامهم بقدرة سيّدنا إبراهيم عليه السلام العزيزة وإرادته الحكيمة.

وأخيراً، فإنّ تفسير ﴿جُزءاً﴾ بمعنى (واحداً) إنّما هو خلاف الظاهر وما من قرينة تؤيّد هذا المعنى إطلاقاً.

---

١ . «قولهم أرضٌ عَزاز، أي صُلبة، فالنّصر والتوفيق بالعزّة». (أنظر: الراغب الأصفهانيّ، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٥٦٣، مادّة «عز»).





إشارات ولطائف

١. إبراهيم عليه السلام ورؤية الملكوت

يختلف (المَلكوت)[1] عن (المُلك) فالأوّل يُطلَق على بُعد ارتباط الأشياء بالنسبة إلى الله ﷻ، والعالِم الماديّ لا يرى سوى مِلك العالَم ومُلكه وأجسام الأشياء وهياكلها وكلّ ذلك يندرج في لائحة السّير الأفقيّ، لكنّ العالِم الإلهيّ (أو المتألّه) فإنّه يرى مَلكوت العالَم المتميّز بالسّير العمودي، إضافة إلى مشاهدته لِلك العالَم ومُلكه.

على سبيل المثال، عندما يتحدّث العِدانيّ (المُتخصّص بعِلم المعادن) عن معدن الذّهب أو الفضّة وكيف كان شكلهما قبل قرون وما هو شكلهما في الوقت الحاضر وإلامَ ستؤول حالتهما وشكلهما بعد مضيّ عدّة قرون، فإنّه لا يتكلّم إلّا ضمن إطار المادّة وهو سَير أفقيّ لأنّه لا يتطرّق لا إلى الفاعل ولا إلى هدفه؛ لكنّ المُتألّه وبالإضافة إلى كونه عالماً بالحركة والسّير الأفقيّ فإنّه يُطالع ويدرس كذلك السّير العموديّ يعني أنّه يُفكّر بالفاعل وبهدف الأشياء، ويُقال لمثل هذا الشخص: هو من أهل البَصر والملكوت وليس من أهل النّظر والمُلك فقط.

---

١. «ومُلْكُ الله تعالى ومَلَكُوته: سلطانه وعظمته. ولفلانٍ مَلَكُوتُ العراق أي عزّه وسلطانه ومُلْكه، والمَلَكُوت من المُلْكِ كالرَّهَبُوتِ من الرَّهْبةِ، ويقال للمَلَكُوت مَلْكُوَةٌ. وهو المُلْكُ والعِزُّ» (لسان العرب، مادّة «ملك»)؛ «واعلم أنّ العوالم الكلّيّة هي خمسة: ... وعالم الملكوت، ويُسمّونه كذلك عالم الأرواح وعالم الأفعال وعالم الامر، وعالم الربوبيّة وعالم الغيب والباطن؛ عالم المُلك، ويُطلقون عليه كذلك عالم الشهادة والعالم الظاهر وعالم الآثار والخلق والمحسوس» (السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهراني، **معرفة الله «الله شناسى»**، تعريب الأخوين عباس وعبد الحسين الصافي، ج١، ص١٠٢)؛ «المَلِكُ هُوَ مَالِكُ المُلْكِ قَدْ مَلَكَ كُلَّ شَيْءٍ وَالمَلَكُوتُ مُلْكُ الله ﷻ زِيدَتْ فِيهِ التَّاءُ كَمَا زِيدَتْ فِي رَهَبُوتٍ وَرَحَمُوتٍ تَقُولُ الْعَرَبُ رَهَبُوتٌ خَيْرٌ مِنْ رَحَمُوتٍ، أَيْ: لَأَنْ تَرْهَبَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرْحَمَ» (**بحار الأنوار**، ج٤، ص١٩٩، الباب الثالث: عدد أسماء الله تعالى). [المترجم]



إنّ باستطاعة العالِم الإلهيّ أن يرى العلاقة القائمة بين الحقّ والخَلق، وهكذا هي حال سيّدنا إبراهيم عليه السلام حيث كان يشاهد عياناً شكل العلاقة التي تربط بين نظام الوجود بأكمله وبين الخالق سبحانه وتعالى، فمن الواضح إذاً أنّ محور الحديث في مثل هذه المرحلة هو الشهود ورؤية باطن العالَم وليس العلم الحصوليّ أو علم اليقين.

٢. شُبهة (الآكِل والمأكول) والجواب عليها

إنّ من بين الشبهات التي يمكن العثور عليها في مصنّفات بعض المتكلّمين التي تتناول موضوع المعاد هي الشبهة المذكورة في ذيل الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث، فقد تساءل البعض في الماضي قائلين: «إذا أكل موجودٌ موجوداً آخر بسبب المجاعة أو المواجهة فما هو وضع كلّ منهما يوم القيامة؟ هل سيتمّ حَشرهما معاً كموجود واحد أم سيُحشَر كلّ منهما بصورة مستقلّة؟».

بالنّظر إلى التقدّم العلميّ والتقنيّ الحاصل في علم الطبّ ونجاح المتخصّصين في زرع الأعضاء، فإنّ هذا الموضوع يُعتبر موضوعاً خارجياً وليس فرضية ذهنية؛ وعليه، فإذا تمّ زرع عُضو من أعضاء الكافر، كقلبه أو يَده، في جسم المؤمن والتأم العضو المذكور بجسم المؤمن بشكل كامل وعاديّ وأصبح جزءاً لا يتجزّأ من المؤمن، فكيف سيكون وضع ذلك المؤمن وشكل حَشره يوم القيامة؟ هل سيُحشر القلب الواحد في جَسد كلّ من الكافر والمؤمن معاً [أي مرّتيْن، مرّة وهو في جسد الكافر وأخرى وهو في جسد المؤمن]؟

للجواب على هذه الشّبهة نقول: إنّ الشّبهة المذكورة لا تحتلّ أيّ منزلة علمية تُذكَر لدى أهل الحكمة المتعالية، ولذلك نودّ الإشارة هنا إلى نقطتيْن ضروريّتيْن، هما:



أ) إنّ الإنسان لا يأكل الحيوان أو النّبات بل إنّ كلّ نَبات وكلّ حيوان يتحوّل إلى جماد بمجرّد قطف الأوّل وذَبح الثاني، إذاً، لا يصبح النبات أو الحيوان في الحقيقة طعاماً للإنسان لمجرّد امتلاك الأوّل للروح النباتية وامتلاك الثاني للروح الحيوانية، وأمّا قول الشاعر:

مُتُّ مُذ كنتُ جماداً ثمّ أصبحتُ نباتاً وإذا بي أغدو حيواناً وقد كنتُ نباتاً[1]

فيتناول أصل الإنسان المخلوق من التراب ومبدأِه، والذي يصبح فيما بَعد نطفة في رَحِم أمّه حيث يمرّ خلالها بالمرحلة النباتية، ثمّ يخرج إلى الدنيا من بطن أمّه فيصير حيواناً بالقوّة (أي القوّة القريبة)، فإذا اكتمل نُضجه وبلغ أشدّه تحوّل إلى حيوان بالفعل وإنسان بالقوّة، وبعد أن يتّصف بالفضائل الإنسانية يكون إنساناً بالفعل وملاكاً بالقوّة، وعندما يجتاز بعض مراحل الكمال فإنّه سيبلغ أعلى درجات الإمكان.

---

١. مولانا جلال الدين محمّد البلخيّ الروميّ، **المثنوي المعنوي**، المجلّد الثالث. وأصل البيت بالفارسية:

[از جَمادى مُردم و نامى شدم وز نَما مُردم به حيوان بَر زَدَم]

وجدير بالذّكر أنّ البيت المذكور تَليه أربعة أبيات أخرى يُكمل كلّ واحدٍ منها معنى البيت الآخر، أمّا الأبيات الأربعة بعد البيت المذكور فهي بالفارسية:

[مُردم از حيوانى و آدم شدم پس چه تَرْسَم؟ كى ز مُردن كم شدم؟

حملهء ديگر بميرم از بشر تا برآرم از ملايك پَرّ و سر

بار ديگر از مَلَك قربان شَوَم آنچه اَندر وَهْم نايد، آن شَوَم

پس عدم گردم عدم چون ارغنون گويدم كه: إنا إليه راجعون]

وهذه ترجمتها بالعربية على التوالي:

ثمّ بُليتُ كحيوان فصرتُ إنساناً * فما خوفي إذا مِتُّ نقصاناً؟

وأموت كرّة أخرى وأنا بَشرٌ * لأصير مَلاكاً طاهراً ذَكَرُ

فأغادر جَمْعَ الملائك كُلّهمُ * لأغدو ما لا يُدركه خيال أو وَهمُ

وأرجع عدماً في عدم أو لا أكون * وعندها ألهجُ: إنّا إليه راجعون. [المترجم]



ب) وفقاً للثقافة الفكرية الإسلامية فإنّ الإنسان مكوّن من حقيقتيْن هما: البدن والرّوح؛ إلّا أنّ تلكما الحقيقتيْن ليستا متماثلتيْن ولا متشابهتيْن أبداً، بل الأصالة للرّوح فقط وما البدن إلّا فرعاً وهو للجسد كالآلة والوسيلة والأداة.

وهكذا فإنّ تعيّن الإنسان وتشخّصه في هذه الدنيا وفي الآخرة إنّما يكونان بروحه لا بجسمه، وعليه فإنّ أصالة الإنسان وحقيقته تكون بروحه، وكلّ عضو من أعضائه تقبله روحه ويستأنس به جسده ويعتبره جزءاً من أعضائه الأخرى، يُصبح عضو ذلك الإنسان وجزءاً لا يتجزّأ من جسده. وهناك العديد من الأمثلة التي تشير إلى هذه النقطة في عالمنا كتغيّر ذرّات جسم الإنسان وجزئياته عدّة مرات طيلة حياته لتغدو تلك الذرات والجزئيات بدورها طعاماً وغذاءً لحيوانات أو نباتات أخرى أو حتى سائر أفراد البشر كذلك، كما أنّه من الصعوبة بمكان تحديد الجهة أو المكان الذي جاءت منه ذرات جسم الشخص وجزئيّاته وما كانت عليه قبل قرن من الآن، فاجتمعت كلّها وكوّنت هذا الإنسان الذي نراه أمامنا.

وفي عالَم الآخرة سيتمّ التعامل مع الشخص تماماً كما تمّ التعامل معه عندما كان في هذه الدنيا. ولتبسيط الموضوع إليك المثال التالي: إذا استطاع شخص ما الهرب قبل إقامة الحدّ الشرعيّ بحقّه بسبب السّرقة، ثمّ وقع له بعد ذلك حادث أدّى إلى بَتر إحدى يَدَيه، لكنّ الأطبّاء تمكّنوا من زرع يَد أخرى له مأخوذة من شخص كافر، ثمّ تمكّنت السلطات بعد فترة من إلقاء القبض على هذا الشخص (السّارق)، فهل ستتردّد المحكمة الإسلامية في إقامة الحَدّ على الشخص المذكور (وذلك بقَطع يَده بسبب السّرقة)؟ هل يستطيع السّارق حينها الادّعاء بأنّ يَده هذه ليست يَده الحقيقية وإنّما أُخِذَت من شخص آخر (كافر) وزُرِعَت له مكان يَده التي فقدها جرّاء الحادث الذي وقع له من قَبل؟ هل سيقبل أيّ عاقل بما يقوله هذا الشخص بشأن يَده؟

من الواضح أنّ الجواب على كلّ تلك الأسئلة هو: أيّها السارق! أنتَ الّذي قُمتَ بالسّرقة وليس شخصٌ آخر قامَ بالسرقة، لأنّ الفعل الذي يقوم به أي إنسان إنّما يُنسَب إلى روحه وحقيقته هو، ولمّا كانت الرّوح تُمثّل حقيقة ذلك الإنسان فإنّها [أي الرّوح] لا تعترف بزرع الأعضاء أو عمليّات التجميل فكلّ ذلك يقع ضمن إطار الجسد وأعضائه، لكنّ الفاعِل الحقيقيّ والمُرتكب للفعل [وهنا فعل السّرقة] هي حقيقة الإنسان.

وهكذا لا يمكن نسبة الكُفر أو الإيمان إلى العين أو اليَد، فلا تلك هي عينٌ كافرة ولا هذه هي يَدٌ مؤمنة، بل الإيمان والكُفر هما صفتان للرّوح لا للجسم، وهنا يتبيّن لنا أنّ المساءلة والمحاسبة إنّما تكونان بحقّ حقيقة الإنسان لا عضو من أعضائه. وسنشير في البحث الروائيّ القادم إلى عدد من الروايات التي تؤيّد هذا المعنى وتؤكّد على صحّته.

٣. شُبهة أخرى والجواب عليها

كان موضوع فناء جسم الإنسان وتحلّله وتفرّق ذراته وجزيئاته في مختلف بقاع الأرض يُمثّل شُبهة رئيسية وشكّاً كبيراً بالنسبة إلى البعض ممّن قالوا باستحالة المعاد الجسمانيّ، فكان أبرز خبر سُمِعَ في عصر النبيّ الأكرم ﷺ وأغرب حديث بعد مسألة التوحيد هو ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1] فكان وَقعه شديداً على النّاس آنذاك وراحوا يتساءلون بينهم قائلين: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[2]؛ فما كان من القرآن

---

١. سورة سبأ، الآية ٧.

٢. سورة السّجدة، الآية ١٠.

الكريم إلّا أن أجاب على شُبهة أولئك بقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[1].

إنّ ما ردّده البعض وما زال حول ضياع آثار الإنسان وتبعثر أعضائه في أنحاء مختلفة من أصقاع الأرض واستحالة جمع كلّ تلك الأشلاء وإحيائه من جديد كما كان، لهو حديث باطل لا يصدر إلّا عن شخص عاجز عن مواجهة المنطق والحقيقة وذلك لأنّ الله ﷻ قد وكّل مَلاك الموت لقبض أرواح البشر التي تتضمّن حقيقة كلّ واحد منهم، وكلّ تلك الحقائق محفوظة عند الله سبحانه ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾[2] ومتى شاء وقضت إرادته فلن يصعب عليه إطلاقاً جمعهم ثانية بالحقائق التي كانوا عليها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ كلمة (فَوْت) الشائعة الاستخدام ليس لها أيّ أصل قرآنيّ، ومعناها الهلاك والمَوت بينما يعني الفعل اللفيف المقرون (توفّى) استوفى استيفاءً كاملاً واستوفى المرءُ حقَّه و«بَحث مستوفى» معناه البحث الكامل والجامع، ولهذا قال الله تعالى ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ في مقابل كلمة المشكّكين ﴿ضَلَلْنَا﴾ فالأولى تعني الأخذ والاستيفاء الكامل وليس الموت والهلاك. والخلاصة هي أنّ أيّاً من ذرات البدن لا تفنى ولا تنعدم تماماً ولن يعزب أيّاً منها عن علم الله سبحانه وتعالى.

بحث روائيّ

١. معنى «كَيْفَ» في سؤال إبراهيم عليه السلام

عن الصّادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ قال:

---

١. سورة السّجدة، الآية ١١.

٢. سورة طه عليه السلام، الآية ٥٢.

«وهذِهِ آيَةٌ مُتَشابِهة؛ مَعْناها أنَّهُ سَأَلَ عَن الكَيْفيّة والكَيْفيّة مِن فِعْلِ الله ﷻ مَتى لَم يَعْلَمها العالِمِ لَم يَلْحَقه عَيب وَلا عَرض في تَوْحِيدِهِ نَقْص»[١].

إشارة: اعتقد العلّامة الطباطبائيّ رحمه الله أنّ سؤال سيّدنا إبراهيم عليه السلام كان حول السبب وتأثيره وهو ما عبّر عنه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٢] وقد سأل إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحياء الموتى وهو فعل يدخل في إطار أفعال الله تعالى الخاصّة، فالله ﷻ هو سبب الحياة في كلّ موجود حيّ والأحياء أحياء بأمره وإرادته هو[٣].

وقد مرّ بنا في البحث التفسيريّ الحديث عن السؤال والكيفيّات المختلفة في الإحياء.

٢. الهدف من سؤال إبراهيم عليه السلام

عن أبي بَصير عن أبي عبد الله عليه السلام: «إنّ إبراهيم عليه السلام نظرَ إلى جِيفة على

١. كتاب الخصال، ج١، ص٣ـ٨؛ بحار الأنوار، ج١٢، ص٦٩.
٢. سورة يس صلى الله عليه وآله، الآية ٨٣.
٣. «... وثانياً: على أنّ إبراهيم عليه السلام إنّما سأَل أن يشاهد كيفية الإحياء لا أصل الإحياء كما أنّه ظاهر قوله: ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ وهذا السؤال متصوّر على وجهيْن: الوجه الأول: أن يكون سؤالاً عن كيفية قبول الأجزاء المادية الحياة وتجمّعها بعد التفرّق والتبدّد وتصوّرها بصورة الحيّ. ويرجع مُحصّله إلى تعلّق القدرة بالإحياء بعد الموت والفناء. الوجه الثاني: أن يكون عن كيفية إفاضة الله الحياة على الأموات وفعله بأجزائها الذي به تلبس الحياة ويرجع محصّله إلى السؤال عن السّبب وكيفية تأثيره، وهذا بوجه هو الذي يُسميه الله سبحانه بملكوت الأشياء... وإنّما سأل إبراهيم عليه السلام عن الكيفية بالمعنى الثاني دون المعنى الأوّل: أمّا أوّلاً: فلأنّه قال: ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ بضمّ التّاء من الإحياء فسأل عن كيفية الإحياء الذي هو فعل ناعتٌ لله تعالى وهو سبب حياة الحيّ بأمره، ولم يَقُل: كيف تَحيي الموتى، بفتح التّاء من الحياة حتى يكون سؤالاً عن كيفية تجمّع الأجزاء وعَوْدها إلى صورتها الأولى وقبولها الحياة ولو كان السّؤال عن الكيفية بالمعنى الثاني لكان من الواجب أن يَرِد على الصورة الثانية». تفسير الميزان، ج٢، ص٣٦٧.

ساحل البحر تأكله سِباع البَرّ وسِباع البَحر؛ ثمّ تحمل السباع بعضها على بعض فيأكلُ بَعضُها بَعضاً؛ فتعجّب إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾. فأخذ إبراهيم عليه السلام الطاووسَ والدّيك والحمام والغُراب؛ فقال الله عزّ وجلّ: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾؛ أي قَطعهنّ ثمّ اخلط لَحمَهنّ وفرّقهُنّ على عَشرة جبال، ثمّ خُذ مناقيرهنّ و﴿ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾. ففعلَ إبراهيم عليه السلام ذلك وفرقهنّ على عَشرة جِبال ثمّ دعاهُنّ. فقال: أحْيي بإذن الله تعالى؛ فكانت تُجْمَع ويتألّف لَحم كُلّ واحد وعَظمه إلى رَأسه وطارَت إلى إبراهيم عليه السلام، فعندَ ذلك قال إبراهيم: ﴿أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾»[1].

ـ عن علي بن محمّد بن الجَهم، قال: حضرتُ مجلس المأمون وعنده الرّضا عليه السلام فقال له المأمون: يابن رسول الله! أليسَ مِن قولكَ أنّ الأنبياءَ مَعصومون؟ قال: «بلى...». قال: فأخبرني عن قَوْل إبراهيم [عليه السلام]: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. قال الرّضا عليه السلام: «إنَّ الله (تَبارك وتَعالى) كانَ أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: إنّي مُتّخِذٌ مِن عبادي خَليلاً إنْ سَألني إحياءَ الموتى أجَبته؛ فوَقعَ في نَفس إبراهيم عليه السلام أنّه ذلكَ الخَليل؛ فقالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ على الخِلْقة...»[2].

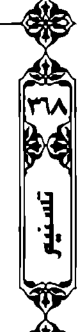
ـ عن علي بن أسباط، أنّ أبا الحسن الرّضا عليه السلام سُئِلَ عن قَوْل الله: ﴿قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أكانَ في قَلبه شَكّ؟ قال: «لا، ولكنّه أرادَ مِن الله الزّيادة في يَقينه»[3].

---

١ . تفسير القمي، ج١، ص٩١؛ أصول الكافي، ج٨، ص٣٠٥؛ تفسير مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٦٤٣ ـ ٦٤٤، بتصرّف.

٢ . الصّدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص١٧٤ ـ ١٧٦.

٣ . تفسير العياشي، ج١، ص١٤٣.



ـ ورُويَ أنّ نَمرود تَوَعّده بالقَتل إنْ لَمْ يُحْيِ الله الميتَ بحيث يُشاهده؛ فلذلك قال: ﴿لِيطمَئِنَّ قَلبي﴾؛ أي بألّا يَقتُلني الجَبّار؛ عن محمّد بن إسحاق بن يسار[١].

إشارة: يمكننا إيجاز الأهداف التي يتضمّنها سؤال سيّدنا إبراهيم عليه السلام حول كيفية إحياء الموتى، في أُمور أربعة:

أ. وفقاً للرواية الأولى فإنّ إبراهيم عليه السلام كان قد تعجّب من أكل السّباع في البَرّ والبحر للجيفة التي كانت على شاطئ البحر وتنافس بعضها مع البعض الآخر عليها. وقد فسّرت هذه الرواية كلمة ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ بمعنى (فقطّعهنّ) حيث تمّ تبرير هذا المعنى في بحث مُفردات الآية بالقول بأنّها استُخدِمَت مع حرف الجرّ «إلى» مع تضمين معنى (المَيْل). واستناداً إلى تعليق العلّامة الطباطبائيّ رحمه الله في ذيل الرواية المذكورة فإنّ سؤال سيّدنا إبراهيم عليه السلام عن إحياء الموتى إنّما هو بسبب تبعثر أجزاء الجسد بعد الموت وتناثره في أماكن متعددة من الأرض وربّما تغيّرها واستحالتها إلى موادّ أخرى كثيرة وعدم بقاء شيء من أصل الجسد ليتمّ إحياؤه ثانية فيما بَعد[٢].

تذكير: لاحِظ أنّ كلّ سؤال وجواب أشار إليهما الوَحي يشتملان على مسائل وموضوعات خاصّة بهما وربّما كان بعضها أو جميعها يدخل في إطار المَثل المعروف «إيّاكِ أعني واسمعي يا جارَة» كأن يسأل السائل نيابة عن الآخرين فيُجيب المُجيب ليسمع غيره ويَعي ما يُقال، وقد تكون المسألة في الآية الّتي هي موضوع البحث من هذا القبيل كذلك.

ب. وبالاستناد إلى الرواية الثانية فإنّ السّبب وراء سؤال سيّدنا إبراهيم عليه السلام هو حُبّه وشَغفه لمعرفة ما إذا كان قد بلغ مقام الخُلّة التي ذكرها

---

١. الطبرسيّ، **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٤٤؛ **بحار الأنوار**، ج١٢، ص٦٤.

٢. أنظر **تفسير الميزان**، ج٢، ص٣٧٩.

الله ﷻ وأنّه قد أصبح خليل الله بالفعل لأنّ مَن يحتلّ مقام الخلّة ينبغي أن يُستجابَ دُعاؤه[١].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه ربّما كانت مسألة الخُلّة دافعةً وغاية لخليل الله عليه السلام لكي يطرح السؤال المذكور ويطلب من الله تعالى ذلك الطلب إلّا أنّ هذا الاحتمال لا يتناسب مع محور السؤال ولا مع جواب الوَحي عليه في الآية الشريفة أللهمّ إلّا إذا قَبلنا على مَضض أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ هو موضوع «الخُلّة»، لكنّ ظاهر القول يشير إلى أنّ مُتَعَلَّق تلك العبارة هو المَعاد وإحياء الموتى. على أيّة حال، فقد يكون مثل ذلك الهدف أو تلك الغاية موجودة في أعماق فؤاد خليل الله عليه السلام إلّا أنّه لا يمكن لهذا الأمر أن يكون المحور لمعارف الآية الشريفة.

ج. وعلى أساس الحديث الثالث فإنّ غاية سيّدنا إبراهيم عليه السلام كانت الزيادة في يقينه، أي لم يكن يُراود قلبه الشّريف أيّ شكّ إطلاقاً حول ذلك بل كان يرجو أن يمنّ الله سبحانه عليه ببلوغ مقام «حَقّ اليقين» الذي يمثّل أعلى مراتب العلم الحضوريّ، فلقد كان سيّدنا إبراهيم عليه السلام يتوق لأن يكون مظهر المُحيي والمُميت ويتحرّق للوصول إلى أسمى درجات الطمأنينة القلبية؛ نعم، كان ذلك مُراد خليل الله عليه السلام الأوّل والأخير.

د. تشير بعض الروايات إلى أنّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام طلب من الله تعالى طمأنة قلبه في مقابل تهديدات نمرود له بالقتل.

---

١. «واعلم: أنّ الرواية لا تخلو عن دلالة ما على أنّ مقام الخُلّة يَستلزم استجابة الدعاء، واللفظ يساعد عليه فإنّ الخلة هي الحاجة، والخليل إنّما يُسمّى خَليلاً لأنّ الصّداقة إذا كَملت رَفع الصّديق حوائجه إلى صديقه، ولا معنى لرَفعها مع عدم الكفاية والقضاء». المصدر السابق، ص٣٨٠.



٣. نَقد شُبهة تغيّر الأجزاء

عن حَفص بن غياث القاضي قال: كنتُ عند سيّد الجعافرة جَعفر بن محمّد عليها السلام لمّا أقدَمه المنصور، فأتاه ابن أبي العوجاء وكان مُلحِداً فقال له: ما تقول في هذه الآية: ﴿كُلَّما نَضِجَت جُلودُهُم بَدَّلنهُم جُلودًا غَيرَها لِيَذوقوا العَذاب﴾[1]؛ هَب هذه الجلودُ عَصت فعُذِّبَت، فما بال الغير؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: «وَيحكَ، هي هي وهي غيرها». قال: أعقلني هذا القول. فقال عليه السلام له: «أرَأيْتَ لَو أنّ رَجُلاً عَمَدَ إلى لبنةٍ فَكسرها ثمّ صَبّ عليها الماءَ وجَبَلها ثمّ رَدّها إلى هَيئتِها الأولى، أَلَمْ تَكُن هي هي وهي غيرها؟» فقال: بلى، أمْتَعَ اللهُ بِك[2].

إشارة: يدلّ كلام مولانا الصّادق عليه السلام على أنّ أصل المادة والشكل واحد، وهذا ينطبق على الإنسان كذلك فالرّوح هي إطاره الأصلي وجوهره، وهذه الرّوح هي المُرتَكِب الأصلي للمعصية أو أيّ فعل من الأفعال فيما لا يُعتبر الجلد مثلاً أو أيّ عضو آخر من أعضاء الإنسان مُذنباً بالمرّة.

وجدير بالذّكر أنّ عذاب الروح نوعان:

١) العذاب الرّوحيّ كالتشهير والخزي في الدّنيا والآخرة ـ والعياذ بالله.

٢) العذاب الجسديّ، وهو العذاب الذي تُعانيه الرّوح بواسطة الجسد باعتبار هذا الأخير هو وسيلة من وسائل الروح.

والخلاصة أنّ أعضاء الجسد بمثابة وسائل وأدوات للرّوح، وأيّ عضو تتقبّله الروح وتعتبره جزءاً من الجسد الذي تتحكّم فيه تتكوّن بينه وبينها علاقة

---

١. سورة النساء، الآية ٥٦.

٢. الطوسيّ، **الأمالي**، ص٥٨١؛ **تفسير البرهان**، ج٢، ص٢٤٨. راجع كذلك: **كتاب الاحتجاج**، ج٢، ص٢٥٦.



وطيدة وقرابة قريبة، ولمّا كانت الروح واحدة فقط في كلّ جسد وكان كـلّ تغيـير يطرأ على أيّ عضو من أعضاء الجسد يُنسَب إليها فإنّ العذاب الأُخـرويّ يبقـى كما هو دون أيّ تغيير إذ الحقيقة هي أنّ شخصاً واحداً ومُعيّناً يتمّ تعذيبـه ولـيس هناك عدّة أشخاص.

* * *

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾

خلاصة التفسير

إنّ ما يقوم به الذين يُنفقون أموالهم في سبيل الله ﷻ يُشبه زَرع الحبّة أو البذرة التي تُنبت فيها بَعد سَبع سَنابل تحمل كلّ سُنبلة منها مائة حَبّة من الحبّات الأولى (وهذا مثال على تشبيه المعقول بالمَحسوس)، والله سبحانه قادر على مضاعفة ثَمرة إنفاق مَن يشاء من عباده المؤمنين فهو الواسع وهو العليم، وهو تعالى أدرى بمَن يستحقّ ثواب الإنفاق وزيادته.

التفسير

المُفردات

حَبَّةٍ: «الحَبّة» هي البِزر كحبّة القَمح أو الشعير، والأصل في هذه المادّة هو الوداد والمَيْل الشّديد، وأمّا (الحَبّ) فهو من ذلك المعنى من جهة كونه حَبيباً للزارع ونتيجة عمله ومُنتهى قَصده ومَيْله وتوجّهه[1]، ووجود حرف (التّاء) في

---

١ . العلّامة المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٢، ص١٦٠ ـ ١٦٢، مادّة (ح ب ب).



الحَبّة هو لبيان المُفرد كالتّمرة. و(الحَبّة) تُقال في الحنطة والشعير ونحوهما من المطعومات، والحَبّ والحَبّة في بزور الرّياحين[1].

أَنبَتَتْ: الأصل الواحد في هذه المادّة هو خروج شيءٍ من محلّ بالنموّ سواء كان المحلّ أرضاً أم محلّاً آخر وسواء كان النبات الخارج له ساق كالأشجار أم لا كالكلأ وغيره ممّا لا ساق له وسواء كان النامي نباتاً أم غير نبات وغير ماديّ. و(النّبتُ) و(النّبات) مصدران لازماً، ويُطلَق «النّباتُ» على ما يَنبُت باعتبار كونه مصداقاً للنّبت. والفرق بين المادّة والنموّ أنّ النّظر في المادّة إلى جهة الخروج من محلّ بالنموّ، وفي النموّ إلى جهة حصول زيادة ورُشد بعد الخروج[2].

سَنَابِلَ: «السُّنبُلة» جَمعها (سَنابِل) وهي ما على الزّرع[3]، وأصل السّنبلة هو (سبل)[4]، وقد اشتُقّ منها جذران، هما:

١. (الإسبال)[5] هو الزيادة الحاصلة في الطول، و(سِبال) جَمع (سَبَلَة) وسَبَلَة الإنسان مِن هذا لأنّه شَعرٌ مُنسدل[6]، وسمِّي السُّنبُل سُنبُلاً لامتداده[7].

---

١. الراغب الأصفهانيّ، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٢١٤، مادّة (ح ب ب).

٢. العلّامة المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١٢، ص٢٠، مادّة (ن ب ت).

٣. الراغب الأصفهانيّ، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٣٩٦، مادّة (س ب ل).

٤. «السَّبُولَةُ والسُّبولَةُ والسُّنْبُلة. الزَّرْعة المائلة. والسَّبَلُ. كالسُّنْبُل، وقيل. السَّبَل ما انْبَسَط من شَعاع السُّنْبُل، والجمع سُبُول، وقد سَنْبَلَتْ وأَسْبَلَتْ... [و] السَّبولة هي سُنْبُلة الذُّرَة والأَرُزّ ونحوه إذا مالت. وقد أَسْبَل الزَّرْعُ إذا سَنْبَل. والسَّبَل: أطراف السُّنْبُل، وقيل السَّبَل السُّنْبُل، وقد سَنْبَل الزَّرْعُ أي خرج سُنْبُله». (**لسان العرب**، ج١١، ص٣٢١، مادّة «سبل»).

٥. «ومَلأَ الكأس إلى أَسبالِها أي حروفها، كقولك إلى أَصْبارِها، ومَلأَ الإِناءَ إِلى سَبَلته أَي إِلى رأْسه، وأَسْبالُ الدَّلْوِ: شِفاهُها». (**لسان العرب**، مادّة «سبل»).

٦. العلّامة المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٥، ص٤٥، مادّة «س ب ل».

٧. «يُقال أَسبَلَ الزّرعُ، إذا خَرَج سُنبله.... [و] سَبَلُ الزَّرعِ وسُنْبُلُه سواء، وقد سَبَلَ وأَسْبَلَ». (**معجم مقاييس اللغة**، ج٣، ص١٣٠، مادّة «س ب ل»).



٢ . (السّبَل): السّتْر والغطاء واللّباس، و«السُّنْبُل» معروف وهو على (فُنْعُل)، قيل الأصل في معنى مادّته السّتر، سُمِيَ به لأنه يَستر الحَبّات التي تشتمل عليها في الأغلفة[1].

تناسب الآيات

تُعتبر هذه الآية بداية الآيات أربع عشرة آيةً التي تتحدّث جميعها عن موضوع (الإنفاق) ـ الآيات من (٢٦١) إلى (٢٧٤) ـ ولا شكّ في أنّ سياق الموضوع المذكور ووحدته كليهما يتناولان مسألة ترغيب المؤمنين وتشجيعهم على الإنفاق وتوضيح وبيان شؤون الإنفاق المختلفة، لا شكّ في أنّ ذلك كلّه يُمثّل دليلاً على نزول تلك الآيات نزولاً دفعيّاً ويشير إلى العلاقة الوثيقة بينها[2].

والآيات الأربع عشرة المذكورة جميعها تحثّ المؤمنين على إنفاق جزء مُعيّن من أموالهم الطيبة في سبيل الله سبحانه دون مَنّ أو أذى على المحتاجين والمساكين ممّن أصبحوا فقراء ومُعْوِزين في سبيل الله كذلك، ووعدهم ﷻ بثواب جزيل ومكافأة عظيمة في الدّنيا والآخرة[3].

---

١ . تفسير الميزان، ج٢، ص٣٨٧.

٢ . «سياق الآيات من حيث اتّحادها في بيان أمر الإنفاق ورجوع مضاميها وأغراضها بعضها إلى بعض يُعطي أنّها نزلت دفعة واحدة، وهي تحثّ المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله تعالى». (المصدر السابق، ص٣٨٢).

٣ . «تضرب (الآيات المذكورة) أوّلاً مثلاً لزيادته ونموّه عند الله سبحانه، واحد بسبعمائة، وربّما زاد على ذلك بإذن الله، وثانياً مثلاً لكونه لا يتخلّف عن شأنه على أيّ حال، وتَنهى عن الرّياء في الإنفاق. وتضرب مثلاً للإنفاق رياءً لا لوجه الله وأنّه لا يَنمو نماءً ولا يُثمر أثراً، وتنهى عن الإنفاق بالمَنّ والأذى إذ يُبطلان أثره ويَحبطان عظيم أجره. ثمّ تأمر بأن يكون الإنفاق من طيّب المال لا من خَبيثه بُخْلاً وشُحّاً، ثمّ تُعيّن المورد الذي تُوضع فيه هذه الصّنيعة وهو الفقراء المحصرون في سبيل الله، ثمّ تذكر ما لهذا الإنفاق من عظيم الأجر عند الله. وبالجملة الآيات

←



وحول أوجه التناسب الموجودة بين هذه المجموعة من الآيات وبين الآيات التي سبقتها، قيل:

١. تُعتبر هذه الآية الشريفة تكملة لموضوع الإنفاق الوارد في الآية التي سبقتها وهو قوله تعالى: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾[1] وأمّا ما جاء بينهما من آيات فهي بمثابة آيات اعتراضية، الهدف منها هو الدّعوة إلى الحقّ وبيان الحُجج والدّروس والعِبَر.

٢. بعد بَرهنة التوحيد وبيان المُعجزات الكثيرة التي أتى بها الأنبياء والمرسلون عليهم السلام، نزلت هذه الآيات الشريفة لدعوة المؤمنين إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم ضدّ الكافرين والمشركين الذين وقفوا في وجه البراهين وكذّبوا المعجزات وأنكروا ذلك بعنادهم ولجاجتهم[2].

٣. كانت الآيات السابقة على هذه الآية تقصّ حكاية الشخص الذي أماته الله سبحانه مائة عام ثمّ أحياه وكذلك قصّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام مع الطيور المذبوحة وهما شاهدتان ودليلان محكمان على حقيقة المعاد والقيامة، فقد ورد في

تدعو إلى الإنفاق وتبيّن أوّلاً وجهه وغرضه وهو أن يكون لله لا للنّاس، وثانياً صورة عمله وكيفيته وهو ألّا يتعقّبه المنّ والأذى، وثالثاً وصف مال الإنفاق وهو أن يكون طيباً لا خبيثاً، ورابعاً نَعت مورد الإنفاق وهو أن يكون فقيراً أُحْصِرَ في سبيل الله. وخامساً ما لَه من عظيم الأجر عاجلاً وآجلا». **تفسير الميزان**، ج٢، ص٣٨٢ ـ ٣٨٣.

١ . **سورة البقرة، الآية ٢٤٥**.

٢ . «اتّصلت هذه الآية بقوله ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ**﴾ وما بين الآيتين اعتراض بالاستدعاء إلى الحقّ وبيان الحُجج والعِبَر (عن علي بن عيسى) وقيل لِما قصّ تعالى ما فيه البرهان على التوحيد وما آتى رُسلَه من البيّنات حَثّ على الجهاد. واعلم أنّ من عاند بعد هذه الدلالات يجب قتاله فحثّ على قتال من كفرَ بعد هذا البرهان وبيّنَ أنّ في جهادهم والنّفقة فيهم الثواب العظيم (عن الزجاج)». (أمين الإسلام الطبرسيّ، **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٤٦).

هذه الآية الشريفة موضوع آخر مهمّ وعمل ينفع الإنسان يوم القيامة ألا وهو الإنفاق في سبيل الله تعالى[١]، لكن يمكن القول بأنّ الله ﷻ كان قد أمرَ قبل هذا بالإنفاق في سبيله في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٢] ولمّا أشار سبحانه إلى أنّه لن يكون بمقدور أحد الإنفاق يوم القيامة أفرد ﷻ ستّ آيات لبيان البحوث العَقَدية المُعمّقة فيما يتعلّق بالتوحيد وحريّة الإنسان في الاختيار ومسؤوليته والتذكير بالمعاد، ثمّ عاد القرآن الكريم ثانياً ليذكّر بموضوع الإنفاق في سبيل الله تعالى وحقيقته وصورته المثالية فشبّه ذلك بالحبّة التي تُنبت سَبع سنابل والتي تُثمر بدورها سبعمائة حبّة أخرى، ثمّ انتقل بعدها في الآيات اللاحقة إلى تفصيل أهداف الإنفاق في سبيل الله وتوضيح شروطه ونتائجه الباهرة وأخيراً الثواب الذي سيحصل عليه المُنفِق من وراء إنفاقه لمرضاة الله.

* * *

١ . «مناسبة هذه الآية لما قبلها هي أنّه لما ذُكر قصة المارِّ على قرية وقصة إبراهيم [عليه السلام]، وكانا من أدلّ دليل على البعث، ذُكِرَ ما يُنتَفَع به يوم البعث وما يَجِد جَدواه هناك وهو الإنفاق في سبيل الله، كما أعقب قصّة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت بقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وكما أعقب قَتل داودُ جالوتَ وقوله: ﴿وَلَوْ شَاء اللهُ مَا اقْتَتَلُواْ﴾ بقوله: ﴿مَا يُرِيدُ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾، فكذلك أعقب هنا ذكر الإحياء والإماتة بذكر النّفقة في سبيل الله لأنّ ثمرة النفقة في سبيل الله إنّما تُظهر حقيقة يوم البعث: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ واستدعاء النفقة في سبيل الله مذكّر بالبعث، وحاض على اعتقاده لأنّه لو لم يعتقد وجوده لَمَا كان يُنفق في سبيل الله، وفي تمثيل النفقة بالحبّة المذكورة إشارة أيضاً إلى البعث وعظيم القدرة، إذ حبّة واحدة يُخرج الله منها سبعمائة حبة، فمَن كان قادراً على مِثل هذا الأمر العجاب فهو قادر على إحياء الموات وبجامع ما اشتركا فيه من التغذية والنموّ». (**تفسير البحر المحيط**، ج٢، ص٣١٥).

٢ . **سورة البقرة، الآية ٢٥٤**.



تشبيه المعقول بالمَحسوس

إنّ تشبيه إنفاق المؤمنين في سبيل الله تعالى بالحبّة التي تُنتج سبعمائة ضعف منها أو أكثر يُعدّ من الناحية الأدبية تشبيهاً لحادث ما بحادث آخر، وأمّا من الناحية المعرفية فهو تشبيه للمعقول بالمَحسوس بهدف إثارة الرغبة والدّافع فيكون سبباً كافياً لبيان بلاغة الموضوع وحيويّته بجلاء ووضوح تامّيْن، بل إنّ للتشبيه بشكل عامّ تأثيراً بيانيّاً لا يُضاهى[1].

---

١. «التشبيه: لغة الدلالة على مشاركة أمر لأمر آخر، وظاهر هذا شامل لنحو قولنا: قاتل زيد عمرواً، وجاءني زيد وعمرو، وما أشبه ذلك، مع أنّها ليست من التشبيه... وعند أهل البيان هو الدّلالة على مشاركة أمر لأمر آخر في معنى لا على وجه الاستعارة التحقيقية والاستعارة بالكناية والتجريد. وكثيراً ما يطلق في اصطلاحهم على الكلام الدّال على المشاركة المذكورة أيضاً، فالأمر الأوّل هو المشبّه على صيغة اسم المفعول والثاني هو المشبّه به، والمعنى هو وجه التشبيه، والمتكلّم هو المشبّه على صيغة اسم الفاعل. قيل: وينبغي أن يزاد فيه قولنا بالكاف ونحوه ليخرج عنه نحو: قاتل زيد عمروا!، وجاءني زيد وعمرو. وفيه أنّه ليس تشبيهاً كما عرفت، فدخل في هذا التفسير ما يُسمّى تشبيهاً بلا خلاف وهو ما ذُكرت فيه أداة التشبيه نحو: زيدٌ كالأسد، أو كالأسد، بحذف زيدٍ لقيام قرينة. وما يُسمّى تشبيهاً على القول المختار وهو ما حذفت فيه أداة التشبيه وجعل المشبّه به خبراً عن المشبّه أو في حكم الخبر سواء كان مع ذكر المشبّه أم مع حذفه. فالأوّل كقولنا: زيد أسد، والثاني كقوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أي هم صمّ بكم عمي، فإنّ المحققين على أنّه يُسمّى تشبيهاً بليغاً لا استعارة. ثم إنّ هذا التعريف عرف به الخطيب على ما هو مذهبه فإنّ مذهبه أنّ الاستعارة مشتركة لفظا بين الاستعارة التحقيقية والاستعارة بالكناية ولذا لم يَقُل لا على وجه الاستعارة مع كونه أخصر، إذ لا يصحّ إرادة المعنييْن من المشترك في إطلاق واحد ولم يذكر الاستعارة التخييلية لأنّها عنده، وكذا عند السّلف إثبات لوازم المشبّه به للمشبّه بطريق المجاز العقلي، وليست فيه دلالة على مشاركة أمر لأمر فهي خارجة بقوله الدلالة على مشاركة أمر لأمر، بل لم يدخل في التفسير حتى يحتاج إلى إخراجه بقَيْد. وأمّا على مذهب السّكّاكي وهو أنّ الاستعارة مشتركة معنى بين الكلّ والتخييلية استعارة اللفظ لمفهوم شبه المحقّق فيجب الاكتفاء بقوله ما لم يكن على وجه الاستعارة لأنّ في التقييد تطويلاً وكذا عند السلف فإنّ لفظ الاستعارة عندهم مشترك معنى بين التحقيقية والمكنية... والتجريد أي لا على ←

وجه التجريد ليخرج تشبيه يتضمّنه التجريد وهو التجريد الذي لم يكن تجريد الشيء عن نفسه لأنّه حينئذ لا تشبيه نحو: ﴿لَهُمْ فِيها دارُ الخُلْدِ﴾ فإنّه لا نزاع أن دار الانتزاع دار الخلد من جهنّم وهي عين دار الخلد لا مشبّه به، بخلاف: لقيت من زيد أسداً، فإنّه لتجريد أسد من زيد، وأسد مُشبّه به لزيد لا عَينه، ففيه تشبيه مُضمر في النفس. فمن احترز به عن نحو قولهم: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ﴾ فلم يجرّد عقله عن غواشي الوَهم، وكأنّ حبالة الوهم فيه تعريف التجريد بالانتزاع من أمر ذي صفة إلخ... ثمّ إنّهم زعموا أنّ إخراج التجريد من التشبيه مخالفة من الخطيب مع المفتاح حيث صرّح بِجَعْل التجريد من التشبيه... إذا أُريد الجمع بين شيئيْن في أمر مركّباً كان أو مفرداً حسيّاً كان أو عقلياً، واحداً كان أو متعدداً، فالأحسن أن يُسمّى تَشابهاً لا تشبيهاً ويجوز التشبيه أيضاً، وذلك تارة يكون في المتساوييْن في وجه الشّبه، وتارة يكون في المتفاوتين من غير قصد إفادة التفاوت... أركان التشبيه أربعة، طرفاه يعني المشبّه والمشبّه به وأداته كالكاف وكأنّ ومثل وشبه ونحوها ووجهه وهو ما يشتركان فيه تحقيقاً أو تخييلاً، أي وجه التشبيه ما يشترك الطرفان فيه بحكم التشبيه فيؤول المعنى إلى ما دلّ على اشتراكهما فيه، فلا يرد نحو: ما أشبهه بالأسد، للجبان، لأنّ الشجاعة ليست مشتركة بينهما مع أنّها وجه التشبيه للدّلالة على مشاركتهما فيها، ولا يلزم أن يكون من وجوه التشبيه في: زيد كالأسد، الوجود والجسمية والحيوانية. ويتجه أنّه يلزم أن يكون الطرفان قبل الدّلالة على الاشتراك فيه طرفين إلّا أن يتجوّز... وفي قولنا تحقيقاً أو تخييلاً إشارة إلى أنّ وجه الشبه لا يجب أن يكون من أوصاف الشيء في نفسه من غير اعتبار معتبر. والمراد بالتخييل هو ألّا يوجد في أحد الطّرفين أو كليهما إلّا على سبيل التخييل والتأويل... [و] الغرض من التشبيه في الأغلب يعود إلى المشبّه لبيان إمكان وجوده أو لبيان حاله بأنّه على أيّ وصف من الأوصاف كما في تشبيه ثوب بآخر في السّواد، أو لبيان مقدار حاله كما في تشبيه الثوب بالغراب في شدّة السواد، أو لبيان تقريرها، أي تقرير حال المشبّه في نفس السامع وتقوية شأنه، كما في تشبيه من لا يحصل من سَعْيه على طائل بمَن يَرقم على الماء. وهذه الأغراض الأربعة تقتضي أنّ يكون وجه الشّبه في المشبّه به أتمّ وهو به أشهر، أو لبيان تزيينه في عين السامع كما في تشبيه وجه أسود بمقلة الظبي، أو لبيان تشويهه أي تقبيحه كما في تشبيه وجه مجدور بسلحة (البراز) جامدة قد نقرتها الديكة، أو لبيان استطرافه أي عدّ المشبّه طريفاً حديثاً كما في تشبيه فحم فيه جمر... وله ـ أي للاستطراف ـ وجه آخر غير الإبراز في صورة الممتنع عادة وهو أن يكون المشبّه به نادر الحضور في الذهن، إمّا مطلقاً كما في المثال المذكور وإمّا عند حضور المشبّه كما في قولهم في البنفسج:

ولازورديّة تزهو بزرقتها	بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنّها فوق قامات ضعفن بها	أوائل النار في أطراف كبريت

فإنّ صورة اتصال النّار بأطراف الكبريت لا تندر كندرة بحر من المسك موجه الذهب، لكن تندر عند حضور صورة البنفسج. وقد يعود الغرض إلى المشبّه به وهو ضربان: الضّرب الأول إيهام أنّه أتمّ في وجه التشبيه من المشبّه وذلك في التشبيه المقلوب، وهو أن يجعل الناقص في وجه الشّبه مشبّهاً به قصداً إلى ادّعاء أنّه زائد في وجه الشّبه... ولا يخفى أنّه يجوز أن يكون التشبيه المقلوب مبنياً على تسليم أنّه أتمّ من المشبّه إذا كان بينك وبين مخاطبك نزاع في ذلك وأنت جاريتَ معه، وأنّه يصحّ التشبيه المقلوب في تشبيه التزيين والتشويه والاستطراف لادّعاء أنّ الزينة في المشبّه به أتمّ أو القُبح أكثر، أو ادّعاء أنّ المشبّه أندر وأخفى. ولا يظهر اختصاصه بصورة الحاق الناقص بالكامل. والضرب الثاني بيان الاهتمام به أي بالمشبه به، كتشبيه الجائع وجهاً كالبدر في الإشراق والاستدارة بالرغيف، ويُسمّى هذا النوع من الغرض إظهار المطلوب. ويمكن تربيع قسمة الغرض ويجعل ثالث الأقسام أن يعود الغرض إلى ثالث وهو تحصيل العناق أي الاتصال بين صورتين متباعدتين غاية التباعد، فإنّه أمر مُستطرف مرغوب للطّباع جداً. ورابعها أن يعود الغرض إلى المشبّه والمشبّه به جميعاً، وهو جعلهما مُستطرفيْن بجميعهما لأنّ كلاً من المتباعديْن مُستطرف إذا تعانقا... وللتشبيه تقسيمات باعتبارات، الأول باعتبار الطرفين إلى أربعة أقسام لأنّهما إمّا حسّيان نحو: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ أو عقليّان نحو: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾... وكأنه ظنّ أنّ التشبيه واقع في القسوة وهو غير ظاهر بل هو واقع بين القلوب والحجارة، فمثاله العلم والحياة، أو مختلفان بأن يكون المشبّه عقلياً والمشبّه به حسّياً كالمنيّة والسبع أو بالعكس مثل العطر وخُلُق رجل كريم، ولم يقع هذا القسم في القرآن، بل قيل إنّ تشبيه المحسوس بالمعقول غير جائز لأنّ العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية إليها؛ ولذا قيل: مَن فَقَدَ حساً فَقَدَ عِلماً، يعني العلم المستفاد من ذلك الحسّ. وإذا كان المحسوس أصلاً للمعقول فتشبيهه به يكون جَعْلاً للفرع أصلاً والأصل فرعاً، وهو غير جائز. والمراد بالحسيّ المدرك هو أو مادّته بالحسّ أي بإحدى الحواسّ الخمس الظاهرة، فدخل فيه الخيالي، وبالعقلي ما عدا ذلك وهو ما لا يكون هو ولا مادّته مدركاً بإحدى الحواسّ الظاهرة فدخل فيه الوهميّ الذي لا يكون للحسّ مدخل فيه لكونه غير مُنتزع منه، بخلاف الخيالي فإنّه منتزع منه... وأيضاً التشبيه باعتبار الطرفين إمّا تشبيه مفرد بمفرد ويُسمّى بالتشبيه المفرق، والمفردان إمّا مقيّدان بأن يكون للمُقيد بهما مدخل في التشبيه... ثم إنّ القيد يشتمل الصّلة والمفعول ولا يخصّ بالإضافة والوصف كما هو المشهور. ومن القيود الحال أو غير مقيديْن كتشبيه الخدّ بالورد، أو مختلفان في التقييد وعدمه كقوله: والشمس كالمرآة في كفّ الأشل، فإنّ المشبّه، وهو الشمس، غير مقيّد والمشبّه به وهو المرآة مقيّد بكونها في كفّ الأشل وعكسه، أي تشبيه المرآة في كفّ الأشل بالشمس فيما يكون المشبّه مقيداً والمشبّه به غير مقيد. وإما تشبيه

مركّب بمركّب وحينئذ يجب أن يكون كلّ من المشبّه والمشبّه به هيئة حاصلة من عدة أمـور وهـو قد يكون بحيث يُحسن تشبيه كلّ جزء من أجزاء أحـد الطـرفيْن بـما يقابلـه مـن الطـرف الآخـر كقوله:

كأن أجـرام النجـوم لوامعـاً درر نشـرن عـلى بـساط أزرق

فإنّ تشبيه النجوم بالدّرر وتشبيه السماء ببساط أزرق تشبيه حـسن، وقـد لا يكـون بهـذه الحيثيـة كقوله:

فكـأنّما المـرّيخ والمـشتري قدّامـه في شـامخ الرفعـة

مُنـصرف بالليـل عـن دعـوة قـد أسرجـت قدّامـه شـمعة

فإنّـه لا يـصحّ تـشبيه المـريخ بالمنصرف بالليل عـن دعـوة

وقد يكون بحيث لا يمكن أن يعتبر لكلّ جزء من أجزاء الطرفين ما يقابله من الطرف الآخر إلّا بعد تكلّف، نحو: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً﴾ فـإنّ الـصحيح أنّ هـذين التـشبيهيْن مـن التشبيهات المركّبة التي لا يتكلّف لواحد واحد شيء يقدر تشبيهه به فإن جعلتها من المفرقـة فـلا بدّ من تكلّف وهو أن يُقال في الأوّل: شـبّه المنـافق بالمـستوقد نـاراً وإظهـاره الإيـمان بالإضـاءة وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، وفي الثاني شبّه دين الإسلام بالصيِّب وما يتعلّق به من شبه الكفـر بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالبرق والرعد، وما يُصيب الكفـرة مـن الإفـزاع والبلايـا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق. وإمّا تشبيه مفرد بمركّب كتشبيه الـشاة الجـبليّ بحـمار أبتَر مَشقوق الشفّة والحوافر نابت على رأسه شجرتا غضا... وأيضا التشبيه باعتبـار الطـرفين إن تعدّد طرفاه فإمّا ملفوف وهو أن يُؤتى على طريق العطف أو غيره بالمشبّهات أو لا، ثمّ بالمشبّه بها أو بالعكس كقولنا: كالشمس والقمر زيد وعمرو، وقولنـا: كـالقمرين زيـد وعمـرو، إذا أُريـد تشبيه أحدهما بالشمس والآخر بالقمر، أو مفروق وهو أن يُؤتى بمشبّه ومشبّه به ثمّ آخـر وآخـر كقوله: النشر مسك والوجوه دنانير... التقسيم الثاني باعتبار الأداة إلى مؤكـد وهـو مـا حُـذفت أداته نحو: زيد أسد، ومرسل وهو بخلافه. وفي جعل زيد في جواب من قال من يـشبه الـشمس تشبيهاً مؤكداً نظر لأنّ حذف الأداة على هذا الوجه لا يُشعر بأنّ المشبّه عين المشبّه به. فالوجـه أن يفرّق بين الحذف والتقدير ويجعل الحذف كناية عن التَّرْك بالكلية بحيث لا تكون مقدّرة في نظـم الكلام، ويجعل الكلام خلواً عنها مُشعراً بأنّ المشبّه عين المشبّه به في الواقع بحسب الظاهر؛ فعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ﴾ إذا كان تقـديره مثـل مـرّ الـسّحاب بالقرينـة، فتـشبيه مُرسل، وبدعوى أنّ مرور الجبال عين مرّ السحاب تشبيه مؤكّـد فاعرفـه، فإنّـه مـن المواهـب». (التهانويّ، **كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، مادة «تشبيه»). [المترجم]

والمعيار الأصليّ في التمثيل المذكور في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث هو تشبيه المعقول بالمحسوس، سواء أكان المحسوس موجوداً في الخارج أم لم يكن، أمّا محور الآية فلا يشير إلى وجود مزرعة أو حقل خارجيّ وأنّ كلّ حبّة في ذلك الحقل تعطي محصولاً بهذا القدر الكبير، ثمّ إنّه ما من حاجة تدعو إلى أن يتحقّق ذلك المقدار الكبير من المحصول في حقول طبيعية لها وجود خارجيّ كما قد يظنّ البعض وإن عثروا على بعض الأمثلة الحقيقية حول هذا الموضوع.

وجدير بالذّكر أنّ الحبة التي تُنتج محصولاً يُعادل سبعمائة ضعف أو أكثر ممّا هو مُتعارف عليه هو أمر ممكن وإذا ادّعى أحدهم أنّ مثل هذا الأمر لم يحدث إلى الآن فسنقول له: مَن يدري؛ ربّما حدث ذلك في المستقبل القريب أو البعيد عندما يخطو علم الزراعة خطوات كبيرة في التقدّم والتقنية والازدهار والرّقي.

السرّ في تشبيه المُنفِق بالحبّة

اهتمّ القرآن الكريم الذي نزل لتعليم الناس وتزكيتهم بتربية الفرد الكامل أو المتكامل ولهذا فهو لا يكتفي بطرح المسائل أو تقديم الاقتراحات البنّاءة بل سعى كذلك إلى احتضان السالكين والواصلين عَبر الحفاظ على العنصر الأساس للموضوع من خلال عرض الأمثلة المطلوبة، ويمكننا ملاحظة هذا الإبداع الأدبيّ بشكل مشهود في صلب تعليم الأحكام وتدريس الحِكَم وإن كان مختلفاً بعض الشيء عن أدب الحوار؛ على سبيل المثال، يُعرّف القرآن الكريم الصالحين والأبرار كوجه من وجوه تعريف البرّ أو الصلاح نفسه فيقول تعالى: ﴿... وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾[1] وفي موضع آخر يتحدّث القرآن الكريم عن

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٧٧.



المُستفيدين والمُنتفعين الحقيقيين يوم القيامة في محاولة لتعريف منفعة العمل الأُخرويّ وفائدته فقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[١] وهذا يشبه قولنا: «إلّا القلبَ السليم». وفي تعريفه للأُمّة الإسلامية في كلّ من التوراة والإنجيل فقد شبّه المسلمين بالزّرع في حين أنّ المُشبّه هو (أشخاص) والمُشبَّه به هو (الزّرع): ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾[٢].وفي الآية التي نحن بصدد تفسيرها تمّ فيها تشبيه المؤمنين المُنفقين في سبيل الله ـ وليس الإنفاق نفسه ـ بالحبّة التي تُثمر سبعمائة حبّة مثلها أو أكثر لأنّ الهدف على ما يبدو هو تربية المُنفقين لا تعليمهم تأثير الإنفاق وفائدته وحسب. ويُضاف إلى ما قُلناه أنّ التعبير بالفعل المضارع ﴿يُنفِقُونَ﴾ يشير إلى حالة الاستمرارية في سيرة عباد الله الصالحين في الإنفاق في سبيله.

الأجر المُضاعَف

أشارَت الآية الشريفة إلى أنّ الله ﷻ يَهب لِمَن يشاء سبعمائة ضعف من الأجر وكذلك يَهب سبحانه سبعمائة ضعف من الأجر لِمَن يرغب في ذلك، وهذا يعني ضعفيْ ذلك الأجر (أي «١٤٠٠» ضعف) بقوله: ﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ بل وأكثر من ذلك أيضاً حيث استطرد القرآن الكريم قائلاً إنّه ليس هناك حدّ لمضاعفة أجر الإنفاق ولا نهاية لزيادته: ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ ولمّا كانت مشيئة الله ﷻ قائمة على الحكمة الإلهية فهو سبحانه أعلم بمَن يستحقّ الأجر ومتى يهبه أجر إنفاقه وما إذا كان المُنفِق يستحقّ ضعفاً واحداً أو ضعفيْن أو عدّة أضعاف أو سبعمائة ضعف أو أكثر من ذلك.

---

١ . سورة الشّعراء، الآيتان ٨٨ و ٨٩.

٢ . سورة الفتح، الآية ٢٩.

هذا، وقد ذكر القرآن الكريم أجر الإنفاق بعبارات متنوّعة ودرجات مختلفة ومراتب متفاوتة كما يأتي:

١. ففي بعض الأحيان يَعِد سبحانه المُنفِقَ بألّا ينقص من ماله شيء عند إنفاقه في سبيل الله وأنّه تعالى كفيل بسدّ كلّ نقص قد يحدث في ماله، وأنّ أقلّ مقدار يُعَوَّض به هو مقدار المال نفسه دون زيادة أو نقصان، أمّا الحدّ الأكثر للزيادة فهو لا حَصر له إطلاقاً، وعندئذ يمكن تشبيه هذا النّوع من الإنفاق بأخذ كمية من ماء النّهر الجاري حيث يقوم الماء الموجود في النّهر بسدّ مَسَدّ كمية أو مقدار الماء المأخوذ منه فوراً دون أن يشعر بذلك الشخص الذي أخذ الماء، على عكس مَن يأخذ مثلاً حجراً من الأرض فيُخلّف وراءه حفرة فارغة: ﴿**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾[1]، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلَفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ**»[2].

٢. وفي أحيان أخرى يُبيّن الله عزّ وجلّ للمُنفِق المؤمن أنّ إنفاقه في سبيل الله يشبه بستاناً يقع في مكان مُرتفع وأرض خصبة طيّبة وموقع جغرافيّ ممتاز تسطع عليه الشّمس من الصباح إلى المساء دون أن يُعيق نورها وشعاعها وهطول المطر وهبوب الأنسام[3] أيّ عائق ما يجعل محصولها مُضاعفاً وثمارها متنوّعة وكثيرة: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ**﴾[4].

---

١. **سورة سبأ**، الآية ٣٩.

٢. **نهج البلاغة**، الحكمة رقم ١٣٨.

٣. جمع «نَسيم»: الرّيح اللينة لا تحرّك شجراً ولا تُعفّي أثَراً. (الدكتور إميل بديع يعقوب، **المعجم المفصّل في الجموع**، دار الكتب العلمية، بيروت). [المترجم]

٤. **سورة البقرة**، الآية ٢٦٥.



٣. وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم يُبشّر الله ﷻ المؤمنين بقوله إنّه مَن أنفقَ في سبيله مالاً أو قدّم عملاً صالحاً فإنّ عمله هذا هو بمثابة قَرض يُقرضه لله تعالى ولا جَرَم أنّ من يُقرض الله سبحانه فإنّ الله العزيز الكريم سيُعيد إليه قَرضه أضعافاً مُضاعفة: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[1].

٤. وفي بعض الآيات نلاحظ القرآن الكريم وهو يَصف المُنفقين لأموالهم في سبيل الله تعالى قائلاً إنّ إنفاق هؤلاء يشبه حبّة زرع أنبتت سبعمائة ضعف من الحبّ وأنّ الله ﷻ قادر على أن يَهب مثل هذا الأجر الجزيل لِمَن تقتضي مشيئته وحكمته ذلك أو يَهب ضِعفَيْ ذلك العدد (أي: ١٤٠٠) لِمَن يشاء من المُنفقين: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

٥. وقد يَعمد القرآن الكريم في أحيان أخرى إلى تشجيع المُنفقين في سبيل الله وتذكيرهم بأنّ أجر إنفاقهم لا حدود له إطلاقاً لأنّ رحمة الله وقدرته تعالى واسِعَتَان ولذلك فلا حدود أيضاً لأجره وثوابه أبداً: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2] وهذا المعنى يتضمّنه المقطع الأخير من الآية الّتي هي موضوع البحث ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بكلّ وضوح.

الهدف من الإنفاق

من المعروف أنّ العوارض المترتّبة على الذوات في النظام التكوينيّ تنقسم إلى

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٤٥.

٢ . سورة النور، الآية ٣٨.



قسميْن، فبعضها يكون ذاتياً ويكون بعضها الآخر عَرضياً، ومنها ما هو أصيل وفيها ما يُعدّ فرعاً، وكذلك هي الآثار المترتّبة على الأوصاف والأفعال في النظام التشريعيّ، أي إنّ بعض تلك الآثار يكون ذاتياً بينما يُعتبر البعض الآخر منها أصيلاً، ولا تخلو تلك الآثار من كون جزءٍ منها عَرَضيّاً وجزءٍ آخر هو بمثابة أثر فرعيّ.

وإذا تأمّلنا آيات القرآن الحكيم فسنلاحظ أنّ الهدف الرئيسيّ المتوخّى من عمليّة الإنفاق هو هدف معنويّ ليس له أيّة صِلة بزيادة الأموال أو تكثيرها وإن كانت الزيادة في المال تُعتبر علامة واضحة ودليلاً بيّناً على استيفاء الإنفاق شروطه وضوابطه.

ومن بين النِّعَم والبركات الاجتماعية التي تنجم عن الإنفاق الصحيح وفي سبيل الله تحسين أوضاع المجتمع وإنقاذ أفراده من الطغيان الفاحش وتجنيبه سَفك الدّماء التي تُراق ظلماً خلال الحروب كما حدث في الحربيْن العالميّتيْن الأولى والثانية[1]، والكثير من الآثار الإيجابية الأخرى، ولهذا كلّه تشير الآيتان من

---

١ . «وقد كشفت توالي الأيام عن صِدق القرآن في نظريته هذه ـ وهي تقريب الطبقات بإمداد الدانية بالإنفاق ومنع العالية عن الإتراف والتظاهر بالجمال ـ حيث إنّ الناس بعد ظهور المدنية الغربية استرسلوا في الإخلاد إلى الأرض والإفراط في استقصاء المشتهيات الحيوانية واستيفاء الهوسات النفسانية، وأعدوا له ما استطاعوا من قوة، فأوجبَ ذلك عكوف الثروة وصفوة لذائذ الحياة على أبواب أولي القوة والثروة، ولم يَبقَ بأيدي النّمط الأسفل إلّا الحرمان، ولم يَزل النّمط الأعلى يأكل بعضه بعضاً حتى تفرّد بسعادة الحياة المادية نَزر قليل من الناس وسلب حقّ الحياة من الأكثرين وهم سواد الناس، وأثارَ ذلك جميع الرّذائل الخُلقية من الطرفيْن، كلّ يعمل على شاكلته لا يُبقي ولا يَذر، فأنتج ذلك التقابل بين الطائفتين واشتباك النزاع والنزال بين الفريقين والتفاني بين الغنيّ والفقير والمنعم والمحروم والواجد والفاقد، ونشبت الحرب العالمية الكبرى، وظهرت الشيوعية، وهُجِرت الحقيقة والفضيلة وارتحل السَّكَن والطمأنينة وطيب الحياة من بين النوع وهذا ما نشاهده اليوم من فساد العالم الإنساني، وما يهدّد النوع بما يستقبله أعظم وأفظع». (العلّامة الطباطبائي، تفسير الميزان، ج٢، ص٣٨٤ ـ بتصرّف). [المترجم]



قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ﴾[١] و﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢] وما شابهتهما من الآيات القرآنية الأخرى إلى تعيين جهة الإنفاق وتحديد مَساره؛ وأمّا «الصّدقة» فإنّ لها بحثاً وموضوعاً خاصّاً بها حيث يمكن تناول مسألة الزيادة في الأموال وتكاثرها تحت هذا العنوان أيضاً، ولذلك سنقوم بنَقل الأحاديث والروايات التي تتضمّن الترغيب والتشجيع على إعطاء الصّدقات وبيان النتائج الإيجابية لهذا في ذيل الآيات المتعلّقة بالصّدقة؛ المهمّ أنّنا أردنا الإشارة إلى ضرورة الفصل بين البحثيْن المذكوريْن ودراسة كلّ بحثٍ منهما على حِدة رغم وجود العديد من القواسم المشتركة بينهما.

وبالإضافة إلى ما قيل فلو كان محور الثواب الخاصّ بالإنفاق هو محوراً ماديّاً فقط لنَجَم عن ذلك ما يلي:

١ . إنّ مثل هذا الإنفاق لا يمكنه أن يُعالج مَرض حبّ المال بل على العكس من ذلك، كان سيزيد من آلامه ويُضاعف في سلبيّاته لأنّ ظاهرة (البُخل) كامنة في طبيعة الإنسان كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا﴾[٣] و﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[٤] ولا شكّ في أنّ مثل هذا الجزاء الماديّ البَحت سيزيد من شدّة المَرض ويُضاعف آثاره السلبية. وليس في نيّة الآيات الخاصّة بالإنفاق تشجيعنا على تكثير أموالنا أو تربيتنا لنصبح عُشّاقاً للمال وعُبّاداً ومُكتنزين للثروة ليكون ذلك دافعاً لنا على الإنفاق والبذل بهدف الحصول على مال أكثر وثروة أعظم؛ فلا ريب في أنّ هذا النّوع من الإنفاق يعني في الحقيقة بَذل المال للحصول على المال والتغاضي عن هذا الجانب

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٧٢.

٢ . سورة آل عمران، الآية ٩٢.

٣ . سورة الإسراء، الآية ١٠٠.

٤ . سورة المعارج، الآيات من ١٩ إلى ٢١.



في الدّنيا للوصول إلى جوانبها الأخرى، وهذه هي أُولى عوارض الإصابة بالـدّاء وغيـاب العـلاج والـدّواء. وحـول هـذه النقطـة يقـول مولانـا أمـير المـؤمنين علي عليه السلام: «**سُوسُوا إِيمَانَكُمْ بِالصَّدَقَةِ وحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ وادْفَعُـوا أَمْـوَاجَ الْبَلَاءِ بِالدُّعَاءِ**»[1].

٢. ولو كان ثواب الإنفاق ثواباً دنيويّاً وحسب لَمَا حُقّ لأحد أن يعتبره مَغرَماً[2] وإن كان الكثير من الناس يعتبرونه كذلك: ﴿**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا**﴾[3].

٣. لو كان المقصود بزيادة الإنفاق ومضاعفته إلى سبعمائة مـرّة هـو الجانـب المادّيّ فيه لشهدنا ذلك في سيرة الإمام علي عليه السلام وسلوكه ـ وهـو أسـوة الإيثـار ورَمز المُنفقين في سبيل الله سبحانه ـ لكـنّ أحـداً لم يـرو أو يـذكر لنـا أنّ الأئمّـة الأطهار عليهم السلام قد حصلوا في هذه الدّنيا على تلك الزيادة إزاء ما كانوا ينفقونـه في سبيل الله تعالى بمنتهى الإخلاص. على سبيل المثال، فمن بين أموال الفَيء[4] التي

---

١ . **نهج البلاغة**، الحكمة رقم ١٤٦؛ بحار الأنوار، ج٩٣، ص٢٢.

٢ . «الغَرْم [والغُرْم] ما ينوب الإنسان في ماله من ضَرر لغَيْر جناية منه أو خيانة، يُقال: غُـرم كـذا غرماً ومَغرَماً وأُغرِمَ فلانٌ غَرامة، قال [تعالى]: ﴿**إِنَّا لَمُغْرَمُونَ**﴾ و﴿**فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ**﴾ و﴿**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا**﴾، والغَريم يُقال لِمَن له الدَّيْن ولِمَن عليـه الـدَّيْن، قـال [تعالى]: ﴿**وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ**﴾، والغَرام ما يَنوب الإنسانَ من شِدّة ومُصيبة، قال [تعالى]: ﴿**إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا**﴾ من قولهم: هو مُغْرَمٌ بالنّساء، أي يُلازمهنّ ملازمة الغَـريم». (**مفـردات ألفاظ القرآن**، مادّة «غرم» ـ بتصرّف). [المترجم]

٣ . **سورة التوبة**، الآية ٩٨.

٤ . قال الرّاغب في مفرداته: «وقيلَ للغنيمة التي لا يَلحق فيها مشقّة فِيء... قال بعضهم: سُميَ ذلك بالفَيء الذي هو الظلّ تَنبيهاً أنّ أشرف أعراض الدّنيا يجري مجرى ظلّ زائـل» (**مفـردات ألفـاظ القرآن**، مادّة «فيأ»)؛ وقال ابن منظور في (**لسان العرب**): «... وأمّا الفَـيء فهـو مـا أَفـاءَ الله مـن أَموالِ المشركين على المسلمينَ بلا حَرب ولا إيجاف عليه، مثل جِزية الرّؤوس وما صُولِحوا عليه، فيجب فيه الخُمْس أَيضاً لمن قسمه الله، والباقي يُصرَف فيما يَسُدّ الثّغورَ مِن خَيْل وسِلاح وعُـدّة وفي أَرزاق أَهلِ الفَيء وأَرزاقِ القُضاةِ ومن غيرهم ومَن يجري مَجراهم» (**لسان العرب**، مـادّة «غنم»). [المترجم]



قسّمها الرّسول الأكرم ﷺ أعطى لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قطعة أرض فابتأرَ عليه السلام فيها بئراً ذات ثَيِّبٍ وغَيِّثٍ[1] عُرِفت فيها بَعد باسم (بِئـر يَنْبُـع)، وبعد أن فاض منها الماء جعلها أمير المؤمنين عليه السلام صَدقة قائلاً: «هِيَ صَدَقَةٌ بَتَّـةً بَتْلاً»[2] ورغم ذلك فإنّ هذا الإنفاق الرائع والخـالص لوَجـه الله سـبحانه لم يـأتِ لأمير المؤمنين عليه السلام بسبعمائة بستان في هذه الدّنيا.

وموجز الكلام هو أنّ ما ذُكِر من ثواب وجزاء للمُنفِق في سبيل الله في آيات الإنفاق يشمل كذلك الثواب في الآخرة كما في هذه الدنيا:

١. إنّ أجر المُنفِق في هذه الدنيا يوم القيامة سيكون سبعمائة ضعف وأكثر.

٢. لا شكّ في أنّ المنفعـة التـي يـدرّها الإنفـاق سـتطال الدولـة الإسـلاميّة كذلك حيث سيتمتّع المُنفِق بالنِّعَم والبركات التـي تجتمـع في النظـام الإسـلاميّ وسيعيش في أمن وسعادة وخير في ظلّ آلاء الإنفاق.

٣. من المعروف أنّ العمل الصالح وفعل الخير اللذيْن ينجمان عـن الإنفـاق في سبيل الله تعالى سيشجّعان النـاس ويرغّبـانهم عـلى الإنفـاق وبالتـالي سـيَنعم المجتمع الإسلامي بالخيرات التي ستشمل جميع أفراده دون استثناء.

٤. وعلى أيّة حال فمن المؤكّد أنّ المُنفق سيحظى كذلك بالكثير مـن المنفعـة الماديّة في هذه الدنيا ـ إن شاء الله تعالى ذلك.

وهكذا رأينا أنّ المحور الأساسيّ للآيات المذكورة في آثار الإنفـاق وبركاتـه هو الثواب المعنويّ في الآخرة وليس الجزاء أو الثواب الماديّ الدّنيويّ، بمعنى أنّ

---

١. «إذا اسْتُقِيَ منها عادَ مكانَه ماءٌ آخَر». (لسان العرب، مادّة «ثوب»). [المترجم]

٢. تكملة حديث أمير المؤمنين عليه السلام: «فِي حَجِيجِ بَيْتِ الله وَعَابِرِي سَبِيلِ الله؛ لَا تُبَاعُ وَلَا تُوهَبُ وَلَا تُورَثُ، فَمَنْ بَاعَهَا أَوْ وَهَبَهَا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْـهُ صَرْفـاً وَلَا عَدْلًا». (أصول الكافي، ج٧، ص٥٥؛ تهذيب الأحكام، ج٩، ص١٤٨).

الثواب المادّيّ لا يمثّل العنصر المحوريّ رغم أنّه لا يبعد أن يكون جزءاً من البركة التي تشمل المال.

سِعة الفضل الإلهيّ

إنّ السّعة المذكورة لله سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ﴾ تشير إلى وصف الله تعالى وفعله ولا تعني السّعة الذاتية له ﷻ لأنّ ذلك المقام السامي والأعلى يفوق كلّ بحث ويسمو على كلّ حديث.

وكذلك السّعة المذكورة في مختلف آي القرآن الكريم لله تعالى فهي من قبيل وصف حال المُتعلّق الموصوف، أمّا تعيين المتعلّق فيتّضح من خلال السّياق مثل قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1] و﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2] و﴿وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3]، وأمّا المقصود بسِعة وجه الله سبحانه في الآية الشريفة ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4] فهو الفيض الإلهيّ الواسع وليس مقام ذات الحقّ ﷻ.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ ظهور سِعة الفضل الإلهيّ أحياناً ما يكون في شرح الصّدر وسِعَته وهو آلة الرئاسة، فالقدرة على تحمّل نتائج بعض الأحداث الجُلَل والخطوب العظيمة أو سماع الأخبار المؤلِمة كلّ ذلك يدلّ على سَعة الصّدر المرتبطة مع ظهور سعة الفضل الإلهيّ برباط وثيق للغاية.

---

١ . سورة آل عمران، الآية ٧٣.

٢ . سورة البقرة، الآية ٢٤٧.

٣ . سورة البقرة، الآية ٢٦٨.

٤ . سورة البقرة، الآية ١١٥.

إشارات ولطائف

١. طبيعة البخيل وفطرة السّخي

ما مِن أحد من مخلوقات الله ﷻ يعرف كلّ ذرّة في الإنسان كخالقه الحكيم الذي خلق فيه طبيعة حُبّ المال كما خلق فيه فطرة حبّ الله، وجعل لكلّ من الفطرة والطبيعة ميزاتها الخاصّة بها.

فالفطرة الإلهية في الإنسان تمتاز بكونها لا تعرف التّخمة وليس ثمّة نهاية لمطالبها فإذا أصبحت أسيرة الطبيعة خلال الجهاد الأكبر والنزاع الباطنيّ فإنّ الطبيعة سَتَسْتِحوِذ على ميزَتَيْ تلك الفطرة وستستغلّها لتحقيق مآربها الشخصيّة وميولها الذاتية، وأمّا طبيعة الإنسان فتتّصف بالجشع واكتناز الثروات ولا تستولي على شيء حتى تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[1] وهي في وصوليّتها ونَهمها وطمعها عاجزة عن التمييز بين الحقّ والباطل أو الحلال والحرام، وهي لا تضع نَصب عينيها سوى الولع بتكاثر الأموال: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[2]، ولو أُعطيَت كلّ خزائن رحمة الله تعالى التي لا تنتهي ولا تزول لألفيتها ترتعش خوفاً من أن تنفد تلك الخزائن وهو ما وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا﴾[3]، ولا حدود للبخل في الطبيعة إذ يمكن أن يشمل جميع الرّذائل الأخلاقية.

وفي مقابل ذلك إذا كانت فطرة الإنسان هي التي تدير شؤون باطنه فحتى لو أنفقت خزائن السموات والأرض في سبيل الله فلن تكفّ عن الإنفاق ولن

---

١. سورة ق، الآية ٣٠.

٢. سورة الفجر، الآية ٢٠.

٣. سورة الإسراء، الآية ١٠٠. «الإنفاق يعني الاستهلاك والنّفاد أمّا القُتُور فهو الضّيق في النّفقة والعيش وقصور النّظر والبُخل».



تعتبر ذلك كافياً لسداد دَيْنها الذي عليها من الله سبحانه وتعالى بل سترى أنّها ما زالت ظمآنة للإيثار والفِداء والإنفاق في سبيل الله، وهو ما كان عليه بعض أصحاب أبي عبد الله عليه السلام الذين قالوا له: لو أنّنا قُتلنا واستشهدنا بين يديك سبعين مرّة فإنّنا لن نتخلّى عنك أبداً[1]. وقد اعتادت العرب على استعمال التسبيع من الأعداد مثل (سبعة) و(سبعين) و(سبعمائة) وهو للكثرة، وربّما كان المقصود كذلك بالسبعين هنا هو أنّه لو تكرّرت الشهادة والإحياء سبعمائة مرّة وسبعة ملايين مرّة أو أكثر فإنّهم لن يتخلّوا عن سيّدهم ومولاهم أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

إنّ روح الإنسان لن يهدأ لها بال ولن يُروى عطشها ولن ترى أفق الازدهار إلّا من خلال علاقتها بالله المطلق القدرة والعظمة، وأمّا طبيعة الإنسان ونفسه فلو أنّهما أُعطيَتا مِلْأَ السموات والأرض ذهباً وفضّة فإنّ ذلك لا يعني بالنسبة إليها سوى بداية الجشع ومُستهلّ الطمع، ولهذا ينبغي للإنسان أن يحرص كثيراً كي لا يقع ضحيّة داء حُبّ المال والجشع.

---

١. «... فقال الحسين عليه السلام: «يا بَني عقيل! حسبكم من القتل بمسلم فاذهبوا أنتم فقد أذِنتُ لكم». قالوا: سبحان الله، فما يقول الناس؛ يقولون إنّا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نَرْم معهم بسهم ولم نَطعن معهم برُمح ولم نضرب معهم بسَيف ولا ندري ما صنعوا؟ لا والله ما نفعل ذلك، ولكن تَفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا ونقاتل معك حتى نَرِد موردك، فقبّح الله العَيشَ بعدك. وقام إليه مُسلم بن عوسجة فقال: أنُخلّي عنك ولمّا نعذر إلى الله سبحانه في أداء حقّك؟ أما والله حتى أطعن في صدورهم برُمحي وأضربهم بسيفي ما ثبتَ قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة، والله لا نخلّيك حتى يعلم الله أن قد حَفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله فيك، والله لو علمتُ أنّي أُقتل ثمّ أحيا ثمّ أُحرق ثمّ أحيا ثمّ أُذرى، يُفعَل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتكَ حتى ألقى حَمامي دونَك، وكيف لا أفعل ذلك وإنّما هي قَتلة واحدة ثمّ هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً؟ وقام زهير بن القين البَجلي رحمه الله فقال: والله لَوَدَدتُ أنّي قُتلتُ ثمّ نُشرت ثمّ قُتِلتُ حتى أُقتل هكذا ألفَ مرّة وأنّ الله تعالى يَدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك». الشيخ الصّدوق، **الإرشاد**، ج٢، ص٩٢؛ **بحار الأنوار**، ج٤٥، ص٧٠. [المترجم]



٢ . الإنفاق ومعالجة داء الجشع

لقد مَنّ الله العزيز الكريم على الإنسان إذ عرّفه على أعراض المرض الخطير وهو مرض حُبّ المال والطمع بكلّ الوسائل والطّرق ودعاه إلى مُعالجة ذلك المرض العُضال والتخلّص منه والشفاء من آثاره ونتائجه وذلك بالحكمة والموعظة وبالمجادلة بالتي هي أحسن تارة، وبالتهديد والوعيد والترغيب والتشجيع تارة أخرى، وبيّن له ﷻ أنّ أفضل طريقة لُمعالجة ذلك الدّاء بل وإنّ السبيل الوحيد والعلاج الأنجع لذلك هو الإنفاق في سبيل الله تعالى. فنرى القرآن الكريم أحياناً يُخاطب الإنسان ويطلب منه الإنفاق في سبيل الله ﷻ ويتجنّب إلقاء نَفسه إلى التهلكة: **﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾**[1] وهذا دليل واضح وشاهد عيان على أنّ مَن لا يُنفق ماله في سبيل الله تعالى كأنّما يقوم بإنفاق ذلك المال في طريق الباطل، بل إنّ الإمساكَ عن الإنفاق تماماً [يعني عدم صَرفه لا في سبيل الله ولا في طريق الباطل][2] هو نَفسَه عملٌ باطلٌ وغير مقبول، ولا غرابة إذا اعتُبِر ذلك ذنباً ومعصية كذلك، وهذا يشبه المعصية العظيمة التي يرتكبها أحدهم عندما يُحجم أو يمتنع عن الإدلاء بشهادته وكتمان الحقّ في وقت يكون فيه الطرف الآخر أحوج ما يكون إلى تلك الشهادة.

وفي أحيان أخرى نلاحظ أنّ القرآن الكريم يُخاطب الناس قائلاً: **﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**[3]، فالمقصود بقوله

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٩٥.

٢ . الزيادة بين المعقوفيْن من المترجم.

٣ . سورة آل عمران، الآية ١١٧.

تعالى: ﴿فِي هِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هو إنفاق الأموال في طُرُق الباطل والمعصية كأن يُراد بذلك الوصول إلى منصب مُعيّن أو المُجون أو الإسراف في اللّذائذ النفسانية وما شابه ذلك، فالمعروف أنّ إنفاق المال لضمان مستوى معيشيّ معقول ومناسب لا يعني أبداً الإنفاق في طريق الباطل.

والغريب أنّ المُنحرفين عن صراط الله تعالى ورسوله ﷺ لا ينكرون بأنّ حُبّهم للأموال وشغفهم بالأولاد قد منعهم من الوصول إلى شاطئ الخير والسعادة: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾[1]، ومن ناحية أخرى فقد نبّه الله سبحانه وتعالى المؤمنين وحذّرهم من مَغبّة الابتلاء بمَرض النّفاق ودعاهم إلى وقاية أنفسهم من هذا الدّاء الخطير بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾[2] إذ لا شكّ في أنّ ما كان هو نفسه لَهواً فإنّه سيُلهي الآخرين كذلك، كما أنّ الذِّكر ـ وهو القرآن الكريم ـ عامل كبير لتذكير الآخرين وتجنيبهم اللّهو والنسيان، ولمّا كانت ميزة المال هي إلهاء صاحبه وإبعاده عن الذّكر فإنّه هو السّبب أيضاً في إبعاده عن سبيل الخير والإيمان الخالص.

ولكي يتمكّن الإنسان من معالجة مرض حُبّ المال الذي يحول بينه وبين بلوغ أيّ خَير وتطبيبه ومداواة نفسه من آثاره ونتائجه وعلى رأسها النّفاق، فقد أرشده الله تعالى إلى العلاج الناجع بقوله: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[3] فلا يجب على الشخص أن يُفكّر بعقليّة قارون الذي كان يدّعي بغير حقّ قائلاً: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾[4] ناسياً ومُتجاهلاً عن عمد بأنّ

---

١ . سورة الفتح، الآية ١١.

٢ . سورة المنافقون، الآية ٩.

٣ . سورة المنافقون، الآية ١٠.

٤ . سورة القصص، الآية ٧٨.



الله ﷻ هو الذي رزقه كلّ تلك الأموال التي كانت بحوزته ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾[1] وقال له ولأمثاله: أنفقوا ممّا رزقكم الله تعالى من الأموال التي أودعها عندكم في سبيله لدفع شرور حُبّ المال والنّفاق عنكم وتعالجوا بها أدواءكم: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾[2] قبل أن يأتي أجَلكم ويُدرككم الموت الذي لا يُؤخَّر ساعة ولا يُستَقدَم ليستطيع أحدكم التفكير في ما مضى أو التعويض عمّا فاته: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا﴾[3].

٣. وسائل الاختبار وأدوات الابتلاء

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[4]، فعندما يُشار إلى المال في القرآن الكريم بالخير فإنّ ذلك هو من باب تصوّر الناس إزاء المال وليس من جهة ما هو حقيقيّ أو من وجهة نظر أولياء الله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ...﴾[5] و﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[6]، ولهذا يكون المال والبنون أحياناً مرادفاً للخير كما في قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٥٤.

٢. سورة النور، الآية ٣٣.

٣. سورة المنافقون، الآية ١١.

٤. سورة المؤمنون، الآيات من ٥٥ إلى ٦١.

٥. سورة البقرة، الآية ١٨٠.

٦. سورة العاديات، الآية ٨.



الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ﴾[1] فالخير هنا هو من حقّ السبّاقين في الفضيلة والإنفاق على الآخرين وإلّا فإنّ المال هو زينة الأرض وليس زينة الإنسان (رغم أنّ الزينة تشمل الصّفة الأرضية أو الترابيّة للإنسان كذلك لكنّ جوهر الإنسان لا يكمن في هذا الجزء بالطّبع) وذلك ما أشارَ إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: **﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾**[2] ومعنى هذا القول أنّ الله سبحانه وتعالى شاءَ أن يختبر جمعاً مِنَ الناس بالزينة ومعرفة ما إذا كانوا سيجتازون ذلك الاختبار مرفوعي الرؤوس أم لا، إذاً فالبساتين والجِنان والبيوت والستائر والسّجاد وغير ذلك إنّما هي زينة الأرض أمّا العلم والإيمان والعمل الصالح فهي جميعاً تمثّل زينة الإنسان نفسه: **﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾**[3].

٤ . مُغالطة صريحة

يحاول البعض التهرّب من الإنفاق فإذا هُم يسقطون في هاوية المغالطة، فعندما يُنصَحون بالإنفاق ولو بجزء من ثروتهم التي وهبها الله إيّاهم على الفقراء والمساكين، يقولون: إنّما هذه هي مشيئة الله في أن يكون بعضنا غنيّاً والبعض الآخر فقيراً ولو شاءَ الله لأغنى الفقراء ومنحهم ما يحتاجون: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾**[4] من الواضح أنّ هؤلاء عاجزون عن التمييز

---

١ . سورة الكهف، الآية ٤٦.

٢ . سورة الكهف، الآية ٧.

٣ . سورة الحجرات، الآية ٧.

٤ . سورة يس ﷺ، الآية ٤٧.

بين إرادة الله التكوينية وبين إرادته التشريعية، فالأولى حتميّة ولا مَهرب منها بينما قد لا تتحقّق إرادته التشريعية من قِبَل الإنسان المختار. على سبيل المثال، عندما يريد الله سبحانه اختبار شخص ما بالفقر وامتحان الآخر بالغنى فإنّه يأمر هذا الأخير بأن يُعطي الفقيرَ حقّه، لكن قد لا يستجيب الغنيّ لهذا الأمر الإلهيّ ويمتنع عن الالتزام به، وتسمى هذه الإرادة التي تتضمّن الأمر بإعانة الفقير ومساعدته، إرادة تشريعية.

إذاً إرادة الله ﷻ التكوينية اقتضت أن يكون هذا غنيّاً فيختبره بما وهبه له وأن يكون ذاك فقيراً فيرى ردّة فعله إزاء ما ابتلاه به، لكنّ ذلك الغنيّ يتحمّل مسؤولية شرعية وهي الإنفاق على الفقراء من ماله الذي أعطاه الله إيّاه لأنّ هذا المال هو في الحقيقة أمانة مودعة لديه وليس إرثاً أورثه إيّاه آباؤه.

٥. الإنفاق بلا مَنّ ولا أذى

كان الأئمّةُ الطاهرون عليهم السلام إذا تصدّقوا بشيء يشمّونه أو يقبّلونه أو يشمّون أيديهم ويقبّلونها، وقال الإمام الصّادق عليه السلام مرّة لمُعَلّى بنِ خُنَيْس: «**وَكَانَ أَبِي إِذَا تَصَدَّقَ بِشَيْءٍ وَضَعَهُ فِي يَدِ السَّائِلِ ثُمَّ ارْتَدَّهُ مِنْهُ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ثُمَّ رَدَّهُ فِي يَدِ السَّائِلِ**»[١]، ما يدلّ على أنّهم (صلوات الله تعالى عليهم أجمعين) كانوا يعتبرون الإنفاق واجباً وفريضة لا بدّ من أدائها باحترام وكياسة وأدب، فإذا كان أحدنا يؤمن بأنّ أصل الإنفاق هو التأدّب والاحترام وليس التأسية[٢] المَهينة فلا شكّ في أنّه سيتعامل مع الفقراء بكَرم وأدب واحترام.

---

١ . **أصول الكافي**، ج٤، ص٨ ـ ٩.
٢ . «التَّأْسِية: التعزية، أَسَّيْته تأْسِيةً، أَي عَزَّيته، وأَسَّاه فتَأَسَّى: عَزَّاه فتَعَزَّى». (**لسان العرب**، مادّة «أسا»). [المترجم]

وقد يُشبع الإنفاق الذي يظنّ صاحبه أنّه يترحّم به على الآخرين بطنَ الجائع أو يُكسي جسد العريان، إلّا أنّ ذلك سيُحرج المحتاج بالتأكيد وسيجرح مشاعره، فإذا أحسّ المسكين بالإهانة وبالانتقاص من شخصيّته بسبب هذا النّوع من الإنفاق فإنّه سيتحوّل إلى فرد مشاكس ومشاغب لا يرى أمام عينه سوى الانتقام لنفسه.

وأمّا السرّ في أنّ الأئمّة عليهم السلام كانوا يشمّون أيديهم أو يقبّلونها فهو إيمانهم بأنّ هذا المسكين أو الفقير هو رسول من الله سبحانه ومبعوثه الذي يُراد به اختبار المُنفق المؤمن: «**إنَّ المِسْكِينَ رَسُولُ الله**»[1]؛ نعم، إنّ الشخص المسكين والمجتمع الفقير هما رُسُل الله عزّ وجلّ المُكلَّفين بتبليغ رسالته أن أنفقوا علينا بأمر الله تعالى، وعليه ينبغي أن يكون المُنفِق مؤدّباً ومحترماً وأن يقوم بالإنفاق بكلّ أدب واحترام؛ ولمّا كانت الصّدقة تَصل إلى يَد الله سبحانه أوّلاً قبل وصولها إلى يَد السائل والمحتاج فإنّ من واجب المُنفِق أن يُقبّل يَديه لتحصل البركة في ذلك المال المُنفَق.

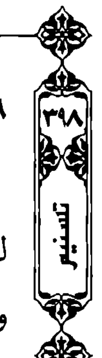
وممّا لا ريب فيه هو أنّ الرّحمة والعطف فضيلتان من الفضائل المعروفة، وكذلك التأسية فهي لا تقلّ مرتبة عن الفضيلة لكنّ التأسية قد تكون مصطبغة أحياناً بنوع من الازدراء أو الإهانة ﴿**تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ**﴾[2] أو التطلّع إلى الفقير أو المسكين باحتقار وهذا النّمط من التأسية مذموم وقبيح ويؤدّي إلى تألّم الفقير العَفيف والتسبّب في إيذائه: ﴿**يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ**﴾[3]، وعليه، ينبغي على المُنفِق المؤمن بحقّ أن يتجنّب مثل هذا التصرّف المهين ويبتعد عن التأسية المحضة البعيدة كلّ البُعد عن التعقّل والتدبّر.

---

١ . **نهج البلاغة**، الحكمة رقم ٣٠٤.

٢ . **سورة هود** عليه السلام، الآية ٣١.

٣ . **سورة البقرة**، الآية ٢٧٣.



٦. أهمية الإنفاق

ذكر القرآن الكريم مسألة الإنفاق في عِداد الفضائل الأخلاقية الأخرى لكي لا يظنّ الفرد المسلم أنّ قضاءه لَيله بالتهجّد والاستغفار والصلوات كافٍ وأنّه لا حاجة به إلى الإنفاق أو ما شابه ذلك، ولكي لا يعتقد الغنيّ السخيّ أنّ ما يقدّمه من هِبة وعطيّة تغنيانه عن القيام بالليل أو إقامة الفرائض العبادية الأخرى. فمن أجل أن تكتمل صورة الإنسان المنشودة في الكمال وتتقدّم جميع قواه وقدراته وصفاته خطوة إلى الإمام بشكل متزامن، ذكر القرآن الكريم كلّ تلك الصفات بعضها مع البعض في قوله تعالى: ﴿**الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ**﴾[1] وعندما تُلقي كلّ تلك الفضائل بظلالها على روح الإنسان المؤمن فإنّ أهمّ ما ستأتي به إليه هو الرّحمة والأجر العظيم كما في قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ... أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾[2].

٧. الأسبقية في المرتبة لا في الزّمان

ليست آثار الإنفاق متساوية بعضها مع البعض فالجهاد بالأموال والأرواح عندما كان الإسلام غريباً لا يمكن أن يُضاهيه الإنفاق الذي حصل بعد تحقيق الإسلام لكثير من انتصاراته: ﴿**لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا...**﴾[3]، وهذا الاختلاف في

١. سورة آل عمران، الآية ١٧.
٢. سورة الأحزاب، الآية ٣٥.
٣. سورة الحديد، الآية ١٠.



الرتبة والمرتبة موجود كذلك حتى بين المؤمنين أنفسهم حيث أشار القرآن الكريم أيضاً إلى ذلك بقوله ﷻ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ﴾[1] و﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[2]، بل إنّ الاختلاف المذكور قائم بين السابقين كذلك. فالسَّبْقُ والتقدّمُ الإيمانيّان اللّذان أحرزهما أمير المؤمنين علي عليه السلام لا يعنيان مجرّد الإسراع إلى دخول المسجد قبل الآخرين بل هو سَبْق وتقدّم في المرتبة، فعندما كان الدين الإسلامي ما زال يعيش في غربة قاتلة لم يَكن مَن يعرف أحقيّة الإسلام آنذاك سوى الإمام علي عليه السلام، ومتى ما وُجِد هناك مَن يعرف الحقّ ويُدرك أصوله وفروعه وُلِدَ معه توأما الأسبقية والإنجاز الكبير، وما كان يعنيه أمير المؤمنين عليه السلام بسَبْقه إلى الإيمان في احتجاجه: «**وسَبَقْتُ إلَى الْإِيمَانِ والْهِجْرَةِ**»[3] مُعتبراً ذلك من أسمى الفضائل وأعلاها هو السّبْق العقليّ والسّبْق في المرتبة، وإلّا فإنّ السّبْق في الزمان لا يُعدّ فضيلة بحدّ ذاته.

٨. بركات الإنفاق

أ. تطهير الحال وتزكية المال

من المعلوم أنّ قانون زكاة الأموال ـ الواجبة والمستحبّة ـ وزكاة الأبدان (زكاة الفطرة) إنّما وُضِعا لتطهير المُنفِق وتزكية ماله، وقد خاطب الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ قائلاً: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[4] فالفعل ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ في محلّ نَصب وهو نعتٌ للصّدقة، أي إنّ إعطاء الصّدقة يمثّل

---

١ . **سورة التوبة**، الآية ١٠٠.

٢ . **سورة الواقعة**، الآيتان ١٠ و ١١.

٣ . **نهج البلاغة**، الخطبة رقم ٥٧.

٤ . **سورة التوبة**، الآية ١٠٣.



إحدى عوامل التطهير، وعليه فإنّ الإحجام عن أداء حقّ الله سبحانه أو حقّ الناس من شأنه تلويث روح الإنسان بينما يعمل أداؤ الصدقة على تطهير روحه وزيادة البركة في ماله.

ب. تربية الروح

تؤدّي الزكاة عمليْن في آن واحد، فهي تطهّر الإنسان وتهيّئ له الأرضية المناسبة لتطوّره ونضوجه وقد قال تعالى في ذلك: ﴿**الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى**﴾[1] و﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**﴾[2] والمقصود بالتزكية في الآية الأخيرة هو أداء زكاة الفطرة قبل صلاة العيد[3].

ج. الحظوة بدعاء النبيّ ﷺ

لا شكّ في أنّ دُعاء النبيّ الأعظم ﷺ ومولانا إمام العصر والزّمان عجّل الله فرجه الشريف بحقّ المُنفِق هو دعاء مُستجاب لأنّ هؤلاء الأطهار لا يدعون لأحد دون إذن من الله ﷻ، وعندما يأذن الله لرسوله ﷺ والأئمّة الأطهار فإنّ دعاءهم مُستجاب لا محالة؛ إذاً، فمن بين البركات العظيمة والآثار الباهرة للإنفاق هي حُظوَة المُنفِق بالدّعاء المُستجاب لخليفة الله في الأرض شخصيّاً، ومن آثار ذلك الدّعاء

---

١ . **سورة الليل**، الآية ١٨.

٢ . **سورة الأعلى**، الآيتان ١٤ و ١٥.

٣ . «قيل أرادَ صدقة الفطرة وصلاة العيد (عن أبي عمرو وأبي العالية وعكرمة وابن سيرين ورُوي ذلك مَرفوعاً عن أبي عبد الله عليه السلام)، ومتى قيل: على هذا القول كيف يصحّ ذلك والسورة مكية ولم يكن هناك صلاة عيد ولا زكاة ولا فطرة؟ قلنا: يُحتمل إن يكون نزلت أوائلها بمكة وخُتمت بالمدينة». (الطبرسيّ، **تفسير مجمع البيان**، ج٩ ـ ١٠، ص٧٢١ ـ ٧٢٢؛ أنظر كذلك: الزمخشريّ، **تفسير الكشاف**، ج٤، ص٧٤٠).



الطاهر ما يلي:

١. إخراج الإنسان من دهاليز الظلمات إلى منازل النور الإلهيّ وتنويره: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[1].

٢. تقرّب الفرد إلى خالقه وربّه: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]؛ ولمّا كان دعاء رسول الله ﷺ لا محالة يُمثّل السبب الأكبر لتقرّب العبد إلى الله ﷻ ذكَر القرآن الكريم مرّةً واحدة عبارة ﴿صَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ في ذيل الآية الشريفة وأُنيبَ عنها بقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾.

٣. تجلّي السكينة القلبية والطمأنينة الروحية في أعماق المسلمين جرّاء دُعاء النبيّ الأكرم ﷺ لهم: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[3].

بحث روائيّ

١. مصاديق عبارة «في سبيل الله»

قال أمين الإسلام الطبرسيّ رحمه الله: «وَسَبيل الله هُو الجِهادُ وغَيره مِن أبْوابِ البِرّ كلّها على ما تَقدّم بيانه فالآية عامّة في النفقة في جميع ذلك، وهو المرويّ عَن أبي عبد الله عليه السلام»[4].

ـ أخرجَ عبد الرزّاق في (*المصنّف*) عن أيّوب قال: أشرفَ على النّبي ﷺ رجلٌ من رأس تَلّ، فقالوا: ما أجلدَ هذا الرّجل! لَوْ كان جَلَدَه في سبيل الله!

---

١. سورة الأحزاب، الآية ٤٣.

٢. سورة التوبة، الآية ٩٩.

٣. سورة التوبة، الآية ١٠٣.

٤. تفسير مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٦٤٦.



فقال النّبي ﷺ: «أَوَ لَيْسَ في سَبيلِ الله إلّا مَنْ قُتِل؟»؛ ثمّ قال ﷺ: «مَنْ خَرَجَ في الأرْضِ يَطْلُبُ حَلالاً يَكُفّ به والِدَيْه فَهُو في سَبيلِ الله، وَمَن خَرَجَ يَطْلُبُ حَلالاً يَكُفّ به أهْلَه فَهُوَ في سَبيلِ الله، وَمَن خَرَجَ يَطْلُبُ حَلالاً يَكُفّ بِهِ نَفْسَهُ فَهُوَ في سَبيلِ الله، وَمَن خَرَجَ يَطْلُبُ التّكاثُرَ فَهُوَ في سَبيلِ الشَّيْطان»[1].

ـ أخرجَ ابن المُنذر والحاكم وصَحّحه، عن أنس، أنّ رَسول الله ﷺ سَأَلَ البَراءَ بن عازب فقالَ: «يا بَرّاء! كَيْفَ نَفقَتكَ عَلَى أُمِّك؟» وكان مُوسعاً على أهله. فقال: يا رَسول الله! ما أَحْسَنها! قال: «فَإنَّ نَفقَتَكَ عَلَى أهْلِكَ وَوَلَدكَ وَخادِمكَ صَدَقَة، فَلا تُتْبع ذلكَ مَنّاً وَلا أذى»[2].

إشارة: إنّ مفهوم عبارة «في سَبيل الله» هو مفهوم عامّ وشامل لكلّ عمل يتضمّن معنى الخير وأبرز مصاديقه هو الجهاد في سبيل الله؛ إذاً، كلّ عمل يوجب استحقاق صاحبه مرضاة الله سبحانه وتعالى يُعتبر عملاً مُقَدّماً في سبيله وكلّ إنفاق في سبيله ﷻ يُعدّ صَدقة حقيقية.

٢ . المشمولون بالأجر المضاعَف

قالَ أبو عبد الله عليه السلام: «﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء﴾ لِمَن أنْفَقَ مَالَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ الله»[3].

ـ عَن رَسول الله ﷺ قال: «مَنْ أرْسَلَ بِنَفَقَةٍ في سَبيلِ الله وَأقامَ في بَيْتِهِ، فَلَهُ بِكُلّ دِرْهَم سَبعمائة دِرْهَم، وَمَن غَزا بِنَفسِهِ في سَبيلِ الله وَأنْفَقَ في وَجْهِهِ ذلكَ، فَلَهُ بِكُلّ دِرْهَم يَوْمَ القِيامَةِ سبعمائة ألْف درهم»؛ ثمّ تَلا هذه الآية: «﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء﴾»[4].

---

١ و٢ . السيوطيّ، تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص٤٠.

٣ . تفسير القميّ، ج١، ص٩٢.

٤ . السيوطيّ، تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص٣٧.



ـ سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إذا أحْسَنَ المؤمِنُ عَمَلَهُ، ضاعَفَ الله [له] عَمَله بِكُلّ حَسَنةٍ سبعمائة ضِعْف، فَذلِكَ قَوْلُ الله: ﴿وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَن يَشَاء﴾، فَأحْسِنوا أعمالكم الّتي تَعْمَلونها لِثَوابِ الله». قلتُ: وما الإحسان؟ قال عليه السلام: «إذا صَلّيتَ فأحْسِن رُكوعَك وسُجودَك، وَإذا صُمْتَ فَتَوَقَّ [كلّ] ما فيهِ فَساد صَومِكَ، وَإذا حَجَجْتَ فَتَوَقَّ كُلَّ ما يَحْرُم عليكَ في حِجّتكَ وعُمرتِكَ ـ قال: وَكُلُّ عَمَلٍ تَعْمَله فَلْيَكُن نَقِيّاً مِنَ الدَّنس»[1].

ـ عَن أبي جعفر عليه السلام... فقال: «أَلَيْسَ اللهُ قَد قال: ﴿وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَن يَشَاء﴾ أضْعافاً كَثيرةً، فَالمؤمِنونَ هُم الّذينَ يُضاعِف الله لَهم الحَسنات، لِكُلِّ حَسَنة سَبعينَ ضِعفاً، فَهذا مِن فَضلهم ويَزيد الله المؤمِنَ في حَسَناتِهِ عَلى قَدر صحّة إيمانِه أضْعافاً مُضاعَفةً كَثيرَة، وَيَفْعَل الله بِالمؤمنينَ ما يَشاءُ»[2].

إشارة: أ. لا يصدر عن الله عزّ وجلّ ولا يظهر عنه سوى كلّ ما هو طيّب وطاهر، ولا يصعد إلى المولى سبحانه وتعالى إلّا الطيّب الطاهر: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[3]، فإذا لم يكن فعل ما مُستوفياً لأيّ شرط من هذه الشروط فإنّه لن يبلغ مَقْصِدَه بالمرّة وإلى هذا يشير الإمام الصّادق عليه السلام إلى أنّ الفعل لابُدّ من أن يكون نقيّاً طاهراً من أيّ دَنَس أو عَيْب وهذا يدلّ على أنّ العمل الطيّب لا يَخرج إلّا من القلب الطيّب، وقَلب المؤمن عارٍ من اللّوْث، خالٍ من العيوب والرّياء والوصولية والتّفاخر.

ب. إنّ التصريح بالإيمان يلزمه وجود العنصر الآخر وهو الحُسن الفاعليّ فالإنفاق وحده يُمثّل الحُسن الفعليّ فقط وما دام هذا الإنفاق مُنفصلاً عن عنصر

---

١. **تفسير العياشي**، ج١، ص١٤٦؛ أنظر كذلك: **مُستدرك الوسائل**، ج٤، ص٤٤٣. [المترجم].
٢. **تفسير العياشي**، ج١، ص١٤٦ ـ ١٤٧.
٣. **سورة فاطر**، الآية ١٠.



الحُسن الفاعليّ ـ وهو الإيمان ـ ومستقلًّا عنه فإنّه لا يساوي شيئاً؛ ولكلّ من العمل الصالح والفاعل الصالح مراتب ودرجات مختلفة خاصّة به، فإذا صُنّف الإنفاق في أعلى درجاته وأرقى مراتبه وصار عنواناً لحُسن إنفاق المُنفِق وإيمانه فإنّه لا ريب سيحصل على أفضل الثواب الإلهيّ وأجزله.

ج. رغم أنّ ظاهر الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث وبعض الروايات يشيران إلى الأجر المُضاعَف بالإنفاق بشكل خاصّ لكنّه ليس كذلك وفقاً لنَفس الروايات ولا يعني التقيّد به دون غيره بل إنّ كلّ عمل يؤدّيه المؤمن يُضاعَف له أجره بمقدار إيمانه.

* * *

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾

خلاصة التفسير

يَعِد الله ﷻ المؤمنين الذين أصبح الإنفاق عادة لديهم ومَلَكَة عندهم، وراحوا يُنفقون أموالهم في سبيل الله وطمعاً في رضاه ومَرضاته؛ الذين لا يمُنّون على الآخرين ـ أيّاً كانوا ـ بإنفاقهم ولا يُؤذونهم ولا يتكبّرون عليهم، يَعِدهم سبحانه بأجر كبير محفوظ لديه يُوهَب لهم يوم القيامة كاملاً غير منقوص، فضلاً عن مَنحهم الأمان يوم لا ينفع مال ولا بَنون ويُبعد عنهم كلّ خَوفٍ ووَجَلٍ.

التفسير

المُفردات[1]

ثُمَّ: الثّاء والميم أصلٌ واحد، هو اجتماعٌ في لِينٍ، يُقال: ثَمَمْتُ الشيءَ ثـمّاً، إذا

---

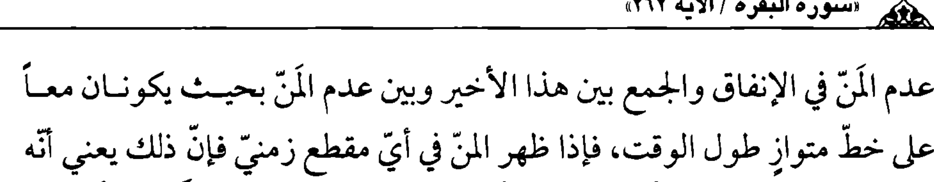
١ . لمزيد من الشّرح حول معنى كلمة «أذى» راجع: تفسير تسنيم، المجلّد العاشر، ص٢٧، ذيل الآية الشريفة ١٩٦ من سورة البقرة؛ وحول معنى كلمة «خَوف» أنظر: تفسير تسنيم، المجلّد الثالث، ص٤٦٠ ـ ٤٦١، ذيل الآية الشريفة ٣٨ من سورة البقرة كذلك.

جَمعتَه[١]، وقد ذُكِر لهذه الكلمة معانٍ أخرى مثل الإصلاح والترميم[٢]، وأمّا مؤلّف كتاب (*التحقيق في كلمات القرآن*) العلاّمة المُصطفويّ فقال: «إنّ الأصل الواحد في هذه المادّة هو الجمع بقَيْد الإصلاح، أي الجمع في مورد يحتاج إلى الإصلاح ورفع الخلاف والفصل»[٣].

ورغم أنّ اللغويين يُجمعون على أنّ (ثُمَّ) هي حرف عطف للترتيب والتراخي[٤] إلّا أنّه بالنّظر إلى معاني جذر الكلمة فإنّ استخداماتها لا تخلو من معنيَيْ (الجَمع) و(رفع البُعد والفواصل)[٥].

و(ثُمَّ) حرف عطف يقتضي تأخّر ما بعده عمّا قبله إمّا تأخيراً بالذات أو بالمرتبة أو بالوضع[٦]، ومعنى (ثُمّ) في هذه الآية هو التراخي في الرّتبة[٧]، ومعناه

١ . **معجم مقاييس اللغة**، ج١، ص٣٦٩، مادّة (ث م م).
٢ . «وثَمَمْتُ الشيء أَثُمُّهُ بالضم ثَمّاً، إذا أصلحتَه ورَمَمْته بالثُمام؛ ومنه قيل: ثَمَمْتُ أموري، إذا أصلحتَها ورَمَمْتها». (**الصحاح**، ج٤، ص١٨٨١، «ث م م»). [المترجم]
٣ . العلّامة المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٢، ص٢٤، مادّة (ث م م).
٤ . **لسان العرب**، ج١٢، ص٨٢، مادّة (ثم).
٥ . العلّامة المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٢، ص٢٤، مادّة (ث م م).
٦ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص١٧٦، مادّة (ث م م).
٧ . «(ثُمّ) في أصل وضعها تشير إلى أنّ ثمة تراخياً بين المعطوف بها والمعطوف عليه، وهذا التراخي قد اختُلِف فيه، فبعضهم يقول: إنّه تراخي الزّمن وبعد ما بينهما، الزمخشري رحمه الله يحمله على التفاوت في الرتبة، فإلى أيّهما يعتزي في هذه الآية؟ لقد أفاضَ علماء البيان في هذا الباب فقال قوم: المراد التّراخي في الزّمن نظراً للغالب من أنّ وقوع المنّ والأذى يكون بعد الإنفاق حتماً، بل هما مترتبان عليه، ولا يمكن تصوّرهما قبل وقوعه، وهذا حسن جميل، وذهب الزّمخشري إلى أنّ التّراخي هنا مَحمول على التفاوت في المراتب والتباعد بينهما حيث لا يمكن حملها على الزّمان لسياق يأبى ذلك في الآية. وحاصله أنّها استُعيرت من تَباعد الأزمنة لتباعد المرتبة، وهذا من أبدع ما يصل إليه الفكر الراجح والذّكاء البعيد الغور، فإنّ استخراج هذه الاستعارة على هذا الشكل لا يدركه قِصار النظر والابتدائيون، وعلى هذا يُقال: معناها الأصلي تراخي زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعارة إليه دوام وجود الفعل وتراخي زمان بقائه». (محيي الدّين درويش، **إعراب القرآن وبيانه**، ج١، ص٤٠٥). [المترجم]




عدم المَنّ في الإنفاق والجمع بين هذا الأخير وبين عدم المَنّ بحيث يكونان معاً على خطّ متوازٍ طول الوقت، فإذا ظهر المنّ في أيّ مقطع زمنيّ فإنّ ذلك يعني أنّه لم يُعمَل بمقتضى معنى (ثُمّ)، ومَفاد (ثُمّ) في الآية الشريفة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾[1] هو عدم انفصال الاستقامة عن قبول ربوبيّة الله تعالى المطلقة والاذعان لذلك بحيث لا يتمّ تجاهل الاستقامة أو نسيانها ولو للحظة واحدة.

لَا يُتْبِعُونَ: يُقال: تَبِعه وأتبعه قفا أثَره وذلك تارة بالارتسام والائتمار، ويُقال [كذلك] أتبعه[2]، إذا لَحقه كقوله: ﴿**وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً**﴾[3].

مَنًّا: مَنَّ عليه، بمعنى أنعمَ عليه بِما صَنع، وقال الفيّومي: «**مَنَّ عَلَيْهِ بِالْعِتْقِ وَغَيْرِهِ مَنًّا... وَامْتَنَّ عَلَيْهِ بِهِ أَيْضًا أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِهِ، وَمَنَنْت عَلَيْهِ مَنًّا أَيْضًا عَدَدْت لَهُ مَا فَعَلْت لَهُ مِنْ الصَّنَائِعِ**»[4].

فأمّا الصّنف الأوّل من المَنّ، وهو الإنعام، فيندرج في لائحة الأفعال الممدوحة للغاية وهو من أفعال الله تعالى وحده ولهذا نرى القرآن الكريم يستخدم الفعل (مَنَّ) ومشتقّاته عند الإشارة إلى نِعَم الله تعالى وآلائه الكبيرة كالنّعمة العظيمة الشريفة المتمثّلة في بعثة رسول الله وخاتم النبيّين ﷺ إلى العالمين: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾[5] وكذلك نعمة إمامة المستضعفين الكبرى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾[6] ونعمة الهداية التي لا تُضاهى:

---

١ . **سورة الأحقاف**، الآية ١٣.
٢ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص١٦٢ ـ ١٦٣، مادّة (ت ب ع).
٣ . **سورة القصص**، الآية ٤٢.
٤ . الفيّومي، **المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير**، ص٥٨١، مادّة (م ن ن).
٥ . **سورة آل عمران**، الآية ١٦٤.
٦ . **سورة القصص**، الآية ٥.

﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾[١].

وأمّا النّوع الثاني من المَنّ فهو حساب النِّعَم والتذكير بها وهـذا مُستقبَح إلّا في بعض الموارد[٢]، وقد نهى القرآن الكريم في العديد من آياته عن هذا المَنّ بقولـه تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[٣] و﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى﴾[٤] و﴿يَمُنُّـونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾[٥].

تناسب الآيات

بيّنت الآيات السابقة لهذه الآية الشريفة ثواب الإنفاق وجزائه الذي لا يُعَـدّ ولا يُحصى، وفي الآية الّتي هي موضوع البحث ذكر سبحانه وتعالى بعض شروط الإنفاق والعوامل التي تحول دون قبول بعض أنواع الإنفاق، وقد أشرنا قبل هذا إلى الترابط الموجود بين هذه الآيات وأنّها تُكمل بعضها البعض.

---

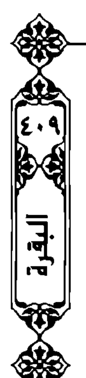
١ . سورة الحجرات، الآية ١٧.

٢ . «والمِنّة النّعمة الثّقيلة، ويُقال ذلك على وجهين: أحدهما أن يكون ذلك بالفعل فيُقال: مَنَّ فلانٌ على فلان، إذا أثقلَه بالنّعمة، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ﴾؛ ﴿كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾؛ ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وذلك على الحقيقة لا يكون إلّا لله تعالى. والثاني أن يكون ذلك بالقَول وذلك مُستَقبَح فيما بين الناس إلّا عند كُفران النعمة، ولقُبح ذلك قِيلَ: المِنّة تَهدم الصنيعة، ولحُسن ذكرها عند الكُفران قيل: إذا كُفِرت النّعمة حَسنت المنة». (الراغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن، ص٧٧٧، مادّة «م ن ن»). [المترجم]

٣ . سورة المدثّر، الآية ٦.

٤ . سورة البقرة، الآية ٢٦٤.

٥ . سورة الحجرات، الآية ١٧.



شرط الإنفاق

يتميّز الإنفاق الذي تعنيه الآية الشريفة بعدّة خصائص، منها:

١) المقصود بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ هم المؤمنون الذين أصبح الإنفاق عادة ومَلَكة عندهم وصاروا ينفقون باستمرار دون انقطاع وليس الذين نادراً ما ينفقون.

٢) إنّ الوعود المُعطاة في هذه الآية الشريفة تتعلّق بالإنفاق الماليّ خاصّة وهذا واضح من قوله تعالى: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾، ويمكننا الاستدلال ببعض الآيات الأخرى الدالّة على الترغيب في الإنفاق الجامع بين المال وبين الفضائل الأخلاقية مثل قوله ﷻ: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[1] و﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[2] وكلمة ﴿خَيْرٍ﴾ في الآية الأولى تمثّل المصداق الأبرز وليس الحصر كما أنّ ورود كلمة (الرّزق) في الآية الثانية لا يعني انحصار عنوان (الشيء) في المال فقط لأنّ كلمة (رزق) تشتمل على الأمور الماديّة والمعنوية معاً.

٣) إنّ ما تقصده الآية الشريفة هو الإنفاق المقبول والمأجور الذي لا يكون إلّا في سبيل الله تعالى ومدعاة لمرضاته ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، وأمّا الإنفاق الذي يُراد به الصدّ عن سبيل الله ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾[3] أو رئاء الناس أو التبجّح أمامهم ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ﴾[4] وكلّ إنفاق ينجم عنه مَنٌّ وأذى للمُنفَق عليه فهو إنفاق لا يحصل منه صاحبه على أيّ أجر في الآخرة.

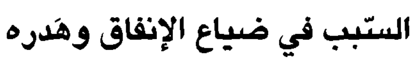
---

١ . سورة البقرة، الآية ٢١٥.

٢ . سورة سبأ، الآية ٣٩.

٣ . سورة الأنفال، الآية ٣٦.

٤ . سورة البقرة، الآية ٢٦٤.




السّبب في ضياع الإنفاق وهَدره

اقتضت مشيئة الله سبحانه على إحصاء أفعال الإنسان وأعماله، صالحها وطالحها، يدوّنها ملائكة كرام بَررة في كتاب محفوظ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾[1] وهو كتاب نزّهه الله ﷻ عن كلّ نُقصان أو زيادة: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[2]، لكنّ العامل أو الفاعل وحده ـ وهو الإنسان ـ قادر على تغيير ما فيه أو تصحيحه أو إبطاله تماماً كالنّفس العاملة التي تبقى وتستمرّ على أثر التجرّد وتكون مستعدة لأيّ تغيّر أو تحوّل سواء باتّجاه التقوى أم باتّجاه الطغيان، وهذا أمر مقبول بالنّظر إلى ورود الدليل النقليّ المعتبر وقيام البرهان العقليّ على تغيّر العامل وليس ثمّة تأثير على هذه المسألة بسبب التأخير أو البُعد الزمنيّ أو المكانيّ.

ورغم كِبَر بعض المعاصي إلّا أنّ تأثيره يكون محدوداً بالمقارنة مع حجمه كالرّياء والتفاخر اللذيْن يؤدّيان إلى بُطلان العمل إذا وصل تأثيرهما إلى العمل أثناء أدائه لكنّ حدوثهما بعد وقوع العمل لن يؤدّي إلى بطلانه، على العكس من المَنّ والأذى اللذيْن يعملان على بُطلان العمل حتى بعد مرور فترة طويلة على أدائه. وقد يكون سبب هذا التأثير الكبير والمهمّ هو كون إهانة الشخص المحترم والاستهانة بشخصيّته الحقّيّة تعدّانِ أمراً لا يجوز تجاهله أو الغفلة عنه سواء بإظهار المنّة أمامه والتلويح إلى ما قُدِّم له على سبيل المنّ والإحراج أم ذِكر ذلك للآخرين والتسبّب في إيجاد الأذى للمُنفَق عليه أم أيّ أمر آخر يمكن أن يتضمّن نفس التأثير. ومهما يكن من أمر فإنّه ينبغي على المُنفِق أن يحتاط لمثل هذه الأمور ويراقب تصرّفاته باستمرار حتى لا يكون ذلك عاملاً لإبطال ما كان قد أنفقه من قَبل.

---

١ . سورة الانفطار، الآيتان ١٠ و ١١.

٢ . سورة الكهف، الآية ٤٩.

إنّ أيّ نوع من المَنّ أو الأذى يمكنه أن يتسبّب في إبطال الأعمال الصالحة وعلى رأسها الإنفاق في سبيل الله فمثل هذا الإنفاق لن يكون مقبولاً عند الله ﷻ ولن يحصل فاعله على أيّ أجر سواء حدث المنّ والأذى قبل الإنفاق أم أثنائه: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى﴾[1] وتشير هذه الآية الشريفة إلى أنّ المعيار الأساسيّ لحبط العمل وبطلان الإنفاق هو المَنّ والأذى سواء حدث ذلك قبل الإنفاق أم أثنائه، وإذا كان الهدف من الإنفاق هو المَنّ والأذى فإنّ مثل هذا الإنفاق باطل بكلّ تأكيد لأنّ غَرض المُنفِق هو إلحاق الأذى بالمُنفَق عليه وليس التقرّب إلى الله الأمر الذي سيؤدّي إلى رفضه وإبطاله. وتجدر الإشارة إلى أنّ الإنفاق بقصد المَنّ أو الأذى هو إنفاق مقبول وصحيح من الناحية الفقهية وذلك لانتقال المال بالفعل من المُنفِق إلى المُنفَق عليه، لكنّه من الناحية الكلامية ووفقاً للمعايير الأُخروية إنفاق لا يُؤجَر عليه صاحبه، وكذلك إذا حدث المنّ والأذى أثناء الإنفاق أو بعده فإنّه لا يعني عدم صحّته من الوجهة الفقهية لكنّ حكمه التكليفيّ يقرّ بتحريمه فضلاً عن أنّ مثل هذا الإنفاق يؤدّي إلى الفساد وحبط الأعمال من الناحية الكلامية.

هذا، ويمكننا اعتبار تَرك المَنّ والأذى في هذه الآية الشريفة شرطاً متأخّراً بالنسبة إلى الثواب لأنّ كلمة (الإنفاق) تُطلَق على كلّ واحدٍ من الإنفاق الذي يتضمّن شروطه ويفتقد لأيّ مانع ومِن الإنفاق الفاقِد للشروط المطلوبة والمليء بالمعوّقات على حدّ سواء، إلّا أنّ قبوله وصحّته مرهونان بعدم ذِكر المنّ أو إيجاد الأذى حتى نهاية العُمر، فإذا حدث أحدهما أو كلاهما فإنّ ذلك يعني أنّ الإنفاق المذكور كان باطلاً منذ ولادته لعدم اشتماله على الشروط اللازمة، خلافاً

١ . سورة البقرة، الآية ٢٦٤.

للصّدقة المشتقّة من (الصّدق) والتي ينبغي أن تكون مطابقة للواقع والصحّة والكمال والصّدق ولا يؤثّر فيها المَنّ أو الأذى إلّا في خارجها ومظهرها ولا يصدق عليها الشرط الأخير.

وموجز الكلام هو أنّه إذا أُعطيت الصّدقة الواجبة ـ كالزكاة مثلاً ـ إلى المستحقّ بقصد القربة عندئذ تَبرأ ذمّة الدّافع أو المُعطي ولن يُبطلها المنّ والأذى أيّاً كانا إذا حدثا بعد ذلك ولن يكون مُجبَراً على دَفع الزكاة ثانية رغم أنّ الأمر لا يخلو من الحرمة والعقوبة، وأمّا ما يتعلّق بالإنفاق فلكونه إنفاقاً ويستحقّ صاحبه الثواب فهو شديد التأثّر بمسألة المَنّ والأذى.

وبالنّظر إلى تكرار حرف النّفي (لا) في الآية الشريفة مرّتيْن فإنّ كلًّا من (المَنّ) أو (الأذى) يمكنه بمفرده أن يكون مانعاً من قبول الإنفاق، ولولا ذلك لظنّ البعض أنّ (المَنّ) و(الأذى) معاً يشكّلان مانعاً واحداً، وأمّا نسبة المصداق بين (المَنّ) و(الأذى) فهو العمومُ والخصوصُ المطلقان، أي إنّ المِنّة لا تقع خارج الأذى ولا هذا الأخير يقع خارج نطاق المَنّ، فالأذى الذي تسبّبه المِنّة ناجم عن أنّ كلّ إنسان بالغ وعاقل لا ريب في أنّه يهتمّ بشخصيّته. ومن الأفراد مَن لا يشعر بالأذى من المَنّ ولا يحرجه ذلك كما أنّه لا يحسّ بالسعادة للإحسان الذي يُقَدَّم إليه، فتقديم الخدمة إلى مِثل هؤلاء الأشخاص لا يندرج في إطار إدخال السّرور والهناء إلى قلوب الناس، وهذه مسألة خارجة عن نطاق هذا البحث.

وثمّة سببان لذكر (المَنّ) بمفرده وتقدّمه على (الأذى)، هما:

١. عِظَم الذّنب الناجم عن التباهي بالنّعمة مقارنة بالذنوب الأخرى.

٢. بُطلان مُعظم الإنفاق بسبب المَنّ ولذلك ينبغي على المُنفقين الحذر من ارتكاب هذه الرذيلة.

تناقض آثار «المَنّ» و«الأذى» مع آثار «الإنفاق»

الإنفاق بحدّ ذاته أمر يرضاه الله تعالى لكونه نوعاً من الطاعة وهو فعل محمود لأنّه طارد لصفة البُخل فضلاً عن أنّه معروف ومطلوب باعتباره يأتي بالخير والمنفعة على المستحقّ، وأمّا (المَنُّ) و(الأذى) اللذان يُصاحبهما دافع التكبّر على الآخرين واحتقارهم فإنّهما مبغوضان من قِبَل الله سبحانه، ولّما كان كلّ واحدٍ منهما مصحوبان بالتفاخر والتكبّر وتعظيم الفعل فإنّهما يتسبّبان من جهة في ظهور صفتَيْ العُجب والغرور المذمومتيْن، ومن جهة أخرى فإنّهما يؤدّيان إلى شعور المُنفَق عليه بالأذى ويسلبان منه الرّاحة والأمان.

إذاً، فإنّ للإنفاق من ناحية وللمَنّ والأذى من ناحية أخرى آثاراً متناقضة ومتضادّة بحيث يكونان سببين لحبط الإنفاق وزوال ثوابه. فالمَنّ والأذى هما من المعاصي الكبيرة لأنّ ما يمكنه أن يمحو أهمّ حسنة لا بدّ وأنّه سيّئة كبيرة، وبما أنّ المِنّة تنضوي تحت لواء الأذى وقد قيل في الروايات في إيذاء المؤمن إنّه بمثابة محاربة المعصوم عليه السلام بل ومحاربة الله تعالى[1]، فإنّ ذلك يُمثّل دليلاً قاطعاً على كون المِنّة من أكبر المعاصي؛ وربّما أمكن كذلك تسمية حالات المِنّة القُلّى شدّة بالمعصية الصغيرة.

---

١. أ. عن هشام بن سالم قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «قال الله عزّ وجلّ: لِيَأذَن بِحَربٍ مِنّي مَن آذى عَبْديَ المؤمِن، وَليَأمَن غَضَبي مَن أكرَمَ عَبديَ المؤمِن...» الحديث. ب. عَن أبان بن تغلب، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لّما أُسْرِي بالنَبيّ صلى الله عليه وآله قال: يا رَبّ! ما حالُ المؤمِن عِندكَ؟ قال [تعالى]: يا مُحَمّد! مَن أهانَ لي وَلِيّاً فَقَد بارَزَني بالمحاربة، وأنا أسْرَع شيءٍ إلى نُصْرة أوليائي...» الحديث. ج. عَن الصادق عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث المناهي قال: «ومَن استَخَفّ بِفَقيرٍ مُسلم فَقد استخفّ بحَقّ الله، والله يَستخِفّ به يَوم القيامة إلّا أن يَتوب». قال: وقال عليه السلام: «مَن أكرَمَ فَقيراً مُسلِماً لَقِيَ الله يومَ القيامَة وهو عَنه راضٍ، ألّا ومَن أكرَمَ أخاهُ المسلم فإنّما يَكرم الله عزّ وجلّ»). (**وسائل الشيعة**، ج١٢، ص٢٦٤ ـ ٢٦٥). [المترجم]



ما يُبْطَل به الإحسان الفرديّ والجماعيّ

يُستفاد من حذف مُتعلَّق (المَنّ) و(الأذى) أنّه لا فرق في كونهما مانعيْن أساسيّيْن بين الشخصية الحقيقية والحقّيّة أو الفرد والجماعة أو النوع وما شابه ذلك، فتقديم الخدمات إلى مسجد ما مثلاً وبعض الأماكن العامّة والإنفاق عليها مع المَنّ والأذى على الدّين أو الناس معناه أنّ هذا الإنفاق لا يُفيدُ شيئاً في الآخرة أبداً ولا قيمة له إطلاقاً.

فكما أنّ الإنفاق مع المَنّ والأذى يُبطل الإحسان الفرديّ فإنّ الإحسان الجماعيّ كذلك يبطل مع المَنّ والأذى ويضيع ثواب العمل وهذا ينطبق أيضاً على المسائل والشؤون السياسية والاجتماعية على حدّ سواء. فالخدمات التي يقدّمها الوالي أو الحاكم إلى شعبه واستتباب الأمن والاستقرار في المجتمع واستقلالية المواطنين وضمان حريّاتهم وإيصال البلاد إلى مشارف الاكتفاء الذاتيّ سواء في الإنتاج أم في الخدمات الإدارية الأخرى، كلّ ذلك يُعدّ بلا شكّ إحساناً وإذا أتبع المسؤولون في البلاد خدماتهم بالمَنّ فإنّ ذلك ممّا سيؤدّي إلى بطلان أعمالهم وضياع أُجورهم.

وفي كتابه الذي كتبه إلى مالك الأشتَر ﵀ لمّا ولّاه على مصر، أوصى أمير المؤمنين ﵇ مالكاً قائلاً: «وإِيَّاكَ والْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ»[1]، وهذا الكلام يعني احتمال ضياع أجر الخدمات الجليلة التي يقدّمها المسؤول أو الحاكم إلى شعبه وأمّته على المدى الطويل إذا لم يُراع في ذلك كرامة أمّته بسبب المَنّ، وأمّا استدلال أمير المؤمنين ﵇ بمضمون الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث فدليل قاطع على شمولية ذلك المضمون وعموميّته.

---

١ . نهج البلاغة، الكتاب رقم (٥٣): «إلى مالك الأشتر النخعي لمّا ولّاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمد بن أبي بكر».



الإنفاق على غير هُدى

يهدف القرآن الكريم باعتباره المُعلِّم والمُزكّي الأوّل للنفوس، إلى إيجاد البنية التحتية العَقَديّة والخلقيّة كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ﴾[1] ثمّ إقامة صَرح جميع الأعمال الفردية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية وغيرها على تلك القاعدة، وبالتالي فإنّ الإنفاق الموزون والمنطقي القائم على أساس قويّ وقاعدة صُلبة لن يكون مصحوباً بالمَنّ أو الأذى لأنّ هذا الإنفاق يرتكز على بِنية قوامها التقوى وهي بِنية لا تتقبّل ارتكاز غير التقوى عليها أبداً، فإذا وُجِدَ في هذا الإنفاق ما يشير إلى المَنّ أو الأذى عندئذ سيتبيّن لنا أنّ التقوى لم تكن أساس ذلك الإنفاق ولا هدفه، أي إنّه لم يُؤسّس على قاعدة خلقيّة يمكن بناء صرح اقتصاديّ أو ما شابهه عليها.

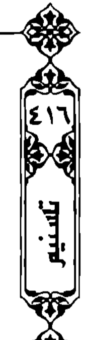
المُنفقون بالمَنّ يدّعون الرّبوبية

لا شكّ في أنّ الإنفاق المصحوب بالمَنّ أو الأذى يتضمّن في جوهره ادّعاء أصحابه بالربوبية لأنفسهم فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[2] وذلك لأنّ الذي يُنفق ماله بالمَنّ والأذى يظنّ أنّ ما بيَده من النِّعَم هي مُلك خالص له موضوع تحت اختياره وتصرّفه الكاملَيْن؛ بمعنى آخر نقول هو أوّلاً يعتقد أنّه ـ من الناحية التكوينية ـ هو الذي أتى بكلّ تلك الثروة وهو الذي أوجدها من العَدَم، وثانياً أنّه ـ من الناحية الاعتبارية ـ خُلِق ليكون المالِك الوحيد لتلك الثروة والأموال، وثالثاً يتصوّر أنّه هو الذي يُعيّن حصّة كلّ شخص يُنفَق عليه وأنّ ما يستحقّه الآخرون من الرّزق أو الإنفاق إنّما يكون

---

١ . سورة التوبة، الآية ١٠٩.

٢ . سورة الجاثية، الآية ٢٣.



بإرادته هو، وهو الذي يُقسّم أرزاق الناس، ورابعاً يُخَيّل إليه أنّ المال المُنفَق أو الصدقة تصل بشكل مباشر إلى يَد مُستحقّها وأنّه ما مِن أحد يلعب أيّ دَور في هذه العملية.

وهكذا، فإنّ تلك الأوهام والأباطيل تُغري الشخص المُختال بالاتّصاف بالمَنّ والتفاخر[1] والحال أنّ أيّ نقطةٍ من النقاط الأربع المذكورة ليست تحت تصرّفه وليس له أيّ تأثير في هذه النقطة أو تلك النقطة، فالخالق والمالِك والمُعيّن للأرزاق ومُستحقّها المباشر وكلّ ما يدخل في نطاق ذلك هو من فعل الله ﷻ وليس المُنفِق سوى مأمور مُكَلَّف بإيصال الرّزق إلى صاحبه وأداء الأمانة إليه.

الأجر العظيم والثواب الكبير

يُعتبر الضمير ﴿لَهُم﴾ في الجملة الشريفة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ خبر مُقدّم و﴿أَجْرُهُمْ﴾ مبتدأ مُؤخّر ومعناها الوعد الإلهيّ بالاحتفاظ بأجر الإنفاق، وبما أنّ الوَعد هو من قبيل الإنشاء فإنّ الجملة المذكورة جاءت بداعي الإنشاء كذلك.

---

١. قال ابن عربي: «إحذر من المَنّ في العطاء فإنّ المَنّ في العطاء يُؤذن بجهل المُعطي من وجوه، منها رؤيته نفسه بأنّه ربّ النّعمة التي أعطى، والنّعمة إنّما هي لله خَلقاً وإيجاداً، والثاني نسيانه مِنّة الله عليه فيما أعطاه وملّكه من نِعَمِه وأحوج هذا الآخر لِما في يَده، والثالث نسيانه أنّ الصّدقة التي أعطاها إنّما تقع بيَد الرّحمن والآخر ما يعود عليه من الخير في ذلك، فلنَفسه أحسن ولنفسه سَعى، فكيف له بالمنّة على ذلك، إنّه ما أوصل إليه إلّا ما هو له إذ لو كان رزقه ما أوصله إليه فهو مؤدّ أمانة من حيث لا يشعر، فجهله بهذه الأمور جعله يمتنّ بالعطاء على مَن أوصل إليه راحة وأبطل عمله، والمُنعِم إذا أبطل نعمته بالمَنّ والأذى لا يكون مشكوراً عند الله على ذلك وإن شَكره المُنعَم عليه لمعرفته بذلّه وفقره إليه. فمن مكارم الأخلاق أن لا يمنّ المُنعِم بما أنعم عليه ولا سيما مع شكره على ذلك». (ابن عربي، **تفسير رحمة من الرحمن**، ج١، ص٣٩١).

وجدير بالذّكر أنّ تقديم الخبر على المبتدأ يدلّ على التأكيد على أجر المُنفقين وتشجيعهم على الإنفاق بشكل أكبر إذ عندما يُذكَر اسم الشخص ثمّ يأتي بعده ذِكر أجره أو ثوابه فإنّ ذلك يشير إلى احترام المُخاطَب واهتمام المُتكلِّم به. والمقصود بالأجر بقرينة السياق هو الأجر المذكور سابقاً في مثال الحبّة والسنابل السبعمائة والزيادة الممنوحة.

وبالاستناد إلى الآية الشريفة ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾[1] فإنّ أجر المُنفقين محفوظ وباق عند الله سبحانه لا يزول، ولهذا فإنّ جملة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ تبعث على الطمأنينة بضمان طيب خاطر المُنفقين من أنّ أجرهم قائم ومحفوظ لا يُنقص منه شيء وأمل لهم في زيادة ذلك بلا حدود كما أنّ جملة ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ في ذيل الآية الشريفة السابقة تشير إلى نَفس المعنى المذكور أيضاً.

وتجدر الإشارة إلى أنّ إضافة لفظ الربوبيّة «رَبّ» إلى ضمير الجمع «هُم» هي إضافة تشريفية، أي لتشريف المُنفقين واحترامهم وتقديرهم، وتكرار الضمير «هُم» في نفس الآية يدلّ على تشجيع المُنفقين وإشهار إنفاقهم وعملهم الصالح هذا وأنّهم لا يفعلون ذلك لجَلب أنظار الآخرين إليهم أو أن يكون إنفاقهم مشهوراً ومعروفاً.

لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ

يُستفاد من كلمة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في قوله تعالى ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾أنّه لا مكان للخوف في قلوب المُنفقين في حين أنّ العادة جرت في أن يعيش الإنسان المُعذّب في عذاب دائم ومرارة قاتلة، وبما أنّ كلمة (الخوف) ذُكرت في الآية بصيغة النكرة والنّفي فإنّها تُفيد العموم، بمعنى أنّه لا سبيل لأيّ نوع من أنواع الخوف إلى المُنفقين إذ لا خطر ولا ضَرر يُهدّدهم.

---

١ . سورة **النحل**، الآية ٩٦.



كما أنّ المُنفقين لا يحزنون على ما مضى من حياتهم أبداً: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فتقديم حرف النّفي ﴿وَلَا﴾ على الضمير ﴿هُمْ﴾ يشير إلى نَفي عموم الحُزن عن المُنفقين، ولو كانت العبارة بالشكل التالي: «وهم لا يَحزنون» لكان المراد بذلك هو نَفي استمرار الحُزن فقط فمتى أتى النّفي والظّرف معاً جَنباً إلى جَنب في الكلام فإنّ النّفي يعمل على رَفع الظّرف ليبقى أصل المعنى ثابتاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يتألّف من جُملتيْن خبريّتيْن في مقام الإنشاء إذ هما وَعدان إلهيّان يتناسبان مع سياق الآية وإنشائها، وأمّا الظرف الزمانيّ الذي وُضِع لتحقيقهما فهو يوم القيامة لأنّ نَفي مُطلق الخوف والحزن ينسجم مع حالة الآخرة وظرفها في حين أنّ أحوال المؤمن في هذه الدنيا تتأرجح بين الخوف والرّجاء حتى آخر لحظة من لحظات حياته، وتراه متشوّقاً ومليئاً بالأمل للحصول على فضل الله سبحانه والأجر الموعود، لكنّه يبقى خائفاً ووجلاً إذا كانت أعماله الصالحة ستحبط أو تُمحى بسبب المَنّ والأذى.

تذكير: ١. لا شكّ في أنّ النّخبة من الموحّدين هم مصونون من الخوف والحزن العاديين أو المعروفيْن وذلك لاستغراقهم في بحر التوحيد، ورغم هذا نراهم خائفين على الدّوام من أن يُسلَب منهم مقامهم المنيع ومنزلتهم العالية إذا تغيّروا أو حدث في أخلاقهم وتصرّفاتهم ما قد يحرَمهم من لذّة «كمال الانقطاع»، كما أنّهم قد يُصابون بالحزن من جرّاء رؤيتهم لأفعالهم الصالحة وحرمانهم من تلك المنزلة الرفيعة، ولذلك فما دام هؤلاء أحياءاً فإنّهم يتغلغلون بين الخوف والرّجاء العقليّ (لا النّفسيّ) في هذه الدنيا، شأنهم في ذلك شأن الأشخاص العاديين من الناس.

٢. إنّ القيامة مصونة من التغيير والتحوّل والتبدّل: «وإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ ولَا حِسَابَ وغَداً حِسَابٌ ولَا عَمَلَ»[1] وهكذا فإنّ ما نراه في هذه الدنيا ونشهده فيها من أحوال وتغيّرات ليست موجودة في الآخرة.

٣. قد تشمل الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث الدّنيا كذلك لكنّ ذلك يكون بشكل إنشاء للوعد الإلهيّ وليس إخبار الله ﷻ عن نفي هاتيْن الصفتيْن عن جميع الفئات الثلاث للعابدين بشكل مطلق.

إنّ الوعد بإزالة الخوف والحزن المطلق في الآخرة يشمل هؤلاء الأفراد كذلك:

أ) الذين يكون إنفاقهم متطابقاً مع الشروط المطلوبة واللازمة للحصول على مرضات الله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ﴾[2] و﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ اللهِ﴾[3] ويكون الإنفاق من خالص أموالهم الطيّبة والحلال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾[4] وأن يُنفَق في سبيل الله سبحانه فقط: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[5] ـ وهناك بعض الشروط التي تُعتبر أساس كمال الإنفاق المشروع وليس سبب تحقّق الأصل فيه كأن يُقدّم المُنفِق حاجة الآخرين على حاجته الشخصية: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[6] أو يُنفق ماله عن طيب خاطره ورضاه الكامل: ﴿الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾[7] أو يُنفقون من أحبّ ما لديهم من المال

---

١. نهج البلاغة، الخطبة رقم ٤٢.
٢. سورة البقرة، الآية ٢٦٥.
٣. سورة البقرة، الآية ٢٧٢.
٤. سورة البقرة، الآية ٢٦٧.
٥. سورة البقرة، الآية ٢٦٢.
٦. سورة الحشر، الآية ٩.
٧. سورة التوبة، الآية ٧٩.



وليس أخسّه: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[١].

ب) الذين لا يتضمّن إنفاقهم أيّة موانع أو حواجز فلا يكون ما ينفقونه سبباً للصدّ عن سبيل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾[٢] ولا يكون ذلك الإنفاق لمجرّد رئاء الناس والتبجّح أمامهم: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ﴾[٣] ولا يتبعون إنفاقهم منّاً ولا أذى: ﴿ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنًّا وَلاَ أَذًى﴾[٤].

ج) الذين حازوا على أرقى مراتب الإنفاق وحُظُوا بنعمة الإنفاق في أحلك الظروف التي مرّ بها الإسلام والمسلمون وأكثرها حساسيّة كانَ إنفاقهم في وقته المناسب وظَرفه المطلوب: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾[٥].

ولا ريب في أنّ مثل هذا الإنفاق يوجِب لصاحبه أجزل الثواب الذي لا ينقص عن الثواب الذي يحظى به أفضل أولياء الله ﷻ وهو ثواب مُطلق عارٍ من أيّ خوف أو حزن: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٦] فحتى الشخص الذي يُحبّ المال حبّاً جمّاً بطبعه وسلوكه: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[٧] والذي لو أُعطي كلّ خزائن الله سبحانه وتعالى فإنّه لن يُنفق منها شيئاً خوفاً من أن تنقص: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ

---

١ . سورة آل عمران، الآية ٩٢.
٢ . سورة الأنفال، الآية ٣٦.
٣ . سورة البقرة، الآية ٢٦٤.
٤ . سورة البقرة، الآية ٢٦٢.
٥ . سورة الحديد، الآية ١٠.
٦ . سورة يونس ﷺ، الآية ٦٢.
٧ . سورة الفجر، الآية ٢٠.



الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا﴾[١]، هذا الشخص لو أنفق من ماله بُغية حصوله على رضى الله تعالى وكان إنفاقه مطابقاً للشروط والمراتب ولم يتضمّن أيّة موانع فقد اجتاز الصراط المستقيم بحقّ: **﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾**[٢] وسيستحقّ بذلك دون شكّ الوعد الإلهيّ بالأجر الكريم الذي يُمنَح لأولياء الله.

تذكير: ١. إنّ مَن لا يؤمن بالمبدأ أو المعاد أو كليهما لكنّه لا يتوانى عن الإنفاق على المساكين والمحتاجين من أبناء جنسه وإعانتهم ومساعدتهم في شؤونهم المعيشية ولا يُتبع ما يقوم به مَنّاً أو أذى أو أيّ شيءٍ فإنّه لا شكّ سيحظى بالآثار الوضعية المترتبة على الإنفاق كحبّ الناس له والشهرة ودَفع البلايا عنه. قال الشاعر الفارسيّ المعروف (سعدي الشيرازي):

إفعل الخير وألقِه في الفرات   فسيردّه الله لك في الأزمات[٣]

لكنّ مثل هؤلاء الأفراد لن ينالوا أيّ أجر على إنفاقهم يوم القيامة وذلك لقوله ﷻ: **﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ...﴾**[٤] ورغم ذلك فقد يكون هناك بصيص أمل في تخفيف عذاب هؤلاء المُنفقين في الآخرة لأنّ الله سبحانه قال: **﴿إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ**

---

١ . **سورة الإسراء**، الآية ١٠٠.

٢ . **سورة البلد**، الآيات من ١١ إلى ١٨.

٣ . أصل البيت في الفارسية هو:

[تو نيكي كُن و در دجله انداز   كه ايزد در بيابانت دهد باز]

(**كليّات سعدي**، ص١٠٣٩، قسم المواعظ)

٤ . **سورة التوبة**، الآية ٥٤.



المُحْسِنِينَ﴾[١] مع أنّه من الصعوبة بمكان القول بأنّ كلمة (مُحسن) تشمل الكافر الذي يفتقد للحُسن الفاعليّ.

٢. لا ريب في أنّ الإنفاق العلنيّ الهادف إلى تشجيع الآخرين على الإنفاق وإشاعة هذه السنّة الحسنة له أجر أكبر وثواب أعظم بِشرط ألّا يكون ذلك مصحوباً بالمَنّ والأذى ولا سيّما في الإنفاق الواجب، وهو لا يختلف عن الإنفاق السريّ في استحقاقه للثواب والأجر الموعودين وعدم مُعاناة صاحبه لا مِن الخوف ولا من الحزن: **﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[٢].

بحث روائيّ

١. الله ﷻ لا يكلّم المُنفق المَنّان

عَن أبي ذر عَن النبيّ ﷺ قال: **«ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهم الله؛ المَنّانَ الّذي لا يُعطي شَيْئاً إلّا بِمِنّة...»**[٣].

ـ قال ﷺ: **«المَنّانُ بِما يُعْطي لا يُكَلِّمُه الله وَلا يَنْظُرُ إليْهِ وَلا يُزَكّيه وَلَه عَذابٌ أليم»**[٤].

إشارة: إنّ تلويث الإنفاق بالمَنّ يؤدّي إلى حرمان صاحبه من ألطاف الله ﷻ وعنايته، بل وسيستحقّ العذاب بما قام به، والمقصود بعدم تكليم الله سبحانه المَنّان وعدم النّظر إليه هو الكلام التشريفيّ ونظرة التكريم، وإلّا فإنّ الله تعالى يرى الجميع دون استثناء، وقد يُكلّم الكفّار كذلك في بعض الأحيان ومُعاتبتهم.

---

١. سورة التوبة، الآية ١٢٠.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٧٤.

٣. كتاب الخصال، ص١٨٤.

٤. تفسير مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٦٤٧.



٢ . تَرك المَنّ والأذى تكليف عموميّ

عَن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله : إنَّ اللهَ تعالى كَرَّهَ لي سِتّ خِصالٍ وَكَرَّهتهنّ لِلأوْصياءِ مِن وُلْدي وأتْباعِهم مِن بَعْدي... مِنها المَنّ بَعْدَ الصَّدَقَة...»[1].

ـ قالَ النبيّ صلى الله عليه وآله : «إنَّ اللهَ كَرَّهَ لَكُم أيّتُها الأُمّة أرْبَعاً وعِشرينَ خِصْلَةً وَنَهاكُم عَنْها... وَكَرَّهَ المَنَّ في الصَّدَقَة»[2].

إشارة: من الواضح أنّ التعبيرات المذكورة تفيد شدّة نهي السنّة عن اتباع الإنفاق أو الصّدقة بالمَنّ.

* * *

١ . الشيخ الصّدوق، مَن لا يَحضره الفقيه، ج٢، ص٧١؛ أصول الكافي، ج٤، ص٢٢.

٢ . كتاب الخصال، ص٥٢٠.

قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾

خلاصة التفسير

تُعتبر هذه الآية الكريمة من حيث المضمون استمراراً للآية السابقة فهي تُعلّم المُنفقين التعامل مع المُحتاج والمسكين باحترام وأن يتصرّفوا معه بوقار إذا لم يرغبوا في إعطائه أيّة صدقة، ويتجاوزوا عنه ويغفروا له إذا أبدى نحوهم أيّ تصرّف غير لائق، والابتعاد عن إعطاء الصدقة مع الأذى.

إنّ من شأن القول المعروف والمغفرة إيصال الشخص إلى الأهداف المتوخّاة من الإنفاق وهي تزكية النّفس والتأليف بين القلوب وحلّ مشاكل الآخرين، والله سبحانه هو الغنيّ الحليم.

التفسير

المُفردات[1]

قَوْلٌ: إنّ الأصل الواحد في المادّة هو إبراز ما في القلب وإنشاؤه بأيّ وسيلة

---

١ . لمزيد من المعلومات حول معنى (الصّدقة) و(الأذى)، راجع تفسير الآية (١٩٦) من سورة البقرة في الجزء العاشر من تفسير تسنيم، ص٢٧، وحول معنى كلمة (الحليم) أنظر تفسير الآية (٢٢٥) من نفس السورة في الجزء الحادي عشر من تفسير تسنيم، ص٢٢٠.



كانت، وهذا المعنى يختلف باختلاف الطرفيْن من جهة التفهيم والتفاهم، فالقول غير مخصوص بالإنسان وبالأُذن واللّسان بل يجري في أيّ مقام ومرحلة من عوالم اللاهوت والعقول والملائكة والإنسان والحيوان وسائر الطبيعيّات، فقد يحصل منطق أو بإلقاء أو بوَحي أو بإلهام أو بإرادة أو بصوت مخصوص أو بحالة مخصوصة أو بحركة مُعيّنة أو بإيجاد أمر تكوينيّ[1].

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**يَقُولُ وَلا يَلْفِظ**»[2]، فالقول في هذه الآية الشريفة يتضمّن كذلك معنى الكلام والتصرّف وبعض الحالات التي تختلج في القلب وهذا يشبه قوله عزّ وجلّ: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾[3].

مَعْرُوفٌ: قد مرّ بنا معنى (المعرفة) عند تفسير الآية الشريفة (١٤٦) من سورة البقرة[4]، و(المَعروف) الذي يُعرَف ويُطَّلَع عليه ويتميّز عمّا سواه في قِبال المُنكر المجهول من جهة الآثار والخصوصيّات، وهذا يُلازم المُستحسن المطلوب عند العقل بحيث يعرفه العقل ولا يُنكره. والمُراد من المعروف نفسه: أن يكون معروفاً في الحقيقة وفي مَتن الواقع بحيث يقبله العقل السالم ويعترف به ويميّزه، ثمّ يعرفه الشّرع موافقاً للعقل وتَبعاً للحقّ كما أنّ المُنكر أيضاً عبارة عمّا يُنكره العقل السليم ويخالف الحقّ والشّرع. فالمعروف يشمل كلّ ما يُؤمَر به في الشرع، وعلى هذا يُستَعمَل المعروف في جميع موارد الخير والصلاح والفلاح والمُستَحسَن والفريضة والجميل[5].

---

١ . العلّامة المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٩، ص٣٣٨ ـ ٣٣٩، مادّة (ق و ل).

٢ . «يُخْبِرُ لَا بِلِسَانٍ ولَهَوَاتٍ ويَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ وأَدَوَاتٍ يَقُولُ ولَا يَلْفِظُ ويَحْفَظُ ولَا يَتَحَفَّظُ ويُرِيدُ ولَا يُضْمِرُ يُحِبُّ ويَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ ويُبْغِضُ ويَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ». **نهج البلاغة**، الخطبة رقم ١٨٦.

٣ . سورة ق، الآية ١٨.

٤ . أنظر: **تفسير تسنيم**، ج٧، ص٤٣١.

٥ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٨، ص٩٨ ـ ٩٩، مادّة (ع ر ف).



فإذا كان المعروف معروفاً وشائعاً بين الناس لكنّه لم يُؤيَّد من قِبل العقل البرهاني أو النّقل المُعتبر، وإن كان مُقرّراً من طرف المعصوم عليه السلام، فإنّه لا يُعتبر معروفاً قرآنيّاً.

مَغْفِرَةٌ: المقصود بالمغفرة هو التنازل عن حقّ النّاس وليس غفران المعصية الشرعية لأنّ الغُفران هو مصطلح شرعيّ خاصّ بالله سبحانه وحده.

خَيْرٌ: إذا جاءت كلمة الخير مُضافة أو مع حرف الجرّ (مِن) وكان سياق الكلام مناسباً فإنّ معناها يكون (أفضلُ مِن) أو (أحسنُ مِن)... إلخ.، كقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[1]، ولكن، مع وجود القرينة، فإنّ هذه الكلمة تعني كذلك (الراجح) و(الحَسَن) شأنها في ذلك شأن كلمة (أَوْلَى) التي تعني التفضيل أحياناً وأحياناً أخرى تفيد التعيين مثل قوله سبحانه: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[2].

وفي الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث وردت كلمة (خَيْر) مع حرف الجرّ (مِن)، ولكن، بالنّظر إلى الآية الكريمة: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى﴾[3] التي تعتبر الصّدقة باطلة إذا أُعطيَت بالمَنّ والأذى، فإنّ معنى كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ هنا هو (حَسَن) وليس (أحسَن مِن).

صَدَقَة: الأصل الواحد في هذه المادّة هو التّمامية والصحّة من الخلاف والكون على الحقّ[4] وليس الإنفاق الذي يصاحبه المَنّ أو الأذى أو كلاهما لأنّ عنوان (الصّدقة) يوحي بقصد القُربة ومثل هذا العمل الذي يُراد به التقرّب لا يمكن أن يكون مُحرّماً. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ كلّاً من المَنّ والأذى قد

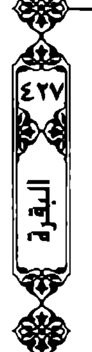
---

١ . سورة البقرة، الآية ١٠٦. راجع: المصدر السابق، ج٣، ص١٦٠، مادّة (خ ي ر).

٢ . سورة يوسف عليه السلام، الآية ٣٩.

٣ . سورة البقرة، الآية ٢٦٤.

٤ . العلّامة المصطفويّ، التحقيق في كلمات القرآن، ج٦، ص٢٦٣، مادّة «ص د ق».



يكون تارة في صلب الصّدقة وعندها يُعتبر من باب النّهي في العبادة وهو ما قد يؤدّي إلى إبطالها، وأحياناً أخرى يكون المَنّ والأذى بشكل الهَمز واللّمز المتعلّقين بالصّدقة ما يعني اجتماع الأمر والنّهي معاً وقد يكون في أحيان أخرى خارجاً عن إطار الصّدقة تماماً وهو ما يشير إليه ظاهر الآية الّتي هي موضوع البحث حيث لا تتضمّن على أيّ واحدٍ من المحذورَيْن المذكورَيْن، إلّا أنّه ومن الناحية القرآنية، يُمثِّل هذا العمل سبباً لإبطال الصّدقة وعدم حصول صاحبها على أيّ أجر أو ثواب، أي، يمكن للمَنّ والأذى أن يكونا مانعيْن خارجيّيْن للصّدقة: ﴿صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾.

غَنِيٌّ: الغَنيّ هو مَن لا يكون مُحتاجاً أبداً لكنّ استخدام هذه الكلمة للإنسان يفيد عدم الحاجة النسبية مثل قوله ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾[1] وأمّا استخدامها بشأن الله سبحانه فإنّها تعني الإطلاق في عدم الحاجة[2].

حَلِيمٌ: من (الحِلْم) بمعنى ضبط النّفس والطّبع عن هيجان الغضب[3] وعدم التعجيل في العقوبة والجزاء، كالمعاقبة على المِنّة والإيذاء.

تناسب الآيات

أخبرتنا الآية الشريفة التي سبقت هذه الآية عن الأجر الكبير الذي يحظى به المُنفِق والمُتَصَدِّق من غير مَنّ أو أذى، وهذه الآية تشير إلى مرحلة أعلى ومرتبة أرقى حيث بيّنت أنّه حتى في حال عدم تقديم الصّدقة فإنّه ينبغي التعامل مع المحتاجين والمساكين بطيبة وأخلاق حَسنة والتصرّف معهم بأدب ودماثة قولاً وعملاً.

* * *

---

١ . سورة النساء، الآية ٦.

٢ . أنظر: **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٧، ص٢٧٦، مادّة (غ ن ي).

٣ . الراغب الأصفهانيّ، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٢٥٣، مادّة (ح ل م).

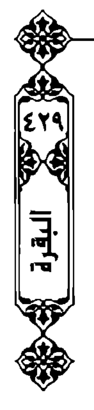


القول المعروف والمغفرة

ينبغي للمُنفِق أن يقول المعروف للمحتاج ويتحدّث إليه بإحسان بأدب واحترام إذا طلب منه هذا الأخير المساعدة دون أن يتسبّب المُنفِقُ في إيذائه أو الإلحاح غير المنطقيّ في سؤاله فيكون على المُنفِق أن يقول لهذا السائل قولاً معروفاً، وأمّا (المغفرة) فتحدث عندما يُلحّ السائل في طَلَبه على المسؤول (المُنفِق) ويؤدّي أحياناً إلى إحراجه أو التصرّف بشكل غير لائق بينما يسعى المُنفِق إلى الالتزام بالحِلْم والتغاضي عمّا يصدر عن السائل من جسارة أو سوء تصرّف والعفو عنه؛ إذاً، فمَن لا يرغب في الإنفاق أو إعطاء الصّدقة يجب عليه التعامل مع السائل برِفق وحِلم وأن يُكلّمه بأدب واحترام، وإذا مَسّه من جانب السائل ما يكدّر خاطره أو يتسبّب في إيذائه فإنّه من الأفضل العفو عنه وتجاهل ما بَدر منه وتجنّب إعطائه الصّدقة بالمَنّ والأذى لأنّ مثل هذه الصّدقة لا يستحقّ ثواباً من الله تعالى.

وبالاستناد إلى مضمون الآية الكريمة الّتي هي موضوع البحث فإنّ التغاضي والعفو لا يشملان فقط سبب المَفسدة (أي المَنّ والأذى) وإبطال ثوابها والحرمان من نتائجها الإيجابية، بل لا بدّ للمسؤول من أن يتدارك المصلحة والفائدة اللتيْن فقدهما لعدم إعطائه الصّدقة وتعويضها بمصلحة أفضل من خلال القول المعروف والمغفرة فهذان الأخيران يُعتبران من مصاديق الإنفاق المعنويّ وحفظ ماء الوَجه والسّمعة والتنازل عن الحقّ وهذا أفضل منزلة من الإنفاق الماليّ نفسه وأرقى رُتبة منه.

تذكير: ١. إنّ القول المعروف ـ كما سنلاحظ لاحقاً ـ مُستحبّ لجميع الأفراد، لكن لمّا كان لزاماً على الآخرين مراعاة المسائل العاطفية والإنسانية



للسائل والمسكين المحروم الذي هو في أمسّ الحاجة إلى تلك المُراعاة، أكّدَت هذه الآية الشريفة على ضرورة التعامل مع السائل بالقول المعروف.

٢. المقصود بالصّدقة في الآية الكريمة هي الصّدقة الواجبة (الزّكاة) والصّدقة المُستحبّة كذلك حيث حدّد الفقه معياراً خاصّاً لكلّ واحدة منهما.

التأثير البالغ للأسماء الحُسنى

لا شكّ في أنّ ذِكر الأسماء الحُسنى، وخاصّة (الغَنيّ) و(الحَليم) في ذيل الآية الشريفة، من شأنه أن يشجّع الأفراد على الاقتداء بالأخلاق الإلهيّة والتخلّق بها، فالصّفة ﴿غَنِيٌّ﴾ تُلهم الشخص الإنفاق الخالص الخالي من أيّة شائبة لأنّها تُبيّن له أنّ الله ﷻ غنيّ وغير محتاج إلى إنفاق عباده بالمرّة فاصفة هذه أي ـ غنيّ ـ ترغّب المُنفِق على الإنفاق ليصبح السائل أو المسكين غنيّاً ويتخلّص من الجشع وينجو من الطّمع اللذيْن يُمثّلان مظهراً من مظاهر الحياة الدنيوية، ويكون المُنفِق مظهر الله تعالى الغَنيّ.

كما أنّ صفة (الغنيّ) تحثّ الناس على ترك المَنّ وتجنّب الأذى باعتبار أنّ الله الغَنيّ قد تكفّل بسدّ حاجات العباد، فلا يحرمنّ أحد نفسه من الصفة الكمالية للإنفاق؛ وأمّا عدم ذكر (المَنّ) في هذه الآية فيرجع إلى كون المَنّ يُعدّ أحد مصاديق الأذى لذلك ذُكِر (الأذى) في الآيات السابقة لغلبته الوجودية قبل العمومية وهذا يعني أنّه يشمل المَنّ كذلك.

وأمّا ما يتعلّق بصفة (الحَليم) فإنّها تدعو الفرد إلى تسكين غضبه بالحِلْم إزاء التصرّف السيّئ الذي قد يُبديه السائل أو المحتاج معه وأن يعتاد على العفو والمغفرة بدلاً من التصرّف بالمثل.




إشارات ولطائف

١ . الدستور العالمي للإسلام

يُعتبر (القول المعروف) أحد المبادئ العامّة والعالمية الخاصّة بحُسن معاشرة الآخرين، فقد استهلّ القرآن الكريم حديثه أوّلاً بدعوة الناس ومطالبتهم بالقول المعروف: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾[1] وليس ثمّة دليل يشير إلى أنّ ذلك الأمر يتعلّق بالإسلام خاصّة أو الإيمان على وجه التحديد، إلّا أنّ هذا العموم أو الإطلاق يشبه حالات العموم والإطلاق الأخرى القابلة كذلك للتخصيص والتقييد. ومن الواضح أنّ أولئك الذين وصفهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2] أو مَن كانوا مصاديق لشياطين الإنس: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[3] ليسوا مشمولين بأمر القول المعروف، وعليه، فإنّ المقصود بالأمر بشكل عامّ وابتداءً هو مُراعاة حُسن القول مع الجميع دون استثناء. بعد ذلك يحاول القرآن الكريم حَضّ عباد الله على اتّباع أفضل أنماط الحديث والقول في تعاملهم مع الآخرين فقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4] وهذا يعني التحدّث إلى الناس بكلّ احترام وأدب وأن يُقال لهم أحسن الكلام وأفضل القول.

---

١ . سورة البقرة، الآية ٨٣.

٢ . سورة الفرقان، الآية ٤٤.

٣ . سورة الأنعام، الآية ١١٢.

٤ . سورة الإسراء، الآية ٥٣.

٢. المغفرة، شأن دينيّ باطنيّ

عندما يحدث نزاع ما بين المسلمين داخل النظام الإسلاميّ أو يظهر من أحدهم تصرّفاً غير لائق فإنّ القاعدة العامّة في هذه الحالة تقتضي أن يقوم الطرفان بإزالة الخلافات بينهما والسّعي إلى تجنّب العداوة والبغضاء ما استطاعا إلى ذلك سبيلاً من أجل بَثّ اليأس والقنوط في قلب الشيطان الرّجيم الذي يحاول إلقاء الضغينة والحقد بين المسلمين، لا أن يعتبر كلّ طرف منهم الطرفَ الآخر عدوّاً له فيطردوا هذا ويَنفوا ذاك. ولا ريب في أنّ هذا الأمر المهمّ لا يكون إلّا من خلال دفع السيّئات بواسطة الحَسنات: **﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾**[1]، فالأمر القاضي بالمغفرة والعفو عن أخطاء بعضنا مع البعض أو التصرّف غير اللائق الذي قد يصدر عن السائل يهدف إلى تحقيق هذا المبدأ من دون شكّ.

وجدير بالذّكر أنّ السلوك المطلوب من المؤمنين تجاه أعدائهم من الكافرين يتمثّل في طردهم والقضاء عليهم متى واتتهم الفرصة ذلك وهذا هو المقصود بقوله ﷻ: **﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾**[2].

يقول الإمام علي ﷺ: «رُدُّوا الْحَجَرَ منْ حَيْثُ جاءَ فَإِنَّ الشَّرَّ لَا يَدْفَعُهُ إِلَّا الشَّرُّ»[3].

تذكير: ١. إنّ تشبيه أمير المؤمنين ﷺ مسألة الجهاد والدّفاع عن بيضة الإسلام والتي تُعتبر واجباً وفريضة إلهيّة مهمّة للغاية بالشرّ في كلامه الشريف

---

١. **سورة فصّلت**، الآية ٣٤.

٢. **سورة الفتح**، الآية ٢٩.

٣. **بحار الأنوار**، ج٧٢، ص٢١٢؛ **نهج البلاغة**، الحكمة رقم ٣١٤.



يدخل ضمن باب المشاكلة[١] مثل قوله تعالى: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[٢] وإلّا فإنّه ما مِن أحد يُنكر أنّ هجوم الأعداء واعتدائهم على المسلمين يُعدّ ظلماً وعدواناً بل وشرّاً قبيحاً، وأنّ دفاع مُجاهدي الإسلام وصناديده ضدّ هجمات العدوّ هو عَدل وخَير وحَسن.

٢. يمكن لغير المسلمين الذين يعيشون مع المسلمين في بلد إسلاميّ أن يُعامَلوا بالرّأفة والعطف من قِبَل المسلمين وأن يُحسن المسلمون تصرّفهم معهم.

بحث روائيّ

١. كيفية التعامل مع السائل

قال رسول الله ﷺ: «**إذا سَئَلَ السّائِلُ فَلا تَقْطَعُوا عَلَيْهِ مَسْأَلَتَهُ حَتّى يَفْرغَ مِنْها، ثُمّ رُدّوا عَلَيهِ بِوقارٍ وَلِين، إمّا بَذْلٌ يَسير أو رَدّ جَميل فإنّهُ قَد يَأتيكُم مَن لَيْس بإنْس وَلا جانّ، يَنظُرون كَيفَ صَنيعَكم فِيما خَوّلَكم الله تعالى**»[٣].

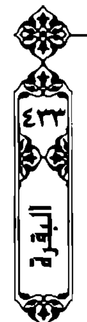
إشارة: إذا جاءَ سائل ما إلى أحدنا وطلب منه شيئاً فعلينا أن نستمع إلى طلبه ونهتمّ بسؤاله والسّماح له بالكلام حتى ينتهي من كلامه، ثمّ نتعامل معه بكلّ احترام وكياسة، فإمّا أن نُعطيه ما يريد دون تكلّف أو مَنّ أو نُعلِمه بعدم قدرتنا

---

١. المشاكلة هي التعبير عن الشيء بِلَفظ غيره لوقوعه في صُحبته تحقيقاً أو تقديراً؛ فالأوّل مثل قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ حيث أُطلِقَت كلمة (النّفس) على ذات الله تعالى لوقوعها في صُحبة كلمة (نَفسي). والثاني نحو قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللهِ﴾ فصِبغة مَصدر مؤكّد لقوله ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾، ومعناها: تطهير الله، لأنّ الإيمان يُطهّر النفوس، فعبّر عن الإيمان بالله بصبغة الله لوقوعها في صحبة الإيمان. (مجدي وهبة وكامل المهندس، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م). [المترجم]

٢. **سورة الشورى**، الآية ٤٠.

٣. الطبرسيّ، **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٤٨؛ **وسائل الشيعة**، ج٩، ص٤٢٠.



على تلبية طَلَبه لكن بالقول المعروف والحَسن، فالرّسـول الأعظـم ﷺ يُحـذّرنا من التصرّف بسوء وفظاظة مع السائل فلعلّه يكون مَلَكاً مُرسلاً لاختبارنا وليس بَشراً عادياً حتى يتبيّن له ما نفعله بما أودعه الله سبحانه عندنا مـن مالـه ونِعمَتـه؛ وقال ﷺ كذلك: «**إنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَعُوهُمْ بِأَخْلَاقِكُمْ**»[1].

٢ . القول المعروف صَدقة

عَن عمرو بن دينار قال: بَلَغنا أنّ النبيّ ﷺ قال: «ما مِن صَـدَقةٍ أَحَـبّ إلى الله مِن قَوْلٍ، أَلَمَ تَسْمَع قَوْلَه: ﴿**قَوْلٌ مَّعْـرُوفٌ وَمَغْفِـرَةٌ خَـيْرٌ مِّـن صَـدَقَةٍ يَتْبَعُهَـا أَذًى**﴾»[2].

ـ أخرجَ الطّبراني عَن سُمرة بن جُنـدب قـال: قـال رَسـول الله ﷺ: «**وَمَـا تَصدّقَ النّاسُ بِصَدَقة مِثْل عِلْم يُنْشَر**»[3]. وقـال ﷺ: «**نِعْـمَ العَطِيّـة كَلِمَـة حَـقّ تَسْمَعها ثُمّ تَحْملها إلى أخٍ لَكَ مُسْلِم فَتُعَلّمها إيّاه**»[4].

إشارة: قد أوضحنا في بحث الإنفاق أنّه ربّما يكـون ماديّـاً وأحيانـاً معنويـاً وهذا هو شأن الصّدقة أيضاً، فبالاستناد إلى الروايات المذكورة فإنّ القَول الحَسن والمعروف ونَشر العِلم وسماع كلمة الحـقّ وتعليمهـا للآخـرين هـي مـن أحـبّ الصّدقات عند الله ﷻ وأفضل أنواع المغفرة؛ وقد وردت العبارة التالية في بعض النصوص: «**صَدَقَةٌ يُحِبُّهَا اللهُ إِصْلَاحُ بَيْنِ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَـدُوا وَتَقَـارُبُ بَيْـنِهِمْ إِذَا**

١ . **بحار الأنوار**، ج٦٨، ص٣٨٣؛ ابن الأثير، **النهاية**، ج٥، ص١٨٤، مـادّة (و س ع)؛ الـصّدوق، **مَن لا يحضره الفقيـه**، ج٤، ص٣٩٤. وقـال ﷺ أيـضاً: «إِنَّكُـمْ لَـنْ تَـسَعُوا النَّـاسَ بِـأَمْوَالِكُمْ فَالْقَوْهُمْ بِطَلَاقَةِ الْوَجْهِ وَحُسْنِ الْبِشْرِ». (نفس المصدر). [المترجم]

٢ . السيوطيّ، **تفسير الدرّ المنثور**، ج٢، ص٤٣.

٣ . المصدر السابق؛ **منية المريد**، ص١٠٥.

٤ . **تفسير الدرّ المنثور**، ج٢، ص٤٣.



تَبَاعَدُوا»[١]، ورغم أنّ الصّدقة التي لا يشوبها مَنّ ولا أذى محبوبة عند الله سبحانه وتعالى إلّا أنّ إصلاح المجتمع الإسلاميّ وجَبر الصُّدوع التي قد تصيبه والتقريب بين أفراده بهدف استئصال الفساد وقطع دابر الضّغائن والأحقاد وإزالة الخلافات والاختلافات فيها بينهم، كلّ ذلك يمثّل عند الله ﷻ صدقة من نوع خاصّ وهي أحبّ الصّدقات إليه سبحانه.

* * *

١ . **أصول الكافي**، ج٢، ص٢٠٩. (عَنْ حَبِيبٍ الْأَحْوَلِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ: «صَدَقَةٌ يُحِبُّهَا اللهُ...»). [المترجم]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾

خلاصة التفسير

تحدّث الله تبارك وتعالى في هذه الآية الشريفة بلهجة شديدة، فهو ﷻ يُهدّد المؤمنين ويتوعّدهم من ضياع ثواب صدقاتهم وأجورها إذا أنفقوها على السائلين بالمَنّ والأذى، وحذّرهم من أنّ ذلك سيجعلهم أشباهاً للشخص الذي يُنفق مالَه رئاء الناس خِلافاً لِما ينوي ويهدف ومثل هذا الشخص بالتأكيد لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخِر.

ثمّ شَبّه ﷻ العمل الذي يقوم به المُرائي بصخرة ملساء مكسوّة بقليل من التراب الذي يحتوي على بضع حبّات فجاءَ إعصار قويّ وهبّت ريح عاتية أزالتا ما كان من التراب على تلك الصخرة وجرّدتاها منه وتركتاها ملساء صَلْدة لا تحمل على ظهرها ذرة تراب واحدة.



وهذا التشبيه لحال المُنفقين المرائين يُعتبر بلا شكّ إنذاراً للمُنفقين الذين يمنّون على السائلين بصدقاتهم ويؤذونهم بها وأنّ وضعهم حَرِج وخطير للغاية إذا أصرّوا على ما يقومون به، وأنّ ما رغبوا في زرعه وحصده ليس سوى الفراغ والعدم وخيبة الأمل، فضلاً عن أنّ المثال المذكور يُعدّ تحذيراً من أنّ الله ﷻ لن يهدي القوم الكافرين (وليس المقصود بالهداية هنا الهداية التشريعية والعمومية).

التفسير

المُفردات

لَا تُبْطِلُواْ: «الباطل» يُقابل «الحقّ»، أي ما لا ثبات له ولا واقعيّة، ولا محالة أنّه يزول ويمحو ولا يلبث وجوده[١]، وقد ورد الباطل في القرآن الكريم كذلك في مقابل الحقّ وسمّاه بالزّهوق والزّاهِق: ﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٢] و﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[٣].

و(الإبطال) يكون في مقابل (الإحقاق) أي إزالة ما يزول ومحوه[٤]، وقال الفيّومي: «بَطَلَ الشَّيْءُ يَبْطُلُ بُطْلًا وَبُطُولًا وَبُطْلَانًا، بِضَمِّ الْأَوَائِلِ، فَسَدَ أَوْ سَقَطَ حُكْمُهُ فَهُوَ بَاطِلٌ»[٥]. وفي الآية الشريفة إشارة إلى أنّ الرّياء والمِنّة تُحبطان آثار المسئلة الكلامية للإنفاق فضلاً عن نَفيها للصحّة الفقهية.

---

١ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١، ص٢٧٣، مادّة (ب ط ل).

٢ . **سورة الإسراء**، الآية ٨١.

٣ . **سورة الأنبياء** عليهم السلام، الآية ١٨.

٤ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ص٢٧٣ ـ ٢٧٤، مادّة (ب ط ل).

٥ . أبو العبّاس أحمد بن محمّد الفيّومي، **المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير**، ص٥٢.





تذكير: قد يكون الباطل في أحيانٍ مقابل الحقّ، وفي أحيان أخرى يكون في مُقابل (المقبول) وهذا بحث كلاميّ، وتارة نراه في مقابل ما هو (صحيح) وهو بحث فقهيّ، وأمّا القاسم المشترك بين كلّ تلك المعاني فهو الفناء وزوال الأثر ولكلّ واحدٍ حُكمه في الفنّ الذي يُراد تفصيله.

رِئَاء: (الرّئاء) و(المراءاة) من باب المفاعلة وجذرهما (الرؤية) بمعنى المُراءاة بالفعل والتظاهر به أمام الآخرين[1].

صَفْوَانٍ: أصل (الصّفاء) خلوص الشيء من الشّوب ومنه الصّفا للحجارة الصافية، و(صَفْوان) الحجارة المُلْس الصافية ليس فيها ثقوب أو خدوش تأوي تراباً أو غيره[2].

وَابِلٌ: الأصل الواحد في المادّة هو شدّة في ثقالة ماديّة أو معنوية؛ و(الوابِل) على وزن (فاعِل) وهو من (الوَبال)، أي الشيء الذي تصدر عنه شِدّة وثقَل، ومن مصاديقه: المطر الشّديد الثقيل والسّحاب الثقيل الغليظ[3]. وجدير بالذّكر أنّ التنوين في كلمة ﴿وَابِلٌ﴾ إنّما هو للتفخيم[4] وأمّا التنوين في كلمة ﴿تُرَابٌ﴾ فهو للتّرقيق.

صَلْدًا: الأصل الواحد في هذه المادّة هو الصّلابة بحيث لا ينمو منها أثر ولا تنبت شيئاً، ومصاديق المادّة الحجر الصَّلْد والأرض التي لا تنبت وأمثالها ومن

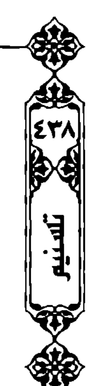
---

١ . «الرِّيَاءُ وَهُوَ إِظْهَارُ الْعَمَلِ لِلنَّاسِ لِيَرَوْهُ وَيَظُنُّوا بِهِ خَيْرًا فَالْعَمَلُ لِغَيْرِ الله نَعُوذُ بِالله مِنْهُ». (المصدر السابق، ص٢٤٧، مادّة «ر و ي»). [المترجم]

٢ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٤٨٧، مادّة (ص ف و).

٣ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١٣، ص١٦ ـ ١٧، مادّة (و ب ل).

٤ . التفخيم (في علم التجويد) هو تغليظ الحرف عند النّطق به، وتصعيده إلى أعلى الحَنَك، ويكون في الأحرف المُستعلية إذا كانت مضمومة أو مفتوحة أو ساكنة وقبلها ضَمّ أو فَتْح. ويُقابل التفخيم: التّرقيق. (مجدي وهبة وكامل المهندس، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م). [المترجم]



الرّأس ما لم يُخرج شَعْراً. ولا بدّ من أن يكون القَيْدان (الصّلابة وعدم النموّ) منظورَيْن وهذا اللّحاظ هو الفارق بينها وبين مترادفاتها من الصّلب والشدّة والصّفو وأمثالها[١].

تناسب الآيات

تضمّنت الآيات السابقة من كلام الله المجيد تشجيعاً للمؤمنين على الإنفاق وحثّهم على استحصال الأجر الكبير والبركات والوفيرة من إنفاقهم وحذّرهم من أن يُتبعوا إنفاقهم بالمَنّ أو الأذى ما قد يُسبّب إحراجاً للسائل وأذى للمحتاج، ثمّ نصحهم سبحانه وتعالى أن يستبدلوا إنفاقهم الماليّ المتبوع بالمَنّ والأذى بالإنفاق المعنويّ المتمثّل بالقول المعروف والمغفرة وأنّهما أعظم أجراً عند الله ﷻ وأفضل قُربى.

وفي هذه الآية يتحدّث سبحانه مع المؤمنين المُنفقين بلهجة أشدّ مُهدّداً إيّاهم بعدم الإنفاق أو التصدّق مع المنّ والأذى لأنّ ذلك سيُبطل ما أنفقوا ويحبط ما عملوا وستتمّ مُعاملته كرياء ونفاق وهذا ما لا أجر له ولا ثواب بل التصدّق مع المنّ له توبيخ وعقاب.

* * *

معنى (إبطال الصّدقة)

الباطل يعني العَدَم، وهو يُستَعمَل في موضعيْن:

١. الباطل المحض، وهو العَدم وليس له أيّ وجود خارجيّ أصلاً، كبطلان العمل العبادي وعبادة الكافرين للأصنام الذي شُبِّه بالسّراب الذي يُعتبر مجرّد

---

١ . التحقيق في كلمات القرآن، ج٦، ص٣١٢، مادّة (ص ل د).

خداع بصريّ وحسيّ ووهم وخيال، وهو الآخر ليس له وجود خارجيّ أصلاً. فالسّراب لا يعني عدم وجود أثر للماء وحسب بل هو اللاشيء نفسه؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ﴾[1]. وهنا نلاحظ أنّ الله ﷻ لم يَقُل: «حتّى إذا جاءَه وَجده لا شيء» لكي لا يتوهّم البعض بأنّ أعمال الكافرين موجودة إذاً لكنّها أعمال تافهة أو أنّها لا قيمة لها، بل قال سبحانه وتعالى إنّ أعمالهم كالسّراب الذي هو لا شيء وإنّهم لن يجدوا ضالّتهم عنده إطلاقاً[2].

وهذا هو المعنى بالذات الذي تقصده الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث من (الباطل) وهو البطلان، أي اللاشيء وغير المؤثّر، كما ورد في آية كريمة أخرى قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ﴾[3] أي إنّ الله ﷻ لن يجعل لسحركم هذا أيّ أثر يُذكَر بل وسيُبطل ويُزيل آثاره الخياليّة كذلك.

٢. الباطل المخلوط بالحقّ، كالمَثَل الذي ذكره الله سبحانه وتعالى عن الحقّ والباطل في قوله ﷻ: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾[4] حيث شبّه سبحانه الحقَّ الممزوج بالباطل بالزّبد والفقاعات التي تحدث فوق سطح الماء، فملاحظة الزّبد ورؤيته والإحساس به

---

١. سورة النور، الآية ٣٩.

٢. أنظر: تفسير تسنيم، ج٨، ص٢٧٢.

٣. سورة يونس ﷺ، الآية ٨١.

٤. سورة الرّعد، الآية ١٧.



إنّما هي بسبب الرطوبة والطبقة الرقيقة من ماء الحقّ ولذلك فهو يبدو كالحقّ، في حين أنّ ما هو موجود تحت الزّبد والفقاعات ليس سوى الباطل بعينه، فالباطل المخلوط بالحقّ يشير إلى وجود الرطوبة الحقّة وظهورها بمظهر الحقّ، ولكنّ ذلك كلّه يُعدّ باطلاً ومزيّفاً بسبب الفراغ والعدم اللذيْن يملآن ذلك الزّبد وتلك الفقاعات.

وهكذا نرى أنّ (الرّياء) و(المَنّ) و(الأذى) كلّها عوامل تؤدّي إلى زوال آثار الأعمال وتحيلها إلى باطل وسراب رغم عدم إحساسنا بذلك كما هي الحال عند أكل البعض لأموال اليتامى حيث أشارَ القرآن الكريم إلى أنّ هؤلاء إنّما يأكلون في بطونهم ناراً وإن كان الفاعل لا يشعر بلظى تلك النار ولا يحسّ بحرارتها في هذه الدّنيا: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾[1].

تذكير: المقصود ببطلان الصّدقة وعدم تأثيرها بسبب (المَنّ) و(الأذى) هو زوال آثارها في المسئلة الكلامية، أي أجر تلك الصّدقة وثوابها وبركاتها، وإلّا فإنّ الآثار الفقهية للصدقة تشبه تملُّك آخِذها وحِليّة وتصرّفه بها تصرّفاً كاملاً دون أن تزول أو تعدم؛ إذاً، فالمُراد بالباطل هنا هو الحبط الكلاميّ وليس البطلان الفقهيّ بشكل مطلق؛ وهذا يعني أنّ ثمّة آثاراً يمكن أن تترتّب على هذه الحالة، منها:

١. الآثار الكلامية بالنّظر إلى الثواب والأجر الأُخرويّيْن وهو أمر مُنتَفٍ تماماً.

٢. حِليّة تصرّف المحتاج الآخِذ لمثل هذا المال وتحمّله للمَنّ والأذى مُضطرّاً.

---

١. سورة النساء، الآية ١٠.



٣. إنتفاء الصحّة الفقهية، أي كون التصدّق المذكور مجزياً، وعلى الشخص المُعطي للصّدقة (المُتَصَدِّق) أن يُعطي الصّدقة من جديد، شأنها في ذلك شأن الزّكاة.

٤. وقال بعضهم إنّه لمّا كانت الصّدقة الواجبة المصحوبة بالمَنّ والأذى غير مجزية وبقاء عين المال بيَد آخِذه على حاله، أمكن أخذها منه وإعطائها إليه أو إلى غيره كرّة أخرى على أن يكون الإعطاء هذه المرّة بقصد القربة الخالصة إلى الله سبحانه دون يكون في ذلك مَنّ أو أذى.

الأذى والرّياء توأمان

ممّا لا شكّ فيه أنّ تحقير ـ شخصية المحتاج وإيذاء ـ السائل لا يقلّان مَذَمّة عن الرّياء الذي يُعدّ شِركاً بالله سبحانه لأنّه (أي الرّياء) لا يندرج في لائحة المعاصي الكبيرة المعروفة كالغيبة وما شابهها، فهو شِرك خَفيّ غير ثقيل خلافاً للمعاصي والذنوب الثقيلة الأخرى. فالرّياء شِرك ضمن إطار العقيدة، لكنّه وإن كانت عقوبته خفيفة مقارنة بعقوبات المعاصي الأخرى إلّا أنّ إيذاء المحتاج به والذي يؤدّي إلى زيادة الضغط الروحيّ والنّفسي عليه أكثر من الضغط الماديّ الذي يُعانيه له نتائج سلبية وعواقب وخيمة تفوق أيّة حالة أخرى؛ إذاً، فلا يمكن اعتبار كلّ إيذاء هو رياءاً وإن كان محرّماً وغير جائز.

وجدير بالذّكر أنّ عدم تكرار حَرف النّفي مع كلمة ﴿وَالأذَى﴾ قد يُوهم البعض في الظنّ بعدم بطلان (المَنّ) و(الأذى) معاً، لكنّ دخول حرف النّفي على الكلمة المذكورة في الآية الأخرى من شأنه أن يزيل كلّ وهم وظنّ: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَا أَذىً﴾[1] وهذه إشارة واضحة إلى أنّ كُلّ واحدٍ من (المَنّ) و(الأذى) يبطل الصّدقة بشكل مُستقلّ.

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٦٢.



معنى الرّياء

لا يقتصر الرّياء على أداء عمل ما أو التظاهر به أمام الآخرين بشكل علنيّ بل الهدف منه هو التظاهر بالإخلاص في العمل من أجل جَلب انتباه الناس والاشتهار بينهم، ويدلّ ذلك على قصور في نظرة المرائي حيال نظام الوجود، فبدلاً من أن يعتبر الله ﷻ المؤثّر الوحيد والمستقلّ في شؤون الخَلق فهو يرى أنّ نظرة الناس إليه تتميّز بالاستقلالية، وبدلاً من أن يخشى من الله سبحانه في ما يقوم به ويخاف منه نراه يخاف من الناس ويخشى منهم ويحرص على رضاهم عليه.

ويتّصف المرائي بالتظاهر والنظرة السطحيّة بينما يفتقد إلى النظرة والتفكير الواقعيّيْن وهو لا يعتبر الله ﷻ هو المحور الرئيسيّ للأشياء جميعاً، ومن الواضح أنّ النزعة إلى الله تعالى والحرص على جَلب انتباه الناس والتظاهر أمامهم لا يمكن أن تلتقي هذه العناوين الثلاثة عند أيّة نقطة.

وقد يُمارَس الرّياء أحياناً بواسطة السّماع، وهو أن يقوم الشخص بفعل الخير من أجل أن يتناقل الناس عمله هذا بينهم وإيصاله إلى أسماع الآخرين، أي إنّ الهدف الذي يبتغيه المرائي هو الإسماع والشهرة أملاً في النّجاة من شرّ الناس وأذاهم أو لجَلب أنظارهم نحوه واستعطاء محبّتهم وعطفهم.

ذِكر الرّياء بشكل مستقلّ

نلاحظ في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث أنّ (الرّياء) لم يُذكَر إلى جانب (المَنّ) و(الأذى) ولم يُنْهَ عنه مع هاتيْن الصّفتيْن، فالقرآن الكريم لم يَقُل: «لا تُبطِلوا صدقاتكم بالمَنّ والأذى والرّياء» لأنّ صَدر الآية هو خطاب مُوَجّه إلى المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ والمعروف أنّ (الرّياء) لا يجتمع مع (الإيمان) وذلك خلافاً لصِفَتَيْ المَنّ والأذى اللذيْن يمكن جَمعهما مع الإيمان، وكأنّ الآية

الشريفة تريد القول إنّه إذا أعطى شخص ما صَدقة وأتبعها بالمَنّ والأذى أو أبطل صَدقته الأولى بالمَنّ والأذى، فمَثَله كمَثل الكافر الذي يُعطي ماله ويتصدّق به رئاء الناس وبهدف التظاهر بعمله هذا أمامهم.

وتجدر الإشارة إلى أنّه يمكن الجمع بين الشّرك الخَفيّ الذي لم يبلغ بَعد مرحلة الظهور وبين الإيمان، وأمّا الشّرك في مرحلة العمل حيث يؤدّي الشخص عملاً ما رئاء الناس فلا يجتمع مع الإيمان لأنّ العمل الصالح يُمثّل جزءاً من الإيمان وكلّ شخص يقوم بعمل ما بهدف المراءاة فهو ليس بمؤمن وذلك لرغبته في التظاهر أمام الآخرين والادّعاء بأنّه يفعل ذلك العمل لوَجه الله تعالى وفي سبيله في حين أنّ غرضه من ذلك هو مجرّد جَلب انتباه الناس إليه وليس الحصول على مرضاة الله ﷻ.

وجه التشبيه في الآية

إنّ المقصود بتشبيه بطلان الصّدقة المتبوعة بالمَنّ والأذى ببطلان الصّدقة المدفوعة رئاءً هو أنّ هذا الأخير أشدّ وطأةً وأكثر أذى من المَنّ والأذى باعتبار الرّياء معصية عقديّة كبيرة فيما يُعتبر كلّ واحدٍ من (المَنّ) و(الأذى) معصية عمليّة؛ وأمّا القاسم المشترك بين (الرّياء) وبين كلّ واحدٍ من (المَنّ) و(الأذى) فهو أنّ هذه الحالات الثلاث تُمثّل أسباباً وعوامل للتفاخر والتظاهر وإيذاء الآخرين مع فارق بسيط وهو أنّ المرائي يحاول السيطرة على قلوب الناس بالخداع والحيلة واجتذاب حُبّهم له، بينما يعمد المَنّان والمُؤذي إلى تحطيم شخصية السائل وجرح أحاسيسه بالمَنّ والأذى، تماماً كما فعل فرعون عندما كان يستخفّ شعبه ويُجبرهم على طاعته وعبادته: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾[1].

---

١ . سورة الزخرف، الآية ٥٤.



تشبيه قلب المرائي بالصّفوان

شبّه القرآن الكريم قلب المتصدّق الذي يُتبع صدقته مَنّاً وأذى بقلب المرائي الشبيه بالحجر الأملس الذي لا يستقرّ عليه أيّ عمل صالح أو فعل الخير، فكما أنّ الصخرة الملساء لا تستطيع إبقاء ذرّة من التراب على ظهرها لُملوستها وإذا كان هناك شيء من التراب عليها فإنّ العاصفة الشديدة والمطر الغزير كفيلان بإزالته من فوقِ ظهرها ونثره في الهواء، فإنّ (المَنّ) و(الأذى) كذلك يشبهان (الرّياء) في إزالة الخير ومحو البركات من قلب المتصدّق المَنّان والمؤذي: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾.

وما مِن عاقل يتوقّع نموّ أيّ نبات على ظهر صخرة مَلساء فكذلك من غير المنطقي انتظار ظهور الخيرات القلبية من قلب المُنفِق المَنّان والمؤذي والمرائي، إذاً، فإنّ الصخرة الملساء التي لا يمكن أن ينبت عليها نبات أو ينمو على سطحها زرع ولا تصلح لأن تكون أرضاً خصبة للزراعة والنّماء هي أبلغ مثال وأعظم تشبيه يمكن الاستشهاد به لوصف قلب المتصدّق المنّان والمؤذي بقلب المُنفِق رئاء الناس الذي لا خير يُرجى لا في أعماله الباطنية ولا أفعاله الظاهرية.

تذكير: إنّ الضمير المذكور في كلمة ﴿فَمَثَلُهُ﴾ إمّا أنّه يعود إلى المرائي خصوصاً أو إلى كلّ واحد من المنّان والمرائي، فالمرائي أوّلاً هو أقرب إلى الوصف وثانياً فإنّ التشبيه دون ذكر وجه الشّبه يبقى ناقصاً، وفي هذه الآية الشريفة تمّ التشبيه بين إنفاق المَنّان والمؤذي بإنفاق المرائي، وأمّا ما يتعلّق بحُكم الانفاق رئاء الناس فإنّ الآية الكريمة لم تُبيّن ذلك بوضوح رغم أنّه يمكن تصوّر الحكم ولو بشكل عامّ وذلك من خلال المَثَل المذكور وهو تشبيه ما يقوم به المرائي بنثر البذور على ظهر صخرة ملساء (صفوان) فبدلاً من أن يكون المطر النافع سبباً لنموّ تلك البذور أصبح عاملاً للإضرار بالمرائي وتحطيم آماله وتوقّعاته.

حَبْط العمل

إنّ جملة ﴿لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ هي جملة استئنافية تشير إلى حبط إنفاق المنّان والمؤذي وعدم تأثيره، تماماً كما يقوم به المرائي، وهذا شبيه بما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا﴾[1] ومعنى (الهباء المنثور) هي ذرّات التراب أو العوالق التي تطير في الهواء[2].

ولكون كلمة ﴿شَيْءٍ﴾ نكرة في سياق النّفي في قوله تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ الّتي تشير إلى العمومية كان أفعال المُنفقين المَنّانين والمؤذين تشبه أفعال المتصدّق المرائي والكافر اللذيْن لا ينتفعان ممّا يقومان به ولا نَفع فيه إطلاقاً؛ إذاً، ينبغي على المُنفقين والمتصدّقين من المؤمنين أن يتجنّبوا إتباع صدقاتهم وإنفاقهم بالمَنّ أو الأذى حتى لا تذهب أعمالهم وصدقاتهم وإنفاقهم سُدىً ويصبح مَثله كمَثل إنفاق المرائي والكافرين.

ولا ريب في أنّ الانتفاع بالعمل وإحراز النتيجة المطلوبة منه يُعدّانِ فرعاً من وجود ذلك العمل وبقائه، ومَن يأتي يوم القيامة حاملاً سجلّ أعماله التي قام بها في هذه الدّنيا ليكون زاده ومؤونته في ذلك اليوم العصيب فهو الموصوف في قوله

---

١ . **سورة الفرقان، الآية ٢٣.**

٢ . قال الزّمخشريّ: «ليس ها هنا قدومٌ ولا ما يُشبه القدوم، ولكن مُثّلت حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم وإغاثة ملهوف وقِرى ضيف ومَنّ على أسير وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه، فقدم إلى أشيائهم وقصد إلى ما تحت أيديهم فأفسدها ومزّقها كلّ مُمزّق، ولم يترك لها أثراً ولا عثيراً. و(الهباء): ما يخرج من الكُوّة مع ضوء الشمس شبيه بالغبار؛ وفي أمثالهم: أقلّ من الهباء؛ و﴿مَنْثُوراً﴾ صفة للهباء، شُبّه بالهباء في قلته وحقارته عنده، وأنّه لا يُنتفَع به، ثمّ بالمنثور منه لأنّك تراه منتظماً مع الضوء فإذا حرّكته الريح رأيته قد تناثر وذهب كلّ مَذهب. ونحوه قوله: ﴿كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ لم يكف أن شبّههم بالعصف حتى جعله موصوفاً بالأكال ولا أن شبّه عملهم بالهباء حتى جعله متناثراً». (**تفسير الكشّاف**، ج٣، ص٢٧٤). [المترجم]



تعالى: ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[١]. فالإنفاق والتصدّق المصحوب بالمَنّ أو الأذى ليس سوى ذرات من التراب الموجودة على ظهر صخرة مَلساء مُعرّضة للعواصف والرّياح فإذا فرّقته ونشرته في الهواء استحال جمعه ثانياً وصَعب الانتفاع به لأيّ غرض وهذا هو المقصود بـ﴿لا يَقْدِرُونَ﴾ في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث وكذلك في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾[٢].

وبالاستناد إلى الآيتيْن الكريمتيْن: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[٣] و﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾[٤] فإنّ أفعال الإنسان وأعماله لا تَفنى ولا تنعدم وهذا المعنى منسجم تماماً مع مضمون الآية الشريفة من قوله تعالى: ﴿لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ لأنّ كُلّ واحدٍ من المِنّة والأذى والرّياء يُبطل الصّدقة والإنفاق ولن يبقى في يَد المُنفق أو المُتصدّق ما يَجدر ذِكره أو الانتفاع به، كالعاصفة الشديدة التي تزيح ذرات التراب الموجودة على سطح الصّفوان والصّخرة الملساء وتمسح كلّ ما عليها وعندئذ لا يمكن جمع تلك الذرات أو الحصول عليها مرّة أخرى.

وجدير بالذّكر أنّ المُراد من استخدام صيغة الجمع في الفِعليْن ﴿يَقْدِرُونَ﴾ و﴿كَسَبُواْ﴾ هو إضفاء حالة الجمع إلى اسم الموصول «الّذي» في عبارة ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ﴾ كما في قوله ﷻ: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ﴾[٥] إذ المقصود بـ«الذي»

---

١ . سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

٢ . سورة إبراهيم عليه السلام، الآية ١٨.

٣ . سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

٤ . سورة آل عمران، الآية ١٦١.

٥ . سورة التوبة، الآية ٦٩.

في هذه الآية هو حالة الجمع بدليل وجود ضمير الجمع العائد إلى اسم الموصول في الفعل ﴿خَاضُواْ﴾.

إلماعة: ما مِن شكّ في أنّ الصّدقة هي عمل صالح وفعل من أفعال الخير وهي قابلة للتنامي والزيادة، لكنّها قد تُهدَر أو تَذهب سُدىً إذا أتبع المُتصدّق صدقته أو المُنفِق إنفاقه بالمَنّ أو الأذى أو الرّياء، وأمّا عبادة الكافر للأصنام والأوثان فهي عمل باطل وسراب كاذب وعدم مطلق وقد وُصِف الثلاثة الأوائل معاً في قوله تعالى: ﴿لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ وفيما يخصّ عمل الكافر فقد شُبّه بالسّراب في قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾[1]؛ وأمّا الرّياء فهو شرك خَفيّ ولكن يُعتبر الكُفر إلحاداً أو شِركاً علنيّاً وصريحاً، وهكذا فإنّ صدقة أيّ واحدٍ من هؤلاء أو إنفاقه غير مقبول على الإطلاق وإن اختلفت دَركاتهم وتنوّعت مآويهم[2].

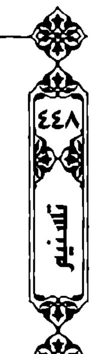
الهداية التكوينية الخاصّة

إنّ السرّ في حبط العمل في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث هو عدم استمداد العامل من الهداية الإلهية كما هو مُبيّن في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فالمُنفِق أو المتصدّق المَنّان على السائل أو المؤذي له يُشبه المرائي المحروم من الهداية الإلهية.

والمقصود بالهداية هنا هي الهداية التكوينية الخاصّة، أي الإيصال إلى الهدف المنشود، وهي هداية لا يحظى بها إلّا المؤمنون لأنّ جميع الناس بمَن فيهم الكافر

١ . سورة **النور**، الآية ٣٩.

٢ . الدّرَكات: جمع (الدَّرَكَة)، وهي المنزلة السُّفلى، والمأوى: هو المكان الذي يُؤوى إليه. (إميل بديع يعقوب، المعجم المفصّل في الجموع). [المترجم]



والمؤمن يمتلكون ويتمتّعون بالهداية التكوينية العامّة بحسب قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[1] كما أنّ الهداية التشريعية موهوبة للجميع وفقاً لقوله ﷻ: ﴿هُدَىً لِّلنَّاسِ﴾[2].

من الواضح أنّ الصفة ﴿الْكَافِرِينَ﴾ تشير إلى العِليّة، بمعنى، أنّ الله سبحانه وتعالى لن يُبلّغ الكافرَ إلى أيّ هدفٍ من أهدافه وذلك لكُفره؛ إذاً، فالسبب في عدم انتفاع كلّ واحدٍ من الكافر والمرائي ممّا يقومان به أو يؤدّيانه من أعمال هو كُفرهما الباطنيّ والخفيّ، والله سبحانه لن يؤيّد أفعالهما ولن يدافع عنهما فضلاً عن محوه للآثار المترتّبة على ما يفعلانه، وبالتالي إهلاكه وإبادته.

إشارات ولطائف

١. الأحكام الفقهية الخاصّة بـ(المَنّ) و(الأذى) و(الرّياء)

أ. إنّ الحكم الفقهيّ الخاصّ بالحدّ الأعلى للمَنّ والأذى هو نفس الحُكم الخاصّ بالرّياء، فإذا كان المقصود من الواجب التوصّلي[3] هو الرّياء ففي هذه الحالة يكون الواجب قد حصل وتحقّقت المعصية بسبب (الرّياء)، ولا مانع ـ كما هو واضح ـ من اجتماع الأمرين معاً: الامتثال للواجب وارتكاب المعصية النفسية. وليس للمَنّ أو الأذى أن يْبطِل يْبطلا الامتثال في الواجب التوصّلي كذلك رغم ارتكاب الحرام النفسيّ إلى جانب الامتثال.

---

١. سورة طه ﷺ، الآية ٥٠.

٢. سورة البقرة، الآية ١٨٥.

٣. «وهو الواجب الذي يتحقّق امتثاله بمجرّد الإتيان به بأيّ نحو اتّفق من دون حاجة إلى قصد القربة، كدَفْن الميت». (السيد محمّد علي الحسيني البقاعي اللبنانيّ، الحكم الشرعي وتقسيماته، ج١، ص٩). [المترجم]



وكنّا قد بيّنا قبل هذا أنّ الصّدقة هي عمل عباديّ سواء أكانت مُستحبّة أم واجبة، وقلنا إنّ (المَنّ) أو (الأذى) إمّا أن يحصُلَ أثناء إعطاء الصّدقة أو بعد إعطائها، وذكرنا أيضاً الأحكام الثلاثة المتعلّقة بالنّهي في العبادة واجتماع الأمر والنّهي ثمّ النّهي الخاصّ بما بعد الانتهاء من أداء العمل العباديّ، بالإضافة إلى شرح الحكم الوضعيّ للمال بالنسبة إلى المُعطي والسائل.

تذكير: يمكننا الاستدلال على حُرمة المَنّ بالدليل العقليّ غير المستقلّ إلى جانب الدليل اللفظيّ المتمثّل في سياق الآية، وخلاصة ذلك هي ما يلي:

١. أنّ الصدقة المذكورة في الآية الشريفة باعتبارها عملاً عباديّاً تشمل الواجب والمُستحبّ معاً.

٢. ورود النّهي الصريح في إبطال الصّدقة.

٣. المَنّ يُبطل الصّدقة، شأنه في ذلك شأن الرّياء، وهو [أي المَنّ] حرام بدليل النّهي المذكور.

٤. إذا لم يكُن المَنّ حراماً فهو مُباح، بمعنى أنّ الشّارع قد رخّصه وأجازه، وهذا يعني أنّ المَنّ جائز شَرعاً، في حين أنّ المَنّ يُبطل العمل وهو ما نُهيَ عنه، إلّا إذا اعتبرنا النّهي المذكور نهياً إرشاديّاً صِرفاً ولا يتّصف بأيّ صفة مولويّة، بينما الظاهر هو أنّه نَهيٌ مولويّ وتحريميّ.

ب. الرّياء هو سبب بُطلان العمل في أيّ واجب عباديّ وذلك لأنّ العمل المذكور لم يَكن بقصد التقرّب الذي يُعدّ من مقوّمات الواجب العباديّ؛ فإذا حصل ذلك في الجزء غير القابل للإصلاح من العمل العباديّ، كالرّياء في الرّكوع، ففي هذه الحالة أيضاً سيكون العمل باطلاً، أمّا إذا حدث في جزء يُمكن تداركه وإصلاحه، كأن يحصل ذلك في أذكار الصلوات، فإنّ العمل يُعتبر صحيحاً ومقبولاً إذا أعاد العامل عمله ثانياً وكرّره دون رياء وإلّا فإنّ العمل سيكون باطلاً بسبب عدم الإتيان بالجزء المطلوب وعدم إصلاحه عمداً.



ويُذكَر أنّ إسماع الخيرات وإطلاع الناس على مثل هذه الأفعال بهدف الشّهرة والصّيت أو جَلب انتباه الآخرين وكَسب آرائهم في الفاعل بسبب الطّمع أو الخوف منهم يُعدّ في الحقيقة رياءً أيضاً، إلّا أنّ الإسماع أو الرياء بعد أداء العمل لا يُبطِل هذا الأخير من الناحية الفقهية.

وثمّة باب فقهيّ خاصّ بكراهة ذكر العبادة والتعبّد للآخرين بعنوان (**باب كراهة ذِكر الإنسان عبادته للنّاس**) لكن لا يُستفاد من هذا الباب إمكانية إصدار فتوى بتحريم ذلك السلوك حيث ورد في الباب المذكور مُرسلة زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام[1] لكنّ هذه المُرسَلة لا تتطابق مع الأصول الفقهية المعروفة فضلاً عن كونها مُرسلة وضعيفة السّند، ولهذا لم يعمل بها الفقهاء الأفاضل.

وأمّا الرّياء قبل أداء العمل فإذا لم يُؤثّر في صلب العمل وفي مقدّماته فإنّه ليس مُبطلاً لأصل العمل، وإذا كانت مُقدّمة عبادية كالوضوء فإنّ الرياء هنا يتسبّب في بُطلان المقدّمة وبالتالي بُطلان ذي المقدّمة الذي يفتقد للمقدّمة (المُبطَلة)، وإذا اتّحد مع هذا العمل مقارن العمل العباديّ فإنّ العمل المذكور يُعتبر باطلاً بناءً على عدم جواز اجتماع الأمر والنّهي وتقديم جانب النّهي.

ج. إذا حدث (المَنّ) و(الأذى) بعد العمل في الواجب العبادي فإنّ العمل المذكور يُعتبر صحيحاً رغم ارتكاب الحرام النفسيّ معه، فالصّدقة واجبة استقلاليّةٌ لا ارتباطيّة فإذا صاحَبها (المَنّ) و(الأذى) فإنّها صحيحة من الناحية الفقهية وهما، أي (المَنّ) و(الأذى)، محرّمان لتعدّد العنوان والمُعنوَن، وإذا كان بعض الصّدقة مصحوباً بالمَنّ والأذى وليس الصّدقة كلّها فهذا هو حكمها أيضاً.

---

١. «الإبقاء على العمل أشدّ من العمل». قال: وما الإبقاء على العمل؟ قال عليه السلام: «يَصِل الرّجلُ بِصِلة ويُنفق نَفَقة لله وَحده لا شريكَ له، فتُكتَب له سرّاً، ثمّ يَذكرها فتُمحى وتُكتَب له علانية، ثمّ يَذكرها فتُمحى فتُكتَب له رئاءً». **وسائل الشيعة**، ج١، ص٧٥.



إذا اعتُبِر تقارن (المَنّ) و(الأذى) مع الصّدقة مُزاحماً لقصد القربة وكان كلّ العمل مصحوباً بهما فهي صدقة باطلة، وإذا كان جزء من العمل فقط على الشكل المذكور فلأنّ الجزء قابل للتصحيح والتعويض فإنّ الصّدقة تكون صحيحة إذا قام الفاعل بتصحيح الجزء الباطل منها أو من العمل.

٢ . المُرائي مُختال وفخور

لّما كان الهدف من الرّياء هو جَلب انتباه الآخرين نحو المرائي وكسب ثقتهم ومودّتهم فإنّ المُرائي في الحقيقة يُعتبر مُختالاً لجهله بأنّ قلوب الناس ومفاتيحها بيَد الله سبحانه وحده وذلك لقوله تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿**فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ**﴾[1] والله تعالى لا يسمح لأيّ شيء بأن يشغل قلوب الناس سوى محبّة المؤمنين والعمل الصالح: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾[2]. وهكذا فإنّ مخاتلة المرائي واستكباره يتسبّبان في كراهية الله عزّ وجلّ له وهذا معنى قوله تعالى: ﴿... **إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ... * وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ...**﴾[3].

إذاً، فالمرائيّ مُختال بالفعل وعاقل بالقوّة، وحول محور مخاتلته يدور تفاخره فهو يحاول اجتذاب أنظار الناس إليه والتأثير فيهم تماماً كمحور الفخر الذي يقصده المَنّان والمؤذي الذي يدور حول احتقار الآخرين والاستهانة بمشاعرهم. والمرائي يختلف عن المؤمن في كون الأخير عاقلاً بالفعل ومحور فخره يدور حول العقل والعبوديّة لله سبحانه.

---

١ . سورة إبراهيم عليه السلام، الآية ٣٧.

٢ . سورة مريم عليها السلام، الآية ٩٦.

٣ . سورة النساء، الآيات من ٣٦ إلى ٣٨.



قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في إحدى مناجاته مع ربّه عزّ وجلّ: «إِلَهِي! كَفَى بِي عِزّاً أَنْ أَكُونَ لَكَ عَبْداً وَكَفَى بِي فَخْراً أَنْ تَكُونَ لِي رَبّاً»[1].

٣. عدم حُرمة مُطلق التّظاهر

قد يعمد أحدنا إلى اقتراض مبلغ ما وشراء لباس فاخر ليتظاهر أمام الآخرين بأنّه غنيّ وثريّ، وهذا العمل لا يُعدّ عملاً قبيحاً، ولكن، مَن يتظاهر ويدّعي أمام الآخرين بأنّه يمتلك منصباً حكومياً ريادياً أو أنّه مُقَرَّب من مسؤولين في الحكومة وذلك لجَلب انتباه الناس إليه وكسب احترامهم له فإنّ عمله هذا يُعتبر قبيحاً وإن لم يكن حراماً.

ومن الناس مَن يتقرّب إلى المساكين ويتودّد إلى المحرومين متظاهراً أنّه إنّما يريد بعمله هذا التقرّب إلى الله سبحانه والحصول على مرضاته، فإنّ جزءاً من عمله يُعدّ رياءً فيما يُعتبر الجزء الآخر منه تدليساً[2] وخداعاً وهذا حرام بالطّبع، لأنّ الناس اعتادوا بالفطرة على حُبّ الأشخاص الطاهرين وعباد الله المُقدّسين، وأمّا هذا المرائي فهو يقوم باستغلال حبّ الناس الفطريّ بمظهره المتنكّر بزيّ الطاهر والمقدّس ويعمل على خداعهم، وعندما يفتضح أمره وتنكشف ألاعيبه فإنّ ذلك سيؤدّي إلى غياب ثقة الناس بالأشخاص الآخرين الذين قد يكونون طاهرين ومحترمين بالفعل.

٤. تحقّق المَنّ والأذى والرّياء

يرتبط كلّ واحدٍ من المَنّ والأذى والرّياء بالحُسن الفاعليّ ولا يمكن لأيّ

---

١. **كتاب الخصال**، ج١ ـ ٢، ص٤٢٠؛ **بحار الأنوار**، ج٧٤، ص٤٠٢.

٢. «دَلَّسَ البائعُ: كَتَمَ عَيب ما يبيعه عن المشتري، ودلّسَ المُحَدِّثُ: أتى في حديثه بغير الرّاهن». (**المنجد في اللغة**). [المترجم]



واحدٍ منهم أن يتحقّق إلّا إذا قام أحدهم بفعل الخير من أجل جَلب اهتمام الناس إليه أو أن يتسبّب في إيذاء الطرف المقابل وجرح مشاعره، إذاً، فينبغي أوّلاً أن يتوفّر الحُسن الفعليّ في العمل حتى يبلغ الأمر إلى الحُسن الفاعليّ، وإذا لم يكن الفعل قد حدث في الأساس أو كان الفعل مُسبّباً للضّرر والأذى فإنّ المَنّ أو الرّياء لن يتحقّق في هذه الحالة.

بحث روائيّ

١. إبطال الصّدقة بالمَنّ والأذى والرّياء

عَن الصّادق عليه السلام: قال: «**قالَ رسول الله صلى الله عليه وآله: مَن أسدى إلى مُؤمِن مَعروفاً ثمّ آذاهُ بالكَلام أو مَنّ عليه، فقد أبْطلَ الله صَدَقَته؛ ثمّ ضَربَ الله فيه مَثَلاً فقال: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ... وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾**»؛ وقال: «**مَن أكثرَ مَنّه وأذاهُ لِمَن يَتصدّق عليه، بَطلت صَدَقته كَما يَبطل التّراب الّذي يكون على صفوان، والصّفوان الصّخرَة الكَبيرة الّتي تكون على مَفازة، فيَجيءُ المطرُ فَيَغسل التّرابَ عنها ويَذهب به، فَضَربَ الله هذا المَثَل لِمَن اصْطَنَع مَعروفاً ثُمَّ أتبعه بالمَنّ والأذى**»[1].

إشارة: أ. يُبيّن الحديث الشريف في أعلى هذه الصفحة معنى الآية الكريمة الّتي هي موضوع البحث، فقد اعتبر الحديث بعض أنواع المَنّ مَنّاً مُطلقاً وأوضح أنّه يشمل كذلك المَنّ على الله عزّ وجلّ ورسوله والدّين كلّه، وعليه، فإذا قدّم شخص ما خدمة إلى الإسلام والمسلمين كطبع القرآن الكريم أو أحاديث الأئمّة المعصومين عليهم السلام ونَشره وتوزيعه ثمّ مَنّ بفعله هذا على الدّين والأئمّة فقد أبطل بذلك صدقته وخدمته السابقة.

---

١. **تفسير القمي**، ج١، ص٩١؛ **بحار الأنوار**، ج٩٣، ص١٤٢.

ب. إذا افترضنا اشتمال عنوان (المعروف) المذكور في الحديث السابق على كلّ فعل ينصبّ في إطار الخير ولم نعتبره مقتصراً على الصّدقة فقط، فعندئذٍ يتبيّن لنا أنّ كلمة (الصّدقة) المذكورة في الآية الّتي هي موضوع البحث هي تمثيل لا تعيين.

٢. العمل المَشوب

عَن النبيّ ﷺ قال: «**إذا كانَ يَوم القِيامَة نادى مُنادٍ يسمع أهلَ الجَمْع: أينَ الذينَ كانوا يَعبُدونَ الناسَ؟ قُوموا، خُذوا أُجوركم مِمّن عَمِلتم له، فإني لا أقبلُ عَمَلاً خالَطه شيءٌ مِن الدّنيا وأهْلها**»[١]؛ تشير هذه الرواية بوضوح إلى المرائيّ.

ـ عَن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَدخل الجَنّة مَنّان...**»[٢].

إشارة: من الواضح أنّ العمل الصالح يقبله الله سبحانه ويرضى عنه: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾[٣] وأمّا العمل الذي يُؤدّى إلى غير الله تعالى أو يكون مَشوباً بها لغير الله فهو عمل طالح وليس عملاً صالحاً ولهذا فمثل هذا العمل لا يصعد إليه مطلقاً؛ ومن الأعمال ما قد يخالطه الطالح عند حصوله وربّما شابه ذلك الطالح مع مرور الوقت كالإنفاق المتبوع بالمَنّ؛ فالشخص المَنّان الذي اعتاد المَنّ على الآخرين وامتهنه في أيّ عمل معروف أو خير يقوم به فإنّ مثل هذا الشخص الطالح لا يملك أيّ عمل صالح وعليه فإنّه لن يدخل الجنّة ﴿**حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ**﴾[٤].

* * *

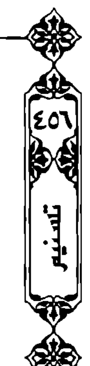
١. تفسير مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٦٥٠.
٢. تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص٤٤.
٣. سورة فاطر، الآية ١٠.
٤. سورة الأعراف، الآية ٤٠.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾

خلاصة التفسير

إنّ مَثل الذين يُنفقون ممّا آتاهم الله لكسب مرضاته والحصول على الاستقامة والطمأنينة النفسية ولا يُتبعون إنفاقهم بالمَنّ ولا الأذى ولا الرّياء ما يؤدّي إلى إبطاله وزواله، كمَثل بُستان يقع في مكان مُرتفع مَصون من الآثار التخريبية للسيول والفيضانات ومحفوظ من العواصف وآثار سقوط البَرَد، ويهبّ عليه الهواء الطّلق وتصل إليه أشعة الشمس بسهولة بالقدر الذي تُثمر به أشجاره ضِعفيْن من المحاصيل والثّمار، حتّى إذا لم تسقط على هذا البستان أمطار كافية فإنّه يتمتّع بالنّدى وقطرات المطر التي تكفي لنموّ نباتاته وإثمار أشجاره.

وفي نهاية الآية الشريفة يوعِد الله سبحانه وتعالى ويُهدِّدُ كلًّا من أصحاب الأفعال الصالحة وأصحاب الأعمال المتبوعة بالمَنّ والأذى والرّياء ويُخبرهم بأنّه ﷻ يعلم كلّ ما يفعله هؤلاء وأولئك وخبير بما يصنعون.



التفسير

المُفردات[١]

ابْتِغَاء: «الابتغاء» هو الطّلب الشّديد والمُلحّ والقيام بعمل ما عن رغبة شديدة ومَيل كبير؛ وبَغى بُغاءً وبَغْياً وبُغيَةً وبِغيَةَ الشيءَ، ألحّ إلحاحاً شديداً في طَلبه، وأمّا (الابتِغاء) فهو على وزن (إفتِعال) ويدلّ على المطاوعة والموافقة في مقابل المَنع والإباء والمخالفة، وقد يكون الطّوع في جانب المفعول كما في جَمعَ الشيءَ وَوَصَله فاجتمعَ واتّصل، وجَمَعَ القومَ فاجتَمَعوا؛ وقد يكون الطّوع في جانب الفاعل كاكتساب الكاسب رزقه رغبة واشتياقاً؛ يُقال: اكتَسَبَ أو كَسَبَ طَوْعاً ورَغبةً، أو أن يسعى الطالب إلى الحصول على شيء بمَيله ورغبته فيُقال: ابتغى، أي طَلَبَ بالطّوع[٢].

بِرَبْوَةٍ: «الرَّبْوَة» و«الرُّبْوَة» و«الرّابية»: ما ارتفع من الأرض، من رَبا الشيءُ يَرْبو: زادَ ونَما[٣]، وقيل حول (الفِردوس) إنّها رَبوة الجَنّة[٤]، وقال ابن الأثير في (النهاية): الفِرْدَوْس: ما ارتفعَ من الأرض، والبُستان، ومنه الفِردَوس رَبوَة الجَنّة، أي أرفَعها[٥].

---

١ . راجع: تفسير تسنيم، ج٢، ص٤٦٧؛ وحول معنى كلمة «الجنّة» أنظر: ذيل تفسير الآية (٢٥) من تفسير تسنيم، ج١١، ص٣٧٠؛ وعن معاني كلمة «البصير» راجع: ذيل الآية (٢٣٣) وص٥٨٥ عن كلمة «ضِعفيْن» في ذيل الآية الكريمة (٢٤٥).

٢ . التحقيق في كلمات القرآن، ج١، ص٢٩٢ ـ ٢٩٤، مادّة (ب غ ي).

٣ . صالح العلي الصالح وأمينة الشيخ سليمان الأحمد، المعجم الصّافي في اللغة العربية.

٤ . «عن معاذ بن جبل [قال]: سمعتُ رَسول الله ﷺ يقول: "إنّ الجنةَ مائَة دَرَجة كُلّ مِنها ما بَين السّماءِ والأرضِ وأعْلاها الفِردَوس وعَليها يَكون العَرْش وهي أوسَط شيءٍ في الجَنّة ومِنها تُفَجّر أنهارُ الجنة، فإذا سَألتُم الله فَاسألوه الفِردوس"». تفسير الدر المنثور، ج٤، ص٢٥٤.

٥ . مجد الدّين ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٢، ص١٩٢، مادّة (ر ب و).



أُكُلَهَا: «الأكْل» البَلْع بعد المَضغ[١]، وأكْل الطعام، و«الأُكُل» هو المأكول والطعام[٢].

ضِعْفَيْنِ: «الضِّعْف» مِثل الشيء في المقدار والضِّعْفَيْن أربعة أمثال الشيء، فإذا كانت السّنة الواحدة تُنتج الفاكهة في فَصليْن اثنيْن فيها وكان مقدار الفاكهة في كلّ مرّة ضِعفيْن عندئذ يَصدق عنوان (الضِّعْفَيْن) على ذلك، أللّهم إلّا إذا أهملنا المعنى الدقيق للضِّعْف ولم تلزم مُراعاة معنى التثنية في كلمة «ضِعْفَيْن».

فَطَلٌّ: «الطلّ» أضعف المَطر وهو ما لَه أثر قليل[٣]، و«الطَلّ» الذي ينزل من السّماء في الصّحو[٤]، و«الطَّلُّ»: المَطَرَ الضعيفُ أو أخَفُّ المَطَرِ وأضْعفه، أو النَّدَى، أو فَوْقَه ودونَ المَطَرِ[٥].

قال الأصمعيّ: أخفّ المطر وأضعفه (الطلّ) ثمّ (الرّذاذ) أقوى منه، ثمّ (البَغْش)[٦]، وأمّا ابن عربي فقال: «الوابل» المطر الغزير و«الطلّ» هو أوّل نشئ المطر، فهو ضعيف، فما نزلَ بالنهار سُميَ شَذاً وما نزل من الطلّ بالليل سُميَ نَدى[٧].

---

١ . محمد واعظ زاده خراساني، **المعجم في فقه لغة القرآن**، ج٢، ص٤٩٩، مادّة (أ ك ل).

٢ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٨٠، مادّة (أ ك ل).

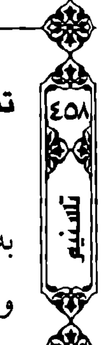
٣ . المصدر السابق، ص٥٢٢، مادّة (ط ل ل).

٤ . مَجد الدّين ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج٣، ص١٣٦، مادّة (ط ل ل).

٥ . **القاموس المحيط**، ج٤، ص١٢، مادّة (ط ل ل).

٦ . محيي الدّين الدّرويش، **إعراب القرآن الكريم**، ج١، ص٣٥١. «ثمّ الدّث ومثله الركّ والرّهمة. وقال النّضر بن شميل: أوّل المطر رَشّ وطشّ، ثمّ طلّ ورذاذ، ثمّ نَضح ونَضخ، ثمّ هَطل وتهتان، ثمّ وابل وجود». [المترجم]

٧ . محيي الدين ابن عربي، **تفسير رحمة من الرحمن**، ج١، ص٣٩١ ـ ٣٩٢.



تناسب الآيات

شَبّه الله ﷻ في الآيات السابقة من القرآن الكريم حقيقة العمل الذي يقوم به البعض من إنفاق بالمَنّ والأذى والرّياء؛ شبّه ذلك بصخرة ملساء صَلدة لا وجود للتراب عليها ومع هبوب العاصفة فلن تُبقي على سطح تلك الصخرة ذرّة تراب واحدة وينقطع الأمل تماماً في نموّ الزّرع عليها، ويُستفاد من هذا التشبيه التذكير بأنّ إنفاق هؤلاء لن يأتي لهم بأيّ منفعة أو خَير. وفي هذه الآية الشريفة يُبيّن الله سبحانه وتعالى حقيقة عمل أولئك الذين يُنفقون أموالهم في سبيل الله ومرضاته فقط ووصولهم إلى منزلة ثابتة ووضع مستقرّ من خلال إنفاقهم المُثمِر ألا وهو البستان الذي شُبّه بالرّبوة الخصبة المرتفعة.

* * *

بيان المُمثّل في الآية

تبيّن الآية الشريفة ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾[1] أجر الإنفاق وآثاره من حيث الحُسن الفعليّ وإن كان بإمكاننا كذلك استشفاف المنفعة التي يحصل عليها الفاعل، ولكنّ المَثَل المذكور في الآية التي نحن بصدد تفسيرها يشير إلى الفاعل الحَسَن والمُنفِق المُخلِص وأثر الإنفاق الخالص على نَفس المُنفِق المخلص، وأمّا ما قاله البعض من أنّ الآية الّتي هي موضوع البحث تشبّه الإنفاق والصّدقة بالجنّة[2] فهو خلاف الظاهر ويتطلّب

١ . سورة البقرة، الآية ٢٦١.

٢ . قال الزّمخشريّ: «وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ وليثبتوا منها ببَذل المال الذي هو شقيق الروح، وبذله أشقّ شيء على النفس على سائر العبادات الشاقّة وعلى الإيمان لأنّ النفس إذا ريضت بالتحامل عليها وتكليفها ما يصعب عليها ذلّت خاضعة لصاحبها وقلّ طَمعها في اتّباعه لشهواتها، وبالعكس، فكان إنفاق المال تثبيتاً لها على الإيمان واليقين». تفسير الكشاف، ج١، ص٣١٣.



تقدير المضاف، أي القول: «مَثل إنفاق الذين...»، بل إنّ التقدير هنا هو خلاف الأصل.

ربما استطعنا اعتبار الآية الّتي هي موضوع البحث قرينة والقول بأنّ محورها كذلك هو الفعِل الحَسن والمُنفِق المُخلِص ولا نقدّر فيها لفظ الإنفاق فنقول: إنّ مَثَل الذين يُنفقون كمَثَل حبّة أنبتت سَبعمائة سنبلة وأنّ المُنفِق نفسه قد ارتفع سبعمائة درجة أو مرتبة باعتبار قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ﴾[1]، وعليه فإنّ الحبّة التي تتضاعف سبعمائة مرّة ينبغي أن تكون مزروعة في أرض ثابتة وتمتلك ساقاً وجذوراً قويّة، ويؤيّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وكذلك الآية الأخيرة من سورة الفتح[2].

و(المَرضاة) هي الرّضى المستمرّ والدائم حيث يبيّن قوله تعالى: ﴿ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ﴾ قصد المُنفِق ونيّته وتعبّر عن طهارة روحه وخلوص سريرته وذلك في مقابل المُنفِق المَنّان والمؤذي والمرائي: ﴿يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ﴾[3] الذي يهدف إلى الشهرة وجَلب انتباه الناس إليه واهتمامهم به والتحدّث عن أفعاله وأعماله.

هذا، وليس للمُخلص أيّ هدف من إنفاقه سوى الحصول على مرضاة الله: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ اللهِ﴾[4]؛ إذاً، لا يمكن أن يكون تثبيت النّفس هو الهدف الثاني للمُنفِقين المخلصين بالأصالة وبالذات بل هو نتيجة خُلوص نيّته، وأمّا ذكر هذه الثمرة بشكل مستقلّ إلى جانب الحصول على مرضاة الله سبحانه

---

١ . سورة الأنفال، الآية ٤.

٢ . ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾. (سورة الفتح، الآية ٢٩).

٣ . سورة البقرة، الآية ٢٦٤.

٤ . سورة البقرة، الآية ٢٧٢.



فهو لأهميّة ذلك، فالإنسان المخلص في الحقيقة يسعى إلى كسب مرضاة الله ﷻ ولا ريب في أنّ مرضاته سبحانه تُمثّل عاملة كبيرة في تثبيت نَفسه ونتيجة حتمية لخلوص نيّته أيضاً: ﴿أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1].

وهكذا فإنّ قوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يشير إلى الإنفاق الخالص للمُنفِق المؤمن، أي إنّ الإنفاق الدائم في سبيل الحصول على مرضاة الله باستمرار هو السبب في تثبيت روح المُنفق ونفسه، ولا شكّ في أنّ هذا التثبيت وتلك الطمأنينة هما عاملان أساسيّان لصيانة الفرد من أخطار الرّياء بعد العمل (المتمثّل في الإسماع) ووقايته من اتّباع (المَنّ) و(الأذى).

إنّ (تثبيت النّفس) هو ثمرة الإنفاق بالنسبة إلى الذين يعتبرونه سبباً للتقرّب من الله سبحانه وفرصة ذهبية للحصول على مرضاته: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ الله وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾[2] وأمّا حالات التّزلزل وعدم الاستقرار والاضطرابات النفسية ومخاطر الرّياء وآفاته فلا تصيب إلّا الذين يُنفقون أموالهم رئاءَ الناس وطلباً لاهتمامهم وليس من أجل حصولهم على مرضاة الله ﷻ: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ﴾[3] وفي الحقيقة إنّ هؤلاء يعتبرون إنفاقهم مجرّد غرامة أو إتاوة لا تخرج من جيوبهم إلّا عنوة ودون رضاهم: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾[4]. والخلاصة فإنّ تثبيت النّفس يُمثّل بالنسبة إلى هؤلاء هدفاً ثانوياً لا رئيسياً لأنّ الهدف الأساسيّ للموحّد بالتأكيد ليس سوى مرضاة الله ورضاه.

---

١ . سورة الرّعد، الآية ٢٨.

٢ . سورة التوبة، الآية ٩٩.

٣ . سورة البقرة، الآية ٢٦٤.

٤ . سورة التوبة، الآية ٩٨.

المبدأ الفاعليّ لتثبيت النفس

إنّ الله ﷻ هو المبدأ الفاعليّ لتثبيت النّفس كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1] و﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[2] ويُعتبر الإنسان هنا بمثابة المبدأ القابليّ إذ يمكن تشبيه أعماله بعملية حرث الأرض ونثر البذور وهي عملية الهدف منها إيجاد الأرضية المناسبة والعلّة الاعدادية، إذاً، فالإيمان بأوامر الله ومواعظه والعمل بموجبها هما عنصران رئيسيان لتثبيت النّفس: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[3]. ومع تكرار الأعمال الصالحة وتحوّلها إلى مَلَكة وبلوغ الفرد مرحلة التوحيد الخالص، تبدأ الشجرة الطيبة في وجود الإنسان بمَدّ جذورها عميقاً في باطن نفسه الثابتة والمستقرّة بينما تعلو أغصانها شاهقة نحو السّماء لتنتفع جميع الموجودات والمخلوقات من ثمارها الوجودية: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[4].

الفرق بين «مِن أنفسهم» و«لأنفسهم»

من المعلوم أنّ أيّ عمل صالح يصدر عن المؤمن فإنّ ذلك يصبّ بالدّرجة الأُولى في مصلحته هو ويُعَبَّر عن هذا المعنى بحرف الجرّ (اللام) كما في قوله

١ . سورة محمّد ﷺ، الآية ٧.

٢ . سورة إبراهيم عليه السلام، الآية ٢٧.

٣ . سورة النساء، الآية ٦٦.

٤ . سورة إبراهيم عليه السلام، الآيتان ٢٤ و ٢٥.



تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ﴾[1] و﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ﴾[2]، وفي بعض الأحيان يؤدّي الشخص عملاً ما للحصول على الكمال الوجوديّ والفضائل الأخلاقية والروحية إلى جانب استهدافه للأجر والثواب، وفي هذه الحالة تُستَخدَم الكلمة التي تتناسب مع مضمون الكلام. وفي الآية الّتي هي موضوع البحث، ولوجود قرينة عطف الكلمة ﴿تَثْبِيتاً﴾ على ﴿ابْتِغاء﴾ حيث إنّ الهدف والمقصود هنا هو الإنفاق، يمكننا القول بأنّ الإنفاق المذكور في هذه الآية لا يُمثّل نتيجة (أو معلول) تثبيت النّفس حتى يفيد حرف الجرّ (مِن) معنى الإنشاء أو أن يكون مبدأً أو ما شابه ذلك، بل الآية الشريفة تشير إلى أنّ الإنفاق المذكور يُمثّل العلّة الاعدادية والامداديّة لتثبيت النفس، أي إنّ الإنفاق الخالص الذي يصبو من جهة إلى نَيْل مرضاة الله سبحانه فهو من الجهة الأخرى يُمثّل سبباً لتثبيت النّفس واستقرار روح المُنفِق المؤمن وبلوغه مقام الطمأنينة الكاملة. على سبيل المثال، إذا استطاعت الشجرة الحصول على كميّة الماء المطلوبة وإيصاله إلى جذورها فإنّ عملها الخيّر هذا إنّما هو لتثبيت نفسها واستقرار جذعها لا غير.

وعلى الرّغم من الحقيقة المتمثّلة في كون ذكر الله ﷻ يبعث الطمأنينة في النّفس ويملأها ثباتاً واستقراراً إلّا أنّ لهذا الذّكر مصاديق مُعيّنة وأبرز تلك المصاديق هي الإنفاق في سبيله والحصول على مرضاته وبالتالي ضمان الثبات والطمأنينة والاستقرار ولذلك تمّ استخدام كلمة (التثبيت).

وقد يسأل البعض عن سبب استخدام حرف الجرّ (مِن) في الآية الكريمة من دون الإتيان بعبارة (تثبيت أنفسهم) فنجيب: ربما كان ذلك لأمر ما كما ذكر

---

١ . سورة البقرة، الآية ١١٠.

٢ . سورة البقرة، الآية ٢٧٢.



بعض المُفسّرين[1] منها أنّ الإنفاق المذكور هو سبب تثبيت مجموعة من شؤون النّفس وليس منحها الطمأنينة الكاملة، إذ إنّ تحصيل الثبات التامّ والاستقرار الكامل مرهونان ببذل النّفس والمال في سبيل الله ﷻ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2] وكذلك الحال مع الآيات القرآنية التي تتناول موضوع الشّراء والبيع والتجارة فهي تصبّ في هذا الباب أيضاً.

تذكير: مع أنّ الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث وردت في مقابل الآيات الأخرى لكن يبقى الفرق قائماً بين الحصول والتحصيل، أي إنّ الآيات السابقة كانت قد تناولت مسألة الإنفاق المتبوع بالرّياء أو المَنّ أو الأذى، بينما تضمّنت الآية التي نقوم بتفسيرها موضوع الإنفاق المُراد به تحصيل ثبات النّفس وتحقيق طمأنينة الروح.

---

١ . «يَقُولُ [الله تعالى]: ذَاكَ الَّذِي تَقَدَّمَ هُوَ مَثَلُ أَهْلِ الرِّيَاءِ وَأَصْحَابِ المَنِّ وَالإِيذَاءِ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَيْ لِطَلَبِ رِضْوَانِ الله وَلِتَثْبِيتِ أَنْفُسِهِمْ وَتَمْكِينِهَا فِي مَنَازِلِ الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ حَتَّى تَكُونَ مُطْمَئِنَّةً فِي بَذْلِهَا لَا يُنَازِعُهَا فِيهِ زِلْزَالُ الْبُخْلِ وَلَا اضْطِرَابُ الْحِرْصِ؛ لِإِيثَارِهَا حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ أَمْرِ الله عَلَى حُبِّ الْمَالِ، عَنْ هَوَى النَّفْسِ وَوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ هَذَا التَّثْبِيتُ بِتَعْوِيدِ النَّفْسِ عَلَى الْبَذْلِ حَيْثُ يُفِيدُ الْبَذْلُ، حَتَّى يَصِيرَ الْجُودُ لَهَا طَبْعًا وخُلُقًا، وإِنَّمَا قَالَ: «مِنْ أَنْفُسِهِمْ» ولَمْ يَقُلْ «لِأَنْفُسِهِمْ» لِأَنَّ إِنْفَاقَ الْمَالِ فِي سَبِيلِ الله يُفِيدُ بَعْضَ التَّثْبِيتِ وَالطُّمَأْنِينَةِ، وَإِنَّمَا كَمَالُ ذَلِكَ بِبَذْلِ الرُّوحِ وَالْمَالِ جَمِيعًا فِي سَبِيلِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحُجُرَاتِ (الآية ١٥): **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾** وَقَدْ هَدَانَا تَعْلِيلُ الْإِنْفَاقِ بِهَاتَيْنِ الْعِلَّتَيْنِ إِلَى أَنْ نَقْصِدَ بِأَعْمَالِنَا أَمْرَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: ابْتِغَاءُ رِضْوَانِهِ لِذَاتِهِ تَعَبُّدًا لَهُ؛ وَثَانِيهِمَا: تَزْكِيَةُ أَنْفُسِنَا وَتَطْهِيرُهَا مِنَ الشَّوَائِبِ الَّتِي تَعُوقُهَا عَنِ الْكَمَالِ، كَالْبُخْلِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي حُبِّ الْمَالِ، عَلَى أَنَّ هَذَا وَسِيلَةٌ لِذَاكَ وَفَائِدَةُ كُلٍّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ عَائِدَةٌ عَلَيْنَا وَاللهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، فَإِذَا صَدَقْنَا فِي الْقَصْدَيْنِ صَدَقَ عَلَيْنَا هَذَا الْمَثَلُ وَكُنَّا فِي نَفْعِ إِنْفَاقِنَا». تفسير المنار، ج٣، ص٥٦. [المترجم]

٢ . **سورة الصفّ**، الآيتان ١٠ و ١١.



إلماعة: بالاستناد إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1] يكون العمل مختصّاً بالعامِل لأنّ حرف اللام في ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ يشير إلى الاختصاص ولا يفيد النّفع أو المنفعة وهو (أي حرف اللام) في كلمة ﴿فَلَهَا﴾ يعني الضّرر وهذا من باب المشاكلة، وعليه، فإنّ كلّ عمل صالح يكون سبباً لتثبيت النّفس العامِلة وطمأنتها فضلاً عن كون العمل المذكور دافعاً لتطوّرها وازدهارها كما في قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[2]. وتتناول الآية الّتي هي موضوع البحث أيضاً هذه العلاقة الوثيقة القائمة بين العمل والعامِل، أي إنّ الآثار المباشرة لعمل العامِل تعود إليه مباشرة كذلك وأمّا آثاره على الآخرين فلا تُعدّ شيئاً يُذكَر. فعندما يزرع أحدهم شجرة طيّبة داخل بستان وجوده فسيكون هو أوّل مَن سيجني ثمارها الطيبة، وإن كان الآخرون كذلك المستفيدين غير المباشرين من تلك الشجرة كالجلوس تحت ظلالها مثلاً؛ لكن إذا حفر نفس الشخص بئراً نَتِنة داخل وجوده هو فهو أوّل مَن سيشمّ ريحها النّتنة وأوّل المُتضرّرين بذلك رغم احتمال مُعاناة الآخرين أيضاً من تلك الريح في بعض الأحيان.

كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ

من المهمّ الإشارة هنا إلى أنّ ارتفاع الأرض وانتفاخها يكونان أحياناً بسبب وصول الماء إليها وفي أحيان أخرى تكون الأرض نفسها مرتفعة ومنتفخة قبل وصول الماء، فترى الأراضي الخصبة المنخفضة تبدأ بالانتفاخ مع وصول الماء

---

١ . سورة الإسراء، الآية ٧.

٢ . سورة النساء، الآية ٦٦.



إليها بينما تبقى الأراضي التي كانت مرتفعة أو منتفخة قبل دخول الماء إليها مرتفعة كذلك بعد وصول الماء إليها، وقد أشارَ القرآن الكريم إلى كلتا الحالتيْن فقال تعالى واصفاً الحالة الأولى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[1] و﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[2] يعني أنّ الأرض وقبل نزول المطر عليها كانت هامدة ومنخفضة فلمّا هطل عليها المطر اهتزّت وعَلت وارتفعت. وأمّا الآية الّتي هي موضوع البحث فهي تصف الحالة الثانية وهي كون الأرض مرتفعة قبل ذلك، أي قبل نزول المطر أو وصول الماء إلى أعماقها؛ وعليه، فإنّ ما ورد في تفسير الفخر الرازي ومَن سار على خطاه من كلام حول معنى الآية يتناسب مع الحالة الأولى وليس مع الحالة الثانية[3].

---

١ . سورة الحجّ، الآية ٥.

٢ . سورة فصّلت، الآية ٣٩.

٣ . قال الفخر الرّازي: «واعلم أنّ المفسّرين قالوا: البستان إذا كان في ربوة من الأرض كان أحسن وأكثر ريعاً، ولي فيه إشكال: وهو أنّ البستان إذا كان في مرتفع من الأرض كان فوق الماء ولا ترتفع إليه أنهار وتضربه الرياح كثيراً فلا يحسن ريعه، وإذا كان في وهدة من الأرض انصبت مياه الأنهار، ولا يصل إليه إثارة الرياح فلا يحسن أيضاً ريعه، فإذن البستان إنّما يحسن ريعه إذا كان على الأرض المستوية التي لا تكون ربوة ولا وهدة، فإذن ليس المراد من هذه الربوة ما ذكروه، بل المراد منه كون الأرض طيناً حرّاً بحيث إذا نزل المطر عليه انتفخ وربا ونما، فإنّ الأرض متى كانت على هذه الصفة يكثر ريعها وتكمل الأشجار فيها، وهذا التأويل الذي ذكرته متأكّد بدليليْن أحدهما: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (الحج: ٥) والمراد من ربوها ما ذكرنا فكذا هاهنا؛ والثاني: أنّه تعالى ذكر هذا المثل في مقابلة المثل الأوّل، ثمّ كان المثل الأوّل هو الصّفوان الذي لا يؤثر فيه المطر ولا يربو ولا ينمو بسبب نزول المطر عليه، فكان المراد بالرّبوة في هذا المثل كون الأرض بحيث تربو وتنمو، فهذا ما خطر ببالي والله أعلم بمراده». [المترجم]. راجع: التفسير الكبير، مج ٤، ج٧، ص٦١.



ومهما يكن من أمر ومما لا شكّ فيه فهو أنّ الأرض المرتفعة تتّصف ببعض المزايا كاحتوائها على التربة الوفيرة والعميقة وتمتّعها بنور الشمس الذي يصلها قبل الأراضي المنخفضة، ثمّ نزول المطر عليها، ومعلوم أنّ ماء المطر أفضل من ماء العيون والآبار، يُضاف إلى ذلك أنّ مثل هذه الأرض مُصانة باستمرار من الآثار التخريبية للسيول والفيضانات فضلاً عن أنّها تشتمل على مناظر خلّابة وساحرة للغاية وتتمتّع بالطراوة والهواء المُنعش على الدّوام، وتتضمّن مثل هذه الأرض جميع المزايا والمواصفات الخاصّة بالإنبات والنموّ والإثمار وهي تمتلك حصّة أكبر من ماء المطر الخفيف والثقيل على حدّ سواء بسبب ما تتميّز به من الارتفاع، ولذلك فلا غرابة أن تُنتج محصولاً مضاعفاً؛ بل حتى إذا لم يهطل عليها المطر، لا خفيفه ولا ثقيله، فإنّ الرطوبة والحرارة الموجودتيْن في الهواء إلى جانب النّدى ورذاذ المطر تكفيان لنموّ نباتات تلك الأرض وإعمار بساتينها.

ولا جَرم أنّ المُنفِق المؤمن المخلص الذي شُبّه بهذا البستان سينال الأجر على أعماله وسيجني ثِمار إنفاقه بمقدار إخلاصه وطهارة عمله، وإن كان مثل الشخص مأجوراً ومُنتفعاً في الأصل.

تذكير: إنّ كلمتَيْ (الوابِل) و(الطلّ) مختصّتان بالأشجار والنباتات التي تعتمد في ريّها على الأمطار، وأمّا الزّرع الذي يُسقى من ماء الآبار بالدرجة الأولى في الأراضي المنخفضة فيُعتبر أكثر إنتاجاً وثمراً، وهو ما أشار إليه الشاعر بقوله:

تواضَعْ إنْ كُنتَ تَطلب الفَيْضا   فالماءُ لا يَبْلغ ما ارْتفعَ مِنَ الأرْضا[1]

---

١. البيت بالفارسية:

[افتادگی آموز اگر طالب فيضی   هرگز نخورد آب زمينی كه بلند است]

ويُقال إنّ الشاعر الفارسي (بورياي ولي) أو المعروف أحياناً باسم (محمود خوارزمي) المُتوفّى سنة (١٣٢٢م) هو صاحب هذا البيت [المترجم]

تشبيه المؤمنين بالوابل والطلّ

إنّ أفضل تشبيه يَصدق على المؤمنين الذين يُنفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتتمتّع نفوسهم بالطمأنينة هو (الوابِل) و(الطـلّ)، فمـن بـين الخـصائص التـي يتميّز بها هؤلاء الأفراد هو عدم ردّهم لأيّ مسكين أو محتاج يلجأ إليهم، فـإذا لم يتمكّنوا من تلبية جميع طلبات السائل (وهو الوابل في هذه الحالة)، فلا أقـلّ مـن أن يبادروا إلى سدّ حاجته ولو بشيء ممّا يستطيعون (وهو الطلّ).

ترغيب وترهيب

المقصود بذكر الأسماء في ذيل الآيات القرآنية هو بيان تعليل مضمون الآيـة الشريفة وضمان تطبيق ما ورد فيها من الأمر أو النّهي، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هو أنّ الله ﷻ عالِم بالأفعال التي تـؤدّى ريـاءً أو تلـك التـي تكون متبوعة بـالَمنّ والأذى، وبـصير أيـضاً بـالأعمال التـي يقـوم بهـا المؤمنـون بإخلاص ومدى ذلك الإخلاص ومقداره وهو سـبحانه الـذي يُعطـي الثـواب والأجر بما يتناسب مع إخلاص كلّ واحد من أولئك الُمنفقين.

وهذه العبارة الشريفة تُعتبر رسالة شاملة وعامّة إلى جميع أفراد البشر، وفـيما يتعلّق بالإنفاق فإنّ الحديث موجّه إلى المؤمنين لكـي يكونـوا مطمئنـين ويرتـاح بالهم بما ينتظرهم من الثواب لأنّ الله سبحانه يرى أفعالهم المخلصة وسـيمنحهم الجزاء المناسب، ومن ناحية أخرى فالآية المـذكورة تُعـدّ تحـذيراً للجميـع بعـدم الخلط بين أعمالهم وبين الرياء والمَـنّ والأذى لأنّ الله ﷻ سـيُبطل تلـك الأعـمال ولن يحصدوا سوى خيبة الأمل.



بحث روائيّ

١ . صفوة المُنفقين المخلصين

عَن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام، ﴿ومَثَلُ الَّذينَ يُنفِقونَ اَموالَهُم ابتِغاءَ مَرضاتِ الله﴾ قال عليه السلام: «عليّ أمير المؤمنين عليه السلام أفضلهم وهو ممّن يُنفِق مالَه ابتِغاءَ مَرْضات الله»[1].

إشارة: يُبيّن هذا الحديث والعديد من الأحاديث والروايات الأخرى المرويّة عن الإمام الباقر عليه السلام[2] إلى أنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام هو أفضل مصداق للآية الشريفة.

٢ . أجر مُضاعف للمنفقين المخلصين

قال أبو عبد الله عليه السلام: «﴿واللهُ يُضعِفُ لِمَن يَشاء﴾[3] لِمَن أنْفَقَ مالَهُ ابْتِغاءَ مَرضاتِ الله»[4].

إشارة: من الواضح أنّ الأجر والثواب المُضاعفيْن اللذيْن ذُكِرا في الآيات السابقة يتعلّقان فقط بالمُنفقين المؤمنين المُخلصين الذين لا يُنفقون أموالهم إلّا في سبيل الله والحصول على مرضاته.

---

١ . تفسير العياشي، ج١، ص١٤٨.

٢ . «عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله ﴿يا أيّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى﴾ إلى قوله ﴿لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ قال عليه السلام: صفوان، أي حجر ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ﴾ فلان وفلان وفلان ومعاوية وأشياعهم»؛ «عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام قال في قوله ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ الله﴾ قال: أُنزلت في علي عليه السلام». المصدر السابق. [المترجم]

٣ . سورة البقرة، الآية ٢٦١.

٤ . تفسير القمي، ج١، ص٩٢؛ بحار الأنوار، ج٩٣، ص١٤٣.

٣. ثمرة الإنفاق المستمرّ

في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصّادق عليه السلام: «**ما مِن شَيءٍ أحَبّ إليّ مِن رَجُلٍ سَلفت مِنّي إليهِ يَدٌ أتبَعْته أُخْتَها وأحْسَنت بِها لَه؛ لأنّي رَأيتُ مَنْع الأواخِر يَقطع لِسانَ شُكر الأوائِل**»[١].

إشارة: يتناول هذا الحديث الشريف حُسن البَذل والإنفاق المستمرّ، وفيما يخصّ المواهب والعطايا الإلهية ينبغي لنا ملاحظة النقاط التالية:

أ. إنّ عطاء الله سبحانه وثوابه لا يُقلّل من خزائن الغيب لأنّ خزائنه ﷻ تُمثّل إرادته المنزّهة عن الحدّ والقَيد.

ب. يمكن لعطايا الله تبارك وتعالى أن تكون سبباً لنَيْل فيضه.

ج. يزداد الفيض الإلهيّ ويتعاظم مع تزايد استعداد المرء وتعاظم استحقاقه لذلك الفيض، وهذا ما نستشفّه من العبارات الشريفة: «**الحَمْدُ لله... الّذي... لَا يَزِيدُهُ كَثْرَةُ الدُّعَاءِ إلّا جُوداً وَكَرَماً**»[٢]، وهو دليل ساطع على أنّه كلّما ازداد عطاء الله ﷻ لمخلوقاته ازداد معه سخاؤه وكَرمه وجوده، وهكذا فإنّ في تواتر النّعمة تواصلاً واستمراراً وتزايداً متصاعداً لها كذلك.

* * *

---

١. **تفسير القمي**، ج١، ص٩١ ـ ٩٢؛ **تفسير نور الثّقلين**، ج١، ص٢٨٤.

٢. الشيخ تقي الدين الآملي الكفعميّ، **المصباح في الأدعية والصّلوات**، ص٧٧٠؛ الشيخ عباس القميّ، **مفاتيح الجنان**، «دعاء الافتتاح».

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

خلاصة التفسير

تشبّه هذه الآية الشريفة الشخص الذي يُنفق ماله بالمَنّ والأذى ورئاء الناس فيتسبّب بالتالي في بطلان إنفاقه، تُشبّهه برجل عَجوز يُعيل أفراد أسرته وقد إلتهبت النّيران كلّ ما يملك ولم يقدر على فعل شيء أو استرداد ما ذهب منه.

ويهدف هذا التمثيل إلى بيان عاقبة السوء التي يُصاب بها هذا الشخص وأمثاله جرّاء ما ارتكب من الأعمال الفاسدة، والتأمّل في هذه الحقائق وأخذ الدروس والعِبَر منها.

التفسير

المُفردات[1]

أَيَوَدُّ: الهمزة «أ» للإنكار الإبطالي ونَفي وقوع ما بعده، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِنَاثًا﴾[2]، و(المودّة) في حالات كهذه تعني المحبّة مع الأمل.

نَخِيلٍ: «النَّخل» معروف وقد يُستعمَل في الواحد والجمع، وجمعه (نَخيل)، و(النَّخْل) نَخَلَ الدّقيقَ بالمُنْخُل: غَربَلَه وأزالَ نُخالَتَه، وانْتَخَلْتُ الشيءَ: انتقيته

---

١ . لمزيد من المعلومات حول معنى الفعل «يَوَدّ»، راجع تفسير تسنيم، ج٦، ص٥٠ ـ ٥١، ذيل الآية (١٠٥) من سورة البقرة؛ وحول معاني كلمة «جَنّة» أنظر الجزء الثاني، ص٤٦٧، ذيل الآية (٢٥) من نفس السورة؛ وراجع الجزء الثاني، ص٤٦٩، ذيل الآية (٢٥) من السورة لمزيد من التوضيح بشأن كلمة «الأنهار».

٢ . سورة الإسراء، الآية ٤٠؛ «فصل: قد تخرج الهمزة عن الاستفهام الحقيقي فترد لثمانية معانٍ، أحدها التسوية وربما توهّم أنّ المراد بها الهمزة الواقعة بعد كلمة سواء بخصوصها وليس كذلك بل كما تقع بعدها تقع بعد (ما أبالي) و(ما أدري) و(ليت شعري) ونحوهن، والضابط أنّها الهمزة الداخلة على جملة يصحّ حلول المصدر محلّها نحو ﴿سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ونحو: ما أبالي أقمت أم قعدت؛ ألا ترى أنّه يصحّ سواء عليهم الاستغفار وعدمه وما أبالي بقيامك وعدمه. والثاني الإنكار الإبطالي وهذه تقتضي أنّ ما بعدها غير واقع وأنّ مُدّعيه كاذب نحو ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِنَاثًا﴾ ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾ ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾، ومن جهة إفادة هذه الهمزة نَفي ما بعدها لزم ثبوته إن كان منفياً لأنّ نَفي النّفي إثبات ومنه ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ أي الله كاف عبده ولهذا عطف ﴿وَوَضَعْنَا﴾ على ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ لّما كان معناه شرحنا ومثله ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾... والثالث الإنكار التوبيخي فيقتضي أنّ ما بعدها واقع وأنّ فاعله مَلوم نحو ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾ ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ﴾». مغني اللبيب، ص٧، حرف الألف.



فأخذتُ خِياره[١]. وورد في بعض الروايات قولهم: «لا يَقبَل الله مِنَ الدّعاء إلّا الناخِلة، أي الخالِصَة»[٢].

تذكير: لم تَرد كلمة (تَمْر) أو (رُطَب) في القرآن الكريم ولكن ذُكرت شجرتها وهي (النّخيل) كما أنّ كلمة (كَرْم) بمعنى شجرة العِنب لم تُذكَر أيضاً في القرآن الكريم، إلّا أنّ ثمرتها وهي العنب مذكورة فيه. واحتمل البعض أنّ الفرق بين النّخيل والتّمر وبين الكَرم والعنب كبير من حيث منافع كلّ واحدٍ منهما وفوائده[٣].

أَعْنَابٍ: «العِنَب» يُقال لثمرة الكَرْم وللكَرْم نفسه[٤].

الْكِبَرُ: الأصل الواحد في المادّة هو ما يُقابل الصِّغَر، كما أنّ العظيم يُقابل الحقير[٥]، وهو الكِبَر أو التقدُّم في السنّ والهَرَم[٦].

ذُرِّيَّةٌ: الأصل الواحد في هذه المادّة هو النّشر بالتدقيق والتلطيف، أي نَشره بالتصغير والتدقيق، وأمّا (الذُريّة) فالحقّ أنّها أيضاً من هذه المادّة ومن مصاديق الأصل، و(الذريّة) منسوبة إلى (الذُّرّة) أي ما يُذرّ ويُنشر، والتاء للتأنيث باعتبار

---

١. **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٧٩٦، مادّة (ن خ ل)؛ **المنجد في اللغة**، مادّة (نخل).

٢. **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج٥، ص٣٣، مادّة (ن خ ل).

٣. «الْأَعْنَابُ: جَمْعُ عِنَبٍ، وَهُوَ ثَمَرُ الْكَرْمِ الطَّرِيُّ، وَاحِدَتُهُ عِنَبَةٌ، وَالنَّخِيلُ: جَمْعُ نَخْلٍ، أَوِ اسْمُ جَمْعٍ، وَهُوَ شَجَرُ التَّمْرِ، يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، وَوَاحِدَتُهُ نَخْلَةٌ، وَالْقُرْآنُ يَذْكُرُ الْكَرْمَ بِثَمَرِهِ وَالنَّخْلَ بِشَجَرِهِ وَلَا بِثَمَرِهِ، وَقَالُوا فِي تَعْلِيلِ ذَلِكَ: إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي النَّخِيلِ نَافِعٌ لِلنَّاسِ فِي ارْتِفَاقِهِمْ: وَرَقُهُ وَجُذُوعُهُ وَأَلْيَافُهُ وَعَثَاكِيلُهُ، فَمِنْهُ يَتَّخِذُونَ الْقُفَفَ وَالزَّنَابِيلَ وَالْحِبَالَ وَالْعُرُوشَ وَالسُّقُوفَ وَغَيْرَ ذَلِكَ». (**تفسير المنار**، ج٣، ص٥٨). [المترجم]

٤. **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٥٨٩، مادّة (ع ن ب).

٥. **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١٠، ص١٧، مادّة (ك ب ر).

٦. **معجم مقاييس اللغة**، ج٥، ص١٥٤، مادّة (ك ب ر).

الكثرة والجماعة[١]. والمقصود بالذرّيّة الأولاد من البنين والبنات والنّسل الذي يخرج من الإنسان.

إِعْصَارٌ: الأصل الواحد في هذه المادّة هو ضغط في شيء لتحصيل نتيجة منظورة، كما في عصر العنب لاستحصال ماءه، فالإعصار بمعنى مطلق الإضغاط ويشمل كلّ مُعصِر من حرارة أو برودة أو ريح أو سيلان ماء أو يبوسة أو غيرها، والمقصود بالإعصار في الآية الشريفة هو التضييق والضغط الشديد الذي يخلّ بنظام الجنّة ويذهب ببهجتها ويزيل طراوتها ونضارتها ويجعلها يابسة محترقة[٢]. ومنشأ ذلك الإعصار هو الدّوامة الترابية التي تنبعث من الأرض وتدور في الجوّ ولها آثار تخريبية ومدمّرة ولا اختصاص للحريق بالرّيح فإنّ الرّيح إحدى مصاديق الأصل[٣].

وقال الطريحي في (*مجمع البحرين*): «[الإعصار:] قيلَ هو ريح عاصِف ترفع تراباً إلى السّماء كأنّه عمود من نار، تُسمّيه العرب بالزّوْبَعَة»[٤].

تذكير: إذا افترضنا معنى (الإعصار) هو الرّيح المصحوبة بالنار فإنّ قوله تعالى: **﴿فِيهِ نَارٌ﴾** إنّما هو للإيضاح فقط.

الآيَاتِ: العلامات والدّلائل التي يحتاج إليها المؤمنون، وقد يكون المُراد من (الآيات) هي الحقائق التي بيّنها القرآن الكريم وأشار إليها بدءاً من الآية (٢٦١) ولغاية هذه الآية بشأن الإنفاق وعلى وَجه التشبيه والتمثيل.

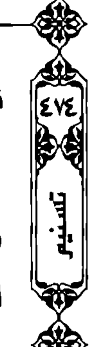
---

١ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٣، ص٣٠٦ و ٣٠٨، مادّة (ذ ر ر).

٢ . المصدر السابق، ج٨، ص١٤٦ و ١٤٩، مادّة (ع ص ر).

٣ . «الإعصار: ريح ترتفع بتراب بين السماء والأرض وتستدير كأنّها عمود؛ والإعصار في الجغرافيا: منطقة من الضّغط تجذب الرياح إلى مركزها في اتّجاه عكس عقارب الساعة في نصف الكرة الشماليّ والعكس في نصف الكرة الجنوبيّ، وتُعرَف هذه المناطق في العروض الوسطى بالمُنخفَضات الجويّة، جمعه أعاصير». (**معجم النّفائس الكبير**، بإشراف أحمد أبو حاقة، ص١٢٧٠ ـ ١٢٧١، مادّة «عصر»). [المترجم]

٤ . **مجمع البحرين**، ج٣، ص٤٠٦، مادّة (ع ص ر).



تناسب الآيات

تُعتبر هذه الآية الشريفة تكملة للآيات التي سبقتها واستمراراً لموضوعها وهي تحمل تمثيلاً آخر لإنفاق المُرائي أو الإنفاق بالمَنّ والأذى وهو العامل الرئيسيّ لبطلان الإنفاق وهلاك ثمراته ووخامة نتائجه.

* * *

حال المُبطِل لصدَقته يوم القيامة

لم تُعتِق الحاجة يوماً الإنسانَ من البحث عنها والطّلب منها سواء في هذه الدنيا أم في عالَم البرزخ أم في يوم القيامة، وأمّا العامل الأساس في تلبية تلك الحاجة وسدّ النّقص فقد يكمن في القدرة على تحصيل الرّزق حيث يستطيع الشخص المُقتدر الذي يمتلك المعلومات والخبرة التجارية سدّ حاجته، وربّما كان ذلك العامل موجوداً في القرابة عندما يكون الفرد قادراً على تلبية حاجاته بواسطة أسرته الغنية التي تساعده على شقّ طريقه في الحياة، أو في المودّة إذا كان الشخص ودوداً واستطاع حلّ مشاكله المادية من خلال العلاقات الوديّة والصّداقة التي يؤسّسها مع الآخرين؛ وأمّا في يوم القيامة، فلا وجود للقدرات والطاقات الاقتصادية والتجارية التي تمكّن الفرد من تخطّي العقبات التي تواجهه يومئذ، ولا أثر للعلاقات الأُسريّة والقرابة، ولا صداقة ولا خُلّة في ذلك اليوم العصيب.

لقد أكّدت الآيات التي سبقت هذه الآية الشريفة على نَفي كلّ وجوه العلاقة والأنظمة الاجتماعية المعهودة في هذه الدنيا يوم القيامة: ﴿يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾[1]، ولبيان وشرح الوضع الاستثنائيّ السائد في المعاد جاءت

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٥٤.



الآية الّتي هي موضوع البحث بمثال أشارت فيه باختصار إلى نَفي الضوابط الداخلية (أو الباطنية) وعدمية العلاقات الخارجية (أو الظاهرية) بالإضافة إلى الحاجة المُضاعفة والموجودة أصلاً للفرد وأسرته، أي العبء المالي الثقيل الذي يجب على الشخص تحمّله مع عجزه عن حمل ذلك العبء الذي يفوق قدراته وطاقاته، فضلاً عن إبعاد كلّ مَن يستطيع مساعدته على حمل ذلك العبء عنه وهو ما أشار إليه الباريء ﷻ في قوله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾[1].

وكما نعلم فإنّه ما مِن إنسان عاقل يرضى بأن يأخذ الإعصار والنيران التي في داخله كلّ ما يملك في لحظة واحدة وقد وهنَ العظمُ منه واشتعلَ رأسه شيباً وبلغ من الكِبَر عِتيّاً وله أولاد بنات وبنون، خاصّة إذا كان كلّ ما يملكه هو بستان بهيج مليء بأشجار النخيل والكروم وغيرها من الفواكه الطيبة وتجري الأنهار من تحت أشجار بستانه؛ وهذا هو حال أولئك الذين يُعطون صدقاتهم ويُتبعونها بالمَنّ والأذى أو يُبطلونها بالرّياء والتظاهر أمام الآخرين، فهؤلاء يُضيعون الثمرات والخيرات التي تحويها بساتين إنفاقهم يوم القيامة وما أشدّ حاجتهم إلى كلّ ثمرة من تلك الثمرات في ذلك اليوم العبوس القمطرير.

و(الواو) في بداية العبارتيْن: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ و﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء﴾ هي للحال[2]، وهاتان الجملتان تبيّنان حاجة صاحب البستان المُلحّة وشدّتها،

---

١ . سورة القيامة، الآية ١١.

٢ . «والواو للحال والجملة بتقدير قد في موضع نصب على الحال من فاعل ﴿يَوَدّ﴾ أي: أيَودّ أحدكم ذلك في هذه الحال التي هي مَظنّة شدّة الحاجة إلى منافع تلك الجنة ومَئِنّة العجز عن تدارك أسباب المعاش. وقيل: الواو للعطف، ووضع الماضي موضع المضارع (كما قاله الفراء) أو أوّل المضارع بالماضي: أي لو كانت له جَنّة وأصابه الكِبَر (واعترضه أبو حيان) بأنّ ذلك يقتضي دخول الإصابة في حيز التمني ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ لا يتمناها أحد؛ والجواب بأنّ ذلك غير وارد لِما أنّ الإستفهام للإنكار فهو ينكر الجمع بينهما لا يخفي ما فيه ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿أَصَابَهُ﴾ أي إصابة الكبر، والحال أنّ له صِبية ضُعفاء لا يقدرون على الكسب وترتيب معاشه ومعاشهم». (الآلوسي، تفسير روح المعاني، ج٣، ص٦٠). [المترجم]



فالإنسان العاجز والمسنّ الذي يكون مُجبراً على إعالة نفسه وأفراد أُسرته وأطفاله القُصّر إذا احترق أمام عينيه الشيء الوحيد الذي يملكه في هذه الدّنيا وهو البستان فإنّه لن يكون بمقدوره شراء بستان آخر مِثله ثانياً وأطفاله أعجز منه عن مساعدته لتجاوز مِحنته هذه.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ المُراد هو العجز العاديّ لا العقليّ، وعليه فليس من المستحيل أن يتمكّن مثل هذا الشخص من الحصول على الفيض والعناية الإلهيّين مرّة أخرى أو أن يصبح قادراً وغنياً بطريقة غير متوقّعة تماماً، فيحظى بمحبّة أولياء الله ومودّتهم يوم القيامة فيشفعوا له ويعفو الله عمّا سَلف من أعماله السيئة؛ لكن، ووفقاً للظاهر أمامنا، فإنّه ليس أمام هذا الشخص أيّ سبيل للنّجاة ممّا هو فيه ليسدّ حاجته وحاجة أولاده الذين يُعيلهم.

إلماعة: ١. تُعتبر كلمة ﴿جَنَّة﴾ ممثّل الإنفاق وعبارة ﴿مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ بياناً لتلك الكلمة وتشير إلى كثرة أشجار النّخيل والأعناب في ذلك البستان مقارنة بالأشجار والثّمار الأخرى الموجودة في البستان المذكور.

٢. المقصود بذِكر أشجار النّخيل والعنب بشكل مستقلّ في الآية الشريفة هو الإشارة إلى أنّ أشجار النّخيل وأنواع الكروم كانت أكثر النباتات شهرة وأفضلها على الإطلاق في بلاد الحجاز وكذلك المناطق المجاورة لها آنذاك، رغم أنّ الآية الشريفة ذكرت أنواعاً أخرى من المحاصيل التي يحتويها ذلك البستان: ﴿لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

٣. رغم أنّ كلمة ﴿الثَّمَرَاتِ﴾ هي جمع دخل عليها الألف واللام وأُضيفت إليها كلمة ﴿كُلِّ﴾ لكنّها تتضمّن معنى نسبيّاً لأنّ المعروف أنّ البستان الواحد لا يمكن أن يحوي جميع الثمرات والفواكه الموجودة في كلّ أنحاء العالم، وهذا



يُشبه كلمة «كُلّ» الواردة في الآية الشريفة: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[١] والمقصود بذلك هو النِّعَم التي كانت موجودة بالفعل في المنطقة التي كانت تحكم فيها (بلقيس) مَلكة سَبأ وهي بلاد اليَمن السّعيد.

حدوث مضمون الآية في الدنيا

إنّ تطبيق مفاد الآية الّتي هي موضوع البحث في يوم القيامة هو أمر مستمرّ حيث تصبح حاجة المرء حينئذٍ خالدة ومستمرّة وترى كلًّا من المخلوقات مشغولاً بنفسه ومهتمّاً بهمّه الذي يُغنيه عن التفكير في مشاكل الآخرين أو همومهم: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[٢] وفي ذلك اليوم العصيب تتقطّع كلّ الأواصر وتتلاشى كلّ أنواع العلاقات فيما بين الأقارب والخلّان: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾[٣] ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾[٤] وهذا ـ كما هو واضح ـ لا يعني أنّ مضمون الآية الشريفة لن يقع في هذه الدّنيا فقد تحقّق في الخارج الكثير من الوعود والتهديدات والقصص والأحداث والأمثلة القرآنية التي وعد بها القرآن الكريم، مثل قوله ﷻ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾[٥] و﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾[٦].

وفي بعض آيات القرآن الكريم ذكرَ الله سبحانه وتعالى وقوع مثل تلك الأحداث باسم السنّة الإلهية كما في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ

---

١ . سورة النّمل، الآية ٢٣.

٢ . سورة عبس، الآية ٣٧.

٣ . سورة عبس، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

٤ . سورة البقرة، الآية ١٦٦.

٥ . سورة الكهف، الآية ٣٢.

٦ . سورة القلم، الآية ١٧.



جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ... وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[١]؛ إذاً، وقوع هذا الحدث هو أمر ممكن وبالتالي فإنّ هذا المَثل ليس مجرّد تشبيه للمعقول بالمَحسوس، بل إنّ الذين يمنّون على الآخرين ويؤذونهم قد يمرّون بمثل هذه الأحداث المؤلمة حتى في هذه الدنيا قبل بلوغهم الآخرة.

استخدام عبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾

تكمن صعوبة التفكير أحياناً في (الشبهة العِلمية) التي تعني وجود التعقيد والصعوبة في توفير المبادئ التصوّريّة والتصديقية والغموض في إدراك المقدّرات الخفيّة، وفي أحيان أخرى تكون الصعوبة في ما يُعرَف بـ(الشهوة العَملية) كالرّغبة الجامحة نحو تكديس الأموال واكتنازها والابتلاء بحبّ السلطة والتسلّط ثمّ الوقوع في مستنقع الذلّ بدلاً من التواضع، وكلّ تلك العوامل تحول دون تفكير الشخص في عواقب الإنفاق والتطبّع بطبيعة البُخل والشحّ والإمساك بالإضافة إلى التفكير بعد انتهاء عملية الإنفاق والذي يقود إلى الرّياء وأخيراً التأمّل في الثمرة الفاسدة للإنفاق المتبوع بالمَنّ والأذى، ولهذا طالب الله سبحانه الناس في نهاية الآية بالتفكير والتدبير قائلاً: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

بحث روائيّ

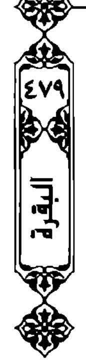
الآثار السيئة للإنفاق بالمَنّ

قال أبو عبد الله عليه السلام: «**الإعصار: الرّياح؛ فَمَنِ امْتَنّ على مَن تَصدّقَ عَلَيه، كَمَن كانَ لَه جَنّة كَثيرَة الثّمار وَهو شَيْخٌ ضَعيف لَه أوْلاد صِغار ضُعَفاء فَتَجيءُ ريحٌ أو نارٌ فَتُحرِق مالَه كُلّه**»[٢].

---

١ . سورة سبأ، الآيات من ١٥ إلى ١٧.

٢ . تفسير القمي، ج١، ص٩٢.



إشارة: جدير بالذّكر أنّ مضمون الآية الشريفة يشمل حالة المُنفِق المَنّان والمؤذي والمُرائي وليست مُقتصرة على واحد منهم فقط دون الآخر؛ لكنّ هذه الرواية وردت كمثال لبيان عاقبة المُنفِق المَنّان وهي لا تشير إلى اقتصار هذه الحالة عليه وحسب، فعاقبة المُنفِق المؤذي والمُرائي لا تختلف كثيراً عن عاقبة المُنفِق المَنّان.

* * *

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

خلاصة التفسير

تأمرنا هذه الآية الشريفة بالإنفاق من مالنا الحلال والطيّب من خلال بيان صفة المال المُراد إنفاقه، وتنهانا عن بَذل المال غير الحلال، مشيرة إلى معيار معرفة المال غير الطيّب وهو عدم أخذنا لمثل هذا المال إذا دُفِع لنا دون أيّ وَجل أو خَجل من المُعطي، وفي ختامها تَصف الآية الكريمة الله سبحانه وتعالى باسميْن من أسمائه الحُسنى وهما: «**الغنيّ**» و«**الحَميد**».

التفسير

المُفردات[1]

طَيِّبَاتِ: الأصل الواحد في هذه المادّة هو ما يكون مطلوباً ليس فيه قذارة ظاهراً ولا باطناً ويُقابله الخُبث وهو ما يكون فيه قذارة ظاهراً أو باطناً وهو مُستكرَه في نفسه. وهذا المعنى يختلف باختلاف الموضوعات فالطيّب في كلّ

---

١ . لمعرفة معنى (الغنيّ) بشكل مفصّل، أنظر: ذيل تفسير الآية (٢٦٣) من هذه السورة.

شيء بحسبه وبمُقتضاه، والفرق بينها وبين الطهارة، أنّ الطهارة يُلاحَظ فيها جهة التنزيه وإبعاد القذارة ولا يُلاحَظ فيها كونها مطلوبة، و(الطيّب) يكون النّظر فيه إلى كونه مطلوباً وإلى صفاء الشيء وتماميّته في نفسه[1].

وَلَا تَيَمَّمُواْ: يَمّمْتُ كذا وتَيَمَّمْته، قَصَدته[2]، والفرق بين «التَيمّم» و«الإرادة»: أن أصل التيمّم [هو] التأمّم وهو قَصد الشيء من أمام[3]، ويتيمّمون بمَعنى يتأمّمون[4] ولهذا فإنّ معنى ﴿**وَلَا تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ**﴾ هو «لا تَتوخّوا أردأ ما عندكم فتَتَصدّقوا به»[5].

وفي المُصطلح الفقهيّ أنّ التيمّم هو ضَرب اليَدَيْن بالتّراب ومَسح الجَبين وظَهر اليَدَيْن بِه.

تُغْمِضُواْ: الغَمْض: النّوم العارض، وغمضَ عينَيه وأغمضها وَضعَ إحدى جَفنَيْه على الأخرى، ثمّ استُعيرَ ذلك للتغافل والتّساهل[6].

تناسب الآيات

بعد بيان فضيلة الإنفاق الخالِص ونيّة المُنفِق المُخلِص في الآيات السابقة، يَصف لنا القرآن الكريم في هذه الآية الشريفة طبيعة المال المُراد إنفاقه مؤكّداً على ضرورة أن يكون ذلك المال طاهراً وحلالاً وطيّباً[7].

* * *

١ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٧، ص١٥١، مادّة (ط ي ب).

٢ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٨٩٣، مادّة (ي م م).

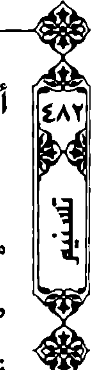
٣ . أبو هلال العسكريّ، **معجم الفروق اللغوية**، ص١٤٨.

٤ . **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج١، ص٦٩، مادّة (ا م م).

٥ . **ترتيب كتاب العين**، ج١، ص١٠٧، مادّة (أ م م).

٦ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٦١٥، مادّة (غ م ض) ـ بتصرّف.

٧ . وهبة الزحيلي، **التفسير المنير**، ج٣ ـ ٤، ص٥٩.



أوصاف المال الحقيقية والاعتباريّة

يُعتبر المال رُكناً من أركان الإنفاق ويتّصف بأوصاف حقيقية واعتبارية متعدّدة، فاعتباريّته مُستوحاة من علاقته وارتباطه بمالِكه وهي علاقة اعتبارية صرفة حيث تشير كلمة ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[1] إلى هذا المعنى بالذات.

وتدخل مسألة حُرمة التصرّف في المال وحليّته ضمن إطار أوصاف المال الاعتبارية وإن كان ذلك يختلف قليلاً في بعض جهاته، فهو يبرز بأمر اعتباريّ ويزول بأمر اعتباريّ آخر، مَثله في ذلك مَثل عقد البَيع الذي تُزال بواسطته حليّة تصرّف البائع في المُباع.

والأوصاف (الطيّب) و(الخَبيث) و(الجَيّد) و(الرّديء) و(المرغوب) و(المكروه) هي أوصاف حقيقية للمال ولا تزول بالاعتبار أبداً، ويؤيّد هذا الكلام قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ...﴾[2] و﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[3] وأنّ وصف (الطيّب) و(الخَبيث) هما وصفان حقيقيّان للمال.

وأمّا وَصفا (الطيّبات) و(الخَبيث) الواردان في الآية الّتي هي موضوع البحث فهما من الأوصاف النّفسية للمال، فيما تُعتبر حليّة المال وحُرمته موضوعاً خارج نطاق بحث الإنفاق إذ أوّلاً نقول إنّ بداية موضوع بحث الإنفاق تتناول المال العائد إلى المُنفِق نفسه وهذا واضح من قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، ويمكن ملاحظة هذه المسألة من خلال إضافة ضمير

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٦١.

٢ . سورة المائدة، الآية ٥.

٣ . سورة الأعراف، الآية ١٥٧.



«هُم» إلى كلمة «أموال» ومعناه أنّ المال الحرام لا يتعلّق بالمُنفِق؛ وثانياً قد ورد في ذيل الآية الشريفة نَهيه تعالى عن إنفاق المال الذي لا نأخذه ولو بالتساهل والإغماض؛ ومن المعلوم أنّه لا يجوز التصرّف بالمال الحرام سواء أكان ذلك بالإغماض أم بغيره؛ وثالثاً إنّ هذه الآية قد نزلت في الذين كانوا يُنفقون ويتصدّقون بتُمورهم السيّئة.

إلماعة: لاحظ أنّ كلمة ﴿طَيِّبَاتِ﴾ وردت في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث بصيغة الجمع بينما استُخدِمت كلمة ﴿الْخَبِيثَ﴾ بصيغة المُفرد وذلك لأنّ الطيّبات أكثر من الخبائث.

الإنفاق من المال الطيّب

ينبغي للمُؤمن أن يُنفق من ماله الطيّب الحلال، ولكن، هل يجب تطبيق هذه القاعدة على الإنفاق المُستحبّ كذلك أم إنّ هذه القاعدة مختصّة بإنفاق المال الواجب وحسب؟ لا شكّ في أنّ الجواب يكمن في تفسير قوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، فإذا افترضنا أنّ الفعل ﴿أَنفِقُواْ﴾ يُفيد الوجوب وكان مَثله كمَثل قوله سبحانه ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ...﴾ حيث يشير إلى بيان أصل التشريع، فإنّ المقصود بـ﴿أَنفِقُواْ﴾ ليس الإنفاق مُطلقاً، أي إنّه لا يشمل الإنفاق المُستحبّ، لكن إذا افترضنا أنّ الآية الشريفة تريد بيان خصوصيّات الإنفاق وتفاصيله ـ وهذا بالذات هو ما تقصده الآية في الحقيقة ـ فإنّها تُعتبر مُطلقة وبذلك يكون حكم الإنفاق من المال المرغوب والطيّب سارياً على الإنفاق المُستحبّ أيضاً.

هذا، وتشمل الأموال الطيبة التي يحصل عليها الأفراد: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ والأموال التجارية والأشياء الثمينة التي يُخرجها الله ﷻ للناس من باطن



الأرض: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾، تشمل المحاصيل الزراعية والدواجن والمعادن وكلّها تُعادل بعضها البعض في القيمة، وقد حُذِفَ مدخول حرف الجرّ ﴿مِنْ﴾ ـ وهي الطيبات ـ من جُملة: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ لوروده في الجملة السابقة، ومعناه أنّه يجب الإنفاق من طيّبات المحاصيل الأرضية، وأمّا الأدلّة الخاصّة بالحكم المذكور فهي هذه:

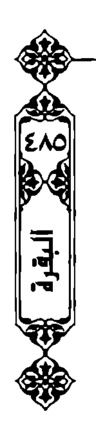
١. نُهِيَ عن إنفاق المال الخبيث وغير الطيّب ولا يقتصر ذلك على الأموال التجارية فقط.

٢. يؤيّد شأن نزول الآية الشريفة هذا الكلام وهو ضرورة إنفاق المحاصيل الأرضية الطيّبة والمرغوبة.

٣. إنّ قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾[1] يؤكّد ما قلناه لأنّ الضمير الداخل على حرف الجرّ ﴿مِنْهُ﴾ يعود إلى (الرّزق الحَسن) وهي عبارة مطلقة تشمل كلّ أنواع الأموال الطيّبة والمُحلّلة.

٤. وردت الكلمات (عُشر) و(نِصف) و(خُمس) في ما يخصّ الزكاة الواجبة والخُمس باعتبار أنّ تلك المقادير تمثّل كسوراً مشاعة تتعلّق بالمال كُلّه، فإذا كان المال كُلّه طيّباً أو كان خليطاً من الطيّب والخبيث وعمد صاحبه إلى إعطاء الزكاة من جزءه الخبيث، أو أنفق على الفقراء من مال خارجيّ خبيث حصل عليه، فإنّ التكليف لم يسقط عنه وهو بذلك لم يؤدّ حقوق الفقراء، بل ينبغي عليه الإنفاق من صُلب ماله ـ طيّباً كان أم خبيثاً ـ وإخراج الكسر الواجب المشاع من ذلك المال. وبعبارة أخرى، فكما أنّه لا يجب عليه أداء كلّ الإنفاق من قسمَيْ ماله الطيّب والحلال، فكذلك لا يحقّ له أداء الإنفاق كلّه من ماله الخبيث إلّا إذا كان

١. سورة النّحل، الآية ٧٥.



كلّ ماله خبيثاً بالفعل، وفي هذه الحالة يكون الإنفاق مُجزياً وإن كان كلّه من المال الخبيث.

والخلاصة أنّ مال الزكاة ينقسم إلى ثلاثة أقسام، هي:

١. الطيّب المحض

٢. الخليط من الطيّب والخبيث

٣. الخبيث المحض

وتتناسب الأحكام الخاصّة بكلّ نوع من أنواع المال المذكورة، لكن تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الأمر الاستحبابيّ في الإنفاق المستحبّ والصّدقة النّفلية يتعلّق بإنفاق المال الطيّب والحلال.

ومن المُلاحَظ أنّ الآية الشريفة قد أسندت عملية الحصول على الأموال التجارية إلى الإنسان نفسه فيما أسندت خروج المحاصيل الزراعية والمعادن على أنواعها من باطن الأرض إلى الله ﷻ، لكن يجب ألّا ننسى أنّ الأموال التي يحصل عليها الأفراد هي الأخرى لا تأتي إلّا بعناية الله سبحانه وفضله والحقيقة هي أنّ المالِك الأوّل والأخير لتلك الأموال هو الله ﷻ وعندما يقوم الإنسان بالإنفاق فإنّه في الواقع يُنفِق من مال الله لا مِن ماله هو: ﴿**وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ**﴾[1].

تجنّب الإنفاق من المال الخبيث

يذكّرنا الله سبحانه وتعالى في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث ألّا يكون إنفاقنا كإنفاق مَن ينظّف دكّانه أو يُرتّب منزله بين الحين والآخر ثمّ يجمع من ذلك كلّ ما تقادم وأصبح عديم المنفعة ليُعطيه إلى الفقراء والمساكين مُحتفظاً

١ . سورة النور، الآية ٣٣.



لنفسه بكلّ طيّب وجيّد من المال والأثاث والأشياء، بل ويدعونا كذلك إلى تجنّب الإنفاق ممّا قلّت أهميّته وذهب نَفعه وقيمته وذلك للكثير من الأسباب، منها:

١. أنّ الآخذ للمال المُنفَق هو الله ﷻ نفسه لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾[1].

٢. قد يتسبّب ذلك في إيذاء الشخص المُنفَق عليه وجرح مشاعره وأحاسيسه.

٣. تُعتبر الصّدقة في الحقيقة بمثابة هدية ومن غير اللائق إعطاء الهدية من المال الخبيث.

٤. أنّ الهدف من الإنفاق هو التقرّب إلى الله سبحانه: ﴿ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ﴾[2] وتثبيت النّفس وتقويمها: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[3] وهو علاج ناجع للبُخل والإمساك: ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾[4] بل هو الحلّ الأمثل لحالة الفقر العامّ من دون جرح لعواطف الآخرين في المجتمع، وكلّ تلك هي أهداف لا يمكن تحقيقها إلّا عن طريق بذل المال الطيّب والحلال، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[5] في تأكيد صريح على أنّه ما مِن أحد يمكنه نَيل البرّ أو الحصول على مرضاة الله ﷻ إلّا إذا كان إنفاقه من أخلص ماله وأطهره. فالمال الطيّب والحلال هو مال مرغوب ومحبوب، أمّا المال الخبيث الذي لا قيمه له فهو كاللباس البالي والمُندَرس والأطعمة المُتسنِّهة ومثل هذه الأشياء لا تكون مرغوبة لأيّ عاقل وغيور وحسّاس، رغم أنّ ديننا يأمرنا

---

١. سورة التوبة، الآية ١٠٤.

٢و٣. سورة البقرة، الآية ٢٦٥.

٤. سورة النساء، الآية ١٢٨.

٥. سورة آل عمران، الآية ٩٢.

كذلك بعدم الإسراف حتى في الألبسة البالية والأطعمة المتغيّرة بل ينبغي إنفاقها في مواضعها الصحيحة.

وجدير بالذّكر أنّ جملة: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ﴾ هي بمثابة تأكيد على ضرورة إنفاق الطيّب من المال كما في عبارة: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾[1]، حيث يأتي استخدام هذه العبارة بدلاً من القول: «ولا تُنفقوا من الخَبيث» لبيان شدّة قُبح الإنفاق من المال الخبيث وغير الطيّب، وهذا يشبه النّهي عن التقرّب إلى مال اليتيم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ﴾[2] وإلّا فإنّ مجرّد قصد الإنفاق من المال الخبيث دون عمل خارجيّ ليس محذوراً من الناحية الفقهية رغم أنّه لا يخلو من الرذيلة الباطنية.

وعلى أيّة حال لا بدّ من المحافظة على كرامة المُتسلِّم للصدقة أو للنفقة وهذا لا يكون إلّا بتجنّب المُنفِق للمَنّ والأذى والامتناع عن إنفاق المال الخبيث وغير الطيّب لأنّ كلّ هذه الأمور تُمثّل عوامل لتصغير المُنفَق عليه واحتقاره وعدم رعاية مشاعره وهَدر كرامته وهي أمور لا تنسجم مع ثقافتنا الدينية، فضلاً عن كونها تدلّ على ذُلّ المُنفِق وحقارته ودناءته وهو ما يسعى الإسلام إلى إزالته والقضاء عليه.

تمييز المال الخبيث

لا يمتلك كلّ واحدٍ من (الطيّب) و(الخبيث) آيّة حقيقة شرعية تُذكَر، ويبقى المعيار الوحيد للتمييز بينهما هو الرّجوع إلى النّفس ومشاورة الوجدان عند الشخص نفسه. ويُعرّف لنا القرآن الكريم المال الخبيث قائلاً: «إنّ المال

---

١ . **تفسير البحر المحيط**، ج٢، ص٣٣٠.

٢ . **سورة الأنعام**، الآية ١٥٢.

الذي تكرهون أخذه إلّا بالإغماض والتساهل هو المال الخبيث بعينه، ولـذلك لا ينبغي لكم الإنفاق من هذا المال؛ وهذا معنى قوله ﷻ: ﴿**وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ**﴾.

وممّا لا ريب فيه هو أنّ مقارنة المسائل العادية والمادية بالعادّة والمادّة تُعدّ أمراً بسيطاً وسهلاً، فلتحديد وقت الظهر الشرعيّ مثلاً أو وقت فضيلة صلاة الظهر والعصر نستعين بالمِزْوَلَة[1]، ولقياس حجم الماء الكُرّ نستخدم «الشِّبْر»[2]، وهذه ـ كما هو واضح ـ وسائل متوفّرة وفي متناول يَد الجميع؛ وأمّا المعيار الخاصّ بالمسائل المعنوية فلا يكون إلّا بالنفسيّات والوجدانيّات، كأن يُقال في الإنفاق مثلاً: «أنتم والآخرون تُمثّلون حقيقة واحدة، إذاً، فما هو مكروه لكم مكروه أيضاً بالنسبة إلى الآخرين، وما لَم ترضَوه لأنفسكم لا تقدّموه إلى الآخرين».

وهكذا قوله ﷻ: ﴿**وَلَا تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ**﴾ يُعطينا درساً دينياً حول كيفية تهذيب النّفس فضلاً عن كونه معياراً دقيقاً لتحديد المال الخبيث وتمييزه عن المال الطيّب.

الصفتان «الغَنيّ» و«الحَميد»

اختتم القرآن الكريم الآية الشريفة (٢٦٣) من سورة البقرة باسمَيْن من أسماء الله تعالى الحُسنى هما: ﴿**غَنِيٌّ حَلِيمٌ**﴾ وأنهى الآية الكريمة الّتي هي موضوع البحث باسميْن آخريْن من الأسماء الحُسنى وهما: ﴿**غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾، ولكلّ اسم من تلك الأسماء دور رئيسيّ وبارز في التشجيع على الإنفاق والترغيب فيه

---

١. الجمع (مَزاوِل): كلمة وضعوها للدلالة على الساعة الشمسية التي يُعيَّن فيها الظهر الحقيقيّ بظلّ الشاخص الذي يُرفَع عليها. (**المنجد في اللغة**). [المترجم]

٢. الجمع (أشبار): ما بين طرف الإبهام وطرف الخُنصر ممتدّيْن. (المصدر نفسه). [المترجم]

أوّلاً، ثمّ حثّ الناس على بَذل الطيّب من أموالهم ثانياً، والإنفاق من مالهم الحلال ثالثاً، والإنفاق من المال الذي يكسبه الإنسان بسعيه واجتهاده وكدّه وتَعبه لا من المال الذي يحصل عليه دون مشقّة أو عناء رابعاً... وهكذا دواليك.

ولا شكّ في أنّ غِنى الله عز وجل واستغنائه عن كلّ شيء ـ كما أشارت الآية الشريفة إلى ذلك ـ يبيّن لنا بوضوح أنّ الإنفاق في سبيل الله سبحانه يصبّ في مصلحة المُنفِق بالدرجة الأولى وليس لله تعالى في ذلك أيّ منفعة أو مصلحة تُذكَر، وصفة **(الحَميد)** هنا تشير إلى أنّ الله عز وجل حامد وشاكر لعمل المُنفِق بعد استيفائه للشروط المطلوبة رغم أنّه غير محتاج إلى ذلك العمل بالمرّة، كما أنّ صفة **(الحَميد)** تبيّن أنّ الله تعالى محمود وأنّه يستحقّ الحَمد والثّناء والشّكر وأنّ أبرز مثال على ذلك الحَمد والثناء هو الإنفاق في سبيله ووفقاً لأوامره وتعاليمه.

وبعبارة أخرى، نقول إنّ الذي يأخذ المال المُنفَق هو الله سبحانه لا غيره: **﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾**[1] وأمّا الشخص المسكين فهو مبعوث الله ورسوله: **«إنَّ المِسكينَ رَسولُ الله»**[2]، وعليه، لا يجوز ولا يليق بنا أن نُقدّم لله عز وجل الغنيّ الحَميد المالَ الخَبيث، فهو سبحانه وتعالى قادر على أن يُوصل أرزاق خلائقه بالطُّرق التي يعرفها والسّبُل التي لا يعلمها أحد سواه: **﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾**[3] ما يشير إلى أنّه هو عز وجل وعباده ليسوا بحاجة إلى إنفاق الآخرين، وأنّ ما يُنفقه الشخص إنّما هو أداء لواجب أُنيط به ومسؤولية أُحيلت عليه ولمُعالجة داء البُخل الكامن في أعماقه، وهذا لا يكون إلّا من خلال إنفاقه من ماله الطيّب والحلال؛ وأمّا مَن يقوم بإنفاق ماله

---

١. **سورة التوبة**، الآية ١٠٤.

٢. **نهج البلاغة**، الحكمة رقم ٣٠٤.

٣. **سورة هود** عليه السلام، الآية ٦.



الخبيث للتخلّص منه والتحرّر من أعبائه فلا يمكن اعتباره من أهل السّخاء والكرم والفضل، ولا شكّ في أنّ مثل هذا الإنفاق لن يوصِل صاحبه إلى الكمال النفسيّ، ولهذا وردت الصّفتان ﴿غَنِيٌّ﴾ و﴿حَمِيدٌ﴾ في نهاية الآية الشريفة: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ لتأكيد ذلك، أي علينا أن نعلم أثناء إنفاقنا ونعترف بأنّ الله سبحانه ﴿غَنِيٌّ﴾ و﴿حَمِيدٌ﴾ وأنّه يشكر عَبده على إنفاقه من أطيب ماله رغم أنّه ﷻ غنيّ عن إنفاق الناس جميعاً. إذاً، ينبغي علينا أن نُنفق من مالنا الطيّب لأنّ الله تعالى لا يشكر من المُنفقين إلّا مَن كان إنفاقه صائباً وكان بذله من ماله الحلال الطيّب، وتعهّد الله ﷻ في مقابل ذلك بإثابة هذا المُنفق بأجزل الثواب وأعظم الأجر. وقد يكون الغرض من الاسميْن هو القول بأنّ الله تعالى غنيّ وحَميد ولذلك فلا يحقّ لكم أن تتصرّفوا معه بشكل لا يليق بجلاله وعظمته[1].

وخلاصة القول، هي أنّ الآية تبيّن سرّ الأمر بالإنفاق من الأموال الطيّبة والنّهي عن قصد الإنفاق من المال الخبيث.

إشارات ولطائف

١. الإسلام يربّي جيلاً طيّباً

ما مِن عاقل مُنصِف يُنكر هدف التعاليم الإسلامية المتمثّل في تربية وإعداد جيل طيّب وطاهر ويكون الفرد في المجتمع الإسلامي طيّباً وطاهراً في جميع الشؤون الاقتصادية والعَقَدية والخلقيّة والعمليّة، وإنقاذه من براثن الخُبث ومصائد الشرّ سواء أكان ذلك في المسائل الماديّة كالطعام والغذاء كما في

١. العلّامة الطباطبائيّ، تفسير الميزان، ج٢، ص٣٩٣.

قوله ﷻ: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالاً طَيِّباً﴾[1] و﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً﴾[2] و﴿وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾[3] أم ما تعلّق بالشؤون العبادية مثل قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[4] أم ما كان منها يخصّ تطوير الأفكار الطيبة وطبعها على صفحات الرّوح كقوله سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[5].

فالصفات الإنسانية تظهر في بداية أمرها بشكل حال وهي مُعرّضة للزوال والتلاشي لكن شيئاً فشيئاً تُصبح تلك الصفات وصفاً لازماً للفرد ومَلكة ثابتة له لا تتزحزح حتى تغدو صورة نوعية وفصلاً مُقوّماً لهوية الإنسان (لا ماهيّته)؛ وعندئذ تضحى حقيقة الشخص الصّالِح طيّبة طاهرة فإذا أرادت الملائكة أن تقبض روحه بإذن الله تعالى سَلَّمَت عليه أوّلاً وبشّرته بدخول الجنّة: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[6].

وقد ذكر القرآن الكريم الإنفاقَ إلى جانب الصلاة حيناً: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ﴾[7] أو بشكل مستقلّ حيناً آخر: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[8] وينبغي أن يكون [الإنفاق] موصوفاً بالطيبة والطهارة، ولكي يكون كذلك لا بدّ من أن يُصرَف من المال الطاهر الطيّب وتهذيبه من الصفات السّلبية وتنقيته من التصرّفات غير الإنسانية كالمَنّ

---

١ . سورة المائدة، الآية ٨٨.

٢ . سورة الأنفال، الآية ٦٩.

٣ . سورة النساء، الآية ٢.

٤ . سورة النساء، الآية ٤٣.

٥ . سورة فاطر، الآية ١٠.

٦ . سورة النّحل، الآية ٣٢.

٧ . سورة البقرة، الآية ٤٣.

٨ . سورة فصّلت، الآيتان ٦ و٧.



والرّياء والأذى وتقويته بالصفات الإيجابية وعلى رأسها مرضاة الله ﷻ وجعله عاملاً لتثبيت النّفس وتعزيزها واستقرارها. ومثل هذا الإنفاق لا يمكن أن يُوصَف إلّا كما وصفه الباريء ﷻ حيث قال: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾[1] أو قوله جلّ شأنه: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾[2]، وأمّا الإنفاق من المال الخبيث غير الطيّب فلا نتيجة تُرتَجى منه ولا ثمرة طيّبة يمكن جَنيها من بستانه، تماماً كما عبّر عن ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[3].

هذا، وتُسمّى الأرض المنخفضة القليلة الخَير التي تُنتج محاصيل قليلة ومُعيّنة بالأرض النّكداء بينما يُدعى البَلَد الوفير بالمحاصيل والفواكه الطازجة بالبَلَد الطيّب.

٢ . العاقبة السيّئة

وعدَ الله ﷻ أولئك الذين أصبحوا كشجرة (طُوبى) في شؤونهم العبادية وغير العبادية، وعدهم بحياة طيّبة كطيبة شجرتهم وجزاء حَسن يفوق حُسن ما فعلوا، قائلاً: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[4] ومن المعلوم أنَ الحياة الطيّبة لا يمكن أن تتحقّق في الحياة المليئة بالأحداث والبلايا لأنّ الطيبة بمعناها المعروف لا تنسجم مع الطبيعة والمادّة.

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٦١.

٢ . سورة البقرة، الآية ٢٦٥.

٣ . سورة الأعراف، الآية ٥٨.

٤ . سورة النّحل، الآية ٩٧.

وفي مقابل ذلك الوعد الحقّ، توعّد سبحانه وتعالى الخبّيثين من الناس الذين أتلفوا مُعظم سنيّي حياتهم وشبابهم ومالهم الطيّب وضيّعوا كلّ ذلك سُدى، توعّدهم بالعذاب والخزي المُبين: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[1]. وقد أشارَ الله سبحانه وتعالى في آية أخرى إلى أنّ الشيطان الرّجيم يُعتبر شريكاً لمثل هؤلاء الأفراد سواء في تحصيل أموالهم وتنميتها وتطويرها أم حتى في تكاثر أولادهم حيث قال: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[2]؛ إذاً، فالشيطان الرّجيم هو الذي يحضّ أولئك على أكل الرّبا والتطفيف في البَيع واحتكار الأموال والبضائع وكلّ عمل حرام، ثمّ يقودهم بطُرُقه وأساليبه ليُعلّمهم كيف يُنفقون أموالهم من أجل أن يستفيد هو نفسه من تلك الأعمال ويُحقّق مآربه الدنيئة.

وفي ذلك يقول الشاعر الفارسيّ الشهير (جلال الدّين مولوي):

إنّ مَن يسلك دَرباً غير دَربك	كانت السّعلاة أمّه أي وربّك
إنّ مَن قال فشاركهم هو الحقّ	في الوُلد وفي المال كذا والحقّ
قال طه ﷺ ذاك بقول جَليّ	في حديث مع مولانا عليّ[3]

---

١ . **سورة الأحقاف**، الآية ٢٠.

٢ . **سورة الإسراء**، الآية ٦٤.

٣ . أصل الأبيات بالفارسية:

[هر كه سوى خوانِ غير تو رَود	ديو با او دان كه هم كاسه شود
در نُبى شاركْهُمُ فرمود حقّ	هم در اموال و در اولاد أي شَفَق
گفت پيغمبر ز غَيْب اين را جَلى	در مقالات نوادر با على]

ديوان مثنوي معنوي، المجلّد الخامس، ص٧١٤، الأبيات: ٢٦٧، ٢٧٢، و ٢٧٣.



يشارك الشيطان الرّجيم الخبيثين في نسلهم وفي أولادهم بشتّى الطُرُق، فعند انعقاد نطفة أبنائهم يُذكّرهم الشيطان بالمحرّمات ويُحبّب لهم تلك المناظر أو يُغريهم على قول كلام بذيء بدلاً من ذِكر الحقّ تعالى، وكذلك يشترك معهم ويُشاركهم في مراحل ولادة أبنائهم وتربيتهم وتعليمهم؛ وهكذا فإنّ مَن يعيش والشيطان شريكه وخليله ونديمه فإنّ ذلك الشيطان سيُقرَن معه في قبره وعند بَعثه يوم القيامة: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[1] و﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا﴾[2]. فإبليس اللعين يقوم أوّلاً بتقديم الوعود لأتباعه ويُوَسوس لهم الاقتراحات: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[3] فإذا رأى إقبالاً من الشخص وموافقة لوعوده وأُمنياته أصبح [الشيطان الرّجيم] الآمِر الناهي عليه وعلى جُلّ تصرّفاته: ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله﴾[4]. ورغم أنّ الله ﷻ وعد عبادَه المؤمنين بعدم تسلّط الشيطان الرّجيم عليهم وتعهّد بأن يكون وكيلهم وأمرهم بالتوكّل عليه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾[5]، لكنّ الذين قَبلوا ولاية الشيطان الرّجيم ورَضوا بتسلّطه عليهم سيكونون تحت سلطته وإمرته حتماً: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[6].

---

١ . سورة الزخرف، الآية ٣٦.

٢ . سورة النساء، الآية ٣٨.

٣ . سورة النساء، الآية ١٢٠.

٤ . سورة النساء، الآية ١١٩.

٥ . سورة الإسراء، الآية ٦٥.

٦ . سورة النّحل، الآية ١٠٠.

٣. الإنفاق والإيديولوجية المادّيّة

أولئك الذين يحتفظون بما طابَ من أموالهم وممتلكاتهم ولا يَحلو لهم الإنفاق إلّا ممّا خَبث من تلك الأموال لا يفكّرون إلّا كما يفكّر البعض من الناس من أنّ الإنفاق من المال الطيّب الحلال يُعتبر غرامة وخسارة لهم: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾[1].

وتتلخّص فكرة هذه الإيديولوجية في إيجاز كلّ الحقائق في هذه الدنيا وحسب وترى أنّ الموت هو مجرّد فناء وعدم أبديّ: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[2] بينما تستند النظرة الدينية إلى كون العالم المادّيّ (الدّنيا) هو عبارة عن ممرّ لا غير، وأنّ الأموات سيُبعَثون يوماً ويُخرَجون من أجداثهم؛ وعليه فإنّ الإنسان لا يصبح عدماً بالموت والمال لا يفنى بالإنفاق. فالله ﷻ قضى أن يبقى المُنفِق والإنفاق حَيَّيْن مُعتبراً كلًّا منهما كحبّة تُزرَع في الأرض وسيحين الوقت الذي تُصبح فيه تلك الحبّة نَبتة خضراء يانعة؛ وفيما يتعلّق بالإنفاق قال سبحانه: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾[3]، وكذلك المُنفِق، فهو يُشبه الحبّة التي ستخضرّ يوماً وتكون سنبلة تحمل الكثير من الحبوب: ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾[4].

وكلّنا يعرف بأنّ الشجرة تتألّف من الجذور والساق والجذع القويّ والعديد من الأغصان والفروع والكثير من الأوراق المنتشرة عليها هنا وهناك، ثمّ

---

١. سورة التوبة، الآية ٩٨.

٢. سورة السّجدة، الآية ١٠.

٣. سورة البقرة، الآية ٢٦١.

٤. سورة فاطر، الآية ٩.



لا ننسى الثّمار التي تخرج على أغصانها، وكلّ تلك الأمور تكون كامنة في النواة التي زُرِعت في البداية، وليست الأرض سوى جهاز يعمل على استنساخ ونشر تلك الطاقات المكنونة في الحبّة، تماماً كجهاز التفقيس الذي تُوضَع فيه البيوض وإذا بها بعد مدّة مُعيّنة تتحوّل إلى فِراخ. وهذا ما يحدث يوم النّشور، حيث تُخرَج مكنونات الإنسان من أعمال وعقائد كانت مخزونة في أعماق روحه ويراها أمامه كالكتاب المفتوح: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾[1].

والذين يُنفقون أموالهم في طريق الباطل فسيكبر إنفاقهم الخبيث وينمو ويترعرع وسيكون مصدر حسرة لهم وسبباً لنَدمهم على ما فعلوا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ الله فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[2].

٤. القرآن يشفي أمراض الإنسان

إنّ القرآن الكريم الذي هو دواء لجميع الأوجاع: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] يعتبر البُخل والشحّ مرضيْن عُضاليْن من أمراض القلب: ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾[4] مذكّراً بأنّ الإنسان الذي يستطيع تخليص نفسه وإنقاذها من هذيْن المَرضيْن هو إنسان قد دخل مرحلة الفلاح والسؤدد: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[5] وقد قدّم القرآن الكريم العديد من الحلول الناجعة والتعاليم القيّمة لمعالجة مَرض البُخل.

---

١. سورة الإسراء، الآية ١٣.
٢. سورة الأنفال، الآية ٣٦.
٣. سورة الإسراء، الآية ٨٢.
٤. سورة النساء، الآية ١٢٨.
٥. سورة التّغابن، الآية ١٦.

بالإضافة إلى ذلك فإنّ القرآن الكريم يُبيّن للناس أنّ الفَقر يُمثّل مُعضلة اجتماعية مُعقّدة وأنّ المال هو وسيلة فعّالة إلى إستمرار معيشة الناس وتقويم حياتهم: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾[1]، فالفقير لا يعني المسكين أو المُعدَم بل تُطلَق هذه التسمية على كلّ مَن عجز عن القيام لألم أو أذى أصاب فقرات ظهره فشُبّه به الشخص الذي لا يملك مالاً وكأنّه لا يستطيع القيام أو المقاومة لا سياسياً ولا اجتماعياً (ولا جسدياً) بسبب عَيب أو خَلل في فقرات ظهره. وللقرآن الكريم كذلك بعض التوجيهات والحلول التي يمكن أن تعالج مشكلة الفقر الاجتماعي وكيفية توزيع الأموال على الأفراد بما يتناسب مع حالة كلّ منهم.

ومن أبرز التعاليم التي قدّمها القرآن الكريم من أجل معالجة الأمراض السالفة الذّكر هو موضوع الإنفاق حيث اشتُرِط في الإنفاق قصد التقرّب إلى الله سبحانه بالإضافة إلى ضمان الجانب العبادي فيه، كما نهى القرآن الكريم كذلك عن اتباع الإنفاق بالمَنّ والأذى لكي لا تُجرَح من جهة عواطف أفراد المجتمع وأحاسيسه ومن الجهة الأخرى حتى لا يذهب الإنفاق هدراً ويضيع أجر المُنفقين خصوصاً وأنّ الهدف الرئيسيّ من الإنفاق هو إزالة الفقر الاجتماعيّ مع الحفاظ على كرامة الإنسان. ولم يَسَ ديننا تذكير المُنفقين بالإنفاق والبَذل من ماهم الطيّب لا الخبيث من أجل أن تتمّ مُعالجة داء البُخل والشحّ واستئصالها من أعماق الروح الإنسانية ويهنأ المُنفِق بالثبات والاستقرار النّفسيّيْن إذ إنّ الإنفاق من المال الخبيث يزيد من عوارض البُخل ويُزعزع استقرار النّفس ويُهدّد ثباتها فضلاً عن جرحه لعواطف المُنفَق عليه وإيذاء مشاعره.

---

[1] . سورة النساء، الآية ٥.

بحث روائيّ

شأن النّزول

رُويَ عن أبي عبد الله عليه السلام [أنّه قال]: «إنّها نَزَلَت في أقْوامٍ لَهُم أَمْوال مِن رِبا الجاهِلِيّة وَكانوا يَتَصَدّقون مِنها، فَنَهاهُم الله عَن ذلكَ وَأمَرَ بِالصَّدَقَة مِن الطّيبِ الحَلال»[1].

ـ عَن أبي الصّباح عَن أبي جعفر عليه السلام قال: سألتُه عن قَول الله: ﴿وَلاتَيَمَّمُوا الخَبيثَ مِنْهُ تُنْفِقون﴾ قال: «كانَ النّاسُ حِينَ أسْلَمُوا عِندَهم مَكاسِب مِنَ الرّبا وَمِن أمْوالٍ خَبيثَة فكانَ الرّجُلُ يَتَعمّدها مِن بَين مالِه فَتَصدّقَ بها؛ فَنَهاهُم الله عَن ذلِك، وإنّ الصّدَقةَ لا تَصلُح إلّا مِنْ كَسْبٍ طَيّب»[2].

ـ عَن أبي بصير قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام [عن قوله تعالى]: ﴿وَمِمّا أخْرَجْنا لَكُم مِنَ الأرْض﴾. قال: «كانَ رَسول الله صلى الله عليه وآله إذا أمَرَ بِالنّخلِ أن يُزكّى يَجِيء قَومٌ بِألوانٍ مِن التَّمْر هو مِن أردأ التّمرِ يُؤدّونه عَن زَكاتِهم، تَمر يُقال له «الجعرود»[3] و«المعافارة»، قَليلة اللّحاء عَظيمة النّوى؛ فكانَ بَعضهم يَجِيء بها عَن التّمر الجيّد. فَقال رَسول الله صلى الله عليه وآله: لا تَخْرُصوا هاتيْن وَلا تَجيئوا مِنها بِشيءٍ، وفي ذلك أنْزلَ الله: ﴿يأيُّها الَّذينَ آمَنوا أنْفِقوا مِن طَيِّباتِ ما كَسَبتُم... إلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ والإغماض أن يَأخذَ هاتين التمريْن من التّمر. وقال: لا تَصل إلى الله صَدقة

---

١ . تفسير **مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٥٥؛ قطب الدّين الرّاوندي، **فقه القرآن**، ج١، ص٢٣٣.

٢ . **تفسير العياشي**، ج١، ص١٤٩.

٣ . «وفي بعض الأخبار (جعرور)» (الرّيشهري، **ميزان الحكمة**، ج١٠، ص٤٧٤)؛ «و(الجعرود) و(المعافارة) نوعان من أردأ التّمور»؛ «مِعَى الفارِ: تمر رديءٌ» (**القاموس المحيط**، ص١٣٣٥، باب الياء، فصل الميم)؛ والكلمة مركّبة من المِعَى، أحشاء البطن وأعفاجه بعد المعدة، والفأرة، فكأنّهم شبّهوا التّمر الرديء بأمعاء الفارة. [المترجم]

مِن كَسبٍ حَرام»[١].

إشارة: ثمّة روايات أخرى تحمل نَفس المعنى والمضمون الوارد في الرواية الأخيرة[٢] ومُجمَل مفاد تلك الروايات هو: أنّ الرّسول الأعظم ﷺ لمّا أمرَ المسلمين بجَمع الزّكاة والإنفاق من مُنتجات النّخل أتى بعضهم إلى النبيّ ﷺ بتمور من أنواع رديئة وغير مرغوبة بدلاً من الإنفاق من تمورهم الجيّدة، فنهاهم الرسول ﷺ عن تقديم الأنواع الرديئة من التمور بقصد الإنفاق وفي ذلك نزلت الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث.

ومهما يكن من أمر فإنّ هذه الآية إلى جانب الروايات المذكورة تشير بمجموعها إلى النقاط التالية:

١. يجب أن يكون الإنفاق من المال الطيّب الطاهر.

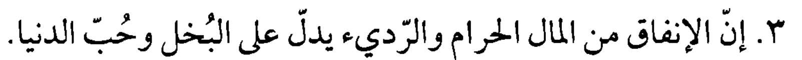
٢. ينبغي المحافظة على شخصيّة المحتاج وكرامته.

---

١. **تفسير العياشي**، ج١، ص١٤٨ ـ ١٤٩. وورد الحديث في (بحار الأنوار) عن تفسير العياشي بصيغة أخرى هي: «عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام **﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾**، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَمَرَ بِالنَّخْلِ أَنْ يُزَكَّى يَجِيءُ قَوْمٌ بِأَلْوَانٍ مِنَ التَّمْرِ هُوَ مِنْ أَرْدَإِ التَّمْرِ يُؤَدُّونَهُ عَنْ زَكَاتِهِمْ يُقَالُ لَهُ الْجُعْرُورُ وَالْمِعَى فَأْرَةٍ قَلِيلَةُ اللِّحَاءِ عَظِيمَةُ النَّوَى فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَجِيءُ بِهَا عَنِ التَّمْرِ الْجَيِّدِ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لَا تَخْرُصُوا هَاتَيْنِ وَلَا تَجِيئُوا مِنْهَا بِشَيْءٍ. وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللهُ **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ﴾** إِلَى قَوْلِهِ **﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾** وَالْإِغْمَاضُ أَنْ يَأْخُذَ هَاتَيْنِ التَّمْرَتَيْنِ مِنَ التَّمْرِ وَقَالَ: لَا يَصِلُ إِلَى الله صَدَقَةٌ مِنْ كَسْبٍ حَرَامٍ». و«عَنْ رِفَاعَةَ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فِي قَوْلِ الله **﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾** فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ بَعَثَ عَبْدَ الله بْنَ رَوَاحَةَ فَقَالَ: لَا تَخْرُصُوا جُعْرُوراً وَلَا مِعَى فَأْرَةٍ، وَكَانَ أُنَاسٌ يَجِيئُونَ بِتَمْرٍ سَوْءٍ فَأَنْزَلَ اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ **﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾**، وَذَكَرَ أَنَّ عَبْدَ الله خَرَصَ عَلَيْهِمْ تَمْرَ سَوْءٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا عَبْدَ الله لَا تَخْرُصْ جُعْرُوراً وَلَا مِعَى فَأْرَةٍ». (**بحار الأنوار**، ج٩٣، ص٤٦).[المترجم]

٢. المصدر السابق، ح٤٨٨ و٤٩٠ ـ ٤٩١ و٤٩٣.





٣. إنّ الإنفاق من المال الحرام والرّديء يدلّ على البُخل وحُبّ الدنيا.

٤. لا يجوز الإنفاق والبَذل من المال المُحَصّل بالرّبا المحرّم.

٥. لا تُقبَل الصّدقة إذا كانت من المال الحرام.

وتجدر الإشارة إلى أنّ المُفسّرين ذكروا شأنيْن لنزول الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث:

أ) الإنفاق من المال الرّبويّ

ب) الإنفاق من الأموال الرديئة وغير المرغوبة

ولا فَرق بين أيّ واحدٍ من ذينك الشأنيْن ـ كما هو واضح ـ فقد نُهِيَ عن كليهما.

ويكمن خُبث المال الحرام في قذارته المعنوية كالرّبا، وخُبث المال الرديء محسوس وعاديّ، وكلاهما مشمولان بمضمون الروايات المذكورة كما أشرنا في بحثنا التفسيريّ.

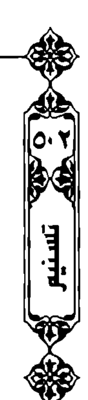
* * *

ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾

خلاصة التفسير

يقول الله ﷻ: يسعى الشيطان الرّجيم إلى الحيلولة دون إنفاقكم أصلاً وذلك بتخويفكم من مغبّة الفقر وتدهور الأوضاع المالية لكم، فإذا فشل في إقناعكم في الامتناع عن الإنفاق حينئذ يلجأ إلى الإيحاء لكم بإنفاق أردأ ما تملكون من المال وعدم إنفاق المال الطيّب الطاهر والحلال، فهذا دَيدَن الشيطان اللعين الذي لا يَفتأ يأمركم ويُغريكم بفعل كلّ ما هو قبيح. وفي مقابل ذلك فإنّ الله ﷻ يَعِد الناس بالمغفرة والحَسنة وفضلاً كبيراً من لدنه سبحانه ويرغّبهم في الإنفاق من مالهم الحلال.

نعم، فالله تعالى أعلم بمَن يستحقّ وَعد الخير وهو (جَلّ شأنه) قادر على تنفيذ وعوده كلّها لأنّه واسع كريم وهو المُتفضّل بالمغفرة على مخلوقاته، وهو العليم كذلك بكلّ الأمور الخاصّة بالإنفاق.

التفسير

المُفردات[1]

يَعِدُكُمُ: وَعَدْتُ الرّجلَ ووعَدتهُ خَيراً أو شَرّاً، و(الوَعْد) هو إشارة إلى إحكام التعهّد، وورد كلا مَعنيي الكلمة في القرآن الكريم، ففي الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث جاء الفعل (وَعَدَ) بمعنى المغفرة وفي قوله تعالى: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2] استُعمِلَ الفعل (وَعَدَ) للعذاب.

ويستخدم أهل العُرف الاسم (وَعْدٌ) في الخير و(الوَعيد) في تصوير الشرّ[3]، واستناداً إلى الاستخدام التقليديّ فإنّ عبارة (الوَعْد بالفقر) تُفيد التهكّم والاستهزاء مثل استخدام كلمة (البشارة) التي تعني مُطلق الخَبَر الذي يترك أثراً في وَجه السّامِع وبَشَرته، سواء أكان الخَبر مُفرحاً له أم مُحزِناً، إلّا أنّه غلب

---

١ . لمزيد من المعلومات حول كلمة «فَضلاً» أنظر تفسير تسنيم، ج١٠، ص١٢٢، ذيل تفسير الآية الشريفة (١٩٨) من سورة البقرة.

٢ . سورة الحجّ، الآية ٧٢.

٣ . قال أبو هلال العسكريّ: «الفَرْق بين العَهْد والوَعْد: أنّ العهد ما كان من الوَعد مقروناً بشرط نحو قولك: إن فعلتَ كذا فعلتُ كذا، وما دمتَ على ذلك فأنا عليه. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه/ ١١٥] أي أعلمناه أنّك لا تخرج من الجنّة ما لم تأكل من هذه الشّجرة. والعَهْد يَقتضي الوفاء والوَعد يقتضي الإنجاز؛ ويُقال: نقضَ العَهدَ وأخلَفَ الوَعْد». (معجم الفروق اللغويّة)؛ «وَعَدهُ الأمرَ وبالأمرِ، يَعِدهُ عِدَةً وَعْداً ومَوْعِداً ومَوْعِدَةً ومَوْعوداً ومَوعُودَةً: قال لَه إنّه يُجريه لَهُ أو يُنيلهُ إيّاه؛ ويُقال: وَعَدْتُ الرّجلَ ووعدتُه خيراً أو شَرّاً... كلام العرب وعدتُ الرّجلَ خيراً ووعدتُه شَرّاً وأوْعَدتُه خيراً وأوْعَدتُه شَرّاً، فإذا لم يذكروا الخَير قالوا: وعدتُه، وإذا لم يذكروا الشرّ قالوا: أوعدتُه، ولم يُسقطوا الألف... وإذا أدخلوا الباء لم يكن إلّا في الشرّ كقولك: أوعدتُه بالضّرب، وقالوا في الخير: وَعدهُ وَعْداً وعِدَةً، وفي الشرّ: وَعَده وَعِيْداً، فالمَصدر فارقٌ. والخُلف في الوَعد عن العرب كذبٌ، وفي الوعيد كَرَمٌ... [و] أوعَدَهُ إيعاداً: وَعَدهُ وتَهَدّدَهُ؛ يُقال: أوعَدَني بالسّجن، أي هَدّدَني». (معجم النفائس الكبير، بإشراف أحمد أبو حاقة، ص٢٢٢٧ ـ ٢٢٢٨، مادّة «وعد» ـ بتصرّف). [المترجم]



استعمال (البشارة) للأخبار السعيدة. ووفقاً للاستعمال التقليديّ أيضاً فإنّ بشارة المُشركين والكافرين بالعذاب الأليم هي من باب التهكّم والاستهزاء بهم: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].[2]

الْفَقْرَ: الأصل الواحد في هذه المادّة هو الضّعف الموجب للاحتياج وهو في قِبال (الغِنى) فإنّ الغِنى هو قوّة ترفع الاحتياج[3].

ومنهم مَن قال إنّ أصل (الفقر) يدلُّ على انفراجٍ في شيء من عضوٍ أو غير ذلك مثل: الفَقَار للظَّهر، سُمِّيت للحُزُوز والفُصول التي بينها، وإنّ الفقير هو المكسور فَقَارِ الظَّهر. وقال أهل اللُّغة: ومنه اشتُقَّ اسمُ الفقير وكأنه مكسورُ فَقَار الظَّهر من ذِلَّتِهِ ومَسْكَنَتِه[4].

ويُذكَر أنّ من بين الأحداث المريرة التي تكسر ظهر الإنسان هي (الفاقِرَة) كما في قوله ﷻ: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[5].

الْفَحْشَاءِ: «الفَحْشاء» الفاحشة وكلّ عَمل قبيح ومنها اشتُقّ البُخل في أداء الزّكاة والإمساك عن إنفاق المال الطيّب، والعرب تُسمّي البَخيل جدّاً بالفاحِش

---

١ . **سورة آل عمران**، الآية ٢١. راجع: **تفسير تسنيم**، ج١١، ص٤١٥، ذيل الآية (٢٣٥) من سورة البقرة.

٢ . «بَشَرَ به (من باب ضَرَبَ يَضْرِبُ) وبَشِرَ (من باب عَلِمَ يَعْلَمُ): سُرَّ به واستَبْشَرَ... بَشَرَني فُلانٌ بِوَجْهٍ حَسَنٍ، أي: لَقِيَني وهو حَسَن البِشْر طَلْق الوَجْه. أبْشَرَ فُلاناً: بمعنى بَشَّرَهُ تَبْشيراً وأبْشَرَ الأمرُ وَجههُ: حَسَّنَهُ ونَضَّرَهُ... وأبْشَرَ: فَرِحَ، ومنه قوله تعالى: **﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾** [فصلت/ ٣٠]،... والبَشارَةُ، بالفَتح، الجَمال والحُسن... والبُشارَةُ، بالضمّ، اسم ما يُعطاه البَشيرُ... والبِشارَةُ، بالكَسر، الخَبَرُ يُؤثِّرُ في البَشَرة تَغيّراً، وهذا يكون للحُزن أيضاً لكن غَلبَ استعماله في ما يُفرِح». (**معجم النفائس الكبير**، بإشراف أحمد أبو حاقة، ص١٠٥ ـ ١٠٦، مادّة «بشر» ـ بتصرّف). [المترجم]

٣ . العلّامة المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٩، ص١١٨، مادّة «ف ق ر» بتصرف.

٤ . **معجم مقاييس اللغة**، ج٤، ص٤٤٣، مادّة (ف ق ر) ـ بتصرف.

٥ . **سورة القيامة**، الآية ٢٥.

لأنّ صفة الجود والكَرم تُعتبر خصلة متأصّلة في ثقافتهم والبُخل نقيض هذه الصفة والفضيلة الأخلاقية إلى الحدّ الذي سمّوا عنده البُخل بالفحشاء، وقد مضى بنا شيء من التفصيل حول معنى (الفحشاء) عند تفسير الآية الشريفة (١٦٩) من سورة البقرة.

تذكير: لمّا كان الشيطان عدوّاً لدوداً للإنسان وأبرز مصاديق عداوته يتمثّل في دعوته الإنسان وأمره إيّاه إلى معصية الله ﷻ فإنّ المعنى العامّ للفاحشة هو أنّها وسوسة من وساوس إبليس اللعين، ثمّ إنّ هداية الله سبحانه تقتضي تحذير الإنسان في كلّ حين ووقت من السّير على خطى الشيطان الرّجيم ومُعالجة داء الوسوسة.

تناسب الآيات

قال العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ ﵀: «فحاصل حجّة الآية: أنّ اختياركم الخبيث على الطيّب إنّما هو لخوف الفقر، والجهل بما يَستتبعه هذا الإنفاق، أمّا خوف الفقر فهو إلقاء شيطانيّ ولا يُريد الشيطان بكم إلّا الضّلال والفَحشاء، فلا يجوز أن تَتّبعوه؛ وأمّا ما يَستَتبعه هذا الإنفاق فهو الزّيادة والمغفرة اللّتان ذُكرتا لكم في الآيات السابقة، وهو استتباع بالحقّ لأنّ الذي يَعِدكم استتباع الإنفاق لهذه المغفرة والزيادة هو الله سبحانه ووعده حقّ، وهو واسع يَسعه أن يُعطي ما وعده من المغفرة والزيادة وعليم لا يَجهل شيئاً ولا حالاً من شيء، فوعده وَعدٌ عن علم»[1].

* * *

---

١ . تفسير الميزان، ج٢، ص٣٩٤.



وعود الشيطان وإغراءاته

يبذل الشيطان الرّجيم أقصى جهوده للنّيْل من الإنسان وإيقاعه في شتّى الأمراض والبلايا ومنها المشاكل المالية التي تُمثّل أخصب تُربة بالنسبة إليه لزرع بذوره الخبيثة، فمن خلال إغراء الشخص بالجَري وراء الأُمنيات البعيدة والمُعقّدة وعَبر تجسيم مخاطر الفَقر لذلك الشخص وتهويل نتائجه يحاول الشيطان الرّجيم إخافته من العَوَز والحاجة في المستقبل؛ ثمّ يسعى إلى إغواء الشخص الذي يستمع إلى وساوسه ويصغي إلى إغراءاته لاحتراف مهنة البُخل وترك الإنفاق موهِماً إيّاه أنّ ذلك سيُنجيه من المخاطر الخيالية التي أدخلها في عقله، مع أنّ الحقيقة تشير إلى أنّ الإنسان بخيل بطبعه ويمتلك نفساً ضعيفة تُمكّن الشيطان الرّجيم من إبقائه في حالة الفقر والضيق وإغرائه بالبُخل: ﴿**وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ**﴾[1].

هذا، وتُمثّل وُعود الشيطان الرّجيم للإنسان وإغراءاته المراحل العملية لأسر هذا الأخير، وقد بيّن القرآن الكريم ـ باعتباره المعيار الأمثل للتمييز بين وساوس الشيطان والإلهام الإلهيّ ـ المراحل التي يقطعها الشيطان للإيقاع بالإنسان في حبائله، في محاولة لتحذيره من ابتلاع الطّعم الشيطانيّ وحرمان نفسه من فيض الإنفاق الذي أمره الله به وتجنّب صفة البُخل الخبيثة.

تذكير: إنّ صِفَتَيْ السّوء والفحشاء (اللتيْن تمّ شرحهما عند تفسير الآية «١٦٩» من سورة البقرة) وصِفَتَيْ الفَحشاء والمُنكر (المُبيّنَتَيْن في ذيل تفسير الآية «٢١» من نفس السورة) هي من ضمن الأوامر الشيطانية، أمّا التّخويف بالفقر وإيجاد الرّعب في قلب الإنسان الضعيف من المستقبل الغامض الذي يصوّره له

---

١ . سورة محمّد ﷺ، الآية ٣٨.



الشيطان فهما من إغراءات ووساوس يُمليها الشيطان الرّجيم على أتباعه وليست أوامر.

الوعود الشيطانية الكاذبة

لم يَكتفِ الشيطان الرّجيم بإبداء عَدائه السافر الذي يكنّه للإنسان مُذ خَلقه الله سبحانه وفضّله عليه، بل راح يُغرق الإنسان بوعوده الكاذبة وتهديداته الفارغة وذلك لجَهله للكثير من العلوم والمعارف وعدم اطّلاعه الكامل بشؤون القضاء والقَدَر وغفلته عن حقيقة المَحو والإثبات[١]. والطريف أنّ الشيطان الرّجيم نفسه يعترف يوم المَحشر بأنّ كلّ ما قدّمه من وُعود وعُروض إنّما كانت وعوداً كاذبة وعُروضاً خيالية لا أساس لها من الصحّة: **﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾**[٢].

وخلاصة القول هي أنّ الشيطان الرّجيم لا يختلف عن الظالمين الآخرين الذين يسعون إلى إغراء الناس وخداعهم حيث يدور محور وعودهم وتعاملهم حول المَكر والغُرور والغِشّ: **﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾**[٣]. وكنّا قد أشرنا من قَبل إلى أنّ تهديد الشخص بالفقر إذا أنفق وبَذل مالَه يتضمّن وَعداً واهياً بالغِنى في حال بَخِلَ ذلك الشخص وأمسك عن الإنفاق، وبذلك يتّضح لنا أنّ ظاهر التهديد والوعيد وباطن الوَعد والتغرير كَذب وخيال محض وهباءٌ منثور وهو ما ستتبيّن ملامحه بوضوح يوم القيامة.

---

١ . إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. (سورة الرّعد، الآية ٣٩). [المترجم]

٢ . سورة إبراهيم عليه السلام، الآية ٢٢.

٣ . سورة فاطر، الآية ٤٠.

البُخل مصداق الفَحشاء

لا جَرَم أنّ البُخل هو أبرز مثال للفحشاء: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ لأنّه يُمثّل السّبب الرئيسيّ في دفع الإنسان إلى الإعراض عن اتّباع أوامر الله سبحانه فيما يتعلّق بالأموال والإنفاق، فضلاً عن الآثار السيّئة والعواقب الوخيمة التي يُخلّفها البُخل في المُجتمع.

ومعنى هذا هو أنّ الوعود الكاذبة والتهديدات الواهية التي يفتعلها الشيطان الرّجيم تنقسم إلى دَركات متعدّدة تنضوي جميعها تحت لواء (الفَحشاء)، فقد يعمد الشيطان الرّجيم أحياناً إلى تطميع أتباعه لإطلاق أيديهم في التعامل مع المال الحرام، فإذا استيأس من حيلته هذه جنح إلى إغرائهم بغَلّ أيديهم إلى أعناقهم والإحجام عن تأدية المال الواجب والإنفاق منه بحسب ما أمر الله به كالصّدقة والزّكاة، فإذا أحسّ بالقنوط من هذا التدبير كذلك، أقنعهم بعدم الإنفاق من أموالهم الطيّبة ووسوس لهم البَذل ما شاءوا من الأموال الخبيثة المحرّمة. وكما قلنا فإنّ التحليل الاقتصادي الذي يعتمده الشيطان الرّجيم في كلّ تلك الدّركات المُهلِكة هو تحليل يستند إلى المُغالطة والوهم أساسه التهديد بالفَقر وقوامه التخويف من العَوز، لكنّ القرآن الكريم انبرى إلى فَضح ذلك التحليل الخاطئ وكشف مساوئه على رؤوس الأشهاد.

بيان الوعد الإلهيّ

وعدَ الله ﷻ المُنفقين بالمغفرة والفضل الإلهيّ الكبير قائلاً: ﴿وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ لكي يعلموا أنّ إنفاقهم لن يتسبّب في فقرهم ولن يؤدّي إلى عَوزهم ـ كما صوّر لهم الشيطان ذلك ـ بل يحمل لهم البشارة بحصولهم على أجريْن في آن واحد.



فوعود الله سبحانه وتعالى للمُنفقين الصالحين ليست وعوداً باللّفظ فقط ـ حاشا له ـ بل متحقّقة بالفعل في إطار إلهامهم فعل الخَيرات بينما لا تعدو وعود الشيطان الرّجيم عن كونها مجرّدة وساوس يُلقيها في نفوس الضّعفاء من الناس: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾[1]؛ إذاً، فإنّ وعود الله ﷻ هي إلهامات بالخير الجزيل والنِّعَم الكثيرة وذلك للأسباب التالية:

١. لا شكّ في أنّ النيّة على فعل الخير ليست أمراً طارئاً أو عَرَضيّاً وذلك لاستحالة وجود مثل هذه الأمور في نظام الخلقة، بل ما مِن موجود وُجِدَ من دون المبدأ الفاعليّ.

٢. ليس بمقدور الإنسان نفسه أن يوجِد النيّة الحَسنة لأنّه يُمثّل المبدأ القابليّ والمُستَقبِل وليس المبدأ الفاعليّ الأصيل، حتى لو اعتُبِرَ مبدأً فاعلياً فهو مجرّد مبدأ فاعليّ قريب ومباشر لا يقوم بشيء إلّا بتسبيب من المبدأ الفاعليّ الأصيل.

٣. من المعلوم أنّ النيّة الصالحة لا تتمّ بأيّة صِلة مع كلّ ما هو شيطانيّ لأنّ أفعال الشيطان كلّها شريرة.

ونستنتج من ذلك أنّ النيّات الصالحة لا تأتي إلّا من عند الله سبحانه وحده، بل إنّ كلّ ما يخطر في قلب الإنسان من خَير وصلاح صادر عن الله ﷻ وكلامه وتعاليمه الحقّة ولهذا ينبغي الإصغاء لها والعمل بموجبها.

لقد وعد الله سبحانه عبادَه في هذه الآية الشريفة بفضل كبير منه وأنّه سيَهِب المُنفِق أجراً معنويّاً وبركات دنيويّة تفوق ما أنفقه من مال لأنّ أصل مَنح النّعمة يقوم على أساس الفضل الإلهيّ وإلّا فالإنسان نفسه لا يملك شيئاً من ذاته على الإطلاق ليستحقّ عليه الأجر ويُطالب به الله ﷻ.

---

١. سورة الناس، الآية ٥.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الله الحقّ لن يُخلف وعوده ومنها وعده بالمغفرة والفضل الكبيرين لأنّ الخُلف بالوَعد يتناقض مع حكمته سبحانه، ومَن أوفى من الله العزيز وَعداً: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾[1]. ورغم أنّ الآيات السابقة لَم تَخلُ من الوعود التي قطعها الله تعالى على نفسه في قِبال إنفاق المؤمنين وإثابتهم على بَذلهم المال في سبيله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[2] إلّا أنّ الله سبحانه أراد التأكيد في هذه الآية على ما وَعد من قَبل والزيادة في الأجر والثواب والمغفرة والفضل الإلهيّ بإضافة ﴿مِنْه﴾ والتشديد على أنّ هذا الوعد إنّما هو وَعد الله الحقّ الصّادق في وعوده وعهوده: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾[3] وهو المالِك لخزائن السموات والأرض كلّها: ﴿وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[4] لطمأنة الإنسان وتشجيعه على الإنفاق وفق ما أقَرّه الله ﷻ.

«الفَقْر» في مقابل «المغفرة»

تهدف عداوة الشيطان الرّجيم للإنسان في الأساس إلى حرمانه من المغفرة الإلهية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ليقوده في النهاية إلى نار جهنّم ويهدأ عندها باله؛ هذا من ناحية، أمّا من الناحية الأخرى فإبليس اللعين يعلم جيّداً أنّ الله سبحانه قد وعد عباده بالمغفرة ويعلم كذلك أنّ الله الغفور الرّحيم قد يعفو عن الذنوب الصّغار سواء بتوبة العَبد وإنابته أم بدونها أحياناً، ولذلك فهو يُدرك مدى خيبته ومقدار قنوطه في اعتماده على وسائله وحِيَله الوحيدة وهي الوسوسة والتضليل والإغواء وما شابه ذلك وأنّها وسائل لا طَليل ولا تُغني من اللّهب،

---

١ . سورة التوبة، الآية ١١١.

٢ . سورة البقرة، الآية ٢٦٢.

٣ . سورة النساء، الآية ١٢٢.

٤ . سورة المنافقون، الآية ٧.



ولهذا فقد حشد قُواه وجَنّد جُنده لإيقاع البشر في معصية لا تُغتَفر وذَنب لا يمكن التجاوز عن مُرتَكِبه ألا وهو الشّرك ـ والعياذ بالله ـ وهو يدري أنّ الله سبحانه هو القائل: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[1]. وللشّرك دَرَكات مهولة ومنازل مخيفة، لكنّ هَدف إبليس اللعين ومنتهى أمَله هو أن يُقذَف بالمُذنبين والمشركين إلى قعر جهنّم وآخر دَرَك من أدراك النار حيث لا نجاة من ذلك ولا شيء يُشعر الهالِك ولو ببَصيص من الأمل. وتتجلّى نيّة السوء هذه في كلّ دسائس الشيطان الرجيم ووساوسه اللعينة إذ إنّ كلّ ذَنب أو معصية تمكن أن تكون ذات مبدأ كلاميّ فضلاً عن العواقب الفقهية والحقوقية المترتّبة على ذلك.

لكنّ ما يُثير ضغينة الشيطان الرّجيم الكامنة في أعماقه القَذرة أكثر من غيره هو المقابلة بين كلّ فعلٍ من (المَغفرة) و(الفَقر) وليست المقابلة بين الغِنى والفَقر، فبينما يقوم إبليس اللعين بتهديد الإنسان بالفَقر فإنّ الله الرّحمن الرّحيم يَعد الناس بالمغفرة والعفو، وللفَقر الذي يُوسوس به الشيطان الرّجيم جذور كلامية، أي إنّ الشيطان يوحي للإنسان أنّه هو الذي يرزقه ويُغنيه وأنّه هو المُمسِك بزِمام الفَقر والغِنى وبالتالي فإنّ هلاك الإنسان وسقوطه في الهاوية أو صعوده إلى قمّة المَجد بيَده هو، ولا شكّ في التغييرات الكبيرة والتحوّلات الخطيرة التي تُحدثها مثل هذه الحِيَل والإغراءات في أعماق الإنسان، ومع ذلك فإنّ الشطر الأخير من الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث يتناول كذلك مسألة الفضل الإلهيّ لكن يبقى التقابل بين الفَقر والمغفرة العنصر الأساسيّ لموضوع الآية وهو من ضمن الأسرار التي تحدّث عنها أهل المعرفة[2].

---

١ . سورة النساء، الآية ٤٨.

٢ . قال ابن عربي: «والمغفرة هي السّتر الذي يجعله الله بين المؤمن العاصي وبين الكفر الذي يرديه عند وقوع المعصية فيعتقد أنّها معصية ولا يُبيح ما حرّم الله وذلك من بركة ذلك السّتر. ثُمّ ثَمّ
←



ختم الآية بالاسميْن الأحسنَين «واسِع» و«عَليم»

إنّ تهديد إبليس للإنسان بالفَقر تُصاحبه نصيحة كاذبة من الأوّل إلى الثاني بضرورة الاتّصاف بالبُخل والإمساك لكي يحصل على الغِنى، أي خِداع إبليس للإنسان وإيهامه بأنّ الإنفاق هو سبب رئيسيّ للعَوَز وأنّ الإمساك هو رَمز قوّته وثراءه ورفاهِيَتِه؛ وأمّا السبب في خَتم الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث بالاسميْن الأحسَنَيِن ﴿واسِعٌ عَليم﴾ فهو لطَرد التصوّر المغلوط الذي يوهِمُ به الشيطان الرّجيم أتباعه، وهذا يعني أوّلاً أنّ الله سبحانه هو الوحيد العالِم بمثل

مغفرة أخرى وهو ستر خلف سترين، ستر عليه في الدّنيا لم يمض فيه حدّ الله المشروع في تلك المعصية، وإن ستر عليه في الآخرة لم يُعاقبه عليها؛ فالستر الأوّل محقق في الوقت، والثاني لطائفة لا تضرّهم الذنوب التي وقعت منهم فلا تمسّهم النار بها تابَ الله عليهم واستغفار الملأ الأعلى لهم فقال تعالى: ﴿وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ لِما وقع منكم من الفحشاء التي أمركم بها الشيطان و﴿فَضْلاً﴾ فجعل فَضله في مقابلة ما وعد به الشيطان من الفقر الذي هو به مأمور... فأراحَ الله المؤمن حيث ناب عنه الحقّ سبحانه في مدافعة ما أراد الشيطان إمضاءه في المؤمن، فدفع الله عن عبده المؤمن وعداً إلهيّاً دفع به وعداً شيطانياً، والله لا يُقاوَم ولا يُغالَب، فالمغفرة متحقّقة والفضل متحقّق، وباءَ الشيطان بالخُسران المُبين. ولهذه الحقيقة أمرنا الله أن نتّخذه وكيلاً في أمورنا فيكون الحقّ هو الذي يتولّى بنَفسه دفع مضارّ هذه الأمور عن المؤمنين. وما غرض الشيطان المعصية لعينها وإنّما غَرضه أن يعتاد العبد طاعة الشيطان فيستدرجه حتى يأمره بالشرك الذي فيه شقاوة الأبد، وهذه الآية أعظم آية وأشدّها مرّت على سَمع إبليس، فإنّه علم أنّه لا ينفعه إغواؤه ولهذا لا يحرص إلّا على الشرك خاصّة، لكونه سمع الحقّ يقول: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ وتخيّل أنّ العقوبة على الشرك لا ينتهي أمدها، والله ما قال ذلك، فلا بدّ من عقوبة المُشرك ومن سُكناه جهنّم، فإنّه ليس بخارج من النّار، فهو مؤبّد السّكن... فصدق الله بكون المُشرك مأخوذاً بشِركه فهو بمنزلة إقامة الحدّ على مَن تعيّن عليه، سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة، فهي حدود إلهيّة يقيمها الحقّ على عَبده إذا لم يغفر له أسبابها، وجهل إبليس انتهاء مدّة عقوبة المُشرك من أجل شِركه... فدخل إبليس تحت وعد الحقّ بالمغفرة فزاده طمعاً وإن كانت دار النّار مَسكنه». (تفسير رحمة من الرحمن، ج١، ص٣٩٣). [المترجم]



هذه المعارف وهو العليم بها، فمَن كان لا يعلم شيئاً لا عن نفسه هو ولا عن الآخرين ولا كان عارفاً بالماضي ولا بالمستقبل، فلا قيمة لوعوده وتهديداته أبداً. وثانياً، لا شكّ في أنّ قدرة الإيفاء بالوَعد والوَعيد على حدّ سواء ليست سوى بيَد الله الواسع الفضل لا بيَد غيره، وهذا خَير دليل على أنّ إبليس اللعين لا قُدرة له على الإيفاء بوَعده أو تنفيذ تهديداته ووعيده، لكنّ الله سبحانه وتعالى الذي وَعد عباده بالمغفرة والفضل قادر على تنفيذ ذلك وهو أعلَم بمَن يستحقّ غفرانه وفَضله والقَدر اللازم منهما لكلّ واحد من مخلوقاته: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[1].

هذا، وقد أشارَ القرآن الكريم إلى وَعد الشيطان الرّجيم وأوامره ووساوسه، لكنّه أحجم عن تفصيل ذلك أو الخوض فيه، بل ساق الحديث عن وَعد الله ﷻ بالمغفرة والفضل باعتبار أنّ الآية مُخصّصة لبيان رحمة الله لا وعود الشيطان الكاذبة أو ألاعيبه.

إنّ الله ﷻ واسع وقادر على مَنح المغفرة والفضل مهما كانت درجتهما ومقدارهما، وهو الوحيد الذي يستطيع تقديم الوعود النافذة وهو الوحيد كذلك الجدير بالإيفاء بتلك الوعود. والله تعالى هو العليم بمَن يُنفق ماله الطيّب والحلال ويتصدّق على الآخرين دون مَنّ أو أذى أو رياء للحصول على مرضاته وتثبيت نفسه ليشمله بمغفرته وفضله ﷻ: ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وما أجمل هذا الكلام الذي يُشجّع الإنسان على الإنفاق وتأمّل وَعد الله الحقّ وعدم الإصغاء إلى وساوس الشيطان الرّجيم أو الاعتماد على وعوده الكاذبة لأنّه ببساطة جاهل وعاجز. وأمّا ذِكر لفظ الجلالة ﴿الله﴾ بدلاً من الاستعاضة بالضمير «هُو» رغم أنّه كان سيَفي بالغَرض، فلتأثيره البالغ في نفوس المؤمنين المُخاطبين.

---

١ . سورة الرّعد، الآية ٨.

بحث روائيّ

١ . إلهام الرّحمن ووسوسة الشيطان

«وأمّا قوله: ﴿الشَّيطانُ يَعِدُكُمُ الفَقرَ ويَأمُرُكُم بِالفَحْشاءِ﴾، فإنّ الشّيطان يقول: لا تُنفق فإنّك تَفْتَقر. ﴿واللهُ يَعِدُكُم مَغفِرَةً مِنهُ وفَضلا﴾ أي يَغفر لكم إن أنفَقتم لله، ﴿وفَضلا﴾ قال: يُخلف عَليكم»[1].

ـ عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لَلشّيطان لَمّةً[2] بِابْنِ آدَمَ ولِلْمَلَك لَمّة؛ فأمّا لَمّة الشّيطان فإيعاد بِالشرّ وتَكذيب بِالحَقّ، وأمّا لَمّة المَلَك فإيعاد بِالخَيْر وَتَصدِيق بِالحَقّ؛ فَمَن وَجَدَ ذلكَ فَلْيَعلَم أنّه مِنَ الله فَلْيَحمد الله، وَمَن وَجَدَ الأخرى فَلْيَتَعوّذ بِالله مِنَ الشّيطانِ. ثمّ قَرَأ: ﴿الشّيطانُ يَعِدُكُمُ الفَقرَ ويَأمُرُكُم بِالفَحْشاءِ﴾»[3].

ـ عَن أبي عبد الرّحمن، قال: قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: إنّي ربّما حَزنتُ فلا أعرف في أهل ولا مال ولا ولد، وربّما فَرحت فلا أعرف في أهل ولا مال ولا ولد؟ فقال: «إنّه لَيس مِن أحدٍ إلّا وَمَعهُ مَلَك وشيطان؛ فإذا كان فَرحه كان مِن دُنوّ المَلَك مِنه، فإذا كانَ حزنه كان مِن دُنوّ الشّيطان منه وذلك قول الله تعالى: ﴿الشَّيطانُ يَعِدُكُمُ الفَقرَ ويَأمُرُكُم بِالفَحشاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَغفِرَةً مِنهُ وفَضلًا واللهُ واسِعٌ عَلِيم﴾»[4].

---

١ . **تفسير القمي**، ج١، ص٩٢.

٢ . الهَمّة والخَطْرَة تقع في القلب. (معجم النّفائس الكبير، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد أبو حاقة، مادّة «ل م م»). [المترجم]

٣ . **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٥٨؛ تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص٦٥.

٤ . الشيخ الصّدوق، **عِلل الشرايع**، ج١، ص١١٥ ـ ١١٦؛ **تفسير كنز الدقائق**، ج١، ص٦٥٢.

إشارة: إنّ حالة الفَرح والسعادة التـي تعـتري الإنـسان أحيانـاً دون سَـبب واضح أو عِلّة معلومة أو ظهور رغبة في داخله تحثّه عـلى عمـل الخَـير وتـصديق أوامر الله سبحانه، هي في الحقيقة نوع من الإلهام الإلهيّ واقتراب المَلَك منـه، وفي مثل هذه الحالات على الشخص أن يشكر الله ﷻ ويحمده على فضله. وفي مقابل ذلك فقد يُصاب الإنسان في أحيان أخرى بنوع من الهَمّ أو الحُزن الـذي لا مُـبرّر له فيدفعه ذلك إلى التفكير بالشرّ أو التصرّف وفقاً له وتكذيب أوامر الحقّ (جـلّ شأنه) وهذا لا جَرَم من وساوس الشيطان وخَطراته التي ينفثها في قلب الإنسان وعلى هذا الأخير أن يستعيذ بالله ﷻ من وساوس إبليس اللعـين والتوكّـل عـلى الحقّ سبحانه. هذا هو بالـضبط المعنـى الـذي تحملـه الآيـة الـشريفة الّتـي هـي موضوع البحث وقد ورد شرح ذلك وتفصيله في العديد من الروايات[1].

٢. المتاجرة بالصّدقة

قال عليّ عليه السلام: «**إذا أَمْلَقْتُم فتَاجِرُوا اللهَ بِالصَّدَقَة**»[2].

إشارة: «الإملاق»[3] العَوَز والفقر والحاجة، والصّدقة هي أنجع علاج لهـذه الظاهرة المريرة عندما يقع الفرد في مصائد العَوز أو الخوف من حصول ذلك لأنّ الإنفاق في سبيل الله سبحانه وبقَصد التقرّب إليه يُمثّـل تجـارة ناجحـة وصـفقة رابِحة حيث يحصل المُنفِق على منافعها وأرباحها في هذه الدّنيا وكذلك في الآخرة

---

١. أنظر مثلاً: تفسير العياشي، ج١، ص١٥٠.

٢. نهج البلاغة، الحكمة رقم ٢٥٨.

٣. «الإملاق: إتلافُ المال حَتَّى يُحوِج؛ والقياس واحد، كأنّه تجرَّدَ عن المال؛ وانْمَلَقَ ساعدُ الرَّجـل: انسحَجَ مِن حَمْل الأحمال». (معجم مقاييس اللغة، مـادة «م ل ق»)؛ «أملَـقَ الرّجـلُ: أنفَـقَ مالَـه حتى افتقرَ، فهو مُمْلِق، وأصله من المَلْق وهو التليين لأنّ الفَقْـر يُـذلّ الإنـسانَ ويُلَيّنـه». (معجـم النّفائس الكبير، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد أبو حاقَة، مادّة «م ل ق»). [المترجم]



إذ يُستفاد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾[1] معنى جامعٌ يشمل العالَمَيْن [الدّنيا والآخرة] والدليل على الأرباح والمنافع التي تدرّها الصّدقة على مُنفِقها هو قول أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ يُعْطِ بِالْيَدِ الْقَصِيرَةِ يُعْطَ بِالْيَدِ الطَّوِيلَةِ»[2] ويمكن اعتبار هذا الحديث الشريف عُصارة قوله تعالى: ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[3].

لكنّ بركات المتاجرة مع الله عزّ وجلّ لا تَقف عند حدود الزيادة في المال والتوسّع في الأرباح والمنافع وحسب، بل إنّ الصّدقة تصون إيمان صاحبها وهو ما أشار إليه أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام بقوله: «سُوسُوا[4] إِيمَانَكُمْ بِالصَّدَقَةِ وحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ»[5].

ومن هنا نُدرك أنّ الفضل الذي وعد به الله عزّ وجلّ لا يقتصر على هذه الدنيا فقط بل ويشمل كذلك الأجر المعنويّ في الآخرة، كما أنّه لا ينحصر في زيادة أموال المُنفِق في هذه الدنيا بل يتضمّن الفضل الإلهيّ جميع البركات الدنيوية التي لا حدود لها.

* * *

---

١ . **سورة يوسف** عليه السلام، الآية ٨٨.

٢ . **نهج البلاغة**، الحكمة رقم ٢٣٢.

٣ . **سورة الأنعام**، الآية ١٦٠.

٤ . «ساسَ الدّوابَ (من باب نَصَرَ يَنْصُرُ) يسوسها سياسةً: قامَ عليها وراضها وأدّبها، وساسَ السلطانُ والوالي الرعيّةَ: تولّى أمرَها ودبّرها وأحسنَ النّظرَ إليها... وساسَ الأمرَ: قامَ به». (**معجم النّفائس الكبير**، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد أبو حاقّة، مادّة «س و س»). [المترجم]

٥ . **نهج البلاغة**، الحكمة رقم ١٤٦.

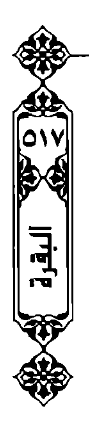
﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

خلاصة التفسير

الحكمة هي أعلى درجات الفضل والعطاء الإلهيّيْن وأغلى جائزة وأعظم أجر يُقدّمه الله ﷻ إلى المُنفقين الحقيقيّين من عباده، وهي هِبة لا تُعطى لأيّ شخصٍ كان بل اقتضت إرادته وحكمته تعالى مَنحها إلى مَن يستحقّها عن جدارة.

ولا غرابة في وصف الحكمة بالدرجة العُليا والأجر الأعظم فهي نعمة تحمي الإنسان من الأمراض العِلمية والعَملية، وهي [أي الحكمة] الخير الكثير كما وصفها الله سبحانه لأنّها باقية وخالدة لا تفنى ولا تزول على عكس الدنيا وما فيها فهي قليلة وفانية وزائلة.

ولا ريب في أنّ الحكمة هي ضالّة العاقل المتذكّر ورأس ماله الذي لا يُعَوَّض لأنّها درجة العقل الكاملة وهذه حقيقة لا يدركها ولا يتذكّرها إلّا العقلاء.



التفسير

المُفردات[1]

تناسب الآيات

تناولت الآية الشريفة السابقة وَعْد الله ﷻ بالمغفرة والفضل العظيم الذي يَهبه الله الواسع العليم إلى المُنفقين المؤمنين، أمّا هذه الآية الكريمة فتشير إلى واحدة من أعظم صُوَر المغفرة سمّاها العليّ القدير بالخير الكثير.

هذا، ويقتضي سياق الآيات التي وردت لتشجيع المؤمنين وترغيبهم في الإنفاق مُبيّنة لهم ثواب ذلك وأجره عند الله سبحانه، يقتضي اعتبار (الحكمة) أحد مصاديق العطاء والفضل الإلهيّ الممنوحة إلى الذين يُنفقون من أموالهم الطيبة، فجاءت صيغة الأمر بالإنفاق وبيان علل الإنفاق والعوامل التي تدفع المُنفق إلى فعل ذلك، ثمّ توضيح الأسباب المؤدية إلى التهرّب من الإنفاق والتملّص من دفع حقوق النّاس، وأمّا الوسائل والطّرق الصحيحة والسقيمة للإنفاق بالإضافة إلى مسألة دوام حالة الإنفاق واستمرارها وتحليل كلّ ما هو مؤثّر في كمال تلك العملية ونقصها، فقد تمّ بيان كلّ تلك التفاصيل بشكل حكيم وسَرد واضح لتعليم الحكمة.

* * *

الإنفاق والأجر الإلهيّ

يُمثّل إعطاء الحكمة ومَنحها مصداقاً من مصاديق الإنفاق الذي يقوم به الله ﷻ، فكلّ الأوامر والتعليمات التي مرّت بنا في الآيات السابقة تُعتبر نوعاً من

---

١ . لمزيد من المعلومات حول الفعل «يُؤتي»، راجع تفسير تسنيم، ج٢، ص٤٦٩ ـ ٤٧٠؛ وحول كلمة «الحكمة»، أنظر نفس المصدر، ج٧، ص٨٢ ـ ٨٣.



الإنفاق الإلهيّ، إلّا أنّ إيتاء الحكمة الذي يُعدّ إنفاقاً خاصّاً بالله سبحانه وحده هو أمر يفوق تعليم المسائل العادية، فإذا كان الآخرون يُنفقون من متاع هذه الدنيا وهو مصدرهم الوحيد فإنّ الله تعالى يُنفق ما يحقّ تسميته بالخير الكثير وهي الحكمة.

وأمّا الهدف من ذِكر (الحكمة) ضمن الآيات الخاصّة بالإنفاق فهو الإشارة إلى أنّها تُعتبر واحدة من الجوائز القيّمة التي سيمنحها الله سبحانه إلى المُنفقين في سبيله، وأنّه ما لَم يحظَ الشخص بالحكمة التي هي الخير الكثير فإنّه لا أمل في أن يُوَفَّق ذلك الشخص إلى نعمة الإنفاق؛ إذاً فالآية الّتي هي موضوع البحث هي النقطة الحاسمة في مسألة الإنفاق.

إنّ كلّ درجة من درجات الحكمة من شأنها أن تُهيّئ الظروف اللازمة لظهور الدرجة العُليا من الإنفاق، وكلّ مرتبة من مراتب الإنفاق تُعتبر قفزة باتّجاه درجة أعلى من درجات الحكمة، وفي ذلك يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**مَن عَمِلَ بِما يَعْلَم، عَلَّمَهُ الله ما لَم يَعْلَم**»[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الغرض من تقديم ﴿**الحِكْمَة**﴾ ـ رغم كونها مفعولاً ثانياً ـ على شِبه الجملة ﴿**مَن يَشاءُ**﴾ ـ وهي مفعول أوّل للفعل ﴿**يُؤْتِي**﴾ ـ هو بيان أهميّة (الحكمة) نفسها وموقعها المُتميّز.

«الإيتاء» الإلهيّ

ينقسم (الإيتاء) الإلهيّ إلى عدّة أقسام أو معانٍ أبرزها ما يلي:

١. «الإيتاء» بمعنى عرض الكتاب السماويّ بواسطة الأنبياء عليهم السلام على ملّة مُعيّنة أو أمّة بذاتها، وعليه يمكن القول عندئذ بأنّ تلك الأُمّة قد أُوتيت كتاباً

---

١. **بحار الأنوار**، ج٧٥، ص١٨٩.

سماويّاً كما في قوله (جلّ شأنه): ﴿... مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾[١].

٢. «الإيتاء» بمعنى إيصال شخص ما إلى مقام معرفة بعض العلوم بطريق القلب (أي الحضور) أو بواسطة العقل (عَبر الحصول): ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾[٢]، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾[٣].

وأمّا إيتاء الحكمة إلى الأنبياء عليهم السلام: ﴿... وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾[٤] فهو من نوع الإيتاء الشهوديّ، لكن بالطّبع الشهود المعصوم الذي يُسمّى بالوحي الإلهيّ وليس مُطلق العلم الحضوريّ الذي قد يتخلّله الخطأ في بعض الأحيان، ويكمن الخطأ في العلم الشهوديّ في تصوّر المثال المتّصل مُنفصلاً.

تذكير: يُعتبر كلًّا من الحكمة العِلمية والعَمليّة من جنس العِلْم لكنّ العقل العمليّ الذي هو من سنخ الفضيلة العملية لا العِلمية، يُعتبر هو الآخر نوعاً من الحكمة التي تُوهَب أحياناً إلى عباد الله الصالحين.

تقييد الحكمة بمشيئة الله ﷻ

لا شكّ في أنّ الله ﷻ العالِم بالسرائر والمُطّلع على النّجاوى[٥] والضمائر والعارف بأحوال القضاء والقَدر والخَبير بمصير المخلوقات ونهايتها تماماً كخبرته ببداياتها وظهورها، لا شكّ في أنّه تعالى لا يمنح أيّ مَنصب رَسميّ سيّما إذا كان مهمّاً كالنبوّة أو تبليغ رسالاته أو الإمامة بالنّص لأيّ شخصٍ كان وهو

---

١. سورة البقرة، الآية ١٠١.

٢. سورة العنكبوت، الآية ٤٩.

٣. سورة سبأ، الآية ٦.

٤. سورة البقرة، الآية ١٣٦.

٥. مُفردها: نَجوى، وهي المناجاة. [المترجم]



يعلم أنّ عاقبة هذا الشخص ليست محمودة: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[١]، ورغم ذلك فهو ﷻ قد يَهب بعض الآلاء والنِّعَم المعنوية ـ كالعلم والحكمة ـ إلى بعض الأفراد الذين تكون عاقبتهم السُّوأى وذلك لاختبارهم وامتحانهم، والواقع أنّ ما يُمنَح لمثل هؤلاء الأشخاص لا يمثّل مرحلة متقدّمة أو عالية من أسماء الله الحسنى كالاسم الأعظم أو ما شابهه، أي إنّ ما أحرزه أمثال بَلعم بن باعوراء[٢] ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[٣] أو السّامريّ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾[٤] لم يكن سوى بعض الآيات الوسطيّة أو الثانويّة لا الآيات النهائية، ولولا ذلك لَمَا انسلخ بلعَم ولَمَا سوّلت نَفس السّامريّ له فعل ما فعل؛ وأمّا متاع الدنيا فإنّ الله الرحمن الرّحيم يَهبه للبارّ والفاجر على حدّ سواء، ولولا الخشية من تزلزل عقيدة المؤمنين

---

١ . سورة الأنعام، الآية ١٤٢.

٢ . أو بلعام بن باعور: قال كعب: كان رجلاً مقيماً ببيت المقدس مع الجبارين وكان يعلم الاسم الأكبر. وعن ابن عباس ﷺ: هو رجل من أهل اليمن آتاه الله آياته فتركها وكان من علماء بني إسرائيل مجاب الدعوة يقدّمونه في الشدائد. وقال السدي: لمّا انقضت الأربعون سنة التي قال الله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة/ ٢٦]... انطلق رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم فكفر وأتى الجبارين وقال لهم: لا ترهبوا بني إسرائيل فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعوا عليهم دعوة فيهلكون. فركب حمارة له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل، فلما سار عليها ربضت به فضربها حتى إذا أذلقها أذِن الله لها فكلّمته حجّة عليه فقالت: ويحكَ يا بلعم، أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تردّني عن وجهي هذا؟ فانطلقت حتى إذا أشرفت به على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشرّ إلّا صرف الله لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلّا صرف لسانه إلى بني إسرائيل؛ واندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لقومه: قد ذهبت منّي الآن الدنيا والآخرة. [المترجم ـ بتصرف عن بعض المصادر]

٣ . سورة الأعراف، الآية ١٧٥.

٤ . سورة طه ﷺ، الآية ٩٦.

وتضعضع إيمانهم لأغرق الله ﷻ الكافرين بِنِعَمِه وآلائه حتى يبنوا سقوف منازلهم من الفضّة والذهب. ومن هنا نعلم أنّ تقييد إيتاء الحكمة بمشيئة الله ﷻ يختلف عن تقييد بسط الرّزق أو قبضه بمشيئته تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ﴾[1] وذلك لأنّ مشيئة الله سبحانه وتعالى لها مراتب ودرجات ومن تلك المراتب والدرجات ما يتعلّق بمسألة إيتاء الحكمة.

إلماعة: تُعتبر جملة ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ تذكيراً للحكماء وأولي الألباب لكي يستفيدوا من الحكمة في المسائل الأساسية، إلى جانب تعظيمها لنعمة الحكمة، ويشير ذِكر (الحكمة) في وسط الآيات الخاصّة بالإنفاق إلى أنّ اكتفاء المرء بما يعلم فقط هو الإمساك بعينه، فالإنسان الحكيم يميل بطَبعه إلى الإنفاق وهو قادر على تمييز الوساوس الشيطانية من الإيحاءات الرّحمانية، وتراه يقوم بتعليم الآخرين الآراء والأفكار الطيّبة (لا الخبيثة) بهدف التقرّب إلى الله سبحانه (لا لأجل الرّياء والشهرة) وذلك بكلّ احترام وتكريم (لا بالمَنّ والأذى)، وليس ذلك التعليم سوى الإنفاق العلميّ.

كلام حول الحكمة

فُسّرت الحكمة بأنّها كالعدل من حيث إنّها تتناول موضوع مُراعاة حدود الأشياء والأشخاص وحقوقهم ووضع كلّ شيء في مكانه المناسب، فالحكيم هو الشخص الذي يُراعي علوّ ربوبية الله سبحانه ودنوّ عبوديته وعبودية سائر المخلوقات الأخرى في عالم الوجود لكي يكون كلّ شيء في موضعه الذي تحدّده هندسته المعرفية، ولا ريب في أنّ مثل هذا العلم والمعرفة هما الحاكم والحَكَم في

---

١ . سورة سبأ، الآية ٦٣.



نفس الوقت، أي إنّ الحُكم يكون بيَد ذينك العُنصريْن فضلاً عن كونها معيار التدبير ومقياس إدارة الأمور ولا يمكن لهما أن يُغلَبا من أيّ شيء آخر، ويتناسب هذا التفسير مع المشتقات المعنوية الأخرى للحكمة[1].

وتشير الحكمة أيضاً إلى نوع من الاتقان والإحكام بحيث لا يجوز تسمية أيّ علم بالحكمة وأيّ عَمل بالحكيم، بل الحكمة هي العلم المحفوظ من أيّة شُبهة، ولذلك تُسمّى القوّة العملية المنزّهة عن الشهوة والغضب بالقوة الحكيمة.

والعلم غير العقل الذي يمتلك القدرة على عقال الوهم والخيال في مجال التفكير وكذلك القدرة على عقال الشهوة والغضب في مجال الدّافع، ولتحديد ما إذا كان علم ما هو مصداق الحكمة أم لا يلزمنا القيام ببحث تطبيقيّ كامل وشامل لأنّ الله سبحانه وتعالى قد ذكر صفاتاً تخصّ الملائكة وذكر صفاتاً أخرى تتعلّق بالشيطان الرّجيم، فإذا وُجِدت أوصاف المَلاك في أيّ علم فبإمكاننا تسمية ذلك العلم بالحكمة، وأمّا إذا اشتمل العلم المذكور على الصفات الشيطانية فلا شكّ في أنّه ليس حكمة فضلاً عن أنّه علم يفتقد إلى الخير الكثير.

ومن الأوصاف التي أُطلِقَت على الشيطان الرّجيم هي صفة (الخَنّاس) ومعناها أنّه كاللّص المتهيّئ للفرار، يتقدّم خطوة ويَخنس خطوتيْن، وتراه حاضراً

---

١ . قال ابن عربي: «فمن الميزان مثلاً ألّا يعرض الحكيم بذكر الله ولا بذكر رسوله ولا أحد ممّن له قَدر في الدين عند الله في الأماكن التي يعرفها هذا الحكيم إذا ذكر الله أو رسوله أو أحداً ممّن اعتنى الله به كالصحابة عند الشيعة، فإنّ ذلك داع إلى ثَلب المذكور وشتمه وإدخال الأذى في حقّه، ففي مثل هذا الموطن لا يذكره ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وما كثّره الله لا تدخله قلّة، كما أنّ ما عظّم الله ما يدخله احتقار ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ فإنّ الإنسان قد يغفل عن أشياء كان عَلمها في نفسه ثمّ يذكرها، ولُبّ الشيء سرّه وقلبه، واللبّ نور في العقل كالدهن في اللوز والزيتون، والتذكّر لا يكون إلّا عن علم مَنسيّ». (تفسير رحمة من الرحمن، ج١، ص٣٩٤). [المترجم]

ومستعداً للهروب من جهة، ومن الجهة الأخرى يحاول الإغارة والهجوم: ﴿الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾[1] وهذه هي مواصفات الخَنْس. وهناك الكثير من العلوم والمعارف التي تنضوي تحت عنوان (الخَنْس) وتتميّز هذه العلوم بأنّها مستعدّة دائماً للهجوم والمُباغتة عند إلقاء الشبهة أو الجدال الباطل أو الرياء الفاسد أو الأحاديث الفارغة التي يُراد بها الشهرة، لكنّها عند حصول عمل صالح تراها تخنس وتغيب ولا يَبين لها أيّ أثر أو وجود؛ ولذلك لا يمكن وَصف هذه العلوم وتلك المعارف بشيءٍ بالشيطنة ولا يَسعنا تسمية علمائها بشيءٍ إلّا بشياطين الإنس، وما ذكره القرآن الكريم حول بعض الأشخاص في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ...﴾[2] أو قوله ﷻ: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[3] يشير بالتأكيد إلى هذه الفئة المتّصفة بصفات إبليس اللعين. وفي بعض الآيات الشريفة الأخرى تناول القرآن الكريم جانباً من نفسيّة هذه الفئة الشيطانية مثل قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[4].

واستناداً إلى ما قلناه عند تفسير الحكمة فإنّ المقصود بها ليست الفلسفة المعروفة، كما أنّ المُراد من الفقه في القرآن الكريم والروايات ليس الفقه المُتعارَف عليه بيننا، بل الفقه القرآني هو ذلك العلم الدّقيق والمُعَمَّق حول الله سبحانه وتعالى وأحكامه وإن كان بالإمكان تسميتها بالحكمة كذلك. على سبيل المثال في

---

١ . سورة الناس، الآيتان ٤ و ٥.

٢ . سورة الأعراف، الآية ١٧٦.

٣ . سورة الجمعة، الآية ٥.

٤ . سورة النور، الآيات من ٤٨ إلى ٥٠.



الآية الشريفة من قوله ﷻ: ﴿وَلله خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[1] والتي تتناول بحثاً فلسفياً حول إيديولوجية التوحيد ومعرفة الله، وردت إحدى مشتقّات (الفِقه) وهي ﴿يَفْقَهُونَ﴾؛ إذاً، فكما أنّ الفِقه يتطرّق إلى أصول الدّين فإنّ الحكمة هي الأخرى تُعتبر علماً شاملاً يتضمّن موضوع العقائد والأخلاق والفروع العملية للدين؛ أمّا ما عُرِفَ عن الحكمة من اختصاصها بالفلسفة فهو مجرّد اصطلاح وتقليد والدليل على ذلك هو أنّ العلم بالموجود والمعدوم في الحكمة النظرية ومعرفة الأوامر والنّواهي، يندرج في إطار الحكمة العملية.

وجدير بالذّكر أنّ القرآن الكريم يسمّي التوحيد وشُكر الله تعالى وحَمده وكذلك المسائل الفقهية والأخلاقية، يُسمّيها بالحكمة أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لله...﴾[2]، وبالإضافة إلى هذا فإنّ القرآن الكريم يُطلق كلمة (الحكمة) على الواجبات التي ينبغي أن يؤدّيها الوالدان تجاه أبنائهما ومنها ـ بعد تلقينهم التوحيد في المقام الأوّل بالطّبع ـ تعليمهم العلوم الحقّة والزكاة وحرمة التبذير وتحبيبهم في الإنفاق وتحريم قَتل الأولاد والفحشاء والعلاقات غير المشروعة وقَتل النّفس والاعتداء على أموال الآخرين وخصوصاً اليتامى والتطفيف في البيع وتقليد الباطل والقول بغير علم وذَمّ التفاخر[3]؛ أقول: إنّ القرآن الكريم يُسمّي كلّ تلك الأمور بالحكمة وشاهد ذلك هو قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾[4]؛ إذاً، فإنّ جميع العلوم والمعارف ذات الصّلة بالمبدأ والمعاد والوَحي والمسائل الفقهية والأخلاقية، تدخل في لائحة علم (الحكمة).

---

١ . سورة المنافقون، الآية ٧.

٢ . سورة لقمان عليه السلام، الآية ١٢.

٣ . سورة الإسراء، الآيات من ٢٢ إلى ٣٧.

٤ . سورة الإسراء، الآية ٣٩.

بالإضافة إلى ما قيل، فقد أشارَ القرآن الكريم كذلك إلى مجموعة من المسائل المتعلّقة بالحكمة في عدد من آياته سيّما عند سَرده لسيرة سيّدنا داود عليه السلام[1].

ولا يخفى أنّ المقصود بـ(الحكمة) في الآية الشريفة: ﴿**أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[2] هو البرهان في مقابل الموعظة والجدل، وتُدعى بالحكمة الخاصّة.

المبدأ الفاعليّ للحكمة

يظنّ بعض الأشخاص ممّن حصلوا على المال أو وُهِبَت لهم نِعَم أخرى فسدّوا بها حاجاتهم ورفعوا بواسطتها مشاكلهم، يظنّون أنّهم هم المبدأ الفاعلي للأمور المذكورة، وهذا النّمط من التفكير المريض هو النّمط نفسه الذي اعتمده (قارون)، حيث عميت أبصار أصحاب هذا النّهج عن رؤية (المُنعِم) الحقيقيّ مُتخيّلين أنّ ما لديهم من أموال ونِعَم وآلاء إنّما هي نتاج أفكارهم وثمار جهودهم وهو ما أشارَ إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿**فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ**﴾[3]. وربّما تسرّب هذا النوع من التفكير كذلك إلى مسألة الحصول على الحكمة؛ إلّا أنّ الحصول على الحكمة ـ سواء أكانت حكمة تقليدية متعارفة أم غير تقليدية ـ لا يقتصر على جهود الإنسان ومساعيه حيث تتناول الآية الشريفة: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء**﴾ التصوّر الخاطئ المذكور.

إنّ الله سبحانه وتعالى وَحده هو المبدأ الفاعليّ سواء للحكمة أم لأيّة نعمة

١ . أنظر: سوره ص، الآيات من ١١ فما بعد.

٢ . سورة النحل، الآية ١٢٥.

٣ . سورة الزّمر، الآية ٤٩.



وجودية أخرى مشابهة كما في قوله ﷻ: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[1]، فالله الحكيم جلّ شأنه أعلَم حيث يضع الحكمة وبأيّ مقدار وذلك بإرادته ومشيئته.

و(الحكمة) لا تختلف عن (العِزّة) في كونها مختصّة بالله ورُسُله والمؤمنين به كما قال ﷻ ذلك: ﴿وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، إذاً، فالأنبياء عليهم السلام والمؤمنون يملكون علماً خاصّاً ومنزّهاً عن أيّة شُبهة كما أنّهم يتمتّعون بالقوّة العملية المُصانة من صفتَيْ الشهوة والغضب، وقد أشارَ القرآن الكريم صراحة إلى حكمة الله سبحانه وحكمة رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3] و﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[4] و﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[5] وفي عموم المؤمنين الذين وُهبت لهم الحكمة قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[6].

ووصف الله ﷻ القرآن الكريم بالحكمة أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾[7]، وهكذا فإنّ الذين يأنسون بالقرآن الكريم هم أصحاب حكمة كذلك، كما أنّ الذين يُعلّمون الناس بشكل عمليّ ويُنفقون من أموالهم يحصلون على الحكمة، ولا ريب في أنّ الذين يُنفقون من أطيب أموالهم يمتلكون الحكمة بقَدر إنفاقهم.

---

١ . سورة ص، الآية ٢٠.
٢ . سورة المنافقون، الآية ٨.
٣ . سورة البقرة، الآية ٢٢٨.
٤ . سورة المائدة، الآية ١١٠.
٥ . سورة ص، الآية ٢٠.
٦ . سورة البقرة، الآية ١٢٩.
٧ . سوره يس ﷺ، الآية ٢.

الخير الكثير والكوثر النفسيّ

«الخَير الكثير» كلمتان تعنيان ببساطة: الكَوثَر، و«الكَوثَر» هي مقولة مشوبة بالتشكيك وتشمل المطلق والمُضاف والنّفسيّ والنسبيّ بمقادير مختلفة وليست متساوية. ومن المصاديق البارزة للكوثَر هي «الجَنّة» ونَهر في الجنّة تتشعّب منه جميع أنهارها[1]، و«الكَوثر» فاطمة الزّهراء عليها السلام سيّدة نساء العالَمين[2]. ومن المعلوم أنّ الحكمة هي أكمل صُوَر الكوثر وهي التي وهبها الله سبحانه إلى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله والمؤمنين أيضاً: ﴿**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾، حتى إذا كانت الحكمة والعلم والمعرفة الموهوبة قليلة فإنّها تُمثّل الخير الكثير وذلك لبقائها وخلودها إلى الأبد.

إنّ كثرة الخير المذكور في الحكمة هي كثرة نفسيّة لا نسبيّة، وهذا يعني أنّ متاع الدنيا على اتّساعها ليس إلّا متاعاً قليلاً وفقاً للتحليل القرآنيّ: ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ**﴾[3] لأنّه أوّلاً وقبل كلّ شيء هو متاع فانٍ وزائل؛ وثانياً، لا قيمة تُذكَر لمتاع الدّنيا بحدّ ذاته؛ وثالثاً، اقتضت حكمة الله سبحانه أن تكون لذّة ذلك المتاع ممزوجة بالآلام والشّرور؛ وأمّا الحكمة فهي «خَيْر» وليست «مَتاعاً» وهي «كثيرة» وليست «قليلة». ولا تقتصر كثرة خَير الحكمة من خلال مقارنتها مع

---

١ . الشيخ أحمد رضا، **معجم متن اللغة**، ج٥، ص٢٧، مادّة (ك ث ر). [المترجم]

٢ . قال الفخر الرازي: «والقول الثالث: الكوثر أولاده قالوا: لأنّ هذه السورة إنّما نزلت رَدّاً على مَن عابَه عليه السلام بعَدَم الأولاد [الذكور]، فالمعنى أنّه يُعطيه نَسْلاً يَبقون على مَرّ الزّمان، فانظُر كَمْ قُتِلَ من أهل البيت [عليهم السلام] ثمّ العالَمُ مُمتلئٌ منهم، ولَم يَبْقَ من بَني أُميّة في الدّنيا أحدٌ يُعبأ به، ثمّ انظُر كَمْ كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصّادق والكاظم والرّضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم». (**التفسير الكبير**، مج١٦، ج٣٢، ص١٢٤). [المترجم]؛ راجع كذلك: الخزاعي النيشابوريّ، **روض الجنان وروح الجنان**، ج٢٠، ص٤٢٨.

٣ . **سورة النساء**، الآية ٧٧.

متاع الدنيا بل هي مشحونة بالكثرة النفسية أيضاً، وهي بذلك تُمثّل كَوْثراً نفسيّاً لا نسبيّاً.

وجدير بالذّكر أنّ الفعل المَبني للمجهول ﴿يُؤْتَ﴾ يُشير إلى الخير الكثير الذي تتضمّنه الحكمة نفسها حتى من دون نسبتها إلى الله ﷻ إذ إنّ مُطلق ما يُؤتيه الله تعالى لا يعني (الخير) بالضرورة وإن كان خيراً كثيراً كإيتاء المال لقارون على سبيل المثال: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾[1].

شُبهة عدم إيتاء الخير الكثير

إنّ الاستناد إلى الآية الشريفة: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[2] كحجّة أو دليل لنَفي إعطاء الخير الكثير إلى الإنسان الذي لا يملك سوى القليل من العِلم غير صحيح أبداً، لأنّ المقصود بالقليل في الآية المذكورة هو أنّ ما يملكه الإنسان من علم أو معرفة لا يساوي شيئاً مقارنة بعلم الله ﷻ، ولو كان المراد في الآية هو أنّ الإنسان لا يملك سوى القليل من العلوم الموجودة والكثيرة في العالَم لكانت القضية الموجبة جزئية وثانوية، أي إنّ بعض الأفراد لا يملك القدرة على استيعاب أو فهم العلوم الكثيرة، والشاهد على ذلك هو معرفة بعض الأشخاص بجميع حقائق العالم إلّا ما كان في إطار غيب الذات المقدّسة كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾[3] ما جعل الملائكة من حَمَلة الوحي الإلهيّ: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[4] يخضعون للإنسان الكامل ويسجدون له ـ بأمر الله سبحانه: ﴿فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[5].

١ . سورة القصص، الآية ٧٦.
٢ . سورة الإسراء، الآية ٨٥.
٣ . سورة البقرة، الآية ٣١.
٤ . سورة عبس، الآيتان ١٥ و ١٦.
٥ . سورة الحجر، الآية ٣٠.



يُضاف إلى ذلك أنّ الحكمة نفسها تُمثّل خيراً كثيراً وإذا أصبح الشخص مصداق الإنسان الكامل فإنّه سيكون كَوثراً على كَوثر، وللوصول إلى الحكمة ينبغي تسخير طاقات العقل في الذّكر والتذكّر لأنّ الحكمة تُمثّل الدرجة الكاملة والقصوى للعقل وزاداً للعاقل المذّكّر، والعقلاء وأولوا الألباب يُدركون هذا الخير الكثير ويشعرون به: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[1].

و«اللّبيب» هو العاقل الكامل الذي يستطيع الجمع بين العقل النظريّ والعقل العمليّ بشكل صحيح ودقيق، وقد بيّنت الآيات الشريفة في آخر سورة (آل عمران) آثار ذلك ومنافعه[2]. هذا، ووردت كلمة «العقل» في الكثير من الأحاديث المرويّة عن المعصومين عليهم السلام لكنّ القرآن الكريم اكتفى بذكر مشتقّات هذه الكلمة مثل «يَعقلون» و«تَعقلون»، والمقصود بالعقل النظريّ هي القوّة العاقلة للوهم والخيال، وأمّا معنى العقل العمليّ فهو القوّة العاملة في العبادة وجواز مرور المؤمن للدخول إلى الجنة، ويُعَرَّف «العَقل» بأنّه «... **ما عُبِدَ به الرّحمن واكتُسب به الجِنان**»[3].

إشارات ولطائف

١. القرآن الكريم، سَمِح وحكيم

القرآن الكريم هو كتاب حكيم لا يأتيه الباطل ولا الشبهة من بين يَديه ولا من خَلفه، وإحكام القرآن لا يتعارض إطلاقاً مع لغته السهلة والمناسبة وقد وصف الله سبحانه كتابه العزيز بأنّه كتاب ثقيل وليس كتاباً عاديّاً كالكُتب

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٦٩.

٢. أنظر الآيات من ١٩٠ إلى ١٩٤.

٣. أصول الكافي، ج١، ص١١؛ وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٠٥.



الأخرى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1]، لكنّه تعالى بيّن أنّ فهم القرآن الكريم سهل وإدراكه يسير رغم اتّصافه بالثّقل وتميّزه بالإحكام وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[2] وهاتان الصّفتان لا تتعارض إحداهما مع الصفة الأُخرى لتعلّق إحداهما بالبرهان العقلي واختصاص ثانيتهما بالرغبة الفطرية، فما يمكن أن يتنافى مع ثِقَل الكلام هو أن يكون ذلك الكلام سخيفاً وهزيل المعنى والمضمون وما يمكن أن يتعارض مع يُسر الكلام وسهولته هو عُسره وتعقيداته وغموضه، ولطالما دعا الله ﷻ المؤمنين وأصحاب الديانات السماوية وأمرهم بأن يقولوا قولاً مُحكماً وسَديداً: ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[3] وأن يقولوا كذلك قولاً ليّناً: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[4]، وهكذا نرى أنّه لا ضرر إطلاقاً في اجتماع صِفَتَيْ الإحكام واللّين في القول لأنّ إحكامه وإتقانه يعودان إلى مضمونه البرهانيّ أمّا لينه فمنسوب إلى قواعد أدب الحوار واتّباع الحديث الحميم وانتقاء الكلمات والعبارات الحسّاسة والعاطفية المناسبة.

٢. أسلوب القرآن في تعليم المعارف

يحاول الوحي الإلهيّ الدّمج بين المعارف العقلية والمسائل العملية التربويّة فعلى سبيل المثال لم تَرِد في أيّ كتاب فلسفيّ عقليّ أو سِفْر كلاميّ عرفانيّ عبارة: «لا تُشركوا لأنّ الشّرك ظلم» ففي هذه الجملة تمّ المزج بين الظلم ـ الذي يُعدّ واحداً من مسائل الحكمة العملية ـ وبين الشّرك ـ الذي يندرج في لائحة مسائل الحكمة النظريّة.

---

١. سورة المزمّل، الآية ٥.

٢. سورة القمر، الآية ١٧.

٣. سورة الأحزاب، الآية ٧٠.

٤. سورة طه ﷺ، الآية ٤٤.

وفي الآية الشريفة من قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[١] بينّ القرآن الكريم بطلان الشّرك بشكل نَهي عن الإشراك مُشيراً في الوقت نفسه إلى أنّ دليل ذلك هو أمر بديهيّ؛ والآن نتساءل: لماذا غَيّرَ القرآن الكريم محور حديثه هنا من الشّرك إلى الإشراك ـ أي، من «ليسَ» إلى «لا تَفعل!»؟ الجواب هو: لأنّ القرآن الكريم ليس كتاباً كالكُتب العقلية التي كانت متداولة وشائعة آنذاك ليكتفي بتعريف الإنسان على مجرّد النّظر إلى العالَم وما حوله، بل هو كتاب يهدف إلى تربية الإنسان العاقل المؤمن وتنشئته، ولذلك فهو لا يُعالج قضية مفادها: «لا شَريك لله سبحانه» ــ وهي بالمناسبة قضية نظريّة صرفة ـ ويقف عندها بل يريد أن يقول: «لا تَجعلوا لله شركاء» مُبيّناً أنّ سبب النّهي عن الإشراك هو كون الشّرك *ظلم عظيم*.

وكما أنّ العلماء اعتادوا على تفسير المسائل النظرية جَنباً إلى جَنب مع المسائل البديهية، فإنّ القرآن الكريم يقوم بتوضيح وحلّ الأمور النظرية والعملية في كلّ واحدة من الحكمة النظرية والعملية إلى جانب الأمور البديهية في نفس المجالات المذكورة؛ فالقرآن الكريم مثلاً يسعى إلى بيان النّهي عن الشّرك ـ وهو من المسائل النظرية في الحكمة العملية ـ بالتزامن مع توضيح مسألة بديهية في الحكمة العملية وهي أنّ الظلم قبيح وأنّ الشّرك يقتضي [وجود] الظلم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ القرآن الكريم، وفي الوقت والمكان المناسبيْن، يقوم بتوضيح برهان امتناع وجود الشّريك لله سبحانه مع المبادئ الأوّلية والبديهية في الحكمة النظرية، مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[٢].

---

١ . سورة لقمان عليه السلام، الآية ١٣.

٢ . سورة الأنبياء عليهم السلام، الآية ٢٢.



٣. العَقلان، العمليّ والنظريّ

ينقسم العقل ـ شأنه في ذلك شأن الحكمة التي تنقسم إلى نظرية وعمليّة ـ إلى قسميْن رئيسيّيْن هما: العقل النظريّ والعقل العمليّ؛ فأمّا محور العقل النظريّ فهو «العلم بالموجود وغير الموجود» ـ وهو ما ندعوه بالحكمة النظرية ـ وكذلك «معرفة ما يجب وما لا يجب» وهذه هي الحكمة العملية؛ وأمّا محور العقل العمليّ فيتضمّن النشاطات التي تدير شؤون الإنسان، أو كما عبّر عنه الأئمّة عليهم السلام بقولهم إنّ العقل العمليّ هو ما عُبِدَ به الرّحمن واكتُسِبَ به الجِنان[1]، وكان المعصومون عليهم السلام يسألون الله عزّ وجلّ أن يهب لهم العقل النظريّ والعمليّ معاً. ومن آثار العقل العمليّ الإخلاص والإرادة والنيّة الخالصة والهِمّة الصالحة؛ وأمّا آثار العقل النظريّ فهي الإدراك الدقيق الذي يكون مُتعلّقه «الموجود وغير الموجود» (أي الفلسفة) أو «ما يجب وما لا يجب» (أي الفقه والأخلاق والحقوق). ويُعتبر الإدراك القويّ والقدرة على معرفة حقائق الوجود (الحكمة النظريّة) وكذلك معرفة الواجبات العملية (الحكمة العملية)، يُعتبر كلّ ذلك نصف الكمال المطلوب (وهو العقل النظريّ) فيما تُمثّل الإرادة والنيّة والإخلاص والهمّة والعزم القويّ نصفه الآخر (وهو العقل العمليّ)[2].

---

١. «أَحْمَدُ بْنُ إِدْرِيسَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِنَا رَفَعَهُ إِلَى أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: قُلْتُ لَهُ: مَا الْعَقْلُ؟ قَالَ عليه السلام: مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمَنُ وَاكْتُسِبَ بِهِ الْجِنَانُ. قَالَ: قُلْتُ: فَالَّذِي كَانَ فِي مُعَاوِيَةَ؟ فَقَالَ عليه السلام: تِلْكَ النَّكْرَاءُ تِلْكَ الشَّيْطَنَةُ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِالْعَقْلِ وَلَيْسَتْ بِالْعَقْلِ». (**أصول الكافي**، ج١، ص١١). [المترجم]

٢. لمزيد من التوضيحات حول مصطلحات الحكمة النظرية والحكمة العملية والعَقليْن النظريّ والعمليّ، راجع كتاب: حكمت نظرى و عملى در نهج البلاغة (**الحكمة النظرية والعملية في نهج البلاغة**)، ص١٦.



وتُستَخدَم كلمة «الجَزْم» في المسائل النظرية المتعلّقة بالعقل النظريّ، وكلمة «العَزْم» في الأمور العملية الخاصّة بالعقل العمليّ، وكلّما كانت العلوم الجَزمية والأمور العزمية وكذلك الإرادة والإخلاص، كاملة، تكامل العقل النظريّ والعمليّ أيضاً؛ إذاً فمجرّد معرفة الفلسفة والفقه والأخلاق والحقوق لا يعني امتلاك العقل العمليّ الكامل لأنّ الأمور المذكورة هي من مقولات العلم التي تنضوي تحت لواء الحكمة النظرية والعملية وكلتاهما من الشؤون الخاصّة بالعقل النظريّ، وأمّا العقل العمليّ فهو القوّة العاملة وليس القوّة المُدرِكة. وجدير بالذّكر أنّ كلًّا من العقل النظريّ والعقل العمليّ يمتلك تسميات ومصطلحات أخرى يتداولها الفلاسفة بين الحين والآخر.

٤. شخصيات تمتلك العقل النظري والعملي

أ. وهبَ الله سبحانه وتعالى العقل النظريّ والعقل العمليّ لسيّدنا عيسى عليه السلام وفي ذلك يقول عزّ وجلّ: ﴿**قَالَ إِنِّي عَبْدُ الله آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي...**﴾[١]، حيث تبيّن هذه الآيات الشريفة أنّ جوهر العبودية يكمن في العلم بربوبية الحقّ تعالى وعبودية المخلوق وهذه كلّها تندرج في لائحة الحكمة النظرية تحت عنوان العقل النظري، وأنّ الأمر بالصلاة والزّكاة والإحسان إلى الأُمّ هو من مسائل الحكمة العملية إلى جانب العقل العمليّ.

وفي آية كريمة أخرى وعلى لسان روح الله عيسى عليه السلام يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الله رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ**﴾[٢] وهذا يُمثّل نوعاً من القياس المنطقيّ، فصغرى القياس

---

١. سورة مريم عليها السلام، الآيات من ٣٠ إلى ٣٢.

٢. سورة آل عمران، الآية ٥١.



هي جملة: ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أمّا كُبراها فتتمثّل في جملة: «ينبغي عبادة الربّ» ونتيجة ذلك هي: «إذاً، اعبدوا الله» أو ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾، وفي هذا القياس تكون الصغرى من مقولة «الموجود وغير الموجود» والكبرى من مقولة «ما يجب وما لا يجب»، وتُنسَب الأولى إلى الحكمة النظرية فيما تُعزى الثانية إلى الحكمة العملية؛ ولمّا كانت نتيجة القياس هي التابع الأدنى أو الأخسّ للمقدّمتيْن وكانت الحكمة العملية أدنى من الحكمة النظرية ـ لأنّ الأولى تتناول المسائل الاعتبارية بينما تتعلّق الثانية بالمسائل التكوينية ـ فإنّ نتيجة «ما يجب وما لا يجب» هي الحكمة العملية.

ب. سأَلَ سيّدنا إبراهيمُ الخليل عليه السلام الله عزّ وجلّ أن يَهب له العقل النظريّ والعملي كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[1]، وقد أمر الله سبحانه رسوله الكريم صلى الله عليه وآله كذلك بأن يسأله هذيْن الأمريْن فقال سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾[2]، فجملة ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ هي من مقولة العِلم والعقل النظريّ، أمّا عبارة ﴿وَاسْتَغْفِرْ...﴾ فهي من مقولة الفعل والعقل العمليّ.

ويُستفاد من هذه الآية الشريفة في الواقع أنّ *التوحيد* هو أفضل العلوم وأنّ *الاستغفار* هو أفضل العادات، وقد ورد هذا المعنى كذلك في الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال: «**الإستغفار وقول لا إله إلّا الله خير العبادة**»[3].

تذكير: إنّ استغفار المعصومين عليهم السلام إنّما هو لدفع المعاصي والذنوب، وأمّا استغفار غيرهم فهو إمّا للدفع أو للرّفع، وعليه فإنّ معنى جملة

---

١. سورة الشّعراء، الآية ٨٣.

٢. سورة محمّد صلى الله عليه وآله، الآية ١٩.

٣. أصول الكافي، ج٢، ص٥٠٥.



﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ هو: «أطلب المغفرة من ربّك لـئلّا يتلـوّث وجـودك بغبـار الشّرك». ومن ناحية أخرى، إذا اعتبرنا ـ في قوس الصّعود ـ أنّ الدرجات التي لم تَنلها ذوات المعصومين المقدّسـة عليهم السلام حُجُباً، يمكننـا القـول بـأنّ اسـتغفارهم يصبّ في مجرى الرّفع لا الدّفع، إلّا أنّ ذلك سيصاحبه نـوع مـن التكلّـف، ففـي هذه الحالة لا يمكن اعتبار اشتغالهم عليهم السلام بالمُباحات بأمر الله تعالى حجاباً.

٥. الحكمة والمنافق

قد يَهب الله عزّ وجلّ في بعض الأحيان العقل النظريّ ـ أي، أصل العلم بالموجود وغير الموجود وما يجب وما لا يجب ـ إلى المُنافِقَ كذلك، ومع ذلك يعجز المُنـافق عن أن يكون حكيماً وصالحاً رغم امتلاكه لذلك العقل ويعود السبب في هذا إلى كون الصلاح مرهوناً بالعقل العمليّ؛ إذاً، فقـد يتمتّـع المُنـافق بالحكمـة النظريـة والعملية معاً، وهذا أمر يمكن تحقيقه بالدراسة ليصبح عالمـاً بالفقـه والأخـلاق والحقوق، إلّا أنّ كلّ تلك الأمور تدخل ضمن إطار العقل النظريّ، أمّا الحكمـة المزوجة بالعقل العمـليّ فـلا يمكـن للمنــافق أن يحـصل عليهـا أو يحظـى بهـا إطلاقاً، وما أشارَ إليه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في قوله: «**خُذِ الْحِكْمَةَ أَنَّى كَانَـتْ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَـافِقِ فَـتَلَجْلَجُ فِي صَـدْرِهِ حَتَّـى تَخْـرُجَ فَتَـسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ**»[1] يتعلّق بالحكمة النظرية التي يمكن إظهارها بالكتابة أو الكلام لتُنسى بعد ذلك في خريف العُمر، وهكذا تخـرج الحكمـة مـن مكانهـا الذي كانت تقبـع فيـه لتـدخل في صـدور أصـحابها ومُـستحقّيها مـن المـؤمنين والصالحين.

---

١ . **نهج البلاغة**، الحكمة رقم ٧٩؛ أنظر كذلك: بحار الأنوار، ج٢، ص٩٩.



تذكير: النّفس الإنسانية مجرّدة، لكنّ تجرّدها لا يصل حدّ تجرّد العقل التامّ وبالفعل ولهذا فهي قابلة للتغيير، فقد لا تعلم [النّفس] شيئاً من قَبل ثمّ تصبح عالمِة بعد حين، فالنسيان إذاً هو أمر ممكن وأوضح مثال على ذلك هو نسيان بعض الصّور العلمية وهو أمر المعروف للجميع.

٦ . الفطرة إناء الحكمة

يمكن لأيّ شخص الحصول على الحكمة التي هي الخير الكثير، بل ويمكنه أيضاً معرفة جميع الحقائق: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[١] لأنّ الفطرة في الحقيقة هي بمثابة الإناء للحكمة، فالفطرة الإلهية المودعة في الإنسان والتي تحمل على عاتقها عبء المسائل المعنوية والعلوم والمعارف والحكمة: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٢] تمتلك قدرة هائلة على الاستيعاب وهذا ما تعجز عنه حتى السموات والأرض والجبال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[٣]. وتعود قدرة الإنسان وقوّته إلى امتلاكه لهذه الفطرة وأمّا ضعفه فسببه حالته الطبيعية: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[٤]، كما أنّ بعض الأوصاف المذمومة مثل «*الهَلَع*» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾[٥] و«*القَتُور*» في قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا﴾[٦] و«*الظّلم*» و«*الجهل*» في الآية الشريفة:

---

١ . سورة البقرة، الآية ٣١.

٢ . سورة الرّوم، الآية ٣٠.

٣ . سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

٤ . سورة النساء، الآية ٢٨.

٥ . سورة المعارج، الآية ١٩.

٦ . سورة الإسراء، الآية ١٠٠.



﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1] هو وصفٌ أوصاف يُعزى إلى طبيعة الإنسان نفسها.

٧. ضالّة المؤمن

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ»[2]، أي حتى إذا لم يَكن المؤمن حكيماً فإنّ بإمكانه أن يعثر عليها لأنّ فطرته حكيمة وهي تبدو كَمَن فقد محبوبه وسعى إلى البحث عنه بكلّ عشق وحبّ، إذاً فالمؤمن هو المالِك الحقيقيّ للحكمة، بل إنّ ثمّة علاقة وثيقة وآصرة قويّة بين الحكمة والإيمان في النشأة الأخرى، لكنّه الآن يفتقدها كما يفتقد المرء متاعه وحاجته في بعض الأحيان.

وعلى هذا الأساس فإنّ العلم الذي يحصل عليه المؤمن في هذا العالَم ليس علماً حديثاً أو ابتدائياً بل إنّ لذلك العلم خلفية وتاريخاً ولن يرتاح المؤمن في البحث عن ضالّته أو يهدأ له بال حتى يعثر عليها أو يهلك دونها.

وجدير بالذّكر أنّه ليس هناك من ملازمة بين الموضوع الذي ذكرناه وبين نظرية أفلاطون والإيمان بعالَم المُثُل، بل إنّ ثمّة ملازمة قويّة وواضحة بين الموضوع وبين وجود عالَم الأرواح قبل الأجساد وكذلك بين عِلم المؤمن في ذلك العالَم، وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «خَلَقَ اللهُ الأرْواحَ قَبْلَ الأجْساد»[3]، وهكذا، فإنّ الدّرس والبحث من جهة والعين والأُذُن من جهة أخرى ليست سوى وسائل وأدوات للتذكّر.

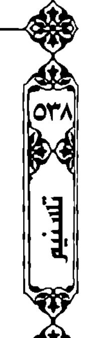
وأمّا علامات الحكمة والطريق الأمثل للوصول إليها والحصول عليها فقد ذُكرت في بعض الأحاديث الشريفة المرويّة عن الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله مثل

---

١. سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

٢. نهج البلاغة، الحكمة رقم ٨٠.

٣. رجال الكشي، ص٣٩٦؛ بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣٥٦.



قوله ﷺ: «رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الله ﷻ»[1] و«مَنْ أَخْلَصَ لله أَرْبَعِينَ يَوْماً فَجَّرَ اللهُ يَنَابِيعَ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»[2].

٨. تشبيه الحياة بالحكمة

لا شكّ في أنّ الحكمة عزيزة وثمينة بحيث لا يتعب الإنسان أبداً من البحث عنها والحصول عليها، ولمعرفة حلاوة الحكمة ولذّتها ينبغي تشبيهها بألذّ الأشياء وأحبّها إلى القلوب.

ولحلاوة الحياة ولذّتها فقد شُبّهت بالحكمة، كما تمّ تشبيه الإنسان غير الحكيم بالقلب الذي لا روح فيه ولا حياة والعين التي لا ترى ولا تُبصر والأُذُن الصمّاء التي لا تسمع النّداء ولا الدّعاء والكَبد العطشى: «واعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا ويَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ ويَمَلُّهُ إِلَّا الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً وإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ وبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ وسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَّاءِ ورِيٌّ لِلظَّمْآنِ وفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُ والسَّلَامَةُ»[3].

ويشرح أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام معارف القرآن الكريم بقوله: «فِي سُتْرَةٍ عَنِ النَّاسِ لَا يُبْصِرُ الْقَائِفُ أَثَرَهُ ولَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ، ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ الْقَيْنِ النَّصْلَ تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ ويُرْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ ويُغْبَقُونَ كَأْسَ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ»[4].

---

١. كتاب الاختصاص، ص٣٤٣؛ بحار الأنوار، ج٢١، ص٢١١.

٢. العلّامة الحلّي، عدة الداعي، ص٢٦٦؛ بحار الأنوار، ج٦٧، ص٢٤٩.

٣. نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٣٣.

٤. قال ابن أبي الحديد: «يذكر عليه السلام قوماً من فِرق الضلال أخذوا يميناً وشمالاً، أي ضلّوا عن الطريق الوسطى التي هي منهاج الكتاب والسنة، وذلك لأنّ كلّ فضيلة وحق فهو محبوس بطرفيْن خارجين عن العدالة، وهما جانبا الإفراط والتفريط، كالفطانة التي هي محبوسة بالجربزة ←

بحث روائيّ

١. مصاديق الحكمة

أ. التفقّه في الدّين: عن سليمان بن خالد قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فقال عليه السلام: «إنَّ الحِكْمَة: المَعْرِفَة وَالتّفقّه في الدّين؛ فَمَن فَقه مِنْكُم فَهُو حَكيم وَما مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ مِنَ

←

والغباوة، والشجاعة التي هي محبوسة بالتهوّر والجُبن، والجُود المحبوس بالتبذير والشحّ؛ فمَن لَم يقع على الطريق الوسطى وأخذَ يميناً وشمالاً فقد ضَلّ. ثمّ فسّر قوله عليه السلام: "أخَذَ يميناً وشمالاً"، فقال: ظَعنوا ظعناً في مسالك الغيّ، وتركوا مَذاهب الرّشد تركاً... ثمّ نهاهم عن استعجال ما هو مُعَدّ، ولا بدّ من كونه ووجوده، وإنّما سمّاه (كائناً) لقرب كونه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ ونَهاهم أن يَستبطئوا ما يجيء في الغَد لقُرب وقوعه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾... قوله عليه السلام: "في سترة عن الناس"، هذا الكلام يدلّ على استتار هذا الإنسان المشار إليه... وذلك لأنّه من الجائز أن يكون هذا الإمام يخلقه الله تعالى في آخر الزمان ويكون مُستتراً مدة، وله دُعاة يدعون إليه، ويُقرّرون أمره، ثمّ يظهر بعد ذلك الاستتار ويملك الممالك ويَقهر الدّول ويُمهّد الأرض كما ورد في قوله عليه السلام: "لا يبصر القائف" أي هو في استتار شديد لا يدركه القائف، وهو الذي يعرف الآثار... ولا يعرف أثره ولو استقصى في الطلب وتابع النظر والتأمل. ويُقال: شَحذتُ السكّين أشحذهُ شَحذاً، أي حَددته، يُريد ليحرضن في هذه الملاحم قومٌ على الحرب وقتل أهل الضلال، ولتشحذن عزائمهم كما يشحد الصيقل السيف، ويرقّق حدّه. ثم وصف هؤلاء القوم المشحودي العزائم، فقال: "تجلى بالتنزيل بصائرهم"، أي يكشف الرّين والغطاء عن قلوبهم بتلاوة القرآن وألهامهم تأويله ومعرفة أسراره. ثمّ صرّح بذلك فقال: "ويرمى بالتفسير في مسامعهم"، أي يكشف لهم الغطاء، وتخلق المعارف في قلوبهم، ويلهمون فهم الغوامض والأسرار الباطنة، "ويغبقون كأس الحكم بعد الصبوح"، أي لا تزال المعارف الربّانية والأسرار الإلهية تفيض عليهم صباحاً ومساءً، فـ(الغبوق) كناية عن الفَيْض الحاصل لهم في الآصال، و(الصبوح) كناية عمّا يحصل لهم منه في الغدوات، وهؤلاء هم العارفون الذين جمعوا بين الزّهد والحكمة والشجاعة. وحقيق بمثلهم أن يكونوا أنصاراً لوليّ الله الذي يجتبيه ويخلقه في آخر أوقات الدنيا، فيكون خاتمة أوليائه، والذي يلقى عصا التكليف عنده». (شرح نهج البلاغة، ج٩، ص١٢٦). [المترجم]

المُؤْمِنينَ أَحَبّ إلى إبْليسَ مِن فَقيه»[1].

ب. اجتناب المعاصي ومعرفة الإمام: عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: سمعتُه يقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ قال: «مَعْرِفَة الإمامِ وَاجْتِناب الكَبائِر التي أَوْجَبَ الله عَلَيْها النّار»[2].

ج. طاعة أوامر الله عزّ وجلّ: عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ...﴾ فقال: «طاعَة الله وَمَعرفَة الإمام»[3].

د. **معرفة القرآن الكريم**: عَن ابن عباس رضي الله عنه في قوله ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾، قال: المَعرِفة بِالقُرآن، ناسِخه ومَنسوخه ومُحكمه ومُتَشابهه ومُقدمه ومؤخّره وحَلاله وحَرامه وَأمثاله[4].

إشارة: إنّ القرآن هو كتاب حكيم ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾[5] وهو كلام الله الحكيم وكتابه العزيز، وما مِن شكّ في أنّ مُجلّى الله الحكيم لا بدّ وأن يكون حكيماً كذلك: «فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ»[6] ومعارفه المُتقَنة جامعة للحكمة النظرية والعملية ولا تدور الحكمة ولا تعليمها إلّا على محوره: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

٢. الحكمة أفضل النّعم

قال الصّادق عليه السلام: «الحِكمَة ضِياء المَعرفة وَميزان (ميراث) التّقوى وَثَمرة الصّدْق، وَما أَنْعَمَ الله (وَلو قلتَ: ما أَنْعَمَ الله) على عَبْد (على عَبدِه) بِنِعْمَة أعظم

١. تفسير العياشي، ج١، ص١٥١.
٢. أصول الكافي، ج٢، ص٢٨٤.
٣. المصدر السابق، ج١، ص١٨٥.
٤. تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص٦٦.
٥. سورة يس، الآية ٢.
٦. نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٤٧.



وَأنعَم وأرْفَع وَأجزَل وَأبهى مِن الحِكمَة لِلْقَلب، (لَقُلتُ صادقاً). قالَ الله ﷻ: ﴿يُؤتِي الحِكمَةَ مَن يَشاءُ ومَن يُؤتَ الحِكمَةَ فَقَد أُوتِي خَيرًا كَثيرًا وما يَذَّكَّرُ إلّا أُولُوا الألْباب﴾؛ أي، لا يَعلم ما أوْدَعتُ وَهَيّأتُ في الحِكمَة إلّا مَن استخلصتُه لِنَفسي وَخَصَصتُه بها»[1].

- يُروىٰ عَن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إنَّ الله آتانيَ القُرآنَ وَآتانيَ مِن الحِكمَة مِثل القُرآن وَما مِن بَيْتٍ لَيسَ فِيه شَيء مِن الحِكمة إلّا كانَ خَراباً؛ ألا فَتَفَقّهوا وَتَعَلّموا فَلا تَموتوا جُهّالاً»[2].

إشارة: فُسّرت الحكمة في الرواية الأولى بنور المعرفة وميزان التّقوى وثمرة الصّدق وأرفع النّعم التي أنعم الله تعالى على عَبده وأجزَلها، والحكمة هي نعمة خاصّة لا تُوهَب ولا تُمنَح إلّا للمُخلِصين والمُخلَصين ولا يُدرك حقيقتها إلّا هؤلاء، كما أنّ الحكمة هي سَبب النّجاة ومن خصائصها الثّبات والاستقامة في العمل من أوّله إلى آخره، ومَن امتلك هذه الصّفة فهو مُرشد العِباد وقائدهم إلى الله ﷻ؛ وفي الحديث الثاني شُبّهت الحكمة بالقرآن الكريم وأنّه ما مِن بيت يخلو من الحكمة إلّا كان خراباً غير مَعمور.

٣. تعريف أولوا الألباب

قالَ رَسول الله ﷺ: «ما قَسّم الله لِلْعِباد شَيئاً أفْضَل مِن العَقْل؛ فَنَوْم العاقِل أفْضَل مِن سَهَر الجاهِل، وَإقامَة العاقِل أفْضَل مِن شُخُوص الجاهِل[3]، وَلا بَعَثَ

---

١. مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة، ص٤٤٩.

٢. تفسير مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٦٥٩.

٣. «شَخَص المسافرُ يَشْخَصُ بِفَتْحَتَيْن شُخُوصاً: إذا خَرَجَ عَن مَوضع إلى غَيْره، ومِنه الحديث "إقامَة العاقِل أفْضَل مِن شُخُوص الجاهِل"». (الطريحي، مَجمع البحرَيْن، ص٤٨٩، مادّة «ش ر خ ص»).

الله نَبيّاً وَلا رَسولاً حتّى يَسْتكمل العَقل وَيكون عَقْله أفْضَل مِن جَميع عُقول أُمّتِه، وَما يُضمر النبيّ في نَفْسه أفْضَل مِن اجْتِهاد المُجتَهدين، وَما أدّى العَبْد فَرائِض الله حتّى عَقل عَنه، وَلا بَلَغ جَميع العابِدين في فَضل عِبادَتهم ما بَلغَ العاقِل، وَالعُقَلاء هُم أُولوا الألباب الَّذِينَ قالَ الله تَبارَك وتعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلّا أُولُوا الألباب﴾»[1].

ـ عَن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام: «**يا هشام! إنّ الله تَبارَكَ وَتَعالى... ذَكرَ أُولي الألباب بِأحْسَن الذّكر وَحَلّاهم بِأحسن الحِلية؛ فقال: ﴿يُؤْتِي الحِكمَةَ مَن يَشاءُ وَمَن يُؤتَ الحِكمَةَ فَقَد أُوتِي خَيْرًا كَثيرًا وَما يَذَّكَّرُ إلّا أُولُوا الألباب﴾**»[2].

إشارة: بعد أن أشاد الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله بالعقل وأثنى عليه في الرواية الأولى ووصفه بأنّه أغلى ما قسّم الله سبحانه من النِّعَم والآلاء بين عباده، أضافَ بأنّ نوم العاقِل أفضل من سَهَر الجاهل وقيامه بالليل، وإقامته ومكوثه خيرٌ من سَيْر الجاهل وحركته وسَفره، وأنّ الله عزّ وجلّ لم يَبعث نبيّاً ولا رسولاً إلّا بعد أن يكتمل عَقله ويكون أفضل من عقول أمّته جميعاً. واختتم صلى الله عليه وآله حديثه قائلاً: «**وَالعُقَلاء هُم أُولوا الألباب الَّذِينَ قالَ الله تَبارَك وتعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلّا أُولُوا الألباب﴾**».

وفي الرواية الثانية أشارَ الإمام الكاظم عليه السلام إلى أنّ الله عزّ وجلّ وصف أُولِي الألباب بِأحسن وَصف وأفضل حِلية لأنّه وهبهم الحكمة، وهي الخير الكثير.

* * *

١ . أصول الكافي، ج١، ص١٢ ـ ١٣.

٢ . المصدر السابق، ص١٥.

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾

خلاصة التفسير

إنّ الله سبحانه وتعالى يعلم جميع أنواع الإنفاق المالي والبذل الماديّ التي يقوم بها الإنسان وهو ﷻ يُثيبه ويُعطيه ما يستحقّه من الجزاء الحَسن وفقاً لعِلمه.

فالذين تقع عليهم مسؤولية الإنفاق الواجب أو النّذر المالي الواجب لكنّهم لا يؤدّون ما عليهم إزاء الله سبحانه ولا ينفّذون عهودهم فإنّ الله تعالى سيعتبرهم من الظالمين وهؤلاء لن يكون لديهم مَن ينصرهم أو يُعينهم يوم القيامة.

التفسير

المُفردات

نَفَقَةٍ: «النّفَقة» اسمٌ لِما يُنفَق[1].

نَذْرٍ: «النّذْر» هو أن تُوجِب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمر، وهو [أي النذر] عقد المرءِ على النّفس فِعْل شَيءٍ مِن البِرّ بِشَرْط. وأصل النّذْر [هو]

---

١ . مفردات ألفاظ القرآن، ص٨١٩، مادّة (ن ف ق).



الخوف لأنّه يَعقد ذلك على نفسه خَوْف التّقصير في الأمر[١].

أَنصَارٍ: جَمع «نَصير» وهو المُعين والمُساعد، والنُّصْرَة هي العَون والمساعدة، [والنّصير] ضدّ المُخالِف[٢].

تناسب الآيات

بعد تشجيع المُنفقين المؤمنين في الآيات السابقة وترغيبهم في الإنفاق من أموالهم الطيّبة وبيان الأجر الجزيل والثواب العظيم اللذيْن سيحصلون عليهما مُقابل إنفاقهم، تشير هذه الآية الشريفة إلى عِلم الله ﷻ بما يَنذره المرء وكذلك بدوافع الإنفاق وأسباب النّذر كلّها، فمن جهة تؤكّد الآية الكريمة على ما ورد في الآيات السابقة وتبشّر الذين يُنفقون من طيّب أموالهم وحلالها دون مَنٍّ أو أذى أو رياء بل ينفقونها في سبيل الله تعالى ومن أجل الحصول على مرضاته إذ يكفي عِلم الله سبحانه بما ينفقونه ليَجزيهم أجورهم ويعطيهم الثواب الكافي إزاء ذلك؛ ومن جهة أُخرى تُمثّل الآية الشريفة نوعاً من التهديد والتحذير للمنافقين الذين يمتنعون عن الإنفاق أو ينفقون لكنّ إنفاقهم أقلّ من الحدّ المطلوب سواء من حيث الكمّ أم الجودة. ولمّا كان الله سبحانه عالماً بأعمال هذه الفئة ومُطّلعاً على نيّاتها ومُحدّداً لها العقوبة والجزاء الذي تستحقّها فقد أشارَ ﷻ في نهاية الآية الشريفة إلى أنّ هؤلاء ظالمون ولن يَجدوا مَن ينصرهم أو يُعينهم على تحمّل أهوال يوم القيامة.

* * *

١ . مفردات ألفاظ القرآن، ص٧٩٧، مادّة (ن ذ ر)؛ تفسير مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٦٥٩.

٢ . راجع: الفيّومي، المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير، ج١ ـ ٢، ص٦٠٧؛ التحقيق في كلمات القرآن، ج١٢، ص١٤٠، مادّة «ن ص ر»؛ أنظر أيضاً: تفسير تسنيم، ج٥، ص٤١٣.

الله ﷻ عالم بالإنفاق

بالاستناد إلى الآيات الشريفة السابقة، يمكن تقسيم (الإنفـاق) إلى نـوعيْن، هما:

١. الإنفــاق المطــابق للمواصــفات المطلوبــة والــذي يُنفَــق في ســبيل الله والحصول على مرضاته ومـن أجـل تثبيـت الـنّفس، ويكـوَن مـن المـال الطيّـب والحلال ولا يُقصَد به الرياء أو الشّهرة، وألّا يُبطَـل المُنفِـق إنفاقـه بـالمَنّ والأذى سواء أثناء الإنفاق أم بعـده، فهـذا النّـوع مـن الإنفـاق لا جَـرَم أنّ الله سـيُثيب صاحبه بأجزل الثواب.

٢. الإنفاق الـذي لا يحمـل المواصـفات والـشروط اللازمـة، أي الـذي لا يتّصف بالحُسن الفاعليّ (وهو الإيـمان)، كالإنفـاق الـذي يؤدّيـه المُنـافق حيـث وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًـا أَوْ كَرْهًـا لَّـن يُتَقَبَّـلَ مِـنكُمْ﴾[1]، أو الإنفاق من المال الحرام أو غير الطيّب المصحوب بالرّيـاء والمَـنّ وإيـذاء الآخِـذ للمال؛ ولم يكتفِ القرآن الكريم بالإشارة إلى أنّ الله سبحانه سـيرفض مثـل هـذا الإنفاق ولن يَقبله، بل وتوعّد أصحابه بالعذاب كذلك.

ووفقاً للآية الّتي هي موضوع البحث فإنّ الله سـبحانه وتعـالى علـيم بكـلّ خصوصيّات الإنفاق ومواصفاته من حيث مقداره ونوعه وما إذا كان قـد أُنفِـقَ في السرّ أو العلانية وكذلك الهدف من الإنفاق ونيّة المُنفِق وما شـابه ذلـك، وبـما أنّ علم الله ﷻ كافٍ لتعيين الثواب أو العقاب إزاء أيّ إنفاق، وأنّه تعالى لا يفعل شيئاً إلّا بموجب عِلمه وحكمته، فإنّ الآية الشريفة لم تتطرّق إلى نـوع الجـزاء أو تفاصيله رغم أنّ الآيات التي سبقتها بيّنت أجر الإنفاق الحَسَن وعقوبة الإنفـاق

---

١. سورة التوبة، الآية ٥٣.

القبيح، فوعدت المُنفقين الصالحين قائلة: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١] وتوعّدت المُنفقين بالمَنّ والأذى ورئاء الناس بقوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٢].

تذكير: يعود الضمير في ﴿يَعْلَمُهُ﴾ إلى الاسم الموصول في عبارة ﴿مَا أَنفَقْتُم﴾ التي تشمل كلًّا من الإنفاق والنّذر معاً والمُفَصَّلَيْن في شبه الجملتَيْن ﴿مِن نَّفَقَةٍ﴾ و﴿مِن نَّذْرٍ﴾ وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿... وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ...﴾[٣]؛ وعليه، لا يجب المقارنة بين هذه الآية وبين قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا...﴾[٤] فنقع في التكلّف ونقول بأنّ الضمير يعود إلى الأوّل وأنّ حكم الثاني معلوم من حالة الأوّل لأنّ آية ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً...﴾ تفتقد إلى جامع مرجع كما هي الحال مع الآية الّتي هي موضوع البحث.

الإنفاق النذريّ

يُعتبر الإنفاق النّذري واحداً من أنواع الإنفاق المعروفة ويتّصف بالوجوب العارضيّ ويكون في مقابل الإنفاق الواجب والمستحبّ، ورغم أنّ الآيات السابقة وكذلك عبارة ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ في الآية الّتي هي موضوع البحث تُعالج مسألة الإنفاق إلّا أنّ إطلاق النّذر في الآية الأخيرة يمكنه أن يشمل أيضاً النّذر غير الماليّ، أمّا شموله للنّذر الماليّ فهو أمر لا ريب فيه. ووفقاً لذلك نستطيع اعتبار نسبة الإنفاق والنّذر في الآية من حيث العموم والخصوص في بعض

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٦٢.
٢ . سورة البقرة، الآية ٢٦٤.
٣ . سورة البقرة، الآية ٢٣١.
٤ . سورة النساء، الآية ١١٢.



الأحيان لأنّ الإنفاق يشمل الإنفاق النّذريّ وغير النّذريّ على السّواء كما أنّ النّذر يشمل النّذر الماليّ وغير الماليّ كذلك.

ومن خلال ثنائه على أصل النّذر اغتنمَ القرآن الكريم الفرصة لترغيب المؤمنين في الوفاء بنذورهم مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[1]، وفي موضع آخر يمدح القرآن الكريم آل البيت عليهم السلام ويَصفهم بقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾[2].

إلماعة: لا يُعتبر النّذر ـ سواء أكان مالياً أم لم يكن ـ سبباً كاملاً لوجوب الوفاء به، أي إنّ مجرّد النّذر لا يَستوجب الوفاء الذي يمثّل حكماً شرعيّاً لأنّ نَذر الناذر بحدّ ذاته هو موضوع تامّ حتى يوجِب الله سبحانه الوفاء به باعتباره المالِك للتشريع، فإذا لم يُصدر الشّارع الأمرَ بالوفاء بالنّذر فإنّ مجرّد نَذر الناذر لا يستلزم الوفاء به. والخلاصة أنّ فعل الناذر يُمثّل الموضوع أمّا فعل الشّارع فيمثّل الحكم، ويمكننا استنباط هذا المعنى من العبارة التالية: «... فإنّ الله أوجَبه بإيجاب العَبد»[3].

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَار

وردت الحقيقة المتمثّلة في كون الظالمين لا أنصار لهم في القرآن الكريم تارة بصيغة النكرة في سياق النّفي وكقضيّة حقيقية سالبة كما في قوله تعالى: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[4]، وتارة بصيغة الجمع المنفيّ الذي يشير

---

١ . سورة الحجّ، الآية ٢٩. «والتّفَث: الوَسَخ والشّعث والدَّرَن». (معجم النّفائس الكبير، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد أبو حاقَة، مادّة «ت ف ث»). [المترجم]

٢ . سورة الإنسان، الآية ٧.

٣ . ابن عربي، تفسير رحمة من الرحمن، ج١، ص٣٩٥.

٤ . سورة الشورى، الآية ٨.



إلى عدم وجود مَن ينصر الظالمين أو يُعينهم بالمرّة، مثل قوله سبحانه: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

وكلمة «ظالِين» هي كلمة مطلقة المُراد بها عموم الظالمين دون استثناء، لكن، وبالاستناد إلى سياق الآية الشريفة والآيات السابقة التي تناولت الإنفاق الماليّ، فإنّ القَدر المتيقّن من ذلك هو أنّ المقصود بـ«الظالمين» هم الظالمون من الناحية المالية (أو الماديّة) الذين لا يلتزمون بما تقع على عاتقهم من مسؤولية أداء الحقوق الواجبة، أو الذين نذروا شيئاً ما لكنّهم لَم يؤدّوا حقوق الأشخاص الحقيقيّين كالفقراء أو الجهات الحقّيّة الأخرى مثل المساجد والمدارس والمنظّمات الخيرية والمؤسسات ذات المنفعة العامّة، وبذلك يكونون قد ظلموا الناس حقوقهم.

وأمّا حرف الجرّ «اللام» في كلمة ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ فهي للنّفع، والألف واللام للاستغراق وليس للمجموع، أي إنّ أيّاً من الأنصار لن يسارع إلى إعانة أيّ واحدٍ من الظالمين ممّا هو فيه يوم القيامة وليس المعنى أنّه ما مِن ناصر لمجموع الظالمين ما قد يُصوّر للبعض أنّ بعضهم الآخر قد يحصل على ذلك العون أو المَدد[1].

---

١ . «فإن قيل: لفظ الظالمين ولفظ الأنصار جمع، والجمع إذا قُوبل بالجمع توزّع الفرد على الفرد، فكان المعنى: ليس لأحدٍ من الظالمين أحدٌ من الأنصار. قلنا: لا نسلم أنّ مقابلة الجمع بالجمع تُوجب توزع الفرد على الفرد لاحتمال أن يكون المراد مقابلة الجمع بالجمع فقط لا مقابلة الفرد بالفرد. والجواب الثالث: أنّ هذا الدليل النافي للشّفاعة عامّ في حقّ الكلّ، وفي كلّ الأوقات، والدليل المثبت للشفاعة خاصّ في حقّ البعض وفي بعض الأوقات، والخاصّ مقدّم على العامّ والله أعلم. والجواب الرابع: ما بيّنا أنّ اللفظ العامّ لا يكون قاطعاً في الاستغراق، بل ظاهراً على سبيل الظنّ القوي فصار الدليل ظنياً، والمسألة ليست ظنيّة، فكان التمسّك بها ساقطاً». (الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ج٧، ص٧٦). [المترجم]

سرّ تشبيه المُمسك بالظالم

نستنتج من العديد من آيات القرآن الكريم أهمية العدالة الاجتماعية والاقتصادية وضرورة محاربة الفَقر ومَحو آثاره وتَبعاته، فالسرّ في تشبيه مَن يُماطل أو يمتنع عن أداء الالتزامات المالية التي تقع على عاتقه بالظالم وعدم وجود مَن يَنصر هذا الظّالم يوم القيامة، ثمّ اعتراف أصحاب جهنّم بجزء ممّا كانوا يقترفونه في الدنيا والذي تسبّب في إدخالهم إلى جهنّم: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾[1] وحشر هؤلاء مع الذين كانوا يكذّبون بالدّين: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[2]، هو: أنّ السرّ في كلّ ذلك التشبيه هو ما قلناه حول أهميّة العدالة الاجتماعية والعمل على تثبيت أُسسها وأركانها.

وما أصعب حالة مَن ترك إعانة الفقراء في الدنيا ولم يؤدّ حقوقهم المشروعة والمفروضة عليه حيث تعلو وجهه غُبرة الخذلان في المعاد وهو لا يَجد مَن ينصره أو يُنقذه ممّا هو فيه وليس ذلك سوى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾[3].

مصاديق «النّصير» في القرآن الكريم

تُطلَق كلمة «نَصير» في القرآن الكريم على الأشخاص الحقيقيّين والحقوقيين وعلى بعض الأشياء كذلك، ومن وجهة نَظر القرآن الكريم فإنّ التوبة تعني اجتناب الكبائر بالنسبة إلى من ابتُلِيَ بصغار المعاصي والذنوب فيكون الشّفعاء هم أنصاره، إلّا أنّ الظالمين لحقوق الناس المالية لا يُمنَحون أيّاً من تلك المزايا

١ . سورة المدثّر، الآية ٤٤.
٢ . سورة الماعون، الآيات من ١ إلى ٣.
٣ . سورة النبأ، الآية ٢٦.



لأنّ هؤلاء قد ارتكبوا معصية كبيرة وذَنباً لا يُغتَفَر وهو أكل حَقّ النـاس ولـيس حقّ الله سبحانه، إذاً فمجرّد التوبة لا تكفي لَمحو الظلم الماليّ الذي اقترفه هؤلاء، فضلاً عن أنّهم لن يحظوا برضى الله تعالى ولن يَقبل منهم دينهم أو عباداتهم ولـن تنالهم الشفاعة مطلقاً لأنّ الشفاعة لا تحقّ إلّا لِمَن ارتضى الله دينـه وتعبّـده: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[1].

إشارات ولطائف

١. معيار صحّة الإنفاق وقبوله

يُمثّل كلّ واحدٍ من الحُسن الفعليّ والحُسن الفاعليّ عنصرين محوريّيْن لصحّة الإنفاق من الناحية الفقهية وقبوله من الوجهة الكلامية، أي أن يكون مالاً طيّبـاً وحلالاً ويُراد به التقرّب إلى الله ﷻ. ويُطلَق عـلى هـذا المعنـى الجـامع للإنفـاق أحياناً مصطلح ﴿فِي سَبِيلِ الله﴾[2] ويُعَبَّر عنه في أحيان أخرى بجملـة: ﴿يُنفِقُـونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَـاتِ الله﴾[3] أو ﴿وَمَـا تُنفِقُـونَ إِلَّا ابْتِغَـاء وَجْـهِ الله﴾[4] كقولـه سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله﴾[5]. لاحظ أنّ جميـع تلـك العنـاوين تـشير إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى فعندما يجتمع الحُسنان معاً (الحُسن الفعـليّ والفـاعليّ) فلا جَرَم أنّ صاحبهما سيحظى برضى الله ﷻ، ومَن شَملته مرضاة الله تعالى، فلا شكّ أنّ شفعاءه يوم القيامة كثيرون، ومَن ارتضى الله دينَه وكان هو نفسه مرضيّاً عند الله فسيكون مشمولاً بالشفاعة بلا رَيب.

---

١ . سورة الأنبياء، الآية ٨٢.

٢ . سورة البقرة، الآية ٢٦٢.

٣ . سورة البقرة، الآية ٢٦٥.

٤ . سورة البقرة، الآية ٢٧٢.

٥ . سورة الإنسان، الآية ٩.

٢. في لائحة الكُفر

من المعروف أنّ ترك الإنفاق الواجب لا يُعدّ شركاً أو كُفراً ـ والعياذ بالله ـ كما هي الحال مع الامتناع عن أداء الزكاة، وأمّا ما يُشار إلى بعض المعاصي الكبيرة بالكُفر أحياناً فالمقصود به هو الكُفر العمليّ لا العَقَديّ، وما يمكن استشفافه من قوله ﷻ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[1] فهو إشارة إلى كُفر الشخص الذي لا يؤمن بيوم القيامة علماً أنّ الإيمان بيوم القيامة يُمثّل أهمّ مبدأ دينيّ، والذي لا يُؤتي الزكاة، لا شكّ في أنّ عدم تأدية هؤلاء للزكاة يُعتبر نتيجة من نتائج كُفرهم وعدم إيمانهم بأصول الدين.

هذا، ولم يُسَمِّ ديننا مُجرّد عدم إيتاء الزكاة ـ التي هي إنفاق ماليّ ـ بالكُفر أو الشّرك إطلاقاً رغم أنّ عِظَم هذه المعصية يتجلّى في تشبيهها بإنكار المعاد ودَرْجِها في لائحتها. والمُراد بالزكاة في هذه الآية التي شبّهت عدم أدائها بكُفر الشخص بيوم القيامة هو أصل الإنفاق اللازم وليس الزكاة المعروفة في علم الفقه ودليلنا على ذلك هو نزول هذه الآية في مكّة والمشهور أنّ أمر الزكاة الفقهية نزل في المدينة المنوّرة.

٣. نقد كلام الفخر الرازي

قال الفخر الرازيّ: «واعلم أنّ العُرف لا يُسمّي (الشفيع) ناصراً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[2] ففرّق تعالى بين الشّفيع والنّاصر فلا يَلزم

---

١. سورة فصّلت، الآيتان ٦ و ٧.

٢. سورة البقرة، الآية ٤٨.

من نَفي الأنصار نَفي الشّفعاء»[١].

وللجواب على هذا الكلام نقول: أوّلاً، قد نَفى القرآن الكريم مُطلَق الشفاعة فيما يتعلّق بالظالمين كما في الآية الشريفة: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[٢]؛ ثانياً، إذا وضعنا (النّصرة) في مقابل (الشفاعة) باعتبار أنّ التفصيل يقطع الاشتراك، فإنّ الشفاعة ليست هي المقصودة بذلك، لكن بما أنّه قد تمّ ذِكر المُطلَق ولم يأتِ في مقابل (الشفاعة) فإنّه يشمل ذلك أيضاً كنَفي النّصرة في مضمون الآيات السابقة وحرمان الظالمين من أيّ عَون سواء أكان من الخارج أم من الداخل.

وجدير بالذّكر هنا أنّ نَفي (الناصِر) و(الشّفيع) يُمثّل تهديداً ووعيداً، والخُلُف بأيّ واحدٍ منهما لا يتعارض مع الحكمة؛ إذاً، فقد تقتضي حكمة الله ﷻ إعطاء الأجر للمظلومين ليتجاوزوا عن الظالم الذي يُرزَق بوَلد صالح يُقدّم خدمات جليلة للإسلام والمسلمين، وبذلك يكون الله سبحانه وتعالى قد أعان ذلك الظالم بهذا الشكل.

* * *

١ . التفسير الكبير، مج٤، ج٧، ص٧٦.

٢ . سورة غافر، الآية ١٨.

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

خلاصة التفسير

لا بأس في إظهار الإنفاق علناً ما دام باطنه هو الإخلاص لكنّ الإنفاق في السرّ قد يكون أفضل في بعض الأحيان لاشتماله على الكثير من المنافع الاجتماعية ولأنّ الإنفاق غير العلنيّ أحرص على حفظ ماء وجه الفقير وصيانة كرامته وتجنّب جَرح مشاعره.

والإنفاق على الفقراء والمساكين المحترمين في السرّ الذي يُعتبر سبيلاً آخَرَ للتخلّص من مخاطر الوقوع في شِباك الرّياء، هو سبب غفران بعض الذنوب الكبيرة والصغيرة ومَحوها والله سبحانه عالِمٌ بأفعال العِباد وخبير بأسرارهم ومناجاتهم[1].

---

١ . «لا بأس في إظهار الصدقة مادام القصد وجه الله وإن تخفوها فذلك أفضل لكم من الإظهار، لبُعدها عن الشبهة والرّياء من جهة، وحرصًا على كرامة الفقير من جهة ثانية. وقوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: أي بعض السيئات، لأنّ الصّدقة لا تمحو جميع الذنوب، وتدفع الكثير من بلاء الدنيا بالحسّ والتجربة». (محمّد جواد مُغنية، التفسير المُبين ـ بتصرّف). «سُئِلَ الإمام أبو جعفر الصّادق عليه السلام عن الرّجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنسان فيسرّه ذلك؟ قال: "لا بأس، ما مِن أحد إلّا وهو يحبّ أن يظهر له في الناس الخير إذا لم يصنع ذلك لذلك"». (محمّد جواد مُغنيّة، تفسير الكاشف، ج١، ص٤٢٤). [المترجم]

التفسير

المُفردات[١]

إن تُبْدُواْ: «الإبداء» يكون في مقابل «الإخفاء»، وهو الظهور البيّن، والأصل الواحد في هذه الكلمة هو الظهور البيّن قهراً ومن دون اختيار وقَصد[٢].

الصَّدَقَاتِ: جَمع «صَدَقَة»، وهي ما يُخرجه الإنسان من ماله على وجه القُربة كالزّكاة؛ لكنّ الصّدقة في الأصل تُقال للمُتطوّع به والزّكاة للواجب، وقد يُسمّى «الواجب» صَدَقة إذا تحرّى صاحبها الصّدْق في فِعله[٣].

يُكَفِّرُ: «الكُفْرُ» في اللغة سَتْر الشيء، ووُصِف الليلُ بالكافِر لستره الأشخاص والزّارع لستره البِذر في الأرض وليس ذلك باسم لهما. و«الكَفّارة» ما يُغطّي الإثمَ و«التّكْفير» سَتره وتغطيته حتى يصير بمنزلة ما لَم يُعمَل[٤]. وقال بعضهم إنّ الأصل في هذه المادّة هو الردّ وعدم الاعتناء بشيء، ومن آثاره التَّبَرّي والمَحو والتغطية[٥].

---

١ . لمزيد من التوضيح حول معنى «الإيتاء»، راجع **تفسير تسنيم**، ج٢، ص٤٦٩، ذيل الآية ٢٥؛ وعن معنى كلمة «خَيْر»، أنظر نفس المصدر، ج١٠، ص٥١٥، ذيل الآية ٢١٥.

٢ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١، ص٢٢٠ ـ ٢٢١، مادّة (ب د ا). «وأمّا إطلاق البَدو على الحضور في البادية فهو في قِبال الحضور بين الناس والتستّر بالعمارات والسكون تحت الأبنية وفي محيط التمدّن، فكأنّه يبرز ويبدو في واسع الأرض وفي فُسحة لا ظِلّ فيها لشيء ويتخلّص من قيود المَدنية... وأمّا (الإبداء) فهو باعتبار معناه الأصليّ، أي نسبة أصل المادّة إلى الفاعل في صيغة المجرّد لازماً، فتكون متعدّية بمعنى: جَعْل الشيء ظاهراً». (نفس المصدر، ج١، ص٢٥٥ ـ ٢٥٦). [المترجم]

٣ . الراغب الأصفهانيّ، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٤٨٠، مادّة «ص د ق».

٤ . المصدر السابق، ص٧١٤ و ص٧١٧، مادّة (ك ف ر).

٥ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١٠، ص٧٩، مادّة (ك ف ر).



سَيِّئَاتِكُمْ: «السيّئة» من (السُّوء)، وهي كلّ ما يَسوءُ المرءَ ويُحزنه سواء أكان ذلك أمراً دنيوياً أم أُخرويّاً، أم كان ما يتعلّق بالحالات النفسانية والبدنية أم الخارجية، كفقدان الرّجل ماله أو مكانته أو مَنصبه أو خليله.

و«السيئة» أيضاً هي الخطيئة أو الفعل القبيح وهي نقيض «الحَسَنَة»، والحَسنة والسيّئة ضَربان:

١. أحدهما بحسب اعتبار العقل والشّرع، نحو المذكور في قوله تعالى: ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾[1] وكلاهما يُعتبر من المصادر المعرفية في الشّرع.

٢. وحَسَنة وسيّئة بحسب اعتبار الطّبع، وذلك ما يستخفّه الطّبع ويستثقله نحو قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾[2].[3]

والمقصود بـ«السيّئات» في الآية الّتي هي موضوع البحث هو الضّرب الأوّل.

خَبِيرٌ: الأصل الواحد في هذه المادّة هو الاطّلاع النافِذ والعِلم بالتحقيق والإحاطة والدقّة[4].

تناسب الآيات

بيّن القرآن الكريم الأصول والخطوط العريضة للأحكام إلى جانب السّبُل الكفيلة بتطبيقها، وفيما يتعلّق بالإنفاق أيضاً وإلى جانب دعوته المسلمين إلى

---

١. سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

٢. سورة الأعراف، الآية ١٣١.

٣. مفردات ألفاظ القرآن، ص٤٤١ ـ ٤٤٢، مادّة (س و ا).

٤. التحقيق في كلمات القرآن، ج٣، ص١٠، مادّة (خ ب ر)؛ أنظر كذلك: تفسير تسنيم، ج١١، ص٣٩٢، ذيل الآية ٢٣٤.



الإنفاق والتصدّق، حرّم الله ﷻ المَنّ والأذى والرّياء في الإنفاق، وما ضَرْب الأمثلة وذِكْر الشّواهد إلّا لتوضيح الطريق الصحيح للإنفاق والتّقليل من المخاطر غير المتوقّعة التي قد تعترضه، وبالتالي حصول المُنفِق على أكبر أجر وأعظم ثواب ممكن.

* * *

قيمة الإنفاق العَلَنيّ

لا ريب في استحباب الإنفاق العَلَنيّ المخلص على المؤسسات والمراكز الخَدمية والعلاجية وغيرها من المرافق العامّة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ**﴾ لأنّ من شأن ذلك أن يشجّع الآخرين ويحثّهم على التقليد ويُثلج صدور الأصدقاء والإخوان ويكسر شوكة أعداء الإسلام ما يجعل من الشخص المُنفِق أُسوَة حَسنة ليقوم الآخرون بمثل ما قام به؛ بالإضافة إلى ذلك، فعندما يطّلع المحتاجون والمساكين في المجتمع الإسلاميّ ويعلمون أنّ هناك مَن يهتمّ بمصالحهم ويُفكّر في حلّ مشاكلهم، فستدخل الطمأنينة إلى قلوبهم ويرتاح بالهم وتستقرّ أحوالهم؛ إذاً، فإنّ مزايا الإنفاق وحَسنات التصدّق العَلنيّ الممزوج بخلوص النيّة كثيرة وفوائده على المجتمع لا تُنكَر.

وتستمرَ الآية الشريفة في بيان سُبُل تجنّب الرّياء عند الإنفاق وتصرّح بأنَ تأديته بشكل عَلنيّ هي أمر جيّد، لكن، ورغم ذلك، فإنّه ليس أفضل من إعطاء الصّدقات إلى المُحتاجين لها في السرّ دون استخدام الأبواق وإحراج الآخرين وبالتالي ضياع الأجور المعنوية سُدى.

وأمّا الظّرف ﴿**وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء**﴾ فهو لبيان الحقيقة المتمثّلة في أنّ الإنفاق والتصدّق السريّ لا يكون أفضل من نظيره العلنيّ إلّا في حالة الفقراء وإن كان المُنفِق مصاناً من خطر الرياء والشهرة، ويكمن سرّ هذه الأفضلية في كرامة الفقير

المحترم كما يلزم التأكّد من فَقر الشخص المُستلِم للنفقة أو الصّدقة وأنّه ليس من المتكدّين المحترفين والمتلبّسين بلباس الفقراء فيأخذ الصّدقة الواجبة التي هي حَقّ الفقراء الواقعيين.

واستناداً إلى ما قلناه فإنّ الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث لا تدلّ إطلاقاً على أنّ الإنفاق في السرّ هو أفضل من الإنفاق العلنيّ في جميع الحالات بل إنّ الأفضل في الإنفاق والتصدّق على المؤسسات والمرافق العامّة (وليس الأشخاص الفقراء) أن يكون علانية، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1] دليل واضح على تساوي الصّدقة العَلنية والسريّة في العلم الإلهيّ من حيث الأجر والثواب، لكن لا يخفى أنّ لكلّ واحدٍ من نَوعَيْ الصّدقة خصائص ومواصفات مُعيّنة، ففي بعض الأحيان تقتضي مصلحة الشخص المُنفِق إبقاء إنفاقه مخفيّاً كالشخص الذي لا يستطيع القيام بذلك أمام الناس ولا يريد منهم شكراً على ما يقوم به، ففي هذه الحالة يكون التصدّق السريّ أفضل من التصدّق العَلنيّ وإن كان المُستلِم للصّدقة هي مؤسسة أو مرفقاً عامّاً وليس شخصاً فقيراً. وإذا كان الشخص المُنفِق موجوداً وحاضراً بين الناس لكنّه لا يستطيع رؤيتهم أو يشعر بحضورهم لأنّه اعتاد على ألّا يرى سوى الله سبحانه وأوامره وظنّ أنّ عمله هذا قد يكون أسوة حَسنَة للآخرين فيقلّدونه في فعل الخير هذا ولم يكن المُستلِم للصدقة شخصاً فقيراً بعينه ليخجل من استلام الصّدقة أو تُجرَح مشاعره بسبب ذلك، ففي هذه الحالة يكون للتصدّق العَلني والإنفاق أمام الآخرين فوائد اجتماعية جَمّة، فضلاً عن أنّه لا يوجد أيّ دليل على إخفاء التصدّق الخالص لوَجه الله على الشخصيّات الحقيّة كالمساجد والمراكز الصحيّة والمستوصفات والمدارس وغير ذلك.

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٧٤.

هذا، ولا شكّ في أنّ لإنفاق بعض الشخصيّات التي تُعتبر قدوة للجميع أو لأغلب الناس أو فئة مُعيّنة منهم كالفلاحين والمزارعين ومُربّي الماشية وغيرهم، آثاره الكبيرة ففي ظلّ الإنفاق العَلنيّ يستطيع الفرد أن يتشبّه بالرسول الأعظم ﷺ الذي كان أسوة للمسلمين جميعاً: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1] وأمير المؤمنين: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[2]، وفي حالة كهذا فليس بمقدور المُنفِق والمُتصدّق المُخلصَيْن أن يكونا قدوة للآخرين وأسوة حسنة لهم وإماماً عليهم إن كان إنفاقهما يُؤدّى في السرّ؛ إذاً، فإنّ التصدّق في السرّ ليس أفضل من التصدّق العَلني دائماً وفي جميع الحالات بل في حالات مُعيّنة أهمّها عندما يكون المُستلِم للصّدقة شخصاً فقيراً، أو عندما يكون هناك تزاحمٌ بين معيار الأسوة ومعيار الإخلاص ففي هذه الحالة يكون التصدّق السريّ أفضل من نظيره العلنيّ.

يُضاف إلى ذلك أنّ ترجيح التصدّق السريّ على الفقراء يكون بالنسبة إلى الفقراء المحترمين الذين ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[3] والذين قال عنهم الله ﷻ: ﴿لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾[4]، فالإنفاق السريّ يجب أن يُؤدّى مع الفقير الحَيِيّ الذي اضطرّه عفافه إلى التلبّس بلباس الحياء والعفّة لئلّا يشعر الناس بفَقره وفاقته، وأمّا الفقير الذي اشتُهِر بفَقره وعُرِفَ بعَوزه فلا يهمّه سواء كان الإنفاق عليه عَلنيّاً أم سريّاً.

---

١ . سورة الأحزاب، الآية ٢١.

٢ . سورة الفرقان، الآية ٧٤.

٣ . سورة الحَشر، الآية ٩.

٤ . سورة البقرة، الآية ٢٧٣.



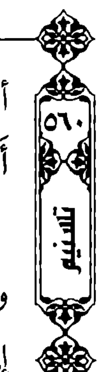
ومن المعروف أنّ ثواب إيصال الصّدقة إلى الفقراء سرّاً يكون في غفران بعض الذنوب والمعاصي كما قال تعالى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾، فالضمير في الفعل ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ يعود إلى «الإخفاء» في قوله: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ لأنّ ضمير (الظاهر أو المُستَتر) الموجود في الفعل الذي يأتي بعد بضع جُمَل يعود بالتأكيد إلى الجزء الأخير من تلك الجُمَل؛ وعليه فإنّ الضمير في ﴿يُكَفِّرُ﴾ يشبه ضمير الغائب في قوله سبحانه: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ حيث يعود إلى «إخفاء الصّدقة» وليس «الإبداء» و«الإخفاء» معاً أو إلى لفظ الجَلالة ﴿الله﴾.

وإذا ادّعى أحدهم أنّ ثمّة دليلاً آخر على كَون التصدّق العلني كذلك هو سبب لتكفير الذنوب وغفرانها، فإنّ هذا الادّعاء لن يتعارض مع مضمون الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث لأنّ الآية المذكورة لا تشير صراحة إلى أنّ تكفير الذنوب مُقتصر على التصدّق السرّي، بل يُستفاد منها كذلك عدم الإطلاق وليس التقييد.

نقاط هامّة:

١. تُطلَق كلمة «الصّدقة» على المال المخصوص و«التصدّق» يعني إعطاء الصّدقة، وتختلف هاتان الكلمتان بعضهما مع البعض في البحوث الفقهية، لكنهما متساويتان في المعنى في البحوث التفسيرية والآيات الخاصّة بالإنفاق إذ لا معنى لاستخدام «البطلان» و«المَنّ» و«الأذى» و«الرّياء» مع المال، خلافاً للحلال والحرام والطيّب والخبيث، إذاً، فالآية الشريفة تتناول مسألة إخفاء التصدّق وإعلانه وليس المال نفسه.

٢. يستخدم القرآن الكريم فعل الأمر أو الفعل المضارع عند الإرشاد أو إصدار الأوامر، لكنّه يستعمل الفعل الماضي في حال ذِكر الجزاء للإشارة إلى أنّ العمل المُنجَز قد عُلِمَ وأنّ الله ﷻ قد حدّد أجره وأنّه سبحانه وتعالى لا يضيع



أجر الأعمال مطلقاً؛ ولهذا تمّ استخدام الفعل الماضي في الآية السابقة: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم﴾[1] فقد جيءَ بالفعل المضارع في هذه الآية: ﴿إِن تُبْدُواْ﴾.

٣. يعود الضمير المُنفصل ﴿هِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ إلى المصدر وهو «الإبداء» في قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ﴾ كما أنّ الضمير المفرد الغائب ﴿فَهُوَ﴾ يعود إلى المصدر وهو «الإخفاء» في شبه الجملة: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾.

التصدّق على الفقير الكافر

تتميّز الصّدقات الواجبة بأنّ لها حُكمها الخاصّ ولكن يمكن إعطاء الصدقات المستحبّة إلى أيّ شخص مسكين أو فقير حتى وإن كان كافراً لأنّ كلمة ﴿الفُقَراء﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ عامّة وتشمل الفقير الكافر أيضاً.

وأمّا الشاهد الآخر على جواز التصدّق على الفقير الكافر فهو عبارة عن آيات الزكاة الواردة في السّوَر المكيّة لأنّ أيَّ آية من تلك الآيات لا تشير إلى الزكاة المعروفة والمُصطلَح عليها في علم الفقه بل المقصود بالزكاة في تلك الآيات هو تزكية النّفس من جهة ثمّ أنواع الزكاة المستحبّة من جهة أخرى، فضلاً عن أنّ الزكاة المعروفة في الفقه لم تُشرّع إلّا في المدينة.

بالإضافة إلى هذا، فإنّ الفقه والدستور الدينيّ وتعاليمه التي تُوجِب علينا إطعام الكلب الجائع غير المؤذي أو مهدور الدّم وإروائه وأنّ الفاعل يُثاب على فِعله وقد قال الرّسول الأعظم ﷺ: «لِكُلِّ كَبِدٍ حَرَّى أَجْرٌ»[2]، لا نسمح لنا بتَرْك إنسان ما يتضوّر جوعاً وعطشاً حتى الموت وإن كان كافراً أو مشركاً، ولهذا

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٧٠.

٢. جامع الأخبار، ص١٣٩؛ بحار الأنوار، ج٧١، ص٣٧٠.

أجازَ ديننا الحنيف الإنفاق والتصدّق على الكافر كذلك وإعانته من الصّدقات المستحبّة؛ لكن، إذا كانت المساعدات المالية إلى الكافر أو المُشرك ستزيد من كُفر الأوّل وشِرك الثاني أو كانت تلك الإعانات تصل إلى كافر أو مشرك فقير يتعمّد إيذاء المسلمين بشكل أو بآخر، فإنّ هذا الإنفاق والتصدّق غير جائز، وقد أمرنا الله سبحانه وحثّنا على الإنفاق على غير المسلم الذي لا يؤذي المسلمين ولا يشاغب على الإسلام على ومعاملتِه مُعاملة حَسنة وعادلة بقوله ﷻ: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾[1]. ويمكننا الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[2] على أنّ الإنفاق جائز على الكافر بل ومُرَجّح كذلك، إذ إنّ الآية الشريفة ذكرت أنّ أحد الأشخاص الثلاثة الذين أطعمهم آل بيت الرّسول ﷺ كان أسيراً، وكانت كلمة «الأسير» تُطلَق في تلك الأيام في المدينة على الكافر الذي يحارب المسلمين إلى جانب الكُفّار ويُؤسَر في الحرب بعد انتصار المسلمين فيها وإن أسلم فيما بعد في المدينة.

تذكير: رغم أنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي يرزق كلَّ واحدٍ من الكافر والمؤمن والصالح والفاجر كما في قوله ﷻ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[3] إلّا أنّ فعل الله التكوينيّ هذا لا يُعدّ معياراً

---

١ . **سورة المُمتحنة**، الآية ٨. «القَسْط» بمعنى الظلم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (سورة الجنّ، الآية ١٥)، و«القِسْط» العدل. (**مفردات ألفاظ القرآن**، ص٦٧٠، مادّة «ق س ط») [انتهى]. «القاف والسين والطاء أصلٌ صحيح يدلُّ على معنيَين متضادَّين والبناءُ واحد؛ فالقِسْط: العَدل، ويُقال منه: أَقْسَطَ يُقْسِط... والقَسْط بفتح القاف: الجَور؛ والقُسُوط: العُدول عن الحقّ؛ يُقال: قَسَطَ، إذا جار، يَقْسِطُ قَسْطاً». (**معجم مقاييس اللغة**). [المترجم]

٢ . **سورة الإنسان**، الآية ٨.

٣ . **سورة الإسراء**، الآية ٢٠.



للحكم التشريعيّ حتى نظنّ بجواز إعطاء الصّدقة الواجبة إلى الكافر أو الفاجر، وأمّا الإنفاق غير الواجب (أي، المُستحبّ) فيمكن أن يكون واسع النطاق كما مرّ بنا.

غفران بعض المعاصي

«السّيئات»، جمع (السيّئة)، بمعنى الأمر السيّئ سواء أكان في العقيدة أم الأخلاق أم العمل، وفي القرآن الكريم استُخدِمت كلمة (السيّئات) و(السيّئة) للإشارة إلى مُطلق معنى المعصية الكبيرة والصغيرة كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[1] وهنا نلاحظ عدم وجود أيّ شاهد على الاختصاص فيكون مُراد الآية هو الإطلاق أي إنّ جزاء السيئة والمعصية هو ما يُمثّل سيّئاً كذلك في نظر العاصي أو المُذنِب، وهو كلّ ما يسوؤه (وكما هو معلوم فإنّ الجزاء يكون متناسباً مع الذّنب ولا يمكن أن يكون الأوّل أكبر وأعظم من الثاني)، لكن، مع وجود القرينة فإنّ الأمر يتعلّق بالذنوب الصغيرة وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[2]، وبالنّظر إلى قرينة التقابل فإنّ «السيّئات» في الآية كذلك تعني الذنوب الصغيرة.

تذكير: إذا لم يتجنّب الشخصُ الذنوبَ والمعاصي الكبيرة فإنّه مع ذلك لا يكون مشمولاً بآية التكفير، كما أنّ الآية المذكورة لا تشمل أيضاً الشخص الذي يتجنّب كلا نَوعَيْ المعاصي، وإذا ارتكب الشخص إحدى الكبائر (وليس معصية صغيرة) فإنّه كذلك لا يكون مشمولاً بالآية، وذلك لأنّ ذنبه الكبير لن يُغتَفَر أمّا ذنبه الصغير فهو زائل، وإذا ارتكب معصية صغيرة (وليس إحدى

١ . سورة الشورى، الآية ٤٠.

٢ . سورة النساء، الآية ٣١.



الكبائر) فإنّه سيكون مشمولاً بالعَفو يوم القيامة؛ لكنّ السؤال هنا هو: «هل سيُغفر ذَنب الشخص المذكور في الدنيا أيضاً بالفعل؟»؛ يبقى هذا الأمر غامضاً وغير واضح في الحقيقة. ولعدم وجود قرينة ما في الآية الّتي هي موضوع البحث فإنّه لا مَناص من اعتبار كلمة ﴿سَيِّئَاتِ﴾ مُطلَق الذنوب، صغيرها وكبيرها، ومع وجود حرف الجرّ ﴿مِن﴾ التي تفيد التبعيض في الظاهر، فإنّ المعنى يكون غُفران بعض السيئات وليس جميعها؛ ولكن، هل يُقصَد بذلك المعاصي الصغيرة أم لا؟ وإن كانت الآراء تشير إلى أنّ حرف الجرّ المذكور زائد في الآية.

الإخلاص في العمل

قد يضطرّ الإنسان في بعض الأحيان إلى خداع نفسه لجهله ذاته ونسيانه الكثير من الذكريات والدّوافع الخفيّة في باطنه، وفي الوقت الذي نراه فيه مشغولاً بإرضاء غريزته الوصولية في أعماق قلبه، يُعلّل سبب تصدّقه العلني بتشجيع الآخرين وترغيبهم في الإنفاق، لكنّ الله سبحانه وتعالى الذي يعلم ما ظهر من أفعال الإنسان وما بطن من غرائزه ودوافعه وما يدور في أعماقه من أفكار وخواطر قد لا يعلمها الإنسان نفسه، يقول في كتابه الحكيم: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[1].

إنّ على الإنسان أن يطّلع على أعماقه بين الحين والآخر وينفض الغبار عنها ويطهّرها منعاً من وصول الشيطان الرّجيم إلى فؤاده أو دخوله في قلبه والتحكّم به كيفما شاء، وينبغي عليه أن يُدرك بأنّ الله ﷻ عالمٌ بأفعاله ومُطّلع على أفكاره وأسراره، وهو سبحانه القائل: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2].

---

١ . سورة طه ﷺ، الآية ٧.

٢ . سورة البقرة، الآية ٢٣٤.




إشارات ولطائف

١. مواصفات التصدّق في السرّ والعلانية

بيّن الشّرع حالة الجهر والإخفات في الصلاة تعبّداً ولم يُجز تركها عمداً بأيّ حال من الأحوال، وأمّا ما يخصّ الصّدقة من حيث إبدائها أو إخفائها أو العمل بها سرّاً أو علانية فقد ظلّ ذلك مُبهماً إلّا في بعض الحالات الاستثنائية ومع ذلك فإنّ الشخص المُتصدّق ليس جاهلاً تماماً بعلل التصدّق أو عوامله، وقد دعانا القرآن الكريم إلى اتّباع كلا نوعَيْ التصدّق ـ السريّ والعَلنيّ ـ متى تطلّب أحدهما ذلك كما في قوله تعالى: ﴿... **فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا**﴾[1]. ولا ينبغي أن نَنسى أنّ ذِكر الله ﷻ في الخفاء أفضل وفي السرّ أحسن: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ**﴾[2].

والإنسان الكامل يعلم خصوصيّات ومواصفات الإنفاق أو التصدّق السريّ والعَلَني، ويعلم مَتى يُعطي الصّدقة عَلَناً ومتى يَمنحها لمُستحقّها سرّاً. ورغم أنّ أفعال المعصوم عليه السلام تُعتبر حجّة، إلّا أنّه لا يمكن اعتبار بعض أفعاله في بعض الحالات قدوة خاصّة إذا دَعت الضرورة إلى مُراعاة الخصوصية واختلفت الخصوصيّات من حين إلى آخر في الأوقات والحالات الاستثنائية، لأنّ مجرّد الفعل لا يعني الإطلاق.

وأمّا السرّ في عِلم الإنسان الكامل المعصوم عليه السلام بالخصوصيّات والمواصفات المتميّزة في إبداء الصّدقة وإخفائها فيكمن في كونه مظهر الله العليم التامّ، وما ورد في نهاية الآية الّتي هي موضوع البحث من قوله: ﴿**وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ يشير إلى علم الله تعالى الأصيل وأنّ الإنسان الكامل هو مظهر

---

١. سورة النّحل، الآية ٧٥.

٢. سورة الأعراف، الآية ٢٠٥.



تلك العِلمية، فهو إذاً عالم بالأمور التي تحول دون قبول الصّدقة والعوامل التي تؤدّي إلى بُطلانها فضلاً عن معرفته بفضيلة إبدائها وإخفائها في الحالات التي تقتضي ذلك.

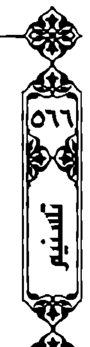
٢. معيار أفضلية التصدّق في السرّ

لا شكّ في أنّ المُنفِق نفسه لن يرضى بأخذ صدقة ما من الآخرين علانيةً وأمام أنظار الناس، وقد يقبل بها مُغمضاً أو مُكرهاً، إذاً، فمن الأفضل له كذلك مُراعاة الفقير الذي يريد إعطاءه الصّدقة وصيانة كرامته، والتصدّق عليه سرّاً لا في العَلَن، فالعواطف والأحاسيس التي يمتلكها الفقير أو المسكين هي نفسها التي يمتلكها غيره من الأثرياء والموسرين، وهذا المعيار هو نفسه المُطَبَّق في الحالات الوجدانية والنفسية وهو ما تطرّقنا إليه عند بحثنا في موضوع الإنفاق من المال الطيّب والحلال عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ**﴾[1].

ولا يمكننا إيعاز السبب الذي يُجبر شخصاً ما على التصدّق علانية في الحالات التي ينبغي عليه فيها التصدّق في السرّ إلّا إلى حبّه ورغبته في الشّهرة والصّيت بين الناس وهذا سهم من سهام الشيطان الرّجيم ووسوسة من وساوسه الخبيثة، وعندما يقوم نفس الشخص في حالات أخرى بإعطاء الصّدقة في السرّ وبعيداً عن أنظار الآخرين فلا ريب في أنّ ذلك هو ما أوحت إليه الحكمة الإلهية ووفّقته إلى فعل ذلك. وعلى أيّة حال، فإنّ ثمّة فرقاً بين التصدّق على المؤسسات والمنظمات والمراكز الخيرية الأخرى وبين الإنفاق على الأشخاص بعينهم، وذلك لأنّ المراكز أو المرافق العامّة المذكورة لا تُعير في العادة أيّة أهمية

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٦٧.



إزاء مسألة العواطف والأحاسيس أو ما يتعلّق باحترام المستحقّ أو عدم التعرّض لكرامته أو صيانة كيان المؤمن وغيرها من المسائل الأخرى.

٣. تفضيل الفقير المحترم

يُعتبر الفقراء مورداً هامّاً من موارد صَرف الصّدقات وإعطائها بحسب قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ...﴾[1]، ولكن استناداً إلى المقارنة التي قُمنا بها فيما يتعلّق بإنفاق المال الطيّب أو الخبيث وإنفاق أيّ واحدٍ منهما في السرّ أو العَلَن وبيّنا حينها تقديم الإنفاق من المال الطيّب وتفضيل الإسرار في إنفاقه، فإنّ الفقير المحترم هو المُقَدَّم في الإنفاق إذا خُيّرنا بين إعطاء الصّدقة إلى الفقير المعروف بفَقره أو الفقير (المحتاج) المحترم الذي دفعته عفّته وحياؤه إلى التظاهر بالغنى وعدم الحاجة فظنّ الآخرون أنّه غنيّ بالفعل. ويمكننا استنباط هذا الأمر من الآية الشريفة: ﴿... يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾[2].

٤. أفضلية التصدّق في السرّ

يُعلّمنا بعض القواعد الفقهية السُّبُل الكفيلة بتخليصنا من الرّياء كالفتوى بترجيح إقامة الصلاة الواجبة في المسجد وأفضليّة أداء الصلوات المستحبّة في المنزل، بما فيها النوافل العادية والمرتّبة وغير المرتّبة والمبتدئة وغير المبتدئة، وقد ورد ذكر ذلك كلّه بالتفصيل في موضوع بحث مكان المُصلّي. نعم، ثمّة نوافل خاصّة تُفَضَّل إقامتها في المساجد سيّما صلاة التحيّة أو الصلوات التي تُقام إبّان أيام الاعتكاف.

---

١. سورة التوبة، الآية ٦٠.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٧٣.

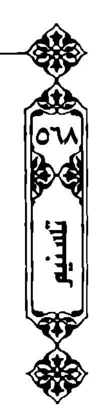
والغرض من الفتوى المذكورة ـ على سبيل المثال ـ هو أفضلية إقامة الصلوات المستحبّة في السرّ بدلاً من إعلانها بهدف صيانة المُصلّي من الوقوع في مصائد الرّياء والتّظاهر أمام الناس، وعليه، فلا حَرج أبداً من إقامة تلك الصلوات في المسجد إذا تأكّد للمُصلّي عدم وجود أشخاص يمكنهم رؤيته وهو يؤدّي الصلوات المستحبّة، بل ويُفَضَّل ذلك كذلك على أدائها في المنزل لانتفاء حالة الرّياء؛ وأمّا ما يتعلّق بالنساء ـ وخاصّة الفتيات ـ فإنّه من الأفضل أدائهنّ للصلوات الواجبة في منازلهنّ وبذلك لا يُحرَم المنزل من بركة التعبّد وإقامة الصلوات فيه، ولعلّ هذه البركة تُعدّ سبباً قويّاً لأفضلية أداء الرّجال كذلك للصلوات المستحبّة والنوافل في المنزل.

ويمكن تطبيق هذه القاعدة في باب الزكاة أيضاً حيث يُستَحَبّ إظهار الزكاة الواجبة وإبدائها وإخفاء الزكاة والصّدقات المستحبّة وإعطائها في السرّ، إلّا أنّ إظهار الزكاة الواجبة ليس مستحبّاً بشكل مطلق بل يُستَحَبّ إظهار الصدقة الواجبة عندما لا يكون هناك ثمّة ما يُعرّض حرمة الفقير وكرامته للهَتك والتّشهير، وإلّا فإنّ إخفاء الصّدقة لصيانة كرامة المسكين والحفاظ على ماء وجهه هو الأفضل، سواء أكانت الصّدقة واجبة أم مستحبّة، وهذا ما تشير إليه كذلك الآية الّتي هي موضوع البحث.

وفي حالة إحساس الشخص المحتاج بالخجل من أخذ الصّدقة وامتناعه عن ذلك لهذا السبب، فقد أفتى المرحوم الشهيد بضرورة إعطاء الصّدقة إلى المحتاج كهديّة وأن يَنوي المُنفِق ـ بينه وبين الله سرّاً ـ بأن يكون عمله هذا قُربة إلى الله تعالى[١].

---

١ . «في المستحق: وهو الفقراء والمساكين ويشملهما من لا يملك مؤونة سنة، والمرويّ أنّ المسكين أسوأ حالاً، والدار والخادم من المؤنة، ويمنع ذو الصنعة والضيعة إذا نهضت بحاجته وإلّا تناول ←

بحث روائيّ

١ . إظهار الصّدقات الواجبة والمستحبّة وإخفاؤها

عَن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾، قال: قلتُ: «يَعني الزّكاة المَفروضَة». قال: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ قال: «يَعني النّافلة؛ إنّهُم كانُوا يَستَحبّون إظهارَ الفرائِض وكِتمانِ النّوافل»[١].

ـ عَن الحَلبي عَن أبي عبد الله عليه السلام قال: سَألتُه عن قَول الله: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ﴾، قال: «لَيْس تِلكَ الزّكاة، وَلكنّه الرّجلُ يَتَصدّق لِنَفسِه، وَالزّكاة عَلانيةٌ لَيس بِسِرّ»[٢].

ـ قالَ أبو عبد الله عليه السلام: «فَكُلّ ما فَرض الله عزّ وجلّ عَليك فإعْلانه أفْضَل مِن إسرارِه، وَكُلّ ما كانَ تَطَوّعاً فإسرارُه أفْضَل مِن إعلانِه؛ وَلَو أنَّ رَجُلاً يَحمل زَكاة مالِه عَلى عاتِقِه فَقَسّمها عَلانية كانَ ذلكَ حَسَناً جَميلاً»[٣].

ـ [قال الصّادق عليه السلام] قال: «الزّكاة المَفروضَة تُخرَج عَلانيـة وَتُـدفَع عَلانِيـة وَبَعد ذلكَ غَير الزّكاة إن دَفَعتهُ سِرّاً فَهُو أفْضَل»[٤].

التتمة لا غير، والعاملون وهم السُّعاة في تحصيلها، والمؤلفة قلوبهم وهم كفّار يُستمالون إلى الجهاد، قيل و مسلمون أيضاً، وفي الرّقاب وهم المكاتبون والعبيد تحت الشدّة، والغارمون وهم المدينون في غير معصية، والمرويّ أنّه لا يُعطى مجهول الحال، ويُقاصّ الفقير بها وإن مات أو كان واجب النفقة، وفي سبيل الله وهو القرب كلها، وابن السبيل وهو المنقطع به ولا يمنع غناه في بلده مع عدم تمكنه من الاعتياض عنه، ومنه الضيف». [المترجم]. أنظر: **اللّمعة الدمشقية**، ج١، ص٢٠٢، كتاب الزكاة، الفصل الثالث: في المستحق.

١ . **أصول الكافي**، ج٤، ص٦٠.

٢ . **تفسير العياشي**، ج١، ص١٥١.

٣ . **أصول الكافي**، ج٣، ص٥٠١.

٤ . **تفسير القمي**، ج١، ص٩٢ ـ ٩٣؛ **وسائل الشيعة**، ج٩، ص٣١١.

إشارة: استُدلّ بالأمر العامّ من الحديث الأوّل وهو إذا كان التصدّق العَلنيّ سيُخدش حياء الفقير ويُهين كرامته فإنّ إعطاء الصدقة في السرّ والخفاء أفضل إذ إنّ إظهار الصّدقة الواجبة يتميّز بالترجيح النفسيّ لا المُطلَق، بمعنى أنّ إظهار الصّدقة الواجبة بحدّ ذاتها وإعطائها علانية يُعدّ أمراً جَيّداً وعليه فإنّ إظهار الزكاة بشكل مُطلَق ليس أمراً مُستحبّاً، كما أنّ أفضلية إخفاء الصّدقة المستحبّة تكمن في الحالة النفسية، أي إنّ الإخفاء ذاته يُعتبر أمراً محموداً وهو مُفَضَّل على الإظهار، ولكن إذا كانَ هناك بعض العوارض والمُلحقات التي يمكن أن تؤثّر في المسألة وتمتلك معايير أفضل، فيُرجّح الإظهار، بلا شكّ.

واستناداً إلى الحديث الثاني فإنّ الآية الّتي هي موضوع البحث لا تتناول مسألة الزكاة الواجبة لأنّ الزكاة الواجبة تُدفَع علانية لا سرّاً. وتجدر الإشارة إلى أنّ عبارة: «الزّكاة علانية ليس بسِرّ» في الرواية الثانية هي عبارة مطلقة تشمل الإنفاق على الفقير وغيره؛ ولكن، لورود قوله تعالى: ﴿**وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ**﴾ في نهاية الآية الشريفة، كان المقصود بالإنفاق هو الفقير فإنّ إخفاء الصّدقة أفضل وإن كانت واجبة.

ويتضمّن الحديث الثالث النقاط التالية:

١. تمّ عرض مَفاد الحديث بشكل قضيّة موجبة كليّة وهي بذلك تشمل الصلاة أيضاً، إلّا أنّه ولوجود القرينة في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ...**﴾[1] حيث وردت الرواية في آخرها فجعلت من الممكن أن تشمل تلك الرواية خصوص الصّدقات أو ألّا يُستَنبط منها الإطلاق، فإنّه لا يمكن الاستدلال بأنّ القضية المذكورة تشمل الصلاة وما شابهها.

---

١ . سورة التوبة، الآية ٦٠.

٢. تكمن أفضلية إظهار الصّدقة الواجبة في كونها سبباً وجيهاً لتعظيم شعائر الله وابتعاد الإنسان عن التهمة، كما أنّ من شأن ذلك أن يُقلّل احتمال اتّهام المُتصدّق بالرّياء لأنّ الجميع يعلم أنّ هذا الشخص إنّما يقوم بأداء واجبه الدينيّ كقيام المُصلّي بأداء صلاته الواجبة داخل المسجد، ولهذا وصف مولانا الصّادق عليه السلام ما يقوم به الرّجل الذي يحمل الزّكاة على عاتقه ويصرفها علانية بأنّه عمل حَسن وجميل.

٣. يتعارض مضمون هذه الرواية (أي الحديث الثالث) مع ظاهر الآية الّتي هي موضوع البحث لأنّ الرواية تفيد بأنّ إظهار الصدقة الواجبة أفضل من إخفائها سواء أُعطيت إلى الفقير أم إلى مصدر آخر من المصادر المعروفة، لكن من جهة ثانية فإنّ الآية تفيد أنّه إذا كان المُستلِم للصدقة هو الفقير فإنّ إخفاءها هو الأفضل سواء أكانت صدقة واجبة أم مُستحبّة؛ ومع ذلك فإذا اعتبرنا ظهور الرواية فيما يتعلّق بالاجتماع أقوى من ظهور الآية فإنّ المعيار هو هو لن يتغيّر.

وأمّا مضمون الحديث الرابع فيشبه الرواية الأخيرة حيث يُفيد الإطلاق، ونسبته مع الآية الّتي هي موضوع البحث هي نسبة عامّة وخاصّة وحكم تقديم الأظهر فيما يخصّ الاجتماع هو ما قلناه.

خلاصة البحث

نستنبط من مضمون الروايات التي سأل فيها أصحابها عن معنى الآية الّتي هي موضوع البحث أنّ المقصود بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ ليست الزكاة الواجبة وإنّما الصّدقة المستحبّة. كما يُستفاد من بعض الروايات الأخرى أنّ إظهار الصّدقة الواجبة أفضل سواء أكانت للفقير أم لغيره؛ لكن بما أنّ للأفضلية درجات كذلك فإنّ الروايات تتناول الحالات التي يكون فيها استلام الفقير للصدقة العلنية أمراً عادياً، وإلّا ففي الحالة التي لا يمكن فيها

للفقير أن يتسلّم الصّدقة إلّا بالإغماض فإنّ إخفاء الصّدقة هو الأفضل بالتأكيد، بل كلّما زاد التحفّظ في إعطاء الصّدقة وفي إخفائها كان ذلك هو الأفضل بحيث لا يشعر الفقير نفسه بشيء يمكن أن يُحرجه عند أخذ الصّدقة، وأصدق ما قيل في ذلك هو قول الرّسول الأعظم ﷺ: **«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ... وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا يَتَصَدَّقُ بِيَمِينِهِ وَصَدَقَةَ النَّهَارِ تُثْمِرُ المَالَ وَتَزِيدُ فِي الْعُمُرِ»**[1].

٢. ثواب الصّدقة العَلنية والخفية

قال الإمام الصّادق عليه السلام: **«إِنَّ صَدَقَةَ اللَّيْلِ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ وَتَمْحُو الذَّنْبَ الْعَظِيمَ وَتُهَوِّنُ الْحِسَابَ وَصَدَقَةَ النَّهَارِ تُثْمِرُ المَالَ وَتَزِيدُ فِي الْعُمُرِ»**[2].

---

١. **كتاب الخصال**، ص٣٤٣؛ **تفسير مجمع البيان**، ج١ـ٢، ص٦٦٣؛ **وسائل الشيعة**، ج٩، ص٣٩٨.

٢. **الشيخ المفيد، المقنعة**، ص٢٦١؛ **وسائل الشيعة**، ج٩، ص٣١١. «عِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ سَعْدَانَ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ مُعَلَّى بْنِ خُنَيْسٍ، قَالَ: خَرَجَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام فِي لَيْلَةٍ قَدْ رُشَّتْ وَهُوَ يُرِيدُ ظُلَّةَ بَنِي سَاعِدَةَ فَاتَّبَعْتُهُ فَإِذَا هُوَ قَدْ سَقَطَ مِنْهُ شَيْءٌ فَقَالَ: بِسْمِ الله اللَّهُمَّ رُدَّ عَلَيْنَا. قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: فَقَالَ: مُعَلًّى! قُلْتُ: نَعَمْ جُعِلْتُ فِدَاكَ. فَقَالَ لِي: الْتَمِسْ بِيَدِكَ فَمَا وَجَدْتَ مِنْ شَيْءٍ فَادْفَعْهُ إِلَيَّ. فَإِذَا أَنَا بِخُبْزٍ مُنْتَشِرٍ كَثِيرٍ فَجَعَلْتُ أَدْفَعُ إِلَيْهِ مَا وجدْتُ فَإِذَا أَنَا بِجِرابٍ أَعْجِزُ عَنْ حَمْلِهِ مِنْ خُبْزٍ، فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، أَحْمِلُهُ عَلَى رأْسِي؟ فَقَالَ: لَا أَنَا أَوْلَى بِهِ مِنْكَ، وَلَكِنِ امْضِ مَعِي. قَالَ: فَأَتَيْنَا ظُلَّةَ بَنِي سَاعِدَةَ فَإِذَا نَحْنُ بِقَوْمٍ نِيَامٍ فَجَعَلَ يَدُسُّ الرَّغِيفَ وَالرَّغِيفَيْنِ حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهِمْ ثُمَّ انْصَرَفْنَا. فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، يَعْرِفُ هَؤُلَاءِ الْحَقَّ؟ فَقَالَ: لَوْ عَرَفُوهُ لَوَاسَيْنَاهُمْ بِالدُّقَّةِ ـ وَالدُّقَّةُ هِيَ الْمِلْحُ ـ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَخْلُقْ شَيْئاً إِلَّا وَلَهُ خَازِنٌ يَخْزُنُهُ إِلَّا الصَّدَقَةَ فَإِنَّ الرَّبَّ يَلِيهَا بِنَفْسِهِ، وَكَانَ أَبِي إِذَا تَصَدَّقَ بِشَيْءٍ وَضَعَهُ فِي يَدِ السَّائِلِ ثُمَّ ارْتَدَّهُ مِنْهُ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ثُمَّ رَدَّهُ فِي يَدِ السَّائِلِ... إِنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عليه السلام لَمَّا أَنْ مَرَّ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ رَمَى بِقُرْصٍ مِنْ قُوتِهِ فِي الْمَاءِ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْحَوَارِيِّينَ: يَا رُوحَ الله وَكَلِمَتَهُ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ قُوتِكَ؟ قَالَ: فَقَالَ: فَعَلْتُ هَذَا لِدَابَّةٍ تَأْكُلُهُ مِنْ دَوَابِّ الْمَاءِ وَثَوَابُهُ عِنْدَ الله عَظِيمٌ». (**أصول الكافي**، ج٤، ص٨). [المترجم]



إشارة: ثمّة ملازمة بين كلّ واحدٍ من الليل والنّهار وبين السرّ والعلانية، إلّا أنّ النسبة بين اللّيل والنهار والسرّ والعَلن تكون في الخصوص والعُموم، وسوف نتناول هذا الموضوع عند تفسيرنا للآية الشريفة من قوله ﷻ: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً**﴾[1] إن شاء الله تعالى.

* * *

١ . سورة البقرة، الآية ٢٧٤.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾

خلاصة التفسير

جاءَ القرآن الكريم بجُملة اعتراضية في وسط آيات الإنفاق بيّن فيها الله سبحانه أنّ هداية الناس التكوينية ليست ضمن مسؤولية رسوله الكريم ﷺ ولا تندرج في لائحة مهامّه الرساليّة رغم أنّه ما من شكّ أنّ النبيّ ﷺ يُمثّل مجرى الفيض الباطني، ثمّ شرح ﷻ علل وأسباب ضرورة تجنّب المَنّ والأذى والرّياء عند الإنفاق أو إنفاق المال الخبيث أو الحرام بالشكل التالي:

١. قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ﴾ يشير إلى لزوم اجتناب المَنّ والأذى في الإنفاق لأنّ فعل الخير ونتائجه كليهما يعودان إلى صاحب العمل نفسه ولهذا لا ينبغي للإنسان الذي يعمل لنفسه أنّ يَمنّ على الآخرين أو يتسبّب في إيذائهم.

٢. قوله ﷻ: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ الله﴾ هو بيان لسبب الابتعاد عن التكبّر والتفاخر إذ لا يمكن للعمل أن يكون مؤثّراً ونافعاً إلّا إذا كان المقصود به



هو وَجه الله سبحانه، وعليه، لا يجب تلويث الإنفاق بمراءاة الناس أو لطلب الشهرة.

٣. وأمّا قوله سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ فيوضّح سبب منع الإنفاق من المال الخبيث أو الحرام لأنّ آثار مثل هذا الإنفاق ستعود جميعها على المُنفِق نفسه دون أيّ نقص، لذلك فإنّ على المُنفِق أن يحرص على ألّا يدّخر لنفسه نتائج سيئة بسبب إنفاقه من المال الخبيث[1].

التفسير

المُفردات[2]

يُوَفَّ: فعل مضارع مجزوم للمبني المجهول مشتقّ من (التوفية) من مادّة «وفى»، ووَفى بعَهده يَفي وفاءً، وأوفى، إذا تمّم العهد ولم ينقض حفظه[3].

والمقصود بقوله ﷻ: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ هو مَنحهم الثواب الكامل الوافي، وهو أعلى درجات الأجر الموعود للإنفاق حيث سيُعطى للمُنفقين الصالحين بتمامه وكماله؛ وتشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿... وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾[4].

---

١. «والغرض فيه الترغيب في الإنفاق لأنّ الإنسان إذا عَلِم أنّ منفعة إنفاقه عائدة إليه مختصة به كان أسمح بالإنفاق وأرغب فيه وأحرص عليه وبذلك يُفارق عطية الله لأنّ المنفعة في عطائه عائدة إلى المعطي ومختصة به دون الله ومعظم المنفعة في عطية العبد ترجع إليه وتختصّ به دون المُعطى». (**تفسير مجمع البيان**، ج٢، ذيل الآية «٢٧٢»). [المترجم]

٢. حول معاني عبارة «وَجه الله»، راجع تفسير تسنيم، ج٦، ص٢٦٢ ـ ٢٦٣.

٣. **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٨٧٨، مادّة (و ف ى). «الوَفاءُ: ضدُّ الغدر، يُقال: وَفى بِعَهْده وأَوْفى بمعنًى؛ ووَفى الشيءُ وُفِيًّا، أي تمَّ وكثُر؛ والوَفيُّ: الوافي؛ وأَوْفى على الشيءِ، أي أشرفَ؛ ... وأَوْفاهُ حقّه ووَفّاهُ بمعنًى، أي أعطاه وافياً؛ واسْتَوْفى حقّه وتَوَفّاهُ بمعنًى؛ وتَوَفّاهُ الله، أي قَبَضَ روحه؛ والوَفاةُ: الموتُ؛ ووافى فلانٌ: أتى». (الجوهريّ، **الصحاح في اللغة**، مادّة «وفى»). [المترجم]

٤. **سورة المزمّل**، الآية ٢٠.

وجدير بالذّكر أنّ اجتماع الفعل ﴿يُوَفَّ﴾ مع حرف الجرّ «إلى» في كلمة ﴿إِلَيْكُمْ﴾ يُفيد التأدية والإعادة[1]، خلافاً لوروده بمفرده دون حرف الجرّ المذكور مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

لَا تُظْلَمُونَ: يُقال: «الظُّلْم» في مجاوزة الحقّ الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويُقال فيما يكثر وفيما يقلّ من التجاوز[3].

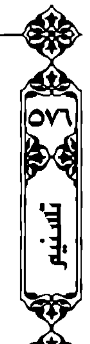
وأمّا المراد من قوله ﷻ: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ فهو عدم انتقاص حقّهم من الأجر وإيفائه بكامله غير منقوص، مثل قوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾[4] ومعناه أنّ الجنّتين لم تُقصّرا في إنتاج أنواع الفواكه من كلّ ما لذّ وطاب.

تناسب الآيات

تغيّرَ المُخاطَب في هذه الآية حيث تحدّث فيها الله ﷻ إلى رسوله الكريم ﷺ على عَكس الآيات السابقة التي كان المُخاطَب فيها هم المؤمنين بشكل عامّ، ويشير تغيير المُخاطَب على ما يبدو إلى أنّ النبيّ الأكرم ﷺ كان يتألّم ممّا يقوم به بعض الناس آنذاك من الإنفاق المصحوب بالمنّ والأذى أو الرّياء ويحزنه أن يفعل المسلمون ذلك بعضُهم مع البعض، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يُطيّب خاطر نبيّه العزيز ﷺ ويبيّن له أنّه غير مسؤول عن الهداية التكوينية للناس وليس مُطالَباً بفعل ذلك على الإطلاق، ثمّ عادَ الله ﷻ في الآيات التي

---

١ . **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٦٤.
٢ . **سورة الزّمر**، الآية ١٠.
٣ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٥٣٧، مادّة (ظ ل م).
٤ . **سورة الكهف**، الآية ٣٣.



تَلت هذه الآية الشريفة إلى استئناف الحديث عن الإنفاق مرّة أخرى[١].

* * *

دور النبيّ ﷺ في الهداية

ليست الهداية التكوينية وإيصال الأفراد إلى المقام المطلوب جزءاً من مسؤولية الرّسول الأعظم ﷺ بل إنّ هذا النوع من الهداية هو مسألة باطنية يتحكّم بها الله سبحانه وحده ولا تتمّ إلّا بمشيئته وإرادته هو ﷻ. فالمسؤولية الرّسمية التي أُنيطت إلى النبيّ ﷺ تتمثّل في هداية الناس تشريعياً، أي، بيان الصّراط المستقيم والسّبيل الصحيح لهم وإبلاغهم بأحكام الله تعالى وأوامره: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ...﴾[٢]، كما أنّ القرآن الكريم لم يُنزَّل إلّا لأجل هداية الناس وكشف الطريق الحقّ لهم: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ...﴾[٣] رغم أنّ الصالحين والمُتّقين من الناس هم الذين يتّبعون هدى القرآن: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٤].

ومن بين الواجبات التي أُمِرَ النبيّ ﷺ القيام بها دعوة الناس وهدايتهم إلى الله الواحد القهّار وتعليمهم ما لَم يكونوا يَعلمون وتزكية نفوسهم كما بيّن الله سبحانه ذلك بقوله: ﴿أُدْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٥] و﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[٦]، وفي الحالات التي يحجم فيها بعض الأفراد عن قبول الهداية أو

---

١ . العلّامة الطباطبائي، تفسير الميزان، ج٢، ص٣٨٩.

٢ . سورة المائدة، الآية ٩٩.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٨٥.

٤ . سورة البقرة، الآية ٢.

٥ . سورة النّحل، الآية ١٢٥.

٦ . سورة آل عمران، الآية ١٦٤.



الإعراض عن التبليغ، فإنّ الرّسول الكريم ﷺ قد أُمِرَ كذلك بهجر هؤلاء هجراً جميلاً ووعظهم بالمواعظ الحسنة والتحدّث إليهم بِما يُطمئن قلوبهم ويدفعهم إلى الإذعان لصوت الحقّ من الكلام البليغ والقول المُؤثّر: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[1] و﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾[2]، وإذا تطلّبت هداية الناس وإبلاغهم قول الحقّ إعلان الحرب على أهل الفتنة منهم، فقد كُلِّفَ النبيّ ﷺ وأصحابه بمقاتلة أولئك والقضاء على رؤوس الفتنة: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[3] و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[4].

وثَمّ العديد من الآيات القرآنية التي تدعو الناس إلى طاعة الله سبحانه وطاعة رسوله ﷺ مثل قوله ﷻ: ﴿وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[5] وهذا شاهد آخر على أنّ الرّسول ﷺ مأمور بهداية الناس وبيان طريق الحقّ لهم لأنّ أمر الطاعة يَلي وجود أصل الهداية وبيان السّبيل الصحيح لهم، ولا شكّ في أنّ هذا الأمر لا يستقيم إلّا بالهداية والإرشاد، ولهذا وردت عبارة ﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ في ذيل الآية الكريمة التي تشير إلى الهداية والإرشاد إلى الطريق الحقّ.

والخلاصة أنّ من الواجبات التي تقع ضمن إطار مسؤولية النبيّ ﷺ هي الهداية بمعنى التلاوة والتعليم والتزكية والدّعوة إلى الله وحده لا شريك له وتطبيق الأوامر الإلهية وإقامة الحدود الشرعية وهو ما يُسمّى في الاصطلاح

---

١ . سورة المزّمل، الآية ١٠.

٢ . سورة النساء، الآية ٦٣.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٩٣.

٤ . سورة التوبة، الآية ٧٣.

٥ . سورة المائدة، الآية ٩٢.



بالهداية التشريعية، ولعَمري فقد أدّى الرّسول الأعظم ﷺ واجبه على أكمل وَجه وفقاً لِما أمرَه به ربّه؛ وأمّا الهداية الباطنية والقلبية التي تُعرَف بالهداية التكوينية فلم تَكن ضمن مسؤوليّاته ﷺ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ ولَم تُدرَج في لائحة وظائفه وواجباته كما قال ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1].

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[2] فلو أراد الله ﷻ من الناحية التكوينية أن يكون الناس جميعاً مؤمنين لأصبحوا مؤمنين بالتأكيد بإذن الله دون استثناء لأنّ إرادة الله التكوينية المتمثّلة في إيجاد الشيء لا يمكن أن يعترضها شيء، لكنّ حكمته قضت أن يجعل الناس أن يؤمنوا باختيارهم وحريّتهم ولذلك فليس بمقدور نبيّه الكريم ﷺ إجبار الناس على الإيمان وقبول الدّين تكوينياً.

والظاهر من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ...﴾ أنّ المُخاطَب هو الرسول الأعظم ﷺ إلّا أنّ مضمون الآية الشريفة يشمل أمّة النبيّ ﷺ كلّها، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ...﴾[3]؛ إذاً، فحتى الأمّة لا يجوز لها أن تُجبر الآخرين على قبول المعارف الدينية أو العمل بموجبها.

تطييب خاطر النبيّ ﷺ

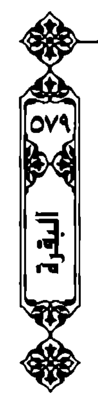
من الواضح أنّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ هو لتطييب خاطر النبيّ الأكرم ﷺ وتسكينه لأنّ الرّسول الكريم ﷺ لم يكن يُحبّ أُمّته حبّاً عادياً

---

١. سورة القصص، الآية ٥٦.

٢. سورة يونس ﷺ، الآية ٩٩.

٣. سورة التحريم، الآية ٩.



وحسب بل كان ﷺ أحرص عليها من نفسها، وليس منطقياً أن يَصف الله سبحانه وتعالى شخصاً ما أنّه أولى بأمور عباده منهم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾[1] إلّا إذا كان ﷻ يعلم أنّ ذلك الشخص هو أرأف بحالهم وأدرى بشؤونهم منهم.

ونلاحِظ أنّ الآية الأخيرة تتضمّن تشبيهاً للمعقول بالمَحسوس، والمَحسوس هنا هو أنّ كلّ شخص أعلم بمصالحه ولذلك نراه يسعى لتحقيق تلك المصالح، وأمّا المعقول في الآية فيتمثّل في تشبيه الأمّة الإسلامية جمعاء بشخص واحد وتشبيه خاتم النبيّين ﷺ بأنّه الرّوح التي تجمع أفراد تلك الأمّة والنّفس الكليّة لها؛ وعليه، فلا ريب في أنّ تلك الروح الجامعة والنّفس الكليّة تعلم مصالح الأمّة كعِلمها بمصلحتها الشخصيّة، بل هي أعلم بمصالح الأمّة من الأمّة نفسها، وهي لا ترتاح حتى تُحقّق المصالح المشروعة للأمّة بحرص شديد يفوق حِرص أفراد الأمّة أنفسهم في تحقيق مصالحهم، وهكذا فقد تمّ تشبيه ذلك المحسوس بهذا المعقول.

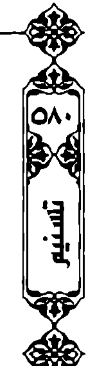
ولكون الرّسول الأعظم ﷺ أدرى بمصالح أمّته منها وأقدر على تحقيق تلك المصالح، بل وأحرص عليها من نفسها وأرأف عليها منها قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، فإنّ الحقّ تعالى أراد في الآية الّتي هي موضوع البحث أن يطيّب خاطر نبيّه الكريم ﷺ وألّا يَقلق بسبب غيّهم أو يحزن لعدم إيمانهم، لذلك فقد نَصحه سبحانه قائلاً: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[3] و﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ

---

١ . سورة الأحزاب، الآية ٦.

٢ . سورة التوبة، الآية ١٢٨.

٣ . سورة فاطر، الآية ٨.



نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[1].

احتمالان آخران

قد يكون هناك احتمالان آخران لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ هما:

١. أشرنا إلى أنّ قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ هو لتطييب خاطر النبيّ ﷺ لئلّا يحزن على إصرار بعض أفراد أمّته على الكُفر وعدم الإيمان بما جاء به من عند الله؛ ولكن ثمّة احتمال آخر يقول: إنّ دخول حرف الجرّ «عَلى» في ﴿عَلَيْكَ﴾ ربّما أشارَ إلى أنّ البعض كان يتوقّع أن يعمد النبيّ الأكرم ﷺ إلى إجبار الناس وإكراههم على قبول المعارف الإلهية والإذعان لها والعمل بموجب الأحكام الإسلامية، فأراد الله ﷻ أن يبيّن في هذه الآية أنّ تصوّر أولئك لا أساس له من الصحّة؛ وأمّا قوله تعالى مثلاً في آية أخرى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[2] ـ ودخول اللام بدلاً من «على» ـ فهو جواب على ما توقّعه البعض من أن يقوم النبيّ ﷺ نفسه ببعض الأمور بشكل مستقلّ من دون الرّجوع إلى إذن من الله ﷻ، فأخبرهم الله تعالى بعدم قدرة النبيّ ﷺ على فعل شيء إطلاقاً إلّا بعد حصوله على الإذن الإلهيّ.

٢. رغم أنّ الحُسن الفعليّ والحُسن الفاعليّ هما العنصران المحوريّان لموضوع الإنفاق من دون أن يكون للحُسن القابليّ أيّ دور في ذلك، أي إنّ إسلام المُستلِم للنفقة أو الصّدقة أو إيمانه لا يشكّلان أيّة أهميّة في موضوع الإنفاق، إلّا أنّ الإطلاق الذي تتضمّنه الآية الشريفة (آية الإنفاق) يمكن أن يشمل تلك النقطة كذلك حيث كان من المتعارَف عدم إعطاء الصّدقة أحياناً إلى الكافر أو المُشرك

---

١. سورة الكهف، الآية ٦.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٢٨.



المحتاج لعدم إيمانه؛ وعليه، يمكن أن يكون إطلاق الآية سبباً لنَفي ضرورة إسلام الفقير المُستحقّ للصّدقة كما تمّ من قَبل نَفي قبول إنفاق غير المُوحِّد. ومهما يكن من أمر فإنّ الشّرط الفقهيّ للصّدقة ـ كزكاة الأموال وزكاة الفطرة ـ له حُكمه الخاصّ.

والخلاصة، أنّ إجبار المُنفِق الكافر على قبول التوحيد لكي يكون إنفاقه صحيحاً من الناحية الدينية أو إكراه المُستَلِم للصّدقات على اعتناق الإسلام ليتمّ الإنفاق عليه لا يقعان ضمن المسؤوليّات الرّسالية للنبيّ الأعظم ﷺ، ويمكن لهذا المعنى الجامع أن يشمل أيضاً الآية الّتي هي موضوع البحث.

فعل الخير يعود على الفاعِل

لا شكّ في أنّ فعل الخير يعود على صاحبه ولا يصبّ إلّا في مصلحته هو قبل أيّ شخص آخر، وإن أنابَ عنه مَن يقوم بذلك الفعل أو تبرّع به نيابة عنه وذلك لقول الله سبحانه: **﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ﴾**؛ وأمّا ما يخصّ النيابة فقد ورد في الروايات المتعلقة بالحجّ أنّ تسعة أعشار ثواب الحجّ تكون لصالح النائب الحاجّ فيما لا يحصل المنوب عنه إلّا على عُشر واحد فقط[1]. وفي

١ . «رُويَ أنّ الإمام الصّادق عليه السلام أعطى رَجلاً ثلاثين ديناراً فقال له: "حجّ عن إسماعيل وافعل وافعل، ولكَ تِسع وله واحدة". قوله عليه السلام: "وافعل وافعل": أي إفعل كذا وكذا، وعدّ عليه المناسك من العمرة إلى الحجّ واشترط عليه كلّها حتى السّعي في وادي (محسر)، (كما في **الكافي**، ج٤، ص٣١٢ و**التهذيب**، ج١، ص٥٧٦) حيث رَويا عن عبد الله بن سنان قال: كنتُ عند أبي عبد الله عليه السلام إذ دخل عليه رجل فأعطاه ثلاثين ديناراً يحجّ بها عن إسماعيل ولم يترك شيئاً من العمرة إلى الحجّ إلّا اشترط عليه، حتى اشترط عليه أن يسعى [في] وادي محسر، ثمّ قال: "يا هذا! إذا أنتَ فعلت هذا كان لإسماعيل حجّة بما أنفق من ماله وكان لك تسع بما أتعبت من بدنك"». [المترجم]. (**من لا يحضره الفقيه**، ج٢، ص٤٢٦)؛ أنظر أيضاً: **وسائل الشيعة**، ج١١، ص١٦٥.



النيابة تكون النيّة من قِبَل النائِب وله من ذلك التقرّب إلى الله سبحانه، لكنّ الله تعالى مَنّ على المَنوب عنه وذلك بتخفيف عِبئه وتَعبه، وعليه فإنّ عمل الخير يعود بالدرجة الأولى إلى فاعِله ويصبّ في منفعته ومصلحته وإن كانت دائرة خيره ونَفعه تشمل الآخرين كذلك.

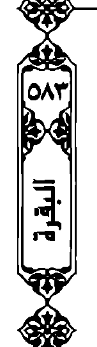
ومُجمل الكلام هو أنّ ورود حرف «اللام» في مثل هذه الحالات يشير إلى الاختصاص، وبما أنّ المقصود هو الفائدة والمنفعة فإنّ مضمون الآية الشريفة بالتحديد هو الاختصاص، وفي الحالات التي تتضمّن وجود حرف الجرّ «عَلى» فإنّ المعنى يشير إلى المنفعة لأنّ المُراد هو الفصل بين المنفعة والخسارة مثل قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[1].

هذا، ويتضمّن القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تشير إلى هذا المبدأ (أي، اختصاص العَمل بالعامِل)، إلّا أنّ الآية الشريفة من قوله ﷻ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[2] قد جمعت تلك المعاني كلّها في مكان واحد. واستناداً إلى هذه الآية الكريمة فإنّ نتيجة العمل ـ سواء أكان العملُ حَسناً أم قبيحاً ـ تعود إلى العامل وليس غيره، لأنّ حرف الجرّ «اللام» في كَلمتَيْ ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ و﴿فَلَهَا﴾ يُفيد الاختصاص لا النّفع وإن كان الواقع يشير إلى امتزاج الاختصاص بالنّفع.

والنتيجة العمليّة لكلّ ما قلناه سابقاً هي أنّ الإنفاق هو خير يعود على المُنفق قبل أيّ شخص آخر ويصبّ في مصلحته هو بالدرجة الأولى، وعليه، لا يجوز له المَنّ على مُستلِم الصّدقة أو الآخِذ للنفقة أو إيذائه أو الإنفاق عليه من المال الخبيث أو الحرام. وكلّنا يعلم أنّ مَن يُريد الإنفاق على نفسه أو يُضيّفها فإنّه يحبّ

١ . سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

٢ . سورة الإسراء، الآية ٧.



فعل ذلك من أفضل أمواله وأجودها دون أن يشعر بأنّه يمُنّ على نفسه أو يتسبّب لها بأذى، كما أنّه يكون محفوظاً ومُصاناً من تَبعات الرّياء وعواقب التشهير.

تذكير: ١. ما من شكّ في أنّ الإنفاق الملوّث بالمعاصي المذكورة لا يُعدّ خصلةً حَسنة أبداً، ولأنّه يفتقد إلى الحُسن المطلوب فهو أمر عدميّ لا منفعة تُرتَجى منه لفاعله، لكنّ المَنّ والإيذاء والرّياء والشهرة كلّها مسائل ثبوتية وهذه الأفعال القبيحة هي السبب في إيجاد الرذائل النفسية من جهة، واستحقاق العذاب من جهة أخرى. ويمكننا استنباط هذا الأمر (أي، فقدان الحسنة وظهور السيئة بدلاً منها) من الآية الشريفة في قوله تعالى: ﴿... **أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ**﴾[1].

٢. إنّ الإنفاق الجامع للميزتيْن الحسنتيْن المذكورتيْن آنفاً يعود بالمنفعة والخير على المُنفِق ولا يقتصر النّفع أو الخير بالثواب أو الزيادة في المال وما شابه ذلك بل يتعدّاه ليشمل أهمّ مسألة في حياة الإنسان ألا وهي تثبيت النّفس ﴿**وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾[2] الذي ذكرناه عند تفسيرنا للآية الشريفة (٢٦٥) من سورة البقرة، ولا ريب في أنّ «تثبيت النّفس» يُعتبر أفضل المنافع وأكثرها خيراً على المُنفِق لأنّ ذلك معناه بقاء الروح الملكوتية محفوظة ومُصانة من عوارض الاضطراب وأخطار الوساوس الشيطانية وغيرها من العواقب الوخيمة.

ضرورة الإخلاص في الإنفاق

بالنّظر إلى الآيات السابقة التي تمّ فيها بحث المسائل المتعلقة بموضوع الإنفاق وخصوصيّاته وتفاصيله على شكل أوامر ونواهي ووعد ووعيد، فإنّه

---

١. سورة النور، الآية ٣٩.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٦٥.



ينبغي على المؤمنين أداء الإنفاق بمواصفاته الدينية المطلوبة ولهذا اعتبر الله سبحانه وتعالى امتثال المؤمنين لهذا الأمر الإلهيّ مسألة بديهية فقال ﷻ: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ الله﴾ وهو استمرار للسياق المذكور، أي إنها تُعيد إلى الأذهان قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ...﴾[1]، وعليه، تُصبح جملة: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ الله﴾ بمثابة خَبر ورد بهدف الإنشاء، ومعناه: لا تُنفقوا إلّا ما كان في سبيل الله سبحانه.

ولا تختلف جملة ﴿ابْتِغَاء وَجْهِ الله﴾ عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ الله﴾، ويأتي ذكرها وتكرارها مرّة أخرى للتشديد على هذه المسألة الهامّة وهي أنّ إنفاق الخير لا ينحصر في أن يكون على الفقير أو على المسجد أو غيرهما، بل إنّ مساعدة الفقراء والمساكين وإنشاء المرافق ذات المنفعة العامّة تُمثّلان جانباً واحداً فقط من إنفاق الخير، وإنّ الأهمّ من ذلك كلّه هو تحقّق الحُسن الفاعليّ للإنفاق، وما اكتمال الحُسن الفاعليّ إلّا في كون المقصود من الإنفاق هو الحصول على مرضاة الله ﷻ، وللوصول إلى هذا الهدف السامي يجب على المُنفق أن يتحاشى الرّياء في عمله.

استمرار الإنفاق إلى يوم القيامة

تُمثّل جملة: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ الله﴾ جسراً يربط بين الجُمَل السابقة وآصرة تجمع بين الجُمَل التالية؛ واستناداً إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ﴾ فإنّ خَير الإنسان يعود إلى الإنسان نفسه، ووفقاً لقوله سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ فإنّ العامِل للخير سيتسلّم أجره وثوابه كاملاً غير منقوص.

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٦٧.

لكن، كيف يتمّ الحفاظ على عمل الخير وتسليم نتيجته إلى المرء وقد ينسى فاعل الخير أو المُستلِم له أو كلاهما ما قاما به في هذه الدّنيا وانتقالهما معاً إلى عالَم آخر ويصبح المكانُ والزّمان اللذان حدث فيهما الإنفاق عدمين؟

الجواب على هذا السؤال هو أنّ مفاد الآية الشريفة: ﴿**وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ اللهِ**﴾ هو أنّكم ـ أيّها المؤمنون ـ لا تُنفقون شيئاً إلّا بقصد القربة إلى الله وفي سبيله وابتغاء وجهه الكريم، ومن المعلوم أنّ الخير الذي يُؤدّى في سبيل الله وابتغاء وجهه يُدوّن في كتاب مُبين[1] لأنّ وجه الله ﷻ لا يموت ولا يفنى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾[2]؛ فقد يفقد الإنسان حياته الطبيعية لكنّ روحه تبقى خالدة ومسجّلة في الكتاب المُبين وسوف تُخرَج له كما هي يوم القيامة.

الحصول على مرضاة الله ﷻ

يظنّ بعض الناس أنّ بإمكانهم جذب اهتمام الآخرين ـ غير الله سبحانه بالطّبع ـ بالتحايل والخداع، غافلين عن أنّ الحيلة والخدعة والمعاصي الأخرى ليست سوى سراب وأنّ هذا الأخير لا يقدر على جذب انتباه الطرف الآخر أو جلب اهتمامه على الإطلاق. فعلى سبيل المثال لم تأتِ المؤامرة التي حاكها إخوة يوسف عليه السلام ضدّه لهم إلّا بنتيجة عكسية تماماً وعاقبة السّوء، وقد أجاب سبحانه فيما بَعد بكلّ صراحة على الفكرة السيئة والتصوّر الخاطئ اللذين كانا

١. قال تعالى: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾ [يس/ ١٢]؛ و﴿**وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنعام/ ٥٩]؛ و﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاء وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [يونس/ ٦١]؛ و﴿**عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾. [المترجم]

٢. سورة القصص، الآية ٨٨.

يراودان أولئك الإخوة بقولهم: ﴿اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾[1] على لسان نبيّه يعقوب عليه السلام بقوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[2]. ورغم أنّ إخوة يوسف عليه السلام لم يرتكبوا فعلتهم القبيحة تلك ليجلبوا انتباه أبيهم نحوهم بشكل عامّ، لكنّما أرادوا بذلك حصر ذلك الاهتمام واقتصاره عليهم وحدهم وبشكل كامل دون غيرهم؛ وأمّا ما يخصّ الله عزّ وجلّ في هذه المسألة فإنّه لا يمكن لأيّ مخلوق أن يحظى برضاه أو يجلب اهتمامه إلّا بالجمع بين تلكما الصّفتيْن الحُسنيَيْن (الحُسن الفعليّ والحُسن الفاعليّ).

الله عزّ وجلّ خير مَن يُوفّي الأجور

لا ريب في أنّ إنفاق الخير هو أمانة ترعاها يَد الله سبحانه الذي سيُعطي أجر ذلك للمُنفِق كاملاً ويُوفّي إليه ثوابه يوم القيامة دون نقص: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ بتمامه كما أكّد تعالى ذلك بقوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ باعتبار أنّ صدور الظلم عن الله سبحانه ـ حاشا له ـ محال تماماً: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[3] كما أنّ المؤمنين الحقيقيّين لا يتصوّرون مثل هذا الظلم في مخيّلتهم إطلاقاً ولو للحظة واحدة؛ أمّا الكافرون فقد يخطر ببالهم مثل هذا الهُراء أو الظنّ السخيف وأنّهم قد ظُلِموا في هذه المسألة أو تلك، إلّا أنّ القرآن الكريم يصرّح بأنّ تصوّرات هؤلاء باطلة. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[4] ما يعني أنّ الله عزّ وجلّ لم ولَن يظلم أبداً، لا هؤلاء ولا غيرهم، بل هؤلاء هم الذين يظلمون أنفسهم بأفعالهم السيئة وأعمالهم الشرّيرة.

---

١ . سورة يوسف عليه السلام، الآية ٩.
٢ . سورة يوسف عليه السلام، الآية ١٨.
٣ . سورة الكهف، الآية ٤٩.
٤ . سورة آل عمران، الآية ١١٧.

وكما أشرنا آنفاً، وبالاستناد إلى سياق الآية الشريفة، فإنّ عبارة: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ هي تأكيد على قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾؛ وإذا تجاوزنا هذه المسألة فإنّ العبارة المذكورة توضّح قوله ﷻ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

والحاصل هو أنّ الإنسان الذي يفعل الخير إنّما يقوم في الحقيقة بتأثيث داره وتعمير وترميم مسكنه في الآخرة وهو ما أشار إليه القرآن الكريم قائلاً: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[2]، ومَثَل ذلك كمثل المسافر الذي يُكلّف شخصاً قبل وصوله من السّفر بتنظيف مسكنه وتهيئة منزله وتنظيم محتوياته وترتيب أثاثه ليكون جاهزاً لخدمته عند عودته.

إلماعة: بالاستناد إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ فإنّ الإنفاق من المال الخبيث لا الطيّب غير مقبول ولا مُثاب إذ كما قلنا إنّ ثمرة الإنفاق ونتيجته تُؤدّيان إلى المُنفق كاملاً كما هو، وعليه، فإنّ الإنفاق من المال غير الطيّب لن ينفع صاحبه ولا يمكن أن يكون له متاعاً طيّباً في الآخرة.

إشارات ولطائف

١ . مظهر الفيض الإلهيّ

رغم أنّ القرآن الكريم لا يعتبر الهداية التكوينية ولا إيصال الناس إلى الهدف المطلوب من ضمن الواجبات التي تقع على عاتق الرّسول الأعظم ﷺ إلّا أنّه يؤكّد على أنّ النبيّ ﷺ يُمثّل مجرى فيض الخالق ومظهر لطفه الخاصّ، إذاً، فكلّ ما يصل إلى الخَلق من نعمة إنّما هو من بركة وجود خاتم النبيّين ﷺ:

---

١ . سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و ٨.

٢ . سورة الرّوم، الآية ٤٤.



﴿وَمَا نَقَمُواْ إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾[1] حيث نلاحظ في هذه الآية الشريفة أنّ الله سبحانه وتعالى يَنسب الفضل والنّعمة إلى رسوله الكريم ﷺ كذلك، وعليه، يكون للنبيّ الأعظم ﷺ دور كبير في الغنى العلميّ والمالي والمادّي والمعنوي، وإذا كانت شمسنا لا تنير إلّا عالمنا هذا فإنّ الوجود المبارك للنبيّ ﷺ يُضيء كلّ الوجود من نور الله ﷻ.

وتجدر الإشارة إلى أنّه أينما ذُكِر اسم الرّسول ﷺ في القرآن الكريم بوصفه مجرى الفيض الإلهيّ إلى جانب لفظ الجلالة ﴿الله﴾ فإنّ الضمير المُستخدَم له في ذلك الفضل أو الفيض هو المفرد وليس المثنى مثل قوله تعالى: ﴿أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ لأنّ الموجود الممكن لا يمتلك إلّا الفيض الذي يَهبه له الله سبحانه، ولهذا فإنّ الرّسول الأعظم ﷺ يُعتبر مظهر فيض الله ﷻ وليس مستقلاً عنه، ولذلك إنّ الله تعالى لم يَقُل: «مِن فَضلِهما».

٢ . ذات الإنسان الأصلية والفرعية

قد يتجاهل أو ينسى بعض الأشخاص ذواتهم الأصلية ويدورون في مدار وهميّ حول ذواتهم البديلة المزيّفة أو الفرعية، وكما هو معلوم فإنّ نفس الإنسان النباتية والحيوانية والتي تُدعى بالدرجة النازلة للنّفس ما هي إلّا أداة وفرع وهبهما الله إلى الإنسان ليستخدمهما كسلّم للصعود إلى النَفس الأصيلة. وحول هذه الفئة من الناس يقول القرآن الكريم: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[2].

وفي موضع آخر يحدّثنا القرآن الكريم كذلك عن هذه الجماعة قائلاً: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[3] مشيراً إلى أنّ هؤلاء لا

---

١ . سورة التوبة، الآية ٧٤.

٢ . سورة الحشر، الآية ١٩.

٣ . سورة آل عمران، الآية ١٥٤.

يهتمّون إلّا بذواتهم المزيّفة والمراحل الدنيا من درجات النّفس ولا يشغل بالهم سوى الأكل والشّرب والمسكن والملبس غير آبهين بذواتهم الأصلية التي اشتروا بها ذواتاً فرعية مزيّفة.

وفي المجالات المالية والاقتصادية كذلك ترى هؤلاء يعملون أحياناً لحساب ذواتهم الأصلية وفي أحيان أخرى يكدّون ويعملون لصالح ذواتهم المزيّفة؛ فأمّا الذين يُنفقون أموالهم أو أيّ نعمة أنعمها الله تعالى عليهم ابتغاء مرضاته والرّجاء في التقرّب إليه فإنّهم لا يفكّرون إلّا بذواتهم الأصلية وهؤلاء هم مصداق الآية الشريفة: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ﴾[1]؛ وأمّا أولئك الذين لا يفكّرون إلّا بالاحتفاظ بالطبيعة ولا يهتمّون إلّا بحيوانيّتهم من خلال التمسّك بالمال واكتناز الذّهب والفضّة فلا يُعيرون أهميّة سوى لذواتهم الفرعية المزيّفة وهم مصداق قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾[2]. ومن المعلوم أنّ المقصود بكلمة ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ في الآية هي الذوات الفرعية المزيّفة التي تُدخَل جهنّم داخرة، وأمّا ذات الإنسان الأصلية التي هي روح الإنسان الإلهية والمذكورة في قوله سبحانه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[3] فتُدخَل الجنّة ولا تُساق إلى جهنّم إطلاقاً.

وتفصيل الكلام هو أنّ الكافر والمنافق وكلّ إنسان يكون من أهل النار يتناسون الروح الإلهية المنفوخة فيهم والمودعة لديهم بسبب الضلال والغيّ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[4] أو النسيان والهجر: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[5]

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٧٢.

٢ . سورة التوبة، الآية ٣٥.

٣ . سورة الحجر، الآية ٢٩.

٤ . سورة الشمس، الآية ١٠.

٥ . سورة الحشر، الآية ١٩.



وهؤلاء هم المعنيّون من جهة بقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾[1]، ومن جهةٍ أُخرى فهم مصداق ما وصفهم به الله ﷻ بقوله: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ﴾[2]، ولهذا فإنّ الروح الإلهية لدى هؤلاء ليست حيّة كروح إنسانية فعّالة ما يؤهّلهم للدخول إلى النار، ولهذا أيضاً يُقال: إنّ مَن يدخل جهنّم إمّا أن يكون مصداقاً للحيوان أو للشيطان وإن كانت صورته صورة إنسان اعتياديّ.

٣. منشأ صدور الأمر

لا شكّ في أنّ «وَجه الله سبحانه» هو منشأ صدور الأوامر، فالأمر مثلاً بالإماتة والأمر بتوفّي المَلَك عزرائيل عليه السلام بل وكذلك الأمر بإماتة الموت ورفع العدم والزوال عن الوجود وأن تصبح كلّ الأشياء خالدة لا تَفنى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾[3] كلّ تلك الأوامر تصدر عن وَجه الله ﷻ الذي لا يَفنى ولا يزول؛ وعليه، فإذا قامَ الإنسان بفعل الخير بإخلاص تامّ وخلوص كامل من أجل الوصول إلى مقام «وَجه الله» فإنّ سَعيه سيكون مشكوراً ومحفوظاً وستُعاد ذخيرة ذلك إليه كاملة يوم القيامة.

بحث روائيّ

شأن النّزول

رَوى سَعيد بن جُبَيْر مُرْسلاً عن النبيّ ﷺ في سَبب نزول هذه الآية: أنّ المسلمين كانوا يَتَصدّقون على فُقراء أهل الذمّة، فَلَمّا كَثر فقراء المسلمين، قال

---

١. سورة الفرقان، الآية ٤٤.
٢. سورة الأنعام، الآية ١١٢.
٣. سورة الدّخان، الآية ٥٦.

رسول الله ﷺ : «لا تَتَصَدّقوا إلّا على أهْلِ دِينِكم»؛ فنزلت هذه الآية مُبيحة للصّدقة على مَن ليس مِن دين الإسلام[1].

ـ وذكرَ النقّاش أنّ النبيّ ﷺ أُتي بِصَدقات فجاءَه يهوديّ فقال: أعطني. فقال النبيّ ﷺ : «لَيْس لَكَ مِن صَدَقة المسلمينَ شَيء». فَذهبَ اليهوديّ غير بَعيد فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾. فَدَعاه رَسول الله ﷺ فأعطاه؛ ثمّ نَسخ الله ذلك بآية الصّدقات[2].

ـ عَن ابن عباس قال: كان أُناسٌ مِن الأنصار لهم أنساب وقرابة من قريظة والنضير وكانوا يتّقون أن يَتَصدّقوا عليهم ويُريدونهم أن يَسلموا؛ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ...﴾[3].

ـ عَن ابن عباس: إنّ النّبي ﷺ كانَ يَأمرنا ألّا نَتَصدّق إلّا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية... فأمرَ بالصّدقة بَعدها على كلّ مَن سَألك مِن كلّ دِين[4].

ـ قيلَ كانت أسماء بنت أبي بكر مع رسول الله [ﷺ] في عمرة القضاء فجاءتها أُمّها قَتيلة وجدّتها تَسألانها وهُما مُشركتان؛ فقالت: لا أُعطيكما شيئاً حتى أستأذن رسول الله ﷺ فإنّكما لَستما على ديني؛ فاستأذنَته في ذلك، فأنزلَ الله هذه الآية[5].

---

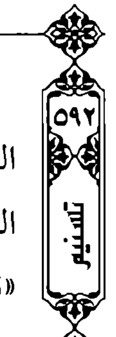
١ . الجامع لأحكام القرآن، مج٢، ج٣، ص٣٠٦؛ تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص٨٧؛ رَوض الجنان، ج٤، ص٨٢.

٢ . الجامع لأحكام القرآن، مج٢، ج٣، ص٣٠٦.

٣ . تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص٨٧؛ رَوض الجنان، ج٤، ص٨١.

٤ . تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص٨٦.

٥ . تفسير مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٦٦٣؛ رَوض الجنان، ج٤، ص٨١.



إشـارة: ١ . يبـدو أنّ قبـول مـضمون الروايـات المـذكورة تكتنفـه بعـض الصعوبات بغضّ النظر عن السّند. وحكى الطّبري أنّ مَقصد النبـيّ ﷺ بِمَنـع الصّدقة إنّما كان ليَسلموا ويَدخلوا في الدّين[1]؛ وأمّـا القرطبـيّ فيقـول في ذلـك: «قال عُلماؤنا: هذه الصّدقة التي أُبيحَت لهم حسب ما تَضمّنته هـذه الآثـار هـي صَدقة التطوّع، وأمّا المفروضة فلا يُجزئ دَفعها لكافر»، وقد اسـتند القرطبـيّ في كلامه هذا إلى حديث شريف للنبيّ ﷺ يقول فيه: «**أُمِرْتُ أن آخُذَ الصّدَقةَ مِـن أغْنيائِكم وَأرُدّها في فُقَرائِكم**»[2].

٢ . بصرف النّظر عن الصّدقات الواجبة المعروفة، قد تُصبح الصّدقة واجبـة لحفظ النّفس المحترمة، وهنا ليس ثمّة فرق بـين مـا إذا كـان المُستحقّ للـصدقة مؤمناً أو كافراً غير مُحارب يعيش في كَنـف الحكومـة الإسـلامية في أصـل لـزوم الإنفاق.

* * *

---

١ . الطّبري، تفسير جامع البيان، مج٢، ج٣، ص١٢٢.

٢ . الجامع لأحكام القرآن، مج٢، ج٣، ص٣٠٧.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾

خلاصة التفسير

يُعتبر الفقراء من أفضل الموارد التي يجب التصدّق فيها من بين الأشخاص الحقيقيّين لأنّهم حُرموا من الاتّجار أو الاشتغال في بعض المجالات الاقتصادية بسبب مجموعة من العوامل أو العوائق الخارجية أو الداخلية.

والمعروف أنّ هؤلاء الأفراد يسعون إلى العيش مع الحفاظ على كرامتهم ورفض طلب شيء من الناس، وعدم إلحاحهم في السؤال حتى في الحالات الطارئة، حتى يحسبهم الكثير من الناس الجاهلين لحقيقتهم وواقعهم أغنياء وغير محتاجين؛ إلّا أنّ النبيّ ﷺ يمكنه تمييز هؤلاء الفقراء من خلال النّظر إليهم، لكنّ عِلم النبيّ ﷺ بهؤلاء ومعرفته مدى فَقرهم لا يُسيء أبداً إلى كرامتهم ولا يُنقص من احترامهم.



التفسير

المُفردات[1]

التَّعَفُّفِ: «تَعَفَّفَ» بمعنى اختارَ العفاف وفضّله، والأصل الواحد في هذه المادّة هو حفظ النّفس عن ميولِها وشهواتها النّفسانيّة، كما أنّ التّقوى هي حفظ النّفس عن المحرّمات وعمّا يُوجِب الخلاف والعصيان. فالعفاف في كلّ شخصٍ من المرأة أو الرّجل أو الشابّ أو الفقير أو الغنيّ وغيرهم إنّما يتناسب مع حالة كلّ واحد منهم، فالتعفّف في الفقير إنّما يتحصّل بالقناعة بما يتيسّر له وحفظ القلب عن ميوله وشهواته[2]. و«التعفّف» كالتمهُّر، وهو المبالغة في العفّة وليس التكلّف فيها[3].

بِسِيمَاهُمْ: الأصل الواحد في هذه المادّة هو عرض شيء وجعل شيء في مَعرض لشيء آخر، و«السِّيما» لغة في (سِوْمة) على وزن (فِعْلَة) للنّوع، بمعنى نوع من العرض المطلق طبيعيّاً أو إراديّاً، والمُراد هنا ظهور صفات الباطن وتجلّي مراتب القلب من النور والظّلمة في الوجوه طبيعيّاً. فظهر أنّ الأصل في جميع موارد استعمال المادّة هو العرض وإبراز ما في القلب أو الباطن طبيعيّاً أو إراديّاً في أمر مادّي أو معنويّ[4].

---

١ . لمزيد من المعلومات حول معنى كلمة «أُحصِروا»، راجع: تفسير تسنيم، ج١٠، ص٢٥ ـ ٢٦، ذيل الآية «١٩٦» من سورة البقرة.

٢ . العلّامة المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٨، ص١٨٠، مادّة (ع ف ف).

٣ . «عَفَّ الرجلُ (من باب: ضَرَبَ يَضْرِبُ) عَفّاً وعَفافاً وعَفافَةً وعِفَّةً: كَفَّ وامْتَنَعَ عمّا لا يَحلّ ولا يجمُلُ قولاً أو فِعلاً، فهو عَفٌّ وعَفيف وهي عَفَّةٌ وعَفيفَة... واعتَفَّ الرجلُ عن الخبيث: كَفَّ عنه.. وهُم أعِفَّة الفَقْر: إذا افتَقَروا لم يَغشوا المسألة القبيحة». (**معجم النّفائس الكبير**، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد أبو حاقَة، مادّة «ع ف ف»). [المترجم]

٤ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٥، ص٣٢٢، مادّة (س و م).



إِلْحَافًا: الأصل الواحد في هذه المادّة هو انطباق شيء على شيء وتغطيته مع ملازمة، ومن مصاديقه اللّحاف أو اللباس المشتمل المنطبق على البدن، و«الإلحاف مع السؤال» هو السؤال مع الإصرار والإلحاح بحيث يحيط فكر الطرف ويسلب اختياره[1][2].

تناسب الآيات

تُعتبر هذه الآية استمراراً لآيات الإنفاق السابقة وهي تبيّن أنّ الفقراء الأعِفّاء هم أفضل مصدر يمكن أن يُنفَق فيه، ولاسيّما الذين افتقروا منهم وأصبحوا مُحتاجين بسبب طاعتهم لله سبحانه وهم يعيشون بقناعة تامّة بحيث لا يشعر بهم الآخرون ويحسبون أنّهم أغنياء[3].

❋ ❋ ❋

موارد صرف الصّدقة

عندما يكون الأشخاص الحقيقيّون كالفقراء هم مصدر صَرف الصّدقة والإنفاق ينبغي مُراعاة أحوالهم والاهتمام بشؤونهم، فمنهم مَن يُلحّ في سؤاله ويُصرّ على طلبه، ولا يهدأ له بال ولا يترك المسؤولين حتى يأخذ ما جاء من

---

١ . المصدر السابق، ج١٠، ص١٧١ ـ ١٧٢، مادّة (ل ح ف).

٢ . «اللِّحاف والمِلْحَفُ والمِلحفة: اللِّباس الذي فوق سائر اللباس من دِثار البرد ونحوه؛ وكل شيء تغطَّيت به فقد التَحَفْت به. واللِّحاف: اسم ما يُلْتَحف به... ولاحَفْتُ الرجلَ مُلاحَفة: كانَفْتُه... وأَلحف السائلُ: أَلَحَّ؛ والإلحاف: شدة الإلحاح في المسأَلة... ومعنى أَلحف أي شَمِل بالمسأَلة وهو مُستغْنٍ عنها. قال: واللِّحاف من هذا اشتقاقُه لِأَنه يشمل الإنسان في التغْطية». (لسان العرب، مادّة «لحف»). [المترجم]

٣ . أنظر: تفسير مجمع البيان، ج٢١، ص٦٦٦.



أجله، وهؤلاء ليسوا من الفقراء الطيّبين؛ ومن الفقراء كذلك فئة لا تجرُؤ على السؤال، وفي الحالات الطارئة لا يطرحون سؤالهم ولا يُبيّنون ما فيهم من الخصاصة إلّا ما كان في إطار الواجب الشرعيّ ولا يلحّون في طلب الصّدقة إطلاقاً. وهذه الفئة من الفقراء هم الأعِفّة وليسوا مضطرّين إلى توضيح ما بهم من الفقر إلّا بالشكل الذي ذكرناه، ففي الحالات التي لا يعرف فيها الشخص مَن هو المُستحقّ للزكاة ولم يُعلن المستحقّ عن استحقاقه وحاجته فإنّ هذا الأخير لن يحصل على ما يحتاجه، وهنا يجب عليه إظهار حاجته وبيان استحقاقه ليعلم الآخرون ذلك.

وهناك فئة ثالثة من الفقراء لا يسألون أحداً على الإطلاق لكنّ حاجتهم ليست بسبب مسكنتهم واستحقاقهم ولا يكون لشيخوخة أو مَرض، بل سبب ذلك هو صرف مُعظم سنيّ حياتهم في العمل في سبيل الله فلم يسعهم الاشتغال في التجارة، مثل الأبطال الذين يُقاتلون في جبهات القتال أو طلاب العلوم الدينية أو المتطوّعين الذين يمكن تشبيههم بأهل الصفّة حيث تراهم جاهزين ومستعدّين على الدّوام للدفاع عن حياض الإسلام وحماية المسلمين. وهؤلاء الفقراء الذين سنذكرهم بعض صفاتهم في الصفحات القادمة، هم الفقراء الطيّبون من الدرجة الأولى، ولا ريب في أنّ صرف الصّدقات على هؤلاء أفضل أجراً وأكثر ثواباً.

وجدير بالذّكر أنّ قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ الذي ورد دون معيّة حرف العطف «الواو» يشير إلى حقيقة مفادها أنّ سبب حاجة هؤلاء والعلّة في عدم استطاعتهم العيش كما يعيش الآخرون إنّما هو حصرهم وانحباسهم في سبيل الله وليس العجز أو الشيخوخة أو المرض؛ إذاً، فالعبارة المذكورة تشير إلى عدم وجود المَلَكة، أي إنّ هؤلاء، وبسبب حرمانهم من مصدر

إرثيّ أو عدم وجود مَن يتكفّل أسباب معيشتهم، كانوا مؤهّلين للعمل وممارسة الاشتغال، ولكن، بسبب انحصارهم في الاشتغال في سبيل الله، لم يتمكّنوا من الترحال والسّفر والتجارة والعَمل والتكسّب.

والخلاصة هي أنّ البعض استمرّ في العمل والدراسة بالعلوم الدينية على نحو مستمرّ بسبب الوجوب العينيّ أو الوجوب الكفائيّ، وقبول مثل هذه الوظائف أو المسؤوليّات لا يؤمِّن لأصحابها النفقات اللازمة للمعيشة، مثل الاشتغال في دراسة العلوم الدينية أو تعلّم الفنون القتالية والعسكرية للدّفاع عن البلاد ومواجهة أعداء الإسلام، وهؤلاء هم مصداق قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾.

وبعبارات أخرى نقول: يلجأ بعض الناس إلى الاشتغال بالعلوم الدينية كحفظ القرآن الكريم والأحكام الدينية لكونه عاطلاً أو مُتعطّلاً، وفي أحيان أخرى نراهم مستعدّين من الناحية الدفاعية والعسكرية لدَعم المجاهدين والمقاتلين، وتارة نرى هؤلاء أنفسهم يُحاربون في جبهات القتال بشكل مباشر إلى جانب المقاتلين الآخرين، فيما نلاحظ البعض الآخر منهم يتطوّع للعمل في المراكز العلمية والعسكرية الدينية لحرصهم الكبير على صيانة كيان الدّين وأركانه والحفاظ على النظام الإسلاميّ والدّفاع عن الثغور وحماية أعراض المسلمين وما شابه ذلك. ولمّا كان هؤلاء يقضون مُعظم أوقاتهم في سبيل الله فإنّهم يعجزون عن توفير بعض حاجاتهم المعيشية، فلا هم أغنياء بالفعل ولا هم يملكون القدرة على الاشتغال ليصبحوا أغنياء بالقوّة. وهؤلاء الأشخاص يتّصفون بقدر كبير من المشاعر والأحاسيس ولهذا ينبغي على المُنفقين وضعهم على رأس لائحة المحتاجين وتقديمهم على المراكز والمنظمات والمرافق العامّة وذلك لاشتغال أولئك إمّا بالواجب العينيّ أو بالواجب الكفائيّ.



وينطبق ما ذكرناه من صفات هذه الفئة من الفقراء ومواصفاتهم على مَن عُرفوا في التاريخ بأهل الصفّة حيث رُوي أنّ جُلّ اهتمام هؤلاء الأشخاص كان مُنصبّاً على الشؤون الدينية بما فيها الثقافية والعلمية وكذلك ما يتعلّق بالدّفاع والجهاد ما أدّى إلى انحصار هؤلاء واقتصار أعمالهم على الاشتغال في سبيل الله فأصبحوا مساكين ومُعوَزين من الناحية الماديّة[1]. وتجدر الإشارة إلى أنّ حفظ القرآن الكريم ودراسة التفسير وتعلّم المعارف القرآنية كان من أهمّ الأعمال التي يفخر المسلمون بالقيام بها في عصر نزول الوحي وذلك تجنّباً لوقوع أيّ محاولة لتحريف آخر كتاب سماويّ وبذل أقصى جهودهم لحراسة هذا الكنز الإلهيّ الجليل الشأن. ويمكننا الإشارة كذلك إلى البعض ممّن يعملون على جمع الشّبهات وطرح الأسئلة وتحضير أجوبتها بإتقان مستندين في ذلك إلى محكمات القرآن الكريم وسنّة المعصومين عليهم السلام، وهؤلاء مشمولون أيضاً بالآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث.

والحاصل أنّ الآية تهدف إلى بيان الشخص المرجّح والمُفَضّل لأخذ الصّدقة أكثر من غيره ولا تمثّل تقييداً للآية الشريفة: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ...**﴾[2] ولهذا فإنّ جميع الفقراء المسلمين يستحقّون الصّدقات شرعاً

---

١ . «هاجر جماعة بدينهم إلى مدينة الرّسول صلى الله عليه وآله في عهده تاركين بلادهم وأموالهم وأهليهم، ولم يكن لهم في المدينة مسكن ولا عشيرة، ولم يجدوا فيها وسيلة للعيش، ولا يستطيعون السّفر طلباً للرّزق، ويبلغ عددهم (٣٠٠) وقيل (٤٠٠)، فلازَموا المسجد يتعبّدون فيه ويحرسون بيوت الرّسول صلى الله عليه وآله ويتعلّمون القرآن الكريم، وكان حفظ القرآن وتعلّمه من أفضل الطاعات، لأنّه حفظ للدّين، وفي الوقت نفسه كانوا يخرجون مع الرّسول في كلّ غزوة... وكانوا يُقيمون في صفّة المسجد ـ وهي موضع مُظلّل فيه، ومن هنا جاءت تسميتهم بأهل الصفّة. وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يُطيّب قلوبهم ويقول لهم: "أبشِروا يا أصحاب الصفّة فمَن لَقيني من أُمّتي على النّعت الذي أنتم عليه راضياً بما فيه، فإنّه من رفاقي". وهم أولى الناس بالصّدقة لهذه الآية التي نزلت بهم». (محمّد جواد مغنية، تفسير الكاشف، ج١، ص٤٢٧). [المترجم]

٢ . **سورة التوبة، الآية ٦٠.**

وهم أوجب لصرفها عليهم، لكنّ المحصورين والناذرين أنفسهم للعمل في سبيل الله هم المُقَدّمون على غيرهم.

وبسبب هذا الترجيح الخاصّ في صرف الصدقات على فئة مُعيّنة من الفقراء، قدّم القرآن الكريم (القانِع) على (المُعترّ) عند صرف الصّدقات أو تقديم القرابين في قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ الله لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ...﴾[1]، فالقانِع هو مَن يكتفي بما لديه من أسباب العيش ويَستحيي من سؤال الآخرين ويقنع بأخذ القليل، لكنّ (المُعترّ) يمكنه الحضور شخصياً والطلب من الآخرين وإن لم يتفوّه بأيّ كلام يشير إلى طلبه أو حاجته[2].

ورغم أنّ تقديم (القانِع) على (المُعترّ) هو تقديم لفظيّ وقد صاحبه وجود «واو العطف» وليس «الفاء» أو «ثُمّ»، إلّا أنّ التقديم اللفظيّ هو نوع من الإشعار بالتقدّم في التنفيذ والتطبيق أيضاً؛ وأمّا تقدّم «السّائِل» على «المَحروم» مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[3] فهو مجرّد تقدّم في اللفظ ومُراعاة لسياق الآيات السابقة واللاحقة وليس ترجيح السائل على المحروم في صرف الصّدقة أو الإنفاق وذلك لأنّ الحرف الذي تنتهي

---

١ . سورة الحجّ، الآية ٣٦.

٢ . «المعترّ والمعتري واحد... يُقال عراه و اعتراه وعره واعتره، كلّه بمعنى أتاه وقصده... (القانع) الذي يقنع بما أُعطيَ أو بما عِنده ولا يسأل، و(المُعتَرّ) الذي يتعرّض لكَ أن تُطعمه من اللّحم ويسأل... وقيل القانِع الذي يسأل والمعترّ الذي يتعرّض ولا يسأل... وقال أبو جعفر عليه السلام وأبو عبد الله عليه السلام: "القانع الذي يَقنع بِما أعطيتَه ولا يَسخط ولا يَكلح ولا يَلوي شَدقه غضباً، والمعترّ المادّ يَده لتُطعمه"... وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: "القانِع الذي يَسأل فَيَرضى بِما أُعطي، والمعترّ الذي يَعتري رَجاءه مِمّن لا يَسأل». (تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٣٥ ـ ١٣٦). [المترجم]

٣ . سورة المعارج، الآيتان ٢٤ و ٢٥.



به الآيات التي سبقت هاتيْن الآيتيْن هو «الميم» ولو قيل: «للمحروم والسائل» لاختلّ الوزن واختلفت القافية؛ إذاً، فالتقدّم الموجود في هذه الآية لا يتنافى مع تقدّم نظيره المذكور في الآية الّتي هي موضوع البحث التي تُطالب بتفضيل فئة خاصّة من الفقراء على غيرهم.

عامل الحصر

قد يكون الشخص هو الحاصر لنفسه مثل المقاتلين والمجاهدين والطلاب الذين يكرّسون أعمارهم وينذرون أنفسهم للعمل في سبيل الله سبحانه طواعية وبإرادتهم وبذلك تُسلَب منهم فُرَص العمل الأخرى، وقد يعمد أعداء الإسلام تارة إلى إجبار بعض الأشخاص العاملين في خدمة الدّين على اختيار طريق الحصر، كأصحاب الصفّة الذين كانوا يتمتّعون في مكّة بكلّ الإمكانات والحاجات إلّا أنّ المشركين أجبروهم على الهجرة وترك مقرّاتهم وحرمانهم من حقّهم في نَقل أموالهم إلى المدينة أو ممارسة التجارة مع أهل مكّة. ويُعتبر كلام الإمام الباقر عليه السلام في كون هذه الآية نزلت في أصحاب الصفّة مصداقاً واضحاً على ذلك[1].

وجدير بالذّكر أنّ الآية الّتي هي موضوع البحث تشبه إلى حدّ كبير قوله تعالى: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾[2].

---

١. راجع: تفسير **مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٦٦: قال أبو جعفر عليه السلام: «نَزلت الآية في أصحاب الصُفّة»؛ وكذلك رواه الكلبي عن ابن عباس وهم نحو أربعمائة رجل لم يكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر يأوون إليهم فجعلوا أنفسهم في المسجد وقالوا: نخرج في كلّ سرية يبعثها رسول الله. فحثّ الله الناسَ عليهم، وكان الرجل إذا أكل وعنده قصل أتاهم به إذا أمسى.

٢. سورة الحشر، الآية ٨.



تذكير: تُعتبر كلمَتَا «الصَدّ» و«الإحصار» متقابلتيْن في علم الفقه والمصادر الفقهية وفي بحث موضوع الحجّ فقد أُفرِد لكلّ واحدٍ منهما بابٌ خاصٌّ به[1] لورود كلا العنوانيْن في القرآن الكريم. و«الصَدّ» هو قيام الكافرين وأعداء الإسلام بمنع الرّاغبين في التشرّف بزيارة بيت الله الحرام في مكّة من الدّخول إلى الحرم المكّي وأداء مناسكهم والأعمال الخاصّة بالحجّ: ﴿**هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ**﴾[2]؛ أمّا «الإحصار»، فإذا كان في مقابل «الصَدّ» فيعني جميع العوائق الطبيعية كما في قوله سبحانه: ﴿**وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لله فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ...**﴾[3]، و«الإحصار» بالمعنى العامّ (عندما لا يكون في مقابل «الصَدّ») فإنّه يعني الصَدّ كذلك.

تكريم الفقراء

أراد الله سبحانه وتعالى تبجيل فئة من الفقراء فأمرَ الناس بتكريمهم واحترامهم من خلال بيانه ﷻ أنّ سبب افتقار هؤلاء الأشخاص يعود إلى كونهم قضوا أعمارهم في خدمة الناس وفي سبيل الله: ﴿**لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ الله**﴾ من أجل ألّا يتوهّم المُنفِق ويسيء الظنّ بهم ولكي لا يشعر الفقير بالاحتقار والازدراء. وقد ورد نموذج حَيّ للتعبير بكياسة ولباقة عن حالة أولئك الفقراء في قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ**﴾[4] حيث ذكر الله ﷻ اسمه الكريم إلى جانب القرابة والرّحم بهدف تبجيل الأقرباء

---

١. أنظر: جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج٢٠، ص١١٢، محمّد حسن النّجفي.

٢. سورة الفتح، الآية ٢٥.

٣. سورة البقرة، الآية ١٩٦.

٤. سورة النساء، الآية ١.

وتكريم أُولي الأرحام؛ إذاً، فذكر القَيد ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث إنّما هو لتكريم هذه الفئة وفرض احترامهم على الناس وإخبارهم بأنّ السبب في افتقار هؤلاء ومسكنتهم هو انحصارهم وتكريس حياتهم للعمل في سبيل الله سبحانه، وعليه، ينبغي احترامهم بشكل خاصّ.

تذكير: في بعض الأحيان تُذكَر عبارة ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ في مقابل موارد أخرى لصرف الصّدقات مثل الفقراء والمساكين باعتبارهم أشخاصاً حقيقيّين كقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ... وَفِي سَبِيلِ اللهِ﴾[1]، ولمّا كان التفصيل يشير إلى عدم الاشتراك، كان المقصود من عبارة ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ هي الشخصيات الحقّيّة كالمرافق العامّة والمراكز العلمية ودور العبادة والمنشئات العسكرية للمسلمين. وقد تَرد عبارة ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ في أحيان أخرى بشكل مُستقلّ وبمُفردها، وفي هذه الحالة يكون المراد بها جميع موارد صرف الإنفاق بما فيها الأشخاص والمؤسسات والمنظمات الخيرية وما شابهها، مثل قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ...﴾[2].

الفَقر والتعفّف

يحاول الفقراء المتعفّفون العيش بأسلوب ونمط بحيث يحسبهم مَن يجهل أحوالهم ولا يعرف حقيقتهم أنّهم أغنياء وغير محتاجين: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ لأنّهم يتجنّبون ارتداء الملابس البالية ويتحاشون سؤال الآخرين لمساعدتهم خوفاً من أن يعلم الناس بفقرهم وحاجتهم، ويجتهدون في التعفّف وعدم كشف حقيقتهم للآخرين إلّا إذا بانَ عليهم الفقر بشكل لا يمكن تجنّبه، كعدم امتلاكهم إلّا ما رثّ من الملابس وتقادمَ عهده من المَتاع، فمثل هؤلاء

١ . سورة التوبة، الآية ٦٠.
٢ . سورة البقرة، الآية ٢٦٢.



الفقراء لا يستطيعون إظهار مسألتهم ولا يقدرون على ذكر ذلك بألسنتهم أو التصريح به جهاراً.

وفي الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث شاءَ الله سبحانه أن يُعلّم الفقراء طريقة وأسلوب العيش بكرامة وعفّة مع بيان أفضل الموارد التي يمكن صرف الإنفاق والصّدقة فيها.

علم النبيّ ﷺ بعلامات الفقر

قد تظهر بعض الصفات الباطنية للمرء بشكل واضح على ملامحه الخارجية وإن اجتهد في إخفائها أو سعى إلى عدم إظهارها، وربّما بَدَت علامات الافتقار الداخليّ للإنسان المُعوَز واحتياجه على وجهه وارتسمت على سيمائه، إلّا أنّ شخصاً فَطِناً يَقِظ الفؤاد وصَادِق الْفِرَاسَة بِمَا فِي الضَّمَائِرِ مثل الرّسول الأعظم ﷺ يمكنه أن يُدرك مثل تلك العلامات ويميّزها بشكل جيّد وهو ما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾، وفي موضع آخر يصرّح القرآن الكريم بأنّ الله ﷻ قد دمّر مدينتيْن في الماضي وأنّه لم يَعُد بإمكان أحد تمييز تلك الأماكن أو تحديد آثارها بعد دمارها إلّا مَن كان منهم مُرهَف الذّهن ودقيق الفَهم: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ... وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[1].

---

١. سورة الحِجر، الآيات: ٧٥ و٧٦ و٧٩. وجدير بالذكر أنّ آيات التوسّم تختلف عن الآيات المُراد بيانها للمؤمنين، فالأحافير التي يُعْثَر عليها في المواقع الأثرية لا يتعرّف عليها ولا يميّزها سوى عالِم الآثار الذي يستطيع تقدير أعمارها وسنة صناعتها والحالة الاجتماعية للأقوام التي صنعت تلك المنحوتات أو تركت لنا تلك الآثار؛ لكنّ المؤمن يعلم أنّ كلّ ذلك إنما هي آيات بيّنات لله ﷻ إضافة إلى عِلمه بما يعلمه عالِمُ الآثار، وأنّ الذين يعصون أوامر الله تعالى سيُباؤون بغضب منه وتُخسف بهم الأرض بكلّ ما يملكون. ما نريد قوله هو أنّ المُعتبر بالدروس والعِبَر غير العالِم بآثار القُدماء، رغم إمكانية اجتماع هاتين الصفتين في شخص واحد وهو أمر محمود.

والسّبب في كون الفعل ﴿تَعْرِفُهُم﴾ جاء بصيغة المفرد هو أنّ البعض لم يكن يعتبر هؤلاء فقراء، بل من شدّة تعفّفهم كان يبدو عليهم أنّهم غير محتاجين ولا مساكين، ولو كان الفعل المذكور قد ورد بصيغة الجمع لكان المعنى أنّ بإمكان الجميع معرفة أولئك الفقراء المتعفّفين فضلاً عن النبيّ ﷺ، وعندئذ لَمَا انسجم قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ مع المعنى المذكور، فمَن كان جميع الناس يعلمون بفقره وفاقته لا بدّ من أنّه من الذين يُظهرون حالته وليس من المتعفّفين، بل ومن الذين يسألون ويلحّون في السؤال وليس من الذين يُعرَف فقرهم وتُميَّز حاجتهم بسيماهم.

ولا شكّ في أنّ علم النبيّ الكريم ﷺ بفَقر المحرومين ومعرفته حال المحتاجين لا يُقلّل من شأنهم ولا يهدر كرامتهم إطلاقاً لأنّه ﷺ مبعوث رحمة للعالمين وهو أرأف عليهم من أنفسهم.

الفقير المحترم لا يُلحف

إنّ الفقير المحترم لا يقدر على سؤال الناس إلّا إذا اضطرّ إلى ذلك أشدّ اضطرار، وإذا اشتدّت به الحاجة بحيث عجز عن توفير نفقات معيشته هو وأسرته ولم يكن بمقدوره الشراء أو الاستئجار أو الاقتراض، فعندئذ لا يقول سوى: «أنا مُعوَز»، ولا يطلب المساعدة من أحد إلّا لرفع التكليف، ولا يُلحّ في أخذ الصّدقة: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي إنّ سؤالهم من الناس هو سؤال من نوع خاصّ واستثنائيّ، سؤال يخلو من الإصرار ولا يشوبه الإلحاح واللجاج.



العامل التربويّ والتعليمي في الآية

في ختام الآية الشريفة يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ويبدو من هذا الكلام أنّ المُخاطَب هو كلّ واحدٍ من المُنفِق والمُستحقّ على حدّ سَواء حيث يتضمّن هذا الجزء من الآية مفهوماً تربويّاً إلى جانب المفهوم التعليميّ؛ ومعنى ذلك أنّ الله سبحانه وتعالى، بعد أن بيّن أهمّ موارد إنفاق الصّدقة وهم فئة استثنائية من الفقراء، يَعِد بأن يحصل المُنفِق لصدقته في المورد الأفضل ـ الفقراء المُحصرين والمتعفّفين ـ على ثواب أكبر وجائزة أعظم من ذلك الذي يُنفق صَدقته في الموارد الاعتيادية. وفيما يأتي أهمّ النقاط التي يمكن استنباطها من الآية الكريمة موضوع البحث:

١. وجود فقراء مُتعفّفين يحسبهم الجُهلاء أغنياء لعدم عِلمهم بأحوالهم الحقيقية.

٢. ضرورة البحث عن مثل هؤلاء الفقراء وتمييزهم عن الفقراء الآخرين.

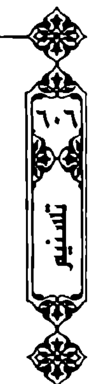
٣. تقديم هذه الفئة من الفقراء (المتعفّفين) وتفضيلهم عند إعطاء الصّدقات.

٤. لا شكّ في أنّ ثواب هذا النّوع من الإنفاق يفوق ثواب الأنواع الأخرى من الإنفاق العاديّ.

٥. إنّ الله ﷻ عالِمٌ بكلّ تلك الأمور ومُطّلع عليها.

٦. إنّ الله سبحانه وتعالى يفعل كلّ ما يتطابق مع عِلمه الذي هو عَين الواقع والحقيقة.

٧. وأخيراً فإنّ الثواب الذي يحصل عليه مَن يبحث ويتقصّى الفقراء المتعفّفين ويقوم بإنفاق هذا النوع من الصّدقة عليهم هو الثواب الأكبر والأعظم.

إشارات ولطائف

علم النبيّ ﷺ بعلامات المنافقين

يُخاطب القرآن الكريم النبيّ الأعظم ﷺ أحياناً بقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾[1]، فكما أنّ الشخص يستطيع تمييز صوت المرأة عن صوت الرّجل وإن لم يَرَ أحداً منهما، فكذلك هو المنافق الذي يمكن معرفته وتمييزه، لكن ما مِن أحد يمكنه معرفة ما يدور في خلد المنافق أو ما يُضمره قلبه إلّا النبيّ الكريم ﷺ وإن توهّم المنافقون بأنّ الله لن يبيّن ما فيهم من حِقد ولن يُفشي ما تحتويه ضمائرهم من مَرض وضغينة. فالله ﷻ سيُظهر سرائر الناس على الملأ ويكشف عن أسرارهم: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[2] ويُخرج ما في صدورهم: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾[3]، بل وسيفضحهم في هذه الدنيا كذلك ويكشف ما يُكنّونه قبل ورودهم إلى الآخرة: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ﴾[4].

ومهما يكن من أمر فإنّ الشخص ليس مُضطرّاً إلى إظهار صفاته لأنّ هذه الصفات المطبوعة في نفسه وروحه يمكنها أن تظهر على ملامحه من خلال كلامه وتصرّفاته، وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في قوله: «مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ وصَفَحَاتِ وَجْهِهِ»[5].

---

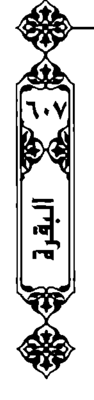
١ . سورة محمّد ﷺ، الآية ٣٠.

٢ . سورة الطارق، الآية ٩.

٣ . سورة العاديات، الآية ١٠.

٤ . سورة محمّد ﷺ، الآية ٢٩.

٥ . نهج البلاغة، الحكمة رقم ٢٦.



وفي آيات أخرى يُخاطب القرآن الكريم شخص النبيّ الكريم ﷺ بشأن المؤمنين قائلاً: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾[1]، وليس معنى ذلك أنّهم في حال الرّكوع والسّجود على الدّوام بل هي إشارة إلى كونهم خاضعين لله سبحانه وأنّ الرّكوع والسّجود ظاهران عليهم والدّليل على ذلك هو استمرار نفس الآية الكريمة بالقول: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، والرّسول الأعظم ﷺ باعتباره عالِم بالسيماء عارف بالعلامات، قادر على تمييز هذه الفئة.

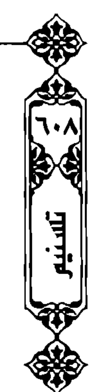
ولا ريب في أنّ مشاركة أولئك المؤمنين الفعّالة في المحافل الدينية لإقامة صلاة الجمعة والجماعة وأداء سائر الشعائر الدينية تُعتبر دليلاً واضحاً وعلامة ظاهرة على خضوعهم الإيمانيّ.

تذكير: ١. إنّ علامة الخضوع والتسليم التي نراها على جِباه المؤمنين لا تتعلّق بمسألة السّجود وحسب بل يمكننا ملاحظة آثار السّجود والخضوع كذلك في قولهم وسلوكهم ولا يمكن لأحد تمييز ذلك فيهم إلّا مَن كان عارفاً بالسيماء والعلامات.

٢. إنّ ما يخصّ الرّسول ﷺ، كالنبوّة والرسالة، ليس قابلاً للتوريث، وأمّا ما يتعلّق بالمَلَكات والفضائل مثل الفراسة والتعرّف على السيماء فإنّه ﷺ يُمثّل الأسوة الحسنة للسالكين وأبناؤه ﷺ هُمُ الوارثون الحقيقيّون لتلك الفضائل والصفات؛ ولكن، وكما هو معروف إنّ النبيّ ﷺ يمتاز بدرجة أعلى ويتمتّع بمنزل أسمى بينما يحظى وَرَثته بالدرجة المتوسطة من تلك الفضائل، مَثلهم في ذلك مَثل المؤمنين الآخرين، لأنّ النبيّ ﷺ يرى بعَين النبوّة وأولئك يَرون بعَين الإمامة.

---

١. سورة الفتح، الآية ٢٩.



بحث روائيّ

١ . ضرورة قبول المحتاج للصّدقة

عَن محمّد بن مسلم قال: قلتُ لأبي جعفر عليه السلام: الرّجل يكون مُحتاجاً فيُبعَث إليه بالصّدقة فَلا يَقبلها... فقال...: **«مَا يَنبغي لَه أن يَستَحيي مِمّا فَرَض الله عزّوجلّ، إنّما هِي فَريضة الله لَه فَلا يَستَحيي مِنها»**[1].

ـ عَن عبد الله بن هلال بن خاقان قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: **«تارِك الزّكاة، وَقَد وَجبت لَه، مِثل مانِعِها، وَقد وَجَبَت عَلَيه»**[2].

إشارة: لا شكّ في أنّ محافظة المرء على حياته هي أمر واجب وينبغي على المحتاج الذي تتوفّر فيه شروط الحاجة والعَوَز قبول الزّكاة في حال انحصاره، وهو واجب تعيينيّ، وإذا لم يكن مُحصراً فإنّ عليه قبولها على نحو الواجب التخييريّ، فعَدم قبول الزّكاة أو تركها في حال الإحصار يشبه امتناع مَن وَجبَ عليه أداؤها عن دفعها، فكلا الفعلَيْن يدخلان تحت عنوان «ترك الواجب التعيينيّ».

٢ . سؤال غير المحتاج

قال أبو عبد الله عليه السلام: **«مَا مِن عَبدٍ يَسأل مِن غَير حاجَة فَيَموت حتى يُحوجَه الله إليها وَيثبّت الله لَه بِها النّار»**[3].

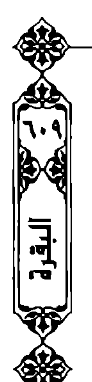
إشارة: أفتى بعض الفقهاء بحُرمة سؤال غير المحتاج فيما لم يُجز البعض

---

١ . أصول الكافي، ج٣، ص٥٦٤؛ وسائل الشيعة، ج٩، ص٣١٣.

٢ . أصول الكافي، ج٣، ص٥٦٣؛ وسائل الشيعة، ج٩، ص٣١٣.

٣ . أصول الكافي، ج٤، ص١٩؛ وسائل الشيعة، ج٩، ص٤٣٦.



الآخر تَرك الاحتياط[١]؛ وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه من ناحية الحكم الوضعيّ، إذا أخذ غير المحتاج الصّدقة الواجبة وكان مُعطي الزّكاة عالماً بعدم حاجته لم يكن ذلك مُجزياً.

٣. النّهي عن الإلحاف

عَن النبيّ ﷺ: «أنّ الله يُحِبّ أنْ يَرى أثَرَ نَعمَته على عَبدِه وَيَكرَه البُؤسَ والتّباؤُس وَيُحِبّ الحَليمَ المُتَعَفّف مِن عِبادِه وَيبغضُ الفاحِشَ البَذيء السّائِل المُلْحِف»[٢].

ـ وَقالَ ﷺ: «إنّ الله كَرِه لَكم ثَلاثاً: قيلَ وَقال، وَكثرةَ السُّؤال، وَإضاعَة المال...»[٣].

ـ وَقالَ ﷺ: «الأيْدي ثَلاث: فَيَدُ الله العُليا وَيَد المُعطي التي تَلِيه وَيَد السّائِل السُّفلى إلى يَومِ القِيامَة؛ وَمَن سَألَ وَلَه ما يُغْنيه جاءَت مَسْألَتُه يَومَ القِيامَة كُدُوحاً أو خُمُوشاً أو خُدُوشاً في وَجْهِه»[٤].[٥]

إشارة: ورد مضمون الحديث الثالث: «الأيْدي ثَلاث...» بصيغة أخرى في

---

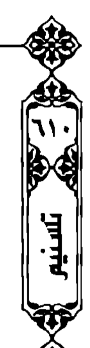
١. **تحرير الوسيلة**، ج٢، ص٨٨.

٢. **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٦٧؛ **وسائل الشيعة**، ج٩، ص٤٤٢، بتصرّف.

٣. **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٦٧.

٤. المصدر السابق؛ **وسائل الشيعة**، ج٩، ص٤٣٩، مع تصّرف في ذيل الحديث؛ «فاسْتَغفوا عَن السُّؤال ما اسْتَطَعْتُم...».

٥. «والكَدح: دون الخَدْش، والخَدْش دون الخَمْش؛ يُقال: خَدَشت المرأةُ وَجْهَها، إذا خَدَشته بِظُفر أو حَديدة، والخَمْش يُستَعمل على مَعنى القَطْع؛ يُقال: خَمَشني فلانٌ، أي قَطَع مِنّي عُضواً، وفي وَجهه كُدوح، هو بالضَمّ، جَمع (كدح) وهو كلّ أثرٍ مِن خَدْش أو عَضّ». (**مجمع البحرين**، ج٢، ص٤٠٦، مادّة «كدح»). [المترجم]



بعض الروايات: قالَ أبو جَعفر عليه السلام: «... إنّهُ مَن سَألَ وَهُو بِظَهْرِ غِنى، لَقِيَ الله مَخْمُوشاً وَجْهَه يَوْمَ القِيامَة»[1].

٤. المسكين الحقيقيّ

قالَ رَسول الله صلى الله عليه وآله: **«لَيْسَ المِسكِينُ بِالطوّاف عَلَيكم فَتُعطونَه لُقْمَة لُقْمَة؛ إنّما المِسكينُ المتعفّفُ الذي لا يَسأل النّاسَ إلحافاً»**[2].

ـ وَقالَ صلى الله عليه وآله: **«لَيْسَ المِسكينُ بِالطوّاف الذي تَردّه اللّقمَة وَاللُّقمَتان وَالتّمرَة وَالتَّمرتان؛ وَلكِنِ المسكين الذي لا يَجِد ما يُغنيه وَيَستَحي أن يَسأل النّاسَ وَلا يفطن لَه فَيتصدّق عَليه»**[3].

إشارة: إنّ المسكين الحقيقيّ هو الشخص الذي يتعفّف رغم حاجته ولا يَجرؤ على سؤال النّاس ولا يعرفه كلّ أحد فيتَصَدَّق عليه.

* * *

١ . السرائر، ج٣، ص٦٣٧؛ وسائل الشيعة، ج٩، ص٤٣٧.

٢ . تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص٩٠.

٣ . المصدر السابق، ص٩١.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٧٤﴾

خلاصة التفسير

بَيّنَ الله سبحانه في هذه الآية الشريفة أنّ الذين يُنفقون من أموالهم الطيبة في الليل والنّهار وفي السرّ والعَلَن، سيُعطيهم أجورهم كاملة بالإضافة إلى أنّه تعالى سيُظلّلهم برعايته ويحيطهم بعنايته فلا يخافون بعدها من شيء ولا يخشون غيره. والكلام حول الإنفاق في الليل والنّهار وفي السرّ والعلانية إنّما هو كناية عن الإنفاق المستمرّ والمتواصل، والآية تشترط الدّوام والاستمرار في الإنفاق للحصول على الأجر العظيم.

التفسير

تناسب الآيات

تشير هذه الآية الشريفة ـ التي تُعتبر الأخيرة في مجموعة الآيات المتعلّقة بموضوع الإنفاق في سورة «البقرة» ـ وبعبارات واضحة لا لَبس فيها ولا غموض إلى الأجر الذي سيحصل عليه أولئك الذين يُنفقون من أموالهم



باستمرار وعلى نَحو متواصل حتى أضحى هذا العمل الصالِح مَلَكَة راسخة في سلوكهم، ثمّ تختتم الآية الكريمة موضوع الإنفاق والبحث في تفاصيله بتبشير هؤلاء المُنفقين بالأمن والاستقرار الروحيّ والنفسيّ بالإضافة إلى أجرهم الذي يستحقّونه يوم القيامة بسبب إنفاقهم.

* * *

الإنفاق المتواصل

وكما أشارَ القرآن الكريم إلى مجموعة من المؤمنين الذين لا يتوقّفون عن أداء الصلوات بقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾[1] بل واعتبر هذه الفئة من المؤمنين حُرّاساً على الصلاة من خلال مواظبتهم على أدائها والالتزام بأوقاتها ومواعيدها: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾[2]، فإنّه لم يَنْسَ في موضوع الإنفاق ذِكر المُنفقين الدائمين والإشادة بأعمالهم الحسنة، ولقد وردت كلمة «أموال» بصيغة الجمع في بحث الإنفاق مثل قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ...**﴾[3]. وفي الآيات التي حملت معنى النّهي وردت كلمة «الصّدقات» بصيغة الجمع كذلك كقوله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى**﴾[4].

نلاحظ في هذه الآيات ورود اسم الموصول ﴿**الَّذينَ**﴾ بصيغة الجمع في مقابل صيغة الجمع المكسّر ﴿**أمْوالَهم**﴾ ولكن ليس في نيّة الآية الّتي هي موضوع البحث الإشارة إلى مجرّد الحُكم وحَسب بل وإلى طبيعة سائدة ومَلَكة مُكتسبة

---

١ . سورة المعارج، الآية ٢٣.

٢ . سورة المؤمنون، الآية ٩.

٣ . سورة البقرة، الآية ٢٦٢.

٤ . سورة البقرة، الآية ٢٦٤.



وعادة أصبحت مستحكمة لدى هؤلاء المُنفقين، إذ يُستَفاد من الفعل المضارع حالة الاستمرار والتواصُل، وعليه، فإنّ المقصود بقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ ليس أولئك الذين أنفقوا مرّة واحدة في حياتهم كلّها، مرّة في الليل وأخرى في النّهار أو مرّة في السرّ وأخرى في العَلَن، بل المقصود بذلك هم المنفقونَ الذين أصبح الإنفاق عادّة ملازمة لهم وهذه العادة يدلّ عليها استخدام الفعل المضارع.

ويكون المعنى الإجماليّ للآية الشريفة بعد هذا التحليل هكذا: إنّ كلّ واحد من المؤمنين الذين يواظبون على الإنفاق بشكل متواصل يتّصف بمَلَكَة الإنفاق وهذا لا يعني أن يقوم الشخص بإنفاق شيء بسيط من ماله في سبيل الله والاكتفاء بذلك، بل ينبغي أن يكون كالّذين يُنفقون الزّكاة باستمرار تماماً كما يواظب المُصلّي على أداء صلواته كلّ يوم دون انقطاع. ويجب على المُنفِق ألّا يسهو عن إعطاء الزّكاة بشكل متواصل ويعطي في أوقاتها وعند شروطها المعلومة ولا يَسمح لأيّ عائق أن يمنعه من ذلك أبداً، كما هي الحال مع المُصلّي الذي يُثابر على إقامة صلواته ولا ينسى ذِكر الله الحقّ القيّوم: ﴿**رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ**﴾[1].

والخلاصة، هي ما قلناه، إنّ الإنفاق في الليل والنهار وفي السرّ والعلانية يشير بصراحة إلى الإنفاق المستمرّ والمتواصل وليس كما يقوم به البعض من تقسيم الدّرهم إلى أربعة أجزاء فينفقون جزءاً منه في الليل وجزءاً آخر في النهار ثمّ جزءه الثالث في السرّ وإنفاق الرّابع في العَلَن مُدّعين أنّهم يقتدون بذلك بأمير المؤمنين عليه السلام، في حين أنّ الإمام عليّاً عليه السلام لم يكن يملك في ذلك الوقت سوى

---

١ . سورة النور، الآية ٣٧.



الدّراهم الأربعة التي أنفقها في سبيل الله[1].

هذا، ويُعتبر الاقتصاد والاعتدال مبدأً أساسيّاً في الحياة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[2] بينما ينبغي أن يكون أداء الإنفاق مثل إقامة الصلاة وذلك بالاستمرار والتواصل، ويمكن للشخص أن يُقدّم الصّدقة بواسطة مساعدة المُحتاجين وإعانة المساكين والسلام على الآخرين وحلّ المسائل العلمية التي يحتاج إليها البعض والتوسّط لحلّ المُعضلات والمشاكل التي يتعرّض لها أبناء جنسه في سبيل الله.

وعلى أيّة حال فإنّ بعض الناس لا يُفكّر في الإنفاق إلّا مرّة واحدة في السّنة وبعضهم الآخر يُنفق فصليّاً بينما يؤدّي آخرون نفقاتهم كلّ شهر، وفئة من الأشخاص لا ينفقون إلّا في الأيام أو الليالي المباركة أو عندما يَمرضون أو إذا أرادوا السّفر لدفع البلايا عنهم، وهكذا، لكنّنا نرى أناساً يعتبرون الإنفاق مُعادلاً للصلاة فهم ينفقون باستمرار وبصورة متواصلة دون انقطاع، وهؤلاء لا يعيرون في إنفاقهم أيّة أهمية للزمان أو المكان أو المناسبات، ولا شكّ في أنّ هذه الفئة هي فئة خاصّة ونخبة وهي تستحقّ ثواباً خاصّاً ومتميّزاً يليق بها.

الإنفاق غير مُقيّد بالمكان أو الزمان

يَعمد بعض الأشخاص أحياناً إلى إعطاء الصّدقة سرّاً خوفاً من أن يُصابوا

---

١ . «عن أبي إسحاق، قال: كان لعليّ بن أبي طالب عليه السلام أربعة دراهم، لم يملك غيرها، فتصدّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سرّاً وبدرهم علانية، فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال: "يا علي! ما حَملك على ما صنعت؟" قال: "إنجاز مَوعود الله"؛ فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ إلى آخر الآيات». تفسير البرهان، ج١، ص٥٦٦ ـ ٥٦٧؛ أنظر أيضاً: تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص١٠٠.

٢ . سورة الفرقان، الآية ٦٧.



بداء الخُيَلاء والتأثّر بحبّ الجاه والمراءاة، فيما يعمدُ آخرون الإنفاق جهاراً وهؤلاء قد توصّلوا بفضل الله سبحانه إلى حالة لم يعودوا فيها يهتمّون لا بمَدح الآخرين لهم على ما يفعلون ولا بذَمّ مَن في قلوبهم مَرض لِما يقومون به، بل على العكس من ذلك فهم يرجون أن يُقلّدهم الآخرون كذلك في هذا العمل الصالح.

وهكذا فإنّ ما يُهمّ في مسألة الإنفاق هو إسراره وإعلانه بالإضافة إلى الزّمان، تماماً كتعاقب الليل والنّهار حيث لا يحدّ ذلك قَيد المكان أو الزّمان، ولهذا فقد أشارت بعض الآيات إلى إسرار الإنفاق وإعلانه دون ذِكر الليل والنهار، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[1] و﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾[2].

ونلاحظ في كلّ الآيات القرآنية تقديم كلمة «السرّ» على «العَلَن» ولعلّ السبب في تقديم «الليل» على «النّهار» هو نفسه في تقديم «السرّ» على «العلانية» إذ إنّ إعطاء الصّدقة في الخفاء أفضل من إعطائها في العَلَن كما في قوله ﷻ: ﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ﴾[3]، وفي الحالات التي يُذكَر فيها الليل والنّهار قُدِّمَ الأوّل على الثاني لانسجام القافية باعتبار أنّ «الليل» يلازم السرّ والخفاء و«النّهار» يتناسب مع العلانية والجَهر.

ومن المحتمل أن يكون ذِكر الليل والنهار إلى جانب السرّ والعلانية في الآية الّتي هي موضوع البحث للإشارة إلى دوام الإنفاق واستمراره وعدم انقطاعه، وهو ما ذكرناه آنفاً.

---

١ . سورة الرّعد، الآية ٢٢.

٢ . سورة النّحل، الآية ٧٥.

٣ . سورة البقرة، الآية ٢٧١.



الوعد المشروط في الإنفاق المستمر

من الواضح أنّ الآية الشريفة: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ تتضمّن معنى الشّرط، والدّليل على ذلك دخول الفاء السّببيّة على ذيل الآية: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

ومن المبادئ القرآنية العامّة أنّ العَبد إذا نفّذ شرطه فإنّ الله ﷻ سيَفي بشرطه ووعده معه أيضاً: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[١]؛ وفي الحقيقة أنّ الآية الشريفة تُصرّح أنّه إذا كان إنفاق المَرء مستمرّاً ومتواصلاً فإنّ الله سبحانه قد أعدّ له أجراً خاصّاً وثواباً استثنائياً مقابل إنفاقه الدّائم.

وجدير بالذّكر أنّ تكرار الإشارة إلى المُنفقين المُستحقّين للأجر والثواب في الآية الكريمة بضمير الجمع الغائب المُنفصل والمُتّصل «هُم» إنّما هو لتشجيعهم وحثّهم على الاستمرار في عمل الخير المتمثّل بالإنفاق الدائم والمتواصل: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

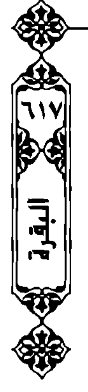
الوَعد بالأمن والسّرور

يؤكّد قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على أنّ المُنفقين باستمرار لن يُصيبهم الخوف ولا الحزن يوم لا ينفع مال ولا بَنون، وهو في الحقيقة إنشاء ظاهره الإخبار.

ففي بعض الأحيان نرى الشخص المؤمن قَلقاً وحائراً بين قبول شيء ما أو رفضه، أو حزيناً بسبب عدم أخذه لأجره أو قلّة ذلك الأجر، لكنّ ما يُطمئن نفسه ويهدّئ من روعه هو عِلمه أنّ أجر عمله وثواب أفعاله محفوظان عند الله

---

١. سورة البقرة، الآية ٤٠.



العليم بكلّ شيء وأنّه سيتسلّمهما في الوقت المعلوم كاملَيْن غير منقوصَيْن، ولذلك فإنّ هذا المؤمن لن يشعر بالحزن فيما بعد. وفي أحيان أخرى نرى قلب هذا المؤمن مطمئنّاً ومستقرّاً إلى درجة لا يمكن فيها للحزن أو الخوف أن يَلِجا إلى داخله، وهذه حالة خاصّة لا يشعر بها إلّا المؤدّون الدائمون للزّكاة وذلك لأنّهم يتمتّعون بعُنصريْ التقرّب والطمأنينة الأساسيّيْن اللذيْن يرجعان إلى مبدأ واحد؛ وأمّا ذانِكَ العُنصران فهما:

١. أنّ المُنفِق الذي يُنفق من ماله الطيّب والحلال في إطار الحُسن الفعليّ والحُسن الفاعليّ يهدف من وراء إنفاقه التقرّب إلى الله سبحانه وحفظ نفسه من المَنّ على الآخرين أو إيذائهم أو المراءاة أمام الناس، وهذا المُنفق يَنعم بفيض تثبيت النّفس: **﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾**[1].

٢. أنّ مثل هذا المُنفِق الذي يجد أُنسه وسروره في التصدّق والإنفاق باستمرار لا ينسى الله أبداً ولا يطمئنّ قلبه إلّا بذِكر الله ﷻ: **﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾**[2]؛ ولا ريب في أنّ قَلب هذا المؤمن الثابت والمطمئنّ مصون من أيّ خوف ومحفوظ من كلّ حزن.

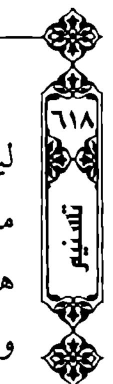
ولقد صرّح القرآن الكريم في العديد من آياته أنّ الوعد بعدم الخوف أو الشعور بالحزن إلى جانب ثواب الإنفاق الدائم والمتواصل هو في إزاء عمل مُعيّن وخاصّ وليس أيّ عمل كان، لكنّه [أي القرآن الكريم] وفي آيات أخرى وعد بإعطاء أجر يفوق بعض أعمال الخير ويتجاوز حدّه، مثل قوله تعالى: **﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾**[3].

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٦٥.

٢. سورة الرّعد، الآية ٢٨.

٣. سورة النّمل، الآية ٨٩.



وخلاصة القول، إنّ قوله سبحانه: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ليس تكراراً لقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لأنّ حفظ أجر الأعمال هو مسألة بديهية وأمر مسلَّم به، أمّا ما يفيض عن ذلك فهو تفضّل الله ﷻ على هؤلاء المُنفقين بالأمن وعدم الشعور بالخوف يوم المحشر وانتظار الناس ووقوفهم للحساب وبالسّرور وعدم شعورهم بالحزن أو ما يتسبّب في قَلقهم وإيلامهم.

العيش بين الخوف والرّجاء

إنّ الله ﷻ لا يُخلِف الميعاد، هذا صحيح، لكنّه سبحانه وتعالى لا يَعِد شخصاً ما بعينه أبداً بالأمن الدائم والسّرور الخالد بل كلّ مَن يقوم بعمل ما في أيّة مرحلة من مراحل حياته فإنّ الله سبحانه يُعطيه من فيض ما فعل، فالأهمّ من كلّ شيء هو أن تُختَم عاقبته بالخير: «**وإنّما الأعمالُ بِخَواتيمِها**»[1]؛ فعلى الرّغم من أنّ الله ﷻ وعدَ المؤمنين وعلى رأسهم الرّسول الأعظم ﷺ بألّا يُخيفهم شيء ولا يُحزنهم أمر، إلّا أنّه سبحانه لم يَفتأ يُذكّرهم بالتواصل بذِكره واستمرار التضرّع إليه.

ومن هنا ينبغي على المؤمن أن يعيش حتى آخر لحظات عُمره مُتراوحاً بين الخوف والرّجاء وألّا يأمن أن تُختَم حياته بالخير: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[2] و﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[3] و﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾[4].

---

١ . بحار الأنوار، ج٩، ص٣٣٠؛ التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام، ص٣٦٥.

٢ . سورة الأعراف، الآية ٥٦.

٣ . سورة السّجدة، الآية ١٦.

٤ . سورة الأعراف، الآية ٢٠٥.

وهكذا فإنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هو بمثابة إنشاء ووَعد وليس إخباراً، ولمّا لم يكن باستطاعة أيّ مخلوق معرفة ما إذا كان مصداقاً لذلك الوعد أم لا، إذاً، لا مفرّ أمامه سوى العيش في خوف ورجاء معاً.

وجدير بالذّكر أنّ زوال الخوف والحزن عن أيّ إنسان يعيش على هذه الأرض يُمثّل وَعداً وإنشاءً، ولكن عندما يكون نفس الشخص مُكلّفةً فإنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يُعتبر تكليماً تكوينيّاً، أي إنّ المقصود به هو تهدئته وتطييب خاطره ومَنحه الأمل، تماماً مثل قوله ﷻ: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[1] فإذا بالنار تَبرد بواسطة ذلك الكلام التكوينيّ، ولهذا فإنّ الآيات الخاصّة بيوم القيامة والتي أكّدت على عدم وجود الخوف أو الحزن يومئذ ليست متماثلة مع الآية الّتي هي موضوع البحث والتي تتعلّق بالدّنيا، بل إنّ بعض الآيات يشير إلى الوَعد والوفاء به وليس أصل الوعد مثل: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ * يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[2]، كما أنّ حديث الملائكة إلى المؤمنين: ﴿... أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3] و﴿... ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[4] هو من باب إنجاز الوعد الذي أُعطي للمؤمنين من قَبل والمتمثّل في إزالة الخوف والفزع والحزن عنهم.

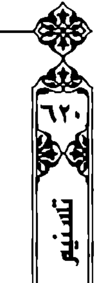
---

١ . سورة الأنبياء عليه السلام، الآية ٦٩.

٢ . سورة الزّخرف، الآيتان ٦٧ و ٦٨.

٣ . سورة آل عمران، الآية ١٧٠.

٤ . سورة الأعراف، الآية ٤٩.



إشارات ولطائف

١. القبض والبسط في الإنفاق

أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم ﷺ أن يكون مظهره القابض والباسط فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾[1] فالله ﷻ الذي يملك خزائن كلّ شيء لا يُعطي كلّ ذلك دفعة واحدة إلى جميع عباده ولا إلى بعضهم، ورسوله ﷺ الذي يُمثّل مظهر الحقّ ينبغي أن يكون قابضاً وباسطاً كذلك، أي ألّا يكون باسطاً في كلّ شيء ولا قابضاً في كلّ شيء، بل عليه أن يكون قابضاً ومانعاً تارة، وباسطاً ومُعطياً تارة أخرى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ﴾ هو في الحقيقة تعليم وتربية للإنسان الكامل المتخلّق بالأخلاق الإلهية الذي يريده الله أن يشبهه في صفاته، ولا سيّما ذلك الإنسان الذي يمثّل مظهر الاسم الأعظم.

٢. تقديم «السرّ» على «العَلَن»

تتمثّل حكمة الله ﷻ في تشريع نافلة الليل في كون الليل يتّصف بالهدوء والسكينة وخلّوه من كلّ أنواع الزّحام والضوضاء اللذيْن عادة ما نشهدهما خلال النّهار، ولذلك يشعر المرء في الليل براحة غير اعتيادية قلّما يحسّ بها في النّهار، فتشغله بنفسه وتوفّر له الخلوة معها في أفضل صورها: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[2]، وهذا يعني أنّ ساعات الليل أشدّ من ساعات

---

١. سورة الإسراء، الآيتان ٢٩ و ٣٠.

٢. سورة المزمّل، الآية ٦. «قال العلماء: ناشئة الليل أي أوقاته وساعاته، لأنّ أوقاته تنشأ أولاً فأولاً؛ يُقال: نَشَأَ الشّيءُ يَنْشأ: إذا ابتدأ وأقبل شيئاً بعد شيء، فهو ناشئ، وأنشأه الله فنَشأ، ومنه نَشَأت ←

النّهار وكذلك فإنّ السرّ أشدّ وأقوم من العَلَن؛ إذاً، فلا شكّ في أنّ القلب الخفيّ أفضل من الجسد الظاهر لأنّ القلب يكون أهدأ وأعمال القلب السريّة هي أفضل من أفعال اليَد العَلنية.

وإذا أنعمنا النّظر في كلّ تلك المعاني فَسندرك أنّ أفضلية الليل لا تقتصر على كونه أهدأ من النهار وأقلّ صَخباً وضوضاءً منه وحَسب، بل لأنّ المرء أقدر فيه على إدراك أسراره الباطنية، فلا وجود لأيّ غريب بينه وبين مولاه، فلو كان للإنسان قلب لا يسكنه سوى الله سبحانه وليس بمقدور أحد أن يتسلّل إليه ويُعكّر صفوه لاستطاع الإنفاق عَلَناً باطمئنان وطيب خاطر، وإذا لم يكن يملك مثل ذلك القلب وتلك القدرة، فالأفضل له أن يُنفق في السرّ.

بحث روائيّ

شأن النّزول ومصداق الإنفاق في الآية

قالَ ابن عباس: نزلت الآية في عليّ عليه السلام؛ كانت مَعه أربعة دراهم فتصدّق بواحدٍ نهاراً وبواحدٍ ليلاً وبواحدٍ سرّاً وبواحدٍ علانيةً، وهو المرويّ عن أبي عبد الله وأبي جعفر عليهما السلام[1]، فبلغَ ذلك النبيّ صلى الله عليه وآله فقالَ: «**يا عَليّ! ما حَمَلَك عَلى مَا صَنَعت؟**» قال: «**إنْجازُ مَوعُود الله**»؛ فأنزل الله ﴿**اَلَّذِينَ يُنْفِقُون...**﴾[2].

السحابة إذا بدأت، وأنشأها الله؛ فناشئة: فاعلة من نَشأت تَنشأ فهي ناشئة... والمراد إنّ ساعات الليل الناشئة، فاكتفى بالوصف عن الاسم، فالتأنيث للّفظ ساعة، لأنّ كلّ ساعة تحدث. وقيل: الناشئة مصدر بمعنى (قيام الليل) كالخاطئة والكاذبة؛ أي إنّ نشأة الليل هي أشدّ وطئاً. وقيل: إنّ ناشئة الليل قيام الليل». (القرطبيّ، تفسير **الجامع لأحكام القرآن الكريم**، ج١٩، ص٣٩). [المترجم]

١. **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٦٧؛ **تفسير الدرّ المنثور**، ج٢، ص١٠٠.

٢. **تفسير العياشي**، ج١، ص١٥١.

ـ عَن أبي بصير قال: قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام، قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ...﴾؛ قال: «لَيْسَ مِنَ الزّكاة»[١].

إشارة: ١. لا يقتصر موضوع الآية الشريفة على شأن النزول أو قصّة أمير المؤمنين علي عليه السلام، فكلّ مَن كان إنفاقه مُستمراً ومُتواصلاً وكذلك متناسباً مع حالة الإنفاق، وكلّ مَن أنفق مالَه سرّاً أو علانية في سبيل الله تعالى للحصول على مرضاته، فإنّه سيحظى بهذا الثواب الجزيل لأنّ الإطلاق أو العموم في الآية الّتي هي موضوع البحث هو السائد.

٢. إنّ شمول الآية يُعدّ نَصّاً سواء ما تعلّق بشأن النّزول أم المصداق المصاحب، والظاهر في ما قام به أمير المؤمنين علي عليه السلام لم يكن الزّكاة، ولكن، إذا قام أحدهم بأداء الزّكاة بالصورة التي أدّاها أمير المؤمنين عليه السلام عندئذٍ يُعتبر مشمولاً هو الآخر بمضمون الآية الشريفة.

٣. من الواضح أنّ الرّسالة التي تريد الآية الكريمة تبليغها هي الاستمرار على الإنفاق ومواصلته، وأمّا الزّكاة الواجبة فهي مرحلية وليست مستمرّة، ألّلهمّ إلّا إذا قمنا بتقييم استمرارية الشيء بما يتناسب مع الشيء نفسه.

* * *

١. **تفسير العياشي**، ج١، ص١٥١.

ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

خلاصة التفسير

ربّما لاحظ كلّ واحدٍ منّا المرابين المحترفين وهم يتصرّفون كالمعتوهين في جميع شؤونهم الحياتية كالذي يركبه الشيطان ويوجّه تصرّفاته كيفما شاء، وذلك لأنّ الجنون الذي يعتري المرابي يؤثّر في أفكاره وصفاته وأفعاله الأخرى. وهذه الفئة من الناس تظنّ أنّ عملية الرّبا هي معاملة تجارية صحيحة لا عَيب فيها، وأنّها لا تختلف أبداً عن البيع والشراء، بل تعتبر الرّبا هو أصل المعاملة في التجارة وأنّ البَيع والشّراء فرع من التجارة، لكنّها تجهل أنّ الله سبحانه وتعالى قد أحَلّ البَيع والشراء وحرّم الرّبا بكلّ أشكاله.



ومن المعروف أنّ الأحكام الإلهية التي تشمل كذلك حليّة البَيع وحُرمة الرّبا، هي بمثابة موعظة وسَدّ مَنيع في طريق ظهور أيّ نوع من المُنكرات. هذا، وكان الحكم الوضعي للمال الرّبويّ وفقاً لنظام الجاهلية يقضي بصحّة تملّكه وامتلاكه، وبعد مجيء الإسلام وصدور الحكم الإلهيّ بشأن الرّبا، لم يَعُد المال الرّبويّ مُلكاً للمرابي، وأمّا مصير المُرابين قبل ذلك التاريخ وحكمهم فمَنوط إلى الله ﷻ، فالذين بقوا على حالهم بعد صدور الحكم الإسلاميّ حول الرّبا وأصرّوا على التعامل الرّبويّ ولم يَرعووا وأُشرِبوا الرّبا في قلوبهم وأعمالهم ولم يقبلوا بالحكم المذكور فإنّهم حَصب جهنّم خالدين فيها أبداً، وأمّا الذين اعترفوا بحُرمة الرّبا فإنّ جزاءهم هو المكوث في جهنّم فترة تتناسب مع ما كانوا يفعلون.

التفسير

المُفردات

يَأْكُلُونَ: المقصود بالأكل هو مُطلق الفعل لا خصوص تناول الطعام في مقابل اللباس، ويتّصف هذا المصداق بخصوصيّة مُعيّنة وهي التدمير والهلاك، فعند الاجتياز من القسم إلى المقسم ومن المصداق إلى الصّادق تجتاز معهما ميزة المصداق و المقسم بشكل ملحوظ. والحاصل أنّ المُراد بالأكل في الآية الشريفة هو التصرّف المُهلِك والمُدَمِّر.

الرِّبَا: «الرّبا» في اللغة هو الزيادة والارتفاع والعُلوّ كارتفاع الأرض مثلاً عند هطول المطر: ﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**﴾[1] والرّغوة أو الزّبَد الذي يظهر على مياه السيول: ﴿**فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا**﴾[2]

---

١. سورة الحجّ، الآية ٥.

٢. سورة الرّعد، الآية ١٧.

والرّفعة التي يتصوّرها البعض لأنفسهم على الآخرين: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾[1].

أمّا «الرّبا» في الاصطلاح فهو المبلغ يؤدّيه المُقتَرِض زيادة على ما اقترض وذلك في بَيع المَكيل والموزون وليس مطلق الزيادة أو المال الزائد، إذاً، فالرّبا في الحقيقة هو نوع من العمل وهنا يظهر الفَرق بين قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ وبين الآية الشريفة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[2] باعتبار أنّ (الرّبا) هو «أكْل» وليس «مالاً».

واستناداً إلى ما ذُكِر ينبغي التوسّع في معنى (الأكل) والتصرّف في معنى (الرّبا) ليكون المقصود بالأكل هو مطلق التصرّف والعمل المُدمِّر والهَدّام، والمقصود بالرّبا أخذ الزيادة على المال أو المال الرّبويّ الزائد الذي يأكله المُرابي.

وتَعريفُ «الرِّبَا» لِلعَهْد، أَيْ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا الذي عَهِدْتُم في الجاهِليَّة لأنّ أوّل ما ذُكِرت كلمة الرّبا كانت نَكرة: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[3]، فلمّا استأنس الناس هذه الكلمة وتعرّفوا عليها وردت بعد ذلك في القرآن الكريم مُعرّفة بالألف واللام، وقد يتوهّم البعض أنّ الأظهر هو أن تأتي مُعرّفة لأنّ الرّبا كان معروفاً قبل الإسلام، إذاً، فدخول الألف واللام على ﴿الرِّبَا﴾ يشير إلى ورود هذه الكلمة لأوّل مرّة في آية سابقة كان الرّبا قد عُرِف فيها[4].

---

١. سورة النّحل، الآية ٩٢.

٢. سورة النساء، الآية ٢٩.

٣. سورة الرّوم، الآية ٣٩.

٤. «الرّبا» اسم من (الرّبو) فلامُه واو، والنسبة إليه (رِبَوِيٌّ). (معجم النّفائس الكبير، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد أبو حاقَة، مادّة «ر ب ا»). [المترجم]



وقد كُتِبت كلمة (الرّبو) في القرآن الكريم بالواو خلافاً لِما شاع عن كتابتها في الوقت الحاضر بشكل (الرِّبا) بالألف وذلك لسببَيْن اثنيْن هما:

١. أنّ كلمة (الرّبا) في الأصل مأخوذة من (الرّبو) ولذلك فإنّ (الواو) هي لامَ الفعل (رَبا يَرْبُو رُبُوّاً ورِباءً، واويّ) لام فعله، مثل غزا، يغزو، غزو.

٢. أنّ خطّ القرآن الكريم هو خطّ خاصّ عُرِف به منذ نزوله، وينبغي بحث هذا الموضوع ضمن إطار العلوم القرآنية من جهة وعلم الفقه من جهة أخرى لتوضيح حجيّة كتابة القرآن الكريم بالخطّ المعهود. وعلى أيّة حال فإنّه ممّا لا شكّ فيه هو أنّ عدم تغيير الخطّ الأصليّ الذي كُتِبَ به القرآن الكريم حتى الآن دليل واضح على اهتمام المسلمين بالقرآن والمحافظة على شكله الذي كان عليه وشاهد على نزاهة القرآن الكريم عن التحريف.

لَا يَقُومُونَ: ليس المقصود بالقيام في الآية البَعث والخروج من الأجداث ليتوهّم البعض بأنّ المُراد هو قيام المُرابين من قبورهم يوم القيامة بالهيأة المذكورة ـ كالذي يتخبّطه الشيطان ـ رغم أنّ هذه الحالة ستحدث لهؤلاء يوم القيامة أيضاً، بل المقصود بقيام المُرابين هو تصرّفهم وسلوكهم وتعاملهم مع مسألة الرّبا وأكله، فيشمل ذلك أفكارهم وآراؤهم وحديثهم وكلامهم الذي يتّصف بحالة من الجنون والمَسّ[1].

يَتَخَبَّطُهُ: «الخَبْط» التصرّف أو السلوك الشاذّ وغير الاعتياديّ، ومنه قيل: «خَبطَ عَشْواءَ»، وهي النّاقة التي في بَصَرَها ضعفٌ، تَخْبِطُ إذا مشتْ، لا تتوقّى شيئاً، و«الخُباطُ» بالضمّ، كالجنونِ وليس به[2].

---

١. تفسير تسنيم، ج٢، ص١٥٨.

٢. الصحاح في اللغة، ج٢، ص١١٢١ ـ ١١٢٢، مادّة (خ ب ط).

ويُقال لِمَن تصرّف بشكل غير مُتعارَف أو بشكل مُستهجَن بفعل تأثير الشيطان عليه، «يَتَخَبّطه الشيطانُ من المَسّ»، والجدير بالذّكر أنّ هذه العبارة لم تَرد سوى مرّة واحدة في القرآن الكريم لوَصف حالة المُرابي وسلوكه وتصرّفاته وتفكيره الجنونيّ.

المَسّ: يُقال «المَسّ» في كلّ ما يَنال الإنسان من أذىً وكُنِيَ به عن الجنون[١].

مَوْعِظَةٌ: «الوَعْظُ» زَجْرٌ مُقترن بتخويف[٢]، و«الوَعْظ» و«المَوْعِظَة» و«العِظَة» واحد بمعنى النُّصْحُ والحَثّ والإنذار والتذكير بالعَواقب أو ما يُوعَظُ به من قَوْل أو فِعْل، ولهذا فقد تَرِد كلمة «المَوعِظة» بصفة المُذكَّر مثل قوله تعالى: ﴿**فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ**﴾ وبصفة المؤنّث كقوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾[٣].

فَانتَهَى: «النَّهْيُ» الزَّجْرُ عن الشيء، و«الانْتِهاءُ» الانزجار عمّا نُهِيَ عنه[٤].

سَلَفَ: الأصل الواحد في هذه المادّة هو وقوع شيء وتحقّقه في الزّمان الماضي، فالسّلَف لا يُلاحَظ فيه سَبْق ولُحوق خلافاً للسّبق الذي يُلاحَظ فيه ذلك بالإضافة إلى التقدّم والتأخّر؛ فعبارة ﴿**مَا سَلَفَ**﴾ إذاً هو ما سَلَف من عمله في الرّبا فليس لأحد أن يتعرّض عليه أو يطلب منه ما أخذ منهم[٥].

عَادَ: الأصل الواحد في هذه المادّة هو الرّجوع إلى عمل ما للمرّة الثانية، سواء أكان ذلك بعد التوبة أم بدونها[٦]، وأمّا ما قاله البعض من أنّ «العَوْد» يقتصر على الرّجوع بعد الانصراف، فغير صحيح.

---

١ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٧٦٧، مادّة (م س س).

٢ . المصدر السابق، ص٨٧٦، مادّة (و ع ظ).

٣ . **سورة يونس** عليه السلام، الآية ٥٧.

٤ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٨٢٦، مادّة (ن هـ ى).

٥ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٥، ص٢٠٧ ـ ٢٠٨، مادّة (س ل ف).

٦ . المصدر السابق، ج٨، ص٢٥١، مادّة (ع و د) ـ بتصرّف.

تناسب الآيات

وردت سَبع آيات حول الرّبا (من الآية «٢٧٥» إلى الآية «٢٨١») بعد آيات الإنفاق الماضية مباشرة (من الآية «٢٦١» إلى الآية «٢٧٤») من دون أن تكون بين تلك وهذه أيّة فواصل مثل حرف النّداء أو ما شابه ذلك ما يشير إلى وجود علاقة وثيقة بين آيات الإنفاق والآيات المتعلّقة بموضوع الرّبا، على الرّغم من أنّ تلك العلاقة هي علاقة بين متضادّيْن نوعاً ما، كالعلاقة بين التوحيد والشّرك والحقّ والباطل، حيث ستبيّن لنا الآيات اللاحقة بأنّ الرّبا يقع في الجهة المقابلة للإنفاق. وهكذا، وبعد الآيات التي ذُكِرت بشأن الإنفاق وهي آيات ملؤها اللّطف والرّحمة وهدفها تشجيع المؤمنين وحثّهم على الإنفاق من أموالهم الطيّبة، فإنّ الآيات التالية التي تتحدّث عن الرّبا تتّسم بشدّة العبارات وقوّة التهديدات المقصود بها الابتعاد عن التعامل بالرّبا[١].

* * *

١ . «الآيات مسوقة لتأكيد حرمة الرّبا والتشديد على المرابين وليست مسوقة للتشريع الابتدائي، كيف ولسانها غير لسان التشريع، وإنّما الذي يصلح لهذا الشأن قوله تعالى في سورة آل عمران: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** (آل عمران / ١٣٠)؛ نعم تشتمل هذه الآيات على مثل قوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** (البقرة / ٢٧٨)، وسياق الآية يدلّ على أنّ المسلمين ما كانوا ينتهون عن النهي السابق عن الرّبا، بل كانوا يتداولونها بينهم بعض التداول فأمرهم الله بالكفّ عن ذلك، وترك ما للغُرماء في ذمّة المدينين من الرّبا... ومن هنا يظهر أنّ الرّبا كان أمراً مرغوباً عنه من أوائل عهد رسول الله ﷺ قبل الهجرة حتى تمّ أمر النهي عنه في سورة (آل عمران)، ثمّ اشتدّ أمره في سورة البقرة بهذه الآيات السّبع التي يدلّ سياقها على تقدّم نزول النهي عليها، ويبدو أنّ هذه الآيات إنّما نزلت بعد سورة (آل عمران)... والآيات، أعني آيات الرّبا، لا تخلو عن ارتباط بما قبلها من آيات الإنفاق في سبيل الله كما يشير إليه قوله تعالى في ضمنها: **﴿يَمْحَقُ اللهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾**... وكذا ما وقع من ذكره في سورة (الرّوم) وفي سورة (آل عمران) مقارناً ←

مقارنة بين الإنفاق والرّبا

في بحث الإنفاق والرّبا أنّ الأوّل هو الحائز على الأصالة، وأمّا ذِكر الرّبا فهو لدَفع ظاهرة تحول دون أداء الإنفاق وذلك لأنّ موضوع الرّبا يتمّ بحثه ضمن المواضيع المتعلّقة بالتصدّق وبيان آثاره وبركاته.

ويأتي ذِكر «الإنفاق» إلى جانب «الرّبا» في سياق الصناعة البديعية المُسمّاة بالتضادّ (أو الطِّباق أو المُطابقة)[1]، مثل ذِكر الإيمان مع الكُفر والتوحيد مع الشّرك والمصلحة مع المَفسدة والصّدق مع الكذب والحقّ مع الباطل والفائدة مع الضّرر، لأنّ ثمّة تقابلاً بين تعريف الإنفاق والرّبا، فالأوّل معناه «الإعطاء دون مُقابل» بينما يعني الرّبا «الأخذ بدون تعويض». ومن الواضح أنّ الأخذ والعطاء كلمتان متقابلتان مثل آثار الإنفاق في مقابل مساوئ الرّبا، لأنّ الإنفاق

←

لذكر الإنفاق والصدقة والحثّ عليه والترغيب فيه. على أنّ الاعتبار أيضاً يساعد الارتباط بينهما بالتضادّ والمقابلة، فإنّ الرّبا أخذٌ بلا عَوض كما أنّ الصّدقة إعطاءٌ بلا عوض، والآثار السيئة المترتبة على الرّبا تقابل الآثار الحسنة المترتبة على الصدقة وتحاذيها على الكلية من غير تخلّف واستثناء، فكلّ مفسدة منه يحاذيها خلافها من المصلحة منها لنشر الرحمة والمحبة، وإقامة اصلاب المساكين والمحتاجين ونماء المال وانتظام الأمر واستقرار النظام والأمن في الصدقة وخلاف ذلك في الربا. وقد شدّد الله سبحانه في هذه الآيات في أمر الرّبا بما لم يشدّد بمثله في شيء من فروع الدّين إلّا في تولّي أعداء الدين، فإنّ التشديد فيه يُضاهي التشديد في الرّبا». تفسير الميزان، ج٢، ص٤٠٨ ـ ٤٠٩. أنظر كذلك: **الأساس في التفسير**، ج١، ص٦٣٠.

١ . هو في علم البَديع، الجمع في الكلام بين مُتضادّيْن، إمّا اسميْن، نحو: الليل والنهار، فِعليْن، نحو: يَبكي ويضحك، أو حَرفيْن، نحو: يوم لَنا ويوم عَلينا؛ والطّباق نوعان: أ) طباق الإيجاب، وهو الذي لم يختلف فيه اللفظان المتضادّان سَلباً وإيجاباً، أو هو الذي صُرِّحَ فيه بإظهار الضدّيْن؛ ب) طباق السّلب، وهو الذي يُجمَع فيه بين فعليْن من مصدر واحد أحدهما مُثبت والآخر مَنفيّ، أو هو ما اختلف فيه الضدّان إيجاباً وسَلباً، نحو قوله تعالى: ﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ**﴾ (**النساء/ ١٠٨**). (**المعجم المفصّل في اللغة والأدب**، إميل بديع يعقوب و ميشال عاصي، ص٧٨٧). [المترجم]



يبدو تناقصاً في الظاهر إلّا أنّه يتّصف في الواقع بزيادة صادقة، والرّبا يبدو زيادة في الظاهر لكنّه في الحقيقة مجرّد نقص وفناء ودمار، ولذلك نلاحظ أنّ الأحكام الفقهية والكلامية والأخلاقية والاجتماعية الخاصّة بالإنفاق، سواء أكانت صريحة أم كنائية، هي على العكس تماماً من الأحكام في المجالات المذكورة نفسها الخاصّة بالرّبا. على سبيل المثال فإنّ الآيات التي ذكرناها سابقاً تشير إلى أنّ الإنفاق يمثّل خطوة في طريق السّير في سبيل الله سبحانه وتعالى والتكامل فيما يُعتبر الرّبا السّير بخطى حثيثة باتّجاه الطاغوت والغيّ؛ والمُنفق يهدف من وراء إنفاقه إلى كسب مرضاة الله تعالى وأن يكون إنفاقه سبباً لتثبيت نفسه واستقامتها واستقرارها بينما لا يسعى المُرابي إلّا إلى إشباع رغباته الشخصيّة وأهوائه النفسية الدنيئة ليكون ما يحصل عليه من الرّبا عاملاً لتزلزل أركانه واضطراب نفسه وإصابته بقَلق مُزمن؛ ثمّ من شأن الإنفاق أن يجعل قاعدة الإنسان الاجتماعية كالبنيان المرصوص، وأمّا الرّبا فإنّه يزلزل قَدَميْ صاحبه ويضعه على شفير نار جهنّم وبِئس المصير. نعم، الإنفاق وفقاً لمقدار إخلاص المُنفِق، يُثاب بضعفيْن أو أضعاف وفي مقابل ذلك الرّبا ـ سواء قلّ أم كَثُر، على مستوى فرديّ كان أم اجتماعيّ، وسواء أُخِذَ من الأغنياء أم من الفقراء ـ فهو يؤدّي إلى وقوع المُرابي في مخاطر لا تُحصى وأهوال لا يمكن تصوّرها، بدءاً من ذهاب ماله وانتهاءً بسقوطه وفنائه اجتماعياً فضلاً عن أنّ عمله هذا يُعدّ محاربة لله تعالى ورسوله ﷺ.

وأمّا الشيطان الرّجيم فيؤدّي دَوريْن: أحدهما دوره في الإنفاق وثانيهما دوره في عملية الرّبا؛ ففيما يتعلّق بأصل الإنفاق فإنّه يأمر الموالين له بتَرك الإنفاق وتخويف المُنفِق من مَغبّة الاستمرار في الإنفاق وإيهامه أنّ ذلك يؤدّي ـ بزعمه ـ إلى ضياع ماله سُدى ويصبح فقيراً مُعوزاً بعد أن كان غنياً موسراً: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ**﴾؛ وإذا اجتاز المُنفِق هذا الاختبار بنجاح وبدأ بالإنفاق بالفعل،

يَعمد الشيطان الرّجيم إلى إقناعه بأن يقوم على الأقلّ بإنفاق الخبيث من ماله بدلاً من الطيّب الحلال ثمّ يُوَسوس له بإشعار الأشخاص الذين يُنفق عليهم بالمَنّ أو حتى إيذائهم ساعياً من وراء ذلك إلى إبطال إنفاقه وعدم حصوله على الثواب الذي وعده به ربّه؛ وأمّا دور الشيطان الرّجيم في عملية الرّبا فيتمثّل في إقناع المُرابي بأنّ الرّبا لا يختلف أبداً عن البَيع، بل هو البَيع نفسه، محاولاً بذلك تحسين صورة الرّبا في عَيَنيْ المُرابي وتسويغه في نفسه، فتُغريه الأرباح الطائلة التي يجنيها من عملية الرّبا وتُطمّعه في الإيغال والإنعام في زيادة تلك الأرباح.

وما ينبغي الاعتبار به وأخذ الدّروس منه والحذر إزاءه هو أنّ الشيطان الرّجيم سيتبرّأ في النهاية من المُرابي ومن كلّ ما قام به ـ رغم أنّ ذلك لم يكن إلّا بوسوسته وإغرائه ـ ويتركه يوم القيامة وحيداً ذليلاً مع أعماله الشريرة. إذاً، فإنّ وسوسة الشيطان تكون في مقابل هداية الحقّ الرّحمن، وعَمله يكون في الجهة المعاكسة لأوامر الله ﷻ لأنّ الشيطان الرّجيم يرى نفسه في مقابل الحقّ ولذلك فهو يجدّ ويجتهد لإبطال ذلك الحقّ.

المرابي يتصرّف كالمجنون

نستشفّ من الحصر المذكور في قوله تعالى: ﴿**لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾ أنّ المُرابي لا يتصرّف كالعقلاء أبداً، فالله سبحانه وتعالى لم يَقُل: «إنّ قيام المرابي فقط هو قيام جنونيّ» ليتوهّم البعض أنّ أفعال المرابي الأخرى قد تكون عاقلة، بل حصر الأمر بقوله إنّ المُرابي لا يقوم إلّا كالمجنون.

واستند بعض المُفسّرين في بيان قيام المُرابي كالمجنون إلى حديث المعراج وقالوا: «القول الثاني:... يريد إذا بُعِثَ الناس من قبورهم خرجوا مُسرعين... إلّا أكلة الرّبا فإنّهم يقومون ويسقطون كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المسّ

وذلك لأنّهم أكلوا الرّبا في الدنيا فأرباه الله في بطونهم يوم القيامة حتى أثقلهم فهم ينهضون ويسقطون ويريدون الإسراع ولا يقدرون؛ وهذا القول غير الأوّل لأنّه يريد أنّ أكلة الرّبا لا يمكنهم الإسراع في المشي بسبب ثقل البطن، وهذا ليس من الجنون في شيء»[١].

لكنّ هذا الكلام ناقص لأنّ حديث المعراج والآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث دليلان مُستقلّان لإثبات رذيلتيْن مختلفتيْن وليسا متناقضيْن ليكون أحدُهُما مُخصّصاً أو مُقيّداً للآخر لقول النبيّ ﷺ: «**لّما أُسْرِي بي إلى السّماءِ رَأَيْتُ قَوْماً يُريد أحَدُهم أن يَقومَ فَلا يَقدر أن يَقوم مِن عِظَم بَطنِهِ، فَقُلتُ: مَن هؤلاءِ يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء الذين يَأكلون الرّبا لا يَقومونَ إلّا كَما يَقوم الذي يَتَخَبّطه الشّيطانُ مِن المَسّ**»[٢]. وهذه الرواية ـ كما هو واضح ـ لا تشير إلى سلامة عقول المُرابين حتى يُقال بوجود تناقض بين ذلك وبين ظاهر الآية، بل هو بيان للعذاب الحسيّ، أمّا الآية الشريفة فتتناول مسألة العذاب العقليّ للمُرابي؛ وعليه، فإنّ الرواية المذكورة ليست مُخصّصة للآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث مع بقاء معنى الخَبْط كما هو.

تذكير: لا تنسجم الأموال الرّبوية المحرّمة مع النظام الفطريّ للإنسان ولذلك فهي لا تُقبَل بأيّ شكل من الأشكال، وقد تكون الصورة الملكوتية لذلك على النّحو المذكور في قصّة الإسراء.

إطلاق صفة الجنون على المُرابي

لم يُطلق القرآن الكريم صفة التخبّط أو المَسّ أو الجنون على القاتل أو

---

١ . الفخر الرازي، التفسير الكبير، مج٤، ج٧، ص٩٧.
٢ . تفسير القمي، ج١، ص٩٣؛ أصول الكافي، ج٢، ص٢٨٥.

السِكّير رغم أنّ الظاهر فيهما هو استحقاقهما لمثل هذا العذاب في الدّنيا كما هي الحال في الآخرة بينما لم يتورّع في وصف المُرابي بهذه الصّفة الشنيعة، ويبدو أنّ السرّ في ذلك هو أنّ التفكير الاقتصاديّ للمُرابي تفكير جنونيّ ومقلوب، فاستناداً إلى منطق المُرابين ينبغي أن يكون الاقتصاد ربويّاً وأن يكون أصل الاقتصاد ومحوره ربويّاً كذلك، أمّا البَيع فهو ـ بزعمهم ـ أمر ثانويّ ومسألة فرعية تنبثق عن الرّبا نفسه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾.

من الواضح أنّ مثل هذا التفكير المنحرف يجعل جميع صفات المُرابي وأفعاله أقرب إلى الجنون منها إلى التعقّل حيث يكون كلام المُرابي ومنطقه مليئاً بالخَبْط والخَلط والجدال والخطأ، وهنا يتبيّن لنا أنّ قولهم ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ هو تشبيه مقلوب، بل إنّ لسان حال المرابي وتشبيهاته هي نوع من المجادلة الهجومية وكأنّهم يقولون: «لِمَ كلّ هذا التوبيخ والتعنيف لِما نَفعل؟! إذا كان الرّبا قبيحاً فإنّ تعامُلَكم من بَيعكم وشراءكم يشبه الرّبا تماماً؛ إذاً، فالبَيع قبيح كذلك كالرّبا، فلِمَ لا تستقبحونه؟!» هذا هو ما ندعوه بالجدال الباطل: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1] و﴿... الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾[2]. فبماذا يُمكننا تسمية مَن يعتبر كومة الحطب اليابس كأشجار النّخل الباسقة إلّا بالمَجنون؟

تأثير الجنّ في الجنون

المقصود بالشيطان في قوله تعالى: ﴿يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ إمّا أن يكون مفهوماً كليّاً بمعنى أيّ شرّ يكون من مصاديقه إبليس اللّعين أو أفراد الجنّ والإنس الأشرار، أو أن يكون معناه إبليس بالتحديد الذي يُعَدّ مخلوقاً من

---

١. سورة الكهف، الآية ٥٤.

٢. سورة الشورى، الآية ٣٥.

الجنّ[١]. ومهما يكن من أمر فإنّ المُستفاد من الآية الشريفة هو أنّه بإمكان الجنّ أن يحيلوا بعض الأشخاص إلى مجانين وأنّ للشيطان تأثيراً واضحاً في جنون بعض الأفراد المجانين وإن لم يكن بمقدوره فعل ذلك بصورة مباشرة ومستقلّة لأنّ هناك أسباباً طبيعية إلى جانب الاختلالات العصبية والأمراض العقلية تجعل حالة البعض شبيهة بالجنون ويمكن ملاحظة تأثير الشيطان على طول تلك الأسباب والعلل. وقد كنّى القرآن الكريم المَرض بالضُرّ الذي يظهر مع بعض الأسباب الطبيعية والظاهرية في جسم الإنسان لكنّ ذلك يُنسَب إلى الشيطان وأفعاله وتأثيراته كقوله سبحانه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٣].

والخلاصة أنّ وجود الظواهر الطبيعية للجنون لا يعني إنكار تأثير الشيطان في الجنون، أو اعتبار تشبيه المُرابي والمجنون والمَمسوس لمُجاراة التقاليد الخرافية التي كانت سائدة بين الناس آنذاك كاعتقادهم وإيمانهم بالجِنّة وتأثيرهم في تصرّفات بعض الأشخاص الجنونية أو غير المعقولة[٤]. فالجنون من المَسّ ليس أمراً خرافياً والله سبحانه وتعالى أجلّ من أن يأتي في كلامه بمَثَل أو تشبيه خرافيّ

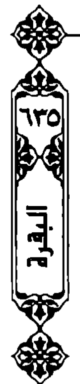
---

١ . مفردات ألفاظ القرآن، ص٤٥٤، مادّة (ش ط ن). قال الراغب الأصفهانيّ: «الشيطان اسم لكلّ عارمٍ من الجنّ والإنس والحيوانات... وسُميَ كلّ خَلق ذَميم للإنسان شيطاناً»

٢ . سوره ص، الآية ٤١.

٣ . سورة الأنبياء عليهم السلام، الآية ٨٣.

٤ . قال العلّامة الطباطبائيّ: «وما ذكره بعض المفسرين أنّ هذا التشبيه من قبيل المجاراة مع عامّة الناس في بعض اعتقاداتهم الفاسدة حيث كان اعتقادهم بتصرّف الجنّ في المجانين، ولا ضير في ذلك لأنّه مجرّد تشبيه خالٍ عن الحكم حتى يكون خطأً غير مطابق للواقع، فحقيقة معنى الآية، أنّ هؤلاء الآكلين للرّبا حالهم حال المجنون الذي يتخبّطه الشيطان من المسّ، وأما كَوْن الجنون مُستنداً إلى مَسّ الشيطان فأمر غير ممكن لأنّ الله سبحانه أعدَلَ مِن أن يُسلّط الشيطان على عقل عبده أو على عبده المؤمن». (تفسير الميزان، ج٢، ص٤١٢). [المترجم]



وإن كان الغرض منه هو مجرّد التشبيه، بل إنّ الله ﷻ عندما يسوق في كلامه العزيز مَثلاً أو تشبيهاً خرافياً فإنّه يُبطله ويبيّن عِلل بطلانه وأسبابه إذ لا محَلّ في كلام الله العليّ العظيم لأيّ باطل أو خرافة على الإطلاق ولو على نَحو الفكاهة، فهو القائل سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] و﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾[2].

تذكير: ١. إنّ الجنّ في الثقافة القرآنية هو مخلوق كالإنس باستطاعته أن يُفكّر ويختار وهو مُكلَّف كالإنسان ولم يُخلَق إلّا لعبادة الله جلّ شأنه، ومن الجِنّة من هم مؤمنون وبعضهم الآخر هم كافرون، لكنّ عقلية الجنّ ليست بمستوى عقلية الإنس وذلك لأنّهم لم يُمنحوا القدرة على نَيْل مقام النبوّة أو الرّسالة أو الإمامة أو الخلافة الإلهية كما هي الحال مع الإنسان.

٢. اعتبر البعض أنّ الجراثيم والميكروبات هي نوع من الجنّ[3]، وهذا كلام لا يملك أيّ دليل عقليّ أو شاهد نقليّ إطلاقاً.

مقارنة الرّبا بالبيع

إنّ مَن يعتبر نفسه هي الأساس والمعيار ويتوهّم أنّ تفكيره الضّحل هو عقل

---

١. **سورة فصّلت**، الآيتان ٤١ و ٤٢.

٢. **سورة الطارق**، الآيتان ١٣ و ١٤.

٣. قال صاحب تفسير المنار: «وَالْمُتَكَلِّمُونَ يَقُولُونَ: إِنَّ الْجِنَّ أَجْسَامٌ حَيَّةٌ خَفِيَّةٌ لَا تُرَى، وَقَدْ قُلْنَا فِي (الْمَنَارِ) غَيْرَ مَرَّةٍ: إِنَّهُ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْأَجْسَامَ الْحَيَّةَ الْخَفِيَّةَ الَّتِي عُرِفَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِوَاسِطَةِ النَّظَّارَاتِ الْمُكَبِّرَةِ [يعني المجاهر]، وَتُسَمَّى بِالْمِيكْرُوبَاتِ يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ نَوْعًا مِنَ الْجِنِّ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهَا عِلَلٌ لِأَكْثَرِ الْأَمْرَاضِ؛ قُلْنَا ذَلِكَ فِي تَأْوِيلِ مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّ الطَّاعُونَ مِنْ وَخْزِ الْجِنِّ، عَلَى أَنَّنَا ـ نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ ـ لَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى النِّزَاعِ فِيمَا أَثْبَتَهُ الْعِلْمُ وَقَرَّرَهُ الْأَطِبَّاءُ أَوْ إِضَافَةِ شَيْءٍ إِلَيْهِ مِمَّا لَا دَلِيلَ فِي الْعِلْمِ عَلَيْهِ لِأَجْلِ تَصْحِيحِ بَعْضِ الرِّوَايَاتِ الْأُحَادِيَّةِ، فَنَحْمَدُ اللهَ ـ تَعَالَى ـ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ أَرْفَعُ مِنْ أَنْ يُعَارِضَهُ الْعِلْمُ». (تفسير المنار، ج٣، ص٨٠ ـ ٨١). [المترجم]



الكلّ، هو المَعنيّ بقوله تعالى: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾[1]، وأمثال هؤلاء المختالين كانوا في الجاهلية القديمة يظنّون أنّ البَيع كالرّبا، لكنّهم غيّروا رأيهم في الجاهلية الحديثة مُعتبرين أنّ المضاربة والرّبا شيء واحد، وإذ كان هؤلاء يقولون في الجاهلية الأولى: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ فهم اليوم يقولون: «إنّما المُضاربة مثل الرّبا»، وعليه فإنّ هؤلاء ينظرون إلى المصارف الإسلامية التي تمارس نشاطاتها الاقتصادية ضمن إطار العقود الإسلامية كما ينظرون إلى المؤسسات والمراكز الرّبوية السائدة في الوقت الحاضر في حين أنّ هذه المقارنة مختلفة تماماً، سواء أكانت وفقاً للنظرة القديمة أم التصوّر الحديث، لأنّ البَيع والمُضاربة هما في الحقيقة نوعان من عمليّات تبادل السّلع مقابل النّقود أو العمل مقابل النّقود، ولا يتّصف أيّ واحدٍ منهما بأكل الأموال بالباطل أو الحصول على دخول سهلة وما شابه ذلك.

وكما أنّ الجنون يكون في بعض الأحيان مُطبقاً وأحياناً أخرى يكون متناوباً أو مرحليّاً أو مطلقاً، فإنّ أكل الرّبا يمكنه أن يدخل مرحلة من مراحل الجنون سيّما فيما يتعلّق بالمسائل الاقتصادية بينما قد يبدو تعاملاً اعتيادياً ومُتعارفاً في المعاملات الأخرى، وقد يتعرّض المُرابي الذي يكون مبدأه وشعاره ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ إلى حالات من الجنون في جميع شؤونه وتصرّفاته.

الرّبا مشكلة والبَيع هو الحلّ

بعد أن ينقل لنا القرآن الكريم التصوّر السخيف والمُستهجن الذي يحمله المُرابي حول اعتبار الرّبا هو الأصل والبيع هو مجرّد فرع لا غير: ﴿قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ فإنّه يتجاهل كُلُّ واحدٍ من الرّبا والمرابي ليُعلن بصراحة أنّ الله

---

[1] . سورة غافر، الآية ٨٣.



سبحانه وتعالى الذي يملك زمام الأمور التكوينية والتشريعية قد أحلّ البَيع وحرّم الرّبا: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾.

إنّ المعنى اللغويّ لكلّ واحدٍ من (الحلال) و(الحرام) هو «الفَتْح» للأوّل و«المَنْع» للثاني، وأمّا المعنى الاصطلاحيّ لهما فهو يشبه معناهما اللغويّ، فالبَيع والتجارة عَمَلانِ محلّلان وهما بالطّبع كفيلان بحلّ الكثير من المشاكل والعُقَد الاقتصادية، بينما حُرِّمَ الرّبا لكونه السبب الرئيسيّ لخَلق المشاكل والمُعضلات لأنّه يحرم الأشخاص من الانتفاع والاستفادة من أموالهم بالشكل الصحيح؛ إذاً، فالرّبا ليس سوى عملية ملؤها المشاكل.

وقد وُضِعت الأحكام الإلهية وفقاً للمصالح والمفاسد الخفيّة التي لا يعلمها سوى الله العليم الحكيم وإن سعى الإنسان إلى فَهْمها وحلّ رموزها حيث استطاع بالفعل التوصّل إلى تفسير بعض أسرارها، وأصبحت مصالح البَيع ومفاسد الرّبا دليلاً ساطعاً لتحليل الأوّل وتحريم الثاني.

مثال حول تضارب الآراء

اعتبر العديد من المُفسّرين أنّ قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ يُمثّل جملة حالية إنشائية[1]، إلّا أنّ الأستاذ العلّامة الطباطبائيّ رحمه الله اعتبرها جملة خَبرية مستقلّة وذلك لأسباب عديدة، منها:

١. من الناحية الأدبية، فإنّ الفعل الماضي يكون مصحوباً بـ«قَد» إذا كان حالاً.

٢. ومن حيث المعنى فإنّ مضمون الآية الشريفة لا ينسجم مع تركيب الجملة الحالية لأنّ الحال هي ظرف لزمان عامله وظرف لتحقّقه ولو كانت

---

١. **تفسير التبيان**، ج٢، ص٣٦٠؛ **نَظم الدّرر**، ج١، ص٥٣٦.

الجملة حالاً لكان معناها هو: أنّ سبب الخَبط الذي يصاب به المُرابي هو قوله إنّ البَيع كالرّبا في حين أنّ الله سبحانه قد أحلّ البَيع وحرّم الرّبا وليس ذلك قبل أو بعد التشريع الإلهيّ. وقد كان المُرابون قبل إنشاء الحليّة والحُرمة وبعدها في خَبْط كامل حيث كان القرآن الكريم قد حرّم الرّبا في آية سابقة (الآية ١٣٠ من سورة آل عمران).

٣. لو كانت الجملة إنشائية لكان معناها أنّه تمّ الآن تشريع الحليّة والحُرمة وأنّ خَبْط المُرابين قد بدأ مع صدور هذا الحكم[١].

---

١. قال العلّامة الطباطبائيّ ﵀: «وبذلك يظهر فساد ما ذكره بعضهم: أنّ المراد بقولهم: إنّما البيع مثل الرّبا نظمهما في سلك واحد، وإنّما قلبوا التشبيه وجعلوا الرّبا أصلاً وشبّهوا به البيع للمبالغة... وكذا فساد ما ذكره آخرون: إنّه يجوز أن يكون التشبيه غير مقلوب بناءً على ما فهموه: أنّ البيع إنّما حلّ لأجل الكسب والفائدة، وذلك في الرّبا متحقّق وفي غيره موهوم. ووجه الفساد ظاهر ممّا تقدم. قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ جملة مستأنفة بناءً على أنّ الجملة الفعلية المصدرة بالماضي لو كانت حالاً لوَجَبَ تصديرها بـ«قد»؛ يُقال: جاءني زيد وقد ضربَ عمراً، ولا يُلائم كونها حالاً ما يُفيده أوّل الكلام من المعنى، فإنّ الحال قيدٌ لزمان عامله وظرف لتحقّقه، فلو كانت حالاً لأفادت: أنّ تخبّطهم لقولهم ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ إنّما هو في حال أحلّ الله البيع وحرّم الرّبا عليهم، مع أنّ الأمر على خلافه، فهم خابطون بعد تشريع هذه الحلية والحرمة وقبل تشريعهما، فالجملة ليست حالية وإنّما هي مستأنفة. وهذه المستأنفة غير متضمّنة للتشريع الابتدائي على ما تقدّم أن الآيات ظاهرة في سبق أصل تشريع الحرمة، بل بانية على ما تدلّ عليها الآية (١٣٠) من سورة آل عمران فالجملة، أعني قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ...﴾ لا تدلّ على إنشاء الحكم، بل على الإخبار عن حكم سابق وتوطئة لتفرّع قوله بعدها: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ﴾؛ هذا ما ينساق إليه ظاهر الآية الشريفة. وقد قيل: إنّ قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ مَسوق لإبطال قولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ والمعنى لو كان كما يقولون لَما اختلف حكمهما عند أحكم الحاكمين مع أنّ الله أحلّ أحدهما وحرّم الآخر. وفيه أنّه وإن كان استدلالاً صحيحاً في نفسه لكنّه لا ينطبق على لفظ الآية فإنّه معنى كون الجملة ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ...﴾ حالية وليست بحال. وأضعف منه ما ذكره آخرون: أنّ معنى قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ
←



ومع جزيل الاحترام لِما قاله الأستاذ العلّامة من كلام رفيع، لكن، أوّلاً لا نستبعد أن يكون الحرف (قَد) مُقَدّراً في الآية كقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾[1] فقيلَ في تفسيرها إنّ أصلها هو «قَد حَصِرَت»[2]، وعليه فلا إشكال في احتمال أن يكون (قَد) مُضمَراً في الجملة المذكورة. وثانياً، يمكن أن يظهر الإشكال في كون الجملة حالية إذا اعتبرنا أنّ قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ حالاً لجُملة: ﴿يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ وليس لجُملة: ﴿قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾، أي إنّهم قالوا ذلك عندما أحلّ الله سبحانه البَيع وحرّم الرّبا.

←

وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ أنّه ليست الزيادة في وجه البيع نظير الزيادة في وجه الرّبا، لأني أحللت البيع وحرّمتُ الرّبا، والأمر أمري، والخلق خلقي، أقضي فيهم بِما أشاء، واستعبدهم بما أريد، ليس لأحد منهم أن يعترض في حكمي. وفيه: أنّه أيضاً مبنيّ على أخذ الجملة حالية لا مُستأنفة، على أنّه مبنيّ على إنكار ارتباط الأحكام بالمصالح والمفاسد ارتباط السببية والمسببية؛ وبعبارة أخرى على نفي العلية والمعلولية بين الأشياء وإسناد الجميع إلى الله سبحانه من غير واسطة، والضرورة تبطله، على أنّه خلاف ما هو دأب القرآن من تعليل أحكامه وشرائعه بمصالح خاصة أو عامة، على أنّ قوله في ضمن هذه الآيات: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الآية، وقوله: ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ الآية، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ إلى قوله ﴿مِثْلُ الرِّبَا﴾ تدلّ على نوع تعليل لإحلال البيع بكونه جارياً على سُنة الفطرة والخلقة ولتحريم الرّبا بكونه خارجاً عن سُنن الاستقامة في الحياة، وكونه مُنافياً غير ملائم للإيمان بالله تعالى، وكونه ظُلماً. قوله تعالى: ﴿فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾ تفريع على قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، والكلام غير مقيّد بالرّبا، فهو حكم كليّ وُضِع في مورد جزئي للدّلالة على كونه مصداقاً من مصاديقه يلحقه حكمه، والمعنى: إنّ ما ذكرناه لكم في أمر الرّبا موعظة جاءتكم من ربّكم... فإن انتهيتم فلكم ما سلف وأمركم إلى الله. ومن هنا يظهر: أنّ المُراد من مجيء الموعظة بلوغ الحكم الذي شرّعه الله تعالى، ومن الانتهاء التوبة وترك الفعل المَنهيّ عنه انتهاءً عن نهيه تعالى، ومن كون ما سلف لهم عدم انعطاف الحكم وشموله لِما قبل زمان بلوغه». (تفسير الميزان، ج٢، ص٤١٥ ـ ٤١٦). [المترجم]

١ . سورة النساء، الآية ٩٠.

٢ . البهجة المرضية، ص٢٣٦ ـ ٢٣٧.



وجدير بالذّكر أنّ الإنشاء يختلف عن التشريع، فالتشريع المُكرّر غير صحيح بينما لا إشكال في تكرار الإنشاء، وقد تمّ تشريع الحكم فيما يتعلّق بالرّبا قبل هذا ولكن بصيغة جُملة إنشائية مُكرّرة وتمّ أيضاً إبلاغ نفس الحكم التشريعيّ وتأكيده، كأن تتضمّن روايتان معاً حكماً واحداً إزاء موضوع واحد، إحداهما مرويّة عن الإمام الباقر عليه السلام والأخرى مرويّة عن الإمام الصّادق عليه السلام؛ فإذا اعتبرنا الجملة جُملة إنشائية عندئذ يسقط إشكال التكرار في التشريع.

حُرمة العقد الرّبويّ وبطلانه

يُمكننا استنباط عدّة نقاط من إسناد حكم الحُرمة إلى الرّبا: ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، منها ما يلي:

١. إنّ الرّبا ـ سواء أكان في المعاملة أم في القرض ـ محرّم من الناحية التكليفيّة تماماً كحُرمة عقد النّكاح الذي يُجرى في حال الإحرام، فالعقد الرّبويّ محرّم في البيع والقرض على حدّ سواء ولا تختصّ حُرمته بموضوع مُعيّن.

٢. يُعتبر العقد الرّبويّ باطلاً في البيع والقرض معاً كحُرمة عقد النّكاح في حال الإحرام كما قلنا فبالإضافة إلى حرمته التكليفية فهو محكوم بالبطلان الوضعيّ أيضاً.

٣. تأتي حُرمة المال الرّبويّ لكون الرّبا يُمثّل معصية خاصّة وليس لبطلان التعامل به، فالتصرّف في مال الرّبا يُعدّ تصرّفاً في المال المغصوب وهو محرّم كما نعلم. وقد تجتمع عدّة عناوين في موضوع واحد إلّا أنّ حرمة المال الربويّ لا تستند إلّا إلى عنوان واحد فقط بحيث لا يكون فيه أيّ أثر للرّضى الربويّ مثل الرّضى في القِمار رغم أنّ للرضى المطلق والمنقطع لهذا العقد المشؤوم أثره الخاصّ.

٤. الفصل بين الحرمة التكليفية والحُرمة الوضعية، وحول إمكانية الجمع بين الحُرمتيْن المذكورتيْن فإنّ هناك العديد من الشواهد والأدلّة، منها:

أ) أنّ الحرمة التكليفية غير الحُرمة الوضعية، مثل الشراء والبيع الخارجيّيْن اللذيْن يتطلّبان صرف الوقت وضياع حضور صلاة الجمعة عندما يكون البيع محرّماً تكليفاً لا وضعاً إذا نُودي للصلاة، لكنّ هذه الحرمة التكليفية لا تستند فقط إلى العقد اللفظيّ عند الحضور في الموعد المحدّد لصلاة الجمعة بل يتعلّق كذلك بالبيع الخارجيّ الذي يزاحم حضور الصلاة.

ب) الحرمة الوضعية دون المَنع التكليفيّ، مثل بيع شيء لا يملك منفعة الحليّة العقليّة ففي مثل هذه الموارد تكون المعاملة باطلة رغم حليّة العقد نفسه.

ج) بيع المشروبات الروحية الذي يُعتبر محرّماً من الناحية التكليفية وباطلاً من الناحية الوضعية، أمّا دليل حرمته التكليفية فيكمن في كون كاتبه ملعوناً وكذلك الشاهد وما شابههما (كالحرمة التكليفية للعقد الربويّ).

٥. تتعلّق حرمة العقد الربويّ وفساده بنَصّ البَيع الربويّ أو القرض الربويّ وليس بسبب تأثير الشرط الفاسد الذي يمكن فصله وتفكيكه وإن كان احتمال فصل شرط الزيادة في الجملة مطروحاً أيضاً.

وكان الفخر الرازي يظنّ، كما فعل من قَبله الشافعي، أنَ قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ هو قول مُجمل وأنّه ينبغي تفسير حليّة البيع وحرمة الرّبا من خلال الروايات وذكر لذلك أدلّة كثيرة، منها:

١. أنّ ﴿الْبَيْعَ﴾ اسم مُفرد دخلت عليه الألف واللام لتشير إلى عدم العمومية وهي تفيد أنّ الله سبحانه قد أحلّ بَيْعاً مُعيّناً وحرّم رِبا معيّناً لكنّه لم يُحدّد ذلك، إذاً، فالعبارة مُجملة.

٢. حتى لو افترضنا أنّ الألف واللام تفيد العموم فإنّ عموميّتها ضعيفة مقارنة بالعموم المُستفاد من ألفاظ العموم الأخرى، ثمّ إنّ التخصيص الواسع الذي تتضمّنه العبارة سيؤدّي ـ والعياذ بالله ـ إلى تكذيب الكلام الإلهيّ إذ لا يحلّ بَيع الأعيان المحرّمة أو النّجسة[1].

١. قال الفخر الرازي: «وأمّا أكثر المفسرين فقد اتفقوا على أنّ كلام الكفار انقطع عند قوله ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ وأما قوله ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ فهو كلام الله تعالى ونصّه على هذا الفرق ذكره إبطالاً لقول الكفار ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾، والحجّة على صحّة هذا القول وجوه: الحجة الأولى: أنّ قول من قال: هذا كلام الكفّار لا يتمّ إلّا بإضمار زيادات بأن يُحمل ذلك على الاستفهام على سبيل الإنكار، أو يُحمل ذلك على الرواية من قول المسلمين، ومعلوم أنّ الإضمار خلاف الأصل، وأمّا إذا جعلناه كلام الله ابتداءً لم يحتج فيه إلى هذا الإضمار، فكان ذلك أولى. الحجّة الثانية: أنّ المسلمين أبداً كانوا متمسّكين في جميع مسائل البيع بهذه الآية ولولا أنّهم علموا أنّ ذلك كلام الله لا كلام الكفار، وإلّا لَما جاز لهم أن يستدلّوا به... الحجّة الثالثة: أنّه تعالى ذكر عقيب هذه الكلمة قوله ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ فظاهر هذا الكلام يقتضي أنّهم لمّا تمسّكوا بتلك الشبهة وهي قوله ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ فالله تعالى قد كشف عن فساد تلك الشبهة وعن ضعفها، ولو لم يكن قوله ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ كلام الله لم يكن جواب تلك الشبهة مذكوراً فلم يكن قوله ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ لائقاً بهذا الموضع. المسألة الثانية: مذهب الشافعي ﷺ أنّ قوله ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ من المجملات التي لا يجوز التمسّك بها، وهذا هو المختار عندي، ويدلّ عليه وجوه الأول: أنّا بيّنا في أصول الفقه أنّ الاسم المفرد المحلّى بلام التعريف لا يُفيد العموم ألبتة، بل ليس فيه إلّا تعريف الماهية، ومتى كان كذلك كفى العمل به فى ثبوت حكمه في صورة واحدة. والوجه الثاني: وهو أنّا إذا سلّمنا أنّه يُفيد العموم، ولكنّا لا نشكّ أنّ إفادته العموم أضعف من إفادة ألفاظ الجمع للعموم، مثلاً قوله ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ﴾ وإن أفاد الاستغراق إلّا أنّ قوله «وأحلّ الله البيعات» أقوى في إفادة الاستغراق، فثبتَ أنّ قوله ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ﴾ لا يُفيد الاستغراق إلّا إفادة ضعيفة، ثمّ تقدير العموم لا بدّ وأن يطرق إليها تخصيصات كثيرة خارجة عن الحصر والضبط، ومثل هذا العموم لا يَليق بكلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، لأنّه كذب والكذب على الله تعالى مُحال، فأمّا العامّ الذي يكون موضع التخصيص منه قليلاً جداً فذلك جائز لأنّ إطلاق لفظ الاستغراق على الأغلب عُرْف مشهور في كلام العرب، فثبتَ أنّ حمل هذا على العموم غير جائز». (التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»، مج٤، ج٧، ص١٠٠). [المترجم]

من الواضح أنّ الأدلّة التي ساقها الفخر الرازي ليست دقيقة، إذ، نقول أوّلاً يشير المفرد الذي دخلت عليه الألف واللام إلى العموم الإطلاقي الذي يُستَشَفّ من مقدّمات الحكمة لا العموم الوضعيّ. نعم، يُعتبر الظهور الوضعيّ العامّ في العموم أقوى من الظهور الإطلاقيّ المطلق، ولكن بالنظر إلى مقدّمات الحكمة فإنّ الظهور الإطلاقيّ يُمثّل حجّة هو الآخر. وثانياً، إنّ قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ هو جملة إنشائية وليست إخبارية، وعليه، فإنّ كثرة التخصيص مع افتراض صحّته لا يستلزم الكذب لأنّ الصّدق والكذب هما من مقوّمات الجملة الخبريّة؛ إذاً، فمُطلق البيع حلال ومُطلق الرّبا حرام وليس في الآية ما يشير إلى الإجمال، وفي حال وجود أيّ شكّ يمكننا الاستناد إلى أصالة الإطلاق لرفع الشكّ.

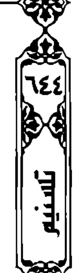
الأحكام الإلهيّة موعظة

أشار العديد من الآيات القرآنية الكريمة إلى كون المعارف الدينية هي عبارة عن مواعظ مثل قوله ﷻ: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾[2]، وذكر الله تعالى في الآية الّتي هي موضوع البحث كذلك أنّ حكم تحريم الرّبا هو موعظة لِمَن يتّعظ: ﴿فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى﴾ ما يدلّ على أنّ أحكام الله سبحانه هي في الحقيقة مواعظ وعِبَر أوجدها تعالى لمصلحة البشر وخير الأمم، بل هي من نِعَم الله ﷻ، إذاً، يجب علينا أن نشكر الله تعالى ونَحمده على ذلك الخير وسنّ تلك القوانين والأحكام التي تهدي إلى الصراط المستقيم

---

١ . سورة آل عمران، الآية ١٣٨.

٢ . سورة يونس ﷺ، الآية ٥٧.



وتُصلح أمور الناس في الدنيا والآخرة لأنّ الموعظة التي تكون من طرف «الربّ» سبحانه لا تهدف إلّا إلى تكامل الإنسان وازدهاره وخيره وتربية أجياله وتقدير أموره وتحسين شؤونه.

ومن المعلوم أنّ مواعظ الله ﷻ لا تخصّ فئة مُعيّنة من الناس دون أخرى بل هي موضوعة لعموم البشر بمَن فيهم المُرابون لكنّ هؤلاء لا يستمعون إلى مواعظ الله ولا يريدون ذلك أصلاً، بل يضعون أصابِعَهم في آذانهم لئلّا تؤثّر فيهم تلك المواعظ وتُغيّرهم إلى ما لا ترغب نفوسهم ولا يتماشى مع أهوائهم: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾[1]. ولقد دعا الله الهادي جميع الناس إلى سبيل الحقّ والصّراط المستقيم ليس بالموعظة وحسب بل وكذلك بالجدال الأحسن والحكمة والبرهان القاطعيْن.

النّهي عن المنكر في المواعظ الإلهية

لو أنعمنا النّظر في قوله تعالى: ﴿... فَانتَهَى﴾ ولاحظنا استخدام هذه الكلمة بدلاً من «فاتّعظ» لأدركنا أنّ مواعظ الله ﷻ ليست للاعتبار وتعلّم الدروس فقط لكي توضَع في خانة الإرشاد المحض أو الحكم الخُلقيّ الصّرف، بل تتضمّن مواعظه سبحانه مسألة غاية في الأهمية وهي النّهي عن المنكر؛ إذاً، فالأوامر والنّواهي الإلهيّتان هما عبارتان عن قوانين إلى جانب المواعظ والدّروس، وعليه، ينبغي على الإنسان الذي يصغي إلى الوعظ ويأتمر بالأمر أن ينتهي عن القيام بالأفعال القبيحة ويطهّر ذاته.

---

١ . سورة نوح عليه السلام، الآية ٧.

الحكم الوضعي والتكليفيّ للمال الربويّ

كان بعض المسلمين في صدر الإسلام وقبل نزول حكم الرّبا يتعاملون بالرّبا ومع نزول قوله تعالى: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ سقطت عقوبة أكل الرّبا عن هؤلاء، والحقيقة أنّ القاعدة المعروفة: «الإسلامُ يَجبّ ما قَبلَه وإن جَلّ»[1] مُقتبسة من قوله تعالى: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾.

وأمّا ما يخصّ المُرابين من غير المسلمين الذين كانوا يعيشون في كَنف الدولة الإسلامية، فرغم أنّهم كانوا مشمولين بالحكم الإسلاميّ وتطبيق الأحكام الفقهية فيه بشكل كامل، إلّا أنّه مع اعتناقهم الدين الإسلاميّ أصبحت القاعدة المذكورة تشملهم كذلك وبالتالي فقد تمّ تطبيق قوله تعالى: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ على هؤلاء أيضاً.

وهكذا نرى أنّ اعتناق الدّين الإسلامي كان له الفضل في العَفو عن كلّ أولئك الذين كانوا يتعاطون الرّبا قبل الإسلام والشّروع ببداية جديدة لحياتهم السابقة، لكن، بعد صدور الحكم بتحريم الرّبا، لم يَحِقّ لأيّ أحدٍ كان مطالبة المَدين بما تبقّى من المال الرّبويّ ما عدا أصل رأس المال وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ المُرابين المسلمين لا يشملهم حكم القرآن الكريم ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ بل تشملهم الأحكام المطلقة مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾[3] وهي تخصّ كذلك وثائق المَديون وعقوده الرّبويّة الماضية، ثمّ إبطال ما تبقّى منها وإن تاب.

---

١. علي أكبر دِهخُدا، **الأمثال والحكم**، ج٢، ص١١٥٥؛ أنظر كذلك: **القواعد الفقهية**، ج١، ص٥٦٤٧؛ **بحار الأنوار**، ج٦٧، ص٢٧١.

٢. **سورة البقرة**، الآية ٢٧٨.

٣. **سورة البقرة**، الآية ١٨٨.



والخلاصة أنّ الحكم الوضعي للأموال الرّبوية الماضية المتعلّقة بالمُرابين من غير المسلمين يتمثّل في التملّك وله الحقّ في امتلاك الأموال الرّبويّة: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ إلّا أنّ الحكم التكليفيّ للرّبا، أي علاقة المُرابي بالله سبحانه، فقد أُوكِل لأمره ﷻ: ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾، فقد يُعفى عنه ويُغفَر له يوم القيامة. وعلى أيّة حال يمكننا القول بأنّ الآية الشّريفة: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ لا تقتصر على الرّبا وحده بل هي باقية على إطلاقها؛ إذاً، فمَن تصرّف خلافاً لهذا الحكم الإلهيّ قبل معرفته بالحكم فلا تثريب عليه فيما يتعلّق بما جرى منه في الماضي من ناحية الحكم التكليفيّ، لكن من ناحية الحكم الوضعيّ فإنّ أمره إلى الله تعالى كما هي الحال مع القضاء والكفّارة وغيرهما، كما أنّ قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾ ليس خاصّاً بالرّبا بل إنّ الأمر الأُخرويّ لأيّ شيء منوط بالله وحده سبحانه ويمكن إصلاحه بأمر القضاء أو بدَفع الكفّارة بالإضافة إلى التوبة وما شابه ذلك، أو يتمّ تعيين مصيره بإرادة إلهية؛ فإذا اقتضت حكمته العفو عن ذلك يكون الشخص مغفوراً له، وإلّا فإنّه يُعَذّب بما يتناسب مع معصيته؛ إذاً، فقوله ﷻ: ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾ لا يختصّ بحكم تكليفيّ أُخرويّ بل يشمل كذلك الحكم الوضعيّ وقد حدّد الله سبحانه وتعالى كيفية التكفير عن ذلك إلى جانب التوبة والقضاء والكفّارة وغيرها[1].

---

١ . «واعلم: أنّ أمر الآية عجيب، فإنّ قوله: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ مع ما يشتمل عليه من التسهيل والتّشديد حكم غير خاصّ بالرّبا، بل عامّ يشمل جميع الكبائر الموبقة، والقوم قد قصّروا في البحث عن معناها حيث اقتصروا بالبحث عن مورد الرّبا خاصّة من حيث العفو عمّا سلف منه، ورجوع الأمر إلى الله فيمن انتهى، وخلود العذاب لِمَن عاد إليه بعد مجيء الموعظة، هذا كلّه مع ما تراه من العموم في الآية. إذا علمتَ هذا ظهر لكَ إنّ قوله: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾ لا يُفيد إلّا معنىً مُبْهَماً يَتَعيّن بتعيين المعصية التي جاء فيها الموعظة ويختلف باختلافها، فالمعنى: إنّ مَن انتهى عن موعظة جاءته فالذي تقدّم منه من المعصية سواء كان في حقوق الله أو في حقوق
←



تذكير: تتعلّق قاعدة «الإسلامُ يَجُبّ ما قَبلَه»[1] بالأحكام التكليفية والوضعية الصادرة عن الدّين الإسلاميّ كقضاء الصلاة والصّوم والكفّارة والخُمس والزّكاة والفِدية وغير ذلك، وأمّا الدّيون الأخرى التي كانت موجودة كذلك قبل الإسلام ممّا لا يدخل في إطار الإسلام كالبيع بالنسيئة والقرض وإتلاف مال الآخرين فإنّ الدَّيْن في كلّ تلك الموارد يقع على عاتق الشخص *المستقرّ* ولن يُسقط إسلامه ذلك الدّيْن عن ذِمّته.

الإصرار على الرّبا والعَود إليه

لا تختصّ الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث بالعَود إلى أكل الرّبا بعد التوبة، بل يشمل الحكم كذلك مَن سمع بحكم تحريم الرّبا واستمرّ على التعامل الرّبويّ، فمثل هذا الشخص يدخل جهنّم من أوسع أبوابها ويظلّ فيها خالداً. ويمكننا استنباط هذه المسألة من مقابلة الفعل ﴿**عادَ**﴾ مع الفعل ﴿**فَانْتَهى**﴾ فهذا الأخير يعني الانتهاء عن الرّبا والمُعاملات الرّبوية أمّا الأوّل فيشير إلى الرّجوع إلى التعامل الربويّ والعَود إليه تماماً مثل قوله تعالى: ﴿**قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ**﴾[2]؛ إذاً،

الناس فإنّه لا يؤاخَذ بعيْنها لكنّه لا يُوجب تخلّصه من تَبِعاته أيضاً كما تخلّص من أصله من حيث صدوره، بل أمره فيه إلى الله، إن شاء وضع فيها تَبعة كقضاء الصلوة الفائتة والصوم المنقوض وموارد الحدود والتعزيرات وردّ المال المحفوظ المأخوذ غصباً أو ربا وغير ذلك مع العفو عن أصل الجرائم بالتوبة والانتهاء، وإن شاء عفى عن الذّنب ولم يضع عليه تبعة بعد التوبة كالمشرك إذا تاب عن شِرْكِه ومن عصى بنحو شُرب الخمر واللّهو فيما بينه وبين الله ونحو ذلك، فإنّ قوله: ﴿**فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى**﴾ مطلق يشمل الكافرين والمؤمنين في أوّل التشريع وغيرهم من التابعين وأهل الأعصار اللاحقة». (أنظر: **تفسير الميزان**، ج٢، ص٤١٧). [المترجم]

١ . أنظر: **القواعد الفقهية**، ج١، ص٤٧ ـ ٥٦.

٢ . **سورة الأنفال**، الآية ٣٨.



فالفعل ﴿عادَ﴾ يعني الاستمرار على التعامل الرّبويّ والإصرار عليه والمُعاودة إليه، وعليه يمكن القول بأنّ حكم الخلود في النّار يشمل أولئك الذين أصرّوا على التعامل بالرّبا واعتادوا على ذلك حتى بعد أن وصلهم الحكم بحُرمَته لا أولئك الذين عادوا إليه مرّة واحدة فقط.

تذكير: من الواضح أنّ جملة ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ تختلف عن جملة ﴿عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ﴾[1] كما أنّ ذيل الآية: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الذي يعقب قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[2] يختلف عمّا ورد في الآية الّتي هي موضوع البحث، ويكمن هذا الاختلاف في الوَعد بالمغفرة وإيجاد الأمل في المُخاطَب في تلك الآيات.

التهديد بالخلود في جهنّم

بعد اعتناق الفرد للإسلام أو بعد صدور حكم الرّبا فإنّ الإصرار على التعامل بالرّبا كما في السابق أو العودة إليه بعد التوبة سيقوده إلى نار جهنّم ليخلد فيها إلى الأبد: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3] لأنّ مَن لا يعترف بحُرمة الرّبا قلباً وعملاً فكأنّما لا يعترف بضرورة من ضروريّات الدّين وهذا يؤدّي بالتالي إلى ارتداده وكُفره، والمُرتدّ والكافر مَقرّهما الجحيم ومستقرّهما جهنّم يحترقانِ بنارها؛ وأمّا مَن كان يؤمن بقلبه بحُرمة الرّبا ويعتبره واحداً من الأحكام النورانية في الإسلام ولكن يقوم بممارسته بشكل عمليّ فإنّه لن يَخلد في النار وما قيل حول خلوده فيها إنّما معناه إقامته الطويلة فيها دون الخلود[4]. وهذا

---

١ . سورة المائدة، الآية ٩٥.

٢ . سورة النساء، الآية ٢٣.

٣ . سورة البقرة، الآية ٢٧٥.

٤ . أنظر: التفسير الكبير، مج٤، ج٧، ص١٠١ ـ ١٠٢؛ تفسير الجامع لأحكام القرآن، مج٢، ج٢، ص٣٢٩. قال العلّامة الطباطبائيّ: «وأمّا قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

←



يشبه ما يقوم به شخص ما من قَتل مسلم لمجرّد إسلامه فإنّ عقابه الخلود في النّار[1]، ولكن إذا قَتله عمداً بسبب بعض المسائل الشخصية فإنّ المقصود بخلوده في النار هو بقاؤه فيها مدّة متطاولة.

والخلاصة هي أنّ مجرّد ارتكاب الكبائر لا يكون سبباً لخلود مُرتكِبها في النار بل ينبغي أن يكون ارتكابها مصاحباً للكُفر والارتداد بعناد وتعنّت وسَبق الإصرار وإنكار جزء ضروريّ من الدّين ليستحقّ المُرتكب الخلود في جهنّم. وأمّا السرّ في تهديد المُرابي بالخلود في النار وتعذيبه فيها إلى الأبد فهو أنّ مُعظم المُصرّين على ارتكاب الكبائر والتعامل الربويّ لا يلتزمون ولو قلباً بالحكم الإلهيّ بل إنّ مبدأ أكل الرّبا عند هؤلاء مُستقرّ في أعماق قلوبهم ومتجذّر في نفوسهم، ولهذا يكونُ تهديدهم بالخلود في النار إنّما هو بسبب كُفرهم الباطنيّ لا ارتكابهم لكبيرة من الكبائر وهذا ما دفع المعتزلة إلى اعتبار مرتكب الكبيرة

← خَالِدُونَ﴾، فوقوع العَوْد في هذه الجملة في مقابل الانتهاء الواقع في الجملة السّابقة يدلّ على أنّ المراد به العَوْد الذي يجامع عدم الانتهاء، ويلازم ذلك الإصرار على الذّنب وعدم القبول للحكم وهذا هو الكفر أو الردّة باطناً ولو لم يتلفّظ في لسانه بما يدلّ على ذلك، فإنّ مَن عاد إلى ذنب ولم يَنتَه عنه ولو بالنّدم فهو غير مسلّم للحكم تحقيقاً ولا يفلح أبداً. فالترديد في الآية بحسب الحقيقة بين تسليم الحكم الذي لا يخلو عن البناء على عدم المخالفة وبين الإصرار الذي لا يخلو غالباً عن عدم التسليم المستوجب للخلود على ما عرفت؛ ومن هنا يظهر الجواب عن استدلال المعتزلة بالآية على خلود مرتكب الكبيرة في العذاب، فإنّ الآية وإن دلّت على خلود مرتكب الكبيرة بل مطلق من اقترف المعصية في العذاب لكنّ دلالتها مقصورة على الارتكاب مع عدم تسليم الحكم ولا محذور فيه. وقد ذُكر في قوله تعالى: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾، وفي قوله: ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ وجوه من المعاني والاحتمالات على أساس ما فهمه الجمهور من الآية على ما تقدّم، لكنّا تركنا إيرادها لعدم الجدوى فيها بعد فساد المنشأ». **تفسير الميزان**، ج٢، ص٤١٨. [المترجم]

١. ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾. **سورة النساء، الآية ٩٣**.

خالداً في النار[١] وأيّدهم على ذلك الزمخشريّ كما في تفسيره[٢]!

إشارات ولطائف

١. أنواع الرّبا

ينقسم الرّبا من الناحية الفقهية إلى قسميْن هما:

أ. الرّبا المُعاوضيّ[٣]: وهو المبادلة بين جنسيْن بقَصد الزيادة على أن يكونا من المكيل أو الموزون، يعني أن يكون طَرَفا المعاملة وطَرَفا المعاوضة إمّا مكيلينِ وإمّا موزونين وقد قال العلّامة الحليّ ؒ: «الرّبا يجري في المكيل والموزون مع اتّفاق الجنسيْن بالإجماع»[٤].

ب. الرّبا القَرضيّ: وهو الرّبا الذي يكون مُطلقاً وليس مشروطاً بشرط أو مُقيّداً بقَيد، أي الاقتراض مع شرط الزيادة، سواء أكانت تلك الزيادة عينية كالزيادة الحاصلة في النقود (الأوراق النّقدية)، أم حُكمية[٥].

---

١. **شرح المقاصد**، ج٥، ص١٥٥.

٢. قال الزّمخشريّ: «وقوله ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا﴾ إنكار لتسويتهم بينهما، ودلالة على أنّ القياس يَهدمه النصّ، لأنّه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه ﴿فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾ فمَن بَلغه وَعظ من الله وزجر بالنّهي عن الرّبا فَانْتَهى فتبع النهي وامتنع ﴿فَلَهُ ما سَلَفَ﴾ فلا يُؤ خَذ بما مَضى منه، لأنّه أخذَ قبل نزول التحريم ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾ يحكم في شأنه يوم القيامة، وليس من أمره إليكم شيء فلا تطالبوه به ﴿وَمَنْ عادَ﴾ إلى الربا ﴿فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ وهذا دليل بَيِّن على تخليد الفُسّاق». (**الكشّاف**، ج١، ص٣٢١). [المترجم]

٣. ويسمّى أيضاً بالرّبا المُعامليّ. [المترجم]

٤. **مختلف الشيعة في أحكام الشريعة**، ج٥، ص١١٤.

٥. يُرجى الانتباه هنا إلى أنّ القرض يختلف عن الدَّيْن رغم ذكرهما معاً في كثير من الأحيان، و(القَرْض) في الاصطلاح الفقهيّ هو العقد الذي يلزمه الإيجاب والقبول وبعض الشروط المُعيّنة (**جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام**، ج٢٥، ص١ ـ ٥) وأمّا (الدَّيْن) فيكون بعَقد القرض أو العقود الأخرى كالبيع بالنسيئة أو على أساس الضمان. فإذا تسبّب شخص ما في ←

هذا، ويختلف الرّبا المُعاوضي (المُعامليّ) مع الرّبا القَرضيّ في بعض الجهات، منها:

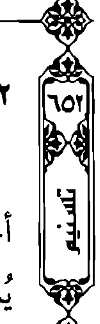
١. لا يتضمّن الرّبا القرضيّ القيود أو المحدوديّات الموجودة في الرّبا المُعاوضيّ، أي، إنّ القرض الذي يُضاف فيه شرط ما محرّم سواء أكان الشيء مكيلاً أم موزوناً، معدوداً أم ممسوحاً؛ إذاً، فحُرمة الرّبا القرضيّ أوسع من حُرمة ربا البَيع.

٢. يُحتمل الانحلال في الرّبا القرضيّ، بمعنى، انحلال المعاملة برأس المال والمقدار الزائد، وبالتالي يصبح رأس المال حلالاً والمقدار الزائد حراماً؛ أمّا في الرّبا المُعامليّ فإنّ أصل المعاملة باطل وحرام ولا يحدث فيه أيّ انحلال. ومعنى هذا أنّه إذا تمّت مُعاوضة جنس مكيل أو موزون بشرط الزيادة مع شيء آخر من جنسه فإنّ المعاملة برمّتها تُعتبر فاسدة ومحرّمة، وهذا لا يشبه مثلاً بَيع المُسكر مع الخَلّ حيث يُمكن حلّ هذا البيع إلى معاملتيْن مُنفصلتيْن: إحداهما بَيع المُسكر وهو حرام وباطل، والأخرى بَيع الخَلّ وهو بَيع حلال وصحيح.

تذكير: لا يمكن حلّ معاملة الرّبا ومُعظم المسائل الاقتصادية من دون الرّجوع أو الاستعانة بخبير ماليّ دقيق في مثل هذه الأمور وذلك للفرق الموجود بين اقتراض متن المال والمقدار المُعيّن منه وبين اقتراض المال والقيمة المالية والقدرة الشرائية، فالتضخّم لا يؤثّر في القسم الأوّل كما هو معروف لكنّ تأثيره يكون واضحاً في النّوع الثاني، تماماً كالدّيون المتأخّرة والمُهور الطويلة الأجل التي قد لا تختلف من حيث متن المال إلّا أنّ الاختلاف فيها واضح من حيث المالية والقدرة الشرائية والتضخّم.

←

إتلاف مال الآخرين يكون مشمولاً بقاعدة «مَن أتلَفَ مال الغَيْر بلا إذن منه فهو لَه ضامَن» أي هذا التالف في عهدته ولا يتخلّص إلّا بأدائه بالمثل، وهذا يعني أنّ ذلك الضامن مديون لا مَقروض لأنّ التالِف لم يكن دَيناً بعَقد ذي إيجاب وقبول بل بإتلاف مال الغَيْر وبالتالي ضمانه على ذمّة المُتلِف. (أنظر: **القواعد الفقهية**، ج٢، ص٢٥ ـ ٥٠).



٢. التنزيل من مصاديق الرّبا

لا شكّ في أنّ حكم الرّبا يشمل كذلك ما يُعرَف بالتنزيل أو التخفيض إذ إنّ أحد طَرَفَيْ هذه المعاملة يتمثّل بالرّبا، فإذا كان لأحد دينٌ على آخر واتُّفِقَ على أن يُسدّد المدين الدَّيْن المذكور بعد ثلاثين يوماً، ولكن، قبل انتهاء المدّة، قَبِلَ الدّائن التنازل عن جزء من الدّيْن مُقابل تسديد الدّيْن قبل انتهاء المدّة المذكورة، فإنّ هذه المعاملة غير جائزة، وهذا يشبه ما يقوم به شخص ما بإقراض شخص آخر ألف درهم ويُطالبه بإرجاعه إليه بعد شهر ولكن مع إضافة مائة درهم أخرى على القرض الأصلي، فهذه المعاملة هي الأخرى معاملة ربوية؛ إذاً، فأصل التنزيل والرّبا واحد وإن اختلفا في الظاهر.

٣. العُقلاء المجانين يوم القيامة

لا يشعر المجنون في هذه الدنيا إلّا بالعذاب الحسيّ، فقد يرتجف من البَرد أو يشعر بالحرارة أو يتضوّر جوعاً أو يُعاني من عدم وجود مأوى يسكن فيه، لكنّه لا يحسّ بالخجل أو العذاب الروحيّ أو الألم النفسيّ لأنّه يفتقد إلى الاحساس والإدراك إلّا القليل منهم ممّن يمتلك إحساساً نسبياً، ناهيك عن أقربائه وأهله الذين يُعانون من حالاته وسلوكه الجنونيّ، فيما لا يشعر هو أبداً بالفضيحة أو التشهير.

وأمّا مجانين يوم القيامة فهم في الحقيقة عُقلاء مَجانين لأنّهم يُدركون جنونهم ويحسّون به وهم يُعانون من ذلك كثيراً فهذا الجنون العارض مصحوب بالعذاب الحسيّ والروحيّ معاً وهذا هو العذاب الأليم. وعذاب هؤلاء الحسيّ يتمثّل في انتفاخ بطونهم التي مَلؤوها بالمال الحرام فجعل قيامهم وقعودهم وسيرهم في ألَمٍ ووجعٍ، إلى جانب العذاب العقليّ الذي لا يبرحهم والذي يُسبّب لهم الاختلال والاضطراب في التصرّف والسلوك.

٤. ميزان العقل والسّفه

يُمثّل العقل في ثقافة الوَحي القوّة التي يمكن بواسطتها معرفة الله ﷻ وعبادته وبالتالي الدّخول إلى الجنة من أوسع أبوابها. ويُعَرّف العقل بأنّه «ما عُبِدَ به الرّحمن واكتُسب به الجِنان»[1]، وعكسه هو ما لَم يكن وسيلة إلى عبادة الله ولا الدّخول إلى الجنّة وهو ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ**﴾[2]. و«السّفيه» يختلف عن «المجنون» لكنّه يُقابل «العاقل» من بعض الجهات والنّواحي، وبناءً على هذا، فإذا لم يكن الفرد أو المجتمع راغباً في عبادة الله واكتساب الجنّة فإنّه فرد أو مجتمع سَفيه على الرّغم ممّا قد نشهده في الظاهر من اتّصافه بالمَدنية أو التحضّر والثقافة، حتى إذا ظلّ هذا السّفَه خفيّاً ومستوراً في هذه الدّنيا فإنّه سينكشف في النهاية في يوم القيامة على رؤوس الأشهاد عند ظهور الحقائق وإزالة الحُجُب عن الأسرار.

وهكذا، فإنّه لا يمكن القول بأنّ ما يقوم به المُرابي هو أنّه لا يَعبد الله سبحانه فقط، بل هو في حَرب ضَروس مع الله ورسوله ﷺ، ولذلك فهو في أوطأ مراتب السّفَه والجنون لأنّ الرّبا لا يُعتبر معصية فردية أو شخصيّة بل هو بلاء وفتنة اجتماعية كبيرة. ولم يكن الدّين الإسلامي أوّل مَن دعا إلى تحريم الرّبا والتعامل به، بل صرّحت بتحريمه جميع الشرائع والأديان التي سبقته، وكان الرّبا قد أصبح حرفة ومهنة عادية عند بَني إسرائيل فكان ذلك الدّاء هو السبب في استحقاقهم لغضب الله تعالى وعذابه؛ قال سبحانه: ﴿**فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ... * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ**

---

١. **أصول الكافي**، ج١، ص١١.

٢. **سورة البقرة**، الآية ١٣٠.



النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾[1].

ويمكن تشبيه المُرابي من حيث السّفاهة بالشخص الذي يسرق كومة من الحطب من مستودع للآخرين ويحملها إلى مُستودع نفسه ثمّ يدّعي أنّ حَطبه قد ازداد ونما من ذاته! لا شكّ في أنّ هذا القول ليس سوى قول مَن سَفِه نَفسه ورَضي لها السّفَه وقد خلقه الله عاقلاً، فالنّماء والتكاثر لا يحصل إلّا بزَرع نبتة لتُصبح فيما بَعد نخلة شامخة قويّة، أمّا المُرابي الذي يدّعي أنّ ما لدى الآخرين هو مُلك له وَحده فهو لا يَعدو كونه سفيهاً ومتخبّطاً.

٥. الوَحي يُعلّم مَحق الرّبا

بالنّظر إلى ما ذُكِر كان لزاماً على الوَحي أن يُعرّف الناس على الآثار السيئة والنتائج المدمّرة للرّبا في الدّنيا والآخرة لأنّ العلوم الإنسانية لا تستطيع فعل شيء في هذا المجال، فلولا إرشاد القرآن الكريمُ الناسَ إلى تلك المخاطر ما كان بإمكان العقل البشريّ أن يكتشف ذلك من ذاته، لا في الحاضر ولا في المستقبل، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[2] لأنّ الشخص العادي غالباً ما يكون قصير النّظر ولا يرى سوى الزيادة الظاهرية للمال الرّبوي وليس باستطاعته تصوّر ما يكمن وراء تلك الزيادة من مَحق وزوال باطنيّ؛ إذاً، فلولا إخبار الوحي الناسَ بالحقيقة وإرشادهم إليها لأصبح الرّبا والمعاملات الرّبوية أكثر توسّعاً وأدقّ نظاماً بدلاً من أن يُمحَق أو يتلاشى خاصّة في ظلّ التقدّم الذي أحرزه علم الاقتصاد.

---

١. سورة النساء، الآيتان ١٦٠ و ١٦١.

٢. سورة البقرة، الآية ١٥١.



بحث روائيّ

١. الزيادة المحرّمة والمحلّلة

قالَ أبو عبد الله عليه السلام: «الرّبا رباءان: أحَدهُما حَلال والآخَر حَرام؛ فَأمّا الحَلالُ فَهوَ أن يُقرِضَ الرّجلُ أخاهُ قَرْضاً طَمَعاً أن يزيدَه وَيُعوّضه بِأكثر ممّا يَأخُذ، بِلا شَرط بَيْنهما؛ فإن أعطاهُ أكثرَ ممّا أخذَهُ مِن غَيْر شَرْط بَيْنهما، فَهو مُباحٌ لَه ولَيس لَه عِند الله ثوابٌ فيما أقْرَضه وهو قوله: ﴿فَلا يَرْبُو عِنْدَ الله﴾[1] وَأمّا الحَرامُ فَالرّجلُ يُقرضُ قَرْضاً يَشتَرط أن يردّ أكثرَ ممّا أخذَه، فَهذا هُو الحَرام»[2].

إشارة: القَرض الحَسن على أنواع، ويتحدّد أجر كلّ واحد من تلك الأنواع وثوابه في الدّنيا والآخرة بحسب نيّة المُقرِض. ومن أنواع القروض ما يلي:

أ. إقراض الرّجل أخاه في الدّين قرضاً دون شرط الزيادة أملاً في أن يُعاد إليه القرض بأكثر ممّا كان، فلا إشكال في هذا النّوع من القرض، فإذا أعاد المُقترض قَرضه بأكثر ممّا أخذه في الأصل فقد حصل المُقرِض على أجره الدنيويّ.

ب. أن يقوم الرّجل بإقراض أخاه في الدّين للحصول على مرضاة الله سبحانه فقط، وقد صرّحت الروايات أنّ المُقرِض سيحصل من الأجر على ذلك يوم القيامة بما يُعادل (١٨) ضعفاً مقابل كلّ درهم أعطاه للمُقترِض[3].

ج. القرض الذي لا يُعطى إلّا بنيّة الزيادة وطمعاً فيها واشتراط ذلك، وهذا

---

١. **سورة الرّوم**، الآية ٣٩.

٢. **تفسير القميّ**، ج٢، ص١٥٩؛ **بحار الأنوار**، ج١٠٠، ص١٥٧.

٣. «قال الإمام الصّادق عليه السلام: "مَكتُوبٌ عَلى بابِ الجَنّة: الصّدَقة بِعَشرَة، وَالقَرْضُ بِثَمانِية عَشَر"». (الشيخ الصّدوق، **مَن لا يحضره الفقيه**، ج٢، ص٥٨).



هو الرّبا المحرّم الذي لُعِنَ فيه صاحب المال وآخِذه وكاتب العقد والشاهد عليه[١].

٢ . حقيقة المُرابي

عَن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: لَمّا أُسْريَ بي إلى السّماءِ رَأيْتُ قَوْماً يُريد أحَدهُم أنْ يَقومَ فَلا يَقْدر أنْ يَقوُم مِن عِظَم بَطْنه؛ فَقُلتُ: مَنْ هؤلاءِ يا جبرئيل؟ قالَ: هؤلاء الّذينَ يَأكُلونَ الرّبا لا يَقومُونَ إلّا كَما يَقومُ الّذي يَتَخَبّطه الشّيطانُ مِنَ المَسّ**»[٢].

ـ عَن شهاب بن عبد ربّه قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**آكِل الرّبا لا يَخرج مِن الدّنيا حتّى يَتَخَبّطه الشّيطانُ**»[٣].

ـ قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: «**يَأتي آكِل الرّبا يومَ القِيامَة مُخْتَبلاً يَجرّ شقّيْه**»؛ ثمّ قَرأ صلى الله عليه وآله: «﴿**لا يَقومُونَ إلّا كَما يَقومُ الّذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطانُ مِنَ المَسّ**﴾»[٤].

ـ قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: «**إيّاكَ وَالذّنوبَ التي لا تُغْفَر... وأكْل الرّبا، فَمَن أكَلَ الرّبا بُعِثَ يَومَ القِيامَة مَجْنوناً يَتَخبّط**»؛ ثمّ قَرأ صلى الله عليه وآله: «﴿**الّذينَ يَأكُلونَ الرّبا لا يَقومُونَ إلّا كَما يَقومُ الّذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطانُ مِنَ المَسّ**﴾»[٥].

---

١ . «عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ أَبِي نَجْرَانَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ حُمَيْدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: "قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: آكِلُ الرِّبَا وَمُؤْكِلُهُ وَكَاتِبُهُ وَشَاهِدُهُ فِيهِ سَوَاءٌ"». (أصول الكافي، ج٥، ص١٤٤)؛ وورد ما يشبه ذلك في كتاب «من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٨»). [المترجم]

٢ . تفسير القمّيّ، ج١، ص٩٣؛ تفسير نور الثقلين، ج١، ص٢٩١.

٣ . تفسير العياشي، ج١، ص١٥٢؛ تفسير نور الثقلين، ج١، ص٢٩١.

٤ . تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص١٠٢.

٥ . المصدر السابق، ص١٠٣.



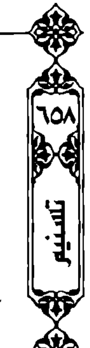
إشارة: بالاستناد إلى الروايات المذكورة التي تُبيّن حقيقة المُرابي المُرّة والكريهة في الدنيا والآخرة فإنّ المُرابي سينال حظّه من التخبّط والجنون في هذه الدنيا قبل وروده إلى جهنّم في الآخرة حيث سيُبعَث مجنوناً مُضطرباً وقَلقاً، جارّاً وراءه بطنه المتورّمة بالهيئة التي شاهدها مولانا رسول الله ﷺ حين أُسريَ به إلى السّماء عندما نظر إلى قوم يريد أحدهم أن يقوم من مكانه فلا يستطيع ذلك لضخامة بطنه وانتفاخها.

٣. الحكمة في تحريم الرّبا

عَن محمّد بن سنان، إنّ عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام كتبَ إليه في جوابِ مَسائله: «... **وَعِلّة تَحريم الرّبا إنّما نَهى الله عَنه لِما فيه مِن فَسادِ الأمْوال، لأنّ الإنسانَ إذا اشترى الدّرهم بالدّرهمَيْن كانَ ثَمن الدّرهم دِرهماً وثَمن الآخر باطِلاً، فَبَيْع الرّبا وَكْسٌ[1] على كُلّ حالٍ، على المُشتَري وعلى البائع، فَحرّم الله تَبارك وتَعالى الرّبا لِعِلّة فَسادِ الأمْوال كَما حَظر على السّفيه أن يُدفَع ماله إليه لِما يُتَخوّف عليه من إفساده حتّى يُؤنس منه رُشده، فَلِهذهِ العلّة حَرّم الله الرّبا وَبَيْع الدّرهم بالدّرهمَيْن يَداً بِيَد. وَعلّة تَحريم الرّبا بَعد البَيّنة، لِما فيه مِن الاستِخفافِ بالحَرام المُحرَّم وَهي كَبيرة بَعدَ البَيان وَتَحريم الله تعالى لَها، وَلَم يَكُن ذلك مِنه إلّا استِخفاف بِالتّحريم لِلحَرام والاستِخفافِ بِذلك دُخول في الكُفر. وَعلّة تَحريم الرّبا بالنسية لِعلّة ذِهاب المَعروف وَتَلف الأموال وَرَغبة النّاس في الرّبْح وَتَرْكِهم**

---

١. «الوَكْسُ: النَّقْص والجور، وقد وَكَسَ الشيءُ: نَكَس... يُقال: لها مَهْر مثلها لا وكْس ولا شطَط، أَي لا نُقصان ولا زيادة... ووَكَسْتُ فلاناً: نَقَصْته، والوَكْسُ: اتّضاع الثّمن في البيع... ويُقال: لا تَكِسْ يا فلانُ الثمنَ، وإنه ليُوضَع ويُوكَس، وقد وُضِع ووُكِسَ... وقد وُكِسَ في السلعة وَكْساً، وأُوكِس الرجلُ، إذا ذهب مالُه... ويُقال: وُكِسَ فلانٌ في تجارته وأُوكِسَ أيضاً، أي خَسِرَ». (**لسان العرب**، مادّة «و ك س» ـ بتصرّف). [المترجم]



القَرْض وَالفَرض وَصَنايع المَعروف وَلِما في ذلك مِن الفَسادِ وَالظُّلم وَفَناءِ الأموال»[1].

إشارة: نستنتج من أجوبة الإمام الرّضا عليه السلام المتشعّبة والمُتنوّعة التي كتبها إلى محمّد بن سِنان أنّ هذا الأخير قد طرح على الإمام عليه السلام مجموعة من الأسئلة حول موضوع الرّبا وليس سؤالاً واحداً، ويبدو أنّ السؤال الأوّل كان عن علّة تحريم أصل الرّبا والسؤال الثاني كان عن سبب تحريم الرّبا بعد بيان حرمته من قِبل الله سبحانه وتعالى، أمّا السؤال الأخير فيظهر أنّه كان حول علّة تحريم الرّبا بالنّسيئة، وقد أجاب الإمام الرّضا عليه السلام على تلك الأسئلة بدقّة متناهية.

٤. المقصود بالموعظة

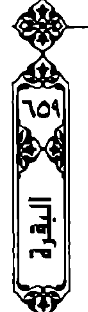
عَن محمّد بن مسلم أنّ رَجلاً سألَ أبا جَعفر عليه السلام وقد عَمِل بالرّبا حتّى كَثر مالُه، بعد أن سألَ غَيره مِن الفُقَهاء، فَقالوا لَه: لَيس يَقيك مِنك شيء إلّا أن تردّه إلى أصحابه. فلمّا قَصّ على أبي جَعفر عليه السلام قالَ له أبو جَعفر عليه السلام: «مخرجكَ في كِتاب الله قوله: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾ وَ(الموعظة)، التّوبة»[2].

إشارة: يعود السرّ في تفسير *(الموعظة)* بالتوبة إلى أنّ خلاصة ما تهدف إليه الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث هي *التوبة* إذ إنّ الحكم الفقهيّ الذي يصدر عن الله عزّ وجلّ إلى المُرابي إمّا أن يُقابَل بالقبول أو بالرّفض والنّكول، فإذا اعترف المُرابي بحكم الله سبحانه فسيكون مشمولاً بقولِه تعالى: ﴿فَانتَهَى﴾ أي إنّه قَبِلَ بنَهي الله له ومعنى قبول المُرابي لحكم الله هو أنّه نادِم عمّا بَدرَ منه في ما

---

١. عيون أخبار الرّضا عليه السلام، ج٢، ص١٠٠ ـ ١٠١.

٢. تفسير العياشي، ج١، ص١٥٢.



مَضى وبالتالي اتّخاذ القرار الصحيح بتَرْك التعامل بالرّبا أو الاستمرار في ذلـك في مُستقبل حياته؛ أمّا إذا لم يقبل بحُكم الله ﷻ ورفض التخلّي عمّا كان يمارسه من الرّبا فإنّ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ سيصدق على مثل هذا الشخص الذي ينتظره العذاب الأليم والعقاب المُخزي في الآخرة.

٥. حكم الجهل بحرمة الرّبا

قالَ أبو عبد الله عليه السلام: **«كُلّ رِباً أكَلَه النّاس بِجَهالَة ثمّ تابُوا، فإنّه يُقْبَل مِنهُم إذا عُرِفَ مِنهم التّوبَة (وقالَ: لَوْ أنّ رَجُلاً وَرثَ مِن أبيـهِ مـالاً وَقـد عَـرفَ أنّ في ذلكَ المال رِباً وَلكن قَد اختَلطَ في التّجارَة بِغَيره حَلال، كانَ حَلالاً طَيّباً فَلْيَأكُلـه، وَإن عَرفَ مِنه شَيْئاً أنّه رِباً فَلْيَأخُذ رَأسَ مالِه وَلْيَردّ الرّبا) وَأيّما رَجلٍ أفادَ مالاً كَثيراً قَد أكثرَ فيه مِن الرّبا فَجَهل ذلكَ ثمّ عَرَفه بَعد، فأرادَ أن يَنْزعه (فيما) مَضى فَلَه، وَيَدعه فِيما يَسْتَأنِف»**[1].

ـ عَن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل يَقول فيه: **«إنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله قَد وَضعَ مَا مَضى مِن الرّبا وَحرّم عَليهم مَا بَقِي؛ فَمَن جَهلهُ وسع لَه جَهله حتّى يَعرفه، فإذا عَرف تَحريمه حُرِّمَ عليه وَوَجبَت عليه فيه العُقوبَة إذا رَكبه، كَما يَجب على مَن يأكُل الرّبا»**[2].

ـ عَن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سَألته عن الرّجل يَأكل الرّبا وَهو يَرى أنّه لَه حَلال. قالَ: **«لا يَضرّه حتّى يُصيبه مُتعمّداً؛ فإذا أصابَه مُتعمّداً فَهو بِالمنزلَة التّي قالَ الله ﷻ»**[3].

---

١. أصول الكافي، ج٥، ص١٤٥؛ تفسير نور الثقلين، ج١، ص٢٩٢.

٢. أصول الكافي، ج٥، ص١٤٥؛ تفسير نور الثقلين، ج١، ص٢٩٣.

٣. أصول الكافي، ج٥، ص١٤٤ ـ ١٤٥؛ تفسير نور الثقلين، ج١، ص٢٩٣.



إشارة: المقصود بعبارة **«لا يَضرّه»** في الرواية الأخيرة هو المُرابي الذي يجهل الحكم بحُرمة الرّبا، ولكن، إذا تعامل بالرّبا عن عَمد وهو عالم بحُرمته مُعتبراً عمله ذلك حلالاً فسيكون مشمولاً بالعقاب الإلهيّ الشديد الذي أعدّه الله سبحانه للمُرابين وكذلك يكون مشمولاً بمضمون القسم الأوّل من الآية الشريفة.

ولكلّ وصفٍ من العلم بحُرمة الرّبا والجهل به أحكامه الخاصّة ومضمون الآية الكريمة يتعلّق بالعلم والجهل معاً؛ وأمّا أوضح مصداق لتلك الروايات فهو الجاهل غير المسلم الذي اكتنز أموالاً طائلة عن طريق الرّبا ثمّ استبصر بعد ذلك لأنّه في هذه الحالة ستشمله القاعدة المعروفة «الإسلامُ يَجُبّ ما قَبلَه»، وأمّا المسلم الذي ظلّ يأكل الرّبا جاهلاً بحُرمته ـ ومثل هذا الشخص غالباً ما يُعتبر جاهلاً مُقصِّراً ـ فإنّه لن يكون مشمولاً بالقاعدة المذكورة كما أنّ الروايتيْن المذكورتيْن لن تشملاه كذلك؛ وعليه، ينبغي على المسلم الجاهل لحُكم الرّبا وحُرمته أن يُعيد ما أخذ من الأموال الرّبوية إلى أصحابها.

٦. حرمة الرّبا مقارنة بسائر المحرّمات الأخرى

عَن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«دِرهَم مِن رِباءٍ أعْظم عِندَ الله مِن سَبعين زَنية كُلّها بِذاتِ مَحرم في بَيت الله الحَرام»**[1].

إشارة: تشتمل المصادر الروائية عند العامّة والخاصّة على الكثير من الروايات التي تحمل معنى أنّ عقوبة درهم واحد في الرّبا تُعادل عند الله سبعين زَنية في أقدس وأطهر بُقعة على وجه الأرض وهو المسجد الحرام.

* * *

---

١. **تفسير القمي**، ج١، ص٩٣؛ **بحار الأنوار**، ج١٠٠، ص١١٧.

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾

خلاصة التفسير

قضت حكمة الله ﷻ، وعلى عكس ما يتمنّاه المُرابون، في أن يتمّ القضاء التدريجيّ على النتائج والآثار الفردية والاجتماعية للرّبا وفي مقابل ذلك تنمية الآثار المفيدة والنافعة للتصدّق والصّدقات في الآخرة كما في هذه الدّنيا.

وإنّ للرّبا عواقب أخرى غير تلك التي ذُكَرت فيما مضى، فالمُرابي يُعدّ من الكُفّار والآثمين وكلا الفريقيْن محرومان من محبّة الله ورضوانه ولا شكّ في أنّ ذلك الحرمان يُعتبر سبباً كافياً لهلاك أولئك ومُعاملاتهم الربويّة.

التفسير

المُفردات

يَمْحَقُ: إنّ الأصل الواحد في هذه المادة هو النّقصان التدريجيّ أو الدّفعيّ إلى أن ينتهي إلى البطلان أو الانمحاء، وهذا في قِبال الرّبا وهو انتفاخ مع زيادة وعلى هذا قُوبِلَ به في الآية، أي ﴿يَمْحَق﴾ في مقابل ﴿يُرْبِي﴾. ومن مصاديق الأصل نقصان الهلال في الشكل إلى أن ينتهي إلى الانمحاء وهذا المعنى يتحقّق في الخارج في أواخر الشهر[1].

---

١ . العلّامة المصطفويّ، **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١١، ص٣٩ ـ ٤٠، مادّة «م ح ق».

كَفَّارٍ: كلمة «الكَفّار» كالكَفور، وهي صيغة المُبالغة للكافر لكنّ المُبالغة في «الكَفّار» أكثر منها في (الكَفور)، و(الكُفْر) في اللغة سَتْر الشيء ويُستَخدَم في مصاديق مختلفة ومتنوّعة. وقد يكون المُراد من (الكُفْر) في «الكَفّار» هو إنكاره للدّين؛ والكُفر بمبادئه وأصوله كما في قوله تعالى: **﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾**[1] أو الكُفران بأنعُم الله سبحانه: **﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾**[2].[3]

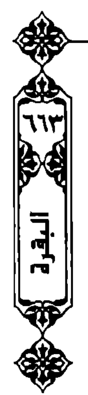
أَثِيمٍ: «الإثْم» و«الآثام» اسم للأفعال المبطّئة عن الثواب، وأمّا معنى الإبطاء في قوله ﷻ: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾**[4] فيكمن في أنّ تناول الأولى وتعاطي الثانية إبطاء عن الخيرات؛ و«الآثِم» هو مَن يحمل أعباء الإثم والمعصية[5]، و«الأثيم» مُبالغة في الآثِم[6].

تناسب الآيات

شرحت الآية السابقة من هذه السورة المباركة حالة المُرابين وتفكيرهم المريض المتمثّل في اعتبار البيع كالرّبا مُذكّرةً إيّاهم بحُرمة التعامل به من خلال موعظة حريصة على ما سيؤول إليه وضعهم في هذه الدنيا وفي يوم القيامة. وفي هذه الآية الشريفة يبيّن الله سبحانه للمُرابين أنّ سنّته قد قضت بإفشال كلّ خططهم وإحباط جميع تدابيرهم التي تهدف إلى اكتناز الأموال الربويّة

---

١ . سورة ق، الآية ٢٤.
٢ . سورة إبراهيم عليه السلام، الآية ٣٤
٣ . أنظر: مفردات ألفاظ القرآن، ص٧١٦، مادّة (ك ف ر).
٤ . سورة البقرة، الآية ٢١٩.
٥ . مفردات ألفاظ القرآن، ص٦٣ ـ ٦٤، مادّة (ا ث م).
٦ . الفيّومي، المصباح المنير، ج١ ـ ٢، ص٤، مادّة (ا ث م).



وتكثيرهـا، وهـدايتهم إلى الطريـق الـصحيح للحـصول عـلى الكثـرة الحقيقيـة والكوثر الصالح الذي لا ينضب وذلك بواسطة التصدّق.

* * *

سنّة الله في الرّبا والصّدقات

لقد قضت سنّة الله سبحانه الدائمـة والثابتـة ـ كـما قلنـا ـ أن تُمحَـق الزيـادة الكاذبة والفاحشة للرّبا بالتدريج حتـى يجعلهـا عـدماً تامّـاً، وفي المقابـل تنـامي النّقص الظاهريّ للصّدقة والإنفاق بشكل تدريجيّ لتتحقّق فيهما الزيادة والكثرة الحقيقية. ويمكننا استنباط هذه السنّة من خلال استخدام الآية الشريفة للفعلـيْن المضارعيْن ﴿يَمْحَقُ﴾ و﴿يُرْبِي﴾ الدّالّيْن عـلى الاسـتمرارية؛ وبـما أنّ العـالَمَ هـو مكان للصّدق والحقّ ولا بدّ لهذيْن العُنصريْن من الظهور والـتجلّي، فمـن جهـة فإنّ النزول الصّادق للرّبا يمحق الزيادة الكاذبة والمُزيّفة فيه، ومن الجهة الأخرى تقوم الزيادة الحقيقية والنموّ الـواقعيّ للـصّدقات بمَحـق مـا يـراه الـبعض مـن نقصان أو نزول كاذب فيها.

إنّ الإطلاق الموجود في قوله تعالى: ﴿يَمْحَـقُ اللهُ الْرِّبَـا وَيُـرْبِي الـصَّدَقَاتِ﴾ يشير إلى نقطتيْن اثنتيْن، هما:

١. زوال الرّبا ومَحقه وبيان ظلماته وتكثـير الـصّدقة ونمائهـا وبيـان بركاتهـا ونورانيّتها في الأمور والمسائل الفردية والاجتماعية على حدّ سواء: يختلـف الرّبـا الفرديّ عن التعامل الرّبوي الجماعيّ في بعض الحالات مثل التقبـيح والتحـسين والانزواء والتشهير، إلّا أنّ الحكـم العـامّ لكـلّ واحـدٍ مـنهما، أي اضـمحلالهما ومَحقهما، سيَحيق بهما معاً، فآثار الرّبا الجماعيّ ونتائجه غالبـاً مـا تظهـر في وقـت متأخّر لكن من الواضح أنّ أخطاره أكبر وعواقبه أوخم في المجتمع.



۲. فناء التعامل الرّبوي تدريجياً وفضح قُبحه في الدّنيا قبل الآخرة: تتجلّى نورانية الصّدقة وبركتها في الدّنيا والآخرة لكنّ السرّ في إشارة الظواهر القرآنية إلى مَحق الرّبا وهلاكه في الدنيا هو لبيان إخفاق المُرابين وفشلهم في الوصول إلى أهدافهم المشؤومة المتمثّلة بالأرباح الدنيوية، وأمّا العلّة في أنّ الآية التالية لم تُشِر إلّا إلى الأجر الأُخرويّ للمتصدّقين فهو أنّ هؤلاء لم يضعوا نصب أعينهم أيّ هدف في الدنيا سوى كسب الكمال والمقام الأبديّ في الآخرة وهذا معنى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] بالإضافة إلى وجود تناسب رائع ودقيق للغاية بين مقاصد المُرابين ومآربهم وعقوبتهم من جهة وبين نيّة المُتصدّقين وغاياتهم النبيلة والأجر الذي سيحصلون عليه من جهة أخرى.

تذكير: ١. المقصود بالرّبا في قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الْرِّبَا﴾ هو معناه الاصطلاحيّ المذكور في الفقه والحقوق، أمّا المُراد من الرّبا بالفعل المضارع ﴿يُرْبِي﴾ فهو المعنى اللغويّ له الذي يشير إلى النّماء والزيادة والتكاثر، ولهذا تمّ استخدام «المَحق» للإشارة إلى معناه الاصطلاحيّ.

۲. قالَ بعض المُفسّرين إنّ مَحْق الزيادة في المال هو المكابرة مع المشاهدة[2] لكنّهم نسوا أنّ ورود الفعل المضارع ﴿يَمْحَق﴾ الذي يُفيد التدرّج يدلّ على أنّ

١ . سورة البقرة، الآية ٢٧٧.

٢ . قال صاحب تفسير المنار: «لَيْسَ الْمُرَادُ بِهَذَا الْمَحْقِ مَحْقَ الزِّيَادَةِ فِي الْمَالِ فَإِنَّ هَذَا مُكَابَرَةٌ لِلْمُشَاهَدَةِ وَالِاخْتِبَارِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ مَا يُلَاقِي الْمُرَابِي مِنْ عَدَاوَةِ النَّاسِ وَمَا يُصَابُ بِهِ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوَسَاوِسِ وَغَيْرِهَا، أَمَّا عَدَاوَةُ النَّاسِ فَمِنْ حَيْثُ هُوَ عَدُوُّ الْمُحْتَاجِينَ وَبَغِيضُ الْمُعُوزِينَ، وَقَدْ تُفْضِي الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى مَفَاسِدَ وَمَضَرَّاتٍ، وَاعْتِدَاءٍ عَلَى الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، وَقَدْ ظَهَرَ أَثَرُ ذَلِكَ فِي الْأُمَمِ الَّتِي فَشَا فِيهَا الرِّبَا إِذْ قَامَ الْفُقَرَاءُ فِيهَا يُعَادُونَ الْأَغْنِيَاءَ وَيَتَأَلَّبُ الْعُمَّالُ عَلَيْهِمْ حَتَّى صَارَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ أَعْقَدَ الْمَسَائِلِ عِنْدَهُمْ؛ وَأَمَّا مَا يُصَابُ بِهِ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوَسَاوِسِ وَالْأَوْهَامِ فَهُوَ مَا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ رَاقَبَ هَؤُلَاءِ الْعَابِدِينَ وَتَلَا أَخْبَارَهُمْ». (تفسير المنار، ج٣، ص٨٤). [المترجم]



الفقاعة الكاذبة التي تعلو المال الرّبويّ هي التي ستؤدّي في النهاية إلى الانهيار الصّادق بانفجارها: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1].

٣. إنّ مجيء كلمة ﴿الرِّبا﴾ بصيغة المُفرد وذِكر كلمة ﴿الصَّدَقات﴾ بصيغة الجمع إنّما هو لتطابق اللّفظ مع المعنى، أي إنّ الآية الكريمة أرادت بيان القلّة الحقيقية للرّبا فذكرته بصيغة المُفرد من ناحية، ثمّ التصريح بالكثرة الواقعية للصّدقة من ناحية أخرى فذكرتها بصيغة الجمع وأدخلت عليها الألف واللام؛ فالألف واللام في ﴿الرِّبا﴾ هي للجنس بينما تفيد الاستغراق في كلمة ﴿الصَّدَقات﴾.

الزّوال المؤكّد للرّبا

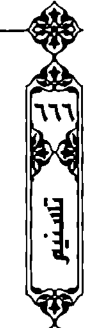
لا شكّ في أنّ زوال الرّبا ومَحقه إنّما هو مصداق لمبدأ كليّ وعامّ مفاده أنّ الله سبحانه وتعالى قد قضى بمَحو كلّ باطل وإخلاد كلّ حقّ: ﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2] فضلاً عن أنّ القرآن الكريم كان قد أشارَ إلى هذه الحقيقة في صورة مثال في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾[3]. فاستناداً إلى هذه الآية فإنّ الرّبا والمال الربويّ ليس سوى رغوة وفقاعة كبيرة لكنّها فارغة المحتوى ومُهلكة، فيما تُشبّه الصّدقة بالماء الصافي الذي ينفع الناس في مُعظم احتياجاتهم،

---

١ . سورة الأنبياء عليه السلام، الآية ١٨.

٢ . سورة الإسراء، الآية ٨١.

٣ . سورة الرّعد، الآية ١٧.



وبطبيعة الحال فإنّ هذه المنفعة العامّة التي تتضمّنها الصّدقة هي السبب في تكاثرها وازديادها في *الواقع* وليس في *الخيال الفارغ*: ﴿**وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾.

وجدير بالذّكر أنّ فناء الرّبا تدريجيّاً: ﴿**يَمْحَقُ اللهُ الْرِّبَا**﴾ يُعتبر قضية حقيقية كليّة ودائمية، وليس لأحد حقّ الوساطة أو الاعتراض على إرادة الله سبحانه إلّا بإذنه: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾[١]؛ إذاً، فعندما نرى أنّ بعض أموال المُرابي ما زالت على حالها ولم تَفنَ بل وتتكاثر بشكل مستمرّ فإنّ ذلك لا يؤثّر على المبدأ العامّ للمَحق الذي وعد به الله ﷻ الرّبا لأنّ المال الرّبوي لا يدوم أبداً وإن انتقل إلى الآخرين عن طريق الإرث لأنّ الورثة ليسوا المالكين للأموال الربويّة التي أُخِذَت من الآخرين، وعليه، فإنّ الإشكال يكمن في ظنّ البعض بتعجيل المَحق وليس في المبدأ نفسه.

وهكذا فإنّه ينبغي أن نعزو سبب تأخير زوال المال الربويّ إلى المصلحة العامّة أو قيام ذلك الشخص بالخيرات فهذه الدنيا هي دار التزاحم والمنافسة ويمكن لتأخير العقوبة أن يكون مؤثّراً في تلك المنافسة في عمل الخير، وإلّا فإنّ هلاك المال الربويّ وزواله هو أمر حتميّ لا مفرّ منه كما صرّح الله تعالى بذلك: ﴿**يَمْحَقُ اللهُ الْرِّبَا**﴾.

إلماعة: من المعلوم أنّ الصّدقة هي سبب اتّساع رقعة الرّحمة والمحبّة والتفاهم والألفة بين القلوب والمحافظة على الأموال ومَدعاة لاتّحاد الجميع بعضهم مع البعض ومساعدة الآخرين وإعانتهم وهي التي تحدّ من اشتداد الغضب وتحول دون ارتكاب المرء للاختلاس والفساد والسّرقة والجريمة، فكلّ هذه الميّزات

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

التي تمتاز بها الصّدقة تُعتبر سدّاً منيعاً أمام فساد الأموال وزوال بركتها وهي عاملة مؤثّرةٌ في ازدياد المنافع والاستفادة الصحيحة من الأموال وهي التي تضاعف خيرات الأموال وتزيد من نتائجها المثمرة.

وأمّا ما يتميّز به الرّبا فهو الهلاك التدريجيّ للمال، فالرّبا يُعتبر سبباً رئيسياً في قسوة القلوب وتحويل الأرباح في المجتمع إلى خسائر أكيدة وكبيرة، وهو الذي يزرع بذور الحقد والكراهية وسوء الظنّ بين الأفراد ويسلب الأمن والاستقرار منهم، بل ويدفع البعض إلى الانتقام قولاً أو فعلاً وبشكل مباشر أو غير مباشر وإثارة الفتن والخلافات، وما تلك سوى عوامل تكفل هلاك المال الربويّ وتضمن زواله، وفي مثل هذه الظروف الصعبة والقاسية التي يخلقها الرّبا من الطبيعي أن تتعرّض جميع الأموال إلى خطر الزوال والفناء.

وتتجلّى الآثار والنتائج المتباينة لكلّ فِعلٍ من الصّدقة والرّبا في الاحتكاك المباشر بينها وبين الحياة اليومية للمحتاجين والمُعوزين، فالفقر مثلاً يُعدّ سبباً كافياً لإثارة المشاعر الداخلية للفقراء وتهييجها وجعلهم في حالة استنفار دائمة للدفاع عن حقوقهم الاجتماعية المُغتصبة والمنهوبة، فإذا تمّ التعامل معهم بالصّدقة والقول المعروف والمال من دون زيادة أو نقصان فإنّ ذلك كفيل بأن يخمد النار التي تستعر في أعماقهم وتخفّف من التهاب المشاعر العدوانية ضدّ المجتمع وأفراده ومصالحه سيّما إذا تعاملنا معهم بالإحسان والنّوايا الحسنة الأمر الذي سيؤثّر بشكل إيجابيّ على نفوس الفقراء، لكن إذا تمّت معاملتهم في زمن الفقر بنفسية ربوية ونوايا يشوبها عنصر الاستكثار والاكتناز والتصرّف معهم بقسوة وجَلافة وأنانية فإنّهم لن يتوانوا عن فعل أيّ شيء كتعبير عن انتقامهم ووسيلة إلى أخذ حقوقهم.



المُرابي «كفّار» و«أثيم»

يُعتبر الرّبا السبب الرئيسيّ في خلق وارتكاب الكثير من الذنوب والمعاصي وبطلان العديد من العبادات الفردية والاجتماعية والمسائل الفقهية والخلقيّة، فالمُرابي مثلاً يُبطل صَومه بأموال الآخرين وصلاته بارتداء ملابس محرّمة وتجارته بخلط الأموال الطيبة مع الأموال المسروقة والخبيثة وهو يهدم داره بيَده لأنّه شيّدها من أموال الناس، إذاً، فالرّبا هو عامل أساسيّ للغَرق في بحر المعاصي بشكل مستمرّ.

هذا من ناحية، أمّا من الناحية الأخرى فإنّ الواجب الاجتماعي والدينيّ يقضي بأن يكون المُرابي أخاً لبقيّة المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾[١]، لكنّه بأفعاله هذه وأكله للرّبا يتسبّب في إيجاد العداوة والبغضاء مع أولئك المؤمنين بدلاً من أن يُقيم معهم علاقة أخويّة طيّبة، كما أنّ الواجب يُحتّم عليه أن يُساهم مع إخوته من المسلمين الآخرين في إشاعة البرّ والتقوى كمّاً ونوعاً: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٢]، إلّا أنّه يُصرّ على ترويج الإثم ونشر بذور العداء دون وَجل.

وهكذا، فإنّ النتيجة المتوقّعة للسلوك الرّبويّ وردود الأفعال التي يخلّفها ذلك السلوك المُقرِف والمُنحرف تتمثّل في إشاعة المعاصي والآثام ما دفع القرآن الكريم إلى استخدام الوصف المناسب والتشبيه الدقيق للمُرابي من خلال كلمَتَيْ «الكفّار» و«الأثيم» وهي صيغة من صِيَغ المبالغة لِمَن اشتدّ كُفره وكثرت معاصيه: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ ولهذا السبب أيضاً تمّ تهديد المُرابي بالخلود في نار جهنّم ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾[٣].

---

١ . سورة الحجرات، الآية ١٠.
٢ . سورة المائدة، الآية ٢.
٣ . سورة النبأ، الآية ٢٦.

وفي مقابل الرّبا نرى الصّدقة وهي تزخر بالفضائل الجمّة منها تقوية عناصر الإيمان لدى الفرد وتشجيعه على الأعمال الصالحة والأفعال الخيّرة والمواظبة على الصلوات على أكمل وجه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١]. ومعروف أنّ الله ﷻ يمقت الكفّار ويكره الأثيم ووعد بإهلاك الرّبا وفناء صاحبه معه: ﴿... وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[٢] ويمكن استنباط ذلك من ذيل الآية الشريفة التي تشير بوضوح إلى مضمون الآية بأكملها وبيان لعلّتها: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾. فالمُرابي إذاً مَكروه من الله بل ومغضوب عليه لأنّه ببساطة «كفّار» و«أثيم»، فيما تغمر محبّة الله سبحانه المُتصدِّق وتُؤثره على سابقه فضلاً عن أنّه سيُثاب في الدنيا والآخرة بأضعاف ما يتوقّع من الأجر الكريم.

إشارات ولطائف

الآثار الاجتماعية للرّبا

إنّ لكلّ فرد من أفراد المجتمع مَنزلتيْن اثنتيْن: المنزلة الفردية والمنزلة الاجتماعية؛ وعندما نقول بأنّ مجتمعاً ما موجود بالفعل فإنّنا نقصد بذلك اجتماع المنازل الاجتماعية لكلّ أولئك الأفراد معاً وتآلفها في مكان واحد لتشكّل بمجموعها المجتمع المذكور.

وكما أنّ لكلّ فرد في المجتمع أجَلاً مُعَيّناً هو بالِغه (ونعني بذلك عُمره المحدود) ولا يمكن تأخيره أو تقديمه: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا﴾[٣]

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٧٧.

٢ . سورة آل عمران، الآية ١٤١.

٣ . سورة المنافقون، الآية ١١.



فإنّ للمجتمع بأكمله أجَلاً كذلك كما للأفراد: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾[1]، وهكذا فإنّ عُمر المجتمع يُقابل عُمر الفَرد فيه وبالتالي فإنّ هلاك الفرد ومماته يكون في مُقابل هلاك المجتمع وزواله.

فالرّبا الفرديّ والاجتماعيّ إذاً متساويان في أصل الزوال ومبدأ المَحق إلّا أنّهما يختلفان في بعض الآثار والنتائج؛ على سبيل المثال نقول إنّ الكثير من الأدواء التي يُصاب بها المُرابي تندرج في خانة الجزاء والعقوبة التي يستحقّها فتشلّه وتُقعده ويصبح مطروداً من قِبل المجتمع ويسخط عليه الناس ويحقدون بسبب ما فعل فيسعى كلّ شخصٍ منهم إلى عزله عن بقيّة الأفراد والتصرّف معه بجلافة؛ لكنّنا لا نلاحظ مثلاً ظهور الآثار الفردية مثل العُزلة والحقد والسّخط واللّوم واللّعْن على التعامل الرّبويّ للبنوك أو الشركات أو المؤسسات الحكومية والأهلية، ولذلك نراهم في غيّهم يعمهون ويشجّعون على التعامل بالرّبا بكلّ ما أُوتوا من قوّة؛ لكن، وبعد مرور فترة ليست بطويلة نشهد انقسام المجتمع إلى طبقتيْن: طبقة مُرفّهة وأخرى محرومة، ثمّ مع مرور الوقت يتحيّن المحرومون الفُرَص للانتفاض والثورة ضدّ الأغنياء ما يعجّل في هلاك المجتمع ويُسرع في تفكّكه فيقضي نحبه غير مأسوف عليه.

تذكير. تُقاس أعمار المجتمعات في العادة بالقُرون بينما يُقاس عُمر الفرد بالسنين، وقد أشار القرآن الكريم في بعض آياته إلى انقراض الأمم السابقة وهلاكها دون الإشارة إلى موضوع الرّبا كقوله تعالى مثلاً: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى﴾[2].

---

١ . سورة المؤمنون، الآية ٤٣.

٢ . سورة طه عليه السلام، الآية ١٢٨.

بحث روائيّ

١ . الرّبا يمحق الدّين

سألَ رجلٌ الإمامَ الصّادق عليه السلام عَن قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ وقد أرى من يَأكل الرّبا يَربو مَالُه؟ فقال عليه السلام: «**فَأيّ مَحق أمْحَقُ مِن دِرهَم رِبا يَمْحَق الدّينَ؛ فإنْ تابَ مِنه ذَهَبَ مالُه وافتقر**»[1].

إشارة: أ. يمكننا في بعض الأحيان استنباط العديد من المسائل والمواضيع الأخرى التي لا تدخل في نطاق السؤال المطروح عندما نُطالع أجوبة المعصومين عليهم السلام ونُحلّلها بشكل دقيق.

ب. إنّ الأموال الربوية المتراكمة إمّا أن يستغلّها المُرابي لصالحه ويسخّرها لمنفعته وفي هذه الحالة يكون قد محقَ دينَه بذلك، وإمّا أن يتوب عن أفعاله ويُقرّر إرجاع الأموال التي بحوزته إلى أصحابها الحقيقيّين ما يعني افتقاره؛ والخلاصة فإنّ المُرابي إذا لم يَتُب فقد ضيّعَ دينه ومَحَقه وإذا تابَ فقد زال ماله وافتقر.

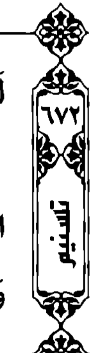
ج. إذا أصرّ المُرابي على الاحتفاظ بأمواله الربويّة واستغلالها لمصلحته فإنّه سيُصاب بنوعيْن من المَحْق: الأوّل دَفعيّ والآخر تدريجيّ؛ فأمّا المَحْق الدّفعيّ فهو ما يتعلّق بدينه وأمّا التدريجيّ فيشمل مالَه كلّه وهو ما تمّ بيانه في النصوص السابقة وسيجري الحديث عنها أيضاً في الصفحات التالية.

٢ . رُبوّ الصّدقات

رُوِيَ عَن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إنّ الله تعالى يَقبَل الصّدقات وَلا يَقْبل مِنها إلّا الطّيّب وَيُربيها لِصاحِبها كَما يُربي أحَدكم مُهرَه أو فَصيله، حتّى إنّ اللّقمة**

---

١ . الشيخ الصّدوق، **من لا يحضره الفقيه**، ج٣، ص٢٧٩.



لتَصير مِثلَ أُحُد»[1].

ـ عَن علي بن جعفر عَن أخيه موسى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قالَ رَسول الله ﷺ إنّه لَيْس شَيء إلّا وَقَد وُكّلَ به مَلَكٌ غَير الصّدَقة، فإنّ الله يَأخُذ بِيَده وَيُربيه كَما يُربي أحَدكم وَلده، حتّى يَلْقاه يَوْم القِيامَة وَهي مِثْل أُحُد**»[2].

إشارة: أ. يشير الحديثان المذكوران إلى أنّ الله سبحانه وتعالى يأخذ الصّدقة الطيّبة بيَده ولا يَكِل ذلك الأخذ إلى مَلَك من الملائكة، ثمّ يُربيها كما يُربي أحدنا وَلَده أو مُهره أو حُوارَه[3]، فإذا جاء المُتصدّق يوم القيامة رأى ما تصدّق به في الدّنيا كبيراً وعظيماً كأنّه جَبل أُحُد.

ب. قال بعض أهل العلم والمعرفة:

١) عندما يَمدّ السائلُ يَدَه ليأخذ الصّدقة فإنّ الله سبحانه يضع يَده فوق يَده (في مقام الفعل).

٢) قبل أن يأخذ السائلُ الصّدقةَ من المُتصدِّق يأخذها الله تعالى مباشرة.

٣) يُمثّل ذلك نوعاً من الحفاظ على كرامة المُتصدّق.

٤) يخلق الله عزّ وجلّ ما يشبه تلك الصّدقة (وليس عَينها) فيعطيها إلى السائل لينتفع ببركتها.

٥) يأخذ الله تعالى عَين الصّدقة ليُربيها فتكبر وتتكاثر وتتنامى حتى تصبح مثل جبل أُحد في الحجم.

---

١ . **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٧١؛ **تفسير نور الثقلين**، ج١، ص٢٩٣، الحديث رقم ١١٧٢.

٢ . **تفسير العياشي**، ج١، ص١٥٣.

٣ . «الحُوَارُ والحِوَارُ: وَلَد النّاقة مِن حين يُوضع إلى أن يُفطَم وَيُفْصَل». (**لسان العرب**، مادّة «حور»). [المترجم]

٦) يشير هذا الأمر إلى غَيرة الله ﷻ لأنّ العطاء كان في سبيله، أمّا الناس فيعتبرون العطاء كبيراً ومهمّاً وذلك لأغراض في نفوسهم ولكي يقوم الآخرون بتعظيم شأنهم وتهويل عطائهم، بينما ينظرون إلى العطاء المُقدّم في سبيل الله على أنّه ضئيل لا أهمية له، وهنا تبرز الغيرة الإلهية بإرباء الصّدقة لتكون أعظم من الصّدقة التي يعطيها الشخص ليعظّم بها نفسه أمام الناس.

٧) لا شكّ في أنّ يَد المُتصدِّق أعلى من يَد السائل وهذا ما أشار إليه الحديث الشريف[١] بقوله: «تَقَع» بمعنى أنّ الصّدقة تقع من أعلى.

٨) الوقوع لا يكون إلّا من أعلى، فكما يُنسب العُلوّ إلى الله في الاستواء على العرش، فهو في التّحت أيضاً، كما هو بكلّ شيء محيط[٢].[٣]

لا شكّ في أنّ بيان تلك الموضوعات وتفصيلها يتطلّب النّظر في بعض

---

١ . «أنّ الصّدَقة تَقَعُ في يَدِ الله قَبْلَ أنْ تَصِلَ إلى يَدِ السّائِل». (ابن أبي جمهور الأحسائيّ، **عوالي اللئالي**، ج٢، ص١٧). [المترجم]

٢ . ابن عربي، **تفسير رحمة من الرحمن**، ج١، ص٣٩٨.

٣ . قال ابن عربي: «إنّما السائل إذا بسط يَده لقبول الصّدقة من المتصدّق جعل الحقّ يَدَه على يَد السائل فإذا أعطى المتصدّق الصّدقة وقعت بيَد الرّحمن قبل أن تقع بيَد السائل كرامة بالمتصدِّق ويخلق مثلها في يَد السائل لينتفع بها، ويأخذ الحقّ عَين تلك الصّدقة فيُربيها فتَربو حتى تصير مثل جبل أُحُد في العِظَم، وهذا من باب الغَيرة الإلهية حيث كان العطاء من أجله لِما يرى أنّ الإنسان يعطي من أجل هواه ما يعظّم شأنه من الهِبات ويعطي من أجل الله أحقر ما عنده؛ فهذا هو الغالب بين الناس، فيَغار الله لجنابه أن لا يُرى في مقام الاستهضام فيُربي تلك الصدقة المُعطاة في سبيله حتى تعظم، فإذا جلاها في صورة تلك العظمة حصل المقصود، فيَد المُعطي تَعلو على يَد الآخِذ». (**تفسير رحمة من الرّحمن**، ج١، ص٣٩٨ ـ بتصرّف). [المترجم]



المبادئ الخفيّة كتجدّد الأمثال وخَلقها، فما قيل حتى الآن يمكـن تأكيـده بـشكل عامّ إلّا أنّ ذلك لا يمنع من طرحها على طاولة النّقاش والبحث، فلا حاجـة بنـا هنا إلى التكلّف، وما ورد في الأحاديث من ترجيح الـصّدقة يمكـن تحليلـه مـن الناحية العلمية ببساطة.

* * *

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾

خلاصة التفسير

يسمو المُنفقون الحقيقيّون إلى أعلى درجات العقل وأرقى مراتب التعالي الروحيّ في ظلّ الصّدقات التي ينفقونها بإخلاص في سبيل الله ﷻ والتي تتجلّى في أبهى صورها من خلال إيمانهم وإقامتهم للصلاة وتداومهم على الصالحات وأدائهم للزكاة، فأجور هؤلاء المُنفقين المخلصين الذين يُوَفّقون للقيام بما ذُكِر محفوظة عند الله سبحانه بالإضافة إلى الثواب الذي سيحصلون عليه لإنفاقهم وتصدّقهم، ومثل هؤلاء لا يشعرون بالخوف ولا يعرفون الحزن.

التفسير

تناسب الآيات

تحدّثت الآية الشريفة التي سبقت هذه الآية عن المَحْق التدريجيّ للرّبا والزيادة المستمرّة والمتواصلة للصّدقات، ووُصِف المُرابي بحقّ بالكَفّار والأثيم الذي يبغضه الله؛ أمّا هذه الآية الكريمة فتتناول جانباً من الأجر الجزيل والثواب



الجليل واللّطف الجميل الذي أعدّه سبحانه وتعالى للمؤمنين رغم أنوف المُرابين؛ نعم، أولئك المؤمنون الذين يؤمنون بالله ولا يفعلون إلّا ما صَلُح من الأعمال والذين يُقيمون الصّلاة ويُؤتون الزكاة عن طيب خاطر.

* * *

تكاثر المُتصدّقين

في مقابل هلاك المُرابين وفنائهم ومَحق أموالهم الربويّة، وعد القرآن الكريم بتزايد المُتصدّقين وتكاثر أعدادهم ونَماء بركات صدقاتهم في الدّنيا والآخرة، وأمّا العلّامة التي تميّز المُتصدّقين المخلصين فتتمثّل في وَصف الله تعالى لهم بأنّهم من أهل الإيمان والتعبّد وتقديم الخدمات لعباده والناس أجمعين وكلّ ذلك من أجل نَيلهم لرضى الله ﷻ. وأراد القرآن الكريم في هذه الآية بيان الزيادة الحقيقية لأهل الإنفاق بعد أن أشارَ قبل ذلك إلى الأجر الذي يستحقّه هؤلاء المُنفقون في قوله تعالى: ﴿**لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[1]، حيث أوضح أنّ الإيمان والعمل الصالح والكثير من فضائلهم الأخرى هي علامات تبيّن جوهر هؤلاء المنفقين قائلاً: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ**﴾ في إشارة جليّة إلى أنّ أهل الإنفاق هم أشخاص ملأ الإيمان كلّ جانب من شؤونهم واستطاعوا بذلك الوصول إلى قمّة الأمان والاستقرار والثبات، وهذا ما تفعله الصّدقة المخلصة بمانِحها المُخلص والمؤمن فهي تقوده إلى قِمَم الفضائل الشامخة، بينما يجرّ الرّبا أهله إلى مستنقع الرذيلة ليصبحوا في النهاية كُفّاراً آثمين.

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٦٢.

الوعد والوعيد

غالباً ما يذكر القرآن الكريم وعده إلى جانب وعيده، وبشارته بمعيّة إنذاره، وقد يأتي بكلّ واحدٍ منهما في قِسمَيْ الآية الواحدة أو يستخدم كلًّا منهما في آيتيْن متتاليتيْن، فتتضمّن إحداهما الوعد بينما تضمّ الأخرى الوعيد، مثل قوله سبحانه: ﴿**فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[1] و﴿**يَمْحَقُ اللهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ...**﴾[2]، وقد يأتي بهما في موضعيْن من نفس السورة.

إلماعة: تشير جملة ﴿**لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ إلى الأجر والثواب النّقديَّيْن على عكس قوله تعالى: ﴿**فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللهِ**﴾[3] الذي يبيّن أصل ثبوت الأجر على الله ﷻ رغم أنّه يمكننا استنباط ثبوت الأجر بالفعل بالنّظر إلى صيغة الماضي ﴿**وَقَعَ**﴾، فيكون المعنى أنّ أجره ثابت الآن بالفعل وأنّ الله سبحانه وحده هو الذي سيتعهّد بالإيفاء بهذا الوعد.

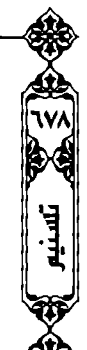
تذكير: لا ريب في أنّ كلّ عقيدة حقّة وكلّ خُلُق حميد وكلّ عمل صالح يستحقّ عناية الله سبحانه بما يتناسب كلّ واحد منهم، ولا يشترط وعد الله سبحانه اجتماع كلّ تلك الفضائل معاً، كما أنّ كلّ عقيدة باطلة وخُلُق سيّئ وعمل طالح يستحقّ كذلك ما يناسبه من التقبيح والوعيد والعقاب واجتماع كلّ تلك الرذائل معاً لا يُؤخَذ بعين الاعتبار في الوعيد؛ وأمّا ما ذكرته الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث فهو شرط كمال الوعد لا أصله كما في

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٧٥.

٢ . سورة البقرة، الآيتان ٢٧٦ و ٢٧٧.

٣ . سورة النساء، الآية ١٠٠.



قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾[١].

ثبوت أجر المُنفقين

إنّ قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ دون دخول «الفاء» على ﴿لَهُمْ﴾ يتضمّن تأكيداً على ثبوت الأجر يفوق العبارة مع استخدام «الفاء» لأنّ هذا الأخير يجعل الكلام بشكل شرط وجزاء وسبب ومُسبّب، فورود الجملة الشرطية يكون في بداية الكلام حيث تتعلّق الجملة بالشخص الذي يُراد منه لأوّل مرّة إدراك وجود علاقة السبب والمُسبّب بين الموضوع والمحمول، ولكن بالنسبة إلى المتكلّم والمخاطب اللذيْن اتّضح بينهما التلازم المذكور فإنّ الكلام لا يتّخذ شكلاً شرطيّاً. فبالنسبة إلى الشخص الذي يحاول فهم ما إذا كانت هناك أيّة ملازمة بين طلوع الشمس والنهار يمكننا استخدام العبارة الشرطية، أمّا بالنسبة إلى الشخص الآخر الذي عرف من قَبل أنّ طلوع الشمس يأتي بالنهار فيما بَعد وأصبح يُدرك ذلك بسهولة فلا يلزمنا الإتيان بالجملة الشرطية. وكذلك هي الحال في الآية الّتي هي موضوع البحث حيث أصبح ثبوت الأجر للمُنفقين الصالحين وضمان عدم شعورهم بالخوف والحزن أمراً طبيعياً ومُسلّماً به إلى حدّ لا نحتاج فيه إلى استخدام الجملة الشرطية.

* * *

١ . سورة الفرقان، الآيتان ٦٨ و ٦٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾

خلاصة التفسير

«التّقوى» مَلَكَة نفسانية ذات مراتب ودرجات، ولا بدّ مِن أن تتناسب التقوى مع العمل الذي يتطلّبها، فالتقوى التي تشير إليها الآيتان الكريمتان في أعلى الصفحة هي التقوى الاقتصادية ورعاية الحقوق المالية للآخرين ومصالحهم؛ وعلى المؤمنين أن يتّقوا ويتركوا ما بقيَ من آثار الأموال الربويّة.

فالآية الأولى التي تبدأ حديثها بمخاطبة المؤمنين تبيّن أنّ تركهم للمال والتعامل الرّبويّيْن يعني إيمانهم الصحيح، ويأتي ذِكر الإيمان في بداية الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ وفي نهايتها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كتأكيد على أنّ روح الإيمان لا تنسجم مع الرّبا والمعاملات الربويّة.

والآية الثانية تؤكّد على أنّ إصرار المُرابي على أفعاله إنّما هو بمثابة إعلانه الحرب على الله ﷻ ورسوله ﷺ وأنّه [أي المُرابي] هو البادئ بالحرب؛ ولكن، إذا تابَ وأنابَ فسيكون له رأس ماله دون أرباح ربويّة، فضلاً عن أنّ الآية لا تُنكر الملكية الفرديّة.



ولمّا كان الرّبا يُعدّ ظلماً وكان المُرابي مالكاً لـرأس مالـه، وفي حـال توبتـه لا يجوز لأحد سَلبه ذلك الحقّ ظلماً وعدواناً، فـإنّ الآيـة تـشير في آخرهـا إلى مبـدأ شريف هو إزالة الظلم عن الظالِم والمظلوم معاً ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

التفسير

المُفردات

ذَرُواْ: من «وَذَرَ» يَذِرُ وَذْراً، بمعنى تَركه ولم يُبال به، ولا يُقال «وَذِرَ» بصيغة الماضي[١][٢].

فَأْذَنُواْ: «أَذِنَ» استمَعَ: نحو قوله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[٣] ويُستَعمل ذلك في العِلـم الـذي يُتَوَصّـل إليـه بالـسّماع نحـو قولـه: ﴿فَـأْذَنُواْ بِحَـرْبٍ مِّـنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾[٤]. وبما أنّ الفعل ﴿فَأْذَنُواْ﴾ في هذه الآية يتضمّن معنى اليقين فقد صارَ متعدّياً بحرف «الباء»، فإذا أُخِذَ بمعنى التجـويز والترخـيص فإنّـه يـأتي بـشكل إسناد إلى الفاعل «آذَنَ» دون دخول الحرف المذكور، وإذا كان الإسناد إلى المأذون

---

١ . راجع: **تفسير تسنيم**، ج١١، ص٣٩٢ (ذيل الآية «٢٣٤» من سورة البقرة).

٢ . «ذَرَّ الشيءَ يَذُرُّه: أَخذه بأَطراف أَصابعه ثمّ نَثَرَه على الشيء، وذَرَّ الشيءَ يَذُرُّهُ، إذا بَدَّدَهُ...» (**لسان العرب**، مادّة «د ر ر»)؛ «دَرْهُ، أي: دَعْهُ... وتقول في المـضارع: يَـذَرهُ، وأماتـت العـربُ ماضـيه ومصدره واسم الفاعل منه، فإذا أُريدَ الماضي قيلَ: تَرَكَ، أو المصدر قيل: التَّرْك، أو اسـم الفاعـل قيل: التارِك، ولا يُقال: وَذِرَ ولا وَذْرٌ ولا واذِر، وقيلَ يُقال: وَذِرَهُ، شـاذّاً أو نادراً، وفي (اللسان): وحُكيَ عن بعضهم: لَم أَذَرْ ورائيَ شيئاً، وهـو شـاذّ. وفي التنزيـل: ﴿فَـذَرْنِي وَمَـن يُكَـذِّبُ بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ﴾: أي كِلْهُ إليَّ ولا تَشغل قلبك وذهنك به». (**معجم النّفائس الكبير**، بـإشراف الأسـتاذ الدكتور أحمد أبو حاقَة، مادّة «و ذ ر» ـ بتصرّف). [المترجم]

٣ . **سورة الانشقاق**، الآية ٢.

٤ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٧٠، مادّة (ا ذ ن).

جاء معه حرف «اللّام» كقوله تعالى: ﴿أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾[1]. وقال العلّامة الطباطبائيّ رحمه الله: «وقُرئ «فَآذِنُوا» ـ بالأمر ـ من الإيذان»[2].

تناسب الآيات

قال الفخر الرازي: «إعلم أنّه تعالى لمّا بَيْنَ في الآية المتقدّمة أنّ مَن انتهى عن الرّبا فَلَه ما سَلفَ، فقد كانَ يجوز أن يُظنّ أنّه لا فَرق بين المقبوض منه وبين الباقي في ذمّة القَوْم، فَقال تعالى في هذه الآية ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ وبَيّن به أنّ ذلك إذا كان عليهم ولم يُقْبَض، فالزيادة تُحرم، وليس لهم أن يأخذوا إلّا رؤوس أموالهم، وإنّما شدّد تعالى في ذلك لأنّ من انتظر مدّة طويلة في حلول الأجل ثمّ حضرَ الوقت وظنّ نفسه على أنّ تلك الزيادة قد حصلت له، فيَحتاج في مَنْعه عنه إلى تَشديد عظيم، فقال: ﴿اتَّقُواْ اللهَ﴾ واتّقاؤه ما نهى عنه، يعني إن كنتم قد قَبضتم شيئاً فيعفو عنه، وإن لم تَقبضوه أو لم تَقبضوا بَعضه فذلك الذي لم تقبضوه كُلًّا كان أو بعضاً فإنّه مُحرّم قَبْضه»[3].

* * *

التقوى الاقتصادية

«التّقوى» ـ كما ذكرنا ـ هي مَلَكَة نفسانية قد تكون مطلقة أحياناً أو مُقيّدة في أحيان أخرى، كما أنّها يمكن أن تكون كذلك مَلَكَة عِلمية أو عَمليّة. ويُسمّى الاطلاق والتقييد الذي تُوصَف به مَلَكَة الاجتهاد مثلاً باعتبارها مَلَكَة عِلمية

---

١ . سورة طه عليه السلام، الآية ١٠٩.

٢ . تفسير الميزان، ج٢، ص٤٢٢؛ التحقيق في كلمات القرآن، ج١، ص٥٢، مادّة (اذ ن).

٣ . أنظر: التفسير الكبير، مج٤، ج٧، ص١٠٦ ـ بتصرّف.



بالإطلاق والتجزّي، ومن هنا فإنّ المُجتهد إمّا أن يكون مُطلقاً أو مُتجزّئاً. وتُعَرَّف «التّقوى» بأنّها الابتعاد عن مسايرة الأهواء النفسانية وتجنّب مجاراتها والحذر من مخالفة أوامر الله سبحانه، فإذا كانت التقوى مُطلقة فإنّها تُراعي الآثار الظاهرة الخاصّة بكلّ مورد من الموارد، أمّا إذا كانت متجزّئة فلن يكون لها أيّ أثر أو حُكم في المورد الذي لا يكون موجوداً وإذا كان المورد موجوداً فإنّها تُقيم الحكم المطلوب الخاصّ بالمورد المذكور. والخلاصة أنّ التقوى لا تمتلك سوى حقيقة واحدة ولها مراتب متعدّدة من حيث تفاوت درجات التشكيك، كما أنّها تتّصف بالإطلاق والتجزّئة وهي فضلاً عن ذلك قابلة للتفكيك. وتلعب التّقوى في مثل هذه المسائل الماديّة التي يعشقها الإنسان: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[1] حيث يملأ البُخل والشحّ والإمساك كلّ جزء من قلبه وفؤاده: ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾[2]، تلعب دوراً كبيراً للغاية لأنّها [أي التّقوى] هي الوحيدة القادرة على الوقوف بوَجه الطغيان والبَغي.

واستناداً إلى ما ذُكِر فإنّ التّقوى في أيّ عمل لا بدّ من أن تكون متناسبة مع ذلك العمل؛ على سبيل المثال، تتمثّل التقوى الخاصّة بالمسائل العبادية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3] في الخلوص في العبودية، والتقوى في الجهاد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4] تعني التقوى العسكرية والحربية.

---

١ . سورة الفجر، الآية ٢٠.
٢ . سورة النساء، الآية ١٢٨.
٣ . سورة البقرة، الآية ١٨٣.
٤ . سورة المائدة، الآية ٣٥.

وأمّا التقوى المقصودة في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث فهي التقوى الاقتصادية ورعاية الحقوق والمصالح المالية للآخرين، فالأمر بالتّقوى الوارد في أوّل الآية: ﴿اتَّقُواْ اللهَ﴾ هو مقدّمة الحكم الصادر بعدم أخذ ما تبقّى من الرّبا والأرباح الرّبوية: ﴿وَذَرُواْ﴾ ليكون المُخاطَب مستعداً وجاداً في الإذعان للأمر والامتثال له.

إلماعة: يشير الخطاب في الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ...﴾ إلى أنّه كان من المؤمنين في عهد نزول الآيات مَن يأخذ الرّبا وله بَقايا منه في ذمّة الناس من الرّبا فأمره الله سبحانه بتركها[1].

علامة الإيمان تَرْك الرّبا

تُخاطب الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث المؤمنين بالقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ﴾ ومن خلال توضيحها بأنّ ترك ما تبقّى من المعاملات والأرباح الرّبوية هو علامة الإيمان فإنّها تُنهي حديثها بالقول: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ويأتي تكرار الإيمان ـ كما قُلنا ـ في بداية الآية الشريفة وذيلها كتأكيد على أنّ التعامل بالرّبا لا ينسجم مع روح الإيمان والتّقوى، فيما يشير التقييد في أمر تَرْك الرّبا وتعليق أخذ الأرباح الناجمة عن المعاملات الرّبوية إلى أنّ التخلّي عن الرّبا بكلّ أنواعه هو علامة واضحة على الإيمان وأنّ الاستمرار في التعامل الربويّ والإصرار عليه يُعدّ إخفاقاً كبيراً في إيمان الشخص المُرابي وسبباً لطرده من ساحة محبّة الله سبحانه وبالتالي خلوده في نار جهنّم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُم

---

١ . تفسير الميزان، ج٢، ص٤٢٢.

مُّؤْمِنِينَ﴾ للتأكيد على مضمون قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1] و﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[2].

وفيما يتعلّق بقوله ﷻ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنّ هناك نقطتين مهمّتين هما:

١. يختلف «الإيمان» الوارد في قوله تعالى ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ عن نظيره المذكور في عبارة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ فكلّ إيمانٍ منهما يشير ـ كما هو واضح ـ إلى مرتبة مُعيّنة من مراتب الإيمان.

٢. يشمل الحكم بحُرمة الرّبا وضرورة ترك ما بقي من آثاره كلَّ واحدٍ من المؤمن والكافر على السّواء، وأمّا قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فَلا يتضمّن مفهوم اختصاص حُرمة الرّبا على المؤمنين دون غيرهم لأنّ انعقاد المفهوم للشرط لن يتمّ إذا كان هذا الشرط مذكوراً لموضوع آخر، والموضوع الآخر موجود في الآية الشريفة كما نرى، فقد أمر الله سبحانه الكافرين بتطبيق مسألتيْن معاً فيما لم يطلب من المؤمنين سوى تنفيذ مسألة واحدة: وهي أنّ على الكافرين أن يؤمنوا أوّلاً ثمّ يَذروا الرّبا ومعاملاته ثانياً؛ بينما يتوجّب على المؤمنين تَرك الرّبا ومُعاملاته مع الحفاظ على إيمانهم السابق؛ إذاً، فمفاد الآية الكريمة لا يشير إلى جواز استمرار الكافرين على التعامل بالرّبا.

الرّبا حرب مع الله ورسوله ﷺ

يبدو أنّ الغرض من استخدام الفعل ﴿وَذَرُواْ﴾ بدلاً من استخدام فعل آخر مثل «فاعْمَلوا» إمّا أنّ صوت خطوات الرّبا ضعيف مثل الرّياء ويشبه خطوات النّملة وهي تسير على صخرة داكنة سوداء في ظلمات الليل، أو أن يكون المقصود

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٧٥.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٧٦.

من استخدامه هو بيان أنّ آذان المُرابين صُمٌّ، فأُذُن مَن لا دين له صمّاء بالتأكيد، بل قد لا يشعر حتى بعض المُتديّنين بخطوات الرّبا وزَحفه نحوهم رغم معرفتهم وعِلمهم بحُرمته وذلك لأنّهم يحبّون المال حُبّاً جَمّاً، وقد أصمّهم ذلك وأعماهم لسبب بسيط وهو تحقّق الرّبا ومُعاملاته بصوَر تبدو للجاهل وكأنّها شرعية ومُحلّلة لكنّه في الحقيقة ليس إلّا رِباً صرفاً؛ إلّا أنّه وبعد إعلان الحرب ضدّهم من قِبَل الله تعالى ورسوله ﷺ فقد ينتبه هؤلاء ويُدركون شناعة ما يرتكبون.

وأمّا ما يتعلّق بالتنوين الوارد في كلمة ﴿بِحَرْبٍ﴾ فإنّه لتعظيم الأمر وبيان أنّهم لا طاقة لهم بمحاربة الله ورسوله ﷺ، ففي بعض الأحيان تكون الحرب مع الله ﷻ كما في الحديث القُدسيّ: «**مَنْ أهانَ لِي وَليّاً فَقَد بارَزَني بِالمُحارَبَة**»[1] لكنّ الآية الشريفة تشير إلى أنّ الحرب هي مع الله تعالى ورسوله ﷺ معاً.

ولا ريب في أنّ عصيان أوامر الله سبحانه ونَبذها وارتكاب ما نَهى عنه إنّما هو بمثابة إعلان الحرب ضدّ الله وإخلال بالنظام الاقتصادي والاجتماعيّ والحكومة الإسلامية، وكذلك حرب ضدّ وليّ المؤمنين ورسول رَبّ العالمين ﷺ ولكلّ واحدة من الحربيْن عقوبتها الخاصّة بها في الدّنيا والآخرة: **﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**[2].

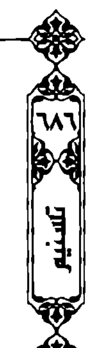
وكما أنّ القرآن الكريم قد طرح موضوع طاعة الله ورسوله ﷺ بشكل مُستقلّ في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾**[3] فهو

---

١ . أصول الكافي، ج١، ص١٤٤.

٢ . سورة المائدة، الآية ٣٣.

٣ . سورة محمّد ﷺ، الآية ٣٣.



يشير إلى وجود نوعيْن من الطاعة لأحكام الله سبحانه والأوامر الحكومية للنبيّ ﷺ، فإنّ الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث تتناول بدورها مسألة الرّبا التي تُعتبر عصياناً لأوامر الله ﷻ وإعلاناً للحرب معه وإخلالاً بالنظام الإسلامي فضلاً عن كونها حرباً ضدّ رسول الله ﷺ كذلك.

وبعبارة أخرى، فإنّ المُرابي يضع حكم الله بحُرمة الرّبا وراء ظهره بالإضافة إلى عدم طاعته للأمر الحكوميّ القائم على أساس إيجاد النظام الإسلاميّ الصحيح وإدارته.

والعلّة في استخدام كلمة ﴿بِحَرْبٍ﴾ بدلاً من «حَرْبَاً» هو أنّ إعلان الحرب يشير إلى قيام حَرب ضروس لا هوادة فيها في المستقبل، وأمّا عبارة ﴿مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ فتبيّن أنّ أمر إعلان الحرب صادر عن إرادة إلهية حكيمة وعدالة وعن سُنّة إلهية لا تتغيّر، أمّا مسألة تنفيذها وتطبيقها فقد أُوكِلَت إلى أشرف الرّسل ﷺ وذلك لتثبيت دعائم القسط وصَرح العدل، ولا يجب أن نغفل عن نقطة مهمّة هنا وهي أنّ المُتسبّب في نشوب هذه الحرب بكلّ ما تحمله من وَيلات وخسائر هم المُرابون أنفسهم.

البادئ بالحرب

صحيح أنّ الفرقاء في الحرب مشتركون جميعاً في الاقتتال لكن عادة ما يكون أحدهم هو المُتسبّب أو البادئ بإعلان الحرب أو إشعالها أو نشوبها، وما يمكن استنباطه من الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾[1] وكذلك من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾[2] هو أنّ البادئ بالحرب

١ . سورة المائدة، الآية ٣٣.

٢ . سورة التوبة، الآية ١٠٧.



والمُتسبّب في نشوبها ضدّ الله هو الطغاة، وعليه فإنّ الطغيان في مقابل حكم الله سبحانه والتنصّل من تنفيذ أوامره والمكابرة، كلّ ذلك المذكور يُمثّل إعلاناً للحرب، كما أنّ إهانة وَليّ من أولياء الله دون وَجه حقّ تُعتبر حَرباً مباشرة مع الله ﷻ وكأنّ المُهين يُصرّح بمحاربة الله من خلال إهانته لوليّه: «**مَنْ أهانَ لِي وَلِيّاً فَقَد بارَزَني بِالمُحارَبَة**»[1].

وقد يحمل بعض العبارات مَعنيَيْن اثنيْن: أوّلهما، أن يكون الله سبحانه وفريقه هما البادئانِ بإعلان الحرب بينما يكون الطرف المُقابل العاصي هو البادئ بالحَرب لا بإعلانها فقط، وهذا يشبه ما ورد في العهد الذي كتبه أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشتر عندما قال: «**ولَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ الله فَإِنَّهُ لَا يَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ... ومَنْ ظَلَمَ عِبَادَ الله كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ ومَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ وَكَانَ لله حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ**»[2] رغم أنّ الاحتمال الأقوى يشير إلى أنّ الله سبحانه هو البادئ بالحرب وهو المُستفاد من ذيل الآية الشريفة.

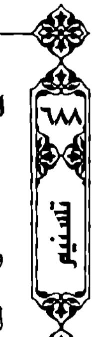
توبة المُرابي

يُعتبر المُرابي التائب مالكاً لأصل رأس المال باستثناء أرباح المال الربويّ الناجمة عنه: ﴿**وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ**﴾. وتكون توبة الكافر من خلال إيمانه ثمّ أدائه لكلّ عمل صالح بينما تتمثّل توبة الفاسق برجوعه عن فسقه وميوله إلى الحقّ والعدل وتجنّبه لكلّ معصية، ولذلك اكتفت الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث بالإشارة إلى التوبة: ﴿**وَإِن تُبْتُمْ**﴾ ما يدلّ على أنّ المُخاطَب بهذا الكلام هو بعض المؤمنين الذين نُهوا عن الاستمرار في تعاطي الرّبا.

---

١ . **أصول الكافي**، ج١، ص١٤٤.

٢ . **نهج البلاغة**، الكتاب رقم ٥٣ (كتبه للأشتر النخعي لمّا ولّاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمد بن أبي بكر، وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن).



التأكيد على المِلكية الفردية

إنّ جملة ﴿فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ تُعدّ تأكيداً واضحاً على اعتراف الإسلام بحقيقة المِلكية الفردية وعدم جواز التعرّض للمُرابي ومَنعه من حقّ التصرّف بأصل ماله، ولا تُعتبر إضافة كلمة ﴿رُؤُوسُ﴾ إلى «الأموال» إضافة بيانية بل هي إضافة صِفة إلى موصوف ما يشير إلى أنّ المال يشبه الفكر في كونه لا بدّ من أن يتضمّن عائداً وأثراً مُحدّدَيْن، فكما أنّ حركات أعضاء الجسم وجوارحه وأفعالها تُنسَب إلى الرّأس فإنّ الأرباح والعوائد كذلك هي نتاج رؤوس الأموال، وهكذا فإنّ العوائد المشروعة تُعدّ نتائج وآثاراً لأصل المال.

الرّبا وظُلمه

يوصَف الرّبا بالظلم لأنّ المُرابي يعمد إلى ضمّ أموال الآخرين إلى أمواله بغير حقّ؛ ومن ناحية أخرى فإنّ بإمكان المُرابي الاحتفاظ برأس ماله بعد توبته ولا يجوز لأحد حرمانه من ذلك أو ظُلمه ومنعه من الحصول على رأس المال المذكور: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

وتبيّن العبارة القرآنية الشريفة: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بدلاً من قوله سبحانه مثلاً: «فَلَكم رؤوس أموالكم بلا زيادة ولا نقيصة» أنّ أكل مال الناس من خلال إعطاء القليل أو أخذ الكثير الزائد هو الظلم بعَينه، والظلم مَرتعه وَخيم؛ ولكون الرّبا هو صورة من صوَر الظلم فإنّه هو الآخر وهو زائل غير باقٍ.

إشارات ولطائف

١ . الأحكام الخاصّة بالمُرابي

إذا انصاع المُرابي لحُكم الله تعالى القاضي بتحريم الرّبا بكلّ أنواعه وأشكاله وصمّم مخلصاً على ترك هذه العادة المقيتة، فإنّ الله سبحانه سيعفو عن الأموال الربويّة التي أخذها المُرابي قبل صدور حكم التحريم ولكن لا يحقّ له بعد ذلك استيفاء الأرباح الربويّة المُعلّقة أو المتبقية؛ وأمّا إذا أصرّ المُرابي على ارتكاب معصية الرّبا وواصل فعلته القبيحة فإنّه لا محالة سيلقى عقوبة إلهية شديدة وتعزيرات حكومية قويّة. وبتوبة المُرابي يمكنه الاحتفاظ بكامل رأس ماله الأصليّ، فإذا ألحّ على التكبّر والإنكار ونَفي الامتثال للأوامر الإلهية فإنّه سيخسر رأس ماله كذلك حيث سيُوضع في صندوق الأنفال تحت إمرة قائد المسلمين أو سيتمّ اعتباره من ضمن الفَيء وأموال المسلمين، أمّا جواز إنفاقه وَجِهة الإنفاق فسيكونان بأمر القائد وضمن صلاحيّاته فقط.

وأمّا المُرابي الذي يعلم حُرمة الرّبا وينكره عالِماً مُتعمّداً مع عِلمه بأنّ هذا الإنكار الصّريح يُعدّ تكذيباً صريحاً بالوحي الإلهيّ وشخص الرّسول الأعظم ﷺ الذي هو واسطة نَقل وَحي الله إلى الناس كافّة، فهذا المرابي يُعتبر مرتدّاً مهدور الدمّ لإنكاره تحريم الرّبا الذي يُمثّل واحداً من ضروريات الدّين.

فحكم المُرتدّ من الناحية الكلامية هو الخلود في نار جهنّم: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1] لأنّ مَن وقف ضدّ القرآن الكريم وأمعنَ في إنكاره وبالغ في تكذيب ما أتى به النبيّ الكريم ﷺ رغم مجيء هذه الموعظة القرآنية الجليّة والقاطعة وبعد بيان الرّشد من الغيّ، فلا شكّ في أنّ مثل

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٧٥.



هذا الشخص يستحقّ الحكم الكلاميّ وهو الخلود في نار جهنّم فضلاً عن استحقاقه للحكم الفقهيّ وذلك بإقامة الحدّ عليه لارتداده ثمّ مصادرة أمواله كلّها، وقد يشمل حكم مصادرة الأموال أيضاً المُرابي الذي يكون عالماً بحُرمة الرّبا دون أن يُنكره. واستناداً إلى فتاوى الفقهاء فإنّه يتمّ في المرحلة الأولى تعزير المُرابي الذي يعلم علم اليقين بحُرمة الرّبا ثمّ في المرحلة التالية يتمّ إعدامه[1].

تذكير: إنّ تحريم الرّبا في القرآن الكريم ليس من المتشابهات ولا يمكن لأيّ فقيه أن يشتبه في أصل حُرمته، لكن، إذا ظهر حكم مُستنبَط عن إمارة ما وأُقيمَ الدليل على خلافه، أو اشتُبِهَ في إمارة دليله، فلا يَسري عليه أيّ حكمٍ من الأحكام الكلامية أو الفقهية.

٢. مبدأ «لا تَظلِمون ولا تُظلَمون»

يُعتبر «التوحيد» أهمّ عنصر عَقَديّ بينما يُمثّل «العدل» العنصر الاجتماعيّ والسياسيّ البارز على الإطلاق، فالعدل كفيل بأن يجعل من الفرد شخصاً غير ظالمٍ ولا مَظلوم، أمّا تثبيت أركان العدل في كلّ جوانبه وبكلّ صُوَره فيعني رَفع الظّلم عن الظالمِ والمظلوم على حدّ سواء. ولا يختصّ هذا المبدأ العامّ بالمسائل الاقتصادية وحسب رغم أنّ موضوعه هو المعاملات الرّبوية والاقتصاد، بل يشمل أيضاً جميع المجالات المحلية والإقليمية والعالمية، أي مُراعاة العدل والابتعاد عن الظلم سواء أكان ذلك ضمن حدود الدولة الإسلامية التي تحمل

---

١. «... عن أبي الحسن الماضي عليه السلام: أصحاب الكبائر كلها إذا أُقيم عليهم الحدّ مرّتيْن قُتلوا في الثالثة (المؤيد بخبر أبي بصير عن الصّادق عليه السلام إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا حَدّ شارِبَ الخَمْر مَرّتيْن قَتَله في الثالثة (وخبره الآخر عنه عليه السلام) أيضاً: مَن أُخِذَ في شهر رمضان وقد أفطرَ فَرُفِع إلى الإمام يُقْتَل في الثالثة؛ ومضمره أيضاً؛ قال: قلتُ: آكِلَ الرّبا بَعد البيّنة؟ قال: يُؤَدَّب، فإن عادَ أُدِّبَ، فإن عادَ قُتِلَ». (**جواهر الكلام**، ج٢٣، ص٣٣٢؛ ج٤١، ص٦٠٠ ـ ٦٠١).

على عاتقها مسألة تنظيم العلاقات بين المسلمين كافّة أم في إطار مسائل التوحيد التي تضمن تنسيق العلاقات بين الموحّدين في كلّ أنحاء العالم، أم على المستوى العالميّ حيث يتمّ تنظيم العلاقات الإنسانية بين أفراد البشر عموماً. والخلاصة أنّ القانون المتعلّق بضرورة تطبيق العدل وتجنّب الظلم ليس مخصّصاً لمجال مُعيّن ولا هو قانون مُقيّد بناحية دون أخرى؛ وعليه، فلا ينبغي السّماح للظلم بالتسلّل إلى المسائل المالية سواء كان ذلك بالعَين أم بالمنفعة أم الانتفاع أم بالحقّ.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الشريعة الإلهية هي الجهة الوحيدة التي يمكنها تحديد معالم العدل والظلم لأنّ الله ﷻ هو الوحيد الذي يستطيع وَضع كلّ شيء في مكانه المُخصّص له: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1] و﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[2] فممّا لا شكّ فيه أنّ تعيين موضع كلّ شيء وتحديد مكانه بدقّة إنّما هو من صلاحيّات خالق ذلك الشيء؛ وهكذا، فإنّه لا يمكن تطبيق العدل (الذي يُعَرَّف بأنّه وَضع كلّ شيء في موضعه) بعيداً عن معرفة الحدّ الوجوديّ لذلك الشيء واستحقاقه وجدارته الذاتية وبالتالي منزلته في هندسة نظام الخلقة، وكلّ تلك هي أمور مناطة بخالق العالَم والإنسان والرابطة التي تربطهما معاً، ولهذا قيل: «لا يُعرَف العدل إلّا بالشريعة الإلهية».

بحث روائيّ

١. شأن النّزول

رُوي عَن أبي جعفر الباقر عليه السلام [أنّه قال]: **«إنّ الوليدَ بن المغيرةَ كانَ يُرْبي في الجاهِلية وَقَد بَقِيَ لَه بَقايا على ثَقيف؛ فأرادَ خالد بن الوَليد المُطالبة بِها بَعد أن**

١. سورة القمر، الآية ٤٩.

٢. سورة الرعد، الآية ٨.



أسْلَم، فنَزَلت الآية»[1].

ـ قالَ السّدي وعكرمة: نَزلت في بقيّة من الرّبا كانت للعبّاس وخالد بن الوليد وكانا شريكيْن في الجاهلية يُسلفان في الرّبا إلى بني عمرو بن عُمير، ناس من ثقيف، فجاءَ الإسلامُ ولَهما أموال عَظيمة في الرّبا؛ فأنزلَ الله هذه الآية، فقال النبيّ ﷺ: «**ألا إنّ كُلّ رِباً مِن رِبا الجاهِلِيّة مَوْضوع وَأوّلُ رِباً أضَعهُ رِبا العَبّاس بن عَبد المُطلب...**»[2].

إشارة: بالاستناد إلى الروايات المذكورة فإنّ الآيتيْن (٢٧٨) و(٢٧٩) من سورة البقرة نزلتا في خالد بن الوَليد والعبّاس بن عبد المطّلب وذلك بعد إسلامهما حيث كان قد بقيَ لهما ممّا مضى من مُعاملاتهما الربوية في الجاهلية شيءٌ منها وأرادا قبض أرباح تلك المُعاملات فنزلت الآيات الشريفة لتحرّم ذلك على المؤمنين وتُطالبهم بالكفّ عن التعامل بالرّبا وقد أسلموا.

٢. الحكم بقَتل المُرابي

قالَ الصّادق عليه السلام: «**لَئِن أمْكَنَني اللهُ مِنهُ لَأضرِبَنّ عُنُقَه**»[3].

إشارة: يمكننا تعليل كلام الإمام الصّادق عليه السلام هذا لكون الرّجل الذي يعنيه الإمام عليه السلام يحلّل حرام الله بشكل علنيّ وسافر ويتحدّى حكم الله سبحانه

---

١. **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٧٣؛ **وسائل الشيعة**، ج١٨، ص١٣١.

٢. **تفسير مجمع البيان**، ص٦٧٣ ـ ٦٧٤؛ **مُستدرك الوسائل**، ج١٣، ص٣٤٥؛ **الدرّ المنثور**، ج٢، ص١٠٧ و١٠٩، مع اختلاف طفيف.

٣. **أصول الكافي**، ج٥، ص١٤٧؛ «محمد بن يعقوب، عن عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن ابن فضال، عن ابن بكير قال: بلغَ أبا عبد الله عليه السلام عَن رجلٍ أنّه كان يأكلُ الرّبا ويُسمّيه اللباء [أول اللبن في التاج (القاموس المحيط، مادّة «لبأ»)]، فقال: لَئِن أمكنني الله منه لأضربَنّ عُنُقه». **وسائل الشيعة**، ج١٨، ص١٢٥، باب ثبوت القتل والكفر باستحلال الرّبا. [المترجم]



وأمره بتحريم الرّبا، ومن الواضح أنّ الحالة المذكورة محمولة على إنكار ضرورة من ضروريّات الدّين بشكل يُبيّن عدم إذعان الرّجل للوحي الإلهيّ ما يوجِب بالتالي تكذيب الرّسول الأعظم ﷺ ـ والعياذ بالله ـ إذ إنّ مجرّد ارتكاب معصية الرّبا لا يُمثّل جوازاً للقتل، وهذا الحكم الفقهيّ مُستَنبَط من بقيّة أحاديث الإمام الصّادق عليه السلام.

٣. توبة المُرابي الجاهل بالحكم

عَن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنّ التّوبَة مُطهّرَة مِن دَنَسِ الخَطيئَة؛ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * ... وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ فَهذا مَا دَعا اللهُ إليْه عِبادَه مِن التّوبَة وَوَعدَ عَلَيها مِن ثَوابِه؛ فَمَن خالَفَ مَا أمَرَهُ الله بِه مِن التّوبَة، سَخِطَ الله عَلَيه وَكانت النّارُ أَوْلى به وَأَحَقّ**»[١].

إشارة: لا شكّ في أنّ توبة المُرابي كفيلة بغُفران ذنوبه ودخوله في رحمة الله سبحانه واستحقاقه لثوابه، أمّا مُخالفته لأوامر الله عزّ وجلّ وعصيانه أحكامه فسيجعله مُستحقّاً لغضب الله تعالى ودخوله جهنّم خالداً فيها.

* * *

---

١. تفسير العياشي، ج١، ص١٥٣.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾

خلاصة التفسير

ينبغي على الدّائنين أن يُمهلوا المَدينين الذين اقترضوا منهم أموالاً بالرّبا ممّن كانوا من أهل العسرة أو أيّ مَدينين آخرين، فترة مناسبة لاسترداد رؤوس أموالهم حتى تُتاح لأولئك الفرصة فيتمكّنوا من تسديد تلك الدّيون، فإذا لم يستطع المَدين من إعادة ديونه أو تسديدها، فإنّ الله سبحانه يطلب من الدّائنين أن يعتبروا ذلك صدقة لهم ويتنازلوا عمّا بَقيَ لهم من الدّيون لأنّ ذلك أفضل لهم وأزكى لو كانوا يعلمون ثواب فضلهم هذا.

التفسير

المُفردات

عُسْرَةٍ: الأصل الواحد في هذه المادّة هو ما يُقابل اليُسر ـ وهو السهولة والانفراج ـ شدّة في صعوبة ومضيقة، ماديّاً أو معنوياً[1]. و﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ هو مَن كان قادراً بالفعل على تحصيل المال لكن تعذّر عليه حصوله عليه. و﴿إِنْ﴾ شرطية، و﴿كانَ﴾ فعل ماضٍ تامّ بمعنى «حَدثَ» و«وَجَدَ» وهي تكتفي بفاعلها

---

١ . التحقيق في كلمات القرآن، ج٨، ص١٢٥، مادّة (ع س ر).

كسائر الأفعال؛ أي: وإن حدث ذو عُسرة، و﴿ذُو﴾ فاعِلها وعلامة رَفعه «الواو» لأنّه من الأسماء الخمسة[١].

فَنَظِرَةٌ: «النَّظِرَة» المُهلة والفُرصة وهو اسم مصدر من «إنظار»[٢] بمعنى الانتظار ويعني الإمهال والتأخير[٣]؛ قال تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾[٤].

والنون والظاء والراء أصلٌ صحيح يرجع فروعُه إلى معنىً واحد وهو تأمُّل الشّيءِ ومعاينتُه، ثمّ يُستعار ويُتَّسَع فيه، ويقولون: نَظَرْتُه، أي انْتَظَرْتُه، وهو ذلك القياس، كأنّه يَنظر إلى الوَقتِ الذي يَأتي فيه[٥].

مَيْسَرَةٍ: «المَيْسَرَة» و«اليَسَار» عبارة عن الغنى[٦]، و«اليُسْر» ضدّ «العُسْر» وهو السّهولة والسّعة[٧]. وقال بعض المُفسّرين إنّ «مَيْسَرَة» مَصدر ميميّ بمعنى اليَسار والسّعة أو اسم زمان، أي: وقت اليَسار[٨].

---

١ . محيي الدّين الدّرويش، **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، ج١، ص٣٧٢.

٢ . «نَظَرْتُهُ أَنْظُرُهُ نَظَرًا وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ أَيْضًا أَبْصَرْتُهُ وَالْفَاعِلُ نَاظِرٌ وَالْجَمْعُ نَظَّارَةٌ وَمِنْهُ... وَنَظَرْتُ فِي الْأَمْرِ تَدَبَّرْتُ، وَأَنْظَرْتُ الدَّيْنَ بِالْأَلِفِ أَخَّرْتُهُ وَالنَّظِرَةُ مِثْلُ كَلِمَةٍ بِالْكَسْرِ اسْمٌ مِنْهُ، وَفِي التَّنْزِيلِ **﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾** أَيْ: فَتَأْخِيرٌ وَنَظَرْتُهُ الدَّيْنَ ثُلَاثِيًّا لُغَةٌ». (الفيّومي، **المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير**، ص٦١٢، مادّة «ن ظ ر»). [المترجم]

٣ . «نظَرَه: حفظه ورَعاه وأخّرَه وأمْهَلَه؛ يُقال: نَظَرَ الدّيْنَ ونَظَرَ البَيْعَ والمبيع، باعَه بِنَظِرة، وفُلاناً باعَ مِنه الشيءَ بِنَظِرة والشيءَ انتَظَره؛ يُقال: نَظَرتُ فلاناً حتّى الظهرَ، ومِنه المَثَل: (إنَّ غَداً لِناظِرِه قَريب) أي لِمُنتَظره وتوقّعه». (**المعجم الوسيط**، ص٩٣٢، مادّة «ن ظ ر»). [المترجم]

٤ . **سورة الأعراف**، الآيتان ١٤ و ١٥.

٥ . **معجم مقاييس اللغة**، ج٥، ص٤٤٤، مادّة (ن ظ ر).

٦ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٨٩٢، مادّة (ي س ر).

٧ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١٤، ص٢٤٣، مادّة (ي س ر).

٨ . محيي الدّين الدّرويش، **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، ج١، ص٣٧١.



والمُراد من «المَيْسَرة» في الآية الشريفة بدليل وجودها مع «العُسْرَة» هو أن يملك المَدين قوته وقوت عياله ويمكنه تسديد بعض أو كلّ ديونه. ويُذكَر أنّ المَيسرة هي شرط تحصيليّ وليست شرطاً حصولياً، أي إنّ المَدين مُلزَم بتهيئة المقدّمات التي تمكّنه من تسديد ديونه وذلك خلال المهلة المُقرّرة له.

تناسب الآيات

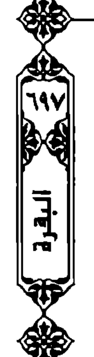
بالاستناد إلى الآيات الماضية يحقّ للمرابي أن يُطالب برأس ماله فقط وليس أرباحه، فالآية الّتي هي موضوع البحث تبيّن أنّ الحكم نافذ في حال كونِ المَدين قادراً على تسديد رأس المال وإلّا ينبغِ إعطاؤه مهملة ووقتاً كافيَيْن، وما أعظم أن يتفضّل الدائن ويعتبر الدّيْن صدقة ويتخلّى عنه، وألّا يتمّ التصرّف كما كان ذلك معمولاً به في زمن الجاهلية وحتى في الوقت الحاضر كذلك، حيث كان المَدين يسقط في حبائل الرّبا وتعقيداته إذا لم يتمكّن من تسديد الأرباح ضمن الفترة المُحدّدة له وكانت الأرباح تُضاعَف عليه كغرامة إزاء تأخّره عن سداد الأرباح.

* * *

مسؤولية الدّائن والمَدين

تُطلَق صفة «ذو العُسرة» في الفقه على الشخص الذي لا يملك ما يزيد عن نفقاته الضرورية والمعروفة له ولأُسرته لتسديد ديونه، والمقصود بنفقاته الضرورية ـ التي يتمّ استثناؤها من الدّين ـ هو الطعام واللباس والمسكن ووسيلة النّقل والخادم وما شابه ذلك ممّا يَليق بشأنه ومكانته الاجتماعية.

ويُراد من «الشّأن» في المصطلح الفقهيّ هو مَحتِد الشخص ونَسبه الأصيل وليس الشأن العارضيّ، فمَن وُلد وترعرع في أسرة متوسّطة الحال فإنّه يمتلك



شأناً ومكانة تتناسب مع أسرته تلك، ولا يجوز للمرء أن يصنع له شأناً ومكانة اجتماعية من خلال الإسراف والتّرف والطموح المُزيّف المُبالَغ فيه.

فقوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ هي جملة خَبرية بمنزلة الإنشاء وتعني أنّه إذا كان المَدين يمرّ بفترة عصيبة ويعيش في حالة اقتصادية حَرجة ﴿كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ فينبغي على الدّائِن إمهاله وإعطاؤه الوقت الكافي حتى تتيسّر أموره وتنقشع عنه غيوم الحاجة والضّيق، رغم أنّه يُستَحبّ كذلك إمهال المَدين الموسِر والغنيّ ولا يَجُب الإلحاح عليه ومطالبته بالدَّيْن، ولا ريب في أنّ ترك المَدين حُرّاً حتى تأديته لديونه يُعدّ من شمائل الدّائن وفضائله الخلقيّة النبيلة وكرامته.

وفي حال لم يتمكّن المَدين فيها من تسديد ديونه في موعدها بأيّ شكل من الأشكال فلا بدّ من مَنحه وقتاً كافياً وإلّا فلن يكون ذلك واجباً وباستطاعة الدّائِن أن يرفع شكوى إلى المحكمة الشرعية ضدّ المَدين إذا كان من أهل المماطلة والتّسويف ليأمر حاكم العدل بحبسه وهو ما قام به أمير المؤمنين علي عليه السلام[1].

وأمّا المقصود بإعطاء المهلة فهو مَنح فرصة مناسبة للمَدين ليتمكّن من تسديد ديونه وليس مهلة للحصول على الدّخل وتسديد الديون منه. وتُعطى المهلة للمَدين بعد استحقاق ديونه إلى الوقت الذي يستطيع خلاله الوقوف على قَدَمَيْه وتسديد ديونه وإن كان ذلك بالتزامن مع حلول وقت أداء الزكاة أو أخذ سهم الغارمين أو بإطلاع الحاكم حول ذلك، وبإمكان إمام الأمّة الإسلامية أداء ديون المَدين من بيت مال المسلمين إذا تأكّد له أنّه سينفقه في موارده الصحيحة.

---

١ . «مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنِ ابْنِ فَضَّالٍ عَنْ عَمَّارٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: "كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَحْبِسُ الرَّجُلَ إِذَا الْتَوَى عَلَى غُرَمَائِهِ ثُمَّ يَأْمُرُ فَيَقْسِمُ مَالَهُ بَيْنَهُمْ بِالْحِصَصِ فَإِنْ أَبَى بَاعَهُ فَيَقْسِمُ يَعْنِي مَالَهُ"». (**أصول الكافي**، ج٥، ص١٠٢؛ أنظر كذلك: **الاستبصار**، ج٣، ص٧؛ **مستدرك الوسائل**، ج١٣، ص٤٣٢). [المترجم]



إطلاق وجوب الإمهال

بالنّظر إلى الإطلاق الموجود في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ فإنّ وجوب إمهال المَدين المُعسر لا يختصّ بدَين أصل المال الرّبوي أو القَرض، بل يشمل ذلك الوجوب مُطلق الدَّيْن. فالقرض مصحوب بالإيجاب والقبول بينما يكون الدَّيْن أحياناً بإتلاف المال أو ضمن بَيع السّلم[1] في أحيان أخرى، أو يكون تارة بواسطة النسيئة أو القرض العقديّ تارة أخرى؛ إذاً، فنسبة القَرض إلى الدَّيْن تُمثّل العموم والخصوص المُطلَق والآية مُطلقة كما هو واضح، إلّا أنّها تنطبق على موضوع الرّبا وتشمل موارد أخرى غيره كذلك.

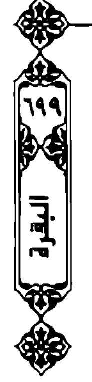
والخلاصة، ووفقاً للآيات المذكورة، إذا لم يَتُب المُرابي عن التعامل بالرّبا فإنّ المال الربويّ لا يُعتبر دَيناً أصلاً بل يُوكَل إلى أيدي المسلمين ـ بالاستناد إلى انعقاد المفهوم في جملة: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ...﴾[2] ـ فإذا تابَ [المُرابي] عندها فقط يستطيع استرداد أصل أمواله والاحتفاظ بها وعلى المَدين أن يُسدّد تلك الأموال.

وفي حال عجزَ المَدين عن تسديد أصل المال فلا يحقّ للدّائِن أن يُجبره على أداء ذلك الدَّيْن بل تقع على عاتقه مسؤوليّتان مُستحبّتان وواجبتان معاً حيال ذلك، وهما:

---

١ . «بيع السلف هو أن يَبيع الإنسانُ على غيره شيئاً كلياً في ذمّته مُؤجلاً إلى أجل مُسمّى، بثَمَن حاضر، فالسّلف من حيث حضور الثّمن وتأجيل المبيع مُعاكس للنسيئة، ويُقال له (بيع السلم) أيضاً ومن كلمة (السلم) تُؤخَذ المشتقّات الأخرى الملابسات له، فالمشتري في هذه المعاملة يُسمّى (مُسلِما) بكسر اللام، والبائِع فيها مُسلَم إليه بفتح اللام، والثّمن الحاضر فيها مُسلَم بالفتح أيضاً، والمبيع المؤَجّل مسلَم فيه بالفتح كذلك». (**كلمة التّقوى**، الشيخ محمّد أمين زين الدّين، الفصل الثالث عشر، في بيع السلف، المسألة ٣٨٥). [المترجم]

٢ . سورة البقرة، الآية ٢٧٩.



١. من اللائق أن يَهَب الدّائِن أصل دَينه إلى المَـدين كـصَدقة ولا شـكّ في أنّ هذا العمل أفضل له من استرداد ماله: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٢. إذا لم يرغب الدّائِن ببَذل ماله وجبَ عليه إعطاء مهلة للمَدين المُعوز ولا يضغط عليه ويُحرم عليه إلزامه، كما أنّه يحرم على المَدين المماطلة في تـسديد الـدَّيْن أو التّسويف فيه، بل يجب عليه السّعي والاجتهاد للحصول على المـال المطلـوب لأداء دَينه.

هذا، وليس من الواجب إمهال المَدين القادر على التسديد كـما أنّـه لا يجـب الإلحاح في مُطالبته بالدَّيْن لأنّ ذلك من حقّ الدّائِن، فكما أنّه يليق بهذا الأخير أن يَعتَدّ بالصّبر حتى يقوم المَدين من نَفسه بتـسديد الـدَّيْن، فإنّـه يجـوز لـه كـذلك المطالبة بدَيْنه. وأخيراً، فإنّ تقابل حقّ الدّائِن ومسؤولية المَدين غير المُعسر محفوظ بشكل كامل وينبغي مُراعاته.

وجوب الإمهال واستحباب التصدّق

استناداً إلى الآية الّتي هي موضوع البحث يكونُ الدّائِن مُخيّراً بـين أن يَهَـب دَينه ويتصدّق به على المَدين المُعـسر أو يـستوفيه منـه، لا بـين الإنظـار الواجـب والتصدّق المُستحبّ، فإذا لم يَختر التصدّق بدَينه عندئذ ينبغي عليه إمهال المَـدين؛ إذاً، فالأمر هنا لا يتعلّـق إطلاقـاً بترجـيح مُـستحبّ عـلى واجـب أو أن يكـون التصدّق المستحبّ أفضل من الإمهال الواجب.

ولإبراء ذمّة المَدين لا يلزم الإنشاء باللغة العربية وذِكر «الإبراء» بـل يمكـن إجراء ذلك حتى بقول كلمة «تصدّقتُ» وما شابهها باللغة الفارسية مثلاً لإبـراء ذمّة المَدين حيث يمكن استنباط هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿وَأَن تَـصَدَّقُواْ خَـيْرٌ لَّكُمْ﴾.



ويكون التصدّق إمّا بوَهْب العيْن أو بكون ذلك بحكم وَهْبها، ووفقاً لتقسيم آخر إمّا أن يشمل الوَهْب كلّ العين أو بعضها؛ وعليه، فقد يتضمّن الوَهْب أحياناً العين كلّها أو جزءاً منها وفي أحيان أخرى يشمل الوَهْب كلّ الدَّيْن أو بعضه فيما يكون ذلك تارة أخرى بحكم وَهْب العين كإمهال المَدين وقتاً أطول وهو ما يسمّى التصدّق في الإمهال، على أن يكون التصدّق في الإمهال المستحبّ لا الواجب إذ حتى لو كان المَدين موسراً وقادراً على السّداد فإنّ الإمهال يبقى أمراً مُستحبّاً.

تذكير: قد تكون الصّدقة في بعض الأحيان واجبة مثل الزّكاة المعهودة وقد تكون مستحبّة في أحيان أخرى مثل الصدقات المستحبّة المعهودة، وفي أوقات أخرى يكون التصدّق واجباً، لا أن يكون المال هو المُراد بالصّدقة نظير ما قاله البعض بشأن المال المجهول المالك. وجدير بالذّكر أنّ الإمهال الواجب بالنسبة إلى المَدين المُعسر لا يندرج في أيّ قسمٍ من الأقسام المذكورة، أمّا وجوب الإمهال فهو [أمر] توصّلي ولكن إذا قُصِد به التقرّب [إلى الله سبحانه] فإنّ ثوابه أكبر وأجره أعظم.

التأكيد على الصّدقة

يشير صدر الآية الشريفة وذيلها بعد ربط الآيات ذات الصّلة بعضها بالبعض الآخر، يشير كلّ ذلك إلى أنّ المحور الأصلي للآية الّتي هي موضوع البحث هي الدّعوة إلى التصدّق والصّدقة أمّا الموضوع الثانويّ فهو تجنّب التعامل بالرّبا والحذر منه وطرح بحث حُرمة الرّبا لإزالة العقبات عن طريق الإنفاق والتصدّق؛ ولذلك نلاحظ بأنّ الله سبحانه قد اعتبر التصدّق أمراً حسناً على الإطلاق كما في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وهو تأكيد صريح على المبدأ العامّ المتمثّل بكون الإنفاق بشكل عامّ هو خير.



وتجدر الإشارة إلى أنّ جملة ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ تشبه قوله ﷻ: ﴿وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[1]، ويمكننا استخلاص نقطتيْن مهمّتيْن من التشابه المذكور، هما:

١. كلتا الآيتين تشيران إلى أصالة الموضوع، فقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يشير إلى مبدأ الإنفاق الأصيل في النظام الاقتصادي في الإسلام، أمّا الآية الشريفة: ﴿وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ فتشير إلى التقوى الأُسريّة والاجتماعية القائمة على أركان المبدأ الأصيل ألا وهو «العَفو» في النظام الأُسريّ والاجتماعيّ.

٢. مثلما أنّ مُراعاة مبدأ العفو تُعدّ عاملةً مهمّةً في التقرّب إلى محور التقوى، فإنّ العمل بمبدأ التصدّق وتطبيقه من شأنه هو الآخر أن يكون سبباً لزرع بذور التقوى داخل كيان المرء.

العلم بإعسار المَدين وحكم التصدّق والإمهال

قلنا إنّ ذيل الآية الشريفة: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يشير إلى مبدأ الإيمان، إلّا أنّ قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ربّما يُراد به علم المُخاطَب واطّلاعه، فيكون المعنى: إن كُنتم تعلمون بأنّ نظام المجتمع والحفاظ على التعامل العاطفيّ وصيانة المودّة بين أفراد المجتمع مرهونةٌ بالعَفو والإمهال. فالإطلاق الذي تتضمّنه عبارة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ والذي يعني: لو كنتم تعلمون عُسرة المَدين وحاجته إلى إمهاله الوقت الكافي، يكون هذا الإطلاق يشمل كلًّا من العلم بالموضوع والحكم الخاصّ به معاً، لكنّ ذلك لا يعني بالطّبع أنّ مَن كان جاهلاً بالموضوع والحكم غير مُكلَّف بذلك بل هو مُكلَّف، إلّا أنّ المتوقّع من العالِم هو تطبيق ما يعلم، ومن الجاهل توقّع العلم بذلك ثمّ العمل بموجبه.

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٣٧.



ويتمثّل بيان شمول قوله تعالى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بالنسبة إلى العلم بالموضوع في كون ذَيل الآية السابقة قد أشار إلى أنّ من علامات الإيمان ترك الأرباح الربوية والتخلّي عنها: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، أمّا هذه الآية الشريفة: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فتَعتبر أنّ العمل بأمر التصدّق هو دليل على عِلم المتصدّق بعُسرة المَدين.

وأمّا ما يتعلّق بالعلم بالحكم فإنّ الآية الشريفة تبيّن لنا أنّه إذا لم نكن نعلم حتى الآن حكم التصرّف أو التعامل مع المَدين المُعسر ـ وهو التصدّق في المرحلة الأولى ثمّ الإمهال ـ فالآن اعْلَموا ذلك وتصرّفوا وفقاً له، وإذا كنّا نعلم الحكم ونعرف تفاصيله، إلّا أنّنا لم نكن نعلم حتى الآن بأنّ مَديننا هذا يمرّ بعُسرة ثمّ بعد ذلك عرفنا أنّه مُعسر، وَجَبَ علينا أن نتصرّف معه وفقاً لإنسانيّته وكرامته وأن نتعالى عن الغرور والتعنّت ونَهَبَ له دَينه الذي أضناه وأنهكه، أو نتعامل معه كأخ لنا في الدّين ونتساهل معه فنُمهله الوقت الكافي لكي يتدبّر أموره ويتمكّن من تسديد دَينه؛ إذاً، يكفي مجرّد العلم بالحكم ومعرفة ما يُعانيه الفقراء من آلام ومشاكل جمّة، وهذا كافٍ لأن يجعل الدّائنين يعملون بموجب الحكم المذكور.

إشارات ولطائف

١. أنواع الملكية الاعتبارية

تنقسم المِلكية الاعتبارية إلى عدّة أقسام، وفيما يلي بعض منها:

أ. مِلكية وليّ أمر المسلمين كامتلاكه للأنفال.

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٧٨.



ب. المِلكية الخاصة بعُموم المسلمين، مثل امتلاكهم للفَيء الذي يتمّ توزيعه وإعداده بأمر الوليّ الشرعيّ للأمّة الإسلامية، أمّا إذا كانت ولاية ذلك بيَد الناس فقد يتسبّب بالتأكيد في إثارة الهرج والمَرج. ويتمّ وضع تلك الأموال الطائلة في متناول أيدي الناس بشكل عادل وليس في عهدة منظمة أو مؤسسة خاصّة لأنّ ذلك لا ينسجم مع الهدف المقصود من وراء تلك الأموال وهو وضعها في متناول يَد المسلمين كما قلنا عَملاً بأمر الله تعالى: ﴿... **كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ**﴾[1].

وعندما يُناط أمر التصرّف بالأموال الطائلة إلى مجموعة مُعيّنة من الناس لا جميعهم فإنّ ذلك سيؤدّي إلى إيجاد هوّة كبيرة بين طبقة الفقراء وطبقة الأغنياء منهم وستقتصر عملية إدارة المسائل وتمشية الأمور على هؤلاء دون غيرهم، تماماً كما يحدث في الأنظمة الرأسمالية في الوقت الحاضر حيث تقوم شركات خاصّة كُبرى بإدارة مُعظم الشؤون الاقتصادية. وعليه، لكي لا تقع تلك الأموال بيَد الدولة أو جماعة مُعيّنة من الناس بل يقوم الناس جميعاً بإدارتها والتحكّم بها فقد أوكل الله العلي الحكيم أمر التصرّف وخيار التعامل مع «الفَيء» إلى وليّ أمر المسلمين الذي يُعدّ بالضرورة أكفأ مَن يُمكنه إقامة دعائم العدل الاجتماعيّ.

ج. المِلكية الشخصية، كالعائدات الخاصّة بالتجارة والزراعة والدواجن والصناعة في مجالات القطاع الخاصّ، الصغيرة منها والكبيرة. وجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم قد أكّد على مبدأ المِلكية الشخصية في مقابل نظرية «الخَصخَصة».

٢ . أصالة الاعتقاد لا الاقتصاد

لكي نوضّح المبدأ القائل بأنّ الأصالة هي للاعتقاد وليست للاقتصاد،

---

١ . سورة الحشر، الآية ٧.



ونبيّن الاختلافات المالية والعِلمية الموجودة وكذلك حالة الفقر الطبيعيّ والقسريّ التي يُعاني منها بعض الأفراد، لا بدّ من الإشارة أوّلاً إلى النقاط التالية:

أ. إنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي يُعيّن رزق كلّ مخلوق من مخلوقاته، فضلاً عن أنّه ﷻ هو المالك الوحيد لجميع أنواع الأرزاق المادية والظاهرية بالإضافة إلى الأرزاق والنِّعَم المعنوية كالنبوّة والرسالة والإمامة: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[١]. و«الرّزق» هو ما يُعطى من قوت للمخلوق لسدّ حاجته اليومية: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾[٢]. وقد ورد في بعض الروايات كذلك مضمون هذا الكلام بالصيغة التالية: «وَلِكُلِّ ذِي رَمَقٍ قُوتٌ»[٣]، ومن ناحية أخرى فقد حَدّد الله سبحانه وتعالى وعَيّن بالاسم مَن يأكل الحبّ ويتناول الفاكهة ويلتهم الزّرع والنّبات: «وَلِكُلِّ حَبَّةٍ آكِلٌ»[٤].

ب. إنّ امتلاك الأموال لا يمتّ إلى الكمال بأيّة صِلة وذلك على عكس العِلم والأخلاق اللذيْن يُمثّلان بحدّ ذاتهما فضيلة تفوق سائر الفضائل، ولو كان مجرّد امتلاك المال والغِنى يُمثّل الكمال بعينه لوجب على الله سبحانه أن يختار رُسله وأنبياءه من أغنياء الناس وأثريائهم، إلّا أنّ حكمته اقتضت أن يختار الأنبياء من الطبقة الفقيرة والأفراد البُسطاء من ذوي الهِمَم العالية والأخلاق الحميدة، ممّن لم يعرفوا مهنة سوى حياكة السّلال ولا صناعة سوى صناعة الدّروع ولا عملاً إلّا رَعي الغنم والماشية.

وأمّا ما كان بحوزة سيّدنا سليمان عليه السلام من مُلك عظيم وسلطان كبير فهو لتعظيم أمره وتقوية شوكته وإعداده لمواجهة مُلك (بلقيس) مَلكة سبأ في اليمن

١. سورة الزخرف، الآية ٣٢.

٢. سورة هود عليه السلام، الآية ٦.

٣و٤. **أصول الكافي**، ج٨، ص٢٢؛ **بحار الأنوار**، ج٦٨، ص٢٦٣.



ليتمكّن بعدها من القول بجرأة: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[1] وتهديدهم: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[2] إذا هم لم يمتثلوا لأوامر الله ونبيّه والدّخول في الإسلام وأصرّوا على الصدّ عن سبيل الله وخالفوا تعاليمه، والدليل على ذلك هو أنّ النبيّ سليمان عليه السلام كان يعيش عيشةً بسيطة لا تكلّف فيها ولا ترف، إذاً، فامتلاك المال أو عدمه إنّما هو للاختبار وليس علامة من علامات النّقص أو الكمال.

ج. إذا نظرنا إلى كلّ ذلك نظرة عامّة وشاملة فسندرك أنّ وجود الاختلافات المالية والعِلمية في النظام الاجتماعيّ يُعدّ في الحقيقة أمراً ضروريّاً من أجل التسخير المتقابل والمتبادل لأفراد البشر ومُختَبَراً لابتلاء الناس وامتحانهم في مختلف الظروف والحالات، فتسخير الناس من قِبَل فئة قليلة منهم هو أمر مذموم وغير جائز لأنّ من شأن ذلك أن يتسبّب في انتفاض الناس وطغيانهم وعصيانهم.

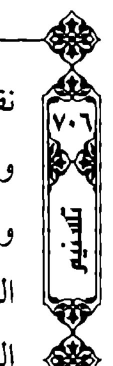
وممّا لا شكّ فيه أنّ الفقر بنوعَيْه الطبيعيّ والقسريّ يُعدّ أرضية مناسبة للمثابرة والازدهار والإبداع الإنسانيّ وهذه حالة صحيّة مرغوبة، لكنّ الفقر المرفوض هو نوع من الوقوع تحت طائلة الظلم و هو حالة مذمومة وقبيحة فيما يُعتبر تحمّله مُستَقبَح للغاية.

والخلاصة هي أنّ رؤوس الأموال مُخصّصة لأرزاق المخلوقات التي تُقَسّم عليها بتدبير الله سبحانه لذلك فإنّ كلّ ما يملكه الأغنياء من ثروة وأموال لا يُشكّل لهم أيّ نوع من أنواع الكمال كما أنّ فَقر الفقراء وعوزهم لا يعني وجود

---

١ . سورة النّمل، الآيتان ٣٠ و ٣١.

٢ . سورة النّمل، الآية ٣٧.



نقص فيهم بل إنّ هذه الاختلافات تُمثّل أسباباً للتسخير المتبادل بين المخلوقات واختباراً لهم في هذه الدنيا. ويُعتبر الإيمان والعلم معاً هدفيْن وغايتيْن للمساعي والجهود التي يبذلها أفراد البشر وبالتالي نموّ بذور التقوى فيهم وهذا هو المعيار الوحيد المقبول من لدن الله ﷻ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]؛ إذاً، فأصل الكمال يكمن في العقيدة، وما الاقتصاد سوى وسيلة للاختبار والابتلاء.

ونستنتج ممّا قيل النقاط التالية:

١. لا يمكن مُعالجة الفقر الطبيعيّ في النظام العالَميّ أو فعل أيّ شيء بشأنه، فطفولة البعض وشيخوخة البعض الآخر واعتلال جماعة من الناس وتعرّض جماعة أخرى للحوادث، كلّها أمور حتمية لا يمكن تجنّبها.

٢. إنّ الفقر الاقتصادي هو حالة غير سويّة لكن يمكن مُعالجته والقضاء عليه.

٣. إنّ الأموال والثروات اللازمة والضرورية كامنة ومودعة في أعماق الطبيعة.

٤. تلعب الإدارة الكاملة والصحيحة في الابتعاد عن الظلم وتجنّب الجَور والاتّقاء من الرّشوة والارتشاء، دوراً كبيراً وبارزاً في المجال المذكور.

٥. إنّ المثابرة والعزم على الانتاج والقناعة في الاستهلاك هما إنجازان عظيمان من الانجازات التي أتى بها الدّين الإسلامي.

٦. إنّ إدراك معنى «العدل» بالشكل الصحيح والاحتراز من الخلط بينه وبين معنى «المساواة» واكتفاء كلّ فرد بما لديه من القدرة والاستعداد والاستحقاق، كلّ ذلك يمكنه أن يكون عاملاً مساعداً في حلّ الكثير من المعضلات والمشاكل.

---

١. سورة الحجرات، الآية ١٣.



٧. إنّ كلّ النقاط المذكورة المتقدّمة مرهونة بالإيمان والعقيدة الصحيحة التي تدفع عجلة الاقتصاد إلى الأمام.

٣. اختلاف الرّبا عن الإجارة والمضاربة

تختلف ظاهرة الرّبا عن عقد الإجارة والمضاربة وليس من المنطقي القول بإمكانية استئجار النقود إذ تشير دراسة منفصلة ومستقلّة في الأحكام إلى أنّ «العَيْن» في الإجارة تتضمّن المنفعة وأنّه بإمكان المستأجر الاستفادة من تلك المنافع، وقد تتهالك العيْن أو تتقادم بسبب استمرار انتفاع المستأجر بها؛ لكنّ الصورة مختلفة تماماً في المعاملة الربوية إذ إنّ النقود المُقترضة لا تُستهلَك ولا يعتريها التقادم، بل هي عبارة عن دَيْن ولا منفعة تُرتَجى من الدَّيْن ـ كما هو معلوم ـ وحتى إذا انتج رأس المال بعض الأرباح فإنّ ذلك ناجم عن اشتغال المَدين بتلك الأموال، وهذا الاختلاف هو السبب الرئيسيّ الذي يجعل مبلغ الإجارة من حقّ المُؤجّر عند تحويل العيْن للمستأجر؛ وأمّا في الرّبا فليس الأمر كذلك فمع تسليم المال الربويّ إلى مُقترضه فإنّ المُرابي لا يحصل على ما يمكن تسميته بالعائد.

وثمّة اختلاف آخر بين الرّبا والإجارة يتمثّل في أنّه إذا تَلِفَت العيْن المؤجّرة [في معاملة الإجارة] دون تفريط المستأجر بها فلن يكون هذا الأخير ضامناً لإعادتها إلى حالتها الأولى، ولكن في حالة القرض يكونُ المَدين مُلزَماً بإعادة القرض أو النّقود إذا فُقِدَت أو ضاعت بعد استلامه لها ويكون ضامناً.

وأمّا الفرق بين الرّبا القرضيّ وبين المضاربة فإنّ على المُقتَرض في هذه الحالة العمل والاشتغال وليس على المُرابي سوى استحصال الأرباح والعوائد الخالصة، ولا يهمّ ما إذا كان المُقترض سيحصل على شيء من الأرباح أو المنافع



أم لا؛ أمّا في المضاربة فعندما ينتج رأس المال أرباحاً فإنّ كلا الطرفيْن شريكان في الأرباح وفقاً للعقد المكتوب بينهم، وإذا لم ينتج رأس المال أيّ ربح فلا يحقّ للمُقرِض مطالبة المُقترض بأيّ شيء سوى رأس ماله.

تذكير: قد يقول البعض «إنّما المُضاربَة كالرّبا» وذلك إمّا لجهلهم بالأحكام المستقلّة الخاصّة بالمضاربة والرّبا من جهة أو لعدم معرفتهم بالأسرار الكامنة في الشريعة بشأن المضاربة والرّبا من جهة أخرى، كما قال الماضون من قَبل: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾، إلّا أنّ ذلك ـ مثلما ذكرنا ـ ناجم عن جهل الفرق النهائيّ والكامن في كلتا المعاملتيْن.

٤. كلام الغزالي في «الرّبا»

قال الغزالي:

«مِن نِعَم الله تعالى خَلق الدّراهم والدنانير وبهما قوام الدّنيا... يُضطرّ الخلق إليهما من حيث إنّ كلّ إنسان مُحتاج إلى أعيان كثيرة في مَطعمه وملبسه وسائر حاجاته وقد يعجز عمّا يحتاج إليه ويملك ما يستغني عنه، كمَن يملك الزّعفران مثلاً وهو مُحتاج إلى جملٍ يركبه، ومن يملك الجمل ربّما يستغني عنه ويحتاج إلى الزعفران، فلا بدّ بينهما من معاوضة ولا بدّ في مقدار العوض من تقدير إذ لا يبذل صاحب الجمل جَمَله بكلّ مقدار من الزعفران... فهذه الأشياء لا تتناسب فيها فلا يُدرى أنّ الجمل كم يسوى بالزعفران فتتعذّر المعاملات جداً، فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها يحكم بينهما بحكم عدل فيُعرف من كلّ واحد رتبته ومنزلته حتى إذا تقرّرت المنازل وترتّبت الرّتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي، فخلق



الله تعالى الدنانير والدراهم حاكميْن ومتوسطيْن بين سائر الأموال حتى تقدّر الأموال بهما... وإنّما أمكن التعديل بالنقديْن إذ لا غرض في أعيانهما ولو كان في أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حقّ صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حقّ مَن لا غرض له فلا ينتظم الأمر فإذن خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدي... ولحكمة أخرى وهي التوسل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان في أنفسهما... فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كلّ غرض... فكلّ مَن عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفرَ نعمة الله تعالى فيهما، فإذن من كَنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين فى سجن يمتنع عليه الحكم بسببه لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الدراهم والدنانير»[1].

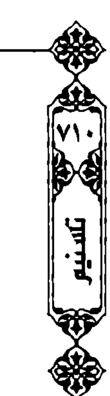
وأمّا العلّامة الطباطبائيّ ﵀ فقد قال [مُعلّقاً على ما ذكره الغزاليّ في «إحياء علوم الدّين»][2]:

«وقد اشتبه عليه الأمر [أي الغزاليّ] في اعتبار أصلهما والفروع التي فرّعها على ذلك: أمّا **أوّلاً**: فإنّه ذكر أن لا غرض يتعلّق بهما في أنفسهما، ولو كان كذلك لم يمكن أن يقدّرا غيرهما من الأمتعة والحوائج، وكيف يجوز أن يقدّر شيء شيئاً بِما ليس فيه؟ وهل يمكن أن يقدّر الذّراع طول شيء إلّا بالطول الذي له؟ أو يقدّر المَنّ ثقل شيء إلّا بثقله الذي فيه؟ على أنّ اعترافه

---

١ . **إحياء علوم الدين**، ج٤، «كتاب الشكر»، ص٩١.

٢ . الزيادة بين المعقوفيْن من المترجم.



بكونهما عزيزيْن في نفسهما لا يَستقيم إلّا بكونهما مقصوديْن لأنفسهما، وكيف يتصوّر عزّة وكرامة من غير مطلوبية، على أنّهما لو لم يكونا إلّا مقصوديْن لغيرهما بالخلقة لم يكن فَرق بين الدينار والدّرهم، أعني الذّهب والفضّة في الاعتبار، والواقع يكذّب ذلك، ولكان جميع أنواع النقود متساوية القيم، ولم يقع الاعتبار على غيرهما من الامتعة كالجلد والملح وغيرهما. وأمّا ثانياً: فلأنّ الحكمة المقتضية لحرمة الكنز ليس هي إعطاء المقصودية بالاستقلال لهما، بل ما يظهر من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ من تحريم الفقراء عن الارتزاق بهما مع قيام الحاجة إلى العمل والمبادلة دائماً... وأمّا ثالثاً: فلأنّ ما ذكره من الوجه في تحريم اتخاذ آنية الذهب والفضة وكونه ظلماً وكفراً موجود في اتخاذ الحليّ منهما، وكذا في بيع الصرف، ولم يعدّا في الشرع ظلماً وكفراً ولا حراماً. وأمّا رابعاً: فلأنّ ما ذكر من المفسدة لو كان مُوجباً لِما ذكره من الظلم والكفر بالنعمة لجرى في مطلق الصّرف كما يجري في المعاملة الربوية بالنسيئة والقرض، ولم يجرِ في الرّبا الذي في المكيل والموزون مع أنّ الحكم واحد، فما ذكره غير تامّ جمعاً ومنعاً»[1].

ويبدو أنّ الغزالي أراد بما قال بيان الحكمة وراء تحريم الرّبا وأنّه لا يمكن كشف أسرار الخطوط العامّة للدّين إلّا بمساعدة القرآن الكريم والروايات معاً، وأمّا ما يتعلّق بفروع الدّين فمن غير الممكن على الآخرين فهم وإدراك حكمة الحُكم باستثناء المعصومين عليهم السلام، والمعيار في القوانين الاجتماعية كذلك هو النسبة الغالبة وليس نسبة مِائةٍ في المِائَةِ، مَثل ذلك كمَثل القضايا العقلية التي

١. أنظر: تفسير الميزان، ج٢، ص٤٣١.



تدور حول محور اليقين. ولمّا كانت حكمة الأحكام تميل إلى الغالبية لا إلى نسبة المِائَة في المِائَةِ ما مكنت الإشارة إلى حكمة الحكم الذي لا يُقابل ناقض ما. على سبيل المثال نقول إنّ العلّة في تحريم الخمر هو الإسكار وتُعتبر هذه العلّة المفسدة التي تحملها الخَمْرَة بكلّ أنواعها، حتى قطرة الخمر الواحدة تُعتبر محرّمة رغم أنّها قد لا تكون مُسكِرة إلّا أنّ تحريمها يأتي بسبب أنّها غالباً (وليس دائماً) ما تكون تلك القطرة مقدّمة لإدمان الخمر وشُربها؛ إذاً، فتحريم قطرة الخمر ليس لكونها مُسكرة (وهي ليست كذلك بالطّبع) لأنّ تلك العلّة هي مفسدة غالبة، بل لوجود رواية دلّت على تحريمها وكذلك القاعدة المعروفة: «وما أسكرَ كثيره فقَليله حَرام»[1].

وتأتي علّة تحريم الرّبا أيضاً لكونه عبارة عن أكل مال الآخرين بالباطل وهذه هي علّة غالبة كذلك ما يجعل من الدّرهم الربويّ الواحد حراماً أيضاً، فالمُرابي إذاً هو ظالم مُبين تجرّأ على ضمّ أموال الناس إلى أمواله.

وهكذا، فإنّ الإشكالات والنّقوض على كلام الغزالي لا يمكنها لوحدها أن تفنّد علّة الحكم إذ إنّ حكمة الأحكام غالبية وهي عادة ما تحمل في طيّاتها موارد للنّقض.

بحث روائيّ

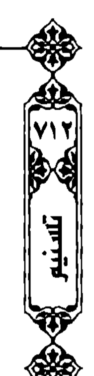
١ . حدّ الإعسار

رُوِيَ عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**هُو إذا لَم يَقدِر على ما يَفضل مِن قُوتِه وقُوت عِياله على الاقتِصاد**»[2].

---

١ . أصول الكافي، ج٦، ص٤١٥؛ وسائل الشيعة، ج٢٥، ص٣٣٧.

٢ . تفسير مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٦٧٥.



إشارة: ليس المقصود بالقوت هو الطعام خاصّة بل ويشمل كذلك اللباس والدّواء ومخارج السّكن وما شابه ذلك.

٢. وجوب إمهال المُعسر

«**وَهُوَ وَاجِبٌ فِي كُلِّ دَيْنٍ...**» وهو المَرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام[1].

إشارة: في وجوب إنظار المعسر ثلاثة أقوال، أحدها: أنّه واجبٌ في كلّ دَيْن (عن ابن عباس والضحاك والحسن عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام)؛ وثانيها: أنّه واجبٌ في دَيْن الرّبا خاصة (عن شُرَيْح وإبراهيم النخعي)؛ وثالثها: أنّه واجبٌ في دَين الرّبا وفي كلّ دَيْن بالقياس عليه[2].

٣. وليّ أمر المسلمين وتسديد ديون المُعسرين

قال الباقر عليه السلام: «**﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾، معناه إلى أن يَبلغَ خَبَره الإمام، فَيَقضي عَنه مِن سهم الغارمين إذا كان أنفقه في المعروف**»[3].

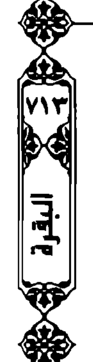
ـ سألَ الرّضا عليه السلام رجلٌ وأنا أسمع، فقال له: جُعِلتُ فِداك، إنّ الله عزّ وجلّ يَقول: ﴿**وإنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ**﴾؛ أخبرني عن هذه «النَّظِرَة» التي ذكرها الله عزّ وجلّ في كتابه، لها حدّ يُعْرَف إذا صارَ هذا المُعْسِر إليه لا بدّ لَه مِن أن يَنتظر وقد أخذَ مالَ هذا الرّجل وأنفقه على عِياله، وليس لَه غلّة يَنتظر إدراكها، ولا دَيْن ينتظر محلّه، ولا مال غائبٍ ينتظر قدومه؟ قال عليه السلام: «**نَعم، يَنتظر بِقَدر ما يَنتهي خَبَره إلى الإمام، فَيقضي عَنه ما عليه من الدّيْن من سهم الغارمين، إذا**

---

١. تفسير **مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٧٦.

٢. المصدر السابق، ص٦٧٥.

٣. المصدر السابق، ص٦٧٦.



كانَ أنفقه في طاعة الله ﷻ؛ فإنْ كانَ أنْفَقه في مَعصية الله ﷻ فَلا شَيء لَه على الإمام». قلتُ: فَما لِهذا الرّجل الذي ائْتَمَنه وهو لا يَعلم فِيما أنْفَقه؛ في طاعة الله أم في مَعصيته؟ قال عليه السلام: «**يسعى لَه في مالِه فيردّه عليه وهو صاغِر**»[1].

إشارة: ورد في روايات أخرى أنّ مَثَل مَن سعى إلى الحصول على المال والرّزق الحلال ليضمن قوته وقوت عياله وحفظ كرامته كمَثَل المجاهد في سبيل الله تعالى، وأنّ عليه الاقتراض عند غَلاء المعيشة ليسدّده إذا ما تيسّرت أحواله وتحسّنت ظروفه، وإذا عجز عن تسديد ديونه فإنّ الله سبحانه كفيل بتفريج كُربته وعلى وليّ الأمر في النظام الإسلاميّ أن يقوم بتسديد ديونه نيابة عنه لأنّ الله ﷻ قد عيّنَ سهماً ونصيباً في الصّدقات للفقير والمسكين والمَدين الذي لا يقدر على تسديد دَيْنه[2].

---

١ . **أصول الكافي**، ج٥، ص٩٣؛ **وسائل الشيعة**، ج١٨، ص٣٣٦.

٢ . «عن سعيد بن المسيب عن عائشة أنّها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "ما مِن غَريم ذَهبَ بِغَريمه إلى والٍ مِن وُلاة المسلمين واستبانَ للوالي عُسرته إلّا بَرِئَ هذا المُعسر مِن دَيْنه وصار دَيْنه على والي المسلمينَ فيما في يَدَيْه مِن أموال المسلمين... ومَن كانَ له على رَجل مال أخذَه ولم يُنفقه في إسراف أو في مَعصية فَعُسر عليه أن يَقضيه فَعلى مَن له المال أن يَنظره حتى يَرزقه الله فيقضيه وإن كانَ الإمام العادل قائماً فَعَليه أن يَقضي عَنه دَيْنه... [و] مَن تَركَ مالاً فَلورثته ومَن تركَ دَيْناً أو ضياعاً فعلى الإمام ما ضَمنه الرّسول، وإن كان صاحب المال مُوسراً تصدّق بماله عليه أو تَركه فهو خَيرٌ له"». (**تفسير القمي**، ج١، ص٩٤)؛ «عن الوليد بن صبيح قال: جاءَ رجل إلى أبي عبد الله عليه السلام يدّعي على المعلى بن خنيس دَيْناً عليه، وقال: ذهبَ بِحَقّي. فقال أبو عبد الله عليه السلام: "ذهبَ بحقّكَ الذي قَتَله". ثمّ قالَ للوليد: "قُم إلى الرّجل فاقْضِه مِن حَقّه فإني أُريد أن أبرد عليه جِلده الذي كانَ بارداً"» و«عن موسى بن بكر قال: قال لي أبو الحسن عليه السلام: "مَن طلبَ هذا الرّزق مِن حلّه ليَعود به على نَفسه وعِياله كانَ كالمجاهد في سبيل الله، فإن غلب عليه فليَسْتَدن على الله وعلى رسوله ﷺ ما يَقوت به عياله، فإن ماتَ ولم يَقضه كانَ على الإمام قضاؤه، فإن لم يَقضه كان عليه وزره، إنّ الله ﷻ يقول: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا**﴾ إلى قوله: ﴿**وَالْغَارِمِينَ**﴾ فهو فقير مسكين مغرم"». (**وسائل الشيعة**، ج١٨، ص٣٣٥ ـ ٣٣٦). [المترجم]



٤ . كراهة الاقتراض دون حاجة

قالَ الإمام علي عليه السلام : «إيّاكم والدَّين فإنّهُ مَذَلّة بِالنّهارِ وَمهمّة بِاللّيلِ وَقَضاء في الدّنيا وَقَضاء في الآخِرَة»[1].

إشارة: تبيّن هذه المواعظ الخلقيّة أنّ الحياة الطيّبة للإنسان تتمثّل في قناعته بما يملك وهو ما يدلّ عليه كلام أمير المؤمنين عليه السلام[2].[3]

٥ . ضرورة الحرص على تسديد الدَّيْن

عَن أبي جعفر عليه السلام ، أنّه قال: «مَن حَبسَ حقّ امرئ مُسلم وهو يَقدر على أن يُعطيه إيّاه مَخافة أنّه إن خرجَ ذلك الحقّ مِن يَده أن يَفتقر كان الله عزّ وجلّ أقدرَ على أن يُفقره مِنه على أن يُغني نَفسه بحَبس ذلك الحقّ»[4].

ـ عَن جعفر بن محمّد عن آبائه عليهم السلام عَن النبيّ صلى الله عليه وآله في حديث المَناهي أنّه قال: «وَمَن مَطل على ذِي حقّ حَقّه وهو يَقدر على أداءِ حَقّه فَعَليه كلّ يَوم خَطيئة عشّار»[5].

---

١ . أصول الكافي، ج٥، ص٩٥؛ وسائل الشيعة، ج١٨، ص٣٣٥ ـ ٣٣٦.

٢ . «وقَالَ عليه السلام: كَفَى بِالْقَنَاعَةِ مُلْكاً وبِحُسْنِ الْخُلُقِ نَعِيماً؛ وسُئِلَ عليه السلام عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾ فَقَالَ: هِيَ الْقَنَاعَةُ». (نهج البلاغة، الحكمة رقم «٢٢٩»)؛ أنظر كذلك: بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٤٥.

٣ . «نَالَ الْغِنَى مَنْ رُزِقَ الْيَأْسَ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَالْقَنَاعَةَ بِمَا أُوتِيَ وَالرِّضَا بِالْقَضَاءِ»؛ «الْزَمِ السُّكُوتَ وَاصْبِرْ عَلَى الْقَنَاعَةِ بِأَيْسَرِ الْقُوتِ تَعِزَّ فِي دُنْيَاكَ وَتَعِزَّ فِي أُخْرَاكَ»؛ «ذَلِّلْ نَفْسَكَ بِالطَّاعَةِ وَحَلِّهَا بِالْقَنَاعَةِ وَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ». (الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، الأحاديث: ١٨٤٥، ٤٢٥١، ٤٧١٩ على التوالي). [المترجم]

٤ . من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص١٨٤؛ وسائل الشيعة، ج١٨، ص٣٣١ ـ ٣٣٢.

٥ . وسائل الشيعة، ج١٨، ص٣٣٣.

ـ عَن الرّضا عن آبائه عليهم السلام، عن علي عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **لَيُّ الواجِد بالدَّيْن يُحلّ عرضه وعُقوبته ما لَم يَكن دَيْنه فيما يَكره الله عزّ وجلّ**»[1].

ـ عَن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قالَ النبيّ صلى الله عليه وآله: **ألف دِرهم أقرضها مرّتيْن أحَبّ إليّ مِن أن أتَصدّق بها مَرّة، وَكما لا يَحلّ لِغريمكَ أن يَمطلك وهو مُوسر، فَكذلك لا يَحلّ لكَ أن تُعسره إذا علمتَ أنّه مُعسر**»[2].

ـ عَن معاوية بن وهب قال: قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: إنّه ذكرَ لنا أنّ رجلاً من الأنصار ماتَ وعليه ديناران دَيناً، فَلم يُصلِّ عليه النبيّ صلى الله عليه وآله وقال: «**صَلّوا على صاحِبِكم حتّى ضَمنهما عَنه بَعض قَرابَته**». فقال أبو عبد الله عليه السلام: «**ذلكَ الحقّ**»؛ ثمّ قالَ: «**إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله إنّما فعلَ ذلكَ ليتّعظوا وليردّ بعضهم على بعض ولئلّا يَستخفّوا بالدَّيْن وقد ماتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وعليه دَيْن وقُتِل أمير المؤمنين عليه السلام وعَليه دَيْن وماتَ الحسن عليه السلام وعليه دَيْن وقُتِل الحسين عليه السلام وَعَليه دَيْن**»[3].

إشارة: أ. رغم أنّ الحديث الثاني لم يذكر «الدَّيْن» بصراحة إلّا أنّه بالتأكيد يشمل الدَّيْن وسائر الحقوق المالية والخلقيّة الأخرى، فهذه الرواية تشير إلى المَدين القادر على تسديد دَينه إلى دائِنه لكنّه يُماطل في ذلك ويسوّف فيه. وقد بيّنت الرواية أنّ جزاء مثل هذا الشخص وعقوبته عن كلّ يوم تأخير هي خطيئة العشّار[4] الظّلوم الذي يجبي الأموال أو الضرائب التي تُفرَض على الناس عُنوة،

---

١ . المصدر السابق، ص٣٣٣ ـ ٣٣٤؛ راجع أيضاً: **الأمالي للطوسي**، ص٥٢٠.

٢ . **وسائل الشيعة**، ج١٨، ص٣٣٤، **تهذيب الأحكام**، ج٦، ص١٩٣.

٣ . **أصول الكافي**، ج٥، ص٩٣؛ **وسائل الشيعة**، ج١٨، ص٣١٩.

٤ . «وفي الحديث: إن لَقِيتم عاشِراً فاقتُلُوه؛ أي إن وجدتم مَن يأْخذ العُشْر على ما كان يأخذه أهل الجاهلية مقيماً على دِينه، فاقتلوه لكُفْرِه أو لاستحلاله لذلك إن كان مسلماً وأَخَذَه مستحلًّا وتاركاً فرض الله». (لسان العرب، مادّة «عشر»). [المترجم]



أيّ إنّه مجرم مثل العشّار. وورد في حديث آخر مَرويّ عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «مَطلُ الغنيّ ظُلْم»[1] أي إنّ مَن كان قادراً على تسديد دَيْنه لكنّه يصرّ على المماطلة والتسويف فإنّه ظالم.

ب. المقصود بـ«اللَّيّ» ـ بالفَتح ـ الوارد في الحديث الثالث هو المَطْل والتسويف في الدِّيْن وغيره، واستناداً إلى هذه الرواية فإنّ المماطلة في أداء الدَّيْن أو تسديده تؤدّي إلى فَضح المَدين واستحقاقه للعقاب ورفع الشكوى ضدّه ما قد يُجيز سجَنه كذلك، وهذا كلّه بالطّبع يخصّ حالة المَدين الذي لم يصرف ماله فيما يُكره أو في النّواهي والمعاصي.

ج. يُعتبر الحديث الرابع جامعاً وشاملاً مقارنة بالروايات الأخرى حيث تمّ فيه ـ بعد بيان أفضلية القَرض على الصّدقة ـ تحديد مسؤولية المَدين الموسر وأنّه لا يجوز له المماطلة في تسديد الديْن وفي الوقت نفسه طُلِبَ من الدّائِن إمهال المَدين الوقت الكافي للتسديد إذا كان مُعسراً بالفعل، وكما أنّه لا يجوز للمَدين الموسر المماطلة أو التأخير في تسديد الدّيْن فإنّه لا ينبغي للدّائِن التضييق على المَدين المُعسر خصوصاً إذا كان عالماً بعُسره.

٦. ثواب إمهال المُعسر والتصدّق بالدّيْن

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**صَعَدَ رَسول الله ﷺ المنبرَ ذاتَ يوم؛ فَحَمِد الله وأثنى عليه وصلّى على أنبيائه (صلّى الله عليهم)؛ ثمّ قال: أيّها النّاس! لِيُبلغ الشّاهدُ مِنكم الغائبَ، ألا وَمَن أنظرَ مُعسراً كانَ له على الله عزّ وجلّ في كلّ يَوم صَدَقة بِمِثل مالِه حتّى يَستوفيه**»؛ ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: «**﴿وَإنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ وَأن تَصَدَّقُوا خَيرٌ لكُم إنْ كُنْتُم تَعْلَمُون﴾ أنّهُ مُعسِر فَتَصَدّقوا عليه**

---

١. وسائل الشيعة، ج١٨، ص٣٣٣؛ من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٨٠.



بمالِكم [عليه] فَهُو خَيْرٌ لَكُم»[1].

ـ عَن معاوية بن عمّار الدّهني قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: مَن أرادَ أنْ يُظلّه الله في ظِلّ عَرْشه يَومَ لا ظِلّ إلّا ظِلّه فَلْيَنظُر مُعْسراً أو لِيَدع لَه مِن حَقّه»[2].

ـ عَن أبي عبد الله عليه السلام قال: «خَلّوا سَبيلَ المُعسِر كَما خَلّاه الله عزّ وجلّ»[3].

ـ عَن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله قالَ في يَومٍ حارّ وَحَنا كَفّه: مَن أحَبّ أن يَستَظِلّ مِن فَور جَهنّم؟ قالَها ثَلاث مَرّات؛ فقالَ النّاسُ في كلّ مَرّة: نَحنُ يا رَسولَ الله! فقال: مَن أَنْظرَ غَريماً أو تَركَ المُعسر...»[4].

ـ عَن أبي جعفر عليه السلام قالَ: «يَبعثُ الله قَوْماً مِن تَحتِ العَرْشِ يَومَ القِيامَة وُجوهُهم مِن نورٍ وَلِباسهم مِن نورٍ وَرياشهم مِن نورٍ، جُلوسٌ على كَراسيّ مِن نور. قال: فَيشرفُ الله لهم على الخلقِ فَيقولون: هؤُلاءِ الأنبياء؛ فَينادي مُنادٍ مِن تَحت العَرشِ: هؤُلاءِ لَيسوا بأنْبياء. قال: فيَقولون: هؤلاءِ شُهَداء؟ قال: فَينادي مُنادٍ مِن تحتِ العَرش: لَيس هؤُلاء شُهداء، وَلكن هؤُلاء قَومٌ ييسرون على المؤمنين وينظرونَ المُعسِر حتّى يَيسر»[5].

إشارة: لاحظ أنّ كلّ رواية من الروايات المذكورة تشير إلى ثواب إمهال المَدين المُعسر أو التصدّق عليه بالدّيْن وأجر الدّائِن عند الله سبحانه لكن بعبارات خاصّة تشجّع جميعها المؤمنين على ذينك العمليْن الحَسنَيْن.

* * *

---

١ . أصول الكافي، ج٤، ص٣٥ ـ ٣٦.

٢ . تفسير العياشي، ج١، ص١٥٣.

٣و٤ . أصول الكافي، ج٤، ص٣٥.

٥ . تفسير العياشي، ج١، ص١٥٤.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٨١)

خلاصة التفسير

يُحذِّر الله سبحانه في هذه الآية الشريفة المُرابين من أهوال يوم القيامة ومخاطرها حيث يُرجَعون إليه ليُرِيَهم حقيقة أعمالهم التي قاموا بها في هذه الدّنيا، وسيأخذ كلّ إنسان في ذلك اليوم العصيب أجره كاملاً ولن يُظلَم من الخلق أحد أبداً، فلا يُنقَص من ثواب حسنات المرء شيء ولا يُزاد على عقابه شيء كذلك، وكلّ إنسانٍ يأخذ ما استحقّ من الثواب أو العقاب العادليْن.

التفسير

المُفردات

تُرْجَعُونَ: من «رَجَعَ»؛ الأصل الواحد في هذه المادّة هو العَود إلى ما كان عليه من قَبل، مكاناً أو صفة أو حالاً أو عَملاً أو قَوْلاً[١]، ولذا، ترى التعبير في هذا المقام بصيغة المتعدّي المجهول، وهذا بخلاف الرّجوع إلى الحقّ في حياتهم الدنيوية وهذه الصيغة معلوماً وللفاعل[٢]؛ وقد وردت كلتا الصيغتينِ في القرآن

---

١ . التحقيق في كلمات القرآن، ج٤، ص٦١، مادّة (رج ع).

٢ . المصدر نفسه، ص٦٩، ـ بتصرّف.

الكريم في العديد من آياته مثل قوله تعالى بصيغة اللازم: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾[1] وبصيغة المتعدّي كما في قوله سبحانه: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾[2].

والقراءة المشهورة في هذه الآية الشريفة أيضاً هي: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بصيغة المجهول والمتعدّي معاً.

تُوَفَّى: توفية الشيء: بَذْلُه وافِياً، واستيفاؤُه: تَناوُلُه وافِياً[3].

تناسب الآيات

تمّ في الآيات القرآنية الماضية بيان حكم التحريم المُشدّد للرّبا إلى جانب بعض العقوبات التي تنتظر المُرابين وخاصّة خلودهم في نار جهنّم؛ أمّا الآن، وبعد انتهاء الآيات المتعلّقة بالرّبا، شاءَ الله سبحانه أن يذكّر العباد بشكل عامّ بيَوم القيامة وذكر شيء ممّا يتّصف به ذلك اليوم الرهيب داعياً المؤمنين إلى فَتح أبواب قلوبهم لتقبّل التقوى ومُراعاة الحقوق المالية، حيث يتناسب ذلك مع هذا المقام بشكل كامل.

* * *

الإنذار بالعذاب

يعمد القرآن الكريم في بعض الحالات إلى تحذير الإنسان من وقت أُزوف

---

١ . سورة المنافقون، الآية ٨.

٢ . سورة التوبة، الآية ٨٣.

٣ . مفردات ألفاظ القرآن، ص٨٧٨، مادّة «و ف ي»؛ أنظر كذلك: تفسير تسنيم، المجلّد الحالي، ذيل الآية الشريفة «٢٧٢».



العذاب فيقول: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾[١] أو ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾[٢]، وفي بعض الأحيان يُخيفه من مكان وقوع العذاب وجهنّم وصورها: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾[٣] أو من وسائل العذاب وآلات التعذيب: ﴿وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[٤] وتارة يُنبّهه إلى ضرورة خشيته تعالى في جميع حركاته وسكناته باعتباره ﷻ الفاعل الحقيقيّ للعذاب مثل قوله سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[٥]؛ إذاً، فكلمة ﴿يَوْمًا﴾ في الآية الكريمة الّتي هي موضوع البحث ليست ظرفاً أي مفعولاً فيه بل هي مفعول به مسامحة أي منصوب بنزع الخافض أي: من يومٍ، أي: «اخشَوا يومَ العَذاب وخافوه» وليس معناها «اتّقوا الله في ذلك اليوم»؛ وأمّا ورود كلمة ﴿يَوْمًا﴾ بصيغة النّكرة فلبيان شدّة ذلك اليوم العصيب والمَهول.

سرّ الرّجوع يوم القيامة

يشتمل الموجود البسيط غير المحدود على جميع الأسماء الحسنى عَينها معاً، فالمبدأ والمعاد والبَدء والرّجوع والسّفر والحضر والدّنيا والآخرة، كلّ ذلك متعلّق بالإنسان وغيره من المخلوقات حيث تختلف أحوالها وتتباين جواهرها، لكنّ البدء والعَود وما شابههما يُعتبران أمراً وشيئاً واحداً بالنسبة إلى الله تعالى الذي تكون أُولاه عَين أُخراه وظاهره عَين باطنه وهكذا، فإنّ اختلاف الظهور إنّما يكون بسبب اختلاف المظهر وليس الظاهر.

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٨١.
٢ . سورة المزمّل، الآية ١٧.
٣ . سورة النّبأ، الآية ٢١.
٤ . سورة آل عمران، الآية ١٣١.
٥ . سورة التّغابن، الآية ١٦.



فالرّجوع إذاً هو لشهود الإنسان وعِلمه لأنّه لا مكان للغيبة عند الله سبحانه حتى يكون هناك عَوْد، فالإنسان حاضر أمام الله أينما كان وذاته الأحدية ليست غائبة عنه أبداً كما أنّ الإنسان كذلك ليس غائباً عن الله ﷻ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1] و﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[2]. وهكذا نرى أنّ الإنسان مشهود للحقّ تعالى بشكل كامل وأنّ الذات الإلهية المقدّسة معه ومشهودة له أينما كان، فالإنسان يرى الله ﷻ قبل رؤيته للأشياء من حوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[3]، لكنّما هو الشيطان الذي أنساه ربّه.

هذا، ويكمن الفرق بين الدنيا والآخرة في أنّنا في هذه الدّنيا غافلون عن شهود الله سبحانه قبل أيّ شيء آخر ومحجوبون عنه، أمّا في الآخرة فسيزول عن أعيننا كلّ حجاب وسيُزاح عنها كلّ سِتار فيظهر الحقّ بشكله الكامل؛ فنحن اليوم غافلون وغداً سيكون ﷻ مشهوداً ونحن نكون من الشاهدين: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[4].

بقاء العمل وخلوده

قضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يُعطي كلّ مخلوق حقّه واستحقاقه كاملاً غير منقوص: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾، فما يفعله الإنسان في هذه الدّنيا يُمثّل معيار ما سيحصل عليه من الثواب أو ما سيواجهه من العقاب في

---

١ . سورة الحديد، الآية ٤.
٢ . سورة يونس عليه السلام، الآية ٦١.
٣ . سورة فصّلت، الآية ٥٣.
٤ . سورة ق، الآية ٢٢.

الآخرة، وعادة ما يُطلَق على ذلك اسم «العمل» مثل قوله تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾[١] وأحياناً أخرى يُسمّى «كَسباً»: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾[٢]، أمّا نتيجة ذلك العمل أو الكَسب فيُدعى في بعض الأحيان «أجراً»: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾[٣] وفي أحيان أخرى تُطلَق كلمة «دِين» على مجموع العقائد والخُلُق والأعمال: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾[٤].

والفعل لا يفنى ولا يزول ـ سواء سُميَ بالعمل أم الكسب ـ بل يظلّ قوامه ومَتنه موجوداً وباقياً لأنّ (التوفية) تُفيد بقاء العمل وخلوده أللّهمّ إلّا إذا اعتبرنا أنّ معنى التوفية المُطلقة عليه إنّما هو معنىً مجازيٌّ؛ لكن، لمّا كان الأجر كذلك أي موصوفاً بالتوفية وكان الأجر مُختلفاً ومتنوّعاً في المعاد وليس على شكل أو صورة واحدة، يتبيّن لنا أنّ الأجر هو عَين العمل وهذا الأخير هو عَين الأجر، والمعروف أنّ مَتن العمل في كلّ نشأة يكون متناسباً مع تلك النشأة.

توفية الحَسنات والسيّئات

يختلف معنى الفعل «يتوفّى» عند استخدامه مع (الحَسنات) أو مع (السيّئات)، ففيما يتعلّق بالحسنات يكون المعنى هو الأداء الكامل للأجر وإيفائه دون نقصان، بل وقد يزيده الله تعالى من فضله ويكثّره: ﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[٥]، ولكن في حال (السيّئات) يكون المعنى عدم زيادة شيء على عذاب المجرمين وعقوبتهم فهم الذين اختاروا عقوبتهم هذه، وإن كان المؤمَّل

---

١. سورة النّحل، الآية ١١١.
٢. سورة آل عمران، الآية ١٦١.
٣. سورة آل عمران، الآية ٥٧.
٤. سورة النّور، الآية ٢٥.
٥. سورة ق، الآية ٣٥.



أن يعفو الله الرّحمن الرحيم عن كثير من سيّئاتنا ويغفر لنا المزيد من خطيئاتنا: ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[1]، إذاً، فالله سبحانه وتعالى لا ينقص من أجر الحسنات بل يزيده أضعافاً مضاعفة: ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا...﴾[2] ولا يرفع من عقوبة السيّئات بل يُرجى أن يرحم ويتفضّل بغفرانها: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾[3].

وتجدر الإشارة إلى أنّ عبارة ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ تُمثّل عطف تفسير لجملة ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾، أي إنّ أحداً لن يُظلَم في الآخرة ولن يُبخَس حقّه، فلن يُنقص لا من الحسنات والثواب الذي أحرزه المُطيع لله ولرسوله، ولن يُزاد على عقوبة العاصي أكثر ممّا استحقّه، أمّا العقابُ والعذابُ اللذان وقعا على العُصاة وتوجّب عليهم تحمّلها فإنّه ظلم استمرأه هؤلاء العصاة لأنفسهم ورَضوا بالذلّ والهوان اللّذين هم فيهما: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[4] فالله سبحانه وتعالى حاشا له أن يظلم أحداً لأنّه هو مَن استقبح الظلم ولم يَرض به، والظلم لا يصدر من ربّ حكيم وعادل، وهذا هو مذهب (العَدليّة)[5]، أمّا الأشاعرة فيقولون إنّ الله ﷻ لا يظلم لأنّ كلّ ما يفعله ليس

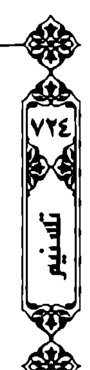
١ . سورة الشورى، الآية ٣٠.

٢ . سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

٣ . سورة النساء، الآية ٤٨.

٤ . سورة النّحل، الآية ٣٣.

٥ . «وهم القائلون بالعدل الإلهي، وهم الشيعة وطائفة من أهل السنة المسمّون بالمعتزلة» (التفسير الأمثل، ج٣، ص٢٧) «والعدلية تصف الله سبحانه بالعدل بالمعنى المتّفق عليه بين العقلاء، وبرهانها على ذلك هو أنّ العقل قادر على تمييز الحسن عن القبيح، والعدل عن الظلم، والله سبحانه بما أنّه حكيم لا يجور أبداً، فهاهنا دعويان: الأولى: أنّ العقل له القابلية على تمييز الحسن عن القبح، وأنّ التحسين والتقبيح من الأمور المنوطة بقضاء العقل. الثانية: إذا تبيّن أنّ العدل حسن والظُّلم قبيح فالله سبحانه موصوف بالعدل نزيه عن فعل الظلم» (مفاهيم القرآن، العلّامة الشيخ جعفر السبحاني، ج٦٥، ص٤). [المترجم]



سوى العدل حتى وإن أجابَ على الحسنة بالسيّئة. ومعروف أنّ هذه الفرقة لا تؤمن بالحُسن والقُبح الذاتيّيْن للأشياء لتعطيلها العقل.

إشارات ولطائف

تقدّم اقتصادي أم فتنة ورُطمة[١]؟

من المعلوم أنّ الآية الّتي هي موضوع البحث، والتي تذكّرنا بالمعاد والتّقوى وأجر العمل الصالح وعقوبة العمل الطالح ورفض الظّلم وتحريمه على العباد، نزلت بالتزامن مع الآيات الخاصّة بتحريم التعامل الرّبوي الهدّام والمُدمِّر. وممّا يُؤسَف له أنّ البعض يعتبر الرّبا والمُعاملات الربوية ميزة من ميزات التقدّم الاقتصاديّ وأنّه أساس نموّ الثروات وتكاثر الخيرات.

قال محمّد رشيد رضا صاحب تفسير *(المنار)*: «وَيَزْعُمُ بَعْضُ الْمُتَفَرْنِجِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ تَحْرِيمَ الرِّبَا هُوَ الْعَقَبَةُ الْكَئُودُ فِي طَرِيقِ مُجَارَاةِ الْمُسْلِمِينَ لِلْأُمَمِ الْغَرْبِيَّةِ فِي الثَّرْوَةِ الَّتِي هِيَ مَنَاطُ الْعِزَّةِ وَالْقُوَّةِ... يَقُولُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ تَعَلَّمُوا وَتَرَبَّوْا تَرْبِيَةً عَصْرِيَّةً وَأَخَذُوا الشَّهَادَاتِ مِنَ الْمَدَارِسِ، بَلْ وَمَنْ هُمْ أَكْبَرُ مِنْ هَؤُلَاءِ: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ مُنُوا بِالْفَقْرِ، وَذَهَبَتْ أَمْوَالُهُمْ إِلَى أَيْدِي الْأَجَانِبِ وَفَقَدُوا الثَّرْوَةَ وَالْقُوَّةَ بِسَبَبِ تَحْرِيمِ الرِّبَا، فَإِنَّهُمْ لِاحْتِيَاجِهِمْ لِلْأَمْوَالِ يَأْخُذُونَهَا بِالرِّبَا مِنَ الْأَجَانِبِ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا مِنْهُمْ لَا يُعْطِي بِالرِّبَا. فَمَالُ الْفَقِيرِ يَذْهَبُ وَمَالُ الْغَنِيِّ لَا

---

١ . «رَطَمه يَرْطُمُه رَطْماً فارْتَطَم: أوحَله في أمر لا يَخْرُج منه. وارْتَطَم في الطين: وقع فيه فتَخَبَّط. ورَطَمْت الشيء في الوحْل رَطْماً فارْتَطَم هو فيه أي ارتبك فيه. وارتطم عليه الأمر إذا لم يَقْدِر على الخُروج منه... ووقع في رُطمَة ورُطُومة أي في أمر يتخبَّط فيه... وارْتَطَمَتْ عليه أُمورُه: عيَّ فيها وسُدَّت عليه مذاهبُه» (**لسان العرب**، مادّة «رطم»)، و«الرُّطْمَة (بالضمّ): أمرٌ لا تُعْرَف جِهته» (معجم النّفائس الكبير، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد أبو حاقة، مادّة «ر ط م»). [المترجم]

يَنْمُو، وَيَجْعَلُونَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ أَهَمَّ الْمَسَائِلِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ وَالْعُمْرَانِيَّةِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، يَعْنُونَ أَنَّهُ مَا جَنَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِلَّا دِينُهُمْ!»[1].

وللإجابة على هذا الكلام السقيم والرّأي غير الحليم، يمكننا الاستناد إلى ما مرّ آنفاً من تقديم العقيدة والدّين على الاقتصاد وترجيحها عليه فنقول: تستند جميع الأحكام الخلقية والفقهية والحقّيّة إلى النظرة الإيديولوجية إذ إنّ الحكمة المتعالية والفلسفة الإلهيّة هما المسؤولتان عن وضع الهندسة المعرفية للعلوم، فأمّا الذين سقطوا في وَحل الإلحاد ومستنقع الكُفر فقد اكتفوا بما هم عليه من المعرفة ورضوا بالقليل من العلم ولم يُجهدوا أنفسهم لمعرفة المزيد والإتيان بالرّأي السّديد: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[2] وتراهم يتلمّسون مُبتغاهم في الظلمة مُستعينين بما لديهم من العقول الناقصة، مُتَحَدّين بذلك علوم الوحي ومُعرضين عمّا أُوتيَ أنبياء الله: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾[3] فاختلطت عليهم أمورهم وعجزوا عن التمييز بين البَيْع [المحلّل] والرّبا [المحرّم] مُدّعين: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾[4] ذلك بأنّ أفكارهم وآراءهم وإيديولوجيّاتهم تفرض عليهم اعتبار رَبّ العالمين هو نفسه الصّنم والوَثن اللذيْن يعبدون: ﴿تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[5].

ولقد بيّن الله سبحانه وتعالى أهداف الوَحي وأغراض النبوّة وهي تعليم الكتاب والحكمة: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ

---

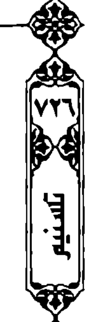
١ . تفسير المنار، ج٣، ص٧٩ و ٨٩.

٢ . سورة الرّوم، الآية ٧.

٣ . سورة غافر، الآية ٨٣.

٤ . سورة البقرة، الآية ٢٧٥.

٥ . سورة الشّعراء، الآيتان ٩٧ و ٩٨.



﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[1]، أي إنّنا أرسلنا النبيّ ﷺ إلى كلّ المجتمعات الإنسانية لا لكي يُعلّمهم ما لَم يعلموه مِن قَبل وحسب، بل إنّ ما أمرناه بتعليم تلك المجتمعات لا يمكن أن يُعلَم أو يُعَلَّم في مجتمع لا يؤمن بالوَحي. ووفقاً لمبدأ الوحي هذا فقد قال ﷻ فيما يتعلّق بالرّغبة والكُره والمحبّة والعداوة: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾[2]، وحول موضوع الإرث وتوزيعه على الوارثين وتقسيمه عليهم يقول سبحانه: ﴿آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾[3]، ولهذا أمرَ الله المجتمعات الإنسانية ودعا المحافل الثقافية إلى تبادل آرائهم وتناقل أفكارهم ومُقترحاتهم والجلوس إلى طاولة الحوار والمجادلة فيما بينهم بالتي هي أحسن، ولكن، في الوقت نفسه، أمرهم بالإذعان إلى كلام الله سبحانه وعدم الخوض في ما لا يعلمون والتزام الصّمت والإصغاء إلى ما يُتلى عليهم: ﴿وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4]. وفيما يخصّ علم الاقتصاد وشؤونه ومسائله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ الله وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[5]، وهذا هو الدستور الحقّ والقانون العادل، فالعقل والعدل هما اللّبنتان الأساسيّتان اللتان يقوم عليهما

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٥١.

٢ . سورة البقرة، الآية ٢١٦.

٣ . سورة النّساء، الآية ١١.

٤ . سورة الأعراف، الآية ٢٠٤.

٥ . سورة المائدة، الآية ٢.

البنيان المَرصوص لأيّ مجتمع إنسانيّ، وكلّ واحدٍ من العقل النظريّ والعدل العمليّ بحاجة إلى مَن يقودهما إلى الهداية العقلية والحماية التي يوفّرها العدل، وليس ذلك سوى الله سبحانه الذي بيّن للناس أنّ العنصر المحوريّ للاقتصاد يتمثّل في التجارة والرّضا: ﴿لَا تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[1]، وأمّا المعاملات الربوية والمَيسر والقِمار والمتاجرة بالخمور وما شابه ذلك فهي إمّا أنّها تفتقد للرُكنَيْن الاقتصاديّيْن المذكوريْن معاً أو لأحدهما على أقلّ تقدير، وهذا ما لا تستقيم به المُعاملات المالية أبداً.

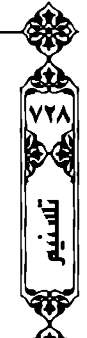
وقد سمّى الدّين الإسلامي هذا النّوع من التعامل غير المشروع الذي يتنافى مع العقل ولا ينسجم مع مقوّمات الإنصاف والعدل، سمّاه بالفتنة وهو ما عُرِف بين الناس بالرُّطْمَة. ورُوي أنّ أمير المؤمنين عَليّاً عليه السلام سأل رسولَ الله صلى الله عليه وآله عن موضوع (الفِتنة) فقال النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله فيما قاله: «... فَيَسْتَحِلّونَ الخَمْرَ بِالنَّبيذِ، وَالسُحْتَ بِالهَديّةِ، وَالرِّبا بِالبَيْعِ...»[2]؛ وقال الإمام عليّ عليه السلام في الحكمة (٤٤٧) من كتاب (*نهج البلاغة*): «**مَنِ اتَّجَرَ بِغَيْرِ فِقْهٍ فَقَدِ ارْتَطَمَ فِي الرِّبَا**».

إنّ الوهم والباطل اللذيْن ركبا بعض الناس قد صوّرا لهم الاعتقاد بأنّ (الرّبا) يُمثّل الرّبوة والزيادة في المال، لكنّ الله عزّ وجلّ العالِمَ بمصالح الخلق والمُطّلع على مفاسده، أمرَ رُسُلَه وأنبياءه بإخبار الناس عن حقيقة الرّبا وأنّه طريق لا تُعرَف عاقبَتها وهاوية يتعذّر الخروج أو الخلاص منها وسبيل لا رَجعة فيها، حتى ينتهي المطاف بأصحابه إلى المَحق والفناء، وكلّنا يعلم ويشهد أنّه ما مِن مجتمع تعاطى الرّبا وتمرّس أفراده على التعامل الربويّ إلّا كان مصيره الفناء والهلاك، وأمّا الذين يظنّون أنّهم قد تحرّروا من قيود العبودية وتخلّصوا من

---

١ . سورة النساء، الآية ٢٩.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٥٦.



أغلالها وأعبائها فإنّهم في الحقيقة قد وقعوا في شِراك عبودية لا خلاص منها لأنّهم لَبسوا أغلال الرّبا وأصفاد مُعاملاته الثقيلة فجرّتهم إلى أعماق الهاوية وظُلمات الرّطمة: ﴿**أُنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**﴾[1].

وحول بعض المعاني التي تشير إليها كلمة (الرُّطمَة) قال الطّريحيّ: «[يُقال] أسئله مسألة يرتطم فيها كما يَرتطم الحِمار في الوحل؛ [و]يُقال: ارتطمَ عليه الأمر، إذا لم يَقدر على الخروج منه؛ وارتطم في الوَحل: دَخلَ فيه واحتَبس»[2].

ومع ملاحظة مسألة العقيدة والخُلُق والعقل والعدل، تتبيّن لنا استحالة وجود أي شَبه أو مساواة بين الرّبا المَمحوق والبَيع المعروف الموثوق، وشتّان بين *الرّبوة والرّطمة*.

بحث روائيّ

نزول آخر آية وسورة

هذا آخر آية نَزلت من القرآن الكريم، وقال جبرائيل [عليه السلام]: «**ضَعْها في رَأسِ الثّمانِين والمأتَيْن مِنَ البَقَرَة**»، عَن ابن عبّاس والسديّ[3].

قالَ المفسّرون: لمّا نَزلت هذه الآية: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُم مَيِّتُونَ**﴾، قالَ رَسول الله ﷺ: «**لَيْتَني أعْلَمُ مَتَى يَكونُ ذلِك**». نزول [فأنزل] الله تعالى سورة النّصر: ﴿**إِذا جاءَ نَصْرُ الله وَالفَتْح**﴾؛ فكانَ رسول الله ﷺ يَسكت بين التّكبير والقِراءَة بعد نُزول هذه السّورة، فيَقول: «**سُبْحانَ الله وَبِحَمْدِه وَأَسْتَغفِر الله وَأَتُوبُ إليه**».

---

١ . **سورة الأنعام**، الآية ٢٤. [المترجم]

٢ . **مجمع البحرين**، ج٦، ص٧٣، مادّة (ر ط م).

٣ . تفسير **مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٧٦.

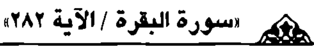
فَقيلَ له: إنّكَ لم تَكُن تَقوله قبل هذا؟ فقال [ﷺ]: «**أمَا إنّ نَفْسي نُعِيَت إليّ**»؛ ثمّ بَكى بُكاءً شديداً؛ فقيلَ: يا رَسول الله! أوَ تَبكي مِن الموت وقد غفرَ الله لكَ ما تقدّمَ من ذَنبكَ وَما تأخّر! قال [ﷺ]: «**فَأينَ هَوْل المطّلع وَأيْنَ ضِيق القَبْر وَظُلمَة اللّحْد وَأيْنَ القِيامَة وَالأهْوال**». فعاشَ رسول الله ﷺ بعد نزول هذه السّورة عاماً تامّاً؛ ثمّ نزلت: ﴿**لَقَد جاءَكُم رَسولٌ مِن انفُسِكُم عَزيزٌ عَلَيه**﴾ إلى آخر السّورة، و هذه السورة آخر سورة كاملة نزلت من القرآن؛ فعاشَ رسول الله ﷺ بَعدها ستّة أشهُر؛ ثمّ لّما خرجَ رسول الله ﷺ إلى حِجّة الوَداع، نزلت عليه في الطريق: ﴿**وَيَستَفتونَكَ فِي النِّساءِ قُلِ اللهُ يُفتيكُم**﴾ إلى آخرها، فسمّيت آية الصّيف. ثمّ نزلَ عليه وهو واقف بعَرَفة: ﴿**اليَوْمَ أكمَلْتُ لَكُم دينكُم**﴾ الآية؛ فعاشَ [ﷺ] بعدها أحداً وثمانين يَوْماً؛ ثمّ نَزلت عليه آيات الرّبا ثمّ نزلت بعدها: ﴿**واتّقوا يَوْمًا تُرْجَعونَ فِيهِ إلى الله**﴾ وهي آخر آية نزلت من السّماء. فعاشَ رَسول الله ﷺ بَعدها أحداً وعشرين يَوماً. وقال ابن جريج: تِسع لَيال، وقال سعيد بن جُبَير ومُقاتل: سَبع لَيال[1].

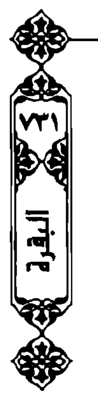
إشارة: اختُلِف حول آخر آية نزلت على الرّسول الأعظم ﷺ، ولكن، ووفقاً لِما ذُكِر آنِفاً، فإنّ الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث هي آخر الآيات التي نزلت عليه ﷺ بعد نزول آيات الرّبا فوصّاه جبريل عليه السلام بأن يضعها في رأس الآية الثمانين والمأتيْن من سورة البقرة، ولم يَعِش رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية أكثر من (٢١) يوماً.

* * *

١ . المصدر السابق، ص٦٧٦ ـ ٦٧٧؛ أنظر كذلك: **بحار الأنوار**، ج٢٢، ص٤٧١ ـ ٤٧٢ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ
مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ
بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ
فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ
رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ
سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ
وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ
فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ
مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا
ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن
تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن





تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

خلاصة التفسير

تشير هذه الآية الشريفة التي تُعدّ أطول آية في القرآن الكريم إلى موضوع مهمّ وحسّاس للغاية، فهي تُطالب المسلمين بكتابة وتحرير العقود إذا كان الدَّيْن المؤجّل أحد طَرَفيها وكانت العين هي الطرف الآخر لها لكي تصبح العقود المذكورة حُجّة في المحاكم الشرعية الإسلامية.

ويُعتبر أمر تحرير عقد الدَّيْن أمراً إرشادياً لا مولويّاً حيث يكون الأمر الإرشاديّ تابِعاً للمُرشَد إليه، إلّا أنّ تحرير عقد الدّين في النظام الإسلاميّ يُمثّل واجباً كفائياً في حين يُستحبّ تعلّم القراءة والكتابة لكلّ فرد من المسلمين استحباباً عينياً. فإذا كان أحد طَرَفَيْ العقد أُمّيّاً أو كلاهما أُمّيّيْن ينبغي على مَن كان عالِماً بالمسائل المالية وحاضراً في المجلس أن يكتب العقد ويُحرّره بشكل عادل وصحيح ولا يحقّ له الامتناع عن ذلك بل عليه أن يكتب العقد كما علّمه دينه الحنيف بالعدل والصحّة والدّقة المطلوبة، وإذا لم يكن مثل هذا الكاتب حاضراً أو موجوداً في المجلس وَجَبَ عليه تحرير العقد بعدئذ كما يُملى عليه بالضبط.



وعلى المَدين أن يتّقي الله عند كتابته لعقد الدَّيْن ولا يُنقص من إنشائه وبنوده شيئاً أبداً، وإذا كان المَدين سفيهاً أو مَأْلوساً[1] أو ضعيفاً أو كان عاجزاً عن كتابة العقد وتحريره لأيّ سبب آخر كأن يكون أبكم مثلاً، فعلى وليّه أو والده أو جَدّه أو وكيله أو القَيّم عليه أو حاكم الشّرع أن يكتب العقد مع مُراعاة الدقّة والعدل، ولا بدّ من إشهاد رَجلَيْن على تحرير العقد، وأمر الإشهاد هو الآخر أمر إرشاديّ أيضاً لا مولويّ.

فإذا لم يوجَد الرّجلان الشاهدان يُكتَفى بشهادة رَجل واحد وامرأتيْن شريطة أن يكون جميعهم من العدول المعروفين بعدالتهم في مثل هذه الأمور. وينبغي أن تكون المرأتان موجودتيْن معاً عند الشهادة لكي تذكّر إحداهما الأخرى إذا نسيت شيئاً من الشهادة في المستقبل، ولا يجوز لأيّ شخص من الناس أن يمتنع عن الشهادة على العقد أو أداء الشهادة إذا طُلِب منه ذلك فيما بَعد.

والمعروف أنّ إحراز عدالة الشاهديْن يكفي للشهادة على الدَّيْن.

هذا، ويوصينا الله ﷻ في هذه الآية الكريمة ألّا نسأم من كتابة العقد وألّا نَملّ من اتّباع الدّقة فيه سواء أكان مختصراً موجزاً أم مَبسوطاً مُفصّلاً حتى يَبلغ أجَله ومُنتهاه، وهذا الشكل من العقد يُعدّ مقبولاً من قِبَل الله تعالى وعادلاً وأقوم للشهادة والاستناد والحجّة، فضلاً عن أنّه أقرب إلى احتياط والتخلّص من الشكّ. وتبيّن الآية الشريفة أنّ ذلك كلّه لن يكون ضرورياً إن كانت المعاملة فيما بين الطرفيْن تُؤدّى نَقداً وفي الحال، أي يَداً بيَد ومتقابضين، ففي هذه الحالة لا جناح على أحد في عدم كتابة العقد، إلّا أنّ المستحسن هو الاستشهاد على ذلك حتى في هذا النّوع من المعاملة.

---

١ . «الألْس: اختلاط العقل؛ وقد أُلِسَ الرّجلُ فهو مَأْلوسٌ، أي مجنون؛ يُقال: إنَّ به أَلْساً، أي جُنوناً». (معجم الصّحاح، ج١، ص١٩، مادّة «ا ل س»). [المترجم]



بالإضافة إلى ما ذكرته الآية فإنّها تحذّر جميع الأطراف من إيذاء الشهود أو استفزازهم أو الضّغط عليهم في أيّ شأن من الشؤون الخاصّة بكتابة العقد مهما كانت الظروف، لأنّ ذلك يُعدّ بمثابة خروج عن أمر الله سبحانه وطاعته. وفي آخر الآية الكريمة أشارَ الله ﷻ إلى ثلاثةِ مواضيع مهمّة، هي: تقوى الله والخشية من عقابه، وأنّه تعالى هو الذي علّم المسلمين ما يعلمون، وأخيراً، عليهم أن يعرفوا بأنّ الله ﷻ عالم بكلّ شيء ومحيط بما لم يحيطوا به عِلماً؛ ولا شكّ في أنّ كلّ واحدة من تلك النّقاط تُعتبر موعظة إلهية زكيّة بحدّ ذاتها.

التفسير

المُفردات

تَدَايَنتُم: «الدَّيْنَ» لُغة، [و]هو القَرْض وثَمن المَبيع، وقوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ﴾ أي إذا تعامَلتم بِدَيْن مِن سِلم وغيره[١]؛ ومن هذا الباب الدَّيْن؛ يُقال: دايَنْتُ فُلاناً، إذا عامَلْته دَيْناً، إمّا أَخْذاً وإمّا إعطاءً[٢].

وجدير بالذّكر أنّ السلعة في معاملة السّلم (السّلف) تكون هي النسيئة وثمنها يكون نقداً ولكن في معاملة النسيئة تكون السلعة نقديّة (أي تُعطى سلفاً) وفي حين الإعطاء يتمّ دَفع ثمنها فيما بَعد.

وقال بعض المُفسّرين إنّ المُراد من ذِكر كلمة ﴿بِدَيْنٍ﴾ في الآية هو استثناء المعاملات التي يكون كلا مُتعلّقَيْها (السلعة والثّمن) نسيئة (أي، بالدَّيْن) لأنّ بَيع الدّيْن بالدّيْن باطل بزعمهم[٣].

---

١ . الفيوميّ، **المصباح المنير**، ج١، ص١٠٨، مادّة (د ي ن).

٢ . **معجم مقاييس اللغة**، ج٢، ص٣٢٠، مادّة (د ي ن).

٣ . الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، مج٤، ج٧، ص١١٨.



بِالْعَدْلِ: عدلَ عَن الطّريق عُدولاً، مالَ عَنه وانصرَفَ، وعَدَلَ عليه إذا مالَ إليه[1].

وَلْيُمْلِلِ: هذه المادّة مأخوذة من «الإملال» بمعنى إلقاء ما في الذّهن أو ما في الكتاب للمُستمع ليضبطه[2].

لَا يَبْخَسْ: البَخس نَقص الشّيء عَلى سَبيل الظُّلم[3]، و﴿**وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا**﴾ أي لا يُفرّط في تأدية حقّه وإيفاء ما يجب عليه له[4].

سَفِيهًا: سَفَهَ سَفاهَةً، فالأصل الواحد في هذه المادّة هو الاختلال، وأكثر استعماله فيما يُقابل العقل والحُلُم وقد يُستعمَل في اختلال الأمور الماديّة؛ وأمّا مفاهيم الخِفّة والسّخافة والنّقص والجهل وغيرها فمن آثار الأصل ولوازمه في الموارد[5][6].

شَهِيدَيْنِ: الشُّهودُ والشّهادَة، الحُضور مع المشاهَدَة إمّا بالبَصَر أو بالبَصيرَة[7]، وأمّا الفَرق بين (الشاهِد) و(الشّهيد) فإنّ الشاهِد يُلاحَظ فيه قيام المعنى بالذات فقط والنّظر فيه إلى جهة الحدوث، والشّهيد ـ فَعيل ـ ويُلاحَظ فيه ثبوت المعنى

---

١ . مجمع البحرين، ج٦، ص٤٢١؛ المصباح المنير، ج١ ـ ٢، ص٣٩٦، مادّة (ع د ل).

٢ . التحقيق في كلمات القرآن، ج١١، ص١٧٦ ـ ١٧٧، مادّة (م ل ي).

٣ . مفردات ألفاظ القرآن، ص١١٠، مادّة (ب خ س).

٤ . التحقيق في كلمات القرآن، ج١، ص٢٠٨، مادّة (ب خ س).

٥ . المصدر السابق، ج٥، ص١٦٨، مادّة (س ف ه)؛ ولمزيد من المعلومات حول معنى «السّفه»، أنظر كذلك: تفسير تسنيم، ج٧، ص١١٣ ذيل الآية الشريفة (١٣٠) من سورة البقرة.

٦ . «السَّفَه خِفّة في البَدن، ومنه قيل زمام سفيه كثير الاضطراب وثوبه سفيه رديء النّسج، واستُعْمِل في خِفة النّفس لنقصان العقل، وفي الأمور الدنيوية والأُخروية، فقيلَ: سَفِهَ نفسَه، وأصله سَفَهَ نفسَه، فصرف عنه الفعل نحو: بطر معيشته؛ قال في السّفه الدنيويّ ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ**﴾ وقال في الأُخرويّ ﴿**وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا**﴾ فهذا من السّفه في الدّين». (مفردات ألفاظ القرآن، ج١، ص٣٠٨ ـ ٣٠٩، مادّة «س ف ه»). [المترجم]

٧ . مفردات ألفاظ القرآن، ج١، ص٣٥٣، مادّة (ش ه د).



واستقراره في الذّات[1]، والمُراد بالـ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ في الآية الشريفة هو مَن يحمل عبء الشهادة.

أَن تَضِلَّ: «الضَّلال» الغَيْبَة، ومنه قيلَ للحيوان الضائِع «ضَالَّة» بالهاء للذّكر والأنثى[2]، وضَلّ فلانٌ فُلاناً، نَسِيَهُ[3].

لَا تَسْأَمُوٓاْ: سَئِمَ الشيءَ ومِنْه، يَسأمُ سَأْماً وسَآمَةً: مَلّ، فهو سَئِمٌ[4]، والأصل الواحد في هذه المادّة هو المَلالَة مع الضّجَر[5].

تناسب الآيات

أرادَ الله سبحانه وتعالى في الآيات القرآنية التي مَضت حتى الآن أوّلاً تشجيع المؤمنين على الإنفاق ومَنعهم من التعامل بالرّبا وترغيبهم في إمهال المَدين المُعسر وزَجْرِهم عن استعجاله أو الضّغط عليه؛ وأمّا في هذه الآية الشريفة التي تُعتبر استمراراً لبيان وشرح المسائل المالية في الإسلام، يريد الله ﷻ أن يُنبّه المؤمنين إلى ضرورة كتابة العقود وتحريرها خطّياً واتّخاذ الشهود على كلّ مُعاملاتهم، ولا سيّما تلك المعاملة التي تكون العَيْن إحدى طرفَيْها بينما تكون النسيئة (أو الدَّيْن المؤجَّل) طرفها الآخر.

والسّبب في كلّ هذا التأكيد على تنظيم المُعاملات والسّندات الموثوقة بالإضافة ضرورة وجود الشهود في مثل هذا التعامل هو أنّ هذا الأسلوب يُعدّ الأفضل لِمَنع وقوع أيّ خلاف بين كلّ الأطراف المَعنيّة في المستقبل فضلاً عن أنّ

---

١ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٦، ص١٥١، مادّة (ش ه د).

٢ . **المصباح المنير**، ج١، ص١٨٨، مادّة (ض ل ل).

٣ . **أقرب الموارد**، ج١، ص٦٨٨، مادّة (ض ل ل).

٤ . (معجم النّفائس الكبير، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد أبو حاقّة، مادّة «سأم»). [المترجم]

٥ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٥، ص٥؛ **لسان العرب**، ج١٢، ص٢٨٠، مادّة (س أ م).



المهمّ في ذلك كلّه هو صيانة أموال الجميع ورعاية حقوق الأطراف دون استثناء.

تذكير: إذا اعتبرنا أنّ الآيات الكريمة (من الآية ٢٨٢ إلى الآية ٢٨٤) إلى جانب الآيات الخاصّة بموضوع الرّبا نزلت جميعها بالنّسق المذكور واللاحق فإنّ التناسب المُشار إليه يكون مقبولاً، لكن إذا اعتبرنا أنّ هذه الآيات كانت قد نزلت من قَبْل، فإنّ وضعها بعد آيات الرّبا وإمهال المُعسر وإنظاره ينبغي أن يكون بالترتيب المذكور.

* * *

أقسام التّداين

«الدَّيْن» هو كلّ ما كان في الذمّة إلى أجل[1]، سواء أكان الثّمن أم المُثمّن، وأمّا السبب في تسمية عملية تبادل «الدَّيْن» بالتّدايُن وليس بالمُدايَنة فلأنّ هناك فَرقاً بين بابَيْ «التفاعل» و«المفاعَلَة»، ففي باب (المُفاعَلَة) يكون أحد الطرفيْن غالباً والطرف الآخر مغلوباً رغم أنّ كليهما يشتركان في أداء الفعل، أمّا في باب (التّفاعُل) فإنّ الطرفيْن متساويان في مقدار الفعل فضلاً عن أنّهما مشتركان في الفعل المذكور. ويُعدّ التساوي في باب (التّفاعُل) مُعتبراً إلى حدّ قال البعض عنه إنّ الباب المذكور لازم لا متعدٍّ. إذاً، فعندما يكون «الدَّيْن» أحد طرفَيْ المُعاملة ينبغي أن تكون العلاقة التجارية بين الطرفيْن متساوية وعادلة لا ربوية.

وقد تضمّ كلمة (التدايُن) كلًّا من مُعاملة العَيْن بالدَّيْن والدَّيْن بالدَّيْن معاً، إلّا أنّ كلمة ﴿بِدَيْنٍ﴾ المذكورة في الآية الّتي هي موضوع البحث قد تُوحي إلى أنّ المُعاملة المقصودة هي مُعاملة العَيْن بالدَّيْن وعندئذ لن تشمل مُعاملة الدَّيْن

---

١ . «فإن لم يكن له أجل فهو (قَرْض)». (**معجم متن اللغة، الشيخ أحمد رضا**، ج٢، ص٤٧٩). [المترجم]



بالدَّيْن عندما يكون الثّمن والمُثمّن في المعاملة على هيأة دَيْن. وإذا طالعنا الروايات الخاصّة بهذا الموضوع فسنجد أنّها تستثني مُعاملة الدَّيْن بالدَّيْن من الآية المذكورة وتعتبرها باطلة؛ إذاً، لمّا كان القَيْد الموجود في الآية من حيث التداين بالدّيْن يتعلّق بمُعاملة العَين بالدّيْن، أمكن إيجاز موارد التداين بما يلي:

١ . مُعاملة السّلف عندما يكون المثمّن دَيناً.

٢ . مُعاملة النسيئة عندما يكون المثمّن دَيناً كذلك.

٣ . مُعاملة القَرْض عندما يكون عَوضه دَيْناً.

وجدير بالذّكر أنّه عندما يكون التداين مُقتصراً على المُعاملة بالدَّيْن فإنّ كلمة ﴿بِدَيْنٍ﴾ تكون للتأكيد، ولو كان التداين يشمل التعامل بالدّين وكان التداين بمعنى الجزاء المقابل بإمكاننا اعتبارها وصفاً تأكيدياً بل وصفاً احترازياً كقولنا: «كما تَدين تُدان» وذلك على عكس ﴿بِجناحَيْه﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[1] لكي لا يُخلَط بين (التداين) المعروف في العلاقات التجارية وبين (التداين) بمعنى الجزاء أو المحاكمة[2]، واستثناء معاملة الدَّيْن بالدَّيْن ـ وهي معاملة باطلة ـ من أقسام التداين الصحيح.

وثمّة فائدة أخرى مذكورة بشأن التصريح بالدَّيْن تتمثّل في نسبة الضمير في ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ إليه [أي إلى الدَّين] بشكل واضح.

الماعة: إنّ أصل الاستدانة والاقتراض جائز بدليل مضمون قوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ والسيرة الطاهرة للنبيّ ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام، فبإمكان الشخص أن يقترض ويتعامل على أساس القرض. ولا يخفى أنّ

---

١ . سورة الأنعام، الآية ٣٨.

٢ . «دانَ دَيْناً ودِيناً، جَزاه بفِعلِهِ وقَهره على الطاعة». (معجم متن اللغة، الشيخ أحمد رضا، ج٢، ص٤٧٩). [المترجم]



الاقتراض وتحمّل أعباء الدَّيْن هما من الأمور غير المستحبّة إذا لم تضمن العوامل الخارجية رجحانها، بل إنّ جوازهما يكون مع الكراهة والمرجوحية، ولكن عندما لا يكون هناك أيّ سبيل إلى توفير النفقات الضرورية للأسرة سوى الاقتراض، فهناك يُرجّح هذا الأخير بل ويصبح بحكم الواجب، لكن شرط ألّا يعجز المُقتَرِض عن تسديد القرض المذكور في المستقبل، فإذا لم يكن بإمكان الشخص المُقترض تسديد قَرضه ورغم ذلك قام بالاقتراض عالِماً ومُتعمّداً لأنّه يعرف أنّه لن يستطيع الإيفاء بعهده ففي هذه الحالة يُعتبر عمله هذا خدعة أراد بها التصرّف بأموال الآخرين ظُلماً وعُدواناً، وهو أمر مُحرّم؛ أمّا إذا لم يكن آيساً أصلاً من أداء الدّيْن بل كان يأمل تسديده في الموعد المُقرّر فلا يُمثّل عمله هذا خدعة أبداً.

طُرُق تسديد الدّيون

لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ الأجل ليس مشمولاً في حقيقة الدَّيْن بل يكمن قوامه في قبول أحد طرفيْ المعاملة في عقد النسيئة أو السّلف أو القرض ذلك على ذمّته، وفي بعض الأحيان يكون تسديد الدَّيْن إمّا في الحال أي بمجرّد أن يطلب الدائن ذلك من المَدين فيكون على هذا الأخير إعادة الدّين في تلك اللحظة دون أيّ تأخير، وإمّا يكون مُقيّداً بأجل مُعيّن وعندئذ ينبغي تثبيته وتحديده: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ولا يجوز وضع الأجل بشكل مُبهم أو غامض، على سبيل المثال لا يجوز القول إنّ موعد تسديد الدّيْن هو الخريف القادم لأنّ مدّة فصل الخريف طولها (٩٠) يوماً إلّا إذا كان المقصود بالضّبط هو تسديد القَرض أو الدّيْن خلال أيّ يوم من الأيام التسعين المذكورة على ألّا يكون التقديم واجباً ولا التأخير جائزاً.



وأمّا السبب في ضرورة تحديد مدّة السّداد وتعيين فترة انتهاء الدّيْن فهو تجنّب الغَرَر[١] والوقوع في الخطأ أو الاختلاف؛ ولذلك يَجب على طَرَفَيْ المعاملة مُراعاة المدّة في عقد النسيئة والسّلف، أمّا في عقد القرض ومن حيث التسديد فإنّ بإمكان المَدين تسديد القَرض حتى قبل انتهاء موعده وعندئذ ينبغي على الدّائن أن يقبل بذلك. وبدلالة الإجماع والشّهرة فإنّ تسديد القرض قبل فوات المدّة لا يعني فسخ عقد القرض.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ قوله سبحانه: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يشمل كلّ معاملة يكون فيها الدّيْن مُعيّناً ومُحدّداً بمدّة سواء أكانت معاملة بَيع أم صُلح أم قَرض أم إجارة أم ما شابه ذلك.

حجيّة إمضاء المَدين وتحريره

يمكننا استنباط لزوم كتابة عقد «الدّين» وتحريره من قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ وهو فعل أمر، إلّا أنّه لا ضرورة في كتابة أصل المعاملة والتداين بل يُفضّل ذِكر ذلك من حيث بيان سَبب الدّيْن من الناحية الإرشادية لا الاستحباب الفقهيّ.

ولا شكّ في أنّ أمر كتابة عقد الدّيْن يدلّ على أنّ تحرير المَدين وإمضائه يُعتبر موثوقاً في المحاكم بل ويُمثّل حجّة من الناحية الشرعية إضافة إلى ما يحمله من فائدة لكلّ واحدٍ من الدّائِن والمَدين، فلو لم يكن خطّ المَدين وإمضاؤه مُعتبرَيْن ونافذَيْن لصارَ كتابة عقد الدّيْن وإنشاؤه تُعدّ ساقطةً وباطلةً إذ لا يصحّ من

---

١ . «الغَرَر اسم للتغرير، بمعنى الخطر، والغَرر في البيوع: ما كان له ظاهر يَغُرّ المشتريَ وله باطن مجهول، أو أن يكون على غير عهد أو ثقة، وتدخل فيه البيوع المجهولة التي لم يُحِط بكُنهها المتبايعان كبَيْع السّمك في الماء والطير في الهواء». (الشيخ أحمد رضا، معجم متن اللغة، ج٤، ص٢٨١، مادّة «غ ر ر»). [المترجم]



الشّارع المقدّس أن يضغط على تثبيت الدّين وتحريره في الوقت الذي لا يمثّل إمضاء المَدين وتحريره حجّة في المحكمة؛ إذاً، فكما أنّ خطّ المَدين وإمضاءه يُمثّلان حجّة عرفية عقليّة فإنّهما يمتلكان الحجّة الشرعية أيضاً لأنّ فائدة العلم المُتعارف أو الظنّ المُتاخِم[1] لا تكون إلّا بالعلم نفسه وقد أمضى الشّارع المقدّس ذلك كذلك.

والخلاصة، هي أنّ الكتابة كالشّهادة تفيد المنفعة المحتملة في المحاكم القضائية بقرينة سياق الآية الشريفة والأمر باتّخاذ الشّهود في الدّيْن، وعليه، فإنّها تتّصف بالاعتبار والحجيّة.

الأمر بكتابة عقد الدّيْن

يشير ظاهر الأمر الخاصّ بتدوين وتحرير عقد الدّيْن ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ إلى الوجوب، ولكن، بدليل قوله تعالى فيما بَعد في نفس الآية الشريفة: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُواْ﴾ يتبيّن لنا أنّ الأمر المذكور هو أمر إرشاديّ وليس أمراً مولويّاً لبيان الآية نفسها أنّ كتابة العقد هو أقرب وأسهل إلى القسط وأعدل وأوضح من حيث إقامة الشهادة وأكثر اطمئناناً من الناحية النفسية وزوال الشكّ والريبة؛ إذاً، فذِكر العلّة في الآية الّتي هي موضوع البحث دليل على كون الأمر إرشادياً وأنّه أبعد ما يكون عن الإرشاد المولويّ.

وثمّة دليل آخر وشاهد ثانٍ على كون أمر كتابة عَقد الدّيْن أمراً إرشاديّاً، وهي الآية التي تَلت الآية الّتي هي موضوع البحث: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾[2] حيث تشير كلّ الدلائل على أنّ أمر كتابة الرّهن هو الآخر أمر

---

١ . مُتاخِم على وزن (مُفاعِل) لا (مُتفاعِل)، أمّا (مُتآخِم) فهو خطأ شائع.

٢ . سورة البقرة، الآية ٢٨٣.



إرشاديّ وهذا ينسجم مع الآية التي نحن بصدد تفسيرها ويتناسب معها.

ونستنتج من ذلك كلّه أنّ أمر تحرير عقد الدّين هو أمر إرشاديّ وليس مولوياً، وعليه، فلا مجال للبحث فيه حول الوجوب أو الاستحباب لأنّ هذيْن الأخيرين هما من نوع الإرشاد المولويّ، أمّا الأمر الإرشاديّ فهو تابع للمُرشَد إليه ليجعله واجباً أو مستحبّاً، إضافة إلى أنّه [أي الأمر الإرشاديّ] يشير إلى المُرشَد إليه نفسه مثل قوله ﷻ: ﴿وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾[1].

كتابة عقد الدّيْن وتثبيته

يُعتبر تحرير عقد الدَّيْن وكتابته في النظام الإسلاميّ واجباً كفائياً لأنّ الحفاظ على النظام المذكور مرهون بذلك حيث يشير فعل الأمر ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ إلى استحباب أن يكون طَرَفا مُعاملة الدّيْن غير أُمّيّيْن، رغم أنّ ذلك ليس واجباً عينيّاً كما هو معلوم؛ وهكذا، فإنّ الواجب الكفائيّ والاستحباب العينيّ يفرضان تعلّم كلّ مسلم القراءة والكتابة ليكون عالِماً بالأحكام الدينية ويعمل بموجبها. ولا شكّ في أنّ وصايا الرسول الأعظم ﷺ والأئمّة الطاهرين ﷺ وتأكيدهم على تعلّم الكتابة والقراءة هما دليلانِ ساطعان على الاستحباب العينيّ للتعلّم.

وإذا لم يَقُم طَرَفا المعاملة بكتابة العقد يتوجّب على شخص ثالث أن ينبري إلى كتابته وهو مَن وصّاه الله سبحانه بقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ لأنّ مُعظم الناس في بداية مجيء الإسلام كانوا أُميّين محرومين من نعمة الكتابة والقراءة ولهذا أجاز الله ﷻ لطرف ثالث غير طَرَفَيْ المعاملة كتابة العقد امتثالاً لأمره سبحانه: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾؛ إذاً، فالأمر المذكور وإن كان ظاهره يشير إلى

---

١ . سورة المائدة، الآية ٩٢.



المباشرة بكتابة العقد إلّا أنّ جملة ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ تؤكّد على صحّة السبب أيضاً.

شروط كاتب العقد

بالإضافة إلى كون كلمة ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ظرف زمان لكنّها تشير إلى حضور كاتب العقد وشهادته في المجلس. وينبغي على كاتب عقد الدّيْن أن يكون مُلمّاً ومُطّلعاً بلغة طَرفَيْ المعاملة وآدابها وتقاليدهما وكذلك عارفاً بالمسائل الاقتصادية لكلّ واحدٍ منهما وبمميّزات التعامل في مثل هذه المسائل لكي يتمكّن من كتابة وتدوين العبارات والجُمَل المطلوبة في تلك المعاملة بدقّة وبالشكل الصحيح، وكذلك ليكون العقد المكتوب مفيداً ونافعاً في المحاكم الإسلامية عند الضرورة؛ كما أنّه يتوجّب على كاتب العقد أن يقف على مسافة متساوية من طَرفَيْ المعاملة، فلا يكون مثلاً ممّن يعملون عند الدّائِن أو يكون أحد أقربائه أو معارفه.

وفيما يتعلّق بموضوع الدّيْن فإنّ المطلوب هو كتابة عقده بشكل عادل ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ وليس بالضرورة أن يكون الكاتب نفسه شخصاً عادلاً، أي، إنّ على طَرفَي المعاملة من جهة أن يسعيا إلى تنظيم عقد عادل خالٍ من أيّ جَور أو حَيْف، ومن الجهة الأخرى يجب على كاتب العقد أن يُراعي مسألة العدالة في كتابة العقد، على العكس ممّا يحدث في صلاة الجماعة مثلاً حيث ينبغي لشخص الإمام أن يكون عادلاً.

ولّما كان العقد المذكور يُعدّ وسيلة لإثبات القسط والعدل فيما بَعد صارَ كتابته أو تحريره بشكل غير عادل وبعيد عن الإنصاف مخالفاً للهدف الذي وُضِع من أجله، ولو كان الشّارع المقدّس قد طالب بضرورة أن يكون الكاتب نفسه عادلاً لقال: «وليَكتُب عادِلٌ».



وعلى الكاتب الذي تتوفّر فيه الشروط اللازمة أن يتولّى كتابة العقد ولا يحقّ له التملّص من هذه المسؤولية كما أمره الله سبحانه بذلك: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾، ومن الواضح أنّ الجمع بين النّهي عن الامتناع ﴿وَلَا يَأْبَ﴾ وبين الأمر بالامتثال والإذعان ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ هو تأكيد مهمّ على ضرورة أن يقوم الشخص الثالث بمسؤوليته التي أُنيطت به والمتمثّلة بكتابة العقد وعدم الامتناع عن ذلك، أمّا المضمون الذي تحمله عبارة ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾ فهو نَهي الكاتب عن الامتناع عن كتابة العقد والأمر بالامتثال له.

هذا، وينبغي على الكاتب الذي أنعم الله سبحانه عليه بنعمة القراءة والكتابة أن يسخّر هذه النّعمة لإيصال الخير والمنفعة إلى عباد الله الذين حُرِموا من تلك النّعمة فمن آثار شُكر الآلاء الإلهية ورضا المُنعِم تعالى على مَن أنعمَ عليه ظهورها على صاحبها: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1].[2]

ولا يخفى أنّ قوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾ يبيّن الكيفية أو الصورة التي يجب كتابة العقد بموجبها، أي إنّ على الكاتب أن يكتب ولا يمتنع عن ذلك، ثمّ إنّ عليه أن يكتب بالعدل من غير تحيّز إلى هذا الجانب أو ذاك: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾.

تذكير: إذا افترضنا وجود جامع مفهوميّ بين المَعنيَيْن المذكورَيْن فإنّ ذلك ليس سوى الإرادة، وإذا استثنينا وجود جامع موحّد فلا محذور من اعتبار كلا المَعنيَيْن صادرَيْن عن اللفظ الواحد.

---

١ . سورة الضحى، الآية ١١.

٢ . قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «واسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللهُ عَلَيْكَ ولَا تُضَيِّعَنَّ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللهِ عِنْدَكَ ولْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ» (نهج البلاغة، من كتاب له عليه السلام إلى الحارث الهمذاني)، وقال عليه السلام: «أَقَلُّ مَا يَجِبُ لِلْمُنْعِمِ أَلَّا يُعْصَى بِنِعْمَتِهِ» (غرر الحكم ودرر الكلم، الفصل السابع مواعظ للأغنياء، الحكمة رقم «٨٣٨٧»). [المترجم]



العمل وفقاً للتعليم الإلهيّ

يُمثّل «البيان» ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[1] و«القَلَم» ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾[2] عامليْن رئيسيّيْن لتناقل الأغراض والأهداف وهما نعمتان من الأنعُم العلمية التي وهبها الله تعالى إلى بَني البشر، كما أنّ الموضوعات والمعاني التي يتناقلها ويتداولها الأشخاص على شكل كلام أو كتابة إنّما هي من ثمار تعاليم الله ﷻ: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3].

واستناداً إلى ما قيل، يكون معنى الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث كالآتي: ينبغي على مَن يستطيع القراءة والكتابة ألّا يمتنع أبداً عن الامتثال إلى الأمريْن التاليَيْن: ١. أصل الكتابة [كتابة العقد]؛ و ٢. مضمون الكتابة [أي ما يتضمّنه العقد من الجمل والعبارات والبنود... إلخ.][4]؛ ومعنى ذلك أنّ على الكاتب أن يتحمّل مسؤولية الكتابة كما علّمه الله سبحانه، ثمّ التدقيق في كلّ ما يدوّنه ويكتبه كما ألِفَه من الأعراف والتقاليد؛ وعليه، فإنّ هناك جامعاً مشتركاً بين كلا الأمريْن.

ويشير الأمر الإلهيّ هنا إلى ضرورة العمل بالعلم والمهارة اللّذين تعلّمهما الكاتب من الله ﷻ كما في قوله تعالى مثلاً: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾[5] أي أن تقوموا بالاصطياد وفقاً للشريعة التي أوضحت لكم كلّ ما يتعلّق بمسائل الصّيد وشؤونه.

---

١ . سورة الرّحمن، الآية ٤.

٢ . سورة العلق، الآية ٤.

٣ . سورة العلق، الآية ٥.

٤ . الزيادة بين المعقوفيْن من المترجم.

٥ . سورة المائدة، الآية ٤.



ومن المعلوم أنّ ما ذكرته الآية الّتي هي موضوع البحث حول مسألة كتابة العقود وتحريرها يمكن تطبيقه على جميع الفروع الأخرى المُشار إليها في الآية نفسها كتحمّل أعباء الشهادة إذا تطلّب الأمر ذلك والإدلاء بها عند الضرورة والكتابة نيابة عن الوليّ المحجور ومسألة تذكير إحدى المرأتيْن الشاهدتيْن المرأة الأخرى والاستشهاد على المُبايعة وتجنّب الإضرار بأيّ طرف من أطراف العقد، بدءاً بالكاتب وانتهاءً بالشّهود وغيرهم؛ نعم، ينبغي أن يتمّ كلّ ذلك وفقاً للمعايير الدينية وبالشكل الذي علّم الله تعالى عباده.

تقديم العدل على العلم

قلنا إنّ الله ﷻ هو الذي ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وكيف يكون عالِماً وهو كذلك الذي بيّنَ له كيف يكون عادلاً، لكن إذا أردنا إجراء مقارنة بين كلّ وصفٍ من العدل والعلم فإنّ العدل هنا سيمثّل المحور الأساسيّ ولكن يدور العلم حول هذا المحور، فلا يمكن للعلم أن يكون قطب الرّحى فقد لا يكون مصحوباً بالعدل، فالشخص العادل الذي يمتثل للواجب ويتجنّب الحرام بأنواعه لا يقبل مسؤولية لا يعرف تفاصيلها أو يجهل مدى أهميّتها، وإذا رَضي بتحمّل تلك المسؤولية على عاتقه وتعهّد بتأديتها فلا شكّ في أنّه سيسعى إلى فهم تفاصيلها ومعرفة ضوابطها وقوانينها ليؤدّيها بشكلها الصحيح والكامل دون أيّ نقص. أمّا الشخص العالِم [غير العادل] فقد تجرفه أهواؤه أو يُخيفه التهديد والوعيد أو ينجذب إلى الإغراءات التي تُقَدَّم إليه فيبخس حقّ الدّائِن أو المَدين؛ وعليه، فمتى وُجِدَ العَدل وُجِدَ معه العِلم كذلك (إن اجتهاداً أو تقليداً)، ولكن إن وُجِدَ العِلم فقد لا يكون حضور العدل معه أمراً ضرورياً.



وقد يكون السبب في تقديم العدل على العِلم هو تميّزه بالفضيلة المذكورة حيث أشارت الآية الّتي هي موضوع البحث أوّلاً إلى العدل: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ ثمّ أتت على ذِكر العِلم بعد ذلك: ﴿أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾.

تفاصيل كتابة عقد الدَّيْن

يمكن لأيّ شخصٍ من الأشخاص التالية أسماؤهم كتابة عقد الدَّيْن وتحريره:

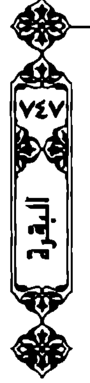
١. المَدين نفسه.

٢. شخص ثالث يكون حاضراً في المجلس وشاهداً على ما يدور حول المعاملة وعالماً بحدودها وقوانينها.

٣. شخص ثالث وإن لم يكن حاضراً في المجلس، أو كان حاضراً إلّا أنّه لا يعرف شيئاً عن تفاصيل المعاملة وإنّما يكتب ما يُمليه عليه المَدين، وإذا كان هذا الأخير غير قادر على الإملاء كذلك فعلى وَليّ أمره أن يقوم بالإملاء على الكاتب؛ إذاً، يُقبَل إملاء المَدين إذا لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة ولم يكن الكاتب حاضراً في المجلس ولا عالِماً بتفاصيل المعاملة ولم يكن مُطّلعاً على ما دار من حديث بين أطراف المعاملة.

٤. إذا لم يكن المَدين يعرف القراءة والكتابة لكنّه كان عادلاً في إملائه تفاصيل المعاملة وكان الدّائِن موثوقاً ومقبولاً عند المَدين وحرّر [الدّائِن] كلّ ما أملاه عليه المَدين بشكل عادل ودقيق وفي النهاية أمضى المَدين العقد وأيّده وصادق عليه، فإنّ هذا كافٍ لاعتبار العقد صحيحاً ونافذاً.

ويُفَضّل أن يقوم المَدين نفسه بإملاء العقد على مَن وُكِّل بكتابة العقد إذ ربّما شكّك البعض في إملاء الدّائِن أو كونه خالياً من الزيادة أو النقصان، أمّا إملاء



المَدين فيمكن اعتباره بمثابة إقرار شخصيّ موثوق منه ما يجعل الدّائن يطمئن على حقّه، وقوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ يؤكّد صراحة على صحّة ما قلناه من ضرورة أن يقوم المَدين نفسه بالإملاء، وإذا كانت العدالة معروفة في شخص الكاتب وقام الدّائِن نفسه بإملاء العقد وبنوده عليه وكان الإملاء عادلاً والعقد مُنصفاً بحضور المَدين وإمضائه وتأييده عليه، فذلك يكفي أيضاً لاعتبار العقد المذكور صحيحاً ونافذاً.

وينبغي أن يكون إملاء الدَّيْن عادلاً تماماً مثل كتابته وتحريره، أي إنّ على المَدين أنْ يحفظ حرمة وجود الله سبحانه والامتثال لأحكامه وأوامره وأن يتّقي الله في كلّ ذلك: ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ﴾ ويُراعي حقّ الآخرين فيما يقوم به، ولا يجوز له أبداً التلاعب بالبنود الخاصّة بمدّة العقد ومَبلغه فينقص من هذا أو يزيد على ذاك: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾؛ إذاً، يجب على الإملاء أن يكون مطابقاً للحقّ من حيث الكمّ والكيف.

اختلاف الأمر بين المَدين والمالي والكاتب

إنّ تكرار الأمر أو النّهي أو كليهما معاً يُعدّ جزءاً من المحاورة ويُراد به بيان أهمية الموضوع من جهة، وتأكيد الشّارع المقدّس واهتمامه البالغ بالإقدام أو التّرك من جهة أخرى. ولا ريب في أنّ الأشخاص الثلاثة المَعنيّين بكتابة عقد الدَّيْن، وهم المَدين والدّائِن والكاتب، مختلفون من حيث حُبّهم للمال ونسبة طمعهم فيه أو بُخل أيّ واحدٍ منهم إزاءه، ولهذا نلاحظ أنّ أوامر الله سبحانه تختلف من شخص إلى آخر من هؤلاء.

فالطرف الرئيس والمحوريّ في معاملة الدَّيْن هو (المَدين) وهو الشخص الذي أشارَ إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾، فالمسؤولية التي تقع



على عاتق كلّ من يقوم بالإملاء (إذا لم يَكن المَدين نفسه) والكاتِب لا تشبه تلك المُناطة إلى المَدين مثلاً، ولذلك أُمِرَ (المَدين) أوّلاً باتّباع التّقوى وثانياً بالامتناع عن البَخس أو النّقص: ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾، وأمّا ما يتعلّق بالشخص الذي تقرّر أن يقوم بالإملاء والكاتِب فقد أُمِرا فقط باتّباع العدل في كتابة العقد: ﴿كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ بعد نَهيهما عن الامتناع عن كتابته: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ﴾.

شروط إملاء الوليّ

تتضمّن كلمة «الوَليّ» في قوله تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ معانيَ كثيرة وواسعة بما في ذلك معنى (القَيِّم) و(الوَكيل) و(التّرْجُمان) وما شابه ذلك؛ وقد يكون المقصود بالوَليّ في الآية الكريمة أيضاً هو الشخص الذي يملك الصلاحيّات المطلوبة الخاصّة بالمَدين (لا الدّائِن) والمسؤول عنه، ولهذا تكرّرت عبارة ﴿الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ مرّتيْن، إذ لو كان قد جِيء بالضمير لاختلط الأمر علينا في نسبة اسم ﴿كَانَ﴾ إلى الكاتِب أو الدّائِن أو المَدين؛ إذاً، فعبارة: ﴿الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ يُراد بها إثبات حقّ الإملاء والكتابة للمَدين دون غيره.

وأمّا صحّة إملاء وليّ المَدين في حال كان هذا الأخير سفيهاً أو عاجزاً أو ضعيفاً، فهي على سبيل المثال لا الحصر لأنّ معيار إملاء الوليّ هو أن يكون المَدين عاجزاً عن الإملاء لأيّ سبب كان، كأن يكون إنشاؤه غير واضح أو كان عقله مُختلّا أو كان طفلاً أو كبيراً في السنّ؛ والخلاصة، ولكون العناوين الثلاثة المذكورة هي من باب التمثيل لا التعيين نقول إنّه لا ضرورة في إجراء تحقيق نهائيّ أو تفحّص دقيق في تحديدها رغم أنّ حدودها واضحة ومعلومة.

وجدير بالذّكر أنّ المُراد بالسفاهة والضعف والعجز في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ هو ما يتعلّق



بالإملاء وليس المعاملة والدّيْن إذ لو كانت المعاملة نفسها هي المقصودة بتلك الموانع لَمَا تطرّق الحديث بعد ذلك إلى إملاء الوليّ بل لكان على هذا الأخير إنجاز أصل ذلك ثمّ الشروع بالكتابة؛ فموضوع البحث إذاً تحقيق أصل الدّيْن بشكله الشرعيّ الدّقيق والكامل، لكنّ هناك نقصاً في الإملاء ينبغي على الوليّ رفعه وإزالته.

وإذا كان المَدين صغيراً أو قاصراً يجب على وليّه ـ أبيه أو جدّه ـ إنجاز المعاملة والإملاء؛ أمّا إذا كان المَدين بالغاً لكنّه عاجز عن الإملاء لأسباب مُعيّنة ـ كأن يكون أبكمَ[1] أو مريضاً ـ وكان بإمكانه اتّخاذ وكيل له ينوب عنه فينبغي عليه اتّخاذ ذلك الوكيل، أمّا إذا لم يكن المَدين يُتقن لغة المعاملة فعندئذٍ باستطاعته أن يتّخذ لنفسه مترجماً يشهد عملية الإملاء فيكون وكيله في تلك العملية؛ وإذا تعذّر وجود الأب والجدّ والوكيل والترجمان، ففي هذه الحالة يكون حاكم الشّرع هو وليّ المَدين وهو الذي يقوم بإملاء عقد الدّيْن. وهكذا نرى أنّ كلمة «مسؤول» تحمل مصاديق كثيرة ومتنوّعة، لكن لمّا كان الوليّ موجوداً في أغلب الحالات سُميَ كذلك وإلّا فإنّ الوكيل والتّرجمان يقومان مقام الوليّ أيضاً.

هذا، وينبغي أن يكون إملاء الوليّ عادلاً، بمعنى أن يتّقي هو الآخر وألّا يجنف عن الحقّ مثقال ذرّة فيما يتعلّق بمدّة العقد أو مبلغه.

تذكير: يُعتبر (السّفَه) و(القُصور) مانعيْن أساسيّيْن في ضمان المعاوضة حيث يُمثّل الإيجاب والقبول أصل المعاملة، وينبغي على وليّ السفيه والصغير

---

١ . تُعتبر إشارات الأبكم (الأخرس) بمثابة الإيجاب والقبول اللفظيّيْن في المعاملات تماماً كصحّة إشاراته حتى في الصلاة، إذاً، فليست جميع المعاملات التي يكون الأخرس فيها طرفاً هي معاملات مُعاطاتية، بل يكفي أن تكون كذلك من خلال تسليم الثمن واستلام المثمّن في المعاملة دون الحاجة إلى استخدام لغة الإشارات.



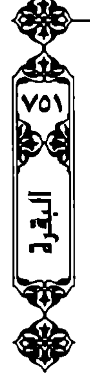
(القاصِر) أن يقوم بإنجاز المعاملة، لأنّ المعروف هو أنّ السفيه والصغير لا يمكنهما التعامل بالجديّة المطلوبة ولذلك يُعتبر تعمّدهما كذلك خطأً. وفي ضمان اليَد[1] حيث تسبّب إضاعة أموال الناس بوجوب الدّيْن فإنّ السّفاهة والقصور لا يُمثّلان مانعاً إطلاقاً ولا يُعتبر تلفهما لأموال الغير ضرراً أو إثماً، إلّا أنّ كلّاً منهما يُعتبر ضامناً وينبغي إثبات ذلك الدّيْن عليهما ولهذا تبرز الحاجة هنا إلى أن يقوم وليّهما بالإملاء.

شهادة الشّهود

يجب استشهاد شاهديْن اثنيْن على كتابة عقد الدّيْن وتحريره، رَجليْن عادليْن أو رجل وامرأتيْن عدول، ويُعتبر الأمر في قوله سبحانه: ﴿وَاسْتَشْهِدُواْ﴾ إرشادياً مثل الأمر الوارد في قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ وليس صدوره إلّا بهدف إحكام التحرير وضبط وتسجيل الدّيْن والتسديد وإزالة الاختلافات والنزاعات بين المؤمنين في مثل هذه المسائل المالية الحسّاسة، إذ قد يُضطرّ الأطراف إلى رفع الديون التجارية إلى أروقة المحاكم وقد لا تزول الشكوك حتى مع إظهار المستندات والوثائق والتدقيق في بنودها وعباراتها، ولهذا أمرنا الله ﷻ باتّخاذ الشّهود العُدول ـ شاهديْن عادليْن ـ على العقد ليؤكّدوا ثبوت الدّيْن وتثبيته وإمضائه أو الاحتفاظ بتفاصيل المعاملة في ذاكرتهم لكي يُستَعان بهم عند الضرورة لإزالة الاختلافات والحيلولة دون ضياع الحقوق المالية لأيّ طرف من الأطراف.

---

١ . «للغصب حكمان تكليفيان، وهما الحُرمة ووجوب الردّ إلى المغصوب منه أو وليّه، وحكم وضعيّ، وهو الضّمان بمعنى كون المغصوب على عهدة الغاصب، وكون تَلَفه وخسارته عليه، وأنّه إذا تُلِف يجب عليه دفع بدله، ويُقال لهذا الضّمان ضمان اليد». (الإمام الخميني ﷺ، تحرير الوسيلة، ج١، كتاب الغصب، ص٧٨٠). [المترجم]

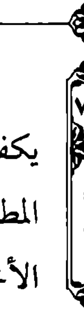


والمقصود بقوله تعالى: ﴿شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ﴾ هو أن يكون الشاهدان فردَيْن من أفراد المجتمع الإسلاميّ؛ إذاً، فإسلام الشاهدَيْن يُعتبر أمراً ضروريّاً، وكذلك عدالتهما وأن يكونا ممّن يرضى بهما المجتمع الإسلاميّ ويَثق بهما طَرفَا المعاملة؛ وهكذا، فإنّه ينبغي على الشاهدَيْن أن يكونا مُسلميْن وأن تكون عدالتهما مُحرزة وثابتة لدى المَدين والدّائِن والقاضي على حدّ سواء.

هذا، ويشير خصوص شهادة الرّجل في كلام الله سبحانه إلى أهميّته المباشرة في الشهادة إذ يختلف ذلك عن ذِكر كلمة «الرّجل» في كلام السائل والرّاوي حيث لا خصوصيّة في ذلك إطلاقاً، وإذا لم يوجَد رَجُلان للشهادة على العقد المذكور ـ أي مجموع بما هو مجموع ـ عندئذ تُقبَل شهادة رَجل واحد وامرأتيْن.

وفيما يتعلّق بموضوع الشهادة فإنّه ينبغي على طَرَفَيْ العقد اختيار شاهدَيْن عادلَيْن، وأمّا ما يخصّ أداء الشهادة فإنّ على الشاهدَيْن المذكورَيْن أن يؤدّيا شهادتهما على نحو عادل، حيث تشير عبارة ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء﴾ إلى أخذ عدالة الشاهدَيْن المُحرزة بعين الاعتبار عند تنظيم العقد من جهة وتحمّلهما للشهادة وأدائها من جهة أخرى، وأنّ عدالتهما الواقعية لا تُعتبر شرطاً في أيّ شاهدٍ من ذلك؛ ونفس الشيء يُقال بشأن القاضي.

ويكفي في شهادة الدَّيْن إحراز عدالة الشاهدَيْن ووثاقتهما، كما هي الحال في عدالة إمام الجماعة وخلافاً للشهادة في الطلاق، إذاً، وفيما يتعلّق بالدّيْن فإنّ الشهادة بهذه الكيفية تكون مُجزية وكافية لأنّ إحراز العدالة المطلقة هي الشرط وليس العدالة الواقعية كعدم بُطلان صلاة المأموم إذا تبيّن له عدم عدالة إمام الجماعة، وهذا يختلف عمّا إذا تبيّن عدم عدالة الشاهد في عقد الطلاق حيث يُعتبر الطلاق باطلاً تماماً.



وعند تحمّل أعباء الشهادة وقبول أدائها ينبغي أن تكون المرأتان معاً فلا يكفي وجود إحداهما إذ غالباً ما تفتقد النساء الذاكرة الدقيقة والاختصاص المطلوب في المسائل التجارية، فوجودهما معاً يعني أن تقوم إحداهما بتذكير الأخرى ما قد تكون نسيته من تفاصيل المعاملة؛ إذاً، فالمقصود بقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ هو نسيانها لأمر من أمور المعاملة الضرورية في الشهادة فتنبري الأخرى ﴿فَتُذَكِّرَ﴾ التي سَهَت أو نَسيت.

وتجدر الإشارة إلى أنّ كلمة ﴿إِحْدَاهُمَا﴾ تعني إحدى المرأتيْن الشّاهدتيْن وليست تعني إحدى الشّهادتيْن، وتكرار هذه الكلمة في قوله سبحانه: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾ والاستغناء عن الضمير «ها» لتصبح: «فتذكّرها الأخرى» إنّما هو لُمراعاة تقديم الفاعل ﴿إِحْدَاهُمَا﴾ على المفعول به ﴿الأُخْرَى﴾ وإلّا فكان يمكن القول: «فتذكّرها الأخرى» وعندها سيكون المفعول مُقَدّماً على الفاعل.

وقد أمرَ الله ﷻ طَرَفيْ عقد الدّيْن باتّخاذ الشهود بينما خاطبَ الأطراف الأخرى في العقد المذكور قائلاً: لا يحقّ لكم الامتناع عن تحمّل أعباء الشهادة أو أدائها: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ﴾ ولولا ذلك لَما اشتملت كلمة: ﴿وَاسْتَشْهِدُواْ﴾ لوحدها أيّة ضمانة تنفيذية أبداً.

والشهادة في المجلس أو في المحاكم الإسلامية لا تتطلّب تخصّصاً أو تعليماً خاصّاً رغم أنّه لا مانع من أن يكون الشاهد عارفاً ومطّلعاً ببعض المعلومات العامّة وله حضور فعّال في مجتمعه وعالِماً ببعض الأمور التجارية، ولذلك لم يذكر القرآن الكريم لهذا الموضوع الشرط المتمثّل بقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾.

إلماعة: قال بعضهم في تفسير قوله سبحانه: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾: «على أنّ الحقّ ما وصف إحدى المرأتيْن إلّا بالحيرة فيما شهدت فيه ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ ما وصفها بالنسيان، والحيرة نصف النسيان لا كلّه، ونسب النسيان على الكمال



للرجال فقال: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[1] فقد يمكن أن ينسى الرّجل الشهادة رأساً ولا يتذكّرها ولا يمكن أن تنسى إحدى المرأتيْن... بل تقوم المرأة في بعض المواطن مقام رجليْن وهو قبول الحاكم قولها في عدّة الحيض وقبول الزوج قولها في أنّ هذا ولده مع الاحتمال المتطرّق إلى ذلك وقبول قولها إنّها حائض»[2].

الجديّة في كتابة عقد الدّيْن

لا يجوز الادّعاء بالتّعب أو التّمارض وما شابههما والاستهانة بكتابة الدّيْن أو الإيحاء إلى أنّه أمر غير مهمّ، بل يتوجّب على جميع المشتغلين بالتجارة والدّائنين والمَدينين تثبيت مدّة الدّيْن وتعيين مبلغه سواء أكانت المعاملة مُفصّلة أم موجَزة: ﴿وَلَا تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ فالامتناع عن كتابة العقد أو التّقاعس عن تنظيمه ربّما أدّى إلى النسيان أو الخيانة المحتملة أو الاضطراب والقلق النّفسيّيْن وسَلب راحة كلّ المَعنيّين بهذا الأمر ما قد يتسبّب في حدوث الخلافات والصّراعات، ولهذا أكّد سبحانه وتعالى للمؤمنين على أنّ كتابة العقد من وجهة نظره ﷻ باعتباره القائم بالقسط هو أقرب وأقسط: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ﴾، فعندما يتمّ تحرير العقد وكتابته ويقوم بعض الحاضرين في المجلس بتأييده والتوقيع على مفاده وبنوده فإنّ ذلك سيكون أفضل لجميع الأطراف وأقوم لهم إذا طُلِبَ من الشهود الحضور في المحاكم والإدلاء بشهاداتهم حول العقد المذكور، فضلاً عن أنّ ذلك سيُخلّص طَرَفيْ عقد الدّيْن من الدّخول في دوّامة الشكّ والحيرة بشأن أيّ بَند من بنوده: ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُواْ﴾.

---

١ . سورة طه ﷺ، الآية ١١٥.

٢ . ابن عربي، تفسير رحمة من الرحمن، ج١، ص٤٠١.



إذاً، فكتابة عقد الدّيْن خاصّة والعقود بأنواعها بشكل عامّ تمثّل أحد الأساليب الصحيحة لإقامة دعائم العدل الاجتماعيّ: ﴿كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لله﴾[1] فيُدفَع بذلك الظّلم وأهله ولن يحتاج الأمر لرفعه إلى استخدام الحديد والبأس: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[2].

تذكير: لا شكّ في أنّ تقديم الصّغير من العقود على الكبير منها في الآية الشريفة يبيّن اهتمام الشّارع المقدّس بمسألة تنظيم السندات وكتابة العقود ومطالبته بفعل ذلك وعدم الاستهانة حتى بالعقود البسيطة والصغيرة أو التساهل أو التقصير في تثبيتها.

حكم المعاملات النّقدية

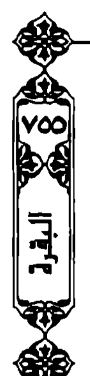
يخبرنا القرآن الكريم أنّه لا ضرورة تحدونا إلى كتابة المعاملات النقدية كما قال تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ ومع ذلك فإنّه لا مانع من اتّخاذ الشهود حتى في مثل هذا النوع من التعاملات: ﴿وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ إذ ربّما شعر أحد الطّرفيْن بالنّدم أو رغب في التّراجع وقد يعمد بالتالي إلى إنكار أصل المعاملة بالكامل، وهنا يأتي دور الشهادة حيث يكون الطرف المغبون في أمسّ الحاجة إليها.

ومن المعلوم أنّ الاستثناء في الآية الكريمة هو استثناء متّصل لا منقطع، وعليه، لا ينبغي اعتبار قوله تعالى: ﴿تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾ إشارة إلى المعاملة النقدية التي يتمّ فيها تبادل العَيْن بالعَيْن، بل المقصود بذلك هي المعاملة النقدية الكليّة (أي العَيْن بالذمّة)، ولكن من الواضح أنّ ما ورد في الذمّة هو كليّ وغير مسمّى

---

١ . سورة النساء، الآية ١٣٥.

٢ . سورة الحديد، الآية ٢٥.



بأجل مُعيّن، أي، حصول البيع بشكل كليّ ليصبح كلّ واحد من الطرفيْن مَبروء الذمّة من خلال تبادلهما للعَوض والمُعوّض، وليس بَيع العيْن بالعيْن حيث يمسك المشتري والبائع بالثمن والمثمّن، ثمّ إعطاء هذا لذاك وذاك لهذا بعد قراءة صيغة العقد إذ إنّ مثل هذه المعاملات يكون خارجاً عن إطار قوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ اللّهم إلّا إذا كان المقصود بالتداين هو مُطلق التعامل ليشمل ذلك أيضاً المعاملات النقدية اليومية حيث يتمّ تسليم العيْن بالعَيْن إذ لا يلزم كتابة العقد لمثل هذه المعاملات. وجدير بالذّكر أنّنا قد لا نحتاج إلى اتّخاذ الشهود في المعاملات اليومية الاعتيادية وعندما لا تتّسم المعاملة بأيّة أهمية خطيرة.

حماية الكاتب والشّاهد

أمر الله سبحانه وتعالى كلّاً من الكاتب والشّاهد ألّا يُمانع الأوّل في كتابة العقد ولا يكتم الثاني شهادته إذا طُلِبَ منه ذلك: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ... وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ﴾ وفي الوقت نفسه حذّر ﷻ طَرَفيْ عقد الديْن من الإساءة أو الإضرار بالكاتب خلال كتابته للعقد أو بالشّاهد عند إدلائه بالشهادة: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾. على سبيل المثال، إذا كانت كتابة العقد أو الإدلاء بالشهادة سيأخذان من وقت الكاتب أو الشاهد ما قد يؤدّي إلى الإضرار بعملهما الأصليّ فعندئذٍ ينبغي أداء حقّهما لتعويضهما عن الأضرار المحتمَلة، وإذا كانت عملية كتابة العقد أو الإدلاء بالشهادة ستُنَفّذ مجاناً دون أيّ مُقابل ولم يكن بالإمكان تعويضهما عمّا قد يحدث لهما من خسائر أو تعرّض الكاتب أو الشاهد إلى الأذى أو الإساءة من أيّ نوع كان، فإنّ ذلك يُعتبر خروجاً عن أمر الله سبحانه وعصياناً مُبيناً.

هذا، ويتّضح لنا ممّا قيل إنّ الفعل ﴿يُضَآرَّ﴾ مبنيّ للمجهول وفقاً لأشهر القراءات إذ لو كان مبنيّاً للمعلوم (لا يُضارِرُ) لاعتُبِرَ مُكرّراً، وقد مرّ قبل هذا تحذير الكاتب والشاهد من الإضرار بطَرفَيْ عقد الديْن في قوله تعالى ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ وما كان ذِكره ضرورياً في موضوع كتابة العقد والإدلاء بالشهادة. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ اعتبار الفعل ﴿يُضَآرَّ﴾ مبنيّاً للمعلوم لا يتناسب مع سياق الخطاب من قَبل ومن بَعد، إذ إنّ الخطاب الإلهيّ من بدايته إلى نهايته موجَّه إلى طَرَفَيْ العقد ولا سيّما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَمُوْاْ﴾ و﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾، إذاً، فلو كان الفعل ﴿يُضَآرَّ﴾ مبنيّاً للمعلوم لقيل: «إنْ يَفعَلوا فإنّه فُسوقٌ بِهم».

حكم الإضرار بالآخرين

تؤكّد لنا الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث أنّ الله ﷻ اعتبر الإضرار بالكاتب أو الشاهد فِسقاً مُبيناً لا يَقبل الشكّ: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ لأنّ من شأن هذا الفعل أن يؤدّي إلى إضاعة حقوق الآخرين فضلاً عن كونه عصياناً لأوامر الله سبحانه وخروجاً عن طاعته. وقد أشارَ القرآن الكريم بحكمة إلى أنّ تعمّد البعض إلى الإضرار بالآخرين هو في الواقع إضرار بأنفسهم وهذا واضح من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ فاستخدام «الفِسق» لا يكون إلّا في حال قيام شخص ما أو شيء ما بإخراج شخص آخر عن الصّراط المستقيم، أمّا دخول حرف «الباء» على ﴿بِكُمْ﴾ فهو للتعدية؛ وعليه، يكون المعنى: إذا تمّ الإضرار بالكاتب أو الشاهد فإنّ من شأن ذلك أن يُخرج الإنسان (الذي يتسبّب بالضّرر) عن طاعة الله سبحانه والجَنف عن الحقّ والعدل، ولا جَرم أنّ نتيجة ذلك ستكون وخيمة على ذلك الشخص.

ارتباط التّقوى بالتعليم الإلهيّ

من الضروريّ بمكان الفصل بين السؤالَيْن التاليَيْن وذلك لتجنّب تسلّل ضعف أحدهما إلى الآخر؛ فأمّا السؤال الأوّل فهو: «هل يدلّ ذيل الآية الشريفة، يعني قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ على وجود ملازمة بين تقوى العَبد وتعليم الله له، أم لا؟»، وأمّا السؤال الثاني فهو: «هل يمكننا استنباط وجود الملازمة المذكورة أساساً من القرآن الكريم أو أيّ دليل روائيّ أو عقليّ موثوق؟».

وفيما يتعلّق بالسؤال الأوّل، كما بيّن سماحة الأستاذ العلّامة السيد محمّد حسين الطباطبائيّ ﵀، نقول إنّه لا يمكن القول بأنّ عبارة ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ تشير إلى أيّ تلازم يُذكَر لأنّ الارتباط اللزوميّ لا يكون إلّا بين الشرط والجزاء وبين المعلول والعلّة الغائية وكذلك بين الأصل والفرع فقط، وكما نلاحظ فإنّ التعليم والتّقوى لم يَردا في الآية على شكل شرط وجزاء كقولنا مثلاً: «إتّقوا الله يُعلّمكم الله»، كما أنّهما لم يُذكرا بهيأة مفعول له يُحسَب كعلّة غائية للفعل، مثل قولنا: «إتّقوا الله ليُعلّمكم الله»، وأخيراً، فإنّهما لم يأتيا بصورة ترتّب وتفرّع كما في قولنا: «إتّقوا الله فيُعلّمكم الله»، فضلاً عن أنّهما لم يستعينا كذلك بأيّ أداة تُفيد الملازمة. واستناداً إلى ما قيل فإنّه لا يمكن استنباط معنى التلازم من الجملة المذكورة إطلاقاً، لكن رغم ذلك نستطيع إدراك التناسب بشكل عامّ، إلّا أنّ التناسب الضمنيّ لا يمكنه أن يكون دليلاً على الملازمة العينية أو العلمية بأيّ حال من الأحوال.

وأمّا ما يخصّ السؤال الثاني فإنّه ليس بإمكاننا إثبات أصل الارتباط بين التقوى والتعليم الإلهيّ الخاصّ إلّا بعد شرح وبيان بعض المبادئ التصوّرية والتصديقية المتعلّقة بالموضوع المذكور لكي يتّضح لنا أصل الارتباط وكيفيّته،



بالإضافة إلى تجلّي عدد من الأدلّة أو الشواهد ثمّ نَقد ثلّة من المتأخّرين الذين يُنكرون وجود ذلك الارتباط تماماً.

فلبيان المبادئ ينبغي الإشارة هنا إلى أنّ التقوى قد تكون بعيدة المنال إذا لم يتمّ معها أداء الفرائض وترك المناهي، وليس ذلك ممكناً إلّا من خلال معرفة الأحكام، والعلم بمثل تلك الأحكام إمّا أن يكون اجتهادياً أو تقليدياً، كما أنّ التقوى التي تُعتبر مَلَكَة نفسانية إمّا أن تكون مطلقة أو متجزئة، لكنّ أفضل درجات التقوى ما كانت مستندة إلى الاجتهاد المطلق لا المتجزّئ أو التقليد، وأن تكون تقوى مطلقة لا متجزّئة، وعليه، فلن تبقى أيّة حُجّة لإمكانية حصول التقوى من دون الحاجة إلى العلم، فأصل العلم بالأحكام يُعتبر أمراً ضرورياً بشكل عامّ، بينما تؤدّي مواصلة العمل بموجب تلك الأحكام إلى خلق مَلَكَة التقوى لدى الشخص.

وأمّا أصل الارتباط بين التقوى والتعليم الإلهيّ فيتمثّل في كون العلم هو من أكبر النّعَم وأفضل الآلاء الإلهية ولا ريب في أنّ جميع تلك النّعَم والآلاء تصدر عن الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[1]؛ لكنّ العناية الإلهية عند إفاضة كوثر العلم لا تشبه ابتلاء الله ﷻ واختباره للإنسان من خلال تكثير أمواله لأنّ المال يمكن أن يصل إلى البرّ والفاجر على حدّ سواء، أمّا العلم النافع والمعرفة الأصيلة فلا تُفاض إلّا على الأشخاص الذين يستحقّونها والذين هم أهلها.

وفيما يتعلّق بكيفية ارتباط التّقوى مع التعليم الإلهيّ فقد اتّضح لنا ذلك إلى حدّ ما بعد شرح الموضوع السابق، وملخّصه أنّ التعليم الإلهيّ ليس مُعلّلاً بعلّة فاعلية خارجة عن إرادة الله سبحانه وعِلمه الأزليّ، أي إنّ التقوى التي يتّصف

---

١ . سورة النّحل، الآية ٥٣.

بها العبد الصالح والسالك لا تُمثّل العلّة الفاعلية لتعليم الله، بل يعود ذلك إلى العلّة القابلية له فقط، أي إنّ تقوى ذلك العبد السالك وجدارته كانتا أرضيّتين مناسبتين لاستقبال الفيض الإلهيّ.

وأمّا تعليل الارتباط المذكور أو تأييده بتفسير عقليّ أو نَقليّ فيتمثّل في كون روح الإنسان مجرّدة والموجود المجرّد لا يكون متزمّناً ولا متمكّناً ولا موجّهاً إلى جهة من جهات العالَم المتعدّدة، ولذلك، فبإمكان مثل هذا الموجود أن يُقيم علاقة أو ارتباطاً بينه وبين ملكوت العالم الذي يُعتبر أصل العلم والكمال. ويُمثّل التعلّق الطبيعيّ رَيْناً على مُحيّاه، والمعصية هي أثقل غبار يجثم على القلب، لكنّ الإنسان السالك التّقيّ مُصان من ذلك الرّيْن ومحفوظ من هذا الغبار، ولهذا يكون قادراً على استقبال العلوم الإلهية التي تُفاض عليه من الغيب لتستقرّ في أعماق فؤاده وتنعكس على صفحات قلبه.

ورغم أنّ الآية الّتي هي موضوع البحث لا تُمثّل دليلاً على التلازم المذكور لكنّ قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾[1] يُعدّ برهاناً كاملاً ودليلاً ساطعاً على ذلك الارتباط لأنّ الآية مذكورة على هيأة شرط وجزاء، كما أنّه يمكننا الاستنباط من الآية الشريفة: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[2] على أنّه إذا أوفى عباد الله السالكون بعهده المتمثّل بمُراعاة التّقوى والتزموا بها فإنّ الله سبحانه من جانبه سيَفي بعهده معهم وهو تعليم الفرقان بين الحقّ والباطل والصّدق والكذب والخير والشرّ والحسن والقبيح والباقي والفاني والمُحكم والمُتشابه: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾[3]. ويُعتبر الحديث الشريف: «مَن أخلَص

---

١. سورة الأنفال، الآية ٢٩.

٢. سورة البقرة، الآية ٤٠.

٣. سورة البراءة، الآية ١١١.



لله أَرْبَعِينَ صَباحَاً ظَهَرَت يَنابيعُ الحِكْمَةِ مِن قَلْبِهِ عَلى لِسانِهِ»[1] سنداً آخر على وجود التلازم المذكور، وكذلك قصّة حارثة بن مالك التي أيّدها الرّسول الأعظم ﷺ وقال عنه: «**هَذَا عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ**»[2] فهي الأخرى شاهدة على صِدق موضوع الارتباط، والدليل المُعتبر الآخر على ذلك هو ما قاله أمير المؤمنين ومولى الموحّدين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ وأَمَاتَ نَفْسَهُ حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ ولَطُفَ غَلِيظُهُ وبَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ وسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ وتَدَافَعَتْهُ الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ ودَارِ الْإِقَامَةِ وثَبَتَتْ رِجْلَاهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ والرَّاحَةِ بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ وأَرْضَى رَبَّهُ**»[3]. وهذا يعني أنّه وكما يقوم التفكير العقليّ وتمهيد المبادئ والاستدلال بالحدّ الأوسط للبرهان بإيجاد الأرضية المناسبة للإفاضة الإلهية، ويصبح الاصغاء والاستماع إلى الدليل النّقلي الموثوق خلال مراحل إحراز السّند والصدور أوّلاً وضمان جهة الصدور ثانياً ثمّ

---

١. جامع الأخبار، الفصل الثاني والخمسون في اللسان، ص٩٤.

٢. «عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَمَّارٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام يَقُولُ: "إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَلَّى بِالنَّاسِ الصُّبْحَ فَنَظَرَ إِلَى شَابٍّ فِي الْمَسْجِدِ وَهُوَ يَخْفِقُ وَيَهْوِي بِرَأْسِهِ مُصْفَرّاً لَوْنُهُ قَدْ نَحِفَ جِسْمُهُ وَغَارَتْ عَيْنَاهُ فِي رَأْسِهِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا فُلَانُ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مُوقِناً؟ فَعَجِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ وَقَالَ: إِنَّ لِكُلِّ يَقِينٍ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ يَقِينِكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ يَقِينِي يَا رَسُولَ اللهِ هُوَ الَّذِي أَحْزَنَنِي وَأَسْهَرَ لَيْلِي وَأَظْمَأَ هَوَاجِرِي فَعَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي وَقَدْ نُصِبَ لِلْحِسَابِ وَحُشِرَ الْخَلَائِقُ لِذَلِكَ وَأَنَا فِيهِمْ وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمُونَ فِي الْجَنَّةِ وَيَتَعَارَفُونَ وَعَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ مُصْطَرِخُونَ وَكَأَنِّي الْآنَ أَسْمَعُ زَفِيرَ النَّارِ يَدُورُ فِي مَسَامِعِي! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: هَذَا عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: الْزَمْ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ. فَقَالَ الشَّابُّ: ادْعُ اللهَ لِي يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ أُرْزَقَ الشَّهَادَةَ مَعَكَ. فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِ النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتُشْهِدَ بَعْدَ تِسْعَةِ نَفَرٍ وَكَانَ هُوَ الْعَاشِرَ"». (**أصول الكافي**، ج٢، ص٥٣). [المترجم]

٣. نهج البلاغة، الخطبة رقم ٢٢٠، من كلام له عليه السلام في وصف السّالك الطريق إلى الله سبحانه.

تحقيق دلالة المَتن ثالثاً، يُصبح وسيلة صحيحة لاستقبال العلم الإلهيّ، فإنّ إصلاح القلب وتطهير الفؤاد من كَدر الرّيْن وظُلمة التعلّق وغبار التعيّن، واتّجاهه إلى الوجهة الربوبية ومواصلة المناجاة والرّجاء في ساحة القدس الإلهيّ والالتزام بجميع الأحكام الشرعية، يُمثّل كلّ تلك الأُمور سُلّماً آمناً وطريقاً مختصرة للارتقاء إلى قمّة العلم النافع؛ أي إنّ إحراز الشروط اللازمة لكلٍّ واحدٍ من المعقول البرهاني والمنقول القرآني والروائيّ والمشهود العرفانيّ هو السبيل القويم والصراط المستقيم الذي يوصلنا إلى المقصود الأسمى؛ لكنّ الجمع بين تلك العناصر الثلاثة ليس مقدوراً إلّا للخواصّ من الموحّدين. وأمّا ما يُقال من أنّ للتّقوى فوائد أخرى ومنافع جَمّة مثل تخلّص صاحبها من أيّ مأزق قد يقع فيه أو طريق مسدود قد يسلكه مُضطرّاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾[1] فإنّ ذلك لا يعني حصر فائدة التقوى فيه أو إسناد مفاد الآية الشريفة: ﴿إَن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾[2] إلى الآية السابقة، حتى عندما يتمّ في بعض الأحيان تقديم مراحل علمية مُعيّنة على التقوى ـ باعتبار أنّ التقوى التي لا تكون مدعومة بالعلم بالأحكام لا تكون سهلة المنال ـ فإنّ هذا أيضاً لا يعني عدم وجود مراحل علمية مؤخّرة عن التقوى، إذ لّما كان العلم الأوّلي بالأحكام حاصلاً وموجوداً وكان العملُ بذلك العلم الذي يُمثّل التقوى هو أمراً مفروضاً كانت الأرضية المطلوبة لإفاضة العلم الإلهيّ متوفّرة هي الأخرى. واستناداً إلى ذلك كلّه فإنّ النّقد الذي قدّمه بعض المتأخّرين[3] حول الارتباط والتلازم الموجودَيْن بين التقوى وحصول العلم الخاصّ لا أساس له من الصحّة.

---

١ . سورة الطلاق، الآية ٢.

٢ . سورة الأنفال، الآية ٢٩.

٣ . «اشْتُهِرَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْمُدَّعِينَ لِلتَّصَوُّفِ فِي مَعْنَى هَاتَيْنِ الْجُمْلَتَيْنِ ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ أَنَّ ←

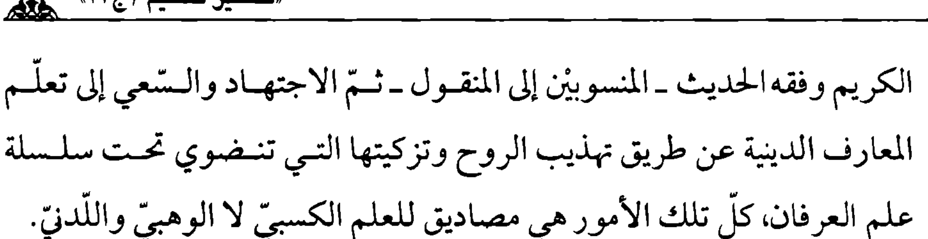
التَّقْوَى تَكُونُ سَبَبًا لِلْعِلْمِ، وَبَنَوْا عَلَى ذَلِكَ أَنَّ سُلُوكَ طَرِيقَتِهِمْ وَمَا يَأْتُونَهُ فِيهَا مِنَ الرِّيَاضَةِ وَتِلَاوَةِ الْأَوْرَادِ وَالْأَحْزَابِ تُثْمِرُ لَهُمُ الْعُلُومَ الْإِلَهِيَّةَ وَعِلْمَ النَّفْسِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ بِدُونِ تَعَلُّمٍ، وَهَذَا الزَّعْمُ فَتَحَ لِلْجَاهِلِينَ الَّذِينَ يَلْبَسُونَ لِبَاسَ الصَّلَاحِ دَعْوَى الْعِلْمِ بِاللهِ وَفَهْمِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَمَعْرِفَةِ أَسْرَارِ الشَّرِيعَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا قَدْ تَعَلَّمُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، وَالْعَامَّةُ تُسَلِّمُ لَهُمْ بِهَذِهِ الدَّعْوَى وَتُصَدِّقُ قَوْلَهُمْ أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي تَوَلَّى تَعْلِيمَهُمْ وَيُسَمُّونَ عِلْمَهُمْ هَذَا بِالْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ. وَيُرَدُّ اسْتِدْلَالُهُمْ بِالْآيَةِ عَلَى ذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَا يَرْضَى بِهِ (سِيبَوَيْهِ) وَلَهُ الْحَقُّ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ عَطْفَ ﴿يُعَلِّمُكُمْ﴾ عَلَى ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ يُنَافِي أَنْ يَكُونَ جَزَاءً لَهُ وَمُرَتَّبًا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَةَ، وَلَوْ قَالَ «يُعَلِّمْكُمْ» بِالْجَزْمِ لَكَانَ مُفِيدًا لِمَا قَالُوهُ، وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ الْعَطْفُ بِالْفَاءِ أَوِ اتَّصَلَ بِالْفِعْلِ لَامُ التَّعْلِيلِ. وَالثَّانِي: أَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا عِبَارَةٌ عَنْ جَعْلِ الْمُسَبَّبِ سَبَبًا وَالْفَرْعِ أَصْلًا وَالنَّتِيجَةِ مُقَدِّمَةً، فَإِنَّ الْمَعْرُوفَ الْمَعْقُولَ أَنَّ الْعِلْمَ هُوَ الَّذِي يُثْمِرُ التَّقْوَى، فَلَا تَقْوَى بِلَا عِلْمٍ فَالْعِلْمُ هُوَ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ، وَعَلَيْهِ الْمُعَوَّلُ... إِنَّنَا لَا نُنْكِرُ الْعِلْمَ الَّذِي يُسَمُّونَهُ لَدُنِّيًّا، وَإِنَّمَا نُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ غَايَةً لِذَلِكَ الطَّرِيقِ الْجَائِرِ الَّذِي يُشْتَرَطُ فِيهِ الْجَهْلُ، وَنَقُولُ: إِنَّ الْعِلْمَ بِاللهِ ـ تَعَالَى ـ وَالْعِلْمَ بِالشَّرْعِ وَالْعَمَلَ بِهِ مَعَ الْإِخْلَاصِ قَدْ يَصْرِفُ الْعَالِمَ الْعَامِلَ الْمُخْلِصَ إِلَى اللهِ ـ تَعَالَى ـ حَتَّى يَكُونَ كَالْمُنْفَصِلِ بِقَلْبِهِ وَرُوحِهِ عَنِ الْعَالَمِ الطَّبِيعِيِّ، وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ إِشْرَافٌ عَلَى مَا لَا يُشْرِفُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ يَعْنِي مِنْ أَسْرَارِ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالتَّحَقُّقِ بِبَعْضِ الْمَعَارِفِ الْغَيْبِيَّةِ، فَيَعْلَمُ مِمَّا قَصَّهُ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِ الْآخِرَةِ وَالْمَلَائِكَةِ مَا لَا يَعْلَمُهُ كُلُّ نَاظِرٍ فِي مَعَانِي الْأَلْفَاظِ وَالْأَسَالِيبِ فِي الْكِتَابِ، وَأَيْنَ هَذَا مِمَّا يَدَّعِيهِ أَعْوَانُ الْجَهْلِ وَأَعْدَاءُ الْعِلْمِ... إِنَّهُمْ يَسْتَدِلُّونَ عَلَى زَعْمِهِمْ ذَلِكَ بِآيَةٍ أُخْرَى تَوَهَّمَ بَعْضُ مَنْ كَتَبَ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّهَا بِمَعْنَى مَا قَالُوهُ هُنَا وَهِيَ قَوْلُهُ ـ تَعَالَى ـ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وَهُوَ غَلَطٌ. فَسَّرَ بَعْضُ أَهْلِ الْأَثَرِ الْفُرْقَانَ هُنَا بِالْمَخْرَجِ، فَالشَّرْطِيَّةُ عِنْدَهُ كَالشَّرْطِيَّةِ فِي قَوْلِهِ ـ تَعَالَى ـ فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وبعضُهم بِالنَّجَاةِ، وَبَعْضُهُمْ بِالنَّصْرِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَكُلُّ ذَلِكَ مُتَقَارِبُ الْمَعْنَى وَإِنِ اخْتَلَفَتِ الْعِبَارَاتُ، وَهُوَ كَمَا قَالَ فَإِنَّ الْآيَةَ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ وَمُعْظَمُهَا يَتَعَلَّقُ بِحَالِ الْمُسْلِمِينَ قَبْلَ وَاقِعَةِ بَدْرٍ، وَكَانُوا فِي ضِيقٍ شَدِيدٍ كَانَ الْخُرُوجُ مِنْهُ بِإِنْجَائِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ وَنَصْرِهِمْ عَلَيْهِ، وَمَا نُصِرُوا عَلَى قِلَّتِهِمْ إِلَّا بِتَقْوَى اللهِ الَّتِي جَمَعَتْ كَلِمَتَهُمْ وَقَوَّتْ عَزِيمَتَهُمْ. وَالتَّقْوَى تَكُونُ سَبَبَ الْفُرْقَانِ وَالْمَخْرَجِ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ؛ لِأَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنِ اتِّقَاءِ أَسْبَابِ الضَّرَرِ وَالْخِذْلَانِ فِي النَّفْسِ وَفِي الْخَارِجِ؛ وَلِذَلِكَ يُفَسَّرُ الْمَخْرَجُ فِي آيَةِ سُورَةِ الطَّلَاقِ ـ وَهِيَ فِي مَقَامِ الْإِنْفَاقِ عَلَى النِّسَاءِ ـ بِمَا لَا يُفَسَّرُ بِهِ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ، وَهِيَ فِي مَقَامِ الْمُدَافِعَةِ وَالْقِتَالِ لِحِمَايَةِ الدَّعْوَةِ وَأَهْلِهَا. هَذَا وَإِنَّ الْفُرْقَانَ

العِلم الوَهبيّ والعلم الكَسبيّ

إنّ العلم لغير الواجب تعالى، كالعالِم، هـو بحـدّ ذاتـه موجـود إمكـانيّ ولا يمكن الحصول عليه دون علّة وهي المعلّم أو الموجِد، وقد يحصل العلـم أحيانـاً بعد تحقّق الاستعداد والكفاءة وذلـك بواسـطة اجتهـاد المـتعلّم ومثابرتـه، وقـد يُحصَل عليه في أحيان أخرى دون تحمّل المتعلِّم لأيّة مشقّة أو جهد حيـث يكـون ذلك بإفاضة إلهية ابتداءً. ويشمل النّوع الأوّل العديد من الأقسام الفرعيـة مثـل البرهان والقرآن والعرفان، أي إنّ الاجتهـاد والمثـابرة العقليّـين وتحـصيل الحـدّ الأصغر والأوسط والأكبر للمعقول وكـذلك الـسّعي إلى تعلّـم تفـسير القـرآن

←

فِي اللُّغَةِ هُوَ الصُّبْحُ الَّذِي يَفْرُقُ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَيُسَمَّى الْقُرْآنُ فُرْقَانًا لِأَنَّهُ كَالصُّبْحِ يُفَرِّقُ بَـيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَتَقْوَى الله ـ تَعَالَى ـ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا تُعْطِي صَـاحِبَهَا نُـورًا يُفَـرِّقُ بِـهِ بَـيْنَ دَقَـائِقِ الشُّبُهَاتِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَهِيَ تُفِيدُهُ عِلْمًا خَاصًّـا لَمْ يَكُـنْ لِيَهْتَـدِيَ إِلَيْـهِ لَوْلَاهَـا. وَهَذَا الْعِلْمُ الَّذِي هُوَ غَيْرُ الْعِلْمِ الَّذِي يَتَوَقَّفُ عَلَى التَّلْقِينِ كَالشَّرْعِ أُصُولِهِ وَفُرُوعِـهِ، وَهُـوَ مَـا لَا تَتَحَقَّقُ التَّقْوَى بِدُونِهِ لِأَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنِ الْعَمَلِ ـ فِعْلًا وَتَرْكًا ـ بِعِلْمٍ، فَالْعِلْمُ الَّذِي هُوَ أَصْلُ التَّقْـوَى وَسَبَبُهَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِالتَّعَلُّمِ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ «الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ». وَالْعِلْمُ الَّذِي هُوَ فَرْعُهَا وَثَمَرَتُهَا هُوَ مَا تَفْطَنُ لَهُ النَّفْسُ بَعْدُ فَيُفِيدُهَا الرُّسُـوخَ فِي الْعِلْـمِ الْأَوَّلِ بِالْعَمَـلِ بِـهِ، فَـإِنَّ الْعِلْـمَ يَكُـونُ فِي النَّفْسِ مُجْمَلًا مُبْهَمًا حَتَّى يَعْمَلَ بِهِ، فَإِذَا عُمِلَ بِـهِ صَـارَ مُفَـصَّلًا جَلِيًّـا رَاسِـخًا تَتَبَـيَّنُ بِـهِ الـدَّقَائِقُ وَالْخَفَايَا، وَبِذَلِكَ تَفْطَنُ نَفْسُ الْعَامِلِ إِلَى مَسَائِلَ أُخْرَى تَطْلُبُهَا بِالتَّجْرِبَةِ وَالْبَحْثِ حَتَّى تَصِلَ إِلَيْهَا كَمَا يَعْرِفُ كُلُّ وَاقِفٍ عَلَى تَرَقِّي الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَشْـيَاءِ... وَإِذَا عَلِمْـتَ أَنَّ التَّقْـوَى عَمَلٌ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْعِلْمِ، وَأَنَّ هَذَا الْعِلْمَ لَا بُدَّ أَنْ يُؤْخَذَ بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّلَقِّي، وَأَنَّ الْعَمَلَ بِالْعِلْمِ مِـنْ أَسْبَابِ الْمَزِيدِ فِيهِ وَخُرُوجِهِ مِنْ مَضِيقِ الْإِبْهَامِ وَالْإِجْمَالِ إِلَى فَضَاءِ الْجَلَاءِ وَالتَّفْصِيلِ، فَهِمْتَ الْمُرَادَ بِالْفُرْقَانِ عَلَى عُمُومِهِ، وَعَلِمْتَ أَنَّ أَدْعِيَاءَ التَّصَوُّفِ الْجَاهِلِينَ لَا حَظَّ لَهُمْ مِنْ ذَلِـكَ الْعِلْـمِ الْأَوَّلِ، وَلَا مِنْ هَذِهِ التَّقْوَى الَّتِي هِيَ أَثَرُهُ وَلَا مِنْ هَذَا الْعِلْمِ الْأَخِيرِ الَّذِي هُوَ أَثَرُ الْعِلْمِ وَالتَّقْـوَى جَمِيعًـا، فَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ مَرْحَلَتَانِ بَعِيدَتَانِ: الْعِلْمُ الَّذِي يُؤْخَذُ بِـالتَّلَقِّي وَالتَّقْـوَى بِالْعَمَـلِ بِـهِ». (تفسير المنار، ج٣، ص١٢٨ ـ ١٣١). [المترجم]




الكريم وفقه الحديث ـ المنسوبيْن إلى المنقول ـ ثمّ الاجتهاد والسّعي إلى تعلّم المعارف الدينية عن طريق تهذيب الروح وتزكيتها التي تنضوي تحت سلسلة علم العرفان، كلّ تلك الأمور هي مصاديق للعلم الكسبيّ لا الوهبيّ واللّدنيّ.

وأمّا النّوع الثاني الذي يُسمّى بالعلم الوَهبيّ واللّدنيّ فهو العلم الذي لا يكون مشروطاً بأيّ واحدٍ من الطُرُق أو السُّبُل المذكورة لأنّ تلك هي علوم تندرج في لائحة العلم الكسبيّ ولا تتجاوز حدودها فهم المُراد أو المقصود من الكلام؛ لكنّ العلم الوهبيّ واللّدنيّ يمكن تحصيله دون مشقّة أو عناء ويشمل في طيّاته فهم المُراد أو المقصود من المتكلِّم نفسه وليس من كلامه، ولا ريب في أنّ مثل هذا الإدراك لا يكون إلّا من نصيب مَن نزل عليه القرآن الكريم (أو مَن كان بمنزلة نَفس المُتكلِّم). فالمعرفة الوهبية والعلم اللّدنيّ إذاً يختلفان عن معرفة الحكيم والفقيه (المحدّث) والعارف من ناحيتيْن: الناحية الأولى هي أنّ جميع تلك العلوم المذكورة لأولئك الأشخاص هي علوم كسبيّة بينما تُمنَح المعرفة اللدنيّة من غير كسب؛ أمّا الناحية الثانية فهي أنّ جميع أولئك الأشخاص يُحاولون بعِلمهم فهم مقصود المتكلّم من كلامه في حين أنّ المعرفة اللّدنيّة هي معرفة مُراد المُتكلّم ومقصوده من المتكلّم نفسه لا من كلامه؛ وأمّا نسبة ذينك الإدراكيْن فهي بشكل مُطلق ومُقيّد، بمعنى آخر، أنّه متى حصل إدراك المُراد من المتكلِّم نفسه فإنّ ذلك يعني إدراك المُراد من كلامه، ومتى كان المُراد حاصلاً من كلام المتكلِّم فلا ضرورة عندها تدعو إلى الحصول على المُراد من المتكلّم[1].

---

١ . «وأكثر الناس يتخيّلون أنّ العلوم الحاصلة عن التقوى علوم وهب، وليست كذلك، وإنّما هي علوم مكتسبة بالتقوى فإنّ التقوى جعلها الله طريقاً إلى حصول هذا العلم، والعلم الوهبيّ لا يحصل عن سبب بل من لدنه سبحانه، فالنبوّات كلّها علوم وهب لأنّ النبوّة ليست مكتسبة، والشرائع كلّها من علوم الوهب عند أهل الإسلام الذين هم أهله، وأُريدَ بالاكتساب في العلوم ←





تذكير: توجد ثمّة فروق أخرى غير تلك التي أشرنا إليها مثل الإحاطة العلمية والعصمة وغيرهما، إلّا أنّنا لن نخوض فيها في هذا المكان.

ثلاث مسائل مهمّة في الآية

تكرّر لفظ الجلالة ﴿الله﴾ ثلاث مرّات في ذيل الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث، وعلى عكس ما عوّدنا عليه القرآن الكريم فإنّه لم يُؤتِ بالضمير المناسب بدلاً منه، وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا التكرار يتضمّن إشارة إلى عظمة ثلاث مسائل مهمّة في الآية، هي:

١. أنّ التقوى الإلهية ضرورية ولازمة في جميع الموارد والحالات: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ﴾، فبالإضافة إلى كون الآية الكريمة قد تعرّضت إلى المسائل الفقهية والعَقَديّة كالتعليم الإلهيّ، يبيّن لنا الله ﷻ اهتمامه الكبير والخاصّ كذلك بالمسائل الخلقيّة حيث أتى بالموعظة المناسبة في ذيل كلّ موضوع؛ ففيما يتعلّق بكتابة عقد الدّيْن أمرنا الله تعالى بالتقوى ومُراعاة الأمانة في كتابته قائلاً: ﴿وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ

← ما يكون للعبد فيه تعمّل كما أنّ الوهب ما ليس للعبد فيه تعمّل، فإنّ القلب المؤمن بالله التقيّ الورع قد وسع الحقّ فتولّى الله تعالى تعليم عباده المتّقين... فتعلّموا مقاصد المتكلّم به لأنّ فهم كلام المتكلّم ما هو بأن يعلم وجوه ما تتضمّنه تلك الكلمة بطريق الحصر ممّا تحوي عليه ممّا تواطأ عليه أهل اللسان، وإنّما الفهم أن يفهم ما قصده المتكلّم بذلك الكلام، هل قصد جميع الوجوه الذي يتضمّنها ذلك الكلام أو بعضها، فينبغي لك أن تفرّق بين الفهم للكلام أو الفهم عن المتكلّم وهو المطلوب، فالفهم عن المتكلّم ما يعلمه إلّا مَن أُنزِلَ القرآن على قلبه وفهم الكلام للعامّة، فكلّ مَن فهم عن المتكلّم فقد فهم الكلام، وما كلّ مَن فهم الكلام فهم عن المتكلّم ما أراد به على التعيين، إمّا كلّ الوجوه أو بعضها، جعلنا الله ممّن رُزِقَ الفهم عن الله. ولهذا قيل: ما اتّخذ الله وليّاً جاهلاً قطّ، فإنّ الله يتولّى بالفعل تعليم أوليائه بما يشهدهم إيّاه في تجلّياته». (ابن عربي، تفسير رحمة من الرحمن، ج١، ص٤٠١ ـ ٤٠٢، بتصرف). [المترجم]



﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ واتّباع العدل والإنصاف عند الإملاء فقال: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ وفي نهاية المطاف أمرنا ﷻ بمُراعاة التقوى كذلك في المسائل المالية والاقتصادية بقوله: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ...﴾.

٢. أنّ الله سبحانه وتعالى هو الوحيد القادر على تعليمنا الأحكام الضرورية، ولا يحقّ لأحد أن يضع مثل تلك الأحكام أو القوانين باستخدام القياس والاستحسان وغير ذلك لأنّ هذا يُعتبر مُخالفاً للتقوى التي أمرنا الله باتّباعها ولهذا قال ﷻ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾. واستناداً إلى ذَيل الآية الشريفة الذي يشير إلى علّة مضمونها فإنّه ينبغي لنا الإصغاء إلى أوامر الله تعالى فيما يتعلّق بالأحكام لأنّه ﷻ هو العالِم بأسرار جميع الأشياء وحِكَمِها وهو المطّلع على مصالح المخلوقات والعباد كلّهم: ﴿وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٣. أنّ الله ﷻ عالِم وعارف بكلّ شيء ولا حاجة لأيّ مخلوق أن يقلق أو يحتار: ﴿وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلو كنّا أتقياء كما يريدنا الله أن نكون فإنّه سبحانه قادر على أن يُرينا سبيل الخلاص من أيّ طريق مسدود أو مأزق قد نقع فيه وقادر كذلك على تعليمنا التمييز بين الحقّ والباطل: ﴿إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾[1].

إنّ الله العزيز الحكيم وإن لم يَقُل في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث: «وَاتَّقُواْ اللّهَ يُعَلِّمُكُمُ اللّهُ» فيُشعر بوجود علاقة شرط وجزاء بين التقوى والتعليم، لكن يمكننا إدراك تناسبهما معاً من خلال عطف التعليم على التقوى.

---

١. سورة الأنفال، الآية ٢٩.

إشارات ولطائف

١. السّلامة الاقتصادية

لا أحد منّا يُنكر أنّ المال يُعتبر أساس وجود أيّ مجتمع على هذه البسيطة: ﴿أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾[1]، إلّا أنّ صحّة التصرّف في أموال الآخرين مرهونة بعنصرين محوريّين، هما: التجارة والرّضى: ﴿لَا تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[2]، وأمّا ما يخصّ مسائل الإرث والعطيّة وما شابههما فإنّ لها أحكامها الخاصّة بها. والإنسان، كما هو معروف، يُحبّ المال بطبعه وطبيعته وهو شحيح وبخيل به، وهناك العديد من الآيات القرآنية التي تشير إلى مثل هذه الخصال الطبيعية عند الإنسان، رغم أنّه [أي الإنسان] يمتلك في الوقت نفسه الكثير من الفضائل الفطرية التي يمكنها مُعالجة رذائله الطبيعية بل واستئصالها تماماً. وحيث إنّ الخصال الطبيعية المذكورة هي أقرب إلى طبيعة الإنسان ويمكن له أن يشعر بها أكثر من غيرها فإنّها غالباً ما تسبق الفطرة في الظهور على سلوك الأفراد بشكل يوميّ تقريباً، لكنّ الجزء الأكبر من القضايا التي تَرد إلى المحاكم يتناول المسائل المالية للأفراد.

إنّ التقدّم الصناعي المشهود في إنتاج السّلع وعرضها وبَيعها على شكل أقساط وما شابه ذلك أدّى إلى اتّساع رقعة المعاملات وتسبّب في الوقت نفسه إلى إخفاء الكثير من أسرار التعامل ورموزها وإيجاد المزيد من التعقيدات في تلك المعاملات. فدخول أعداد كبيرة من العاملين والتّجار على اختلاف مشاربهم إلى السوق واشتغالهم فيها من جهة، والغموض الذي يكتنف عمليّة عرض السّلع

---

١. سورة النساء، الآية ٥.

٢. سورة النساء، الآية ٢٩.



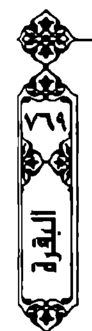
وبَيعها وخاصّة بالأساليب الحديثة من جهة أخرى، ثمّ ازدياد حجم التوقّعات في التكاثر والتفاخر والمنافسة بشكل يوميّ تقريباً، كلّ ذلك أدّى إلى تراجع مستوى الاعتماد الشعبيّ وضعف ثقة الناس بعضهم مع البعض. ورغم محاولات المحاكم العادلة وجهودها المُضنية الرّامية إلى رفع مثل تلك الخلافات وتضييق دائرة النزاعات بين الأفراد إلّا أنّ عملية الإدارة الحقّية والثقافة التجارية تلعبان دوراً بارزاً في الحفاظ على السلامة الاقتصادية، ولم يغفل الأنبياء والأوصياء عليهم السلام عن هذه النقطة المهمّة بل حثّت جميع النّصوص الدينية والكُتُب السّماوية على حَمل الشعار الدينيّ الخالد: ﴿**لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾[1].

ويتضمّن القيام بالقسط معنى جامعاً يشمل تطبيق العدل في التعامل ومُراعاة القسط وكتابة السندات وتحرير الوثائق والالتزام بمسؤولية الشهادة العادلة بشقَّيْها، قبولها والإدلاء بها عند الحاجة، ولعلّ ما ورد في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث: ﴿**ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُواْ**﴾ دليل واضح على توسّع معنى القيام بالقسط، والشيء نفسه يُقال بشأن قيام الأفراد بالإدلاء بشهاداتهم على نحو عادل الأمر الذي سيساعد على إزالة الشّكوك ورفع حالات الريبة في المعاملات كافّة.

تذكير: من الواضح أنّ ما نلاحظه من التعقيدات المتزايدة في عمليات التداين والتعامل التجاريّيْن يُعدّ شاهداً آخر على الضلال والتخبّط والحيرة والضّعف في التنظيم والتنسيق من قِبل النساء اللاتي غالباً ما يفتقدن إلى الحضور الفعّال في مثل هذه المسائل المعقّدة والحساسة.

---

١ . سورة الحديد، الآية ٢٥.



٢. حصول العلم بالعقل والنّقل والشهود

لا شكّ في أنّ مُراعاة الفقيه أو المحدّث المجتهد والباحث في النصوص النّقلية للشروط الخاصّة التي تمكّنهم من الحصول على العلم أو الطمأنينة هو أمر ضروريّ ولازم، ومن دون الالتزام بالشروط المذكورة فإنّ القطع أو الطمأنينة الحاصلة لا يمكن أن تكون منطقية أبداً بل عادة ما تكون نفسية وفي هذه الحالة لا يمكن تطبيقها إلّا على نفسها ولا تستطيع الخروج أبعد من مجالها هي، كما هي الحال عند حصول الحكيم أو المتكلّم الماهر على اليقين والطمأنينة فيما يتعلّق بالبراهين والمبادئ العقلية إذا التزم كلّ منهما بالشروط المطلوبة الخاصّة بالمعارف الموثوقة، وإلّا فإنّ اليقين الحاصل أو الطمأنينة الحاصلة سيكون نفسياً ولا تأثير لإحداهما إلّا عليهما فقط ولن تكون صفة اليقين أو الطمأنينة ذات قدرة وصلاحية في تعليم الآخرين. بالإضافة إلى ذلك نقول إنّ حصول العارف والسالك المهذّب على حالة القطع والطمأنينة في مسألة الكشف والشهود العرفانيّيْن مرهون بمحافظتهما على الصفات والواجبات الخاصّة بالمشهودات، وفي غير هذه الحالة سيكون شهودهما نفسيّاً لا مكان له في العرفان النظريّ ولن يستطيع مثل ذلك الشهود الدخول إلى مجاري العقل إطلاقاً ليكون قابلاً للتعلّم والتعليم.

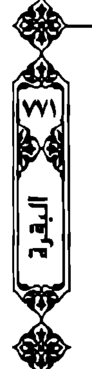
وهكذا نرى أنّ الالتزام بالشروط الخاصّة لكلّ علمٍ من العلوم المذكورة (النّقل والعقل والشهود) ومُراعاتها هو أمر ضروريّ، وأنّ كلّ واحد من العلوم المُشار إليها يُعتبر جزءاً من الشريعة ككلّ، إذ إنّ اليقين المنطقي يُعدّ حجّة فكرية ونظرية أيّاً كانت الطريقة أو الأسلوب الذي قادنا إلى الحصول عليه، وكذلك الطمأنينة المنطقية فهي حجّة عملية تُعطينا الضوء الأخضر للإقدام أو الضوء الأحمر للإحجام، أيّاً كانت الوسيلة التي مكّنتنا من بلوغها.



هـذا، ونلاحـظ في بعـض الأحيـان اسـتخدام العقـل في مقابـل الـشّرع أو الكشف مقابل الدِّين فيُقال مـثلاً: إنّ الموضـوع الفـلانيّ هـو موضـوع عقـليّ أو شرعيّ أو كشفيّ أو دينيّ؛ إلّا أنّ هذا التقابل غير الصحيح معناه وضـع المقسم مكان القَسيم لأنّ الشّرع ـ أي الدّين ـ هو عبارة عن مجموعة من المسائل العَقَديّة والخلقيّة والفقهية والحقّيّة وغيرها، أمّا مـصدر وجـوده الأصـليّ فهـي إرادة الله سبحانه وعِلمه الأزليّ، وأمّا طُرُق معرفته فهي المصادر الثلاثة المذكورة، وعليـه، لا يمكن للشّرع أن يكون مساوياً للنصّ المنقـول بـأيّ حـال مـن الأحـوال لأنّ الـدليل الـنقلي نفـسه يُمثّـل أحـد مـصادر المعرفـة الثلاثـة للـدين والتـي تُمثّـل بمجموعها الكاشف لمقصود المتكلِّم من كلامه؛ وأمّا كشف المقصود من المتكلّم نفسه فتلك ميـزة لا يُلقّاهـا إلّا الإنـسان الكامـل والمعـصوم الـذي يُعتـبر وليّـاً للجميع وسلطاناً على الجميع، وليس لأحد أن يُنازعه منزلته تلك وما مـن عِلـم أو إدراك يوازي ما يأتي به الوحي؛ أمّا بيان هذه النقطة الحسّاسة فهو من وظائف الكتاب الذي يُعدّ بمنزلة *العقل في هندسة المعرفة الدينية*.

٣. عناية النبيّ ﷺ بكتابة أهمّ سند دينيّ

يشغل موضوع التداين وتبادل المعاملات التجاريـة حيّـزاً كبـيراً مـن حيـاة الإنسان، وعندما أمر القرآن الكريم بكتابة الوثـائق والعقـود وتحريرهـا بـشكل دقيق كان ذلك أمراً مقدوراً عليه في المجتمع الإسلاميّ آنذاك ولـولا ذلـك لـتمّ درج هذه العملية في لائحة الأفعال العسيرة أو المُحرجة التي يصرّ القرآن الكريم على أدائها لأنّ الأمر بفعل عسير وحَرِج خارج عن إطار تعاليم الوحي المقدّس. ويتبيّن لنا من خلال الأمر الإلهيّ الخاصّ بكتابة العقود أنّ الـشّارع المقـدّس أراد بذلك صيانة المجتمع الإسـلاميّ مـن الهـرج والمـرج ومُراعـاة النظـام في الأمّـة الإسلامية وضمان استقرار ذلك النظام عَبر تحرير الـسندات والوثـائق والعقـود



وحماية استقلالية النظام بكلّ تفاصيله خصوصاً عندما تـتمّ كتابـة تلـك العقـود بصيغة عادلة والإملاء على نحوٍ مُنصف، وهو الهدف الذي أراد الشّارع المقدّس تحقيقه للأمّة الإسلامية. فكيف يمكن لأحد، والحـال هـذه، أن يتـصوّر تجاهـل الإسلام لكتابة أهمّ وثيقة دينية وسند وحييٍّ، ونعني بذلك القرآن الكريم، رغم توفّر الإمكانات والوسائل الخاصّة بالكتابة والتدوين بشكل كبير في تلك الفـترة من جهة، وأهمية هذه الوثيقة الدينية وخطورتها من جهـة أخـرى، بالإضـافة إلى كلّ التوقّعات التي أشارَ إليها القرآن الكريم في الكثير من آياته وسُوَره والمتمثّلـة في احتمال وقوع الأمّة الإسلامية في بـراثن الاختلافـات ومهـاوي الـصّراعات، والأهمّ من ذلك كلّه اهتمام الرّسـول الأعظـم ﷺ وآل بَيتـه الطـاهرين عليهم السلام أنفسهم وحرصهم على صيانة كيان القرآن. وهكذا، فـما مـن شـكّ في أنّ خـاتم النبيّين ﷺ ما كان ليتساهل في تنفيذ أمر كتابة جميع آيـات القـرآن الكـريم مـن أوّل آية إلى آخر آية فيه، فأمتثلت عِترته الشريفة عليهم السلام لأوامره وهيّأ وسـائله كـلّ أفراد أسرة آل ياسين عليهم السلام وأطاعته الأمّة جمعـاء، فـتمّ بحَمـد الله وجهـود نبيّـه العزيز ﷺ تدوين آي القرآن الكريم وكُتِبَ وخُطَّ بكل تفاصيله وبـذلك تمّـت صيانة كتاب الله وحُفِظَ من التلاعب به وعُصِمَ من التحريف المُحتمَل إلى الأبد.

بحث روائيّ

١ . عدد الأحكام في سورة البقرة والآية (٢٨٢) منها

وأمّا قوله: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا تَدايَنْتُم بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوه﴾، فقد رُوِيَ في الخبر أنّ «في سورة البقرة خَمس مِأة حُكم وفي هذه الآية خَمسةَ عَشَر حُكْماً»[1].

---

١ . تفسير القمي، ج١، ص٩٤.



إشارة: وفقاً للرواية المنقولة في أعلا السطر فإنّ سورة البقرة وَحدها تتضمّن خمسمائة حُكم إلهيّ؛ أمّا الآية الّتي هي موضوع البحث وحدها ففيها خمسة عَشر حُكماً. وتجدر الإشارة إلى أنّ الأرقام المذكورة ليست دقيقة فبعضها منقول صراحةً وبعضها الآخر تلميحاً، ومنها بالمطابقة وأخرى بالالتزام، وهكذا.

٢ . مُخالفة وصيّة الله

وقال الإمام أبو محمّد العَسكريّ عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: **﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِجالِكُم﴾**، قال: «**قالَ أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿شَهيدَيْنِ مِن رِجالِكُم﴾، قال: مِن أحراركم مِنَ المسلمين العُدول. قال عليه السلام: اسْتَشهِدوهم لِتحوطوا بِهم أديانكم وَأموالكم، وَلتَستَعمِلوا أدَبَ الله ووصيّته، وَإنّ فيها النّفع وَالبَرَكة، وَلا تُخالِفوها فَيَلْحَقكم النَّدَم حَيْث لا يَنفعكُم النّدم. ثمّ قال أمير المؤمنين عليه السلام: سَمِعْتُ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله يَقول: ثَلاثَة لا يَستَجيبُ الله دُعاءَهم، بَل يَعذلهم وَيُوبّخهم: ... وَالثّالث رَجُل أوْصاهُ اللهُ تعالى أن يَحْتاطَ لِدَيْنه بِشهودٍ وَكتاب، فَلَم يَفعَل ذلك وَدَفع مالَه إلى غَير ثِقَة بِغَير وَثيقة، فَجَحَده أو بَخسَه؛ فَهو يَقول: ألّلهمّ! يارَبّ! رُدّ لي مالي؛ يقول الله عزّ وجلّ لَه: يا عَبْدي! قَد عَلّمتُك كَيف تَستَوثِق لِمالَكَ لِيَكون مَحْفوظاً لِئَلا يَتعرّض للتّلف فَأبَيْتَ، فَأنتَ الآنَ تَدعوني وقد ضَيّعتَ مالَكَ وَأتْلَفته وَخالَفْتَ وَصيّتي؛ فَلا أسْتَجيبُ لَك. ثُمّ قالَ رَسول الله صلى الله عليه وآله: ألا فاسْتَعْمِلوا وَصيّة الله تُفْلِحوا وَتَنجوا، وَلا تُخالِفوها فتَنْدَمُوا!**»[١].

ـ عَن الصّادق عليه السلام عَن آبائه عليهم السلام قال: «**قالَ رَسول الله صلى الله عليه وآله: أصنافٌ لا يُستَجابُ لَهم: مِنهم مَن أدانَ رَجُلاً دَيْناً إلى أجَل فَلَم يَكتُب عليه كِتاباً وَلم**

١ . التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص٥١٠ ـ ٥١١؛ تفسير البرهان، ج١، ص٥٧٨.

يُشهِد عَليه شُهُوداً...»[1].

إشارة: لا ريب في أنّ تنظيم العقد أو السّند أو الوثيقة المُعتبرة واستشهاد الشهود على أيّ واحدٍ منها يُمثّل قبل كلّ شيء تحسّباً لأيّ طارئ قد يحدث في المستقبل لاسترداد الدّيْن والمحافظة على المال فضلاً عن أنّ ذلك العمل يعني التزام الأطراف بما أوصى به الله سبحانه ومُراعاة لأدبه؛ إذاً، فكلّ مَن لَم يمتثل لأمر الله ﷻ وتسبّب في ضياع مالِه وذهبت نَفسه على ما فعل حسرات ونَدِمَ حيث لا ينفعه النّدم، فلن يكون دُعاؤه مُستجاباً ولا نَدَمه سَكناً وتطيباً له.

وهذه الروايات وغيرها تُبيّن بوضوح أنّ الأمر بكتابة العقود وتحريرها واستشهاد الشهود كما ورد في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث، هو أمر إرشاديّ وليس أمراً مولويّاً.

٣. شهادة امرأتيْن تعادل شهادة رجل واحد

وقال الإمام العَسكريّ عليه السلام: «قالَ أميرُ المؤمنين عليه السلام: في قوله ﷻ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأتانِ﴾ قال: عَدلت امرأتان في الشّهادة بِرَجلٍ واحِدٍ؛ فإذا كانَ رَجُلان أو رَجُل وَامرأتان، أقامُوا الشّهادَة قُضِيَ بِشَهادَتِهم. قالَ أميرُ المؤمنين عليه السلام: كُنّا نَحنُ مَعَ رَسولِ الله [ﷺ] وهوَ يُذاكرنا بِقَولِه تعالى: ﴿واستَشهِدوا شَهيدَينِ مِن رِجالِكُم﴾... إذْ جاءَت امْرَأة، فَوَقفت قِبالَة رَسول الله ﷺ وقالَت: بِأبي أنْتَ وَأُمّي يا رَسولَ الله! أنا وافِدَة النّساء إليكَ... يا رَسولَ الله! إنّ الله ﷻ رَبّ الرّجالِ وَالنّساء وَخالِق الرّجالِ وَالنّساء وَرازِق الرّجالِ وَالنّساء، وَإنّ آدَمَ أبو الرّجالِ وَالنّساء وَإنّ حَوّاءَ أُمّ الرّجالِ وَالنّساء وَإنّكَ رَسول الله إلى الرّجالِ وَالنّساء؛ فَما بالُ امْرأتَيْن بِرَجلٍ في الشّهادَة وَالميراث؟

---

١. بحار الأنوار، ج١٠١، ص٣٠١؛ وسائل الشيعة، ج٧، ص١٢٦.



فقالَ رَسول الله ﷺ : يا أيّتها المرأة! إنّ ذلكَ قَضاءٌ مِن مَلِك [عَـدْلٍ حَكـيم] لا يَجور وَلا يَحيف وَلا يَتحامَل لا يَنْفَعه ما مَنَعكنّ وَلا ينقُصه ما بَـذل؛ لكـن يُـدبّر الأمرَ بِعِلمه، يا أيّتُها المرأة! لأنّكُنّ ناقِصاتُ الدّين وَالعَقْل. قالت: يا رَسول الله! وَما نُقصان دِيننا؟ قالَ: إنّ إحْداكُنّ تَقعُد نِصفَ دَهرِها لا تُصلّي بحَيْضة، وَإنّكُـنّ تُكثرنَ اللّعن وَتكفرنَ النّعمة؛ تَمكُث إحْداكنّ عِند الرّجل عَشر سِنين فَـصاعِداً يُحسِن إليها، وَيُنعم عَليها؛ فإذا ضاقَت يَدُه يَوْماً أو خاصَمَها، قالَت لَه: ما رَأيـتُ مِنْكَ خَيْراً قَطّ، فَمَن لَم يَكن مِـن النّـساء هـذِه خُلقهـا فالـذي يُـصيبها مِـن هـذا النّقصان مِحنَة عَليها لِتَصبِر؛ فَيُعظم الله تعالى ثَوابَها، فَأبْشري. ثُمّ قـالَ لَهـا رَسـول الله ﷺ : ما مِن رَجُل رَدِيءٍ إلّا وَالمَرأة الرّديّة أردأ مِنه، وَلا مِن امْرَأةٍ صـالِحَة إلّا وَالرّجل الصّالح أفْضَل مِنْها وَما ساوى اللهُ قَطّ امْرَأة بِرَجُل إلّا ما كانَ مِن تَسويَة الله فاطِمَة بِعَليّ عليه السلام»[١].

إشارة: إنّ مـا تناولتـه هـذه الأحاديـث وغيرهـا لا يـشمل العقـد الخـاصّ بالحكمة الغالبة بل المتعلّق بالعلّة الدائمة، فاهتمام المرأة بشؤون المنـزل ومهارتهـا في إدارته بشكل عامّ من جهة، وندرة تدخّلها في المسائل الاقتصادية والاجتماعية من جهة أخرى يمكنه أن يكون السّبب في تبرير الاحتياط القضائيّ بـشأن تعـدّد الشهود.

٤. النّهي عن الامتناع عن الشهادة

عَن أبي الحسن موسى عليه السلام في قول الله: **﴿وَلا يَأْبَ الشُّهَداءُ إذا مَـا دُعُـوا﴾** قالَ: «**إذا دَعاكَ الرّجلُ تَشْهَد عَلى دَيْنٍ أوْ حَقٍّ لا يَنْبَغي لأحَدٍ أنْ يَتقاعَس عَنْها**»[٢].

---

١ . التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص٥١٢ ـ ٥١٤؛ تفسير البرهان، ج١، ص٥٧٩.

٢ . تفسير العياشي، ج١، ص١٥٦.

ـ عَن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلا يَـأْبَ الـشُّهَداءُ إذا مَا دُعُـوا﴾ قالَ: «**لا يَنْبَغي لأحَدٍ إذا دُعِيَ إلى شَهادَةٍ لِيَشْهَد عَلَيها أن يَقول: لا أشْهَدُ لَكُم عَلَيها**»[١].

إشارة: لا يجوز تأخير الشهادة أو الامتناع عن الإدلاء بها فيما يتعلّق بالدَّيْن أو الحقوق.

* * *

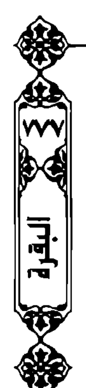
١ . تهذيب الأحكام، ج٦، ص٢٧٥.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

خلاصة التفسير

تُبيّن الآية الشريفة أنّ على المسافرين الذين لا يتمكّنون من كتابة عقود أو سندات مُعاملاتهم أو تداينهم ولا يجدون مَن يقوم بكتابة تلك العقود وتدوينها وتثبيتها نيابة عنهم، أن يأخذوا من المَدين ما يستحقّ تسميته بالرّهن مقابل الدَّيْن الذي أخذه من الدّائن زيادة في طمأنينة هذا الأخير النفسية على ماله وليكون بمثابة سَند بينهما.

لكنّ السّفر وعدم وجود الكاتب وأخذ الرّهن لا تشير إلى أيّ مفهوم مُعيّن، بل ولا تمثّل أيّ واحدٍ منها شرطاً لصحّة الرّهن، فعندما لا يكون هناك مَن يقوم بكتابة العقد وتحريره ولا مَن يشهد على الرّهن وعمد الدّائِن إلى إجراء المعاملة بينه وبين المَدين لمجرّد وثوق الأوّل بهذا الأخير واستناده إلى وعده بالإيفاء، فإنّ على المَدين أن يحفظ للدائِن حُرمة حُسن خُلُقه معه وتصرّفه الإنسانيّ إزاء طلبه



واعتماده على وعده، فيَفي بهذا الوعد من خلال تسديد الدّيْن وإرجاع حقّ الدّائِن في الوقت المُحدّد، وفي هذه الحالة تكونُ الضمانة لتنفيذ بنود مثل هذا العقد هي التقوى الإلهية التي ينبغي أن تحظى بأهمية كبيرة بين أفراد المجتمع الإسلاميّ تفوق أهمية كتابة العقود والشهادة.

وأمّا الشّهداء على إجراء المعاملة وتثبيت بنود الدّيْن فيها فلا يجوز لهم إخفاء شهادتهم بل يجب عليهم التعاون في المراكز القضائية والمحاكم ذات العلاقة من أجل إحقاق الحقّ والإدلاء بالشهادة على النّحو الذي أمرهم به الله سبحانه وتعالى، ولا يجوز للمَدين إنكار ثبوت الحقّ أو التملّص من الاعتراف بالحقيقة لأنّ كتمان الشهادة وإنكار الحقّ يُعدّان معصيتينِ وإثمين، والله ﷻ عالم بما يفعله الإنسان ومُطّلع على نواياه وأسراره.

التفسير

المُفردات

فَرِهَانٌ: الأصل الواحد في هذه المادّة هو أخذ شيء وضبطه في قِبال حقّ أو تعهّد، ومن مصاديقه [أخذ] الرّهن في قِبال الدّيْن وفي مقابلة المعاملة وفي قِبال مسابقة ومعاهدة[1].

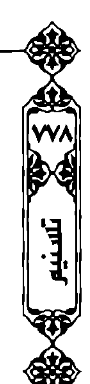
وقال الراغب الأصفهانيّ: «الرّهْن ما يُوضَع وَثيقة للدَّيْن، و(الرِّهان) مِثله، لكن يَخْتَصّ بما يُوضَع في الخِطار[2] وَأصلُهما مَصدَر»[3]. وحول جهة (المرهون) قال

---

١ . التحقيق في كلمات القرآن، ج٤، ص٢٥١، مادّة (ر ه ن).

٢ . «خاطَرَهُ مُخاطَرَةً على كَذا: راهَنَهُ، [و] أخطرَ المالَ: جَعَلَهُ خَطَراً بين المُتَراهنين، [و] تخاطَرَ القومُ على الشّيءِ: تَراهَنوُا، والخَطَر الجمع خِطار وجَمع الجمع خُطر: ما يُراهَن عليه وهو السَبَق». (المُنجد في اللغة، مادّة «خطر»). [المترجم]

٣ . مفردات ألفاظ القرآن، ص٣٦٧ـ٣٦٨، مادّة (ر ه ن).



الآلوسي في تفسيره: «الرّهان جمع (رَهْن) وهو في الأصل مصدر ثمّ أُطْلِق على (المرهون) من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول... كإطلاق لفظة (الخَلق) على المخلوقات»[1].

تناسب الآيات

كما هو واضح فإنّ هذه الآية الكريمة تُعتبر تكملة للآية التي سبقتها والخاصّة بتنظيم العقود التجارية وكتابة السندات وتحريرها وما إلى ذلك، فالآية الشريفة السابقة تحدّثت عن المُعاملات المكتوبة والمُستشهَد عليها بالشهود ولكن تتناول هذه الآية موضوع المعاملات غير المكتوبة التي تُنجَز بواسطة الرّهان والاعتماد والثقة بالطرف الآخر.

❋ ❋ ❋

موارد الرّهان

إنّ المُعاملات التي يتمّ إنجازها نَقداً وفوراً لا تحتاج إلى مَن يقوم بكتابتها بل تكفي فيها الشهادة، إلّا أنّ كتابة وتحرير المعاملة القائمة على الدّيْن المؤجّل واستشهاد الشهود عليها يُعدّ أمراً ضرورياً وفي غير هذه الحالة فإنّه لا بدّ من أخذ الرّهان أو الرّهن.

ولا يُشترط السّفر وعدم وجود الكاتب في مثل هذه المعاملات: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا﴾ لأنّ الآية الشريفة تشير إلى الموارد التي تحتاج إلى التعامل بالرّهان وليس الاشتراط ولم تَجر العادة بأن يصحب كلّ مسافر معه مَن يتولّى كتابة العقود وتحريرها أثناء السّفر، وهنا يكون الدّائِن في أمسّ الحاجة إلى

---

١ . تفسير روح المعاني، ج٣، ص١٠١.



أخذ الرّهان من المَدين، ولكن إذا كان جميع أطراف المعاملة في الحضر أو في أوطانهم التي تكون مكان استقرارهم فإنّ هناك العديد من الطرُق الّتي هي أكثر سهولة ويُسراً التي تضمن عدم ضياع الحقوق. وعلى أيّة حال فإنّ ظاهر الآية لا يشترط الرّهن في السّفر أو في حال عدم وجود الكاتب لكي يكتسب ذلك مفهوماً ما، أو عدم جواز الرّهن في الحضر ومع وجود الكاتب إطلاقاً.

واستند بعض المفسرين في عدم الاشتراط المذكور إلى رواية منقولة عن الرّسول الأعظم ﷺ تُشير إلى أنّه ﷺ رهن درعه في المدينة من يهوديّ[1]، إلّا أنّه ـ وكما مرّ بنا ـ لا مفهوم للشرط في الآية الشريفة وفقاً للقرينة المتعلّقة بالموضوع المذكور فيها، وعليه، فلا حاجة بنا إلى الاستناد إلى الرواية المذكورة لإثبات عدم انعقاد المفهوم وإنّما يُمكن اعتبار تلك الرواية دليلاً آخر يؤيّد عدم وجود مفهوم الشرط.

ويمكن تلخيص ما قيل بما يلي:

١. إذا لم يكن الشرط مُقرّراً لموضوع مُعيّن فهو يمتلك مفهوماً ما.

٢. إنّ الخلاف حول مفهوم الشّرط وما شابهه يُعدّ قضية صغرى وليست كُبرى؛ بمعنى: هل سينعقد مثلاً مفهوماً ما للشرط أم لا؛ وما إذا كان ذلك سيُمثّل حجّة في حال انعقاد المفهوم.

الرّهن، أمر إرشاديّ أم مولويّ؟

يُعتبر أمر الرّهن أو الرّهان أمراً إرشاديّاً وليس مولويّاً ويعود إلى الأغراض

---

١. «عن جعفر بن محمد، عن آبائه عليهم السلام قال: "لقد قَبض رسول الله ﷺ وإنّ درعه لمرهونة عِند يهوديّ من يَهود المدينة بعشرين صاعاً من شعير استلفها نَفقة لأهله"». (**وسائل الشيعة**، ج١٨، ص٣٢٢)؛ أنظر كذلك: **غرر الحكم**، ص١٢٠. [المترجم]



والمقاصد العقليّة المُشار إليها قبل هذا في قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾[1]، تماماً كالأمر المذكور في الآية السابقة حول ضرورة كتابة العقود واستشهاد الشهود حيث لم يكن ذلك الأمر مولويّاً وفقاً للدلائل الموجودة في نصّ الآية الكريمة نفسها؛ وأمّا ما يتعلّق بموضوع الرّهان فإنّ من شأنه أن يزيد في الطمأنينة النفسية للدّائِن إلى جانب تحرير وتدوين مُعاملة الرّهن. كما هي الحال مع الكتابة والشهادة، فإنّ الرّهن كذلك لا يُعدّ شرطاً وضعياً يُبطل غيابه المعاملة برمّتها رغم أنّ البعض ما زال يُصرّ على كونه شرطاً وضعياً بالفعل وأنّ المعاملة تصبح باطلة بدونه.

الحكمة في تشريع الرّهان

إذا اعتبرنا أنّ كلمة «مَقبوضَة» في قوله تعالى: ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ لقب أو شرط ـ أي، أن يكون القبض وصفاً للمرهون أو شرطاً على صحّة الرّهن ـ حينئذ لن يكون لها أيّ مفهوم لأنّها لا تشير إلى الحصر ولا تمتلك فائدة مُعيّنة، لكن ربّما تضمّنت فوائد أخرى أُشير إليها من خلال ذكر الوصف أو الشّرط.

وتكمن الحكمة في تشريع الرّهان، كما هو واضح من ظاهر الآية الشريفة، في كونه سبباً وجيهاً لزيادة طمأنينة الدّائِن النفسية في استعادته لحقّه من المَدين حيث سيكون بإمكان الدّائِن استرجاع حقّه الماليّ عَبر بَيع المرهون إذا عجز المَدين عن تسديد دَينه، وإذا لم يستند الدّيْن إلى عين المرهون فلا فائدة تُرتجى عندئذ من ذلك.

وبدلاً من أن يدرك الحكمة في تشريع موضوع الرّهان الذي لا يُستَردّ إلّا بوجود عين المرهون، اعتبر أمين الإسلام الطبرسيّ رحمه الله القبضَ هو الأساس في

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٨٢.



صحّتها مُدّعياً الاجماع على ذلك[1]، فيما اعتبر آخرون أنّ القبْض يُمثّل شرط لزوم الرّهان لا شرط صحّته[2]؛ ولكن، كما بيّنا من قَبل، أنّ المقصود بكلمة «مَقبوضَة» هو ضمان الحكمة في تشريع الرّهان لا صحّتها أو شرط لزومها. وأمّا الرواية التي استند إليها البعض فعاجزة عن إثبات شرطية القبض وذلك لاشتمالها على الرّاويَيْن (الحسن بن محمّد بن سماعة) و(محمّد بن قيس) المشتركيْن في الثقة والضّعف[3]. حتى لو تغاضينا عن الكلام المذكور لكانَ قبض العين هو شرط لزوم الرّهان لا صحّتها ومثلها القبض في الهِبة وعكسه القبض في بيع السّلم والصّرف.

إذا أوكل الرّاهنُ المُرتهنَ أثناء معاملة الرّهن أو بعدها وفوّضه بَيع العين المرهونة أو الانتفاع بها في حال عَجز الرّاهِن عن تسديد الدّيْن، فعندئذٍ يجوز للمرتهن فعل ذلك، وإلّا فبإمكانه [أي المرتهن] اللجوء إلى محكمة العدل والحصول على أمر من القاضي باسترداد حقّه إمّا بالانتفاع من العين أو بَيعها.

دور الأخلاق في المجتمع

ذكرنا قبل هذا أنّ الأوامر والأحكام الإلهيّة في القرآن الكريم سيّما تلك

---

١ . قال الطبرسيّ ﵀: «ويجوز أن يكون التقدير فرهان مقبوضة يقوم مقام الوثيقة بالصك والشهود والقَبْض شرط في صحة الرّهن فإن لم يُقْبَض لم يَنعقد الرّهن بالإجماع». (**تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٨٦). [المترجم]

٢ . قال الشهيد الثاني ﵀: «فشرط السّفر ومفهوم الشرط حجة؛ وأُجيبَ بأنّه مبنيّ على الأغلب، فإنّ عدم الكاتب عادة لا يكون إلّا في السّفر. ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وهل القبض شرط فيه؟ قيلَ: لا، وقيلَ: نعم، وهو الأصحّ». (**مسالك الافهام إلى تنقيح شرائع الإسلام**، ج٥، ص١٢). [المترجم]

٣ . «محمد بن الحسن بإسناده عن الحسن بن محمد بن سماعة، عن صفوان، عن عاصم بن حميد، عن محمد بن قيس، عن أبي جعفر ﵇ قال: "لا رَهن إلّا مَقْبُوضاً"». (**وسائل الشيعة**، ج١٨، ص٣٨٣)؛ أنظر أيضاً: **تهذيب الأحكام**، ج٧، ص١٧٦، الحديث رقم «٧٧٩».



المتعلّقة بكتابة عقد الدّيْن واستشهاد الشهود عليه وقبض الرّهان ليست أحكاماً تعبّدية صرفة بل هي أوامر إرشادية وُضِعت من أجل الحفاظ على مصالح العباد خاصّة في المسائل الاقتصادية والتجارية، والحقّ أنّها أحكام يُراد بها إزالة العديد من المشاكل والعقبات المالية التي يواجهها الناس بشكل مستمرّ إذا تمّت إدارة المجتمع الإسلاميّ على أساس تلك الأحكام؛ إلّا أنّ ما نودّ الإشارة إليه باعتباره أبعد من أيّ قانون تجاريّ وأوسع من كلّ منطق اقتصاديّ هو العلاقات الخلقيّة الصحيحة التي يمكنها أن تحلّ محَلّ الأحكام الإرشادية التي أُنيطت بها مسؤولية إحقاق حقوق الأفراد وخلق الطمأنينة النفسية في المجتمع في المجال الاقتصاديّ؛ ولكن، إذا وثق أحدهم بالآخر ولم يَجد أفضل منه لائتمانه على أمواله، فعندئذٍ لن يكون هناك أيّ مجال للقلق والخوف اللذيْن يدفعان الأفراد في العادة إلى اتّخاذ الرّهان الذي قد يشير بشكل أو بآخر إلى تخوين الآخر، ولو سارَ كلّ شيء بضمان تطبيق التقوى الإلهية ما استطاع أيّ عاقل تصوّر ضياع حقّ أحد من الناس إطلاقاً: ﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ**﴾ وهذا يعني حصول الدّائِن على ماله وعدم حاجة المَدين أو اضطراره إلى وضع أيّ رهان.

وما زلنا نذكر أنّ الله سبحانه أمرنا في الآية الشريفة التي سبقت الآية الّتي هي موضوع البحث باتّباع التقوى بعد الأمر بكتابة عقد الدّيْن واتّخاذ الشهود. ولبيان أهميّة حقوق الأفراد والمحافظة على حُرمة الأمانة، فقد أمرنا الله ﷻ في هذه الآية كذلك بألّا نحيد عن التقوى في إشارة واضحة إلى أنّ الشخص الأمين يحظى بعناية الله ويعيش في كَنفها، وأنّه إذا حاول إساءة استخدام صفاء الإيمان وروح الثقة فإنّ عليه أن يتحمّل تَبعات الغضب الإلهيّ، ولا يخفى أنّ المحور الرئيسيّ للتقوى هنا هي التقوى الاقتصاديّة.



هذا، ويبرز دور الأخلاق والخصال الطيّبة جليّاً وبشكل يفوق أبعاد القوانين واللوائح وذلك من خلال سَوق المجتمع الإسلاميّ وهدايته باتّجاه مُراعاة المسائل الخلقِيّة بكلّ تفاصيلها، فممّا لا شكّ فيه هو أنّ اتّخاذ العلاقات الخلقيّة الصحيحة كمعيار وحيد للتعامل من شأنه أن يؤدّي إلى عدم اضطرار أيّ فرد عصرته الحاجة إلى بَيع أثاث منزله أو تقديمه كرهان مقابل ما يحتاج إليه من المال، بل حتى إذا ضاقت به الدّنيا بما رَحُبت وأجبره الزّمن على البَيع فقد لا يكون مضطرّاً إلى وضع ما باع كرهان مقبوضة ما قد يسهّل عليه أموراً كثيرة أخرى.

ومعنى هذا أنّ الحقّ يشكّل أساس هندسة الوجود وأنّ الحقيقة هي التي تضمن تماسك أضلاع الشكل الهندسيّ لأصل الخلقة وهذا يعني إلغاء أيّ وجود للباطل فيها، أمّا المُبطل فتجده حيران على الدّوام لا يجد نهاية لطريقه المظلم، وهذا ما يحاول الملحدون وأصحاب الباطل إيجاده عَبر وضع برامج لا تتضمّن سوى الهرج والمرج في كلّ شيء؛ في السلوك والأقوال والأفعال. وقد بيّن الله سبحانه سرّ افتقاد أعمال المبطلين المُلحدين إلى النظام والدقّة وأنّ السبب في ذلك كلّه هو مُعارضتهم للحقّ ومكابرتهم في مقابل العدل فقال عنهم: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[1]. ولمّا كان الدِّين أفضل عامل لإيجاد الانسجام والمواءمة في الحياة الفردية والاجتماعية كانَ باستطاعته خلق وإيجاد مثل تلك الحياة وتصميم أشكالها ووضع أُسسها: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2]. فالموحِّد يجتهد في المحافظة على قاعدته

١ . سورة ق، الآية ٥.

٢ . سورة التوبة، الآية ١٠٩.



العَقَديّة والخلقيّة والسلوكية وإبقائه كالبنيان المرصوص بعيداً عن خطر السقوط والانهيار، على عكس المُلحِد الذي يبني بيته على جُرف مُتصدّع وهارٍ مُعرّض للسقوط والانهيار في أيّة لحظة.

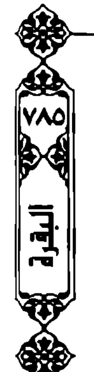
وهكذا الحال مع التداين والمُعاملات التجارية وكلّ التعاملات الاقتصادية الأخرى، فعندما يتمّ تنظيمها على قاعدة قويّة قوامها العدل والتّقوى فلا شكّ في أنّ كلا طَرَفَيْ المعاملة سيكون مرتاحاً ومطمئنّاً وهذه نعمة كُبرى لا يشعر بها إلّا مَن خاض غمارها، فإذا جاء وقت التسديد فلن يكون هناك أيّ تأخير ولا مجال للتعطيل، ولتجنّب احتمال الوقوع في خطر النسيان والغفلة يُقدِم على كتابة العقود بالعدل وتحمّل كلّ طرف لمسؤوليّته في الحَدث والإدلاء بالشهادة بإنصاف، كلّ ذلك كفيل بتصحيح أيّ خطأ مُحتَمَل أو سهو طارئ. وبناءً على ذلك يمكننا التغلّب على العصيان والتمرّد بالعدل والتقوى، والنّسيان والسّهو من خلال تنظيم العقد على أساس العدل والإدلاء المُنصف للشهادة، ولا ريب في أنّ كلّ هذه الثّمار هي من بركات صَرح التقوى والأخلاق، وما قوله سبحانه وتعالى حول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[1] إلّا صورة شاملة لشؤون الدّنيا والآخرة.

عدم كتمان الشهادة

يأتي النّهي عن كتمان الشهادة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ﴾ إمّا إشارة إلى تحمّل الشهادة والإدلاء بها عند الضرورة فيكون المُخاطَب هنا هم الشهود والمطلوب منهم هو الإدلاء العادل بالشهادة وتحمّل أعبائها كما أمرهم الله، وإمّا أن يكون المقصود بقوله سبحانه هو عدم إنكار ثبوت الحقّ وهنا يكون

---

١ . سورة الإسراء، الآية ٩.



المَدينون هم المَعنيّين بالخطاب المذكور والامتثال لأمر الله ﷻ بقولهم الحقّ والاعتراف بالدّيْن ولو كان على غير ما يتمنّون.

وفي آية قرآنية أخرى أُشير إلى الإقرار بالشهادة والاعتراف بها وإن كانت على غير ما يهوى الشاهد، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لله وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ...﴾[١] ومن الواضح أنّ عبارة ﴿وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ تشير إلى مسألة (الإقرار) في حين استخدمت الآية الشريفة عنوان (الشهادة). هذا من ناحية، أمّا من الناحية الأخرى فلمّا كان الوالدان والأقربون يُمثّلون الشخص نفسه فإنّ شهادة هذا الشخص ضدّهم كأنّها شهادة ضدّ نفسه وإقرار منه بذلك.

تذكير: إنّ الأمر بتحمّل أعباء الشهادة والإدلاء بها من جهة ثمّ النّهي عن كتمانها من جهة أخرى لا يعني وجوب الشهادة استقلالياً أو حرمة استقلال كتمان الشهادة حيث يترتّب على كلّ منهما من الناحية الفقهية تكليفان مستقلّان ونوعان مختلفان من العذاب كذلك من الناحية الكلامية، بل هو حكم فقهيّ واحد لا غير حيث تمّ التأكيد عليه تارة بالنّهي عن الكتمان وتارة بترتّب الإثم إزاءه حتى يتجلّى للعباد أنّ ترك الواجب لا يختلف عن ارتكاب الإثم بالقلب.

القلب الآثِم

برع القرآن الكريم كعادته في وصف كتمان الشهادة بالإثم القلبي فيما أكّد ورود لفظة (القلب) في الآية الشريفة: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ على المعصية الناجمة عن كتمان الشهادة إذ إنّ نسبة فعل إلى عُضو مُعيّن من أعضاء الجسم تشير إلى تأكيد

---

١. سورة النساء، الآية ١٣٥.



تلك النسبة خاصّة إذا تمّ ذِكر العضو المذكور بالاسم كقولنا مثلاً: «رأيتُ بعَيْنَيّ» و«سمعتُ بأُذُنَي» و«كتبتُ بيَدَيّ». ورغم ذلك كان بالإمكان فهم مقصود الآية حتى لو لم يُذكَر فيها اسم القلب صراحة، وهو كونُ إثم كتمان الشهادة نابعاً من القلب حيث يمكن بيان ذلك أحياناً بالقلم واللسان، لكنّما أراد القرآن الكريم التأكيد على أنّ ذلك الإثم صادر عن القلب من خلال ذِكر كلمة ﴿قَلْبُهُ﴾.

نعم، كلا الفعلَيْن: الإثم من جهة والإيمان والتقوى من جهة أخرى يصدران عن القلب، فالأوّل قد ذكرته الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث وهو: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ وأمّا الثاني فمثل قوله سبحانه: ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾[1] و﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[2]، وعليه، فإنّ مصدر الفساد ومنشأ بروز الصلاح وأثر كلّ واحدٍ منهما، أي الضّيق والسّعة، هو قلب الإنسان وروحه.

والمعروف أنّه يُحرَم كتمان الشهادة في محاكم العدل بينما لا تجب في محاكم الظلم.

تذكير: ليس بمقدور أيّ عضو من أعضاء الجسد أن يرتكب المعصية أو الإثم لأنّ تلك الأعضاء إنّما هي وسائل وأدوات تعمل تحت إمرة الرّوح، وهذه الرّوح التي تُسمّى أحياناً بالنّفس أو القلب والفؤاد في أحيان أخرى، هي التي ترتكب المعصية وما الأعضاء في الجسم سوى أدوات تستخدمها الرّوح لتحقيق مآربها، ولهذا عندما تُؤمَر الأعضاء والجوارح بالكلام والشهادة يوم القيامة بما قامت به وارتكبته في هذه الدّنيا فإنّ كلامها هو بمثابة شهادتها بما أُجبِرت على

---

١ . سورة المجادلة، الآية ٢٢.

٢ . سورة الحجّ، الآية ٣٢.

فعله من قِبل الرّوح وليس إقراراً أو اعترافاً: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1] لكن عندما يُنطَق الشخص نفسه يوم القيامة يُسمّى كلامه ونُطقه اعترافاً كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[2] وإن تمّ التعبير عن الإقرار بـ(الشهادة) كذلك في بعض الأحيان وعندئذ يُؤتى بالقرينة مع الكلام لبيان أنّ المقصود بالشهادة هو الإقرار نفسه.

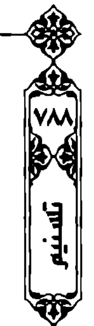
الوعد والوعيد

إنّ الله سبحانه وتعالى هو أعلم بمَن يعمل بالأحكام الشرعية ويلتزم بها ومقدار عمله والتزامه بتلك الأحكام وكذلك الدّوافع التي تدعوه إلى فعل ذلك، وهو أعلم أيضاً بمَن يُخالفها ويأبى الامتثال لها: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وبما أنّ الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث كانت قد ذكرت الأمر الإلهيّ بأداء الأمانة جنباً إلى جَنب مع النّهي عن كتمان الشهادة، فإنّ ذَيل الآية، وهو قوله سبحانه: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ يحمل مضمون الوَعد والوعيد معاً؛ الوَعد بالبشارة لِمَن ائتمر بأوامر الله ﷻ وعمل بنَهيه وتبشيره بالأجر المحفوظ له عند الله سبحانه كما يستحقّ، وكذلك الوعيد للظالمين وتنبيههم بأنّ علم الله تعالى وعدله بالمرصاد وأنّه ﷻ سيحاسبهم على ما اقترفوا من الذنوب والمعاصي.

---

١ . سورة فصّلت، الآيتان ٢٠ و ٢١.

٢ . سورة المُلك، الآية ١١.



إشارات ولطائف

١. عدم اختصاص الرّهان بالقَرض

يمكن قبض الرّهان مقابل أيّ طلب سواء أكان ضماناً للمعاوضة الناجمة عن القرض وبيع السّلم والنسيئة أم ضمان اليَد الناشئ عن التّلف أم الغصب وما شابههما، إذ يمكن أن يُصبح المال في ذمّة الشخص في حالتيْن غير القرض، هما:

أ. ضمان اليَد حيث يُعتبر مَن تسبّب بإتلاف مال الآخرين ضامناً لذلك المال وفقاً للقاعدة المعروفة: «على اليَدِ ما أخَذَت حتى تُؤدّي»[1].

ب. ضمان المعاوضة ويكون كلّ واحدٍ من طَرفَيْ المعاملة ضامناً للثّمن والمُثمّن؛ ففي النسيئة يكون الثّمن هو الدّيْن بينما يكون المُثمّن هو الدّيْن في بيع السّلم. وفي مثل هذه الحالات يُصبح المال بعهدة الطرفيْن من خلال ضمان المعاوضة؛ إذاً، فباستطاعة الدّائِن في القرض وضمان اليَد وضمان المعاوضة (النسيئة والسّلم) الاحتفاظ بالرّهان مُقابل الدّيْن.

٢. لزوم عقد الرّهان وجوازه

لا يُعتبر عقد الرّهان لازماً للطرفيْن ذاتياً كالبَيع ولا هو جائز للطرفيْن ذاتياً كما هي الحال مع الهِبَة المُعطاة إلى ذوي الأرحام، بل هو لازم من قِبَل الرّاهِن وجائز بالنسبة إلى المُرتهن، ولهذا فبإمكان المُرتهن إعادة العين المرهونة إلى الرّاهِن مع بقاء عقد الرّهن كما هو، فلا قَبْض العين المرهونة هو شرط لصحّة الرّهن ولا إرجاعُها إلى الرّاهن يُعتبر بمثابة فسخ لعقد الرّهن إلّا إذا وُجدت القرينة على

---

١. نهج الحقّ وكشف الصّدق، ص٥٠٧؛ مُستدرك الوسائل، ج١٤، ص٨.

ذلك الفسخ. وبعبارة أخرى، في حالة اشتراط الرّهن بالقبض لا يلـزم اسـتمرار ذلك القبض، وعليه يمكن للمرتهن إرجاع العين إلى الرّاهِن مع بقاء عقد الرّهن نافذاً.

وحتى في حال عدم تسلّم المرتهن العين المرهونة فإنّ عقد الرّهن يبقى نافـذاً كذلك (إلّا إذا اعتبر أحدهم القبض شرطاً لصحّة الرّهن) ومع ذلك فإنّ تصرّف الرّاهِن بالعين يظلّ منوطاً بإذن المرتهن وإجازته لأنّ المـال المرهـون لم يَعُـد مـالاً طِلْقاً للرّاهِن بواسطة الرّهن، بل يُعتبر في هذه الحالة مالاً أو مُلكاً مُقيّداً حيث تمّ تَقييد حقّ الرّهانة بهذا المال عينه. ولا يخفى هنا أنّه يحقّ للـرّاهِن الانتفـاع بـالعين المرهونة ما لَم يسمح الرّاهن للمُـرتهن بالاستفادة مـن منـافع العـين بالفعـل أو بالقوّة.

بحث روائيّ

١ . تطبيق الرّهن في موارد الدّيْن

سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عَن السّلم في الحيوان والطعام ويَرتهن الرّجلُ بِمالِـه رَهناً؛ قال: «**نَعَم، اسْتَوْثق مِن مالِك**»[1].

إشارة: يجـوز للشخص، بل ومن المستـحسن له أن يستوثق في بَيـع الـسّلم من أجل المحافظة على ماله، وقد أشرنا قبل هذا إلى مـا قـامَ بـه رسـول الله صلى الله عليه وآله عندما رَهن درعه من يهودي في المَدينة بعشرين صاعاً مـن شـعير استلفها نَفقـة لأهله[2].

---

١ . مَن لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٢٥٩؛ وسائل الشيعة، ج١٨، ص٣٧٩.

٢ . راجع: تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص١٢٥.



٢ . قبض الرّهان

عَن أبي جعفر عليه السلام قال: «لا رَهْن إلّا مَقْبوضَاً»[1].

إشارة: بيّنا فيما مضى في البحث التفسيريّ ضَعف هذه الرواية وذكرنا بأنّ القبض يُعدّ شرط لزوم الرّهن لا شرط صحّته، فالرّهن لا يشبه البَيع الصّرف أو بَيع السّلم بحيث يبطل إذا لم يتمّ القبض، بل حتى في حال افتراض قبول الاعتبار الوضعي للقبض فإنّه يكون كالهِبة حيث لا يكون لازماً بدونها.

٣ . العيْن المرهونة أمانة

قالَ أبو عبد الله عليه السلام في رَجلٍ رَهن عِند رَجل رَهناً، فَضاعَ الرّهن، قال: «هُوَ مِن مالِ الرّاهِن وَيرجع المُرتَهِن عَليه بِمالِه»[2].

ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «في الرّهن إذا ضاعَ مِن عِند المرتَهن مِن غَير أن يَستَهلكه؛ رَجع بِحقّه عَلى الرّاهِن فَأخَذه وإن اسْتَهلكه تَرادّا الفَضلَ بَيْنَهُما»[3].

إشارة: تُعتبر العين المرهونة (أي الرّهان) أمانة لدى المُرتهن فإذا تُلفت دون إفراط منه فيها أو تفريط فلن يكون ضامناً لها باعتباره كان أميناً عليها، وفي هذه الحالة هو أمين مُحسن، ولهذا فلا سبيل ولا مؤاخذة عليه وفقاً لقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[4]، أمّا إذا كان للمرتهن دور في إتلاف المال المذكور فعندئذ يكون ضامناً له، فينقص من دَيْنِه بمقدار ما أُتلِفَ من الرّهن، بل إنّ حكم إتلاف جزء من المال يعني الحكم بتَلفه كاملاً في أصل الضمان (وليس في مقداره).

---

١ . تفسير العيّاشي، ج١، ص١٥٦.
٢ . مَن لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٣٠٥؛ وسائل الشيعة، ج١٨، ص٣٨٥.
٣ . مَن لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٣٠٨؛ وسائل الشيعة، ج١٨، ص٣٨٦.
٤ . سورة التوبة، الآية ٩١.



٤. حَقّ الرّاهن في العين المرهونة

سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عَن رَجلٍ رَهنَ بماله أرْضاً أو داراً لها غلّة كثيرة؛ فقال: «**عَلى الّذي ارْتَهَن الأرْضَ والدّارَ بمالِه أن يَحتَسب لِصاحِب الأرْضِ وَالدّار مَا أخَذَه مِن الغَلّة وَيَطرَحه عَنه مِن الدَّيْن لَه**»[1].

إشارة: يُعتبر الرّاهِن المالك الحقيقيّ للمنافع الموجودة بالفعل والقوّة في العين المرهونة، وعليه، فإذا رَهن شخص أرضاً أو داراً وقام المرتهن بالاستفادة أو الانتفاع منها فإنّه يُنقص من دَيْنِه بنَفس مقدار انتفاعه من الأرض أو الدّار، لكن إذا لم تكن منافع العين المرهونة ملكاً للراهن طيلة مدّة الرّهن فإنّه لا ينبغي طرح المنافع المُستوفاة من دَيْن المرتهن أو طَلبه.

٥. دور الأخلاق الإسلامية في الاقتصاد

عَن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**مَنْ كانَ الرّهْنُ عِنْدَه أوْثَقَ مِن أخِيهِ المُسْلِم، فَاللهُ مِنْهُ بَريء**»[2].

إشارة: من الواضح أنّ براءة الله سبحانه من المسلم الذي يَثِق بالرّهان أكثر من ثقته بأخيه المسلم تأتي في إطار الحثّ على انتهاج التربية الدينية السامية وتعميمها في المجتمع الإسلاميّ لكي يتمكّن المسلمون من تنظيم حياتهم الاجتماعية بأسلوب لا تقلّ فيه ثقتهم بإخوانهم المسلمين عن ثقتهم بالرّهن حتى يبلغ المجتمع الإسلامي الهدف المرسوم له وهو الاستغناء عن الرّهان بشكل كامل.

---

١. مَن لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٣٠٧؛ وسائل الشيعة، ج١٨، ص٣٩٦.

٢. وسائل الشيعة، ج١٨، ص٣٨٢.



ورُوِيَ أنّ بعضهم سأل الإمام الصّادق عليه السلام عن معنى الحديث المذكور فبيّن له أنّ شكل المجتمع الإسلاميّ عند ظهور حجّة الله الحقّ عليه السلام سيكون هكذا، ثمّ قال: «ذَلِكَ إذا ظَهَرَ الحَقُّ وَقامَ قائِمُنا أَهْلَ البَيْت»[1].

ومع ذلك فإنّ هذه التربية وهذا التخلّق لا يجب أن يختصّا بزمن الظهور كما أنّ نشر العدل والقسط في ذلك الزمان لا يعني عدم الحاجة إليهما قبل ظهور الحجّة عليه السلام فالعدالة مطلوبة وواجبة في جميع الشؤون والمسائل الاجتماعية في الإسلام. وهكذا، ينبغي أن يتحرّك المجتمع الإسلاميّ نحو تعزيز الثقة بالمؤمن أكثر من الرّهان وليس العكس، إذ لا يخفى أنّ الإصرار على أخذ الرّهان واعتباره أكثر قيمة من شخص المؤمن نفسه سيؤدّي في النهاية إلى تعطيل الكثير من رؤوس الأموال والقُدرات والإمكانات أو ربّما أدّى إلى فنائها وهلاكها، فضلاً عن أنّ ذلك يُعتبر انتقاصاً للمَدين (الرّاهِن) وتقليلاً من شأنه وشخصيّته ومكانته من قِبَل الدّائِن (المرتهن)؛ وعليه، وإن كان الرّهان جائز بأمر الله تعالى إلّا أنّه عزّ وجلّ لم يحبّبه لعباده ولم يشجّعهم على الإصرار عليه على عكس الكتابة والشهادة.

٦. معنى قوله عزّ وجلّ ﴿آثِمٌ قَلْبُهُ﴾

عَن أبي جعفر عليه السلام قالَ في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ يَكْتُمها فَإنَّهُ آثِمٌ قَلْبُه﴾، قال: «كافِرٌ قَلْبُه»[2].

إشارة: المقصود بالكُفر في مثل هذه الموارد هو الكُفر العمليّ وليس العَقَديّ، مثل كُفران النّعمة الذي يُعتبر نقصاً عمليّاً لا نقصاً في العقيدة.

---

١. قال الشيخ الحرّ العاملي: «أقول: الظاهر أنّ المخصوص بِزَمان ظهور القائم عليه السلام هو التّحريم لا الكراهة». (**وسائل الشيعة**، ج١٨، ص٣٨٢). [المترجم]

٢. **مَن لا يحضره الفقيه**، ج٣، ص٥٨؛ **وسائل الشيعة**، ج٢٧، ص٣١٣.



٧. جزاء كتمان الشهادة والشهادة بغير حقّ

في مَناهي النبيّ ﷺ : وَنهى النبيّ ﷺ عَن كـتمان الـشّهادة وَقـال: «وَمَـن كَتَمَها أطْعَمَه اللهُ لَحمَه عَـلى رُؤوسِ الخَلائِـق وَهُـو قَـوْل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَكْتُمُـواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾»[1].

عَن أبي جعفر عليه السلام قال: «قالَ رَسول الله ﷺ : مَنْ كَتَمَ شَهادَة أوْ شَهِدَ بِهـا لِيهدر لَهَا بِها دَمَ امرئٍ مُسلمٍ أوْ ليزوى مالَ امرئٍ مُسلم، أتى يَومَ القِيامَة وَلِوَجْهه ظُلمة مَدّ البَصَر وَفي وَجْهه كدوح تَعرِفه الخَلائِق باسْمِه وَنَسَبِه...»[2].

إشارة: هذا هو جزاء مَن يكتم الشهادة وكـذا جـزاء مَـن شـهِد بغـير الحـقّ فتسبّب في ضياع مـال المسلم أو نفسه أو إزهـاق روحـه، وهـو أن يُجبرهمـا الله سبحانه يوم القيامة بأكل لحم جسدهما أمام أنظار الخلائق كلّهم بعد أن يحشرهما بوجه مُظلم كالِح ملؤه الجروح والخدوش، ورغـم هيـأتهما تلـك فـإنّ الله تعـالى يُعرّفهما لخلقه باسمهما ونسبهما ليكـون ذلـك مَـدعاة للعـار والـسخرية واللّعـن والتشهير.

* * *

١. الأمالي، الصّدوق، ص٣٤٨ ـ ٣٤٩، المجلس ٦٦؛ بحار الأنوار، ج٧٣، ص٣٣٢.

٢. أصول الكافي، ج٧، ص٣٨٠.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾

خلاصة التفسير

إنّ الخَلق بكلّ ما يحتويه والمِلك والمُلك كلّه لله تعالى وحده لا يُنازعه في ذلك أحد، وليست نيّات البشر وما ظهر من أعمالهم وما خَفي إلّا وهي كُلُّها في دائـرة عِلمه، فظاهر الإنسان وباطنه والمِلك والمُلك معلومون عنـد الله سـبحانه الـذي حسب كلّ صغيرة وكبيرة من أفكار الإنسان وأفعاله وسيجزيه وفقـاً لحُسنها أو قُبحها، لكنّ رَحمته الواسعة استثنت من الحساب خواطر الإنسان الزائلة التـي لا يُحقّقها الإنسان بالفعل.

وبعد الحساب فعسى الله ﷻ أن يعفو عن كثـير أو يُعاقِـب بـالحقّ والعـدل وفق ما اقتضته مشيئته الحكيمة، فهو على كلّ شيء قدير وبالإجابة جدير.

التفسير

تناسب الآيات

يبدو أنّ هناك ارتباطاً من ناحيتَيْن بين هذه الآية الشريفة والآيات السابقة:

١ . تتضمّن هذه الآية تعميماً للحكم المُشار إليه في الآية السابقة باعتبار كتمان الشهادة إثماً قلبيّاً، وهي تُنبّه الإنسان إلى أنّه ستتمّ محاسبته على السيّئات الموجودة في نفسه سواء ظهرت تلك السيئات في أفعاله أم ظلّت خفيّة ومستورة.

٢ . من مجموع الآيات التي تتضمّنها سورة (البقرة) ولا سيّما التي تتحدّث عن أفعال الإنسان الظاهرية كالصلاة والصّوم والزّكاة والحجّ والجهاد والإنفاق، هي هذه الآية الكريمة الّتي تبيّنُ أنّ الله سبحانه وتعالى عالِمٌ بأعمال الإنسان ومُطّلع على نيّاته الخالصة وتلك المتّصفة بالرّياء وأنّ ثوابه أو عقابه يكون وفقاً لتلك النيّات.

❋ ❋ ❋

السماء الظاهرية والسّماء الغيبية

للسّماء مصداقانِ إثنانِ:

١ . السّماء الظاهرية التي تدخل ضمن عالَم الشهادة وبإمكان المخلوقات الذهاب والسّفر إلى أماكن مختلفة فيها، ومن تلك السّماء يحصل الخلق على أرزاقهم الظاهرية والماديّة.

٢ . السّماء الغيبية التي تهبط منها الأرزاق المعنوية كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1] و﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾[2].

ويُروى أنّ أبواب السّماء الغيبية موصدة بوَجه الكُفّار: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾[3] وليس بإمكان أحد من الخلق الارتياد فيها إلّا المؤمنين منهم. وتشير

---

١ . سورة الذّاريات، الآية ٢٢.

٢ . سورة فصّلت، الآية ١٢.

٣ . سورة الأعراف، الآية ٤٠.



عبارة عدم فَتح الأبواب للكُفّار إلى أنّ المقصود بتلك السّماء هي السّماء الغيبية لا الظاهرية، والُمراد بالأبواب هي الأبواب المعنوية لا الماديّة، أمّا اختلافهم إلى تلك السّماء وانتقالهم فيها أينما شاءوا إنّما معناه الاختلاف والصعود والهبوط الرّوحيّة لا الجسديّة، لأنّ الأرزاق الظاهرية التي تنشأ بواسطة الطاقة الشمسية مثلاً وما شابهها من جهة وهطول المطر وهبوط الثّلج والصّقيع من جهة أخرى، ثمّ انتقال الكُفّار جسديّاً في النظام الشمسيّ مثلاً من جهة ثالثة، كلّ تلك الأُمور تُبيّن أنّ أبواب السّماء الظاهرية مفتوحة أمام الكُفّار كذلك. إذاً، فالسّماء نوعان: سماء ظاهرية (مشهودة) وأخرى غيبية، وأمّا الحديث المرويّ عن طرح الشاميّ بعض الأسئلة على الإمام الحسن المُجتبى عليه السلام في حضرة أمير المؤمنين عليه السلام وكان ممّا سأل: كَم بين السّماءِ والأرض؟ فأجابه الإمام المُجتبى عليه السلام قائلاً: «**دَعوَة المَظلومِ ومَدّ البَصَر**»؛ أقول: هذا الحديث شاهد على وجود سماء ظاهرية وغيبية، فالقسم الأوّل من الجواب «**دَعوَة المَظلومِ**» يشير إلى السماء الغيبية، ولكن يشير القسم الثاني منه «**مَدّ البَصَر**» إلى السماء الظاهرية.

ومهما يكن من أمر فإنّ جميع موجودات كلّ واحدة من السماء الغيبية وسماء الشهادة (الظاهرية) وكلّ ما فيهما من مِلك ومُلك لا يعزب عن عِلم الله سبحانه وتعالى: ﴿**لله ما فِي السَّمَاوَاتِ**﴾ ولا ريب في أنّ ذِكر لفظ الجلالة في أوّل الآية الشريفة يدلّ على الحصر.

علم الله بنيّات الإنسان وأعماله

تُعتبر النيّات والأعمال الظاهرة من سنخ الوجود وجزءاً من نظام الخلقة، ولمّا كانت كلّ الموجودات مِلكٌ لله سبحانه ومُلكاً له فإنّ نيّات الإنسان كذلك وأفكاره الباطنة وأفعاله الظاهرة هي مُلك له عزّ وجلّ ومعلومة من قِبَله وهو الوحيد

القادر على محاسبة الإنسان وفقاً لتلك النيّات والأفعال: ﴿لله ما فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ﴾.

ويعمد القرآن الكريم في بعض الأحيان إلى ذِكر علّة الحكم الإلهيّ إلى جانب بيانه حيث يُسمّى هذا الأسلوب بالارتقاء من الممكن إلى الواجب كذَيل الآية السابقة التي أشارت أوّلاً إلى أنّ الله تعالى هو مُعلِّم الإنسان: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ ثمّ بيّنت بعد ذلك علّة ذلك التعليم وهي إحاطته ﷻ العِلمية بكلّ شيء: ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]، وفي أحيان أخرى يقوم القرآن الكريم بذِكر الدّليل أوّلاً ثمّ بيان الحكم الصّادر ويُدعى ذلك بالتنزّل من الواجب إلى الممكن كقوله سبحانه: ﴿لله ما فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ في إشارة إلى الملكية الحصرية لله ﷻ ثمّ يأتي الجزء الآخر من الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ﴾ حيث تتناول الآية في هذا الجزء موضوع المحاسبة والقضاء؛ إذاً، فجميع الأعمال والأفعال والنيّات هي مُلك لله سبحانه وهو المسؤول عن حسابها ومحاسبتها.

واستناداً إلى ذلك يتّضح لنا التناسب الموجود بين صدر الآية الشريفة وذَيلها وهو أنّه لمّا كانت السموات والأرض وكلّ ما فيهما مُلكَ الله ﷻ فإنّ ظاهر الإنسان الموجود ضمن ذلك المُلك وباطنه هو مُلك لله كذلك وهو عالِم بكلّ تفاصيله ومحيط به وبخفاياه ولا يخفى شيء على الحقّ تعالى ممّا بطن أو ظهر من أفعال الإنسان أو أفكاره أو نيّاته، بل وكلّ ما يخطر في قلب الإنسان فإنّ الله سبحانه به عليم وسيُحاسبه عليه، سواء عليه أأظهره وأبداه أم كَتَمه وأخفاه.

ومن خلال دَمج الآيتيْن ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ﴾ و﴿لله ما فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ معاً نستطيع أن نشبّه الإنسان

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٨٢.



بالسماء والأرض فنمثّل قلبه بالسماء وجسمه وأعماله الظاهرية بالأرض، وكما أنّ الأرض تتلقّى رزقها من السّماء وتتمّ إدارتها كذلك من فوق فإنّه تقع على عاتق روح الإنسان ونيّاته مسألة إدارة جسمه وأفعاله الظاهرية وكأنّه يأخذ رزقه من روحه ونيّاته. وأمّا ما قيل من أنّ الأصالة هي لروح الإنسان المجرّدة فيما يُمثّل جسده فرعاً لتلك الرّوح وتابعاً لها، فهو الحقّ، إلّا أن تطبيقَ مثال السماء بالروح والجسم بالأرض يلزمه الإتيان ببرهان عقليّ أو دليل نقليّ موثوق.

الغاية من حساب الله ﷻ

يشير القرآن الكريم في بعض آياته إلى أنّ العلّة في كون الله سبحانه قادراً مطلقاً على كلّ شيء هي *قدرته على محاسبة الخَلق وإحصاء أعمالهم عليهم وإعطاء الجزاء إزاء كلّ واحد منها*: **﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾**[1] أو *مُلكه العظيم والواسع* في أحيان أخرى كما في الآية الّتي هي موضوع البحث. فهذا المُلك وذلك العِلم وتلك الإحاطة هي الأخرى عوامل تُبرّر الحساب والمحاسبة لأنّ المالِك القادر على معرفة كلّ ما يجري في مُلكه هو القادر أيضاً على المحاسبة، أمّا المالِك الجاهل فبعيد عن ذلك كلّ البُعد.

وتارة كذلك يُشار إلى علم الله ﷻ كمُبرّر حقيقيّ للمعاد والحساب يوم القيامة كما في قوله تعالى: **﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾**[2] فالقرآن الكريم لم يُشِر إلى علم الله سبحانه لمجرّد الإخبار أو لكونه مجرّد موضوع كلاميّ بل لأنّه تذكير بالحساب أيضاً وهو ما بيّنه أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه حيث قال: «**إتّقُوا مَعَاصِيَ اللهِ فِي الْخَلَوَاتِ فَإِنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الْحَاكِمُ**»[3] وهذا

---

١ . **سورة الأنبياء** عليهم السلام، الآية ٤٧.

٢ . **سورة غافر**، الآيتان ١٩ و ٢٠.

٣ . **نهج البلاغة**، الحكمة رقم ٣٢٤.

تصريح بأنّ الحساب والجزاء حقّ. واستناداً إلى ذلك، فإنّ الآيات التالية وغيرها هي بمثابة تذكير بالحساب الإلهيّ: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[١] و﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[٢] و﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[٣].

وعندما يشير القرآن الكريم في بعض آياته إلى علم الله سبحانه كمصدر للحساب يوم القيامة فإنّه يستخدم عبارات كالتي استخدمها في الآية الّتي هي موضوع البحث مع فارق بسيط وهو أنّه يبتدئ بذِكر علم الله ﷻ بظاهر الإنسان وباطنه ثمّ عِلمه سبحانه بكلّ واحد من الموجودات في نظام الخلقة مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤] و﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[٥].

التهديد بالحساب الشّديد

من المعلوم أنّ (الحساب) يختلف عن (العقاب) فقد لا يتضمّن *الحساب* أيّ نوع من *العقاب* لكن من الطبيعيّ ألّا يخلو أيّ عقاب من المحاسبة، وقد يكون الحساب تارة شديداً كقوله تعالى: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾[٦] وتارة خفيفاً وبسيطاً مثل قوله سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[٧]. وأمّا ما يتعلّق

---

١ . سورة التغابن، الآية ٤.

٢ . سورة آل عمران، الآية ١١٨.

٣ . سورة القصص، الآية ٦٩.

٤ . سورة آل عمران، الآية ٢٩.

٥ . سورة النّمل، الآيتان ٧٤ و ٧٥.

٦ . سورة الطلاق، الآية ٨.

٧ . سورة الانشقاق، الآية ٨.



بسياق بالآية الّتي هي موضوع البحث فهو سياق يبدو عليه الحساب العسير والتهديد بأشدّ العقوبة كما هو واضح لكنّه ـ وفي الوقت نفسه ـ غير مُلزم، فقد تَحُول بعض المَلَكات التصديقية والحالات الاستثنائية التي يمتلكها الشخص عن مُعاقبته لارتكابه بعض القبائح إلّا أنّ ذلك وبكلّ تأكيد سيتسبّب في *حرمانه من الكثير من النّعم الإلهية.*

محاسبة الصفات الثابتة في النفس

لا شكّ في أنّ المقصود بقوله ﷻ: ﴿مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ هي الصّفات الثابتة الموجودة في نفس الشخص حيث يُشار إليها أحياناً كمبادئ أوّلية للأفعال الخارجية وفي أحيان أخرى تمثّل هي نفسها معيار الحُسن والقُبح، فما كان منها مبدأً للفعل الخارجيّ يُصاحب الفعل الخارجيّ تارة ويغيب عنه تارة أخرى.

واستناداً إلى ما قيل يمكن اعتبار بعض المسائل القلبية معاصياً وآثاماً بغضّ النّظر عن الفعل الخارجيّ ولهذا يُحاسَب عليها المَرء ويُعاقَب كالعقائد الضالّة وتولّي أعداء الدّين ومُعاداة أوليائه وكذلك بعض أنواع السلوك والأخلاق الرذيلة والمَلَكات السيّئة، بينما لا تُعتبر أمور نفسيّة أخرى معاصيَ بصرف النّظر عن العمل الخارجيّ، لكن لا يمكن التغاضي عن كونها جُرأة ووقاحة. الّذي هو معلوم أنّ الجرأة تختلف عن العصيان والانقياد غير الطاعة، فأساس العصيان والطاعة معاً مكوّنٌ من عنصريْن هما: أوّلاً قيام الحجّة وثانياً إصابة الواقع وانطباقه مع الحقّ؛ وأمّا الأساس الذي يؤلّف الجرأة والوقاحة من جهة والانقياد من جهة أخرى فهو عنصران كذلك: أوّلهما قيام الحجّة وثانيهما عدم إصابة الحقّ وعدم انطباقه مع الواقع الذي يُعتبر في الحقيقة سنخاً من تخيّل الحجّة وليس قيامها.

ولا شكّ في أنّ إعطاء الثواب إزاء الانقياد يفوق العدل لكنّ التعذيب بسبب الجرأة وإن كان خلافاً للعدل من الناحية العقلية إلّا أنّ الله ﷻ قد وعدَ في النصوص العقلية بالعفو بشكل عامّ؛ في حين تبقى المحاسبة والحساب باقيين إزاء الآثار التي يمكن أن تتمخّض عن كلّ شيءٍ من التمرّد والنتائج السيئة والعواقب الوخيمة التي تنجم عن الطغيان القلبيّ لأنّ العدل هو أساس الحساب، فإذا عُوملت بالمغفرة فذاك هو الإحسان وإذا قُوبلت بالتعذيب فإنّ ذلك يعني العدل بعينه.

وقد بحثنا في موضوع الجرأة من الناحية الكلامية ووفقاً للأصول الفقهية بشكل نهائيّ في مكانه المناسب.

الإفراط والتفريط في تفسير الآية

خرج بعض المفسرين عن إطار المنطق واتّجه بعضهم الآخر إلى الإفراط والتفريط هكذا:

١ . فمنهم من اعتبر أنّ الآية الّتي هي موضوع البحث تتناول مسألة الشهادة والإدلاء بها مستندين إلى قوله تعالى في الآية السابقة: **﴿وَلَا تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾**[1] وفسّروها بأنّ الله سبحانه عالمٍ بحال الشاهد الصّادق أو الكاذب أو مَن يكتم شهادته بالحقّ أو بالباطل، فوقعوا في حبائل التفريط وربطوا بين الآية الّتي هي موضوع البحث وبين الآية السابقة في حين أنّ مجرّد ذكر موضوع الشهادة في الآية السابقة وكتمانها ليس سبباً لتقييد مضمون هذه الآية بل تتضمّن الآية إطلاقاً واضحاً[2].

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٨٣.

٢ . «ولمّا كان التقدير: فإنّ الله سبحانه وتعالى عالمٍ بأنّه كتمَ وكانَ للشّهداء جهات تنصرف بها ←



٢. ومنهم من سلك طريق الإفراط فاعتبر أنّ الآية تشمل جميع أفكار الإنسان ونيّاته سواء منها ما تضمّن العزم والتصميم والإرادة أم الأفكار والنيّات الزائلة التي لم تتحوّل بَعد إلى صفة نفسانية. وأجابت هذه الطائفة على الإشكال القائل: «إنّ أغلب الناس يقع فريسة مثل تلك الأفكار والنيّات الزائلة غير الثابتة فإذا سلّمنا بالإطلاق المذكور فإنّه لن ينجو أيّ شخص من العقاب»؛ أجابت قائلة: إنّ الآية الشريفة [أي الآية الّتي هي موضوع البحث] قد نُسخت بالآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1]![2]

وفي نَقدنا لذينك الرّأيَيْن نشير إلى ثلاثةِ أمور، هي:

أ) إذا سلّمنا بإطلاق الآية الّتي هي موضوع البحث بحيث تشمل الخواطر والأفكار والنيّات النفسيّة الزائلة فعندئذٍ تُعتبر الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ مخصّصة لها لا ناسخة.

←

الشّهادة عن وجه الإقامة عطف عليه قوله ليشمل التّهديد تلك الأعمال بإحاطة العلم: ﴿وَاللهُ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال. ولمّا كان الإنسان هو المقصود الأعظم من سائر الأكوان فكانت أحواله مضبوطة بأنواع من الضّبط كأنّ العلم البليغ مقصور عليه فلذلك قدم قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي، كلّه وإن دَقّ، سواء كان فعل القلب وحده أو لا ﴿عَلِيمٌ﴾... فأنهى أمر ما بين الحقّ والخلق ممثولاً وأمر ما بين الخلق والخلق مثلاً... ولمّا أخبر عن سعة عِلْمه دَلّ عليه بسعَة مُلْكه المستلزم لسعة قدرته ليدلّ ذلك على جميع الكمال لأنّه قد ثبتَ كما قال الأصبهاني إنّ الصفات التي هي كمالات حقيقة ليست إلّا القدرة والعلم المحيط، فقال واعداً للمطيع مُتوعّداً للعاصي مُصرحاً بأنّ أفعال العباد وغيرها مخلوق له... ولمّا كان أوّل السورة إظهار كتاب التقدير في الذّكر الأوّل كان ختمها إبداء أثر ذلك الكتاب الأوّل في الأعمال والجزاء التي هي الغاية في ابتداء أمر التقدير فوقع الختم بأنّه سلب الخلق ما في أيديهم ممّا أبدوه وما أخفوه من أهل السماوات والأرض. انتهى». (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج١، ص٥٥١). [المترجم]؛ أنظر كذلك: تفسير المنار، ج٣، ص١١٤.

١. سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

٢. راجع: تفسير المنار، ج٣، ص١١٦؛ تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٥٩٢.

ب) من المعلوم أنّ الخواطر والأفكار والنيّات الزائلة خارجة عن سيطرة الإنسان ولذلك لا يمكن تكليفه في هذه الحالة لأنّ التكليف بأمور غير إرادية أو غير اختيارية يُعدّ أمراً غير معقول ألبتّة ولا يمكن أن يصدر مثل هذا التكليف من الله العزيز الحكيم، كما أنّ مقدّمات الخواطر والأفكار المذكورة ليست اختيارية هي الأخرى لتكون بمثابة تصحيح للتكليف، وذلك خلافاً للخطأ والنسيان اللذيْن يُمثّلان مقدّمات تقع تحت سيطرة الإنسان واختياره، وعليه يصحّ المطالبة بعدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان.

وأمّا استحباب أن يكون الإنسان حذراً ومحتاطاً ومتذكّراً بشكل مستمرّ فلا يعني أن يقوم بمراقبة كلّ النشاطات التي تجري في ذهنه ليلاً ونهاراً، بل الاستحباب هو أن يكون الإنسان حاضراً أمام الله سبحانه وذاكراً إيّاه ليفقه ما يقوله ويعلم أنّه بمحضر الله ﷻ فيراعي آداب الحضور أمام العزيز القهّار.

وعلى أيّة حال، فإنّ تعلّق التكليف بالخواطر المذكورة يُعتبر محالاً من الناحية العقلية، وعليه، يُحتَمَل انصراف الإطلاق من جهة، ويُحتَمَل أيضاً خروج المُخصّص دون الحاجة إلى التخصيص من جهة ثانية.

ج) يختلف البرهان النّقلي عن النظرية المتطرّفة لأنّ الأوّل يعني نَفي الحَرَج: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1] ومعلوم أنّ التكليف على أساس الخواطر والأفكار يُعدّ حَرَجاً واضحاً.

واستناداً إلى الأدلّة المذكورة، فإنّ الخواطر والأفكار والنيّات الزائلة هي أمور تحول دون حضور القلب وأسباب تؤدي إلى إتلاف الوقت لكن لا يمكن اعتبارها معاصيَ مشمولة بالآية الّتي هي موضوع البحث، وأمّا الخواطر التصديقية التي قرّر صاحبها إخراجها إلى أرض الواقع وصمّم على تنفيذها ـ مع

---

١ . سورة الحجّ، الآية ٧٨.

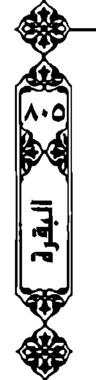
سَبق الإصرار كما يُقال ـ فسيُحاسَب عليها سواء أقامَ بتنفيذها أم لم يَقُم لأنّ تلك الخواطر وما شابهها تُعتبر صفاتاً مستقرّة في النّفس وثابتة فيها إذ تصبح في بعض الأحيان سبباً وقاعدة لصدور الفعل؛ فقد يكون حساب النيّة المتحقّقة بالفعل عسيراً وشديداً ولذلك فإنّ الله سبحانه يُحاسب المرءَ بحسب نيّته وإن لم تتحقّق.

وثَمّ العديد من الشواهد القرآنية التي تشير إلى محاسبة المرء على خواطره وأفكاره التصديقية التي أصبحت صفاتاً نفسية له وهي التي تُعتبر مصدر الفعل ومنشأ صدور العمل، مثل قوله تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[1] و﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[2] و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[3] و﴿وَلَا تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[4] و﴿وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾[5] و﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[6] و﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ﴾[7] و﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[8].

ومهما يكن من أمر فإنّ النيّة تُبيّن خُبث صاحبها الباطنيّ وإن لم يَقُم بتنفيذها في الواقع، والله سبحانه إنّما يُحاسب المرءَ على خُبث سريرته، وقد وبّخ القرآن

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٢٥.
٢ . سورة النور، الآية ١٩.
٣ . سورة الحجرات، الآية ١٢.
٤ . سورة البقرة، الآية ٢٨٣.
٥ . سورة الأنعام، الآية ١٢٠.
٦ . سورة الإسراء، الآية ٣٦.
٧ . سورة محمّد ﷺ، الآية ٢٩.
٨ . سورة النساء، الآية ٤٨.



الكريم أولئك الذين همّوا بفعل الشرّ وأمعنوا في الخُبث لكنّهم لم يَبلغوا مرادهم ولم يحقّقوا هدفهم كقوله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾[1]؛ أمّا عدم مُحاسبة الجَريء على جُرأته ووقاحته فلا تعني أنّه لن يُحاسَب على خُبث سريرته، فالجرأة والوقاحة هما السببانِ في حرمان الشخص من الكثير من البركات المعنوية. وعندما يأتي اليوم الذي تُكشَف فيه سرائر الأفراد ومكنوناتهم فسيرى الجريء ما كان يملكه من باطن أسود خبيث وروح مظلمة خبيثة، إلّا إذا تابَ من تلك النيّات وعمد إلى إصلاح نفسه.

وبعد محاسبة الناس وتحديد وضع كلّ واحد منهم والنتيجة التي حصلوا عليها، يبقى القرار الأخير والتصميم النهائيّ بيَد الله ﷻ، فإمّا أن يعفو أو يُعذّب، وكلّ نابع من حكمته سبحانه: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

وتُمثّل (المحاسبة) أو (الحساب) عملاً تنفيذياً ولذلك يُذكّرنا القرآن الكريم في صدر الآية الّتي هي موضوع البحث وفي ذيلها بوَصف ملكية الله تعالى وقدرته المطلقة وأنّه ﷻ هو مالِك المُلك وخالق الأشياء جميعاً كما أنّه سبحانه قادر على العفو والتعذيب في آن واحد.

إشارات ولطائف

١. يوم القيامة هو يوم الحساب

(*يوم الحساب*) هو أحد الأسماء التي عُرِفَت بها القيامة[3] الكُبرى كما أنّ

---

١. سورة التوبة، الآية ٧٤.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٨٤.

٣. سُميت القيامة بهذا الاسم لقيام كلّ شيء ميّت في اليوم المذكور من قَبره بما في ذلك الناس؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. [سورة المطففين، الآية ٦].



(الحَسيب) هو اسم مـن أسـماء الله الحُسنى، وعنـدما يـشير القـرآن الكـريم إلى العناصر الأساسية للإيمان يذكّرنا كذلك بـإيمان المـؤمنين بيـوم القيامـة (أو يـوم البَعث من الأجداث) قائلاً: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[1]، وفي مجال الإرشـاد وعند نقله لقول أولياء الله فإنّه ينقل عنهم تذكّرهم ليوم الحساب وعدم نـسيانهم لذلك اليوم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[2].

ومن وجهة نظر القرآن الكريم يُعَدّ نسيان يـوم القيامـة مـن أهـمّ العوامـل المؤثّرة في المعصية، بل هو أساس الـضلالة؛ قـال تعـالى: ﴿يَـا دَاوُدُ إِنَّـا جَعَلْنَـاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَـذَابٌ شَـدِيدٌ بِـمَا نَـسُوا يَـوْمَ الْحِسَابِ﴾[3]. وتتضمّن هذه الآية الشريفة قياسيْن منطقيّيْن، هما:

أ. ﴿لَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾: فمَن اتّبعَ هـواه ضـلّ طريقـه إلى الله سبحانه، وهـذه مقدمّة مطويّة؛ وأمّا نتيجة القياس فهي: لا تَتّبـع هـوى الـنّفس ﴿فَيُضِلَّكَ عَـن سَبِيلِ اللهِ﴾، وكما هو واضح فإنّ هذا القياس لا يقتصر عـلى المُخاطَـب في الآيـة (وهو سيّدنا داود عليه السلام) بل إنّ كلّ مَن اتّبع هـوى نفسه فـإنّ مـصيره الـضلال حيث قال الإمام عليّ عليه السلام: «إِنَّ أَخْوَفَ مَـا أَخَـافُ عَلَـيْكُمُ اثْنَـانِ اتِّبَـاعُ الْهَـوَى وطُولُ الْأَمَلِ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ»[4].

ب. «مَن اتّبعَ هواهُ ضَلّ»؛ و«مَن ضَلّ فإنّ له عـذاباً شَـديداً»، وبالتـالي: «لا تَتّبع الضلالة كي لا تَقع في المحذور وهو العذاب الشّديد».

---

١ . سورة آل عمران، الآية ١١٤.

٢ . سورة إبراهيم عليه السلام، الآية ٤١.

٣ . سورة ص، الآية ٢٦.

٤ . نهج البلاغة، الخطبة رقم ٤٢.



لاحِظ أنّ الجزء الأخير من الآية الكريمة يشير إلى أنّ سَبب اتّباع الفرد هوى النّفس وضلالها هو نسيانه يوم الحساب، ومن الواضح أنّ عبارة «بِما نَسوا يوم القيامَة» أو «بِما نَسوا اليوم الآخر» تكفي لبيان أصل الموضوع، لكن لم تتضمّن أيّاً من تلك العبارات المعنى الذي تضمّنته جملة: ﴿... بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

٢ . «لا يُحصى» بدلاً من «بلا حِساب»

في يوم القيامة سيتجلّى اسم الله سبحانه (الحَسيب) بكامل ظهوره المتمثّل في محاسبة الحقّ وعندها سيُحاسب الله ﷻ جميع الخلائق على أعمالهم التي اقترفتها جوارحهم ونيّاتهم التي تضمّنتها جوانحهم: ﴿وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾[١]؛ إذاً، فعندما يتحدّث القرآن الكريم عن الصابرين وأجرهم الذي يُعطى لهم بغير حساب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢] أو يشير إلى فئة من الناس ممّن سيُرزَقون من فضل الله بغير حساب: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٣] أو يُبيّن أنّ بعض أصحاب الجنّة سيَنعمون برزق وفير لا حساب له في الجنّة: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٤] فإنّ ذلك لا يعني رزقاً كثيراً لا حساب له فأفعال الله سبحانه لا تكون إلّا على أساس الحساب والمقدار، سواء في الدّنيا أم في الآخرة: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٥]، فالحساب المذكور في الآيات السابقة يعني العَدّ والثواب الذي يكون «بغير حساب» معناه الثواب الذي لا يستطيع أحد سوى الله تعالى حسابه ومعرفة كَمّه

---

١ . سورة النساء، الآية ٦.

٢ . سورة الزّمر، الآية ١٠.

٣ . سورة النور، الآية ٣٨.

٤ . سورة غافر، الآية ٤٠.

٥ . سورة القمر، الآية ٤٩.



وتقديره، وهذا النوع من الثواب لا يحظى به سوى فئة قليلة من الناس. وأمّا قوله ﷻ: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] فليس معناه الدّخول إلى الجنّة بغير حساب، بل هي تشبه الآيات الأخرى في كونها تشير إلى أنّه ما مِن أحد يمكنه حساب أو عَدّ الرّزق الذي سيحصل عليه أصحاب الجنّة.

٣. أنواع الحساب يوم القيامة

ينقسم أفراد البشر يوم الحساب (يوم القيامة) إلى ثلاثة مجاميع من حيث سرعة محاسبتهم أو بُطئها وكذلك من حيث المناقشة والحديث حول الحساب، وهذه المجاميع هي:

أ. **أصحاب الجنّة الخُلّص**: وهؤلاء هم الذين لم يقترفوا أيّة معصية على الإطلاق أو أنّ سيّئاتهم بُدّلت بالحسنات بعد أن عملوا الصالحات: ﴿... فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ...﴾[2]. وتجدر الإشارة إلى أنّ مناقشة عملية محاسبة هذه الفئة تكون سريعة ومُختصرة حيث ترتكز بالأساس على تحديد منزلة كلّ واحدٍ منهم ودرجته التي يستحقّها في الجنّة، وهؤلاء هم الذين يُعطى كتابهم في يمينهم، وبعد محاسبتهم محاسبة يسيرة وعاجلة يُساقون إلى زُمَر المؤمنين الآخرين ممّن كانوا معهم في الدّنيا بفَرح وسرور وبهجة وغبطة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾[3]. ويُذكَر أنّ محاسبة أصحاب الجنّة الخُلّص تكون سريعة بحيث لا يشعرون أنّهم قد حُوسِبوا أصلاً.

---

١. سورة غافر، الآية ٤٠.

٢. سورة الفرقان، الآية ٧٠.

٣. سورة الانشقاق، الآيات من ٧ إلى ٩.

ب. الكافرون المُعاندون: وهؤلاء لا تُفتَح ملفّات أعمالهم ولا تتمّ محاسبتهم بشكل فرديّ وذلك لتراكم ذنوبهم وتجمّع معاصيهم، وكذلك لكون محاسبتهم دقيقة ومعقّدة، فهم لا يمتلكون أيّة حسنة ولا قاموا بأيّ عمل صالح: **﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾**[١].

وهذه المجموعة لا تُحاسَب لمعرفة سعادتهم أو شقائهم وتحديد نسبة كلّ واحدة منهما بل يُحاسبون لتعيين مستوى دركهم وبيان المكان المُخصّص لكلّ واحدٍ منهم في جهنّم. هذا، ولم يذكر القرآن الكريم شيئاً عن إقامة الميزان عند محاسبة هؤلاء الكافرين: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾**[٢] لأنّهم لا يملكون في الأصل أعمالاً يمكن على أساسها محاسبتهم ثمّ تحديد مكانهم في النار أو في الجنّة، فالحكمة في الاختبار وفقاً للحسنة والسيئة هو بيان ما إذا كان الشخص مَديناً أو دائناً، وهؤلاء الكافرون المُعاندون لا يملكون سوى الأعمال السيئة، فهم مَدينون بكلّ تأكيد.

وبعبارة أخرى، أنّ (الميزان) هو الحقّ: **﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ...﴾**[٣]، وأمّا الكافر الخالي الوفاض[٤] من أيّ عمل فقد قال عنه القرآن الكريم: **﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا﴾**[٥] و**﴿أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾**[٦]؛ وهكذا فإنّ شقاوة هذا الشخص واضحة وخُسرانه بَيّنٌ وجَليّ

---

١ . سورة هود عليه السلام، الآية ١٦.

٢ . سورة الكهف، الآية ١٠٥.

٣ . سورة الأعراف، الآية ٨.

٤ . «الوِفاض، بالكسر، الجِلدة تُوضَع تحت الرّحى والمكان يُمسك الماء». (معجم النّفائس الكبير، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد أبو حاقَة، مادّة «و ف ض»). [المترجم]

٥ . سورة الفرقان، الآية ٢٣.

٦ . سورة التوبة، الآية ٦٩.

لفَراغ جُعبته من أيّ عمل صالح وخلوّ صحيفته من أيّ علامة للإيمان، ولا شكّ في أنّ هؤلاء الأشخاص لا يُفيدهم الميزان ولا ينفع معهم الوزن، إلّا أنّهم يُحاسَبون لتحديد مستوى دركهم في النار.

هذا، ولا شيء أصعب ولا أكثر شدّة من محاسبة الكُفّار حيث يمكننا إدراك هذا المعنى من خلال المقابلة بين قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾[1] والآية الشريفة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[2].

ج. المسلمون الفاسقون: فهؤلاء تتمّ محاسبتهم وتُحدّد درجاتهم وأماكنهم: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، ومن هؤلاء مَن تكون أعماله الصالحة أكثر من سيّئاته، والعكس صحيح كذلك؛ أمّا الوقت الذي تستغرقه محاسبة هؤلاء فهو متطاول إلى حدّ ما.

وسنكتفي هنا بهذا القدر من الكلام ونترك الإطناب في هذا الموضوع إلى حين تفسير الآيات القرآنية التي تتناول مسألة «*سوء الحساب*».

٤. سبيل الخلاص من الحساب العسير

بإمكان كلّ واحد منّا أن ينجو من خطر الحساب العسير الذي قد يواجهه يوم القيامة وذلك من خلال محاسبته لنفسه ما زال حيّاً في هذه الدّنيا، فمَن يُحاسب نفسه على ما فعل ويفعل وما ينوي فِعله في المستقبل لن يَقلق بشأن محاسبته يوم القيامة من قِبَل الله سبحانه، ومَن كان يؤمن باليوم الآخر وهو يوم

---

١. سورة الانشقاق، الآيات من ١٠ إلى ١٢.

٢. سورة الانشقاق، الآيتان ٧ و٨.

٣. سورة التوبة، الآية ١٠٢.

الحساب لكنّه لم يسعَ إلى محاسبة نفسه في هذه الدنيا وكان كلّ أفعاله من غير محاسبة ولا أساس فهو مؤمن بيوم القيامة إلّا أنّه في الحقيقة غافل عن يوم الحساب وناسٍ له.

وفي هذا الصّدد يعتبر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّ السبيل الوحيدة التي تضمن تخلّص المرء من عُسرة الحساب وشدّة المحاسبة يوم القيامة هي محاسبته لنفسه أوّلاً. وفي خطبته الشريفة التي تتناول دوام فيض المخلوقات الإلهية وعظمتها، تعرّض الإمام عليّ عليه السلام إلى موضوع المحاسبة بقوله: «**عِبَادَ الله! زِنُوا أَنفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا وحَاسِبُوهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا وتَنَفَّسُوا قَبْلَ ضِيقِ الْخِنَاقِ وانْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ واعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وزَاجِرٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لَا زَاجِرٌ ولَا وَاعِظٌ**»[١].

وفي معرض وصفه للسالكين لطريقهم إلى الله تعالى وأحوالهم فيما يتعلّق بأمر المحاسبة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ ومَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ وقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ وفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وكَبِيرَةٍ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا وحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ... فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ»[٢].

بحث روائيّ

١. عدم نسخ الآية

عَن أبي هريرة قال: لمّا نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿لله ما فِي السَّماواتِ وَما

١. نهج البلاغة، الخطبة رقم ٩٠.

٢. نهج البلاغة، الخطبة رقم ٢٢٢.

فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رَسول الله ﷺ ثمّ جَثوا على الرُّكب فقالوا: يا رسولَ الله! كُلّفنا من الأعمال ما نُطيق؛ الصلاة والصيام والجهاد والصّدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها! فقال رسول الله ﷺ: «**أتريدُونَ أن تقولُوا كما قالَ أهلُ الكتابيْن مِن قَبْلِكم: سَمِعْنا وَعَصيْنا؟ بَل قُولوا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾**[١]». فَلَمّا اقْتَرأها القومُ وَذلّت بها ألسِنَتهم أنزلَ الله في أثرِها: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾** الآية؛ فلمّا فَعَلوا ذلك نَسخها الله فأنزلَ الله: **﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلّا وُسْعَهَا﴾**[٢].

ـ عَن مجاهد قال: دخلتُ على ابن عباس فقلتُ: كنتُ عِند ابن عُمر، فَقَرأ هذه الآية فبكى. قال: أيّة آية؟ قلتُ: **﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾**. قال ابن عباس: إنّ هذه الآية حين أُنزلَت غمّت أصحاب رسول الله ﷺ غمّاً شديداً وغاظتهم غَيْظاً شديداً، وقالوا: يا رسول الله! هلكنا إن كُنّا نُؤاخَذ بما تَكلّمنا وبِما نَعمل؛ فأمّا قلوبنا فليست بأيدينا؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «**قُولوا: سَمِعْنا وَأطَعْنا**». قال: فنَسختها هذه الآية: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾** إلى **﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾**. فتُجُوّز لهم عن حديث النّفس وأُخِذوا بالأعمال[٣].

إشارة: أ) تُفيد هذه الروايات وغيرها بأنّ الآية الّتي هي موضوع البحث منسوخة بالآيات التي تَلتها[٤] مشيرة إلى أنّ السبب في ذلك هو أنّها كانت شديدة على أصحاب النبيّ ﷺ وأنّها غمّتهم وأحزنتهم ما أجبرهم على القول بأنّهم

---

١ . **سورة البقرة**، الآية ٢٨٥.

٢ . **تفسير الدرّ المنثور**، ج٢، ص١٢٧.

٣ . المصدر السابق، ص١٢٧ ـ ١٢٨.

٤ . راجع المصدر السابق.

قَبلوا بِما كُلّفوا به من قَبل كالصلاة والصّوم والجهاد والإنفاق، وكذلك بمؤاخذتهم على ما ظهر من الأفعال والأقوال، وأنّ هذه الآية تُعتبر أكبر من طاقتهم وأنّها قد تؤدّي إلى هلاكهم مدّعين أنّ قلوبهم ليست ملكاً لهم وأنّها خارجة عن سيطرتهم، فحذّرهم النبيّ ﷺ من أن يصبحوا كأهل الكتاب (اليهود والنّصارى) الذين قال عنهم الله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[1] ونصحهم بأن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فلّما قَبلوا بذلك واعترفوا به، أنزل الله قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾[2] ونسخ به الآية الّتي هي موضوع البحث.

وهناك العديد من الروايات الأخرى التي تُخالف الروايات المذكورة في أعلى الصفحة، والتي تشير إلى عدم نسخ الآية الّتي هي موضوع البحث[3]، مثل:

١. أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عليّ عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾، فذلكَ سرائرك وعلانيتك ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ﴾ فإنّها لم تُنْسَخ؛ ولكنّ الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول: «إنّي أُخبركم بما أخفيتم في أنفسكم ممّا لم تطلع عليه ملائكتي»؛ فأمّا المؤمنون فيخبرهم ويَغفر لهم ما حَدّثوا به أنفسهم، وهو قوله ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ﴾. يقول: يُخبركم، وأمّا أهل الشكّ والرّيب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب وهو قوله ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[4].[5]

---

١. سورة البقرة، الآية ٩٣.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

٣. أنظر: الجامع لأحكام القرآن، مج٢، ج٣، ص٣٨٣ ـ ٣٨٤.

٤. سورة البقرة، الآية ٢٢٥.

٥. تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص١٢٩ ـ ١٣٠.

٢. عَن الرّبيع بن أنس في الآية قال: هي مُحكمة لم يَنسخها شيء يَعرفه الله يوم القيامة أنّك أخفيت في صَدرِكَ كَذا وكذا وَلا يُؤاخِذهُ[1].

بالاستناد إلى مقالة ابن عبّاس ومقالة الربيع تكون محاسبة المؤمنين على أفكارهم وخواطرهم ونيّاتهم الباطنية بإخبارهم بها يوم القيامة ثمّ العفو عنهم، ولكن تتمّ مؤاخذة أهل الشكّ والريبة بعد إخبارهم بتكذيبهم وكُفرهم.

ب) قال صاحب تفسير (*مجمع البيان*) حول نسخ الآية الّتي هي موضوع البحث: «وقالَ قوم إنّ هذه الآية منسوخة بقوله ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ ورووا في ذلك خبراً ضعيفاً وهذا لا يصحّ لأنّ تكليف ما ليس في الوُسع غير جائز فكيف ينسخ؛ وإنّما المراد بالآية ما يتناوله الأمر والنّهي من الاعتقادات والإرادات وغير ذلك ممّا هو مستور عنّا فأمّا ما لا يَدخل في التكليف من الوساوس والهواجس وما لا يمكن التحفّظ عنه من الخواطر فخارج عنه لدلالة العقل»[2].

ج) أجابَ العلّامة الطباطبائيّ ﷺ على مَن قال بنسخ الآية (٢٨٤) من سورة البقرة بالرواية المذكورة، بكلام متراصف النّظم وفيما يأتي موجز لِما قاله ﷺ:

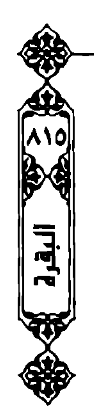
«أقول: والروايات على اختلافها في مضامينها مشتركة في أنّها مخالفة لظاهر القرآن على ما تقدّم: إنّ ظاهر الآية هو: أنّ المحاسبة إنّما تقع على ما كسبته القلوب إمّا في نفسها وإمّا من طريق الجوارح، وليس في الخطور النفساني كسب، ولا يتفاوت في ذلك الشّهادة وغيرها ولا فرق في ذلك بين المؤمن والكافر، وظاهر المحاسبة هو المحاسبة بالجزاء دون الاخبار بالخطورات والهِمَم النفسانية، فهذا ما تدلّ عليه الآية وتؤيده سائر الآيات على ما تقدّم.

وأما حديث النسخ خاصة ففيه وجوه من الخلل يوجب سقوطه

---

١. تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص١٣١.

٢. تفسير مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٦٨٧.



عن الحجيّة:

أوّلها: مخالفته لظاهر الكتاب على ما تقدّم بيانه.

ثانيها: اشتماله على جواز تكليف مالا يُطاق وهو ممّا لا يرتاب العقل في بطلانه، ولا سيما منه تعالى، ولا ينفع في ذلك النسخ كما لا يخفى، بل ربّما زاد إشكالاً على إشكال.

ثالثها: أنّك ستقف في الكلام على الآيتين التاليتين: أنّ قوله: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ لا يصلح لأن يكون ناسخاً لشيء، وإنّما يدلّ على أنّ كلّ نفس إنّما يستقبلها ما كسبته سواء شقّ ذلك عليها أو سهل، فلو حمل عليها ما لا تطيقه، أو حمل عليها إصر كما حمل على الذين من قبلنا فإنّما هو أمر كسبته النّفس بسوء اختيارها فلا تلومَنّ إلّا نفسها.

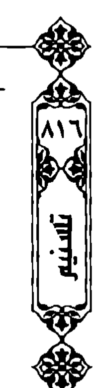
رابعها: أنّه سيجيء أيضاً: أنّ وجه الكلام في الآيتين ليس إلى أمر الخطورات النفسانية أصلاً، ومواجهة الناسخ للمنسوخ ممّا لا بدّ منه في باب النسخ؛ بل قوله تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ...**﴾ إلى آخر الآيتين مسوق لبيان غرض غير الغرض الذي سيق لبيانه قوله تعالى: ﴿**لله ما فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ...**﴾ إلى آخر الآية»[1].

د) ومن المتأخّرين مَن اعتبر النّسخ ممنوعاً للوجوه الخمسة التي ذكرها ونَقده لبعض تلك الوجوه وقالوا: إنّ قوله تعالى: ﴿**يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ**﴾ خبر والأخبار لا تُنسَخ أبداً كما هو معروف في علم الأصول[2]. وهنا ينبغي الانتباه إلى أنّه رغم

---

١ . تفسير الميزان، ج٢، ص٤٣٨ ـ ٤٣٩.

٢ . «وَأَقُولُ: لَيْسَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَرَّحَ بِأَنَّ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ وَإِنَّمَا قُصَارَاهَا أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ فَهِمَ أَنَّهَا نُسِخَتْ، وَالرِّوَايَاتُ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ مُخْتَلِفَةٌ وَالْقَوْلُ بِالنَّسْخِ مَمْنُوعٌ مِنْ وُجُوهٍ: (أَحَدُهَا) أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ خَبَرٌ، وَالْأَخْبَارُ لَا تُنْسَخُ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي عِلْمِ الْأُصُولِ. (ثَانِيهَا) أَنَّ كَسْبَ الْقَلْبِ وَعَمَلَهُ مِمَّا دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ وَالْقِيَاسُ عَلَى ثُبُوتِهِ وَالْجَزَاءِ عَلَيْهِ، ظَهَرَ أَثَرُهُ عَلَى الْجَوَارِحِ أَمْ لَمْ يَظْهَرْ، وَهُوَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ فَالْقَوْلُ بِنَسْخِهَا إِبْطَالٌ ←



لِلشَّرِيعَةِ وَنَسْخٌ لِلدِّينِ كُلِّهِ، أَوْ إِثْبَاتٌ لِكَوْنِهِ دِينًا جُثْمَانِيًّا مَادِّيًّا لَا حَظَّ لِلْأَرْوَاحِ وَالْقُلُوبِ مِنْهُ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة / ٢٢٥] وَقَالَ: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء / ٣٦] وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور / ١٩] وَالْحُبُّ مِنْ أَعْمَالِ الْقَلْبِ الثَّابِتَةِ فِي النَّفْسِ. فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ مَعْنَاهُ مَا ثَبَتَ وَاسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ كَمَا تَقَدَّمَ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الْكُفْرُ وَالْأَخْلَاقُ الرَّاسِخَةُ وَالصِّفَاتُ الثَّابِتَةُ مِنَ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ فِي الْجَوْرِ وَكِتْمَانِ الشَّهَادَةِ وَقَصْدِ السُّوءِ أَوْ سُوءِ الْقَصْدِ وَفَسَادِ النِّيَّةِ وَخُبْثِ السَّرِيرَةِ، وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ وَالصِّفَاتُ هِيَ الْأَصْلُ فِي الشَّقَاوَةِ وَعَلَيْهَا مَدَارُ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، وَلَوْلَا أَنَّ لِلْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ آثَارًا فِي النَّفْسِ تُزَكِّيهَا أَوْ تُدَسِّيهَا لَمَا آخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْآخِرَةِ أَحَدًا عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ لَا يُعَاقِبُ النَّاسَ حُبًّا فِي الْإِنْتِقَامِ وَلَا يَظْلِمُ نَفْسًا شَيْئًا، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ سُنَّتَهُ فِي الْإِنْسَانِ أَنْ يَرْتَقِيَ أَوْ يَتَسَفَّلَ نَفْسًا وَعَقْلًا بِالْعَمَلِ؛ فَلِهَذَا كَانَ الْعَمَلُ مُجْزِيًّا عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، فَإِنَّ أَثَرَهُ فِي النَّفْسِ هُوَ مُتَعَلَّقُ الْجَزَاءِ. (ثَالِثُهَا) أَنَّ الْخَوَاطِرَ السَّانِحَةَ وَالْوَسَاوِسَ الْعَارِضَةَ وَحَدِيثَ النَّفْسِ الَّذِي لَا يَصِلُ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْقَصْدِ الثَّابِتِ وَالْعَزْمِ الرَّاسِخِ لَا يَدْخُلُ فِي مَفْهُومِ الْآيَةِ... لِأَنَّ مَا ذُكِرَ غَيْرُ ثَابِتٍ وَلَا مُسْتَقِرٌّ وَقَوْلُهُ: ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يُفِيدُ الثَّبَاتَ وَالْإِسْتِقْرَارَ وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا وَجْهًا لِإِبْطَالِ النَّسْخِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا ثَبَتَ أَنَّ مَا ذُكِرَ دَاخِلٌ فِي الْآيَةِ فَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الْآيَةَ خَبَرٌ يُفِيدُ النَّهْيَ عَنْ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ وَالْوَسَاوِسِ فِي الْمَعْنَىٰ، فَهُوَ مِنْ تَكْلِيفِ مَا لَا يُطَاقُ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ بَعْدَهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ نَاسِخًا لَهُ؛ وَبِهَذَا تَعْلَمُ أَنَّ حَدِيثَ التَّجَاوُزِ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ لَا يُنَافِي الْآيَةَ وَلَا يَصِحُّ دِعَامَةً لِلْقَوْلِ بِنَسْخِهَا. (رَابِعُهَا) أَنَّ تَكْلِيفَ مَا لَيْسَ فِي الْوُسْعِ يُنَافِي الْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ الْبَالِغَةَ وَالرَّحْمَةَ الرَّبَّانِيَّةَ السَّابِغَةَ، فَهُوَ لَمْ يَقَعْ فَيُقَالُ: إِنَّ الْآيَةَ مِنْهُ، وَنُسِخَتْ بِمَا بَعْدَهُ. (خَامِسُهَا) الْمَعْقُولُ فِي النَّسْخِ أَنْ يُشْرَعَ حُكْمٌ يُوَافِقُ مَصْلَحَةَ الْمُكَلَّفِينَ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَنٌ أَوْ تَطْرَأُ حَالٌ يَكُونُ ذَلِكَ الْحُكْمُ فِيهِ مُخَالِفًا لِلْمَصْلَحَةِ وَكَوْنُ مَا فِي النَّفْسِ يُحَاسَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقَائِقِ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَحْوَالِ. فَإِنْ قِيلَ: إِذَا كَانَ مَعْنَى الْآيَةِ مَا ذَكَرْتَ، فَلِمَاذَا قَالَ الصَّحَابَةُ فِيهَا مَا قَالُوا؟ أَقُولُ: إِنَّ الصَّحَابَةَ عَلَيْهِمُ الرِّضْوَانُ قَدْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَأَكْثَرُهُمْ رِجَالٌ قَدْ تَرَبَّوْا فِي حِجْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَانْطَبَعَتْ فِي نُفُوسِهِمْ قَبْلَهُ أَخْلَاقُهَا، وَأَثَّرَتْ فِي قُلُوبِهِمْ عَادَتُهَا فَكَانُوا يَتَزَكَّوْنَ مِنْهَا، وَيَتَطَهَّرُونَ مِنْ لَوْثِهَا تَدْرِيجًا بِزِيَادَةِ الْإِيمَانِ، كُلَّمَا نَزَلَ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَبِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ، فِيمَا يَفْعَلُ وَيَقُولُ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ خَافُوا أَنْ يُؤَاخَذُوا عَلَىٰ مَا كَانَ لَا يَزَالُ بَاقِيًا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَثَرِ التَّرْبِيَةِ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ، وَنَاهِيكَ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْخَوْفِ مِنَ اللهِ ﷻ وَاعْتِقَادِ النَّقْصِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ بَعْدَ كَمَالِ التَّزْكِيَةِ وَتَمَامِ الطَّهَارَةِ». (تفسير المنار، ج٣، ص١٣٩). [المترجم]

إمكانية نَسخ الأخبار حيث يُسمّى نسخه بالبداء، لكن إذا كان الهدف من الإتيان بالجملة الخبرية هو قصد الإنشاء فإنّ حكمها يكون حكم الإنشاء وعندئذ يمكن نسخها. وعلى أيّة حال يبدو أنّ جملة ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ﴾ هي خبر إلّا أنّ باطنها هو الوعيد الذي يمثّل الإنشاء وليس المقصود بها هو الإخبار عن المحاسبة في المعاد وحسب.

٢. فضل الله الواسع

عَن زرارة، عن أحدهما عليهما السلام قال: «**إنّ الله تَبارَكَ وَتَعالى جَعَلَ لآدَمَ في ذرّيّته: مَن هَمّ بِحَسَنة وَلَم يَعْملها كُتِبَت لَه حَسَنَة، وَمَن هَمّ بِحَسَنة وَعَملها كُتِبَت لَه بِها عَشْراً، وَمَن هَمّ بِسَيّئة وَلَم يَعْمَلها لَم تُكْتَب عَليه، وَمَن هَمّ بِها وَعَملها كُتبَت عَليه سَيّئة**»[1].

ـ حَمزة بن حِمران قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن الاستطاعة، فَلَم يُجِبْني، فدخلتُ عَليه دَخْلة أُخرى فقلتُ: أصلحكَ الله! إنّه قَد وقع في قلبي مِنها شيء ولا يُخرجه إلّا شيء أسمَعه مِنكَ، قال: «**فَإنّهُ لا يَضُرّكَ ما كانَ في قَلْبِكَ...**»[2].

إشارة: يبيّن مضمون الرواية الأولى فضل الله سبحانه الكبير والواسع مُقارنة بعَدله، فمِن فضل الله عزّ وجلّ ومَنّه على عِباده أنّه لا يؤاخِذ مَن هَمّ بفعل سيئة وصمّم على ارتكابها لكنّه لم يفعل، ولا يكتبها عليه، رغم أنّ النيّة تلعب دوراً مؤثّراً في تلويث روح الإنسان وقد تتسبّب في حرمانه من الفيض الإلهيّ. وهكذا نرى أنّ الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث تشرح هذه الروايات.

* * *

١. أصول الكافي، ج٢، ص٤٢٨.

٢. كتاب التوحيد، الباب ٥٦، ص٣٤٦؛ تفسير كنز الدقائق، ج١، ص٦٨٨ ـ ٦٨٩.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾

خلاصة التفسير

يقول الله ﷻ إنّ رسوله الكريم ﷺ ومَن معه من المؤمنين قد آمنوا بما أنزل الله على نبيّه وبملائكته والكُتُب السماوية والرُّسُل والأنبياء الذين أرسلهم الله سبحانه إلى الخلق.

ولا رَيب في أنّ ذِكر اسم الرّسول الأعظم ﷺ بشكل مُنفصل عن بقيّة الأسماء والشخصيّات الأخرى يدلّ على مكانته المتميّزة ومرتبته الرفيعة الخاصّة عند ربّه مقارنة بالمؤمنين، فضلاً عن نسبة إيمانه ﷺ إزاء إيمانهم فإيمان الرّسول الكريم ﷺ هو إيمان شهوديّ، وشهود المعصوم هو من نوع الشّهود الأوّل الذي لا يتسلّل إليه الخطأ ولا يَنفذ إليه الشكّ والتردّد.

والمقصود بالملائكة في الآية الشريفة هو كلّ الملائكة على اختلاف أصنافهم وتنوّع مقاماتهم، والمُراد بالكُتُب هي الكُتُب السماوية التي أرسلها الله سبحانه

بيَد أنبيائه بالإضافة إلى الكتاب المعروف باسم (أُمّ الكتاب) و(اللّوح المحفوظ)؛ أمّا (الرُّسُل) فهم الشخصيّات الإنسانية وأفراد البشر الذين اختارهم الله ﷻ كأنبياء له إلى عِباده، وكذلك إختارَ الملائكة الحاملين للوَحي الإلهيّ.

إذاً، فقد آمنَ الرّسول الأعظم ﷺ والمؤمنون معه برسالات الأنبياء جميعاً دون تفريق أو تفضيل، ولم يُنكروا أيّاً من تلك الرّسالات أو الرُّسُل.

ثمّ يمدح الله تعالى المؤمنين في الآية الكريمة مشيراً إلى أنّهم أُناس مطيعون لله، يرجون مغفرته ويتطلّعون إلى كَسب رضاه ورضوانه، عالمين أنّ تكامل الوجود ومصيره بيَد الله وَحده.

التفسير

المُفردات

لْمَصِيرُ: الأصل الواحد في هذه المادّة هو التحوّل إلى حالة ثانوية متأخّرة طولاً كما أنّ مادّة الصّور واويّاً كانت دالّة على تحوّل وإمالة إلى جانب[١].

و«المَصير» إمّا إنّه مصدر ميميّ بمعنى الصيرورة والكينونة[٢] أو اسم مكان يعني المرجع والمكان الذي يُختَم به الأمر[٣]. وعلى أيّة حال فإنّ هذه كلمة تختلف عن كلمة (المَسير) التي تعني الطّريق والسّبيل وإن كانت كلمة الصيرورة لا تخلو من معنى السّير من مكان إلى مكان أو من مرتبة إلى أخرى.

---

١ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٦، ص٣٦٢ ـ ٣٦٣، مادّة (ص ي ر).

٢ . «المصير: أي الرّجوع بالموت والبعث وهو مصدر ميميّ والجملة قيل: معطوفة على مقدّر، أي، فَمِنكَ المبدأ وإليك المصير، وهي تذييل لِما قبله مقرّر للحاجة إلى المغفرة وفيها إقرار بالمعاد الذي لم يصرّح به قبل». (**تفسير روح المعاني**، ج١، ص٦٠٣). [المترجم]

٣ . ابن الجوزي، **زاد المسير في علم التفسير**، ج١، ص١٤٣ و٣٤٥.



تناسب الآيات

عوّدنا القرآن الكريم على ذِكر خلاصة معنى الآية في نهايتها وذلك ـ كما يُقال ـ من باب «رَدّ العَجز إلى الصّدر»، ولهذا يمكننا ملاحظة أنّ الآيتيْن المذكورتيْن في آخر سورة البقرة تُمثّلان ملخّصاً شاملاً لِما ورد فيهما من المعارف وذلك من خلال ثلاثة مبادئ هي: الإيمان بالله وبالمَعاد والقبول العمليّ والعِلميّ لجميع الكُتُب السماوية والرُّسُل والأنبياء الذين بعثهم الله سبحانه.

وقال بعض المفسّرين إنّ هذه الآية مرتبطة بالآية التي سبقتها وأنّها تتمّة لها[1]؛ ولكن، مع الأخذ بعين الاعتبار الترتيب والارتباط بالآية السابقة، فإنّ الارتباط الواضح بين هذه الآية والآيات الأولى من السورة لا خلاف فيه لأنّ الآيات الأولى من سورة البقرة تحدّثت عن الإيمان بالأصول والفروع أمّا الآيات الأخيرة فتشير إلى أنّ الرّسول الأعظم ﷺ ومَن معه من المؤمنين هم مصاديق المتّقين الذين أشارت إليهم الآيات الأولى، فضلاً عن أنّها أشارت بشكل ضمنيّ إلى مبدأ العدل والإمامة أيضاً من خلال بيانها للأصول الثلاثة للإيمان وهي الإيمان بالله تعالى ورُسُله والكُتُب السماوية والمعاد إذ إنّ الإيمان بالله ﷻ وصفاته يتضمّن العدل، والإيمان الحقيقيّ برسول الله ﷺ يلزمه الإيمان بإمامة عترته الطاهرة عليهم السلام.

* * *

القرآن الكريم كتاب جامع

تُعتبر آيات القرآن الكريم كلمات جامعة وشاملة وهي في شموليّتها تختلف بعضها مع البعض، وتُمثّل الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث مصداقاً جليّاً

١ . أنظر: الجامع لأحكام القرآن، مج٢، ج٣، ص٣٨٢؛ تفسير روح المعاني، ج٣، ص١٠٤.

لجوامع الكَلِم التي وُهِبَت للنبيّ الأكرم ﷺ حيث تتضمّن كلّ الكمالات العلمية والإيمان بالمبدأ والمعاد والنبوّة، إلى جانب اشتمالها على الكمالات العمليّة والفرعية، وفي ذلك قال رسول الله ﷺ: «**أُعْطِيتُ جَوامِعَ الكَلِم**»[١]، إذ احتوت الآية الكريمة على أمثلة عجيبة من الإجمال والتفصيل والإيجاز والإطناب وأدب العبودية وعلوم جامعة حول عوامل الكمال والسعادة[٢]. وأشار بعض الروايات كذلك إلى هذه الآيات واصفاً إيّاها بأنّها كنز عرشيّ[٣].

تعظيم مقام النبيّ ﷺ

نلاحظ في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث أنّ الله سبحانه وتعالى يذكر رسوله الكريم ﷺ بشكل مستقلّ عن بقيّة المؤمنين، وثمّة عدد آخر من الآيات القرآنية التي تشير إلى النبيّ الأعظم ﷺ والمؤمنين بشكل مستقلّ، مثل قوله ﷻ: ﴿**حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ**﴾[٤] و﴿**ثُمَّ أَنَزلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٥]. كما أنّ القرآن الكريم يذكر صلوات الله تعالى وملائكته على رسوله العزيز ﷺ وعلى المؤمنين ولكن في آيتيْن مُنفصلتيْن، وهما قوله سبحانه: ﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى**

---

١ . **تفسير القمي**، ج٢، ص٣٥٠؛ **كتاب الخصال**، ص٢٩٢؛ **بحار الأنوار**، ج٨، ص٣٨.

٢ . أنظر **تفسير الميزان**، ج٢، ص٤٤١.

٣ . «عَن قتادة قال: كان رسول الله ﷺ إذا قَرأ هذه الآية ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ**﴾ حتى يختمها، قال: "وَحَقّ الله إنّ لله كِتاباً قَبلَ أن يَخلقَ السّماواتِ وَالأرض بِألفي سَنة [فوضعه] عِندَه فَوقَ العَرْش فأنْزلَ آيَتيْن فَختَمَ بِهِما البَقَرَة فَأيّما بَيْت قُرِئَ فِيه لَم يَدْخلهُ شَيْطان"». (**تفسير العياشي**، ج١، ص١٦٠)؛ [المترجم]. أنظر كذلك: **تفسير الدرّ المنثور**، ج٢، ص١٣٨.

٤ . **سورة البقرة**، الآية ٢١٤.

٥ . **سورة التوبة**، الآية ٢٦.

النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1] و﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[2]. واستناداً إلى هاتين الآيتين فالأفضل تلاوة آية ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ﴾ ـ التي تشير إلى سيّدنا ومولانا أشرف الخَلق أجمعين ﷺ وجُمِعَت فيها كلّ فضائله الكريمة وخصاله العظيمة ولا سيّما في عبارة ﴿رَسُولُ اللهِ﴾ ـ في الآية الشريفة ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾[3] ثمّ التوقّف ثمّ تلاوة بقيّة الآية الشريفة (أي، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾) التي تشير إلى المؤمنين.

ولا يخفى أنّ العلّة في الفصل بين اسم رسول الله ﷺ والمؤمنين هي منزلة النبيّ ﷺ السّامية ومكانته العالية على كلّ المخلوقات، فإيمان كلّ شخص منوط بمقدار إدراكه الإجماليّ أو التفصيليّ، وإذا لم يكن الشيء مفهوماً لا بالإجمال ولا بالتفصيل فلا يمكن الإيمان به إطلاقاً، وهذا الإشكال قائم بالنسبة إلى المؤمنين لكنّه محال بالنسبة إلى الرّسول الأعظم ﷺ لأنّ ذاته المقدّسة تُدرك الكثير من الأمور وتؤمن بها، بينما تعجز آفاق المؤمنين عن بلوغ مثل هذا الشيء، وعليه، فهم معذورون عن الإيمان به وليسوا مُكلّفين بذلك، وهذا هو السبب في الفصل بين اسم النبيّ الأكرم ﷺ وبين اسم المؤمنين.

إضافة إلى ما قيل نقولُ إنّ إيمان الرّسول الكريم ﷺ بروح الوَحي يختلف تماماً عن إيمان المؤمنين قاطبة به لأنّ إيمان النبيّ ﷺ هو إيمان بالشهادة وفقاً لقوله ﷻ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[4]، فهو ﷺ يرى في البداية الجنّة والنّار ثمّ بعد ذلك يؤمن بهما، في حين

---

١ . سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

٢ . سورة الأحزاب، الآية ٤٣.

٣ . سورة الفتح، الآية ٢٩.

٤ . سورة التكاثر، الآيات من ٥ إلى ٧.

أنّ إيمان المؤمنين يكون بالغيب (لا بالشهادة) فهم لا يرون شيئاً من الجنّة أو النّار بل يجزمون بحقيقة الشيء ووجوده بواسطة البرهان العقليّ المحض أو بالدّليل النّقليّ المُعتبر ـ وهو كلام المعصوم عليه السلام ـ وبالتالي يؤمنون به؛ وإذا وُفِّقَ المرء إلى رؤية الجنّة والنّار ـ كما حصل لحارثة بن مالك ـ وعَرَضَ ذلك على المعصوم ثمّ آمنَ به، فقد آمنَ بالمشهود لا بالغيب[1].

هذا، والمُراد بـ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث هم خواصّ الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله الذين يؤمنون بالله ورسوله وملائكته وكُتُبه وجميع أنبيائه كما آمن النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله نفسه، ولم يتخلّوا عن النبيّ صلى الله عليه وآله ولم يتركوه لوحده في أيّ موقف من المواقف. وبسبب صحبة هؤلاء المؤمنين الحميمة للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ووقوفهم معه صفّاً واحداً فقد ذُكِر إيمانهم بصيغة الفعل الماضي: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ﴾؛ إذاً فكلمة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ لا تشمل جميع المؤمنين قاطبة، فكما هو معروف ينبغي الإشارة إلى المؤمنين الذين لم يُولدوا حتى تلك الساعة بالفعل المضارع وليس الفعل الماضي.

قراءتان للآية

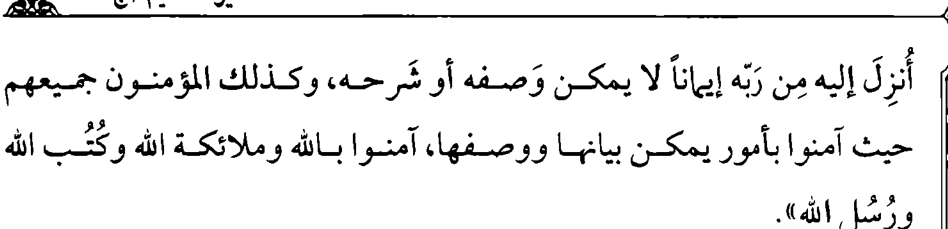
يمكن قراءة الآية الشريفة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ﴾ بأسلوبيْن اثنيْن:

أ) التوقّف بعد قراءة عبارة ﴿مِن رَّبِّهِ﴾ ثمّ استئناف القراءة بدءاً من ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وفي هذه الحالة ستكون قراءتها مثل قراءة الآية الشريفة: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء﴾[2] ويكون معنى الآية عندئذ كالتالي: «آمَنَ النبيّ بما

---

١ . أنظر تفسير الآية (٢٨٢) في هذا المجلّد، تحت عنوان (ارتباط التّقوى بالتعليم الإلهيّ). [المترجم]

٢ . سورة الفتح، الآية ٢٩.





أُنزِلَ إليه مِن رَبّه إيماناً لا يمكن وَصفه أو شَرحه، وكذلك المؤمنون جميعهم حيث آمنوا بأمور يمكن بيانها ووصفها، آمنوا بالله وملائكة الله وكُتُب الله ورُسُل الله».

ب) التوقّف بعد قراءة كلمة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ ثمّ استئناف القراءة ثانية من قوله تعالى: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ﴾ فيكون معنى الآية حينئذ هو: «آمَنَ النبيّ بِما أُنزِلَ إليه مِن رَبّه، وكذلك فعل المؤمنون، كلّ منهم (أي الرّسول ﷺ والمؤمنون) آمنَ بالله وملائكة الله وكُتُب الله ورُسُل الله».

لكنّ القراءة الثانية هي الصُحّى على الرأي الأرجح، ورغم تقديم بعض الروايات[1] القراءة الأولى إلّا أنّها لم تنجُ من الكثير من الانتقادات والاعتراضات[2].

---

١. أنظر: تفسير العياشي، ج١، ص١٥٨ ـ ١٦٠.

٢. قال الفخر الرازي: «فأمّا قوله ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فَفيه احتمالان، أحدهما: أن يتمّ الكلام عند قوله ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فيكون المعنى: آمنَ الرّسول والمؤمنون بما أُنزِلَ إليه من ربّه، ثمّ ابتدأ بعد ذلك بقوله ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ﴾ والمعنى: كلّ واحد من المذكورين فيما تقدّم، وهُم الرّسول [ﷺ] والمؤمنون، آمنَ بالله. الاحتمال الثاني: أن يتمّ الكلام عند قوله ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ ثمّ يَبتدىء مِن قوله ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ﴾ ويكون المعنى: أنّ الرّسول [ﷺ] آمنَ بكلّ ما أُنزِلَ إليه من ربّه، وأمّا المؤمنون فإنّهم آمنوا بالله وملائكته وكُتبه ورُسله، فالوَجه الأوّل يُشعر بأنّه عليه الصلاة والسلام ما كانَ مؤمناً بربّه، ثمّ صارَ مؤمناً به، ويُحتمل عدم الإيمان على وقت الاستدلال، وعلى الوجه الثاني يُشعر اللّفظ بأنّ الذي حدثَ هو إيمانه بالشّرائع التي أُنزِلَت عليه، كما قال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ (سورة الشورى، الآية ٥٢) وأمّا الإيمان بالله وملائكته وكُتبه ورسله على الإجمال، فقد كانَ حاصلاً مُنذ خَلَقَه الله من أوّل الأمر، وكيف يُستبعَد ذلك مع أنّ عيسى عليه السلام حين انفصل عن أُمّه قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ (سورة مريم، الآية ٣٠) فإذا لم يبعد أنّ عيسى عليه السلام رسولاً من عند الله حين كانَ طفلاً، فكيف يستبعد أن يُقال: إنّ محمّداً ﷺ كانَ عارفاً بربّه مِن أوّل ما خُلِقَ كامل العقل». (التفسير الكبير، مج٤، ج٧، ص١١٢). [المترجم]

علم النبيّ ﷺ بالوحي

من المعروف أنّ الأشخاص العاديّين لا يمكنهم تمييز النبيّ الحقيقيّ عن ذلك الذي يدّعي النبوّة زوراً وكذباً إلّا بعد أن يروا مُعجزة أو عملاً خارقاً للعادة منه، فإذا تأكّدوا من صِدق ما جاء به الرّسول آمنوا به واعترفوا برسالته؛ وأمّا الرّسول الأعظم ﷺ فهو يعلم ويُدرك تماماً أنّه نَبيّ مُرسَل ويؤمن كذلك أنّ ما أُنزِلَ إليه هو الوَحي من رَبّه وليس إلقاء الشياطين ـ والعياذ بالله ـ وعلمه وإدراكه هو الأمر الذي يدفعه إلى الإيمان من غير حاجة به إلى رؤية مُعجزة أو شهادة عمل خارق.

قال الفخر الرازي: «... فَبيّنَ أنّ الرّسولَ عرفَ أنّ ذلك وَحيٌ مِن الله تعالى وُصِفَ إليه، وأنّ الذي أخبَرَه بذلك مَلَكٌ مَبعوثٌ مِن قِبَل الله تعالى مَعْصوم مِن التّحريف، وليسَ بِشَيطانٍ مُضِلّ» ثمّ أضاف بأنّ المَلَك نفسه بحاجة إلى المُعجزة»[1]، فالرازي يرى أنّ الملائكة كذلك هم مخلوقون عاديّون رغم عصمتهم وأنّ المعجزة لازمة وضرورية للأشخاص من ذوي المستوى العلميّ المتوسط وإن كانت تُمثّل حجّة قاطعة.

وممّا يُؤسَف له أنّ هذا النمط من التفكير استطاع التسلّل كذلك إلى كُتُب ومؤلّفات العديد من علماء الشيعة بل راح بعضهم يكرّر ما تردّد في تفاسير أهل السنّة مثل قولهم: «وأكثر المفسرين على أنّ هذه السورة [سورة العلق] أوّل ما نزل من القرآن وأوّل يوم نزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله ﷺ وهو قائم على (حراء)، علّمه خمس آيات من أوّل هذه السورة... رواه الحاكم أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أنّ رسول الله ﷺ قال

---

١ . راجع: **التفسير الكبير**، مج٤، ج٧، ص١٣٩.



لخديجة: «إنّي إذا خلوتُ وَحْدي سَمِعتُ نداءً»، فقالت: ما يَفعل الله بكَ إلّا خَيْراً فَوالله إنّك لتُؤدّي الأمانة وتَصِل الرّحم وتصدّق الحديث. قالت خديجة: فانطلقنا إلى ورقة بن نوفل ـ هو ابن عم خديجة ـ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى فقال له ورقة: إذا أتاكَ فاثبُت له حَتى تَسمع ما يقول، ثمّ أتيني فأخبرني. فلمّا خَلا ناداه: «يا محمّد! قُل له ذلك». فقال له: أبشِر ثمّ أبشر، فأنا أشهد أنّك الذي بَشّر به ابن مريم وأنّك على مِثل ناموس موسى»[١].

لكنّ هؤلاء جميعاً قد غفلوا عن أنّ الدّين أو الرّسالة التي لا تتمّ حجيّتها ولا تثبت حقّانيّتها إلّا بتأييد ورقة بن نوفل لا تساوي ورقة!

وحول عِلم الأنبياء والمُرسلين وإدراكهم لنبوّتهم قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**يُوَفَّق لِذلِكَ حَتّى يَعْرِفَه**»[٢].

إنّ الوَحي الإلهيّ لا يُداخله الشكّ ولا تعتريه الريبة، وعلى رسول الله ﷺ أن يُزيل شُبهات الآخرين ويمحو شكوكهم لا أن يشكّ هو فيما أُوحِيَ إليه فيلوذ بورقة بن نوفل ويُبيّن له علامات ما حصل له فيطمئنّ بقوله قَلبُه ويرتاح لرأيه فؤادُه!

وبعبارة أخرى، نقول إنّ العلم الحصوليّ ينقسم إلى نوعيْن: نظريّ وبديهيّ؛ وإنّ على البديهيّات أن تبلغ إلى العلم الأوّل (أي استحالة اجتماع النقيضيْن) حيث لا مجال هناك للشكّ أو الريبة، ففي العلم الحضوريّ كذلك وفيما يتعلّق بمسائل الكشف والشهود نقول إنّمّة كشفيّات تُعتبر أوليّة وبالذات لا يدخلها الشكّ إطلاقاً كعِلم الله سبحانه وتعالى بإلوهيّته وهذا أمر لا يحتاج فيه الله عزّ وجلّ إلى استدلال لذاته المقدّسة يُثبت إلوهيّته؛ وهكذا هي الحال مع الملائكة وأولياء الله

١ . أنظر: تفسير مجمع البيان، ج٩ ـ ١٠، ص٧٨٠؛ التفسير الكاشف، ج٥، ص٩٨.

٢ . أصول الكافي، ج١، ص١٧٧.



المعصومين فهم لا يشكّون طرفة عين بالشهود فيحتاجوا بذلك إلى مُعجزة لِيُدركوا من خلالها أنّ ما أدركوه كان وحياً، كما أنّه ما مِن أحد من الناس في يوم القيامة سيشكّ في أنّ ذلك اليوم هو يوم البعث ولن يُقدّمَ لهم أيّ برهان أو دليل على ذلك أبداً لأنّ شهودهم يومئذ سيكون من نوع الشهود الأوليّ الذي لا يشوبه الشكّ أو الريبة. فيوم القيامة هو يوم الشهود ولهذا فلا مجال للشكّ في ذلك اليوم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1].

الترتيب في مُتعلَّق الإيمان

إذا دقّقنا في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث فَسنُلاحظ أنّها قامت بذِكر الإيمان بالله ﷻ وملائكته وكُتُبه ورُسُله في إطار تمّ خلاله مُراعاة الترتيب الطبيعيّ لمُتعلّقات الإيمان: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ إذ ذُكِر أوّلاً الإيمان بالله تعالى بجميع صفاته الحسنى وجماله وجلاله، ثمّ الإيمان بالوسائط الموجودة بين الله سبحانه وبين أنبيائه عليهم السلام وهم الملائكة، ثمّ الإيمان بما أُرسِل بيَد الملائكة ونعني بذلك الكُتُب السماويّة، وفي النهاية الإيمان بالأنبياء والرُّسُل عليهم السلام.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الترتيب المذكور مستند إلى مقام الثبوت وليس الإثبات، أي إنّ أصل تحقّق الوحي في مقام الثبوت لا يكون إلّا من لَدن الله ﷻ

---

١ . سورة آل عمران، الآية ٩. وقد قيل في (الرّيب) وجوه عديدة منها: ١) أنّ للقيامة وجوداً ضروريّاً وحتميّاً ولهذا فلا يمكن الشكّ فيها، تماماً مثل نَفي الرّيب بخصوص القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢) ويشير هذا الأمر إلى المستقبل، بمعنى أنّ القيامة واقعة دون أيّ شكّ. ٢) أنّه لا شكّ في يوم القيامة عند وقوعه لأنّ مثله سيكون مَثل الشّمس الساطعة في كَبد السماء نهاراً، فيكون وجوده مشهوداً والمشهود والمعلوم والحضوريّ لا شكّ فيها أبداً. ٣) أنّه لا مجال للشكّ في يوم القيامة لأنّ جميع الحقائق والسرائر ستصبح علنية وجليّة في ذلك اليوم، ولا سبيل إلى الشكّ في شيءٍ هو مشهود.



لتلقّاه الملائكة بعد ذلك وبالتالي إخراجه بشكل كتاب أو كلام يُوصَل بعدها إلى نَبيّ من أنبياء الله أو رَسول من رُسُله؛ وأمّا في مقام الإثبات فإنّ إثبات المُعجزة بالنسبة للجمهور الأوّل يبدو شيئاً كالكتاب ثمّ يتمّ إثبات حامل الكتاب أو الرّسالة التي تتضمّن أموراً ومسائل يتعلّق قسم منها بموضوع الملائكة وما شابه ذلك.

المقصود من كلمة «الكُتُب»

إنّ معنى قوله تعالى: ﴿كُتُبِهِ﴾ في الآية الشريفة هي الكُتُب السماوية النازلة مع الأنبياء والرّسُل كالتوراة والإنجيل والقرآن الكريم بالإضافة إلى الكُتُب المذكورة المُشار إليها في الصّحف الإلهيّة بأسماء وعناوين مختلفة كالكتاب المُبين وأمّ الكتاب والكتاب المحفوظ: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1] وربّما تضمّنت تلك الكُتُب أيضاً كتاب الأعمال كما في قوله تعالى: ﴿مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[2].

وقد يبدو لنا للوهلة الأولى أنّ المقصود بـ«الكُتُب» هو الكُتُب التي أتى بها الأنبياء عليهم السلام وأنّ المُراد بالرُّسُل هم الأنبياء خاصّة؛ لكن، ربّما كان إطلاق الآية الشريفة مُحكَماً إذا أخذنا بعَين الاعتبار إصرار القرآن الكريم على إثبات الكُتُب الأخرى التي تشتمل على مسائل كالقضاء والقَدَر والمَحو والإثبات والآجال المَقضيّة والمُسمّاة وغير ذلك، ولا يُستَبعد أيضاً استثناء كتاب الأعمال من ذلك.

وربّما أشكَلَ بعضهم قائلاً إنّ المُراد بالكُتُب هو **الكتاب المُبين وأُمّ الكتاب واللّوح المحفوظ** وما شابهها فقط إذ إنّ الإيمان بالرّسول يُمثّل في الحقيقة الإيمان

---

١ . سورة الزّخرف، الآية ٤.

٢ . سورة الكهف، الآية ٤٩.



بعصارة رسالته وكتابه السماويّ، وإذا كان المقصود بالكُتُب هو الكُتُب السماويّة كذلك فهو مُجرّد تكرار، لكنّ الجواب هو أنّ النبيّ والنّور المُرسَل معه ليسا شيئاً واحداً: ﴿فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾[1] وهو ما قاله رسول الله ﷺ: «إنّي تَارِكٌ فِيكُم الثَّقَلَيْن كِتابَ الله وَعِتْرَتي»[2]، وبالاستناد كذلك إلى الآية الشريفة ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[3] فإنّ على المسلمين كافّة العمل بأوامر الرّسول الأكرم ﷺ وتنفيذها كعملهم وتنفيذهم بأوامر القرآن الكريم عِلماً أنّ أوامره وتعاليمه ﷺ نابعة من قلب القرآن الكريم. فالكثير من الأحكام التشريعية مثلاً كوجوب الركعتيْن الثالثة والرابعة في الصلاة والأحكام الخاصّة بالحكومة والولاية كالعزل والتنصيب الإداريّ والعسكريّ سنّها الرّسول الأعظم ﷺ بنفسه مستنبطاً ذلك من باطن القرآن الكريم، وعليه فإنّ طاعتها والعمل بها وتنفيذها هو لا محالة أمر واجب.

ووفقاً لِما قيل فإنّ رسول الله ﷺ يمتلك مَنصبيْن اثنيْن، هما: أوّلاً، استلام الشريعة واستلهامها بواسطة الملائكة على هيئة قرآن أو حديث قُدسيّ ثمّ بيانها وشرحها وتفصيلها وتفسيرها. ثانياً، إصدار الأحكام بشأن المسائل والأمور الولائية والأوامر الحكومية واختيار العزل والتنصيب، وهي أمور ينبغي الإيمان بها جميعاً وإطاعتها وتنفيذها، ولهذا ذكر الله ﷻ لزوم الإيمان بالرّسول ﷺ إلى جانب الإيمان به سبحانه فقال: ﴿فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾[4].

وفي موضع آخر يبيّن الله تعالى لنا وجوب العمل بما حَرّمه هو ونبيّه ﷺ ويوبّخ أولئك الذين لا يحترمون قدسيّة ذلك ولا يمتثلون لِما أمر به الله ﷻ

---

١ . سورة التغابن، الآية ٨.

٢ . أمالي الطوسيّ، ص٥٤٧؛ مُسند أحمد بن حنبل، ج٣، ص١٧؛ بحار الأنوار، ج٢٣، ص١٣٣.

٣ . سورة الحشر، الآية ٧.

٤ . سورة التغابن، الآية ٨.



ورسوله ﷺ قائلاً: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾[١]، ومعلوم أنّ التحريم الذي يُصدره الله تعالى يكون بشكل قرآن أمّا التحريم الذي يصدر عن الرّسول الأكرم ﷺ فيتمثّل في سنّته الشريفة وإن كان تحريم النبيّ ﷺ هو بمثابة الحديث القدسيّ حيث يتّصل بالوَحي الإلهيّ، فهو ﷺ لا يختلق تلك المسائل والأحكام الدينية من تلقاء نفسه ولا يبتدعها من ذاته أبداً لأنّه ﷺ: ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[٢].

المقصود من كلمة «الرُّسُل»

تشمل لفظة «رُسُل» كلًّا من الرُّسل الإنسية والملائكة ودليلنا على ذلك هو قوله تعالى: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[٣]؛ وعليه، فإنّ المقصود بالرُّسُل في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث هم المرسلون من البَشر والملائكة الذين يمتلكون منصباً رساليّاً، وأمّا الاحتمال القائل باقتصار معنى «الرُّسُل» على المُرسلين من الناس أو البَشر فهو احتمال بدائيّ.

واستناداً إلى الآية الكريمة: ﴿الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾[٤] حيث ذُكرت كلمة ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾ بصيغة الجمع المُعرَّف بالألف واللام، فإنّ جميع الملائكة يمتلكون مَنصب الرّسالة والسّفارة؛ ثُمّ إن افترضنا وجود فئتيْن من الملائكة، فلا شكّ في أنّ كلمة ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾ تشمل كذلك جميع الملائكة المخصّصينَ للعبادة وأولئك الذين يُسمّون بالمُدبّرات.

---

١ . سورة التوبة، الآية ٢٩.
٢ . سورة النّجم، الآيتان ٣ و٤.
٣ . سورة الحجّ، الآية ٧٥.
٤ . سورة فاطر، الآية ١.

الإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام

تُعتبر جملة: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ في محل مفعول للفعل المحذوف «قالُوا» منصوب محَلًّا، كقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ﴾[1] الذي يُشير إلى أنّه من كلام الملائكة، أو مثل قوله سبحانه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[2] وهو أيضاً منصوب محلّا فيما يكون كلام المشركين ومفعول الفعل محذوفاً بتقدير «قالوا».

بالإضافة إلى ذلك فإنّ جملة: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ هي سالبة كليّة تفيد عموم الرّفع لا رَفع العموم، وتعني أنّ المؤمنين يقولون مُعترفين: كُلّ رُسل الله سبحانه بالنسبة إلينا معصومون وهم مُرسَلون بالحقّ ونحن نؤمن بهم جميعاً، ولسنا نؤمن ببعضهم ونُنكر بعضاً.

وتتضمّن كلمة ﴿أَحَدٍ﴾ معنى الجمع وليس الجميع فيُقال مثلاً: إنّ المؤمنين لا يُفرّقون بين جميع الرُّسُل، فيتوهّم البعض أنّ ذلك يعني أنّه بالإمكان التفريق بين بعض الأنبياء. وقد ورد ما يُشبه هذا التعبير في آية أخرى وهو قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[3]، أي، ليس منكم مَن يستطيع أن يكون مانعاً أو حاجزاً.

وجدير بالذكر أنّ جملة ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ هو كلام النبيّ صلى الله عليه وآله والمؤمنين على أوثق الاحتمالات، والمقصود بالرّسل هنا على ما يبدو هو خصوص الأنبياء عليهم السلام؛ إذاً، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله والمؤمنين لا يُفرّقون بين أيّ شخصٍ من الرّسل والأنبياء بل يعترفون بجميعهم من حيث إنّهم معصومون

---

١ . سورة الأنعام، الآية ٩٣.

٢ . سورة الزّمر، الآية ٣.

٣ . سورة الحاقّة، الآية ٤٧.



وحَمَلة للوَحي الإلهيّ ولا يميّزون بينهم لا في الظاهر ولا في الباطن. ومع ذلك فإنّ هذا الكلام لا يعني عدم وجود تفاضل في مراتب الرّسل والأنبياء وذلك لقول القرآن الكريم نفسه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[1] كما أنّ المؤمنين كذلك مختلفون في المستويات من حيث حصولهم على الرّزق الظاهريّ والمعنويّ والعلوم والمعارف بحسب قول القرآن الكريم: ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾[2].

وأمّا ما يتعلّق بكيفية إيمان المؤمنين بأنبياء الله سبحانه ورُسُله فيمكن الإشارة إلى ذلك من خلال بعض النقاط:

١. أنّ جميع الأنبياء المعصومين مُرسلون من قِبَل الله ﷻ وأنّ الإيمان بهم جميعاً واجب دينيّ مفروض، وكلّ نَبيّ سابق يُبشّر بمَن يأتي من بَعده وكلّ نَبيّ لاحِق يُصدّق مَن سَبَقه من الأنبياء.

٢. رغم أنّ جميع أنبياء الله ورُسله عليهم السلام ينتمون إلى أصل جامع ومشترك واحد إلّا أنّهم ليسوا متساوين في الدرجات والمراتب.

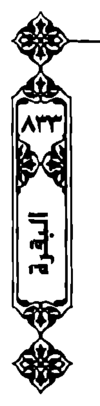
٣. أنّ عدم تساوي الأنبياء والمرسلين في الرتبة النبويّة ليس لدليل عقليّ أو تحليل للقياسات المنطقية وذلك لعَجز العقل عن الخوض في العديد من مثل هذه المسائل والأمور.

٤. الحكم بعَدم تساوي الأنبياء فيما بينهم بالاستناد إلى الدليل النقليّ المُعتبر المتمثّل بالوَحي الإلهيّ، وعليه، يمكن بيان معنى الآية الشريفة: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ من ناحيتيْن: الناحية الأولى عدم التفريق من حيث الأصل الجامع للرسالة، والناحية الثانية عدم تدخّل العقل في مسألة التفريق من حيث

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٥٣.

٢. سورة النّحل، الآية ٧١.



الدرجة والمنزلة بل إناطة ذلك إلى الدليل النقليّ الموثوق والمُعتبر.

٥. أنّ العقل منسجم مع النّقل المُعتبر الذي يُشار إليه بالشّرع؛ أي إنّ العقل والنّقل هما اللذان يكشفان الشّرع، وفي ذلك يقول الشاعر:

فَعَقْلٌ وَشَرْعٌ صاحِبانِ تَآلَفا   فَبُورِكَ مِن عَقْلٍ وَبُورِكَ مِن شَرْعِ[1]

عنصريّة أهل الكتاب إزاء الأنبياء عليهم السلام

لا شكّ في أنّ قوله تعالى: ﴿**لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ**﴾ يتضمّن إشارة واضحة إلى تصرّف أهل الكتاب من اليهود والنّصارى وغيرهم وسلوكهم الشاذّ في التمييز والتبعيض الباطنيّ والظاهريّ، ولهذا استخدمت الآية الشريفة فعل المتكلّم مع الغير ﴿**لَا نُفَرِّقُ**﴾ لتُصبح حركة المؤمنين على عكس اتّجاه حركة أهل الكتاب من قَبل ومن بَعد. فاليهود مثلاً، وبعد قبولهم دعوة النبيّ موسى عليه السلام لم يتبنّوا أيّ حكم ولم يعترفوا إلّا ما كان في إطار شريعتهم وحدودها ممّا تهوى أنفسهم وتميل إليه أخلاقهم: ﴿**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ**﴾[2] وقد جعلهم اعتقادهم بالتمييز الباطني هذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ**﴾[3].

وأمّا تمييزهم وتبعيضهم الظاهريّ فيتمثّل في تكذيبهم لرسالة سيّدنا عيسى عليه السلام وعدم الاعتراف بها، كما أنّ النّصارى قد آمنوا برسالة كلّ شخصٍ من موسى وعيسى عليهما السلام لكنّهم كذّبوا برسالة نبيّنا صلى الله عليه وآله ولم يقبلوا ما جاء به:

---

١ . ابن عربي، تفسير رحمة من الرّحمن، ج١، ص٤٠٥.

٢ . سورة البقرة، الآية ٨٧.

٣ . سورة النساء، الآية ١٥٠.



﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ﴾[1].

السّمع والطّاعة

«السّمع» يكون في مقابل «البَصر» ومعناه الانصات والاستماع، وإذا جاء «السّمع» مع «الطاعة» كان معناه الإصغاء والقبول والإذعان والامتثال كقولنا: «سَمعاً وطاعَةً» بمعنى: سَمِعنا (القولَ أو الأمرَ... إلخ) وأدركناه وقَبلناه وسنُطيعه ونطبّقه. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء﴾[2] وهو الاستماع والقبول والاستجابة وليس معناه فقط الاستماع إلى الدّعاء بحاسّة السّمع لأنّ الله سبحانه وتعالى ليس سميعاً للدّعاء فقط بل هو ﷻ يسمع حتى القبيح من القول: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾[3].

ويصوّر لنا القرآن الكريم من خلال قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[4] ـ وهو ما سيقوله الكفّار يوم القيامة ـ أنّ أصحاب النّار يُقرّون بكلامهم هذا أنّهم لم يُصغوا إلى كلام الأنبياء وبالتالي لم يُطيعوا ما أتوا به، على عكس المؤمنين الذين سَمعوا كلام الأنبياء وأصغوا إليه وقَبلوهُ وعَملوا بما أُمِروا: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وقد يأتي «السّمع» مع «العصيان» كذلك فيكون معناه الاستماع فقط وليس الإصغاء والقبول والطاعة كما في قوله ﷻ: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[5]

---

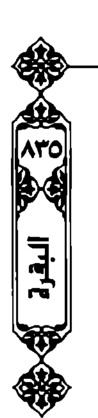
١ . سورة البقرة، الآية ٩١.

٢ . سورة آل عمران، الآية ٣٨.

٣ . سورة آل عمران، الآية ١٨١.

٤ . سورة المُلك، الآية ١٠.

٥ . سورة البقرة، الآية ٩٣.



و﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[1].

والخلاصة هي أنّه يمكننا الإشارة إلى ثلاث نقاط فيما يتعلّق بالسّمع:

١. الاستماع بحاسّة السّمع (الأُذُن).

٢. الاستماع بمعنى الإصغاء المعروف وهو القبول والإذعان.

٣. الطاعة الخارجية والعمل بما تمّ قبوله.

فالنقطة الأُولى والثانية يمكن استنباطهما من كلمة ﴿سَمِعْنَا﴾ فيما يُستَشَفّ من كلمة ﴿أَطَعْنَا﴾ معنى الطاعة الخارجية، وعليه، فإنّ المقصود بالسّمع في قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ هو السّمع العاديّ بالأُذُن.

المشتاقون إلى المغفرة الإلهيّة

الأمر الّذي هو واضح أنّ كلمة ﴿غُفْرَانَكَ﴾ منصوبة للفعل المُقَدّر «نَطلُب» أو «نَسألُ»، ومن آداب الدّعاء أن يقول الدّاعي أوّلاً: رَبَّنا؛ ثمّ الشروع بما يريده من دُعاء أو طَلَب: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[2]. وفي بعض الحالات يكون ظَمأ الدّاعي شديداً وعطشه وشوقه إلى مغفرة ربّه عظيمين، وعندها نلاحظ مجيء الدّعاء أوّلاً ثمّ ذِكر كلمة ﴿رَبَّنَا﴾ مثل قول بعضهم إذا اشتدّ به العطش: إسقوني جُرعة ماء يا خَلق الله! وهذا الطلب يشير إلى أنّ العطش قد أخذ منه مأخذاً كبيراً فذكر مُراده وحاجته أوّلاً.

وممّا لا ريب فيه أنّ طَلب الإنسان ودعاءه للمغفرة ضروريّ ومُلحّ في كلّ الأحوال والظروف فحتى الإنسان العادل كذلك قد يقع في شِباك الغفلة

---

١ . سورة النساء، الآية ٤٦.

٢ . سورة آل عمران، الآية ١٤٧.



والنسيان وقيود الخطأ والعصيان، وربّما أصبح في وقت ما أسير الضّلال الذي يقوده إلى العذاب ولَا سيّما إذا توفّرت عوامل سابقة من عدم التحفّظ والتجاهل الّتي تعبِر عن قصوره في الأمر. وهكذا، فإنّ عبارة ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ تعني طَلب المغفرة والعفو من الله ﷻ وإصلاح ما نَقصَ من الإيمان وترميم من الّذي بَقيَ من الطاعة وعدم المؤاخَذة بالذنوب والمعاصي.

التكامل والسّير إلى الله ﷻ

من المعلوم أنّ الإيمان بالله ﷻ وملائكته وكُتُبه ورُسُله وأنبيائه يعني أيضاً الإيمان بالمَعاد، لكنّ المعاد يتّصف بالأصالة ما يجعله جزءاً من أصول الدّين ولهذا ذكر القرآن الكريم مسألة المعاد بشكل مُستقلّ: ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

ويُعتبر «المَعاد» الذي يُسمّى أحياناً بالرّجوع أو الانقلاب أو الصيرورة أو اللّقاء وما شابه ذلك، يُعتبر جزءاً من أصول الدّين الضرورية ويُمثّل الإيمان به تماماً كالإيمان بالوَحي والرسالة. ولا شكّ في أنّ طَلب المؤمنين للمغفرة: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ إنّما هو لضمان الصيرورة السليمة، فالتكامل والصيرورة والتحوّل كلّ تلك الأُمور لا تكون إلّا بالسّير إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فهو وحده الذي يُمثّل الهدف من كمال الوجود؛ وهنا لا ينبغي الخلط بين «المَسير» و«المَصير» أو اعتبارهما شيئاً واحداً.

تذكير: إنّ تفسير وتحليل معنى الصيرورة إلى الله سبحانه لا يختلفانِ عن تفسير وتحليل معنى الانقلاب إليه كما في قوله ﷻ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَرْحَمُ مَن يَشَاء وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾[1] ولا يمكن فعل ذلك من دون التمهيد للمبادئ القرآنية والروائية وكذلك الأدلّة العقلية.

---

١ . سورة العنكبوت، الآية ٢١.

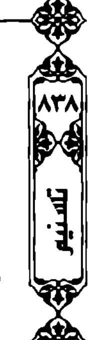
إشارات ولطائف

١ . الشهود الغيبيّ للأنبياء عليهم السلام

لا ريب في أنّ جميع الأنبياء والرّسل عليهم السلام وعلى رأسهم الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله، قد آمنوا بمجرّد رؤيتهم للغَيْب، ثمّ دَعوا الناس إلى الإيمان كذلك بما رأوه وشاهدوه. وهذا ما بيّنه الأنبياء عليهم السلام أنفسهم وشرحوه وفصّلوه لأممهم، فضلاً عن أنّ براهين الحكمة القاطعة تؤيّد ذلك تماماً، ويتّضح هذا من خلال شهادة الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله نفسه وإقراره برسالته ونبوّته وذلك في نصّ الأذان والإقامة والتشهّد في الصلوات الخمس اليومية بعد الشهادة بوحدانية الحقّ تعالى في قوله: «وأشهدُ أنّ مُحمّداً عَبْدُه وَرَسولُه». إذاً، فأوّل المُعترفين برسالة النبيّ صلى الله عليه وآله والمُقرّين بنبوّته والمؤمنين بدَعوته هو الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله نفسه، ومن ثَمّ دعوته للناس إلى الاعتراف بدعوته والإقرار والإيمان بها، وهؤلاء الناس ـ أُمّته ـ مختلفون في نسبة قبولهم للدّعوة وهم في ذلك مُنقسمون إلى فئات: ففئة تؤمن برسالة خاتم النبيّين صلى الله عليه وآله بالشهود والعلم الحضوريّ كآل بَيته عليهم السلام. وكان النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله قد قال في الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: **«إنّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَى مَا أَرَى، إلّا أنّكَ لَسْتَ بِنَبيٍّ وَلكِنّكَ لَوَزير وَإنّكَ لَعَلَى خَيْرٍ»**[1]. وفئة ثانيةٌ تشمل الموحّدين الفرائد من الأصحاب الخُلّص الذين جرّبوا شيئاً يسيراً من الشهود، وفِئَة أُخرى ثالثة من الأُمّة ممّن آمنوا بواسطة البرهان العقليّ وتحليل أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله وأقواله وسيرته العَطرة، وهناك فِئَة أُخرى رابعة آمنت بالمُعجزة الفعليّة في مقابل الإعجاز في القول والكلام، ومنهم فِئَة أُخرى خامسة مَن آمنَ بعد الاستناد إلى الدّليل النّقليّ الموثوق والمُعتبَر إلّا أنّ

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٩٢.



معجزات النبيّ السابق كانت سَنداً لدليلهم النقليّ، كأولئك الذين آمنوا بالرّسول ﷺ مُستندين في ذلك إلى بشارة السيّد المسيح عليه السلام بالنبيّ الذي سيأتي من بَعده: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[1] فكانت مُعجزات سيّدنا عيسى عليه السلام سَنداً ودَعماً للدليل النقليّ هؤلاء، وعليه، فإنّ الذين يؤمنون بالاستناد إلى المُعجزة ينقسمون إلى فئتيْن: فئةٍ تؤمن دون واسطة وفِئَةٍ أخرى مع وجود الواسطة.

إنّ الذين كانوا ينظرون إلى الأديان الإلهيّة نظرة ماديّة اعتبروا القرآن الكريم كذلك ظاهرة ماديّة، فلمّا رأوا عُمق معانيه وإعجاز مضامينه، فسّروا النبوّة وفقاً لمبادئهم الإلحادية لأنّهم هم أنفسهم لم يكونوا مؤمنين بالله تعالى ولا بالقيامة ولا بالملائكة ولا الوَحي ولذلك قالوا إنّ النبيّ هو مجرّد نابغة جاءَ ليُصلح ما فَسدَ من أمور المجتمع، ولكي يُقنع هذا النبيّ الناسَ بقبول ما يدعو إليه راحَ يتكلّم بلسان أولئك الذين يؤمنون بالله وبالغَيب ويتفوّه بعقائد ومسائل خرافية، واستغلّ سذاجة الناس وبساطتهم مُدّعياً أنّ ما جاء به هو الوَحي، وأنّه لّما رأى إقبال الناس عليه وإيمانهم به وخضوعهم له، بدأ هو نفسه يتوهّم بأنّه نَبيّ مُرسَل وأنّه بالفعل جاء بالوحي الحقّ!

٢. السرّ في نجاح مهمّة الأنبياء والعلماء

لا شكّ في أنّ نجاح الأنبياء والمُرسلين عليهم السلام في دعوتهم ورسالتهم يكمن في استقامتهم على الصّراط المستقيم، وأنّ ثباتهم مرهون بإيمانهم الرّاسخ بحقيقة الوَحي الذي تلقّوه وكذلك نبوّتهم ورسالاتهم ويأتي رسوخ إيمانهم في شهودهم

---

١. سورة الصفّ، الآية ٦.

الكامل للحقائق الإلهية. ولا جَرَم أنّ طهارة روحهم الزكيّة وقداسة أنفسهم الطاهرة وتضحياتهم وتخلّيهم عن الأهواء والإغراءات النفسية كان لها دور كبير في شرح صدورهم حيث تجلّى ذلك كلّه في تركهم لدار الغرور والإنابة إلى دار الخلود واستعدادِهم الكامل للموت حتى قبل أجلهم الموعود. نعم، لقد كانت جميع هذه العناصر العلمية والعوامل العملية الخاصّة بالعقل النظريّ والعمليّ، تشكّل أساس كمالهم وقاعدة خلودهم وعزّتهم.

وأمّا علماء الدين الذين هم وَرثة الأنبياء عليهم السلام فإنّهم لن يتمكّنوا من النّجاح في تعليم الآخرين الكتابَ والحكمة وتبليغ المعارف الدينية في مُخاطبيهم إلّا إذا كانوا يتّصفون بنَفس الفضائل المحورية المذكورة لأسلافهم الأنبياء، فمعيار توفيقهم ونجاحهم مرهون بمقدار ما تخلّقوا والتزموا به من الأصول والمبادئ التي كانت للأنبياء من قَبل. وعليه، ينبغي للمُبلّغين لتعاليم الدّين وأحكامه إلى الآخرين أن يكونوا هم أنفسهم مُدركين لتلك التعاليم والأحكام علماً وعملاً، ولا شكّ في أنّ مقدار إخفاقهم في تبليغ الأحكام يُساوي مقدار عجزهم العلميّ أو ضعفهم العمليّ، ومع ذلك فإنّ ثمّة عوامل أخرى خارجية قد تكون مؤثّرة في مهمّتهم إلى حدّ كبير ونعني بذلك شياطين الإنس الذين لا يختلفون عن شياطين الجنّ فيما يفعلون ويؤثّرون.

٣. التفريق بين الله ورُسُله

يحاول البعض من ضعفاء النفوس التفريق بين الله عزّ وجلّ وبين رُسُله كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾**[١]، أي إنّهم

١. سورة النساء، الآيتان ١٥٠ و ١٥١.



يؤمنون بما أُنزِلَ من الله سبحانه بسهولة ودون اعتراض، أمّا كلام الأنبياء والرُّسُل عليهم السلام ورسالاتهم ودعوتهم، فلا. ويعود السبب في تصرّف الكافرين والمشركين هذا ـ وكما قلنا ـ إلى أنّهم يعتبرون الأنبياء مجرّد أشخاص نوابغ وأنّهم يختلقون الكلام وينسبونه إلى الوَحي الإلهيّ رغم أنّ بعضهم يعلم جيداً أنّ هؤلاء الأنبياء يتلقّون كلّ ما يقولونه من الله تعالى وأنّ الله سبحانه هو الذي يُوحي إليهم بذلك لكنّهم [أي الكُفّار] يعتقدون خطأً أنّ الأنبياء لا يتوانون عن تحريف الكلام أو الوحي الإلهيّ أو التلاعب به بحسب أذواقهم وما يتناسب مَعَ أهوائهم أو أغراضهم الشخصية ـ والعياذ بالله ـ ليصدروا بعدها الأحكام ويبتدعوا الأوامر والتعاليم التي تنسجم مع تلك الأهواء، ولهذا نراهم يُحجمون عن قبول ما يقوله الأنبياء.

ومنهم مَن لا يقبل بعضَ الأحكام ولا يُذعن لها ولا يعترف بها مثل ما يُعرَف بفَرض النبيّ، فهؤلاء في الحقيقة لا يقبلون كلام الله سبحانه نفسه وهؤلاء كذلك هم مصاديق قوله تعالى: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾. ولا يخفى أنّ هؤلاء أنفسهم هم الذين تجرّءوا وقالوا للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله فيما يتعلّق بخلافة أمير المؤمنين عليه السلام وإمامته: «فَهذا شَيءٌ مِنكَ أو أمْرٌ مِن الله تعالى؟»[1].

١ . هذا الكلام قاله النّعمان بن الحارث وقد أشارَ إلى قصّته العلّامة الطباطبائي في تفسير (الميزان) وإليك موجزها: «عن جعفر بن محمد الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: «لَمّا نَصّبَ رَسول الله صلى الله عليه وآله عَليّاً يوم (غدير خُم) قال: مَن كُنتُ مَوْلاهُ فَهذا عَليٌّ مَوْلاه. فَقال فطارَ ذلك في البلاد، فَقَدِمَ على النبيّ صلى الله عليه وآله النّعمان بن الحارث الفهريّ فقالَ: أَمَرْتَنا مِن الله أن نَشهد أن لا إله إلا الله وَأنّكَ رَسولُ الله، وَأمرتنا بالجهاد وبالحجّ وبالصّوم والصلاة والزكاة فقَبِلناها، ثمّ لَم تَرض حتى نَصّبت هذا الغلامَ فقلتَ: مَن كُنتُ مَولاهُ فَعَليٌّ مَوْلاه، فَهذا شَيءٌ مِنكَ أو أمْرٌ مِن الله تعالى؟ فقالَ صلى الله عليه وآله: بَلَى وَالله الّذي لا إلهَ إلّا هو أنَّ هذا مِنَ الله. فَوَلّى النّعمان بن الحارث وَهو يَقول: أللهمّ إن كانَ هذا هُوَ الحَقّ مِن عِندكَ فَأمطِر عَلينا حِجارَة مِن السّماءِ. فَرَماهُ الله بِحَجَر عَلى رَأسِه فَقَتَلَه». (تفسير الميزان، ج٦، ص٣٢). [المترجم]

ومن الواضح أنّ هذه الجماعة لم تَعرف النبيّ ﷺ جيداً بَعد ولم توقِن أنّه ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[1] وأنّ كلّ كلامٍ قاله ويقوله بشأن المعارف الدينية إنّما هو مستند إلى الوَحي الإلهيّ.

وأمّا المؤمنون الحقيقيّون فلا يُفرّقون بين الله سبحانه وبين رسوله الأعظم ﷺ ويؤمنون بوَحي القرآن الكريم والحديث معاً ويؤمنون كذلك بأنّ جميع الأحاديث النبويّة الشريفة هي وَحي وإلهام إلاهيّانِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2].

٤. منشأ التبعيض في أحكام الله

ينقسم الذين يُفرّقون بين الأنبياء أو رسالاتهم إلى فئتيْن:

أ. الفاسقون وذوو الأهواء وهؤلاء لا يملكون أيّ معيار أو تقييم يُذكَر، ومنهم الطغاة والمختالون والجَهَلة والمُصرّون على الغيّ والمُقلّدون العُمي والتابعون كالأنعام، فليس كلّ مَن فرّق بين الأنبياء يُعدّ مُستكبراً: ﴿... أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[3].

ب. الاستدلاليّون الذين يظنّون أنّ بإمكان العقل أن يَفهم ويُدرك كلّ شيء وأنّه يُمثّل ميزان الشريعة، وهؤلاء يوافقون ويقبلون بسهولة كلّ ما يمكن تقييمه بعقولهم فإذا لم تقبله عقولهم ردّوه ونَبذوه، وهذا ما أوقعهم في التبعيض الباطنيّ ودفعهم إلى هاوية «الإيمان ببعض والكُفر ببعض» كما أشار القرآن الكريم إلى

---

١. سورة النّجم، الآيتان ٣ و ٤.
٢. سورة النساء، الآية ١٥٢.
٣. سورة البقرة، الآية ٨٧.



ذلك بقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[1] ونسيَ هؤلاء أنّ العقل عاجز عن أن يكون ميزاناً للحقيقة وأنّ مَثَله كمَثل أيّ ميزان لا يمكنه تقييم كلّ شيء بل هو مُخصّص لتقييم ما أُنشئ لأجله كالميزان الصغير الذي صُنِعَ ليَزِن المقادير الصغيرة لا الكبيرة والثقيلة، أو الميزان الكبير الذي وُضِعَ لبيان وزن الأحمال الكبيرة لا الصغيرة أو الدقيقة، ومن المعلوم أنّ وزن كُرة عظيمة كالكُرة الأرضية لا يمكن معرفته بميزان مُخصّص لبيان وزن الأثقال الصغيرة كحبّة الخردل مثلاً.

نعم، باستطاعة العقل أن يُدرك ويَفهم أصل المعاد والجنّة والنّار وهي مسائلُ عامّة وأمور كليّة؛ أمّا كيفية الحساب [يوم القيامة] والمراحل التي تتكوّن منها القيامة ومقدار الوقفات وطول كلّ واحدة منها يومئذٍ وطبيعة الصّراط المستقيم وحدوده وشكله والمئات من المسائل والأمور الأخرى المتعلّقة بيوم القيامة، فهي مسائل خارجة عن قدرة العقل ولا تدخل ضمن حدوده إطلاقاً. وقد يكون العقل قادراً كذلك على أن يعرف أنّ الإنسان بحاجة إلى قانون ميتافيزيقيّ موضوع من قِبَل الله ﷻ كما أنّه يستطيع التعرّف على الخطوط العريضة للفقه والحقوق والأخلاق وما شابهها ولكن يعجز عن فَهم آلاف المسائل المتعلّقة بالحلال والحرام والواجب والمستحبّ وغير ذلك.

وبعبارة أخرى، لا يمكن للعقل أن يكون مصباحاً يُبيّن الجزئيّات أو ميزاناً يَزِنها، فهو مفتاح جيّد لتوضيح بعض الجزئيّات وبذلك يُتيح للإنسان فرصة فَتح أبواب المكتبة ليختار من كُتُبها القيّمة لكنّه [أي الإنسان] لا يستطيع معرفة تلك الكُتُب أو فهمها بواسطة ذلك المفتاح بل ينبغي عليه الاستعانة بنور الشريعة. على سبيل المثال، بإمكان العقل أن يُدرك مبدأ الحجّ، إلّا أنّه بطبيعة الحال لا يحقّ

---

١ . سورة البقرة، الآية ٨٥.

له الدّخول إلى باحة المسائل المتعلّقة بالإحرام والأمور التعبّدية الصّرفة أو الإفتاء بشأنها إطلاقاً، وهكذا، فإنّه يبقى واقفاً خارج تلك الباحة.

والخلاصة، هي أنّ العقل قادر على أن يكون مفتاح الحقيقة لبعض أبواب المسائل وليس جميعها، وإن كان مصباحاً وميزاناً للحقيقة كذلك في ثلّة من الأمور مثل إدراكه باستحالة ارتكاب النبيّ للمعصية وأنّه يجب تفسير وتعليل الآية أو الرواية التي تُوهِم خِلاف ذلك، كما يمكن للعقل أيضاً أن يرفض تصوّر ذهاب الله سبحانه ومجيئه أو ظنّ البعض في أنّه تعالى يمتلك يَداً أو عَيناً، واستحالة رؤيته ﷻ بالعين.

٥. ضرورة الإيمان الكامل برسول الله ﷺ

ينبغي على كلّ مسلم الإيمان بالقرآن الكريم وبرسول الله ﷺ، فالإيمان بالقرآن وحده لا يعني الإيمان بالرّسول ﷺ بل لا يمكن الاكتفاء بالإيمان بكتاب الله دون الإيمان برسول الله ﷺ كذلك. فقول مَن قال: «حَسْبُنا كتاب الله!»[1] لم يَكن معناه نَفياً لآل البيت المعروفين، وهم الإمام عليّ وبنوه عليهم السلام وحسب، بل كان المقصود بذلك هو نَفي الرّسول الأعظم ﷺ نفسه لأنّ الكلام في ذلك اليوم[2] لم يكن يقتصر على الإمام عليّ وأبنائه عليهم السلام فقط وإن كان

١ . **كتاب الأمالي للمفيد**، ص٣٦؛ **صحيح البخاري**، مج٢، ج٦، ص١٢؛ **بحار الأنوار**، ج٢٢، ص٤٧٤.

٢ . في إشارة إلى رزيّة يوم الخميس فإنها من أشهر القضايا وأكبر الرزايا، أخرجها أصحاب الصّحاح وسائر أهل السنن، ونقلها أهل السّير والأخبار كافة، ويكفيك منها ما أخرجه البخاري (في باب قول المريض قوموا عني من كتاب المرضى، ص٥ من الجزء الرابع من صحيحه) بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس، قال: لمّا حضر رسول الله [ﷺ] وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال النبيّ [ﷺ]: هلمّ أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا (بحذف النون
←

مجزوماً، لكونه جواباً ثانياً لقوله هلم) بعده. فقال عمر: إنّ النبيّ [ﷺ] قد غَلبَ عليه الوجع وعندكم القرآن، حَسبُنا كتاب الله! فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم النبيّ كتاباً لا تضلّوا بعده ومنهم من يقول ما قاله عمر، فلما أكثروا اللّغو والاختلاف عند النبيّ [ﷺ]، قال لهم رسول الله [ﷺ]: قوموا [عنّي]. فكان ابن عباس يقول: إنّ الرزية كُلّ الرزية ما حال بين رسول الله [ﷺ] وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم. وهذا الحديث مما لا كلام في صحّته ولا في صدوره، وقد أورده البخاري في عدّة مواضع من صحيحه (أورده في كتاب **العلم** ص٢٢ من جزئه الأول، وفي مواضع أخر يعرفها المتتبعون)، وأخرجه مسلم في آخر الوصايا من صحيحه أيضاً (ص١٤ من جزئه الثاني)، ورواه أحمد من حديث ابن عباس في مسنده (راجع ص٣٢٥ من جزئه الأول)، وسائر أصحاب السّنن والأخبار، وقد تصرّفوا فيه إذ نقلوه بالمعنى لأنّ لفظه الثابت: إنّ النبيّ ﷺ يهجر، لكنّهم ذكروا أنّه أي [عُمر] قال: إنّ النبيّ ﷺ قد غلبَ عليه الوجع، تهذيباً للعبارة وتقليلاً لِمَن يَستهجن منها. ويدلّ على ذلك ما أخرجه أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب السقيفة (كما في ص٢٠ من المجلد الثاني من **شرح النهج** للعلامة المعتزلي) بالإسناد إلى ابن عباس، قال: «لمّا حضرت رسول الله [ﷺ] الوفاة، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال رسول الله [ﷺ]: إئْتوني بِدَواةٍ وَصَحيفَةٍ أكْتُبُ لكم كِتاباً لا تَضِلّونَ بَعْدَه. (قال): فقال عمر كلمة معناها أنّ الوجع قد غلبَ على رسول الله ﷺ، ثمّ قال: عِندنا القرآن، حَسْبنا كتاب الله! فاختلف مَن في البيت واختصموا، فَمِن قائل: قرّبوا يكتب لكم النبيّ ﷺ، ومِن قائِل ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط واللغو والاختلاف غَضب ﷺ، فقال: قوموا... الحديث»(يوجد في: **شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد**: ٦/ ٥١ ط مصر بتحقيق محمد أبو الفضل و: ٢/ ٢٠ ط١ بمصر وأفست بيروت و: ٢/ ٢٩٤ ط دار مكتبة الحياة و: ٢/ ٣٠ ط دار الفكر في بيروت)، وتراه صريحاً بأنّهم إنّما نقلوا معارضة عُمر بالمعنى لا بعين لفظه، ويدلّك على هذا أيضاً أنّ المحدّثين حيث لم يصرّحوا باسم المعارض يومئذ، نقلوا المعارضة بعين لفظها. قال البخاري (في باب جوائز الوفد من كتاب الجهاد والسير من صحيحه): حدثنا قبيصة حدثنا ابن عيينة عن سليمان الأحول عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، أنّه قال: يوم الخميس وما يوم الخميس، ثمّ بكى حتى خضب دمعه الحصباء. فقال: اشتد برسول الله [ﷺ] وجعه يوم الخميس، فقال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً. فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: هَجَرَ رسول الله، قال ﷺ: دعوني، فالذي أنا فيه خير ممّا تدعوني إليه. وأوصى عند موته بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنتُ أجيزهم؛ (قال): ونسيت الثالثة. (المراجعة ٨٦). [المترجم]

مضمون الكتاب الذي أراد رسول الله ﷺ إملاءه يشمل دعوة الحاضرين خاصّة والمسلمين عامّة إلى عترته الطاهرة والإمام عليّ عليه السلام.

من الواضح أنّ ذلك الشخص الذي حالَ بكلّ وقاحة وجرأة دون إيصال القلم والدّواة إلى رسول الله ﷺ كان يدّعي عدم ضرورة ما يريد النبيّ ﷺ إملاءه وأنّ حَسبه كتاب الله[1]. ويبدو أنّه لم يكن يعرف ما يلزم حول رسالة النبيّ ﷺ أو نبوّته أو عصمته الكاملة، أو أنّه لم يؤمن إيماناً كاملاً بَعد بالنبيّ ورسالته ونبوّته وعصمته، فكان هذا الحدث يُمثّل أوّل خطر حقيقيّ تواجهه العترة الطاهرة عليهم السلام.

إنّ مَن يظنّ أنّ الرسول الأكرم ﷺ هو شخص ينطق من نفسه وينطق من جانب الله سبحانه في وقت واحد إنّما يسير على عكس اتّجاه مسير الآية الشريفة القائلة: ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[2] لأنّ هاتيْن الآيتيْن تصرّحان بكلّ وضوح أنّ كلّ ما ينطق به الرّسول الكريم ﷺ سواء تعلّق كلامه الشّريف بالإسلام أم بالأُمّة الإسلامية، هو وَحي صِرف وليس كلامه الشخصيّ أبداً.

والآن، وبالرّغم من قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ الذي اعتاد المسلمون على تلاوته ليلاً ونهاراً، بل كان الرّسول الأكرم ﷺ يؤكّد في خُطَبه في صلوات الجمعة والجماعة على الآيات الحسّاسة والمهمّة في سَفره وحضره ويتلوها مرّات ومرّات، وبالنّظر إلى العديد من الآيات القرآنية مثل قوله سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[3]

---

١ . راجع: **بحار الأنوار**، ج٢٢، ص٤٧٤.

٢ . **سورة النّجم**، الآيتان ٣ و٤.

٣ . **سورة القيامة**، الآيتان ١٦ و ١٧.



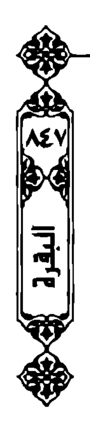
و﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ﴾[1] و﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[2]، كيف يجرؤ أحدهم على القول إنّ الرسول الأعظم ﷺ بدأ في آخر لحظات عُمره الشّريف ينطق على هواه ـ والعياذ بالله؟

لقد قبل القرآن الكريم وصادق على كلّ ما نطق به النبيّ الأكرم ﷺ واعتبره دين الله الواحد القهّار، مرّة بالقول: ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى...﴾ وتارة بقوله ﷻ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ...﴾؛ وهكذا، فإنّ حفظ كلام خاتم الرّسل ﷺ ونطقه من الهوى لا يختصّ بما جاء به كقرآن فقط، بل ويشمل أيضاً كلّ أحاديثه الشريفة القطعية والصحيحة.

واستناداً إلى آيات القرآن الكريم نقول إنّ كلام رسول الله ﷺ مَبنيّ على الوحي: ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[3] وينبغي العمل بموجبه، فأمّا الذين تصرّفوا على غير ما أراده الله في غدير (خُم) وراحوا يُفرّقون دين الله على هواهم وكانوا شِيَعَاً، فقد باعوا أنفسهم إلى التبعيض الباطني ومزّقوا صفحات القرآن وآياته إرباً إرباً ومَثّلوا به كلّ تمثيل، وجعلوه قراطيس، فآمنوا ببعضه وفسّروا بعضه الآخر برأيهم وكفروا بما تبقّى منه: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾[4]؛ هؤلاء عليهم أن يقدّموا جواباً مُقنعاً يوم القيامة حول سبب تمثيلهم بالقرآن الكريم بعد أن كان جسداً كاملاً: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[5].

---

١ . سورة الحشر، الآية ٧.
٢ . سورة الحاقة، الآيات من ٤٤ إلى ٤٦.
٣ . سورة النّجم، الآيتان ٣ و٤.
٤ . سورة الحجر، الآية ٩١.
٥ . سورة الحجر، الآيتان ٩٢ و٩٣.



والحقيقة هي أنّ هذه الزّمرة لا تُؤمن بالمبادئ الأساسيّة للعقيدة الإسلامية وهي: التوحيد والنبوّة والمَعاد، وما تصريح القرآن الكريم وسنّة آل البيت عليهم السلام بالأصول الخمسة للإسلام إلّا للوقوف في وجه السلوك التبعيضيّ الذي أرادته تلك الزّمرة للمسلمين.

٦. الالتزام بشؤون الرّسالة

يشير مضمون الآية الشريفة: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ إلى الأنبياء عليهم السلام والكُتُب السماوية والملائكة المخصّصين للشؤون الرسالية؛ إذاً، فالمؤمنون يؤمنون بكلّ الكُتُب السّماوية ويعتبرون الملائكة جميعاً عباداً لله تعالى، مُكرمين ومعصومين: ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1] ويُصلّون ويُسلّمون عليهم اقتداءً بالإمام سيّد السّاجدين وزَيْن العابدين والمَثَل الأعلى للدّاعين والمُناجين عليه السلام، الذي كان يُصلّي ويُسلّم على سَفير الوَحي (المَلك جبريل عليه السلام) وعلى المُوَكّل بالأرزاق (المَلك ميكائيل عليه السلام) وعلى حُرّاس جهنّم عليهم السلام والملك إسرافيل (مَظهر الإحياء الإلهيّ عليه السلام) والملك عزرائيل عليه السلام[2]، وما ذلك إلّا لكون الملائكة عليهم السلام يتمتّعون بالشؤون الرسالية وإن اختلفت مهامّهم وتنوّعت الأوامر المُلقاة إليهم. فمنهم مَن هو مأمور بالقيام بالشؤون العلمية وآخرون بالشؤون العَملية والتنفيذية، كما أنّ كلّ مَلَكٍ من جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام له شأنه وعمله الخاصّ المأمور به، وعندما لا يكون هناك أيّ فَرق بين الرّسُل فإنّهم لا يتميّزون في هذه الناحية كذلك. فالإنسان الذي يؤمن بالمَعاد لا يسعه إلّا أن يؤمن ويعترف كذلك بالجنّة

---

١. سورة التّحريم، الآية ٦.

٢. الصحيفة السجّادية، الدّعاء الثالث.



والنّار والكُتُب السماوية ونُطق أعضاء الجسم بأمر الله سبحانه والمواقف المتعدّدة يوم الحشر الأكبر والسؤال والجواب وكلّها من شؤون المعاد.

بحث روائيّ

١. سؤال الرّسول ﷺ لأمّته

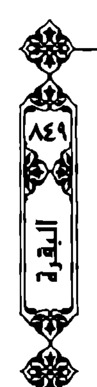
عَن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام: «إنّ هذِهِ الآيَة مُشافَهَة الله تعالى لِنَبِيّه ﷺ لَيْلَة أُسْرِيَ بِه إلى السّماءِ؛ قالَ النبيّ ﷺ: انْتَهَيْتُ إلى مَحَلّ سِدْرَة المُنْتَهى، وَإذا بِوَرَقَة مِنْها تظلّ أُمّة مِنَ الأُمَم، فَكُنتُ مِن رَبّي كَقابَ قَوْسَيْن أوْ أدْنى، كَما حَكى الله عزّ وجلّ فَناداني رَبّي تَبارَكَ وَتَعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾؛ فَقُلتُ: أَنا مُجيبٌ عَنّي وَعَن أُمّتي ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِالله وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ...﴾؛ فَقالَ الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾؛ فَقُلتُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، وَقالَ الله: لا أُؤاخِذُك. فَقُلتُ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، فَقالَ الله: لا أُحَمِّلُك. فَقلتُ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، فَقالَ الله تعالى: قَدْ أَعْطَيْتُكَ ذلِكَ، لَكَ وَلِأُمّتِكَ». فَقالَ الصّادق عليه السلام: «مَا وَفَدَ إلى الله تَعالى أَحَدٌ أَكْرَم مِن رَسُولِ الله ﷺ حَيثُ سَأَلَ لِأُمّتِهِ هذِهِ الخِصال»[1].

إشارة: بالاستناد إلى الرواية المذكورة، فإنّ الآيَتيْن الأخيرتيْن في سورة البقرة هما عبارتانِ عن حديث شفهيّ بين الله (تبارك وتعالى) وبين نَبيّه الكريم ﷺ في ليلة المعراج. وقد رُويت نَفس الرواية بنَفس المضمون وبتفاصيل أوسع وإضافات أكثر عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام[2].

---

١. تفسير القميّ، ج١، ص٩٥.

٢. راجع: كتاب الاحتجاج، ج١، ص٥٢١ ـ ٥٢٧؛ تفسير البرهان، ج١، ص٥٨٣ ـ ٥٨٥.



٢ . الآيات العرشيّة

قالَ رَسول الله ﷺ: «قالَ لي [الله تعالى]:... وَأَعْطَيْتُكَ [لَكَ] وَلِأُمَّتِكَ كَنْزاً مِن كُنُوزِ عَرْشِي: فاتِحَة الكِتابِ وَخاتِمَة سُورَة البَقَرَة»[١].

ـ قالَ رَسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَواتِيمَ سُورَة البَقَرَة مِن كَنْزٍ تَحْتَ العَرْش لَمْ يُعْطهنّ نَبيّ قَبْلي»[٢].

ـ عَن قتادة قال: كانَ رَسول الله ﷺ إذا قَرأ هذه الآية: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ﴾ حتى يَختمها، قال: «وَحَقّ الله إنّ لله كِتاباً قَبْلَ أن يَخْلُقَ السّماواتِ وَالأرْضِ بِأَلْفَي سَنَة [فَوَضَعه] عِندَه فَوْقَ العَرْشِ؛ فَأَنْزَلَ آيَتَيْن فَخَتَم بِهِما البَقَرَة؛ فَأيّما بَيْت قُرِءا فِيه لَمْ يَدْخُله الشّيْطان»[٣].

ـ قالَ رَسول الله ﷺ: «آيَتان هُما قُرآن وَهُما يَشْفِيان وَهُما مِمّا يُحِبّهُما الله: الآيَتان مِن آخِرِ البَقَرَة»[٤].

إشارة: أ. من الواضح أنّ الروايات المذكورة تشير إلى عظمة الآيتيْن الأخيرتيْن من سورة البقرة ومنزلتهما الرّفيعة عند الله تعالى ورسوله ﷺ.

ب. لا شكّ في أنّ إنزال معارف الآيات والسّوَر ليس متشابهاً كما أنّ تَلَقّيها ليس متماثلاً أيضاً فمن المَعارف ما أنزله الله سبحانه وألقاه دون واسطة ومنها ما أُلقيَ بواسطة، وكان النبيّ الأعظم ﷺ يتلقّى بعض تلك المعارف مباشرة وبعضها الآخر بشكل غير مباشر، أي بواسطة.

---

١ . علل الشرائع، ج١ ـ ٢، ص١٥٥ ـ ١٥٦.

٢ . تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص١٣٨.

٣ . تفسير العياشيّ، ج١، ص١٦٠.

٤ . تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص١٣٨.



٣. الإيمان بالولاية

عَن أبي سلمى، راعي رَسول الله ﷺ قال: سَمعتُ رَسول الله ﷺ يقول: «لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي إلى السّماءِ قالَ لي الجَليل: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ فَقُلْتُ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ﴾، فَقالَ: صَدَقْتَ يا مُحَمّد! مَن خَلّفتَ في أُمّتِكَ؟ قُلْتُ: خَيْرَها. قالَ الله تعالَى: عَليّ بن أَبي طالِب؟ قُلْتُ: نَعَم. قالَ: ... وَعَرَضْتُ وِلايَتكُم عَلى أَهْلِ السّماواتِ وَالأرْضِ، فَمَن قَبِلَها كانَ عِنْدي مِنَ الْمُؤْمِنين، وَمَن جَحَدَها كانَ عِنْدي مِنَ الكافِرين. يا مُحَمّد! لَوْ أَنَّ عَبْداً مِن عِبادي عَبَدَني حتى يَنْقَطِعَ أو يَصيرَ كالشنّ البالي[1]، ثُمّ أتاني جاحِداً لِولايَتِكم، ما غَفَرتُ لَه حتّى يُقِرّ بِولايَتِكم...»[2].

ـ عَن عَبد الصّمد بن بَشير قال: سَمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يَقول: «أتى جَبْرئيل رَسولَ الله ﷺ... قالَ: فَكَلّمَه الله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾. قالَ: نَعَم يا رَبّ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ...﴾. قالَ الله تَبارَكَ وَتَعالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾. قالَ مُحَمّد ﷺ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا...﴾. قال: قالَ الله: يا مُحَمّد! مَن لِأُمّتِكَ]مِن] بَعْدِك؟ فَقالَ: الله أَعْلَم. قالَ: عَليّ أَمير المؤمنين». قال: قالَ أبو عَبد الله عليه السلام: «وَالله! ما كانَت وِلايَته إلّا مِن الله مُشافَهَة لِمحَمّد ﷺ»[3].

ـ عَن النبيّ ﷺ: «... مَعاشِرَ النّاس! قُولُوا الّذي قُلْتُ لَكُم وَسَلّموا على عَليّ بِإمْرَة المؤمنينَ وَقُولوا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾»[4].

---

١. الشَنُّ: القِرْبة الخَلَق الصغيرة يكون فيها الماء أبرد من غيرها. (معجم النّفائس الكبير، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد أبو حاقَة، مادّة «ش ن ن»). [المترجم]

٢. كتاب الغيبة، ص١٤٧ ـ ١٤٨؛ تفسير البرهان، ج١، ص٥٧١.

٣. تفسير العياشي، ج١، ص١٥٩ ـ ١٦٠.

٤. كتاب الاحتجاج، ج١؛ ص١٥٩ ـ ١٦٠؛ تفسير نور الثقلين، ج١، ص٣٠٥.



إشارة: تبيّن الروايات المذكورة أنّ الاعتراف بولاية عليّ بن أبي طالب وأبنائه الأئمّة المعصومين عليهم السلام وقبولها يوازي الإيمان بالله تعالى والملائكة والكُتُب السماويّة والرّسُل والأنبياء جميعاً، وتصرّح بأنّ المؤمن هو مَن آمنَ كذلك بولاية آل البيت عليهم السلام.

* * *

لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

خلاصة التفسير

إنّ التكاليف الابتدائية التي وضعها الله سبحانه على الناس هي تكاليف سهلة بل وأقلّ من مستوى طاقة الشخص، وأمّا التكاليف الصعبة والعسيرة فقد وضعها الله ﷻ على الكفّار والمجرمين لمُعاقبتهم.

ولا شكّ في أنّ النتائج الطيبة للأعمال الصالحة تعود على صاحب تلك الأعمال بالدرجة الأولى وما الثواب الإلهيّ إلّا نتاج أفعال الإنسان نفسه، وكذلك الأضرار التي تنجم عن اقتراف الأعمال السيّئة فهي تعود على فاعلها ولا يحمل أعباء أفعاله وما ارتكبه من الذنوب أحد سواه.

فأفعال الخير والأعمال الحسنة سهلة وتنسجم مع الفطرة الإنسانية ولكن تُفرَض الأعمال السيئة على الفطرة فَرضاً ويُثقل كاهلها رغماً عنها. وتشير الآية الشريفة إلى ما يتمنّاه المؤمنون ويتوقون إليه وهو سؤالهم الله تعالى ألّا يُحاسبهم على نسيانهم ولا يُعاقبهم إذا ارتكبوا الأخطاء، وألّا يحمّلهم من التكاليف ما لا يُطيقونها ومن المسؤوليّات والواجبات الدينية ما لا يتحمّلونها، وأن يغفر لهم ويعفو عنهم ولا يُجازيهم أو يعذّبهم بسبب معاصيهم وذنوبهم، بل يستر عليهم قبائح أفعالهم ويعفو عنها برحمته الواسعة.

والمؤمنون يعلمون جيداً أنّ الله ﷻ هو مولاهم الحقّ وهو القادر على نَصرهم على أعدائهم في الداخل والخارج، وفي الجهادَيْن: الأكبر والأصغر.

التفسير

المُفردات[1]

كَسَبَتْ: الأصل الواحد في هذه المادّة هو تحصيل شيء ماديّ أو معنويّ، ومن مصاديق الكسب طلب الرّزق والرّبح وطلب المعيشة. ويُعتبر في الكسب تحصيل شيء لنفسه. والفرق بين «الكَسب» و«الاكتساب» هو أنّ الأوّل هو مُطلق تحصيل شيء لنفسه والثاني افتعال ويدلّ على الاختيار وقَصد مخصوص، وعلى هذا يُستَعمَل في موارد يحتاج إلى قصد واختيار مخصوص زائد كما في موارد العصيان والخلاف وتعمّل مخصوص[2].

---

١ . حول مزيد من المعلومات عن معاني كلمة «لا يُكلّف» و «وُسعها» راجع تفسير تسنيم، الجزء الحادي عشر، ص٣٦٩، ذيل الآية الشريفة (٢٣٣)؛ وحول معاني كلمة «عفو» أنظر ص ٤٣٦، ذيل الآية الشريفة (٢٣٧)؛ وعن معاني «غفران» راجع تفسير تسنيم، الجزء الثامن، ص٦١٦، ذيل الآية الشريفة (١٧٣).

٢ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١٠، ص٥٣ ـ ٥٤، مادّة (ك س ب) ـ بتصرّف.



وقد يتضمّن *الكسب* كذلك معنى التكلّف وما شابه ذلك، وما تعلّق الاكتساب بالعصيان والخلاف إلّا لكون المعصية فيها مفروضة على الفطرة الإنسانية وهي معصية قد تنشأ عن الفجور والتّقوى معاً.

وحول الفرق بين «الكَسب» و«الاكتساب» قال بعضهم: «الكَسْب ما يَتحرّاه الإنسان مِمّا فيه اجتلاب نَفع وَتَحصيل حَظّ... والاكتساب لا يُقال إلّا فِيما اسْتَفَدْتَه لِنَفسِكَ فَكُلّ اكْتِساب كَسب وَلَيس كُلّ كَسْب اكْتِساباً... وَقَد وَرَدَ في القُرآن الكريم في فِعْل الصّالحات وَالسّيئات»[1].

وقال آخرون إنّ المقصود بالكَسْب في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث هو الخيْر النّافع بينما أُريدَ بالاكتساب فيها الشرّ المُضِرّ كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾[2].[3]

تُؤَاخِذْنَا: من «أخَذَ»؛ الأصل الواحد في هذه المادّة هو التناول مع الحَوْز، وهذا المعنى يختلف باختلاف الموارد[4]؛ و(المؤاخَذَة) تدلّ على الاستمراريّة.

إِصْرًا: من «إصْر»؛ الأصل الواحد في هذه المادّة هو الحَبْس الأكيد والتقيّد الموجِب للتثقّل من أمور معنوية أو ماديّة[5]، فالمعنى الماديّ في أصل معنى

---

١ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٧٠٩ ـ ٧١٠، مادّة «ك س ب»، وقد ذكر الرّاغب الأصفهانيّ بعض الشّواهد كذلك من القرآن الكريم.

٢ . **سورة النور**، الآية ١١.

٣ . قال الزمخشريّ: «﴿لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ يَنفعها ما كسبت من خَير ويضرّها ما اكتسبت من شَرّ، لا يُؤاخذ بذَنبها غيرها ولا يُثاب غيرها بطاعتها. فإن قلتَ: لِمَ خصّ الخير بالكَسب والشرّ بالاكتساب؟ قلتُ: في الاكتساب اعتمال، فلّما كانَ الشرّ ممّا تَشتهيه النّفس وهي مُنجذبة إليه وأمّارة به، كانت في تحصيله أعْمل وأجَدّ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه. ولّما لم تَكن كذلك في باب الخَير وصفت بِما لا دلالة فيه على الاعتمال». (أنظر: **تفسير الكشاف**، ج١، ص٣٣٢). [المترجم]

٤ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج١، ص٢٨، مادّة (أ خ ذ).

٥ . المصدر السابق، ص٨١، مادّة (ا ص ر).

(الإصر) هو ما يُؤصَر به، أي يُربط وتُعقَد به الأشياء[١]، والمعنويّ كما في العهد المؤكد الذي يُثبط ناقِضه عن الثّواب والخيرات[٢].

تُحَمِّلْنَا: المعنى في مشتقّات «حَمَلَ» واحد وهو مفهوم كليّ وعامّ وهو أعمّ من أن يكون الحامِل إنساناً[٣]، و(التّحميل) هو أن يَضع عليه ما لا طاقة له بِتَحَمّله فَيكون المُراد منه العذاب، والمعنى: لا تُحَمّلْنا عَذابَكَ الذي لا نُطيق احْتِمالَه[٤].

ٱرْحَمْنَآ: *الرّحمة* رِقّة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تُستعمَل تارة في الرقّة المجردة وتارة فى الإحسان المجرّد عن الرقّة نحو: رَحِمَ الله فلاناً؛ وإذا وُصِفَ به البارئ فَلَيْس يُراد به إلّا الإحسان المجرّد دون الرقّة، وعلى هذا رُوِيَ أنّ الرّحمة من الله إنعام وإفضال، ومِن الآدميّين رِقة وَتَعطّف[٥].

تناسب الآيات

عند بحثنا في موضوع التناسب بشأن الآية الشريفة السابقة بيّنا جانباً من الارتباط القائم بين هذه الآية والآية التي سبقتها، ولإكمال الموضوع المذكور وبيان العلاقة بين صدر هذه الآية الشريفة وبين ذَيلها نقول: تمّ في الآية السابقة بحث مسألة الصيرورة إلى الله سبحانه في قوله تعالى: **﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾**[٦]، والصيرورة والتحوّل أمران مرهونان بالسّيْر على الصّراط المستقيم، وهذا الصّراط الذي تبرز فيه الصيرورة من خلال السّير فيه هو عبارة عن الامتثال

---

١ . ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج٢، ص٦٠٢.
٢ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٧٨، مادّة (ا ص ر).
٣ . **التحقيق في كلمات القرآن**، ج٢، ص٣٠٩، مادّة (ح م ل).
٤ . الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، مج٤، ج٧، ص١٦١.
٥ . **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٣٤٧، مادّة (ر ح م).
٦ . **سورة البقرة**، الآية ٢٨٥.



للتكليف الإلهيّ وطاعة أوامر الله ﷻ، وينبغي تفسير التكليف الذي هو الصّراط المستقيم وبيانه وشرحه ولهذا يُمثّل [أي التكليف] عُمق الصّراط وصُلبه. والصّراط المستقيم ليس بعَقبة كأداء ولا سبيلاً صعبة شاقّة المَصعد بل هو موضوع بما يتناسب مع وُسع كلّ مخلوق يرغب في السّير فيه وينسجم مع طاقته وقدرته سواء أكان فرداً أم جماعة. ثمّ أشارت الآية الشريفة إلى حالات النسيان والخطأ وطَلب المؤمنين العفو والمغفرة والصّفح من الله سبحانه إذا بَدرَ منهم أيّ حالةٍ من تلك الحالات.

وثمّة مسألة أخرى تتعلّق بالآيتيْن الشريفتيْن وهي أنّ بعض سُوَر القرآن الكريم قد تناولَ المعارف العَقَديّة والمسائل الخلقيّة وموضوع الدّعاء والمُناجاة وطلب العفو والمغفرة جَنباً إلى جَنب كما هي الحال في نهاية سورة آل عمران، وفي نهاية سورة البقرة كذلك وبعد الإشارة إلى المعارف العَقَدِيّة، تمّ طرح المسائل الخلقيّة والدّعاء وطلب المؤمنين للعفو والغُفران.

* * *

نَفي التكليف المُفرط

لا يُفرَض التكليف في أيّ مَجال من المجالات إلّا وفقاً للوُسع والطاقة وليس أكثر من ذلك أبداً، ومعنى هذا أنّه لا يوجد تكليف أكبر من وُسع المخلوق لا أن يكون التكليف بالضرورة متناسباً مع الوُسع، إذ يمكن في الواقع أن يكون هناك تكليف أقلّ من الوُسع، والحقيقة هي أنّ الكثير من أنواع التكاليف يكون أقلّ من الوُسع.

ويأتي عدم تكليف الله سبحانه الفرد أو الجماعة بما لا طاقة له أو لهم به في إطار سنّته التي اقتضتها مشيئته ﷻ وهذا ما كان موجوداً أيضاً في الأُمم السابقة

والقرون السالفة التي سبقت ظهور الإسلام ولم يكن يوماً أمراً خاصّاً بالأُمّة الإسلامية قطّ. وإذا دقّقنا في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لوجدنا أنّ الفعل المضارع ﴿يُكَلِّفُ﴾ يشير إلى العمومية والاستمرارية اللتيْن تتميّز بهما هذه السنّة بين كلّ الأُمم.

ويمكن استنباط أصل التكليف وإدراك جوهر الاستطاعة والوُسع من الآية الّتي هي موضوع البحث وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1] والآية الشريفة: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[2]، كما أنّ قوله سبحانه على لسان المؤمنين: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[3] يشير بوضوح إلى أنّ التكليف مقدور ومُستَطاع لأنّ طاعة الأمر هو شيء مقدور لا معذور ولا مُحال، وفي الوقت نفسه فإنّ ورود معنى «الكَسْب» في الآية الّتي هي موضوع البحث يُبيّن بأنّ التكليف مقدور وممكن.

ويبدو أنّ جملة: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ هي كلام الحقّ سبحانه وتعالى وقد تمّ تنظيم هذه الآية مع الآية التي سبقتها بشكل منسجم ومتناسب لأنّ صدر الآية السابقة كان كلام الله ﷻ كذلك وهو قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ ثمّ بعد ذلك أُشير إلى كلام المؤمنين وهو قولهم: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وصدر هذه الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث هو من كلام الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ثمّ جاء بعده قول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا...﴾، وعليه لا يمكن اعتبار كلام المؤمنين المتمثّل في العبارات الأخيرة في الآية السابقة والعبارات التي تَلت قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قرينة على

---

١. سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

٢. سورة الطلاق، الآية ٧.

٣. سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

إعتبار صدر هذه الآية كذلك هو من كلام المؤمنين لمجرّد أنّ العبارات المذكورة كانت من كلامهم.

تذكير: إنّ تسمية الأوامر الإلهية ذات المصلحة والمنفعة بالتكليف يتعلّق بالحالة الطبيعيّة للإنسان وليس بسبب فطرته، تماماً كاتّصافه [أي التكليف] بالعموميّة وليس بالخصوصية أو النسبة إلى أفراد مُعيّنين وذلك لأنّ التعاليم العَقَديّة والخلقيّة والفقهية والحقّيّة في الشريعة هي تشريف للإنسان وتكريم له وليس المُراد من ذلك مجرّد تكليفه بها، ولهذا نرى قيام بعض المؤمنين بالاحتفال بيوم بلوغهم سنّ الرّشد ويسمّونه (**حَفل التشرّف**) وليس (حفل التكليف والتحميل)[1].

أقسام التكليف الابتدائيّ

يتألّف التكليف الابتدائيّ من ثلاثة فروض هي: *التكليف بأقلّ من قدرة المُكَلَّف وطاقته*؛ *التكليف وفقاً لقُدرة المُكَلَّف*؛ ثمّ، *التكليف بأكبر من قدرة المُكَلَّف وطاقته*، وكما هو واضح فإنّ الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث تنفي تماماً وجود النوع الثالث من التكليف أو فَرضه من قِبَل الله ﷻ، وهناك

---

١ . «وينبغي يا ولدي محمد أسعدك الله حلّ حلاله بإقباله ومكاشفة جلاله أن تعتقد أنّ يوم تشريفك بالتكليف كان من أعظم أيام الأعياد وأنّ وقت تعريفه لك بعظمته واستخدامك في طاعته كان من أشرف أوقات الاسعاد والارفاد كما قدمناه، وإيّاك أن يخطر ببالك ثواب أو جزاء على طاعتك أو خدمتك فإنّك ترى العقول قاضية بأنّ السلطان الكامل الذي يُرجى إحسانه بالتقرب إليه يُرشى وتُبذل النفوس والرؤوس في التقرب منه والإنفاق عليه، فتعلم أنّ كل من أحسن إحساناً كثيراً إلى عبد من العباد فإنّه يجد من نفسه لزوم خدمته والوفاء له ومتابعة إرادته بغاية الاجتهاد...». (السيد ابن طاووس، **كشف المحجّة**، ص٣١، الفصل الثامن والأربعون). [المترجم]



آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[1] و﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[2] والتي تشير إلى أنّ سنّة الله تعالى اقتضت عدم إيجاد العُسر أو الحَرج في التكليف؛ أقول: هذه الآيات تَنفي كذلك فَرض النوع الثاني من التكليف على الإنسان أو إجباره على العمل به إذا كان ذلك يُسبّب له العُسر أو الحَرج رغم أنّ النوع الثاني هو تكليف يوافق قدرة المُكلَّف وينسجم مع طاقته. وعلى أيّة حال فقد لا تتشابه الآيتان في كيفية دلالتهما على نَفي العُسر والحَرج إلّا أنّ القاسم المشترك بينهما يتمثّل في أنّ الله سبحانه وتعالى لم يَفرض على الأُمّة الإسلامية أيّ تكليف يُسبّب لها العُسر أو الحَرج.

ولا يخفى أنّ القرآن الكريم لَم يتجاهل على سبيل المثال حالة الشيخ والعجوز اللذيْن لا يُطيقان الصّيام إلّا بشقّ الأنفس فلم يُصرّ على تحمّلهما المشقّة والعناء في ذلك فقال ﷻ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[3]، وهكذا نرى أنّ الإسلام لم يَفرض أيّ تكليف ابتدائيّ يوازي حتى قُدرة المُكلَّف مع طاقته، وما قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[4] و﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[5] ﴿اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[6] وما شابهه إلّا تماشياً مع تلك السنّة وليس مُغايراً لها لأنّ المقصود في تلك الآيات هي القدرة أو الاستطاعة التقليدية وليست العقلية، أي أنّ عبارة ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ مثلاً تُعتبر أمراً تقليدياً كما هي

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٨٥.

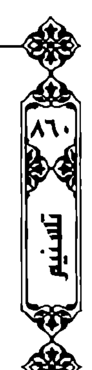
٢ . سورة الحجّ، الآية ٧٨.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٨٤.

٤ . سورة الحجّ، الآية ٧٨.

٥ . سورة التّغابن، الآية ١٦.

٦ . سورة آل عمران، الآية ١٠٢.



الحال في الاستطاعة في أداء مناسك الحجّ في قوله سبحانه: ﴿وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[1] والتي يُراد بها الاستطاعة التقليدية.

مصدر الاستطاعة في التكليف

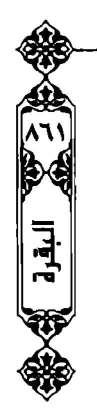
لا شكّ في أنّ عَجز الشخص الذي يُعاني مثلاً من مرض الرُّعاش[2] وما شابهه عن أداء أو تطبيق بعض الفرائض الدينية أو الشرعية يعود إلى فقدانه القدرة على ذلك وليس زوال الاختيار، كما أنّ قدرة شخص آخر سالم غير عليل واستطاعته على الامتثال لنَفس الفريضة أو غيرها وطاقته على أدائها وتنفيذها على أكمل وجه كلّ ذلك يعود إلى قُدرته هو وليس اختياره إذ إنّ الاختيار يكون في انتخاب أو ترجيح شيء أو أمر على آخر. ويمكن استنباط عنصر الاختيار هذا من معنى القدرة نفسها فالقادر هو مَن يمتلك المشيئة والقدرة على أداء فعل ما أو تَركه؛ أي، أن يكون قادراً على فعل شيء ما وقادراً كذلك على تَركه والإحجام عن فعله؛ وأمّا الشخص المُصاب بالرّعاش فإنّه لا يواجه مشكلة ضمن إطار اختياراته بل تكمن المشكلة في عمليّة أدائه وتنفيذه. إذاً، فاستطاعة الشخص تعود إلى قدرته لا اختياره، إلّا أنّ مسألة تعيين مصدر الاستطاعة والتمكّن ليست صعبة بحيث يتعذّر معرفتها وتفسيرها بعيداً عن الكشف، ولهذا فإنّ ما قاله بعض أهل المعرفة من أنّه: «لا يُعْرَف الحَقّ فِيها إلّا بِالكَشْف»[3]

---

١ . سورة آل عمران، الآية ٩٧.

٢ . أو الشّلل الرّعاشي: رِعشة تعتري الإنسان من داء يصيبه لا يسكن عنه؛ أو عِلّة تتميّز بضعف العضلات والتصلّب والارتعاش وآلام عضلية أو عصبيّة وقَلَق. (**معجم النّفائس الكبير**، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد أبو حاقَة، مادّة «رع ش»). [المترجم]

٣ . قال ابن عربي: «خلق سبحانه لنا التمكّن من فعل بعض الأعمال، نَجد ذلك من نفوسنا ولا ننكره، وهي الحركة الاختيارية، كما جعل سبحانه فينا المانع من بعض الأفعال الظاهرة فينا، ←



يحتاج في الواقع إلى دليل منطقيّ ومُقنِع.

تأويل الأشاعرة والمعتزلة للآية

فسّرَ المتكلّمون الأشاعرة ـ وهم أتباع مذهب الجَبريّة ـ قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ بحسب ما يقتضيه مذهبهم، فقد رجّح الفخر الرازي الأدلّة العقليّة (للجَبر بزَعمه) على مضمون الآية الشريفة مدّعياً ضرورة تأويل الآية، وفي ردّهم على تأويل الأشاعرة ادّعى المُعتزلة أنّ الآية تدلّ على صحّة التفويض؛ لكنّ الإماميّة رفضت كلا الرّأيَيْن وقال عُلماؤها إنّه لا يمكن فَهم كلام الله سبحانه إلّا بالسّير على خطى آل البيت المعصومين عليهم السلام لأنّهم القرآن النّاطِق، وقالوا في الردّ على المُعتزلة: إنّ صحّة التكليف بالمقدور وبُطلان التكليف بِما لا يُطيقه الإنسان لا تعود إلى استقلال الإنسان التفويضيّ لأنّ كلّ ممكن الوجود هو معلول وأنّ عليه العَوْد إلى عِلّته الأولى.

وسيأتي شرح آراء الفريقَيْن (الأشاعرة والمُعتزلة) بالتفصيل عند نَقدنا لأدلّتهما في بحث الإشارات واللطائف.

عاقبة الخَير والشرّ

ثمّة مسألتان مُختفيتان وراء حجاب العبارة الشريفة ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ بدليل تقديم الخبر فيها على المبتدأ، والمسألتان هما:

← ونجد ذلك من نفوسنا كحركة المرتعش الذي لا اختيار للمرتعش فيها، وبذلك القدر من التمكّن الذي يجده الإنسان في نفسه صحّ أن يكون مُكلّفاً ولا يحقّق الإنسان بعقله لماذا يرجع ذلك التمكّن، هل لكونه قادراً أو لكونه مُختاراً؟ وإن كان مجبوراً في اختياره، ولا يمكن رفع الخلاف في هذه المسألة فإنّها من المسائل المعقولة ولا يُعرَف الحقّ فيها إلّا بالكشف». (تفسير رحمة من الرحمن، ج١، ص٤٠٥). [المترجم]



أ. تكون نسبة استحقاق كلّ فرد في يوم القيامة من الخير والثواب بمقدار ما كسبه، وأمّا ما يتعلّق بالعمل غير الصالح فلا يستحقّ صاحبه شيئاً إطلاقاً. وتبقى مسألة إحسان الله سبحانه وبركاته وفضله والشفاعة الإلهيّة مسألّة حقّة، إلّا أنّ ذلك هو خارج استحقاق الفرد.

تذكير: ينبغي الإشارة هنا إلى أنّه لا مجال في الشريعة الإسلامية للحظّ والصّدفة والنّصيب وغير ذلك من الأمور الخيالية التي لا تستند إلى أيّ برهان عقليّ أو نقليّ مُعتبر.

ب. لا شكّ في أنّ فاعل الخير هو الوحيد الذي يحظى بنتيجة عمله وعاقبته.

ونفس الشيء يُقال حول الجملة الشريفة ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ حيث تُخفي وراءها نقطتيْن اثنتيْن أيضاً بسبب تقديم خبرها على مبتدأها، وتلكما النقطتان هما:

أ. تكون نسبة استحقاق كلّ فرد في يوم القيامة من الشرّ بمقدار ما اكتسبه منه، وأمّا ما يتعلّق بالعمل الصالح فلا يستحقّ صاحبه شيئاً من العذاب إزاءه.

ب. يحمل الشخص الفاعل للشرّ أو المعصية نفسه وزر أفعاله وهو وحده الذي سيذوق وبال ما اقترف من الأعمال القبيحة والسيئة كما في قوله تعالى الذي يُفيد الحصر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1].

وهكذا فإنّ الآية الّتي هي موضوع البحث وبعض الآيات القرآنية الأخرى يشيرانِ إلى النقاط الأربع المذكورة فيما يخصّ مسألة الخير والطاعة والشرّ والعصيان، فالتكليف إمّا أن يكون مع الطاعة أو مع العصيان، والفعل الحَسن يأتي بالخير لصاحبه: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾[2] والفعل السيّئ لا يجلب

---

١ . سورة فاطر، الآية ١٨.

٢ . سورة يونس عليه السلام، الآية ١٠٨.

لُمرتكبه سوى الضّرر: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[1]، وكلّ شخص مُختار في أن ينتخب الخير أو الشرّ.

علاقة الخير والشرّ بالفطرة

لا شكّ في أنّ فعل الخير ينسجم مع فطرة الإنسان ولهذا استخدم القرآن الكريم حرف «اللام» الذي يُفيد النّفع والخير ﴿لَهَا﴾؛ ولا شكّ أيضاً في أنّ اختيار الصراط المستقيم والسّير فيه ليس فيهما أيّ مشقّة أو عناء بل هما هيّنان ويسيرانِ كشُرب الماء لأنّ الشريعة الإسلامية تنطبق مع الفطرة الإنسانية ولا تتقاطع معها أبداً ولذلك سُميت الشريعة الإسلامية بالشريعة السهلة والسّمحاء[2].

وأساس المعصية أو الذّنب هو تحميل الرّوح أثقالاً وأعباءً ضارّة ومؤذية، مثل ذلك كمَثل حَقن الجسم بالمُخدّرات التي تؤدّي إلى الإدمان الذي يؤدّي بدوره إلى إحداث الكثير من المخاطر، ولهذا تمّ استخدام حرف الجرّ «عَلى» للتعبير عن فعل الشرّ الذي يتعارض مع الفطرة الإنسانية مع كلمة «الاكتساب» التي تتضمّن معنى الضدّ وتحمّل الضغوط الكبيرة فقال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

---

١ . سورة يونس عليه السلام، الآية ١٠٨.

٢ . «عِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا عَنْ سَهْلِ بْنِ زِيَادٍ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَشْعَرِيِّ عَنِ ابْنِ الْقَدَّاحِ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «جَاءَتِ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله! إِنَّ عُثْمَانَ يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ. فَخَرَجَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله مُغْضَباً يَحْمِلُ نَعْلَيْهِ حَتَّى جَاءَ إِلَى عُثْمَانَ فَوَجَدَهُ يُصَلِّي فَانْصَرَفَ عُثْمَانُ حِينَ رَأَى رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله فَقَالَ: لَهُ يَا عُثْمَانُ! لَمْ يُرْسِلْنِي اللهُ تَعَالَى بِالرَّهْبَانِيَّةِ وَلَكِنْ بَعَثَنِي بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ، أَصُومُ وَأُصَلِّي وَأَلْمِسُ أَهْلِي، فَمَنْ أَحَبَّ فِطْرَتِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي وَمِنْ سُنَّتِيَ النِّكَاحُ». (أصول الكافي، ج٥، ص٤٩٤) [المترجم]؛ أنظر كذلك: بحار الأنوار، ج٢٢، ص٢٦٤.



وكما أنّ الجسم السليم يرفض السّموم ويقاومها ويجتهد في عدم السّماح لها في الدخول إليه فإنّ الفطرة السليمة كذلك لا تتقبّل الذّنب ولا تُطيق ارتكابه، ومن العلامات التي تدلّ على أنّ المعصية هي أمر طارئ يُفرَض عَنوة، اضطراب الشخص وقَلقه الشّديد ثمّ رجوعه السريع عند ارتكابه لأوّل معصية أو التلوّث بأخطارها، لكن قد يتعوّد الشخص نفسه على تلك المخدّرات وتبرز في داخله شهوة عارمة ـ لكن كاذبة ـ إزاء تناول تلك المواد، فيسري السمّ في كلّ أنحاء جسده شيئاً فشيئاً ويصبح وجوده أمراً عادياً تماماً، وهنا يشعر المرء بسهولة كاملة في ارتكاب الرذائل الخلقيّة دون أيّ حَرج أو استحياء: ﴿**وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**﴾[1]، وعليه، فإنّ الذنب أو المعصية هي أمر صعب تُحمّل مُرتكبها أوزاراً وأعباءً جمّة بينما يكون الخير وطاعة الله سبحانه سهلاً ويسيراً: ﴿**فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى**﴾[2]. لكن، لا يخفى أنّ فعل الخير أيضاً قد يكون مصحوباً في بعض الأحيان بالعناء والمشقّة حيث تكمن تلك الحالات في القوى الحسيّة والشهويّة ولا علاقة لذلك بالفطرة الإنسانية، فالصيام مثلاً يُعتبر أمراً شاقّاً وعسيراً مقارنة بطبيعة البدن الذي يُمثّل مجرى الحسّ والشهوة معاً، لكنّه سهل ويسير بالنسبة إلى الروح المنفوخة من قِبَل الله ﷻ.

هذا، وتتجلّى عبارة ﴿**لَها مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾ خاصّة في المسائل الكلامية (في ثواب الأعمال وعقابها)، إلّا أنّها قد تتضمّن كذلك بعض الأمور أو المسائل الاقتصادية بقرينة قوله تعالى: ﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ**﴾[3] حيث

---

١ . سورة الليل، الآيات من ٨ إلى ١٠.

٢ . سورة الليل، الآيات من ٥ إلى ٧.

٣ . سورة النساء، الآية ٣٢.

يتطلّب ذلك بحثاً فقهيّاً خاصّاً؛ إذاً، فإنّ العبارة الشريفة المذكورة إلى جانب أجزاء أخرى من آيات أُخَر تشير إلى الأفعال الدنيويّة والأُخرويّة على حدّ سواء رغم تجلّيها بوضوح أكبر في المسائل العَقَديّة والخلقيّة والسلوكية.

ففي المجال الاقتصادي مثلاً أنّ كلّ شخص يُعتبر مالِكاً لنتائج أعماله ولا يوجد ثمّة تعارض بين أدلّة الخُمس والزّكاة: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾[1] و﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ...﴾[2] وبين مضمون الآية الّتي هي موضوع البحث لأنّ الله تعالى الذي اعتبرَ كلّ إنسان مالكاً لرأس مالِه هو الذي أمرَ ذلك الإنسان بإخراج مقدار مُعيّن من مالِه وإعطائه لأفراد آخرين عرّفهم له.

عدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان

لا رَيب في أنّ النسيان بحدّ ذاته يُعتبر من ضمن البركات الممنوحة للإنسان في هذا العالم الطبيعيّ، فالغِبطة والسعادة اللّتان تنجمان عن حَدث مُفرح وسعيد وكذلك الحزن والأسى اللّذان تتسبّب بهما حادثة مؤلمة وحزينة تعملان على إضعاف مساعي الشخص وتثبيط جهوده وعزماته، ومن المعروف أنّ كلّ واحد منّا قد يواجه طيلة حياته الكثير من الأحداث والمواقف المُحزنة والمُفرِحة فلو لم نكن نستطيع نسيانها وتجاهلها وطَيّ صفحتها وظلّت تلك الأحداث تشغل بالَنا وتعصف بأذهاننا وأفكارنا فعندئذٍ ستتحوّل قدراتنا الفاعلة إلى قدرات كامنة وجامدة ولا شكّ في أنّ حالة الجمود هذه ستؤثّر بالتالي على المجتمع وأفراده بشكل عامّ. وتجدر الإشارة إلى أنّ نظام الخلقة لم يمنح الإنسان القدرة على

---

١ . سورة الأنفال، الآية ٤١.

٢ . سورة التوبة، الآية ٦٠.



التمييز بين السّهو والنسيان بشكل يمكنه معه تجاهل أو نسيان الذكريات السارّة أو المؤلِمة والاحتفاظ بالأحداث أو الأفكار العادية من النسيان أو السّهو، أو عدم الإبقاء على أيّ أثر للأحكام والحقوق المعروفة في ذاكرته ومع ذلك فقد يكون بإمكان المَرء أحياناً العمل على التقليل من أهميّة بعض الأمور والمسائل التي تتّصف بالمبادئ الاختيارية ورفع نسبة نسيانها أو سهوها، لكنّه لن يستطيع بالطّبع نسيانها أو حذفها من ذاكرته بشكل كامل.

ورغم أنّ المرءَ لا يُؤاخَذ على الخطأ والنسيان وفقاً للأدلّة العقلية والنقليّة إلّا أنّ النّصوص الدينية كلّها أوصت بشدّة بقراءة وتلاوة الآية الّتي هي موضوع البحث والآية التي سبقتها كذلك، بل ورُويَ عن النبيّ الأكرم ﷺ أنّ فضيلة قراءة الآيتيْن المذكورتيْن في الليل تُعادل فضيلة صلاة الليل نفسها[1].

ومن ناحية أخرى، وكما أشرنا قبل هذا، أنّ مسألة النسيان والخطأ ليستا إراديّتين وهذا يعني أنّ التكليف بهما هو تكليف بما لا يُطاق وهو أمر يستقبحه العقل، وقد بيّن كلّ واحدٍ من الدليل النقليّ وحديث الرّفع أنّ المؤاخَذة مرفوعة

---

١ . «رُوي عن النبيّ ﷺ أنّ الله سبحانه قال: عند كلّ فصل من هذا الدّعاء فعلت واستجبت؛ ولهذا استحبّ الإكثار من هذا الدعاء. ففي الحديث المشهور عن النبيّ ﷺ أنّه قال: "مَن قَرَأَ الآيتيْن مِن آخِر سُورَة البَقَرة في ليلة كَفَتَاه"، أي كَفتاه قيام ليلته. وعَن عبد الله بن مسعود قال: لما أُسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وأُعطي ثُلثا الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغُفِر لِمَن لا يُشرك بالله من أُمّته إلّا المقحمات. وعن ابن المنكدر رفعه إلى النبيّ ﷺ قال: "في آخر سورة البَقَرة آيات إنهنّ قرآن وإنهن دُعاء وإنهن يُرضين الرّحمن". وفي تفسير الكلبي بإسناده ذكره عن ابن عباس قال: بَينا رسول الله ﷺ إذ سمع نقيضاً ـ يعني صوتاً ـ فرفع رأسه فإذا باب من السماء قد فُتِح فنزل عليه مَلَك وقال: إنّ الله يبشّرك بنوريْن لَم يُعطهما نَبيّاً قبلكَ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لا يقرأهما أحد إلّا أُعطِيَت حاجته. ورُوي عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: كان الرّجل إذا تعلّم سورة البقرة جدّ فينا ـ أي عَظُم». [المترجم]. (الطبرسيّ، تفسير مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٦٩٢).

عن تسعةِ أمور من بينها النسيان والخطأ[1]؛ والسؤال هنا هو: «لماذا ينبغي علينا إذاً المواظبة على قراءة تلك الآيات؟» يمكننا الإجابة على هذا السؤال بثلاثة وجوه، هي:

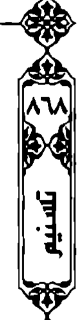
١. ليس هناك أيّ تعارض بين المؤاخَذة على الخطأ والنسيان وبين استحباب تلاوة الدّعاء المذكور في الآية الشريفة، وليس بالضرورة أن يكون موضوع الدّعاء محالاً عقلياً أو مُرتفعاً شرعياً لأنّ المقصود في بعض الأدعية هو إظهار الأدب أمام الله ﷻ كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[2]، وقد يكون المقصود بهذه الآية وفقاً للقرينة الخارجية هو: ربّنا ارزقنا التوفيق للقيام بِما أُمِرنا به من فعل الخير حتى نبلغ ما وعدتنا به على لسان رُسُلك ﷺ. ومن جهة أخرى، أنّه على الرّغم من أنّ العقل والنّقل معاً يعتبران خُلف الوعد والحكم بغير الحقّ من قِبَل الله سبحانه أمراً مُحالاً، إلّا أنّ المؤمنين لا يفترون عن دعاء الله ﷻ ومسألته لكي يَفي بوَعده ويحكم بينهم بالحقّ: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾[3]. وثمّة آيات قرآنية أخرى تذكر أنّ الملائكة يستغفرون للمؤمنين التوّابين، والمعروف أنّ التوبة النّصوح تكفي لغُفران ذنوب صاحبها وحصولها على العفو الإلهيّ ولا حاجة إذاً إلى استغفار الملائكة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ

---

١. «الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ النَّهْدِيِّ رَفَعَهُ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: "قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: وُضِعَ عَنْ أُمَّتِي تِسْعُ خِصَالٍ الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا لَا يَعْلَمُونَ وَمَا لَا يُطِيقُونَ وَمَا اضْطُرُّوا إِلَيْهِ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ وَالطِّيَرَةُ وَالْوَسْوَسَةُ فِي التَّفَكُّرِ فِي الْخَلْقِ وَالْحَسَدُ مَا لَمْ يُظْهِرْ بِلِسَانٍ أَوْ يَدٍ"». (أصول الكافي، ج٢، ص٤٦٢ ـ ٤٦٣). [المترجم]. أنظر كذلك: بحار الأنوار، ج٢، ص٢٨٠.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٩٤.

٣. سورة الأنبياء ﷺ، الآية ١١٢.



﴿لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[1]؛ ولكن لا يخفى أنّ دعاء الملائكة واستغفارهم لِمَن في الأرض ربّما كانا عاملين مساعدينِ لرفع أيّ نَقص قد يشوب التوبة وإزالة كلّ عَيب عنها والتّسريع في قبولها من قِبل الله سبحانه وتعالى.

وهكذا نرى أنّ طلب عدم المؤاخَذة على النسيان والخطأ يمكن تفسيره بأنّه إظهار للأدب أمام الله ﷻ وإن كان المَرء لا يُؤاخَذ أبداً لنسيانه أو خطأه بالاستناد إلى العقل والنّقل معاً.

٢. لمّا كان الخطأ والنسيان أمريْن لا إراديّيْن فإنّ مُرتكبها لا يُؤاخَذ على أيّ واحدٍ منهما، ولكن، إذا تضمّنت هاتان الحالتان مبادئ اختيارية وإراديّة ولجأ صاحبهما إلى تركهما وتجاهلهما عن عَمد، فإنّ ذلك سيمهّد إلى ظهور العوامل المُسبّبة للمؤاخَذة؛ وعليه، فعندما ينسى المتنبّهون والمتحفّظون أمراً ما أو يخطأون في مقدّمات الاجتهاد من دون تقصير منهم رغم حرصهم ودقّتهم ولا يصلون إلى الحكم الصحيح فإنّ هؤلاء غير مشمولين بمضمون الآية الشريفة إذ في هذه الحالة ستكون مؤاخذتهم من سنخ المؤاخَذة بما لا يُطاق. وعندما لا يكون الأمر علميّاً ولا مُعمّقاً أو مُعقّداً ويكون بإمكان المرء الوصول إلى الرّأي الصحيح والحكم الصّائب بقليل من الدقّة في المقدّمات لكنّه لم يستخدم الدقّة اللازمة أو كان سوء اختياره سبباً لنسيانه وخطأه، ففي هذه الحالة تبرز الأسباب والعوامل التي تؤدّي إلى مؤاخَذته ومحاسبته، ولهذا لا يفتأ المؤمنون عن الاستغاثة بالله سبحانه وطلب الرّحمة منه وعدم مؤاخذتهم إذا نسوا أو أخطأوا.

٣. قد يبلغ النسيان في بعض الأحيان مرحلة الإهمال وعدم تطبيق الأوامر الإلهيّة بالشكل الصحيح وعندئذ لا يمكن تسميته بالنسيان العاديّ:

---

١ . سورة غافر، الآية ٧.



﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾[١] و﴿نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[٢] و﴿نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[٣]، وعندما يتعلّق الأمر هنا بالإهمال والتقصير والتّهاون في تنفيذ أوامر الله ﷻ فإنّ المؤاخَذة تكون أكيدة وربّما شديدة، وهنا يأتي دور المؤمنين الذين يستغيثون بالله تعالى قائلين: ربّنا قد صرّحنا بأنّنا قَبلنا بأوامرك ووعدنا بطاعتها وتنفيذها، لكنّنا قد نقع في الإفراط أو التفريط عند التطبيق وقد تزلّ أقدامنا، فنرجو منك عدم مؤاخَذتنا في مثل هذه الحالات.

تذكير: بما أنّ «التكليف» موجود في العمل والاجتهاد ـ الذي يُمثّل هو الآخر نوعاً من العمل ـ وبما أنّ الاجتهاد يشمل الأصول والفروع على حدّ سواء وذلك لأنّ كلام الإمام الصّادق والإمام الرّضا عليهما السلام: **«عَلَيْنا إلْقاء الأُصولِ وعَلَيْكُم التّفريع»**[٤] يشمل كلا فَرعيْ الاجتهاد العِلميّ، فإنّ النسيان والسّهو والخطأ مسموح بهنّ والمؤاخَذة مرفوعة في هذه الحالة.

اللماعة: ذُكرت عدّة وجوه حول الفرق بين «النسيان» و«الخطأ»، منها:

١. «النّسيان» بمعنى التّرك (أي، تَرك الواجب) و«الخطأ» بمعنى الذّنب (وهو الفعل الحرام).

٢. «النّسيان» بمعنى القيام بفعل ما يؤدّي إليه (أي إلى النسيان) و«الخطأ» بمعنى أداء فعل ما بحيث يتسبّب في الوقوع في الخطأ (الذّنب).

٣. «النّسيان» بمعنى ترك الواجب لسَهو أو غَفلة، و«الخطأ» بمعنى فعل الحرام لا عن قصد[٥].

---

١. سورة المائدة، الآية ١٤.

٢. سورة الحشر، الآية ١٩.

٣. سورة التوبة، الآية ٦٧.

٤. وسائل الشيعة، ج٢٧، ص٦٢.

٥. «قيل فيه وجوه (أحدها): أنّ المراد من ﴿نَسِينا﴾ تَركنا كقوله تعالى: ﴿نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي ←





التكاليف الشاقّة على الأُمم السابقة

يُخبرنا التاريخ أنّ الله سبحانه وتعالى قد فرَض على بعض الأُمم السابقة تكاليف ثقيلة وأعباءً شاقّة بسبب ارتكابها للمعاصي واقترافها للذّنوب، ولذلك يسأل المؤمنون في الآية الّتي هي موضوع البحث الله ﷻ ويرجونَ منه ألّا يُعاملهم بنَفس الأسلوب الذي تعامل به مع تلك الأُمم. والمعروف أنّ الله سبحانه وتعالى كان قد تجاوز عن ذنوب بعض الأُمم من خلال أمرهم بقَتل أنفسهم كعقاب على ما ارتكبوه من المعاصي: ﴿فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾[1] وفرَض على أُمم أو شعوب أخرى عقاباً من نوع آخر وهو حرمانهم

←

تركوا طاعته فتركهم من ثوابه، وقوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ والمراد من ﴿أَخْطَأْنَا﴾ أذنبنا، لأنّ المعاصي تُوصَف بالخطأ من حيث إنّها ضدّ الصّواب وإن كان فاعِلها مُتعمّداً فكأنّه تعالى أمرهم أن يستغفروا ممّا تركوه من الواجبات وممّا فَعلوه من المقبحات. (والثاني): معنى قوله ﴿إِن نَّسِينَا﴾ إن تعرّضنا لأسباب يَقع عندها النسيان عن الأمر والغفلة عن الواجب أو أخطأنا أي تعرّضنا لأسباب يَقع عندها الخطأ، ويحسن الدّعاء بذلك كما يحسن الاعتذار منه. (والثالث) أنّ معناه لا تؤاخذنا أن نَسينا أي إن لم نَفعل فِعلاً يجب فعله على سبيل السّهو والغفلة أو أخطأنا أي فَعلنا فِعلاً يجب تركه من غير قَصد ويحسن هذا في الدعاء على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى وإظهار الفقر إلى مسألته والاستعانة به وإن كان مأموناً منه المؤاخذة بمثله، ويجري ذلك مجرى قوله فيما بعد ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ على أحد الأجوبة وقوله ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾... (والرابع) ما رُوي عن ابن عباس وعطاء أنّ معناه لا تُعاقبنا إن عَصينا جاهلين أو مُتعمّدين، وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ قيل فيه وجهان: (أحدهما) أنّ معناه لا تحمل علينا عَملاً نَعجز عن القيام به ولا تُعذّبنا بتَركه ونقضه؛ عن ابن عباس وقتادة ومجاهد والربيع والسّدي. (والثاني) أنّ معناه لا تَحمل علينا ثقلاً؛ عن الربيع ومالك وعطاء، يعني لا تُشدّد الأمر علينا ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أي على الأمم الماضية والقرون الخالية لأنّهم كانوا إذا ارتكبوا خطيئة عُجّلت عليهم عقوبتها وحرّم عليهم بسببها ما أُحِلّ لهم من الطعام». [المترجم]. (تفسير مجمع البيان، ج ١ ـ ٢، ص ٦٩٠ ـ ٦٩١).

١ . سورة البقرة، الآية ٥٤.

من بعض الطيّبات والأطعمة المُحلّلة: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[1].

ويشير بعض الروايات إلى أنّ عدد الصلوات التي كانت مفروضة على بعض الأُمم الماضية كان (٥١) ركعة وأنّ الزّكاة الواجبة عليهم كانت تُعادل رُبع أموالهم كلّها، وإذا كان بعض ملابسهم ملوّثاً أو نَجساً فكانوا يُجبرون على تقطيعه أو تمزيقه[2]؛ أمّا الغرض من كلّ تلك الشدّة والقسوة فهو تليينهم وتطويعهم، ولم يكن ذلك ممكناً إلّا بفَرض تلك الأعباء والأوزار عليهم.

---

١ . سورة النساء، الآية ١٦٠.

٢ . نقل العلّامة المحدّث البحراني صاحب تفسير (البرهان) قصّة المعراج وحديث الله سبحانه مع نبيّه الكريم ﷺ وفيما يأتي قسم منها: «وكانت الأمم السّالفة صلاتها مفروضة [عليها] في ظلم الليل وأنصاف النهار، وهي من الشّدائد التي كانت عليهم، فرفعتُها عن أُمّتكَ وفرضت صلاتهم في أطراف الليل والنهار، وفي أوقات نشاطهم. وكانت الأُمم السّالفة قد فرضتُ عليهم خمسين صلاة في خمسين وقتاً، وهي من الآصار التي كانت عليهم ـ فرفعتُها عن أُمّتك وجعلتُها خَمساً في خمسة أوقات، وهي إحدى وخمسون ركعة ـ وجعلتُ لهم أجر خمسين صلاة. وكانت الأُمم السالفة حَسَنَتهم بِحَسنة وسيّئتهم بِسَيّئة، وهي من الآصار التي كانت عليهم، فرفعتُها عن أُمّتك وجعلتُ الحسنة بعشرة والسيّئة بواحدة. وكانت الأُمم السالفة إذا نَوى أحدهم حَسنة ثمّ لَم يَعملها لَم تُكْتَب لَه، وإن عَملها كُتِبَت لَه حسنة [واحدة]، وإنّ أُمتك إذا نَوى أحدهم حَسنة ثمّ لَم يَعملها كُتِبَت لَه حَسنة وإنْ عَملها كُتِبَت له عشرة، وهي من الآصار التي كانت عليهم، فرفعتُها عن أُمّتك. وكانت الأمم السالفة إذا هَمّ أحدهم بسيّئة ثمّ لَم يَعملها لم تُكْتَب عليه وإن عَملها كُتِبَت عليه سيّئة، وإنّ أُمّتك إذا هَمّ أحدهم بسيّئة ثمّ لَم يَعملها كُتِبَت له حسنة وهذه من الآصار التي كانت عليهم فرفعتُها عن أُمّتك. وكانت الأمم السالفة إذا أَذْنَبوا كُتِبت ذنوبهم على أبوابِهم وجُعِلَت توبتهم من الذّنوب أن حَرّمتُ عليهم بعد التوبة أَحَبّ الطعام إليهم، وقد رفعتُ ذلك عن أُمّتك، وجعلتُ ذنوبهم فيما بيني وبينهم، وجعلتُ عليهم ستوراً كثيفة وقَبِلتُ توبتهم بلا عقوبة ولا أعاقبهم بأن أحرم عليهم أحبّ الطعام إليهم». [المترجم]. (تفسير البرهان، ج١، ص٥٨٤)؛ أنظر أيضاً: تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص١٣٦).



إذاً، فإنّ التكاليف الثقيلة والفرائض الشاقّة التي وُضِعَت على كاهل بعض الأُمم السابقة والشعوب الماضية لم تكن في إطار الأمر الابتدائيّ لأنّ الأوامر التي يصدرها الله سبحانه على خَلقه هي سهلة ويسيرة في الأصل: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[1] فتلك الأثقال والتكاليف العسيرة كانت قد فُرضت على تلك الأُمم كعقاب لها على ذنوبها: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ...﴾[2].

التكليف الجزائيّ

ينقسم التكليف الجزائيّ إلى نوعيْن، هما:

١. *التكليف بالإصر*: وهو تكليف المُذنِب بقَدر طاقته، أي فرض مشقّة عليه بحيث يُمكنه تحمّلها، لكنّه بالطّبع إصرٌ يأخذ منه كلّ مأخَذ ويستنزف كلّ طاقته كالتكليف الذي فُرِضَ على بَني إسرائيل وذلك بقَتل بعضهم بعضاً كشرط لقبول توبتهم: ﴿فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾[3] أو فَرض الصّيام عليهم مدّة شهريْن متتاليَيْن مع إطعام ستّين مسكيناً وتحرير رقبة واحدة، وكانت هذه عقوبة الإفطار بِما هو مُحَرّم؛ ورغم ذلك فإنّ هذه العقوبة لا تقضي على حياة المذنب بل تُبقيه حيّاً يتألّم ويُعاني.

٢. التكليف بِما لا يُطاق: وهو تكليف لا يُمكن للمُذنب أن يتحمّله وفي الوقت نفسه فإنّه يسلبه كلّ عَمل إراديّ أو اختياريّ.

---

١. سورة البقرة، الآية ١٨٥.

٢. سورة النساء، الآية ١٦٠.

٣. سورة البقرة، الآية ٥٤. كانت تلك العقوبة جزاءً لهم على عبادتهم العجل في غياب سيّدنا موسى عليه السلام، والقصّة معروفة. [المترجم]

واستناداً إلى بعض الروايات فإنّ مضمون الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث كان قد ورد في دعاء الرّسول الأعظم ﷺ خلال معراجه الشريف وقد قَبِلَ الله ﷻ ذلك منه وأعطاه سُؤْلَه قائلاً: «**قَدْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ، لَكَ وَلأُمّتِكَ**»[1]. وأمّا الشّاهد الآخر الدالّ على عدم تكليف الأُمّة الإسلامية بمثل ما كُلّفت به الأُمم السابقة فهو قوله تعالى: ﴿... **وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾[2] وهذا يشير إلى أنّ الله ﷻ قد رفع الإصْر عن أُمّة محمّد ﷺ.

تذكير: من الواضح أنّ ارتفاعَ الإصر وإزالةَ الأمر العسير حدوثاً وبقاءً مرهونانِ بدعاء الأُمة الإسلامية، فاستمرار المؤمنين بالدّعاء ومواصلتهم له يكونانِ متزامنين مع رفع الله سبحانه للإصر عنهم.

استحالة التكليف بما لا يُطاق

يكون عدم وقوع الفعل في بعض الأحيان أو حدوثهُ هو أمراً مُنفصلاً ومستقلًّا عن عدم إمكانية وقوعه، أي، قد يكون وقوع الفعل ممكناً لكنّه رغم ذلك لا يقع، وفي أحيان أخرى لا يكون وقوع الفعل مُنفصلاً عن استحالة وقوعه، أي، يكون الامتناع والاستحالة ـ وليس عاملاً أو سبباً آخر ـ هما سرّ عدم وقوع الفعل مثل قوله سبحانه: ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾[3] أو ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[4] و﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾[5] لأنّ كلًّا من «الظّلم» و«الخُلف في

---

١ . أنظر: **تفسير القمي**، ج١، ص٩٥؛ **بحار الأنوار**، ج١٨، ص٣٢٩.
٢ . **سورة الأعراف**، الآية ١٥٧.
٣ . **سورة الكهف**، الآية ٤٩.
٤ . **سورة فصّلت**، الآية ٤٦.
٥ . **سورة آل عمران**، الآية ٩؛ **سورة الرّعد**، الآية ٣١.



الوعد» أمران قبيحان وصدور القبيح عن الله سبحانه وتعالى مُحال؛ وعليه، فإنّ مفاد العبارات القرآنية المذكورة هو عدم الوقوع بسبب عدم إمكانية ذلك أو استحالته.

ونلاحظ في الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث أنّ عدم وقوع التكليف بِما لا يُطاق إنّما هو من باب الاستناد إلى عدم إمكانية حصول ذلك لا لكونه ممكناً بالذات أو ألّا يقع بسبب نوع من المُراعاة إذ إنّ وقوع مثل هذا الفعل قبيح من الناحية العقلية وصدور القبيح عن الله ﷻ مُحال ـ كما قلنا ـ وليس لذلك علاقة لا بالماضي ولا بالحاضر ولا بالمستقبل، تماماً كاستحالة الظلم والامتناع عن خُلف الوعد بالنسبة إلى الله ﷻ حيث يُمثّل ذلك سنّة قاطعة من سُنَن الله تعالى.

مراحل سؤال العبد

فيما يتعلّق بعدم المؤاخَذة أو تحميل الإصر أو الإرغام بالقيام بِما لا يُطاق من الأعمال والتكاليف حيث يرتبط ذلك ارتباطاً وثيقاً بعظمة الله سبحانه وجلاله، يبدأ دعاء العبد ومسألته من أدنى مراحلها وبشكل مُبسّط ثمّ يرتقي الحال لتصل إلى أشدّها وأثقلها وينتهي عندها، وذلك لأنّ المؤاخَذة على النسيان والخطأ أمر صعب وعسير لكنّها أسهل مقارنة بتحميل الإصر باعتبار أنّ السّهو والنسيان ليسا أمرين طبيعيّين يمكن حدوثها بين الفَينة والفَينة، بل ربّما وقع فيهما الشخص صُدفة أو من حين إلى آخر، لكنّ تحميل الإصر بشكل مستمرّ ومتواصل يُعتبر أمراً صعباً وشاقّاً للغاية، بل إنّ التكليف بِما لا يُطاق يُعدّ بدوره أثقل وأصعب من تحميل الإصر نفسه.

وعلى هذا الأساس لا يجب أن يُشكل أحدهم فيقول: عندما يطلب العبد من ربّه في المرحلة الدنيا ألّا يؤاخذه وأن يَلطف به فيُستَجاب له فإنّ ذلك يعني

أنّ الله سبحانه حتماً لا يُكلّف عَبده بما لا يُطاق، فما حاجة العبد إذاً إلى السؤال بعدم تحميله الإصر أو تكليفه بِما لا يُطاق ـ والخوض في المراحل التالية من الدّعاء؟

الجواب: نعم، إذا كان الله ﷻ في المرحلة الدنيا من الدّعاء قد نفى مثلاً تحميل الإصر على العبد فإنّ انتفاء المرحلة التالية (العُليا) من الدّعاء ـ ونعني بذلك التكليف بِما لا يُطاق ـ يكون أكيداً كذلك؛ لكنّ الأمر في الحقيقة ليس كذلك، فإنّ دعاء العبد نفسه هو الذي يقطع القوس الصعوديّ المذكور، فعندما يتطهّر من جميع الرذائل حينئذ يبدأ بتلاوة دعاء الجمال المُتمثّل بعطف الله تعالى ورأفته ورحمته: ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾.

يُضاف إلى ما قيل أنّه قد تمّت أيضاً مُراعاة المراحل المنطقية للدعاء عند طلب العفو والمغفرة والرّحمة، أي، ابتدأ الحديث أوّلاً بطلب العفو وهو ألّا يُعاقِب الله سبحانه عَبده بسبب ارتكابه للذّنب مع بقاء الذّنب نفسه بالطّبع، ثمّ يسأل العبد ربّه تعالى التغاضي عن الذّنب وعدم فضحه على رؤوس الأشهاد أو إذلاله أمام الخَلق جميعاً لأنّ الله سبحانه هو ستّار العيوب، لكن حتى في هذه المرحلة فإنّ الذّنب ما زال موجوداً وقائماً؛ وهنا يأتي دور المرحلة الثالثة وهي طلب الرّحمة إذ بتحقّقها تُصبح السيّئات حَسنات وتغمر الطمأنينة وجود العبد وكيانه وروحه.

وكما هو معلوم فإنّ الآية الشريفة السابقة[1] تتحدّث عن مسألة «الغُفران» فقط: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ إلّا أنّ الحديث في الآية التالية (الآية الّتي هي موضوع البحث) يتّسع ليشمل مسألة «العَفو» التي تُعدّ أساس المغفرة ومن ثَمّ البركات المتلاحقة بعد المغفرة والمتمثّلة بالرّحمة.

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

هذا، وقد أُلحِقت واو العطف بالفعل: ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ ومعناه الصّفح والتغاضي عن تعذيب العبد بسبب ما ارتكب من ذنوب، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ حيث دخلت واو العطف على الفعل فيما حُذِفَ المفعول به وهو «ذنوبَنا» وذلك لتعلّق المغفرة بالذّنب. وفي المرحلة الثالثة أيضاً لم يَعُد الحديث يتعلّق بالضمير «عَنّا» أو «لَنا» بل استهلّ العبد كلامه بقوله: «الآن يا رَبّ وقد مَنَنْتَ علينا بالعَفو والمغفرة وسَترتَ ذنوبنا عن أبصار الآخرين، إرحَمنا وامحُ سيّئاتنا أو أبدلها بالحسنات». وهكذا، فإنّ العَبد في المرحلة الأولى يكون «مَعفوّاً عنه» ثمّ يُصبح «مَغفوراً لَه» ثمّ ينتهي به المطاف إلى الرّحمة فيضحى «مَرحوماً».

وأمّا ما يتعلّق بتكرار كلمة ﴿رَبَّنَا﴾ فتجدر الإشارة هنا إلى أنّه غالباً ما تُذكَر العبودية على نحو مستمرّ لاستجداء الرّحمة حيث تتضمّن العبارة عنوان الربوبية على أساس التلازم، وفي أحيان أخرى يتمّ تكرار عنوان الربوبية الذي يكون ملازماً لتكرار عنوان العبودية؛ وعلى أيّة حال، فإنّ تكرار مثل تلك العناوين ـ كما أشرنا ـ إنّما هو لاستجداء العناية والعطف الإلهيّين.

إلماعة: شرحَ بعض المُفسّرين قوله تعالى: ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ بقولهم: «كثّر خَيْرَك لَنا وَقَلِّل بَلاءَكَ عَنّا، أي قَلّل ما ينبغي أن يُقَلّل وكَثّر ما ينبغي أن يُكَثَّر فإنّ العَفو من الأضداد يُطلَق بإزاء الكُثرة والقِلّة»[1]. ورغم أنّ العَفو يُستَعمَل أحياناً بمعنى الكَثرة والزيادة كما في قوله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[2] إلّا أنّ المقصود بالعفو في الآية الّتي هي موضوع البحث هو الصّفح عن الزّلة والخطأ والخطيئة.

---

١ . ابن عربي، تفسير رحمة من الرحمن، ج١، ص٤٠٧.

٢ . سورة البقرة، الآية ٢١٩.

هيمنة الاسم «العَفُوّ»

ليست الأسماء الحسنى على مستوى واحد أو رُتبة واحدة بل منها ما هو مُهيمن على غيره، مثل صفة «العفو» التي تُهيمن على ضدّها وهو «الانتقام» بحيث يختفي كلّ أثر لاسم «المُنتَقِم» عند تجلّي آثار «العَفُوّ» وظهورها[1]، إلّا أنّ المُنظِّم لتلك الحاكميّة وهذه المحكوميّة هو اسم أفضل وأرفع من سنخ «الحِكمة»، فإذا تجلّى اسم «الحَكيم» بقي كلّ من (العَفو) و(الانتقام) في محلّهما فيتّكئ كلّ واحدٍ منهما إلى الرّكن الشديد الجديد تحت عنوان «الحَكيم».

إجابة الأدعية

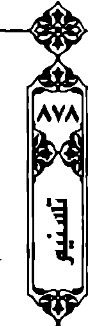
اقتضت سنّة الله ﷻ إجابة الدّعاء المعقول الذي يمكن قبوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2]، فبعض الأدعية القرآنية يكون مقروناً بالاستجابة العامّة كالدّعاء الوارد في آخر سورة (آل عمران) المقرون مع قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾[3] ولكن لم يقترن البعض الآخر من الأدعية مع ذكر الاستجابة رغم اقترانه مع ذكر الاستجابة في الحديث كالدّعاء الذي نحن بصدد تفسيره. ورُويَ عن النبيّ ﷺ أنّ الله سبحانه قال عند كلّ فَصل من هذا الدّعاء: فَعَلْتُ وَاسْتَجَبْتُ؛ ولهذا

---

١ . «إعلم أنّ الرّحمة أبطنها الله في النسيان الموجود في العالم، وأنّه لو لم يكن لعظم الأمر وشقّ وفيما يقع فيه التذكّر كفاية، وأصل هذا وضع الحجاب بين العالم وبين الله في موطن التكليف إذ كانت المعاصي والمخالفات مقدّرة في علم الله فلا بدّ من وقوعها من العبد ضرورة، فلو وقعت مع التجلّي والكشف لكان مبالغة في قلّة الحياء من الله حيث يشهده ويراه، والقَدَر حاكم بالوقوع فاحتجب رحمة بالخلق لعظيم المُصاب». [المترجم]. (تفسير رحمة من الرحمن، ج١، ص٤٠٦).

٢ . سورة غافر، الآية ٦٠.

٣ . سورة آل عمران، الآية ١٩٥.



استحبّ الإكثار من هذا الدّعاء[١].

ويمكننا استنباط النقاط التالية من مجموع الآيات القرآنية والأحاديث:

١. أنّ العمل الذي لا يمكن أداؤه والذي لا يندرج في لائحة التكليف أصلاً، لا يُحسَب ذنباً.

٢. أنّ الفعل الذي يتضمّن مبادئ اختيارية أو إرادية ويمكن التحفّظ إزاءه، لن يُؤاخَذ المرءُ عليه وإن لم يُتحفّظ إزاءه وكان عاملاً من عوامل النسيان والخطأ، فضلاً عن أنّه لن يكون سبباً للعذاب.

٣. أنّ الفعل الذي يؤدّىٰ عن عَمد وعِلم من فاعِله بحيث يكون سبباً لاستحقاقه للعذاب يُعتبر خطيئة مشمولة بالدّعاء: ﴿**وَاغْفِرْ لَنَا**﴾ رغم أنّ الفعل المذكور ليس خطأً ولا نسياناً، وذلك لأنّ الدّعاء: ﴿**وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ**﴾ لا يتعلّق بالنسيان والخطأ خاصّين بل يشمل كذلك الخطيئة المتعمّدة مثل قوله سبحانه: ﴿**وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**﴾[٢] و﴿**وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً...**﴾[٣].

وليّ المؤمنين الوحيد

نزلت سورة (البقرة) كما نعلم في المدينة المنوّرة[٤] وكانت آنذاك تعيش أجواءً تعجّ بمواضيع دقيقة وحسّاسة مثل موضوع المهاجرين والأنصار وحشود الكافرين في مقابل المؤمنين والفِتَن التي كان المنافقون يزرعونها في كلّ بيت وزقاق والحروب والمعارك المشتعلة، وهنا يتجلّى دعاء المؤمنين ومسألتهم الله

---

١. الطبرسيّ، **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٦٩٢.

٢. **سورة الشّعراء**، الآية ٨٢.

٣. **سورة النساء**، الآية ١١٢.

٤. **تفسير مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص١١١.

سبحانه في أن يكون مولاهم ويقوّي شوكتهم للدفاع عن دينهم ضدّ مؤامرات الكافرين ودسائسهم: ﴿أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

ومن ناحية أخرى، وردت في أوّل هذه السورة المباركة كبرى كليّة تشير إلى أنّ القرآن الكريم هو كتاب أُنزِلَ لهداية المُتّقين: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وفي آخر السورة نفسها ذُكِرت صغرى القضية بالشكل التالي: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ﴾ لأنّ مثل هذا الإيمان لا يكون إلّا مع التّقوى.

وفيما يخصّ موضوع الولاية كذلك فقد وردت كُبرى كليّة في قوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ...﴾[1] ثمّ وردت الآن صغرى تلك القضية في قوله تعالى: ﴿أَنتَ مَوْلَانَا﴾ ومعناه أنّك يا ربّ أنت الذي قُلت بأنّك مولانا (مولى المؤمنين) فآمنّا، وبما أنّك مولانا أنصرنا على القوم الكافرين.

والمقصود بعبارة ﴿الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ جميع أعداء الإسلام في الدّاخل والخارج، فالعدوّ الداخلي يتمثّل بالشيطان الرّجيم الذي يُوَسوس المؤمنين من الدّاخل لتثبيطهم في الجهاد الأكبر ومن ناحية أخرى يُمَنّي الكُفّار في جبهة الجهاد الأكبر بالباطل ليقودهم في النهاية إلى الاندحار والخسران العظيم بعد أن أقامَ عُشَّه في أعماق قلوبهم واستحوذَ على شؤونهم وأفكارهم: «فَبَاضَ وفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ ودَبَّ ودَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ ونَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ»[2]؛ إذاً، فالشيطان هو أحد الأعداء الداخليين والقوم الكافرين: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[3] و﴿وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾[4].

وأمّا الأعداء في الخارج فهم بدورهم لا يتوقّفون عن الإغارة على الإسلام والمسلمين في جبهات عديدة كالإعلام والحَظْر الاقتصادي والتهديد بالوسائل

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة رقم ٧.

٣ . سورة الكهف، الآية ٥٠.

٤ . سورة ص، الآية ٧٤.



العسكرية لإخضاع المجتمعات الإسلامية وإذلالها وإرغامها على الاستسلام، ولذلك يدعو المؤمنون ربّهم ﷻ لكي ينصرهم على أعدائهم في الداخل والخارج: ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

هذا، ولا شكّ في أنّ التعرّف على مبادئ الفلسفة الإلحادية والاطّلاع على الشبهات المضادّة للدّين والأفكار الهدّامة في مجال الأخلاق وما شابهها، كلّ ذلك ضروريّ وفعّال من أجل إزالة تلك الانتقادات المُغرضة ورفع الشبهات المُعادية والأوهام والخيالات الشيطانية، ولا شكّ كذلك في أنّ الاستعانةَ بالله تعالى والاستمدادَ منه مُهِمّانِ للتمهيد لتلك المبادئ وتحصيل تلك المقدّمات.

إلماعة: تتضمّن العبارة الشريفة: ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ العنصريْن الرئيسيّيْن التالييْن معاً: الانتصار على الكُفر والظّفر على الكُفّار؛ أمّا أحدهما فيتمثّل في الجبهة الثقافية والخلقيّة وأمّا الآخر ففي المجال العسكريّ.

استخدام كلمة ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ بصيغة الجمع

يدلّ استخدام كلمة ﴿الْمُؤْمِنُون﴾ بصيغة الجمع في الآية السابقة[1] وفي الآية الّتي هي موضوع البحث في الدّعاء وطلب العفو والمغفرة والرّحمة والنّصر والاعتراف بمولوية الله سبحانه، يدلّ ذلك ـ في المعارف العَقَديّة ـ على إظهار الترغيب على الاعتصام العامّ بحبل الله تعالى المَتين من جهة، وانعطاف الأفراد ومَيْل بعضهم إلى بعض في الجانب الاجتماعيّ والخلقيّ من جهة أخرى. وقد وردت مثل هذه العبارات الأدبية المُلهِمة في العديد من آيات القرآن الكريم حيث تتضمّن رسالة خاصّة تتمثّل في تشجيع المؤمنين وترغيبهم على الاتّحاد وتحذيرهم من الاختلاف والفُرقة.

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

إشارات ولطائف

١ . تأويل الأشاعرة للآية

يعتقد الأشاعرة ـ الذين لا يعترفون بالحُسن والقُبح العقليّيْن ـ أنّ الإنسان مُجبَر وليس مخيّراً، وأنّ الشّارع المقدّس قد كلّف الإنسان والعَبد العاجز بما لا يُطاق، وأنّه لا ينبغي المجادلة أو الاعتراض على أفعال الله ﷻ: **﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾**[1] وراحوا يُؤوّلون الآية الّتي هي موضوع البحث بحسب مذهبهم، فقد قال الفخر الرّازي مثلاً: «*أمّا الأصحاب فقالوا: دلّت الدلائل العقلية على وقوع التكليف على هذا الوجه، فوجب المصير إلى تأويل هذه الآية؛ الحجة الأولى: أنّ مَن ماتَ على الكفر ينبيء موته على الكفر أنّ الله تعالى كان عالماً في الأزل بأنّه يموت على الكفر ولا يُؤمن قطّ، فكان العلم بعدم الإيمان موجوداً، والعلم بعدم الإيمان يُنافي وجود الإيمان على ما قررناه في مواضع، وهو أيضاً مقدّم بيّنة بنفسها، فكان تكليفه بالإيمان مع حصول العلم بعدم الإيمان تكليفاً بالجمع بين النقيضين، وهذه الحجّة كما أنّها جارية في العلم فهي أيضاً جارية في الجبر. الحجة الثانية: أنّ صدور الفعل عن العبد يتوقّف على الداعي، وتلك الداعية مخلوقة لله تعالى ومتى كانَ الأمر كذلك كان تكليف ما لا يُطاق لازماً، إنّما قلنا: إنّ صدور الفعل عن العبد يتوقّف على الداعي لأنّ قدرة العبد لمِا كانت صالح للفعل والتَّرْك، فلو ترجّح أحد الجانبيْن على الآخر من غير مرجّح لَزِمَ وقوع الممكن من غير مرجّح وهو نَفي الصّانع، وإنّما قلنا: إنّ تلك الداعية من الله تعالى لأنّها لو كانت من العبد لافتقر إيجادها إلى داعية أخرى ولزم التسلسل، وإنّما قلنا: إنّه متى كان الأمر كذلك لزم الجبر، لأنّ عند حصول الداعية المرجّحة لأحد الطرفين صار الطرف الآخر مرجوحاً، والمرجوح ممتنع*

---

١ . سورة الأنبياء ﷺ، الآية ٢٣.



الوقوع، وإذا كان المرجوح ممتنعاً كان الراجح واجباً ضرورة أنّه لا خروج عن النقيضيْن، فإذن، صدور الإيمان من الكافر يكون ممتنعاً وهو مُكَلَّف به، فكان التكليف تكليف ما لا يُطاق... فعلمنا أنه لا بدّ للآية من التأويل، وفيه وجوه: الأول: وهو الأصْوَب: أنّه قد ثبتَ أنّه متى وقع التعارض من القاطع العقلي والظاهر السّمعي، فإمّا أن يصدّقهما، وهو مُحال، لأنه جَمْعٌ بين النقيضيْن، وإمّا أن يكذّبهما، وهو مُحال، لأنّه إبطال النقيضيْن، وإمّا أن يكذّب القاطع العقليّ ويرجّح الظاهر السمعيّ، وذلك يُوجِب تطرّق الطعن في الدلائل العقلية، ومتى كان كذلك بطلَ التوحيد والنبوة والقرآن، وترجيح الدليل السمعيّ يُوجِب القدح في الدليل العقلي والدليل السمعي معاً فلم يَبْقَ إلّا أن يُقْطَع بصحّة الدلائل العقلية، ويُحمَل الظاهر السمعيّ على التأويل، وهذا الكلام هو الذي تعوّل المعتزلة عليه أبداً في دفع الظواهر التي تمسك بها أهل التشبيه. فبهذا الطريق علمنا أنّ لهذه الآية تأويلاً في الجملة، سواء عرفناه أو لم نعرفه، وحينئذ لا يحتاج إلى الخوض فيه على سبيل التفصيل»[1].

وفيما يأتي نستعرض أدلّة الأشاعرة حول إثبات الجَبر ثمّ نقوم بنَقدها واحدة تِلو الأخرى:

الدّليل الأوّل: قولهم «أنّ مَن ماتَ على الكفر ينبىء موته على الكفر أنّ الله تعالى كان عالماً في الأزل بأنّه يموت على الكفر ولا يُؤمن قطّ، فكان العلم بعدم الإيمان موجوداً، والعلم بعدم الإيمان يُنافي وجود الإيمان على ما قرّرناه في مواضع، وهو أيضاً مقدّم بيّنة بِنَفسها، فكان تكليفه بالإيمان مع حصول العلم بعدم الإيمان تكليفاً بالجمع بين النقيضين، وهذه الحجّة كما أنّها جارية في العلم فهي أيضاً جارية في الجبر». ويشبه ما قاله الفخر الرازي في حجّته الأولى إلى حدّ

---

١ . **التفسير الكبير**، مج٤، ج٧، ص١٥٢.

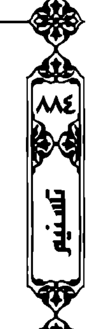


كبير ما كان متداولاً من الكلام على هيأة الشّعر أحياناً أو النّثر في أحيان أخرى وهو: هل كان الله سبحانه يعلم منذ الأزل بمعصية شخص ما أم لا؟ فإن قيل «لا، لم يكن يعلم» كان ذلك دالّاً على محدودية علم الله سبحانه وبالتالي اعتبار اقتراف المُذنب للذّنب أمراً ضرورياً إذ لا بدّ من أن يتطابق علم الله تعالى مع المعلوم، وعليه، فإنّ عدم تحقّق الذّنب يعني جهل الله ـ حاشا له ـ إذاً، لا بدّ من ظهور عصيان الشخص المُذنب واستحالة عدم ارتكابه للذّنب وعدم عصيانه في الوقت نفسه وإن كان مُكلّفاً بالطاعة وعدم العصيان؛ وهكذا فإنّه يجوز التكليف بما لا يُطاق.

يمكننا الإجابة على الدليل الذي قدّمه الرازي نقضاً وحَلًّا، وفي الواقع فإنّ كلامه هذا أقرب إلى الشبهة منه إلى الدّليل:

فأمّا الجواب النّقضيّ، فهو أنّ علم الله سبحانه الأزليّ ليس دليلاً على الجَبر إطلاقاً، لأنّ الحقّ ﷻ عالِم كذلك بأفعاله منذ الأزل، وبالاستناد إلى استدلال الأشاعرة فإنّه في حال عدم وقوع ذلك الفعل يُعتبر علم الله جهلاً ـ والعياذ بالله ـ وإذا افترضنا وقوع الفعل المذكور فإنّ ذلك يعني أنّ الله تعالى مُجبَر على أفعاله، رغم أنّ الأشاعرة أنفسهم لا يعتقدون بأنّ الله مُجبَر إطلاقاً.

وأمّا جوابنا الحَلّي فهو: أنّ الله سبحانه يعلم منذ الأزل الظروف والأحوال التي ستقع فيها الأحداث جميعاً وما من موجود إلّا وهو معلوم بالنسبة إلى الله ﷻ، لكنّ كلّ حَدث من تلك الأحداث يكون معلوماً بالنسبة إلى الله تعالى وفقاً لمبادئ خاصّة ومُعيّنة، فمثلاً يحتاج نوع خاصّ من التراب إلى ظروف خاصّة ووقت مُعيّن لكي يتحوّل إلى الذّهب أو الفضّة، ونفس الشيء يُقال عن أيّ موجود سيتحوّل فيما بَعد إلى نوع مُعيّن من النّبات أو النّبات الذي ستتهيّأ له ظروف مُعيّنة للتلقيح والإثمار أو الحيوان الذي سيكون قادراً على الصّيد في



الصحراء أو الفلاة الفلانية خلال ظرف ووقت مُحدّدين؛ كلّ تلك المسائل تُعتبر معلومة عند الله سبحانه منذ الأزل بكلّ مبادئها وعللها القريبة والبعيدة.

بالإضافة إلى ما قيل، فإنّ الحقّ تعالى عالِم أيضاً بطاعة زَيد وعصيان عَمرو والأسباب التي أدّت بكلّ واحدٍ منهما إلى سلوك هذا المسلك فضلاً عن عِلمه ﷻ بالاختيار والإرادة اللتيْن يتمتّع بهما كلّ شخصٍ من زَيد وعمرو في القيام بفعل ما أو الاحجام عنه؛ بل إنّ كلّ ما تقوم به الملائكة ومنها المدبّرات للأمر[1] والعِباد المُكرَمون[2] لا يكون إلّا بإذن من الله سبحانه: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[3] وهي معلومة عنده تعالى بكلّ تفاصيلها وعِللها، قريبها وبعيدها، صغيرها وكبيرها؛ إذاً، ما مِن عمل إلّا وهو معلوم عند الله ﷻ بمبادئه وعِلله.

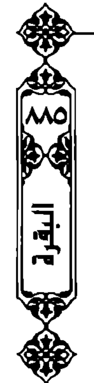
وكذلك الحال فيما يتعلّق بطاعة الإنسان المُتّقي أو بعصيان الشخص الفاسق، فإنّ الحقّ تعالى يعلم منذ الأزل أنّ زَيداً سيبلغ مُفترَق الطريق الذي يؤدّي أحدهما إلى الطاعة ويؤدّي الآخر إلى العصيان، وأنّ الشيطان الرّجيم سيُوسوس له من الدّاخل وسيقوم أصحابه الجاهلون أو أعداؤه العالِمون بتحريكه وتشجيعه من الخارج، إلّا أنّ زَيداً سيعمد باختياره وإرادته في النهاية إلى غَلق جميع الطرق المؤدّية إلى الفساد والعصيان وسيسير في الصراط المستقيم. والله سبحانه عالِم كذلك بأنّ عَمرواً ورغم امتلاكه للعقل في الدّاخل ووجود الوَحي الإلهيّ في الخارج ودعوتهما له إلى الفضيلة، ورغم قدرته واختياره على الامتثال للأمر والخضوع للحقيقة، سيستجيب عمروٌ لوساوس عدوّه الداخليّ

---

١ . ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾. (سورة النازعات، الآية ٥).

٢ . ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾. (سورة الأنبياء عليهم السلام، الآيتان ٢٦ و٢٧).

٣ . سورة الأنبياء عليهم السلام، الآية ٢٧.



وسيستسلم لإغراءات أعدائه وغوايتهم له في الخارج وسيرتكب المعصية الفلانية بسوء اختياره وقُبح إرادته.

والحاصل، أنّ أفعال الإنسان كلّها تتضمّن مبادئ مُعيّنة وظروفاً خاصّة ومنها «الاختيار»، وأنّ الله سبحانه عالِمٌ بأنّ الشخص الفلانيّ سيُطيع أو يعصي باختياره ورغبته وإرادته، وعليه، يكون صدور ذلك الفعل عن ذلك الشخص ووفقاً لتلك الظروف والمبادئ أمراً ضرورياً وإلّا فإنّ عِلم الله سبحانه سيُفَسّر بالجهل ـ والعياذ بالله. وهكذا يتبيّن لنا أنّ الإنسان وبالاستناد إلى هذا البرهان، مختار بالضرورة وليس مجبوراً بالفطرة.

نعم، فبالرّغم من أنّ الله ﷻ قادر على التأثير مهما كانت الظروف إلّا أنّ قدرته تلك لا تكون إلّا بموازاة حريّة الإنسان واختياره، فهو القائل سبحانه: **﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾**[1] و**﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾**[2] وهذا يشير إلى أنّ كلّ إنسان هو المسؤول الأوّل والأخير عن أفعاله.

إنّ الذين يختارون طريق الخير ويُفضّلون السّير في الصراط المستقيم بإرادتهم وحريّتهم، فإنّ الله تعالى سيُعينهم ويوفّقهم للاستمرار في ذلك ويمنع الوساوس من الوصول إليهم، وإذا وصلتهم وحاولت إغراءهم فإنّ الله سبحانه سيمنحهم القدرة والقوّة على المقاومة والصّمود؛ وأمّا أولئك الذين اختاروا طريق الشرّ وسلكوا سبيل الفتنة بإرادتهم وظلّوا عاكفين عليها سنين طويلة حتى أصبح ذلك جزءاً من حياتهم، فإنّ الله ﷻ سيحرمهم من توفيقه ولن يمنحهم فيضه وكَرمه.

---

١ . سورة الإنسان، الآية ٣.

٢ . سورة الكهف، الآية ٢٩.



الدّليل الثاني: قول الأشاعرة: «إنّ صدور الفعل عن العبد يتوقّف على الداعي، وتلك الداعية مخلوقة لله تعالى ومتى كانَ الأمر كذلك كان تكليف ما لا يُطاق لازماً»[1]

ونجيب على هذا الكلام بالقول: ترتبط الظواهر وعللها وأسبابها في عالَم الإمكان بالله سبحانه وتعالى: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2] فالله ﷻ، وبالأسباب والعِلل اللازمة، قادر على جعل الحجر عقيقاً أحمر في (بَدَخْشان)[3] أو اليمن وتحويل النّواة إلى قِنْوٍ[4] وخَلق الشّجرة من غُصن صغير، وهو الذي يهدي كلّ مخلوق إلى مَرعاه ومصدر رزقه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾[5].

كما أنّ تدبير أمور الملائكة وشؤونهم بما في ذلك مبادئ أفعالهم كلّها بيَد الله سبحانه، وهو الذي يهدي الإنسان إلى مُفتَرق الطاعة والمعصية، وهو الذي يُمهله للامتثال لأوامره ونواهيه حتى بلوغه ذلك المُفترق وقبل البدء في الفعل: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ﴾[6] و﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[7]

---

١ . الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، مج٤، ج٧، ص١٥٢.

٢ . **سورة الزّمر**، الآية ٦٢.

٣ . منطقة تاريخية تضمّ أجزاءً من ما هو الآن شمال شرق أفغانستان وجنوب شرق طاجيكستان، ذكرها ياقوت الحموي في معجمه قائلاً: «بُدَخْكَث: بالضمّ ثمّ الفَتْح وخاءٌ مُعجمة ساكنة وكافٌ مفتوحة وثاءٌ مثلثة، من قُرَى اسفيجاب أو الشاش، واسفيجاب اسم بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان ولها ولاية واسعة وقُرًى كالمُدن كثيرة». [المترجم]

٤ . العِذْق، وهو من النّخل كالعُنقود من العنب. (**معجم النّفائس الكبير**، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد أبو حاقّة، مادّة «ق ن و»). [المترجم]

٥ . **سورة هود** ؑ، الآية ٦.

٦ . **سورة البقرة**، الآية ٤٣.

٧ . **سورة التّغابن**، الآية ١٢.

و﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾[1]، ولكن، بعد أن يشرع المرء بالقيام بالفعل باختياره وإرادته يصبح كلّ شيء واضحاً وعندها يسقط التكليف بالامتثال أو العصيان.

إذاً، فالإنسان مُخيّر ومُكَلَّف قبل قيامه بالفعل وليس بعده حيث يسقط التكليف بعد الطاعة أو العصيان، كأن يُقال للشخص مثلاً قبل أن يبدأ بالكلام: «يجب عليك أن تقول الصّدق واعلم أنّ الكَذب حرام!» فهذا تكليف، ولكن بعد أن يتكلّم ويصدق في كلامه أو يكذب، يسقط عنه التكليف.

والخلاصة أنّ نتيجة عمل الإنسان مرتبطة بالله سبحانه، بعلله ومبادئه الخاصّة، ولا يقتصر الارتباط فقط بأصل العمل دون علله المتوسطة. ورغم أنّ الإرادة والتصميم واتّخاذ القرار لأداء الفعل مع قدرته على ترك الفعل أو العزم على تركه مع قدرته على الأداء، جزءاً لا يتجزّأ من المبادئ الثابتة في فعل الإنسان، فإنّ ذلك يعود في النهاية إلى الله ﷻ مع الاحتفاظ بجميع تلك المبادئ الإرادية والاختيارية.

الدّليل الثالث: قولهم: *«إنّه تعالى كلّفَ أبا لَهب الإيمان، والإيمان تصديق الله في كلّ ما أخبرَ عنه، وهو ممّا أخبرَ أنه لا يُؤمن* **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾**[2]، *فقد صارَ أبو لَهب مُكلّفاً بأن يُؤمن بأنّه لا يُؤمن، وذلك تَكليف ما لا يُطاق»*[3].

وجواباً على هذا الكلام نقول: إنّ الآيات الشريفة في سورة (المَسد) هي نفسها دليل ساطع على أنّ أبا لهب مُخيّر غير مُجبَر لأنّ الآيات المذكورة تُنسِب

---

١ . سورة الشّعراء، الآية ١٥١.

٢ . سورة المسد، الآيات من ١ إلى ٣.

٣ . التفسير الكبير، مج٤، ج٧، ص١٥٢.



الفعل إليه شخصيّاً وبصراحة: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ أي إنّ مالَه وما كان يملكه من الثروة لم يشفعا له ولم ينفعاه ممّا حُذِّرَ منه؛ إذاً، فرغم أنّ أبا لَهب كان بإمكانه ألّا يزجّ بنفسه إلى النار لكنّه سيَردها وسيدخل النار حتماً لسوء اختياره وفساد رأيه. وهكذا فإنّ علم الله سبحانه يتبع المعلوم من هذه الناحية، وهو تعالى عالِم بوضع المعلوم وما هو عليه من الحال مهما تغيّرت أوضاعه وتبدّلت أحواله.

وجدير بالذكر أنّ الجواب الذي قدّمه المُحقّق الطوسيّ ﵀ يستند كذلك إلى هذه المبادئ إذ قال: «إنّ الله تعالى إنّما يريد الطاعة من العَبد على سبيل الاختيار وهو إنّما يتحقّق بإرادة المكلَّف، ولو أرادَ الله تعالى إيقاع الطاعة من الكافِر مُطلقاً، سواء كانت عن اختيار أم اجبار، لوقعت، وعلم الله سبحانه تابع لا يُؤثر في إمكان الفعل»[1].

قال الشيخ جعفر كاشف الغطاء ﵀: «عَن أبي حمزة الثّمالي عن سُويد بن غفلة قال: كنتُ أنا عند أمير المؤمنين عليه السلام إذ أتاه رَجل فقال: يا أمير المؤمنين! جِئْتُكَ من وادي القُرى وقد ماتَ خالد بن عرفطة! فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **إنّه لَم يَمُت**. فأعادَ عليه الرّجل، فقال عليه السلام له: **لَم يَمُت!** وأعرض عنه بوجهه. فأعادَ عليه الثالثة فقال: سُبْحانَ الله، أُخبرِكَ أنّه قَد ماتَ وتقول لَم يَمُت؟ فقال علي عليه السلام: **وَالّذي نَفْسي بِيَدِه لا يَموتُ حَتّى يَقود جَيْش ضَلالَة حَمَلَ رايتَه حَبيب بن جماز**. قال: فَسَمِع ذلك حَبيب بن جماز فأتَى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: أنشدكَ الله فيّ فإني لَكَ شِيعة وقد ذَكَرتَني بأمرٍ لا وَالله لا أعْرفه مِن نَفسي. فقال له علي عليه السلام: **وَمَن أنْتَ؟** قال: أنا حَبيب بن جماز. فقال له علي عليه السلام: **إنْ كُنْتَ حَبيب بن جماز فَلا يَحْملها غَيركَ أو فَلتحملنها**. فولّى عنه حبيب وأقبل أمير

---

١ . راجع: العلّامة الحليّ، **كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد**، ص٣٠٧.



المؤمنين عليه السلام يقول: **إنْ كُنْتَ حَبيب لَتحملنها**. قال أبو حمزة: فَوالله ما ماتَ خالد بن عرفطة حتى بَعثَ عُمر بن سعد إلى الحسين بن علي عليهما السلام وجَعل خالد بن عرفطة على مُقدّمته وحبيب بن جماز صاحب رايته»[1].

وأهل البيت عليهم السلام كذلك يعلمون أنّ الشخص الفلانيّ سيقوم بالفعل الفلانيّ بسوء اختياره وجهل تدبيره إلّا أنّ عِلمهم هذا لا يعني سَلب الاختيار من ذلك الشخص إطلاقاً. والشيء نفسه يُقال عن أبي لَهب حيث إنّ الله سبحانه يقول له في الحقيقة: لا تُلقِ بنفسك إلى جهنّم، ولكنّك ستفعل. ولم يكفر أبو لَهب ولم يُصرّ على شِركه بإجبار من الله تعالى بل إنّ الله عزّ وجلّ يعلم أنّ أبا لَهب سيكفر ويصرّ على كُفره وعناده بسوء اختياره ولهذا تؤكّد الآية الشريفة قول الله سبحانه: ﴿**سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ**﴾ رغم أنّ التكليف لم يسقط عنه حتى آخر لحظة في عُمره.

وهكذا نرى أنّ الأدلّة التي أتى بها الفخر الرازي لتأويل الآية الشريفة الّتي هي موضوع البحث هي مجرّد شبهات واهية لا أساس لها من الصحّة.

٢. تأويل المعتزلة للآية

كما هو معروف فإنّ المعتزلة يَرون أنّ هذه الآية الشريفة تشير إلى اختيار الإنسان واستقلاليّته الكاملة لأنّ الله سبحانه كلّفَ الإنسان وقدّم له الوَعد والوعيد على الطاعة والعصيان[2]. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإنّ هناك

---

١. أنظر: الشيخ المفيد، **كتاب الاختصاص**، ص٢٨٠؛ قطب الدين الراونديّ، الخرائج والجرائح، ج٢، ص٧٤٥؛ الشيخ جعفر كاشف الغطاء، **كشف الغطاء**، ج١، ص١٠٦.

٢. الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، مج٤، ج٧، ص١٥١. ذُكرت قدرة الإنسان واستقلاليّته في علم الكلام في بحث لزوم القدرة قبل الفعل أو في حال الأمر أو في حال الامتثال، وكذلك في بحث موضوع الطلب والإرادة.



الطاعة والعصيان وأنّ هناك الثواب والعقاب والجنّة والنّار، ولذلك فإنّ الإنسان مُستقلّ وحُرّ، ولأجل هذا الاستقلال بالذات فإنّ التكليف المفروض عليه ليس ممّا لا يُطاق، ولولا ذلك لكان الإنسان مجبوراً في أيّ تكليف يكون أكبر من طاقته؛ إذاً، بما أنّ التكليف موجود فإنّ الإنسان أيضاً مستقلّ وقادر.

وحيث إنّ المعتزلة يعتقدون بصحّة آرائهم هذه ويرون أنّها قاطعة وحاسمة مَثلهم في ذلك مَثل الأشاعرة، فإنّهم لا يتورّعون عن تأويل الآيات التي تتعارض مع مبادئهم وآرائهم.

وأمّا الشيعة الإمامية التي تؤيّد ما ذهب إليه المعتزلة من إبطال لمذهب الجَبر، فترى أنّه من الصعوبة بمكان فَهم كلام الله سبحانه إلّا بالاستناد إلى تعاليم المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام باعتبارهم القرآن النّاطِق؛ فوفقاً لأحاديث المعصومين عليهم السلام وتعاليمهم تعتقد الإمامية أنّ ما ذَكرته المعتزلة يُعدّ باطلاً لأنّ التكليف المقدور عليه حقّ وبُطلان التكليف الخارج عن طاقة الإنسان لا يعني استقلالية هذا الأخير ليُمكن بذلك نسبة فعله إليه وحده دون أيّ ارتباط يُذكَر بالله عزّ وجلّ، بل الحقيقة هي أنّ كلّ ممكن الوجود يكون معلولاً للواجب سواء أكان ذلك بواسطة أم لم يكن كذلك، وعليه، ينبغي عَوده إلى علّته الأولى (أي الواجب).

وأمّا بيان المعتزلة حقيقة التكليف وأصله فإنّه لم يَقِهم من السقوط في حبائل التفويض دفعهم إلى اعتبار الإنسان فاعلاً مُستقلاً في أداء أفعاله وهذا ـ كما هو واضح ـ يعني نَفي التوحيد الأفعاليّ، إذ بالاستناد إلى فكرة التفويض فإنّ كلّ شخص يُعتبر رَبّ نَفسه هو، ومثل هذا الرّأي هو أسوأ حالاً وأقبح منطقاً من الشّرك وتعدّد الآلهة، إذ المشركون كانوا يؤمنون بعدد محدود من الآلهة بينما لا حَدّ ولا حَصر للأرباب التي يعترف بها المعتزلة إذا علمنا أنّ كلّ واحد من النّاس هو رَبّ نفسه.



وهنا يتبيّن لنا أنّ التفويض هو أعظم خطراً من مَذهب الجَبر، لكنّ الطريف أنّ المعتزلة يرون أنّ الجَبر والتفويض نَقيضان وأنّه مع بطلان الجَبر فإنّه من الواجب اللجوء إلى التفويض. واستناداً إلى مذهب الجَبر يُعتبر الإنسان «مَورد» الفعل لا «مَصدره» وقد نسبت الجَبرية كلّ أفعال الإنسان إلى الله سبحانه مُصرّحة بأنّ الإنسان ليس سوى آلة أو أداة؛ لكن لا يخفى أنّ هناك بَوناً شاسعاً بين كلّ من الجَبر والتفويض ومسافة كبيرة كالتي بين السّماء والأرض[1]، وعلى المرء أن يُفكّر ويتأمّل ليأمن الوقوع في خطر الجَبر والتفويض واختيار «الأمر بين الأمريْن»[2] في الصّراط المستقيم.

هذا، ولأجل أن يكون التكليف صحيحاً فإنّ الإنسان بحاجة إلى الحريّة وليس الاستقلال فعمل الإنسان صادر عنه هو باعتباره المبدأ الاختياريّ لظهور الفعل لا أن يكون مستقلّاً بحيث لا يرتفع عمله عن مستواه فيكون بذلك بمثابة نهاية المطاف لأفعاله، فالآية الشريفة: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ والآيات الأخرى تشير إلى مسألة التكليف وبطلان جَبر الأشاعرة وتفويض المعتزلة.

٣. نَقد مَن قال بالمؤاخذة على الخطأ والنسيان

قال أحد المُفسّرين المُعاصرين: «وَكَذَلِكَ الْخَطَأُ يَنْشَأُ مِنَ التَّسَاهُلِ وَعَدَمِ الِاحْتِيَاطِ وَالتَّرَوِّي، وَلِذَلِكَ أَوْجَبَتِ الشَّرِيعَةُ الضَّمَانَ فِي إِتْلَافِ الْخَطَأِ وَالدِّيَةَ فِي

---

١. «عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ وَأَبِي عَبْدِ الله عليهما السلام قَالَا: إِنَّ اللهَ أَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنْ أَنْ يُجْبِرَ خَلْقَهُ عَلَى الذُّنُوبِ ثُمَّ يُعَذِّبَهُمْ عَلَيْهَا، وَاللهُ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يُرِيدَ أَمْراً فَلَا يَكُونَ. قَالَ: فَسُئِلَا عليهما السلام: هَلْ بَيْنَ الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ مَنْزِلَةٌ ثَالِثَةٌ؟ قَالَا: نَعَمْ، أَوْسَعُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». [المترجم]. (الشيخ الصّدوق، كتاب التوحيد، ص٣٦٠).

٢. أصول الكافي، ج١، ص١٥٩ ـ ١٦٠.



جِنَايَتِهِ... وَكَذَا فِي الْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ، فَثَبَتَ أَنَّ الْمُؤَاخَذَةَ عَلَى النِّسْيَانِ وَالْخَطَأِ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ وَجَرَى عَلَيْهِ عُرْفُ النَّاسِ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ وَقَوَانِينِهِمْ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ كُلٌّ مِنَ النَّاسِي وَالْمُخْطِئِ مُقَصِّرًا لَمَا كَانَ هَذَا، وَكَمَا جَازَ ذَلِكَ وَحَسُنَ يَجُوزُ أَنْ يُؤَاخِذَ اللهُ النَّاسَ فِي الْآخِرَةِ بِكُلِّ مَا يَأْتُونَهُ مِنَ الْمُنْكَرِ نَاسِينَ تَحْرِيمَهُ أَوْ وَاقِعِينَ فِيهِ خَطَأً... فَإِنَّ هَذَا الدُّعَاءَ يُذَكِّرُنَا بِمَا يَنْبَغِي مِنَ الْعِنَايَةِ وَالِاحْتِيَاطِ وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّذَكُّرِ لَعَلَّنَا نَسْلَمُ مِنَ الْخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ أَوْ يَقِلُّ وُقُوعُهُمَا مِنَّا فَيَكُونُ ذَنْبًا جَدِيرًا بِالْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ، فَهَذَا الدُّعَاءُ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حُكْمَ اللهِ فِي النِّسْيَانِ وَالْخَطَأِ أَلَّا يُؤَاخِذَ عَلَيْهِمَا»[1].

وفي الجواب على هذا الكلام نقول: إنّ موضوع الآية وموردها هو الحكم التكليفيّ لا الوضعيّ، أي، إذا قام أحدهم بإتلاف مال الآخرين عن عَمْد فتلزم حينئذ مُعاقبته وفي الوقت نفسه يكون ضامناً للإتلاف، لكن إذا كان إتلافه للمال ناجماً عن الخطأ أو النسيان فلا شيء عليه وإن لم يسقط الضّمان عنه. فالشخص النائم الذي يركل برجله كأساً لشخص آخر فيتسبّب في كَسره، أو الطفل الذي يؤدّي إلى إتلاف مال الآخرين، كلاهما ضامنان لذلك المال. وإذا أُجبِرَ الصّائم أو اضطُرّ إلى الإفطار في غير موعد الإفطار فلا تَجب عليه الكفّارة التي تُعدّ نوعاً من العقوبة، لكنّه مُلزَم بقضاء ذلك الصّوم فيما بَعد؛ ونفس الشيء يُقال عَمّن أُكرِهَ على القيام بعمل ما فإنّ الأثر الوضعيّ لذلك ثابت وواضح.

والخلاصة هي أنّ الآية الكريمة الّتي هي موضوع البحث تتناول مسألة الجزاء الأُخرويّ وأمّا ما ورد في الشّرع حول الخطأ والنسيان فيندرج ضمن الأحكام الوضعية والضمانات ولا علاقة لذلك بالجزاء الأُخرويّ لا من بعيد ولا من قريب.

---

١ . محمد رشيد بن علي رضا، تفسير المنار، ج٣، ص١٤٩.

وقد جاء في الروايات المتعلّقة بهذه الآية الشريفة أنّ النبيّ الأكرم ﷺ قد تَلى هذا الدّعاء خلال معراجه وأنّ الله ﷻ أكرمه بالاستجابة[1]. وفيما يتعلّق بالخصال التسع التي وُضِعَت عن أمّة الرّسول ﷺ كما في الحديث المذكور فهي جميعاً أحكام تكليفية، وما كان الخلاف المعروف بين الشيخ الأنصاريّ والآخوند الخُراساني ﷺ إلّا بشأن عبارة «**وَمَا لا يَعْلَمون**» وما إذا كان الحكم التكليفيّ هو الوحيد الذي تمّ رَفعه أم إنّ ذلك شَمِل الحكم التكليفيّ والوَضعيّ معاً.

تذكير: تجدر الإشارة هنا إلى أنّه لا علاقة بين الأحكام الثانوية والأحكام الوضعية لأنّ هذه الأخيرة هي أحكام أوّلية، فقد بيّن الله سبحانه أنّ بعض الأشياء طاهر وبعضها نجسٌ وأنّ قسماً منها يؤدّي إلى الضمان ولكن ليس القسم الآخر منها كذلك؛ وعليه، فإذا تسبّب شخص بإتلاف مال شخص آخر خطأً فإنّ الشخص الأوّل يُعتبر ضامناً وفقاً للقاعدة المعروفة: «**عَلى اليَدِ ما أخَذَتْ حَتى تُؤَدّيه**»، فإذا رفض المعنيّ بالضمان قبول الضّمان عن عَمد فإنّه آثِم ويُعاقَب على ذلك لأنّ حديث الرّفع يشير إلى الامتنان على الأُمّة وعندما يتسبّب شخص بإتلاف مال الآخرين خطأً أو بسبب النسيان فإنّ الامتنان المذكور لا يعني رفع الضّمان عنه، ولذلك لا يجب النّظر إلى الامتنان من ناحية واحدة.

ويُستَنتَج من هذا كلّه أنّ طلب المؤمنين بعدم مؤاخَذتهم لا يكون إلّا في حال توفّر الظروف للعقاب والمؤاخَذة، ولا يكون ذلك إلّا فيما يتعلّق بالحكم التكليفيّ لا الوَضعيّ.

٤. ارتباط الدّعاء بالجلال والجمال الإلهيّيْن

تناولت سورة (البقرة) وفي العديد من آياتها موضوع الدّعاء وتشعّباته ثمّ

---

١. راجع: **تفسير القمي**، ج١، ص٩٥؛ **بحار الأنوار**، ج١٨، ص٣٢٩.



وردت جملة من الأدعية الأخرى كذلك في نهايتها، فتارة كان للدّعاء ارتباطٌ واضحٌ مع جلال الله سبحانه وعظمته كطلب عفوه تعالى، وتارة أخرى كان الدّعاء مرتبطاً بجمال الله ﷻ ورحمته كطلب الرّحمة والرّأفة. ومن بين الأدعية الواردة هي جملة في ذيل الآية الّتي هي موضوع البحث فإنّ تلك الجملة التي تبدأ بكلمة ﴿رَبَّنا﴾ مثل الدّعاء بعدم المؤاخَذة على النسيان والخطأ وطلب رفع التكاليف الشاقّة التي لا يُطيقها المؤمنون، هي أدعية تتعلّق بالجلال الإلهيّ فيما يرتبط الدّعاء بالعفو والمغفرة والرّحمة بالجمال الإلهي لأنّها لا تبدأ بكلمة ﴿رَبَّنا﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ﴾.

وأمّا السرّ في حذف حرف النّداء في الدّعاء المذكور فهو تحوّل النداء إلى مُناجاة، فمن آداب الدّعاء أن يدعو الإنسان ربّه بصوت عالٍ إذا كان يشعر بالبُعد عنه وقد يُستعمَل حرف النّداء في هذه الحالة فيُقال «يا رَبِّ» أو يُحذَف ويُكتَفى بالقول «رَبِّ»، ولكن، عندما يُحسّ الدّاعي بأنّه قريب من الله ﷻ فإنّه يَخفض صوته أو يَستعيض بالنّجوى بدلاً من الدّعاء، ولهذا ورد في آداب الدّعاء ضرورة أن يبدأ الشخص دعاءه بذكر كلمة «يا رَبِّ» عَشر مرّات ثمّ يقول: «رَبِّ».

بحث روائيّ

١ . حديث الرّفع

عَن عمرو ابن مروان الخزاز قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام قال: «**قالَ رَسول الله ﷺ: رُفِعَت عَن أُمّتي أَرْبَع خِصالٍ: ما أَخْطَئوا وَمَا نَسُوا وَمّا أُكْرِهُوا عَلَيهِ وَلَمْ يُطِيقُوا وَذلِكَ في كِتابِ الله قَوْل الله تَبارَكَ وَتَعالى: ﴿رَبَّنا لا تُؤاخِذنا إنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَلا تَحْمِل عَلَيْنا إِصْرًا كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذينَ مِن قَبْلِنا رَبَّنا وَلا**

تُحَمِّلْنا مَا لا طاقَةَ لَنا بِهِ﴾ وَقَوْل الله: ﴿إِلّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمان﴾[1] »[2].

ـ عَن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قالَ رَسول الله صلى الله عليه وآله: **رُفِعَ عَن أُمّتي تِسْعَة: الخَطَأ وَالنِّسْيان وَمَا أُكْرِهُوا عَلَيهِ وَمَا لا يُطِيقُونَ وَمَا لا يَعْلَمُونَ وَمَا اضْطُرّوا إلَيْه وَالحَسَد وَالطِّيَرة وَالتّفَكّر في الوَسْوَسَة في الخَلْق مَا لَم يُنْطَق بِشِفة**»[3].

إشارة: ما لَم يتسبّب الخطأ والنسيان والإكراه والعَجز والجَهل والاضطرار والحَسد في الضّرر بشكل عَمليّ، وما لَم يظهر سوء الظنّ بالآخرين والتفكير السقيم والشكّ في الخِلقة على اللّسان ـ وفقاً لبعض الروايات ـ فإنّ كلّ تلك الأمور تندرج في لائحة الخِصال التسع المذكورة في الحديث الشّريف التي مَنّ بها الله العليّ القدير على أمّة رسوله الكريم صلى الله عليه وآله ووعدَ بعدم نزول عقابه على مُرتَكبها.

وجدير بالذّكر أنّ الأُمم السابقة كانت تُؤاخَذ على نسيانها وخطئها، بل وتُعاقَب عليهما، لكنّ الله سبحانه أراد أن يُكرّم رسوله العزيز صلى الله عليه وآله ويُبيّن جلال قَدره وشموخ مقامه فرفع عن أُمّته العقاب بسبب النسيان أو الخطأ كما أنّه عزّ وجلّ مَنّ كذلك برَفع الكثير من العقوبات الصارمة والأحكام الشاقّة التي كانت مفروضة على الأُمم الماضية.

٢ . تكليف الناس بأقلّ من الوُسع

عَن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**مَا أُمِرَ العِبادُ إلّا بدوُن سِعَتِهم؛ فَكُلّ شَيءٍ أُمِرَ النّاسُ بِأَخْذِهِ فَهُم مُتّسعون لَه وَمَا لا يَتّسعون لَه فَهُو مَوضُوعٌ عَنهم؛ وَلكِنّ النّاسَ لا خَيْرَ فِيهِم**»[4].

---

١ . سورة النّحل، الآية ١٠٦.

٢ . تفسير العياشي، ج١، ص١٦٠؛ أنظر كذلك: أصول الكافي، ج٢، ص٤٦٢ ـ ٤٦٣.

٣ . كتاب التوحيد، ص٣٥٣؛ راجع أيضاً: أصول الكافي، ج٢، ص٤٦٣.

٤ . كتاب التوحيد، ص٣٤٧.



إشارة: لم تُوضَع التكاليف الإلهيّة أكثر من وُسع المَرء بل وليست بقَدر وُسعه كذلك إنّما هي في الحقيقة أقلّ من وُسع الناس ولكن لا خَيْر في النّاس ـ كما قال الإمام عليه السلام.

٣. نَفي الجَبر والتفويض

عَن عُبيد بن زرارة قال: حَدّثني حمزة بن حمران قال: سَألتُ أبا عبد الله عليه السلام عَن الاستطاعة... فقُلتُ: أَصلحَكَ الله فإنّي أَقول إنّ الله تَبارك وتعالى لم يكلّف العبادَ إلّا ما يَستطيعون وإلّا ما يُطيقون فإنّهم لا يَصنعون شَيئاً من ذلك إلّا بإرادة الله ومَشيته وقَضائه وقَدَره. قال: «**هذا دِينُ الله الّذي أَنا عَلَيه وَآبائي**»[١].

إشارة: إنّ الله الرّحمن الرّحيم لا يُكلّف عباده إلّا بقَدر طاقتهم واستطاعتهم وليس بمقدورهم أن يفعلوا شيئاً إلّا بإرادته ومشيئته وقضائه وقَدره. ومن الواضح أنّ هذه الرواية بالذات تَنفي مسألة الجَبر والتفويض.

٤. شمولية سورة (البقرة)

رُوي عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: كانَ الرّجلُ إذا تَعَلّمَ سُورَةَ البَقَرة جَدّ فِينا؛ أيّ عظم[٢].

إشارة: لا تقتصر عظمة سورة (البقرة) وشموليّتها على كونها أطول سُوَر القرآن الكريم وحسب، بل لكون هذه السورة الشريفة تتضمّن الكثير من المعارف الدينية التي لا توجد في السّور الأخرى، أهمّها تعليم آدم عليه السلام الأسماء وإنبائه الملائكة بتلك الأسماء وما شابه ذلك.

* * *

---

١. كتاب التوحيد، ص٣٤٦.

٢. تفسير مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٦٩٢.

نظرة على بعض المعارف في سورة البقرة

أوّلاً: يمكن تشبيه سُوَر القرآن الكريم بأسماء الله الحسنى حيث تحتوي كلّ سورة على معارف خاصّة بها بالإضافة إلى اشتمالها على المسائل والموضوعات الموجودة في السّور الأخرى، ومَثلها في التميّز والتنوّع كمَثل الأسماء الحسنى كذلك من حيث ظهور النتائج وخفائها وسرّها وعَلَنها، ولهذا فإنّ تلخيص السورة يُعدّ أمراً عسيراً للغاية.

ثانياً: مثلما أنّ أسماء الله الحسنى لا يشبه بعضها بعضاً من حيث العظمة كذلك هي معارف السّور القرآنية حيث لا تتساوى فيما بينها من حيث المهمّ والأهمّ.

ثالثاً: في ختام تفسيرنا لسورة (البقرة) يمكننا إيجاز مضامينها السامية من خلال النقاط التالية:

١ . تُعتبر آية الكُرسيّ من غُرَر آيات هذه السورة حيث سُميت **(سيّدة آي القرآن)** وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في هذا المجلد.

٢ . من أبرز الآيات التي تتضمّنها سورة (البقرة) وأهمّها والتي لا يوجد مَثيل لها في أيّة سورة أخرى هي الآيات التي تشير إلى حديث الله سبحانه مع الملائكة حول خَلق الإنسان (آدم عليه السلام) وسؤالهم واستفسارهم بشأن تفاصيل



هذا الموضوع وجواب الله ﷻ الدّقيق على تلك الأسئلة، ثمّ سجود الملائكة لآدَم ﷺ بأمر البارئ تعالى وتعليم آدَم ﷺ الأسماءَ كلّها والطلب من الملائكة بالإنباء عن تلك الأسماء وإظهارهم العَجز عن معرفتها باعتبارها مُعجزة من مُعجزات الله سبحانه وعظمته، وبالتالي صدور أمر الله ﷻ إلى آدَم ﷺ بتعريف الملائكة (وليس تعليمهم) بالأسماء التي عَلّمه الله سبحانه إيّاها وبيان الله تعالى للملائكة أنّه يعلم غَيب السموات والأرض ويعلم ما يُظهرون وما يكتمون.

لا شكّ في أنّ تحليل هذه العلوم والمعارف وتفسيرها يُعدّ واحداً من الخصائص التي تنفرد بها هذه السورة المباركة عن غيرها من السّوَر.

٣. وأمّا الحَدث المهمّ الآخر الذي تناولته سورة (البقرة) والذي لم يأتِ ذكره في أيّ سورة أخرى، فهو موضوع خلافة آدَم ﷺ في الأرض، أي المنزلة الإنسانية المتمثّلة بالإنسان الكامل بالنسبة إلى الله سبحانه، وكما هو معلوم فإنّ الخلافة هي مقولة تشكيكية وكلّ إنسان يمكن اعتباره خليفة لله ﷻ بما يتناسب وهويّته التي يمتلكها من المنزلة الإنسانية الرفيعة.

وهكذا، فإنّه يمكننا استنباط النقاط التالية من العنوانيْن الرئيسيّيْن اللذين تضمّنتهما سورة (البقرة) وهما: تعليم الأسماء وخلافة الإنسان:

أ) إنّ الإنسان يتمتّع بالكرامة الفطرية: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[1] وهو بذلك يستثمر كرامته الأخلاقية والقِيمية بإيحاء من تقواه المُستلهمَة: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[2].

ب) إنّ مصدر كرامة الإنسان الفطرية نابعٌ من خلافته لله سبحانه وتعالى، أي، بما أنّه كريم يحظى بالكرامة لكونه خليفة الله الكريم والقائم مقامه.

---

١ . سورة الإسراء، الآية ٧٠.

٢ . سورة الحجرات، الآية ١٣.

ج) تعود هذه الحيثية التعليلية إلى الحيثية التقييدية بواسطة التحليل العقليّ، بمعنى، أنّ سَبب كرامة الإنسان هو خلافته، والحقيقة أنّ الخلافة هي المَعنيّة بالكرامة والخلافة لا تكون إلّا بالكرامة، ثمّ إنّ الإنسان لا يكون مُكرّماً بسبب الخلافة فقط، بل إنّ الخليفة كريم بما هو خليفة. وبناءً على ذلك، فإنّ الشخص الذي يعجز عن المحافظة على الخلافة الممنوحة له في إطار الفكر الأصيل والدّافع المخلص، ليس بخليفة إطلاقاً ولأنّه لم يَعُد خليفة فإنّه لا يمتلك ذرّة واحدة من الكرامة. إذاً، فالخلافة ليست واسطة في عروض الكرامة ولا هي واسطة في ثبوتها لأنّ الحديث هنا لا يدور حول الوساطة أبداً، بل وعَبر إرجاع التعليل إلى التقييد فإنّ الخلافة بالنسبة إلى الإنسان تُعتبر بمثابة مُقوّم، إذ لولا الخلافة لكان الإنسان يفقد الكرامة بل استبدالها بالحيوانية والشيطنة: ﴿**إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾[1]؛ ﴿**شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ**﴾[2].

د) إنّ معيار الخلافة هو أن يكون الخليفة مظهر المُستخلَف عنه وأن يتعلّم علومه ويُصدّق أوامره ويتخلّق بخُلُقه ويعمل وفقاً لتعاليمه ثمّ ينشر ذلك كلّه ويروّج له؛ وأمّا الشخص الذي يدّعي خلافة الله لكنّه كان مِمّن ﴿**فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ**﴾[3] و﴿**بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ**﴾[4] وكان كالّذي ﴿**اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً**﴾[5] وسقط في مستنقع مَن ﴿**أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ**﴾[6] فلا شكّ في أنّ مثل هذا

---

١ . سورة الفرقان، الآية ٤٤.

٢ . سورة الأنعام، الآية ١١٢.

٣ . سورة غافر، الآية ٨٣.

٤ . سورة البقرة، الآية ٨٧.

٥ . سورة الجاثية، الآية ٢٣.

٦ . سورة آل عمران، الآية ١٥٤.



الإنسان الفاسد يُعتبر للخلافة غاصباً وللكرامة مُصادراً وللإنسانية سارقاً، ومثل هذا الشخص لا يتوانى عن سَلب الإنسانية التي سجد لها ملائكة الله سبحانه ليتحوّل بعدها إلى قاسط لا يستحقّ مكاناً ولا تَليق به منزلة سوى جهنّم وبئس المصير رغم كلّ دعواته الباطلة وادّعاءاته السافرة: ﴿**وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا**﴾[1]. إذاً، فليس الخليفة إلّا مَن تقيّد أوّلاً وقبل كلّ شيء بقوانين الخلافة وقواعدها لا أن يكون مُعلّلاً بها، وثانياً أن يكون العلم الصّائِب والعمل الصّالِح من عناصر هويّته الرئيسية، وثالثاً أن يستند عمله الصالح إلى عِلمه الصائب ويكون هذا الأخير مظلّة لعمله الصالح، ورابعاً أن يكون عِلمه مستنداً إلى تعليم الأسماء الإلهيّة، وخامساً أن يكون شهوده متمثّلاً في الاعتقاد بأنّ أسماء الله تعالى محيطة بالعالم كلّه: «**وَبِأَسْمائِكَ الّتي مَلَأَتْ أَرْكانَ كُلِّ شَيْء**»[2]، وسادساً أن يعترف بأنّ الأسماء الإلهية التي هي حقائق عَينية وليست مفاهيم ذهنية، تُمثّل الأمور الداخلة في الأشياء دون ملابَسة والبعيدة عنها من غير مُباينة، وسابعاً أنّه ما مِن شبيه ولا مَثيل لذات الله ﷻ المقدّسة البسيطة الحقيقة وغير المحدودة.

هـ) لا شكّ في أنّ سَعَةَ الخلافة وضيقها مرهونان بسِعَة وجود الخليفة نفسه وليس بالإطلاق الذاتيّ للمُستَخلَف عنه. ولمّا كان الإنسان هو خليفة الله سبحانه وكان هذا الإنسان عبارة عن موجود ممكن ومحدود، فإنّ خلافته كذلك هي خلافة محدودة وإن المُستَخلَف عنه (الله تعالى) غير محدود، مثل كون المحدود آية لغير المحدود ما يعني بالتالي قدرة الآية المحدودة.

---

١ . سورة الجنّ، الآية ١٥.

٢ . المصباح في الأدعية؛ ص٧٣٧؛ مفاتيح الجنان، دعاء كُميل بن زياد.

و) إنّ العناصر أو المقوّمات المحورية للخلافة معلومة وواضحة رغم أنّ البعض يفتقد لقسم من تلك العناصر بينما يمتلك البعض الآخر كلّ تلك المقوّمات، وهناك قلّة قليلة من أفراد البشر يمتلكون العناصر والمقوّمات بشكل كامل. وتجدر الإشارة إلى أنّ العناصر المذكورة ليست متساوية ولا متشابهة إذ إنّ بعضها يتّصف بالميزة العلمية لكنّ بعضها الآخر موصوف بالعَملية وإن تعذّر بلوغ العناصر العملية من دون وجود العناصر العلمية.

هذا، ولا يمكن العثور على العنصر العلميّ لخلافة الإنسان إلّا في الحَدث المهمّ المتمثّل بتعليم الأسماء الحسنى وتعلّمها ثمّ إنباء الملائكة بها، فقد تعرّف الملائكة على أسماء الله الحسنى بواسطة خليفته في إطار الإنباء وليس التعليم، وأمّا النوع الآخر من أنموذج الخلافة العلمية للإنسان الكامل فيتمثّل في تعليم المجتمع الإنسانيّ الكتاب والحكمة. فرغم أنّ الله ﷻ قد أشارَ في الكثير من الآيات القرآنية إلى أنّه تعالى هو المُعَلِّم الأوّل والأخير للإنسان: ﴿**عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[1] إلّا أنّ تعليمه سبحانه مُتحقّق من الناحية التشريعية فضلاً عن الناحية التكوينية في الفطرة والإلهام المتعلّقيْن بالتّقوى والفجور، أمّا خلفاء الله ﷻ في تعليم أفراد البشر دون واسطة فهم الأنبياء عليهم السلام.

وفيما يخصّ العنصر العمليّ لخلافة الإنسان من حيث التأسيس والإيجاد والضمان والإعمار فينبغي البحث عنه في الشؤون الدنيوية والأُخروية المختلفة إذ تمّ تناول هذا الموضوع من خلال قوله تعالى: ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾[2]. وتُعتبر لفظة «الاستعمار» أفضل إنجاز في أدب القرآن على الإطلاق، ولكن، ممّا يُؤسَف له، أنّه فُسّرت هذه الكلمة بالإغارة حتى تلاشى

---

١ . سورة العلق، الآية ٥.

٢ . سورة هود عليه السلام، الآية ٦١.



المعنى الأصليّ لها تدريجياً، فقد خلق الله سبحانه السموات والأرض بعناية فائقة ووهب للإنسان كلّ القدرات العلمية والطاقات العملية التي تمكّنه من الحصول على الثّروات واستخراج المعادن وما شابه ذلك لكي يُنقذه من الحاجة ويخلّصه من الفقر ويمنحه القدرة والغِنى ويحرّره من قيود العُبودية فيعيش حرّاً مُستقلّاً، وبالتالي لا يكون محتاجاً إلّا إلى الله تعالى وحده وذلك من خلال إعماره الأرض والاستفادة من خيراتها والانتفاع بثرواتها؛ هذا هو المقصود بالضّبط من تمكين الله ﷻ الإنسانَ في استعمار الأرض وليس الاستعمار بالمعنى الذي ينشده المستكبرون الذين يستغلّون الطبقات المحرومة من المجتمع ويسخّرونها لتحقيق أهدافهم الشخصيّة وميولهم النفسانية ومآربهم الدنيئة لاستثمار المنابع والمعادن الطبيعية بأبشع الصّور والإبقاء على تلك الطبقات من الناس كوسائل وأدوات لتحقيق أغراضهم الفردية ومصالحهم الشخصيّة.

ويتجلّى ظهور العنصر العمليّ في خلافة الإنسان في هذه الدنيا كذلك في إنشاء المراكز الثقافية وتعمير مساجد الله والمحافظة على الكعبة المشرّفة والأماكن المقدّسة الأخرى وما شابه ذلك إلى جانب الإعمار الشامل للأرض وتلبية حاجات المجتمعات الإنسانية في المجالات الصناعية المتعدّدة وغيرها.

وثمّة نقطة هامّة أخرى يتضمّنها العنصر العمليّ لخلافة الإنسان تتمثّل في كون هذا الأخير يُعتبر خليفة الله سبحانه في بناء الجنّة وإنشائها لأنّ الغُرف التي يتمّ بناؤها فيها والحدائق والجِنان والأنهار والعيون وكلّ النِّعَم المعروفة وغير المعروفة التي يُراد إيجادها في تلك الجنّة لا تَليق إلّا بذلك العالَم. وأمّا أهمّ ما يمكن استنباطه من صُورٍ وأحداثٍ ومشاهد خلال رحلة خاتم النبيّين ﷺ في ليلة المعراج، فهو أنّ الملائكة هم مِعمارو القصور الفردوسيّة وبُناتُها، أمّا مواد البناء والموادّ الإنشائية الأخرى فيقوم بتهيأتها وتجهيزها الأفراد الصالحون من

أصحاب العقيدة الصحيحة والخُلُق العظيم والعَمل الصّالح؛ إذاً، فإنّ مجال خلافة الإنسان يتجاوز كلّ الحدود ليشمل الدّنيا والآخرة والملائكة ومَعشر الجنّ والإنس على حدّ سواء.

ويمكننا استشفاف هذه المعارف السامية في مقام الخلافة الإلهيّة المَنيع حيث تُمثّل آية الخلافة في سورة (البقرة) السّند والوثيقة على ذلك، أي إنّه بالإمكان ملاحظة أصل خلافة الإنسان ومبدأها وكونه مُعلّماً للملائكة وبالتالي سجود هؤلاء كلّهم له.

ولا يخفى أنّ هذه السورة المباركة لم تتجاهل الإشارة كذلك إلى بعض الأمثلة حول خلافة الإنسان فيما يتعلّق بإحياء الموتى من البشر أو الحيوان، كما رأينا ذلك في حادثة إحياء المقتول من بَني إسرائيل بواسطة قطعة من جسم البقرة **﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾**[1] والتي أُمِروا بذَبحها **﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾**[2]، أو إحياء الطيور الأربعة على يَد خليل الله إبراهيم عليه السلام، فيما تناولت السّور القرآنية الأخرى مشاهد من المُعجزات التي وقعت على يَد السيّد المسيح عليه السلام.

وتطرّقت سورة (البقرة) أيضاً إلى قصّة هبوط المَلَكيْن (هاروت) و(ماروت) إلى الأرض بينما ورد ذِكر صعود سيّدنا إدريس والمسيح عليهما السلام إلى السّماء ـ بالاستناد إلى بعض التفاسير ـ في سُوَر غيرها.

٤. ومن المسائل الهامّة الأخرى التي تشتمل عليها سورة (البقرة) كذلك هي بيان بعض العلوم القرآنية مثل كون القرآن الكريم مُعجزة عظيمة رغم أنّ السّور الأخرى لا تخلو من جوانب الإعجاز أبداً، بالإضافة إلى تحدّي القرآن الكريم للجنّ والإنس بالإتيان ولو بسورة واحدة من مثله وعَجزهم جميعاً عن

---

١ . سورة البقرة، الآية ٧٣.

٢ . سورة البقرة، الآية ٧١.



فعل ذلك ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً[١]؛ إلّا أنّ ذلك لا يُمثّل بالطّبع النّهج العامّ للقرآن الكريم، أي إنّ سُوَر القرآن الكريم لا تحتوي جميعها على العلوم القرآنية وهي لا تتناول دون استثناء مسألة الإعجاز أو المُعجزة بالنسبة إلى القرآن الكريم بشكل خاصّ، بل إنّ سُوَراً مُعيّنة منه فقط هي التي تعهّدت بالإشارة إلى العلوم القرآنية بينما اقتصرت بعض سُوَره الأخرى على التحدّث حول موضوع الإعجاز القرآنيّ ومسألة تحدّيه وعَجز الجنّ والإنس عن المجيء بمِثل ما جاء به القرآن الكريم.

وأخيراً وليس آخراً، نقول إنّ الآيتيْن الشريفتيْن التاليتَيْن في سورة (البقرة) هما أبلغ نموذج لبيان هذه المسائل الحسّاسة بشكل واضح وجَليّ: **﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾**[٢].

* * *

١ . ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (سورة الإسراء، الآية ٨٨). [المترجم]

٢ . سورة البقرة، الآيتان ٢٣ و ٢٤.